الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

«استثنائية... مسلية، ومخيفة»

لعبة الأسد

رواية

المؤلف الذي تحتل كتبه المراتب الأولى على قوائم «نيويورك تايمز»

مؤلف «ابنة الجنرال» و«كارثة الليل»

نيلسون ديميل
Nelson DeMille

لعبة الأسد

رواية

نيلسون ديميل

ترجمة
رشا جمال

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Lion's Game
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Warner Books
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم – ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © by Nelson DeMille
All rights reserved

Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ISBN: 978-614-421-142-7

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

لتنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

كلمة المؤلف

إن وحدة مكافحة الإرهاب (ATTF) الخيالية التي أقدّمها في هذه الرواية إنما تستند إلى لجنة العمل الإرهابي المشتركة (JTTF) الحقيقية، بيد أنني عمدت إلى استخدام بعض التجاوزات الدرامية والإجازة الأدبية متى كان هذا ضرورياً.

تتألف وحدة مكافحة الإرهاب من مجموعة من الرجال والنساء؛ وهم دؤوبون، ومكرسون، وواسعو الاطلاع، يعملون في الصفوف الأمامية في الحرب ضد الإرهاب في أميركا.

إنّ شخصيات هذه الرواية هي شخصيات من محض الخيال على نحو تام، وإن كانت بعض أعمال هيئات تنفيذ القانون - كما جرى تصويرها - تستند إلى وقائع، كما هو الحال في القصف الجوي في العام 1986.

الكتاب الأول

الفصل الأول

قد تظن أن من شأن الشخص الذي أصيب بالرصاص ثلاث مرات، وأوشك أن يصبح متبرعاً بالأعضاء، أن يتجنب المخاطر طوال أيامه الآتية. لكن، ليس الأمر كذلك بالنسبة لي، فيبدو أن لدي أمنية في اللاوعي تدفعني لأكون مختلفاً في صفاتي الوراثية عن تلك التي يتشاركها الجميع، أو شيء من هذا القبيل.

على كل حال، أنا جون كوري، كنت أعمل في قسم التحقيق في جرائم القتل لدى مديرية شرطة نيويورك، والآن أعمل كعميل خاص في وحدة مكافحة الإرهاب الفيدرالية. كنت جالساً على المقعد الخلفي في سيّارة أجرةٍ صفراء، وفي طريقي من 26 فيدرال بلازا، مانهاتن السفلى، متوجهاً إلى مطار جون كنيدي الدولي، وكان سائقاً باكستانياً انتحارياً يجلس خلف عجلة قيادة السيارة.

كان يوماً ربيعياً لطيفاً، يوم سبت، والازدحام معتدلاً على طريق شاطئ باركواي، والذي يعرف أحياناً باسم حزام باركواي، لقد أعيدت تسميته مؤخراً باسم باو/ميا باركواي، تجنباً للخطأ. كنا في وقت متأخر من العصر، والنوارس الآتية من موقع قريب لمطمر النفايات - كان يعرف في ما سبق بمقلب القمامة - تتغوط على الزجاج الأمامي لسيارة الأجرة. كم أحب الربيع!

لم أكن أقصد المطار للشروع في قضاء عطلة أو شيء من هذا القبيل؛ بل كنت ألبي نداء عملي في وحدة مكافحة الإرهاب الفيدرالية آنفة الذكر. إنها منظمة لا يعرف الكثيرون عنها أو عن وجودها، وهذا أمر جيد. تنقسم هذه الوحدة إلى عدة أقسام، يعنى كل منها بمجموعة بعينها من مثيري الشغب ومفجري القنابل، مثل الجيش الجمهوري الإيرلندي، وحركة الاستقلال في بورتوريكو، والراديكاليين السود، ومجموعات أخرى لا أسماء لها. أما أنا فأعمل في القسم الخاص بالشرق الأوسط، وهو أكبر الأقسام وقد يكون أهمها على الإطلاق، رغم أنني للأمانة لا أعرف الكثير عن إرهابيي الشرق الأوسط، ولكن من المفترض أن أتعلم في هذا العمل.

وكنوع من ممارسة مهاراتي، شرعت في محادثة الرجل الباكستاني وكان اسمه فاصد. كان حدسي يشير إلى أنه إرهابي، بالرغم من أنه بدا في مظهره وحديثه كرجل عادي. سألته "من أين أنت؟"

"من إسلام آباد، العاصمة".

"حقاً؟ ومنذ متى وأنت هنا؟"

"منذ عشر سنوات".

"هل تحب المكان هنا؟"

"بالطبع أحبه، ومن لا يحبه؟"

"حسناً، زوج أختي السابق، واسمه غاري، لم يكن يحب هذا البلد، وغالباً ما يذكر أميركا بالسوء، بل ويرغب في الانتقال إلى نيوزيلندا".

"لدي عم يعيش في نيوزيلندا".

"أتمزح؟ هل بقي أحد في إسلام آباد؟!"

ضحك الرجل ثم سألني "لعلك ذاهب إلى المطار لاستقبال أحد ما؟"

"لماذا تسأل؟"

"لأنك لا تحمل أمتعة".

"ها، أنت رجل ذكي".

"إذا كنت ستقابل أحدهم إذاً؟ فبوسعي أن أتسكع في الجوار، ثم أعيدك إلى المدينة".

كان فاصد يتقن الإنكليزية بشكل جيد جداً؛ بلغتها العاميّة، وتعابيرها. أجبته قائلاً "هناك من سيقلني في طريق العودة".

"أمتأكد؟ أستطيع البقاء في الجوار".

في الحقيقة، كنت ذاهباً إلى هناك لاستقبال إرهابي مُرتدّ، كان قد سلّم نفسه للسفارة الأميركية في باريس، غير أنني رأيت أنه من غير الضروري مشاركة فاصد في هذه المعلومة، فسألته "هل أنت من مشجعي فريق اليانكيز؟"

"كنت كذلك في السابق". ثم استرسل في سيل من الشتائم ضد ستتينبرينر، واستاد اليانكيز، وأسعار التذاكر، ورواتب اللاعبين، وما إلى ذلك. كم هم أذكياء هؤلاء الإرهابيون، فهم يتحدثون كمواطنين أوفياء بحق.

على أي حال، استطعت أن أصرف الرجل عن ذاك الأمر، وشرعت أفكّر كيف آل بي المآل إلى هنا. فكما ذكرت، كنت محققاً جنائياً، بل واحداً من أفضل المحققين الجنائيين في نيويورك على الإطلاق، إذا صح القول. ففي مثل هذا الشهر منذ عام مضى، تورطت في إطلاق للنار مع رجلين من الهسبانيين في الشارع 102 الغربي؛ ربما كان الأمر مجرد خطأ في تحديد الهوية، أو رياضة لإطلاق النيران، حيث لم يكن ثمة سبب يدعو إلى هجوم متعمد. أحياناً تكون الحياة مضحكة بحق. على أي حال، هرب الرجلان، ولك أن تتوقع أنني ما زلت أنتظر ظهورهما أو العثور عليهما.

بعد تلك التجربة التي أوشكت فيها على الموت، ولدى خروجي من المستشفى، قبلت عرض عمي هاري للبقاء في منزله الصيفي في لونغ أيلاند حتى أتعافى. يقع المنزل على بعد قرابة مئة ميل من الشارع 102 الغربي، وكان هذا جيًّدا بالنسبة لي. كنت هناك، على أي حال، حين اضطلعت بقضية قتلٍ مزدوجة لزوج وزوجته، ووقعت في الحب مرتين، وكدت أُقتل. ويمكن القول إن إحدى المرأتين اللتين عشقتهما، واسمها بيث بينروز، ما زالت في حياتي على نحو ما.

بينما كان هذا يجري في لونغ أيلاند الشرقية، كان طلاقي قد أصبح نهائياً. وكما لو أن فترة استجمامي تلك لم تكن سيئة بما يكفي، فلقد حدث أن تعرفت مهنياً - في جناية مزدوجة - على مغفل يدعى تيد ناش، من وكالة الاستخبارات المركزية، واجتاحتني كراهية شديدة تجاهه، ولم يكن مقته لي أقل وطأة، والمفاجأة أنه الآن عضو في وحدة مكافحة الإرهاب الفيدرالية نفسها التي أعمل بها. عالم صغير، لكنه ليس بهذا الصغر، وأنا لا أعتقد بالصدفة.

كما كان هناك رجل آخر مضطلع بتلك الجريمة، واسمه جورج فوستر؛ وهو عميل من مكتب التحقيقات الفيدرالية. كان رجلاً جيداً، ولكنه أيضاً ليس من النوع الذي أفضله.

على أي حال، اتضح أن جريمة القتل المزدوجة تلك لم تكن قضية فيدرالية، واختفى كل من ناش وفوستر ليعاودا الظهور في حياتي مرة أخرى منذ نحو أربعة أسابيع مضت، لدى التحاقي بقسم الشرق الأوسط في وحدة مكافحة الإرهاب الفيدرالية. ولكن ما من مشكلة، فلقد تقدمت بطلب لنقلي إلى قسم الجيش الجمهوري الإيرلندي، وأظنني سأنتقل بالفعل. ليس لأن لدي ميلاً حقيقيًّا نحو الجيش الجمهوري الإيرلندي - ولكن على الأقل يمكن النظر إلى فتياتهم - ولكن لأنّ أعضاء الجيش الجمهوري رجال مسلُون أكثر من معظم الإرهابيين، والحانات الإيرلندية هي الأفضل على الإطلاق. أظنني سأحسن صنعاً في قسم مكافحة الجيش الجمهوري الإيرلندي. حقاً أظن ذلك.

على أي حال، بعد كل هذه الفوضى في لونغ أيلاند، خُيِّرت بين المثول أمام الوحدة التأديبية لمديرية شرطة نيويورك لقيامي بوظيفتين، أو شيء من هذا القبيل، أو أن أكون مصاباً بعجز ثلاثي ومن ثم أترك عملي، فاخترت العجز الثلاثي. لكنني تفاوضت في الوقت ذاته بشأن عمل في كلية جون جاي للعدالة الجنائية في مانهاتن، حيث أعيش. وبما أنني كنت قد درست فصلاً دراسياً بالفعل في جون جاي كأستاذ مساعد قبل إصابتي بالرصاص، وحيث إنني لم أطلب الكثير، فلقد حصلت على الوظيفة.

هكذا، بدءاً من يناير، كنت أقوم بالتدريس في فصلين دراسيين ليليين في كلية جون جاي، وكاد السأم يفقدني صوابي، فأخبرني شريكي السابق، دوم فانيلي، عن برنامج العميل الخاص هذا مع الفيدراليين، حيث يقومون بتشغيل من لديهم خبرة سابقة في هيئات تطبيق القانون، وذلك للعمل لدى وحدة مكافحة الإرهاب الفيدرالية، فتقدمت، وقُبلت، ربما لكل الأسباب الخاطئة، وها أنا ذا. الأجر جيد، والفوائد والمزايا لا بأس بها، والفيدراليون في الغالب حمقى، ويبدو أنني أعاني من هذه المشكلة مع الفيدراليين، شأني في هذا شأن كافة رجال الشرطة، ولا أظن أن تدريب الحساسية بذي جدوى هنا.

لكنّ العمل يبدو مثيراً، بل ويمكنني القول إن وحدة مكافحة الإرهاب هذه هي مجموعة فريدة ومتألقة - بالرغم من الحمقى - تتواجد فقط في مدينة نيويورك وما حولها، وهي تتألف في الغالب من مخبري مديرية شرطة نيويورك، وهم رجال رائعون حقاً، وآخرين من مكتب التحقيقات الفيدرالية، وبعض أشباه المدنيين أمثالي ممن يتم تعيينهم لاستكمال الفرق. في بعض الفرق، إذا ما استدعت الحاجة، يتم

ضم أعضاء من أفضل رجال وكالة الاستخبارات المركزية، وكذلك أناس من إدارة مراقبة العقاقير والمواد المخدرة ممن يعرفون عملهم بحق، ويدركون الروابط بين تجارة المخدرات وعالم الإرهاب.

تضم فرق اللاعبين الأخرى أفراداً من مكتب الكحول والتبغ والأسلحة النارية والمتفجرات، في واكو بولاية تكساس الشهيرة، بالإضافة إلى رجال شرطة من المقاطعات المدنية المحيطة، وشرطة ولاية نيويورك. كما أن هناك نماذج فيدرالية أخرى من وكالات ليس بوسعي ذكرها، وأخيراً وليس آخر، لدينا البعض من مخبري هيئة الموانئ ممن تم ضمهم إلى بعض الفرق. إنهم رجال مفيدون جداً في المطارات، ومحطات الحافلات، والقطارات، وموانئ السفن، وبعض الجسور والأنفاق تحت سيطرتهم، بالإضافة إلى العديد من الأماكن الأخرى التي تمتد إليها إمبراطوريتهم الصغيرة، مثل مركز التجارة العالمي. نحن نقوم بتغطيتها جميعاً بشكل جيد. وحتى إن لم نكن كذلك، فلا يزال الأمر يبدو رائعاً بحق.

كانت وحدة مكافحة الإرهاب إحدى مجموعات التحقيق الرئيسية في تفجيرات مركز التجارة العالمي وتفجيرات الرحلة تي دبليو أيه 800. لكن أحياناً ما تكون البداية لنا؛ فمثلاً، أرسلنا فريقاً للمساعدة في التحقيق في تفجير السفارة الأميركية في أفريقيا، بالرغم من أنه قلما ذكر اسم وحدة مكافحة الإرهاب في الأخبار حول هذا الشأن، وهو ما يروق لهم. إلا أن هذا سابق على وقت التحاقي بهم، ومنذ ذلك الحين والأوضاع هادئة، وهو ما يروق لي.

بالمناسبة، إن السبب وراء قرار الفيدراليين العظام أن ينضموا إلى مديرية شرطة نيويورك، فيكوّنوا وحدة مكافحة الإرهاب، هو أن أفراد مكتب التحقيقات الفيدرالية ليسوا من نيويورك، ولا يعرفون الفرق بين شطيرة البسطرما وشارع جادة ليكسنغتون الجانبي. أما رجال وكالة الاستخبارات المركزية فهم أكثر سطحية؛ يتحدثون عن مقاهي براجوي، والقطار الليلي في اسطنبول، وكل هذا الهراء، وبالقطع نيويورك ليست مكانهم المفضل. لدى مديرية شرطة نيويورك رجال حذقون، يتقنون فن البقاء في شوارع المدينة، وهذا هو ما تحتاجه لتعقب عبد السلام-سلام، وبادي أوباد، وفيفا بيدرو بورتوريكو، وغيرهم.

عادة ما يكون الفيدراليون من ويندل واسب، ويتفيلد الغربية، بولاية آيوا، بينما لدى مديرية شرطة نيويورك العديد من الهسبانيين، والكثير من السود، والملايين من الإيرلنديين، وحتى بعض المسلمين الآن، وهذا هو التنوع الثقافي في القوة الواحدة؛ وهو الأمر الرائع والصحيح سياسياً، بل والمفيد والمؤثر كذلك. وعندما تخفق وحدة مكافحة الإرهاب في سرقة الأفراد العاملين بالفعل في مديرية شرطة نيويورك، فإنهم يعمدون إلى تشغيل بعض رجال المديرية السابقين، كما هو حالي. فبالرغم مما يسمونه بالعجز الذي أصابني، فأنا مسلح، وخطر، ولا أخلو من زلاقة اللسان. وهكذا جرى الأمر.

كنا نقترب من مطار جون كنيدي، فقلت لفاصد "قل لي إذاً، ماذا فعلت في ذكرى الفصح؟"

"ذكرى الفصح؟ أنا لا أحتفل بالفصح، فأنا مسلم".

أرأيت الذكاء؟ كان الفيدراليون ليخضعوا هذا الرجل لأشد أنواع التعذيب لساعة كاملة حتى يرغموه على الاعتراف بأنه مسلم، وها أنا قد استخرجت ذلك منه في ثانيتين. بالطبع أمزح، ولكنه أمر حقيقي أنه يجب عليّ الانتقال من قسم الشرق الأوسط إلى قسم الجيش الجمهوري الإيرلندي، فأنا نصف إيرلندي ونصف إنكليزي، وبوسعي اللعب على جانبي هذا الطريق.

غادر فاصد طريق حزام باو/ميا باركواي، واتخذ طريق فان وايك السريع متوجهاً جنوباً نحو مطار كنيدي. بدت تلك الطائرات الضخمة وكأنها تسبح فوق رؤوسنا محدثة جلبة شديدة، فصاح فاصد يسألني "إلى أين أنت ذاهب؟"

"صالات الوصول الدولية".

"أي شركة طيران تقصد؟"

"أهناك الكثير منها؟"

"بالطبع، هناك عشرون، أو ثلاثون، وربما أربعون".

"أتمزح؟ هيا، اهتم فقط بقيادة السيارة".

هزّ فاصد كتفيه باستهجانٍ، تماماً كسائق سيارة أجرة إسرائيلي، وبدأت بالفعل أفكر أنه ربما يكون عميلاً للموساد يتظاهر بكونه باكستانيًّا، أو ربما يكون هذا العمل قد بدأ يفقدني صوابي.

كانت هناك كل هذه العلامات الملونة والمرقمة على طول الطريق السريع، وتركت الرجل يقود حتى صالات الوصول الدولية، بهياكلها الضخمة الحافلة بشعارات خطوط الطيران، الواحد تلو الآخر على المقدمة، ثم سألني مرة أخرى "أي خطوط تقصد؟"

"لم يعجبني أي منها. استمر في التقدم".

استهجن فاصد ثانية.

وجّهته إلى طريق آخر بحيث أصبحنا على الجانب الآخر من المطار الضخم، وهي حيلة جيدة لمعرفة ما إذا كان هناك من يتبعك. تعلمت هذا من روايات الجاسوسية التي قرأتها، أو ربما من أفلام جيمس بوند؛ كنت بالفعل أحاول الدخول في موضوع مكافحة الإرهاب ذاك.

وجّهت فاصد نحو الاتجاه الصحيح، ثم طلبت منه أن يتوقف أمام مبنى مكاتب كبير يقع على الجانب الغربي من مطار كنيدي، يتم استخدامه لهذا الغرض أو ذاك، حيث المنطقة بأسرها تعج بمبانٍ ومخازن خدمية تابعة للمطار، إلا أنه ليس بها ما يميزها، وما من أحد يراقب الداخلين إليها أو الخارجين منها، بالإضافة إلى سهولة التوقف بالسيارة. دفعت للرجل المبلغ الذي طلبه، وزدت عليه، وطلبت منه إيصالاً بالمبلغ المضبوط. فالأمانة هي إحدى نقائصي القليلة.

ناولني فاصد مجموعة من الإيصالات الفارغة، وسألني ثانية "أتريدني أن أبقى في الجوار؟"

"لم أكن لأفعل لو كنت مكانك".

دخلت ردهة المبنى؛ وهو بقايا من الهندسة المعمارية الحديثة تعود إلى ستينيات القرن العشرين، وبدلاً من وجود حارس مسلح برشاش - مثل كافة الحراس الفيدراليين حول العالم - لم يكن هناك سوى لافتة كُتب عليها ***يمنع الدخول إلا للموظفين المخولين فقط***. فإذا افترضنا أنك تستطيع قراءة الإنكليزية، فبوسعك إذاً أن تعرف ما إذا كان مُرحباً بك هنا أم لا.

صعدت الدرجات، ثم عبرت رواقاً اصطفت على جانبيه الأبواب الرمادية الفولاذية، بعضها يحمل إشارات، وبعضها الآخر يحمل أرقاماً، وغيرها دون هذا أو ذاك. وفي نهاية الرواق، كان هناك باب يحمل إشارة باللونين الأبيض والأزرق، كُتب عليها *نادي الفاتحين - خاص للأعضاء فقط*.

بجوار الباب كان الماسح الضوئي الإلكتروني لبطاقة الهوية، ولكنه كان مزيفاً، شأنه شأن كل الأشياء في نادي الفاتحين. كل ما كان عليّ فعله هو الضغط بإبهام يدي اليمنى على الوجه الشفاف للماسح الضوئي، وهكذا فعلت. وبعد نحو ثانيتين كان جني الباب الإلكتروني يقول لنفسه "ها... إنه إبهام جون كوري، فلنفتح الباب لجون".

هل انفتح الباب بعد ذلك؟ كلا، بل فقط *انزلق* إلى داخل الحائط في انفراجة لا تزيد عن مساحة مقبضه الوهمي. يا الله، هل أنا بحاجة إلى هذا الهراء بحق؟

هناك أيضاً الماسح الضوئي الفوقي في حال أفسدت الشوكولاته بصمة إبهامك أو شيء من هذا القبيل، وقد يفتحون الباب على الفور إذا ما تعرفوا على وجهك، غير أنهم في حالتي قد يجرون استثناءً.

هكذا دلفت إلى الداخل، وانغلق الباب من خلفي آلياً، وأصبحت واقفاً في ما بدا لي كمنطقة استقبال في نادي مسافري إحدى شركات الطيران. بالتأكيد تتساءل مثلي

عن سبب وجود مثل هذا النادي في مبنى لا يُعد قريباً بأي حال من أي صالة للمسافرين، وأنا مثلك ما زلت أنتظر التفسير. بيد أنني أعرفه، وهو أنه حيثما وُجدت ثقافة وكالة الاستخبارات المركزية، فإنك تصطدم بمثل هذه التفاهات والسخافات. فهؤلاء المهرجون يهدرون الوقت والمال على المظاهر، تماماً مثلما كانوا يفعلون في الماضي عندما كانوا يحاولون إثارة دهشة الكيه جي بي. والحق يقال، كل ما كان يحتاجه هذا الباب هو لافتة تشير إلى أنه *ممنوع الدخول*.

على أي حال، خلف المكتب الأمامي كانت تجلس نانسي تايت، موظفة الاستقبال، وهي من النوع المادي المغرم بالمال، ونموذجٌ للكفاءة في العمل والكبت الجنسي، وما إلى ذلك. وكانت معجبة بي لسبب ما، فحيتني بمرحٍ وهي تقول "مساء الخير سيد كوري".

"مساء الخير آنسة تايت".

"لقد وصل الجميع".

"لقد أخرتني زحمة المرور".

"بل لقد وصلت قبل الموعد بعشر دقائق".

"حقاً؟"

"ربطة عنقك جميلة".

"لقد انتزعتها من بلغاري متوفى بينما كنت أستقل قطار الليل في اسطنبول".

فضحكت نانسي تايت.

كانت صالة الاستقبال تلك تعج بالمصنوعات الجلدية والخشبية الدائرية الشكل، وسجادة من القطيفة الزرقاء الفاخرة، والعديد من هذه الأشياء. وعلى الجدار خلف نانسي مباشرة كان هناك شعارٌ آخر لنادي الفاتحين الوهمي ذاك. وبالنسبة لي، كانت الآنسة تايت أشبه بالهولوغرام[1].

على يسار الآنسة تايت كان يوجد مدخل كتب عليه *قاعة العمل والاجتماعات*، والتي في الحقيقة كانت تفضي إلى غرف الاستجواب والزّنزانات، والتي أظنها أجدر بتلك التسمية. أما على يمينها، فكانت لافتة كُتب

عليها *غرفة الجلوس والمشروبات*، ويبدو أنني محظوظٌ حقاً، ففي الحقيقة كان هذا هو الطريق إلى مركز الاتصالات والعمليات.

قالت الآنسة تايت موجهة حديثها إلي "مركز العمليات. هناك خمسة أشخاص... وأنت منهم".

"شكراً لكِ".

دلفت من المدخل، ثم مشيت عبر رواق قصير أفضى بي إلى غرفة خافتة الإنارة، كبيرة، وخاوية تخلو من النوافذ، ولا يوجد فيها سوى بضع مناضد، وأجهزة حاسوب. وفوق الحائط الخلفي الكبير، عُلقت خارطة ضخمة للعالم، يمكن من خلال برمجتها التوصل إلى أدق التفاصيل، حتى وسط مدينة إسلام آباد. وتماماً كمعظم المرافق الفيدرالية، كان لدى هذا المكان كافة سبل المظاهر الفارغة، فالمال ليس بمشكلة بالنسبة للفيدراليين.

على أي حال، لم يكن هذا المكان هو مقر عملي الفعلي، فمكان عملي - كما ذكرت سابقاً - يقع في 26 فيدرال بلازا، مانهاتن السفلى، وسبب مجيئي إلى هنا عصر يوم السبت هذا هو مقابلة واستقبال رجل عربي مرتد كان يحتاج إلى من ينقله بأمان إلى وسط المدينة، حيث سيقضي هناك بضع سنوات يخضع للاستجواب.

تجاهلت أعضاء فريقي إلى حدٍّ ما، وتوجهت إلى منضدة القهوة. وبخلاف تلك الموجودة في غرفة المخبرين القديمة خاصتي، كانت هذه المنضدة مرتبة، ونظيفة، ومجهزة بشكل جيد، ربما كهديّة من دافعي الضرائب الفيدراليين.

بددت بعض الوقت في تناول القهوة، فقد كانت تلك طريقتي في تجنب زملائي لبضع دقائق إضافية.

صنعت القهوة مثلما أفضلها، ولاحظت صينية من الحلويات كُتب عليها مديرية شرطة نيويورك، وأخرى من الفطائر والكعك كُتب عليها وكالة الاستخبارات المركزية، وثالثة من حلوى الشوفان كُتب عليها مكتب التحقيقات الفيدرالية. يبدو أن أحدهم كان يتمتع بروح الدعابة هنا.

كان أعضاء فريقي يجلسون ملتفين حول منضدة خالية ويتحدثون؛ وهم تيد ناش من وكالة الاستخبارات المركزية، والذي ذكرته آنفاً، وجورج فوستر من مكتب التحقيقات الفيدرالية، بالإضافة إلى نيك مونتي من مديرية شرطة نيويورك، وكيت مايفيلد من مكتب التحقيقات الفيدرالية؛ وهي بيضاء، جميلة، ممشوقة القوام.

تقدمت كيت مايفيلد إلى منضدة القهوة، وبدأت في إعداد الشاي لنفسها. من المفترض أن كيت هي مرشدتي، أياً كان ما يعنيه هذا، ولا بأس طالما أنه لا يعني أنها شريكتي.

قالت موجهة حديثها لي "ربطة عنقك جميلة".

“خنقت بها أحد محاربي النينجا حتى الموت ذات مرة. إنها المفضلة لدي”.

“أحقاً؟ هيا، أخبرني عن أحوالك هنا؟”

“أخبريني أنتِ”.

“حسناً، أظن أنني ما زلت أحتاج إلى المزيد من الوقت كي أخبرك بهذا... ولكن أخبرني لماذا تقدمت للالتحاق بقسم الجيش الجمهوري الإيرلندي”.

“حسناً، المسلمون لا يشربون، ولا أستطيع تهجئة أسمائهم الصعبة في تقاريري، ولا يمكن غواية نسائهم”.

“هذه أكثر الملاحظات التي سمعتها خلال سنوات عنصريَّة وجنسية”.

“يبدو أنك لا تتجولين كثيراً إذاً”.

“احترس، هذه ليست مديرية شرطة نيويورك سيد كوري”.

“لكنني أنا من مديرية شرطة نيويورك. فلتعتادي على هذا”.

“هل هي لعبة للكر والفر؟”

“نعم، اسمعي يا كيت، أنا ممتن لما تقومين به من تدخل - أعني إرشاد - ولكن في غضون أسبوع سأنتقل إلى قسم الجيش الجمهوري الإيرلندي، أو سأترك هذا العمل تماماً”.

لم تجبني.

نظرت إليها، وهي تجول حاملة ثمرة ليمون. أظنها كانت في الثلاثين من عمرها، شقراء، وذات عينين زرقاوين، وبشرة صافية، وجسد رياضي شديد البياض، لم تكن تضع مجوهرات، وكان تبرجها خفيفاً، وما إلى ذلك؛ كانت بحق فاتنة من ويتشيتا. لم يكن بها خطأ واضح، فلا يوجد حتى ولا بثرة واحدة على وجهها، أو قشرة شعر واحدة على سترتها الزرقاء. في الحقيقة، بدت وكأنها قد نُظفت بفرشاة هوائية. على الأرجح أنها كانت تلعب ثلاث ألعاب رياضية في مدرستها الثانوية، وتستحم بالماء البارد، وانتمت إلى جمعية 4-إتش[2]، بل وكانت تقوم بتنظيم اجتماعات الأنشطة في الكلية. كرهتها. حسناً، لم أكرهها بالمعنى الكامل للكلمة، ولكن لم يكن ثمة أوجه شبه بيننا سوى في بعض أعضائنا الداخلية، بالرغم من اختلاف بعضها الآخر.

كما كان من الصعوبة بمكان تمييز لهجتها. وتذكّرت أن نيك مونتي قال ذات مرة إن أباها كان أحد رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية، وأنهم عاشوا في أماكن مختلفة حول المقاطعة.

استدارت كيت ونظرنا إلى بعضنا البعض. كان لها عينان ثاقبتان، ولونهما في زرقة الدرجة الثانية من الصبغة الزرقاء، كتلك الدرجة التي يستعملونها في مثلجات الآيس بوب.

قالت موجهة حديثها لي “لقد أتتنا توصية هامة بشأنك”.

"ممن؟"

"من قبل بعض زملائك القدامى في التحقيقات الجنائية".

لم أعلّق على هذا، فتابعت هي قائلة "وكذلك من تيد وجورج". قالت وأومأت تجاه الأحمق والمعتوه الجالسين إلى المنضدة هناك.

كدت أتقيأ على كوب قهوتي من فرط الدهشة، فمن الغريب حقاً أن يقول أي من هذين الشخصين شيئاً لطيفاً عني.

"لا يعني هذا أنهما مغرمان بك، ولكنه أداؤك في قضية بالم أيلاند".

"نعم، حتى أنا انبهرت بأدائي في تلك القضية".

عادت كيت لتقول "لماذا لا تعطي نفسك فرصة في قسم الشرق الأوسط؟ ولو أن المشكلة في تيد وجورج، يمكننا نقلك إلى فريق آخر داخل القسم".

"لا مشكلة لديّ مع تيد وجورج، غير أنني بحق أرغب في العمل في قسم الجيش الجمهوري الإيرلندي".

"شيء مؤسف، فهذا هو القسم حيث العمل الحقيقي، هنا يمكنك بناء مستقبلك المهني. إن جماعة الجيش الإيرلندي هادئون جداً ويحسنون التصرف هنا".

"رائع، فأنا لا أحتاج إلى مهنة جديدة على كل حال".

"بينما جماعات الشرق الأوسط هي مصدر الخطر المحتمل على الأمن القومي".

"لا أظن *محتمل* هي الكلمة المناسبة هنا. تذكري مركز التجارة العالمي".

لم تجبني كيت على هذا.

أدركت أن لهذه الكلمات الثلاث داخل وحدة مكافحة الإرهاب وقعاً مماثلاً تماماً *لتذكر بيرل هاربور*، وذلك لما لحق بمجتمع المخابرات من عار في هذه القضية، ولكن بعد حلهم إياها، أصبحت النتيجة متعادلة.

تابعت كيت قائلة "إن الدولة بأسرها مذعورة من هجوم شرق أوسطي، سواء كان حيويًّا، أو نوويًّا، أو كيميائيًّا. لقد رأيت ذلك بنفسك في قضية بالم أيلاند، أليس كذلك؟"

"هذا صحيح".

"ماذا إذاً؟ إن أي قسم آخر داخل الوحدة ما هو إلا مياه راكدة، فالعمل الحقيقي داخل قسم الشرق الأوسط، وأنت تبدو لي كرجل حركة". قالت ما قالته وابتسمت.

رددت عليها بابتسامة مماثلة، ثم سألتها ‘‘ما سر اهتمامك بهذا الموضوع؟’’

‘‘معجبة بك’’.

رفعت حاجبيّ في دهشة، فأردفت قائلة ‘‘فأنا أحب حمقى نيويورك’’.

‘‘لا أجد ما أقوله’’.

‘‘فكّر في الأمر’’.

‘‘سأفعل’’. ثم ألقيت نظرة على شاشة المراقبة القريبة، ورأيت أن رحلة الطيران التي كنا بانتظارها؛ أي ترانس - كونتيننتل 175 الآتية من باريس، ما زالت ستحضر في موعدها، فسألت مايفيلد ‘‘كم من الوقت تتوقعين أن يستغرق هذا الأمر؟’’

‘‘أتوقّع أن يستغرق ساعتين أو ثلاث ساعات، ثم ساعة للمعاملات الورقية هنا، وبعدها سنعود إلى فيدرال بلازا برفقة مرتدّنا المزعوم، ثم سنرى ما قد يحدث’’.

‘‘ما الذي قد يحدث؟’’

‘‘هل أنت مستعجل للذهاب إلى مكان ما؟’’

‘‘نوعاً ما’’.

‘‘كم يؤسفني أن يتدخل الأمن القومي في حياتك الاجتماعية’’.

ولأنه لم يكن لدي رد مناسب على هذا، قلت ‘‘أنا من أشد أنصار الأمن القومي، ورهن إشارتك حتى السادسة مساءً’’.

قالت كيت وهي تأخذ كوب الشاي وتعود للانضمام إلى زملائنا ‘‘تستطيع الذهاب متى شئت’’.

مكثت هناك حاملاً كوب القهوة، أفكر جدياً في عرض الذهاب ذاك. فلدى التفكير في هذا الموقف، كنت أشبه برجل يقف فوق رمال متحركة وهو يراقبها تغطي حذاءه، ويحدوه فضول لأن يرى كم من الوقت يلزم كي تصل الرمال إلى جاربيه، ويظن أنه يستطيع الرحيل في أي لحظة أراد. لكن لسوء الحظ، ما إن نظر إلى الأسفل مرة أخرى، حتى لاحظ أن ركبتيه مغروستان في الرمال.

الفصل الثاني

مال سام والترز في مقعده إلى الأمام، وعدّل من وضع السمّاعتين ومكبر الصوت حول رأسه، وأخذ يحدق أمامه في شاشة الرادار الخضراء ذات الثلاثة أقدام. وبالرغم من أن الجو في الخارج كان لطيفاً شأنه شأن أيام نيسان إلا أنه كان من الصعب أن تشعر بهذا اللطف هنا، داخل هذه الحجرة الخافتة الإضاءة، والخالية من النوافذ؛ حجرة مركز نيويورك لقيادة الملاحة الجوية، إيسليب، لونغ أيلاند، على بعد خمسين ميلاً إلى الشرق من مطار كنيدي.

وقف بوب إسكينج، المشرف على والترز المناوب، بجانبه وسأله "هل من مشكلة؟"

أجابه والترز قائلاً "لدينا علامة انقطاع الإشارة يا بوب. إنها رحلة ترانس - كونتيننتل 175 الآتية من باريس".

أومأ بوب إسكينج وسأله "منذ متى والحال كذلك؟"

أجابه والترز وهو يلقي نظرة على ساعته "لم يتمكن أحد من رصدها منذ خرجت عن المسار الأطلسي الشمالي بالقرب من غاندر، أي منذ نحو ساعتين".

سأل إسكينج "هل هناك إشارة أخرى تدلّ على وجود مشكلة؟"

"كلا. في الحقيقة...". قال والترز وهو ينظر إلى شاشة الرادار، وأردف قائلاً "لقد استدار إلى الجنوب الغربي من تقاطع ساردي، ثم أسفل النقطة سبعة وثلاثين، وفقاً لخطة الرحلة".

أجابه إسكينج "سيتصل في غضون دقائق قليلة، ويتساءل عن سبب عدم اتصالنا به".

أومأ والترز موافقاً، فانقطاع الاتصال بطائرة ما ليس بالأمر النادر الحدوث، فهو أمر متكرر الحدوث بين مقر مراقبة الملاحة الجوية والطائرات التي يرصدها. بل أحياناً كان والترز يصادف هذا الأمر مرّتين أو ثلاث مرات في اليوم الواحد، فيرد الطيار بعد دقيقتين أو نحوهما من الإرسال المتكرر، ويقول "معذرة". ثم يعلل الأمر بأن الصوت كان منخفضاً أو أنه كان على التردد الخطأ، وقد يكون السبب الحقيقي أكثر تفاهة، كأن يغلب النوم الطاقم بأكمله، لكنهم بالطبع لا يفصحون عن سبب كهذا.

"ربما كان الطيار ومساعده مشغولين في مغازلة المضيفات".

ابتسم والترز وقال "إن أفضل تفسير سمعته في موقف مماثل كان من طيار اعترف أنه عندما وضع صينية الطعام على الركيزة بين مقعد الطيارين، تسببت الصينية في الضغط على أحد مفاتيح الضبط مما أخرجهم عن التردد الصحيح".

قال إسكينج ضاحكاً "تفسير تقني بسيط لمشكلة تقنية كبيرة".

قال والترز "معك حق". ثمّ عاود النظر إلى الشاشة الخضراء، وأردف "التعقب جيد".

"نعم".

عندما تختفي الومضة، تصبح لديك مشكلة كبرى حقاً. قال والترز لنفسه. وتذكر يوم كان في مناوبة عمله في إحدى ليالي مارس عام 1998، عندما اختفت طائرة إير فورس 1 من على شاشة الرادار طوال أربع وعشرين ثانية بدت كالدهر، وكان الرئيس على متنها. تجمد المراقبون الذين كان يعج بهم مركز القيادة، حتى ظهرت الطائرة مرة أخرى من خلال إشارة إلكترونية بسيطة، فتنفس الجميع الصعداء. لكن في ليلة 17 يوليو 1966، اختفت الطائرة تي دبليو أيه 800 من على شاشة الرادار إلى الأبد، ولن ينسى والترز هذه الليلة طوال حياته. *على كل حال، كل ما لدينا هنا الآن هو مجرد انقطاع اتصال بسيط*... ولكن، ثمة شيء يزعجه، فالوقت الذي استغرقته أطول من المعتاد.

ضغط سام والترز بضعة أزرار، ثم تحدث عبر مكبر الصوت والسماعتين الموضوعتين حول رأسه عبر قناة الاتصال الداخلي، وقال "القطاع التاسع عشر، هنا القطاع الثالث والعشرون. في طريقك علامة (انقطاع الإشارة) من الرحلة ترانس - كونتيننتل 175، ستتسلم مني في غضون أربع دقائق. أردت فقط أن أطلعك على الحالة مستقبلاً في حال كان من الضروري أن تقوم بأي تعديلات".

استمع والترز إلى الإجابة عبر سماعته، ثم قال "يا الله، هذا الرجل أحمق حقاً، فالجميع على طول الساحل الأطلسي يتصلون به منذ أكثر من ساعتين على الترددين العالي والعادي، وربما عبر الإرسال الخلوي وإشارات الدخان". ثم ضحك وأضاف "عندما تنتهي هذه الرحلة، سيكون لدى الرجل الكثير ليكتبه في تقريره، وسيظن نفسه شكسبير آخر. أليس كذلك؟ حسناً، فلنتحدث ثانية في وقت لاحق". ثم استدار حتى التقت عيناه بعيني إسكينج، وقال "أهذا جيد؟"

"نعم، اسمع، اتصل بالجميع على الخط وأخبرهم أنه يجب على أول قطاع ينجح في الاتصال بقائد هذه الطائرة أن يخبره بضرورة الاتصال بي على هاتف المركز لدى هبوطه. أود أن أتحدث إلى هذا المهرج بنفسي، لأخبره عن الهرج الذي تسبب فيه على طول الساحل".

"وكندا أيضاً".

قال إسكينج "صحيح". وراح يستمع إلى والترز وهو ينقل الرسالة إلى المراقبين التالين الذين سيتولون أمر الرحلة ترانس - كونتيننتل 175، بينما عمد بعض المراقبين الآخرين والعاملين في فترة استراحتهم إلى التّحلّق حول القطاع 23. كان والترز يعرف أن لدى الجميع فضولاً لمعرفة سبب خروج بوب إسكينج من مكتبه ووجوده في القاعة. في كلماتهم الحادة، قال موظفو إسكينج إنه على شفا خوض موقف بالغ الخطورة في عمله.

لم يكن سام والترز مرتاحاً لوجود كل هؤلاء من حوله، ولكن إن لم يصرفهم إسكينج، فليس في مقدوره أن يفعل شيئاً. ولم يتوقع والترز أن يقوم إسكينج بصرفهم. كانت الرحلة ترانس - كونتيننتل قد أصبحت محور انتباه مركز القيادة، وعلى أي حال، كانت هذه المسرحية الصغيرة تدريباً جيداً لصغار المراقبين الموجودين في مناوبة عمل يوم السبت هذه.

التزم الجميع الصمت تقريباً، غير أن والترز كان يشعر بما ساد الغرفة من مشاعر فضول، وحيرة، وربما بعض التوتر مجتمعة في آن واحد.

تقدم والترز إلى الراديو وحاول مرة أخرى "نداء إلى الرحلة ترانس - كونتيننتل 175، هنا مركز نيويورك لقيادة الملاحة الجوية، هل تسمعني؟"

ما من مجيب.

أرسل والترز نداءه مرة أخرى.

ومرة أخرى ما من مجيب.

ساد الصمت الغرفة، ولم يسمع فيها سوى همهمة الأجهزة الإلكترونية، حيث لم يقدم أي من الحضور على الإتيان بتعليق، فلم يكن من الحكمة قول أي شيء في مثل هذا النوع من المواقف، فلربما عادت تلك التعليقات لتطاردك أنت في المرة القادمة.

أخيراً، توجه أحد المراقبين إلى إسكينج قائلاً "فلتكتب تقريراً سيئاً بحق عن هذا الطيار أيها الرئيس، لقد تسبب في تأخير استراحتي".

أضحك هذا بعض المراقبين، ولكن سرعان ما اختفت الضحكة.

تنحنح إسكينج، وقال "حسناً، هيا اذهبوا جميعاً وافعلوا شيئاً مفيداً. انصراف".

تفرق المراقبون تاركين والترز وإسكينج بمفردهما، فقال الأخير بصوت هادئ "لست مرتاحاً لهذا".

"ولا أنا".

أمسك إسكينج بكرسي متحرك ودفع به إلى جوار والترز، وجلس يدرس الشاشة الكبيرة، مولياً انتباهه لهذه الطائرة المشكلة. أوضحت بطاقة الهوية على الشاشة أنها طائرة من طراز بوينغ 747، وهي من سلسلة الطائرات 700 الجديدة؛ الأكبر والأحدث في مجموعة طائرات البوينغ 747. كانت الطائرة تسير وفق الخطة الملاحية تماماً، متجهة صوب مطار جون كنيدي الدولي، فقال إسكينج "بحق الجحيم، كيف يمكن أن تكون كافة أجهزة الراديو معطلة؟"

فكّر سام والترز لدقيقة، ثم أجاب "لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. لذا، أعتقد أنه إما أن يكون مفتاح ضبط الصوت منخفضًا، أو أن محددات التردد قد كُسرت، أو أن الهوائيات قد سقطت".

"أتظن ذلك؟"

"نعم".

"ولكن... إن كان الأمر كذلك، فلقد كان يفترض بالطاقم أن يدرك ذلك منذ فترة طويلة".

أومأ والترز وأجاب "نعم، ربما إذاً كان هناك عطل كامل في الهوائيات، أو كما تعلم، إنه نموذج جديد، فربما كان هناك عطل إلكتروني ما فيها، مما سبب إيقاف الراديو. هذا محتمل".

أطرق إسكينج، وقال "محتمل". ولكن *لم يكن هذا الاحتمال قائماً بالفعل*. فقد انقطع الاتصال بالرحلة 175 تماماً منذ أن غادرت المسارات المحيطية، ووصلت أميركا الشمالية. لقد تناول كتيب الإجراءات الشاذة هذا الاحتمال البعيد، ولكنه لم يكن واضحاً بشأن ما يجب عمله. في الحقيقة لم يكن هناك ما يمكن عمله.

قال والترز "لو أن أجهزة الراديو تعمل بشكل جيد، فسيدرك قائد الطائرة لدى هبوطه أن التردد خاطئ أو أن مفتاح ضبط الصوت منخفض".

"صحيح، أتظن الجميع نيام؟"

تردد والترز قبل أن يجيب "حسناً، هذا يحدث أحياناً. ولكن، من المفترض أن إحدى المضيفات قد أتت إلى القمرة منذ فترة".

"صحيح، هذا الوقت كثير على حالة انقطاع الإشارة، أليس كذلك؟"

"نعم، مرّ وقت طويل. لكن كما قلت، عندما يشرع القائد في الهبوط سأعرف ما المشكلة؟ حتى وإن كانت المشكلة عطلاً كاملاً في أجهزة الراديو، فبوسعه استخدام رابط البيانات ليكتب رسالة إلى العمليات في شركته، ولكانوا أخبرونا منذ زمن".

كان إسكينج قد فكَر في هذا الاحتمال من قبل، فأجاب "لهذا بدأت أفكر أنه عطل في الهوائيات كما قلت أنت من قبل". ثم فكّر دقيقة وعاد يسأل والترز "كم هوائي يوجد على تلك الطائرة؟"

"لا أعرف تحديداً... هناك الكثير منها".

"وهل من الممكن أن يصيبها العطل جميعها؟"

"ربما".

فكّر إسكينج، ثم قال "حسناً... لو افترضنا أن قائد الطائرة مدرك لوجود عطل لاسلكي كامل، فقد كان في استطاعته استخدام أحد الهواتف الجوية-الأرضية الموجودة في كابينة القبة للاتصال بأي شخص لكي يخبرنا بدوره. أعني أن هذا كان يتم العمل به في الماضي؛ فقد كان بوسعك استخدام مكبر الصوت الهوائي".

أطرق والترز.

أخذ الرجلان يراقبان ومضة الرادار الأبيض بعلامات التعريف الحرفية-العددية البيضاء التي تتبع الوميض الذي راح يزحف ببطء من اليمين إلى اليسار.

أخيراً قال بوب إسكينج ما لم يرد أبداً أن يتفوه به "قد تكون حادثة اختطاف".

التزم سام والترز الصمت.

"سام؟"

"حسناً، ولكن انظر، ما زالت الطائرة ملتزمة بخطة الملاحة الخاصة بها، وفي المسار والارتفاع الصحيحين، وما زالوا يستخدمون رمز الرادار الخاص بعبور الأطلسي. لو أنها حادثة اختطاف، فمن المفترض أن يرسلوا لنا رمز اختطاف لتحذيرنا".

"صحيح". أدرك إسكينج أن الوضع لا يتناسب مع أي من سمات الاختطاف المتعارف عليها، فكل ما لديهم هو حالة من الصمت المخيف من إحدى الطائرات، وعدا ذلك فكل شيء طبيعي. ولكن، من المحتمل أيضاً أن يكون المختطف محنَّكا ويعرف موضوع إشارة الرادار تلك، فأمَر المراقبين ألا يمسوا محدد الرادار.

كان إسكينج يعرف أنه المسؤول هنا الآن، ولكم لعن نفسه لتطوعه لمناوبة عمل يوم السبت هذا. كانت زوجته في فلوريدا لزيارة والديها، وأبناؤه في كلياتهم، ففكر أن يذهب إلى العمل بدلاً من أن يظل في المنزل بمفرده. كم كان مخطئاً. ربما كان يجدر به أن يجد لنفسه هواية يمارسها.

سأل والترز "ماذا يمكننا أن نفعل الآن؟"

"استمر فقط في ما تقوم به. سأتصل بالمسؤول في برج كنيدي، ثم سأتصل بمركز عمليات ترانس - كونتيننتل".

"فكرة جيدة".

وقف إسكينج وقال على سبيل التقرير "سام، أنا لا أعتقد أن لدينا مشكلة خطيرة حقاً، ولكن سيتهموننا بالإهمال إن لم نقم ببعض التنويهات".

أجاب والترز "نعم". حيث ترجم في عقله كلمات إسكينج إلى *نحن لا نريد أن نبدو عديمي الخبرة، أو مذعورين، أو عاجزين عن معالجة الموقف، ولكننا نحتاج إلى أن نحمي ظهورنا.*

قال إسكينج "هيا، اتصل بالقطاع التاسع عشر للتسليم".

"حسناً".

"واتصل بي إذا جدّ في الأمر شيء".

"سأفعل".

استدار إسكينج، وتوجّه نحو مقصورته الزجاجية في مؤخّر الغرفة الواسعة.

جلس على كرسي مكتبه، وترك بضع دقائق تمر آملاً أن يناديه سام والترز ليخبره أن ثمة اتصالاً قد حدث مع الطائرة. أخذ يفكّر في المشكلة، ثم تطرق في تفكيره إلى ما سيقوله للمسؤول في برج كنيدي، وقرر أن تكون مكالمته تلك إخبارية تماماً، بلا تلميح إلى أي انزعاج أو قلق، وبلا آراء أو تخمينات، لا شيء على الإطلاق سوى الحقائق. أما في مكالمته مع ترانس - كونتيننتل، فقد كان يعرف أنه يجب عليه أن يوازن ما بين الانزعاج والقلق.

رفع سماعة الهاتف، وضغط زر الهاتف حيث رقم برج كنيدي مسجلاً، وبينما كان يسمع رنين الهاتف عند الطرف الآخر، كان إسكينج يتساءل عمّا إذا كان حري به أن يخبرهم بما يشعر به في أعمق أجزاء أحشائه حيال هذا الأمر؛ *ثمة شيء خاطئ جداً يحدث هنا.*

الفصل الثالث

كنت أجلس مع زملائي تيد ناش؛ شبح وكالة الاستخبارات المركزية البارع، وجورج فوستر؛ كشّاف مكتب التحقيقات الفيدرالية، ونيك مونتي؛ رجل مديرية شرطة نيويورك الجيد، وكيت مايفيلد؛ الفتاة الذهبية في مكتب التحقيقات الفيدرالية. كنا جميعاً قد حصلنا على كراسيّ دوارة من المكاتب الشاغرة، وكل منا يحمل بيده الآن كوب قهوة خزفيًّا. كنت أرغب جداً بإحدى الفطائر - فطيرة محلاة – ولكن، هناك دائماً هذا الشيء بين رجال الشرطة والفطائر يجعل الناس يضحكون لسبب أو لآخر، فقررت ألا آخذ أيًّا من الفطائر.

كنا قد خلعنا ستراتنا فأصبحنا نرى قرابات أسلحة بعضنا البعض. بعد عشرين عاماً في مجال تطبيق القانون، أعرف الآن أن هذا يدفع الناس إلى خفض أصواتهم بنحو درجتين على الأقل، بما في ذلك النساء.

على أي حال، كنا جميعاً نتصفح حافظاتنا حول هذا المرتد، والذي كان يدعى **أسد خليل**. وبالمناسبة، ما يسميه رجال الشرطة بالحافظة، يطلق عليه زملائي الجدد اسم ملف. فبينما يجلس رجال الشرطة ليتصفحوا حافظاتهم، فإن الفيدراليين يجلسون لمطالعة ملفاتهم! والمعلومات في الحافظة تُدعى الكتاب الخاص بالرجل، بينما المعلومات في الملف – حسبما أعتقد - تُدعى معلومات فحسب. أعرف أنه الشيء ذاته، ولكن عليّ أن أتعلم اللغة الجديدة.

على أي حال، لم يكن هناك الكثير في حافظتي، ولا في ملفاتهم، سوى صورة ملونة أرسلتها السفارة في باريس، بالإضافة إلى سيرة ذاتية قصيرة بحق، وتقرير مختصر عمّا تظنه وكالة الاستخبارات المركزية، والشرطة الدولية، والمخابرات البريطانية، وقوات الأمن الوطنية الفرنسية، ومجموعة أخرى من هيئات الشرطة والوحدات العسكرية حول أوروبا. ووفقاً لما جاء في السيرة الذاتية، فإن هذا المرتد ... الجنسية، في الثلاثين من عمره أو نحو ذلك، ولم يتم التعرف على عائلة له، ولا شيء آخر هام سوى أنه يتحدث الإنكليزية، والفرنسية، وبعض الإيطالية، والقليل من الألمانية، وبالطبع يتحدث العربية.

ألقيت نظرة على ساعة يدي، وشددت عضلاتي، وتثاءبت، ثم نظرت حولي. فبالإضافة إلى كونه مرفقاً تابعاً لوحدة مكافحة الإرهاب، فقد كان نادي الفاتحين هذا بمثابة مكتب ميداني لمكتب التحقيقات الفيدرالية، واستراحة لوكالة الاستخبارات المركزية، ومن يعرف ماذا غير ذلك. لكن في عصر يوم السبت هذا،

لم يكن هناك سوى نحن الخمسة من وحدة مكافحة الإرهاب، وضابطة الوردية وتُدعى ميج، ونانسي تايت في مكتب الاستقبال. كانت الجدران معدة خصيصاً بحيث لا يمكن لأي شخص أن يتنصّت إلى ما يدور بالداخل باستخدام الموجات القصيرة التردد، ولا يستطيع أحد أن يرانا، حتى لو كان سوبرمان.

قال تيد ناش موجهاً حديثه إليّ "سمعت أنك ربما تترك القسم لدينا".

لم أجبه، ولكنني نظرت إليه. كان شديد التأنق في ملابسه، وتستطيع بمجرد النظر إليه أن تعرف أن كل ما يرتديه قد صُنع خصيصاً له، بما في ذلك حذاؤه وقراب مسدسه. كان جيد المظهر؛ سمرته لطيفة، وشعره رمادي، وتذكرت على نحو خاطف كيف كان هذا يثير بيث بينروز إلى حدٍّ ما. بيد أنني أقنعت نفسي أن هذا لم يكن سبب كرهي له، ولكن لا شك في أنه قد أضاف بعض الزيت إلى نيران استيائي منه، أو شيء من هذا القبيل.

هنا قال لي جورج فوستر "لو أنك أعطيت هذه المهمة مهلة تسعين يوماً، فإن أي قرار ستتخذه سيؤخذ على محمل الجد".

"حقاً؟"

فوستر، كواحد من كبار مكتب التحقيقات الفيدرالية، كان بمثابة قائد الفريق على نحو ما، ولم يكن هذا ليزعج ناش، حيث لم يكن عضواً في الفريق بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل كان ينضم إلى الفريق أحياناً إذا ما استدعى الموقف انضمام وكالة الاستخبارات المركزية، كما حدث اليوم.

كان فوستر يرتدي بذلة صوفية زرقاء بشعة، تشير إلى أنّه فيدرالي، وأضاف على نحو صريح جداً "إن تيد مسافر في مهمة دولية في غضون أسابيع قليلة، ولن يكون هناك سوانا نحن الأربعة".

اقترحت بشكل مهذب "ولماذا لا يسافر الآن؟"

فضحك ناش.

بالمناسبة، بغض النظر عن مغازلته لبيث بينروز، فقد أضاف تيد ناش إلى قائمة ذنوبه عندما هددني أثناء قضية بالم أيلاند؛ وأنا لا أملك شخصية متسامحة.

وجّه جون فوستر حديثه لي قائلاً "نحن نعمل الآن على قضية مثيرة ومهمة تتعلق بمقتل فلسطيني معتدل على يد جماعة متطرفة هنا في نيويورك. ونحتاجك في هذا الأمر".

"حقا؟" أخبرني حدسي الماكر أنهم يعمدون إلى الإيقاع بي، فكل من إيرغو، وفوستر، وناش كانوا بحاجة إلى كبش فداء لشيء ما، وأياً كان الأمر كنت قد اتخذت قراري. شعرت بأنني أتسكع حولهم فقط لأعرف هدفهم من هذا، ولكن الحق هو أنني لم أكن أشعر بالارتياح هنا، حيث بوسع أي أبله أن يوقع بك في مشكلة إن لم تكن حذراً.

أعني أنها مصادفة غريبة أن انتهى بي الأمر بأن أعمل مع هذا الفريق؛ ربما لم تكن وحدة مكافحة الإرهاب ضخمة، ولكنها كبيرة بما يكفي بحيث بدت تلك

الترتيبات مريبة إلى حدٍّ ما. الفكرة الثانية هي أن الأحمق والمعتوه قد رشحاني لهذا الفريق لخبرتي في التحقيق الجنائي. كنت قد نويت أن أسأل دوم فانيلي عمّا سمعه بشأن موضوع العميل الخاص ذاك. بالطبع أنا أأتمن دوم على حياتي، فلا بأس بهذا، وكان عليّ أن أفترض أيضاً أن نيك مونتي كان حسن النية، فرجال الشرطة لا يورطون بعضهم البعض، ولا حتى من أجل الحكومة الفيدرالية؛ بل بالتحديد ليس من أجل الحكومة الفيدرالية.

نظرت نحو كيت مايفيلد. لكم سيتحطم فؤادي البارد الصلب لو أنها متواطئة مع فوستر وناش في ما يتعلق بي.

فابتسمت كيت لي.

رددت لها الابتسامة. لو كنت محل فوستر وناش في محاولة اصطياد جون كوري، لكنت استخدمت كيت مايفيلد كطعم.

قال لي نيك مونتي "يحتاج عملنا إلى بعض الاعتياد، وكما تعرف فإن نحو نصف رجال الشرطة الحاليين والسابقين الذين ينضمون إلينا، سرعان ما يرحلون. يبدو الأمر وكأننا عائلة واحدة كبيرة وسعيدة، ورجال الشرطة كالأبناء الذين لم يذهبوا إلى كلياتهم، فيظلون في المنزل، ويفعلون أشياءً عجيبة، ويريدون استعارة السيارة طوال الوقت".

قالت كيت "لا أوافقك الرأي يا نيك".

ضحك مونتي، وقال وهو ينظر نحوي "نعم، صحيح. ربما يمكننا أن نتحدث في هذا الموضوع ونحن نحتسي كأسين من الشراب".

قلت موجهاً حديثي للجميع "سأبقي ذهني متقداً". كنت أعني "فلتذهبوا إلى الجحيم". ولكنني لم أرد قول ذلك حيث أردتهم أن يستمروا في هزّ الطعم، فقد كان الأمر مثيراً نوعاً ما. وسبب آخر لسلوكي السيئ ذاك هو أنني كنت أفتقد مديرية شرطة نيويورك - المهمة، كما كنا نقول - وأظن أنني كنت أشعر ببعض الأسف على نفسي، وببعض الحنين إلى الأيام الخوالي.

نظرت إلى نيك مونتي حتى لفت انتباهه. لم أعرف نيك أيام شرطة نيويورك، لكنني عرفت أنه كان محققاً في وحدة الاستخبارات، وهو الأمر المثالي لهذا النوع من العمل. أفترض أنهم احتاجوا إليّ لقضية مقتل الفلسطيني ذاك، وربما قضايا قتل أخرى متعلقة بالإرهاب، ومن هنا كان التعاقد معي. توجهت إلى نيك وقلت له "أتعرف لماذا لا يحب الإيطاليون شهود يهوه؟"[3].

"لا، لماذا؟"

"لأن الإيطاليين لا يحبون الشهود على الإطلاق".

أطلق هذا ضحكة عالية من نيك، بينما بدا على الثلاثة الآخرين شك في أنني قد أُصبت بمس من الجنون. عليك أن تفهم أن الفيدراليين ملتزمون سياسياً، ومتحفظون بشدة، بل ويرتعبون من شرطة واشنطن السرية. وهم مجبرون على الإذعان التام للتوجيهات الغبية التي تطلقها واشنطن كسيل متواصل من الإسهال.

أعني أننا جميعاً - على مرّ السنين - قد أصبحنا مفرطي الحساسية والانتباه تجاه ما نتفوه به، وهو أمر جيد، ولكنّ الفيدراليين يصابون بالذعر إزاء الإساءة إلى أي شخص أو أي جماعة، حتى إنهم قد يقولون "أهلاً سيد إرهابي، اسمي جورج فوستر، وأنا ضابط مكلّف باعتقالك اليوم".

على كل حال، أجاب نيك مونتي قائلاً "ثلاث علامات لسوء السلوك في سجلك أيها المحقق كوري. للتشهير العرقي".

كان من الجليّ أن كلاًّ من ناش، وفوستر، ومايفيلد كانوا يشعرون بالانزعاج أو الارتباك لأنني أسخر منهم. وفي لحظة حرجة، خطر لي أن الفيدراليين لديهم قضايا مشتركة مع مديرية شرطة نيويورك، إلا أنهم لن يتفوهوا بكلمة عن ذلك.

أما بخصوص نيك مونتي، فكان في منتصف العقد الخامس، متزوًّجا ولديه أبناء، أصلع الرأس، ذا بطن كبير نوعاً ما ومظهر أبوي ودود، بحيث لا يبدو كرجل استخبارات على الإطلاق، ولكن لا شك في كفاءته، وإلا ما عمد الفيدراليون إلى سرقته من مديرية شرطة نيويورك.

طالعت ملف السيد أسد خليل، وبدا لي أن الرجل العربي المحترم قد تجول كثيراً في أوروبا الغربية، وأنه أينما ذهب كانت ثمة حادثة سيئة تحدث لشخص - أو شيء - أميركي أو بريطاني؛ قنبلة في السفارة البريطانية في روما، وأخرى في الكاتدرائية الأميركية في باريس، وثالثة في دار العبادة اللوثرية الأميركية في فرانكفورت، ومقتل ضابط من القوات الجوية الأميركية بالفأس خارج قاعدة لاكينهيث الجوية في إنكلترا، وحادثة إطلاق النيران في بروكسل على ثلاثة تلاميذ أميركيين، كانوا أبناء لضباط من منظمة حلف شمال الأطلسي. ولقد استأت بشدة من تلك الحادثة الأخيرة، وتساءلت ما خطب هذا الرجل.

لكن لم يتسنَ ربط أي من هذه الأحداث بخليل هذا بشكل مباشر، ولذلك تمّ وضعه تحت المراقبة لمعرفة إن كان يرتبط بها، أو للقبض عليه أثناء قيامه بأحد تلك الأفعال. لكن يبدو أن هذا الأحمق المرتد غير متواطئ مع أي جهة معروفة، وليس لديه أي روابط أو علاقات بأي شخص، أو أي شيء، أو أي صلات إرهابية واضحة، ما عدا كيوانيس وروتاري. وهذه دعابة بالطبع.

ثم طالعت فقرة في الملف كتبها عميل، وقد ذيلت الفقرة بالحروف الأولى من اسمه، وذُكر أنه عميل في وكالة مخابرات لم تُذكر هويتها. جاء في الفقرة "يدخل أسد خليل أيًّا من البلاد بشكل سافر وقانوني، مستخدماً جواز سفره الحقيقي، ومدعياً أنه سائح. ويتم تنبيه السلطات، ويُراقب لمعرفة الأشخاص الذين سيتصل بهم. ولكنه يستطيع ترك البلاد دون أن يتم تعقبه، ولا يترك أي سجل لمغادرته. وأنا أوصي بشدة بضرورة اعتقاله واستجوابه ما إن يظهر مرة أخرى لدى أي نقطة دخول".

أومأت موافقاً، فكرة جيدة بحق يا شارلوك هولمز. وهذا تماماً ما سنفعله.

أما الشيء الذي أزعجني حقاً في هذا الشأن فهو أن أسد خليل هذا لا يبدو مخطط جرائم من النوع الذي يصل إلى السفارة الأميركية في باريس ويسلم نفسه بينما هو

يسبق بالفعل كافة الباحثين عنه بعدة نقاط.

ثم قرأت الصفحة الأخيرة في الملف، وبات واضحاً أن ما لدينا هنا هو فرد ينتهج موقفاً سلبياً سيئاً تجاه الحضارة الأوروبية. على أي حال، سنعرف ما يصبو إليه هذا الرجل عمّا قريب.

رحت أفحص الصورة المرسلة من باريس؛ بدا لي السيد خليل متواضع الهيئة، لكنه لم يكن قبيحاً، بل كان من النوع الأسمر الوسيم، بأنف معقوف، وشعر أملس مسرّح إلى الوراء، وعينين غامقتين وعميقتين. لا بد وأنه حظي بنصيبه من الفتيات، أو الفتيان، أو أياً كان ما صادفه في طريقه.

ثرثر زملائي حول القضية التي نتناولها لبرهة، وبدا أن كل ما يتعين علينا فعله اليوم هو اصطحاب السيد خليل في اعتقال وقائي وإحضاره إلى هنا لاستجواب تمهيدي سريع، وأخذ بعض الصور له، وبصمات الأصابع، وما إلى ذلك. ثم سيقوم ضابط من قسم اللجوء السياسي، بخدمات الهجرة والجنسية، بإجراء بعض الاستجواب والأعمال الورقية. وحقيقة الأمر أن النظام الفيدرالي يعج بتكرار المهام، حتى إذا ما طرأ أي خطأ، فهناك ما لا يقل عن خمسمئة شخص يمكنهم تحميل الخطأ لبعضهم البعض.

بعد ساعة أو ساعتين هنا، سنصطحب السيد خليل إلى فيدرال بلازا حيث أفترض أنه سيقابل المعنيين بالأمر فعلاً، فيقررون - مع فريقي - مدى إخلاص الرجل في ارتداده، وما إلى ذلك. ثم في وقت ما؛ بعد يوم، أو أسبوع، أو حتى شهور من الآن، سينتهي الأمر بالسيد خليل في مكان خارج واشنطن، تابع لوكالة الاستخبارات المركزية، حيث سيخرج كل ما في أحشائه لمدة عام، يحصل بعدها على بعض المال وهوية جديدة. وبحكم معرفتي بوكالة الاستخبارات المركزية، فإنهم سيجعلون الرجل يبدو كمغني البوب الشهير بات بوون. على كل حال، التفتُّ إلى زملائي قائلاً "من لديه شعر أشقر، وعينان زرقاوان، وثدي ضخم، ويعيش في جنوب فرنسا؟"

ولما بدا أن لا أحد يعرف، أخبرتهم "إنه سلمان رشدي".

هنا أطلق نيك ضحكة أخرى وهوى بيده على ركبته وهو يقول "علامتان سلبيتان أخريان في ملفك يا كوري".

ابتسم الرجلان الآخران في تحفظ، بينما أدارت كيت وجهها. حسناً، ربما كنت مرحاً أكثر مما ينبغي، لكنني لم أرد كل هذه الجلبة. عموماً، لم يتبقَ لدي سوى مزحة واحدة سيئة، وتعليقين بغيضين.

قالت مايفيلد "لعلك قرأت في مذكرة هذه المهمة، والتي أصدرها زاك ويبر، أن كلاًّ من فيل هاندري من مكتب التحقيقات الفيدرالية، وبيتر جورمان من وكالة الاستخبارات المركزية، اللذين كانا مسؤولين عن أسد في باريس، سيصطحبانه إلى هنا، وهما الآن على متن الطائرة 747، في درجة رجال الأعمال. أما بالنسبة للسيد خليل، فقد يصبح شاهداً حكوميًّا، وقد لا يصبح، وحتى يتقرر ذلك فستوضع يداه في الأصفاد".

قلت متسائلاً "من منهم سيحصل على الأميال المجانية؟"

تجاهلتني مايفيلد وتابعت "سيترجل العميلان والسيد أسد أولاً، وسنلاقيهم عند باب الطائرة". ثم نظرت إلى ساعتها، ونهضت متوجهة إلى شاشة المراقبة، وقالت "الطائرة ما زالت موجهة للدخول، وفي موعدها المحدد. سنتحرك نحو الباب في غضون عشر دقائق".

قال تيد ناش "نحن بالطبع لا نتوقع حدوث أي مشكلات، لكن الحذر واجب، فلو أن أحدهم ينوي قتل هذا الرجل، فإن الفرص محدودة؛ إما على السلم المتحرك، أو في طريق العودة إلى الشاحنة هنا، أو في فترة الانتقال إلى مانهاتن. فبعد ذلك سينصهر السيد خليل في بوتقة النظام، ولن يراه أحد أو يسمع عنه ثانية بعدها". أما نيك فقال "لقد رتبت أمر بعض ضباط شرطة المطار، وبعض رجال مديرية شرطة نيويورك ليبقوا على المدرج بالقرب من الشاحنة، وسترافقنا الشرطة حتى فيدرال بلازا". ثم أضاف "مما يعني أن قتل هذا الرجل سيكون بمثابة مهمة انتحارية".

قال السيد فوستر "وهذا ليس بالأمر المستبعد".

فأجابت كيت "لقد ألبسناه سترة واقية من الرصاص في باريس، واتخذنا كافة الاحتياطات الممكنة. من المفترض أن تنتهي المهمة بلا مشاكل".

بلا مشاكل! نعم، ليس فوق التراب الأميركي، فأنا لا أذكر على كل حال أن حدث من قبل أن فقد الفيدراليون أو رجال مديرية شرطة نيويورك أحد سجنائهم أو شهودهم في الانتقال من مدينة إلى أخرى. ومن ثم، بدا لي الأمر وكأنه نزهة في حديقة. ولكن، بغض النظر عن مزاحي، لا بد من التعامل مع كل من تلك المهام الروتينية بحرص بالغ كما لو أن الأمر قد ينفجر في وجهك في أي لحظة. ما أعنيه هو أننا نتحدث عن إرهابيين، أي أناس أصحاب قضية، ولقد أظهروا بالفعل أنهم لا يعبأون بفقدان فرصة العيش ليوم آخر في سبيل قضيتهم.

تدربنا نظرياً على عبور المسافة من المدرج إلى البوابة، ثم من السلم إلى ساحة الطيران، ومنه إلى موقف الطائرة، حيث سندفع بخليل، وجورمان، وهاندري إلى شاحنة بلا أي علامات مميزة، مسلحة بأسلحة كيفلار من الداخل، ثم إلى هذا النادي الخاص مرة أخرى، تتقدمنا سيارة شرطة واحدة، وأخرى في إثرنا. ولدى سيارات شرطة المطار أجهزة راديو للسيطرة الأرضية، التي - وفقاً للقواعد - نحتاجها في ساحة الطيران وكافة المناطق ذات الصلة.

بعد العودة إلى نادي الفاتحين، سنستدعي رجل هيئة الهجرة ليتعامل مع خليل. الهيئة الوحيدة التي ستتغيب عن مسرح الأحداث اليوم هي مكتب انتهاكات إيقاف السيارات، ولكن القواعد هي القواعد، وعلى كل جهة حماية قوانينها.

وفي وقت محدد سنعود إلى الشاحنة، ومع مرافقينا هؤلاء سنسلك طريقاً دائرياً إلى مانهاتن، على أن نتجنب بمهارة الأحياء المسلمة، بينما تقوم سيارة دورية واضحة المعالم بعمل تمويه. وهكذا - ببعض الحظ - ينتهي يومي، فأستقل سيارتي

قبيل السادسة مساءً، وأطير إلى لونغ أيلاند، حيث موعدي الغرامي مع بيث بينروز.

في هذه الأثناء، وبينما كنّا ما نزال في غرفة نادي الفاتحين، أطلت نانسي برأسها إلى داخل الغرفة، وقالت "لقد وصلت الشاحنة".

فنهض فوستر وقال معلناً "حان وقت التحرك إذاً".

في اللحظة الأخيرة قبيل انصرافنا، قال فوستر موجهاً حديثه لي ولنيك "لماذا لا يظل أحدكما هنا، فربما تأتينا مكالمة رسمية؟"

فقال نيك "حسناً، أنا سأبقى".

دَوّن فوستر رقم هاتفه الخلوي وأعطاه لنيك "سنظل على اتصال. هاتفني إذا ما اتصل بنا أحد هنا".

"اتفقنا".

ألقيت نظرة على الشاشة؛ عشرون دقيقة بقيت على الهبوط المحدد.

لطالما تساءلت كيف كانت ستنتهي الأشياء لو أنني بقيت هناك بدلاً من نيك.

الفصل الرابع

رفع إد ستافروس - مسؤول برج المراقبة في مطار كنيدي الدولي - سماعة الهاتف إلى أذنه واستمع إلى بوب إسكينج؛ المسؤول المناوب بمركز نيويورك لمراقبة الملاحة الجوية. لم يكن ستافروس متأكداً ما إذا كان إسكينج قلقاً أم لا، ولكن مجرد اتصاله كان أمراً استثنائياً يدعو إلى القلق.

تحركت عينا ستافروس بشكل تلقائي باتجاه نوافذ برج المراقبة الضخمة الملونة، وراح يشاهد طائرة لوفتهانزا ضخمة، من طراز A-430 تستعد للهبوط، حين أدرك أن إسكينج قد توقف عن الكلام. حاول ستافروس التفكير في شيء يقوله الآن بحيث يبدو ملائماً إذا ما أعيد تشغيل تسجيل هذه المكاملة في حجرة تعج بالمهاجمين المتجهّمي الوجه صباح يوم الاثنين، فتنحنح وسأل إسكينج "هل اتصلت بترانس - كونتيننتل؟"

أجابه إسكينج "مكالمتي التالية ستكون لهم".

"جيد جداً، وأنا سوف أخطر وحدة خدمة الطوارئ بهيئة شرطة المطار. هل الطائرة من طراز 700؟"

"نعم".

أومأ ستافروس لنفسه، فمن المفترض أن رجال خدمة الطوارئ يعرفون كافة أنواع الطائرات عن ظهر قلب؛ في ما يتعلق بالمداخل، وفتحات الخروج، ونظام التسكين العام داخل الطائرة، وما إلى ذلك. "حسناً، اتفقنا".

قال إسكينج "أنا لا أعلن حالة طوارئ فقط أردت أن...".

"نعم، أفهمك، ولكننا سنتبع القواعد هنا، فلنقل إن الحالة ثلاثة إلى اثنين، أتفهمني؟ فهناك خطر *محتمل* هنا، أليس كذلك؟"

"نعم، ولكن أعني أنه ربما كان".

"ماذا؟"

"حسناً، لن ألجأ إلى التخمين سيد ستافروس".

"وأنا لم أطلب منك أي تخمينات سيد إسكينج، أم تريدني أن أزيد النسبة إلى ثلاثة مقابل ثلاثة؟"

"إنه عملك على أي حال، وليس عملي. كل ما لدينا هو علامة انقطاع الإشارة لأكثر من ساعتين الآن، وما من مؤشر على وجود مشكلة. من المفترض أن يظهر هذا الرجل على شاشتك في غضون دقيقة أو اثنتين. راقبه باهتمام".

"حسناً، أي شيء آخر؟"

"لا شيء".

قال إد ستافروس "شكراً لك". وأنهى المكالمة من طرفه.

التقط ستافروس هاتفه الأسود المرتبط بخط مباشر مع مركز اتصالات هيئة المطار، وبعد ثلاث رنات، أتاه صوت يقول "*الأسلحة والخراطيم* في خدمتك".

استاء ستافروس من مزاح ضابط شرطة سلطة المطار الذي جمع بين مهمتي رجل الإطفاء، وموظف خدمة الطوارئ، فقال "لدي إخطار بعلامة انقطاع الإشارة من الرحلة ترانس - كونتيننتل 175، من طراز بوينغ 747، المجموعة 700".

"أسمعك يا برج. عن أي مدرج تتحدث؟"

"نحن ما زلنا نستخدم الرابع يميناً، ولكن كيف سنعرف أيها سيستخدم طالما لا نستطيع التحدث إليه؟"

"معك حق. ما هو وقت الوصول التقديري؟"

"الوصول المحدد هو عند الساعة السادسة عشرة وثلاثٍ وعشرين دقيقة".

"أسمعك. أترغب في احتمال ثلاثة إلى اثنين، أم ثلاثة إلى ثلاثة؟"

"حسناً، دعنا نبدأ بالاحتمال القياسي، ثلاثة إلى اثنين، ويمكننا الصعود أو الهبوط حسب تطور الموقف".

"أو قد نثبت هذا الاحتمال".

من المؤكد أن ستافروس لم يحب هذا السلوك المتعجرف من هؤلاء الضباط، سواء من رجالهم - وهم الأغلبية - أو من نسائهم. في الحقيقة، أياً من كان صاحب فكرة الجمع بين ثلاث وظائف هامة ومعقدة - كخدمة الطوارئ، والإطفاء، والشرطة - فإنه مجنون لا جدال في ذلك. فأجاب ستافروس الرجل قائلاً "من معي، بروس ويلس؟"

"العريف تنتل في خدمتك. مع من أتحدث؟"

"السيد ستافروس".

"حسناً، سيد ستافروس، يمكنك الحضور إلى محطة الإطفاء، ولسوف نلبسك سترة ضد الحريق، ونعطيك فأس تحطيم، حتى إذا ما انفجرت الطائرة، ستكون أول من يصعد إلى متنها".

أجابه ستافروس قائلاً "نحن نواجه مشكلة انقطاع اتصال، لا مشكلة ميكانيكية أيها العريف، فلا حاجة بك لكل هذا الحماس".

"لكم يسعدني استفزازك".

ردّ عليه ستافروس بقوله "حسناً، دعنا نقوم بتسجيل هذا. سأستخدم الهاتف الأحمر". قال هذا، وأنهى تلك المكالمة، ثم التقط الهاتف الأحمر ذاك، وضغط أحد الأزرار. مرة أخرى أوصله هذا بالعريف تنتل، الذي أجاب هذه المرة بأن قال "سلطة المطار، خدمة الطوارئ". كانت هذه مخابرة رسمية يتم تسجيل كل كلمة فيها، فالتزم ستافروس بالإجراءات، وقال "هنا برج المراقبة. أتحدث بشأن ثلاثة إلى اثنين، رحلة ترانس - كونتيننتل 747-700، ممر الهبوط الرابع يميناً، وقت الوصول المتوقع هو عشرون دقيقة تقريباً. سرعة الرياح صفر-ثلاثة-صفر في عشر عقدات. ثلاثمئة وعشر أرواح على متنها". لطالما تساءل ستافروس عن سر تسمية المسافرين والطاقم على متن الطائرة بالأرواح، يجعلهم هذا يبدون وكأنهم موتى بالفعل!

كرر العريف تنتل المخابرة، ثم أضاف "سأقوم بإرسال الوحدات".

"شكراً لك أيها العريف".

"شكراً لاتصالك سيدي. نقدر لك صنيعك".

أنهى ستافروس المخابرة، وحكّ صدغيه، وتمتم "حمقى!"

وقف، وجال بعينيه في غرفة برج المراقبة الهائلة، ونظر إلى بضعة رجال ونساء يجلسون محدقين في شاشاتهم، أو يتحدثون عبر سماعاتهم، أو يلقون نظرة على النافذة كل حين وآخر. لم يكن العمل ببرج المراقبة مضنياً كعمل مراقبي الملاحة الجوية الفعليين الذين يجلسون في حجرات الرادار الخالية من النوافذ، هناك بالأسفل؛ ولكن ولّى هذا الزمن. تذكر يوم تسبب اثنان من رجاله في اصطدام طائرتين على المدرج؛ كان يوم إجازته، وربما كان هذا عذراً ساعده على البقاء في عمله هنا حتى الآن.

سار ستافروس نحو النافذة الكبيرة، ومن ارتفاعه ذاك؛ أكثر من ثلاثمئة قدم، أي ما يوازي مبنى من ثلاثين طابقاً، كان يتمتع برؤية كاملة للمطار، والخليج، ومشهد المحيط الأطلسي المدهش، خصوصاً أن السماء صافية وشمس قبيل الغروب من ورائه. نظر إلى ساعته وكانت تقترب من الرابعة من بعد الظهر. من المفترض أن يكون خارج المكان في غضون دقائق، ولكن، هيهات.

كان من المفترض أن يكون في المنزل عند السابعة مساءً لتناول العشاء مع زوجته وضيفين آخرين. بدا واثقاً بحق من أنه يستطيع أن يكون هناك في الوقت المناسب، أو على الأقل متأخراً تأخيراً مقبولاً. حتى لو تأخر أكثر من هذا، فبوسعه الوصول إلى المنزل مسلحاً بقصة جيدة عن سبب تأخره، فالناس يعتقدون أن لديه وظيفة هامة، ولقد عمد إلى تأكيد هذا الظن في بعض الحفلات.

ذكّر نفسه بضرورة الاتصال بالمنزل بعد هبوط الترانس - كونتيننتل، ثم سيتعين عليه أن يتحدث مع قائد الطائرة على الهاتف، ثم كتابة تقرير أولي عن الواقعة. وبافتراض أن الأمر لا يتعدى عطلاً في الاتصال، فبوسعه أن يكون على الطريق إلى المنزل بحلول الساعة السادسة مساءً، وقد حصل على ساعتين من العمل الإضافي. هذا جيد.

أعاد ستافروس محادثته مع إسكينج ثانية في ذهنه، وتمنى لو أن بوسعه الوصول إلى الشريط الذي سجلت عليه كل كلمة قالاها، ولكن إدارة الملاحة الفيدرالية ليست بالغباء بحيث تسمح بهذا.

مرة ثانية، عاود التفكير في مكالمة إسكينج، ليس في الكلام نفسه، ولكن في نبرة صوته؛ من الواضح أن إسكينج كان قلقاً ولم يستطع إخفاء ذلك. إلا أن ساعتين دونما اتصال ليس بالأمر الخطير، ربما هو فقط أمر غير معتاد. للحظة فكّر ستافروس أنه ربما اشتعلت النيران على متن الطائرة ترانس - كونتيننتل 175، وهو سبب كافٍ لتغيير حالة الطوارئ من 3-2 إلى 3-3. فلو أن الأمر تحطم وشيك أو فعليّ، لكانت الحالة 3-4 على الفور، وتلك المكاملة لم تكن بهذا السوء. لكم يكره هذا الموقف الغامض!

بالطبع كان هناك ذاك الاحتمال البعيد بأن تكون حادثة اختطاف، ولكن إسكينج قال إنه لم يتسلم أي إشارة رادار تدل على ذلك.

من ثم كان لدى ستافروس الخياران 3-2 أو 3-3، وبالطبع ستستلزم الحالة 3-3 المزيد من الإبداع في تقريره في حال انتهى الأمر بلا شيء، فقرر أن يستبقي الاحتمال 3-2 وشرع في الذهاب إلى منضدة القهوة.

"سيدي الرئيس".

نظر ستافروس من فوق كتفيه إلى أحد صغار المراقبين لديه، ويُدعى روبرتو هرنانديز، وسأله "ما الخطب؟"

أنزل هرنانديز سماعة رأسه وقال مخاطباً رئيسه "سيدي، لقد تلقيت لتوي اتصالاً من مراقب الرادار حول انعدام إشارة ترانس - كونتيننتل".

سأله ستافروس وهو ينزل كوب القهوة "ثم؟"

"لقد بدأ انقطاع الرادار في وقت مبكر عن الوقت المفترض، والطائرة على وشك الاصطدام بأخرى تابعة لخطوط جوية أميركية تقصد فيلي".

"يا الله...". اتجهت عينا ستافروس إلى النافذة مرة أخرى. لم يستطع فهم كيف أغفل قائد ترانس - كونتيننتل عن رؤية طائرة أخرى في يوم مشرق وصاف كهذا. وحتى لو، فإن أجهزة التصادم التحذيرية كانت ستنطلق حتى قبل الرؤية الفعلية للطائرة الأخرى. كانت تلك هي الإشارة الأولى إلى أن هناك خطباً جللاً بحق. ترى ماذا يحدث هنا بحق الجحيم؟

نظر هرنانديز إلى شاشة راداره، وقال "سيدي، لقد التقطته".

شق ستافروس طريقه إلى حاسوب هرنانديز، وأخذ يحدق في ومضة الرادار. كانت الطائرة تهبط بدقة فوق أحد مدارج مطار كنيدي الشمالية الشرقية الممهدة. تذكر ستافروس أيام كان التواجد داخل برج مراقبة المطار لا يعني أكثر من مجرد النظر عبر النافذة؛ أما الآن، فإن أفراد البرج يستطيعون في الغالب النظر إلى الشاشات الإلكترونية ذاتها التي يراها مراقبو الملاحة الجوية في غرفة الرادار

بالأسفل منهم، بينما الميزة التي يتمتعون بها هنا هي أنهم يستطيعون النظر إلى الخارج إذا ما أرادوا.

التقط ستافروس منظار هرنانديز المتطور، وتحرك نحو النافذة الزجاجية المواجهة للجنوب. كان هناك أربعة ألواح مفاتيح اتصال إلكترونية مثبتة كل على حدة على زوايا قائمة من الزجاج المستدير، بحيث يتسنى للعاملين في المستوى الأدنى أن يجروا اتصالاً متعدداً بينما يقفون ويرون ما يحدث على المدارج، والطرقات الممهدة، والبوابات لدى اقتراب الطائرات. لم يكن هذا ضرورياً، ولكن ستافروس أراد أن يشعر وكأنه خلف عجلة القيادة ما إن تظهر الطائرة للعيان. وصاح سائلاً هرنانديز "السرعة؟"

"مائتا عقدة. بانحدار ثمانية وخمسين قدماً".

"حسناً".

التقط ستافروس الهاتف الأحمر ثانية، وثانية تناهى إليه صوت متحدث الطوارئ في برج المراقبة، ثم أرسل قائلاً "خدمة الطوارئ، البرج، حول".

جاء الصوت ليشق صمت غرفة برج المراقبة وهو يقول "البرج، خدمة الطوارئ". وعلى الفور ميّز ستافروس صوت تنتل، الذي سأل "ما الخطب؟"

"الخطب هو ارتفاع الحالة إلى ثلاثة إلى ثلاثة".

ساد صمت قطعه تنتل بسؤاله "استناداً إلى ماذا؟"

شعر ستافروس أن تنتل قد بدا أقل غروراً.

"استناداً إلى أن الاصطدام بطائرة أخرى بات أمراً وشيكاً".

"اللعنة". تبع هذا صمت، ثم "ما المشكلة في اعتقادك؟"

"ليست لدي أدنى فكرة".

"اختطاف؟"

"إن الاختطاف لا يجعل الطيار يقود بمثل هذه الحماقة".

"نعم، حسناً ربما".

"ليس لدينا وقت للتخمين، فالطائرة المقصودة على بعد نهائي قدره خمسة عشر ميلاً من المدرج الرابع يميناً. أسمعت؟"

"خمسة عشر ميلاً نهائياً من المدرج الرابع يميناً".

قال ستافروس "صحيح".

"سأبلغ بقية الوحدات بالحالة ثلاثة إلى ثلاثة".

"نعم".

قال تنتل "أكد نوع الطائرة".

"ما زالت 747، المجموعة 700، على حدّ علمي. سأتصل بك فور أن نحصل على رؤية للطائرة".

"عُلم".

أنهى ستافروس المكاملة ورفع منظاره مرة أخرى، وبدأ في مسح المدى من آخر المدرج على نحو منهجي. ولكن أفكاره كانت تدور حول مخابرة الراديو التي أجراها لتوه، وتذكر أنه قد التقى بتنتل هذا بضع مرات في اجتماعات لجنة الطوارئ، وأنّ أسلوب الرجل لم يعجبه، رغم شعوره بأنه مؤهل تماماً لعمله. أما بالنسبة لرعاة البقر الذين يسمون أنفسهم *الأسلحة والخراطيم*، فإنهم في الغالب يجلسون حول محطة الإطفاء؛ يلعبون الورق، أو يشاهدون التلفاز، أو يتحدثون عن النساء. كما أنهم ينظفون شاحناتهم كثيراً، فهم يحبون الشاحنات البراقة.

رآهم ستافروس وهم يعملون بضع مرات، وكان متأكداً أنهم قادرون على القيام بأي شيء، بدءاً من حالة تصادم الطائرات وتحطمها، واندلاع النيران على متنها، وحتى اختطافها. على أي حال، هؤلاء الرجال ليسوا من مسؤوليته، وكذلك الموقف برمته ما إن تتوقف الطائرة. حقيقة الأمر أن ستافروس شعر ببعض السعادة حيث إن أزمة الحالة 3-3 هذه ستُنفِق من ميزانية هيئة المطار، لا من ميزانية إدارة الملاحة الفيدرالية.

أنزل ستافروس المنظار، وفرك عينيه، ثم عاود وضعه أمامهما مرة أخرى، وركّز انتباهه على المدرج الرابع يميناً.

كانت فرقتا الإنقاذ قد وصلتا، وشاهد ستافروس تشكيلة رائعة من شاحنات خدمة الطوارئ على طول حافة المدرج، وقد راحت مشاعلها الحمراء تدور وتلمع. وقفت تلك الشاحنات متباعدة عن بعضها البعض، وهو إجراء تم وضعه لتجنب اصطدام وحش كالطائرة 747 بهم جميعاً في حال وقوع حادث ارتطام لدى الهبوط.

رأى ستافروس اثنتين من شاحنات التصدي السريع، وأربعاً من سيارات الإطفاء الكبيرة من طراز T2900، وشاحنة إنقاذ ثقيلة واحدة، وسيارتي إسعاف، وستاً من سيارات شرطة المطار، مزودة بكافة ترددات الراديو لجميع الوكالات ذات الصلة في نيويورك، بالإضافة إلى مركز هاتفي كامل. كما وقع نظر ستافروس على شاحنة نقل هازمات[4] - شاحنة المواد الخطرة - حيث طاقمها مدرب من قِبل جيش

الولايات المتحدة الأميركية. على مسافة بعيدة وقفت شاحنة السلم المتحرك، والمستشفى المتنقل. لم يكن ينقص هذا المشهد سوى المشرحة المتنقلة، حيث لن تأتي إلا إذا دعت الحاجة، وحتى هذه اللحظة لم يكن هناك داع للاستعجال في هذا الشأن.

أخذ إد ستافروس يتأمل المشهد الذي شكّله هو بضغطة يسيرة على الهاتف الأحمر. جزء في داخله لم يرد إحداث مشكلة بشأن هذه الطائرة المقتربة، ولكنّ جزءًا آخر في الحقيقة، لم يعلن حالة 3-3 واحدة منذ سنتين، وساوره قلق من أن يكون قد بالغ في رد فعله هذه المرة. ولكن المبالغة في رد الفعل أفضل من أن يُتهم بالتقصير.

صاح هرنانديز "سبعة أميال".

"حسناً". قال ستافروس، وبدأ في مسح الأفق حيث يلتقي الأطلسي بسديم نيويورك.

"ستة أميال".

"رأيتها". حتى بالمنظار المكبر لم تكن الطائرة 747 أكثر من بريق في كبد السماء الزرقاء، ولكنها كانت تزداد حجماً بمرور كل ثانية.

"خمسة أميال".

استمر ستافروس في التحديق في الطائرة الآخذة في الاقتراب. كان قد رأى العديد من طائرات الجامبو وهي تقترب بهذا الشكل، ولم يكن في هذه الطائرة بالتحديد ما يزعجه، سوى أن أجهزة الراديو فيها لم تزل صامتة على نحو مخيف.

"أربعة".

قرر ستافروس أن يتحدث مباشرة إلى الشخص المسؤول عن فرق الإنقاذ، فالتقط جهاز اللاسلكي المضبوط على تردد الوحدة الأرضية، وأذاع "وحدة الإنقاذ واحد. هنا البرج".

أتاه صوت عبر مكبر الصوت يقول "البرج. هنا وحدة الإنقاذ واحد، كيف لي أن أساعدك اليوم؟"

يا الله. أحمق متحذلق آخر، حدّث ستافروس نفسه. *لعلها مؤهلات العمل هنا!*

"هنا السيد ستافروس، المسؤول في البرج، مع من أتحدث؟"

"هنا العريف آندي ماكيغل، عازف الغيتار الأول، فرقة *الأسلحة والخراطيم*. ماذا تريد أن نعزف لك؟"

قرر ستافروس أن ما لا يريده الآن هو لعبة هذا الأحمق، فقال "أود أن أتصل بك بشكل مباشر".

"تم الاتصال".

"حسناً، إن الطائرة على مرمى البصر يا ماكيغل".

"هذا صحيح. نحن أيضاً نراها".

"إنها على المسار".

"جيد، فأنا أستاء كثيراً عندما تهبط الطائرات فوق رؤوسنا".

"ولكن كن مستعداً".

"ألا توجد إشارة راديو بعد؟"

"كلا".

قال هرنانديز "ميلان". ثم أضاف "ما زالت على المسار، على ارتفاع ثمانمئة قدم".

نقل ستافروس البيان إلى ماكيغل الذي أكد بدوره تلقيه إياه.

قال هرنانديز "ميل واحد، على المسار، بارتفاع خمسمئة قدم".

كان ستافروس يرى الطائرة الضخمة بوضوح الآن، فأذاع إلى ماكيغل "أؤكد أنها طائرة 747-700. أنزلت العجلات، والألواح تبدو طبيعية".

أجاب ماكيغل "عُلم. سنؤمن لها الطريق".

قال ستافروس "جيد جداً. الأمر لك الآن". ثم أنهى حديثه، وترك اللاسلكي.

أما هرنانديز، فقد ترك لوحة مفاتيحه، وذهب للوقوف إلى جوار ستافروس، ثم اصطف إلى جانبهما أمام النافذة بعض الرجال والنساء ممن لم تكن لديهم مهام عاجلة.

شاهد ستافروس الطائرة 747، وقد صعق لضخامة الطائرة التي عبرت لتوها فوق المدرج، وهي تهبط إلى الأسفل نحو الأسفلت. لم يكن بها أو بحركتها ما قد يبدو مختلفاً عن أي طائرة 747 لمست الأرض من قبل. ولكن أدرك ستافروس على نحو مفاجئ أنه لن يعود إلى منزله في الوقت المناسب للعشاء.

الفصل الخامس

أنزلتنا الشاحنة عند صالة الوصول الدولية، أمام شعار الخطوط الجوية الهندية، ثم توجهنا إلى المنطقة المخصصة لترانس - كونتيننتل.

سار كل من تيد ناش وجورج فوستر معاً، بينما تبعناهما أنا وكيت مايفيلد. كانت الفكرة ألا نبدو كأربعة فيدراليين في مهمة رسمية، في حال كان أحد يراقبنا. أعني أنه يجب عليك أن تتصرف بالحنكة والمهارة كما تملي عليك حرفيتك، حتى وإن كنت مستخفاً بأعدائك.

تفحصت لوحة الوصول الضخمة، وكانت تعلن عن وصول الرحلة ترانس - كونتيننتل 175 في الوقت المحدد لها، مما يعني أنه من المفترض هبوطها في غضون عشر دقائق، عند بوابة وصول رقم 23.

وبينما كنا نسير نحو صالة الوصول، كنا نتفحص الناس من حولنا. بالطبع لا يحدث عادة أن ترى أناساً سيئين يحملون أسلحتهم أو شيئاً كهذا، ولكن من المدهش كيف أنك بعد عشرين عاماً من العمل في مجال تطبيق القانون تستطيع بسهولة التعرف على المتاعب عندما تقابلها.

على أي حال، لم تكن الصالة مزدحمة عصر ذلك السبت من شهر أبريل، وبدا الجميع طبيعيين تماماً، ما عدا أهل نيويورك الذين يبدون دائماً كما لو كانوا محبطين أو نافدي الصبر.

قالت كيت موجهة حديثها لي "أريدك أن تعامل تيد بتهذيب".

"حسناً".

"أنا جادة في هذا الشأن".

"نعم سيدتي".

فقالت في شيء من الحكمة "كلما أزعجته، كلما كان هذا ممتعاً بالنسبة له".

في الحقيقة، كانت كيت محقة. ولكن، هناك شيء في تيد هذا يستفزني؛ جزئياً بسبب صلفه وعقدة الشعور بالعظمة لديه، ولكنني في الغالب لا أثق به.

كان جميع من ينتظرون وصول رحلة دولية يقفون خارج المنطقة المخصصة للجمارك في الطابق الأرضي، فاتجهنا إلى هناك، وسلكنا طريقنا وسط الحشد، باحثين عن أي شخص يتصرف بشكل مريب، أياً كان هذا الشكل.

أفترض أن الإرهابي المهاجم متوسط المستوى يعرف أنه في حال كان هدفه محمياً، فإنه لن يخرج من دائرة الجمرك، إلا أن المستوى العام للإرهابيين الذين نجدهم في هذه البلاد يُعد منخفضاً لسبب أو لآخر، والأشياء الغبية التي اقترفوها أسطورية بحق. وكما قال نيك مونتي، يقوم رجال وحدة مكافحة الإرهاب بتبادل الروايات الإرهابية الغبية في الحانات، ثم يخبرون الصحف بقصص مختلفة تماماً

حول خطورة هؤلاء الرجال الغاية في الخطورة. إنهم خطرون بحق، ولكن على أنفسهم. ولكن، فلنتذكر ثانية مركز التجارة العالمي، ناهيك عن حادثتي تفجيرات السفارتين في أفريقيا.

قالت كيت "سنمضي هنا دقيقتين قبل أن نتوجه إلى البوابة".

"هل أرفع لوحة الترحيب بالسيد أسد خليل؟"

"في وقت لاحق. يبدو أنه موسم الارتداد!"

"ماذا تعنين؟"

"كان لدينا مرتد آخر في فبراير".

"أخبريني عنه".

"نفس الشيء. رجل من نفس البلد يسعى إلى اللجوء".

"وأين سلّم نفسه؟"

قالت كيت "في باريس كذلك".

"وماذا حدث له؟"

"احتجزناه هنا لبضعة أيام، ثم اصطحبناه إلى واشنطن العاصمة".

"وأين هو الآن؟"

"لماذا تسأل؟"

"لماذا؟ في الأمر شيء بالطبع".

"أليس كذلك؟ ماذا تعتقد؟"

"يبدو نوعاً من التدريب، أو كتجربة لمعرفة ماذا يحدث عندما يذهب أحدهم إلى السفارة الأميركية في باريس ليرتد".

"أنت أذكى مما تبدو. هل تلقيت أي تدريبات لمكافحة الإرهاب من قبل؟"

"نوعاً ما، فقد كنت متزوجاً". ثم أضفت قائلاً "كما أنني قرأت الكثير من الروايات عن الحرب الباردة".

"كنت أعرف أننا أصبنا بتعيينك".

"صحيح. وهل هذا المرتد هارب، أم أنه يستطيع الاتصال بزملائه في بلده؟"

"لقد كان تحت الرعاية المطلقة، ثم انشق".

"ولماذا الرعاية المطلقة؟"

أجابت كيت "حسناً، لقد كان شاهداً طيِّعا".

نوّهت أنا "لم يعد كذلك؟"

لم تجب كيت، ولم أوجه لها أي أسئلة أخرى. كنت أرى أن الفيدراليين يعاملون الجواسيس المتعقبين والإرهابيين المرتدين بشكل ألطف بكثير من تعامل رجال الشرطة مع المجرمين المتعاونيين. ولكن هذا رأيي أنا وحسب.

ذهبنا إلى بقعة معدة مسبقاً بالقرب من باب دائرة الجمرك، وقابلنا محقق هيئة المطار هناك، وكان يُدعى فرانك.

سأل فرانك "أتعرفون الطريق، أم تحتاجون إلى رفقة؟"

أجاب فوستر "أنا أعرف الطريق".

قال فرانك "حسناً، سأصطحبكم إلى البداية". ودلفنا عبر باب دائرة الجمرك، حيث توجه فرانك إلى بعض رجال الجمارك مخبراً إياهم "إنهم فيدراليون. فلتدعوهم يمرّون".

لم يبدُ الاهتمام على أحد. أما فرانك فقد تمنى لنا حظاً سعيداً، وقد سرّه أنه لم يضطر إلى السير معنا ذاك الطريق الطويل حتى البوابة 23.

مشينا نحن الأربعة عبر المنطقة الواسعة للجمارك والحقائب، ثم عبر رواق يفضي إلى أكشاك فحص الجوازات، ولم يسألنا أحد على الإطلاق عمّا نفعله هناك.

بوسعك أن تشهر في وجه هؤلاء الحمقى شارة روي روجرز، وسيدَعونك تمر حاملاً صاروخاً على كتفك.

باختصار، يمكن القول إن المستوى الأمني في مطار كنيدي هو بمثابة كابوس بشع؛ بوتقة هائلة من مجموعات الأفراد الجيدين، والسيئين، والقبيحين، والأغبياء، حيث إن ثلاثين مليون مسافر يجيئون ويذهبون كل عام.

كنا نسير معاً الآن أسفل أحد تلك الممرات السريالية الطويلة التي تصل منطقة الجوازات والهجرة ببوابات الوصول. في الواقع، كنا نفعل عكس ما يفعله المسافرون الواصلون، واقترحت أن نسير إلى الخلف حتى لا نلفت الانتباه، ولكن لم يرَ أحد منهم أن هذا ضرورياً، ولا حتى مضحكاً.

كنت وكيت مايفيلد نتقدم ناش وفوستر، حين سألتني كيت "هل درست تقرير أسد خليل النفسي؟"

لم أتذكر أنني طالعت أي تقارير نفسية في ذاك الملف، وأخبرتها بذلك.

فقالت "بلى. كان هناك في الملف، ويوضح ذاك التقرير أن رجلاً مثل أسد خليل إنما يعاني من نقص في تقدير الذات، ومشاكل نفسية تعود إلى طفولة غير مكتملة، ويحتاج إلى معالجتها".

"معذرة؟"

"إنه من نوع الرجال الذين يحتاجون إلى استعادة الثقة بالنفس وقيمتها".

"أتعنين أنني لا أستطيع أن أحطم أنفه؟"

"كلا، لا تستطيع، بل عليك تعزيز إحساسه بشخصيته وإنسانيته".

ألقيت نظرة عليها، ولمحت على وجهها ابتسامة. ولأنني رجل لمّاح فَطِن أدركت أنها كانت تمازحني، فضحكت، وضربت هي فوق ذراعي مازحة، ويبدو أنني أحببت منها هذا الفعل!

عند البوابة وقفت امرأة في زيّها الأزرق الفاتح وهي تحمل لوح كتابة صغيراً وراديو مزدوجاً. أظن أننا بدونا لها خطرين أو شيئاً كهذا، حيث بدأت تثرثر في ذاك الراديو وهي ترانا نقترب.

تابعت كيت سيرها نحو المرأة وهي تشهر شارتها الفيدرالية، تحدثت إليها حتى اطمأنت؛ فالجميع مذعورون هذه الأيام، خاصة في المطارات الدولية. عندما كنت طفلاً، اعتدنا أن نذهب مباشرة إلى البوابة للقاء الواصلين، وأن نأخذ معنا كاشف معادن إلى الشاطئ لنعثر على العملات المعدنية التي فقدها الناس، ولم يكن الاختطاف يحدث إلا للشاحنات على الطريق. ولكن الإرهاب الدولي غيّر وجه العالم، وللأسف كل هذا الخوف لا يعني بالضرورة وجود مستوى أمني جيد.

على أي حال، ذهبت وناش وفوستر وتحدثنا بلباقة مع المرأة، وعرفنا أنها المسؤول الإداري لبوابة ترانس - كونتيننتل، وكانت تُدعى ديبرا ديلفيتشيو، ولقد أعجبني الوقع الصوتي لاسمها. وأخبرتنا أن الطائرة - على حدّ علمها - ستهبط في موعدها، وأن الأمن مستتب حتى الآن.

هناك إجراء رسمي ثابت لتسكين، ونقل، وإنزال السجناء ومرافقيهم من الطائرات؛ فهم آخر من يصعد إلى الطائرة وأول من يتركها. حتى الشخصيات الهامة، كالسياسيين مثلا، يتعين عليهم الانتظار حتى ينزل السجناء ومرافقوهم، إلا بالطبع عندما يكون هؤلاء السياسيون يضعون الأصفاد، فإنهم ينزلون أولاً.

قالت كيت موجهة حديثها إلى السيدة ديلفيتشيو "عندما تحركين السلم المتحرك نحو الطائرة، سنسير نحن نحوها وننتظر هناك. أول من سينزل من الطائرة هم الأفراد الذين سنقابلهم، وسنرافقهم أسفل سلم الممشى حتى المدرج، حيث ستكون السيارة في انتظارنا، ولن ترينا ثانية، ولن نتسبب في إزعاج مسافريكم على الإطلاق".

سألت ديلفيتشيو "من ستقابلون؟"

كان ردي عليها "ألفيس بريسلي".

ثم سألها فوستر "هل سبق وأن سألك أي أحد آخر عن هذه الطائرة؟"

هزّت رأسها نافية.

تفحص ناش الصورة المثبتة في بطاقة هويتها المعلقة على قميصها.

شعرت أنه يجب عليّ فعل أو قول شيء ذكي، حتى ولو على سبيل الاستفادة من الخمسين دولاراً التي دفعتها لسيارة الأجرة من مانهاتن إلى هنا، ولما لم يكن ممكناً أن أسأل ديلفيتشيو عمّا إذا كان لديها رفيق عربي، صَمَتّ، حيث كان هذا كل ما يدور في رأسي آنذاك.

هكذا وقفنا نحن الخمسة هناك، نحاول أن نبدو وكأننا نستمتع بوقتنا؛ فدأبنا على النظر إلى ساعاتنا، والتحديق في الصور السياحية الغبية المعلقة على جدران الرواق.

فجأة، تذكر فوستر أنه يحمل هاتفاً خلوياً، فأخرجه وكأنه مسرور لأنه وجد شيئاً يفعله. فضغط على الأزرار، وانتظر قليلاً، ثم قال "نيك، معك جورج. نحن عند البوابة، أهناك جديد عندك؟" قال هذا وراح يستمع إلى نيك مونتي، ثم قال "حسناً، نعم، صحيح. حسناً، جيد".

ثم فقد استمتاعه بالمكالمة النمطية تلك، فأنهاها وقال معلناً "الشاحنة في موقعها المحدد على المدرج قرب هذه البوابة، كما وصل رجال هيئة المطار ومديرية شرطة نيويورك؛ خمس سيارات، وعشرة رجال، وسيارة الدورية التمويهية".

سألته "ألدى نيك أخبار عن فريق اليانكيز؟"

"كلا".

"إنهم يلعبون الآن مع فريق ديترويت في الاستاد. لعلها الجولة الخامسة الآن".

هنا تطوعت ديبرا ديلفيتشيو قائلة "كانوا مهزومين ثلاثة إلى واحد في آخر الجولة الرابعة".

"سيكون هذا درساً قاسياً لهم".

ثرثرنا بكلام لا معنى ولا قيمة له، قبل أن أسأل كيت "هل سويتِ ضريبة الدخل خاصتك؟"

"بالطبع، فأنا محاسبة في آخر الأمر".

وقف تيد ناش هناك، مستنداً بظهره إلى الحائط، وقد دس يديه في جيبي سترته، محدقاً في الفراغ. ربما كان يفكّر في الأيام الخوالي، أيام سلسلة الجولات العالمية بين فريقي وكالة الاستخبارات المركزية ونظيرتها السوفياتية، ولا يصدق أن فريقه الفائز قد تدنى للعب تلك المباريات التافهة. قلت لكيت "ظننتكِ محامية".

"وهذا صحيح أيضاً"

"أثرتِ إعجابي بحق! وهل تجيدين الطهي؟"

"بالطبع أجيده، بل وحصلت على الحزام الأسود في الكاراتيه".

"هل تطبعين على الحاسوب؟"

"سبعون كلمة في الدقيقة، ومؤهلة كرامية محترفة لخمسة أنواع مختلفة من المسدسات، وثلاثة أنواع من البنادق".

"أتستخدمين براونينغ 9 مل؟"

"لا مشلكة".

"أتراهينني في مباراة لإطلاق النار؟"

“طبعاَ، وقتما تريد”.

“خمسة دولارات للرمية الواحدة”.

“بل عشرة”.

اتفقنا وتصافحنا.

لا أستطيع القول إنني كنت قد بدأت أقع في غرامها، ولكن لا مفر من الاعتراف بأنني كنت منبهراً بها.

كانت الدقائق تمر، فقلت مازحاً “دخل هذا الرجل إلى المشرب وقال لعامل البار: أتعرف؟ كل المحامين مغفّلون! فصاح به رجل من آخر المشرب غاضباً: يا أنت... لقد سمعت ما قلته، وأرفضه تماماً. فرد عليه الرجل الأول: لماذا؟ هل أنت محامٍ؟ فأجابه: كلا، ولكنني مغفل!”

ضحكت السيدة ديلفيتشيو، ونظرت إلى ساعتها، ثم إلى جهاز الراديو الذي تحمله.

مكثنا جميعاً في انتظارنا هذا.

أحياناً يساورك ذاك الشعور بأن الأمور ليست على ما يرام. وهذا ما شعرت به آنذاك.

الفصل السادس

كان آندي ماكيغل، العريف المسؤول عن طاقم وحدة خدمة الطوارئ، المعروفة باسم *الأسلحة والخراطيم*، واقفاً على حافة شاحنة التصدي السريع، والخاصة بإخماد النيران وأعمال الإنقاذ العاجلة، وقد ارتدى بذلته الفضية، وبدأ يتعرق داخل هذه البذلة غير القابلة للاشتعال. عدّل من وضع منظاره المكبر، ووجَّههُ نحو طائرة البوينغ 747 وهي تقترب. وحسبما رأى آنذاك، بدت الطائرة في حالة جيدة، وهي تقترب بشكل طبيعي نحو الممر المحدد لها.

فأطل برأسه داخل النافذة المفتوحة، وقال لرجل الإطفاء التابع له، طوني سورينتينو "لا توجد إشارة واضحة على وجود مشكلة. فلتذع هذا".

كان سورينتينو مرتدياً سترة الإطفاء خاصته كذلك، وبدوره التقط الميكروفون الموصل لشاحنات خدمة الطوارئ الأخرى، وكرر تقرير الحالة الذي قاله ماكيغل إلى كافة الشاحنات الأخرى، وردت كل منها مؤكدة تلقيها التقرير، متبوعاً بإشارة الاتصال.

قال ماكيغل لسورينتينو "أخبرهم أن يتبعوا نمط الانتشار القياسي، وأن يتبعوا الطائرة الهدف حتى تترك المدرج".

أذاع سورينتينو تعليمات ماكيغل، ومرة أخرى أكد الجميع تلقيهم الأوامر. ثم تحدث رون راموس - رئيس الطاقم الآخر - إلى ماكيغل عبر اللاسلكي، وسأله "أما زلت بحاجة إلينا يا آندي؟"

"كلا، ولكن فلتبقَ متأهباً. لا زالت الحالة ثلاثة إلى ثلاثة".

"يبدو أنها ثلاثة إلى لا شيء".

"نعم، ولكن ما زلنا لا نستطيع التحدث إلى الطيار. فلتبقَ إذاً".

ثبّت ماكيغل منظاره نحو برج مراقبة إدارة الملاحة الفيدرالية البعيد، ومن خلال انعكاس الصورة على زجاج النافذة، استطاع أن يرى الحشد المصطف بجوارها. من الواضح أن رجال برج التحكم قلقون للغاية.

فتح ماكيغل باب الجانب الأيمن للشاحنة، وانزلق إلى الداخل ليستقر بجانب سورينتينو الذي كان جالساً في السيارة الضخمة، خلف عجلة القيادة، وقال "ماذا

تعتقد؟"

"إنهم لا يدفعون لي لأعتقد".

"ولكن ماذا لو كان لك هذا؟"

"أريد أن أعتقد أنه لا توجد مشكلة إلا في ما يتعلق بأجهزة الراديو. فأنا لا أريد أن أشترك في إطفاء النيران على طائرة اليوم، ولا أن أشتبك مع مختطفين في إطلاق للنار".

صمت ماكيغل ولم يجب.

جلسا صامتين لبضع ثوانٍ. كانا يشعران بالحر بسبب سترتي الإطفاء، فضغط ماكيغل على مفتاح مروحة التهوئة في الشاحنة.

عمد سورينتينو إلى فحص الأضواء والمقاييس في لوحته؛ كانت الشاحنة تحتوي على تسعمئة رطل من مسحوق K الأرجواني الذي يستخدم في إخماد النيران، وسبعمئة وخمسين غالوناً من المياه، ومئة غالون من المياه المخففة، فقال لماكيغل "كل الأنظمة معدة للتشغيل".

فكّر ماكيغل أن هذه كانت المرة السادسة في هذا الأسبوع التي يقومون فيها بهذا التأهب، غير أن مرة واحدة فقط منها كانت بالفعل ضرورية؛ حيث اشتعلت النيران في مكابح الطائرة دلتا 737. في الواقع، مرت خمس سنوات منذ أن اشترك ماكيغل آخر مرة في إخماد حريق طائرة حقيقي، كانت تلك الإيرباص 300، حيث اشتعل محركها، وخرجت عن السيطرة. ولكنه لم يشهد أبداً واقعة اختطاف، ولم يشهد ذلك سوى رجل واحد من رجال *الأسلحة والخراطيم*، ولم يكن في مناوبة عمل اليوم.

قال ماكيغل لسورينتينو "ما إن تترك الطائرة المدرج، سنتبعها إلى البوابة".

"حسناً، أتريد معنا أحد؟"

"نعم، سنصطحب اثنتين من سيارات الدورية، فربما استدعت الحالة على متن الطائرة وجودهما".

كان ماكيغل يعرف أن لديه فريقاً قوياً، فكل فرد في فريق *الأسلحة والخراطيم* كان يعشق عمله، ولم يكن

أي منهم ليتوانى عن المشاركة في أي مهمة، سواء في الأماكن القذرة كمحطات حافلات هيئة المطار، أو في الجسور والأنفاق، أو دوريات المطار. إنهم يمضون وقتهم في مطاردة العاهرات، والقوادين، وتجار المخدرات، والمدمنين، فيتخلصون من عديمي النفع في إمبراطورية هيئة المطار الواسعة الانتشار، ويطاردون المقامرين والسكارى فوق الجسور وفي الأنفاق، ويقبضون على الأطفال الهاربين من ميدويست في محطات الحافلات، وما إلى ذلك من المهام.

أن تكون شرطياً في هيئة المطار إنما يعني مزيجاً عظيماً من هذا أو ذاك، وقسم *الأسلحة والخراطيم* هو النموذج المثالي لهذا، وكل فرد في هذا الفريق هو متطوع تلقى تدريباً متميزاً، وهم - نظرياً - مأهلون لمكافحة الوقود المشتعل، وتبادل إطلاق النيران مع الإرهابيين المهووسين، وإجراء الصدمات والتنفس الصناعي لضحايا النوبات القلبية، فجميعهم أبطال بحق. ولكن العقد الأخير كان هادئاً جداً، وتساءل ماكيغل إذا كان هذا قد جعلهم أقل صلابة.

كان سورينتينو يضع رسم أرضية الطائرة 747-700 على قدميه ليدرسه، ثم قال "إنها طائرة ضخمة حقاً".

"نعم".

كان ماكيغل يتمنى أن تكون المشكلة ميكانيكية، وأن يكون الطيار من الذكاء بحيث أفرغ الوقود المتبقي. كان ماكيغل يرى في الطائرات النفاثة شيئاً أفضل قليلاً من القنابل الطائرة؛ وقود منسكب، محركات ساخنة جداً، أسلاك كهربائية، ومن يعرف ماذا يحمل جزء الأمتعة والبضائع، فتحلق الطائرة في الفضاء وهي على هذه الحالة لتعبر عدة مدن. لم يذكر ماكيغل لأحد أبداً خوفه من التحليق في طائرة، في الحقيقة، إنه لم يفعل ولن يفعل هذا أبداً؛ فمنازلة الوحش على الأرض أفضل كثيراً من أن تكون داخل معدته.

راح آندي ماكيغل وطوني سورينتينو يحدقان خارج الزجاج الأمامي إلى سماء أبريل الجميلة. كانت الطائرة 747 تقترب ويزداد حجمها، حتى أصبحت ذات لون

وعمق يتضاعفان بمرور كل ثانية.

قال سورينتينو "تبدو بحالة جيدة".

"نعم". التقط ماكيغل منظاره، ووجّهه نحو الطائرة المقتربة. كانت الطائرة الكبيرة قد أنزلت أربع عجلات منفصلة؛ اثنتان أسفل الأجنحة، واثنتان من منتصف الهيكل، بالإضافة إلى عجلة الأنف، فكان مجموعها أربعة وعشرين إطاراً، وقال ماكيغل "الإطارات تبدو سليمة".

"هذا أمر جيد".

واصل ماكيغل تحديقه في الطائرة التي باتت الآن تحوم على بعد بضع مئات من الأقدام فوق وبعد الطرف البعيد من مدرج مطار كنيدي الشمالي الشرقي الممتد بطول ميلين. وبالرغم من خوفه من الطيران، فإن تلك الوحوش الهائلة تأسر فؤاده، ولطالما بدا له الإقلاع والهبوط ضرباً من السحر. كان أثناء فترة عمله قد صعد إلى هذه الوحوش الأسطورية بضع مرات عندما كان سحرها يختفي خلف النار والدخان، فلم تكن بالنسبة له سوى حريق مستعر، ولا تكاد تختلف عن أي شاحنة أو بناية تلتهمها النيران، فتكون مهمته أن يحول دون حدوث ذلك. لكن حتى يحدث هذا، فإنها تبدو له وحوشاً هائلة وطائرة، وكأنها تصل من بعد آخر، فتصدر أصواتاً غير آدمية، وتتحدى كل قوانين الجاذبية الأرضية.

قال سورينتينو "لقد أوشكت على الهبوط".

بالكاد سمعه ماكيغل، واستمر في النظر عبر منظاره. تدلت معدات الهبوط في بادرة متحدية وكأنها تأمر المدرج أن يصعد إليها. كان أنف الطائرة ما يزال مرتفعاً، بينما الإطاران المثبتان على الأنف مرتكزان فوق مستوى مُعدة الهبوط الرئيسية. كانت اللوحات منزلة إلى الأسفل، وكل من السرعة، والارتفاع، والزوايا في حالة جيدة. برقت الموجات الحرارية خلف المحركات الأربعة العملاقة، وبدت الطائرة بحالة جيدة قلباً وقالباً؛ هكذا فكّر ماكيغل.

سأل سورينتينو "أثمة خطب بها؟"

"كلا".

عبرت الطائرة 747 عتبة المدرج، وشرعت في الهبوط نحو النقطة المألوفة على بعد عدة مئات من الياردات بعد تلك العتبة. انتصب الأنف قبيل استواء واصطفاف أولى الإطارات من موقعها المبدئي المائل. ثم هبت سحابة من الدخان الفضي من خلف كل مجموعة من الإطارات فيما كانت ترتطم بالأسفلت، في سرعة انطلقت من الصفر إلى المائتين ميل في الساعة في ثانية واحدة. وبالرغم من أن الفترة بين احتكاك الإطارات الرئيسية الأولى واحتكاك إطاري الأنف لم تتعدَ أربع أو خمس ثوانٍ، إلا أن هيبة الموقف جعلتها تبدو أطول بكثير، تماماً كتمرير الكرة المثالية في منطقة النهاية.

أخيراً كان الهبوط.

انبعث صوت من سماعة شاحنة الطوارئ معلناً "الإنقاذ أربعة تتحرك".

ثم صوت آخر يقول "الإنقاذ ثلاثة، أنا على يسارك".

كانت الشاحنات الأربع عشرة تتحرك جميعها وتعلن عن ذلك، وتوجهت واحدة تلو الأخرى نحو المدرج بينما تخطتهن الطائرة الضخمة.

كانت الطائرة 747 تمر بجوار شاحنة ماكيغل عندما راوده إحساس بأن سرعتها أكبر كثيراً مما يجب.

ضغط سورينتينو على دوّاسة الوقود، فهدرت الشاحنة V8 بينما كانت تنطلق إلى المدرج في إثر الطائرة التي راحت تبطئ من سرعتها.

قال سورينتينو "آندي، لا توجد قوة دفع عكسية".

"ماذا؟"

ما إن لحقت الشاحنة بالطائرة حتى لاحظ ماكيغل أن المجارف خلف كل من المحركات الأربعة ما زالت في الوضع الذي تكون عليه عند الطيران. فتلك الألواح المعدنية المتمحورة - وكل منها في حجم باب الحظيرة - لم تكن في الوضع الذي يسمح بتحويل انفجار النفاثة إلى زاوية أمامية أكبر أثناء الاندفاع، مما تسبب في سرعة الطائرة الهائلة تلك.

تفقد سورينتينو عداد السرعة لديه، وقال "مئة وعشرة".

"سرعة عالية جداً. سرعتها هائلة". كان ماكيغل يعرف أن البوينغ 747 قد صُممت لتتوقف فور كبح عجلاتها، وكان هذا المدرج طويلاً بما يفي بالغرض، وكانت هذه أول إشارة مرئية إلى أن شيئاً مزعجاً يحدث.

استمرت الطائرة 747 في اندفاعها بمعدل إبطاء أقل من المعتاد، ولكن لا شك في أنها كانت تبطئ من سرعتها. كان ماكيغل في الشاحنة التي تتقدم ركب اللحاق بالطائرة، وكان في إثره خمس شاحنات أخرى، متبوعة بست من سيارات الدورية، وخلفهم جميعاً سيارتا إسعاف.

التقط ماكيغل الميكروفون، وأعطى كل سيارة من السيارات تعليماته، فاتخذت جميعها مواقع حول الطائرة الكبيرة المتثاقلة؛ شاحنة التصدي الطارئ في النهاية، وشاحنتان من طراز T2900 على كل جانب، وانطلقت سيارات الدورية والإسعاف نحو مؤخر الطائرة. عَبَرَ ماكيغل وسورينتينو تحت جناح الطائرة الهائل، واتخذا موقعاً بالقرب من أنف الطائرة بينما كانت مستمرة في الإبطاء. نظر ماكيغل إلى الطائرة من نافذة الشاحنة، وصاح إلى سورينتينو محاولاً أن يطغى صوته على صوت هدير الطائرة، وقال "أنا لا أرى مشكلة".

كان سورينتينو مركزاً انتباهه على سرعته والمسافة التي تفصله عن الطائرة، ولكنه قال "لماذا لا يستخدم قوة الدفع العكسية لديه؟"

أبطأت الطائرة 747 من سرعتها حتى توقفت أخيراً على بعد نحو ربع ميل قبل نهاية المدرج، وقد ارتفع أنفها وانخفض مرتين في آخر قوة اندفاع لها.

توقفت كل من شاحنات T2900 على بعد أربعين ياردة من الطائرة، بواقع سيارتين على كل جانب، بينما توقفت شاحنة للتصدي الطارئ أمامها وأخرى خلفها، وتوقفت سيارتا الإسعاف خلف الطائرة، فيما انضمت سيارات الدورية الست إلى شاحنة خدمة الطوارئ، بالرغم من أن كلاً من سيارات الدورية كانت على مسافة من الطائرة أبعد من سيارات الإطفاء. ووفقاً للإجراءات العملية القياسية، ترجل الرجال الستة من عربات الدورية، واتخذوا جوانب سياراتهم كأغطية واقية بعيداً عن الطائرة، وكان كل من الرجال مسلحاً إما ببندقية قصيرة المدى، أو بندقية آلية من طراز AR-15.

ظل رجال الشاحنات داخل سياراتهم، والتقط ماكيغل ميكروفونه، وأذاع إلى الشاحنات الخمس الأخرى "هل لاحظ أي منكم شيئاً؟" لم تأتِه أي إجابة، كان هذا أمراً جيداً، حيث تنص الإجراءات على أن تبقي سيارات الإنقاذ أجهزة الراديو الموجودة فيها صامتة ما لم يكن هناك أمر شديد الأهمية ووثيق الصلة بالحالة يجدر قوله.

شرع ماكيغل يفكر في خطوته التالية. لم يستخدم الطيار قوة الدفع العكسية، ومن ثم فقد اضطر إلى استخدام المزيد من كبح العجلات. قال ماكيغل لسورينتينو "تحرك نحو الإطارات".

اقترب سورينتينو من الإطارات الرئيسية على جانب الطائرة الأيمن. كان إخماد نيران المكابح المشتعلة هو أساس عملهم. لم يكن شيئاً يتسم بالبطولة، ولكن إن لم يسكبوا بعض الماء على المكابح الشديدة السخونة بأسرع ما يمكن، فمن المحتمل جداً أن تنفجر كافة أجهزة الهبوط والإقلاع، وتتحول فجأة إلى ألسنة من اللهب المتطاير. ولم يكن هذا ليضر بالإطارات فحسب، فمع وجود خزانات الوقود فوق المكابح مباشرة، إن انفجرت الخزانات فلن يبقى أي شخص أو أي شيء في مسافة مئة ياردة من الطائرة. أوقف سورينتينو الشاحنة على مسافة أربعين قدماً من الإطارات.

رفع ماكيغل منظاره، وأخذ يحدق بشدة في أقراص المكابح، ففي حال كانت متوهجة احمراراً، فالوقت قد حان إذاً لبدء الرش، ولكنها بدت له سوداء تماماً مثلما كان من المفترض بها أن تكون.

التقط ماكيغل الميكروفون مجدداً وأمر الشاحنات T2900 بفحص مجموعات العجلات الثلاث الباقية.

جاء تقرير الشاحنات الأخرى حول سخونة المكابح تقريراً سلبياً.

أذاع لهم ماكيغل "حسناً، تراجعوا".

ابتعدت شاحنات T2900 الأربع عن الطائرة 747. ولما كان ماكيغل يعرف أن سبب وجودهم هنا الآن هو انقطاع اتصال الراديو بالطائرة، فكّر أنه ربما يجدر به أن يحاول الاتصال بقائدها، فتحدث إليه باستخدام التردد الأرضي "ترانس - كونتيننتل 175، هنا إنقاذ واحد. هل تسمعني؟ حوّل".

لم يتلقَ أي إجابة.

انتظر ماكيغل لبرهة، ثم عاود الكرة، ونظر إلى سورينتينو الذي هزّ كتفيه.

ظلت شاحنة الطوارئ، وسيارات الشرطة، وسيارات الإسعاف، وحتى الطائرة 747 بلا حراك. كانت محركاتها الأربعة ما زلت تمور، بيد أنها كانت ساكنة تماماً.

قال ماكيغل لسورينتينو "تقدم بحيث يستطيع الطيار رؤيتنا".

انطلق سورينتينو بالشاحنة، ودار بها حتى الجانب الأيمن الأمامي السفلي للطائرة. خرج ماكيغل، وشرع يلوّح أمام زجاج الطائرة الأمامي، ثم استخدم إشارات الأيدي والذراع الخاصة بالمراقبين الأرضيين، وأشار للطيار حتى يستمر في التقدم نحو المدرج.

إلا أن الطائرة 747 لم تتحرك.

حاول ماكيغل أن ينظر إلى داخل قمرة القيادة، لكن الضوء الشديد المنعكس على الزجاج حال دون ذلك، ناهيك عن أن القمرة كانت على ارتفاع كبير عن الأرض. وهنا طرأ على ذهن ماكيغل شيئان متزامنان؛ الأول هو أنه لا يعرف ماذا يجب عليه أن يفعله، والثاني هو أن شيئاً خطراً كان يحدث. ولم يكن خطراً واضحاً، بل هادئاً؛ وهو أسوأ أنواع الخطر على الإطلاق.

الفصل السابع

هكذا انتظرنا هناك لدى بوابة الوصول الدولية؛ أنا، وكيت مايفيلد، وجورج فوستر، وتيد ناش، وديبرا ديلفيتشيو، مسؤولة بوابة ترانس - كونتيننتل. ولكنني رجل حركة وأمقت الانتظار، بيد أن رجال الشرطة يتعلمون الانتظار؛ أذكر أنني ظللت ذات مرة ثلاثة أيام كاملة أتظاهر بأنني بائع نقانق، وأكلت منها كميات كبيرة حتى أنني احتجت إلى تناول الميتاموسيل[5] حتى أتعافى.

على كل حال، توجهت إلى السيدة ديلفيتشيو قائلاً "أثمة خطب؟"

نظرت ديبرا إلى جهاز الراديو في يدها، بشاشته الصغيرة، ورفعته إليّ مرة أخرى "فوق الأرض". ما زالت هذه هي الرسالة الواضحة على الشاشة.

قالت لها كيت "من فضلك، اتصلي بأي شخص واسأليه".

هزّت ديبرا كتفيها، وتحدثت إلى الراديو في يدها "هنا ديبرا، البوابة رقم 23. المطلوب حالة الرحلة 175 من فضلك".

استمعت إلى محدثها، ثم أنهت الإرسال وتوجهت إلينا قائلة "إنهم يتفقدون".

سألتها "ولماذا لا يعرفون بالفعل؟"

أجابت ديبرا بينما ما زالت محتفظة بصبرها "إن الطائرة تحت سيطرة برج المراقبة، وإدارة الملاحة الفيدرالية، والفيدراليين، وليست تحت سيطرة ترانس - كونتيننتل. فالشركة يتم استدعاؤها فقط عند حدوث مشكلة. لا استدعاء، إذاً لا مشكلة".

أوضحت لها "لكن الطائرة متأخرة في الوصول إلى البوابة".

فأخبرتني "هذه ليست مشكلة. فالطائرة هبطت في موعدها. لدينا سجل رائع من حيث وصول الرحلات في موعدها".

"ماذا لو ظلّت فوق المدرج لأسبوع؟ أسيعني هذا أنها في موعدها أيضاً؟"

"نعم".

نظرت نحو تيد ناش الذي ما زال مستنداً إلى الحائط، ويبدو غامضاً. مثل معظم رجال وكالة الاستخبارات المركزية، يحب ناش أن يترك انطباعاً بأنه يعرف أكثر بكثير مما يقول، وفي أغلب الأحيان لا يخفي قناع الحكمة والمعرفة هذا شيئاً سوء الغباء والجهل. ترى، لماذا أكره هذا الرجل؟

لكن لإعطاء الشيطان حقه، أذكر أن ناش أخرج هاتفه الخلوي، وضغط على عدة أرقام وهو يخبرنا "لدي الرقم المباشر لبرج المراقبة".

خطر لي أن السيد ناش ربما يعرف بالفعل أكثر مما يقول، وأنه كان يعرف باحتمال وقوع مشكلة قبل هبوط الطائرة بوقت طويل.

أما إد ستافروس - المسؤول ببرج مراقبة إدارة الملاحة الفيدرالية - فواصل متابعة المشهد من على المدرج الرابع يميناً من خلال منظاره المكبر، وشرع يقول للمراقبين من حوله "لا يوجد إطفاء نيران، بل إنهم يبتعدون عن الطائرة. أحد رجال خدمة الطوارئ يرسل إشارات يدوية للطيار".

كان المراقب روبرتو هرنانديز يتحدث على الهاتف حينما توجه إلى ستافروس قائلاً "أيها الرئيس، غرفة الرادار تسأل متى يستطيعون استخدام المدرج الرابع يساراً، ومتى سيكون المدرج الرابع يميناً متاحاً لهم مرة أخرى. إن لديهم رحلات محلقة تحتاج إلى الهبوط، وليس لديها ما يكفيها من الوقود".

شعر ستافروس بمعدته تتقلص، فأخذ نفساً عميقاً قبل أن يجيب "لا أعرف، أخبر الرادار أننا سنعود إليهم عمّا قريب".

لم يعلّق هرنانديز، ولم ينقل ردّ رئيسه الذي لا رد فيه.

أخيراً، أمسك ستافروس الهاتف من هرنانديز، وقال "هنا ستافروس. لدينا حالة انقطاع راديو. نعم، أعرف أنك تعرف، ولكن هذا هو كل ما لدي من معلومات. انظر، لو كان هناك حريق لاضطررت إلى التحويل على كل حال، ولما كنت أزعجتني بهذه الطريقة". قال هذا واستمع إلى محدثه، ثم أجاب في اقتضاب "إذاً أخبرهم أن الرئيس مشغول بقص شعره فوق المدرج الرابع يميناً، ومن ثم عليهم التحول إلى فيلي". أنهى ستافروس المكالمة. وعلى الفور شعر بالأسف لما قاله بالرغم من أنه كان يعرف أن المراقبين من حوله يبتسمون في استحسان لما قاله. أشعره هذا بتحسن لنصف ثانية، عادت بعدها معدته إلى الانقباض، فقال لهرنانديز "حاول الاتصال بالطائرة مرة أخرى، واستخدم تردد البرج والتردد الأرضي. إن لم يجيبوا، فبوسعنا أن نفترض أن الحظ لم يسعفهم في مشكلات الراديو خاصتهم".

التقط هرنانديز الميكروفون، وحاول الاتصال بالطائرة على الترددين.

أما ستافروس فرفع المنظار إلى عينيه، وراح يمسح المشهد ثانية. لم يتغير شيء؛ ما زالت البوينغ العملاقة قابعة في مكانها، وكان يستطيع رؤية الأبخرة الحرارية والعوادم خلف المولدات. بينما ظلت شاحنات خدمة الطوارئ المتعددة وسيارات الشرطة في مواقعها. ومن بعد كان فريق مماثل ينتظر بعيداً عن المدرج، يحرق الوقود ويفعل ما كان يفعله الجميع؛ لا شيء. أياً من كان يحاول لفت انتباه الطيار - غالباً ماكيغل - فقد استسلم وما زال يقف هناك ويداه على فخذيه، ويبدو أنه يصب جام غضبه على الطائرة 747.

ما بدا غامضاً لستافروس كان تكاسل الطيار. فأياً كانت المشكلة، فإن هم الطيار الأول هو إخلاء المدرج في أقرب فرصة، ولكن كل ما فعلته البوينغ 747 هو أنها ظلّت هناك.

استسلم هرنانديز بشأن نداء الراديو، فقال لستافروس "أهناك من يمكن الاتصال به؟"

"لم يتبقَ أحد يمكن الاتصال به يا روبرتو. فمَن يمكن الاتصال به؟ كل من يجب عليهم إخراج هذه الطائرة اللعينة من هناك إنما يقفون حولها بلا حيلة. فبمن أتصل بعد؟ أمي؟ كانت تريدني أن أصبح محامياً". أدرك ستافروس أنه يفقد أعصابه، فشرع يهدّئ نفسه، فأخذ نفساً طويلاً آخر، وقال لهرنانديز "اتصل بهؤلاء المهرجين هناك". مشيراً إلى المدرج الرابع يميناً، وتابع "اتصل *بالأسلحة والخراطيم*... بماكيغل".

"نعم يا سيدي".

أمسك هرنانديز باللاسلكي واتصل بالوحدة واحد، شاحنة خدمة الطوارئ الرئيسية. أجابه سورينتينو، فسأله هرنانديز "تقرير الموقف". ثم ضغط على زر الهاتف، فأتى صوت سورينتينو ليشق صمت الغرفة "أنا لا أعرف ماذا يحدث هنا". اختطف ستافروس اللاسلكي وهو يحاول التحكم في قلقه وانزعاجه وهو يقول "لو أنك لا تعرف، فكيف لي أنا أن أعرف؟ أنت هناك وأنا هنا... فأخبرني بم يحدث هناك. تحدث إلي".

مضت ثوانٍ من الصمت، ثم قال سورينتينو "ليست هناك أي إشارة على وجود مشكلة ميكانيكية سوى..."

"سوى ماذا؟"

"لقد دخل الطيار بدون قوة دفع عكسية. أتفهم هذا؟"

"نعم، بحق الجحيم أفهم هذا".

"حسناً، لذا فإن ماكيغل يحاول جذب انتباه طاقم الطائرة".

"إن طاقم الطائرة يلفت انتباه الجميع، فلماذا لا يمكننا جذب انتباههم؟"

قال سورينتينو "لا أعرف". ثم أردف متسائلاً "أيجدر بنا أن نصعد إلى الطائرة؟"

فكّر ستافروس في هذا السؤال، وتساءل عمّا إذا كان هو الشخص المنوط به الإجابة عنه. عادة ما يعود القرار إلى خدمة الطوارئ. لكن في عدم وجود مشكلة واضحة، فالرجال المهرة الشجعان يقفون هناك ولا يعرفون ما إذا كان عليهم الصعود إلى الطائرة أم لا. كان ستافروس يعرف أن الصعود إلى طائرة على المدرج بينما محركاتها تمور هو أمر بالغ الخطورة، سواء بالنسبة للطائرة أو لرجال خدمة الطوارئ، خاصة إذا كانت نية الطيار غير واضحة. فماذا لو تحركت الطائرة على نحو مفاجئ؟ من ناحية أخرى، ربما كانت هناك مشكلة على متن

الطائرة. ولما لم تكن لدى ستافروس إجابة عن سؤال سورينتينو، قال ‘‘انتهى الاتصال’’.

‘‘حسناً، شكراً للنصيحة’’.

لم يعبأ ستافروس بالتهكم الذي بدا واضحاً في صوت الرجل، وقال ‘‘اسمع، ليس من شأني أن... انتظر معي’’. أدرك ستافروس أن هرنانديز يرفع إليه سماعة الهاتف.

‘‘من؟’’

‘‘رجل يطلبك بالاسم، ويقول إنه من وزارة العدل. يقول إن هناك لاجئاً على متن الرحلة 175، وهو تحت الحراسة، ويريد أن يعرف ماذا يحدث’’.

‘‘اللعنة’’. أخذ ستافروس الهاتف، وقال ‘‘ستافروس يتحدث’’. ثم راح يستمع إلى محدثه بينما اتسعت عيناه.

أخيراً، قال ستافروس ‘‘نعم يا سيدي، أفهمك. لقد هبطت الطائرة دونما اتصال لاسلكي، وهي ما تزال قابعة في نهاية المدرج الرابع يميناً، ويحيط بها رجال شرطة المطار وخدمة الطوارئ. الموقف ثابت’’.

استمع ستافروس إلى محدثه ثم أجابه قائلاً ‘‘كلا. ما من إشارة إلى وجود مشكلة حقيقية؛ ولم يتم إرسال أي بث من مختطفين، ولكن الطائرة كانت على وشك الارتطام’’. قال هذا، وعاود الاستماع، وهو يفكر ما إذا كان يجب عليه ذكر مسألة قوة الدفع العكسية إلى شخص ربما قد يأتي بانفعال زائد تجاه مشكلة ميكانيكية بسيطة نسبياً، أو ربما كان ذلك إغفالاً من قِبَل قائد الطائرة. لم يكن ستافروس متأكداً من هوية محدثه، غير أن الرجل بدا ذا سطوة. انتظر ستافروس حتى انتهى الرجل من حديثه، ثم قال ‘‘حسناً. نعم أفهم، سأفعل’’. ثم نظر إلى الآلة الجامدة قبل أن يعيدها إلى هرنانديز. كان يشعر بالارتياح لأن أحداً ما قد اتخذ القرار نيابة عنه.

رفع ستافروس الميكروفون بالقرب من فمه، وأرسل إلى سورينتينو قائلاً ‘‘حسناً يا سورينتينو، فلتصعد إلى الطائرة. هناك لاجئ على متنها، في درجة رجال الأعمال، وهو مصفد ومعه مرافقاه، فلا حاجة بك لإشهار الأسلحة وإفزاع المسافرين. فقط أخرج اللاجئ، ومرافقيْه، ثم اطلب من إحدى سيارات الدورية أن تأخذهم إلى البوابة 23، حيث يوجد هناك من سيتسلمه. هل تلقيت؟’’

‘‘عُلم. ولكن عليّ أن أتصل بمركز القيادة و-’’

‘‘لا يعنيني بمن ستتصل، افعل فقط ما أمرتك به، وعندما تصعد إلى الطائرة، حدد المشكلة، وإن لم تكن هناك مشكلة، اطلب من قائد الطائرة أن يتحرك عن المدرج اللعين وأن يتابع حتى البوابة 23. قده إلى الداخل’’.

‘‘عُلم’’.

‘‘اتصل بي لدى صعودك’’.

‘‘عُلم’’.

استدار ستافروس نحو هرنانديز وقال "وحتى نجعل الأمور أسوأ، هذا الرجل من وزارة العدل طلب مني ألاّ أعيد تخصيص البوابة 23 لأي هبوط آخر حتى يعطينا تعليمات بذلك. ولكن لست أنا من يخصص البوابات، بل هيئة المطار. روبرتو، اتصل بهيئة المطار، وأخبرهم ألاّ يعيدوا تخصيص البوابة 23. والآن لدينا نقص في بوابة".

فأشار هرنانديز "طالما أن المدرجين الرابع يميناً ويساراً مغلقان، فلسنا بحاجة إلى بوابات عدة".

تفوه ستافروس بلفظ نابٍ، ثم ذهب إلى مكتبه ليبحث عن أسبيرين.

أعاد تيد ناش هاتفه الخلوي إلى جيبه، وقال "لقد هبطت الطائرة دون أي اتصال لاسلكي، وهي الآن على طرف المدرج. لا توجد إشارات استغاثة أو شيء من هذا القبيل، ولكن الرجال ببرج المراقبة لا يعرفون ما المشكلة، وأفراد خدمة الطوارئ هناك أيضاً. وكما سمعتم، طلبت من البرج أن يصدروا أوامرهم للرجال هناك بدخول الطائرة وإحضار رجالنا إلى هنا، وألاّ يخصصوا البوابة لأي هبوط آخر".

قلت لزملائي مقترحاً "فلنذهب إلى الطائرة".

فأجاب جورج فوستر، قائدنا الذي لا يعرف الخوف "إن الطائرة محاطة برجال خدمة الطوارئ، بالإضافة إلى أن لدينا رجلين على متن الطائرة بالفعل. وهما ليسا بحاجة إلينا هناك، وكلما قلّ حيز التغيرات في الخطة، كلما كان ذلك أفضل".

أما تيد ناش، فبقي - كالمعتاد - بعيداً عن النقاش، يقاوم إغراء الاختلاف معي.

اتفقت كيت مع جورج، ومن ثم كنت أنا - كالمعتاد - المنشق عن الجماعة. لكن ما كنت أعنيه هو إن كان الموقف ما زال يحدث عند النقطة (أ)، لماذا نظل منتظرين عند النقطة (ب)؟

أخرج فوستر هاتفه الخلوي مرة أخرى، واتصل بأحد رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية على المدرج، وقال "جيم، معك جورج، حدث تغيّر بسيط في الخطة. هناك مشكلة بالطائرة فوق المدرج، لذا ستقوم إحدى سيارات هيئة المطار بإحضار كل من فيل، وبيتر، والرجل إلى هذه البوابة. اتصل بي حال وصولهم إلى هناك وسنذهب إليكم. حسناً، اتفقنا".

قلت لجورج "اتصل بنانسي، واسألها إذا كانت قد تلقت شيئاً من فيل أو بيتر".

قال فوستر "كنت على وشك أن أفعل ذلك فعلاً يا جون. شكراً لك". وطلب رقم نادي الفاتحين، وفي ثوانٍ كانت نانسي تجيبه، فسألها "هل اتصل بكِ فيل أو بيتر؟" ثم استمع إلى ما قالته، وأردف "كلا. ما زالت الطائرة فوق المدرج. أعطيني رقمي جوالي فيل وبيتر". ثم استمع مرة أخرى قبل أن ينهي مكالمته معها. لقد طلب فوستر أحد الرقمين، ثم رفع الهاتف إلينا حيث استمعنا إلى الرسالة المسجلة والتي تقول إن الهاتف غير متاح أو خارج نطاق الخدمة. طلب فوستر الرقم الآخر وأتتنا نفس الرسالة، فقال "من الأرجح أنهما قد أغلقا هاتفيهما".

ولما لم يعلق أي منا على هذا، تابع جورج قائلاً "هذا طبيعي، تنص الإجراءات على إغلاق الهواتف الخلوية على متن الطائرة، حتى ولو كانت فوق الأرض. وإذا فكّر أحدهما في خرق القواعد والاتصال بنادي الفاتحين، فستخبرنا نانسي".

شرعت أفكّر في هذا الأمر؛ فلو ساورني هذا القلق في كل مرة وجدت فيها الهاتف الذي أتصل به غير متاح، لكنت مصاباً الآن بمئات القرح. لستُ مغرماً بالهواتف الخلوية وأجهزة النداء الآلي على كل حال.

بدأت أفكر في الموقف باعتباره مشكلة دراسية طرحها عليّ أحد أساتذتي؛ يعلمونك في أكاديمية الشرطة أن تلتزم بالموقع وبالخطة حتى يأمرك رئيسك بفعل شيء آخر. لكنهم مع ذلك يطلبون منك أن تستخدم الفطنة والمبادرة الشخصية في حال تغير الموقف. فالحيلة إذاً في أن تعرف متى تلتزم، ومتى تتحرك. ومن حيث كافة المعايير الموضوعية، كانت الظروف تبدو وكأنه من الأفضل لو بقينا خارج الموقف، لكنّ حدسي كان يدفعني إلى التحرك، ولقد اعتدت أن أكون أكثر ثقة في حدسي. لكنني كنت جديداً على الوضع، فلقد التحقت بالعمل لتوّي، ومن المفترض أن هؤلاء الأشخاص يعرفون ما يفعلونه، أي لا يفعلون شيئاً! أحياناً يكون عدم فعل شيء هو بعينه الشيء الصحيح.

انطلق أزيز من جهاز ديبرا ديلفيتشيو اللاسلكي، فرفعته إلى أذنها، ثم قالت بعد أن استمعت إلى محدثها "حسناً، أشكرك". والتفتت إلينا وقالت "كانوا يخبرونني أن فريق مراقبة الملاحة الجوية قد اتصلوا بترانس - كونتيننتل منذ قليل، وأخبروهم أنهم لا يتلقون إشارة من الطائرة 175".

"لا يتلقون إشارة؟"

"نعم، لا توجد إشارة راديو".

فقلت لها "نحن نعرف ذلك بالفعل. ولكن هل يحدث هذا عادة؟ أعني أن ينقطع اتصال الراديو بالطائرة؟"

"لا علم لي بهذا".

"لماذا تقبع الطائرة على طرف المدرج؟"

هزّت ديلفيتشيو كتفيها وقالت "ربما كان قائد الطائرة بحاجة إلى توجيه أو تعليمات من أحد؛ أنت تعلم كيف الحال مع المسارات". ثم أضافت "خلت أنكم قلتم إن ضيفكم على متن الطائرة هو إحدى الشخصيات الهامة، وليس لاجئاً".

"حسناً، إنه لاجئ هام".

هكذا مكثنا واقفين هناك، في انتظار رجال شرطة هيئة المطار ليأتوا بكل من هاندري، وجورمان، وخليل إلى عربات مديرية شرطة نيويورك وهيئة المطار الواقفة خارج هذه البوابة، فيتصل بنا هذا العميل المدعو جيم، ونذهب نحن إلى المدرج، ثم إلى داخل الشاحنات التي ستقودنا إلى نادي الفاتحين. نظرت إلى ساعتي، وقدرت أن هذا الأمر سيستغرق نحو خمس عشرة دقيقة، وربما عشر دقائق.

الفصل الثامن

تناهى إلى ماكيغل صوت انطلاق بوق شاحنته، فعاد إليها مسرعاً، وقفز على عتبتها، فيما شرع سورينتينو يخبره "لقد اتصل ستافروس، وطلب أن نصعد إلى الطائرة. يقول إن ثمة فيدرالياً قد اتصل به، وأخبره أن هناك لاجئاً على متنها، وهو مصفّد ويرافقه رجلان. فلتخرجه هو والرجلين، ثم أوصلهم جميعاً إلى إحدى سيارات الدورية لتأخذهم بدورها إلى البوابة 23. إذ تنتظرهم هناك سيارات مديرية شرطة نيويورك وهيئة المطار". ثم أردف متسائلاً "هل نتلقى أوامرَ من هذا الرجل؟"

فكّر ماكيغل لبرهة من الوقت أنه ربما ثمة علاقة بين هذا اللاجئ والمشكلة القائمة، ولكن لم تكن هناك صلة واضحة حقاً. فمئات الرحلات قد أتت بالفعل برجال مصفدين تحت الحراسة، وشخصيات هامة، وشهود، وغير ذلك؛ أكثر بكثير مما يعرف عنه الناس. لكن، هناك شيء في رأسه ظلّ يزعجه، بيد أنه لم يستطع تحديده؛ شيء وثيق الصلة بهذا الموقف. نفض ماكيغل الأمر عن تفكيره، والتفت إلى سورينتينو وقال "كلا. نحنِ لا نتلقى الأوامر من ستافروس ولا من الفيدراليين. ولكن ربما حان الوقت فعلاً للصعود إلى الطائرة. أطلع مركز القيادة على الأمر".

"سأفعل". قال سورينتينو وتوجّه نحو جهاز اللاسلكي.

فكّر ماكيغل في استدعاء السلم المتحرك، لكنه كان بعيداً. وفي الواقع، لم يكن بحاجة حقيقية إليه للصعود إلى الطائرة، فأصدر أمره إلى سورينتينو "حسناً. إلى الباب الأمامي الأيمن. تحرك".

قاد سورينتينو الشاحنة الضخمة نحو الباب الأمامي الأيمن من الطائرة الشاهقة، حين طقطق الراديو، وانبعث صوت من مكبر الصوت يقول "مرحباً آندي، لقد تذكرت لتوّي حادثة الطائرة التي تعود إلى تلك الدولة العربية. فكن حذراً".

قال سورينتينو "اللعنة".

تجمد آندي ماكيغل مكانه فوق عتبة الشاحنة، حيث داهمته الذكرى دفعة واحدة، وراح فيلم التدريب الذي رأوه عن الحادث يمرّ أمام عينيه. كان هذا منذ نحو عشرين عاماً، عندما أقلعت الطائرة التي تعود إلى تلك الدولة العربيّة لوكهيد إل-1011 تريستار من مطار العاصمة، ثم أبلغت عن وجود دخان في الكابينة والقمرة، وعلى إثر هذا عادت إلى المطار وهبطت بسلام. يبدو أن النيران كانت قد نشبت في الكابينة، وسرعان ما أحاطت سيارات الإطفاء بالطائرة، بينما ظل رجال خدمة الطوارئ في انتظار أن تُفتح الأبواب والمزالق. لكن لسوء حظهم، وغبائهم، أغفل الطيارون تفريغ الضغط داخل الطائرة، فانغلقت الأبواب بفعل ضغط الهواء الداخلي، ولم يستطع مضيفو الطائرة فتحها، ولم يفكر أحد في استخدام فأس

الحريق لتحطيم النوافذ. وانتهت القصة بأن لقي ثلاثمئة شخص على متنها حتفهم داخل الطائرة فوق المدرج، مختنقين بسبب الدخان والأبخرة.

حادثة الطائرة هذه مخزية. كانوا مدربين على التعرف على ذلك متى حدث، ولكم يشبه هذا ذاك، ويبدو أنهم يفسدون الأمر ثانية. "أوه، اللعنة".

قاد سورينتينو الشاحنة بيد واحدة، وناول ماكيغل بالأخرى علبته التي تحتوي على قنينة هواء مضغوط محمولة، وقناع وجه كامل، وفأس التحطيم.

ما إن أصبحت شاحنة التصدي السريع أسفل باب الطائرة مباشرة حتى راح ماكيغل يتسلق بيديه وقدميه درجات سلم الحريق إلى السطح المستوي حيث مدفع الإطفاء مثبت.

انضمت شاحنة الإنقاذ أربعة إلى شاحنة ماكيغل، ووقف رجل على سطحها خلف مدفع الإطفاء المثبت بها، ثم لاحظ ماكيغل أن رجلاً من إحدى سيارات الدورية قد ارتدى زيّه وبدأ يسدد خرطوم مياه عالي الضغط. أما الشاحنات الأربع الأخرى وسيارات الإسعاف فتحركت مبتعدة خشية أن يحدث أي انفجار. لاحظ ماكيغل بشيء من الرضا أنه فور أن تفوه شخص بحادثة الطائرة العربية تلك حتى تحرك الجميع وكلٌ يعرف ما يجب عليه فعله. لكن لسوء الحظ، كانوا قد انتظروا بالفعل فترة أطول مما يجب، تماماً كمكافحي حريق الطائرة العربية، والذين ضحكوا عليهم فيما كانوا يشاهدون فيلم التدريب.

على السطح كان هناك سلم آخر مثبت، فمده ماكيغل لمسافة ستة أقدام - هي طول السلم - ووجهه نحو الباب، كان السلم طويلاً بما يسمح بالوصول إلى مقبض باب الطائرة 747. ثم وضع ماكيغل قناعه، وأخذ نفساً عميقاً، وراح يتسلق السلم.

رأى ستافروس المشهد من خلال منظاره، وتساءل عن سر اتخاذ فريق خدمة الطوارئ استعدادات مكافحة الحريق. لم يحدث أن سمع ستافروس عن حادثة الطائرة العربية من قبل، لكن كان بوسعه التعرف على استعدادات الإطفاء عندما يراها، فرفع هاتفه اللاسلكي واتصل بشاحنة ماكيغل، وقال "هنا ستافروس. ماذا يحدث؟"

لم يجبه سورينتينو.

فنادى ستافروس ثانية.

لم تكن لدى سورينتينو النية بأن يرسل عبر الراديو حقيقة أنهم ربما تأخروا في معرفة حقيقة المشكلة، فكان الاحتمال ما زال قائماً بنسبة 50 بالمئة أن السيناريو العربي لن يتكرر، وسيعرفون هذا يقيناً في غضون ثوانٍ قليلة.

لكن ستافروس عاود النداء، بمزيد من الإلحاح والتصميم.

أدرك سورينتينو أنه لا مفر من الرد، فأرسل قائلاً "إننا نتخذ بعض الإجراءات الوقائية الضرورية".

فكّر ستافروس في ما سمعه، ثم قال "هل هناك أي إشارة لوجود حريق على متن الطائرة؟"

"كلا، لا يوجد دخان".

أطلق ستافروس تنهيدة عميقة، ثم قال "حسناً، فلتطلعني على آخر المستجدات. وأجب على ندائي".

صاح سورينتينو قائلاً "قد نكون في حالة إنقاذ. فلتظل أنت خارج التردد. انتهى!"

نظر ستافروس نحو هرنانديز ليرى ما إذا كان مرؤوسه قد سمع تهور هذا الأحمق من قسم *الأسلحة والخراطيم* عليه، وتظاهر هرنانديز بأنه لم يسمع شيئاً، وفكّر ستافروس أنه يجدر به أن يمنح روبرتو هرنانديز تقريراً متميزاً لكفاءته.

شرع ستافروس يفكّر أنه ربما من الأفضل لو اتصل بأحد ما بشأن تعبئة مكافحة الحريق تلك، فقال لهرنانديز "أخبر مراقبة الملاحة الجوية أن المدرجين الرابع يميناً والرابع يساراً سيكونان غير متاحين لخمس عشرة دقيقة أخرى على أقل تقدير".

رفع ستافروس منظاره مرة أخرى، وأخذ يحدّق في المشهد القائم على طرف ذاك المدرج. لم يكن بوسعه أن يرى الباب الأمامي الأيمن، حيث كان موجهاً بعيداً عنه، لكنه كان يرى استعداد السيارات هناك، وفكّر أنه لو انفجرت هذه الطائرة، وكان بها الكثير من الوقود، فإنه حتى تلك السيارات الواقفة على بعد مئات الياردات ستحتاج إلى طلاء جديد، بينما الشاحنتان القريبتان منها ستتحولان إلى معدن ذائب. اعترف ستافروس بينه وبين نفسه أنّه كثيراً ما يكون رجال خدمة الطوارئ مستحقين لأجورهم بالفعل. ولكن، ألا يعيش هو أيضاً كل لحظة في عمله تحت ضغط هائل؟! على الأقل هؤلاء الرجال يتعرضون لهذا الضغط ربما مرة واحدة كل شهر.

تذكر ستافروس ما قاله رجل خدمة الطوارئ الوقح؛ قد نكون في حالة إنقاذ، وقد ذكّره هذا أن دوره في هذه المسرحية قد انتهى بصفة رسمية ما إن توقفت الطائرة 747، وأن ما تبقى له ليفعله هو مواصلة إعلام مراقبة الملاحة الجوية بحالة المدارج. سيتعين عليه في ما بعد أن يكتب تقريراً متّسقا يذكر فيه كل ما قام به من رسائل لاسلكية تم تسجيلها، ويتماشى كذلك مع المصير الذي ستلقاه تلك الطائرة. كان يعرف أن مكالمته مع رجل وزارة العدل قد تم تسجيلها كذلك، والحق أن هذا رفع من معنوياته إلى حدٍّ ما.

استدار ستافروس مبتعداً عن النافذة الضخمة، واتجه نحو منضدة القهوة. إذا انفجرت الطائرة، سيسمع انفجارها وسيشعر به، حتى وإن كان هنا في البرج، ولكنه لم يرد أن يراه.

حمل آندي ماكيغل فأس الحريق خاصته في يده اليسرى، وألصق ظهر يده اليمنى المختفية داخل القفاز الخفيف بباب الطائرة. كان ظهر قفاز الحريق رقيقاً بحيث يسمح فعلاً بنفاذ الحرارة من خلاله، وانتظر بضع ثوانٍ، ولم يشعر بشيء.

حرك ماكيغل يده نحو مقبض باب الطوارئ الخارجي وضغط عليه، فتحرك المقبض خارج فجوته، ودفعه ماكيغل ليطلق سراح مزلاج الهروب الآلي.

ثم ألقى نظرة سريعة إلى الخلف وأخرى إلى الأسفل، فرأى الرجل في زي الإطفاء من سيارة الدورية على الأرض إلى يمينه، وقد سدد خرطومه المتأهب نحو باب الطائرة المغلق مباشرة. أما شاحنة الإنقاذ الأخرى - الشاحنة رقم أربعة - فكانت خلف شاحنته بنحو خمسين قدماً، وكان الرجل على سطحها يوجه خرطوم الإطفاء نحوه. كان الجميع يحملون معداتهم بالكامل، ويضعون أقنعتهم، حتى أنه لم يعد يستطيع التعرف على أي منهم، بيد أنه كان يثق بهم جميعاً، وكان هذا هو المهم. ثم أشار له الرجل الواقف عند مدفع الإطفاء بإبهامه إيجاباً، ورد عليه ماكيغل مُقراً فهمه لهذه البادرة.

قبض آندي ماكيغل على المقبض بإحكام ثم دفعه. ففي حال كان ضغط الطائرة لا يزال قائماً، لن يتزحزح الباب عن موضعه، وسيتعين عليه عندئذ أن يحطم نافذة الباب مستخدماً فأسه لإفراغ الضغط وأي دخان قد يكون موجوداً بالداخل.

استمر ماكيغل في الدفع، وفجأة بدأ الباب ينفتح نحو الداخل، فأفلت المقبض وواصل الباب سحب نفسه آلياً إلى الداخل، ثم انسحب إلى أعلى، نحو السقف.

انثنى ماكيغل أسفل عتبة الباب لتفادي أي دخان أو حرارة قد ينبعثان من الداخل إثر فتح الباب، إلا أن شيئاً لم يحدث.

ودون أن يُفوِّت لحظة أخرى، دفع ماكيغل بنفسه إلى داخل الطائرة، وتلفت حوله بسرعة، فأدرك أنه في مطبخ الطائرة الأمامي، وفقاً لخارطة الطابق الأرضي للطائرة كما يعرفها. فتفقد قناعه وتدفق الهواء إليه من خلاله، وفحص مقاييسه للتأكد من امتلاء خزانه، ثم أسند فأسه إلى الحاجز.

وقف ماكيغل في المطبخ ونظر عبر هيكل الطائرة المتسع حتى باب الخروج التالي. قطعاً لم يكن هناك أي دخان، ولكن لم يكن بوسعه أن يتأكد من عدم وجود غازات. ثم عاد إلى الباب المفتوح، وأشار إلى الرجال الحاملين خراطيم ومدافع الإطفاء أنه بخير.

ترك ماكيغل المطبخ متوجهاً إلى داخل الطائرة، وتابع إلى المنطقة المفتوحة؛ كانت الدرجة الأولى إلى اليمين، وقاطرة الركاب الكبرى إلى اليسار، وأمامه كان السلم الحلزوني الذي يقود إلى القبة، حيث القمرة ودرجة رجال الأعمال.

وقف هناك للحظة، وشعر باهتزازات المحرك تنبعث من خلال هيكل الطائرة. بدا له كل شيء طبيعياً، ما عدا شيئين: الهدوء المبالغ فيه، والستائر المسدلة على قاطرة الركاب ومناطق الدرجة الأولى، حيث تنص لوائح إدارة الملاحة الفيدرالية على فتح هذه الستائر أثناء الإقلاع والهبوط. ولو استرسل قليلاً في التفكير في هذا

الموقف، لكان تساءل لماذا لم تظهر أي من مضيفات الطائرة حتى الآن، ولكن تلك كانت أبسط مشكلاته الآن، فأبعدها عن تفكيره.

كان حدسه يدفعه إلى تفقد واحدة من المنطقتين خلف الستائر، أو كلتيهما، ولكنّ التدريب الذي تلقاه يُملي عليه أن يتابع حتى قمرة القيادة. فاستعاد فأسه وتقدم نحو السلم الحلزوني، وكان يسمع صوت تنفسه عبر قناع الأكسجين الذي يضعه.

صعد الدرجات ببطء ولكن، صعد درجتين في كل خطوة، وتوقف عندما أصبح صدره موازياً لمستوى الطابق الأعلى، ونظر إلى القبة الضخمة للطائرة 747. مجموعات من المقاعد كانت مصفوفة في أزواج بطول جانبي القبة، مكونة في مجموعها ثمانية صفوف، أي اثنين وثلاثين مقعداً. لم يرَ أي رؤوس من فوق المقاعد الضخمة الفاخرة، ولكنه رأى الأذرع الملقاة فوق المساند؛ كانت الأذرع ساكنة تماماً. "بحق الله، ماذا...؟"

استمر ماكيغل في ارتقاء السلم ووقف عند الحاجز الخلفي للقبة، وفي مركزها انتصب قائم وُضعت فوقه المجلات، والصحف، وسلال الوجبات الخفيفة. كانت شمس آخر العصر تغمر القبة عبر الكوات، وذرات الغبار تسبح في أشعة الشمس. مشهد لطيف - فكّر ماكيغل - لكنه على نحو غريزي كان يعرف أنه في حضرة الموت.

تابع صعوده إلى الممر المركزي، وأخذ ينظر عن يمينه وعن يساره إلى المسافرين في مقاعدهم. كان حوالى نصف المقاعد فقط مشغولاً، وكان معظم الركاب رجالاً ونساءً في منتصف العمر، من ذاك النوع الذي تراه في درجة رجال الأعمال. بعضهم كان مائلاً إلى الخلف، وقد سقط ما كانوا يقرأونه على أرجلهم، وبعضهم كانت صواني الخدمة أمامهم مفتوحة وقد استقرت فوقها بعض المشروبات، ولاحظ ماكيغل أن بعض محتوياتها قد انسكب أثناء الهبوط.

عدد قليل من المسافرين كان يضع السماعات حول رأسه، وبدا أنهم كانوا يشاهدون التلفاز الفردي الصغير البادي من مساند المقاعد. كانت أجهزة التلفاز ما زالت تعمل، وكان أقربها إليه يعرض فيلماً ترويجياً عن الحياة السعيدة في مانهاتن.

تقدم ماكيغل، واستدار ليواجه المسافرين، ولم يكن لديه أدنى شك في أنهم جميعاً موتى، فأخذ نفساً عميقاً وحاول أن يصفي ذهنه، وأن يتصرف باحتراف. فخلع قفاز الحريق عن يده اليمنى، ومدها ليمس وجه السيدة في المقعد الأقرب إليه. لم يكن جلدها بارداً كالحجارة كما يقال، ولكن لم تكن حرارة جسدها طبيعية كذلك. فخمّن ماكيغل أن المنية قد وافتها منذ بضع ساعات، بينما أكدت الحالة العامة في الكابينة أن أياً كان ما قد حدث، فقد حدث قبل الاستعداد للهبوط بوقت طويل.

انحنى ماكيغل لفحص وجه رجل كان يجلس في الصف التالي؛ كان هادئاً. فلا وجود للعاب، أو مخاط، أو قيء، أو دموع، أو أي تعبير يدل على الألم أو التعذيب... لم يرَ ماكيغل شيئاً كهذا من قبل. فالغازات السامة والدخان يسببان الفزع، والاختناق الرهيب؛ أي ميتة بشعة تترك آثارها على الوجوه، وتشوّه أجسام الضحايا. أما ما كان يراه هنا - حسبما استنتج - فكان فقدان وعي سلميًّا، أشبه بنوم يعقبه موت.

شرع يبحث عن اللاجئ المصفد ومرافقيه، فوجده في الصف الثاني من آخر المقاعد الجانبية على اليمين، يجلس على مقعد قرب النافذة. كان الرجل مرتدياً حلة رمادية غامقة، وبالرغم من أن جزءاً من وجهه كان يخفيه قناع النوم، إلا أنه بدا لماكيغل هسبانياً، أو شرق أوسطياً، أو هندياً.

لم يكن ماكيغل أبداً جيداً في التعرف على الأنواع العرقية، لكن من المحتمل أن يكون الرجل الجالس بجوار الرجل المصفد شرطياً. فعادة ما يستطيع ماكيغل التعرف على هؤلاء الرجال من قومه. ربت على خصر الرجل وشعر بسلاحه فوق فخذه الأيسر، ثم نظر إلى الرجل الجالس بمفرده في الصف خلف هذين الاثنين، واستنتج أنه المرافق الثاني. على كل حال، لم يعد هذا ليحدث فرقاً الآن، سوى أنه لم يعد مضطراً إلى اصطحابهم إلى خارج الطائرة، ووضعهم في سيارة، فهم بالقطع لن يذهبوا إلى البوابة 23. في الواقع، لن يذهب أي من هؤلاء جميعاً إلى أي مكان سوى إلى المشرحة المتنقلة.

فكّر ماكيغل في الموقف؛ كل من في القبة موتى، وحيث إن كافة الأقسام والكبائن في الطائرة يتشاركون نفس المناخ الداخلي، فقد كان من الطبيعي تخمين أن الجميع في الدرجة الأولى وقاطرة الركاب الكبرى لا بد وأنهم قد لاقوا نفس المصير. فسّر هذا ما رآه - أو بالأحرى ما لم يرَه - بالأسفل، وفسر الصمت الذي يسود المكان. أوشك ماكيغل أن يستخدم اللاسلكي الذي يحمله لاستدعاء الإسعاف الطبي، لكنه كان على يقين أن أحداً من الركاب ليس بحاجة إلى أي إسعافات طبية. ولكنه أخرج الجهاز من جيبه بالرغم من هذا، وكان على وشك الإرسال حين أدرك أنه لا يعرف تحديداً ماذا بوسعه أن يقول، ولم يعرف كيف سيبدو صراخه من خلف قناع الأكسجين هذا. ومن ثم، عمد إلى الضغط على أزرار الجهاز ليصدر سلسلة من الإشارات المتقطعة الطويلة والقصيرة ليخبرهم أنه بخير.

أتاه صوت سيرينتينو عبر اللاسلكي "عُلم يا آندي".

سار ماكيغل إلى الحمام الخلفي خلف السلم الحلزوني. وبالرغم من أن العلامة على الباب كانت تخبر أن الحمام (مشغول)، إلا أن ماكيغل أقدم على فتح الباب وهو يؤكد لنفسه أن لا أحد بالداخل.

بعد الحمام كان المطبخ، حيث رأى جسداً ممدداً على الأرضية، فتحرك نحوه، وانحنى فوقه. كانت إحدى مضيفات الطائرة ممدة على جنبها وكأنها في قيلولتها. أمسك بكاحلها ليتحسس نبضها، ولكن لم يكن هناك نبض على الإطلاق.

الآن وقد تأكد أن لا حاجة إلى الإسعاف الطبي لأي من المسافرين، هرع ماكيغل إلى قمرة القيادة، وحاول فتح بابها، ولكنه - طبقاً للوائح طبعاً - كان مغلقاً. ضرب بيده على الباب، وصاح من خلال قناع الأكسجين الذي يضعه قائلاً "افتح الباب! خدمة الطوارئ. افتح!". ولكن ما من إجابة، في الواقع، لم يكن ماكيغل يتوقع إجابة.

التقط الرجل فأسه، وهوى به على قفل باب القمرة، فارتج الباب بعنف، وانفتح نصف فتحة عند مفصلاته. لبث ماكيغل في مكانه متردداً لثوانٍ، ثم دخل إلى قمرة القيادة.

كان الطيار ومساعده في مقعديهما، وقد مال رأساهما إلى الأمام كما لو كانا مستغرقين في النوم.

وقف ماكيغل هناك لبضع دقائق، حيث لم يرد لمس أي منهما، ثم قال "يا أنت، هل تسمعني؟" ثم شعر بالغباء لأنه يتحدث إلى رجل ميت.

شرع آندي ماكيغل يتعرق، وشعر بركبتيه ترتعشان. وبالرغم من أن ماكيغل لم يكن رجلاً رقيقاً، بل وقد حمل على مرّ السنين قسطه من الأجساد المحترقة والميتة من أماكن متعددة، إلاّ أنه لم يكن أبداً وحده في حضرة هذا الموت الصامت الهائل.

مس ماكيغل وجه الطيار بيده العارية، وبات واضحاً أن الرجل قد فقد حياته منذ بضع ساعات. من إذاً هبط بالطائرة؟ انتقلت عيناه إلى لوحات معدات القيادة. كان قد تلقى تدريباً لمدة ساعة واحدة حول قمرات قيادة طائرات البوينغ، واستقرت عيناه على شاشة صغيرة ظهرت عليها عبارة "الهبوط الآلي3". كان يعرف أن طياراً آلياً مبرمجاً يستطيع الهبوط بهذا الجيل من الطائرات النفاثة دونما أي تدخل من يد أو عقل بشر. لم يصدق ذلك حين قرأه، لكنه يصدق الآن.

فهذا هو التفسير الوحيد، وإلا كيف وصلت مركبة الموت هذه إلى هنا؟ كما أن الهبوط الآلي يفسر الاصطدام الذي كان وشيكاً مع طائرة الخطوط الأميركية، وكذلك عدم استخدام قوة الدفع العكسية، وبالتأكيد - فكّر ماكيغل - هذا هو تفسير انقطاع الاتصال، ناهيك عن حقيقة أن الطائرة كانت ترقد على طرف المدرج ومحركاتها ما زالت تمور، والطياران فيها وافتهما المنية منذ وقت طويل. يا الله نجنا! شعر ماكيغل بغثيان وأراد أن يصرخ، أو يتقيأ، أو يجري، لكنه استعاد رباطة جأشه، وأخذ نفساً عميقاً. اهدأ يا ماكيغل.

ماذا بعد؟

التهوئة.

انحنى ماكيغل فوق رأسيهما حتى وصل إلى فتحة الخروج، وفَعّل الرافعة حتى انفتحت الفتحة وبدت كمربع من السماء الزرقاء.

وقف للحظة يستمع إلى صوت محركات النفاثة وقد علا صوت هديرها. كان يعرف أنه يتعين عليه إغلاق المحركات، ولكن بما أنه لا خطر من حدوث انفجار، فلا بأس من تركها تعمل حتى يقوم نظام التبادل الجوي بتنقية نفسه بالكامل، أو تنقية أي سموم غير مرئية قد تكون السبب وراء هذا الكابوس. الشيء الوحيد الذي كان يرضيه إلى حدٍّ ما هو معرفة أن تأخّره في الصعود إلى الطائرة لم يزد الأمر سوءاً مما هو عليه بالفعل. كان هذا يشبه سيناريو الطائرة العربية إلى حدٍّ ما، بيد أن هذا قد حدث بينما ما زالت الطائرة في الهواء، بعيداً عن هنا، ولم يكن هناك حريق، ولم ترتطم الطائرة 747 كما حدث مع طائرة الخطوط السويسرية قرب ساحل نوفا اسكوتشيا. في الحقيقة، أياً كانت المشكلة التي حدثت، فقد أثّرت فقط على البشر، لا على الأنظمة الميكانيكية ولا على الإلكترونيات. لقد أتم الطيار الآلي الغرض الذي كان مُبرمجاً من أجله، غير أن ماكيغل تمنى لو أنه لم يفعل.

تطلع ماكيغل إلى ضوء الشمس من خلال النوافذ الأمامية، ولكم تمنى أن يكون هناك؛ بالخارج، مع الأحياء، وليس هنا. ولكنه آثر الانتظار حتى تقوم أنظمة تكييف الهواء بعملها، وحاول أن يتذكر الوقت المفترض أن تستغرقه حتى تنتهي من تنقية الهواء تماماً داخل الطائرة 747. كان من المفترض به أن يعرف تلك المعلومات، ولكنه لم يكن قادراً على التركيز.

فلتهدأ يا ماكيغل.

بعد ما بدا له دهراً رغم أنه لم يتعدَّ الدقيقتين، وصل ماكيغل إلى الركيزة بين مقعدي الطيارين، وأغلق مفاتيح الوقود الأربعة، فانطفأت كافة أضواء لوحة المفاتيح تقريباً، إلا تلك التي تستمد طاقتها من بطاريات الطائرة، وتوقف أنين المحركات النفاثة على الفور، مخلفاً صمتاً ثقيلاً مخيفاً.

كان ماكيغل يعرف أن الآخرين خارج الطائرة قد تنفسوا الصعداء بتوقف المحركات، حيث يتضمن هذا أن ماكيغل بخير، لكن ما لا يعرفونه هو أن ماكيغل نفسه هو من أطفأ المحركات.

ثم سمع ماكيغل صوتاً يأتي من كابينة القبة، فاستدار نحو باب القمرة وأرهف سمعه ثانية، وشرع ينادي من خلال قناع الأكسجين "أمن أحد هنا؟" ولكن لم يجبه غير الصمت، الصمت المخيف، الصمت المميت. كان متأكداً من أنه سمع شيئاً؛ ربما كان صوت محركات التبريد، أو ربما تحركت إحدى الأمتعة في القسم العلوي.

تنفس ماكيغل بعمق وحاول تهدئة أعصابه. تذكر يوم قال له أحد الأطباء الشرعيين في المشرحة "ليس بوسع الموتى أن يؤذوك، فلم يحدث قط أن قُتل أحد على يد ميت".

لكن لمّا نظر إلى كابينة القبة، كان الموتى يحدقون إليه. كم هو مخطئ هذا الطبيب! بوسع الموتى أن يجرحوك بحق وأن يقتلوا روحك. ومرة أخرى ذكر آندي ماكيغل الله، وأخذ يتلو دعاءً.

الفصل التاسع

كان الضجر يزحف إلى أطرافي عندما أجرى فوستر اتصالاً بالعميل جيم ليندلي أسفل المدرج، والذي كان بدوره يتحدث مباشرة إلى أحد رجال شرطة المطار القريبين منه، حيث أجرى هذا الأخير اتصالاً لاسلكياً مع مركز القيادة، فاتصلوا بالبرج وبوحدات خدمة الطوارئ التابعة لهم الموجودة هناك على المدرج، حيث الطائرة 747. فسألت جورج "ماذا قال ليندلي؟"

"قال إن رجل خدمة الطوارئ قد صعد إلى متن الطائرة، وقد أُغلقت المحركات".

"هل أعطى الرجل تقريراً عن الحالة؟"

"ليس بعد، لكنه أرسل أزيزاً متقطعاً يخبر به أن كل شيء على ما يرام".

"أرسل أزيزاً متقطعاً أمكنهم سماعه خارج الطائرة؟ ماذا تناول الرجل على الغداء؟"

ضحك تيد وضحكت ديبرا. إلا أن كيت لم تجد هذا مضحكاً.

تنهد جورج بعمق، وراح يوضح لي "أزيزاً لاسلكياً. فالرجل يضع قناع الأكسجين، من الأسهل بالنسبة له أن يرسل هذه الإشارات المتقطعة على أن يحاول الكلام".

قاطعته "أعرف هذا. كنت أمزح فحسب". قليلاً ما تعمل مع رجل غاية في الجدية مثل جورج فوستر، على الأقل ليس في مديرية شرطة نيويورك حيث يحاول الجميع أن يبدوا مرحين، وكل منهم يود أن يكون الأخف دماً والأكثر مرحاً على الإطلاق.

على كل حال، لم تعد تعليقاتي تثير المرح هنا، عند البوابة 23 الفولاذية، فقلت لجورج مقترحاً "دعني أخرج وأقيم اتصالاً مباشراً مع ليندلي".

"لماذا؟"

"ولماذا لا؟"

كان جورج محتاراً بين أن يبقيني أمام ناظريه، ورغبته في أن أغرب عن وجهه، وربما عن حياته بأسرها. لطالما كان هذا تأثيري على الرؤساء.

فقال موجهاً كلامه للجميع "سيتصل بي ليندلي فور أن يقوم رجل خدمة الطوارئ بإنزال رجالنا عن الطائرة ووضعهم في سيارة هيئة المطار، عندها سنهبط السلم ونذهب إلى المدرج، وهي مسافة ثلاثين ثانية مشياً من هنا. يجدر بك إذاً أن تتمهل. اتفقنا؟"

لم أشعر برغبة في مجادلته، فاكتفيت بأن سجلت موقفي بأن قلت "أنت المسؤول هنا".

طقطق جهاز ديبرا، فاستمعت ثم قالت "لقد تعادل اليانكيز في الشوط الخامس".

هكذا انتظرنا عند البوابة بينما الظروف الخارجة عن سيطرتنا تسبب تأخيراً بسيطاً في خطتنا. كان هناك على الجدار ملصق سياحي لصورة ليلية لتمثال الحرية المضيء، وتحت الصورة كُتبت كلمات إيما لازاروس الشهيرة في نحو دزينة من اللغات "أعطني المتعبين والفقراء لديك، وجموعك المحتشدة التواقة للتنفس بحرية، والمرفوضين البؤساء على شواطئك. أرسل هؤلاء، الذين بلا مأوى، والذين تتلاعب بهم العواصف إليّ، إنني أرفع مصباحي بجانب الباب الذهبي!"

بالرغم من أنني حفظت هذه الكلمات عن ظهر قلب في المدرسة الابتدائية، إلا أن جسدي ما زال يقشعر لها.

نظرت إلى كيت، وتلاقت أعيننا. ثم ابتسمت، فابتسمت لها. بنظرة شاملة إلى الموقف، أقول إن هذا بالقطع أفضل من الاستلقاء في مستشفى العجزة في كولومبيا، موصلاً بأجهزة الإنعاش. أخبرني أحد الأطباء في ما بعد أنه لولا سائق سيارة الإسعاف البارع، والطبيب المسعف الماهر، لكنت الآن أضع بطاقة حول إصبع قدمي بدلاً من سوار الهوية هذا. نعم، كنت قريباً جداً من الموت، ولكم يغير هذا حياتك. ليس ظاهرياً، ولكن في أعمق أعماقك. فتماماً مثل أصدقائي الذين شهدوا المعارك في فيتنام، أشعر أحياناً أنني استنفدت فترة بقائي الأساسية، وأنني الآن على تعاقد شهري مع الحياة.

لاحظت أنني في مثل هذا الوقت من العام كنت قد تلقيت الرصاصات الثلاث في شارع 102 الغربي؛ كانت الذكرى الأولى لهذه الحادثة منذ ثلاثة أيام، وكدت أغفل اليوم، لولا أن أصر شريكي السابق - دوم فانيلي - على اصطحابي لتناول الشراب. وحتى نتقمص روح المناسبة، أخذني إلى مشرب في شارع 102 الغربي، على بعد بناية واحدة من مكان الحادثة السعيدة، حيث كان العديد من رفاقي القدامى في انتظاري، وقد نصبوا هدفاً للرصاص على شكل إنسان، وأسموه جون كوري، ويحمل أثر ثلاث رصاصات. كم هم غرباء رجال الشرطة!

أدرك ماكيغل أن كل ما سيفعله الآن، أو سيخفق في فعله، سيوضع تحت الفحص المجهري في الأسابيع والشهور المقبلة، ومن الأرجح أنه سيقضي طيلة الشهر أو الشهرين التاليين في الإدلاء بشهادته أمام العديد من الدول والوكالات الفيدرالية، ناهيك عن رؤسائه. فهذه المأساة هي أسطورة قسم الإطفاء، وعليه أن يتأكد من أنه بطل هذه الأسطورة.

تحول تفكيره من المستقبل المجهول إلى الحاضر الصعب. ما الخطوة التالية التي يجب عليه القيام بها الآن؟

كان يعرف أنه عندما تتوقف المحركات عن العمل، يمكن إعادة تشغيلها من خلال استخدام وحدة الكهرباء المساعدة الداخلية، وهو الأمر الذي لم يتدرب عليه،

أو من خلال وحدة كهرباء مساعدة خارجية يتم إحضارها إلى الطائرة. ولكن دونما مساعدة الطيارين في تشغيل المحركات وتحريك الطائرة، فإن ما يحتاجونه بحق هو قاطرة ترانس - كونتيننتل لسحب الطائرة عن المدرج إلى المنطقة الأمنية، بعيداً عن أنظار الجماهير وأجهزة الإعلام. رفع ماكيغل جهازه اللاسلكي إلى قناع وجهه، ونادى سورينتينو "الإنقاذ واحد، هنا الإنقاذ ثمانية-واحد".

بالكاد سمع ماكيغل صوت سورينتينو يأتيه من خلال غطاء رأسه وهو يقول "عُلم". قال ماكيغل "أحضر قاطرة الشركة إلى هنا بأسرع ما يمكن. هل تسمعني؟"

"أسمعك. قاطرة ترانس - كونتيننتل. ما الأمر؟"

"افعل ما أمرتك به. الآن".

غادر ماكيغل قمرة القيادة، وسار مسرعاً عبر القبة وأسفل السلم الحلزوني إلى الطابق الأدنى، ثم فتح باب المخرج الثاني عبر هيكل الطائرة من الباب الذي سبق ودخل منه.

ثم رفع الستارة المسدلة على قاطرة الركاب الكبرى، وأخذ يذرع جسد الطائرة 747 الطويل الواسع، وفي مواجهته المئات من الناس؛ جالسين أو متكئين، وجميعهم ساكنون تماماً، وكأنّه يشاهد صورةً فوتوغرافية. ظل ماكيغل يحدّق فيهم، آملاً أن يتحرك أحدهم أو أن يصدر صوتاً، ولكن لم تصدر أي حركة على الإطلاق، ولا استجابة لوجوده، ولا أي رد فعل على وجود هذا المخلوق في بزته الفضائية الفضية وقناعه.

استدار مبتعداً، وعَبَر المنطقة المفتوحة، ثم فتح ستارة مقصورة الدرجة الأولى وسار مسرعاً عبرها، وكان في طريقه يمس بضعة وجوه، بل وصفع بعضهم آملاً في أي رد فعل منهم. ولكن لم تكن هناك أي إشارة للحياة بين هؤلاء الناس. وعلى نحو مفاجئ بزغت فكرة شاذة تماماً إلى ذهنه؛ وهي أن تذكرة سفر الدرجة الأولى ذهاباً وإياباً، بين باريس ونيويورك، إنما تكلف نحو عشرة آلاف دولار أميركي. ولكن أي اختلاف يصنعه ذلك؟ فكلهم يتنفسون نفس الهواء؛ وكلهم الآن موتى، تماماً كهؤلاء في الدرجة السياحية.

أسرع ماكيغل بالخروج من مقصورة الدرجة الأولى عائداً إلى المنطقة المفتوحة، حيث المطبخ، ومقدمة الطائرة، والسلم الحلزوني، والبابين المفتوحين. ثم ذهب إلى الباب الجانبي الأيمن ورفع قناعه وغطاء رأسه.

"اتصل بمركز القيادة. أخبرهم أن كافة الأشخاص على متن الرحلة 175 قد لقوا حتفهم، وأن هناك اشتباهاً في وجود غازات سامة".

"يا الله".

"نعم. تأكد من استجابة مركز القيادة لك، واطلب حضور ممثل عن الشركة إلى المنطقة الأمنية". قال هذا ثم أضاف "في الواقع، أحضر الجميع إلى المنطقة الأمنية؛ الجمارك، والأمتعة، وكافة الهيئات ذات الصلة".

قال سورينتينو "سأفعل". واختفى داخل الشاحنة.

استدار ماكيغل نحو قاطرة الركاب وهو يحمل علبة معداته رغم شكه في أنه قد يحتاج إليها، ورغم أنه ترك فأسه مثبتاً على الحاجز. لم يكن يشم أي رائحة لمادة كاوية أو خطرة، ولكنه كان يشم رائحة خفيفة جداً؛ رائحة مألوفة، نعم، رائحة تشبه رائحة اللوز.

فتح ماكيغل الستارة وتحرك أسفل الممر الأيمن، وهو يتجنب النظر إلى الأشخاص المواجهين له، ثم فتح بابي الخروج، وسار عبر الطائرة وفتح البابين الآخرين، فشعر بتيار الهواء البارد على وجهه المبلل بالعرق.

طقطق جهاز اللاسلكي الذي يحمله، وأتاه صوت يقول "الوحدة واحد، هنا ملازم أول بييرس. ما هو تقرير الموقف؟"

حلّ ماكيغل جهازه المحمول وأجاب قائد الجولة "الوحدة واحد. أنا على متن الطائرة المعنية، وكافة الأرواح على متنها صرعى".

تبع ذلك صمت طويل، ثم أجاب بييرس "أمتأكد أنت؟"

"نعم".

صمت طويل آخر، ثم "غازات؟ أم دخان؟ أم ماذا؟"

"لا يوجد دخان. ربما غازات سامة، لكنني لا أعرف المصدر. الطائرة مهواة، وأنا لا أستخدم قناع الأكسجين".

"عُلم".

صمت آخر طويل.

شعر ماكيغل بالغثيان، إلا أنه أرجع هذا إلى الصدمة التي تلقاها لا إلى أي غازات منبعثة. ولما لم تكن لديه النية بالمجازفة بأي شيء، قرر الانتظار. كان يتخيل مجموعة من الأفراد في مركز القيادة، يتحدثون جميعاً في وقت واحد وبصوت خافت.

أخيراً أتاه صوت الملازم بييرس وهو يقول "حسناً، هل طلبت قاطرة الشركة؟"

"نعم".

"هل نحن بحاجة إلى المستشفى المتحرك؟"

"كلا. وحتى المشرحة المتنقلة لن تفيد هنا".

"عُلم. حسناً، فلننقل هذه العملية بالكامل إلى المنطقة الأمنية. فلنخلِ المدرج ونُبعد هذه الطائرة عن الأنظار".

"عُلم. أنا في انتظار القاطرة".

"حسناً، مممم. فلتنتظر على متن الطائرة".

"لن أذهب إلى أي مكان".

"أتريد أي شخص آخر داخل الطائرة؟ طبيبٌ مثلاَ؟"

أطلق ماكيغل زفيراً حانقاً؛ يبدو أن هؤلاء الحمقى في مركز القيادة لا يستطيعون فهم أن الجميع هنا موتى، ثم أجاب "سلبي".

"حسناً، أظن إذاً أن الطيار الآلي قد هبط بها".

"أظن هذا، الطيار الآلي أو العناية الإلهية. المهم أنه ليس أنا، ولا الطيار، ولا الطيار المساعد من هبط بها".

"عُلم. أظن أن... أعني، ربما كان الطيار الآلي مبرمجاً".

"لا يوجد مجال لربما هنا أيها الملازم. الطياران باردان كالجليد!"

"عُلم. ولا أثر للحياة؟"

"أكرر، لا أثر للحياة".

"وتفريغ الضغط؟"

"سلبي، لا وجود لأقنعة أكسجين معلقة. فقط غازات، غازات سامة لعينة".

"حسناً، هوِّن على نفسك".

"نعم".

"أراك في المنطقة الأمنية".

قال ماكيغل "عُلم". وأعاد جهاز اللاسلكي إلى خطافه.

لم يتبقَ له ما يفعله، فعمد إلى فحص بعض المسافرين، وتأكد مرة أخرى من عدم وجود أي حياة على متن هذه الطائرة. "يا له من كابوس".

شعر ماكيغل بالاختناق في كابينة الركاب المزدحمة، والتي بدت مخيفة بكل ما فيها من موتى، وفكّر أنه ربما كان من الأفضل لو ذهب إلى القبة حيث يستطيع أن يرى ما يحدث حول الطائرة.

فسلك طريقه خارج الكابينة، وصعد السلم الحلزوني، ثم دلف إلى القبة. ومن النوافذ جهة اليسار، رأى القاطرة تقترب، بينما رأى من النوافذ اليمنى مجموعة من عربات خدمة الطوارئ تتجه نحو محطة الإطفاء، وبعضها يتجه نحو المنطقة الأمنية.

حاول ماكيغل أن يتجاهل الأجساد من حوله، على الأقل كانوا أقل عدداً هنا في الأعلى، ولم يكن من بينهم أطفال أو رُضع. ولكنه فكّر أن أياً كان موقعه على متن هذه الطائرة، فهو الروح الوحيدة التي ما زالت موجودة هنا.

لم يكن هذا صحيحاً تماماً، إلا أن ماكيغل لم يكن يعرف أن لديه صحبة.

راقب طوني سورينتينو قاطرة ترانس - كونتيننتل وهي تتقدم نحو عجلات مقدمة الطائرة. كانت القاطرة عبارة عن منصة بكابينة قائد على كل من طرفيها حتى يتمكن السائق من الانسحاب إلى عجلات المقدمة، ولا يحتاج إلى الرجوع

بظهره إلى الخلف، مما يقلل من احتمالات وقوع ضرر أو خسائر. وما إن يثبت الخطاف، حتى يقوم السائق بتغيير كابينة القيادة وينطلق.

رأى سورينتينو في هذا ذكاءً ومهارة؛ كان مبهوراً بالقاطرة بحق، وتساءل كيف أنهم لا يمتلكون مثلها في قسم *الأسلحة والخراطيم*. ثم تذكر أن أحدهم قال له ذات مرة إنها مسألة تتعلق بالتأمين. فكل شركة طيران تمتلك قاطراتها، ولو أنهم أضروا بعجلات مقدمة الطائرة ذات المئة وخمسين مليون دولار، فهذا شأنهم. وبالرغم من أن هذا المبرر يبدو منطقياً، إلا أنه ما زال يرى أنه حري بقسمه أن يمتلك مثل هذه القاطرة الرائعة. فكلما زادت معداتهم، كلما كان ذلك أفضل.

ظل سورينتينو يراقب سائق شركة ترانس - كونتيننتل وهو يثبت الخطاف الذي يشبه الشوكة على جانبي مجموعة عجلات المقدمة، ثم ذهب إليه وسأله "هل تحتاج إلى مساعدة؟"

"كلا، ولا تحاول لمس أي شيء".

"لا تخف، أنا مؤَمّن".

"تأمينك لا يغطي هذا".

تم التثبيت، ومن ثم سأله السائق "ما هي وجهتنا؟"

"منطقة الاختطاف". استخدم سورينتينو أكثر أسماء المنطقة الأمنية إثارة، لكنه بالفعل أحد أسمائها.

تحولت عينا السائق بحدة نحو سورينتينو، وهو ما كان يتوقعه هذا الأخير. ثم ألقى السائق نظرة على الطائرة الضخمة الشاهقة من فوقهم، ثم إلى سورينتينو مرة أخرى وقال "ما الأمر؟"

"حسناً، هذا يتوقف على مفردات التأمين خاصتك يا صديقي".

"ماذا تعني؟"

"لديك هنا طائرة ضخمة وغالية يا عزيزي، تعج بالموتى والغازات السامة".

"يا الله".

"صحيح. هيا، فلنسرع بالتحرك. سأرشدك أنا إلى الطريق بشاحنتي واتبعني، ولا تتوقف حتى تصل إلى المنطقة الأمنية".

انتقل السائق إلى الكابينة الأمامية في ذهول، فصعد إليها، وعمد إلى تشغيل القاطرة الضخمة، وبدأ التحرك.

قفز سورينتينو إلى عربته، وتحرك متقدماً القاطرة، وهو يقود الطريق إلى المسار الممهد الذي يقود بدوره إلى المنطقة الأمنية، ليس بعيداً عن المدرج الرابع يميناً.

كان سورينتينو يستمع إلى كل الثرثرة اللاسلكية المنبعثة من ترددات جهاز الراديو خاصته، وكانت كلها تنم عن استياء. فأرسل قائلاً "الوحدة واحد تتحرك، تتبعها القاطرة والطائرة المعلقة بها، وتتبعها الوحدة أربعة".

ثبّت سورينتينو سرعته على خمسة عشر ميلاً في الساعة، حيث كانت تلك هي أقصى سرعة تستطيع التحرك بها قاطرة تجذب طائرة وزنها 750000 رطل، ودأب يراقب مراياه الجانبية ليتأكد من أنه في موقع مناسب من الطائرة. كان المشهد البادي في المرايا غريباً بحق؛ شاحنة بشكل غير مألوف تتبعه، فلا يعرف مقدمتها من مؤخرها، ووراءها طائرة فضية تبدو كالوحش، مسحوبة كأنها دمية خيوط. يا الله، *انظر إلى ماذا تحول اليوم!*

لم يكن التكاسل أبداً من خصالي، فقلت لجورج فوستر "مرة أخرى أطلب منك إذناً للخروج إلى المدرج".

كالمعتاد بدا فوستر غير حاسم، مما دفع كيت لتقول "حسناً، يا جون. فلتذهب إلى المدرج، ولكن ليس أبعد من هذا".

"أعدك".

استدارت ديلفيتشيو، وأدخلت رقماً في لوحة المفاتيح الخاصة بالبوابة. انفتحت البوابة، ومررت عبرها، ثم سرت بطول المسار الممهد، ونزلت سلم الخدمة حتى المدرج.

كانت القافلة المنتظرة لتقلنا إلى فيدرال بلازا مجتمعة بالقرب من مبنى الوصول، فتحركت مسرعاً إلى إحدى سيارات شرطة المطار، وقلت للضابط المناوب "إن الطائرة المعنية متوقفة على طرف المهبط، وأريد أن أذهب إلى حيث هي موجودة". قلت هذا، وجلست على المقعد إلى جواره، وأنا أشعر بتأنيب الضمير لأنني كذبت على كيت.

قال شرطي هيئة المطار الصغير في السن "ظننت أن رجال خدمة الطوارئ سيحضرون مسافركم هذا إلى هنا".

"تغيرت الخطة".

"حسناً". ثم بدأ يقود ببطء بينما يتصل ببرج المراقبة للحصول على تصريح لعبور المدارج.

كنت مدركاً لوجود شخص ما يجري بجوار السيارة، وبالنظر إليه عرفت أنه لا بد وأن يكون جيم ليندلي، عميل مكتب التحقيقات الفيدرالية، وصرخ في قائد السيارة "توقف".

أوقف شرطي هيئة المطار السيارة.

بعد أن عرّف ليندلي عن نفسه، توجّه إليّ متسائلاً "من أنت؟"

"كوري"

"آه، وإلى أين أنت ذاهب؟"

"إلى هناك، حيث الطائرة".

"لماذا؟"

"ولماذا لا؟"

"من خوّلك أن...".

فجأة رأيت كيت تتوجه رأساً إلى السيارة، وهي تقول "لا بأس يا جيم. سنتفقد الأمر فحسب". ثم قفزت إلى المقعد الخلفي.

فقلت للسائق "دعنا نذهب".

"أنا في انتظار تصريح المرور".

لم يكن الشرطي قد أكمل جملته حين ارتفع صوت رجل من مكبر الصوت يقول "من الذي يطلب تصريح عبور المدارج؟ ولماذا؟"

التقطت الميكروفون وأجبته "أنا. من أنت؟ معك مكتب التحقيقات الفيدرالية. نحن نود العبور إلى الطائرة. من أنت؟"

"معك السيد ستافروس، المسؤول ببرج المراقبة. انظر، ليس بوسعك العبور الآن".

"إنها حالة طارئة".

"أعرف أن هناك حالة طارئة. ولكن لماذا يتعين عليك عبور الـ...".

قلت له "شكراً لك". وتوجهت إلى الشرطي قائلاً "الطريق ممهد، فلنمضِ".

فقال محتجاً "ولكنه لم...".

"فلتشعل الأضواء والصفارات. أنا بحق أريدك أن تفعل هذا من أجلي".

هزّ الشرطي كتفيه، وتحركت السيارة تاركة المدرج ومتوجهة نحو المسار، بينما أضواؤها تلمع وصفاراتها تدوّي.

وثانية انبعث صوت ستافروس - الرجل من برج المراقبة - من مكبر الصوت، فما كان مني إلا أن خفّضت الصوت.

للمرة الأولى تحدثت كيت "لقد كذبت عليّ".

"وها أنا أعتذر لكِ".

أشار نحوها الشرطي بإبهامه من فوق كتفه، وسألني "من هذه؟"

"إنها كيت، وأنا جون. وأنت؟"

"آل، آل سيمبسون". ثم صعدت السيارة فوق العشب واتّبعت المسار الشرقي، واهتزت بعنف، فقال "من الأفضل أن نظل بعيداً عن المسارات والمدارج".

فأجبته "أنت القائد هنا".

"أي نوع من الطوارئ؟"

"معذرة، لا أستطيع أن أخبرك". في الحقيقة لم يكن لديّ ما أخبره به.

وخلال دقيقة واحدة كنا نرى طائرة 747 ضخمة تسبح في الأفق.

استدار سيمبسون، وخرج عن المسار الممهد إلى حيث الأرض المعشبة، متفادياً كافة الأضواء والإشارات، ومتوجهاً نحو المدرج الكبير، وقال "يجب عليّ حقاً الاتصال ببرج المراقبة".

"كلا، لا حاجة لك إلى ذلك".

"إنها لوائح إدارة الملاحة الفيدرالية".

"لا تقلق بهذا الشأن. سأراقب أنا الطائرات".

عبر سيمبسون المدرج الواسع.

مرة أخرى قالت لي كيت "دعني أخبرك أنه إذا كنت تحاول أن تُطرد من عملك، فإنك تبلي بلاءً حسناً في هذا".

لم تبدُ الطائرة 747 تلك وكأنها بعيدة بالفعل، ولكنه كان نوعاً من الخداع البصري؛ فالأفق لا يكبر حتى لو قطعنا البلد كله سفراً نحوه. فقلت للشرطي "أسرع".

اهتزت السيارة بعنف بينما كانت تسير على الأرض الوعرة.

سألتني كيت "هل لديك نظرية ما تود أن تشركني فيها؟"

"كلا".

"كلا ماذا؟ كلا ليست لديك نظرية؟ أم كلا لا تريد أن تشركني فيها؟"

"الأمران".

"لماذا نفعل هذا؟"

"لأنني سئمت من فوستر وناش".

"أرى أنك تحب الاستعراض".

"سنرى هذا حين نصل إلى الطائرة".

"أنت تحب المقامرة، أليس كذلك؟"

"كلا، أنا لا أحب المقامرة، ولكن يجب عليّ أن أقامر".

كان الشرطي سيمبسون يستمع إلينا، إلا أنه لم يدلِ برأي ولم يتحيز لأحد منا.

مضينا في صمت ولم تزل الطائرة 747 تبدو بعيدة المنال، كسراب في الصحراء.

أخيراً قالت كيت "ربما أحاول تأييدك".

"شكراً لكِ يا شريكتي". أظن أن هذا ما يطلق عليه الإخلاص غير المشروط بين المحققين الفيدراليين.

نظرت نحو الطائرة 747 مرة أخرى، ولا شك أنها لم تبدُ أكبر بالنسبة لي هذه المرة. "أعتقد أنها تتحرك".

نظر سيمبسون خارج النافذة وقال "نعم. لكن، أظن أنهم يسحبونها".

"ولماذا يسحبونها؟"

"حسناً، أعرف أنهم يطفئون المحركات، وأحياناً يكون سحبها هكذا أسهل من إعادة تشغيلها".

"أتعني أن الأمر ليس فقط مجرد تدوير مفتاح؟"

أضحك هذا سيمبسون.

كنا نتقدم أسرع كثيراً من الطائرة، وقد بدأت المسافة بيننا تنحسر، فسألت سيمبسون "لماذا لا يسحبونها إلى هذا الاتجاه؟ أعني إلى صالة الوصول؟"

"يبدو لي أنهم يأخذونها إلى منطقة الاختطاف".

"ماذا؟"

"أعني المنطقة الأمنية. لا فرق".

نظرت إلى كيت في الخلف، ورأيت كيف انزعجت.

رفع سيمبسون صوت الراديو في سيارته، وكل ما سمعناه كان في الغالب مجموعة من الأوامر والتقارير حول حركة السيارات، والعديد من هراء هيئة المطار الذي لم أفهم منه شيئاً، ولكن لم يكن هناك أي تقرير حول الموقف

الأساسي، فخمنت أن الجميع يعرف ما عدانا، فسألت سيمبسون ‘‘أيمكنك أن تخبرنا بما يحدث هنا؟’’

‘‘لا للأسف. لكن بوسعي أن أؤكد لك أنه ليس اختطافاً، ولا أظن أنه عطل ميكانيكي أيضاً، فأنا أسمع العديد من شاحنات خدمة الطوارئ تعود إلى محطتها’’.

‘‘ماذا عن الخدمة الطبية؟’’

‘‘لا أعتقد هذا. ليس في إشارات النداءات استدعاء لإسعاف طبي’’. ثم صمت على نحو مفاجئ وقال ‘‘أوه، يا الله!’’

‘‘ماذا؟’’

مالت كيت إلى الأمام بيننا.

‘‘سيمبسون؟ ماذا هناك؟’’

‘‘إنهم يستدعون المشرحة المتنقلة والطبيب الشرعي’’.

كان هذا يعني شيئاً واحداً؛ وجود جثث أو ضحايا.

قلت لسيمبسون ‘‘أسرع إذاً’’.

الفصل العاشر

خلع ماكيغل سترته التي تشعره بالحرّ، وألقى بها على المقعد الفارغ المجاور لامرأة متوفية. جفف العرق عن عنقه، وحاول إبعاد قماش القميص الأزرق عن جسده الرطب.

ثم طقطق جهازه اللاسلكي، وتناهت إليه إشارة الاتصال به، فتحدث وقال "الوحدة ثمانية-واحد. استمر".

كان الملازم بييرس مرة أخرى، وأجفل ماكيغل. قال بييرس في صوت ناعم "آندي. نحن لا نريد مضايقتك، ولكن نحتاج أن نتأكد، للتقرير فقط، أننا لا نفقد فرصة إسعاف المسافرين طبياً".

ألقى ماكيغل نظرة عبر قمرة القيادة المفتوحة وخارج الزجاج الأمامي. كان بوسعه أن يرى فتحة المنطقة الأمنية المغلقة أمامه، على بُعد مئة قدم. بالفعل كان سورينتينو شديد الاقتراب من البوابة.

"آندي؟"

"انظر. لقد تفقدت بنفسي نحو مئة من المسافرين في كل الكبائن الثلاث؛ نوع من المسح. كلهم أجساد باردة، وتزداد برودة. وأنا بالفعل في القبة الآن، وقد بدأت الجثث تتعفن".

قال الملازم بييرس "حسناً، كنت أتحقق فقط". ثم تابع "أنا في المنطقة الأمنية الآن، وأرى أنك تقريباً هنا".

"عُلم، أي شيء آخر؟"

"كلا، انتهى".

أعاد ماكيغل اللاسلكي إلى خطاف حزامه.

تحولت عيناه نحو الرجال الثلاثة المفترض أن يرافقهم خارج الطائرة، واتجه نحو الرجلين الجالسين متجاورين؛ العميل الفيدرالي والسجين المصفد.

ولأن ماكيغل كان شرطياً قبل أن يصبح رجل إطفاء، فكّر أن يحتفظ بأسلحتهما فلا تطرأ مشكلة في حال اختفت تلك الأسلحة. ففتح سترة بذلة العميل ووجد قراب السلاح، ولكنه كان خالياً. "ماذا... بحق الجحيم؟"

ثم تحرك إلى العميل في الصف الخلفي وبحث عن السلاح، ومرة أخرى وجد القراب ولم يجد السلاح. ها هو شيء آخر يثير القلق بحق!

شعر ماكيغل بالعطش الشديد وتحرك نحو المطبخ الخلفي. كان يعرف أنه من الخطأ أن يتناول أي شيء، لكن حلقه كان جافاً بحق. حاول أن يتجاهل المضيفة الممدة على الأرض بينما كان يتفقد المكان حوله. ثم عثر على علبة صغيرة من

الصودا المخففة في ثلاجة الكابينة، وجاهد لنصف ثانية، ولكنه أخفق، وفتح العلبة وأخذ منها جرعة كبيرة قبل أن يقرر أنه بحاجة إلى شيء أقوى، ففتح قنينة صغيرة من الشراب وتجرعها كلها دفعة واحدة، ثم أتبعها بمحتويات علبة الصودا، قبل أن يلقي بالعلبة والقنينة في سلة النفايات. بعدها تجشأ ماكيغل، وشعر بتحسن.

كانت الطائرة تتباطأ، ثم شعر بها تتوقف. سرعان ما ستعج الكبائن بالأشخاص. ولكن قبل أن يحدث هذا، وقبل أن يضطر إلى الحديث إلى الرؤساء، كان عليه أن يقضي حاجته.

خطا ماكيغل خارج المطبخ، وذهب إلى باب الحمام وجذبه، ولكنه كان مغلقاً، وأظهرت العلامة الحمراء على الباب كلمة (مشغول).

وقف ماكيغل لبرهة، وقد اجتاحته الحيرة؛ سبق وأن تفقد هذا الحمام لدى دخوله القبة أول مرة. كان هذا غريباً بحق. فجذب الباب ثانية، وانفتح هذه المرة.

كان يقف في مواجهته رجل طويل في الحمام، داكن البشرة، يرتدي سترة تحمل شعار ترانس - كونتيننتل فوق جيبها الأمامي.

بُهت ماكيغل لبرهة، قبل أن يتمالك نفسه ويقول "كيف استطعت أن...".

ثم نظر إلى وجه الرجل ورأى عينيه السوداوين تخترقانه.

رفع الرجل يده اليمنى، ورأى ماكيغل أنه يلف طرف بطانية حول يده وذراعه، فبدا الأمر غريباً. "من أنت بحق الجحيم؟"

"أنا أسد خليل".

بالكاد سمع ماكيغل صوت طلقة الرصاص المكتوم، ولكنه لم يشعر أبداً بالرصاصة عيار 40 وهي تثقب جبهته.

قال أسد خليل "وأنت ميت".

عبر طوني سورينتينو فتحة المنطقة الأمنية، المسماة بمنطقة الاختطاف.

أخذ ينظر حوله؛ كانت منطقة مغلقة على شكل حدوة حصان، وأنوار الصوديوم معلقة على دعامات طويلة، مما ذكره بملعب البيسبول، في ما عدا أن المنطقة بأسرها ممهدة بالخراسان.

مرت بضع سنوات منذ المرة الأخيرة التي دخل فيها هذه المنطقة، فراح ينظر حوله في أرجائها. كان سياج الانفجار يرتفع بنحو اثني عشر قدماً، وخلفه منصات إطلاق النيران وتُفصل بين الواحدة والأخرى ثلاثون قدماً أو نحوها. ولدى كل منصة درع مسلح بشق بندقية، رغم أنه لم يرَ أي أشخاص في تلك المواقع.

ألقى سورينتينو نظرة على مراياه الجانبية ليتأكد من أن رجل القاطرة لم يفزع لدى دخوله المنطقة أو أنه أوقف القاطرة. كان السياج على جانبي المدخل منخفضاً بحيث يسمح بمرور جناحي نفاثة تجارية، ولكن معظم سائقي القاطرات لا يدركون ذلك.

كانت القاطرة ما تزال تسير خلف سورينتينو، حيث أبحر جناحا الطائرة 747 فوق السياج، "هيا، تقدم يا أبله. اتبع طوني".

تلفت حوله ينظر إلى المشهد الممتد فوق الأسفلت، فيبدو أن الجميع قد وصلوا إلى هناك قبله. وقع نظره على مركز قيادة الحوادث المتحرك؛ وهو عبارة عن شاحنة ضخمة تحتوي على أجهزة اللاسلكي، والهواتف، والرؤساء، ومن خلالها يستطيعون الاتصال مباشرة بنصف أرجاء العالم، ومن الأرجح أنهم قد اتصلوا بالفعل بمديرية شرطة نيويورك، ومكتب التحقيقات الفيدرالية، وإدارة الملاحة الفيدرالية، وربما حتى بخفر السواحل، فأحياناً يساعدون بالمروحيات. مما لا شك فيه أنهم اتصلوا بالجمارك ومراقبة الجوازات. فحتى وإن وافت المسافرين المنية، لا أحد يدخل الولايات المتحدة الأميركية دون المرور بالجمارك ومراقبة الجوازات. أما اليوم، سيطرأ اختلافان فقط على هذه الإجراءات؛ أولهما، أن كافة الإجراءات ستتم هنا بدلاً من صالة الوصول؛ وثانيهما، أن المسافرين لن يضطروا إلى الإجابة عن أي أسئلة.

أبطأ سورينتينو شاحنته، وتفقّد موقعه وموقع الطائرة 747؛ تبقت بضعة أقدام حتى يتوسطوا المنطقة الأمنية.

وقع بصره على المشرحة والثلاجة المتنقلتين متجاورتين، وقد أحاط بهما العديد من الأفراد الذين يرتدون زياً أبيض اللون؛ كان هذا هو الطاقم الذي سيضع البطاقات على الموتى ويضعهم في أكياس.

على جانبي المنطقة، اصطفت شاحنات السلالم المتحركة، وكان مجموعها ست شاحنات، وبجوار كل سلم منها وقف الرجال العاملون، وشرطيو هيئة المطار، ورجال خدمة الطوارئ؛ اتخذوا جميعاً مواضعهم بحيث يتمكنون من الصعود إلى الطائرة للقيام بعملهم غير المستحب، المتمثل بإنزال جثث الضحايا.

شاهد سورينتينو أيضاً العديد من سيارات شركة ترانس - كونتيننتل؛ شاحنات، وأحزمة نقل، وعلب للأمتعة، وناقلات لحاويات الأمتعة، حيث كان هناك نحو عشرين عامل أمتعة من الشركة، يقفون مرتدين ستراتهم الزرقاء، وقفازاتهم الجلدية. عادة ما يجب دفع هؤلاء الرجال للعمل، أو يتم تعيين مشرف عليهم ليظل فوق رؤوسهم، لكن إفراغ طائرة الرحلة 175 لن يكون محدداً بزمن على كل حال.

لاحظ سورينتينو شاحنة الأشعة السينية التابعة لهيئة المطار، الخاصة بفحص الحقائب، وكذلك أربع شاحنات طعام؛ بالطبع كان يعرف أن الغرض منها ليس نقل الطعام إلى داخل الطائرة، ولكن بوسع هذه الشاحنات أن ترفع كبائنها هيدروليجياً إلى مستوى أبواب الطائرة 747، مما يجعلها أفضل وسيلة لإنزال الجثث.

كان الجميع هنا بالفعل؛ كل الأشخاص وكل الأشياء التي عادة ما تتخذ مكانها الطبيعي في صالة الوصول. الجميع ما عدا هؤلاء المنتظرين وصول الرحلة 175 إلى البوابة. فكّر سورينتينو أنه سرعان ما سيجتمع هؤلاء المساكين في غرفة خاصة لمقابلة المسؤولين من ترانس - كونتيننتل.

حاول سورينتينو أن يتخيل شركة ترانس - كونتيننتل وهي تجري كل هذه البلاغات، وتتعقب أي مشرحة ذهبت إليها الجثث، وترسل الأمتعة والمتعلقات الشخصية إلى أسر الضحايا يا الله. ثم في غضون أيام أو أسابيع قليلة، بعد أن يتم فحص الطائرة 747 بالكامل، ومن ثم تحديد المشكلة، ستتم إعادتها إلى الخدمة، فتربح المزيد من الأموال للشركة. وتساءل سورينتينو ما إذا كانت أسر هذه الضحايا ستحصل على حسمٍ على التذاكر مستقبلاً.

وقف شرطيٍ من هيئة المطار أمام شاحنة سورينتينو، وراح يشير إليه أن يتقدم إلى الأمام قليلاً، ثم رفع الرجل يده فتوقف سورينتينو إثر الإشارة، وألقى نظرة على المرايا الجانبية للتأكد من أن الأحمق في القاطرة قد توقف هو أيضاً. وكان قد فعل ذلك. وهكذا وصل سورينتينو إلى مقصده، وأطفأ مصباحه الدوار، ثم أخذ نفساً عميقاً. وعندما وضع وجهه بين يديه شعر بالدموع تنهمر على وجنتيه، ولكم أدهشه هذا؛ فلم يكن سورينتينو يعرف أنه يبكي.

الفصل الحادي عشر

لم يكن هناك ما يمكن أن نقوله - أنا وكيت والشرطي سيمبسون - فأخذنا نستمع إلى لاسلكي سيارة الدورية. غيّر سيمبسون الترددات، وأجرى اتصالاً مباشراً مع إحدى سيارات مركز خدمة الطوارئ، وسأله بعد أن عرّف عن نفسه "ما المشكلة بالرحلة ترانس - كونتيننتل 175؟"

انبعث الصوت من المكبر يقول "يبدو أنها غازات سامة. لا يوجد حريق. وكل من على متنها وافتهم المنية".

تبع هذا صمت تام في سيارة الدورية، فسأل المتحدث "هل تسمعني؟"

بلع سيمبسون ريقه وأجاب "أسمعك. وافتهم المنية جميعاً. انتهى".

حسناً. ماذا يمكن أن يقال بعد؟ لا شيء. وهذا هو بالتحديد ما قلته أنا. لا شيء.

عثر سيمبسون على المسار الممهد الذي يؤدي إلى المنطقة الأمنية، ولما كانت الحالة الطارئة قد انقضت، أبطأ سيمبسون سرعته إلى خمسة عشر ميلاً في الساعة، ولم أقل شيئاً لحثه على الإسراع.

كان المشهد الممتد أمامنا يكاد يكون سيريالياً؛ تلك الطائرة الضخمة تتثاقل على طول المسار نحو جدار من الفولاذ غريب المنظر، ذي فتحة واسعة فيه عبرت الطائرة 747 من خلالها، فيما مر الجناحان فوق الحائط.

في دقيقة واحدة كنا نعبر مدخل المنطقة الأمنية بسيارة الدورية، وأمامنا شاحنات وسيارات أخرى كانت تنتظر عبور الطائرة؛ كان هناك تنوّع من كافة أنواع الشاحنات التي رأيتها في حياتي وقد شرعت جميعها تتبع الطائرة 747، مما سبب نوعاً من الازدحام.

قلت لسيمبسون "قابلنا في الداخل". وقفزت خارج السيارة، وبدأت أركض، ثم سمعت صوت صفع الباب الخلفي متبوعاً بصوت خطوات كيت وهي تلحق بي.

لم أكن أعرف لماذا أركض، ولكنه كان صوتاً في رأسي يأمرني "اركض!" فركضت وأنا أشعر بتلك الندبة الصغيرة في خاصرتي تؤلمني.

ركضت وكيت في خط متعرج بين الشاحنات، وفي دقيقة كنا داخل المنطقة المتسعة المغلقة تلك، والتي كانت تعج بالسيارات، والأشخاص، وطائرة واحدة من طراز 747. بدا المشهد وكأنه لقطة من Close Encounters of the Third Kind، أو X-Files.

عادة ما يلفت الأشخاص الذين يركضون انتباه الآخرين، فاستوقفنا شرطي مناوب من هيئة المطار، وسرعان ما تبعه عريفه الذي قال "لِمَ العجلة يا قوم؟"

حاولت أن ألتقط أنفاسي وأقول "مكتب التحقيقات الفيدرالية". ولكن ما خرج من رئتي المعطوبة لم يكن سوى صوت أشبه بالصفير.

رفعت كيت بطاقتها، وأطلقت عبارتها بشكل واضح دون صفير أو زفير ‘‘مكتب التحقيقات الفيدرالية. لدينا لاجئ ومرافقاه على متن هذه الطائرة’’.

أخرجت بطاقتي ووضعتها على جيب سترتي الأمامي بينما ما زلت أحاول التقاط أنفاسي.

فقال عريف هيئة المطار ‘‘حسناً. على رسلكما، فلا داعي للعجلة. كلهم صرعى’’.

قالت كيت ‘‘يجب أن نصعد إلى هذه الطائرة حتى نتولى أمر الـ... جثث’’.

‘‘لدينا أناس سيفعلون هذا يا سيدتي’’.

‘‘أيها العريف، إن المرافقين التابعين لنا يحملون أسلحة ووثائق غاية في الأهمية والحساسية. إنها مسألة تتعلق بالأمن القومي’’.

قال ‘‘انتظرا’’. ومدّ يده إلى الشرطي بجواره، فأعطاه جهاز اللاسلكي. أرسل العريف رسالة لاسلكية وانتظر، ثم قال موجهاً حديثه لنا ‘‘الكثير من الرسائل اللاسلكية تُجرى الآن’’.

انتابتني رغبة جامحة في أن أكون فظاً مع الرجل، ولكنني انتظرت.

وفيما كنا منتظرين رد رسالته اللاسلكية تلك، قال العريف ‘‘هذه الجميلة أتت إلى هنا منقطعة الإشارة’’.

‘‘نعرف هذا’’. قاطعته وأنا أشعر بسعادة لأنني تعلمت هذا المصطلح مؤخراً.

نظرت إلى الطائرة 747 التي توقفت في وسط المنطقة الأمنية، فيما راحت السلالم المتحركة تشق طريقها نحو الأبواب، وسرعان ما سيصعد الناس على متنها.

لما لم يتلقَ العريف أي رد على رسالته، قال لنا ‘‘أترون شاحنة قيادة الحوادث المتنقلة هناك؟ اذهبوا وتحدثوا إلى أحدهم، فهم على اتصال مباشر بمكتب التحقيقات الفيدرالية وبرؤسائي’’.

وقبل أن يغير رأيه، أسرعت وكيت نحو شاحنة القيادة المتنقلة.

كنت لا زلت أتنفس بصعوبة، فسألتني كيت ‘‘هل أنت بخير؟’’

‘‘نعم، أنا بخير’’.

ثم ألقينا نظرة إلى الخلف، فرأينا العريف وقد انشغل بشيء آخر، فغيرنا مسارنا على الفور، وتوجهنا إلى حيث كانت الطائرة.

كان أحد السلالم المتحركة قد تم تثبيته في مؤخر الطائرة، حيث شرع بضعة رجال من خدمة الطوارئ في الصعود، متبوعين برجال ونساء يرتدون زيهم الأبيض، بالإضافة إلى بعض الرجال في سترات زرقاء، ورجل واحد في حلة رسمية.

من المعروف أن الرجل المحترم لا يرتقي السلم أبداً خلف سيدة ترتدي تنورة قصيرة، لكنني على كل حال أشرت إلى كيت لتصعد أولاً، فقالت "من بعدك".

صعدنا السلم، ودخلنا عبر باب الطائرة ثم إلى الكابينة المتسعة. لم يكن هناك سوى أضواء الطوارئ الأرضية، فربما كانت تعمل بالبطاريات، بينما كانت بعض أشعة الشمس التي أوشكت على المغيب تنبعث من النوافذ الجانبية. لكن لم تكن هناك حاجة للضوء الشديد لترى أن الكابينة كانت ممتلئة حتى ثلاثة أرباعها، وأن أي أحد فوق تلك المقاعد لم يكن يتحرك.

دخل الجميع معنا، وتوقفوا بلا حراك، وبلا كلام، فلم تكن هناك سوى الأصوات القادمة من الأبواب المفتوحة.

نظر الرجل المرتدي الحلة الرسمية إليّ وإلى كيت، ورأيت أنه يحمل بطاقة هوية فوتوغرافية على جيب سترته الأمامي. كانت بطاقة هوية تابعة لشركة ترانس - كونتيننتل، وبدا الرجل في حالة مريعة، وقال "هذا فظيع. يا الله!"

ظننت أنه على وشك الإنفجار بالبكاء، إلا أنه تحكم في نفسه، وقال "أنا جو هارلي. مشرف الأمتعة من شركة ترانس - كونتيننتل".

"مكتب التحقيقات الفيدرالية. اسمع يا جو. أبقِ رجالك خارج الطائرة، فربما كان في الأمر جريمة".

اتسعت عيناه في دهشة.

في الحقيقة، حتى هذه اللحظة لم أكن أظن فعلاً أنها واقعة جرمية، لكنني لم أكن أيضاً مقتنعاً بأنها حادثة غازات سامة، وكانت أفضل طريقة للسيطرة على الموقف هي القول بأنها *واقعة جرمية*، ومن ثم يفعل الجميع ما تأمر به.

اقترب منا أحد رجال خدمة الطوارئ بهيئة المطار وقال "جريمة؟"

"نعم. لماذا لا تذهبون إلى الباب وتمنعون صعود الآخرين لبعض الوقت، حتى نلقي نظرة؟ فلا داعي للاستعجال في جمع الأمتعة والجثث".

أومأ رجل خدمة الطوارئ، وشرعت وكيت في التحرك بسرعة فوق الممر الأيسر.

كان المزيد من الأشخاص قد بدأوا في الصعود إلى الطائرة من الأبواب الأخرى، فرفعت بطاقتي وأشهرتها نحو الأبواب المفتوحة الأخرى، وصحت فيهم "مكتب التحقيقات الفيدرالية. توقفوا حيث أنتم من فضلكم. ابقوا خارج الطائرة. من فضلكم تراجعوا إلى السلالم". وأشياء من هذا القبيل.

أدى هذا إلى بطء الحركة، وبدأ الأشخاص في التجمع حول الأبواب. كان هناك شرطي من هيئة المطار على متن الطائرة وأخذ يساعد في إيقاف حركة الدخول إلى الطائرة، بينما كنا نحن في طريقنا إلى مقدمتها.

كنت بين الحين والآخر ألتفت إلى الخلف فأبصر تلك الوجوه المحدقة إلى الفراغ، وبعضها كانت أعينها مغلقة. غازات سامة؛ ترى أي نوع من الغازات السامة؟

وصلنا إلى المنطقة المفتوحة حيث يوجد بابان للخروج، ومطبخ، وحمامان، وسلم حلزوني. كان هناك عدد من الأفراد يحتشدون داخل المنطقة، فأرجعناهم كما فعلنا من قبل، ولكن من الصعب بحق أن تحول دون دخول فيض من الأشخاص إلى موقع مأساة، خاصة لو كانوا على قناعة أن لهم هناك عملاً يؤدونه. فقلت "من فضلكم. من المشتبه أن يكون هذا موقع جريمة. من فضلكم تراجعوا. يمكنكم الانتظار على السلم بالخارج".

وعلى السلم الحلزوني كان يقف رجل في سترة زرقاء، فناديته "أنت، انزل عن هذا السلم".

كان الجميع يتراجعون نحو أبواب الخروج، بينما وصل ذاك الرجل على السلم الحلزوني إلى الدرجة الأخيرة. مررت وكيت من خلفه، وصعدنا السلم. ومرة أخرى تقدمتها.

صعدت درجات السلم الحلزوني، مجتازاً درجتين في كل خطوة، وتوقفت فور أن أصبح بوسعي النظر إلى داخل كابينة القبة. لم أشعر بحاجة إلى استخدام سلاحي، لكن القاعدة تقول إنه أينما كان هناك شك، فمن الأفضل أن تكون مستعداً، فسحبت مسدسي وعلقته في حزامي.

وقفت في كابينة القبة، وكانت الإضاءة فيها أشد من الكابينة بالأسفل، وتساءلت عمّا إذا كان رجل خدمة الطوارئ الذي صعد إلى متن الطائرة واكتشف كل هذا ما زال هنا، فناديت "هل يوجد أحد هنا؟"

تنحيت جانباً حتى أتيح المجال لكيت لتصعد. ففعلت ثم تحركت مبتعدة عني لبضعة أقدام، ولاحظت أنها لم تشهر سلاحها. في الواقع، لم يبدُ أن هناك مبرِّرا للاشتباه في وجود أي خطر على متن الطائرة، فقد أفاد رجل خدمة الطوارئ أن الجميع هنا قد لقوا مصرعهم على كل حال. ولكن، أين هو هذا الرجل؟

وقفنا هناك وأخذنا نمسح المشهد، الأهم فالمهم، والأهم كان التأكد من أنه لا يوجد أي خطر قد يحيق بنا، فعمدت إلى تفقد الأبواب المغلقة أولاً. العديد من المحققين اللامعين لاقوا مصرعهم فيما كانوا يتفحصون مواقع الجرائم نتيجة لإهمالهم.

في مؤخر القبة كان الحمام إلى اليسار، والمطبخ إلى اليمين. أشرت إلى كيت، فسحبت سلاحها من سترتها فيما

كنت أتوجه إلى الحمام. كانت اللافتة الصغيرة تقول *شاغر*، فدفعت الباب المغلق وتحركت نحو الحمام.

قالت كيت "لا شيء".

في المطبخ، كانت إحدى المضيفات ممدّدة على جانبها فوق الأرضية، وبحكم العادة، انحنيت فوقها، وأمسكت بمعصمها لأتحسس نبضها. لم يكن النبض غائباً فقط، بل كان جسدها بارداً.

بين المطبخ والحمام كانت حجيرة صغيرة، فقمت بالتغطية بينما فتحت كيت الباب. داخل الحجيرة كانت معاطف وسترات المسافرين، وأكياس الملابس معلقة، وبعض النثريات فوق الأرض؛ شيء لطيف أن تسافر في درجة رجال الأعمال! ألقت كيت نظرة فاحصة على المكان لبضع ثوانٍ، وكدنا نذهب دون أن نلحظ زجاجتي الأكسجين بلونيهما الأخضر، حيث كانتا مختفيتين تحت المعطف فوق الأرضية، وقد تم ربطهما بعربة متحركة. فحصت الصمامين وكانا مفتوحين. استغرق مني الأمر قرابة ثلاث ثوان للشك في أن إحدى الزجاجتين تحوي شيئاً آخر غير الأكسجين؛ شيئاً سيئاً. وبدأت الخيوط تجتمع والأشياء تتضح.

قالت كيت "إنها زجاجات أكسجين طبي".

"صحيح". رأيت أن الأشياء بدأت تتسق في ذهنها هي أيضاً، ولكننا آثرنا الصمت.

تحركت وكيت بسرعة إلى أعلى الممر، ووقفنا عند باب القمرة، وكان بوسعي أن أرى قفله وقد تحطم، فجذبت الباب وانفتح. خطوت إلى الداخل، ورأيت الطيارين وقد مالا في مقعديهما إلى الأمام. تحسست النبض في عنقيهما، ولكن كل ما وجدته كان جلداً دبقاً ورقيقاً.

لاحظت أن النافذة الفوقية كانت مفتوحة، وخمنت أن رجل خدمة الطوارئ الذي صعد إلى متن الطائرة قد فتحها لتهوئة القمرة. ثم تراجعت إلى داخل الكابينة.

كانت كيت تقف بالقرب من المقاعد في مؤخرة الكابينة، فذهبت إليها، وقالت "هذا هو فيل هاندري".

نظرت إلى الرجل في المقعد المجاور لهاندري. كان مرتدياً حلة سوداء، ويداه مصفدتان، بينما غطى وجهه قناع نوم أسود. رفعت القناع، ونظرت وكيت إلى الرجل، وأخيراً قالت "هل هذا هو؟ لا يبدو لي أسد خليل".

كان هذا شعوري أيضاً، لكنني لم أحتفظ بصورة واضحة لخليل في ذهني، كما أن وجوه البشر تختلف بحق بعد موتهم، فقلت "حسناً. يبدو هو. لست متأكداً".

اقتربت كيت من الرجل، ومزقت قميصه "لا توجد سترة واقية".

"نعم. لا توجد سترة واقية". وأقل ما يمكن أن يقال هو أن شيئاً غريباً بحق يحدث هنا.

انحنت كيت فوق الرجل في المقعد خلف فيل هاندري، وقالت "وهذا هو بيتر جورمان".

كان هذا مطمئناً على نحو ما؛ اثنان من ثلاثة... النسبة ليست سيئة. ولكن أين أسد خليل؟ ولمن هذه الجثة التي تحل محله؟

كانت كيت تحدّق في جثة الرجل حين قالت "ترى، من هو هذا الرجل؟ متواطئ؟ أم ضحية؟"

"ربما الاثنان".

كان عقلي يعمل بسرعة في محاولة لإيجاد المنطق في كل هذه الأشياء من حولنا، ولكن الشيء الوحيد الأكيد هو أن الجميع كانوا بالفعل موتى، ربما ما عدا رجلاً واحداً يدّعي الموت. طفت بعيني في الكابينة من حولي، وقلت لكيت "راقبيهم بحذر. أحدهم قد يكون مدعياً الموت".

أومأت كيت وأشهرت سلاحها في وضع الاستعداد.

"أعطيني هاتفك".

أخرجت هاتفها الخلوي من سترتها وأعطتني إياه، فسألتها "ما هو رقم جورج؟"

أعطتني كيت الرقم، واتصلت به، ولما أجاب فوستر قلت له "جورج. هذا أنا، كوري. اسمعني رجاءً. نحن على متن الطائرة، داخل القبة على وجه التحديد، والجميع لقوا مصرعهم، بما في ذلك هاندري وجورمان. حسناً، يسعدني أن ليندلي يطلعك على الأخبار. نعم، نحن داخل القبة، والقبة داخل الطائرة، والطائرة في المنطقة الأمنية. اسمع، الرجل مع فيل وبيتر لا يبدو كخليل. نعم، هذا ما قلته. الرجل مصفد، ولكنه لا يرتدي سترة واقية. كلا، لست متأكداً من أنه ليس خليلاً، فأنا لا أحمل له صورة، وكيت أيضاً غير متأكدة، والصورة التي رأيناها لم تكن واضحة. اسمع...". كنت أحاول أن أضع خطة للتحرك، ولكنني لم أكن متأكداً أين تكمن المشكلة على وجه التحديد، فقلت "لو أن الرجل بجوار فيل ليس أسد خليل، فمن المحتمل إذاً أن خليلاً ما زال هنا. نعم. ولكن من المحتمل أيضاً أن يكون قد تسلل خارج الطائرة. اطلب من ليندلي أن يخبر رجال هيئة المطار أن يتصلوا برؤسائهم في أسرع وقت وأن يحكموا إغلاق المنطقة الأمنية، بحيث لا يخرج أي شخص منها؛ أياً كان".

لم يقاطع فوستر حديثي، لكنني كنت أسمعه يتمتم بأشياء مثل يا الله، كيف حدث هذا، يا للبشاعة. وأشياء أخرى نبيلة من هذا القبيل.

قلت "يبدو أن خليلاً قد قتل اثنين من رجالنا يا جورج، والنتيجة هي بضع مئات لصالح الأسد، ولا شيء للفيدراليين. انشر إشارات الإنذار حول المطار، وافعل أقصى ما تستطيع في هذا الشأن. ماذا يمكنني أن أقول لك؟ رجل عربي! حاول إن استطعت إغلاق المطار بأسره. لو نجح هذا الرجل في الفرار، سنكون في مشكلة حقيقية. نعم، اتصل بفيدرال بلازا، سنقيم موقع قيادة في نادي الفاتحين. فلتفعل كل هذا بأقصى سرعة، وأخبر ديلفيتشيو أن الطائرة لن تأتي إلى البوابة". أنهيت المكالمة وقلت لكيت "اذهبي إلى الأسفل، وأخبري شرطيي هيئة المطار أننا بحاجة

إلى إغلاق المنطقة جيداً. فليدخل من يريد، ولكن لا أحد يخرج... تماماً كمصيدة الصراصير".

أسرعت كيت تهبط السلم، ووقفت أنظر إلى الوجوه من حولي. لو لم يكن هذا الجالس بجوار هاندري هو أسد خليل - وكنت على يقين بنسبة تسعين بالمئة أنه ليس خليلاً - فمن المحتمل إذاً أنه ما زال على متن الطائرة. ولكن، لو كان سريع التحرك، فلعله الآن في المنطقة الأمنية وسط نحو مائتي شخص يرتدون كافة أنواع الملابس التي يمكن تخيلها، بما في ذلك الحلل الرسمية كتلك التي يضعها مشرف حقائب ترانس - كونتيننتل. ولو أن خليلاً يعمل بسرعة بالغة، وبتخطيط محكم، فقد يكون الآن في شاحنة ما تأخذه بعيداً عن هنا، فسياج المطار قريب جداً من هنا، والصالات الطرفية على مسافة ميلين ليس أكثر. "اللعنة!" صعدت كيت السلم مرة أخرى، وقالت "فعلت ما طلبته، وهم يفهمون".

قلت لها "جيد. فلنفحص هؤلاء الناس هنا".

تحركنا عبر الممر، وفحصنا نحو عشر من جثث الرجال في كابينة القبة. كان أحد المسافرين يضع رواية لستيفن كينغ على قدميه، ولكم كان هذا ملائماً للموقف! ثم وصلت إلى رجل كان جسده مغطى تماماً بالأغطية، وكان يضع قناع النوم الأسود على جبهته. ولما أزحته، وجدت أن للرجل عيناً ثالثة في منتصف جبهته.

"إلى هنا".

أتت كيت إليّ فيما كنت أزيح الغطاء عن الجسد. كان الرجل مرتدياً قميصاً أزرق اللون داكناً، وبنطالاً عسكرياً، وكان شعار شرطة هيئة المطار مثبتاً على القميص. تركت الغطاء يسقط فوق الأرضية، وقلت لكيت "لابد وأن هذا هو رجل خدمة الطوارئ الذي صعد إلى الطائرة".

أومأت كيت مؤيدة وقالت "ترى، ماذا حدث هنا؟"

"لا شيء جيد".

عندما تكون في مسرح جريمة، ليس من المفترض بك أن تمس أي شيء، إلا إذا كنت تحاول إنقاذ أحد الأرواح، أو في حال كان المجرم في الجوار. ومن المفترض بك أيضاً أن ترتدي قفازاً مطاطياً، ولم يكن هذا حالي بالطبع. على كل حال، قمنا بفحص بقية الجثث، وكانوا جميعاً موتى، ولم يكن أسد خليل من بينهم. بحثنا جيداً، ولكن لم يكن هناك أدنى أثر للرجل. ثم عمدنا إلى فتح وتفتيش كافة المقصورات الفوقية، وفي إحداها وجدت كيت سترة حريق فضية، وفأس حريق، وعلبة أسطوانة الأكسجين مع قناع كامل؛ من الواضح أنها جميعها تخص رجل خدمة الطوارئ ذاك.

عادت كيت إلى فيل هاندري، وفتحت سترته لترى قراب سلاحه، فوجدته خاوياً. ثم نزَعت شارة مكتب التحقيقات الفيدرالية التي كانت مثبتة داخل سترته، وأخذت حافظة نقوده وجواز سفره.

ذهبت إلى بيتر جورمان وفتحت سترته، ثم قلت لكيت "لقد اختفى سلاح جورمان أيضاً". ثم أخذت أوراق اعتماده لدى وكالة الاستخباراتِ المركزية،

وجواز سفره، وحافظة نقوده، وكذلك مفاتيح الأصفاد، التي بدا واضحاً أنها أعيدت إلى جيب جورمان بعد استخدامها في حل وثاق خليل. ولكن ما لم أجده هو طلقات الرصاص الإضافية.

ثم فحصت الرف العلوي فوجدت حقيبة دبلوماسية. لم تكن مشفرة، ففتحتها وعرفت أنها حقيبة بيتر جورمان.

سحبت كيت حقيبة هاندري الدبلوماسية وفتحتها أيضاً.

فتشنا الحقيبتين الدبلوماسيتين، ولم يكن بهما سوى هاتفيهما الخلويين، وبعض الأوراق والمتعلقات الشخصية؛ كفرشاة الأسنان، والمشط، والمناديل، وما إلى ذلك، ومرة أخرى لم يكن هناك وجود لطلقات رصاص إضافية. بالطبع لم تكن هناك حقائب ليلية، فالقواعد تنص على سفر العملاء الفيدراليين بدون أي شيء سوى حقائبهم الدبلوماسية. أما بالنسبة لأسد خليل، فلم يكن مسموحاً له سوى بالملابس التي يضعها فوق جسده، ومن ثم لم يكن لدى بديله شيء يذكر.

قالت كيت "لم يأخذ خليل أيًّا من متعلقات فيل وبيتر الشخصية؛ لا شيء، لم يأخذ جوازي سفرهما، أو أوراق اعتمادهما، ولا حتى حافظة نقود أي منهما".

فتحت حافظة نقود جورمان، ورأيت فيها قرابة المائتي دولار نقداً، وبعض الفرنكات الفرنسية، فقلت "ولم يأخذ أموال جورمان أيضاً. إن الرجل يخبرنا أن لديه العديد من المصادر في أميركا، وأن بوسعنا أن نحتفظ بالمال إن أردنا، فلديه كل ما يحتاج إليه من بطاقات الهوية والنقود، بل وربما يكون أشقر الشعر الآن، وربما قد تحول إلى امرأة".

"لكن من الجائز أنه فعل كل هذا للسخرية منا. عادة ما يفعلون هذا، ويستعرضون هذه الأشياء أمام رفاقهم أو رؤسائهم من باب الافتخار".

"إن الرجل محترف بحق يا كيت، وبالطبع لا يريد أن يُقبض عليه وهو محتفظ بأدلة داحضة".

فأشارت "ولكنه أخذ السلاحين".

"لأنه بحاجة إلى الأسلحة".

أطرقت كيت، وأعادت كل المتعلقات إلى الحقيبة الدبلوماسية وقالت "لقد كانا شخصين رائعين".

لاحظت أنها مستاءة، وأن شفتها العليا كانت ترتجف.

أخذت الهاتف منها مرة أخرى، واتصلت بفوستر. قلت له "إن سلاحي فيل وبيتر وطلقاتهما الإضافية مفقودة. نعم، ولكنّ أوراقهما موجودة. كما أن رجل خدمة الطوارئ الذي صعد إلى الطائرة وُجد مقتولاً؛ بطلقة في جبهته. نعم، هذا صحيح. ربما استخدم القاتل أحد السلاحين المفقودين". أعطيته موجزاً سريعاً لما وجدناه، وأردفت "فلتعتبر القاتل مسلحاً، وغاية في الخطورة". ثم أنهيت المكالمة.

كانت درجة حرارة الكابينة ترتفع، وأصبحت دافئة، وبدأت رائحة خفيفة وسيئة تملأ الهواء، وسمعت صوت الغازات وهي تنفلت من أحد الأجساد.

تحركت كيت عائدة إلى الرجل المصفد، وراحت تتحسس وجهه وعنقه، ثم قالت ‘‘لا شك أن جسده أكثر دفئاً من الآخرين. أظنه مات منذ ساعة أو نحو ذلك’’.

كنت أحاول جمع الخيوط معاً؛ كان لدي القليل منها في يديّ، ولكن بعضها كان مبعثراً في الطائرة من حولي، وبعضها كان هناك...

قالت كيت ‘‘إذا افترضنا أنه لم يمت مع الآخرين، فكيف مات؟’’ ثم فتحت سترته، ولكن لم تكن هناك آثار دماء، فدفعت برأسه وكتفيه إلى الأمام لتفقد ما إذا كانت هناك جروح، فلاحظنا أن الرأس الذي كان مستنداً بارتياح إلى ظهر المقعد قد مال جانباً بشكل غير طبيعي على الإطلاق. أدارت كيت رأس الرجل وقالت ‘‘العنق مكسور’’.

صعد شرطيان من خدمة طوارئ هيئة المطار درجات السلم الحلزوني، ثم إلى داخل القبة. وأخذا ينظران حولهما، ثم إليّ وإلى كيت، وسألنا أحدهما ‘‘من أنتما؟’’

ردت كيت ‘‘من مكتب التحقيقات الفيدرالية’’.

أشرت إلى الرجل كي يقترب نحوي، ثم قلت له ‘‘هذا الرجل هنا، والرجل الآخر في المقعد خلفه، هما عميلان فيدراليان، وهذا الرجل المصفد كان سجينهما. واضح؟’’

أومأ الرجل.

تابعت قائلاً ‘‘سيحتاج رجال المعمل الجنائي من مكتب التحقيقات الفيدرالية إلى التقاط الصور، وكافة الإجراءات ذات الصلة. لذا، يجب علينا ترك هذا الجزء كما هو’’.

أحد الرجلين كان يُطل من خلفي، وسأل ‘‘أين ماكيغل؟’’ ثم نظر إليّ وتابع ‘‘لقد فقدنا الاتصال به منذ فترة. ألم ترَ رجلاً من رجال خدمة الطوارئ هنا؟’’

قلت كاذباً ‘‘كلا، فقط الموتى. ربما نزل إلى أسفل. حسناً، فلنذهب جميعاً من هنا’’.

أخذت وكيت الحقيبتين الدبلوماسيتين، وتحركنا جميعاً نحو السلم الحلزوني. سألت أحد الشرطيين ‘‘هل بوسع هذه الطائرة أن تهبط بمفردها؟ بطيار آلي مثلاً؟’’

‘‘نعم، بوسع الطيار الآلي أن يهبط بها. ولكن، اللعنة. أتظن أنهم كانوا جميعاً قد ماتوا قبل هذا؟ نعم، فهمت. لم تكن هناك إشارة من الطائرة منذ وقت طويل’’.

شرع رجلا شرطة خدمة الطوارئ في التحدث بسرعة ميل في الساعة، وسمعتهما يتحدثان عن أشياء مثل انقطاع الإشارة، والقوى الدافعة العكسية، والغازات السامة، وشيء أطلقوا عليه اسم سيناريو الدولة العربية، ورجل يُدعى آندي، وخمنت أنه هو نفسه ماكيغل.

كنا جميعاً في المنطقة المفتوحة بالأسفل حين قلت لأحد رجال شرطة المطار "من فضلك، قف على هذا السلم ولا تسمح لأحد بدخول القبة حتى يأتي رجال المعمل الجنائي الفيدراليون".

"أنا أعرف الإجراءات".

كانت ستائر قاطرة الركاب الكبرى والدرجة الأولى مفتوحة، ورأيت أن القاطرة لم تزل خالية، بيد أن الحشود كانت ما زالت منتظرة لدى باب السلم المتحرك.

شعرت بصوت وحركة تحت قدميّ، وعرفت أن عمّال الأمتعة قد بدأوا في إخلائها، فقلت لأحد ضباط شرطة المطار "أوقف نقل الأمتعة، ورجاءً أخرِج الجميع من الطائرة".

ثم دخلنا مقصورة الدرجة الأولى، حيث ضمّت عشرين مقعداً فقط، وكان نصفها فارغاً. بحثنا سريعاً في هذا الجزء، رغم أنني وددت لو تركنا هذه الطائرة على الفور. كنت وكيت المحققين الفيدراليين الوحيدين في هذا المشهد - على الأقل من الأحياء - وكنا بحاجة إلى جمع أكبر قدر من المعلومات. وبينما كنا نفحص المكان، قالت كيت "أعتقد أن خليلاً قد أطلق الغاز السام في الطائرة بأسرها".

"يبدو هذا".

"لا بد أنه كان لديه متواطئ معه من داخل الطائرة؛ الشخص الذي وضع زجاجتي الأكسجين حيث وجدناهما في تلك الحجرة".

"واحدة للأكسجين، أما الأخرى فلا".

"نعم، أعرف هذا". ثم نظرت إليّ وقالت "أكاد لا أصدق أن فيل وبيتر قد لقيا حتفهما، بينما خليل... لقد فقدنا سجيننا".

"بل تقصدين هاربنا". قلت مصححاً.

كانت كيت تفكر بنفس الطريقة التي كنت أفكر بها، "لقد قتل خليل أكثر من ثلاثمئة شخص رغم أنوفنا، وحتى قبل أن يهبط إلى الأرض".

انتقلنا من مقصورة الدرجة الأولى إلى المنطقة المفتوحة بالقرب من السلم الحلزوني، فتوجهت إلى شرطي المطار الذي سبق وأن طلبت منه الوقوف عند السلم، وسألته "بالمناسبة، ما هو السيناريو العربي؟"

أخبرنا الرجل بالقصة، ثم أضاف "لكن الوضع هنا مختلف، هذه حادثة جديدة من نوعها".

تحركنا - أنا وكيت - مبتعدين عن شرطي المطار، وقلت لها "ماذا عن سيناريو دراكولا؟"

"ماذا تعني؟"

"تعرفين القصة؛ الكونت دراكولا في التابوت على ظهر سفينة قادمة من ترانسلفانيا إلى إنكلترا، فيفتح له معاونه التابوت، ويخرج دراكولا ويمتص دماء

الجميع على ظهر السفينة. تصل السفينة بمفردها، كنوع من السحر، وكل من عليها من أفراد الطاقم والمسافرين موتى، وينزل دراكولا إلى إنكلترا الآمنة ليقترف المزيد من الأفعال المرعبة الإجرامية". أظن لو أنني كنت كاثوليكياً بحق، لكنت تلوت صلواتي على متن تلك الطائرة على الفور، وإلى الأبد.

حدّقت بي كيت، وشعرت أنها تتساءل في نفسها إن كنت معتوهاً، أو أنني فقدت صوابي تحت وطأة الصدمة. بالطبع أنا معتوه، وأعترف أنني مصدوم على نحو ما. أعني أنني قد رأيت بالفعل كل هذا قبل الآن. ولكن، قليلون من البشر على وجه الأرض قد يرون أشياءً كهذه، ما عدا في الحروب. والحق، إن هذه كانت حرباً بالفعل.

نظرت إلى داخل الكابينة الكبرى، فرأيت رجال الإسعاف، وقد انتشروا داخل الطائرة. كانوا يجوبون الممرات، ويكتبون إفادات الوفاة، ويضعون على الجثث علامات تحمل أرقام المقاعد والممرات، في وقت لاحق سيتم وضع البطاقات، ثم تدخل الجثث إلى الأكياس. يا لها من فوضى!

وقفت بجوار الباب الجانبي الأيمن، ورحت أستنشق الهواء النقي. كان لدي إحساس بأننا نغفل شيئاً، شيئاً بالغ الأهمية، فتوجهت إلى كيت متسائلاً "أتظنين أنه يجدر بنا أن نلقي نظرة أخرى على القبة؟" فكرَت كيت في السؤال لبرهة قبل أن تجيب "أظننا تفقدناها جيداً، نظرة سريعة ولكن شاملة؛ المطبخ، والحمام، وقمرة القيادة، والحجيرة، والكابينة، والرفوف. سيُسعد فورينسيكس لأننا لم نُفسد المشهد كثيراً".

"نعم." ولكنني لم أستطع أن أبعد عن ذهني فكرة أنه ما زال هناك شيء قد نسيته، أو ربما أغفلته. فكّرت في أوراق الفيدراليين، فيل وبيتر، والحافظتين، والأشياء التي تركها خليل، وبالرغم من أنني فسرت الأمر لكيت ولنفسي آنذاك، إلا أنني كنت قد بدأت بالفعل أفكر: لماذا ترك خليل هذه الأشياء؟ فلو افترضنا أن كل تصرف قام به هذا الرجل كان له غرض وهدف، فما الغرض من فعل نقيض المتوقع منه؟

قدحت زناد فكري، لكن لا شيء طرأ على ذهني.

كانت كيت تنظر إلى داخل إحدى الحقيبتين الدبلوماسيتين، وقالت لي "لا يبدو أن شيئاً مفقوداً هنا، ولا حتى ملف خليل، أو المستندات السرية، أو حتى التعليمات الخاصة بنا، أو مذكرة زاك ويبر".

"لحظة من فضلك".

"ما الأمر؟"

كانت الأشياء قد بدأت تتسق في رأسي. "إن خليلاً يدفعنا إلى التفكير في أنه قد انتهى منا، وأن المهمة قد تمت. يريدنا خليل أن نظن أنه قد انطلق إلى مبنى المغادرين الدولي، وأنه في طريقه إلى المغادرة بعد أن أنهى مهمته. يريدنا أن نعتقد أنه الآن على متن طائرة مغادرة إلى مكان آخر، وأنه لا يريد حمل هذه الأشياء معه في حال خضع للتفتيش".

“أنا لا أفهمك. أتعني أنه سيغادر على متن طائرة أخرى أم أنه لن يفعل؟”

“إنه يريدنا أن نفكر بهذا الشكل. لكنه لن يفعل”.

“حسناً، سيظل خليل هنا إذاً. ومن المحتمل أنه بالفعل خارج المطار الآن”.

كنت ما زلت أحاول جمع الخيوط معاً، فقلت “لو أنه ترك الأوراق لأنه أراد أن يكون نظيفاً، لماذا إذاً أخذ السلاحين؟ فهو ما كان ليأخذهما إلى صالة الوصول على كل حال، ولو كان يخطط للهرب من المطار، فلا بد وأن يكون هناك شخص متواطئ معه، وهو بالتأكيد يحمل سلاحه، فلماذا يحتاج إلى مسدسين داخل المطار؟”

“ربما تحسباً للخروج من هنا وسط إطلاق للنيران. لا تنسَ أنه ظل مرتدياً سترة النجاة. ما رأيك؟”

“أفكر أنه...” وفجأة فكّرت في لاجئ فبراير، وانطلقَت في رأسي تلك الفكرة المذهلة، “أوه، اللعنة!” فانطلقت بدوري أعدو نحو السلم الحلزوني، ومررت بجوار الرجل الذي كنت قد أوقفته هناك، وارتقيت درجات السلم؛ ثلاث درجات في كل خطوة، ثم اندفعت داخل القبة، وأسرعت نحو فيل هاندري. قبضت على ذراعه اليمنى، وقد لاحظت لتوي أنّها كانت شبه محشورة بين فخذه والمسند بين المقعدين. سحبت تلك الذراع ونظرت إلى اليد. لقد اختفى إصبع الإبهام، ومن الواضح أنه قُطع بأداة حادة. “اللعنة!”

ثم أمسكت بذراع بيتر جورمان، وجذبتها بعيداً عن جسده، وجدت نفس التشوه الجسدي.

كانت كيت قد وصلت، ووقفت إلى جانبي حين كنت ممسكاً بذراعي فيل وجورمان الخاليتين من الحياة.

ولنحو نصف ثانية بدت على ملامحها انفعالات الصدمة ثم الحيرة، قبل أن تقول “أوه، كلا!”

اندفعنا أسفل السلم الحلزوني، ثم خارج باب الطائرة، والتهمنا درجات السلم المتحرك ونحن نزيح بعض الأشخاص جانباً فيما نمضي مسرعين. كانت سيارة شرطة المطار التي أتينا بها تنتظرنا في الأسفل، فدلفت إلى المقعد الأمامي، وقفزت كيت إلى المقعد الخلفي، وقلت لسيمبسون “انطلق، وأشعل الأضواء وصفارات الإنذار لديك. تحرك”.

أخرجت هاتف كيت الخلوي من جيبي واتصلت بنادي الفاتحين، وانتظرت أن تجيبني نانسي تايت، ولكن ما من مجيب. قلت موجهاً حديثي لكيت “لا أحد يجيب في نادي الفاتحين”.

“يا الله”.

توجّه سيمبسون نحو فتحة المنطقة الأمنية، وهو يسلك طريقه بين عشرات الشاحنات المتوقفة، أخيراً وصلنا إلى تلك الفتحة في الجدار، حين أوقفنا شرطيو هيئة المطار وأخبرونا أن هذه منطقة يحظر الخروج منها. فقلت للشرطي “أعرف.

فأنا من حظر الخروج منها". ولكن لم يحدث هذا اختلافاً بالنسبة لرجال الشرطة الواقفين هناك.

عالجت كيت الموقف بحكمة، فأبرزت بطاقتها الفيدرالية، وتحدثت ببعض المنطق، وبعض الرجاء، وبعض التهديد، وساعدها سيمبسون في ذلك، بينما أبقيت فمي مغلقاً. أخيراً، سمح لنا رجال شرطة المطار بالذهاب.

قلت لسيمبسون مسرعاً "حسناً، استمع إليّ. يجب أن نبلغ الطرف الغربي من المطار حيث المباني الخدمية عبر أقصر الطرق وأسرعها".

"حسناً، يمكننا أن نسلك طريق الحافة...".

"كلا، أقصرها وأسرعها. أي المدارج والمسارات. تحرك".

تردد الشرطي سيمبسون، وقال "لا أستطيع أن أطأ المدارج بدون تصريح من البرج. إن ستافروس غاضب بحق و...".

قلت له "إنها حالة 10-13". وكان هذا يعني شرطي في خطر.

رفع سيمبسون سرعته إلى الدرجة القصوى، وهو ما سيفعله أي شرطي في حالة 10-13.

سألتني كيت "ما هي الحالة 10-13؟"

"استراحة لتناول القهوة".

بعد أن تخطينا عدداً من الشاحنات، قلت لسيمبسون "والآن، تظاهر بأنك في طائرة وأنك على وشك الإقلاع. هيا، انطلق".

ضغط سيمبسون على البدال حتى لامس هيكل السيارة، وانطلقت التشيفي كابريس تشق المدرج الأسفلتي الناعم كما لو كان بها محركات نفاثة. رفع سيمبسون جهازه اللاسلكي، وأطلع البرج على ما كان يفعله، وبدا رجل البرج وكأنه أصيب بالسكتة القلبية.

فيما كنا نمضي في طريقنا، أخرجت الهاتف الخلوي مرة أخرى، واتصلت بنادي الفاتحين، وثانية لم أتلقَ إجابة. "اللعنة!" اتصلت بهاتف فوستر الخلوي وأجابني، قلت له "جورج، أنا أحاول الاتصال بنيك. نعم، حسناً، أنا في طريقي إلي هناك أيضاً، على من يصل إلى هناك أولاً أن يتوخى الحذر. أعتقد أن خليلاً يقصد النادي. نعم، هذا ما قلته، لقد أخذ الرجل إبهامي فيل وبيتر. نعم، ما سمعتَه صحيحاً".

وضعت الهاتف في جيبي وقلت لكيت "يجد جورج صعوبة في التصديق كذلك".

فقالت في صوت خافت "يا الله، أتمنى لو أننا لم نتأخر كثيراً".

كانت السيارة تسير بسرعة مئة ميل في الساعة الآن، وكأنها تلتهم الطريق.

استطعت أن أرى عن بعد المبنى القديم حيث يوجد نادي الفاتحين. أردت أن أخبر سيمبسون أنه لم تعد هناك حاجة للإسراع، لكنني لم أستطع أن أحمل نفسي

على قول هذا، وكنا قد بلغنا بالفعل سرعة مئة وعشرة أميال في الساعة، حتى أن السيارة بدأت تهتز، وبدا سيمبسون وكأنه لا يلحظ ذلك، أو لا يعبأ، غير أنه نظر إليّ، فقلت "أبقِ عينيك على الطريق".

"تقصد على المدرج".

"أياً كان. أترى هذا المبنى الزجاجي الطويل؟ خفِّف من سرعتك قبله بقليل، واعثر على أي طريق خدمي أو مسار ممهد، ثم اتجه نحو هذا المبنى".

"حسناً".

بينما نقترب، رأيت علامة R31 مقلوبة، وقد طُبعت على المدرج، وبعدها بمسافة رأيت أن المدرج قد انتهى، وأدركت وجود سياج من السلاسل يفصل بيننا وبين المبنى. اندفعنا في طريق خدمي بدا وكأنه يتجه نحو بوابة السياج، لكن البوابة كانت تقع على بُعد مئة ياردة يميناً من المكان الذي كنا نقصده. فانحرف سيمبسون عن المدرج على نحو مفاجئ، حتى مالت السيارة على اثنين من إطاراتها لبضع ثوانٍ، ثم هبطت مرة أخرى في صدمة رهيبة.

رفع سيمبسون قدمه عن بدال الوقود، لكنه لم يكبح، فاخترقنا الزجاج، واتجهنا مباشرة نحو المبنى القابع خلف السياج، بعد أن اخترقت السيارة الكابريس سلاسل ذاك السياج وكأنها غير موجودة.

استقرت السيارة فوق الأسفلت، وداس سيمبسون على المكابح، وشعرت بآلية الكبح تفرقع وتنتفض فيما كان سيمبسون يقاتل عجلة القيادة كي يسيطر على السيارة التي انزلقت وتأرجحت ثم توقفت في صرير عالٍ على بعد عشرة أقدام من مدخل المبنى. كنت تقريباً خارج السيارة حين قلت لسيمبسون "عليك أن توقف أي شخص يحاول الخروج من المبنى. وكن حذراً فالمجرم مسلح".

سحبت سلاحي فيما كنت أركض نحو المدخل، ولاحظت سيارات المرافقة خاصتنا التي كانت لدى البوابة 23 وهي تقترب عبر الجانب البعيد من مكان توقف السيارات. ثم لاحظت كذلك وجود سيارة أمتعة تابعة لشركة ترانس - كونتيننتل. لم يكن هذا مكاناً طبيعياً لها، غير أنني كنت أعرف كيف وصلت إلى هنا.

تخطتني كيت، وركضت إلى داخل المبنى وهي مشهرة سلاحها، فتبعتها وقلت "غطّي المصاعد". وصعدت درجات السلم مسرعاً.

توقفت قبل المدخل، وأطليت برأسي، ونظرت في الاتجاهين، ثم ركضت أسفل الممر، وتوقفت بجوار باب نادي الفاتحين، وظهري نحو الحائط، بعيداً عن مرمى كاميرا التصوير الماسحة، حيث شاشاتها في جميع أنحاء المكاتب بالداخل.

مددت يدي، وضغطت بإبهامي الأيمن على الماسح الضوئي نصف الشفاف، وانزلق الباب منفتحاً. كنت أعرف أنه سيغلق ثانية في غضون ثلاث ثوان، وكإجراء أمني، لن ينفتح ثانية قبل ثلاث دقائق طويلة، ما لم يفتحه أحد من الداخل. فأسرعت إلى الداخل بينما شرع الباب في الانغلاق، ورحت أتفقد منطقة الاستقبال.

لم تكن نانسي تايت جالسة إلى منضدتها، ولكنٍ مقعدها كان مستنداً إلى الحائط الخلفي، بينما هاتفها يرنّ على نحو متصل. اتجهتُ نحو منضدة الاستقبال الطويلة، وظهري ما زال مستنداً إلى الحائط، ورأيت نانسي تايت فوق الأرض، وهناك طلقة رصاص غائرة في جبهتها، وبركة من الدماء حولها، وهناك دماء حول وجهها وعلى شعرها. لم يفاجئني ما رأيته، ولكنه أغضبني، وصليت أن يكون أسد خليل ما زال في المكان.

كنت أعرف أنه يتعين عليّ البقاء لتغطية البابين المؤديين إلى حجرة الاستقبال، ومضت ثوان معدودة حتى أظهرت الشاشة المثبتة على منضدة نانسي كلاً من كيت وجورج فوستر وتيد ناش من ورائها، فذهبت وضغطت زر الباب وأنا أصيح "الطريق خالٍ!"

اندفع ثلاثتهم إلى داخل غرفة الاستقبال مشهرين أسلحتهم، فأخبرتهم مسرعاً "إن نانسي ملقاة على الأرض؛ أصيبت برصاصة في جبهتها. سأذهب أنا وكيت إلى مركز العمليات، بينما تذهبان أنتما لتتفقدا الجانب الآخر".

فعل الرجلان ما طلبته منهما، واختفيا عبر المدخل المؤدي إلى الزنازين وغرف الاستجواب.

من ناحية أخرى، تحركت وكيت مسرعين إلى داخل مركز العمليات والقيادة، متخذين كافة الإجراءات الوقائية، وأظن أننا كنا نعرف أن أسد خليل قد مضى منذ وقت طويل.

ذهبت مباشرة إلى المنضدة التي كنا قد اجتمعنا إليها جميعاً منذ وقت طويل. كانت كل المقاعد خالية، وكل أقداح القهوة فارغة، ونيك مونتي ملقى على الأرض؛ ووجهه نحو السقف المرتفع وعيناه مفتوحتان على آخرهما، وبركة كبيرة من الدماء حول جسده. وبدا واضحاً من قميصه الأبيض أنه تلقى رصاصتين على الأقل في صدره، وأنه لم يسعفه الوقت للوصول إلى مسدسه الذي كان ما زال بعد في قرابه. انحنيت فوقه، وتحسست نبضه، ولكن دون جدوى.

ارتقت كيت مسرعة الدرجات الثلاث المؤدية إلى منصة الاتصالات، وتبعتها. من الواضح أنه لم تكن لدى الضابطة المناوبة سوى ثوانٍ معدودات للقيام بأي ردّ فعل، فلم تكن في مقعدها، بل مكومة بجوار الحائط البعيد تحت خرائط العالم الإلكترونية الضخمة. كانت بقع دمها منتشرة على الحائط وفوق بلوزتها البيضاء، وسلاحها معلّقًا على ظهر كرسيها، مع سترتها الزرقاء وكتاب الجيب خاصتها. ومرة أخرى تفقدت أي إشارة للحياة فيها، لكنها كالآخرين؛ كانت ميتة.

كانت تسري في الغرفة غمغمات وهمهمات الأجهزة الإلكترونية وبعض الأصوات الخافتة المنبعثة من مكبرات الصوت، فيما كانت المبرقة الإلكترونية تطقطق، وجهاز الفاكس يصدر ضجيجاً متواصلاً. وعلى الطاولة كانت هناك صينية من السوشي وعودان لتناول الطعام. نظرت مرة أخرى نحو الضابطة المناوبة الغارقة في دمها قرب الحائط؛ وفكّرت بالطبع أنّ آخر ما كانت تتوقعه اليوم هو أن تواجه مشكلات في قلب أحد أكثر المرافق أمناً في البلد.

كان فوستر وناش قد وصلا إلى الغرفة الآن، وراحا ينظران إلى نيك مونتي، وكذلك فعل شرطيان من هيئة المطار، ألقيا نظرة على مونتي ثم أخذا يحدقان في المقر، حتى صرخت فيهما "أحضرا سيارة إسعاف!" كنت أعرف أننا لسنا بحاجة إلى سيارة إسعاف، ولكن هذا ما يجب عليك قوله في موقف كهذا.

نزلت وكيت عن منصة الاتصالات، وتحركنا نحن الأربعة إلى إحدى زوايا الغرفة. بدا جورج فوستر شاحباً وكأنه يطالع تقرير كفاءته، بينما احتفظ تيد ناش بغموضه المعتاد، بيد أنني لاحظت سحابة من القلق بادية على وجهه.

التزمنا جميعاً الصمت، فماذا يمكن أن يُقال؟ كنا نبدو جميعاً كالحمقى، ولربما كان هذا جزءاً من الخطة. بغض النظر عمّا نواجهه من مشكلات صغيرة في عملنا كأفراد، هناك حقيقة أن المئات قد لاقوا حتفهم، بينما صانع هذه المذبحة على وشك الاختفاء في مدينة يقطنها ستة عشر مليون نسمة قد يصبحون نصف هذا العدد قبل مساء الغد، في حال كان الرجل يعتزم استخدام شيء نووي، أو كيميائي، أو بيولوجي.

لدينا الآن مشكلة كبرى؛ لا مراء. من الواضح أيضاً أنه لم يكن تيد ناش، ولا جورج فوستر، ولا كيت مايفيلد، ولا جون كوري بحاجة إلى هذا الإزعاج، فلو أن وحدة مكافحة الإرهاب الفيدرالية تعمل على نسق مديرية شرطة المطار، لربما جرى نقلنا لحراسة عبور تلاميذ المدارس.

لكن على الأقل نيك مونتي سيحظى بجنازة تليق بمحقق فيدرالي، ووسام شرف فاخر. وكما قلت آنفاً، وقفت في تلك اللحظة أتساءل كيف كان سيصير الحال لو بقيت بدلاً من نيك. ربما كنت أنا الذي سيكون ملقى على الأرض الآن حيث جسده الممدّد، وجسدي على وشك أن يحاط بإطار من الطباشير لتحديد مكانه فوق الأرض.

حملقت في المنضدة حيث اجتمعنا كلنا في وقت مبكر من ذاك اليوم، وحاولت أن أتخيل خليلاً يندفع إلى داخل الغرفة وهو ينظر يمنة ويسرى، فيرى مونتي ويراه مونتي. والغلبة دائماً للمهاجم المفاجئ، ونيك لم يكن يتوقع أبداً أن يُصبح جزءاً من اللعبة، بل اعتقد نفسه مسترخياً ضمن قوائم الاحتياطي.

لاحظ الجميع كيف أنني أنظر إلى المنضدة وإلى نيك. في الحقيقة، لم يكونوا أغبياء أو متبلدين كما بدوا لي، فخمنوا على الفور ما كان يدور في عقلي، فجذبني جورج من كتفي وأبعدني عن المكان، فيما كانت كيت تقول "فلنخرج من هنا".

لم يعترض أحد، وعمد ناش إلى جمع الملفات عن المنضدة. وبينما كانت خمسة ملفات في ما سبق - واحد لكل منا - صار هناك أربعة منها الآن؛ من الواضح أن السيد خليل قد أهدى نفسه واحداً منها، ومن ثم أصبح يعرف الآن ما نعرفه نحن عنه. رائع!

أخذت صورة خليل من أحد الملفات، وذهبت إلى ملازم مناوب من هيئة شرطة المطار، وأعطيته الصورة، قائلاً "هذا هو المشتبه به. تأكد من توزيعها على جميع رجال الشرطة المناوبين، وأخبرهم أن يعمدوا إلى إيقاف وتفتيش كل شاحنة تغادر

هذا المطار. وتفقد أماكن وقوف السيارات، وسيارات الأجرة، والشاحنات، وحتى السيارات الرسمية".

"تنفيذ هذا يجري بالفعل، بل ونشرت إنذاراً عبر كافة أنحاء المدينة".

أضافت كيت قائلة "وابحث عن الرجل في صالات المغادرة أيضاً".

"سأفعل".

ثم أردفت للملازم "هناك شاحنة ترانس - كونتيننتل بالخارج؛ واحدة من شاحنات حمل الأمتعة، أظن أن المجرم قد استخدمها كي يصل إلى هنا. من فضلك قم بسحبها إلى منطقة المعالجة، وأطلعنا في حال وجدت زياً أو سترةً رسمية في أي مكان".

أخرج ملازم شرطة المطار جهاز اللاسلكي واتصل بمركز القيادة الذي يتبعه.

بدأت العجلات تتحرك والإجراءات تُتخذ، ولكن أسد خليل يتحرك بشكل أسرع بكثير، وأظن أن فرصة حصره داخل المطار قد انقضت منذ عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة مضت.

كان الضيق والانزعاج يزحفان إلى فوستر من رجال شرطة المديرية وسلطة المطار الذين أخذوا يدورون من حوله، فقال لهم "حسناً، فليخرج الجميع من فضلكم. إن هذا موقع جريمة، ونحتاج إلى الحفاظ عليه حتى يصل رجال المعمل الجنائي. وليقف أحدكم عند الباب. أشكركم".

غادر الجميع الغرفة ما عدا عريف شرطة المطار الذي أشار إلينا لنتبعه حتى منضدة نانسي، وأشار إلى قدح فارغ من أقداح الشاي. نظرنا جميعاً إليه، وفي داخل القدح، في نحو نصف بوصة من الشاي، كان هناك إبهامان.

سأل العريف "ما هذا بحق الجحيم؟"

أجابه جورج فوستر قائلاً "ليست لديّ فكرة". قال هذا بالرغم من أنه يعرف تماماً من أين أتى الإبهامان، ولماذا لم يعودا في يدي صاحبيهما، ولكن من الأفضل الإسراع في دخول نمط التغطية، وأن تستبقيه إلى أن تحين تلك اللحظة التي تؤدي فيها القسم، وحتى عندئذٍ، لا ضير من شيء من فقدان الذاكرة أحياناً؛ أمن قومي وأشياء من هذا القبيل.

هكذا تحول ما بدأ كمهمة نمطية عادية إلى جريمة القرن؛ أسوأ الأشياء قد تحدث في يوم ربيعي جميل!

الفصل الثاني عشر

خرجنا جميعاً من نادي الفاتحين إلى ضوء الشمس، ورأينا المزيد من السيارات والشاحنات تفد إلى المكان. قال جورج فوستر، قائد فريقنا "سأتصل بالمقار الرئيسية لتنبيه كافة مراقبينا ولزيادة عددهم".

يجدر بالذكر أن وحدة مكافحة الإرهاب الفيدرالية تقوم بمراقبة كل منازل الإرهابيين ومفجري القنابل المعروفين والمشتبه بهم، وكذلك منازل أسرهم، وعائلاتهم، ومسانديهم، والمتعاطفين معهم. وهو عمل تقوم به بصفة أساسية مديرية شرطة نيويورك، فيما يدفع الفيدراليون أموالاً لمدينة نيويورك أكثر بكثير مما تستحقه هذه المهمة... والجميع سعداء على كل حال.

تابع فوستر قائلاً "سنزيد من المراقبة على الهواتف، ونعمد إلى استخدام المزيد من المخبرين، وتوزيع صورة خليل على كافة هيئات تطبيق القانون عبر البلاد".

استمر فوستر في حديثه هذا لفترة حتى يبث فينا إحساساً بأنّه ممسك بزمام الأمور وأن كل شيء تحت السيطرة، ومن ثم يعزز فينا الثقة ويرفع الروح المعنوية، ناهيك عن إعطاء بعض المصداقية لنفسه في مواجهة هذا المأزق.

بالكلام عن هذا، سرعان ما سيظهر في المكان أشخاص من الأفضل ألا نقابلهم، فقلت مقترحاً "ربما يجدر بنا العودة إلى فيدرال بلازا، ونعيد ترتيب الحقائق فيما نكون في الطريق إلى هناك".

وجدها الجميع فكرة لا بأس بها. يبدو أن العقول المضطربة تفكر بنفس النمط.

لكن كنا بحاجة إلى ترك كبش فداء في الموقع، وكان جورج يعرف أن هذا دوره لا محالة، فقال "اذهبوا ثلاثتكم، أما أنا فعليّ أن أبقى هنا، لأطلع كل من يأتي على الأمر. كما يتعين عليّ أن أبطل الإنذار وأن أستدعي المعمل الجنائي إلى هنا". ثم أضاف وكأنه يقنع نفسه "قطعاً لا بد أن أبقى، فهذا مرفق أمني تابع لمكتب التحقيقات الفيدرالية، و...".

فقلت كي أساعده "ولم يتبقَ أحد لتأمينه".

بدا فوستر منزعجاً للمرة الأولى منذ قابلته، ثم قال موجهاً حديثه لي "إنها منطقة محظورة ببيانات سرية، و...". جفف فوستر العرق عن شفته ونظر إلى الأرض.

بالطبع كان جورج فوستر يدرك أنّه بدخول خليل إلى نادي الفاتحين، فإنّه قد دخل عقر داره حتى آخر ركن فيه، بل وتغوط على أرضه. كما عرف كيف حدث هذا مقارنة بلاجئ فبراير المزيف. ستة أطنان من المصائب على الأقل كانت توشك أن تسقط على رأس جورج فوستر، وكان يعرف هذا، فقال وكأنه يعترف "إنها مسؤوليتي، وأنا... أنا...". ثم استدار، وسار مبتعداً.

أما تيد ناش، فكان - بالطبع - يتبع هيئة متخصصة في تجنب أطنان المصائب تلك، وكنت أعرف أن شيئاً لن يلوث حلته الأنيقة. واستدار بدوره متجهاً نحو سيارة

سيمبسون.

أما بالنسبة لي، فلقد التحقت حديثاً بهذا الفريق المتميز، ومن ثم فأنا بعيد تماماً عن المشاكل، وأغلب الظن أنني سأظل كذلك، ما لم يجد ناش طريقة للزج بي في عاصفة المصائب، وربما كان هذا سبب إبقائه لي في الجوار. أما كيت مايفيلد- تماماً كجورج فوستر- فلم تكن لديها مظلة تحميها، ولكنها غطت نفسها على نحو ما بمجيئها معي إلى الطائرة. قلت لها "ليس لدي ما أفقده هنا، وسأحاول تغطيتك".

أجبرت كيت نفسها على رسم ابتسامة على وجهها وهي تجيبني قائلة "شكراً، ولكننا سنسرد الأمر تماماً كما حدث، ونترك الأمر لواشنطن لتقرير من منا قد اقترف ذنباً أو خطأ".

قلبت عينيّ ساخراً من ردها، لكنها تظاهرت بأنها لم تلحظ ذلك.

ثم أردفت "أتنوي الاستمرار في هذه القضية؟".

"بل ستكونين محظوظة بحق إن لم يعيدوك إلى مهنة المحاسبة".

فقالت في برود "هذه ليست طريقة عملنا. إنها سياسة لديهم أن يستبقوا العميل في قضيته التي أساء التصرف فيها طالما أنه يخبرهم بالحقائق ولا يكذب عليهم".

"حقاً؟ أعتقد أن لدى الكشافة سياسة شبيهة".

لم تعلّق كيت على هذا.

انطلق بوق السيارة حيث كان تيد ناش ينتظر بنفاد صبر في سيارة الشرطي سيمبسون، وقد اتخذ المقعد الأمامي بجواره. سرت وكيت نحو السيارة، واتخذنا المقعد الخلفي حيث الحقيبتين الدبلوماسيتين. قال ناش موجهاً حديثه إلينا "لقد حصل الشرطي سيمبسون على تصريح لتوصيلنا إلى مانهاتن السفلى".

هنا أعلمنا سيمبسون "أنا في مأزق حقيقي بسببكما يا رفاق، ولم يعد أحد يهتم بما أفعله".

طمأنته كيت بقولها "سأهتم أنا بهذا الأمر، فقد أبليت بلاءً حسناً".

قال سيمبسون "فليكن!".

مضينا في صمت لبضع دقائق، ثم خرجنا عبر واحد من المخارج بالقرب من المخازن.

أخيراً، قال لي ناش "لقد أبليت بلاءً حسناً أيها المحقق".

أدهشني هذا إلى حدٍّ ما، بما في ذلك استخدام لقبي السامي السابق، حتى أنني عجزت عن الكلام، بل وفكّرت أنني ربما أخطأت في فهم ناش العجوز، ربما يمكننا أن نتقارب على نحو ما، وربما أمد يدي وأربت على شعره الآن وأقول له "كم أحبك أيها العجوز!".

على كل حال، وصلنا إلى إحدى بوابات الخروج، ولوّح لنا شرطي هيئة المطار للخروج حتى دون النظر إلينا، وبدا واضحاً أن التعليمات والإنذار لم تصل

للجميع، فطلبت من سيمبسون أن يتوقف.

تركت السيارة، وأشهرت بطاقتي الفيدرالية لهذا الشرطي، وسألته ”أيها الشرطي، هل تلقيت أي تعليمات بأن توقف وتفتش كل سيارة وشاحنة تحاول الخروج من هنا؟“

”نعم، ولكن ليس سيارات الشرطة“.

أصابني هذا بالإحباط، بل وأغضبني كثيراً. عدت إلى السيارة، والتقطت أحد ملفات أسد خليل، وانتزعت صورته، وعرضتها على الشرطي ”هل رأيت هذا الرجل؟“

”كلا، كنت سأتذكر لو رأيت هذا الوجه“.

”كم سيارة مرت من هنا منذ أن تلقيت التنبيه؟“

”ليس الكثير، فاليوم هو السبت. ربما عشر سيارات أو نحو هذا“.

”وهل أوقفتها وفتشتها؟“

”نعم، ولكن كانت كلها شاحنات كبيرة تعج بالصناديق والعلب، وبالطبع لا أستطيع تفتيشها كلها، إلا حينما يبدو وكأن أحدهم قد عبث بختم الجمارك، ولم يكن هناك شيء كهذا“.

”أتعني أنك لم تقم بتفتيش أي من تلك العلب والصناديق؟“

بدأ الرجل يضيق ذرعاً بي، وصاح ”أنا أحتاج إلى بعض المساعدة هنا. تنفيذ ما تقوله قد يستمر طوال اليوم“.

”كم سيارة مرت من هنا قبل أن تتلقى التعليمات؟“

”ربما اثنتان أو ثلاث“.

”أي نوع من السيارات كانت؟“

”شاحنتان وسيارة أجرة“.

”هل كان هناك ركاب في سيارة الأجرة؟“

”لم أنتبه لهذا“. ثم أردف مسرعاً ”لم أكن قد تلقيت التعليمات بعد“.

”حسناً“. أعطيته الصورة وقلت له ”هذا الرجل مسلح وغاية في الخطورة، ولقد قتل بالفعل العديد من رجال الشرطة اليوم“.

”يا الله“.

عدت إلى السيارة وتابعنا طريقنا، ولاحظت أن الرجل لم يبدأ بنا وتركنا نمضي دون أن يفتش صندوق السيارة، وما كنت سأفعل هذا لو أن أحدهم قد أعطاني لتوه مثل هذا الدوش البارد. ولكن يبدو أن الطريق طويل أمام أميركا لتعي الدرس.

وصلنا إلى الطريق المتسع المشجر على الجانبين، ومضينا إلى مانهاتن.

سارت السيارة في صمت لبعض الوقت. كان ينطبق على حزام باركواي ما سيصفه أبله المرور في مروحيته بأنه معتدل إلى مزدحم، وأنا في الحقيقة أراه مزدحماً بشدة، لكنني لا أهتم. رحت أشاهد بروكلين وهي تمضي أمامي خارج النافذة، وقلت لصديقيَّ الفيدراليين "هناك ستة عشر مليوناً من الأشخاص في هذه المنطقة الحضرية، وثمانية ملايين أخرى في مدينة نيويورك، من بينهم نحو مائتا ألف وافد حديث من البلاد الإسلامية، نصفهم هنا في بروكلين".

لم تعلق كيت على ما قلته، وكذلك ناش.

أما بالنسبة لخليل، فلو أنه قد اختفى بالفعل وسط هذه الملايين الصاخبة، فهل بوسع وحدة مكافحة الإرهاب الفيدرالية أن تعثر عليه؟ ربما. صحيح أن المجتمع الشرق أوسطي مجتمعاً غاية في السرية والانطواء، إلا أن هناك مخبرين، ناهيك عن الأميركيين الأوفياء الذين يعيشون بينهم. فالشبكة الإرهابية السرية شديدة التنوع والاختلاف، وحتى نعطي الفيدراليين حقهم، يجدر بنا القول إن لديهم حجم معلومات لا بأس به حول من يفعل ماذا.

لهذا السبب لن يُقدِم خليل على الاتصال بالمشتبه بهم المعروفين؛ فمن غير المعقول أن شخصاً بمثل هذا الذكاء بحيث فعل ما فعله سيقوم بفعل بمنتهى الغباء ويتصل بأي شخص أقل ذكاءً لأنّه بالطبع يعرف أنّه صار من المشتبه بهم.

أخذت أفكر في جرأة السيد خليل، والتي سيراها مؤيدوه باعتبارها شجاعة. ستكون قضية هذا الرجل تحدياً حقيقياً؛ هذا على أقل تقدير.

أخيراً تحدث ناش، ولكن دون أن يوجه حديثه إلى أحد بعينه "نحو مليون شخص يتسربون إلى هذه المدينة بشكل غير شرعي كل عام. ليس هذا بالأمر الصعب. وأنا أعتقد أن مهمة هذا الرجل ليست دخول البلد والقيام بأي فعل إرهابي؛ بل مهمته كانت فعل ما قام به على الطائرة وفي نادي الفاتحين، ثم الخروج من البلد. إنه لم يترك المطار، وإن لم يكن رجال شرطة المطار قد قبضوا عليه، فأنا أتصور أنه الآن على متن طائرة ما خارج البلاد، وأن مهمته قد تمت.

قلت لتيد ناش "لقد نبذتُ هذه الفكرة. فلتأتِ بغيرها".

فرد على نحو مقتضب "وأنا نبذت ما سواها. إنه بالقطع على متن طائرة أخرى الآن".

تذكرت قضية بالم أيلاند، وتفكير السيد ناش غير المنطقي، ونظرياته البعيدة الاحتمال حول المؤامرات. من الواضح أن الرجل قد تلقى تدريباً يفوق قدراته العقلية، ويبدو أنه قد نسي حتى كيفية تهجئة كلمة منطق. قلت له "أراهنك بعشرة دولارات أننا سنسمع من هذا الرجل في القريب العاجل، ومن مكان قريب جداً".

أجابني ناش "لك هذا". واستدار في مقعده وقال لي "إن خبرتك محدودة في هذا المجال يا كوري. الإرهابي المدرب ليس كالمجرم الغبي. إنهم يكرون ويفرون، ثم يكرون ويفرون ثانية، وقد تفصل سنوات بين المرة الأولى والثانية. وهم لا يزورون مسرح جريمتهم مرة ثانية، ولا يختبئون في منازل صديقاتهم، ببندقية

مخبأة وحقيبة مسروقات. ولا يذهبون إلى الحانات ويتفاخرون بجرائمهم صدقني، الرجل على متن طائرة الآن!"

"شكراً لك سيد ناش". قلت له بينما كنت أتساءل في نفسي: أيهما أفعل، هل أقوم بخنقه أم أهشم رأسه بكعب بندقيتي؟.

قالت كيت "لا شك أنها نظرية مثيرة يا تيد، ولكن حتى نعرف ذلك يقيناً، لا بد لنا من التنبيه على قسم الشرق الأوسط بأسره كي يقوموا بمراقبة كافة المؤيدين للإرهابيين والمشتبه بهم".

أجابها ناش "أنا لست ضد تفعيل الإجراءات العملياتية القياسية، ولكنني أقول لكم: لو أن هذا الرجل ما زال في المدينة، فإن آخر مكان سيذهب إليه هو ما تفكرون أنتم فيه. لم يظهر رجل فبراير أبداً في المكان الذي قام فيه بجريمته، ولن يفعل. وإذا كانت هناك ثمة صلة بين الرجلين، فإنهما يمثلان شيئاً جديداً لا نعرفه بعد؛ جماعة جديدة لا نعرف عنها شيئاً".

كنت قد فكّرت بهذا الشكل بالفعل، وتمنيت لو كان تيد محقاً وأن خليلاً الآن على متن طائرة تأخذه بعيداً من هنا. لا بأس إن خسرت رهاني هذا، حتى ولو كان لصالح مأفون مثل تيد. وبقدر ما تمنيت لو أنني وضعت يدي على خليل هذا، فأعدت ترتيب ملامح وجهه حتى أن أمه لن تتعرف عليه، تمنيت لو أنه يبتعد إلى مكان آخر لا يستطيع فيه إيذاء أميركيين أبرياء آخرين. فرجل يقتل حِمل طائرة من الأبرياء، لا شك وأنه يحمل قنبلة ذرية في كمّه، أو جمرة خبيثة في قبعته، أو غازاً سامًّا فوق مؤخرته.

سأل سيمبسون "هل تتحدثون عن إرهابي عربي؟"

رددت على نحو فظ "بل نتحدث عن أم الإرهابيين جميعاً".

قال ناش لسيمبسون "فلتنسَ كل ما سمعته!"

"أنا لم أسمع شيئاً".

وبينما كنّا نقترب من جسر بروكلين، قالت لي كيت "أظن أنك ربما ستتأخّر عن موعدك الغرامي في لونغ أيلاند".

"أتأخر إلى متى؟"

"نحو شهر".

لم أعلّق على هذا.

فأضافت "في الغالب أول ما سنفعله صباح الغد هو السفر إلى واشنطن".

أظن أن هذا بديل فيدرالي للذهاب إلى فيلم One Police Plaza للاستمتاع بالرقص والموسيقى. تساءلت إن كانت هناك فقرة في عقد تعييني يمكن الهرب من خلالها. أحتفظ بنسخة منه في درج مكتبي في فيدرال بلازا، ربما يجدر بي أن ألقي نظرة سريعة عليه.

عبرنا الجسر، ومنه إلى وديان مانهاتن السفلى. كنا شبه صامتين، ولكن كان بوسعنا أن نشتم رائحة خلايا رؤوسنا وهي تحترق.

من المعروف أن أجهزة الراديو في سيارات الشرطة تفتقر إلى ترددات الموجة المتوسطة وموجة الأف أم، إلا أن سيمبسون كان يحتفظ براديو محمول، فضبطه على تردد أخبار WINS 1010، حيث كان المراسل يذكر أنه لم تزل الطائرة في المنطقة الأمنية المسيجة قبالة أحد المدارج، ولا نستطيع أن نرى ما يحدث بالرغم من أننا نرى الشاحنات والسيارات تأتي وتغادر المنطقة. هذا بالإضافة إلى شاحنة تشبه المبرد الكبير قد غادرت المنطقة منذ بضع دقائق، وهناك احتمال أنها شاحنة لنقل الجثث.

توقف المراسل لبرهة لإحداث تأثير على مستمعيه بعد ما قاله، ثم تابع قائلاً "ولم تصدر السلطات أي تصريحات رسمية في هذا الشأن، بينما ناطق باسم المجلس الوطني للنقل الآمن أخبر المراسلين أن غازات سامة ودخاناً قد غطّيا الركاب، وأن هناك خسائر في الأرواح. وبالرغم من هذا، فإن الطائرة قد هبطت بسلام، وكل ما بوسعنا فعله الآن هو أن نأمل ونصلي أن يكون عدد الضحايا محدوداً".

ثم انبعث صوت المذيعة وهي تقول "لاري، تصلنا إشاعات تقول إن الاتصال اللاسلكي كان قد انقطع مع الطائرة لعدة ساعات قبل وصولها، فهل سمعت شيئاً عن هذا؟"

أجابها لاري من مسرح الأحداث "إن إدارة الملاحة الفيدرالية لم تؤكد هذا، إلا أن ناطقاً باسمها أكد أن قائد الطائرة قد حادثهم لاسلكياً، وأورد أن هناك أبخرة ودخاناً على متن الطائرة، وأنه يعتقد أنهما ناجمان عن شيء كيميائي أو حريق كهربائي".

كان هذا جديداً بالنسبة لي، لكنه لم يكن كذلك لتيد ناش، الذي علّق بغموض على ما سمعناه بأن قال "شيء جيد أنهم يحصلون على الحقائق من مصادرها مباشرة".

حقائق؟ بدا لي الأمر وكأنهم عندما لم يجدوا دخاناً على الطائرة، شرعوا باختلاقه عنوة وبرميه في وجوه الناس.

كان المراسل ومذيعة الراديو يسترسلان في ذكر مأساة طائرة الخطوط السويسرية، وذَكَر أحد ما شيئاً عن مأساة الطائرة العربية، فما كان من ناش إلا أن أغلق الراديو.

أدركت حينئذ أن كيت تنظر نحوي، وقالت في نعومة "نحن لا نعرف ماذا حدث يا جون، ولا يجدر بنا اللجوء إلى التخمينات، ومن ثم سنتجنب الحديث إلى وسائل الإعلام الإخبارية".

"صحيح، هذا بالتحديد ما كنت أفكر فيه لتوي". وأدركت أنه يجب عليّ أن أتوخى الحذر في كل ما أقوله.

كنت أفكر أيضاً أنه يوجد ما بين هيئات تطبيق القانون الفيدرالية وتلك الاستخباراتية شيء يشبه ما بين الجستابو والكشافة؛ القبضة الحديدية في القفاز المخملي، وما شابه. فعبارة أنه لا يجدر بنا اللجوء إلى التخمينات إنما تعني أن تبقي فمك مغلقاً. ولأنني لا أرغب في أن ينتهي بي الأمر في الحبس الوقائي لمدة عام، أو ربما ما هو أسوأ، فقد قلت في إخلاص حقيقي "سأفعل كل ما يجب عليّ فعله حتى أقدم هذا الرجل للعدالة. فقط أبقوني في هذه القضية".

لم يرد أي من رفيقيّ، وربما كان يجب على أحدهما تذكيري بأني كنت مصراً على الانتقال من قسم الشرق الأوسط بوحدة مكافحة الإرهاب منذ عهد ليس ببعيد.

ثم قام تيد ناش - الجاسوس البارع - بإعطاء سيمبسون عنواناً يسبق مقصدنا ببناية. يا الله، إن الرجل شرطي، وحتى لو كان غبياً أو أحمق فبوسعه أن يعرف أننا نقصد إما 26 فيدرال بلازا أو 290 برودواي، حيث إنّ المبنى الفيدرالي الجديد موجود في الشارع حيث فيدرال بلازا. فما كان من سيمبسون إلا أن رد عليه قائلاً "أتنوي السير حتى فيدرال بلازا؟"

فضحكت.

توقف الضابط سيمبسون في شارع تشامبرز، بالقرب من محكمة تويد الشهيرة، ونزلنا جميعاً من السيارة. شكرته لتوصيلنا، ثم قال ليذكرني "لقد تضررت مقدمة سيارة الدورية".

"فلتحمِّل هذا على الفيدراليين، فهم يجمعون تريليون دولار كل يوم".

شرعنا نسير في شارع برودواي. كنا في وقت الغسق، ولكن غالباً ما يسود الظلام كهوف ناطحات السحاب هنا في مانهاتن السفلى، فهي ليست منطقة سكنية أو مكاناً للتسوق، بل منطقة حكومية بحتة، ومن ثم لم يكن هناك العديد من الأشخاص في يوم السبت هذا، وكانت الشوارع هادئة نسبياً.

ثم قلت للسيد ناش بينما كنّا نمضي "لدي انطباع بأنكم كنتم تتوقعون حدوث مشكلات اليوم".

لم يجب على الفور، ثم قال "اليوم هو الخامس عشر من أبريل".

"صحيح. ولقد سلمت إقراري الضريبي بالأمس؛ موقفي سليم تماماً".

"يعمد المتطرفون إلى إضفاء أهمية كبرى على التواريخ التذكارية، ولدينا الكثير من التواريخ في تقويمنا يجدر بنا الحذر بشأنها".

"حسناً، وماذا عن اليوم؟"

"اليوم هو الذكرى السنوية للقصف الجوي الذي حصل عام 1986".

"أتمزح؟" ثم توجهت إلى كيت متسائلاً "أكنتِ تعرفين هذا؟"

"نعم، ولكن كي أكون صادقة معك، لم أعر الأمر اهتماماً كبيراً".

ثم أضاف ناش "لم يسبق أن واجهنا حادثة وفقاً لتاريخ بعينه، ولكن زعيمهم يلقي خطاباً معادياً لأميركا كل عام في هذه المناسبة، حتى أنه ألقى خطاباً في وقت ما اليوم".

فكّرت في الأمر لبرهة حاولت فيها أن أتخيل إذا ما كنت سأتصرف على نحو مختلف في حال كنت أعرف هذا. لم يكن هذا الأمر في حسباني على الإطلاق، وربما لو عرفت لكنت أضفت الأمر إلى حقيبة شكوكي. لكم أحب أن أكون كالفطر؛ ينمو في الظلام على كافة الأشياء العفنة. ثم سألتهما "وهل نسيتما إخباري بهذا؟"

أجاب ناش "لم يبدُ الأمر غاية في الأهمية. أعني لم يبدُ أنه من الأهمية بمكان بحيث يجب أن تعرف".

"معك حق". وبالطبع كنت أعني "تباً لك!" لكنني كنت بدأت أتعلم لغتهم، ثم سألت "كيف عرف خليل أنه سيتم نقله اليوم؟"

أجاب ناش "حسناً، إنه لم يعرف يقيناً، ولكن لم يكن ممكناً لسفارتنا في باريس أن تستبقيه لأكثر من أربع وعشرين ساعة، وأظن أنه كان يعرف هذا. وحتى وإن كنا قد احتفظنا به هناك لأكثر من هذا، فلم يكن الأمر ليتغير كثيراً، سوى أنه كان سيفقد الرمز التاريخي".

"فلعبتم لعبته ونقلتموه في الخامس عشر من أبريل؟"

"هذا صحيح. لقد لعبنا لعبته، حيث أردنا أن نقبض عليه في الخامس عشر من أبريل".

"أظن أن هذا التاريخ سيفوتكم قبل أن تقبضوا عليه".

لم يجب ناش على هذا، ولكنه أخبرني "لقد اتخذنا إجراءات أمن وقائية استثنائية في باريس، وفي المطار، وحتى على متن الطائرة. في الحقيقة، هناك اثنان آخران من الفيدراليين - برتبة عميد جوي - كانا على الطائرة، متنكرين".

"رائع. لم يكن هناك مجال للخطأ إذاً".

تجاهل تيد عبارتي التهكمية، وقلت أنا "هناك تعبير عبري يتشاركه العرب، يقول تضحكون، وتضحك الأقدار".

"تعبير جيد".

كنا قد وصلنا إلى ناطحة السحاب ذات الطوابق الثمانية والعشرين، والمسماة باسم 26 فيدرال بلازا، فقال لي ناش "سنتولى أنا وكيت الحديث، ولن تتكلم إلا إذا طُلب منك ذلك".

"هل بوسعي أن أعارضك؟"

"لن يكون هناك مبرر لذلك. فهذا هو المكان الوحيد الذي لا يُقال فيه سوى الحقيقة".

وهكذا، بتلك المعلومة الأوروبلية[6] الصغيرة في رأسي، دلفنا وزارة الحق والعدل المهيبة.

وكنت أفكر، الخامس عشر من أبريل... هناك سببان الآن لأتذكر بهما هذا اليوم.

الكتاب الثاني

الفصل الثالث عشر

عَمِد الملازم الأول تشب ويجينز، ضابط أنظمة الأسلحة بالقوات الجوية للولايات المتحدة الأميركية، إلى الجلوس صامتاً وساكناً تماماً في المقعد الأيمن في طائرة الهجوم F-111F، ذات الاسم الكودي كارما 57. كانت الطائرة تنطلق بسرعة 350 عقدة، توفيراً للوقود. ونظر ويجينز نحو الطيار الجالس إلى يساره، الملازم أول بيل سازرويت.

فمنذ أن أقلعا من محطة القوة الجوية الملكية في لاكينهيث، سافولك، بإنكلترا، منذ نحو ساعتين، لم يتكلم الرجلان كثيراً، لقد كان سازرويت من النوع الذي يميل إلى الصمت على كل حال، ولا يفضل الثرثرة الفارغة. ولكن ويجينز كان يشعر بالملل الشديد، وأراد أن يسمع صوتاً آدمياً، أو أي صوت على الإطلاق، فقال "نحن نطير عمودياً فوق البرتغال".

"أعرف هذا".

"صحيح". كان في صوتهما رنة طفيفة، تماماً كالكلمات التي تخرج مفلترة من الهاتف الداخلي لقمرة القيادة المفتوحة، والتي كانت تمثل الاتصال الشفهي الفعلي بين الرجلين. تنفس ويجينز بعمق، وكأنه يتثاءب، وهو معتمر خوذة الطيران خاصته. تسبب التدفق المتزايد للأكسجين في اهتزاز رابط الهاتف الداخلي المفتوح لما لا يزيد عن ثانية واحدة، ثم فعل ويجينز ذلك ثانية.

"هلاّ توقفت عن التنفس؟"

"أنا طوع أحلامك يا كابتن".

تلوى ويجينز في مقعده قليلاً، وقد بدأ جسده يصاب بالتّشجنات بعد الجلوس لساعات طويلة مقيداً في مقعد الطائرة FF-111، المعروف أنه غير مريح على الإطلاق. وأصبحت السماء السوداء تصيبه بالكآبة، بيد أنه كان يرى بعض الأضواء على الساحل البرتغالي البعيد، وقد جعله هذا يشعر على نحو أفضل لسبب أو لآخر.

عندما كانا في طريقهما فكّر ويجينز أنهما ذاهبان ليمطرا تلك الدولة بالموت والدمار، انتقاماً من هجوم شنّ منذ بضعة أسابيع على ديسكو في برلين الغربية يرتاده العسكريون الأميركيون. ثم تذكر حرص المسؤول الذي أعلمهم بالمهمة على التأكد من أنهم يعرفون لماذا يخاطرون بحياتهم في هذه المهمة الصعبة. فبدون الحاجة إلى كلام كثير، أخبرهم هذا المسؤول أن هجوم القنابل على ديسكو لا بيل، والذي أسفر عن مصرع جندي أميركي، وإصابة عشرات آخرين، كان فقط آخر الأعمال في سلسلة من أفعال العداء الصريح، والتي يجب مجابهتها بقوّة وحزم.

قال المسؤول ذاك "لذا، ستذهبون لاقتلاع أرواح هؤلاء من أجسادهم".

بدا هذا جيداً في غرفة الاطلاع على المهمة، ولكنه لم يكن كذلك لكل حلفاء أميركا، فمنهم من لم يستحسن الفكرة. وقد أرغمت طائرة الهجوم الإنكليزية على أن تسلك الطريق الأطول إلى ... بعد رفض فرنسا وإسبانيا السماح لها بعبور مجاليهما الجويين. أغضب هذا ويجينز كثيراً، فيما لم يُبدِ ساذرويت أي اهتمام بالأمر. كان ويجينز يعلم أن معرفة ساذرويت بالجغرافيا السياسية أقل من الصفر؛ فحياة ساذرويت في الطيران، والطيران هو حياته. واعتقد ويجينز أنه لو تلقى ساذرويت أوامر بقصف باريس بالقنابل، فسيفعل دون أن يتساءل للحظة عن سبب هجومه على أحد حلفاء الناتو. المفزع في الأمر، من وجهة نظر ويجينز، هو أن ساذرويت سيفعل نفس الشيء بواشنطن العاصمة، أو مدينة والا والا، في حال طُلب منه ذلك، ودون أن يسأل سؤالاً واحداً.

أراد ويجينز أن يتحقق من تلك الفكرة، فتوجه إلى ساذرويت بالسؤال "بيل، أسمعت عن الإشاعة القائلة بأن واحدة من طائراتنا سوف تسقط قنبلة استفزازية على الساحة الخلفية للسفارة الفرنسية في العاصمة؟"

لكن ساذرويت ظل صامتاً.

مضى ويجينز في محاولته بإصرار، فقال "كما سمعت أن واحداً منا سيقصف أحد مقار القائد في ...، حيث من المفترض أن يكون هناك الليلة".

مرة أخرى لم يجب ساذرويت.

أزعج هذا ويجينز وأصابه بالإحباط، فقال أخيراً "ماذا يا بيل؟ هل أنت مستيقظ؟"

أجابه ساذرويت "تشب، كلما قلّ حجم معرفتك، وكلما قلّ حجم معرفتي، كلما أصبحنا أكثر سعادة".

انكمش ويجينز في مقعده، وعاد إلى حالة الصمت. كان يحب بيل ساذرويت، ويحب حقيقة أن طياره ليس أعلى منه رتبة، ومن ثم لا يستطيع أن يأمره أن يبقي فمه مغلقاً، ولكنّ ساذرويت شخص بارد، وقليل الكلام، ومستفز بحق حين يكون في الهواء. في الواقع، إنه يبدو أكثر آدمية عندما يكون ثملاً على نحو ما.

حدّث ويجينز نفسه أنه ربما كان ساذرويت عصبياً أو متوتراً، وهو أمر يمكن تفهمه. فكما أخبروهم في جلسة التعريف بالعملية، تُعتبر هذه أطول من أي مهمة هجوم جوي قاموا بها على الإطلاق. ومن المفترض أن تحدث عملية الدورادو علامة تاريخية، رغم أن ويجينز لم يعرف أي علامة قد تكون تلك. كانت هناك ستون طائرة أخرى في أماكن ما من حولهم، ولقد أسهمت وحدتهم - جناح المقاتل التكتيكي 84 - في هذه المهمة بأربع وعشرين طائرة من طراز F-111F. أما سرب ناقلات الوقود الذي كان يطير تحتهم وخلفهم، فكان مزيجاً من طائرات KC-10 الضخمة، وطائرات KC-135 الأصغر حجماً، حيث كانت الأولى لتزود المقاتلات بالوقود، والثانية لتزود الأولى بالوقود. ومن المخطط أن تتم عملية التزويد الجوي بالوقود ثلاث مرات أثناء الرحلة ذات الثلاثة آلاف ميل حتى وصولهم إلى مقصدهم. وتستغرق رحلة الطيران من إنكلترا وحتى الساحل المقصود نحو ست

ساعات، والطيران إلى العاصمة في مرحلة ما قبل الهجوم يستغرق نحو نصف ساعة، بينما الوقت المحدد لإنهاء المهمة هو عشر دقائق طويلة جداً، ثم العودة إلى الديار. ليس للجميع بالطبع، ولكن للغالبية منهم. قال ويجينز "التاريخ؛ نحن نطير عبر التاريخ".

لم يجب ساذرويت.

فقال تشب ويجينز مخبراً إياه "اليوم هو آخر يوم لتقديم تصريح ضريبة الدخل، فهل سويت حسابك؟"

"كلا، تقدمت بطلب للتأجيل".

"ولكن مصلحة ضريبة الدخل تضيق الخناق على المتأخرين في السداد".

أجابه ساذرويت بصوت لا يتعدى الحشرجة.

فقال ويجينز ضاحكاً ملء شدقيه "لو حاسبوك بشدة، أسقط قنبلة نابلم فوق المصلحة. وعندها سيتردّدون كثيراً قبل محاسبة بيل ساذرويت مرة أخرى".

فما كان من ساذرويت إلا أن راح يحملق في معداته.

لما فشل ويجينز في دفع صاحبه إلى الحديث، عاد ليستغرق في أفكاره من جديد، وأخذ يفكّر كيف أن هذه المهمة هي بمثابة اختبار حقيقي لمدى تحمل الطاقم والأجهزة، خاصة وأنّه لم يسبق لهم التدرب على مهمة كهذه. كانت الأمور تسير بشكل جيد حتى الآن، وأداء الطائرة FF-111 كان رائعاً بحق. ألقى ويجينز نظرة إلى الخارج عبر الغطاء الشفاف حول مقعده، ورأى الجناح المتحرك ممتداً بزاوية خمسٍ وثلاثين درجة، مما يتيح للطائرة أفضل السمات الملاحية لهذا التشكيل الطويل المدى. في وقت لاحق سيقومون بتنكيس الجناحين هيدروليكياً إلى الخلف لتتخذ الطائرة الوضع المعتاد للهجوم، وهي علامة لحظة بدء مرحلة الهجوم الفعلية في تلك المهمة. لم يكن ويجينز مصدقاً أنه على وشك الالتحام في معركة حقيقية.

كان هذا ذروة ما تدربوا من أجله، فلم يسعفه الحظ - وساذرويت كذلك - للمشاركة في حرب فيتنام، وها هما الآن يطيران إلى منطقة مجهولة ومعادية، ليقاتلوا عدواً يجهلون مدى قدرته على صد الطائرات. أخبرهم المسؤول الذي أطلعهم على المهمة أن الدفاع الجوي للبلد الذي سيقصف يتوقف عمله بعد منتصف الليل، إلا أن ويجينز وجد هذا أمراً صعب التصديق. فكان مقتنعاً أن الرادار في ذلك البلد سيرصد طائراتهم، ولن يتوانى الدفاع الجوي عن اعتراضهم، وسرعان ما ستقصفهم صواريخ أرض-جو وهم في السماء، وترحب بهم المدفعية المضادة للطائرات. ثم تمتم قائلاً "ماركوس إيروليوس".

"ماذا؟"

"النصب الروماني الوحيد الذي ما زال قائماً في العاصمة؛ قوس ماركوس إيروليوس، ويعود إلى القرن الثاني الميلادي".

حاول ساذرويت أن يكتم تثاؤبه.

"لو ضربه أحد عن طريق الخطأ فسيضعه ذلك في مشكلة كبيرة، فالنصب تراث عالمي وضعته الأمم المتحدة. ألم تكن مصغياً في جلسة الاطّلاع؟"

"تشب، لماذا لا تمضغ علكة أو تضع شيئاً في فمك؟"

"سنبدأ هجومنا من غرب النصب مباشرة، وأتمنى لو ألقيت نظرة عليه. هذه الأشياء تثير اهتمامي".

أغلق ساذرويت عينيه، وأطلق زفرة تنم عن نفاد صبره.

عاد تشب ويجينز إلى أفكاره حول المعركة، كان يعرف أن هناك عدداً ممن حاربوا في فيتنام مشتركون في هذه المهمة، ولكن معظم الرفاق لم يكونوا مدربين في معارك. كما أن الجميع - بدءاً من الرئيس - كانوا مترقبين، ومنتظرين، وقد حبسوا أنفاسهم من فرط التوجس. بعد فيتنام، وبعد مهزلة الهنود الحمر، ومهمة إنقاذ كارتر الفاشلة في إيران، وعِقد كامل من الإخفاقات العسكرية منذ فيتنام، بات الفريق الوطني في حاجة حقيقية إلى انتصار عظيم.

كانت الأضواء مسلطة على البنتاغون والبيت الأبيض؛ وكانوا قلقين ويتلون صلواتهم. *فلتربحوا هذه المعركة يا رفاق.* ولم يكن تشب ويجينز ليخذلهم، ولكنّه فقط تمنى لو أنهم لا يخذلونه؛ كانوا قد أخبروه أنهم قد يلغون المهمة في أي لحظة، وخشي لحظة يطقطق فيها الراديو وتنطلق منه كلمتا شيفرة إلغاء المهمة: الزجاج الأخضر؛ كما في الأغنية الشعبية **عشب الوطن الأخضر**[7].

لكنّ جزءاً صغيراً من عقله كان يرحب بهاتين الكلمتين، حيث كان يتساءل عمّا سيحصل له في حال قفز بمظلته من الطائرة وأسر. يا الله. من أين أتى بهذه الفكرة؟ ها هو يعود للتفكير في تلك الأشياء السيئة. نظر إلى ساذرويت الذي كان يُدخل بعض البيانات في سجله، بينما كان لا يزال يتثاءب.

سأله ويجينز "أتشعر بالتعب؟"

"كلا".

"خائف؟"

"ليس بعد".

"جائع؟"

"تشب. اصمت".

"أتشعر بالعطش؟"

قال ساذرويت "لماذا لا تعود إلى النوم؟ أو ما رأيك بأن أقول لك: سأنام أنا وتولى أنت القيادة".

أدرك ويجينز أن هذه كانت طريقة ساذرويت غير المباشرة ليذكره بأن ضابط أنظمة الأسلحة ليس طياراً.

عادا ثانية إلى صمتهما، وفكّر ويجينز أن يغفو قليلاً بالفعل، إلا أنه لم يشأ أن يعطي ساذرويت الفرصة كي يخبر الجميع في لاكينهيث أن ويجينز قد نام طوال الطريق. وبعد حوالى نصف ساعة، نظر تشب ويجينز إلى مخططه الملاحي ومعداته، فبالإضافة إلى عمله كضابط أنظمة الأسلحة، كان ويجينز ملاحاً. ثم قال لساذرويت "في التاسعة نصل إلى منطقة سانت فينسين".

"جيد إن سانت فينسين ينتمي إلى هناك بالفعل".

"هناك أقام الأمير هنري الملاح أول مدرسة للملاحة البحرية على مستوى العالم، ومن هناك حصل على اسمه".

"اسم هنري؟"

"لا، اسم الملاّح؟"

"نعم"

"كان البرتغاليون ملاّحين مدهشين بحق".

"هل هذا شيء يتعين عليّ معرفته؟"

"بالطبع، ألا تلعب لعبة المعرفة البديهية؟"[8]

"كلا، فقط أخبرني متى سنغير اتجاهنا".

"سنتجه نحو صفر-تسعة-أربعة بعد سبع دقائق".

"حسناً، فلتبقَ منتبهاً إلى الساعة".

كانت طائرة FF-111 خاصتهما في الموقع المحدد لها ضمن تشكيل جولتهم الجوية، ولكن كي يستبقوا أجهزة اللاسلكي خاصتهم صامتة، عمدت كل طائرة إلى الحفاظ على موقعها باستخدام الرادار الجوي. أحياناً كان يتعذر عليهما إبصار الطائرات الثلاث الأخرى في تشكيلهم الجوي ذاك بأسمائها الشيفريّة - إلتون 38، وريميت 22، وريميت 61 - بيد أنهما كانا يريانها على الرادار، ومن ثم يتبعون الطيار القائد - تيري وايكليف - في الطائرة ريميت 22. وبالرغم من ذلك، كان يتعين على ويجينز أن يستشرف خطة الطيران على نحو ما، ويعرف متى ينظر إلى شاشة الرادار فيرى ما تفعله الطائرة الرئيسية. "لكم أستمتع بتحديات المهام الصعبة يا بيل، أتمنى لو أن لديك نفس الشعور".

"إنك تزيد الأمر صعوبة يا تشب".

أضحك هذا تشب كثيراً.

شرعت الطائرات الأربع من طراز FF-111 في الدوران نحو الميناء في شكل مؤتلف، فدارت حول سانت فينسين ومنه إلى المنطقة الجنوبية الشرقية، متوجهين نحو مضيق جبل طارق.

وبعد نحو ساعة كانوا يقتربون من صخرة جبل طارق وجبل هاتشو على الميمنة من الساحل الإفريقي. قال ويجينز مُعلِماً الطيار بجانبه "جبل طارق كان أحد أعمدة

هرقل القديمة، وجبل هاتشو هو العمود الآخر. ووفقاً لهاتين العلامتين الهامّتين كان تعريف الحدود الملاحية الغربية لحضارات البحر الأبيض المتوسط. أكنت تعرف هذا؟"

"أعطني قراءة الوقود".

قال ويجينز "حسناً". وأعطاه قراءات عدادات الوقود، ثم تابع معلقاً "باقٍ من زمن الطيران نحو ساعتين".

نظر ساذرويت إلى عدادات معداته وقال "من المفترض أن تزورنا الطائرة KC-10 خلال خمسٍ وأربعين دقيقة".

"أتمنى هذا". أجاب ويجينز وهو يفكّر أنّه لو فاتهما التزويد بالوقود لسبب أو لآخر، فسيكون لديهما من الوقود ما يكفي للوصول حتى صقلية، ومن ثم سيكونان خارج المهمة. طوال الرحلة وهم داخل نطاق اليابسة، وإن اضطروا للخروج عن ذلك، فسيتعين عليهم إلقاء القنابل التي يحملونها في الماء، ثم الهبوط في أحد مطارات فرنسا أو إسبانيا، حيث يدَّعون أنهم كانوا في مهمة تدريبية وقد نفد وقودهم. ففي جلسة الاطلاع على المهمة، قال لهم المسؤول، "إياكم وذكر ... في حديثكم". وقد أطلق هذا ضحكة عالية في الاجتماع آنذاك.

مرت ثلاثون دقيقة، ولم تطرأ أي إشارة عن ناقلات الوقود، فتساءل ويجينز "بحق الجحيم، أين محطة الوقود الطائرة؟"

كان ساذرويت يقرأ في تعليمات وأوامر المهمة، ولم يجب.

واصل ويجينز الإنصات إلى الإشارات الشيفريّة المنبعثة من اللاسلكي والتي من المفترض أن تُعلن عن اقتراب خزانات الوقود. بعد كل هذا الوقت في الهواء، وبعد كل هذا الإعداد، لم يشأ ويجينز أن ينتهي به الأمر في صقلية. على كل حال، استمر الرجلان في التحليق في صمت، ولم يسرِ في قمرة القيادة سوى همهمة الأجهزة الإلكترونية، بينما إطار الطائرة ينبض منَ قوة محركاتها التربونية التي كانت تدفع الطائرة FF-111 إلى قلب الليل البهيم.

أخيراً، انبعثت عبر الراديو سلسلة من النقرات المتتابعة، تنذر باقتراب ناقلة الوقود KC-10، وبعد عشر دقائق أخرى رأى ويجينز الاتصال بين المركبتين وقد ظهر على شاشة الرادار، فأعلم ساذرويت الذي أكّد بدوره تلقيه المعلومة.

أطفأ ساذرويت طاقة الطائرة وبدأ في الانسحاب خارج التشكيل، وهنا فكّر ويجينز أن الرجل بارع بحق في مهنته.

في غضون دقائق معدودة كانت ناقلة الوقود العملاقة KC-10 تملأ السماء فوقهما، وكان باستطاعة ساذرويت أن يتحدث إليها عبر القناة الصوتية KY-28 المؤمّنة، والتي يمكن استخدامها في الإرسال قصير المدى "كيلو 10، هنا كارما 57. أنت في المجال".

"عُلم، كارما 57. ديكي في الطريق إليك".

"عُلم".

بعناية شديدة قام قائد المركبة KC-10 بتوجيه عمود التزويد بالوقود لتوصيل الخرطوم إلى داخل خزان الطائرة FF-111 الكائن خلف قمرة القيادة مباشرة، وتم الاتصال بين المركبتين في دقائق، ومن ثم بدأ الوقود في الانسياب من الناقلة إلى المقاتلة.

كان ويجينز يراقب ساذرويت وهو يتعامل مع عصا التحكم بيده اليمنى وصمامات المحرك باليسرى ليبقي المقاتلة النفاثة في وضعها تماماً فلا يتحرك خرطوم الوقود. وأدرك ويجينز أن هذه كانت فرصة بالنسبة له كي يظل صامتاً.

بعد فترة بدت طويلة جداً، انطفأ الضوء الأخضر قرب قمة عمود الناقلة، فيما أضاء قرينه الأحمر في المقاتلة FF-111، في إشارة إلى الانفصال التلقائي، فقام ساذرويت بإرسال رسالة تأكيدية "كارما 57، انفصال". ثم شرع في التحرك بطائرته بعيداً عن الناقلة وإلى الموقع المحدد ضمن التشكيل مرة أخرى.

وفي تأكيد على أن تلك كانت المرة الأخيرة للتزويد بالوقود قبل الهجوم، أرسل إليهما قائد الناقلة يقول "حظ موفق يا رفاق، رعاكم الله. وأراكم في ما بعد".

أجابه ساذرويت "عُلم". ثم توجه إلى ويجينز قائلاً "لا أظن أن للحظ دوراً في هذا الشأن". كان ويجينز منزعجاً بعض الشيء من سخافات ساذرويت، فسأله "ألست مؤمناً؟"

"بالطبع أنا مؤمن. فأنت تصلي، وأنا أقود".

أعاد ساذرويت الطائرة إلى التشكيل، فيما انسحبت طائرة أخرى كي تتزود بالوقود.

كان لا بد لويجينز من أن يعترف أن بيل طيار ماهر، ولكنه لم يكن رجلاً رائعاً.

أدرك ساذرويت أنه أغضب ويجينز على نحو ما، فداعبه قائلاً "ماذا يا رجل؟ سأدعوك على أفضل عشاء في لندن".

ابتسم ويجينز وهو يجيب "سيكون من اختياري إذاً".

"كلا، أنا سأختار، فلا يتعدى الثمن العشرة جنيهات".

"مادي!"

مضت بضع دقائق قبل أن يقول ساذرويت "سنكون على ما يرام. ستسقط قنابلك فوق أهدافك المنشودة، وإذا قمت بعملك على نحو جيد، سأطير بك فوق قوس أوجستس هذا لأجلك".

"إيروليوس"

"نعم، هو ذاك".

استقر ويجينز في مقعده، وأغلق عينيه، كان يعرف أن لديه ما هو أهم من كلمات ساذرويت الفارغة، واعتبر ذلك نوعاً من الانتصار.

ثم شرع يفكّر في المستقبل الوشيك، فبالرغم من تلك الغصة في حلقه، وتقلص معدته الفارغة، إلا أنه كان يتطلع بحق إلى تنفيذ مهمته القتالية الأولى. ومتى انتابته هواجس بشأن إسقاط قنابله، ذكّر نفسه أن كافة أهداف مهمتهم جميعاً - بما في ذلك أهدافه - كانت عسكرية تماماً. بل وقد أشار ذاك المسؤول في لاكينهيث إلى ... بأنها *جامعة الجهاد*، أي معسكر تدريبي للإرهابيين، ولكنه أضاف كذلك أن "هناك احتمالاً لوجود بعض المدنيين في المُجمع العسكري".

فكّر ويجينز في هذا للحظات، ثم قرر أن يُبعد الفكرة عن ذهنه.

الفصل الرابع عشر

كان أسد خليل يكافح اثنتين من الغرائز البدائية؛ الجنس، والسيطرة على الذات.

كان يذرع ذاك السطح المستوي في صبر نافد، ويبدو أنه حين أسماه والده *أسد*، اتخذ الرجل سمات هذه الوحش العظيم - سواء بإدراك منه أو دون أن يدرك - بما في ذلك عادة السير في دوائر. ثم توقف على نحو مفاجئ، وراح يحدّق في الظلام.

كانت رياح الجنوب القوية الحارة، القادمة من الصحراء الواسعة، تهب على شمال البلاد عبر البحر الأبيض المتوسط. بدت السماء الليلية ضبابية، غير أن الحقيقة وراء تشوه منظر القمر والنجوم هي حبات الرمال التي حملتها الرياح الثائرة بفعل الطائرة.

نظر خليل إلى ساعته المضيئة ولاحظ أنها الثانية إلا أربع عشرة دقيقة بعد منتصف الليل، ومن المفترض أن تصل بهيرة - ابنة النقيب حبيب نادر - في تمام الساعة الثانية. تساءل خليل إن كانت الفتاة ستأتي بالفعل، أو لعلهم أمسكوا بها في طريقها إليه، ولو كان هذا قد حدث بالفعل، فهل ستعترف إلى أين كانت ذاهبة، وعلى موعد مع من؟ ولكم انزعج خليل لهذا الاحتمال الأخير. كان في السادسة عشرة من عمره، وسيختبر لتوّه تجربته الجنسية الأولى، أو ربما يجدر القول إنه أصغر كثيراً من أن تُقطع رأسه لهذا. هنا ارتسمت في ذهنه صورة لم يكن يرغب بتصوّرها، رأى فيها نفسه راكعاً على ركبتيه وقد أحنى رأسه، بينما منفذ عقوبة الإعدام بجثته الضخمة يهوي بالسيف العملاق على عنقه. شعر خليل بجسده يتصلب، وارتسم سيل من العرق على جبهته زاد من إحساسه ببرودة تلك الليلة.

سار خليل نحو السقيفة الصغيرة المصنوعة من الصفيح فوق هذا السطح المستوي، التي لا باب لها، ثم ألقى نظرة أسفل السلم، متوقعاً أن يرى إما بهيرة، أو أباها مصحوباً بالحراس وقد أتوا من أجله. كان هذا ضرباً من الجنون - فكّر خليل - الجنون بحت.

انتقل خليل إلى الطرف الشمالي من السطح، وكان السقف الخراساني محاطاً بحاجز مسنن من الطين والجص، بعلو كتفيه. أما المبنى ذاته فكان بارتفاع طابقين، لقد بناه الإيطاليون إبان حكمهم لبلاده، وكان المبنى آنذاك - مثلما هو الآن - مستودع ذخيرة، ولذا، استُبعد عن مركز القاعدة العسكرية المعروفة باسم ... ثم أصبح هذا المستودع الإيطالي المقر العسكري، وأحياناً السكني، للقائد الذي وصل هذه الليلة بعينها إلى ... كان خليل - مثل كل الآخرين في بلده - يعرف أنه لدى القائد عادة تغيير المواقع على فترات متقاربة، وأن الغرض من هذه البادرة

العصبية هي الحذر؛ إما من الاغتيال، أو من أي عمل أميركي عسكري. ولكن لم يكن من الحكمة التعليق على أي من الاحتمالين.

على أي حال، تسبب حضور القائد المفاجئ تلك الليلة في يقظة حرّاسه الشخصيين على نحو زائد، وساور خليلاً قلق من أن الله نفسه يجعل هذا الموعد صعباً ومحفوفاً بالمخاطر.

بل إن خليلاً كان على يقين من أن الشيطان هو من ملأ نفسه بتلك الشهوة الجامحة والآثمة تجاه بهيرة، وأن الشيطان وراء حلمه بها تمشي عارية عبر رمال الصحراء المقمرة. لم يسبق لأسد خليل أن رأى امرأة عارية، ولكنه شاهد تلك المجلة الألمانية، وكان يعرف كيف تبدو بهيرة تحت نقابها وتحت ملابسها، فراح يتخيل كل انحناءة في جسدها، وشعرها الطويل يمس كتفيها السافرتين، وتذكر شكل أنفها وفمها حينما كان يراهما حين كانا ما يزالان طفلين، قبل أن تتنقب. كان يعرف بالطبع أنها تبدو مختلفة الآن، ولكن الغريب أن وجه تلك الطفلة ما زال ملائماً لجسد تلك المرأة على نحو مدهش، فشرع أسد يتخيل ساقيها وفخذيها العاريتين ... وشعر بقلبه يدق بعنف في صدره، وقد جف حلقه.

تطلع خليل نحو الشمال، وكانت أضواء العاصمة على مسافة عشرين كيلومتراً تبرق بحيث يمكن رؤيتها عبر رياح الجنوب. وفي ما وراء العاصمة كان يمتد سواد البحر الأبيض المتوسط. أما حول مجمع ...، فقد امتدت الأرض القاحلة، وبعض بساتين الزيتون، وأشجار النخيل، والقليل من مراعي الماعز، وبعض الآبار على نحو متفرق.

نظر أسد خليل أسفل السور إلى حيث القاعدة. كان الهدوء يسود المكان، فلم يرَ حراساً ولا سيارات في تلك الساعة المتأخرة، والنشاط الوحيد المحتمل سيكون حول مقر سكن القائد، وحول منطقة المقر التي تضم مباني القيادة، والمراقبة، والاتصال. ربما لم يكن هناك تأهب خاص في تلك الليلة، ولكن كان لدى خليل هاجس بأن هناك شيئاً غير صحيح.

نظر أسد خليل إلى ساعته مرة ثانية؛ كانت تشير إلى تمام الثانية من بعد منتصف الليل ولم تصل بهيرة بعد. مال خليل إلى زاوية السور، أسفل مرمى بصر أي شخص قد يكون موجوداً فوق الأرض.

بالرغم من هذا، لم يهرع خليل إلى بيت أمه، بل عزم على البقاء ومواجهة مصيره القادم إليه عبر درجات ذلك السلم أياً كان.

أخذ خليل يفكر في المرة الأولى التي استقرت فيها عيناه على بهيرة في بيت أبيها، النقيب حبيب نادر. ومثلما كان أبوه، كان النقيب حبيب من المفضلين لدى القائد، وكانت الأسر الثلاث شديدة التقارب من بعضها البعض. كان والد خليل - مثل والد بهيرة - نشطاً في المقاومة ضد الاحتلال الإيطالي؛ وكان قد عمل مع البريطانيين في الحرب العالمية الثانية، بينما عمل والد بهيرة مع الألمان. ولكن، ما الفرق؟ الإيطاليون، أو الألمان، أو البريطانيون... كلهم كفّار ولا يستحقون الولاء. وكثيراً ما كان والده ووالد بهيرة يضحكان ويطلقان النكات حول أنهما يساعدان النصارى على قتل بعضهم البعض.

فكَر خليل للحظة في أبيه، النقيب كريم خليل، الذي مات قبل خمس سنوات؛ قَتل في أحد شوارع باريس على يد عملاء الموساد الإسرائيلي. وأعلن في الإذاعة الأوروبية أنه من المحتمل أن يكون وراء جريمة القتل تلك جماعة إسلامية معادية، أو منشقّون عن السلطة السياسية. ولم يتم القبض على أحد. لكن القائد كان أشد حكمة من أعدائه، وأوضح لشعبه أن كريم خليل قد قُتل على يد الإسرائيليين، وما قيل غير ذلك ما هو إلا كذب وافتراء.

صدّق أسد خليل هذا، كان يجب عليه أن يصدق، وكثيراً ما افتقد والده، ولكنه كان يجد السلوى في حقيقة أن أباه مات ميتة الشهيد على يد الصهاينة. بالطبع تسلل الشك إلى نفسه، ولكن الرجل العظيم قال كلمته، ولا كلام بعد ذلك.

أومأ خليل لنفسه بينما كان يجلس في زاوية السطح، ونظر إلى ساعته، ثم إلى مدخل السقيفة على بعد عشرة أمتار. تأخَرَت، أو ربما لم تستطع الفرار من بيتها، أو ربما غلبها النوم، أو حتى قررت ألا تخاطر بحياتها كي تكون معه. وأسوأ الاحتمالات على الإطلاق هو أن يكونوا قد أمسكوا بها، وربما هي الآن تشي به للشرطة العسكرية.

فكّر خليل في علاقته ذات الطبيعة الخاصة بالقائد، حيث لم يكن لديه أدنى شك في حب القائد له ولإخوته وأخواته، حتى أنه سمح لهم بالإقامة في بيتهم المميز في المجمع، وتأكد من أن أمه تحصل على معاش مناسب، وأنه وأشقاءه يتلقون تعليمهم.

منذ ستة شهور فقط، قال له القائد "إنه منوط بك الانتقام لموت أبيك".

امتلأ خليل بالزهو والسعادة، وأجاب أباه البديل بقوله "أنا على أتم الاستعداد كي أكون في خدمتك، وللجهاد في سبيل الله".

لكن العقيد ابتسم له وقال "نحن لسنا مستعدين لك بعد يا أسد. ربما بعد عامٍ أو اثنين، بعد أن يتم تدريبك كي تصبح مقاتلاً".

كانت بهيرة قد وجدت تلك المجلة مخبأة تحت أكياس الأرز في منزلها، فسرقتها وأرتها لخليل. فنظرا إلى الصور معاً؛ جريمة كانت ستستوجب جلدهما في حال ضُبطا وهما يفعلان هذا. ولكن بدلاً من أن تملأهما تلك الصور بمشاعر الاشمئزاز والخزي، كانت هي سبب حديثهما عن الشيء الرهيب الممنوع، فقالت له بهيرة "أريد أن أريك نفسي كهذه المرأة. أريد أن أريك كل ما لديّ، وأريد أن أراك يا أسد، وأن أحسّ بجسدك".

هكذا وسوس لها الشيطان، ثم وسوس له من خلالها. كان أستاذه الروحي قد أخبره أن النساء ضعيفات وشهوانيات، وقد ارتكبن الخطيئة الأولى، وإنهن يغرين الرجال بارتكاب الفاحشة إن تخلى الرجال عن قوتهم.

كانت الليلة باردة، وارتعد جسد خليل، وظل راكعاً على سجادته. في الثانية وعشر دقائق تناهى إليه صوت ضوضاء على السلم، فرفع عينيه ليرى خيالاً مظلماً يقف عند فتحة السقيفة، فتمتم قائلاً "رحمتك يا الله".

الفصل الخامس عشر

قال الملازم أول تشب ويجينز للملازم أول بيل ساذرويت "نحن على وشك الاصطدام برياح عكسية. إنها رياح الجنوب التي تهبّ من الصحراء. ما اسمها؟"

"اسمها رياح الجنوب التي تهب من الصحراء".

"حسناً، على أي حال، ستكون رياحاً عاتية سنتعب معها كثيراً، خاصة أننا سنكون أخف وزناً بعد إسقاط القنابل الأربع".

غمغم ساذرويت بإجابة لم يميز ويجينز منها شيئاً.

حدّق ويجينز في السماء المظلمة من خلال الزجاج الأمامي، وهو لا يتذكر إن كان قد رأى شروق شمس ذلك اليوم. إلا أنه كان يعرف جيداً أنهم في حال أنجزوا مهمتهم تلك بنجاح، فسيصبحون أبطالاً؛ ولكنّهم أبطالٌ مجهولون. لم تكن تلك حرباً عادية، بل حرباً ضد الإرهاب الدولي الذي امتدت أطرافه إلى ما بعد منطقة الشرق الأوسط، ومن ثم فإن أسماء أبطال هذه المهمة لن تصدر أبداً في الصحف، ولن تكون معروفة لدى العامة، وستظل مصنفة *سري للغاية* إلى الأبد. ترك هذا في نفس ويجينز إحساساً سيئاً على نحو ما؛ كان في هذا اعتراف ضمني بأن الرجال الأشرار بوسعهم الوصول حتى إلى قلب أميركا، فينتقمون من الطيارين، والطاقم، أو حتى من عائلاتهم. ربما لهذا السبب شعر ويجينز ببعض الارتياح بشأن سرية هذه المهمة، بالرغم من أن الأمر سيخلو تماماً من أي استعراضات شرفية أو مراسم لتسليم الجوائز، وما شابه. فمن الأفضل أن يكون بطلاً مجهولاً بدلاً من أن يكون هدفاً معروفاً للإرهابيين.

واصلا التحليق فوق البحر الأبيض المتوسط، وشرع ويجينز يفكر في الحروب العديدة التي دارت حول هذا البحر، خاصة على شواطئ شمال أفريقيا؛ الفينيقيون، والمصريون، واليونانيون، والقرطاجيون، والرومان حروب امتدت لآلاف السنين

حتى الحرب العالمية الثانية، وكذلك الإيطاليون، والألمان، والبريطانيون، والأميركيون... لطالما كان بحر ورمال شمال أفريقيا مقبرة جماعية ضخمة للمئات من الجنود، والبحارة، والطيارين. في طريقه إلى مقصده، كان ويجينز يعلم أنه ليس الطيار الوحيد الذي ترددت في ذهنه تلك الكلمات. ولكننا سنقاتل في معارك بلادنا...

قاطع ساذرويت تدفق أفكاره بأن سأله "كم تبقى من الوقت على تغيير المسار؟"

أخرج هذا ويجينز من أحلام يقظته، فتحقق من موقعه، وأجاب "اثنتا عشرة دقيقة".

"فلتنتبه للساعة".

"عُلم".

مضت اثنتا عشرة دقيقة ثم بدأ التشكيل يتجه تسعين درجة إلى الجنوب؛ الأسطول الجوي بالكامل، وناقلات الوقود الفارغة، كانت جميعها على المسار، في طريقها إلى مقصدها. دفع ساذرويت صماماته الدافعة إلى الأمام، فازدادت سرعة المقاتلة FF-111.

أجرى بيل ساذرويت مسحاً على الساعة والمعدات الملاحية. كان التشكيل يقترب من البوابة الجوية حيث ستبدأ إعدادات وتشكيلات الهجوم، لاحظ ساذرويت أن سرعة طيرانه الموضحة على المؤشر هي أربعمئة وثمانين عقدة، بارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم. كانت المسافة التي تفصل بينهم وبين الساحل أقل من مئتي ميل. وعبر جهازه اللاسلكي، تناهت إلى ساذرويت سلسلة من النقرات، التي عمد إلى تأكيدها بنفس الطريقة، ثم بدأ الهبوط والسرب المصاحب له.

كان ساذرويت ميالاً لبدء قوائم التدقيق النهائي على الفور، ولكنه كان يدرك أن الوقت ما زال مبكراً على هذا، وقد يتم رصده في أسرع وقت، ولم تكن هذه الطريقة المثلى لخوض المعركة. فانتظر.

تنحنح ويجينز مصدراً صوتاً بدا عبر مكبر الصوت الداخلي وكأنه زئير أسد، ثم أصدر الأمر لساذرويت ولنفسه بالبدء، "مئة ميل على اليابسة".

"عُلم".

نظر كلاهما إلى شاشة الرادار، ولكن لم يكن هناك شيء قادم في مواجهتهما، وقد أصبحا على ارتفاع ثلاثمئة قدم فوق مستوى سطح البحر.

"ثمانون ميلاً".

"حسناً، دعنا نبدأ بمراجعة الهجوم".

"مستعد".

بدأ كل من ويجينز وساذرويت مراسم التدقيق والمراجعة، وما إن فرغا منها حتى رفع ويجينز رأسه ورأى أضواء العاصمة أمامه مباشرة، "ها نحن ذا". رفع ساذرويت رأسه كذلك، وأومأ موافقاً، ثم غير موضع الأجنحة الهيدروليكية،

فشرعت تلك الممتدة خارج المقاتلة FF-111 في التحرك نحو الخلف، تماماً كجناحي صقر رصد لتوه فريسته على الأرض.

زاد ساذرويت القوة مرة أخرى، فيما كان التشكيل يقترب من الساحل، بينما ظل ارتفاعهم ثابتاً على الثلاثمئة قدم. كانوا قد أخبروهم في جلسة الاطلاع على المهمة أنه لا يوجد أبراج للرادار أو ناطحات سحاب عالية يجدر القلق بشأنها. وصلت سرعتهم إلى خمسمئة عقدة، وكانت الساعة صفر-واحد-خمسة، مما يعني أن التشكيل سينفصل في غضون دقائق، حيث ستتوجه الطائرات الأربع إلى أهدافها داخل العاصمة وحولها على نحو منفرد.

استمع ويجينز بانتباه شديد إلى الصمت المنبعث من السماعات حول رأسه، ثم تناهى إليه صوت يشير إلى وجود رادار بالقرب منهم. تباً. ثم حوّل عينيه بسرعة إلى راداره وشاشة التحذير خاصته، وقال لساذرويت في صوت جعله هادئاً بقدر ما استطاع أن يدّعي من هدوء "تحذير من صاروخ أرض-جو في الساعة الواحدة".

أومأ ساذرويت وقال "أظنهم مستيقظين".

"لكم أود أن أسدد ركلة إلى ذاك المسؤول الذي أطلعنا على المهمة".

"المشكلة الآتية ليست فيه ولا في هذه الصواريخ".

"نعم، معك حق". كانت الطائرة FF-111 تطير على نحو منخفض جداً وبسرعة ممّا لا يسمح لها بتسديد الصواريخ إلى أهدافها. ولكن، بوجود طائرات تشكيلهم على ارتفاع ثلاثمئة قدم، فإن هذا يجعلهم في مرمى مباشر لأسحلة المدفعية المضادة.

أخذ ويجينز يراقب صاروخين وهما يرتفعان على شاشة راداره، وتمنى لو أن قطعتي الخردة السوفياتية الصنع تخفقان في تعقبهما في سرعتهما وارتفاعهما ذاك. مضت عدة ثوانٍ ثم رأى ويجينز بعينيه الجانب الأيمن من الصاروخين في انسلالهما صعوداً إلى قلب السماء السوداء، بينما ذيلاهما يحترقان في اشتعال أحمر وبرتقالي.

علّق ساذرويت في جفاء "هدر لوقود الصواريخ الغالي".

يبدو أن دور ويجينز قد حل كي يلتزم الصمت ولا يجيب. في الحقيقة، لم يكن قادراً على الكلام. وعلى النقيض من ذلك، أصبح ساذرويت مثرثراً ومهذاراً حول شكل الساحل والعاصمة وغيرهما من الأمور التافهة. وللمرة الأولى أراد ويجينز أن يأمره بالصمت وبأن يقود فحسب.

عبرا الساحل، وأصبحت العاصمة أسفلهما، ولاحظ ساذرويت أنه بالرغم من الغارة الجوية، إلا أن أضواء الشوارع كانت مشتعلة. "حمقى!" ثم لمح قوس ماركوس إيروليوس وقال لويجينز "هاك القوس الذي تريد رؤيته؛ الساعة التاسعة".

ولكن ويجينز كان قد فقد اهتمامه بالتاريخ، وأولى تركيزه للحظة الحالية، فتوجه لساذرويت قائلاً "دُر".

انفصل ساذرويت بدوره عن التشكيل وبدأ يدور باتجاه مقصده. "كيف تنطق هذه الكلمة؟"

"أي كلمة؟"

"حيث نحن ذاهبون الآن".

شعر ويجينز بالعرق يتصبب حول عنقه بينما كان يحول انتباهه بين المعدات، وشاشة الرادار، والأشياء التي يبصرها خارج النافذة "اللعنة، هناك مدفعية مضادة!"

"أمتأكد أنت؟ ظننتها تلك العـ... تلك التي نقصدها".

استاء ويجينز من مرح ساذرويت المفاجئ، فصاح فيه "...! وما الاختلاف الذي يصنعه ذلك بحق الجحيم؟"

"صحيح". أجاب ساذرويت ثم تابع ضاحكاً "غداً سيطلقون عليها اسم *الأنقاض* على أي حال".

ضحك ويجينز أيضاً بالرغم من الرعب الذي تملكه في هذه اللحظة، حيث صواريخ المدفعية المضادة تشق طريقها في الليل البهيم لتصبح شديدة القرب من طائرتهما. وفي الحقيقة، كان ويجينز يجد صعوبة في تصديق أن هناك بالفعل ضربات موجهة إليهم.

قال ساذرويت "فوق الهدف تماماً. استعد".

أجابه ويجينز "أنقاض، أنقاض، مستعد للإطلاق. إلى الجحيم".

الفصل السادس عشر

شعر أسد خليل بقلبه يكاد يتوقف. "نعم، نعم، إليّ هنا". ثم سألها في صوت خافت "هل أتيتِ وحدَكِ؟"

قالت بهيرة وهي تخطو نحو صوته "بالطبع". ثم رأته وهو يجلس فوق السجادة.

همس لها في صوتٍ أجش "أبقي صوتك منخفضاً".

جثمت بهيرة أسفل السور بينما كانت تسلك طريقها نحوه، ثم جلست على السجادة وهي تسأله "هل كل شيء على ما يرام؟"

"نعم، لكنكِ تأخرتِ".

"كان عليّ أن أتفادى الحراس، فالقائد -"

قال أسد خليل وهو ينظر إلى بهيرة في ضوء القمر "نعم، أعرف هذا". كانت ترتدي العباءة البيضاء الفضفاضة، وهو ما ترتديه الشابات عادة في الأمسيات، كما كانت تضع نقابها ووشاحها. كانت تكبره بثلاثة أعوام، وقد وصلت إلى العمر الذي تتزوج فيه الفتيات في بلدها أو على الأقل يُخطبن، إلا أن أباها رفض الكثيرين ممن تقدموا لخطبتها، بل ونفى الذين أبدوا إصراراً منهم إلى الخارج. كان أسد خليل يعرف أنه لو أن أباه ما زال على قيد الحياة، لباركت العائلتان زواجه ببهيرة. ولكن بالرغم من أن أباه كان بطلاً وشهيداً، إلا أن حقيقة أنه متوفى من شأنها أن تقلل من منزلة عائلة خليل.

أطرقت بهيرة في إيماءة إلى موافقتها على الفهم الصامت الذي تبادلاه.

ثم بادرت إلى نزع النقاب الذي كان يغطي وجهها، وابتسمت. إلا أن خليلاً شعر أنها ابتسامة حرج من أنها بلا نقاب، على مسافة أقل من متر واحد من رجل.

ثم أزاحت غطاء رأسها، وحلّت شعرها تاركة إيّاه ليتهدل في أمواج طويلة فوق كتفيها.

تنهد خليل في عمق وحدّق في عيني بهيرة. رآها رائعة الجمال، بالرغم من أنه لم يكن قد رأى أخريات كثيرات ليقارن بينها وبينهن. فبلع ريقه وقال لها في نشوة "أنتِ فاتنة".

ابتسمت بهيرة، وأخذت يديه بين يديها، ولم يكن خليل قد أمسك بيد امرأة من قبل، فأدهشه كم كانت يداها صغيرتين وناعمتين.

كانت بشرتها دافئة، أكثر دفئاً منه، ربما لما بذلته من جهد في رحلة الثلاثمئة مترٍ من منزلها إلى حيث كان ينتظرها، ولاحظ كيف أن يديها جافتان بينما كانت يداه رطبتين.

ثم اقترب منها على ركبتيه، وشم عبيراً مزهراً ينبعث منها، وأدرك فيما هو يتحرك أنها أثارته على نحو كامل.

فشرع يداعب وجهها على نحو مماثل. اقتربت منه، وتلامس جسداهما، وتعانقا، حتى شعر خليل بصدرها تحت العباءة. أضرم هذا النيران في رغبته، إلا أن جزءاً من عقله كان في مكان آخر؛ غريزة بدائية كانت تدفعه كي يكون حذراً.

قبل أن يقرر ما سيفعله كانت بهيرة قد تحركت إلى الخلف وشرعت تنزع عباءتها.

راح خليل يراقبها، ويستمع إلى أجراس الخطر بداخله؛ لو رآهما أحد الآن، فسيقتلان لا محالة. ثم سمعها تقول "أسد، ماذا عساك تنتظر؟"

نظر إليها راكعة أمامه، كانت عارية تماماً. أخذ يحدق في صدرها العاري، وفخذيها، ثم نظر إلى وجهها مرة أخرى.

"أسد".

فسحب سترته القصيرة إلى أعلى رأسه، ثم أنزل بنطاله وملابسه إلى أسفل كاحليه، ثم دفعهما بعيداً عن جسده.

...

اقتربت منه حتى تلامست أكتافهما وأرجلهما، ولكن كانت رغبته قد انطفأت.

"هل أنت غاضب؟"

"كلا". ثم اعتدل وقال "فلنرتدِ ملابسنا".

أراد أن يتحرك مبتعداً عنها، لكنه لم يفعل، وبدأت الأفكار السيئة تزحف إلى تفكيره؛ ماذا لو حملت منه؟ ماذا لو أرادت فعل هذا مجددا؟ سيتم ضبطهما في المرة القادمة لا محالة، أو ستحمل منه. وفي الحالتين سيموت أحدهما أو كلاهما. لم يكن القانون واضحاً في بعض الأشياء، وعادة ما تقرر العائلة الإجراء الذي يتم اتخاذه للتعامل مع هذا العار الذي لحق بها. ولأنه يعرف أباها، فلم يكن يتوقع أي قدر من الرحمة له أو لها.

لم ترد بهيرة.

غضب خليل من نفسه لأنه أفشى لها بسره، وغضب أكثر لأنه لم يكن يعرف لماذا فعل هذا، ولا يعرف حقيقة شعوره نحو تلك المرأة أمامه. كان على يقين من أن رغبته فيها ستعاوده، ولهذا السبب كان عليه أن يكون مهذباً معها. بالرغم من هذا، تمنى لو أنه الآن في مكان آخر غير هذا المكان. ثم أبصر ملابسه على الطرف الآخر من السجادة، كما لاحظ تلك البقعة غامقة اللون فوق السجادة حيث تمدد جسدها.

طوقته بهيرة بذراعها، وراحت تمسد فخذه بيدها الأخرى، وهي تقول "أتظنهم سيسمحون لنا بالزواج؟"

"ربما". لكنه لم يكن يظن هذا حقاً. نظر إلى يدها فوق فخذه، ثم لمح بقايا دمها فوق جسده. وفكّر أنه كان يجدر به إحضار بعض الماء للاغتسال.

سألته بهيرة "هل ستتحدث إلى والدي إذاً؟"

"نعم سأفعل". أجابها رغم أنه لم يكن متأكداً من أنه سيفعل. إن الزواج ببهيرة نادر، ابنة النقيب حبيب نادر، سيكون أمراً جيداً بحق، ولكن من الخطر الإقدام عليه. تساءل إن كانت أمها ستقبل على فحصها، ومن ثم تعرف أن ابنتها قد فقدت عذريتها، وتساءل إن كانت قد حملت منه بالفعل هذه الليلة. تساؤلات عدة اجتاحت تفكيره في تلك اللحظة، ومنها بالقطع التساؤل حول ما إن كان سيعاقب على إثمه هذا. "علينا أن نذهب".

ولكنها لم تبادر إلى القيام بأيّ حركة لتبتعد عنه، وظلت بجانبه.

فمكثا معاً، وبدأ خليل يشعر بالقلق.

بدأت بهيرة تتكلم، فقاطعها "اصمتي". كان لديه شعور مزعج بأن هناك شيئاً يحدث؛ شيئاً أراد أن يعرفه.

أخبرته أمه ذات مرة أن تسميته بالأسد قد باركته بحاسة سادسة، أو بصيرة، كما أسمتها المرأة العجوز. كان أسد يظن أن لدى الجميع القدرة على الإحساس بالخطر أو إدراك متى كان العدو قريباً، دون رؤية أو سماع شيء بعينه. ولكنه فهم مع الوقت أن إحساسه ذاك هو ملكة خاصة، وأدرك أن الشعور الذي تملكه طوال ليلته تلك لا شأن له بلقائه ببهيرة، أو الشرطة العسكرية، أو أن يضبط متلبساً بجريمة الزنا؛ بل بشيء آخر، شيء ما زال لا يعرف كنهه. كل ما كان يعرفه، أن شيئاً سيئاً كان يحدث هناك.

حاول تشب ويجينز أن يتجاهل خطوط التعقب التي تلحق بالأشياء الطائرة خارج نافذته. لم يكن قد صادف في حياته أو تدريباته شيئاً يشبه ما يحدث هنا الآن. كان المشهد بأكمله سريالياً من حوله، حتى أنه لا يمكن التعامل معه بوصفه خطراً مميتاً. وضع ويجينز تركيزه على شاشات معداته التي صنعت في مجموعها لوحة مفاتيح الطائرة أمامه. ثم بلع ريقه وقال لساذرويت "نحن في أفضل موقع".

أكّد ساذرويت ذلك دونما تغيير في نبرة صوته.

"أقل من دقيقتين على الهدف".

"عُلم".

كان ساذرويت يدرك أنه من المفترض به القيام بتشغيل محرقات الأكسجين الإضافي للحصول على المزيد من الطاقة، إلا أنّ فعل هذا سيسفر عن ترك الطائرة لأثر طويل من العادم اللامع بالغ الوضوح، وسيدير فوهات كافة المدافع تجاهها. لم يكن من المفترض أن يكون هناك كل إطلاق النيران هذا من فوق الأرض، ولكن كان هذا هو الحال، وكان عليه أن يقرر.

"محرقات الأكسجين يا بيل".

تردد ساذرويت. كانت الطائرة تطلب سرعة محرقات الأكسجين الإضافية، وإما أن يفعل أو يتعرض لارتطام رفيقه في السرب - الطائرة ريميت 22 – بمؤخر طائرته، حيث لم يكن يفصل بينهما سوى ثلاثين ثانية فقط.

"بيل!"

"حسناً". قال ساذرويت ودفع بمحرقات الأكسجين، واندفعت الطائرة FF-111 نحو الأمام، ثم سحب عصاه وارتفعت مقدمة الطائرة. نظر ساذرويت أعلى لوحة الملاحة لثانية وجيزة، ولمح قذائف منحنية المسار تمر بجواره "هؤلاء الحمقى غير قادرين على الضرب المباشر".

لم يكن ويجينز متأكداً من هذا، وقال "على المسار الصحيح. ثلاثون ثانية على الإطلاق".

أمسكت بهيرة بذراع حبيبها، وسألته "ماذا بك يا أسد؟"

"اصمتي". أرهف أسد سمعه حيث ظن أنه سمع أحدهم يصرخ من مسافة بعيدة، فهرع إلى ملابسه المكومة، ولبس سترته ثم أخذ ينظر من فوق السور، وعيناه تمسحان المقر بالأسفل، حين لفت انتباهه شيء في الأفق، ثم نظر إلى الشمال والشرق نحو العاصمة.

كانت بهيرة بجواره الآن، تمسك بملابسها إلى صدرها، وسألته في إلحاح "ماذا هناك؟"

"لا أعرف. ولكن اصمتي فحسب". شيء مريع كان يحدث، ولكن أياً كان، فهو لا يمكن رؤيته أو سماعه، إلا أنه كان يحسه وبقوة. فأخذ يحدق في ظلمة الليل ويرهف سمعه.

رافقته بهيرة في النظر فوق السور، وسألت "أهم الحراس؟"

"لا. شيء ما، هناك". ثم رآه؛ آثار مضيئة من النيران اللامعة ترتفع متقوسة فوق وهج العاصمة إلى السماء المظلمة فوق البحر الأبيض المتوسط.

ثم رأتها بهيرة، فسألت "ما هذا؟"

"صواريخ". بسم الله الرحمن... "صواريخ ونيران مدفعية مضادة".

تعلقت بهيرة بذراعه "أسد، ماذا يحدث؟"

"غارة عدو".

"لا، لا! يا الله، رجاءً". ثم سقطت على الأرض وشرعت ترتدي ملابسها. "يجب أن نسرع إلى الملاجئ".

"نعم". لبس أسد بنطاله وانتعل حذاءه، ونسي أن يرتدي ملابسه الداخلية.

فجأة ملأ الصراخ الصاخب لصفارة إنذار جوية هواء تلك الليلة، وبدأ الرجال يصرخون ويخرجون مسرعين من الأبنية المحيطة، وارتفع صوت المحركات، وامتلأت الشوارع بالضوضاء.

شرعت بهيرة تجري حافية القدمين نحو درج السقيفة، ولكن خليل جذبها إلى الوراء.

"انتظري! لا يجب أن يروك تجرين خارجة من هذا المبنى. دعيهم يصلون إلى الملاجئ أولاً".

نظرت بهيرة إلى أسد، وكانت تثق في حكمته، فأومأت موافقة.

ما إن اطمأن خليل إلى بقائها حيث كانت، حتى عاد مسرعاً إلى السور ونظر نحو المدينة. "بسم الله الرحمن الرحيم". كانت النيران تندلع في العاصمة، وأصبح بوسعه الآن أن يسمع صوت الانفجارات البعيدة ويشعر بها كهزيم رعد الصحراء.

ثم لفت انتباهه شيء آخر؛ بريق غامض يندفع تجاهه مخلفاً ذيلاً هائلاً أحمر اللون، ومن خلفه أضواء ونيران العاصمة، وأدرك خليل أنه كان ينظر إلى غازات العادم الحارة لمقاتلة كانت تتجه صوبه. وقف متجمداً وقد تملكه الرعب، حتى أنه لم يقوَ على إطلاق صرخة واحدة من حنجرته.

رفع بيل ساذرويت عينيه عن الشاشات الإلكترونية، وألقى نظرة أخرى سريعة عبر النافذة. وفي الظلام الممتد أمامه استطاع أن يحدد المنظر الجوي لهدفه، والذي كان قد رآه مئات المرات في صور القمر الصناعي.

قال ويجينز "استعد".

حوّل ساذرويت انتباهه إلى الشاشات مرة أخرى، ووجّه تركيزه نحو الملاحة ونمط إسقاط القنابل الذي سيقوم بتنفيذه في غضون بضع ثوان.

وبدأ ويجينز العد "ثلاثة، اثنان، واحد. أسقط".

على الفور شعر ساذرويت بوزن الطائرة يخف، وأخذ يكافح للسيطرة عليها بينما بدأ مناورات المراوغة السريعة التي ستخرجهما من هنا.

من ناحية أخرى كان ويجينز يعمل على المتحكمات التي توجه قنابل الليزر الذكية، ذات الألفين رطل إلى مساراتها المحددة مسبقاً. "التعقب، صورة جيدة. نعم، حصلت عليها. توجيه، توجيه... اضرب! واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. رائع!".

لم يكن بوسعهما أن يسمعا صوت القنابل الأربع وهي تنفجر، بيد أن كلاً منهما كان يتخيل كيف يمكن أن يكون صوت ووميض الانفجارات، ثم قال ساذرويت "فلنخرج من هنا".

وأضاف ويجينز "مع السلامة".

تسمر أسد في مكانه محدقاً في ذاك الشيء المدهش المندفع نحوه والنيران تنطلق من خلفه. وعلى نحو مفاجئ انسحبت الطائرة إلى كبد السماء المظلمة مباشرة، وقد غطى صوت زئيرها على كل صوت آخر سوى صراخ بهيرة نادر.

ثم اختفت المقاتلة، وخفت صوتها، بيد أن صراخ بهيرة لم يختفِ ولم يخفت، واستمرت في الصراخ.

صاح فيها خليل ‘‘اصمتي!’’ ونظر إلى الأسفل حيث الشارع، ورأى اثنين من الحراس ينظران إلى الأعلى نحوه، فاختفى أسفل السور، بينما كانت بهيرة تبكي وقد تشنج جسدها.

بينما كان خليل يفكر في خطوته التالية، كان السطح تحت قدميه يقفز ويرمي به على وجهه. وأول ما وعاه بعد ذلك كان صوت انفجار هائلاً يدوي بالقرب منه، تبعه انفجار ثانٍ، وانفجار ثالث. غطى خليل أذنيه بيديه فيما كانت الأرض تهتز من تحته، وشعر بضغط الهواء يتغير، وأذنيه تفرقعان، وانفتح فمه في صرخة صامتة. ثم اجتاحته موجة حارة، واستحالت السماء من فوقه إلى لون الدماء القاني، وشرعت قطع الصخور، والأنقاض، والأرض تسقط عليه من السماء. الرحمة يا الله، نجّني. كان الدمار يحيق بالعالم من حوله، ولم يعد في صدره هواء، وصار يكافح كي يلتقط أنفاسه. ثم ساد الهدوء على نحو غريب، وأدرك خليل أنه أصم، وأنه بلل نفسه.

بالتدريج عاد إليه سمعه، وتناهى إليه صراخ بهيرة مجدداً، سيل من الرعب يصعب السيطرة عليه. بالكاد استطاعت الوقوف على قدميها وجاهدت للوصول إلى السور البعيد، وبدأت تصرخ نحو الفناء بالأسفل.

‘‘اصمتي!’’ أمرها خليل وهو يجري نحوها، وأمسك بذراعها، لكنها ابتعدت عنه وراحت تركض حول أنقاض حافة السطح المنثورة، وهي تصرخ ملء رئتيها.

ثم دوت أربعة انفجارات أخرى في الطرف الشرقي من المجمّع.

أبصر خليل أربعة رجال على السطح المجاور ممسكين برشاشات مضادة للطائرات، ولما رأتهم بهيرة أيضاً، رفعت ذراعيها إليهم وأخذت تصيح ‘‘النجدة! النجدة!’’

رآها الرجال بالفعل، إلا أنهم تابعوا تصويب رشاشاتهم.

‘‘ساعدوني! النجدة!’’

أمسك بها خليل من الخلف، وسحبها إلى السطح الخراساني وهو يصرخ فيها ‘‘اصمتي!’’

قاومته بهيرة حتى أنه اندهش من قوتها. أما هي فظلّت تصرخ حتى أفلتت من بين ذراعيه، وخربشت وجهه مسببة له جروحاً بالغة بطول وجنتيه وعنقه.

وفجأة فتحت المدفعية في السطح المجاور نيرانها، واختلط الصوت المتقطع بنحيب صفارة الإنذار وهدير الانفجارات عن البعد، فيما اندفعت خطوط النيران الحمراء من الرشاشات، فعادت بهيرة إلى الصراخ.

وضع خليل يده على فمها، ولكنها عضت إصبعه، بل ودفعت بركبتها أسفل معدته فتراجع متألماً.

كانت في حالة هيستيرية تماماً، ولم يرَ خليل أي طريقة لتهدئتها.

ولكن، كانت هناك طريقة واحدة.

لف خليل يديه حول عنق بهيرة وعصره.

اندفعت المقاتلة FF-111 نحو الجنوب فوق الصحراء، ثم استدار ساذرويت بحدة نحو اليمين منفذاً استدارة قدرها مئة وخمسون درجة، مما يعيدهما إلى الساحل، على بعد مئة كيلومتر غرب العاصمة.

قال ويجينز "رحلة ممتعة يا كابتن".

لم يعتقد ساذرويت بذلك، ولكنه أجاب قائلاً "فلتبقَ منتبهاً إلى قواتهم الجوية يا تشب".

عدّل ويجينز من وضع المقابض على شاشة راداره، وقال متهكماً "السماء صافية. يبدو أن طياريهم يغسلون ملابسهم الداخلية التي اتسخت بفعل الخوف".

"أتمنى". كانت المقاتلة تخلو من أي قذائف جو-جو، ولم يعبأ الحمقى الذين صمموها حتى بوضع بندقية جاتلنج على متنها، ومن ثم كان دفاعهم الوحيد ضد أي طائرة أخرى هو السرعة والمناورة. "أتمنى هذا". قال ساذرويت مجدداً، ثم شرع يرسل إشارات راديو تخبر أن كارما 57 ما زالت في الجو.

ثم ظلا صامتين في انتظار إشارات الآخرين.

أخيراً، بدأت إشارات الراديو في الانبعاث ريميت 22، وعلى متنها تيري وايكليف وبيل هامبريشت بخير، وريميت 61، وعلى متنها بوب كالوم وستيف كوكس بخير، وإلتون 38، وعلى متنها بول غراي وجيم ماكوي بخير.

كانت طائرات تشكيلهم الأربع بخير إذاً ونجحت جميعها في مهماتها.

قال ويجينز "أتمنى لو أن التشكيلات الأخرى بخير أيضاً".

أومأ ساذرويت، فحتى الآن كانت المهمة تمضي بشكل مثالي جعله يشعر بالسعادة والارتياح. كان دائماً يحب الأشياء عندما تسير وفق الخطط الموضوعة، وبغض النظر عن الصواريخ والمدفعية المضادة - حيث إنها لم تصبه ولم تلحق الضرر بطائرته - يمكن النظر إلى هذه المهمة باعتبارها تدريباً حيًّا على إلقاء القنابل على صحراء موجاف[9]. ودوّن ساذرويت في سجله عن العملية عبارة *غاية في السهولة*.

"نعم، كتوزيع الحليب".

واصل خليل إحكام قبضتيه حول عنق بهيرة، وكان هدفه إسكات صراخها. أما هي فراحت تنظر إليه بعينين متسعتين حتى آخرهما. عصر عنقها على نحو أشد، حتى بدأ جسدها ينتفض أسفل منه. فاستمر في الضغط بقسوة أشد حتى تحول انتفاض جسدها إلى تشنجات، قبل أن يسكن هذا الجسد تماماً. ظل خليل ممسكاً بعنقها وهو ينظر إلى عينيها حتى توقفتا وهما متّسعتان دون إجفال.

عدَّ خليل حتى الرقم ستين ثم أفلت عنقها، وفكّر أنه بهذا حل مشكلته الحالية وكل مشكلاته المستقبلية بحركة كانت سهلة نسبياً.

وقف خليل، وشرع يهبط درجات السلم، ثم خارج المبنى إلى الشارع.

كانت كل أضواء المجمّع قد انطفأت، وسلك خليل طريقه في قلب الظلام متجهاً صوب منزله، ومع كل خطوة كان يخطوها بعيداً عن المبنى حيث جسد بهيرة الخالي من الحياة يرقد على السطح، كان يزداد شعوره بالارتياح، جسدياً ونفسياً، وكأنه يتخلص من عبء تورطه مع تلك الفتاة الصريعة هناك.

رأى أمامه بناية وقد غدت حطاماً، وفي ضوء النيران المشتعلة في ذاك الهيكل رأى أسد جثث الجنود الموتى مبعثرة من حوله؛ ووجه أحدهم كان يحدق فيه، وقد أضفى لهيب النيران بعض الحمرة على الجلد الشاحب. كانت عينا الرجل خارج جمجمته وقد جرى الدم من المحجرين، ومن أنفه، وأذنه، وفمه. قاوم خليل الإحساس بالغثيان في معدته المضطربة، ولكن رائحة اللحم المحترق جعلته يتقيأ.

استراح للحظة، ثم واصل طريقه.

لمح خليل خزان مياه ينسكب منه الماء أسفل إحدى البنايات، فتوقف وغسل وجهه ويديه، ونظف نفسه من دم بهيرة الناجم عن اتصالهما، ونظف نفسه من بوله.

ثم تابع طريقه داعياً أن يجد أمه وإخوته بخير.

وما إن لمح النيران مندلعة من المكان الذي يقصده، حتى بدأ خليل بالعدْو نحوه.

خطر له أن هذه الليلة قد بدأت بالإثم، وانتهت بالجحيم. قادته الشهوة إلى الإثم، وسلمه الإثم إلى الموت. كانت النيران تتأجج من حوله؛ الشيطان نفسه أصدر عقابه عليه وعلى بهيرة، ولكن الله الرحيم نجّاه، وها هو الآن يعدو نحو أسرته وهو يرجو أن يكون الله قد نجاهم كذلك.

وكفكرة لاحقة، دعا أيضاً أن تكون أسرة بهيرة بخير، وكذلك القائد.

ركض أسد خليل، الفتى ذو السادسة عشرة ربيعاً، بين الحطام وقد أدرك أنه قد مرّ لتوه باختبار أوقعه فيه الشيطان ووضعه ربه فيه، وأنه من ليلة الإثم والموت والنيران تلك، بدأ عهد رجولته.

الفصل السابع عشر

واصل أسد خليل الركض نحو منزله. كان هناك المزيد من الناس في هذا الركن من المجمع؛ جنود، ونساء، وبعض الأطفال. بعضهم يركضون هنا وهناك، والبعض الآخر يسير متباطئاً ولم يزل بعد في ذهول؛ ولاحظ أنه كان هناك آخرون راكعون يصلون.

دار خليل حول إحدى الزوايا، ثم توقف على نحو مفاجئ، فصف مساكن الطين الملحقة بالمجمع حيث كان يعيش بدت غريبة الشكل تماماً. أدرك خليل أن النوافذ قد فقدت، ولاحظ بعدها الحطام الذي انتشر في الساحة أمام المنازل. ولكن الأكثر إثارة للدهشة كان حقيقة أن ضوء القمر كان ينبعث من النوافذ والأبواب المفتوحة، وفجأة رأى أن السقوف كانت منهارة داخل المساكن، وأن انفجاراً قد لحق بالأبواب، والنوافذ، والدرفات. يا الله. *كلا. أتوسل إليك. رجاءً. لا...*

شعر خليل أنه سيغمى عليه، فأخذ نفساً عميقاً، وشرع يجري نحو بيته، فتعثر في قطعة من الخراسان بين الحطام، وأسقط ما كان يحمله، وأخيراً، وصل إلى مدخل المنزل. تردد خليل للحظة، ثم اندفع إلى ما كان في السابق غرفة أمامية.

كان سقف الغرفة قد انهار تماماً داخل الغرفة، وغطى بلاط الأرضية، وبساطها، والأثاث بكتل من الخراسان المتحطم، وقطع الخشب، والطين. نظر خليل إلى الأعلى نحو السماء المفتوحة. *باسمك اللهم الرحمن...*

أخذ خليل نفساً ثانياً، وحاول أن يسيطر على نفسه. ونظر إلى الجدار البعيد حيث كانت الخزينة التي بناها أبوه من الخشب والبلاط. سلك خليل طريقه عبر الأنقاض إلى حيث كانت الخزينة، وكانت مفتوحة على مصراعيها. كان المصباح الكاشف في مكانه هناك، فأشعله خليل.

راح يدير شعاع الضوء الضيق القوي في أرجاء الغرفة، وبات يرى حجم الدمار الذي لحق بالمنزل. كانت صورة القائد لا تزال تحتل مكانها فوق الجدار، وكان هذا بمثابة إشارة تأكيدية لخليل.

كان يعلم أنه يجب عليه الذهاب إلى غرف النوم، إلا أنه لم يكن بوسعه مواجهة ما قد يجده هناك. أخيراً قال لنفسه: يجب أن تكون رجلاً، يجب أن تعرف ما إذا كانوا أحياء أو أمواتاً.

اندفغ خليل نحو مدخل مفتوح يقود إلى الأجزاء الداخلية من المنزل، ورأى أن الدمار نفسه قد لحق بالمطبخ وغرفة الطعام، ولاحظ كيف أن صحون الخزف والطاسات قد سقطت جميعاً عن رفوفها.

اندفع خليل عبر الدمار إلى فناء داخلي صغير حيث ثلاثة أبواب تؤدي إلى غرف النوم الثلاث، ودفع باب الغرفة التي يتقاسمها مع أخويه؛ عصام، ذو الخمس سنوات، وقادر الذي يبلغ الرابعة عشرة من عمره. كان عصام هو الابن الأخير من أبيه، وكان ضعيف البنية ومعتلاً على نحو دائم، وهو المدلل من أخواته وأمه، حتى أن القائد أرسل إلى طبيب أوروبي ذات مرة وأحضره لفحص عصام في نوبة من نوبات مرضه. أما قادر، والذي يصغر أسد بنحو عامين، فكان يبدو أكبر من سنه، وأحياناً ما كانا يبدوان كالتوأم. كان لدى أسد خليل آمال وأحلام أنه وقادر سيلتحقان بالجيش معاً، وسيصبحان مقاتلين عظيمين، ثم في النهاية قائدين ومساعدين للقائد.

كانت تلك الصورة قد علقت في رأس أسد خليل وهو يدفع ذاك الباب، الذي بدا وكأن شيئاً يعيق فتحه من الجانب الآخر. فدفع بقوة أكبر، واستطاع أن يتسلل من الفتحة الصغيرة التي انفرجت إلى داخل غرفته.

في الغرفة الصغيرة، كانت هناك ثلاثة أسرة مفردة: سريره الذي امتد أسفل كتلة خراسانية، وسرير قادر وقد غطته الأنقاض الخراسانية أيضاً، وسرير عصام حيث رأى خليل عارضة خشبية ضخمة.

جاهد خليل لرفع الحطام عن سرير عصام، وانحنى فوقه. هبطت العارضة الخشبية الثقيلة بجوار الفراش، وتحتها، وتحت البطانية، كان جسد عصام مسحوقاً وخالياً من الحياة.

أخفى خليل وجهه بين راحتيه وبكى.

ثم سيطر على نفسه، واندفع نحو فراش قادر، والذي اندفن تماماً تحت كتلة خراسانية ضخمة سقطت من سقف الغرفة. أدار خليل المصباح الكاشف فوق الحطام، ورأى ذراعاً بارزة من بين القطع الخراسانية. مد يده إلى الذراع وحاول جذبها، إلا أنه سرعان ما ترك كتلة اللحم الميت تلك.

أطلق خليل صيحة طويلة مؤلمة، وألقى بنفسه عبر تل الحطام الذي يغطي فراش قادر. بكى لدقيقة أو اثنتين، ثم أدرك أنه يجب أن يبحث عن الآخرين، فوقف على قدميه.

وقبل أن يغادر الغرفة، استدار مرة أخرى، ووجه المصباح صوب فراشه، وأخذ يحدق في قطعة الخراسان التي غطته تماماً، حيث كان مستلقياً منذ بضع ساعات مضت.

عبر خليل الفناء الصغير، ودفع الباب إلى غرفة أختيه. كان الباب قد انفك عن مفصلاته، فسقط فوراً داخل الغرفة.

كان لخليل أختان؛ أدارا، في التاسعة من عمرها، ولينا، في الحادية عشرة من عمرها، وكانتا تتقاسمان فراشاً مزدوجاً. كانت أدارا طفلة سعيدة، وكانت قرة عين خليل، حيث كان بمثابة أب لها أكثر من كونه أخاها الأكبر. أما لينا، فكانت جادة ومولعة بالدراسة، والمفضلة لدى معلميها.

لم يستطع خليل حمل نفسه على إلقاء الضوء نحو الفراش، أو حتى أن ينظر تجاهه. فوقف وعيناه مغمضتان، وراح يدعو قبل أن يفتحهما ويوجّه الضوء نحو الفراش. وانطلقت منه صيحة لم يستطع السيطرة عليها. كان الفراش مقلوباً، والغرفة بأسرها بدت وكأن عملاقاً قام بهزّها. ورأى خليل أن الجدار في مؤخر الغرفة قد انفجر، وشم رائحة المتفجرات اللاذعة الكريهة. وعرف أن القنبلة انفجرت بالقرب من هنا، وأطاحت بالجدار، وملأت الغرفة بالنيران والدخان. كل ما كان في الغرفة كان متفحماً، ومتفجراً، ومتحولاً إلى قطع متناهية الصغر يصعب تمييزها.

خطا خليل فوق الأنقاض بالقرب من الباب، ثم توقف متجمداً، وقد تقدمت إحدى ساقيه الأخرى. ففي آخر شعاع الضوء الذي كان يحمله كان هناك رأس مقطوع، متفحّم الوجه، وقد احترق الشعر فيه كله تقريباً. ولم يستطع خليل أن يميز ما إذا كان هذا رأس أدارا أو لينا.

استدار، وجرى نحو الباب، وتعثر، وسقط، وجاهد على يديه وقدميه ليجد طريقه عبر الأنقاض، وشعر كأن يديه تسقطان على لحم وعظام بشرية.

ثم وجد نفسه متكوراً كالكرة في الفناء الصغير، غير راغب بالحركة وغير قادر على ذلك.

من بعيد، استطاع أن يسمع صوت صفارات الإنذار، والسيارات، وصراخ الناس، ونساء تنوح في الجوار. عرف خليل أن المكان سيعج بالمآتم في الأيام القليلة المقبلة، وأنّ قبوراً عدة سيتم فتحها، وأحياء سيواسون بعضهم البعض.

استلقى خليل هناك لفترة، وقد شلّه الحزن على فقدان أخويه وأختيه. أخيراً، حاول النهوض، بيد أن كل ما استطاعه كان الزحف نحو باب غرفة أمه. لم يكن الباب في مكانه، فلقد انفجر بحيث إن شيئاً لم يتبقَ منه.

نهض خليل على قدميه، ودخل الغرفة. كانت خالية من الحطام على نحو نسبي، ورأى أن السقف كان لا يزال في مكانه، فيما بدت كل الأشياء في الغرفة وكأنها اندفعت نحو جدارها الخلفي، بما في ذلك الفراش. ورأى خليل الستائر والدرفات قد اندفعت خارج شقي النافذتين الضيقتين، وأدرك أن قوة الانفجار بالخارج قد أدخلت هاتين النافذتين إلى داخل الغرفة متسببة بانفجار عنيف.

أسرع خليل نحو فراش أمه، والذي كان قد اندفع هو الآخر إلى الحائط الخلفي، ورآها ممدة هناك، وقد انزاح عنها غطاؤها ووسادتها، وغطى الغبار الرمادي شراشفها ورداء نومها.

فكّر في البداية أنها نائمة أو مغشي عليها من إثر قوة الاصطدام بالحائط.

لكن سرعان ما لاحظ الدماء تسيل حول فمها ومن أذنيها، وتذكر كيف أن أذنيه ورئتيه هو أيضاً كادت تنفجر من هدير القنابل، وأدرك أن هذا هو ما حدث لأمه أيضاً.

عمد خليل إلى هزّ جسد أمه، وهو يصيح "أمي! أمي!" ودأب على هزها ومناداتها "أمي!"

فتحت فريدة خليل عينيها، وحاولت التركيز على وجه ابنها الأكبر، ولكن ما إن شرعت تتحدث حتى سعلت دماً رغوياً.

"أمي! أنا أسد!"

فأجابته بإيماءة طفيفة.

"أمي! سأحضر من يساعدنا".

لكنها قبضت على معصمه في قوة غريبة، وهزّت رأسها وهي تشد ذراعه نحوها، وفهم خليل أنها تريده أن يقترب منها.

انحنى فوقها بحيث أصبح وجهه قريباً جداً من وجه أمه.

حاولت الأم أن تتحدث مرة أخرى، ولكنها سعلت المزيد من الدماء، حتى أصبح بوسع خليل أن يشم رائحته، وقد ظلت محكمة قبضتها عليه، فقال "أمي، ستكونين بخير. سأذهب لأحضر الطبيب".

"كلا!"

فاجأه صوت أمه، فلم يكن يشبه صوتها الذي اعتاده على الإطلاق، وساوره قلق من أن ضرراً ما قد أصابها من الداخل، وأنها تعاني نزيفاً داخلياً. ظن خليل أنه قد يستطيع إنقاذ أمه إذا ما نقلها إلى مستشفى المجمع. ولكنها ما كانت تتركه ليذهب. كانت تعرف أن الموت يزحف إليها، وأرادت أن يكون ابنها بالقرب منها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

همست في أذنه متسائلة "قادر، عصام، لينا، أدارا؟"

"نعم، جميعهم بخير. إنهم... سيكونون". ووجد نفسه يبكي في حرقة، ولم يستطع الاستمرار.

فهمست فريدة "أولادي المساكين، عائلتي".

أطلق خليل نحيباً طويلاً، ثم صرخ قائلاً "يا الله، لماذا تخليت عنا؟" وشرع يبكي فوق صدر أمه، وشعر بنبضها أسفل وجنته، وسمعها تهمس "عائلتي المسكينة". ثم توقف قلبها، وظل خليل بلا حراك، يتلمس النبض، وينتظر أن يرتفع صدرها ويهبط ثانية. ولكنه انتظر كثيراً.

مكث خليل مستلقياً على صدر أمه لفترة طويلة، ثم وقف، وخرج من غرفتها، وعمد إلى التجول وهو غير واعٍ بين أنقاض منزله، حتى وجد نفسه خارج المنزل، ووقف يتأمل الفوضى من حوله. صاح أحدهم "عائلة عطية ماتوا جميعاً!"

انطلقت لعنات الرجال، وعويل النساء، وصراخ الأطفال، وأقبلت سيارة إسعاف، والنقالات تأخذ بعض الناس بعيداً. ومرت شاحنة محملة بالأجساد المغطاة بالشراشف البيضاء.

ثم سمع خليل أحدهم يقول إن منزل القائد في الجوار قد نسفته إحدى القنابل، وبالرغم من أن القائد استطاع النجاة، إلا أن عائلته بأسرها قد لاقت حتفها.

وقف خليل، وأخذ يستمع إلى كل ما يقال، ولاحظ بعض ما كان يدور من حوله، ولكن بدت الأشياء كلها بعيدة. شرع يمشي على غير هدى، حتى كادت إحدى سيارات الإطفاء تصدمه. ثم تابع سيره، ووجد نفسه عائداً إلى جوار مبنى الذخيرة حيث يرقد جثمان بهيرة فوق سطحه. ستمضي أيام، وربما أسابيع حتى يعثر أحد على جسدها هناك، وحينها سيكون الجسد قد... وسيفترض أنها ماتت من جرّاء الإنفجارات.

ولدهشته، وجد أسد خليل أن أشياءً أخرى راحت تداعب خياله في وضوح، بالرغم من شدة حزنه.

تحرك خليل بسرعة، مبتعداً عن مبنى الذخيرة، فلم يكن يريد أن يرتبط بأي حال بهذا المبنى. فتابع سيره وحيداً مع أفكاره، وحيداً تماماً في هذا العالم "عائلتي بأسرها سقطت شهيدة، بينما استسلمت أنا للإغراء، فلم أكن في فراشي، ومن ثم لم ألقَ مصير عائلتي. ولكن، بهيرة أيضاً استسلمت إلى نفس الإغراء وعانت مصيراً مختلفاً". حاول خليل أن يعي المنطق في كل هذا، وسأل الله أن يلهمه الحكمة وراء هذه الليلة.

هبت الرياح عنيفة عبر المعسكر، مثيرة الغبار والأتربة. كان الليل قد أصبح أشد برودة، واختفى القمر تاركاً المكان في ظلمة تامة. لم يشعر من قبل بمثل هذه الوحدة، ومثل هذا الخوف وقلة الحيلة، "يا الله، رجاءً، ألهمني الحكمة". وسجد بوجهه فوق الطريق الأسود ودعا ربه أن يرسل له بإشارة، أو بتوجيه، وحاول أن يفكر في وضوح.

لم يكن لديه أدنى شك حول هوية من جلب عليهم هذا الدمار، فالإشاعات تسري منذ شهور حول هذا المعتوه، ريغان، الذي يخطط للهجوم عليهم، وها قد تحققت الإشاعات. ورأى أمه بعين الخيال تتحدث إليه؛ *يجب الأخذ بثأر عائلتي المسكينة*. نعم، هذا ما قالته له قبل موتها، أو ما كانت تريد قوله.

على نحو مفاجئ ومض عقل خليل وكأنه أدرك شيئاً، وبدا واضحاً له أنه قد تم اختياره للانتقام لأمته، والقائد، وليس لأسرته فحسب. سيكون أداة الانتقام.

حدّث أسد خليل نفسه أنه لم يعد لديه ما يفقده، أو ليعيش من أجله؛ لا شيء سوى الجهاد وحمل لواء الجهاد المقدس حتى شواطئ العدو.

هكذا استقر عقل أسد خليل - ذو الستة عشرة ربيعاً - وتمركز حول فكرة الانتقام والعقاب. سيذهب إلى أميركا، وسيقطع حناجر كل من اشترك في هذا الهجوم الجبان؛ العين بالعين، والسن بالسن. قال خليل في صوت جهوري "أقسم بالله أنني سأنتقم منذ هذه الليلة".

توجّه الملازم أول بيل ساذرويت بالسؤال إلى ضابط الأسلحة بجواره "هل أصبت كل أهدافك بدقة؟"

ضحك تشب ويجينز وهو يجيب "نعم، ربما أخطأت واحداً". ثم استدرك "لكنها أصابت شيئاً على كل حال؛ صف من المساكن الصغيرة على ما يبدو".

"جيد. طالما أنك لم تصب قوس ماريو ذاك".

"ماركوس".

"أياً كان، أنت مدين لي إذاً بعشاء يا تشب".

"بل أنت مدين لي بهذا".

"لقد أخطأت أحد أهدافك. ستشتري أنت العشاء".

"حسناً، سأشتريه إذا عدت بالطائرة صوب قوس ماركوس إيروليوس".

"لقد فعلت بالفعل، لكنك فوّته. فلتذهب إليه عندما تعود إلى هنا كسائح".

ضحك ويجينز ملء شدقيه، فلم تكن لديه النيّة بالعودة إلى هنا على الإطلاق، إلا على متن طائرة مقاتلة.

ثم حلّقا فوق الصحراء، وسرعان ما بدا لهما خط الساحل بالأسفل، وشرعا يعبران البحر الأبيض المتوسط. كانت الحاجة إلى عدم استخدام الراديو قد انتفت، فبث ساذرويت قائلاً "فلنمضِ يا رفاق". وتحرّك السرب بأكمله صوب نقطة الإلتقاء المتفق عليها.

أشار ويجينز "أظن أننا لن نسمع صوت القائد لفترة. وربما لن نسمعه على الإطلاق". هزّ ساذرويت كتفيه، فلم تكن هذه الضربات تعني بالنسبة له سوى اختبار قدرته على الطيران والتحليق. كان يفهم بالطبع أنه سيتبع هذا الحدث مشكلات سياسية ودبلوماسية، إلا أنه كان أكثر اهتماماً بأحاديث وثرثرة غرفة الملابس هناك في لاكينهيث، ولكم كان يتطلع إلى الاستجواب الذي سيدور حول العملية. ثم سبح خياله في لحظة إطلاق القنابل الأربع الموجهة بالليزر، بوزنها البالغ ألفي رطل، وتمنى لو أن الجميع بأسفل قد تلقوا تحذيراً في وقت مناسب للاختباء في الملاجئ. فلم يكن يريد إيذاء أحد بحق.

اقتحم عليه ويجينز أفكاره، وقال "بحلول الفجر ستعلن الإذاعة الرسمية لديهم أننا قمنا بقصف ست مستشفيات، وسبعة ملاجئ للأيتام، وعشر دور عبادة".

لم يجب ساذرويت عن هذا.

"وسيعلن موت ألفين من المدنيين، كلهم من النساء والأطفال".

"تفقد الوقود".

"يكفي لقرابة الساعتين".

"جيد. هل استمتعت بوقتك؟"

"نعم، حتى بدأت المدفعية المضادة".

"بالطبع لم ترد قصف هدف أعزل يا رجل، أليس كذلك؟"

ضحك ويجينز وقال "نعم، فنحن محاربون مقاتلون".

"صحيح".

مكث ساذرويت صامتاً لفترة، ثم سأل "أتراهم سينتقمون؟ أعني أن ينتقموا منا، فنعاود الانتقام منهم، وهكذا... إلام ينتهي هذا؟"

الكتاب الثالث

الفصل الثامن عشر

وصل أسد خليل للتو على متن الطائرة القادمة من باريس وهو الناجي الوحيد في رحلة ترانس - كونتيننتل 175، وها هو يجلس الآن مسترخياً في المقعد الخلفي في سيارة أجرة بمدينة نيويورك، وراح ينظر خارج النافذة ويلاحظ كيف أن البنايات الشاهقة مبتعدة عن الطريق السريع، وأن السيارات هنا في أميركا أكبر حجماً مما هي عليه في أوروبا، أو في بلده. كان الطقس لطيفاً، ولكنه رطب جداً -كما في أوروبا- خاصة بالنسبة لشخص اعتاد مناخ شمال أفريقيا الجاف. كما أن الخضرة تكسو أوروبا على نحو أكبر من هنا.

حوّل أسد خليل انتباهه إلى سائق سيارة الأجرة، واسمه جمال جبار، مواطن من بلده، وكانت صورته واسمه يعلوان الرخصة المثبتة على لوحة العداد على نحو مستمر.

كانت المخابرات في بلده قد أخبرته أن سائقه سيكون واحداً من خمسة رجال محددين، حيث هناك العديد من سائقي سيارات الأجرة من دينه في نيويورك، ومن السهل إقناع أي منهم أن يؤدي مثل هذه الخدمة البسيطة، حتى وإن لم يكونوا من ضمن من وقع عليهم الاختيار كمقاتلين. كان الضابط المدرب لخليل في بلده، والذي كان يُعرف باسم مالك قد أخبره وهو يبتسم "لدى العديد من السائقين أقارب هنا في وطنهم".

توجّه خليل إلى جمال جبار متسائلاً "أي طريق هذا؟"

أجابه جبار بالعربية وبلهجة بلده "يطلق على هذا الطريق اسم حزام باركواي. بوسعك أن ترى المحيط الأطلسي هناك، وهذا الجزء من المدينة هو بروكلين، حيث يعيش العديد من إخوتنا في الدين".

"أعرف هذا. ولكن لماذا أنت هنا؟"

لم يستحسن جبار النبرة أو المضمون في سؤال خليل، ولكنه كان قد أعد إجابة عن هذا السؤال، فقال "فقط لجمع المال في هذه الأرض الملعونة، وسأعود وعائلتي إلى بلدي في غضون ستة أشهر".

كان خليل يعرف أن ما يقوله الرجل ليس صحيحاً ليس لأنه كان كذاباً، ولكن لأنه كان يعرف أن جباراً سيلقى مصرعه في غضون ساعة.

نظر خليل عبر النافذة إلى اليسار صوب المحيط الأطلسي، ثم إلى البنايات السكنية الشاهقة إلى اليمين، ثم إلى الأمام نحو أفق مانهاتن البعيد. ولأن خليلاً أمضى وقتاً طويلاً في أوروبا، فلم يعد ما يراه هنا مبهراً له. كم هي آهلة بسكانها أراضي الكفار، وغاية في الفخامة، ولكن أناسها قد ابتعدوا عن الله فضعفوا. فهؤلاء الذين لا يؤمنون إلا بملء بطونهم ومحافظهم لا يرقون إلى المقاتلين أمثاله.

توجّه خليل إلى جبار متسائلاً "وهل تلتزم بدينك هنا يا جبار؟"

“نعم، بالطبع. فهناك دار عبادة بالقرب من منزلي، وأنا محافظ تماماً على إيماني”.

“جيد، وتعرف طبعاً أن لك مكاناً في الفردوس لما تفعله معي اليوم”.

لم يجب جبار على هذا.

استرخى خليل في مقعده، وراح يفكّر في تلك الساعة الأخيرة من ذاك اليوم الهام.

كم كان يسيراً الخروج من منطقة الخدمة في المطار إلى داخل سيارة الأجرة هذه، ثم إلى الطريق السريع، بيد أن خليلاً كان يعرف أن مرور عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة أخرى كان سيجعل الأمر أصعب كثيراً. بينما لم يزل على متن تلك الطائرة، اندهش خليل عندما سمع ذاك الرجل طويل القامة وهو يقول “مسرح جريمة”، ثم نظر إليه وأمره أن يغادر ذلك السلم الحلزوني. تساءل كيف علمت الشرطة بهذه السرعة أن جريمة ما قد تم ارتكابها هنا. وفكّر أن رجل الإطفاء ربما أخبرهم بشيء ما على اللاسلكي قبل موته. لكن خليلاً ويوسف حداد، الشخص المتواطئ معه، كانا في غاية الحرص على ألا يتركا دليلاً واضحاً على أنها جريمة، بل إن خليلاً اضطر إلى دق عنق حداد حتى لا يترك أثراً واضحاً لطلقة رصاص أو جرح نصل.

لكن هناك احتمالات أخرى؛ ربما لاحظ رجل الإطفاء الإبهامين المفقودين للرجلين الفيدراليين، أو ربما لأن الاتصال اللاسلكي برجل الإطفاء قد انقطع لفترة قصيرة، فأثار هذا ريبة رجال الشرطة.

كما أن مقتل رجل الإطفاء لم يكن ضمن خطط خليل، ولكن لم يكن أمامه خيار آخر عندما حاول الرجل فتح باب الحمام. وأكثر ما أزعجه في اضطراره قتله هو أنه بذلك ترك دليلاً في لحظة حرجة من خططه.

على أي حال، لقد تغير الموقف سريعاً عندما صعد الرجل ذو الحُلة إلى متن الطائرة، واضطر خليل عندئذ إلى أن يتحرك بسرعة. ابتسم خليل لنفسه وهو يستعيد صورة ذاك الرجل وهو يأمره بأن ينزل عن السلم، حيث كان ذلك هو بالتحديد ما أراده، ومن ثم لم تكن مغادرة الطائرة أمراً بسيطاً فحسب، بل لقد أمروه بذلك.

حتى الصعود إلى شاحنة الأمتعة والقيادة بعيداً وسط ذاك التشويش والهرج كان أمراً أبسط بكثير. فلقد وجد خليل أمامه عشرات الشاحنات الخالية ليختار منها، وهذا تماماً ما أخبره به رجال المخابرات بالإضافة إلى صديق يعمل كعامل أمتعة في خطوط ترانس - كونتيننتل.

كان خليل قد أتى بخارطة للمطار من موقع ما على شبكة الإنترنت، حيث حدد بطرس - وهو الرجل الذي سبقه في فبراير - موقع نادي الفاتحين بشكل واضح، ثم قامت المخابرات بتدريب خليل على الطريق من المنطقة الأمنية وحتى نادي الفاتحين مئات المرات على طريق وهمي محاكي للطريق الحقيقي حتى صار بوسعه أن يقود إلى النادي وهو مغمض العينين.

شرع خليل يفكر في بطرس الذي قابله مرة واحدة فقط؛ لم يكن يفكر في الرجل بحدّ ذاته، ولكن في كيف أنّه استطاع بمنتهى السهولة أن يخدع الأميركيين في باريس، ونيويورك، وحتى في واشنطن. إن رجال المخابرات الأميركيين ليسوا بأغبياء، ولكنهم متغطرسون، والغطرسة تؤدي إلى الثقة الزائدة، ومن ثم الإهمال.

قال خليل موجهاً حديثه إلى جبار "أتراك تدرك أهمية يومنا هذا؟"

"بالطبع. أنا من العاصمة، وكنت صغيراً عندما قصفنا الأميركيون لعنة الله عليهم بالقنابل".

"وهل عانيت بصفة شخصية في هذا الهجوم؟"

"فقدت عماً. وما زلت حزيناً لفقدانه حتى اليوم".

اندهش خليل من عدد الأشخاص الذين فقدوا أصدقاءً وأقارباً لهم في ذاك الهجوم الذي قتل أقل من مئة شخص، حتى أنه أصبح يشك في ادعاءات أولئك الذي يصرحون بأنهم خسروا مقربين منهم في ذلك الهجوم. وربما كان الآن في حضرة كاذب آخر.

لم يرد خليل أن يتحدث عن معاناته الخاصة من تلك الغارة، ولم يكن ليفصح عن هذا الشيء خارج حدود بلده. لكن بما أن جبار لن يشكل أي خطر أمني بعد فترة وجيزة، بادر خليل بإخباره "لقد قُتلت عائلتي بأكملها في الهجوم".

مكث جبار صامتاً لبرهة، ثم قال "انفطر فؤادي لأجلك يا صديقي".

"أمي، وأختاي، وأخواي".

ساد الصمت مرة أخرى، ليقطعه جبار "نعم، نعم، أذكر هذا. إنها عائلة...".

"خليل".

"نعم، صحيح. كانوا جميعاً شهداء".

استدار جبار لينظر إلى الراكب الذي لن يدفع بدل التنقل معه "سيدي، عسى الله أن ينتقم لمعاناتك. وعساه يلهمك الصبر والسلوان حتى يجمعك بهم جميعاً في الجنة".

واصل جبار مديحه، ودعواته، وتعاطفه، وإشفاقه على أسد خليل.

أما خليل فعاد ليفكر بما حصل في وقت مبكر من هذا اليوم، مرة أخرى اتجه تفكيره نحو الرجل الطويل الذي يرتدي حلته والمرأة في السترة الزرقاء؛ لعلها تعمل معه، فالأميركيون، مثل الأوروبيون، قد خلطوا النساء بالرجال، حتى أصبحن أشبه بالرجال منهن بالنساء، وفي هذا إساءة لله وخلقه. فالمرأة خُلقت من ضلع آدم، كي تكون رفيقته المساعدة، وليس لكي تكون نظيراً مساوياً له.

على أي حال، عندما صعد ذاك الرجل وتلك المرأة على متن الطائرة، تغير الموقف بسرعة. في الحقيقة، لقد فكّر خليل في تجنب ذاك المكان المسمى بنادي الفاتحين - المقر السري للفيدراليين - لكنه كان هدفاً لم يستطع مقاومته؛ متعة دأب

على استطعامها في مخيلته منذ شهر فبراير عندما أفضى بطرس بوجود هذا المكان إلى مالك الذي تحدث بدوره إلى خليل قائلاً "إنه وجبة شهية مغرية لك لدى وصولك، ولكنه ليس بالأمر الجلل. فكّر جيداً، واتخذ قرارك بحكمة. فلتقتل فقط من تستطيع قتله، أو من تستطيع إخفاءه لبعض الوقت".

تذكر خليل هذه الكلمات، ولكنه كان قد قرر أن يجازف بقتل كل من ظنوا أنفسهم أنهم سجّانوه.

نظر خليل إلى ما حدث على متن تلك الطائرة باعتباره أمراً قليل الشأن؛ فالقتل بالغاز طريقة الجبناء، ولكنه جزء من الخطة. أما القنابل التي فجرها في أوروبا فقد أرضته بعض الشيء، بيد أنه قَدّر الرمزية في قتل هؤلاء الناس بطريقة مماثلة للطريقة التي قُتلت بها عائلته على يد الطيارين الأميركيين الجبناء.

أما قتله لضابط القوة الجوية الأميركي بالفأس في إنكلترا فقد أرضاه أعظم الرضا. ما زال يتذكر الرجل وهو يمشي إلى سيارته في ساحة وقوف السيارات المظلمة، وهو يدرك أن شخصاً ما يتبعه. وتذكر أن الضابط التفت نحوه وسأله "هل من أمر أساعدك فيه؟"

ابتسم خليل. نعم، بوسعك مساعدتي أيها العقيد هامبريشت. هذا ما قاله خليل في نفسه، ولكن كل ما قاله للرجل آنذاك كان الغارة الجوية على... ولن ينسى أبداً التعبير الذي ارتسم على وجهه قبل أن يشد خليل الفأس من تحت معطفه، ويهوي على ذراع الرجل بنصله، فقطعها تقريباً. ثم أخذ خليل وقته في قطع أطراف الرجل، وتكسير ضلوعه، تاركاً الضربة القاضية نحو قلبه حتى النهاية حتى يتأكد من أنه بلغ أقصى معاناة الألم والعذاب، ولكن دون أن يفقد وعيه. ثم أرسل الفأس إلى عظام القفص الصدري، فانفتح بينما الفأس يمضي ليشق القلب. كان لم يزل لدى الرجل بعض دماء التي أطلقت ذاك التيار الصغير الدافئ الذي تمنى خليل لو استطاع الرجل أن يراه قبل موته.

عمد خليل إلى إخفاء محفظة العقيد هامبريشت وساعة يده، بحيث يبدو الأمر وكأنه حادث سرقة، بالرغم من أنه من الواضح أن القتل بالفأس لا يبدو جزءاً من مجرد سرقة. لكن من شأن هذا أن يثير التساؤلات لدى الشرطة، التي ستضطر إلى وصف الجريمة بأنها حادثة سرقة محتملة، وقد تكون حادثة قتل سياسية.

أما الفكرة التالية التي طرأت على ذهن خليل فكانت لثلاثة من تلاميذ المدرسة الأميركيين في بروكسل، كانوا في انتظار الحافلة. كان من المفترض أن يكونوا أربعة - واحد لكل من إخوته - ولكنهم كانوا ثلاثة فقط في ذلك الصباح، وكانت معهم امرأة يافعة... ربما كانت أماً لأحدهم. أوقف خليل سيارته، وترجل، ثم أطلق الرصاص على صدر ورأس كل منهم، قبل أن يبتسم للمرأة ويعود إلى سيارته وينطلق.

غضب مالك من خليل لأنه ترك بذلك شاهداً حياً رأى وجهه، ولكنّ خليلاً كان على يقين من أن المرأة لن تتذكر شيئاً طوال حياتها سوى الأطفال الثلاثة وهم يموتون بين ذراعيها. وهكذا انتقم لموت أمه.

ذهب تفكير خليل نحو مالك للحظة، فهو ناصحه، وسيده، وبمثابة أب له. أما والد مالك - النُمَير - فكان بطلاً في حرب الاستقلال ضد الإيطاليين، وقد وقع في أسرهم، وشنقوه عندما كان مالك لا يزال طفلاً. ولأنهما يتشاركان فقْدان الأب على يد الكفار، لذا فلقد سعى كلاهما إلى الانتقام، وصار هذا المسعى رباطاً يربط بينهما.

بعد مقتل والده، قرر مالك - والذي بقي اسمه الحقيقي مجهولاً - أن يتقدم ليعمل جاسوساً لحساب البريطانيين ضد الإيطاليين والألمان، حيث راحت جيوش البلدان الثلاثة تقتل بعضها البعض في طول بلاده وعرضها. ثم تجسس مالك على البريطانيين لحساب الألمان، وقد أسفرت جاسوسيته المزدوجة عن مذبحة هائلة. ولدى وصول الأميركيين، وجد مالك صاحب عمل جديد وثق به. وتذكر خليل يوماً أخبره فيه مالك عن حادثة قاد فيها الدورية الأميركية حتى أوقعها في كمين ألماني، ثم عاد إلى الخطوط الأميركية، وأخبرهم عن موقع الكمين الألماني.

كان خليل مبهوراً بازدواجية مالك والخسائر التي يحدثها في أرواح الأعداء، دون أن يطلق رصاصة واحدة بنفسه.

تلقى أسد خليل تدريبه على الفنون القتالية على يد العديد من الرجال الجيدين، ولكن مالك هو الذي علمه كيف يفكر، وكيف يتصرف، وكيف يخدع، ويفهم العقلية الغربية، وكيف يستخدم تلك المعرفة في الانتقام لكل المؤمنين، والذين قُتلوا عبر البلاد على يد الكفّار.

قال مالك لأسد خليل ذات يوم "لديك قوة وشجاعة الأسد. ولقد تعلمت كيف تقتل بسرعة وشراسة الأسد. وسأعلمك كيف تكون مخادعاً كالأسد. فبدون الخداع يا أسد، سرعان ما ستصبح شهيداً".

لقد كبر مالك في السن الآن، فلقد تجاوز السبعين عاماً؛ عاش طويلاً بما يكفي لكي يشهد العديد من انتصارات الإسلام على الغرب. ولقد أخبر خليلاً ذات يوم قبل سفره إلى باريس "ستصل إلى أميركا إن شاء الله، وسيسقط أمامك أعداء الله وأعداء القائد. لقد اختارك الله لهذه المهمة، وسيرعاك حتى عودتك. لكن يجب أن تكون أنت أيضاً في عون الله ما استطعت، وذلك بأن تتذكر كل ما تعلمته وما تدربت عليه. لقد منحك الله أسماء أعدائك لتذبحهم. فليكن الانتقام دافعك، ولكن لا تدع الكراهية تعمي عينيك. فالأسد لا يكره، بل يقتل فقط من يهددونه أو يعذبونه. كما أن الأسد يقتل عندما يجوع، وروحك جائعة منذ تلك الليلة التي سُلبت منك عائلتك فيها. إن دماء أمك تناديك يا أسد، ودماء عصام، وقادر، وأدارا، ولينا الأبرياء. كلها تناديك. وأبوك - كريم - الذي كان صديقي، أعرف أنه ينظر إليك من فردوسه. فلتذهب يا بني، ولتعد منتصراً. سأكون هنا في انتظارك".

شعر خليل بالدموع تكاد تملأ عينيه بينما كان يسترجع كلمات مالك، سكن هادئاً بينما سيارة الأجرة تتقدم وسط الزحام وشرع يفكّر، ويدعو الله ويشكره على توفيقه له حتى الآن. لم يكن لديه شك أنه كان في بداية النهاية لهذه الرحلة الطويلة التي بدأت على سطح ذاك المبنى.

أعادت له فكرة هذا السطح ذكرى سيئة لديه - ذكرى بهيرة - وحاول جاهداً أن يُبعد الفكرة عن رأسه، ولكنّ وجهها ظل يحتل مخيلته في إصرار. كانوا قد عثروا على جثتها بعد أسبوعين من تاريخ تلك الغارة الجوية، وكان متحللاً بشدة، بحيث لم يفطن أحد إلى كيفيّة موتها، ولم يستطع أحد تخمين ماذا كانت تفعل على سطح ذلك المبنى.

تخيل أسد خليل - في سذاجته - أن السلطات ستربط بينه وبين موت بهيرة، وعاش في خوف مضنٍ من أن يتهموه بالزنا، والقتل. بيد أن هؤلاء الذين كانوا من حوله فسروا حالته المضطربة بالحزن البالغ لفقدانه أسرته. بالطبع كان الحزن يعتصر قلب خليل، إلا أن خوفه من أن يُفصل رأسه عن جسده كان أشد. لم يكن يهاب الموت بحدّ ذاته - ظل يكرر لنفسه- بل هي الميتة المخزية، والموت الذي سيحول دون أن يقوم بمهمة الانتقام خاصته.

لكنهم لم يأتوا لقتله، بل لتعزيته واحترامه، حتى أن القائد حضر الجنازة بنفسه، كما حضر خليل جنازة ابنة القائد بالتبني ذات الثمانية عشر شهراً، والتي لاقت حتفها في تلك الغارة الجوية. كما قام خليل بزيارة زوجة القائد في المستشفى، والتي جُرحت في تلك الليلة، وكذلك اثنين من أولاده، ولقد تعافوا جميعاً. الحمد لله.

بعد أسبوعين حضر جنازة بهيرة، ولكن ما لبث بعد عدة جنائز أخرى أن تخدرت مشاعره، فلم يعد يشعر بالحزن أو الذنب.

فسر أحد الأطباء موت بهيرة بأنه من جرّاء القصف، أو ربما الخوف، ومن ثم انضمت إلى قافلة الشهداء. ولم يجد أسد خليل مبرراً للاعتراف بأي شيء من شأنه أن يشوه ذكراها أو يسبب الأذى لعائلتها.

أما في ما يتعلق بآل نادر، فإن حقيقة أنهم جميعاً قد نجوا من الحادث قد دفعت خليلاً إلى أن يشعر بالغضب تجاههم، أو لعله الحسد. ولكن عسى موت بهيرة أن يشعرهم بطعم فقدان شخص عزيز عليهم. في الواقع، إن أسرة نادر كانت خير عون له بعد المأساة المشتركة، ولقد عاش معهم لفترة تعلم فيها - بالعيش معهم واقتسامه طعامهم - كيف يقهر شعوره بالذنب والخزي لقتله ابنتهم. فما حدث فوق ذاك السطح كان خطأ بهيرة وحدها، ومن حسن حظها أن تُلقب بالشهيدة بعد فعلتها المخزية الوقحة.

نظر خليل عبر النافذة ورأى بناء ضخماً أمامه، فسأل جبار "ما هذا؟"

"اسمه جسر فيرازنو. سيأخذنا إلى جزيرة ستاتن ثم نعبر جسراً آخر إلى نيوجيرسي. الماء كثير هنا والجسور عديدة". كان قد قام بتوصيل العديد من أهل بلده على مرّ السنين - مهاجرون، ورجال أعمال، وسواح - وبعضهم في مهام خاصة مثل هذا الرجل - أسد خليل - في المقعد الخلفي. وغالبية أبناء بلده الذين أتوا إلى هذا المكان قد انبهروا بالبنايات الشاهقة، والجسور، والطرقات السريعة، والمساحات الخضراء. إلا أن هذا الرجل لم يبدُ مندهشاً ولا معجباً بما يراه، ربما كان فضولياً فحسب. قال موجهاً حديثه لخليل "أهذه زيارتك الأولى لأميركا؟"

"نعم، والأخيرة كذلك".

مضت السيارة تعبر الجسر الطويل، وفي منتصفه قال جبار "إذا نظرت في هذا الاتجاه إلى اليمين يا سيدي سترى مانهاتن السفلى، ويطلقون عليها اسم *المنطقة المالية*، وبوسعك أن ترى البرجين الشاهقين المتماثلين".

نظر خليل صوب البنايات الهائلة في مانهاتن السفلى التي بدت وكأنها ترتفع من قلب الماء. ثم رأى برجي مركز التجارة العالمي، وأدرك لماذا أفردهما جبار في حديثه، وقال "ربما في المرة القادمة".

أجاب جبار مبتسماً "إن شاء الله".

في الحقيقة كان جبار يرى في قصف البرجين أمراً مروَّعا، ولكنه كان يعرف ماذا يجدر به قوله، ولمن. والحقيقة أيضاً أنه لم يكن يشعر بالارتياح نحو هذا الرجل في المقعد الخلفي بالرغم من أنه لم يجد لهذا سبباً محدداً. ربما كانت عيناه. ثم طالت فترة وجودهما معاً في السيارة ولم يتحدثا إلا قليلاً، ثم ساد الصمت. عادة لا ينقطع الحديث اللطيف عندما يركب معه أي رجل عربي، إلا هذا الرجل، كان الحديث معه صعباً بحق، حتى الغرباء يتحدثون معه أكثر مما يفعل ابن بلده هذا.

خفف جبار من سرعة سيارته فيما كان يقترب من أكشاك تسديد الرسوم إلى الجانب من جزيرة ستاتن، وقال مسرعاً "إنها ليست قوات شرطة أو تفتيش. عليّ فقط أن أدفع لهم رسوم استخدام الجسر".

ضحك خليل وأجابه "أعرف هذا، لقد قضيت بعض الوقت في أوروبا. أتظن أنني قَبَلِيّ أميّ آتٍ من الصحراء؟"

"كلا يا سيدي، لكن أحياناً يصاب أبناء بلدنا بالتوتر هنا".

"في الحقيقة، إن قيادتك السيئة هي الشيء الوحيد الذي يصيبني بالتوتر هنا".

وضحك الرجلان.

"لديّ ترخيص إلكتروني يسمح لي بالعبور عبر الأكشاك دون الوقوف والدفع. ولكن، في حال كنت تفضل ألا يتم تدوين عبورنا هذا، سيتحتم علينا أن أقف لدفع الرسوم".

لم يكن خليل يرغب في تسجيل هذا العبور، ولا أن يقترب من الكشك وبداخله رجل شرطة. كان يعرف أن التسجيل هذا سيبقى في السجلات وقد يتم استغلاله في تتبع مساره حتى نيوجيرسي خاصة عندما يجدون جباراً مقتولاً في سيارته، قطعاً سيربطون هذا بأسد خليل. "توقف وادفع".

وضع خليل جريدة إنكليزية أمام وجهه بينما كان جبار يبطئ سيارته فيما يقترب من الطابور القصير نحو الكشك.

دفع جبار بسيارته إلى الكشك، وسدد الرسوم دون أن يتبادل كلمة واحدة مع الرجل الذي تقاضى منه المال، ثم أسرع إلى الطريق السريع الواسع.

أنزل خليل الصحيفة. لم يبدأوا البحث عنه بعد، أو لم يرسلوا بالتحذيرات إلى هذه المناطق البعيدة عن المطار. وتساءل ما إذا كانوا قد اكتشفوا أن جثة يوسف حداد على متن الطائرة ليست جثة أسد خليل. لقد اختير حداد كمساعد له على أساس الشبه الطفيف بينهما، وتساءل أيضاً ما إذا كان حداد قد خمّن مصيره من قبل.

كانت الشمس منخفضة في الأفق، وسيحل الظلام في غضون ساعتين، وكان خليل يفضل الظلام في الجزء القادم من رحلته.

كانوا قد أخبروه أن أجهزة الشرطة الأميركية متعددة، ومجهزة بشكل جيد، وأن صورته وأوصافه ستكون لدى الجميع في غضون نصف ساعة من تركه المطار. ولكنهم أخبروه أيضاً أن السيارة هي أفضل وسيله لفراره. كان هناك العديد منهم ليوقفوه ويفتشوا عنه، على خلاف ما يحدث في بلاده. كان على خليل أن يتجنب كل نقاط الوقوف؛ المطارات، ومحطات الحافلات والقطارات، والفنادق، ومنازل أبناء بلده، وبعض الطرقات، والجسور، والأنفاق حيث أكشاك الرسوم تلك، أو حيث من الممكن أن تكون صورته معلّقة لدى رجال الشرطة. كان هذا الجسر إحدى تلك المناطق. ولكنه كان متأكداً من أن السرعة التي هرب بها من المطار قد ساعدته على النفاذ من الشبكة التي لم تمتد بعد إلى كل المناطق. حتى لو أحكموها حول نيويورك، فلا بأس، فقد عبر تلك المنطقة بالفعل ولن يعود إليها. ولو أنهم وسّعوا نطاق الشبكة، وبالتأكيد سيفعلون، فسيكون بها العديد من الثغرات التي يمكنه النفاذ منها في أي وقت في رحلته. العديد من رجال الشرطة، صحيح، ولكن العديد من البشر أيضاً.

قال له مالك "قبل عشرين عاماً، كان يمكن ملاحظة وجود عربي على أرض أميركية. أما اليوم، فقد تمضي غير ملحوظٍ حتى في بلدة صغيرة. فالشيء الوحيد الذي يلحظه الأميركي هو المرأة الجميلة". وضحكا معاً على هذا. "والمرأة الأميركية لا تهتم إلا بما ترتديه النساء الأخريات، والبضائع في واجهات المتاجر".

غادرا الطريق السريع إلى طريق سريع آخر، متوجهين جنوباً، ولقد ظل السائق يسير بالسرعة القانونية، وسرعان ما رأى خليل جسراً آخر يرتفع أمام عينيه.

قال جبار "لا توجد رسوم من هذا الاتجاه فوق هذا الجسر. وعلى الجانب الآخر منه تمتد ولاية نيوجيرسي".

لم يجبه خليل، كان تفكيره مشغولاً بالطريقة التي استطاع الهرب فيها من المطار. *السرعة*؛ هكذا أخبروه في مقر المخابرات، *السرعة*. عادة ما يتحرك اللاجئون ببطء وحذر، فيتم التعرف عليهم والإمساك بهم. تحرك بسرعة، وبساطة، وجرأة. ادفع بنفسك داخل سيارة الأجرةِ

وامضِ. لن يوقفك أحد طالما أن السائق لا يمضي مسرعاً أو متباطئاً أكثر من اللازم. اسأل السائق هل تعمل أضواء مكابحه وإشاراته بشكل جيد، فقد توقفك الشرطة الأميركية لأي من هذه الأسباب. ولتجلس على المقعد الخلفي من سيارة الأجرة، حيث ستجد جريدة إنكليزية. كافة السائقين على دراية بقوانين القيادة الأميركية. وجميعهم مرخصين كسائقي سيارات أجرة".

تابع مالك تعليماته لخليل قائلاً "وفي حال أوقفتك الشرطة لأي سبب، تصرف وكأن لا علاقة لك بالأمر. فقط ابقَ جالساً في السيارة ودع السائق يتحدث. معظم رجال الشرطة الأميركيين يتحركون بمفردهم، وإذا تحدث إليك رجل الشرطة أجب بالإنكليزية في احترام بالغ، ولكن دون خوف. فلن يعمد رجل الشرطة إلى تفتيشك أو تفتيش السائق أو الشاحنة دونما سبب قانوني. هذا هو القانون الأميركي. وحتى إن فتّش السيارة، فلن يقوم بتفتيشك، إلا إذا كان متأكداً من أنك رجل يبحث عنه. وإذا طلب منك أن تترجل، فاعلم أنه ينوي تفتيشك. عندها، انزل من السيارة، واسحب سلاحك، واقتله، فهو لن يضع يداً على سلاحه حتى يتأكد من أنك أسد خليل. ولو آلت الأمور إلى هذا، فليحمِك الله. وتأكد من أن ترتدي سترتك الواقية من الرصاص التي سيعطونك إياها في باريس لحمايتك من القتلة، فاستخدمها ضدهم. استخدم أسلحة الفيدراليين ضدهم يا خليل".

أومأ خليل لنفسه. لقد كانوا شديدي الدقة في بلده. ربما كان جهاز مخابرات القائد صغير الحجم، لكنه ممول جيداً، ومدرب من قبل المخابرات الروسية، والروسيون الذين لا ملة لهم واسعو الاطلاع، ولكنهم لا يؤمنون بشيء، ولهذا انهارت دولتهم على نحو مفاجئ وتام. إلا أن القائد ما زال يستخدم رجال المخابرات الروسيين السابقين، فيستأجرهم لخدمة مقاتليه. حتى خليل نفسه قد تلقى جزءاً من تدريبه على يد الروسيين وبعض البلغاريين وحتى بعض الأفغانيين ممن دربهم الأميركيون لقتال الروسيين. كانت العملية أشبه بالحرب التي قاتل فيها مالك بين الألمان والإيطاليين من جهة، والبريطانيين والأميركيين من جهة أخرى. لقد قاتل الكفار بعضهم البعض، بينما كانوا يدربون المقاتلين الإسلاميين لمساعدتهم، وهم غير مدركين أنهم يبذرون بذور دمارهم الأكبر.

عبر جبار الجسر، وانعطف بالسيارة بعيداً عن الطريق السريع إلى شارع سكني بدا - حتى لخليل - أنه حي فقير. "ما هذا المكان؟"

"بيرث أمبوي".

"وكم تبقى لنا من الزمن؟"

"عشر دقائق يا سيدي".

"وما من مشكلة إذا ما لوحظت السيارة في الولاية الأخرى؟"

"كلا، لنا حرية التنقل من ولاية إلى أخرى. فقط إذا ابتعدت كثيراً عن نيويورك يمكن أن يلاحظ أحدهم وجود سيارة أجرى بعيدة عن المدينة. فالسفر مسافة طويلة في سيارة أجرة مكلف جداً. ولكن لا عليك بالطبع من عداد السيارة هذا، فأنا أبقيه يعمل طبقاً للقانون ليس إلا".

"هناك الكثير من القوانين الصغيرة هنا".

"نعم، ويجب أن تتبع القوانين الصغيرة حتى تستطيع خرق القوانين الكبيرة بسهولة".

مرة أخرى ضحك الرجلان.

أخرج خليل محفظته من جيب سترته الرمادية الداكنة التي أعطاها له جبار، وتفقد جواز سفره، بصورته التي ارتدى فيها نظارته، وذاك الشارب القصير أسفل أنفه. كانت صورة لطيفة، ولكنه كان قلقاً بشأن ذلك الشارب. قالوا له في بلاده حين التقطوا له هذه الصورة "سيعطيك يوسف حداد شارباً مستعاراً ونظارة، وهما أداتا تنكر بالغتا الأهمية، ولكن في حال عمدت الشرطة إلى تفتيشك فسيختبرون شاربك، وإذا ما وجدوه مزيفاً سيعرفون أن كل الأشياء الأخرى مزيفة".

وضع خليل أصابعه على شاربه، وضغط عليه. كان مثبتاً بشكل جيد، ولكن ليس من الصعب اكتشاف أنه مستعار. على أي حال، لم يكن ينوي ترك رجال الشرطة ليقتربوا منه إلى هذا الحدّ.

كان يحتفظ بالنظارة التي أعطاها له حداد في جيبه. ولم يكن خليل في حاجة إلى ارتداء نظارة، ومن ثم كانت هذه نظارة ثنائية البؤرة بحيث يستطيع الرؤية من خلالها، واستخدامها للقراءة أيضاً. عاود خليل النظر إلى جواز سفره، وكان اسمه المذكور فيه هو حنفي بدر، مصري الجنسية. كان هذا جيداً، فلو تم استجوابه من قِبل عربي-أميركي يعمل لدى الشرطة الأميركية، يمكن أن يدّعي أنه مصري بسهولة. وكان خليل قد أمضى عدة شهور في مصر، ومن ثم كانت لديه الثقة بأنّه يستطيع إقناع حتى العربي-الأميركي بجنسيته.

ذكر جواز السفر أنه مسلم، وأنه يعمل كمعلم، وهو أمر يمكن أن يدّعيه بسهولة، وأنه من ساكني محافظة المنيا المصرية الواقعة على النيل، والتي يعرف عنها الأوروبيون - وحتى المصريون - القليل. لكنّ خليلاً كان قد أمضى بها شهراً تحديداً بغرض تعزيز أسطورته تلك.

نظر خليل إلى داخل المحفظة، فوجد في داخلها خمسمئة دولار أميركي، ولم يكن هذا بمبلغ كبير بحيث يجذب الأنظار، ولكنه كان كافياً بحيث يَفي باحتياجاته. كما وجد بعض الأموال بالعملة المصرية، وبطاقة هوية مصرية داخلية، وبطاقة ائتمان أميركان اكسبرس باسمه المستعار، لقد أخبرته المخابرات أن هذه البطاقة ستعمل على كافة ماسحات البطاقات الائتمانية الأميركية.

كما وجد في جيب سترته رخصة قيادة دولية باسم حنفي بدر، بنفس صورة جواز السفر.

كان جبار ينظر إليه في مرآته الأمامية، وقال لخليل "هل كل شيء معد وفقاً للترتيب يا سيدي؟"

"لكم أتمنى لو لم أضطر للتأكد".

مرة أخرى، ضحك الرجلان.

أعاد خليل كل الأشياء إلى جيب سترته، وشعر أن بوسعه خداع أي شرطي عادي إذا أوقفه في أي وقت. ولكن لماذا يهتم بتمثيل هذا الدور؟ فبغض النظر عمّا أخبروه به في بلاده، فإن أول رد فعل له - وليس الأخير - هو رفع مسدسيه وقتل أي شخص قد يمثل تهديداً له.

فتح خليل حقيبة السفر الكبيرة التي وضعها جبار من أجله على المقعد الخلفي وراح يفتش فيها؛ مستلزمات العناية الشخصية، وملابس داخلية، وبعض ربطات العنق، وقميص رياضي، وقلم، ومفكرة، وعملات أميركية، وكاميرا من النوع الرخيص الذي يستخدمه السائحون، وزجاجتان من المياه المعدنية، ومصحف صغير الحجم مطبوع في القاهرة.

لم يكن في الحقيبة ما قد يثير حوله أي شبهات؛ لا أشياء مكتوبة بشكل يخفيها عن الأعين، ولا صور مصغرة، ولا حتى مسدس جديد. كان خليل يحتفظ في رأسه بكل ما كان يحتاج لمعرفته وسيتم تزويده بكل ما يحتاجه طوال رحلته. والشيء الوحيد الذي كان يربطه كحنفي بدر بأسد خليل هو مسدسا الفيدراليين. طلبوا منه في بلده أن يتخلص من السلاحين في أقرب فرصة وسيحصل على سلاح آخر في سيارة الأجرة، ولكنه أجابهم بقوله "وما الفارق الذي سيصنعه هذا لو أوقفوني؟ بل أفضل لو استخدمت سلاح العدو حتى أنهي مهمتي أو حتى أموت". لم يناقشوه في هذا، ولم يكن هناك سلاح في الحقيبة السوداء.

شيئان في الحقيبة كانا يشكلان نوعاً من التهديد بالنسبة له. الأول أنّ أنبوب معجون الأسنان كان يحتوي في الحقيقة على مثبت لشاربه، والآخر كان علبة مسحوق للأقدام؛ منتج مصري أكسبوه صبغة رمادية. لفّ خليل غطاء هذه العلبة، ورش بعض محتوياتها على شعره، ثم شرع يمشطه وكأنه ينظر إلى نفسه في مرآة يدوية صغيرة. كانت النتيجة مذهلة، فقد تحول شعره الأسود الفاحم إلى شعر رمادي، ثم صففه بحيث أصبح بعضه إلى الجانب الأيسر، ثم وضع نظارته، قبل أن يتوجّه إلى جبار سائلاً إياه "حسناً، ما رأيك؟"

نظر إليه جبار في المرآة، وقال ضاحكاً "أوه، ماذا حل بالمسافر الذي اصطحبته من المطار؟ ماذا فعلت به يا سيد بدر؟"

ضحكا، ثم أدرك جبار أنه ما كان يجب عليه أن يلفت النظر إلى أنه يعرف الاسم المستعار للرجل في المقعد الخلفي، فالتزم الصمت. وعندما نظر في المرآة مرة أخرى، رأى عيني خليل المظلمتين تحدقان فيه.

أدار خليل رأسه لينظر عبر النافذة وكانا في تلك المنطقة التي بدت أقل رخاءً من أي منطقة أوروبية أخرى سبق وأن رآها، على الرغم من العديد من السيارات الفاخرة المركونة في الشوارع، مما أدهشه.

قال جبار ”انظر يا سيدي، هذا هو الطريق السريع الذي ستقود سيارتك عليه، واسمه نيوجيرسي تيرنبايك. وهذا هو مدخل الطريق السريع... هناك. ستأخذ تذكرة من الماكينة، ثم تدفع رسوماً لدى خروجك. والطريق السريع يمتد إلى الشمال والجنوب، فاحرص على أن تختار الاتجاه الصحيح“.

لاحظ خليل أن جبَّارا لم يسأله عن وجهته المسافر إليها. كان جبار قد فهم أنه كلما قلّ حجم معرفته، كلما كان هذا أفضل للجميع. لكن في الحقيقة كان جبار يعرف بالفعل أكثر مما يجب.

توجّه خليل إلى جبار بالسؤال ”أتعرف ما الذي حدث في المطار اليوم؟“

”أي مطار يا سيدي؟“

”ذلك الذي أتينا منه“.

”كلا، لا أعرف“.

”حسناً، ستسمع عمّا حدث في المذياع“.

لم يجب جبار.

فتح خليل إحدى زجاجتي المياه المعدنية، وشرب نصفها، ثم سكب بقيتها فوق الأرض.

ثم اندفعا إلى موقف سيارات ضخم، وقد عُلقت عليه لافتة تقول ”اركن واركب“، فأوضح جبّار قائلاً ”يقود الناس سياراتهم إلى هنا ثم يستقلون الحافلة إلى مانهاتن، إلى المدينة. ولكن اليوم هو السبت، فلن تجد الكثير من السيارات“.

نظر خليل حوله في المساحات المحاطة بسور من السلاسل. كان هناك نحو خمسين سيارة مصطفة ضمن خطوط بيضاء، بيد أن مساحة الوقوف تلك كانت تتسع لمزيد من المئات، كما لاحظ أنه لم يكن هناك أناس على مرمى البصر.

أوقف جبار سيارته في مكان الوقوف، وقال ”هناك يا سيدي. أترى السيارة السوداء تلك، أمامك مباشرة؟“

اتبع خليل مسار نظر جبار إلى حيث ركنت سيارة سوداء على بعد بضعة صفوف منهما. ”نعم“.

قال جبار ”إليك مفاتيحها؟“ ووضع المفاتيح على المقعد دون أن ينظر إلى خليل، ثم قال ”ستجد كافة مستندات استئجار السيارة في صندوق السيارة. والسيارة مستأجرة بنفس الاسم الموجود في جواز سفرك لمدة أسبوع، وعليه فبعد مرور أسبوع ستنزعج الوكالة صاحبة السيارة. تم استئجار السيارة في مطار نيوارك، في نيوجيرسي، والرخص صادرة من نيويورك إلا أن هذا ليس بالأمر الهام. هذا هو كل ما أُمرت أن أخبرك به يا سيدي. ولكن إذا أردت، يمكنني اصطحابك إلى الطريق السريع“.

”لا ضرورة لذلك“.

"بارك الله في مهمتك يا سيدي، وأسأله أن تعود سالماً إلى وطننا".

كان خليل يحمل بالفعل مسدسه الغلوك، عيار 40، فوضع فوهته في فتحة الزجاجة البلاستيكية الفارغة ودفع بقاعها نحو مؤخر مقعد السائق، وأطلق رصاصة عبر ظهر المقعد إلى أعلى العمود الفقري لجمال جبار، ففي حال أخطأت الرصاصة العمود الفقري لم تكن لتخطئ القلب من الخلف، ولقد غطّت الزجاجة البلاستيكية صوت انفجار الرصاصة.

ترنح جسد جبار نحو الأمام، إلا أن حزام مقعده أبقاه منتصباً.

انبعث الدخان من عنق الزجاجة ومن فتحة قاعها التي خرجت منها الرصاصة، أحب خليل رائحة البارود المحترق، وراح يستتشقها وهو يقول "أشكرك على الماء".

فكّر خليل أن يطلق رصاصة أخرى، ولكنه لاحظ جسد جبار وقد شرع يهتز على نحو لم يكن الرجل ليدعيه. فانتظر خليل نصف دقيقة، استمع فيها إلى حشرجة جبار وهو يموت.

وبينما هو ينتظر موت جبار، وجد خليل غلاف الرصاصة الفارغ فأخذه ووضعه في جيبه، ثم وضع الزجاجة البلاستيكية في حقيبة سفره.

أخيراً توقف جسد جمال جبار عن الارتعاش، والحشرجة، والتنفس، وسكن.

نظر خليل حوله ليتأكد أنه كان وحيداً في ذلك الموقف، ثم انحنى فوق مقعد السائق، وبسرعة التقط محفظة جبار من جيبه، ثم حل حزام المقعد، ودفع بالجسد أسفل لوحة العدادت. ثم أطفأ المحرك، وسحب المفتاح.

بعدها، أخذ أسد خليل حقيبته، وخرج من سيارة الأجرة تلك، وسار في اتجاه السيارة السوداء، كان اسمها ميركوري ماركوس. كانت المفاتيح ملائمة تماماً، ومن ثم دلف إلى السيارة، وشغل المحرك، متذكراً حزام مقعده. اندفع خليل من موقف السيارات الهادئ إلى الشارع.

الفصل التاسع عشر

في ردهة مبنى 26 فيدرال بلازا، قابلَنا - أنا وكيت وتيد - رجل يُدعى هال روبرتس.

عندما يقابلك شخص ما في ردهة مبنى عملك، فهذا إما تشريف لك، أو دلالة على أنك في مشكلة. ولما لم يكن السيد روبرتس مبتسماً، فطنت إلى أن الرجل في استقبالنا ولكن ليس ليعطينا شهادات تقدير.

دلفنا إلى المصعد، واستخدم روبرتس مفتاحه للطابق الثامن والعشرين، حيث صعدنا في صمت.

المبنى 26 فيدرال بلازا هو مقر العديد من الوكالات الحكومية المختلفة؛ معظمها لا تتعدى كونها وكالات من أكلة الضرائب، وليست مؤذية. ولكن الوكالات المتواجدة في الطوابق من الثاني والعشرين وحتى الثامن والعشرين مؤذية بحق، ولا يمكن الوصول إليها باستخدام مفتاح واحد. كانوا قد أعطوني مفتاحاً لدى تعييني، ثم قال الرجل الذي أعطاني إياه "فلتطبع بصمة إبهامك هنا من فضلك؛ قد تنسى مفتاحك أو تفقده، ولكنك لا تفقد إبهامك أبداً". ولكن الوقائع أظهرت أنك قد تفقد إبهامك.

إنني أعمل في الطابق السادس والعشرين، مع بعض رجال مديرية شرطة نيويورك السابقين، وآخرين ممن ما زالوا في الخدمة، بالإضافة إلى بعض مرتدي الحُلاّت، كما يطلق رجال الشرطة على المحققين الفيدراليين. وهذا خطأ في التسمية حيث العديد من رجال مديرية شرطة نيويورك يرتدون الحُلاّت أيضاً، بينما ثلث المحققات الفيدراليات تقريباً لا يرتدينها. غير أنني تعلمت منذ زمن طويل ألاّ أشكك في مصطلحات الهيئة؛ ففي هذه المفردات إشارة إلى عقليات الناس الذين يعملون هناك.

على أي حال، وصلنا إلى الطابق حيث وجهتنا، وحيث قادونا إلى مكتب في الجهة الجنوبية الشرقية. كان الاسم المعلق على باب المكتب هو جاك كوينج، والمعروف باسمه وصفته الملك جاك. أما مسماه الوظيفي الفعلي فهو العميل الخاص المسؤول، كان مسؤولاً عن وحدة مكافحة الإرهاب بأكملها، وقد امتدت مساحة مسؤوليته لتغطي خمسة أقسام إدارية في مدينة نيويورك، ومدينتي نيوجيرسي وكونيكتكت المحيطتين، بالإضافة إلى الريف القريب من نيويورك ومدينتي لونغ أيلاند؛ ناسو وسافلوك. وفي تلك المدينة الأخيرة - الواقعة على الطرف الشرقي من لونغ أيلاند - كنت قد قابلت السير تيد والسير جورج للمرة الأولى؛ الفارسان الضالان اللذان اكتشفت حماقتهما في ما بعد. على أي حال، ما من شك في أن الملك جاك لم يكن ليرضى بفشل المهام في مملكته.

كان لدى صاحب السمو مكتب ومنضدة كبيران، بالإضافة إلى أريكة وثلاثة مقاعد ملتفة حول منضدة صغيرة، ورفوف اصطف فوقها بعض الكتب، ومنضدة

ومقاعد آرثرية الطراز، ولكن، لم يكن هناك عرش.

لم يكن جلالته موجوداً، وخلت السيد روبرتس يقول "ارتاحوا كما لو كنتم في منازلكم. بوسعكم وضع أرجلكم فوق المنضدة أو الاستلقاء فوق الأريكة إن أردتم". في الحقيقة، لم يقل السيد روبرتس أيًّا من هذا، فكان كل ما قاله "انتظروا هنا". ثم رحل.

كنت أتساءل إذا ما كانت هناك فرصة لأذهب إلى مكتبي وأتفقد عقد العمل الخاص بي.

من الجدير بالذكر أنه نظراً لكونها وحدة مشتركة لمكافحة الإرهاب، فقائد شرطة مدينة نيويورك يتقاسم القيادة مع جاك كوينج، واسمه ديفيد ستين؛ وهو يهودي رفيع المقام، حاصل على درجة علمية في القانون، وهو في نظر مفوضية الشرطة رجل من الحكمة بحيث يستطيع الوقوف أمام الفيدراليين بدرجاتهم العلمية العالية جداً. وطبيعة عمل النقيب ستين قاسية بحق، لكنه رجل بارع، وحاد، ودبلوماسي بحيث يُرضي الفيدراليين فيما يحمي مصالح رجال ونساء مديرية شرطة نيويورك الذي يُعد مسؤولاً عنهم. أما الأفراد من أمثالي - العملاء من رجال شرطة نيويورك السابقين - فيقعون في المنطقة الرمادية، حيث لا يعتني أحد بمصالحهم، ولكنني في الوقت نفسه لا أعاني من مشكلات مع الضباط المهنيين، فالمسألة متساوية.

على أي حال، في ما يتعلق بالنقيب ستين، فهو رجل سابق في وحدة الاستخبارات، وقد عمل في العديد من القضايا التي تتضمن متطرفين، بما في ذلك مقتل الحَبَر مير كاهني، ومن ثم فهو يليق تماماً بهذه المهمة.

ليس لأنه يهوديّ، ولكن لمشكلته الشخصية مع المتطرفين.

بالطبع وحدة مكافحة الإرهاب تشمل كافة المنظمات الإرهابية، ولا يستلزم الأمر أن تكون عالماً في الصواريخ حتى تكتشف أين تكمن البؤرة.

على أي حال، كنت أتساءل عمّا إذا كنت سأرى النقيب ستين في تلك الليلة؛ فقد كنا بحاجة إلى شرطي آخر في هذه الغرفة.

قام كل من كيت وتيد بوضع حقيبتي الفيدراليين فيل وبيتر على المنضدة المستديرة دون تعليق، وتذكرت أوقات اضطررت فيها إلى أخذ دروع، وإشارات، وأسلحة رجال كنت أعرفهم لإعادتها إلى الدائرة الفيدرالية. الأمر لا يختلف عندما كان المحاربون القدامى يأخذون سيوف ودروع زملائهم الذين سقطوا من بينهم ليحضروها إلى أرض الوطن. لكن في حالتنا تلك، كانت الأسلحة مفقودة. ثم فتحت الحقيبتين للتأكد من وجود الهواتف المحمولة، وكم هو أمر مزعج أن يدق هاتف شخص ميت.

أما في ما يتعلق بجاك كوينج، فقد قابلته مرة واحدة عندما عُيّنت، ووجدته رجلاً متقد الذكاء، والهدوء، والحكمة. كان يُعرف بصلابته، وبذاك الجانب التهكمي فيه، وقد راق لي ذلك كثيراً. تذكرت قوله لي بمناسبة أستاذيتي في جون جاي "إن من يستطيع فعل هذا، لا يستطيع التدريس". فأجبته "إن من تلقى ثلاث رصاصات

بينما هو يؤدي عمله، ليس بحاجة إلى التبرير لدى عمله الثاني". بعد لحظة من الصمت المهيب، ابتسم وقال "أهلاً بك في وحدة مكافحة الإرهاب".

بالرغم من الابتسامة والترحيب، كان لدي انطباع بأن الرجل قد انزعج مني على نحو ما، ولكن أظنه قد نسي ذلك.

وقفنا داخل المكتب بسجادته الزرقاء الفاخرة، وألقيت نظرة نحو كيت وقد بدت قلقة بعض الشيء، ثم نظرت إلى تيد ناش الذي - بالطبع - لم يكن لينظر إلى جاك كوينج باعتباره العميل الخاص المسؤول؛ فرجل الاستخبارات ورؤساؤه مقرهم هناك عبر الشارع، في 290 برودواي، وأنا على استعداد للتضحية براتب شهر كامل لأرى تيد قيد الاستجواب هناك، إلا أن ذلك لن يحدث على الإطلاق.

بالمناسبة، بعض رجال وحدة مكافحة الإرهاب لديهم مقر في 290 برودواي، وهو مبنى أحدث وأجمل من فيدرال بلازا، وتسري الإشاعات بأن الفصل بين القوات ليس نتاج مشكلة المساحة الإدارية، بل خطة استراتيجية في حال قرر أحدهم اختبار قدراته الكيميائية المتقدمة في إحدى الأبنية الفيدرالية. ولكن - بصفة شخصية - أظن أنه نوع من التخطيط الأحمق، وأن هذه الإدارة تعرض نفسها للوصم بالغباء من قِبل الجهات الأمنية العليا.

وفي حال كنت تتساءل لماذا مكث كل من تيد، وكيت، وجون صامتين بلا حديث، فذلك لأن المكتب كان قيد التنصت. فعندما يُترك فردان - أو أكثر - بمفردهما في مكتب أحدهم، فلك أن تتوقع أن يكون المكتب مذاعاً على الهواء مباشرة. وللمساعدة في اختبار أجهزة التصنت - على طريقة واحد، اثنان، ثلاثة - قلت "مكتب أنيق. لدى السيد كوينج ذوق رفيع بحق".

إلا أن تيد وكيت تجاهلاني.

نظرت إلى ساعتي، فوجدتها تشير إلى قرابة السابعة مساءً، وخمنت ألا يكون السيد كوينج سعيداً باضطراره العودة إلى المكتب مساء السبت. وأنا أيضاً لم أكن معجباً بالفكرة، ولكنّ مكافحة الإرهاب عمل متواصل. وكما اعتدنا القول في قسم التحقيق الجنائي "إن يوم عملنا يبدأ فور انتهاء يوم عمل القاتل".

على أي حال، توجهت إلى النافذة، ونظرت صوب الشرق. كانت هذه المنطقة من مانهاتن السفلى تعج بدور العدل، وبالتوغل شرقاً كان هناك مبنى الشرطة بلازا واحد؛ مقر عملي السابق، حيث قضيت أوقاتاً جيدة وأخرى سيئة. ثم بعد مبنى الشرطة تجد جسر بروكلين من حيث جئنا، والذي كان يمتد فوق النهر الشرقي الذي يفصل بين جزيرة مانهاتن وجزيرة لونغ أيلاند.

لم أكن أستطيع رؤية مطار كنيدي من تلك النافذة، بل رأيت فقط وهج أضوائه، ولاحظت في السماء فوق المحيط الأطلسي ما بدا كعقد من النجوم اللامعة؛ مصفوفة من النجوم، ولكنها في الحقيقة لم تكن سوى طائرة تقترب باتجاه المطار. يبدو أنهم أعادوا فتح المدارج.

أما هناك، خارج المطار، إلى الجنوب، فكانت جزيرة إيليس، حيث عبر مئات المهاجرين، بما في ذلك أسلافي الإيرلنديون. ثم إلى الجنوب منها، في منتصف

الخليج، ينتصب تمثال الحرية، مضاءً بالكامل، والسيدة تحمل مشعلها وترحب بالعالم، حيث لا تخلو قائمة سائح منها، ومن الجيد حتى الآن أنها ما زالت تقف هناك.

بشكل عام، كان منظراً مسائياً مدهشاً من هذا الارتفاع؛ المدينة، والجسور المضيئة، والنهر، وسماء نيسان الصافية، وهلال كبير يرتفع إلى الشرق من أراضي بروكلين المستوية.

استدرت، ونظرت صوب الجنوب الغربي عبر النافذة الكبيرة في زاوية المكتب، حيث كان المَعلم الأكثر وضوحاً هو برجا مركز التجارة العالمي التوأمان، وقد ارتفعا إلى مسافة ربع ميل في كبد السماء؛ مئة وعشرة من الطوابق المصنوعة من الزجاج، والخراسان، والفولاذ.

كان البرجان على بعد نصف ميل من هذا المبنى، ولكنهما كانا من الضخامة بحيث بدوَا وكأنهما عبر الشارع. تم تصميم البرجين بحيث يكون هناك البرج الشمالي والبرج الجنوبي، ولكن منذ يوم الجمعة، السادس والعشرين من عام 1993، في تمام الساعة 12:17 و36 ثانية مساءً، أصبح البرج الجنوبي يُعرف باسم البرج المفقود.

كان مكتب السيد كوينج مُعداً بحيث يستطيع رؤية البرجين في كل مرة ينظر فيها عبر النافذة.

خطر لي أن السيد كوينج قد أعاد ترتيب أثاث مكتبه بعد انفجار البرج الجنوبي، أو أنه وضع الستائر على النوافذ، ولكن في هذا ما يخبر شيئاً عن الرجل الذي اختار أن ينظر إلى هذين المبنيين في كل يوم من أيام عمله. إنني لا أعرف يقيناً إن كان يلعن الأخطاء الأمنية التي أدت إلى المأساة، أو أنه يشكر الله كل صباح لنجاة نحو مئة ألف من الأرواح. لعله يفعل الأمرين، وربما كان البرجان، وتمثال الحرية، وكل ما يستطيع جاك كوينج رؤيته من هنا، تطارده في نومه كل ليلة.

لم يكن الملك جاك المسؤول عن وحدة مكافحة الإرهاب عندما حصل انفجار العام 1993، ولكنه المسؤول عنها الآن، وربما يفكر في إعادة ترتيب مكتبه صباح يوم الاثنين بحيث ينظر صوب مطار كنيدي. في الحقيقة لقد كان بمفرده في القمة، ومن المفترض أن يكون المنظر خلاباً، ولكن بالنسبة لجاك كوينج، ما من منظر جميل يمكن رؤيته من هناك.

عند هذه اللحظة دخل المكتب الشخص الذي كان عقلي منشغلاً به، وأدرك نظرتي صوب مركز التجارة العالمي، فسألني "أما زالا واقفين في مكانهما أيها المعلم؟"

من الجليّ أن الرجل يتمتع بذاكرة قوية تجاه موظفيه المتحذلقين أمثالي، فأجبته "نعم يا سيدي".

"حسناً، هذه أخبار جيدة". ثم نظر إلى كيت وناش، وأشار إلينا لنجلس، فجلس كل من كيت وناش على الأريكة، فيما جلست أنا على أحد المقاعد الثلاثة، وظل السيد كوينج واقفاً.

كان جاك كوينج رجلاً طويلاً في الخمسين من عمره أو نحو ذلك، شعره رمادي قصير، وعيناه رماديتان فولاذيتان، وفكه فولاذي، ووقف هناك وكأن قضيباً فولاذياً يشد ظهره. بشكل عام، لم يبدُ على الرجل أنه كان ودوداً، كما بدا مزاجه متجهماً لأسباب مفهومة بالطبع.

كان السيد كوينج يرتدي ملابس غير رسمية؛ قميص رياضي أزرق اللون، وبنطال، ولكن لا شيء به بدا غير رسمي، أو رياضي، أو عادي.

دلف هال روبرتس إلى المكتب، وجلس على المقعد المحاذي لمقعدي، فيما لم يبدُ على جاك كوينج أنه ينوي بأي حال الجلوس والاسترخاء.

كان السيد روبرتس يحمل مفكرة صفراء رسمية وقلم رصاص، وللحظة ظننت أنه سيدون طلبات الشراب، ولكن يبدو أنني كنت متفائلاً أكثر من اللازم.

شرع السيد كوينج يتحدث إلينا دون مقدمات "هل يستطيع أي منكم أن يشرح لي كيف استطاع إرهابي مشتبه به، مصفد وتحت الحراسة، أن يقتل ثلاثمئة رجل وامرأة وطفل على متن طائرة خطوط أميركية، وحارسين مسلحين، ورجلين من القوات الفيدرالية الجوية على متن الطائرة، إضافة إلى رجل خدمة طوارئ المطار، ثم يمضي إلى مقر فيدرالي سري ومؤمّن، فيقتل سكرتيرة وحدة مكافحة الإرهاب، والضابط الفيدرالي المناوب، وعضو مديرية شرطة نيويورك في فريقكم؟" قال هذا وشرع ينظر إلى كل منا.

"ألدى أحدكم أي تفسير؟"

لو كنت في مقر الشرطة بدلاً من المقر الفيدرالي، لكنت أجبت عن سؤال تهكمي كهذا بقولي "أيمكنك تخيل كم كان سيكون الوضع أسوأ لو لم يكن الرجل مصفداً؟" لكن لم يكن هذا هو الوقت ولا المكان المناسبين لذلاقة اللسان؛ مئات الأبرياء لقوا حتفهم، وكانت مهمة الأحياء أن يجدوا تفسيراً لهذا. إلا أن الملك جاك لم يحسن البدء مع موظفيه.

لا حاجة للقول إن أحداً لم يجب عن هذا السؤال الذي بدا كسؤال بلاغي، كما أنها فكرة جيدة أن تدع الرئيس لينفث عن غضبه قليلاً. جلس الملك وراح يحدق خارج النافذة. كانت وجهته صوب المنطقة المالية، حيث لم يكن ثمة رابط بالحادث، ما عدا أسهمه الخاصة في ترانس - كونتيننتل.

بالمناسبة، كان جاك كوينج رجل تحقيقات فيدرالياً، وأنا أكيد من أن تيد ناش لم يكن ليحب أن يخاطبه فيدرالي بهذه اللهجة، ولا أنا - كنصف مدني - ولكن كوينج هو الرئيس هنا، وجميعنا جزء من وحدة مكافحة الإرهاب؛ من الفريق. أما كيت - كفيدرالية - فقد أصبح عملها مهدداً، وكذلك جورج فوستر، إلا أن جورج قد اختار لنفسه المهمة الأسهل حيث ظل هناك، مع الجثث.

بدا جاك كوينج وكأنه يحاول السيطرة على نفسه، وأخيراً نظر إلى تيد ناش وقال "تعازيّ بشأن بيتر جورمان. أكنت تعرفه؟"

أومأ ناش إيجاباً.

ثم نظر كوينج إلى كيت وسألها ‘‘أكنتِ صديقة لفيل هاندري؟’’

‘‘نعم’’.

ثم نظر نحوي وقال ‘‘أنا متأكد من أنك فقدت أصدقاء في عملك من قبل، وتعرف كم هو مؤلم هذا الأمر’’.

‘‘نعم، أعرف هذا. ونيك مونتي كان قد أصبح صديقاً لي بالفعل’’.

راح جاك كوينج يحدق في الفراغ مرة أخرى ورأسه يعج بالأفكار. كان وقت الصمت المهيب، وصمتنا لدقيقة، لكننا جميعاً كنا نعرف أنه يجدر بنا العودة إلى العمل سريعاً.

فسألت، ربما بشكل غير دبلوماسي ‘‘هل سينضم إلينا النقيب ستين؟’’

نظر كوينج نحوي لدقيقة ثم قال أخيراً ‘‘لقد اضطلع بمهمة البحث وفرق المراقبة ولا وقت لديه للاجتماعات’’.

ليس بوسعك أبداً أن تعرف ما يرمي إليه الرؤساء، أو أي صراع ملكي يجري هناك، ومن الأفضل ألا تهتم. فكان أن تثاءبت لأعطي إشارة بأنني فقدت الاهتمام بسؤالي وبجواب كوينج.

استدار كوينج نحو كيت وقال ‘‘حسناً، أخبريني بكل ما حدث منذ البداية’’.

بدت كيت وكأنها قد استعدت مسبقاً لهذا السؤال، ومضت تسرد أحداث اليوم، على نحو مرتب زمنياً، وبشكل موضوعي، وسريع، ولكن من دون استعجال.

استمع إليها كوينج، فيما كان روبرتس يدون الملاحظات. وبالطبع كان هناك جهاز تسجيل صوتي يعمل في مكان ما.

وذكرت كيت إصراري على الذهاب إلى حيث الطائرة، وحقيقة أنها وفوستر لم يكونا متحمسين للفكرة.

ظل وجه كوينج جامداً بلا أي انفعال طوال فترة السرد، فلم يأتِ بأي تعبير، لا بالاستحسان ولا بالرفض. لم يرفع حاجباً، ولم يعبس، ولم يجفل، ولا حتى هزّ رأسه، وبالطبع لم يبتسم. كان خبيراً في الاستماع، ولم يبدر منه ما يشجع أو يثبط المتحدث أمامه.

كانت كيت قد وصلت إلى الجزء الذي صعدت فيه أنا إلى قبة الطائرة 747 حيث اكتشفت فقدان إبهامي هاندري وجورمان. نظر كوينج نحوي، وبالرغم من أنه لم يعطِ أي إشارة استحسان، إلاّ أنّه كان واضحاً أنني سأبقى في القضية.

تابعت كيت تنقلها في سلسلة الأحداث، معطية فقط الحقائق كما كانت، ومرجئة التخمينات والنظريات إلى وقت لاحق، في حال أراد كوينج أن يستمع إليها. كانت كيت مايفيلد تتمتع بذاكرة مدهشة للتفاصيل، وقدرة مذهلة على الامتناع عن صبغ وإمالة الحقائق. ما أعنيه هو أنني لو كنت في موقف مشابه، قيد الاستجواب أمام الرؤساء، لكنت سأحاول ألا أقوم بتلوين أو تمويه الأحداث، ما لم أكن أحاول حماية شخص ما، ولكنني معروف بانتكاسات الذاكرة على كل حال.

أنهت كيت حديثها بأن قالت "وقرر جورج الانتظار وتولي مسؤولية مسرح الأحداث. فوافقنا جميعاً، وطلبنا من الضابط سيمبسون أن يقودنا إلى هنا".

نظرت إلى ساعتي، ولاحظت أن سرد كيت قد استغرق أربعين دقيقة، وقد أصبحت الساعة الثامنة مساءً الآن؛ الوقت الذي تصبو فيه رأسي إلى الشراب.

استرخى جاك كوينج على مقعده، ورأيت أنه بدأ في معالجة الحقائق، فقال "يبدو أن خليلاً يسبقنا بنحو خطوة أو اثنتين".

قررت أن أرد على هذا "وهذا كل ما يستلزمه السباق؛ فالخاسر يأتي في المرتبة الثانية".

نظر إليّ السيد كوينج للحظة، ثم كرر مقولتي "الخاسر يأتي في المرتبة الثانية. من أين أتيت بهذا؟"

"من الكتاب المقدس على ما أعتقد".

توجّه كوينج بحديثه إلى روبرتس قائلاً "استرح". فوضع روبرتس قلمه الرصاص.

ثم تابع كوينج حديثه لي "على حدّ علمي أنك تقدمت بطلب نقل إلى قسم الجيش الجمهوري الإيرلندي".

بلعت ريقي وقلت "نعم، فعلت. ولكن...".

"ألديك أي حقد شخصي ضد الجيش الجمهوري الإيرلندي؟"

"كلا، في الحقيقة، أنا..."

ارتفع صوت كيت مقاطعاً "أنا وجون تحدثنا في هذا الأمر بالفعل، ولقد سحب طلبه".

لم يكن هذا بالضبط ما قلته لها، ولكن بدا هذا أفضل من ملاحظاتي العنصرية والجنسية. فنظرت إلى كيت وتلاقت أعيننا.

"لقد اطلعت على قضية بالم أيلاند في الخريف الماضي". أخبرني كوينج، ولم أجب.

"قرأت تقرير القضية الذي أعده تيد ناش وجورج فوستر، والتقرير الذي أعدته المحققة بيث بينروز، بالقسم الجنائي في مقاطعة سافلوك. ويبدو أن هناك بعض التباين في الآراء والحقائق بين تقرير وحدة مكافحة الارهاب وتقرير شرطة مقاطعة سافلوك، ومعظمه يدور حول دورك في القضية".

"لم يكن لي دور رسمي في القضية".

"لكنك حللتها على كل حال".

"كان لدي الكثير من وقت الفراغ، ربما كنت بحاجة إلى ممارسة هواية ما".

لكنه لم يبتسم، وقال ‘‘أظن أن تقرير المحققة بينروز قد اصطبغ بظلال علاقتك الشخصية بها’’.

‘‘لم تكن لديّ علاقة شخصية بها آنذاك’’.

‘‘ولكن كانت لديك تلك العلاقة وقت كتبت ذاك التقرير’’.

‘‘معذرة سيد كوينج، لقد تحدّثت في هذا مع الشؤون الداخلية لمديرية شرطة نيويورك’’.

‘‘ها، ألديهم أناس للتحقيق في العلاقات؟’’

أدركت أن هذه كانت مزحة، فضحكت بعدها بثانية أو اثنتين.

ثم تابع كوينج ‘‘كما يبدو أن تقرير تيد وجورج قد اصطبغ بغضبهما منك’’.

نظرت نحو ناش الذي بدا - كالمعتاد - بريئاً، كأن كوينج يتحدث عن تيد ناش آخر.

مرة أخرى واصل كوينج حديثه ‘‘كنت مندهشاً بحق من نفاذك إلى قلب الحقيقة في قضية معقدة كتلك، حيث انخدع فيها الجميع’’.

قلت في تواضع ‘‘كان الأمر مجرد اتباع خطوات التحقيق القياسية’’. متمنياً أن يجيبني كوينج بأن يقول مثلا ‘‘كلا يا بني، فأنت عبقري بحق’’.

لكنه لم يقل هذا، بل قال ‘‘لهذا نعمد إلى استخدام رجال مديرية شرطة نيويورك، فهم دائماً ما يأتون بأشياء مختلفة إلى الطاولة’’.

قلت مقترحاً ‘‘نعم، كالحلوى’’.

لم تعجب المزحة السيد كوينج، ولكنه لم يستأ منها كذلك، وقال ‘‘إنهم يحضرون إلى الطاولة بعض الفهم، والذكاء، والبصيرة إلى العقل الإجرامي، بشكل يختلف نوعاً ما عن رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية أو الاستخبارات المركزية. أتوافقني الرأي؟’’

‘‘تماماً’’.

‘‘إنه شيء نؤمن به هنا في وحدة مكافحة الإرهاب؛ إن الكيان الكامل أفضل من مجموع الأجزاء. أليس كذلك؟’’

‘‘صحيح’’.

‘‘لن يتحقق هذا إلا بالاحترام والتعاون المتبادلين’’.

‘‘كنت على وشك قول هذا بالفعل’’.

نظر إليّ جاك للحظة قبل أن يسألني ‘‘أتريد الاستمرار في هذه القضية؟’’

‘‘نعم، أريد ذلك’’.

مال كوينج نحوي ونظر في عينيّ مباشرة وهو يقول "لا أريد إذاً أن أرى أي أفعال ثورية، ولا أن أسمع عن أي سلوكيات مشينة، وأريد ولاءً كاملاً منك سيد كوري، أو ليساعدني الله على حشو رأسك ووضعه هنا على مكتبي. اتفقنا؟"

يا الله، بدا الرجل تماماً ككافة رؤسائي السابقين. لا بد وأن بي شيئاً يخرج أسوأ ما فيهم. على أي حال، فكّرت في إمكانية تعديل العقد، فهل أستطيع بالفعل أن أكون مخلصاً ومتعاوناً ولاعباً في فريق؟ كلا، لكنني أردت هذا العمل. من ناحية أخرى، أدركت أن السيد كوينج لم يطالبني بالتوقف عن تهكمي أو أن أبلد ذكائي، فاعتبرت هذا نوعاً من الموافقة عليهما، أو التجاهل من قِبَلِه "اتفقنا".

قال كوينج "جيد". ومد يده وتصافحنا "أنت معنا إذاً".

كنت على وشك أن أقول "ولكم ستندم على هذا يا سيدي". لكن ظننت أنه ربما سيندم بالفعل ذات يوم، فاكتفيت بأن قلت "وسأبذل كل ما في وسعي".

التقط كوينج ملفاً من روبرتس، وبدأ في توزيعه علينا. نظرت إليه للحظة، وقررت أنه لا يجدر بي التقليل من شأن هذا الرجل، فهو لم يصل إلى هذا المكتب في هذه الزاوية لأنه ابن أخت العم سام، بل للأسباب الطبيعة المتضمنة العمل الشاق، والساعات الطويلة، والذكاء، والتدريب، والإيمان بمهمته، ومهارات القيادة الجيدة، وربما الوطنية. لكنّ كثيرين من أبناء مكتب التحقيقات الفيدرالية يتمتعون بهذه المهارات والمؤهلات.

فالذي يميز جاك كوينج عن الرجال والنساء الموهوبين الآخرين هو رغبته في تحمل مسؤولية الكوارث التي تم تعيينه من أجل منعها، وما حدث عصر ذاك اليوم كان بالغ السوء، ولكن في مكان ما هناك رجل سيئ - مثل أسد خليل وآخرين - يرغب في ضرب وسط مدينة مانهاتن بقنبلة نووية، أو أن يسمم مصدر المياه، أو أن يبيد السكان بالكائنات الحية المجهرية.

كان جاك كوينج يعرف هذا، شأننا جميعاً. ولكنه كان مستعداً لتحمل عبئه وأن يأخذ الضربة الأخيرة متى حان موعدها. مثلما حدث اليوم.

نظر كوينج نحونا - أنا وكيت وتيد - ثم أومأ إلى روبرتس فأمسك قلمه الرصاص، فقد انتهت مقابلة عمل جون كوري، وفترة تعديل سلوكياته، وحان وقت البدء بالجزء الثاني من المأساة.

وجّه كوينج حديثه إلى كيت قائلاً "أجد من الصعب تصديق أن الطائرة 175 ظلّت بلا اتصال لاسلكي لأكثر من ساعتين، ولم يعلم أحدكم بالأمر".

"كان اتصالنا بالطائرة من خلال موظفة البوابة فحسب، وكانت تعرف القليل. يجدر بنا أن نعيد تقييم هذا الإجراء".

"هذه فكرة جيدة. فيجب أن تكونوا على اتصال مباشر بمراقبة الملاحة الجوية، وبرج المراقبة، ومركز قيادة شرطة المطار".

"نعم يا سيدي".

"فلو افترضنا أنه تم اختطاف تلك الطائرة وهي بعد في الهواء، فمن الممكن أن يكون هذا قد حدث في كوبا أو غيرها وأنتم في ذلك الوقت تجهلون الأمر تماماً".

"نعم يا سيدي. وكان تيد من الحكمة بأن فكّر في الحصول على اسم مسؤول برج المراقبة المناوب ورقم هاتفه".

نظر كوينح نحو ناش وقال "نعم، تفكير جيد. ولكن كان يجدر بك الاتصال به في وقت مبكر كثيراً عن ذاك".

لم يجب ناش، وساورني شعور أن ناش لن يقول شيئاً يمكن للسيد روبرتس تدوينه ضده في مذكرة قانونية.

تابع كوينج "يبدو أن لاجئ فبراير كان تجربة للوقوف على إجراءاتنا، وأظننا شككنا جميعاً في هذا بعد فراره، ومن ثم كانت الاحتياطات الزائدة هذه المرة. ولو كان هارب فبراير معصوب العينين آنذاك لما كان رأى نادي الفاتحين، ولا موقعه، ولا كيف يُفتح الباب. ربما يجدر بنا أن نعمد إلى تعصيب أعين الأفراد غير المخولين بالدخول، بما في ذلك من ندعوهم باللاجئين والمخبرين. وتذكروا أيضاً أن هارب فبراير تمّ إحضاره يوم سبت، ورأى أن الموجودين في نادي الفاتحين في عطلة نهاية الأسبوع قليلون".

بدا الجزء الثاني ذاك وكأنه مراجعة للسياسات والإجراءات، وما يسمى بإغلاق القفص بعد هروب الأسد. استمر السيد كوينج في هذا لبعض الوقت، فيما كان يتحدث في الغالب مع كيت، التي كانت تحل محل قائدنا الشجاع، جورج فوستر.

أخيراً قال السيد كوينج "حسناً، كان الانطباع الأول الذي انتابكم هو أن الأشياء لم تكن تمضي كما هو مخطط لها، فاتصل تيد بمسؤول برج المراقبة، السيد ستافروس".

أومأت كيت موافقة وهي تقول "وهنا أراد جون أن يذهب ليتفقد الطائرة، ولكن تيد وجورج وأنا..."

قال السيد كوينج مقاطعاً إياها "سمعت هذا من قبل". بينما رغبت في أن أسمعها تقول هذا ثانية، ولكن تابع كوينج وسأل تيد سؤالاً مباشراً ومثيراً، وهو ينظر إليه "هل كنت تتوقع حدوث مشكلة في هذه المهمة؟"

"كلا".

لكنني اعتقدت غير ذلك، فبالرغم من الهراء الذي قاله تيد من قبل عن قول الحقيقة هنا، ولا شيء غير الحقيقة، فإن رجال الاستخبارات المركزية يميلون بحق إلى الخداع، والتزييف، والوجهين وربما الثلاثة للحقائق، والذعر، والكلام الفارغ، وما كانوا يختلقون. إلا أن هذا لا يعني أنهم أشخاص سيئون، بل وربما يحدوك الإعجاب بكلامهم الفارغ الراقي واحترامه. ما أعنيه هو أن رجل المخابرات المركزية قد يكذب على الكاهن لدى الاعتراف، ولكن إذا ما نحينا الإعجاب جانباً، فإنه ليس من السهل العمل معهم ما لم تكن واحداً منهم.

على أي حال، لقد طرح جاك كوينج القضية بسؤاله هذا، بيد أنه تركها تمضي، وقال موجهاً حديثه لي "بالمناسبة، بينما أسجل إعجابي بمبادرتك عندما دخلت سيارة شرطة المطار تلك وعبرت المدارج، إلا أن هذا لا ينفي أنك كذبت على رؤسائك وخالفت كافة القواعد المنصوص عليها. لن ألومك على هذا هذه المرة، ولكن لا تدع ذلك يحدث مرة أخرى".

أغضبني هذا قليلاً، فقلت "لو أننا فعلنا هذا قبل عشر دقائق أخرى، ربما كان خليل قيد الاعتقال الآن، متهماً بجريمة قتل. ولو كنتم أعطيتم هاندري وجورمان تعليمات بالاتصال بالمطار عبر الهاتف المحمول وتقرير ما كان يحدث، لكنّا علمنا بوجود مشكلة عندما انقطع الاتصال. ولو كنّا على اتصال مباشر بمراقبة الملاحة الجوية، لكانوا أخبرونا أن الاتصال منقطع بالطائرة منذ ساعات. ولو أنكم لم تستقبلوا لاجئ فبراير ذاك بذراعين مفتوحتين، ما كانت أحداث اليوم بأسرها لتقع". ثم وقفت وقلت معلناً "أظن أنني سأعود إلى منزلي ما لم تكن تريدني لأمر هام هنا".

عندما اعتدت أن أقوم بهذا العمل المسرحي، كان رؤسائي يقولون "لا تدع الباب يركل مؤخرتك بينما تخرج". ولكن كوينج قال في هدوء "بل نحتاجك لأمر هام. اجلس رجاءً".

حسناً، جلست بالفعل، ولو كنا في قسم التحقيقات الجنائي في الشمال، لكان الرئيس فتح خزانته في هذه اللحظة ومرّر قنينة الشراب على الجميع حتى يشيع الهدوء في الأجواء المتوترة. لكنني لم أتوقع أن يتم كسر أي من القواعد هنا، حيث يسيرون في الردهات معلقين لافتات التحذير من الشراب، والتدخين، والتحرش الجنسي.

على كل حال، جلسنا جميعاً لدقيقة، وكأننا نتشارك برهة من التأمل الزنّي[10]، نهدئ فيها أعصابنا دونما الحاجة إلى استخدام الشراب.

تابع السيد كوينج مخطط اجتماعه ذاك، وسألني "لقد اتصلت بجورج فوستر من هاتف كيت المحمول، وطلبت منه أن ينشر إنذاراً في جميع أرجاء المدينة".

"هذا صحيح".

ثم مضى في تفاصيل ومحتوى مكالماتي مع جون فوستر، وقال "عُدتَ إذاً إلى القبة، ورأيت أنه تم قطع إبهامي فيل وبيتر، ومن ثم فهمت ما يعنيه هذا".

"وهل من الممكن أن يعني هذا شيئاً مختلفاً؟"

"معك حق، وأهنئك على استنتاجك المدهش، أعني أن تفكر في العودة وتتفقد الإبهامين". ثم نظر إليّ وسألني "كيف خطرت لك هذه الفكرة سيد كوري؟"

"في الحقيقة لا أعرف. أحياناً تقفز الأفكار إلى رأسي".

"أحقاً؟ وهل عادة ما تتصرف بناءً على الأفكار التي تقفز إلى رأسك؟"

“متى كانت غريبة. فمثلاً حين تفكر فجأة في إبهامين مقطوعين، عندها يجدر بك أن تتفقد الأمر”.

“نعم، ثم حدث أن اتصلت بنادي الفاتحين ولم تجب نانسي تايت”.

“كنت أظن أننا انتهينا من هذا”.

تجاهل كوينج تعليقي ذاك، وقال “لأنها كانت قد قُتلت بالفعل”.

“نعم، ولهذا لم تجب”.

“وكذلك كان نيك مونتي قد قُتل”.

“ربما كان ما زال يلفظ أنفاسه الأخيرة في هذا الوقت، فجروح الصدر تأخذ وقتاً أطول”.

بدون صلة بما كنا نقوله، سألني كوينج “أين جرحت؟”

“في شارع 102 الغربي”.

“كلا، أعني أين في جسدك؟”

كنت أعرف ما يعنيه، بيد أنني لم أرغب في الدخول في نقاش تشريحي بوجود امرأة، فأجبت “لم يتضرر رأسي كثيراً”.

بدا متشككاً، إلا أنه أسقط الموضوع ونظر نحو تيد “هل لديك ما تضيفه؟”

“كلا”.

“هل تظن أن جون وكيت قد أضاعا أي فرصة؟”

شرع تيد يفكر في هذا السؤال الهام، ثم أجاب “أظن أننا جميعاً لم نقدر أسد خليل حق قدره”. أومأ كوينج موافقاً، وقال “نعم، معك حق. ولكننا لن نفعل ذلك ثانية”.

“يجدر بنا أن نكف عن النظر إلى هؤلاء القوم باعتبارهم حمقى، وإلا سنقع في مشكلات عدة”.

لم يعلّق كوينج.

ثم أردف تيد “إذا حق لي القول، فإن هناك مشكلة في موقف مكتب التحقيقات الفيدرالية ووحدة استخبارات مديرية شرطة نيويورك تجاه المتطرفين. جزء من هذه المشكلة أساسه التعصب العرقي. فالعرب والجماعات العرقية الأخرى في العالم الإسلامي ليسوا بالحمقى أو الجبناء. ربما لا نجد قواتهم الجوية مدهشة، ولكنّ منظمات الشرق أوسطية حققت ضربات كبرى حول العالم، وفي إسرائيل وأميركا. لقد عملت مع الموساد، وهم يكنون المزيد من الاعتبار للمتطرفين أكثر مما نفعل.

قد لا يكون هؤلاء المتطرفون الأكثر حرفية، ولكن حتى المبتدئون قد يصيبون أهدافهم من وقت لآخر. وأحياناً يكون لدينا أسد خليل”.

بالطبع لم يستمتع الملك جاك بهذه المحاضرة، ولكنه احترم الرسالة الموجهة، وهذا ما يجعل جاك كوينج أكثر ذكاءً من الرؤساء العاديين. أنا أيضاً استمعت إلى ناش، وكذلك فعلت كيت. بالرغم من رأيي السيئ بممثلي وكالة الاستخبارات المركزية، إلا أن هذا لا ينفي نقاط قوتهم، وواحدة منها هي حسن تقدير قوة العدو. بيد أنهم يميلون إلى المغالاة في هذا، وهو الأمر الجيد لميزانية وكالة الاستخبارات المركزية. أعني أنهم سمعوا لأول مرة عن انهيار الإتحاد السوفياتي من الصحف!

من ناحية أخرى، كان هناك بعض الحقيقة في ما قاله تيد ناش، فليس من الحكمة أن تنظر إلى الأشخاص الذين يبدون، ويتحدثون، ويتصرفون بشكل مختلف عنك باعتبارهم مهرجين. خاصة عندما يريدون قتلك.

"أظن أن الجميع يغيرون مواقفهم تلك الآن، ولكنني أتفق معك أنه ما زالت لدينا مشكلات في هذا الصدد. وأظن أننا سنشهد تحسناً ملحوظاً في تقديرنا لأعدائنا بعد ما حدث اليوم".

الآن، وقد أوضح السيد ناش وجهة نظره الفلسفية، فقد عاد إلى الموضوع المحدد بين أيدينا، وقال "أظن -كما سبق وقالت كيت- أن خليلاً قد ترك البلاد، وعساه الآن متوجهاً إلى دولة شرق أوسطية على متن رحلة طيران شرق أوسطية، وسينتهي به الأمر في بلده مرة أخرى حيث سيستجوبونه ويوقرونه. قد لا نراه ثانية أبداً، وقد نشهد عملاً آخر له بعد عام من الآن. في هذه الأثناء، أرى أن هذا أمر يجدر تسويته من خلال دبلوماسية دولية، وعبر وكالات استخبارات دولية".

نظر كوينج نحو ناش لبرهة، وساورني إحساس أن الرجلين ليسا على وفاق داخلي تجاه بعضهما البعض، وقال كوينج "لكن أظنك لا تمانع يا تيد لو تابعنا هنا ما لدينا من أدلة في قضيتنا هذه؟"

"بالطبع لا أمانع".

ها هي الأنياب والمخالب قد برزت في لحظة، وكنت أحسب أننا فريق واحد.

قال السيد كوينج مقترحاً على السيد ناش "بما أنك على معرفة مباشرة بهذه القضية، لماذا لا تتقدم بطلب إعادة انضمام إلى وكالتك؟ ستكون مفيداً للغاية بالنسبة لهم في هذه القضية. وربما يرسلونك في مهمة دولية".

وقع ناش في الفخ وأجاب "في حال كنت تشعر أنه يمكنك الاستغناء عني هنا، فسأحب أن أذهب إلى لانغلي الليلة أو غداً لمناقشة الفكرة معهم. أحسبها فكرة جيدة بحق".

قال جاك كوينج "وأنا كذلك".

بدا لي الأمر وكأن تيد ناش على وشك الاختفاء من حياتي، مما أسعدني جداً. ولكن من ناحية أخرى، قد أفتقد تيد العجوز، وربما لا، فالأشخاص مثل تيد عادة ما يختفون ليعاودوا الظهور مرة أخرى عندما لا تتوقعهم أو لا تريدهم.

بدا أن تبادل العبارات المهذبة - والمستفزة - بين الرجلين قد انتهى.

تخيلت أنني أشعلت سيجاراً، واحتسيت شراباً، وألقيت فكاهة قذرة فيما كان جاك وكيت يثرثران.

كيف يعمل هؤلاء القوم دون شراب؟ وكيف يتحدثون دون ألفاظ بذيئة؟ ولكن لسان كوينج كان يزل من وقت لآخر بلفظ غير لائق. هناك أمل في هذا الرجل. والحق أنني رأيت في جاك كوينج شرطياً ماهراً، وهو أقصى مديح قد أعطيه لأي شخص.

ثم سمعنا طرقاً على الباب قبل أن ينفتح، حيث وقف شاب عند مدخل الباب وشرع يقول "سيد كوينج. هناك مكاملة قد تريد الرد عليها".

نهض كوينج، واستأذن منّا، ثم مشى صوب الباب. لاحظت المنطقة الخارجية، والتي كانت خالية ومظلمة لدى وصولنا وقد أضيئت، ورأيت العديد من الرجال والنساء يجلسون إلى مناضدهم أو يتحركون هنا وهناك. صحيح أن مركز الشرطة لا يظلم ولا يخلو أبداً، ولكنّ الفيدراليين يحاولون الحفاظ على ساعات عمل طبيعية، على أن يضعوا ثقتهم في بعض الضباط والحرّاس المناوبين لإدارة العمل في حال ساءت الأمور.

على أي حال، اختفى جاك، وعدت أنا إلى هال روبرتس واقترحت عليه "لماذا لا تحضر لنا بعض القهوة؟"

لم يعجب السيد روبرتس أن أرسله لإحضار القهوة، إلا أنه لم يجد مفراً، خاصة بعد أن أيد كل من تيد وكيت اقتراحي، فنهض ومضى.

نظرت إلى كيت للحظة، فبالرغم من أحداث اليوم إلا أنها بدت نضرة ومتنبهة كما لو كانت الساعة التاسعة صباحاً لا التاسعة مساءً. أما أنا فقد شعرت بقواي تخور، فأنا أكبر الآنسة مايفيلد بنحو عشرة أعوام، ولم أتعافَ بعد من تلك الحادثة التي كدت ألقى حتفي فيها. وبالرغم من أن هذا قد يفسر اختلاف مستوى الطاقة بيننا، إلا أنه لا يفسر بقاء شعرها وملابسها على هذا القدر من الأناقة، ناهيك عن رائحتها الجميلة، فيما شعرت أنا - وربما بدوت - متكوماً وفي حاجة ماسة إلى الاستحمام على الفور.

أما ناش، فقد بدا متأنقاً ومتيقظاً، ولكن كتماثيل العرض في واجهات المحلات، كما أنه لم يقم بأي مجهود جسدي اليوم، فهو لم يقم بجولة موحشة بالسيارة في أرجاء المطار، ولم يقفز على متن طائرة تعج بجثث الموتى.

بالعودة إلى كيت، كانت قد وضعت ساقاً فوق الأخرى، ولاحظت للمرة الأولى أن لديها ساقين جميلتين حقاً.

في الحقيقة، ربما قمت بملاحظة ذلك في جزء من الثانية بعد لقائي الأول معها، ولكنني أحاول تهذيب نزعات رجال شرطة نيويورك بداخلي، فلم أحاول مصادقة امرأة واحدة - سواء متزوجة أو لا- داخل وحدة مكافحة الإرهاب تلك، حتى أشيع عني أنني رجل مكرس تماماً لعمله، أو لفتاة غائبة عن مسرح الأحداث، أو أنني شاذ، أو لا أتمتع برغبة جنسية، أو تلقيت رصاصة ما أسفرت عن ضرر يمنعني من مغازلة النساء.

أياً كان، كان عالم جديد ينفتح أمامي الآن. وعمدت النساء في المكتب يحدثنني عن خلاّنهن وأزواجهن، ويسألنني ما إذا كنت أحب تصفيفات شعرهن، ورحن يعاملنني كجنس محايد. بيد أنهن لم يقترحن بعد أن أذهب معهن للتسوق، ولم يشاركنني بعد في وصفات الطعام، ولكن ربما تدعوني إحداهن إلى تحميم رضيعها في يوم ما. لقد مات جون كوري القديم؛ دُفن تحت أطنان المذكرات في واشنطن، وأضحى جون كوري، رجل التحقيقات الجنائي بمديرية شرطة نيويورك، مجرد تاريخ، بينما يبزغ جون كوري، العميل الخاص لدى وحدة مكافحة الإرهاب. أشعر بأنني نظيف، وكأنني عُمِدت في الماء المقدس لنهر بوتوماك، فولدت من جديد في أروقة المضيفين الملائكيين الذين أعمل معهم.

بالعودة إلى كيت مرة أخرى، كانت تنورتها تصل إلى ما فوق ركبتيها، وكنت قريباً من تلك الفخذ اليسرى الرائعة، حين أدركت أنها تنظر إليّ، فأزحت عينيّ عن ساقيها، ونظرت إلى وجهها. كانت شفتاها ممتلئتين أكثر ما ظننت، ومضمومتين ومعبّرتين، فيما راحت العينان الزرقاوان تنظران إلى أعماق روحي.

قالت "تبدو بحاجة إلى بعض القهوة بالفعل".

بلعت ريقي، وعقلي... وأجبتها "في الحقيقة إنني بحاجة إلى شراب".

"سأبتاع لك واحداً في ما بعد".

نظرت إلى ساعتي وقلت "عادة أكون في فراشي في تمام العاشرة".

ابتسمت كيت ولم تجب، بينما كان قلبي يقفز في صدري.

في هذه الأثناء كان ناش قد عاد إلى طبيعته؛ بعيد تماماً، وغامض كراهب تيبتي. وخطر لي مرة أخرى أنه ربما كان الرجل أحمق بحق؛ ربما كان غبياً، وأن مستوى ذكائه لا يتعدى مستوى ذكاء محمصة الخبز، ولكنه ذكي بما يكفي لإخفاء هذا الغباء.

ثم عاد السيد روبرتس بصينية تحمل إبريقاً وأربعة أقداح للقهوة، وضعها على المنضدة دونما تعليق، وحتى لم يعرض أن يصب لنا القهوة. ففعلت أنا؛ أخذت الإبريق وصببت ثلاثة أقداح من القهوة الساخنة، وأخذت كيت قدحاً، وكذلك فعل تيد، وفعلت أنا وشرعنا نرتشف القهوة.

ثم نهضنا ثلاثتنا واتجهنا صوب النوافذ، وقد غرق كلّ منا في أفكاره بينما كنّا نحدق نحو المدينة.

نظرت صوب الشرق، نحو جزيرة لونغ أيلاند، حيث هناك كوخ لطيف، على بعد تسعين ميلاً، وعالم آخر، بعيد عن هنا، وبيث بينروز داخل ذلك الكوخ، تجلس أمام النيران، ترتشف الشاي، وربما الشراب. لم تكن فكرة الانشغال بهذه الأشياء فكرة جيدة، لكنني تذكرت ما قالته لي زوجتي السابقة ذات مرة "إن رجلاً مثلك يا جون يفعل فقط ما يريد فعله. أنت تريد أن تصبح شرطياً، فلا تشتكي إذاً من هذا العمل. ولسوف تتركه عندما تكون فعلاً مستعداً لتركه، وأنت لست مستعداً بعد".

في الحقيقة، إنني بالفعل لست مستعداً بعد. ولكن في أوقات كهذه، أشعر أنه لا بأس بالطلاب الحمقى في جون جاي.

نظرت إلى كيت، ووجدتها تنظر إليّ، فابتسمت لها، وابتسمت لي، ثم عاد كل منا للنظر إلى ما كان ينظر إليه.

في معظم حياتي المهنية قمت بأعمال كانت تعتبر أعمالاً هامة، وكل من بهذه الغرفة يعرف كم هو مميز وخاص هذا الإحساس، بالرغم من أنه يستهلك العقل ويتغذى على الروح، وأحياناً -كما في حالتي- على الجسد.

لكنّ شيئاً ما ظل يدفعني، ولقد لخصته زوجتي السابقة بقولها "لن تموت أبداً من الملل يا جون، ولكنك ستموت وأنت تعمل عملك هذا. بل إن نصفك ميت بالفعل".

لكن لم يكن هذا حقيقياً، لم يكن حقيقياً أبداً. كل ما في الأمر هو أنني أدمنت على اندفاع الأدرينالين في جسدي.

في الحقيقة، إنني أشعر بسعادة وأنا أقوم بحماية المجتمع. وبالرغم من أنه لم يكن من اللائق قول هذا في مكاتب العمل، إلا أنها كانت حقيقة وعنصراً هاماً من عناصر عملنا.

ربما أعيد التفكير بعد انتهاء هذه العملية، فربما حان الوقت لترك السلاح والدرع، والابتعاد عن طريق الخطر، ربما حان الوقت لاعتزالي خشبة المسرح.

الفصل العشرون

واصل أسد خليل القيادة عبر حي سكني، وكانت سيارة الميركوري ماركوس كبيرة حقاً، أكبر من أي شيء سبق وأن قاده، ولكنه كان يستطيع التحكم فيها على نحو جيد.

لم يختر خليل سلوك طريق نيوجيرسي تيرنبايك السريع، والذي تستلزم القيادة عبره دفع رسوم، إذ لم يكن ينوي المرور بأي أكشاك رسوم. وحسبما طلب في بلاده، كانت السيارة المستأجرة مزودة بنظام تحديد المواقع العالمي، والذي سبق له أن استخدمه في أوروبا، غير أن اسمه هنا كان *ملاح القمر الصناعي*، وكان مختلفاً بعض الشيء عن الأنظمة الأخرى التي اعتاد استخدامها، إلا أنه يحتوي في قاعدة بياناته كافة أنظمة الطرق في الولايات المتحدة، فشرع يقود ببطء عبر الشوارع حتى توصل إلى الاتجاهات نحو الطريق السريع رقم واحد.

في غضون دقائق معدودة كان أسد على الطريق السريع، متوجهاً صوب الجنوب، ولاحظ أن هذا الطريق مزدحم، وتنتشر على جانبيه المؤسسات التجارية.

ثم لاحظ بعض السيارات تأتي نحوه، وقد أنارت أضواءها، فأنار مصابيحه العلوية.

على مسافة ميل أو نحوه، رمى خليل مفاتيح جبار خارج النافذة، ثم أخرج نقوده من الحافظة، وعدّها ليجدها سبعة وثمانين دولاراً. راح يتفقد محفظة الرجل بينما كان يقود، فمزق ما يمكن تمزيقه، وأسقط القطع الصغيرة من النافذة بينما السيارة تسير. كانت بطاقات الائتمان ورخص القيادة البلاستيكية مشكلة، إلا أن خليلاً تمكن من ثنيها وكسرها جميعاً، ورماها خارج النافذة.

لم يكن في المحفظة الآن سوى صورة ملونة لعائلة جبار؛ جمال جبار نفسه، وزوجته، وولداه، وابنته، وامرأة عجوز. حدق خليل بالصورة فيما كان يقود، واسترجع بضع صور من أنقاض منزله، بما فيها بضع صور لأبيه في زيه الرسمي، كم كانت غالية عليه هذه الصور، خاصة وأنه لن تكون هناك صور أخرى لعائلة خليل.

مزّق خليل صورة عائلة جبار إلى أربع قطع، وتركها تطير خارج النافذة، متبوعة بالمحفظة، ثم الزجاجة البلاستيكية، وأخيراً غلاف الرصاصة. وهكذا

أضحت كل الأدلة مبعثرة على مسافة أميال على طول الطريق السريع، ولن تلفت أبداً الانتباه.

ما إن انتهى من هذا حتى شرع يفتح صندوق السيارة الصغير الموجود بجانب المقود، وأخرج حفنة من الأوراق: وثائق استئجار، وخرائط، وبعض الإعلانات، وأوراق أخرى قليلة الشأن، ولاحظ أن الأميركيين - مثل الأوروبيين - يحبون الأوراق عديمة الجدوى.

ثم ألقى نظرة على عقد الاستئجار، وتأكد من أن الاسم يتفق وذاك المكتوب في جواز السفر.

عاود خليل الانتباه إلى الطريق، حيث العديد من السائقين السيئين يقودون سياراتهم من حوله. ورأى شباباً صغاراً في السن يقودون شاحنات، وآخرين طاعنين في السن، والعديد من النساء، ولم يبدُ له أن أحداً منهم يتقن القيادة. فالأوروبيون يقودون على نحو أفضل، في ما عدا السائقين في إيطاليا. أما في بلاده، فالسائقون يشبهون السائقين الإيطاليين كثيراً. وأدرك خليل أن بوسعه أن يقود بشكل سيئ هنا دون أن يلفت هذا الانتباه.

ثم ألقى نظرة على مؤشر خزان الوقود، فوجده يشير إلى أن الخزان ممتلئ كله.

بعد قليل، رأى خليل في المرآة الجانبية سيارة شرطة ظلّت تسير خلفه لفترة. فحافظ على سرعته، ولم يحاول تغيير مساره، بل وقاوم أن ينظر كثيراً نحو السيارة سواء في المرآة الجانبية أو الأمامية، حتى لا يثير شكوك رجل الشرطة، واكتفى بأن وضع نظارته الثنائية.

مضت خمس دقائق كاملة، ثم زادت سيارة الشرطة من سرعتها إلى المسار الخارجي حتى أصبحت بمحاذاته، ولاحظ خليل أن رجل الشرطة لم يلتفت نحوه، وسرعان ما أصبحت سيارة الشرطة تلك أمامه.

ارتاح خليل، وعاود الانتباه إلى حركة السير، فقد أخبروه في بلاده أن الازدحام سيكون شديداً مساء السبت، حيث يعمد العديدون إلى الزيارات أو الذهاب إلى المطاعم أو دور السينما والأسواق التجارية. ولم يكن هذا مختلفاً كثيراً عن أوروبا، في ما عدا ما يتعلق بالأسواق التجارية.

لقد أخبروه أيضاً، أن الشرطة في المناطق الريفية تهتم بالنظر إلى السيارات التي يمكن أن يكون سائقوها من تجار المخدرات. وقد تكون هذه مشكلة، فالشرطة قد توقف السود أو من هم أصول إسبانية، وقد يوقفون عربياً بالخطأ، أو حتى متعمدين لغرض ما. ولكن متى حل الليل، فسيكون من الصعب تمييز سائقي السيارات، وها هي الشمس تغرب.

لدقيقة، فكّر أسد خليل في جمال جبار، فلم يكن يشعر بالرضا لقتله شخصاً من ملته، بيد أنه من المحتم على كل مسلم مؤمن القتال، أو التضحية، أو أن يموت شهيداً في جهاده ضد الغرب. فالعديد من المسلمين، من أمثال جبار، لم يفعلوا شيئاً سوى إرسال الأموال إلى أوطانهم. في الحقيقة، لم يكن أسد خليل يرى أن جباراً يستحق ما آل إليه مصيره، ولكن الموت كان الاحتمال الوحيد المتاح.

كان أسد خليل في مهمة مقدسة، وعلى الآخرين أن يقوموا بالتضحية حتى يفعل هو ما لا يستطيعون هم فعله؛ ألا وهو قتل الكفار. آخر فكرة عابرة طرأت على رأسه في ما يتعلق بجبار هي إمكانية نجاة الرجل من تلك الرصاصة الواحدة، ولكنه رأى جسده ينتفض وسمع حشرجة الموت. لا شك أن الرجل قد مات. "عسى الله أن يسكنه فسيح جناته الليلة".

كانت الشمس تغرب، ولكن لم يكن بالأمر العملي أن يتوقف ليصلي، لقد أعطاه الملاّ رخصة للوقت الذي يقضيه في الجهاد، لكنه لم يكن ليخفق في تلاوة صلواته، ثم أوقف نفسه على سجادة الصلاة - في خياله بالطبع - وتوجّه صوب مكة، وتمتم "الله أكبر! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد عبده ورسوله. حيّ على الصلاة... حيّ على الفلاح. لا إله إلا الله!"

ثم راح يقرأ سوراً متفرقة من القرآن.

شعر خليل بالرضا لأنه أدى التزامه الديني، وغمره السلام النفسي وهو يقود السيارة عبر تلك الأرض الغريبة حيث يحيط به الأعداء والكفار.

الفصل الحادي والعشرون

عاد جاك كوينج إلى مكتبه وهو يحمل في يده بعض الأوراق التي بدت كرسائل الفاكس، فجلسنا جميعاً بينما كان يقول "لقد تحدثت إلى مشرف المعمل الجنائي في مطار جون كنيدي الدولي، ولديهم تقرير أولي...". قال هذا وهو يضع الأوراق على المنضدة حيث القهوة، ثم تابع قائلاً "عما حدث في المطار وفي نادي الفاتحين. وتحدثت أيضاً إلى جورج، الذي عرض أيضاً أن ينتقل من وحدة مكافحة الإرهاب، ومن نيويورك".

قال هذا وصمت لفترة حتى يرى وقعه علينا، ثم توجه إلى كيت سائلاً إياها "نعم، أم لا؟"

"لا".

فتابع كوينج حديثه إليّ وإلى كيت "أيستطيع أي منكما تخمين ما حدث على متن تلك الطائرة قبل هبوطها؟"

قالت كيت "جون هو المحقق هنا". فقال لي كوينج "أخبرني إذاً أيها المحقق". تجدر الإشارة هنا إلى أنني لا أعرف إن كان هذا المسمى لدى الفيدراليين يحمل أي قيمة تشريفية أم لا. على أي حال، كان هذا جزءاً من طبيعة عملي هنا، وأنا بالطبع أجيد هذا عن ظهر قلب. لكن كوينج لم يخفِ حقيقة أنه قد حصل لتوه على بعض الإجابات عن هذه الأسئلة التي كان يطرحها، لذا لم أشأ أن أبدو أحمق، فقلت له "أفترض أنهم وجدوا قنينتي الأكسجين في حجيرة الملابس بالقبة، أليس كذلك؟"

"نعم، لقد عثروا عليهما، بصمامين مفتوحين، ومن ثم لم نعرف ماذا كانتا تحتويان. ولكن يمكننا تخمين أن إحداهما كانت تحتوي على الأكسجين، فيما كانت الأخرى تحتوي شيئاً آخر".

"... استمر".

"حسناً، بينما الطائرة ترانس - كونتيننتل 175 على بعد نحو ساعتين من نيويورك، فقدت المراقبة الملاحية الاتصال بها، وأفترض أن الرجل الذي كان يحمل قنينتي الأكسجين المختلط كان يجلس في درجة رجال الأعمال حينئذ".

قال كوينج "صحيح. وكان اسمه يوسف حداد، في المقعد 2أ".

"حسناً، هذا الرجل... ما اسمه قلت؟"

"يوسف حداد يعني *جو سميث*. وهو على القائمة بجواز سفر أردني ومثبت أنه يحمل أسطوانة أكسجين طبية لمرضه. من المحتمل بالطبع أن يكون جواز السفر

ذاك مزيفاً، وكذلك ادعاء المرض، ومن ثم واحدة من القنينتين".

"صحيح، هذا الرجل؛ جو سميث، الأردني في المقعد 2أ، في درجة رجال الأعمال، كان يتنفس الأكسجين الحقيقي، ثم قام بفتح صمام الزجاجة الثانية، فتسرب منها غاز ما إلى نظام التهوئة المغلق على متن الطائرة".

"هذا صحيح ولكن أي نوع من الغاز؟"

"نوع سيئ، كالسيانيد مثلا".

"جيد جداً. ولعله كان الهيموتوكسين؛ شكل عسكري من أشكال السيانيد. فتسبب في اختناق الضحايا. سيقوم المعمل الجنائي بتحليل دمهم وأنسجتهم الليلة، وسنرى إن كان ممكناً تحديد نوع ذاك الغاز. قد لا يكون هذا مهماً، لكنها طريقة عملهم على كل حال. المهم، ما حدث أنه في غضون عشر دقائق كان هواء الطائرة محملاً بهذا الغاز، واستنشقه الجميع ما عدا يوسف حداد، الذي كان ما زال يستنشق الأكسجين النقي". قال كوينج، ثم نظر نحوي وسألني "أخبرني كيف تظن أنّ خليلاً قد نجا؟"

"حسناً، أنا لست أكيداً من تسلسل الأحداث، ولكنني أظن أن خليلاً كان في الحمام عندما انبعث ذاك الغاز، وقد يكون هواء الحمام أقل تشبعاً بالغاز من هواء باقي الطائرة".

"كلا، الأمر ليس كذلك، وإنما يتم تنفيس عادم الهواء من الحمام إلى خارج الطائرة مباشرة، ولهذا السبب لا يشمّ الركاب أي روائح عند دخول أحدهم إلى الحمام".

هذا مثير للاهتمام. أذكر مرة كنت على متن رحلة إيرومكسيكو إلى كانون، وكانوا يقدمون وجبة غداء تتضمن واحداً وعشرين صنفاً مختلفاً من البقول، وكنت مندهشاً كيف أن الطائرة لا تنفجر من الروائح وهي ما زالت في الهواء. فقلت لكوينج "كان هواء الحمام مسمماً إذاً، وخليل يتنفس في أضيق حدود ممكنة، وربما وضع منديلاً ورقيًّا مبللاً فوق أنفه، وكان على حداد أن يتحرك بسرعة ليذهب إلى خليل، إما بالأكسجين الخاص به، أو بواحدة من القنينتين اللتين عادة ما يتم حملهما على متن الطائرة لحالات الطوارئ الطبية".

أطرق كوينج ولم يعلق.

قالت كيت "ما لا أفهمه هو كيف عرف كل من حداد وأسد خليل أن الطائرة كانت مبرمجة بحيث تهبط بمفردها".

أجابها كوينج "أنا أيضاً لا أعرف، فنحن ما زلنا نحاول معرفة ذلك". ثم نظر نحوي مرة أخرى وقال "أكمل".

"حسناً، وهكذا في غضون عشر دقائق لم يكن على متن الطائرة من أحياء سوى أسد خليل ورفيقه يوسف حداد، الذي وجد مفاتيح الأصفاد في جيب بيتر جورمان، فحل يوسف وثاق خليل في الحمام. في النهاية، انقشع الغاز، وبعد أن تأكد الرجلان

أن الهواء آمن للتنفس، ربما بعد انقضاء خمس عشرة دقيقة أو نحوها، تخليا عن قنينتي الأكسجين. وحيث إننا - أنا وكيت - لم نرَ قنينتي الأكسجين التابعتين للطائرة في أي مكان بينما كنا نقوم بالتفتيش، لذا أفترض أنهما قد أعاداهما إلى مكان حفظهما المعتاد، ثم وضعا قنينة حداد المختلطة في حجيرة الملابس بالقبة، حيث وجدناها".

أجابني كوينج بقوله "نعم، لقد أرادا أن يبدو كل شيء طبيعياً جداً عندما يصعد أحدهم إلى متن الطائرة لدى هبوطها في مطار كنيدي. وبافتراض أن بيتر وفيل قد لقيا حتفهما قرب الحمام وأعاداهما إلى مكانيهما، لذا قاما أيضاً بوضع جثة رجل خدمة الطوارئ في مقعد خليل. أكمل سيد كوري".

"لم يقتل خليل يوسف حداد على الفور، فجسد هذا الأخير كان ما زال دافئاً حين وجدناه، بعكس الآخرين، مما يعني أن الرجلين قد رتبا كل شيء سوياً، وربما فتشا أشياء فيل وبيتر، وأخذا سلاحيهما، ثم نزلا إلى الدرجة الأولى وقاطرة الركاب الكبرى للتأكد من موت الجميع. وفي اللحظة التي تأكد فيها خليل من أنه لم يعد بحاجة إلى صحبة، دقّ عنق حداد؛ الأمر الذي اكتشفته كيت. ثم وضع حداد بجوار فيل، ووضع له الأصفاد، ووضع قناع النوم فوق رأسه. وفي وقت ما في هذه الأثناء، اقتطع خليل الإبهامين".

"هذا أيضاً صحيح. لقد عثر المعمل الجنائي على سكين في قبة الطائرة وآثار الدماء عليه ممسوحة، كما عثروا على المنديل الذي استخدمه في تنظيف السكين وقد أخفاه ضمن النفايات في مطبخ الطائرة. ولو كان قد ترك الدماء على السكين بحيث يراها أول من يصعد إلى الطائرة، لجذب الانتباه. فلو كنت قد رأيت الدماء - أنت وكيت - لتوصلتما إلى هذه النتيجة مبكراً جداً عمّا فعلتما".

"صحيح". فأول ما تراه لدى وصولك إلى مسرح الجريمة هو عادة ما يريدك الفاعل أن تراه، إلا أن المزيد من التحقيق يسفر عن الخيوط والأسرار خلف المشهد الواضح.

نظر كوينج نحونا وقال "وفي نقطة ما، وبينما كان يتم سحب الطائرة إلى المنطقة الأمنية، قام العريف آندي ماكيغل من خدمة طوارئ هيئة المطار ببث رسالة أخيرة إلى فرقته".

أومأنا جميعاً، ثم قلت "أظن أن ماكيغل وخليلاً قد وجدا نفسيهما أمام بعضهما البعض بالصدفة".

نظر كوينج إلى رسائل الفاكس لديه، ثم قال "الدلائل المبدئية لدينا - أنسجة الدم، والمخ، والعظم - تشير إلى أن ماكيغل قد قُتل في مكان ما بين المطبخ والحمام؛ في مواجهة الحمام. فبعض الأنسجة تم العثور عليها منثورة داخل المطبخ، وبعضها استقر على المضيفة المتوفاة، بالرغم من أن أحدهم حاول محوها، ولذا لم تلاحظاها أنتما". قال كوينج موضحاً، ثم أضاف "وهكذا يمكن افتراض أن ماكيغل قام بفتح باب الحمام فوجد أسد خليل أمامه. كما وجد الطبيب الشرعي بطانية بها خرق وعلامات احتراق، مما يدل على أنه تم استخدام البطانية لكتم صوت الطلق الناري".

أطرقت لدى سماع هذا، فكم هو مدهش ما يخبرك به الطب الشرعي في سرعة رهيبة، وسرعان ما يصل المحقق إلى استنتاجات جديدة وإعادة تمثيلٍ للجريمة على إثر هذه المعلومات. وكون هذا عملاً إرهابياً لم يكن ليُحدث اختلافاً، فمسرح الجريمة هو كذلك في كل الأحوال، والقتل هو القتل، والشيء الوحيد الذي كان مفقوداً هنا هو القاتل.

تابع كوينج قائلاً "أما في ما يتعلق بهروب خليل من الطائرة، فلنا أن نفترض أنه كان يعرف الإجراءات التي سيتم اتباعها في مطار كنيدي؛ فبموت قائد الطائرة، بوسع أي من رجال الطوارئ الذين سيصعدون إلى الطائرة أن يوقف عمل المحركات، وعندها يتم استدعاء القاطرة لسحب الطائرة إلى المنطقة الأمنية، وتعرفون الباقي".

بالطبع كنا نعرف.

"كما تم العثور على ما يمكن افتراض أنه حقيبة ملابس يوسف حداد، حيث وجدنا بداخلها سترة عمال أمتعة ترانس - كونتيننتل، كانت ليوسف حداد، وبلا شك كان في تلك الحقيبة سترة أخرى لأسد خليل، وقد ارتداها في لحظة ما حيث أدرك أن عمال الأمتعة سيصعدون إلى الطائرة لحمل الأمتعة".

ثم نظر إلى كيت، ثم إليّ، وسأل "ألم يرَ أحدكما شخصاً اشتبه فيه؟ كنتما تعرفان أن ثمة خطباً هناك، ومع ذلك استطاع خليل الفرار".

فأجبته "أظن أنه كان قد غادر بالفعل قبل صعودنا إلى هناك".

"ربما، وربما لا. محتمل أن تكونا قد صادفتماه".

قالت كيت "أظننا كنا تعرفنا عليه لو قابلناه".

"أتظنين ذلك فعلاً؟ ليس وهو مرتدٍ لسترة عامل الأمتعة، وقد صفف شعره بشكل مختلف، ووضع نظارة وشارباً. ربما يكون هو من رآكما، وأدرك أن ثمة عملاء فيدراليين أو محققين على متن الطائرة. فكّرا في الأمر. حاولا تذكر ما حدث، ومن رأيتما على متن الطائرة في تلك المنطقة الأمنية".

حسناً يا جاك، سأفكر في الأمر، وشكراً لك لأنك ذكرت هذا.

أردف كوينج "على أي حال، قفز خليل إلى إحدى شاحنات الأمتعة ومضى، ومن ثم يصل واحد ممن اقترف أكثر الأفعال حقارة - وأعتذر للغتي الفظة - في التاريخ الإرهابي إلى أحد مخارج المطار، فيخلع سترته تلك، وقد ارتدى أسفل منها ملابساً عادية، ويصعد بعدها إلى متن طائرة مغادرة إلى أرض الغبار؛ ومعذرة لنعتي الشرق الأوسط بهذا الوصف. ولكن لا، إن أسد خليل لم يمضِ عائداً إلى وطنه. ليس بعد. فعليه أن يتوقف أولاً لدى نادي الفاتحين، والبقية تاريخ، كما يقولون".

مضت دقيقة كاملة التزمنا فيها الصمت، ثم قال كوينج "إنه شخص جريء، وفطن، وداهية بحق. فهو يحسن استغلال المواقف بسرعةٍ وبدون تردد أو خوف من أن يتم الإمساك به. لا شك أنه يعتمد إما على انشغال الآخرين أو إغفالهم عن

أن قاتلاً مخبولاً يمضي بينهم. السرعة، والهمجية، وعنصر المفاجأة، ناهيكم عن تحديد الهدف، والجرأة، والقدرة على الخداع. أتفهمون؟"

بالطبع فهمنا جميعاً، وفي حال كانت لديّ الرغبة آنذاك، لأخبرت جاك عن عشرة أو خمسة عشر قاتلاً بهذه المواصفات ممن قابلت على مرّ السنين. فالقتلة الذهانيون المحترفون هم من تنطبق عليهم تلك المواصفات التي ذكرها كوينج لتوه، ولا يمكنك تخيل الأفعال التي يفلتون منها دون عقاب، ولا يسعك تصديق كم أن ضحايا هؤلاء القتلة أغبياء وساذجون.

استرسل السيد كوينج في أفكاره، وقال "هناك سيناريوهات أخرى في ما يتعلق بتنفيذ خطة خليل. أسوأها بالنسبة له هو ببساطة ارتطام الطائرة ومصرع كل من عليها، بما في ذلك مصرعه هو نفسه. وأظنه كان ليقبل هذا ويعده انتصاراً أيضاً".

أومأنا جميعاً على نحو ما، وتابع الرئيس.

"وهناك احتمال آخر، أن يتم الإمساك به فوق الأرض، فيعتقل بوصفه قاتلاً، وسيكون هذا أيضاً جيداً بالنسبة له، ففي تلك الحالة سيكون ما يزال بطلاً في نظر من أرسلوه".

أومأنا ثانية، وقد بدأ إعجابنا يتعدى السيد كوينج ليشمل خليلاً أيضاً.

"لكن ثمة احتمال آخر بعد؛ أن يهرب خليل من المطار، ولا يسعه تنفيذ مهمته في نادي الفاتحين. وعلى أي حال، لم يكن أسد خليل ليخسر مع وجود يوسف حداد على متن الطائرة حاملاً قنينة الأكسجين الطبية خاصته، والغاز السام. في الحقيقة، لو تم إيقاف حداد قبل صعوده إلى الطائرة في باريس، لكان انتهى الأمر بأسد خليل في نادي الفاتحين، بيد أنه سيكون مصفداً وتحت الحراسة. ولكن من يدري ماذا كان سيحدث عندئذ؟"

عمد الجميع إلى تخيل وصول أسد خليل إلى نادي الفاتحين كما كان مقرراً، والسؤال هو: ترى في أي لحظة كان الرجل سيعرب عن ذهانه؟

"بغض النظر عن بعض السيناريوهات الأخرى، ما حدث هو أن أسد خليل أكمل بطولته الكبرى، وهو الآن في طريقه إلى منزل ما؛ سواء كان هذا يعني منزلاً آمناً في أميركا، أو في بلده، فنحن لا نعرف هذا بعد. ولكننا سنفترض أنه في الجوار يخطط لضربة أخرى، وسنعمل على هذا الأساس".

وحيث إننا لم تكن لدينا حقائق، وكنّا نعتمد على التخمينات، لذا أدليت بتخمين "أعتقد أن هذا الرجل يعمل بمفرده، وأنه لن يذهب إلى تلك المنازل المعتادة قيد المراقبة، ولن يتسكع حول دور العبادة المحلية كما يفعل المشتبه بهم العاديون".

تدخلت كيت لتضيف "قد تكون لديه جهة اتصال واحدة هنا؛ قد يكون هارب فبراير، أو أي شخص آخر. وبافتراض أنه لا يحتاج إلى مساعدة فور انتهاء الغرض الأولي، فلنا أن نتوقع جثة مساعد آخر له في مكان ما بعد وقت قصير. بل وافترض أنه كان لديه مساعد في مطار كنيدي ليخرجه من هناك، وقد تكون جثة هذا الرجل هي التالية. ربما يجدر بنا تنبيه مديرية الشرطة إلى هذا".

أومأ كوينج، ونظر نحو ناش، وسأله "لماذا تظنه قد ذهب؟"

مضت ثانية أو اثنتان ولم يجب ناش، معطياً انطباعاً بأنّه متعب من الوضع، وأخيراً مال نحونا، ونظر إلى كل منا وقال "لقد وصفنا دخول خليل إلى هذا البلد وكأنه حدث درامي جلل. وأنا أرى السيد كوينج محقاً في غضه النظر عن كيفيّة تنفيذ أي من هذه السيناريوهات، فالحقيقة أن خليلاً قد ربح الجولة، وأنه مستعد للتضحية بحياته في خدمة قضيته، ومن ثم الانضمام إلى رفاقه في الفردوس. فلقد كانت طريقة دخوله كالجحيم للانسلال إلى بلد معادٍ".

قال كوينج "نحن نعرف هذا".

"اسمعني حتى النهاية سيد كوينج، فهذا أمر هام، وربما تجد بعض الأخبار الجيدة. حسناً، فلنفترض أن أسد خليل قد أتى إلى أميركا لتفجير هذا المبنى، أو المبنى الآخر عبر الطريق، أو مدينة نيويورك بأسرها، أو حتى واشنطن. افترض أن هناك قنبلة نووية مخبأة في مكان ما، أو طنًّا من الغازات السامة، أو آلاف الليترات من الجمرة الخبيثة... لو أن أسد خليل هو الرجل المفترض به توصيل أي من هذه الأسلحة وإحداث هذا الدمار الشامل، لكان أتى إلى كندا أو المكسيك بجواز سفر مزيف، وعبر الحدود بسهولة لإنهاء تلك المهمة الهامة، ولم يكن ليصل بهذا الشكل الذي وصل به، مجازفاً باعتقاله أو قتله. ما رأيناه اليوم يا سادة كان مهمة نورس كلاسيكية". ثم نظر إلينا من حوله، وقال موضحاً "كما تعرفون، في مهمة النورس يهبط شخص ما، محدثاً ضجة هائلة، فيدمر كل شيء، ثم يمضي بعيداً. تلك كانت طبيعة مهمة السيد خليل. لقد انتهت المهمة، ولقد مضى بعيداً".

هكذا أخذنا جميعاً نفكر في مهام النورس. فلقد تحدث تيد العجوز، وبات جلياً أنه يتمتع على الأقل بالحد الأدنى من الذكاء، فمنطقه كان لا يقبل الدحض، والصمت الذي ساد الغرفة بعد ذلك أخبرني أننا قد رأينا أخيراً بريقاً في عقلية ناش العملية.

أومأ كوينج وقال "يبدو هذا منطقياً بالنسبة لي".

أومأت كيت بدورها وقالت "أظن أن تيد محق. لقد فعل خليل ما أتى لفعله، وما من ضربات أخرى متوقعة. لقد انتهت مهمته في مطار كنيدي الدولي، وصار مستعداً لأن يستقل أي رحلة من عشرات رحلات الطيران مساء هذا اليوم".

هنا نظر كوينج نحوي وسألني "وماذا ترى سيد كوري؟"

أومأت بدوري وقلت "أرى هذا منطقياً، فلقد أوضح تيد نظريته بشكل مقنع".

فكّر كوينج للحظة وقال "بالرغم من ذلك، يجب علينا أن نتصرف وكأن أسد خليل ما زال هنا. لقد أخطرنا كافة هيئات تطبيق القانون في الولايات المتحدة وكندا، واتصلنا بكافة عملاء وحدة مكافحة الإرهاب ممن استطعنا العثور عليهم الليلة، وشرعنا في مراقبة كل مكان قد يفكر إرهابي شرق أوسطي في الذهاب إليه، بل ونبهنا شرطة المطار، وشرطة نيويورك، ونيوجيرسي، وكونيكتكت، والمقاطعات المحيطة، وما إلى ذلك. فمع مرور الوقت تزداد رقعة بحثنا، وفي حال كان مختبئاً في انتظار الخروج من البلاد، فما زلنا نستطيع الإمساك به. فالاحتواء هو الضرورة الأولى".

"أشكرك. أعرف هذا، فأنا أقرأ روايات الجاسوسية".

هذا ما انتهينا إليه، فإما أن يكون أسد خليل خارج البلاد بالفعل، أو أنه يختبئ في مكان ما، ينتظر اللحظة المناسبة للظهور، وكان هذا هو الأكثر منطقية في ضوء ما حدث اليوم، وكيفيّة حدوثه.

بالرغم من ذلك، كانت هناك بعض الأشياء التي أزعجتني؛ تفصيلٌ أو اثنان لا يتسقان ونظرية ناش. الأول - والأكثر وضوحاً - كان السؤال لماذا سلّم أسد خليل نفسه لرجل وكالة الاستخبارات المركزية في باريس؟ كان بوسعه - ببساطة - أن يصعد على متن الرحلة ترانس - كونتيننتل 175 بجواز سفر مزيف، كما فعل مساعده جو سميث، بل إن خطة الغاز السام كانت ستفلح على نحو أفضل إن لم يكن خليل مصفداً، وبدون حراسة العميلين الفيدراليين المسلحين.

لقد أغفل ناش العنصر الإنساني، وهو الأمر المتوقع من ناش على كل حال. عليك أن تفهم أسد خليل حتى تدرك مقصده؛ فهو لا يسعى إلى أن يُصبح بطلاً مجهولاً آخر، بل يريد أن يسير إلى سفارة باريس وأن يوضع في الأصفاد وتحت الحراسة، ثم يفر. هذا عمل يُطلق عليه اسم *خذوا في وجهكم أيها الحمقى*، وليس مهمة نورس. لقد أراد الرجل أن يقرأ ماذا نعرف عنه، وأراد أن يقطع الإبهامين وأن يذهب إلى نادي الفاتحين فيقتل كل من يصادفه هناك. ما من شك أن تلك كانت عملية محفوفة بالمخاطر، لكن سر تفردها هو الصبغة الشخصية فيها. والحق أنها كانت بمثابة إهانة أو إذلال، تماماً كفارس العهد القديم، الذي يمضي وحده إلى معسكر العدو ويغتصب زوجة القائد.

السؤال الوحيد الذي لم يبرح رأسي هو إن كان أسد خليل قد انتهى من إذلال الأميركيين، ولا أظنه قد انتهى، فالرجل في أوج نجاح مهماته، بيد أنني أميل إلى تصديق نظرية ناش بأنّ خليلاً لا ينوي تفجير قنبلة نووية، ولا نشر غاز سام أو جراثيم، فلديّ إحساس داخلي أن أسد خليل في أميركا كي يبصق على وجوهنا عن قرب، وبصفة شخصية. ولن أندهش إن وجدته في الطابق الثامن عشر وهو يقطع بعض الحناجر ويدق بعض الأعناق.

كانت تلك هي اللحظة المناسبة كي أشارك أعضاء فريقي تلك الفكرة، وأن أكشف عن ورقتي الرابحة للملك جاك. إلا أنهم كانوا يثرثرون حول شيء آخر، فآثرت الانتظار قليلاً حتى تحين فرصتي لأتحدث، وقد انتابتني شكوك حول هذه

الأشياء التي أزعجتني، وإحساس بأن أسد خليل كان يضغط على أزرار المصعد الآن، وسرعان ما سيكون بيننا هنا. ومن ثم تركت الأمر يمضي واندمجت معهم في حديثهم.

كانت كيت تقول لجاك كوينج ”من الواضح أن أسد خليل كان قد قرأ كل شيء في حقيبتي فيل وبيتر“.

أجابها كوينج في أسلوب عملي واثق ”لم يكن لديهما الكثير“.

أشارت كيت ”كما أن لدى أسد خليل الآن نسخة من ملفنا بشأنه“.

”لم يكن هناك الكثير في ذاك الملف أيضاً، ليس أكثر مما يعرفه عن نفسه على أي حال“.

أرادت كيت تأكيد فكرتها، فقالت ”ولكنه يعرف الآن كم هو قليل ما نعرفه نحن عنه“.

”حسناً، فهمت قصدك. ألدى أحدكم ما يقوله بعد؟“

”نعم. الملف كان يحتوي على مذكرة من زاك ويبر. إنها مذكرة العملية، وكانت موجهة إلى جورج فوستر، كيت مايفيلد، تيد ناش، نيك مونتي، وجون كوري“.

اللعنة! لم أفكر في هذا قط.

أجابها جاك كوينج بطريقة تنم عن فهمه لما كانت تشير إليه ”حسناً. كونوا على حذر إذاً“.

شكراً جاك!

وأضاف ”ولكنني أشك أن خليلاً...“. ثم فكّر في الأمر ونصحنا بقوله ”نحن نعرف الآن قدرات هذا الرجل، ولكننا لا نعرف خططه، غير أنني لا أظن أنكم في تلك الخطط“.

لكنّ كيت كان لها رأي آخر ”لقد اتفقنا أنه لا يجدر بنا أن نقلل من شأن الرجل“.

”ولا أن نعطيه حجماً أكبر من حجمه“. أجابها كوينج باقتضاب.

هذا مفتاح؛ عادة ما يميل مكتب التحقيقات الفيدرالية، وكذلك وكالة الاستخبارات المركزية، إلى أن يعطيا الأشياء أكثر من حجمها، فهذا جيد لميزانيتيهما وصورتيهما، إلا أنني أبقيت هذه الفكرة لنفسي.

تابعت كيت قائلة ”من النادر أن نصادف إرهابياً كهذا، فمعظم الأعمال الإرهابية إما عشوائية أو بعيدة، كتفجير القنابل. أما هذا الرجل، فيُشتبه بأنّه يقتل الناس في أوروبا على نحو شخصي، ولا حاجة لأن أذكر ما فعله هنا لتوه. هناك شيء ما يزعجني في هذا الرجل غير تلك الأشياء الواضحة“.

سألها كوينج ”وماذا عساه يكون ذلك الشيء؟“

”لا أعرف على وجه التحديد. ولكن بخلاف معظم الإرهابيين، أظهر خليل قدراً كبيراً من الذكاء والشجاعة“.

قال كوينج معلقاً "كالأسد".

"نعم، كالأسد. ولكن يجب أن نتوخى الحذر فلا نؤخذ بالاستعارات. إنه رجل بشري؛ بل وقاتل، وفي هذا ما يجعله أكثر خطورة من أي رجل".

كانت كيت مايفيلد تقترب من صلب الموضوع، ومن فهم طبيعة أسد خليل. لكنها لم تزد، ولم يحاول أحد الاستفاضة في أفكارها تلك.

مضت دقيقة أو اثنتان ناقشنا فيهما طبيعة مرتكبي جرائم القتل. في الحقيقة، إن الفيدراليين بارعون في مثل هذا التحليل النفسي. بالرغم من أن الكثير منه بدا لي وكأنه لغط نفسي، إلا أن بعضه كان مفيداً جداً. هنا عرضت عليهم تقديري للموقف، فقلت "لدي إحساس أن أسد خليل لديه دافع عدائي ضد الأميركيين".

سأل كوينج "عفواً؟ لديه ماذا؟"

"أعني أن ما لديه ضدنا هو أكثر من مجرد جدول أعمال فلسفي أو سياسي، فبقلبه تضطرم كراهية عارمة للشعب الأميركي. وفي ضوء ما حدث اليوم، يمكننا افتراض صحة بعض أو كل الشكوك والتخمينات التي وردت في ملفه ذاك. فمن المحتمل أنه قتل بالفعل الضابط الجوي الأميركي بالفأس، وأنه أطلق الرصاص على ثلاثة من تلاميذ المدارس الأبرياء في بروكسل. وإذا ما توصلنا إلى معرفة السبب، ربما أمكننا إذاً أن نكتشف سر غضب هذا الرجل، فنستطيع توقع ماذا ومن في جدول أعماله بعد".

زفر ناش وقال "لقد استهدف البريطانيين أيضاً، فهناك شك أنه وراء تفجير قنبلة السفارة البريطانية في روما، وفي هذا ما يبطل نظريتك حول هوسه بقتل الأميركيين على وجه التحديد".

"إن كان هو من فجر قنبلة السفارة البريطانية، فهناك رابط، فهو لا يحب البريطانيين ولا الأميركيين، ودائماً ما تعني الروابط شيئاً".

ضحك ناش في شبه سخرية، وأنا أكره جداً أن يسخر مني الآخرون.

نظر كوينج إلى ناش وسأله "أتختلف مع السيد كوري؟"

"يمزج السيد كوري العمل البوليسي بعمل المخابرات، بينما ما يصلح لأحدهما لا يصلح بالضرورة للآخر".

قال كوينج "ليس بالضرورة، ولكن أحياناً يصلح".

هز ناش كتفيه باستهجان، وقال "حتى لو افترضنا أن أسد خليل يستهدف الأميركيين دون غيرهم، فإن هذا لا يجعله حالة فريدة أو متميزة. بل على العكس، فمعظم الإرهابيين إنما يستهدفون أميركا والأميركيين. وهذا هو الثمن الذي ندفعه لكوننا الرقم واحد، ولتأييدنا لإسرائيل، ولحرب الخليج، ولعملياتنا في مكافحة الإرهاب على مستوى العالم".

فأومأ كوينج، لكنه قال "ما زالت لدينا مسألة أسلوب خليل المختلف؛ طريقة عمله التي لا تخلو من الإهانة والإذلال على نحو شخصي قريب".

استهجن ناش ثانية وقال "وماذا في هذا؟ إنها طريقته في العمل، وحتى لو اعتبرناها إشارة نحو خطط مستقبلية، فلا يمكننا توقعها. فنحن لن نمسك به أثناء أدائه إحدى مهامه أبداً. هناك الملايين من الأهداف أمامه، وسيختار منها أهداف مهامه، ووقتها، ومكانها. تلك هي طبيعة مهام النورس".

لم يعلق أي منا على هذا.

ثم أنهى تيد حديثه بقوله "على أي حال، تعرفون أنني مقتنع أن ما حدث اليوم كان المهمة التي أتى خليل من أجلها، ولقد فعلها وذهب. ربما كانت ضربته التالية في أوروبا، حيث قام بمهام سابقة، ويعرف طبيعتها عن ظهر قلب، وحيث الثغرات العديدة في النظم الأمنية. إنني أتفق معكم أنه قد يعود إلى هنا مرة أخرى ذات يوم. ولكن في ما يتعلق بالوقت الحالي، لقد امتلأت معدة الأسد - إذا ما واصلنا تلك الاستعارة - وهو الآن في طريقه إلى عرينه في بلاده، ولن يعود إلى هنا مرة أخرى حتى يجوع".

فكّرت أن أُدلي باستعارة دراكولا خاصتي؛ وصول السفينة كالسحر بطاقم ومسافرين من الأموات، ثم نزول دراكولا بأرض مجهولة تماماً، تعج بأناس يتسمون بالبدانة والعروق السميكة. لكن يبدو أن السيد كوينج ينظر إليّ باعتباري رجل منطق بأفكار جيدة، ولا أميل إلى الاستعارات. فاحتفظت لنفسي بنظرية الدراكولا، وقلت "لا أريد أن أكون مناقضاً، ولكن استناداً إلى ما رأيته اليوم، ما زلت أعتقد أن خليلاً لا يبعد أكثر من خمسين ميلاً عن مكاننا هذا، بل وأراهنك يا تيد على عشرة دولارات أننا سرعان ما سنسمع عنه مرة ثانية".

أخيراً ابتسم السيد كوينج "أحقاً تفعل؟ من الأفضل إذاً أن أحتفظ أنا بقيمة الرهان، خاصة وأن تيد سيسافر". لم يكن كوينج يمزح، فقد قال هذا ومد يده نحونا، حيث وضع كل منا - أنا وتيد - عشرة دولارات، وأخفاها كوينج في جيبه.

أدارت كيت عينيها؛ لا فائدة فالرجال هم الرجال.

أما جاك كوينج، فنظر نحوي وقال "تعتقد إذاً أن خليلاً في مكان ما في الجوار، ولديه اسمك سيد كوري. أتظن أنك على قائمة طعامه؟"

أظننا عدنا إلى استعارة الأسد، وفهمت ما يرمي إليه كوينج، ولم أحب ما يعنيه.

قال كوينج معلماً إياي "أحياناً يصبح الصيادون هم الفريسة". ثم نظر إلى ناش وتابع "فمثلاً، قام إرهابي شرق أوسطي بقتل رجلين في موقف سيارات مقر وكالة الاستخبارات المركزية".

بدا تيد ناش وكأنه كان يفضل لو نسي هذا، وردّ قائلاً "كانا من موظفي وكالة الاستخبارات المركزية، ولكنهما كانا هدفاً عشوائياً، فالقاتل لم يكن يعرفهما، وإنما هدفه كان المبنى نفسه".

لم يجبه جاك كوينج، وقال موجهاً حديثه لكيت ولي "لو أن أسد خليل ما زال هنا، فأنتما لستما السبب الذي أتى من أجله، ولكن قد تكونان على قائمة أهدافه الآن. وأنا في الواقع أرى في هذا فرصة".

ملت إلى الأمام وأنا أسأله "معذرة؟ أي فرصة تعني؟"

"حسناً، أكره استخدام كلمة *طُعم*، ولكن...".

"فكرة ثانية. دعنا لا نتحدث في هذا".

لكنه لم يرد ترك هذا الأمر، وعاد مرة أخرى إلى استعارة الأسد "تخيل أن هناك هذا الأسد الذي يقتل القرويين، وأن لديك الصيادين الذين كادوا يمسكون بالأسد. الأسد غاضب من الصيادين، ومن ثم يخطئ خطأً فادحاً بأن يذهب في إثرهم. صحيح؟"

بدا ناش وكأنه يتسلى بالقصة، بينما بدت كيت وكأنها تفكر في الأمر بجدية.

"سنضع في الأخبار مقالة عن جون وكيت، وربما ننشر صورتيكما، رغم أننا عادة لا نفعل هذا. سيظن خليل أنه من الطبيعي لدينا أن نستخدم أسماء وصور العملاء في أميركا، ولن يظن أنه فخ. أليس كذلك؟"

"لا أظن أن عقد عملي يذكر شيئاً عن استخدامي كطعم".

"لن نستخدم اسم تيد، في الحقيقة، إننا لا نستطيع لأن وكالته لن تسمح بهذا مطلقاً. وجورج متزوج ولديه أبناء، فلن نجازف به. أما أنت يا جون وأنتِ يا كيت فعازبان، ويعيش كل منكما بمفرده. أليس كذلك؟"

أومأت كيت، فيما قلت أنا "لماذا لا نرجئ هذه الفكرة لبعض الوقت؟"

"لأنه في حال كنت محقاً يا سيد كوري بشأن بقاء خليل هنا، وفي مكان قريب منا، فربما أغراه هذا لكي يسعى وراء فرصة هدف قبل أن يخطو نحو هدفه التالي، والذي قد يكون أكبر بكثير من الهدف الأول. هذا هو السبب. أنا فقط أحاول منع حادثة قتل جماعي أخرى. أحياناً يضطر المرء إلى وضع نفسه في طريق الخطر من أجل أمن وسلام الأمة. ألا تتفق معي؟"

قالت كيت "أنا أتفق معك. والأمر يستحق المحاولة".

وجدت نفسي في موقف الخاسر في كل الأحوال، فقلت "فكرة عظيمة، لماذا لم أفكر فيها من قبل؟"

فقال ناش "إذاً، في حال كان جون مخطئاً، وكان خليل بالفعل خارج البلد، فلن يحدث سوى أن يفقد جون العشرة دولارات. أما لو كان الرجل ما زال هنا، فسيربح جون الدولارات العشرة، وقد يفقد... حسناً، دعونا لا نفكر بهذا الشكل".

كان تيد ناش فعلاً مستمتعاً بهذا الحوار؛ فلقد كان هذا المتحامل العجوز يبتسم ملء شدقيه إزاء احتمال أن يقطع هذا المعتوه عنق جون كوري. حتى السيد روبرتس كان يحاول جاهداً إبقاء وجهه عابساً. عجيبة جداً الأشياء التي تُضحك الناس!

استمر الاجتماع لفترة قليلة بعد ذلك، حيث شرعنا نتحدث عن مشكلة وسائل الإعلام التي لن تهدأ بشأن ثلاثمئة من الأموات على متن الطائرة، وآخرين مقتولين

فوق الأرض، بينما الفاعل ما زال حراً.

انتهى جاك كوينج بأن قال ‘‘إن الأيام القليلة التالية ستكون صعبة حقاً. عادة ما تكون وسائل الإعلام الإخبارية صديقة لنا، كما حدث في قضية مركز التجارة العالمي، وحادثة التي دبليو إيه، ولكن ما زال علينا أن نسيطر على الصحف قليلاً. كما يجب علينا أن نذهب إلى واشنطن غداً ونؤكد لهؤلاء القوم أننا نمسك بزمام الأمور. لذا، أريد منكم جميعاً أن تذهبوا إلى منازلكم الآن وأن تنالوا قسطاً من الراحة، على أن تقابلوني لدى حافلة الخطوط الأميركية في لاغارديا لنستقل أول طائرة عند الساعة السابعة صباحاً. أما جورج، فسيظل في نادي الفاتحين ليشرف على مسرح الجريمة’’. قال هذا ووقف، فوقفنا جميعاً بينما كان يواصل حديثه قائلاً ‘‘بالرغم من نتائج مهمة اليوم، إلا أنكم جميعاً أبليتم بلاءً حسناً’’. ثم فاجأني بأن قال ‘‘فلنصلي للموتى’’. ثم تصافحنا جميعاً، حتى السيد روبرتس، ثم انصرفنا، أنا وكيت وتيد.

وبينما كنا نترك الطابق الثامن والعشرين، شعرت أن أعيناً كثيرة تراقبنا.

الفصل الثاني والعشرون

عرف أسد خليل أنه يتحتم عليه عبور نهر ديلاور فوق جسر مجاني، وكانت التعليمات لديه تنص على الاستمرار على الطريق السريع رقم واحد حتى مدينة ترينتون حيث يوجد جسران آخران من نفس النوع، لقد عمد خليل إلى برمجة ملاح القمر الصناعي فيما يمضي. كان من الأسهل لو أن الشخص الذي استأجر السيارة قام ببرمجة الملاح، أو طلب من الشركة التي تملك السيارة أن تفعل ذلك، إلا أن ذلك كان ليشكل خطراً. وهكذا كان جمال جبار في ذاك الموقف الذي قُتل فيه هو آخر ما احتاجه خليل من مساعدة، وآخر نقطة يمكن تعقبه إليها.

غادر خليل الطريق السريع رقم واحد إلى الطريق رقم 95، وكان طريقاً جيداً، ووجد خليل أنه يشبه كثيراً الطرق السريعة الألمانية، باستثناء أن السيارات هنا تمضي على نحو أبطأ. وقد قاده هذا الطريق حول مدينة ترينتون.

قرب أحد المداخل، رأى خليل لافتة كُتب عليها ***معبر ولاية واشنطن***، وتذكر عندما أخبره بوريس - الضابط الروسي الذي قام بتدريبه - "ستعبر نهر ديلاور الذي عبره جورج واشنطن منذ أكثر من مائتي عام بالقارب، وهو أيضاً لم يشأ أن يدفع رسوماً".

أحياناً لم يكن خليل يفهم مزحات بوريس، لكن هذا الأخير كان الرجل الوحيد في بلاده الذي يمكن الاعتماد على نصائحه بشأن أميركا والأميركيين.

عبر خليل الجسر المجاني إلى داخل ولاية بنسلفانيا، واستمر حتى 1-95 نحو الجنوب، وفقاً لإرشادات ملاح القمر الصناعي.

كانت الشمس قد غربت تماماً، وسرعان ما عثر على 1-95 وعبر إلى داخل بنسلفانيا. وبسبب الازدحام الشديد، اضطر خليل أن يخفف من سرعته، وكان يستطيع رؤية البنايات العالية المضيئة، وعند نقطة بعينها قاد سيارته بمحاذاة نهر ديلاور، ثم عبر بجوار المطار.

لم يكن هذا الطريق الأسرع ولا الأقصر إلى مقصده، ولكنه طريق دائم الازدحام، وبدون رسوم، ومن ثم كان الطريق الأكثر أماناً بالنسبة له. وسرعان ما أصبحت المدينة خلفه، وبدأت الشاحنات تزيد من سرعتها.

ترك خليل أفكاره تسرح إلى أشياء أخرى، وكان أول ما طرأ على ذهنه هو أن هذا اليوم - 15 أبريل - قد بدأ بداية جيدة، ولا بد أن القائد يعرف الآن أن أسد خليل قد وصل إلى أميركا، وأن المئات قد قتلوا انتقاماً لما فعله الأميركيون به وببلده، وأن المزيد سيقتلون في الأيام القادمة.

كم سيُسر القائد، وسرعان ما سيعرف كل من في بلده أن ضربة قاسية قد وُجهت للأميركيين انتقاماً لشرف الأمة. وسيستيقظ مالك، حتى في هذه الساعة المبكرة وفق توقيت بلده، ولعله عرف الآن بالفعل، ولسوف يبارك أسد خليل ويدعو له.

تساءل خليل ما إذا كان الأميركيون سيفكرون في الانتقام من بلده لهذه الضربة، فمن الصعب تخمين ما قد يفعله الرئيس الأميركي، فذلك الشيطان الأكبر هو آخر من يمكن توقع أفعاله؛ فأحياناً ما يكون ضعيفاً، وأحياناً ما يكون في غاية القوة.

على أي حال، حتى الانتقام سيكون جيداً؛ سيكون بمثابة صحوة لبلاده بأسرها، وللإسلام.

شغّل خليل الراديو، وسمع أناساً يتحدثون عن مشكلاتهم الجنسية، فشرع يضبط التردد على محطة الأخبار، وظل يستمع طوال عشر دقائق حتى سمع أخبار حادثة الطائرة. استمع خليل بإنصات إلى المتحدث، ثم إلى الآخرين الذين راحوا يتحدثون عمّا أطلقوا عليه اسم المأساة. بات واضحاً لخليل أن السلطات لم تعرف بعد بما حدث، أو أنهم يعرفون بالأمر ويخفونه. وفي الحالتين، وحتى لو كانت الشرطة في حالة التنبه القصوى، فإن العامة ليسوا كذلك، وهو ما يجعل الأمر أسهل كثيراً.

واصل خليل السير على الطريق 1-95 متوجهاً نحو الجنوب، وأشارت ساعة السيارة إلى الثامنة وعشر دقائق مساءً، كان الطريق لا يزال مزدحماً، لذا لم تكن سيارته لتلفت الانتباه. مر خليل بالعديد من المخارج التي كانت لتوصله إلى عدة استراحات، وأماكن شديدة الإضاءة حيث كان يرى سيارات، وأناساً، ومحطات بنزين. لكن مؤشر الوقود في سيارته كان يشير إلى أن الخزان كان ممتلئاً إلى أكثر من نصف سعة خزانها، كما أنه لم يكن جائعاً. فما كان منه إلى أن التقط زجاجة المياه الغازية الأخرى، وأفرغ محتوياتها في حلقه، ثم تبول فيها، وألقى بالزجاجة أسفل المقعد بجواره. وأدرك خليل أنه بالفعل يشعر بالتعب، ولكن ليس لدرجة الرغبة بالنوم، فلقد نام جيداً على متن تلك الطائرة.

كانوا قد نصحوه في بلده أن يحاول القيادة ليلة خروجه من المطار، فكلما اتسعت المسافة بينه وبين ما تركه وراءه، كلما كانت فرصته أفضل في الهرب من التعقب. وها هو سرعان ما سيصبح في مقاطعة أخرى؛ ديلاور. كما أخبروه أيضاً، أنه كلما ابتعد عن نيويورك ونيوجيرسي، كلما وجد الشرطة المحلية أقل حذراً.

على أي حال، لم تكن قوات الشرطة تعرف بحق ما يجدر بها البحث عنه، وهم قطعاً لا يدركون أنه يتحتم عليهم البحث عن ميركوري ماركوس سوداء تتجه الآن صوب الجنوب على أحد الطرقات التي لا نهاية لها. ومن ثم كان الخطر الوحيد يكمن في إيقافه من قِبل إحدى سيارات الدورية على نحو عشوائي. إلا أن خليلاً يعرف أن كافة أوراقه سليمة، ولقد أوقفوه مرّتين في أوروبا، حيث من المعتاد أن يطلبوا رؤية جواز سفره، وأحياناً التأشيرة، ومستندات تأجير السيارة، وفي المرتين تركوه ليمضي في طريقه. أما هنا - وفقاً لما أخبروه به في بلده - فسيودون أن يروا رخصة القيادة ورخصة السيارة فحسب، وما إذا كان في وعيه بينما يقود. إن دينه يحرم شرب الخمر، ولكن ليس من المفترض بالطبع أن يقول هذا إذا ما

أوقفوه، عليه فقط أن يجيبهم "بلا". وعلى أي حال لم يكن خليل ينوي أن يطيل الحديث بينه وبين أي شرطي قبل أن يرديه قتيلاً.

من ضمن ما أخبروه به أيضاً أن رجال الشرطة عادة يقودون بمفردهم، وهو ما وجده مدهشاً بحق. كان بوريس قد أمضى خمس سنوات في أميركا، ولقد أعطاه تعليمات خاصة بمرحلة ما بعد سيارة الأجرة وقيادته سيارته، فقال له "فلتظل في سيارتك. سيأتي رجل الشرطة نحوك، ويميل إلى داخل نافذتك، أو يطلب منك الترجل. عندها، طلقة واحدة في رأسه وتمضي في طريقك. ولكن اعلم أنه قد أبلغ المقر برقم لوحة سيارتك قبل إيقافك، وربما كان يحمل آلة تصوير فيديو فوق لوحة عداداته وقد سجلت بالفعل ما حدث. لذا سيتوجّب عليك ترك سيارتك في أسرع وقت ممكن، وأن تعثر على وسيلة نقل أخرى. لن تكون لديك جهات اتصال لتساعدك يا أسد. ستكون وحدك حتى تصل إلى الساحل الغربي لأميركا".

يذكر خليل أنه أجابه بقوله "أنا وحدي منذ العام 1986". وفي التاسعة والثلث مساءً عبر خليل إلى ولاية ديلاور، وفي غضون خمس عشرة دقيقة اتجه من الطريق 1-95 إلى طريق كنيدي التذكاري السريع، وهو طريق يستلزم عبوره دفع رسوم، فتخلى عنه وسلك الطريق 40، الموازي للطريق السريع الجنوبي الغربي نحو بالتيمور. وفي غضون نصف ساعة كان خليل يعبر إلى ولاية ميريلاند.

بعد أقل من ساعة، كان خليل على الطريق السريع المؤدي إلى دائرة حول مدينة بالتيمور، ثم مرة أخرى إلى الطريق 1-95 المجاني في هذه المنطقة، ثم واصل نحو الجنوب.

لم يستطع فهم السر في أن بعض الطرقات والجسور مجانية فيما يستلزم البعض الآخر دفع رسوم. وهو الأمر الذي لا يعرفون سببه في بلاده أيضاً. ولكن التعليمات كانت واضحة في هذا الشأن؛ عليه أن يتجنب أكشاك دفع الرسوم.

قال له بوريس "في وقت ما ستكون لديهم جميعاً صورة لك".

لمح خليل علامة ضخمة باللونين الأبيض والأخضر تخبر عن المسافات بين المدن، ورأى المدينة التي يقصدها واشنطن، التي تبعد 35 ميلاً. وابتسم خليل، فلقد أضحى على مقربة من هدفه.

كان منتصف الليل على وشك الحلول، ولكن الطريق الذي يصل بين الطريقين لم يخلُ بعد. واندهش خليل من عدد السيارات الرهيب الذي ما زال على الطريق، حتى بعد حلول الظلام؛ لا عجب أن الأميركيين يحتاجون إلى هذا القدر الهائل من النفط. لقد قرأ ذات مرة أن الأميركيين يحرقون في اليوم الواحد نفطاً يزيد عمّا تحرقه بلاده في عام كامل. سرعان ما سيمتصون وقود الأرض كله، ثم يعمدون إلى ركوب الخيل. أضحكت الفكرة خليلاً.

بحلول الثانية عشرة والنصف من بعد منتصف الليل، قطع خليل الطريق المسمّى بحزام العاصمة، ودخله متوجهاً نحو الجنوب. وعندما نظر إلى عداده، وجد أنه سافر مسافة ثلاثمئة ميل تقريباً في ست ساعات.

لدى مخرج سوتلاند باركواي، بالقرب من قاعدة أندروز الجوية، ترك خليل ذلك الطريق وسلك آخر يعبر الأسواق التجارية والمتاجر الضخمة. كان ملاّحه يخبره بأسماء بعض الأماكن التي يمكنه أن ينزل فيها، إلا أنه لم يكن ينوي النزول في أماكن معروفة. وبينما كان يقود ببطء، التقط الزجاجة البلاستيكية التي تبول فيها من أسفل المقعد بجواره وألقى بها من النافذة بجواره.

مر خليل ببضعة نزُل حتى عثر على واحد منها سيئ المنظر، حيث اللافتة المضيئة تشير إلى أن اسمه فاكانسيز. فقاد السيارة حتى الموقف الذي بدا خالياً، وخلع ربطة عنقه، ووضع نظارته، ثم ترجل من سيارته وأغلق بابها. وقف خليل يمطط جسده لثانية، قبل أن يشرع بالسير نحو مكتب ذلك النُزُل الصغير.

خلف منضدة الاستقبال جلس شاب يشاهد التلفاز، وما إن رأى أسد خليل حتى وقف وقال

"نعم، أمن خدمة أؤديها لك؟"

"أحتاج إلى غرفة ليومين".

"ثمانون دولاراً بالإضافة إلى الضريبة".

وضع خليل ورقتين من فئة الخمسين دولاراً فوق المنضدة.

كان شاب الاستقبال هذا معتاداً على الزبائن الذين يدفعون نقوداً نقدية، فقال "أحتاج مئة دولار كتأمين، تستردها لدى خروجك".

فوضع له خليل ورقتين أخريين من نفس الفئة.

ناوله الرجل استمارة تسجيل راح خليل يملأ بياناتها، مستخدماً الاسم المستعار رامون فيسك، ثم أعطى البيانات الحقيقية للسيارة نظراً لاحتمال أن يتأكدوا من صحتها في ما بعد بينما هو في غرفته، كما كتب الرقم الصحيح للوحة، ثم أعاد استمارة التسجيل إلى موظف الاستقبال.

أخذ الموظف الاستمارة، وأعطى خليل مفتاحاً ببطاقة بلاستيكية، وباقي المئة دولار الأولى، وإيصالاً بالمئة دولار الأخرى، وقال "الغرفة رقم خمسة عشر، إلى اليمين لدى خروجك، ضمن الغرف الأخيرة. يجب أن تغادر الغرفة قبل الحادية عشرة".

"شكراً لك".

استدار خليل، وترك المكتب الصغير، ثم اتجه إلى سيارته، وقادها حتى الغرفة الخامسة عشرة، فسحب حقيبة سفره، وأغلق السيارة. دخل إلى الغرفة، وضغط على مفتاح الإنارة فأضاء مصباحاً كان بالغرفة.

بعد دخوله، أغلق خليل باب الغرفة وراءه وتأكد من إحكام إغلاقه، ثم لاحظ كم أن أثاث الغرفة بسيط للغاية، إلا أنها كانت تحوي تلفازاً، فشغله خليل. ثم عمد إلى خلع ملابسه، وقصد دورة المياه حاملاً الحقيبة، وسترته الواقية من الرّصاص، والمسدسين عيار 40 مل.

وبعد أن أنعش نفسه، فتح الحقيبة، وأخرج أدوات العناية الشخصية، وراح ينظف أسنانه ويحلق بعد أن أزال شاربه المستعار. ثم اغتسل بسرعة، بينما وضع المسدسين فوق المغسلة القريبة، وفي متناول يده.

جفّف خليل نفسه، وحمل حقيبة سفره، والمسدسين، والسترة الواقية من الرصاص، ومن ثمّ توجّه عائداً إلى غرفة النوم، فوضع ملابسه وارتدى ملابس داخلية نظيفة، وربطة عنق مختلفة، وزوجاً من الجوارب كان في الحقيبة.

كما ارتدى السترة الواقية من الرصاص مرة أخرى، وأخرج من أنبوب معجون الأسنان قطعة من اللاصق لشاربه، ووقف أمام مرآة غرفة النوم، وأعاد تثبيت الشارب.

التقط خليل بعد ذلك جهاز التحكم عن بعد الخاص بالتلفاز، وجلس فوق الفراش، وراح يقلّب القنوات حتى عثر على قناة الأخبار، وفهم أن ما يراه على الشاشة الآن هو إعادة لبث سابق للأخبار، وفكّر أنه ربما كان هناك شيء من المفيد أن يعرفه.

مكث خليل يشاهد القناة الإخبارية تلك لخمس عشرة دقيقة أو نحوها، ثم شاهد مذيع الأخبار يقول "المزيد حول مأساة مطار كنيدي عصر اليوم". تبع ذلك ظهور مشهد لمطار كنيدي على الشاشة، حيث استطاع خليل تحديد مكان المنطقة الأمنية عن البعد، بل واستطاع رؤية ذيل الطائرة 747 الطويل وقبّتها المرتفعين عن سور المنطقة.

كان المذيع يقول "ويتزايد عدد الخسائر في الأرواح، فيما يؤكد مسؤولون بالمطار والخطوط الجوية أنه من المحتمل أن يكون غازٌ سام قد انبعث من إحدى الحقائب التي تم تسريبها إلى مخزن الحقائب في الطائرة بشكل غير قانوني، مما أسفر عن مقتل مئتي شخص على أقل تقدير ممن كانوا على متن الرحلة ترانس - كونتيننتل 175".

واصل مذيع الأخبار بيانه لفترة، ولكن لم يكن تقريره يحمل شيئاً مفيداً لخليل. ثم انتقل المشهد إلى صالات الوصول حيث أصدقاء وأقارب الضحايا يبكون.

كان المكان يعج بالمراسلين حاملين مكبرات الصوت خاصتهم، حيث كانوا جميعهم يحاولون عقد لقاءات مع هؤلاء الباكين، ووجد خليل هذا غريباً جداً. فلو أنهم يظنون أن الأمر حادثٌ بحق، فماذا يتوقعون من هؤلاء الباكين أن يقولوا؟ فماذا يعرفون بأي حال؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق. لكن في حال اعترف الأميركيون بأن هذا هجوم إرهابيّ، فعندها يصبح تصوير هؤلاء في حزنهم أمراً حتمياً بغرض الدعاية الإعلامية. أما والأمر هكذا، فيبدو أن المراسلين أرادوا فقط أن يتعرفوا على أصدقاء وأقارب الضحايا. من تلك اللقاءات، أدرك خليل أن بعض هؤلاء المنتظرين ما زال يحدوهم الأمل أن يكون هناك أحياء، من بينهم أحباؤهم الذين أتوا لاستقبالهم، وكان بمقدور خليل أن يؤكد لهم أن الجميع قد لقوا حتفهم.

ظل خليل يتابع البيان، مندهشاً من بلاهة هؤلاء القوم، والمراسلين بصفة خاصة. أراد أن يجد أحدهم يتحدث عن رجل الإطفاء الذي قُتل على متن الطائرة، إلا أن

أحداً لم يذكره. كما لم يرد أي ذكر لنادي الفاتحين، بيد أن خليلاً كان يعرف أن هذا الجزء لن تتم الإشارة إليه.

انتظر خليل أن يعرضوا صورته على الشاشة، ولكنهم لم يفعلوا، بل وانتقل المشهد مرة أخرى إلى استديو محطة الأخبار حيث كان المذيع يقول "كما لم يزل الجدل قائماً حول هبوط الطائرة بمفردها، ولدينا هنا الكابتن فريد إيمز، طيار سابق لطائرة 747، بالخطوط الأميركية".

أومأ الكابتن إيمز، وتوجه إليه المراسل بالسؤال "كابتن إيمز، هل من الممكن أن تكون هذه الطائرة قد هبطت بمفردها تماماً، دون أي تحكم بشري على الإطلاق؟"

أجاب الكابتن إيمز "نعم، هذا ممكن، وهذا في الواقع شيء روتيني جداً. فكل الطائرات تستطيع التحليق وفق مسار مبرمج على نحو مسبق. كما أنه يمكن في الجيل الأحدث من الطائرات أن يتم التحكم آلياً في أجهزة الهبوط والإقلاع، وكذلك اللوحات، والكوابح، بحيث تتم عملية الهبوط على نحو آلي تماماً. غير أن أجهزة الحاسوب لا تتحكم في قوى الدفع العكسية، مما يستلزم المضي على المدرج لمسافة أكبر مما يستلزمها الهبوط الطبيعي، وهي ليست بمشكلة في مدرجات مطار كنيدي الدولي".

استطرد الرجل في هذا لفترة، واستمع إليه أسد خليل بالرغم من أنه لم يكن مهتماً بالفعل. فما شغله بحق هو أنه لم يرد ذكر أي عملاء فيدراليين على الإطلاق، كما لم يذكروا شيئاً عنه، ولم يعرضوا صورته. وخمّن خليل أن الحكومة الأميركية قررت ألا تعلن عمّا تعرفه بالفعل. ليس الآن. وعندما يحين وقت إعلانهم ذاك، سيكون خليل في طريقه نحو إتمام مهمته. كانت الساعات الأربع والعشرين الأولى هي الأشد خطراً، فبعدها تقل فرصة الإمساك به يوماً بعد يوم.

هكذا انتهت قصة الأموات على متن الطائرة، وبدأت المحطة الإخبارية في تناول قصة أخرى. وانتظر خليل ليرى إن كانوا سيذكرون شيئاً عن مقتل جمال جبار، لكن لم يرد شيء من هذا القبيل.

أغلق خليل التلفاز. وفي طريق قيادته نحو الغرفة 15، كان خليل قد ألقى نظرة إلى البوصلة واستطاع تحديد اتجاه الشرق. فنهض عن فراشه، ووجه وجهه ناحية مكة، وشرع يصلي.

وبعدها، استلقى فوق الفراش، وهو بكامل ملابسه، وغط في سبات خفيف.

الفصل الثالث والعشرون

خرجنا - أنا، وكيت مايفيلد، وتيد ناش - من المبنى 26 فيدرال بلازا، ووقفنا على طريق برودواي. كان الطريق شبه خال، وقد حلّت برودة المساء.

التزمنا جميعاً الصمت، إلا أن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك شيء ليُقال، بل كان يعني - حسبما أعتقد - أننا وحدنا للمرة الأولى؛ الثلاثة الذين واجهوا لتوهم موقفاً عصيباً، بالرغم من الكلمات اللطيفة التي أنهى بها كوينج اللقاء، ولم نشأ أن نتحدث في الأمر.

كالعادة، فإنك لا تجد سيارة أجرة حينما تحتاج إليها، فوقفنا هناك، نشعر بالبرد. وأخيراً قالت كيت "ألا تريدون شراباً يا رفاق؟"

أجابها ناش "لا، شكراً. فيجب أن أجري اتصالاً هاتفياً مع لانغلي".

"وماذا عنك يا جون؟"

كنت بحاجة إلى الشراب، ولكنني أردت أن أكون بمفردي، فقلت لها "لا، أشكرك، سأعود إلى المنزل لأنام قليلاً". ولمّا لم أرَ أي سيارة أجرة، أردفت قائلاً "سأسلك الطريق الجانبي. أيحتاج أحدكما إلى مساعدة في اتجاهات الطريق الجانبي؟"

قال ناش "سأنتظر سيارة أجرة". وأظنه لم يكن يعرف بوجود طريق جانبي في مدينة نيويورك.

وقالت كيت "وأنا سأتشارك سيارة الأجرة مع تيد".

"حسناً، إلى اللقاء في لاغارديا".

قلت هذا، ومشيت نحو الزاوية ملقياً نظرة إلى البرجين بينما كنت أدور شرقاً نحو شارع دوان.

ارتفع أمامي مبنى مؤلف من أربعة عشر طابقاً، يطلق عليه اسم *شرطة بلازا واحد*، واجتاحتني موجة من الحنين، متبوعة بشريط لحياتي السابقة؛ أكاديمية الشرطة، ثم مجند جديد، ثم شرطي شارع، فشرطي مدنيّ، ثم درع المحقق الذهبي، وقبل تركي المفاجئ لعملي كنت قد اجتزت اختبار رتبة العريف، وكنت على وشك الحصول على ترقية. إلا أن ظروفاً خارجة عن إرادتي أنهت كل هذا في لحظة. ثم بدأ الفصل الثاني بتعييني محاضراً في

جون جاي. ثم وحدة مكافحة الإرهاب، حيث المشهد الثالث والأخير في حياة عملية قد تكون رائعة في بعض فصولها، وقد لا تكون كذلك في بعضها الآخر.

ثم استدرت شمال الشارع المركزي، وواصلت السير ماراً بدور العدل عبر الحي الصيني، وحتى مدخل الطريق الجانبي الذي أقصده.

ربما كانت واحدة من الأفكار التي طرأت على أذهاننا حول السير في الطريق الجانبي هي تربص أسد خليل بنا. في الحقيقة لم يحدث قط؛ مع بعض الاستثناءات الطفيفة أن طارد أحدٌ ما – سواء منظمة إجرامية، أو مجموعة إجرامية، ولا حتى ملوك تجارة المخدرات - عميلاً فيدرالياً في أميركا. لكننا شرعنا نرى أشياءً جديدة هنا مع المجموعات المتطرفة. فهناك أحداث، مثل مقتل عميل وكالة الاستخبارات المركزية في موقف السيارات، أسفرت عن الاستشراف المتزعزع وغير الآمن للمستقبل. ولقد وصل المستقبل اليوم مع رحلة الطيران 175.

كنت قد وصلت إلى الحي الإيطالي الصغير، ووجدَت قدماي طريقهما إلى مطعم غويليو في شارع مُوت. فدلفت المطعم قاصداً المشرب بداخله.

كان المطعم مزدحماً في ليلة السبت هذه، ومعظم الرواد مجموعات مؤلفة من ستة أفراد وأكثر؛ أشخاص من أهل مانهاتن، وتلك الأنماط التي تجدها حول الجسور والأنفاق، وبعض العائلات التي تقطن الحي الإيطالي الصغير، وبعض السائحين من تلك المناطق حيث الناس ذوي شعر أشقر. لكنني لم أرَ أياً من الإيطاليين، الذين عادة ما يتجنبون الحي الإيطالي في عطلات نهاية الأسبوع، حيث يأتي الناس لينظروا إليهم.

ثم تذكرت حادثة إطلاق الرصاص على أحد أساطين المافيا هنا في ليلة يوم جمعة منذ نحو عشر سنوات. وبالرغم من أنه تلقى الطلق الناري على الرصيف لدى خروجه من المطعم، إلا أنه ارتد إلى المطعم ثانية عبر واجهته الزجاجية بعد أن أطاحت به رصاصة أطلقها عليه قاتل استأجره أحد أبناء المنطقة. وكما أذكر أن رجل المافيا هذا لم يلقَ حتفه لأنه كان مرتدياً سترة واقية من الرصاص، إلا أنه قُتل في ما بعد على يد امرأة متزوجة كان يتحرش بها.

على أي حال، لم أكن أعرف عامل المشرب هذا، ولا أيًّا من هؤلاء حول المشرب أو الطاولات. وأحياناً خلال الأسبوع كنت أصادف أحداً أعرفه، أما الليلة فلا، وكان هذا جيًّدا بالنسبة لي.

طلبت كأساً مضاعفاً من الشراب مع بعض المأكولات الخفيفة، فما من داعي لإضاعة الوقت. وفيما رحت أرتشف الشراب، لاحظت وجود تلفاز فوق المشرب، غير أنهم أبقوا صوته خافتاً. وفي أسفل الشاشة، حيث عادة ما

ترد أسعار البورصة على شريط متواصل أثناء الأسبوع، كان هناك شريط يخبر عن الأهداف الرياضية. أما على الشاشة نفسها فكان يعرض فيلم كوميدي عن المافيا يُدعى *السبرانو*، وكان يشاهده كل من في المشرب. فأنا أعرف أن رجال المافيا يحبون مثل هذه العروض.

بعد عدة كؤوس، وحالما شعرت بتحسن، غادرت المكان، واستقليت سيارة أجرة، وهي كثيرة في الحي الإيطالي ذاك، ومن ثم عدت إلى شقتي في 72 الشارع الشرقي.

أنا أعيش في بناية نظيفة، وحديثة، ومرتفعة، بإطلالة رائعة على النهر الشرقي، ولا تجد في شقتي أي مظهر من المظاهر العابثة التي عادة ما ترتبط بمحققي نيويورك غير المتزوجين. ربما كانت الفوضى تسود حياتي ولكنّ مسكني كان نظيفاً. ربما يعود هذا جزئياً إلى زواجي الأول الذي استمر قرابة العامين. كان اسم زوجتي روبين، وكانت مساعدة المدعي العام في مكتب مانهاتن حيث قابلتها أول مرة.

معظم المساعدات في مكاتب الإدعاء العام يتزوجن محامين، إلا أن روبين تزوجت شرطياً، وقد زوّجنا قاضٍ، وربما كان يجدر بي أن أستعين بهيئة محلفين في هذا الشأن.

على أي حال، وكما هو معتاد مع المهرة من مساعدي الإدعاء العام، حصلت روبين على وظيفة في شركة محاماة متخصصة في الدفاع عن التافهين الذين كنا - أنا وهي - نحاول دائماً التخلص منهم. لكن المال الذي كانت تتقاضاه كان جيداً بحق، فيما ساءت حالة زواجنا بسبب الاختلافات الفلسفية من أكثر الأنواع تناقضاً. فحصلت أنا على الشقة، بالرغم من أن الثمن كان باهظاً.

حيّاني ألفريد - حارس البناية الليلي - وفتح لي الباب.

تفقدت صندوق البريد الخاص بي، وكان ممتلئاً ببريد تافه من الإعلانات، وكنت أتوقع بشكلٍ ضئيل أن أجده محتوياً على قنبلة من تيد ناش، إلا أن الرجل كان يحتفظ برباطة جأش رائعة حتى الآن.

استقللت المصعد إلى أعلى، ثم دخلت شقتي وأنا أتخذ بعض الإجراءات الوقائية.

كنت قد وجدت صعوبة في التعامل مع ألفريد في أول شهر أو شهرين من زواجي، حيث لم يكن الرجل يحتمل فكرة أنني كنت أقيم علاقة حميمة مع زوجتي التي كانت تعجبه كثيراً. وعلى أي حال، أطلعناه - هو وحرّاس البناية - أننا نعمل في مجال تطبيق القانون، وأن لنا أعداء، ولقد تفهموا جميعاً الموقف، بينما حرصنا نحن على أن تعبّر مكافآت الميلاد والفصح عن تقديرنا لولائهم ويقظتهم.

من ناحية أخرى، ومنذ طلاقي، أعتقد أن ألفريد يؤجر شقتي للمجرمين في غيابي مقابل عشرين دولاراً من البقشيش.

دلفت إلى غرفة المعيشة بشرفتها الواسعة، ومنها إلى مخدعي، وشغّلت التلفاز على محطة السي أن أن الإخبارية. لم يكن التلفاز يعمل بكفاءة، حيث كان بحاجة إلى بعض أعمال الصيانة والتي فعلتها بنفسي بأن طرقت عليه ثلاث مرات بيدي، فظهرت صورة بيضاء على الشاشة فيما كانت السي أن أن تقدم تقريراً مالياً.

اتجهت إلى حيث الهاتف، وأدرت جهاز تسجيل مكالماتي؛ بيث بينروز في السابعة وست عشرة دقيقة "مرحباً جون، لديّ إحساس أنك كنت في مطار كنيدي الدولي اليوم، فأنا أذكر أنك قلت شيئاً عن هذا من قبل. كان هذا حادثاً مروعاً... مأساوياً بحق الله. أتمنى لك التوفيق إذا كنت تعمل على هذا. يؤسفني أننا لم نلتقِ الليلة. اتصل بي حالما تستطيع".

هذه ميزة أن يرافق الشرطي شرطية، فكلاهما يتفهم... ولست أظن أنني أرى ميزة أخرى سوى ذلك.

أما الرسالة التالية فكانت من شريكي السابق، دوم فانيلي "اللعنة، هل صحيح ما سمعته من أنك اضطلعت بحادثة مطار كنيدي؟ قلت لك ألا تقبل هذا العمل. اتصل بي!"

"أنت من دبّر لي هذا العمل أيها الغبي الأبله".

هذا بالإضافة إلى بضع رسائل أخرى من بعض الأصدقاء والعائلة، كلها تسأل عن حادثة مطار كنيدي ومدى صلتي بها. لقد أصبحت محور اهتمام الجميع مرة أخرى على نحو مفاجئ. وهو أمر لا بأس به بالنسبة لرجل اعتقد الجميع أنه تحطم واحترق منذ عام واحد مضى.

أما الرسالة الأخيرة - وكانت قبل وصولي بعشر دقائق - فكانت من كيت مايفيلد "أنا كيت، كنت أظنك وصلت إلى المنزل قبل هذا. حسناً، اتصل بي في حال أردت أن نتحدث. أنا في المنزل ولا أظن أنني أستطيع النوم. فلك أن تتصل بي في أي وقت تريد. أحتاج إلى التحدث معك".

في الواقع لم أشعر أن لديّ مشكلة في أن أخلد إلى النوم، لكنني أردت أن أطالع الأخبار أولاً. فنزعت سترتي وحذائي، وحللت ربطة عنقي، وأسقطت نفسي على مقعدي المفضل. كان الرجل المالي ذاك ما زال يتحدث، والنوم يداعب رأسي، وأظنني أدركت أن الهاتف يرن، ولكنني تجاهلته.

أول ما رأيته بعد ذلك أنني كنت في مقعد في طائرة ضخمة، أحاول النهوض من مقعدي وشيء ما يشدني إلى الأسفل. ثم لاحظت أن الجميع من حولي نائمون، ما عدا رجلاً يقف في الممر يحمل في يده سكيناً يقطر دماً، وكان يسير نحوي. هرعت إلى مسدسي في قرابه، لكنه لم يكن هناك، فرفع الرجل سكينه فيما قفزت أنا من المقعد.

أشارت ساعة الفيديو الرقمية إلى أنها الخامسة وسبع عشرة دقيقة صباحاً. بالكاد لدي وقت لأغتسل وأغير ملابسي قبل أن أقصد لاغارديا.

فيما كنت أنزع ملابسي تلك، أدرت المذياع بغرفة نومي، والمضبوط على موجة 1010 وينز الإخبارية.

كان المذيع يتحدث عن مأساة ترانس - كونتيننتل، فرفعت صوت المذياع، وقفزت داخل حوض الاغتسال. كان الرجل يقول شيئاً عن غارة العام 1986. بدا لي أنهم بدأوا بربط الأشياء بعضها ببعض.

تذكرت تلك الغارة الجوية، وكيف أنه تم التنبيه على مديرية شرطة نيويورك وشرطة المطار آنذاك، في حال أسفرت تلك الغارة عن بعض المردودات السيئة علينا هنا. وباستثناء العمل لبضع ساعات إضافية، لا أظن أنني أذكر أن شيئاً خاصاً متعلقاً بهذا الأمر قد حدث وقتها.

لكنني أظن أن هذا الشيء الخاص قد حدث بالأمس. كم هي قوية ذاكرة هؤلاء القوم! قال لي دوم فانيلي - شريكي السابق - ذات مرة مازحاً أن الزهايمر الإيطالي ينسيك كل شيء، ما عدا أنك يجب أن تقتل. لا بد وأن هذا ينطبق على العرب أيضاً، بيد أن الأمر لا يبدو مضحكاً عندما يسفر عن مثل هذه الأشياء.

ـــ

الكتاب الرابع

الفصل الرابع والعشرون

كان الخامس عشر من أبريل يوماً سيئاً، ولم يُنتظر أن يكون السادس عشر أفضل حالاً.

قال ألفريد، حارس العقار الذي أسكن فيه "صباح الخير سيد كوري". وقد استدعى لي سيارة أجرة وجدتها في انتظاري.

"صباح الخير يا ألفريد".

"يذكر تقرير الطقس أن الطقس جيد اليوم. إلى لاغارديا، أليس كذلك؟" قال وهو يفتح لي الباب الخلفي للسيارة، ثم توجه إلى السائق قائلاً "لاغارديا".

جلست على المقعد الخلفي في السيارة التي اندفعت في سيرها على الفور، وقلت للسائق "ألديك صحيفة؟"

فالتقط السائق إحدى الصحف من المقعد الأمامي بجواره وناولني إياها. كانت باللغة الروسية أو اليونانية، فضحك الرجل.

كانت تلك هي الإشارة الأولى التي بدأ بها هذا اليوم السيئ.

قلت له "أنا متأخر، فهلا أسرعت؟ اضغط على الدواسة حتى آخرها".

لم يُظهر الرجل أي إشارة إلى استعداده لكسر القانون، فأخرجت بطاقتي الفيدرالية ووضعتها أمام عينيه.

"والآن أسرع".

بالفعل زاد سائق سيارة الأجرة من السرعة، وفكّرت أنه لو كنت أحمل سلاحي الآن لكنت صوبته إلى أذن هذا الرجل. لكن حقيقة الأمر هي أنه يتبع النظام، كما أنني لست الرجل الذي يستيقظ باكراً على أي حال.

كان المرور يسيراً في هذه الساعة من صباح يوم الأحد فقطعنا المسافة عبر طريق فرانكلين دي روزفلت ثم جسر تريبورا في وقت قياسي. وعندما وصلنا إلى لاغارديا، قلت للسائق "صالة الخطوط الجوية الأميركية".

اتجه الرجل إلى الصالة التي ذكرتها، ثم دفعت له أجره، وأعدت له الصحيفة وأنا أقول "إليك البقشيش". ثم خرجت من السيارة، وألقيت نظرة على ساعتي؛ لم يتبقَ سوى عشر دقائق على موعد إقلاع الطائرة. كان هذا وقتاً حرجاً، لكنني لم أكن أحمل أمتعة ولا سلاحاً لإضاعة الوقت في التفتيش والتحقق.

ثم لمحت خارج الصالة رجلين من شرطة هيئة المطار بملابسهما الرسمية وقد راحا يراقبان كل من يقترب وكأنه آتٍ في سيارة مفخخة. من الواضح أن الخبر قد انتشر، وتمنيت لحظتها لو أن لدى الجميع صورة لأسد خليل.

عندما وصلت إلى داخل الصالة، سألني الموظف لدى شباك التذاكر إن كانت لديّ تذكرة بالفعل أو مكان محجوز باسمي، والحق أنني وددت لو قلت له إن لديّ بالفعل العديد من *التحفظات* حول هذه الرحلة، إلا أن الوقت لم يكن يتسع لذلاقة اللسان، فقلت ببساطة "كوري، جون".

بالفعل وجدني الموظف على قائمة الحاسوب، ومن ثم طبع لي تذكرتي على الفور، ثم طلب مني صورة بطاقة الهوية فأعطيته رخصة قيادة نيويورك خاصتي بدلاً من أوراقي الفيدرالية، والتي عادة ما يتبعها سؤال عمّا إذا كنت أحمل أي أسلحة.

من أحد الأسباب التي قررت من أجلها ألا أحمل سلاحي هذا الصباح هو أنني كنت متأخراً، ولم يكن هناك وقت أضيعه في ملء الأوراق والاستمارات. من ناحية أخرى، كنت مسافراً بالفعل مع أناس مسلحين سيعمدون إلى حمايتي متى لزم الأمر. ولكن، الحق هو أنه متى فكّرت أنك لا تحتاج إلى السلاح، يحدث أن تحتاجه بالفعل. بيد أنه كان هناك سبب آخر أكثر أهمية دفعني ألا أحمل سلاحاً اليوم، ولسوف أرجئ ذكره إلى وقت لاحق.

على أي حال، سألني الرجل إن كنت قد أرسلت أمتعتي إلى الطائرة وأجبته بأنني لا أحمل أمتعة على الإطلاق، فناولني التذكرة وهو يقول "أتمنى لك رحلة سعيدة". كما لو أن الأمر بيدي.

لو أن لديّ بعض الوقت لقلت له "عسى الله يهبنا ريحاً من تلك التي تشتهيها السفن".

مرة أخرى كان هناك شرطي مطار يقف قرب كاشف المعادن، وكان طابور المسافرين يتحرك ببطء شديد، أخيراً عبرت الباب إلا أن الكاشف لم يتعقب كراتي النحاسية.

بينما كنت أسرع نحو البوابة شعرت للحظة بالحنق على هذه الإجراءات الأمنية المكثفة، ولكن من ناحية أخرى سيحصل العديد من رجال الشرطة على أجر مقابل ساعات العمل الإضافية خلال الشهر القادم أو نحو ذلك، وسيغضب العمدة ومن ثم يعمد إلى هز واشنطن علّها تُسقط بعض النقود الفيدرالية من جيوبها، موضحاً أنه خطأ الفيدراليين على أي حال.

على صعيد آخر، من النادر أن تجد من تبحث عنه من خلال العمليات في محطات النقل المحلية هذه، إلا أنه أمر يجب القيام به على أي حال، حيث إنه يجعل انتقال الهاربين في أرجاء البلاد أمراً أكثر صعوبة. ولكن إن افترضنا أن أسد خليل هذا يتمتع بنصف عقل، فإنه قطعاً سيفعل ما يفعله غالبية المجرمين الفارين، فيختفي في مكان ما حتى تهدأ الأمور، أو يستقل سيارة قانونية ويختفي في الطريق السريع، أو - بالطبع - أن يكون قد استقل رحلة إلى الشرق بالأمس.

أعطيت تذكرتي لموظف البوابة، وسرت عبر الممر إلى الطائرة، وسرعان ما أصبحت على متن الرحلة المتجهة إلى كوكولاند، وسمعت المضيفة تقول "في اللحظة الأخيرة".

"أظنه يوم حظي".

"رحلة سعيدة. اتخذ أيًّا من المقاعد".

"ماذا عن المقعد الذي يجلس عليه هذا الرجل هناك؟"

"أعني أيًّا من المقاعد الشاغرة يا سيدي. تفضل بالجلوس".

تحركت إلى داخل الطائرة عبر الممشى، ورأيت أن الطائرة كانت نصف فارغة فانتقيت مقعداً بعيداً عن كيت مايفيلد وجاك كوينج حيث كانا يجلسان بجوار بعضهما بعضاً. بيد أنني تمتمت لهما بكلمتي *صباح الخير* فيما كنت أمضي إلى مؤخر الطائرة، وشعرت بالحسد تجاه جورج فوستر لأنه ليس مضطراً إلى أن يكون على متن هذه الرحلة الآن.

لم يخطر لي أن ألتقط أيًّا من المجلات المجانية الموضوعة عند المدخل، ويبدو أن أحد المسافرين قد أخذ المجلات التي كانت موضوعة في جيب المقعد أمام مقعدي، فقبعت هناك ومكثت أقرأ بطاقة إخلاء الطوارئ حتى أقلعت الطائرة.

وفي منتصف الرحلة تقريباً كنت قد غفوت، فأسقط كوينج نسخة من جريدة التايمز ليوم الأحد فوق صدري فيما كان يعبر الممشى في طريقه إلى الحمام. فعمدت إلى إفاقة نفسي بقراءة العنوان الرئيسي، وكان يقول: *ثلاثمئة من القتلى على رحلة مطار كنيدي*؛ عنوان يدير الرؤوس من الدهشة صباح يوم الأحد هذا.

قرأت القصة كما وردت في التايمز، وكانت سطحية وقد جانبها الصواب؛ قطعاً بفعل الأطباء العاملين على القضية. وورد في السطر الأخير من الخبر أن رجال وكالة الملاحة الفيدرالية ورجال مجلس سلامة النقل الوطني قد أحجموا عن إعطاء المزيد من التفاصيل، ما عدا ذكر أن غازاً ساماً غير معروف قد تسبب في مقتل المسافرين والطاقم. ولم تكن هناك إشارة إلى أن الطائرة قد هبطت بفعل الطيار الآلي، كما لم يذكر الخبر شيئاً عن أي جرائم قتل أو فعل إرهابي، وبالطبع اختفى

نادي الفاتحين من الخبر تماماً. وحمداً لله أن اسم جون كوري لم يرد في أي من سطور الخبر.

إلا أنه من المتوقع أن تكون أخبار الغد أكثر تحديداً، حيث سرعان ما ستنطلق التفاصيل في جرعات سهلة الاستيعاب على نحو يومي، تماماً كذوبان دهن الحوت في قليل من العسل، حتى يعتاد القرّاء على الأمر ثم تبدأ أشياء أخرى في جذب انتباههم.

على أي حال، مضت رحلة الطيران ذات الساعة الواحدة هذه في هدوء وبدون أحداث تستحق الذكر، سوى في ما يتعلق بكوب القهوة السيئ. وما إن دخلنا أجواء مطار رونالد ريغان الوطني حتى شرعنا نتبع نهر بوتوماك، حيث المشهد الرائع لنصب جيفرسون بكل أزهار الكرز المتفتحة، ثم المركز التجاري، الكابيتول، وكل تلك البنايات الحجرية البيضاء التي تضخ دفقات الطاقة الواحدة تلو الأخرى. وخطر لي للمرة الأولى أنني قد عملت لدى بعض هؤلاء.

هبطت الطائرة في موعدها المحدد، ولاحظت أن كوينج كان يرتدي حلته الفيدرالية الزرقاء، ويحمل حقيبة. أما ناش، فكان يرتدي حلة من مجموعة كونتيننتل ويحمل حقيبة كذلك؛ لا شك أنها يدوية الصنع، ربما صنعها مقاتلون تيبتيون من جلد الثور في الهمالايا. وحتى كيت كانت ترتدي حلة زرقاء، إلا أنها بدت عليها أفضل كثيراً مما هي على جاك، وهي أيضاً كانت تحمل حقيبة. أما أنا فارتديت لذاك اليوم حلة رمادية بلون الحمام كانت زوجتي الأولى قد ابتاعتها لي من متجر بارني، وأظن أن سعرها - بعد إضافة الضرائب والبقشيش - قد قارب الألفين دولار. كانت ثرية، ولقد جمعت ثروتها من الدفاع عن تجار المخدرات ومرتكبي الجرائم من نخبة القوم، والآخرين من أصحاب المداخيل المرتفعة. لماذا أرتدي إذاً هذه الحلة؟ ربما أرتديها كنوع من السخرية، كما أنها جيدة جداً وتبدو باهظة الثمن.

بالعودة إلى المطار، كان في انتظارنا سائق بسيارته اصطحبنا في رحلة إلى مقر مكتب التحقيقات الفيدرالية المعروف باسم بناية جي إدغار هوفر.

بينما كنا في السيارة، التزمنا جميعاً الصمت إلى أن التفت إلينا جاك كوينج الذي كان يجلس على المقعد الأمامي بجوار السائق، وقال ”أعتذر إن كان هذا اللقاء قد حال بينكم وبين واجباتكم الدينية ليوم الأحد“.

بالطبع كان مكتب التحقيقات الفيدرالية يوصي شفهياً بالذهاب إلى دار العبادة، وربما كان للأمر وجه عملي أيضاً، بيد أنني لم أتخيل رؤسائي القدامى يقولون شيئاً كهذا، ولم أعرف ماذا عساه يكون الرد المناسب على هذا الاعتذار.

أجابته كيت بقولها ”لا بأس“. بغض النظر عمّا قد يعنيه هذا، بينما تمتم ناش شيئاً بدا وكأنه يعطينا جميعاً العفو والإذن.

في الحقيقة، إنني لست من المنتظمين في الذهاب إلى دار العبادة، ولكنني قلت ”ها هي بناية جي إدغار تطل علينا“.

وهنا رمقني كوينج بنظرة سيئة ثم استدار نحو الأمام مرة أخرى.

أظنه سيكون يوماَ طويلاَ، طويلاَ جداَ.

الفصل الخامس والعشرون

استيقظ أسد خليل في الخامسة والنصف صباحاً، والتقط منشفة من الحمام، وانصرف يمسح كافة الأسطح التي ربما يكون قد لامسها، وترك بصمات أصابعه عليها، ثم استقر فوق الأرض، وراح يصلي صلاة الصبح قبل أن يرتدي ملابسه، ويترك غرفته في ذاك النزل. فوضع حقيبة سفره داخل السيارة الميركوري، وسار عائداً إلى مكتب النزل وهو يحمل المنشفة.

كان الشاب في المكتب الأمامي نائماً على مقعده أمام التلفاز الذي كان لا يزال يعمل منذ الأمس.

التف خليل حول المنضدة الأمامية والمنشفة في يده، ثم وجّه المسدس إلى رأس الرجل وسحب الزناد، فاندفع جسد الشاب بالمقعد ذي العجلات تجاه المنضدة على إثر الطلقة. وعندها دفع خليل بجسد الرجل إلى أسفل المنضدة، وأخرج محفظته من جيبه، ثم النقود من الدُرج، فعثر على كومة إيصالات ونسخ التسجيل فأخذها ووضع كل الأشياء في جيبه. أخيراً مسح بطاقة مفتاحه بالمنشفة المبللة، وأعاد المفتاح إلى اللوحة.

ألقى خليل نظرة على كاميرا المراقبة الأمنية التي لاحظها من قبل والتي سجلت وصوله، بل وعملية القتل والسطو التي قام بها لتوه. فتتبع أسلاكها ووجدها تُفضي إلى غرفة صغيرة خلفية حيث كان هذا الفيديو الذي يقوم بالتسجيل. أخرج خليل الشريط ووضعه في جيبه، ثم عاد إلى المكتب الأمامي حيث وجد زراً كهربائياً كُتب عليه *إشارة الفندق*، فأغلقه وأطفأ الأنوار في المكتب، ثم خرج عبر الباب وتوجّه عائداً إلى السيارة.

كان الضباب الرطب معلقاً في الهواء، فغدت الرؤية صعبة في مجال يتجاوز بضعة أمتار، وبالرغم من ذلك اندفع خليل خارج ساحة الوقوف بدون أن ينير أضواء السيارة، ولم ينرها إلاّ بعد أن ابتعد بنحو خمسين متراً على الطريق.

تابع خليل طريقه حتى اقترب من الحزام الرئيسي، وقبل أن يسلك الطريق، دخل إلى الكاراج الضخم التابع لمجموعة من الأسواق التجارية، حيث دفع ببطاقات وإيصالات التسجيل وشريط الفيديو في المشبك المعدني لإحدى بالوعات الصرف، ثم أخرج النقود من المحفظة قبل أن يلقي بها في نفس البالوعة.

بعدها، عاد خليل إلى السيارة، ودخل طريق الحزام الرئيسي.

كانت الساعة قد غدت السادسة صباحاَ، وبدأ غسق ضعيف يبزغ من جهة الشرق فيشيع بعض الضوء في الضباب المنتشر، كانت الطرقات شبه خالية في صباح الأحد ذاك، ولم يلحظ خليل أيًّا من سيارات الشرطة.

ثم مضى متبعاً الطريق في اتجاهه صوب الجنوب، ثم في انحنائه غرباً، وعبر نهر بوتوماك، وتابع غرباً حتى اتجه إلى الشمال، قبل أن يعبر النهر ثانية. كان يدور حول مدينة واشنطن كالأسد الذي يراقب فريسته، وقد ضبط برنامج الملاح الصناعي على العنوان الذي يقصده في واشنطن، فخرج من الحزام الرئيسي إلى جادة بنسلفانيا، متوجهاً مباشرة إلى قلب عاصمة العدو.

في تمام السابعة صباحاً، قاد خليل السيارة إلى كابيتول هِل. كان الضباب قد انقشع، وبدا مبنى الكابيتول الضخم بقبته البيضاء واضحاً في ضوء شمس الصباح المشرقة. استدار خليل حول المبنى، وأوقف السيارة في ساحة وقوف قرب الجانب الجنوبي الشرقي، ثم أخرج الكاميرا من حقيبة السفر، والتقط صوراً للمبنى تحت ضوء الشمس فيما لاحظ اثنين آخرين على بُعد خمسين متراً يفعلان مثلما يفعل. لم يكن التقاط هذه الصور بالأمر الهام، وكان يمكن أن يقضي الوقت في فعل شيء آخر، إلا أنه فكّر أن هذه الصور ستضحك أبناء وطنه.

رأى خليل سيارات الشرطة في منطقة البوابة حول مبنى الكابيتول فيما لم يكن هناك أي منها في الشارع من حوله.

عند السابعة وخمسٍ وعشرين دقيقة، عاد إلى السيارة وقادها متخطياً بضع بنايات إلى جادة كونستيتيوشن، فأبطأ من سرعته على الطريق المحفوف بالأشجار حيث البنايات السكنية حتى عثر على الرقم 415 فوجد سيارة متوقفة في الممر الضيق أمام منزل، ثم لمح ضوءاً ينبعث من نافذة الطابق الثالث. تابع خليل طريقه وأخذ يدور حول المنزل، أخيراً أوقف سيارته على بُعد نصف بناية، ووضع السلاحين الفيدراليين في جيبي سترته وربض يراقب المنزل.

في تمام السابعة وخمس وأربعين دقيقة كان رجل وامرأة متوسطا العمر يخرجان من الباب الأمامي للمنزل. كانت السيدة متأنقة بينما ارتدى الرجل ثياب جنرال في القوات الجوية زرقاء اللون. فابتسم خليل.

كانوا قد أخبروه في بلده أن الجنرال تيرانس وايكليف رجلاً يحافظ على عاداته، ومن عاداته القيام بواجباته الدينية صباح كل أحد، وغالباً ما يحضر عند الثامنة والربع صباحاً، إلا أنه عُرف أيضاً بحضوره في بعض الأحيان عند الساعة التاسعة والنصف. ويبدو أنه قرر الحضور هذا الصباح عند الثامنة والربع، ولكم سُرَّ أسد خليل بهذا حيث لن يضطر إلى الانتظار ساعة أخرى كان سيمضيها في مكان آخر.

شاهد خليل الجنرال يرافق زوجته إلى سيارتهما. كان الرجل طويلاً ممشوق القوام، وبالرغم من شعره الرمادي إلا أنه كان يسير كشاب في مقتبل العمر. عرف خليل أنه في العام 1986 كان الجنرال وايكليف نقيباً، وإشارة النداء في المقاتلة F-III خاصته كانت ريميت 22. فمقاتلة النقيب وايكليف قاذفة القنابل كانت واحدة من المقاتلات الأربع في سرب الهجوم الذي تسبب بموت عائلته. أما ضابط الأسلحة

لدى النقيب وايكليف فكان القائد وليام هامبريشت الذي لقي مصرعه في لندن في شهر يناير، وها هو الجنرال وايكليف على وشك أن يلقى نفس المصير في واشنطن.

شاهد خليل الجنرال وهو يفتح الباب لزوجته ثم دار حول السيارة وجلس في مقعد السائق، ثم شرع يعود إلى الخلف بالسيارة حتى خرج من الممر.

كان باستطاعة خليل أن يقتلهما في هذه اللحظة، في صباح الأحد الهادئ هذا، إلا أنه قرر أن يفعل ذلك بطريقة أخرى، فعدّل من وضع ربطة عنقه وخرج من السيارة وأغلق بابها.

سار خليل إلى الباب الأمامي لمنزل الجنرال، ودق الجرس فسمع بالفعل صوت الجرس يدوي داخل المنزل.

ثم سمع صوت وقع أقدام تقترب من الباب فتراجع خطوة بحيث يمكن لمن بالداخل رؤيته من العين السحرية. سمع خليل صوت قرقعة معدنية ناجمة عن سلسلة الباب، ولما انفتح شق في الباب رأى بالفعل السلسلة المعلقة ووجه امرأة صغيرة في السن. كانت قد شرعت تقول شيئاً عندما ضرب خليل الباب بكتفه فانفصلت السلسلة وتأرجح الباب فيما سقطت المرأة فوق الأرض، وفي ثانية واحدة كان خليل داخل المنزل مغلقاً الباب من خلفه بينما هو يسحب مسدسه.

"اصمتي".

ظلّت المرأة الصغيرة فوق الأرض الرخامية ونظرة رعب تغزو عينيها.

أشار إليها خليل لتقف على قدميها ففهمت. راح خليل يراقبها للحظة؛ كانت صغيرة في السن، ترتدي عباءة، وكانت حافية القدمين وبشرتها داكنة. وفقاً لمعلوماته، كانت هذه هي مدبرة المنزل وما من آخرين يعيشون بالمنزل، ولكي يتأكد، سألها "من بالبيت؟"

فأجابت في لهجة إنكليزية مشددة "الجنرال بالمنزل".

ابتسم خليل "كلا، الجنرال ليس بالمنزل. هل أبناء الجنرال بالمنزل؟"

هزّت رأسها نافية، ولاحظ أنها كانت ترتجف.

اشتم خليل رائحة القهوة تنبعث من مكان ما، فقال لها "إلى المطبخ".

استدارت في تردد، وسارت عبر الممشى الطويل إلى المطبخ الكائن في مؤخر المنزل وتبعها خليل. كان ينظر في أرجاء المنزل من حوله، ورأى طبقين وكوبين من القهوة فوق المنضدة المستديرة بجوار النافذة الكبيرة المقوسة.

قال لها خليل "إلى السرداب؛ الطابق السفلي". وأشار إلى أسفل.

أشارت الخادمة إلى باب خشبي في الحائط، فقال لها "اذهبي إلى الأسفل".

فتوجَّهَت نحو الباب وفتحته، وأنارت الضوء، ثم هبطت درجات السلم إلى السرداب وتبعها خليل مرة أخرى.

كان السرداب يعج بالصناديق والعلب الكرتونية، أخذ خليل ينظر حوله حتى وقعت عيناه على باب ففتحه. أفضى الباب إلى غرفة صغيرة احتوت على وحدة التدفئة، فأشار إلى الخادمة كي تدخل الغرفة، وما إن خطت خطوة واحدة عبرت بها إلى داخل غرفة وحدة التدفئة حتى أطلق خليل رصاصة على رأسها من الخلف في المكان الذي تلتقي فيه الجمجمة بالعمود الفقري. فمالت المرأة إلى الأمام وكانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة حتى قبل أن ترتطم بالأرض.

أغلق خليل باب غرفة وحدة التدفئة، وارتقى السلم إلى حيث المطبخ. وفي الثلاجة وجد علبة من الكارتون تحتوي على بعض الحليب فشربها، ثم رماها في سلة النفايات. بعد ذلك، أخرج علبتي لبن من الثلاجة، وتناول ملعقة قهوة كانت فوق المنضدة، وشرع يلتهم العلبتين بسرعة. فلم يدرك خليل كم كان جائعاً حتى شمّ رائحة الطعام.

عاد خليل أدراجه إلى الردهة وحتى الباب الأمامي، وشرع يحل المزلاج المعدني من السلسلة المعلقة، وأعاد تثبيته وإحكام مساميره في الإطار الخشبي للباب والذي سبق أن انخلع منه إثر ارتطامه بالباب. ثم ترك الباب مغلقاً ولكن دون أن يضع السلسلة حتى يستطيع الجنرال وزوجته الدخول عند عودتهما.

أخذ خليل يتجول في أرجاء الطابق الأرضي ذاك فلم يجد سوى غرفة الطعام الكبيرة بجوار المطبخ، ثم وجد غرفة الجلوس عبر الردهة، وحماماً صغيراً.

ارتقى درجات السلم إلى الطابق الثاني فوجد غرفة المعيشة الواسعة تمتد عبر هذا الطابق بأسره، ولم يكن هناك أحد فتابع صعوده حتى الطابق الثالث حيث غرف النوم، ففتشه. كان من الواضح أن اثنتين من غرف النوم تلك كانتا لابني الجنرال؛ فتاة وولد، وتمنى خليل لو أنهما نائمان في فراشيهما في هذه اللحظة، إلا أن الغرفتين كانتا خاليتين. أما غرفة النوم الثالثة فكانت للضيوف، بينما كانت الرابعة غرفة النوم الرئيسية.

ثم صعد إلى الطابق الرابع، حيث غرفة المكتب الواسعة، وغرفة نوم صغيرة جداً خمّن خليل أنها غرفة الخادمة.

نظر خليل حوله في الغرفة ذات الجدران الخشبية ولاحظ التذكارات العسكرية المثبتة على الجدران، وفوق المنضدة، والطاولة الجانبية. ومن السقف تدلى في خيط من النايلون نموذج للطائرة F-III بأنفها موجهاً إلى أسفل وجناحيها إلى الخلف كما لو أنها في وضع هجوم، رأى خليل القنابل الأربع الفضية أسفل الجناحين، فلم يتمالك نفسه فانتزع نموذج الطائرة ذاك من خيطه وسحقه بيديه حتى مزقه إرباً، وراحت الأجزاء البلاستيكية تسقط فوق الأرض فغرسها في السجادة بقدمه وهو يتمتم "عسى الله أن يلعنكم جميعاً في جهنم".

أخيراً، نجح خليل في السيطرة على انفعالاته، وتابع استكشاف الغرفة. على الحائط كانت صورة فوتوغرافية من اللونين الأبيض والأسود تضم ثمانية أشخاص يقفون أمام مقاتلة من طراز F-III وقد كُتب أسفلها *لاكينهيث، 13 أبريل، 1987*. عاود خليل قراءة التعليق مرة أخرى؛ لم يكن هذا هو التاريخ الصحيح للهجوم الجوي، ثم أدرك أن أسماء هؤلاء الرجال ومهمتهم تلك كانت سرية، لذلك

وضع الجنرال تاريخاً مزيفاً للصورة حتى في مكتبه الخاص. من الواضح أن هؤلاء الجبناء لم يستمتعوا بالتباهي بما فعلوه.

من الصورة انتقل خليل إلى المنضدة الماهوغونية الضخمة وشرع يفحص النثريات فوقها ومن بينها دفتر مواعيد الجنرال، ففتحه على يوم الأحد، 16 أبريل، حيث كتب الجنرال *دار العبادة الوطنية، الثامنة والربع*، وما من شيء آخر لذاك اليوم. أدرك خليل أن ما كتبه الجنرال كان كي لا يفطن أحد إلى غيابه. ثم انتقل إلى يوم الاثنين حيث كان لدى الجنرال اجتماع في العاشرة صباحاً، وعندئذ سيكون رفيق آخر من رفاق السرب قد لقي حتفه.

ثم نظر خليل إلى تاريخ 15 أبريل، ذكرى الهجوم، وقرأ "التاسعة صباحاً، مكالمة جماعية، السرب".

وأومأ خليل، إنهم على اتصال إذاً. ربما تكون هذه مشكلة، خاصة بعد أن بدأوا يسقطون الواحد تلو الآخر. ولكنّ خليل كان يتوقع أن بعضهم سيظل على اتصال بالآخرين بكل تأكيد، وإذا تحرك بسرعة كافية فسيتمكن من النيل منهم جميعاً قبل أن يدركوا أنهم مستهدفون.

وإلى جوار الهاتف كانت مفكرة الهاتف الشخصية الخاصة بالجنرال، ففتحها خليل وتصفحها بسرعة بحثاً عن أسماء الرجال الآخرين الموجودين في الصورة، ولكم شعر بالرضا والسعادة عندما وجد كلمة *متوفى* بجوار اسم العقيد هامبريشت. ثم رأى عنوان المدعو تشب ويجينز وقد شُطب عليه ووضعت علامة استفهام حمراء بجواره.

فكّر خليل في أن يحتفظ بالمفكرة، إلا أن رجال الشرطة سيلاحظون أنها قد اختفت دون شك وسيلفت هذا الانتباه إلى الدافع وراء جريمة القتل التي هي على وشك الحصول في هذا المكان، فأعاد المفكرة إلى مكانها فوق المكتب ثم مسحها ودفتر المواعيد الجلدي بمنديل.

عندما شرع يفتش أدراج المكتب، وجد خليل في الدرج الأوسط منها مسدساً آلياً من عيار 45 مل، مطليًّا بالفضة، وكان مخزنه مليئاً، فجذب صمام الأمان، وثبّت

المسدس في الحزام حول خصره.

مضى خليل نحو الباب، وتوقف على نحو مفاجئ قبل أن يستدير، ويعمد إلى التقاط أجزاء نموذج الطائرة المحطمة من فوق السجادة بحرص بالغ ويرميها في سلة المهملات.

بعدها عاد إلى الطابق الثالث، وأخذ يجول في غرف النوم، وهو يلتقط منها ما يجده من أموال ومجوهرات وساعات وحتى بعض من ديكورات الجنرال العسكرية، ثم وضع كل هذه الأشياء في كيس وسادة. أخيراً، استقر في المطبخ مجدداً وهو يحمل الكيس ذاك، فالتقط علبة عصير من الثلاجة وجلس إلى منضدة مطبخ الجنرال ينتظر.

كانت ساعة الحائط تشير إلى التاسعة إلا خمس دقائق، ومن المفترض بالجنرال وزوجته - بما عُرف عنهما من انضباط - أن يعودا إلى المنزل قبل التاسعة والنصف. ولن تحلّ الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة إلا وهما قتيلان.

ـــ

الفصل السادس والعشرون

عبرنا نهر بوتوماك فوق أحد الجسور، ومن ثم أصبحنا داخل المدينة. عند الثامنة والنصف من صباح الأحد ذاك، كانت الطرقات شبه خالية إلا من بعض المسرعين، وراكبي الدراجات، وبعض العائلات التي تقوم بالسياحة وتستمتع بالربيع، فيما بدا الأولاد غير مستوعبين لإيقاظهم يوم الأحد في هذه الساعة المبكرة.

وبينما كانت السيارة تمضي، ارتفع مبنى الكابيتول أمامنا، ورحت أتساءل ما إذا كان الكونغرس قد علم بالأمر برمته أم بعد. فعندما تبدأ المتاعب وتسوء الأمور تعمد السلطة التنفيذية إلى إطلاع الكونغرس على الأمر مع خطة معدة لمواجهة الموقف ثم تسأله المباركة. وعلى حدّ علمي، كانت هناك طائرات حربية تتوجه إلى بلد خليل بالفعل، إلا أنه لا شأن لي بالأمر.

وصلنا إلى جادة بنسلفانيا حيث يقع مبنى جي إدغار هوفر، غير بعيد عن الهيئة الأم؛ وزارة العدل.

توقفنا أمام مبنى الهوفر؛ وهو كتلة خرسانية قبيحة بشكل استثنائي، بحجم وشكل خارج حدود الوصف.

أذكر أنني كنت هنا ذات مرة لحضور أحد المؤتمرات، ثم ذهبت في جولة، وهو أمر حتمي في هذه المنطقة، بصفة خاصة في متحفهم العزيز وإلا فلن تحصل على وجبة الغداء.

ترتفع مقدمة المبنى إلى سبعة طوابق فقط، وذلك تماشياً مع ضوابط الارتفاعات في جادة بنسلفانيا، بينما يبلغ ارتفاع الجزء الخلفي أحد عشر طابقاً وتبلغ مساحته نحو مليونين ونصف من الأقدام المربعة، أي أنه أكبر من مقر الكيه جي بي القديم في موسكو. يعمل بالمبنى قرابة ثمانية آلاف شخص معظمهم من موظفي الدعم والمختبرات، بالإضافة إلى ألف من الوكالات الفعلية والتي لا أحسدها على وجودها هناك، تماماً كما لا أحسد رجال الشرطة الذين يعملون في شرطة بلازا واحد. فالارتياح والسعادة في العمل لهما علاقة مباشرة بالمسافة بينك وبين المقر الرئيسي لعملك.

وقفنا أمام المبنى، ثم دخلنا الفناء الصغير الذي يُفضي إلى بهو المبنى.

وبينما جلس الباقون في انتظار مضيفنا، شرعت أتجول في أرجاء البهو الذي تتوسطه النافورة، وتنتشر في أرجائه مقاعد الانتظار التي أذكرها من زيارتي السابقة. فوق المقاعد كان النقش البرونزي لمقولة جي إدغار هوفر "إن السلاح الأكثر فاعلية ضد الجريمة هو التعاون... جهود الهيئات المعنية بتطبيق القانون مصحوبة بدعم وفهم الشعب الأميركي". مقولة جيدة، أفضل من شعار مكتب التحقيقات الفيدرالية غير الرسمي، الذي يقول "لا مجال للخطأ هنا".

ها أنا أبدأ من جديد، ويجدر بي أن أراقب سلوكي هنا. لكن الأمر يتعلق بالأنا الذكورية، وكم هي كثيرة القيادات الذكورية في مجال تطبيق القانون.

المهم، كانت الصور المعتادة معلقة على الحائط؛ صور الرئيس، والمدّعي العام، ومدير مكتب التحقيقات الفيدرالية، وغيرها. بدت تلك الصور ودودة وكان ترتيبها على الجدران في مجموعات وفقاً للتسلسل القيادي حتى أن المرء قد يخطئ ويظنهم مجرمي أميركا الأكثر طلباً. في الحقيقة، كان هناك مدخل آخر للمبنى؛ مدخل للزوار، وهو المدخل الذي تبدأ منه الجولات السياحية، وهناك كانت وجوه العشرة الأكثر طلباً معلقة بالفعل. من المدهش أن ثلاثة من الهاربين قد تم القبض عليهم من خلال تعرف الزوار عليهم في تلك الصور بالتحديد، ولم يكن لديّ شك أن صورة أسد خليل تحتل الصدارة بين تلك الصور الآن، فربما تجد أحد الزائرين يصيح "هاي، لقد أجّرت غرفة لهذا الرجل". وقد لا تجد.

السبب الذي أتيت من أجله إلى هنا منذ خمس سنوات كان لحضور مؤتمر أقيم عن القتلة المحترفين. ومن بين الحضور المدعوين كان المحققون في جرائم القتل وكانوا جميعاً من المجانين؛ أمثالي، وشرعنا نطلق المزحات على رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية حتى ظن علماء النفس الفيدراليون أننا بحاجة إلى مساعدة نفسية.

على أي حال، لنعد إلى الحاضر المؤلم في مقر مكتب التحقيقات الفيدرالية. لم يكن هذا يوم عمل عاديًّا بالطبع، وبدا المبنى شبه خالٍ، بيد أنه لم يخالجني شك في أن العمل يجري على قدم وساق في قسم مكافحة الإرهاب، وتمنيت ألا يلومونا لإفسادنا عطلة الأحد عليهم.

عمد كل من جاك، وكيت، وتيد إلى إظهار الأسلحة التي يحملونها لدى وصولنا إلى المنضدة الأمنية، مما ألزمني بالإفصاح عن حقيقة أنني لا أحمل سلاحاً، وهو أمر مثير للاستنكار. لكنني علّلت الموقف لرجل الأمن بقولي "إن يديّ مسجلتان كسلاحين خطرين". نظر الرجل إلى جاك الذي كان يحاول جاهداً أن يتجاهل بحق حقيقة أنني معه.

بحلول التاسعة صباحاً كان هناك من يقودنا إلى غرفة اجتماعات أنيقة في الطابق الثالث، حيث قدّموا لنا القهوة ثم قابلَنا ستة رجال وامرأتان. كانت أسماء الرجال الستة كلها تبدو مثل بوب، وبيل، وجيم، أو ربما كان هذا وقعها جميعاً على الأذن، بينما المرأتان كانتا جان وجين، وكانوا جميعاً يرتدون ثياباً زرقاء اللّون!

وما بدا كيوم طويل تحفه التوترات بدأ يتحول إلى الأسوأ. لم يكن الأمر أنهم كانوا مؤنبين أو عدوانيين - فقد كانوا مهذبين ومتعاطفين - ولكن ساورني إحساس أنني أعود إلى المدرسة الابتدائية وأنني في مكتب الناظر وهو يقول لي "ماذا يا جوني، أتظن أنك وعيت الدرس، وستتذكره في المرة القادمة التي يأتي فيها الإرهابيون إلى أميركا؟"

لكم شعرت بالسعادة لأنني لم أحضر سلاحي معي، فلربما قتلت المجموعة بأسرها.

لكننا لم نظل في غرفة المؤتمرات ذاتها طول الوقت، بل انتقلنا إلى عدة مكاتب أخرى في المكان في استعراض يشبه استعراض الحصان والكلب في السيرك، حيث نقوم بالحركات ذاتها لجماهير مختلفة.

بالمناسبة، كان المبنى من الداخل يتساوى مع بساطته من الخارج؛ كانت الجدران بيضاء اللون في لون الكتان فيما كانت الأبواب رمادية قاتمة. وأخبرني أحدهم ذات مرة أن جي إدغار قد منع وضع اللوحات على الجدران ولقد ظل الحال هكذا، بلا لوحات. وكل من يعلق لوحة يموت ميتة غامضة.

كما سبق وقلت، كان للمبنى شكل غريب، وفي أغلب الأحيان يصعب عليك تحديد موقعك. كنا من حين لآخر نمر بجدران زجاجية تقع خلفها المعامل والمختبرات، أو أماكن أخرى يعمل النّاس فيها. وبالرغم من أن اليوم كان يوم الأحد إلا أنني وجدت قلة من الموظفين ينحنون فوق المجاهر أو أجهزة الحاسوب، أو يروحون هنا وهناك حاملين كؤوساً زجاجية. والكثير مما قد يبدو كالنوافذ هنا ما هو إلا مرايا مزدوجة حيث يراك من في الداخل فيما لا ترى شيئاً من الخارج، وحيث يراك من هم في الناحية الأخرى ويراقبوا أدق حركاتك ولا تراهم أنت.

هكذا قضينا طيلة فترة الصباح في سلسلة من الاستجوابات كنا نحن المتحدثين الأساسيين فيها بينما كان الآخرون إما يومئون أو يستمعون. كثيراً ما كنت أجهل إلى من نتحدث، وأحياناً كانت الدهشة والحيرة اللتان تصيبان مستمعينا تدفعانني إلى الشك بأنه تم توجيهنا إلى الغرفة الخطأ كما لو أن هؤلاء الأشخاص قد أتوا إلى المكتب ليكملوا عملاً ما في يوم العطلة فوجدوا أربعة أشخاص من نيويورك يدخلون عليهم ويتحدثون عن غاز سام ورجل يُدعى أسد. حسناً، قد أكون مبالغاً بعض الشيء، ولكن بعد ثلاث ساعات رحنا نعيد فيها نفس القصة لأفراد مختلفين بدت الأشياء مشوشة.

من حين لآخر كان أحدهم يوجِّه إلينا سؤالاً معيناً، ونادراً ما كان يُطلب منا إبداء رأينا أو وجهة نظرنا. ولكن لم يحدث قط أن أخبرنا أي شخص عن أي شيء يعرفه، فقد كان هذا الجزء مؤجلاً إلى ما بعد الغداء - كما أخبرونا - وفقط إذا أكلنا كل الخضار!

الفصل السابع والعشرون

سمع أسد خليل صوت الباب الأمامي يفتح، ثم تناهى إليه صوت المرأة والرجل يتحدثان قبل أن يرتفع صوت المرأة وهي تنادي "روزا، لقد عدنا".

انتهى خليل من شرب القهوة التي كان يحتسيها، وسمع صوت باب الغرفة يفتح ويغلق، ثم أصبحت الأصوات أعلى فيما كانا يقتربان من المدخل.

وقف خليل، وتحرك إلى جانب باب المدخل، وأخرج مسدس الجنرال الآلي الفضي، وأرهف سمعه إلى وقع خطواتهما فوق الأرضية الرخامية وهما يقتربان نحوه.

ثم دخل الجنرال وزوجته إلى المطبخ الكبير، حيث توجّه الأول إلى الثلاجة، وقصدت الثانية إبريق القهوة الكهربائي فوق المنضدة. كان الاثنان يوليانه ظهريهما، وانتظر أن يشعرا بوجوده فيما كان مستنداً إلى الحائط، فدس المسدس في سترته وانتظر.

أخرجت المرأة كوبين من الخزانة، وصبت القهوة لها ولزوجها، بينما الأخير ما زال ينظر إلى داخل الثلاجة، ويقول "أين ذهب اللبن؟"

قالت السيدة وايكليف "إنه هناك".

قالت هذا، ثم استدارت نحو منضدة المطبخ، ورأت خليلاً، فأطلقت صرخة فزع، وسقط الكوبان من يديها فوق الأرض.

التفت الجنرال فوراً، ونظر إلى زوجته. وبتتبع مسار عينيها المحدقتين، ووجد نفسه في مواجهة رجل طويل القامة يرتدي حلة. فالتقط الجنرال أنفاسه، وقال "من أنت؟"

"أنا مبعوث".

"ومن سمح لك بالدخول إلى هنا؟"

"خادمتك".

"وأين هي؟"

"ذهبت لشراء اللبن".

فصاح الجنرال وايكليف "حسناً، اخرج من هنا الآن وإلا اتصلت بالشرطة".

"هل استمتعت بصلاتك في دار العبادة اليوم؟"

قالت جيل وايكليف "من فضلك ارحل الآن، وأعدك أننا لن نتصل بالشرطة إذا فعلت ذلك".

تجاهلها خليل وقال ‘‘أنا أيضاً رجل متدين، ولقد درست التوراة، والإنجيل، والقرآن بالطبع’’.

وبذكر القرآن بدأ الجنرال وايكليف يدرك فجأة من عساه يكون هذا الدخيل.

تابع خليل حديثه ‘‘هل تعرف شيئاً عن القرآن؟ كلا؟ لكنك تقرأ التوراة. لماذا إذاً لا يقرأ المسيحيون كلمة الله التي أوحى بها إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم؟’’

‘‘انظر. أنا لا أعرف من أنت’’.

‘‘بل تعرف بالطبع’’.

‘‘حسناً، أنا أعرف من أنت’’.

‘‘نعم. أنا أسوأ كوابيسك، مثلما كنتَ يوماً أسوأ كوابيسي’’.

‘‘عمَّ تتحدث؟’’

‘‘أنت الجنرال تيرانس وايكليف، وأظنك تعمل لدى وزارة الدفاع الأميركية. أليس كذلك؟’’

‘‘هذا ليس من شأنك. وآمرك بالرحيل من هنا. الآن’’.

لم يجبه خليل، واكتفى بالنظر إلى الجنرال الواقف أمامه في حلته الزرقاء، أخيراً قال ‘‘أرى أنك شديد التأنق أيها الجنرال’’. فتوجه الجنرال إلى زوجته وقال ‘‘جيل، اتصلي بالشرطة’’.

وقفت المرأة متجمدة في مكانها للحظة، ثم تحركت نحو مائدة المطبخ حيث الهاتف معلق على الحائط بجوارها.

قال خليل ‘‘لا تضعي يدكِ على الهاتف’’.

عادت المرأة بنظرها إلى الخلف حيث زوجها الذي قال ‘‘اتصلي بالشرطة’’. وتقدم خطوة تجاه الدخيل.

استل خليل المسدس الآلي من سترته، فشهقت جيل وايكليف، فيما أطلق الجنرال صيحة دهشة ثانية، وتوقف عن السير.

قال خليل ‘‘في الحقيقة، هذا مسدسك أيها الجنرال’’. ورفعه كأنما يتفحصه، وقال ‘‘إنه تحفة فنية. وأظن أن ألواحه قد صُنعت من النيكل أو الفضة، والمقبض عاجي، كما أن اسمك منقوش عليه’’.

لم يُعلّق الجنرال وايكليف.

فعاود خليل النظر إليه، وقال ‘‘حسب علمي أنكم لم تحصلوا على ميداليات شرف جراء هجومكم على بلدي، أليس كذلك؟’’ ونظر إلى الجنرال، حيث رأى الرعب يطل للمرة الأولى من عيني الرجل، وتابع حديثه ‘‘أنا أتحدث عن القصف الجوي، عام ألف وتسعمئة وستة وثمانين. أم أنه كان عام سبعة وثمانين؟’’

نظر الجنرال إلى زوجته التي كانت تحدق فيه، فكلاهما يعرف الآن إلى أين يُفضي هذا، فتحركت جيل وايكليف عبر المطبخ، ووقفت بجوار زوجها.

أُعجب خليل بشجاعتها في مواجهة الموت.

ساد الصمت لدقيقة كاملة لم يتحدث فيها أحد، ولقد استمتع خليل بهذه اللحظة، وسرّه مشهد الأميركيَيْن في انتظار موتهما.

إلا أن خليلاً لم يكن قد انتهى بعد، فقال للجنرال "صحح لي المعلومة في حال كنت مخطئاً. ألم تكن أنت في المقاتلة ريميت 22؟"

لم يجبه الجنرال.

"كانت طائرتك واحدة من الطائرات الأربع من طراز F-III التي هاجمت. صحيح؟"

مرة أخرى لم يجب الجنرال بشيء.

"وأنت الآن تتساءل كيف اكتشفت أنا هذا السر".

بلع الجنرال وايكليف ريقه، وقال "صحيح".

ابتسم خليل وقال "لو أخبرتك، سأضطر لقتلك". وضحك.

واستطاع الجنرال أن يتحدث ليقول "هذا ما ستفعله على أي حال".

"ربما، وربما لا".

فسألته جيل وايكليف "أين روزا؟"

"يا لك من سيدة لطيفة تهتمين بأمر خادمتك".

فصاحت به "أين هي؟"

"إنها حيث تعرفين".

"أنت حيوان".

لم يكن أسد خليل معتاداً أن يخاطبه أحد بهذه الطريقة، خاصة إن كانت امرأة، وفكّر في أن يرديها قتيلة على الفور، إلا أنه نجح في السيطرة على أعصابه وقال "في الحقيقة، إنني لست بحيوان، فأمي وأبي كانا زوجين آدميين. بل إن أبي لقي مصرعه على أيدي حلفائكم الإسرائيليين، فيما قُتلت أمي تحت وطأة القنابل التي أسقطتموها فوق منزلها، وكذلك أخواي وأختاي". قال هذا وهو ينظر إلى جيل وايكليف، ثم تابع "ومن المحتمل جداً أن تكون القنبلة التي قتلتهم هي واحدة من القنابل التي ألقاها زوجك يا سيدة وايكليف. فماذا تقولين في هذا؟"

تنهدت جيل وايكليف بعمق، ثم أجابته "كل ما أستطيع قوله هو أنني آسفة بحق، بل أنا وزوجي آسفان لما حدث لك ولأسرتك".

"أحقاً؟ حسناً، شكراً لتعاطفك".

أما الجنرال وايكليف فكان ينظر إلى خليل مباشرة وقال في صوت غاضب ‘‘أنا لست آسفاً على الإطلاق. فقائدك، ما هو إلا إرهابي دولي، وقد قتل العشرات من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء. وما قصفناه كان مركز قيادته، وهو من وضع المدنيين في عين الخطر حينما أسكنهم في مركز عسكري كالمركز الذي تمّ قصفه. ولو أنك تعرف الكثير بالفعل، فلا شك أنك تعرف أننا لم نسقط القنابل إلا فوق الأهداف العسكرية، وأن الإصابات بين المدنيين لم تكن سوى مجرد حادثة عرضية غير مقصودة. أنت تعرف هذا، فلا تتظاهر بأن لديك مبرًّرا لقتل الآخرين بدم بارد’’.

حدّق خليل بالجنرال، وبدا وكأنه يفكر في ما قاله لتوه، ثم قال أخيراً ‘‘والقنبلة التي أسقطتموها فوق منزل القائد؟ تلك التي قتلت ابنته، وجرحت زوجته وابنيه يا جنرال أكانت حادثة؟ هل تتيه قنابلكم الذكية؟ أجبني’’.

‘‘لقد قلت كل ما عندي في هذا الشأن’’.

هزّ خليل رأسه وقال ‘‘نعم، كل ما عندك’’. ثم رفع مسدسه وسدده صوب الجنرال وايكليف ‘‘ليست لديك فكرة كم انتظرت هذه اللحظة’’.

قفز الجنرال أمام زوجته، وقال ‘‘دعها تذهب’’.

‘‘هذا سخف. بل إن أكثر ما يزعجني الآن هو أن ولديك ليسا في المنزل’’.

قال الجنرال وهو يثب مندفعاً نحو خليل ‘‘مجرم!’’

أطلق خليل رصاصة واحدة صوب أشرطة الخدمة إلى اليسار من صدر الجنرال.

انطلقت الرصاصة المدببة، عيار 45 ملم، بقوة أوقفت الجنرال بينما كان جسده متخذاً وضع الحركة إلى الأمام، ثم رفعته عن الأرض، وشعر الرجل بجسده يرتد إلى الخلف قبل أن يسقط فوق بلاط الأرضية محدثاً صوتاً.

صرخت جيل وايكليف وجرت نحو زوجها.

توقف خليل عن إطلاق الرصاص، وتركها تركع بجوار زوجها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. كانت تمسّد جبهته فيما يغلب عليها البكاء، والدماء تندفع من الفتحة التي أحدثتها الرصاصة في صدر الجنرال، أدرك خليل أنه لم يُصب قلب الرجل، وأن الرصاصة قد استقرت في رئته. سيغرق الجنرال في دمه حتى يموت ببطء.

كانت جيل تدفع راحة يدها فوق الجرح، وبدا لخليل أنها مدربة على التعرف على طبيعة جروح الصدور ومعالجتها، ثم فكّر أنها ربما كانت الغريزة أو التصرف التلقائي. ثم راح يشاهد الموقف لنصف دقيقة؛ قد يكون الفضول، ولكنه قطعاً لم يكن القلق.

كان الجنرال لا يزال حياً ويحاول الكلام رغم أنه كان يختنق بدمه. فدنا منه خليل ونظر إلى وجهه مباشرة، وتلاقت أعينهما.

قال خليل "كان بوسعي أن أقتلك ببلطة، مثلما قتلت العقيد هامبريشت، لكنك كنت شجاعاً جداً، واحترمت هذا فيك، ولم أشأ أن تتعذب كثيراً. إلا أنني لا أعدك أن أفراد سربك الآخرين سيلقون نفس القدر من الرحمة".

حاول الجنرال وايكليف أن يتكلم، لكن تفجرت الدماء الوردية الغزيرة من فمه، وأخيراً استطاع أن يقول لزوجته الباكية "جيل".

إلا أن خليلاً صوّب فوهة المسدس الآلي إلى جانب رأس السيدة وايكليف، فوق أذنها، وأطلق رصاصة عبر جمجمتها ودماغها.

فسقطت بجوار زوجها.

مدّ الجنرال وايكليف يده إلى زوجته، ورفع رأسه كي ينظر إليها، فيما وقف خليل يراقب الموقف لثوانٍ، ثم قال للجنرال "لقد لقيت مصرعها بألم أقل بكثير من ذلك الذي عانته أمي".

حرك الجنرال رأسه ونظر إلى أسد خليل. كانت عينا تيرانس وايكليف قد اتسعتا حتى آخرهما، والدماء تغمر شفتيه، وقال "يكفي هذا". وسعل بشدة قبل أن يردف "فليكفك قتلاً، عد إلى بلدك".

"لم ينتهِ عملي هنا. سأعود إلى الديار حينما يكون أصدقاؤك جميعاً في عداد الموتى".

تمدد الجنرال فوق الأرض، إلا أنه لم يقل شيئاً، واكتفى بأن وجدت يده طريقها إلى رأس زوجته.

وقف خليل منتظراً، إلا أن الرجل كان يموت ببطء. وأخيراً جثم خليل بجانب الزوجين، وانتزع ساعة يد الجنرال، وخاتمه الذي ناله من أكاديمية القوات الجوية، ثم وجد محفظته في جيب السترة. وفعل المثل مع ساعة وخاتم السيدة وايكليف، وكذلك عقدها اللؤلؤي.

ثم ظل جاثماً بجوارهما، ثم وضع أصابعه فوق الجرح في صدر الجنرال حيث غطت الدماء شارات خدمته، ثم رفع أصابعه تلك إلى شفتيه وراح يلعق الدماء منها، وهو ينتشي من الدم وروعة اللحظة.

تحركت عينا الجنرال وايكليف وارتعب من مشهد الرجل وهو يلعق الدم من أصابعه وحاول أن يتكلم، إلا أن السعال داهمه مرة أخرى، مخرجاً من فمه المزيد من الدماء.

أبقى خليل عينيه مثبتتين على عيني الجنرال، وظلاّ محدقين ببعضهما البعض. أخيراً تقطعت أنفاس الجنرال، وصارت قصيرة تحدّ منها التشنجات، حتى توقف عن التنفس تماماً. تحسس خليل قلب الرجل، ثم معصمه، ثم الشريان في عنقه، وما إن تحقق في رضا من أن الجنرال قد لقي حتفه أخيراً، حتى وقف ونظر إلى الأسفل حيث الجسدين، وقال "فلتحترقا في الجحيم".

الفصل الثامن والعشرون

بحلول الظهيرة، بدا تيد، وكيت، وجاك مستنزفين تماماً من فرط الاستجواب، حتى وإن كان هناك المزيد من الاستجوابات في انتظارنا، فلن يجدوا سوى رؤوس خاوية كالتجاويف الفارغة. ما أعنيه أن هؤلاء القوم يعرفون بحق كيف يستخلصون منك المعلومات كلّها بدون الحاجة إلى اللجوء لأجهزة الصدمات الكهربائية.

على أي حال، كان موعد الغداء قد حان في هووفرلاند، وحمداً لله أنهم تركونا وحدنا لتناول الغداء، إلا أنهم أخبرونا أنهم جميعاً يتناولون طعامهم في مطعم في المبنى. في الواقع، إنهم لم يعطونا بطاقات لتناول الغداء، فاضطررنا إلى دفع المال مقابل طعامنا، رغم أن الطعام هناك - حسبما أذكر - كان مدعوماً عبر الحكومة.

كانت غرفة الطعام على طراز المطاعم، وكانت لطيفة بما يكفي، بيد أن قائمة طعام يوم الأحد ذاك كانت مخفضة، وما قدموه لنا كان على غرار الطعام الصحي والمفيد؛ سلطة، ولبن، وخضار، وعصير فاكهة، وشاي أعشاب. أما أنا فطلبت سلطة الطون، وكوباً من القهوة التي وجدت طعمها كسائل التحنيط.

أما الناس من حولنا فبدوا كطاقم جي إدغار هووفر في الفيلم التدريبي المسمى *صباح الخير تفضي إلى المزيد من الاعتقالات*.

كان يوجد في الغرفة مجموعة صغيرة من الرجال السود، وكأنهم قطع من الشوكولاته في صحن الشوفان المجروش.

قد تكون واشنطن عاصمة التنوع الثقافي، إلا أن التغيير يزحف ببطء على بعض المنظمات، وتساءلت عمّا يظنه الرؤساء هنا بشأن وحدة مكافحة الإرهاب في نيويورك؛ بصفة خاصة رجال مديرية شرطة نيويورك الذين متى اجتمعوا يبدون وكأنهم منصة من الكائنات الفضائية في فيلم حرب النجوم.

على أي حال، ربما لم أكن حسن الأخلاق تجاه مضيفيّ، فمكتب التحقيقات الفيدرالية كان هيئة جيدة بحق لتطبيق القانون، حيث المظهر هو أول الاهتمامات. لم يكن الحشد الصحيح سياسياً مغرماً بهم، فيما كانت أجهزة الإعلام تتأرجح على الجانبين، ولكن الثابت هو أن القسم الأكبر من الناس ما زال معجباً بهم. ويجدر بالذكر أن هيئات تطبيق القانون الأخرى كانت تُجل طريقة العمل الفيدرالية، بل كانوا يُحسدون على سطوتهم وأموالهم، وأحياناً ما كانوا يسخطون عليهم لغرورهم. ليس بالأمر السهل أن تكون عظيماً.

قال جاك كوينج وهو يتناول حصته من السلطة ""لا أستطيع الجزم ما إذا كانت وحدة مكافحة الإرهاب ستظل مضطلعة بالقضية، أو أن قسم مكافحة الإرهاب هنا

سيستلمها منا".

قالت كيت مُعلّقة "لكن هذه القضيّة هي بالتحديد نوعية القضايا التي تألفت الوحدة من أجلها".

أظنها محقة. إلا أنه أحياناً ما يحدث أن تغضب المنظمات الأم على نسلها الغريب، فالجيش - على سبيل المثال - لم يحب أبداً القوات الخاصة التابعة له، بقلنسواتها الخضراء. كما لم تحب شرطة نيويورك وحدة مكافحة الجريمة برجالها الذين يبدون - ويرتدون - مثل المهمشين أو اللصوص. فتلك المؤسسة اللامعة المتأنقة ما كانت لتثق في وحداتها الخاصة الدنيا والقذرة، وما كانت لتتفهّمها، أو تعبأ على الإطلاق بمدى تأثير تلك القوات الشاذة. فهؤلاء الشاذون، خاصة وإن كانوا مؤثرين، يشكلون تهديداً على استقرار الحالة لديهم.

أضافت كيت "إن لدينا سجل تعقب جيِّدا جداً في نيويورك".

فكّر كوينج للحظة، ثم أجاب "أظن أن هذا يتوقف على موقع خليل الحالي، أو أين يظنون موقعه. على الأرجح أنهم سيتركوننا نعمل في منطقة نيويورك المدنية دونما تدخل. أما في ما يتعلق بالجزء الدولي من القضية، فسيذهب لوكالة المخابرات المركزية، بينما ستختص واشنطن بباقي البلد هنا وكندا".

لم يقل تيد ناش شيئاً، وكذلك أنا. كان تيد ناش يحمل على صدره بطاقات عدة، فما كان بحاجة إلى وضع منديل فيما يتناول اللبن. أما أنا فلم أكن أحمل أي بطاقات ولم أفطن أبداً إلى الطريقة التي يقوم بها هؤلاء القوم بتقسيم حلبة السباق.

لكنني عرفت أن رجال وحدة مكافحة الإرهاب، الكائنة في منطقة نيويورك المدنية، عادة ما يتم إرسالهم إلى أجزاء البلاد المختلفة، أو حتى إلى أجزاء العالم المختلفة متى كانت نيويورك هي مسقط رأس القضية. في الواقع، أحد الأشياء التي أخبرني بها دوم فانيلي حينما كان يدفعني نحو هذه الوظيفة، أن رجال وحدة مكافحة الإرهاب يذهبون إلى باريس كثيراً لاحتساء الشراب، وتناول العشاء، وغواية الفرنسيات لتوظيفهن في التجسس على العرب. لا أقول إنني صدقت هذا بالفعل، لكنني كنت أعرف أن هناك فرصة للاعتماد على الميزانية الفيدرالية في رحلة إلى أوروبا. ولكن كفانا حديثاً عن الوطنية، فالسؤال هنا إذا حدث هذا على أرضك، ألن تمضي في الأمر حتى آخر الدنيا؟ أم ستكتفي بالوقوف عند الحدود؟

حسبما أذكر، فإن أكثر القضايا الجنائية التي قابلتها إحباطاً كانت منذ ثلاث سنوات مضت عندما كان قاتل مغتصب طليق في الجانب الشرقي، ولم نستطع أن نضيق الخناق عليه. ثم ذهب الرجل إلى جورجيا لفترة أسبوع لرؤية صديق له عندما أوقفه شرطي محلي ساذج بتهمة القيادة وهو ثمل، وكان لدى هذا الشرطي المحلي الساذج جهاز حاسوب جديد ابتاعه له الفيدراليون، وفقط بغرض كسر حالة السأم فكّر هذا الشرطي في أن يرسل بصمات هذا الرجل إلى مكتب التحقيقات الفيدرالية، ويا للدهشة! كانت البصمات مطابقة لتلك التي وجدناها في إحدى مواقع الجريمة. هكذا نحصل نحن على إذن تسليم، ويذهب الرجال إلى هومني جريتس، في جورجيا، لتسليم المجرم، فيما يتحتم عليّ أن أتحمل أربعاً وعشرين ساعة مع رئيس شرطة رأسه كالبيض العفن يلقي عليّ فضلات من كل نوع وصوب، تدور

كلها حول نيويورك، بالإضافة إلى تلك الدروس التي تلقيتها حول التحقيقات الجنائية، وكيف يمكنك اكتشاف القاتل، وكيف أنه يجدر بي الاتصال به في حال احتجت إلى مساعدة. شيء مقزز!

لكن بالعودة إلى غرفة الطعام تلك في مقر مكتب التحقيقات الفيدرالي، كان بوسعي أن أجزم أن كوينج لم يكن أكيداً من أن وحدة مكافحة الإرهاب من القوة بما يكفي لمتابعة أو حل هذه القضية، فكان يقول "لو تم الإمساك بخليل في أوروبا، فهناك بلدان أو ثلاثة ترغب في اعتقاله قبل أن نصل نحن إليه، إلا إذا استطاعت الحكومة الأميركية إقناع دولة صديقة بضرورة تسليمه هنا باعتباره من مجرمي القتل الجماعي".

بالرغم من أن هذا الحديث القانوني بدا وكأنه لإفادتي، إلا أنني كنت أعرف معظمه بالفعل، فقد كنت شرطياً لنحو عشرين عاماً، وقمت بالتدريس في جون جاي لخمس سنوات، بل وعشت كمحام لسنتين تقريباً. على أي حال، كان اهتمام كوينج الأساسي هو أننا أسقطنا الكرة فَي خط المرمى، وأننا على وشك أن نعود إلى بيوتنا للاسترخاء. والحق أن هذا كان جلّ اهتمامي أيضاً.

ما يزيد الطين بلّة أن واحداً من فريقنا، تيد ناش على وجه التحديد، كان على وشك العودة إلى فريقه الأساسي، وهو الفريق الأبرع في الفوز بمثل تلك الجولات. في هذه اللحظة، ومضت في ذهني صورة رئيس الشرطة الذي يشبه رأسه البيضة، إلا أنها كانت تحمل وجه تيد ناش هذه المرة، وهو يشير إلى أسد خليل خلف القضبان وهو يقول لي "أترى يا كوري؟ لقد قبضت عليه. دعني أخبرك كيف فعلت هذا. كنت في ذاك المقهى في شارع جيرمين - في باريس يا كوري - وكنت أتحدث إلى أحد الجواسيس هناك، عندما أخرجت سلاحي وقبضت عليه".

في ذلك الوقت، كان تيد قد بدأ ثرثرته، فرُحت أستمع إليه، وكان يقول "سأذهب إلى باريس غداً لأتحدث إلى الرجال في السفارة. أظنها فكرة جيدة أن نبدأ من حيث بدأ الأمر برمته، ثم نمضي من هناك".

كنت أتساءل إن كان ممكناً بالنسبة لي أن أقطع قصبته الهوائية بالشوكة التي أتناول بها السلطة.

استأنف كل من جاك وكيت حديثهما حول السلطة القضائية، والتسليم، وتوجيه الاتهامات الاتحادية والفيدرالية، وما إلى ذلك من هذه الأشياء.

مهاترات محامين. ثم توجهت كيت نحوي قائلة "أنا موقنة أن الأمر مشابه مع الشرطة؛ فالضباط الذين يبدأون القضية، يظلون فيها حتى النهاية، مما يحافظ على تواصل سلسلة الأدلة، ويجعل شهادة الضباط أقوى وبدون ثغرات تسمح للدفاع باختراقها ومهاجمتهم".

هكذا مضى الأمر. يا الله، نحن حتى لم نمسك بهذا التافه بعد، وها هم يفكرون في كيفية إتقان القضية. هذا ما يحدث عادة عندما يصبح المحامون رجال شرطة، وهذا هو الهراء ذاته الذي اضطررت إلى التكيف معه عندما كنت أتعامل مع مساعدي ومحققي الإدعاء العام. هذا البلد يغرق في القانونيات، وهو أمر لا بأس به

عند التعامل مع المجرم الأميركي العادي، أي عندما يكون جل اهتمامك هو التأكد من تطبيق الدستور، وأن أحداً لا يحيد عن القانون. ولكن على أحدهم أن يخترع محاكمة مختلفة بقواعد مختلفة لشخص مثل أسد خليل.

على أي حال، بانتهاء ساعة الغداء قال كوينج موجهاً حديثه لنا "لقد قمتم جميعاً بعمل جيد هذا الصباح. أعرف أن هذا ليس بالشيء اللطيف، لكننا هنا لنقدم المساعدة، ولكي نكون نافعين على نحو ما. وأنا بحق فخور بكم". شعرت بالطون ينقلب في معدتي، إلا أن كيت بدت مسرورة بهذا الحديث، فيما لم تبدر من تيد أي بادرة من أي نوع، مما يعني أننا أخيراً نشترك في شيء ما.

الفصل التاسع والعشرون

تابع أسد خليل طريقه مرة أخرى إلى بيلتواي، وبحلول العاشرة والربع صباحاً كان يسافر جنوباً على الطريق السريع 95، بعيداً عن مدينة واشنطن، حيث كان يعرف أنه ليس هناك المزيد من الرسوم على الطرقات أو الجسور من مكانه ذاك وإلى المكان الذي يقصده.

وبينما كان يقود سيارته، شرع خليل يفتش غطاء الوسادة حتى أخرج النقود التي كان قد وجدها في غرفة نوم الجنرال، وتلك التي عثر عليها في محفظته، والنقود التي أخذها من حقيبة يد زوجة الجنرال، بالإضافة إلى النقود التي أخذها من الاستراحة، حيث وصل مجموعها معاً إلى قرابة المائتي دولار. أما النقود التي أخذها من مكتب النُزُل فكانت أربعمئة وأربعين دولاراً، بيد أن بعضاً من هذا المال كان في الأصل ماله. أما المال في محفظة جمال جبار فكان أقل من مئة دولار. وبعملية حسابية بسيطة أجراها في عقله، وجد خليل نفسه مع ما يقارب الألف ومئة دولار، وفكّر أن هذا المبلغ سيكفيه في الأيام القليلة المقبلة لا ريب في ذلك.

اقترب خليل من أحد الجسور الممتدة فوق نهر صغير، ثم أسرع بسيارته إلى داخل حافة الطوارئ الضيقة على جانب الطريق وهو يضيء مصابيح سيارته، ثم تركها مسرعاً وهو يحمل غطاء الوسادة المربوط الذي يحوي مسدس الجنرال والأشياء الثمينة الأخرى التي أخذها خليل من بيته، وشرع يتحرك إلى حاجز الجسر وهو يتلفت ذات اليمين وذات اليسار. وما إن وصل إلى حاجز الجسر حتى ألقى نظرة إلى الأسفل حيث النهر كي يتأكد من خلو المجرى من القوارب، ثم ألقى بغطاء الوسادة من فوق الحاجز.

بعدها عاد خليل إلى السيارة، وتابع طريقه. بالطبع كان يفضل الاحتفاظ ببعض التذكارات من زيارته تلك، خاصة خاتم زواج الجنرال وصور أبنائه، إلا أنه كان يعرف من خبرة سابقة في أوروبا أنه كان بحاجة إلى أن يكون قادراً على الإفلات من البحث العشوائي والسريع. بالطبع لم تكن لديه نية السماح بمثل هذا البحث، لكنه يمكن أن يحدث على أي حال، وعليه أن يكون مستعداً لهذا الاحتمال.

سلك خليل أول مخرج صادفه، وقاد السيارة بعيداً عن المنحدر حيث تراءت له ثلاث محطات للخدمة، فاندفع تجاه تلك المسماة بإكسون، واستمر حتى طابور السيارات المنتظر مضخات الجازولين الذاتية الخدمة.

لم يكن هذا مختلفاً عن النظام في أوروبا كما أخبروه، وبالرغم من أنه كان بوسعه استخدام بطاقة الائتمان التي يحملها، إلا أنه لم يرد أن يترك دليلاً يمكن اقتفاؤه في هذه المرحلة المبكرة من مهمته، ومن ثم قرر أن يدفع نقداً. وما إن أنهى خطوات التزود بالوقود حتى ذهب إلى كشك زجاجي صغير حيث دفع الفاتورة ذات الاثنين وعشرين دولاراً عبر فتحة صغيرة. ألقى الرجل هناك نظرة سريعة على خليل استاء منها هذا الأخير.

وضع الرجل الباقي من النقود على الحافة وهو يذكر قيمة المبلغ، ثم استدار مبتعداً عن خليل الذي أخذ النقود، وعاد إلى سيارته، وشرع يمضي في طريقه مرة أخرى نحو الطريق السريع في اتجاهه جنوباً.

كان يعرف أنه بولاية فيرجينيا، ولاحظ أن الأشجار مورقة هنا أكثر من مثيلاتها في نيويورك أو نيوجيرسي. أخبره مقياس الحرارة الرقمي المثبت بالخارج أن درجة الحرارة كانت 76 فهرنهايت، وعندما ضغط على أحد الأزرار بلوحة المفاتيح عرضت الشاشة أن درجة الحرارة هي 25 درجة مئوية، وجدها خليل درجة لا بأس بها، إلا أن الرطوبة كانت عالية هنا.

تابع خليل سيره مجارياً حركة المرور التي أتاحت له السير بسرعة تزيد عن 75 ميلاً بالساعة؛ وهي سرعة أكبر من تلك المتاحة في شمال واشنطن، وأكثر من السرعة المحددة هنا بنحو عشرة أميال في الساعة. ولقد أخبره ضابط التوجيه في بلده؛ رجل مخابرات روسي يُدعى بوريس كان قد أمضى خمس سنوات في أميركا، أنه معروف عن الشرطة في الجنوب أنهم يوقفون السيارات التي تحمل لوحات من الشمال، وبصفة خاصة من نيويورك.

لما سأل خليل عن السبب، قال له بوريس "كانت هناك حرب أهلية عظيمة بين الشمال والجنوب هُزم فيها الجنوب، ومن ثم فإنهم يضمرون لهم عداءً عظيماً لهذا السبب".

"ومتى كانت تلك الحرب الأهلية؟"

"منذ أكثر من مئة عام". وطفق يحدّثه عن تلك الحرب على نحو مختصر قبل أن يضيف "قد يعفو الأميركيون عن أعدائهم الخارجيين بعد عشر سنوات، إلا أنهم لا يغفرون لبعضهم البعض بهذه السرعة. على أي حال، من الأفضل لو التزمت بالطريق السريع، حيث الكثير من المسافرين من الشمال يقصدون فلوريدا لقضاء إجازاتهم، ولن تسترعي سيارتك انتباهاً لا داعي له.

إن العديد من سكان نيويورك هم من اليهود، وقد تعمد الشرطة في الجنوب إلى إيقاف إحدى السيارات من نيويورك لهذا السبب"، ثم ضحك الروسي وهو يقول لخليل "إذا أوقفوك، أخبرهم أنك أيضاً لا تحب اليهود". كان خليل يفكّر في كل هذا؛ لقد حاولوا أن يخففوا عنه من أمر قيادته إلى الجنوب، ولكن من الواضح أنهم يعرفون عن هذا المكان أقل مما يعرفون عن المنطقة بين نيويورك وواشنطن.

من الواضح أيضاً أن هذا كان مكاناً من المحتمل أن يسبب له الكثير من المشكلات. ثم فكّر في الرجل في محطة الوقود، وفي اللوحات من نيويورك، وفكّر كذلك في مظهره. كان بوريس قد أخبره أيضاً "ليس هناك العديد من الأجناس في الجنوب؛ فمعظمهم من الأفارقة السود أو الأوروبيين، وأنت لا تشبه أيًّا من الجنسين. كما أن الوضع سيتحسن كثيراً لدى وصولك إلى فلوريدا، حيث العديد من الأجناس والألوان. ربما يظنونك من أميركا الجنوبية. ولكن العديد من سكان فلوريدا يتحدثون الإسبانية فيما لا تفعل أنت. فإذا أردت أن تتحدث عن نفسك، فلتقل إنك برازيلي، فالبرازيليون يتحدثون البرتغالية، وهي لغة يعرفها القليل من

الأميركيين. ولكن في حال كنت تتحدث إلى الشرطة، فلتذكر أنك مصري، تماماً كما تذكر أوراق هويتك".

أخذ خليل يفكّر في نصيحة بوريس؛ في أوروبا كان هناك العديد من الزائرين، ورجال الأعمال، والمقيمين من البلدان العربية. ولكن الأمر يختلف في أميركا؛ فخارج منطقة نيويورك قد يسهل تمييز مظهره، بعكس ما قاله مالك.

لقد ناقشه خليل في الأمر، فقال له مالك "لا تدع هذا الروسي الأحمق يقلقك، فكل ما عليك فعله في أميركا هو أن تبتسم وألا تثير الشكوك حولك؛ أبقِ يديك بعيداً عن جيوبك، واحمل جريدة أو مجلة أميركية، أعطِ بقشيشاً في حدود خمسة عشر بالمئة، ولا تقترب كثيراً من الشخص الذي تتحدث إليه، واستحم كثيراً، وتمنى للجميع يوماً طيباً".

ابتسم خليل وهو يتذكر صورة مالك وهو يحدثه عن الأميركيين، حيث أنهى تقييمه عنهم بأن قال إنهم كالأوروبيين، إلا أن تفكيرهم أبسط كثيراً. كن مباشراً ولكن بدون فظاظة؛ كن ودوداً ولكن لا تتبسط كثيراً. كما أن معلوماتهم الجغرافية محدودة، وكذلك معلوماتهم حول الثقافات الأخرى؛ فهي أقل مما لدى الأوروبيين من معلومات. وهكذا، كن يونانياً إن أردت، فأنت تتحدث الإيطالية على نحو جيد؛ بوسعك أن تكون من سردينيا، فلن تجدهم قد سمعوا بالمكان على كل حال.

أولى خليل الطريق انتباهه مرة أخرى. أحياناً يكون هذا الطريق مزدحماً عصر أيام الآحاد، وأحياناً لا يكون كذلك. إلا أنه لم يكن مزدحماً اليوم. أما المشهد على جانبي الطريق فكان يسوده الحقول والغابات والكثير من أشجار الصنوبر، ومن وقت لآخر كان خليل يلمح مصنعاً أو مخزناً، فلم يكن هذا الطريق ليقترب من المدن أو المناطق السكنية، شأنه في هذا شأن الطريق السريع. ومن ينظر إلى أميركا من هنا يجد صعوبة في تصديق أن أكثر من 250 مليون نسمة يعيشون فيها، بينما لا يتعدى عدد هؤلاء الذين يعيشون في بلده الخمسة ملايين. ولكن بلده أقلق الأميركيين كثيراً منذ أن خلع القائد ذاك الملك الغبي منذ عدة سنوات.

أخيراً، سمح خليل لأفكاره بالعودة إلى منزل الجنرال وايكليف؛ وكان قد احتفظ بأفكاره تلك وكأنها قطع من الحلوى ليستمتع بها وقت راحته.

من ثم طفق يستعيد المشهد بأكمله في عقله، بل وحاول أن يتخيل كيف كان يمكنه أن يتسمتع به على نحو أكبر، ففكر أنه ربما كان يجدر به أن يجعل الجنرال يستجدي حياته، أو أن يجعل الزوجة تخر على ركبتيها وتقبّل قدميه. ولكن ساوره ذاك الإحساس بأنهما ما كانا ليستجديا الحياة. على أي حال، لقد حصل ما كان يخطط له، وأي محاولات أخرى لجعلهما يرجوان رحمته لم تكن لترضيه.

كانا يعرفان أنهما مقتولان لا محالة ما إن كشف عن الغرض من وجوده هناك.

بيد أن خليلاً فكّر أنه كان بوسعه أن يجعل موتهما أكثر إيلاماً، لكنه كان مضطراً إلى إظهار قتلهما كجزء من عملية سرقة. كما أنه كان بحاجة إلى وقت لإكمال مهمته قبل أن تشرع أجهزة المخابرات الأميركية في فهم ما يحدث.

كان أسد خليل مدركاً أنه قد يجد الشرطة في انتظاره في أي وقت من زياراته لرجال السرب. ولكنه قبل هذا الاحتمال، وشعر بالرضا إزاء ما حققه بالفعل في أوروبا، وفي مطار نيويورك، وما فعله لتوه في منزل الجنرال وايكليف. بالطبع سيكون من الرائع لو استطاع إكمال قائمة المهام لديه، ولكن سيكملها شخص آخر على أي حال إن أخفق هو. وبالرغم من أنه كان يحب العودة إلى بلده، إلا أنه لا بأس إن لم يستطع؛ فالموت في أرض الكفار أثناء الجهاد هو انتصار وشرف، ومكانه في الفردوس محفوظ.

لم يحدث أن شعر خليل بهذا الشهور الطيب منذ تلك الليلة الرهيبة.

بهيرة، إنني أفعل ذلك من أجلك أيضاً.

اقترب خليل من مدينة ريتشموند، وازداد الازدحام. كان عليه أن يتبع الإشارات التي قادته إلى دائرة حول المدينة على الطريق السريع I-295، ثم أخيراً إلى الطريق I-95 المؤدي إلى الجنوب مرة أخرى.

عند الساعة الواحدة والربع ظهراً لمح اللافتة *كارولاينا الشمالية ترحب بكم.*

نظر خليل حوله، لكنه لم يلحظ في المدينة سوى اختلاف طفيف عن ولاية فيرجينيا. كان الروسي في بلده قد حذره من أن الشرطة في كارولاينا الشمالية أكثر ارتياباً من شرطة فيرجينيا، ومن ثم فمن المحتمل أن رجال الشرطة في الولاية التالية - كارولاينا الجنوبية - سيوقفونه بلا سبب واضح، وكذلك قد يفعل أقرانهم في جورجيا.

كما أخبره الروسي أن رجال الشرطة في الجنوب يتحركون أحياناً كثنائي، وأحياناً يشهرون أسلحتهم لدى إيقافهم إحدى السيارات، ومن ثم فإن إطلاق الرصاص عليهم سيكون أكثر صعوبة.

كما حذره بوريس من أن يقترح رشوة أي من رجال الشرطة إذا ما أوقفه أحدهم لأي انتهاك في قيادته للسيارة، فغالباً ما سيؤدي هذا إلى القبض عليه؛ وفقاً لما قاله الروسي بالطبع. فكّر خليل أن الحال هي كذلك في أوروبا، بينما رجل الشرطة في بلده يرضى باليسير من النقود.

تابع خليل طريقه فوق الطريق السريع الواسع الممتد بين الولايات وقد بدا مباشراً إلى حدٍّ بعيد. كانت سيارته هادئة وقوية بخزان وقود كبير. ولكن نظرة إلى الكمبيوتر أخبرته أنه سيحتاج إلى أن يتزود بالوقود على الأقل مرتين قبل أن يصل إلى الجهة التي يقصدها.

ثم بدأ يفكر في هدف زيارته التالية؛ الملازم أول بول غراي، طيار المقاتلة F-III المعروفة باسم إلتون 38.

استغرق الأمر عشر سنوات وعدة ملايين من الدولارات حتى حصلت مخابرات بلده على هذه القائمة التي تضم الرجال الثمانية، وسنوات أكثر لتحديد مواقع هؤلاء

القتلة؛ أحدهم كان الملازم ستيف كوكس - ضابط السلاح على المقاتلة ريميت 61 - قتل في مهمة له في حرب الخليج، وبالرغم من أنه لم ينتقم من الرجل بيديه، إلا أن خليلاً كان يشعر بالسعادة لمعرفة أن الملازم كوكس قد لقي حتفه على أيدي المقاتلين من ملته.

أما ضحية أسد خليل الأولى - العقيد هامبريشت - فقد تم إرساله إلى منزله في أميركا في يناير على شكل قطع صغيرة، فيما لم يزل جسد ضحيته الثانية - الجنرال وايكليف - دافئاً، ودم الرجل داخل جسد خليل.

وهكذا يتبقى لديه خمسة رجال.

بحلول مساء هذا اليوم سيكون الملازم أول بول غراي قد انضم إلى أقرانه الثلاثة في الجحيم.

بعدها سيتبقى لديه أربعة رجال.

لقد علم خليل أن مخابرات بلده قد علمت ببعض أسماء طيارين آخرين من أسراب أخرى كانت قد شاركت في الهجوم، إلا أن هؤلاء الرجال سيتم التعامل معهم في وقت آخر.

أما أسد خليل فقد نال شرف الضربة الأولى؛ الانتقام الشخصي لموت أسرته، وموت ابنة القائد، والجراح التي عانت منها زوجة القائد وأولاده.

لم يساور خليل شك في أن الأميركيين قد نسوا ما حصل عام 1986 منذ زمن بعيد، فلقد قصفوا مواقع عديدة منذ ذلك اليوم، ومن ثم خبت أهمية ذاك الحدث؛ عشرات الآلاف من العراقيين قتلوا على أيدي الأميركيين في حرب الخليج، ولم يبذل قائدهم جهداً يستحق الذكر للانتقام لشهدائه. لكن دولته ليست العراق وقائده لن ينسى الإهانة، أو يعفو عن الخيانة، أو عن موت شهيد واحد.

تساءل خليل عمّا عساه الملازم أول بول غراي يفعل في هذه اللحظة، وعما إذا كان هذا الرجل أحد الرجال الذين هاتفهم الجنرال وايكليف بالأمس، فهو لم يكن واثقاً إن كان هؤلاء الذين لا يزالون على قيد الحياة يتصلون ببعضهم البعض أم لا. ولكن وفقاً لما رآه في دفتر مواعيد الجنرال، كانت هناك مكالمة هاتفية جماعية يوم الخامس عشر من أبريل.

لكن بالنظر إلى معدل اتصالهم، وحيث إنه لم يمضِ على تلك المكالمة سوى يومين، فمن غير المحتمل أن يتحدثوا إلى بعضهم البعض ثانية ما لم يخبرهم أحد ما بموت الجنرال وايكليف. وبالطبع من غير المنتظر أن تفعل السيدة وايكليف هذا، بل ومن المحتمل أن تمضي أربع وعشرون ساعة قبل أن يتم اكتشاف الجثتين.

تساءل خليل ما إذا كان سيُنظر إلى موت وايكليف وزوجته وخادمتهما باعتباره حادث سرقة وقتل، وفكّر أن رجال الشرطة - شأنها شأن الشرطة في كل مكان - سينظرون إلى مسرح الجريمة باعتباره مسرح جريمة عادية. ولكن في حال تدخلت المخابرات في الأمر، فربما سيرون الأمور على نحو مختلف.

على أي حال، حتى وإن فعلوا، فليس لديهم ما يدفعهم إلى التفكير في بلده كمشتبه به أول، فمهام الجنرال كانت طويلة ومتنوعة، ولقد أسفرت مهمته لدى وزارة الدفاع الأميركية عن عدة احتمالات أخرى في حال ارتاب أحدهم في أنها قضية تصفية ذات أبعاد سياسية.

أما العامل الأهم الذي كان خليل يدرك أنه لصالحه فهو حقيقة أن لا أحد تقريباً يعرف أن هؤلاء الطيارين قد اشتركوا في هجوم الخامس عشر من أبريل، فلم تكن هناك إشارة واحدة عن ذاك الهجوم حتى في ملفاتهم الوظيفية، كما اكتشفت مخابرات بلده والمخابرات السوفياتية. فلم تكن هناك سوى قائمة مصنفة بكونها *سرّياً للغاية*. ولقد نجحت هذه السرية في حماية هؤلاء الرجال لأكثر من عِقد، ولكن هذه السرية ذاتها ستجعل من الصعب على السلطات أن يربطوا بين ما حدث في لاكينهيث، وإنكلترا، وواشنطن العاصمة و-قريباً- دايتونا بيتش في فلوريدا.

لكن الرجال أنفسهم كانوا يعرفون ما الذي يجمع بينهم، ولطالما كانت هذه هي المشكلة. ولم يكن بيد خليل سوى أن يسأل الله أن يُبقي أعداءه على جهلهم. فهذا بالإضافة إلى السرعة والخداع سيضمن له قتلهم جميعاً، أو على الأقل معظمهم.

لقد قال له مالك ‘‘أسد، لقد أخبروني أنك تتمتع بالحاسة السادسة، وأنك تشعر بالخطر قبل أن تراه عيناك، أو يشمه أنفك، أو تسمعه أذناك. فهل هذا حقيقي؟’’

أجابه خليل قائلاً ‘‘أظن أنني أتمتع بهذه الموهبة’’. ثم قص على مالك ما حدث ليلة الهجوم، متجاهلاً الجزء الخاص ببهيرة، فقال ‘‘كنت أصلي فوق سطح إحدى البنايات، وحتى قبل أن تصل المقاتلة الأولى كنت أشعر بوجود الخطر. كانت لديّ رؤية لطيور جارحة وبشعة تنحدر في اتجاهنا. ثم عدوت إلى المنزل لأخبر عائلتي، لكنني وصلت متأخراً’’.

أطرق مالك وقال ‘‘كما تعرف فإن القائد يذهب إلى الصحراء للصلاة كذلك، ولقد أتته تلك الرؤية أيضاً’’.

كان خليل يعرف هذا؛ كان يعرف أن القائد وُلد في الصحراء لأسرة من البدو. وهؤلاء الذين يولدون في الصحراء لأسر من البدو كانوا مباركين مرتين، ولدى العديد منهم قدرات لا تتأتى لمواليد المدن والبلاد على الساحل.

لكن مالك كان يعلم بها، وقال له ‘‘عندما تشعر بالخطر فليس من الجبن أن تهرب، فحتى الأسد يهرب لدى تعرّضه للخطر. لهذا السبب منحه الله سرعة زائدة عن تلك التي يحتاجها لمطاردة فريسته. عليك أن تستمع لحواسك وإلا غادرتك

حاستك السادسة هذه. ومتى شعرت بأنك فقدت هذه الملكة، عليك تعويضها بمزيد من الدهاء والحذر".

اعتقد خليل أنه فهم ما كان مالك يود قوله.

إلا أن مالك أردف يقول في هدوء "قد تلقى حتفك في أميركا، وقد تهرب منها، ولكن لا تدعهم يقبضون عليك هناك".

لم يجبه خليل على هذا، فتابع الرجل قائلاً "أنا متأكد من شجاعتك، وأنك لن تخون بلدك ولا ربك قط، ولا القائد كذلك، حتى وإن تعرضت للتعذيب. ولكن إن وضعوا أيديهم عليك، فسيكفيهم هذا كدليل للانتقام من بلادنا. ولقد طلب مني القائد أن أخبرك بضرورة قتلك لنفسك في حال شعرت أن أسرك أصبح وشيكاً".

تذكر خليل أنّه اندهش كثيراً لدى سماعه هذا. وهو بالطبع لا ينوي أبداً أن يقع في الأسر، وكم سيسره أن يقتل نفسه في حال شعر أن هذا قد أضحى ضرورياً.

لكنه تخيل موقفاً أمسك فيه الأميركيون به وهو بعد على قيد الحياة، ووجد هذا أمراً مقبولاً، بل ونافعاً للقضية. سيكون بوسعه عندئذ أن يعلن للعالم عن هويته، وكم عانى، وماذا فعل لينتقم لتلك الليلة. سيثير هذا كل الشعوب الإسلامية ويعوض شرف بلاده، ناهيك عن إذلال الأميركيين.

لكنّ مالك رفض هذا الاحتمال، وحتى القائد طلب أن لا ينهي خليل جهاده على هذا النحو.

طفق خليل يفكّر في الأمر، وفهم أخيراً لماذا لم يكن القائد يرغب في إثارة هجمة أميركية جوية أخرى. ولكن أليست هذه هي طبيعة النزاع الدموي على أي حال؟! بدا الأمر كدائرة؛ دائرة لانهائية من الدماء والموت وكلما كثر الدم، كلما كان أفضل، وكلما ازداد عدد الشهداء، كلما رضي عنا الله وصارت وحدة الإسلام أكثر قوة.

أخرج خليل هذه الأفكار من رأسه، فهو يعرف أن القائد لديه استراتيجية لا يفهمها إلا القلة التي اختارها للبقاء من حوله. ولقد ظن خليل أنه ربما التحق بهذه الدائرة الداخلية الضيقة ذات يوم، لكنه- في الوقت الراهن - سيؤدي دوره كالعديد من المجاهدين.

سحب خليل أفكاره من الماضي ووجّهها إلى المستقبل. كان قد شرد بذهنه تماماً، وهو أمر طبيعي على هذا الطريق السريع المباشر والممل. ثم شرع يرسل أفكاره إلى عدة ساعات وأميال قادمة؛ إلى ذاك المكان المدعو دايتونا بيتش، ورأى بعيني خياله المنزل الذي سبق وأن رأى صوره، ووجه بول غراي. حاول خليل أن يستشعر أي خطر قد يكون قابعاً في انتظاره، لكنه لم يشعر بأي أفخاخ في انتظار أن تطبق عليه.

بل أتته رؤية رأى فيها بول غراي يجري عارياً في الصحراء، فيما راح أسد ضخم وجائع يطارده، والمسافة بينهما تنحسر مع كل قفزة.

عندئذ ابتسم أسد خليل وحمد الله.

الفصل الثلاثون

تناولنا طعام الغداء، ثم سلكنا طريقنا إلى الطابق الرابع نحو غرفة معلومات صغيرة بلا نوافذ، استمعنا فيها إلى محاضرة صغيرة حول الإرهاب بشكل عام، والإرهاب في الشرق الأوسط على وجه الخصوص. تضمنت المحاضرة عرضاً للخرائط، والصور، ومخططات المنظمات الإرهابية، ونشرة تضم قائمة بالقراءات المقترحة.

اعتقدت أنها مزحة، ولكن لم يكن الأمر كذلك، إلا أنني التفت إلى محاضرنا ذاك – وهو رجل يُدعى بيل كان يرتدي حُلّة زرقاء - وسألته "أترانا هنا نقتل الوقت حتى يحين موعد أمر هام مثلا؟"

بدا بيل منزعجاً من سؤالي وهو يجيب "إن الغرض من هذا العرض هو تعزيز التزامكم، وإعطاؤكم فكرة عامة حول شبكة الإرهاب العالمية". وما إلى ذلك من هذا الحديث.

ثم أوضح لنا بيل الصعوبات التي واجهناها بعد الحرب العالمية الباردة، وأضاف أن الإرهاب هنا، وسيبقى. لم يكن هذا بمثابة خبر جديد بالنسبة لي، ولكنني أضفته إلى مفكرتي فلربما اختبرونا في هذه المحاضرة بعد ذلك.

بالمناسبة، فإن مكتب التحقيقات الفيدرالية ينقسم إلى سبعة أقسام: الحقوق المدنية، والمخدرات، ودعم التحقيقات، والجريمة المنظمة، والجريمة العنيفة، وجرائم الياقات البيضاء، ومكافحة الإرهاب، حيث القسم الأخير ذاك بمثابة صناعة حديثة النمو لم تكن موجودة قبل خمسة وعشرين عاماً عندما كنت شرطياً مجنداً حديث العهد.

في الحقيقة، لم يكن بيل يخبرنا بأشياء جديدة، فقد كنت أعرف كل هذا، تماماً كمعرفتي أن الحزن يخيم على البيت الأبيض هذا الصباح، بالرغم من أن الناس في باقي البلد لا يعرفون شيئاً على الإطلاق عن أن الولايات المتحدة تعاني الآن من أسوأ هجمة إرهابية منذ حادثة مدينة أوكلاهوما. والأكثر أهمية أن تلك الضربة لا تأتيك من قوة محلية مثلا، بل من صحاري شمال أفريقيا.

كان بيل منهمكاً في حديثه الجاد عن تاريخ الإرهاب في الشرق الأوسط فيما كنت أدون في مفكرتي ملحوظات حول الاتصال ببيث بينروز، وبوالديّ في فلوريدا، وكذلك الاتصال بدوم فانيلي، وأن أشتري بعض الصودا، وأن آخذ بدلاتي من محل التنظيف، وأن أتصل بفني إصلاح التلفاز، وأشياء من هذا القبيل.

ظل بيل يتحدث وكيت تستمع إليه بينما تيد شارد تماماً.

رأيت أن جاك كوينج، الملك جاك في مترو نيويورك لم يكن ملكاً هنا، بل لم يكن سوى أمير تافه تابع للعاصمة الإمبريالية. كما لاحظت أن رجال العاصمة يشيرون إلى نيويورك باعتبارها مكتباً ميدانيًّا، بيد أن الأمر لم يكن بهذا السوء مع هذا النيويوركي بعينه.

على أي حال، تركنا بيل ثم دخل الحجرة رجل وامرأة. كانت المرأة تَدعى جين، واسم الرجل جيم.

كانا يرتديان ملابس زرقاء.

بدأت جين حديثها قائلة "شكراً لمجيئكم".

ولما كنت نافد الصبر في هذه اللحظة، أجبتها بقولي "وهل كان لدينا خيار آخر؟"

فقالت مبتسمة "كلا، لا بد وأنك المخبر كوري".

حتماً أنا.

على أي حال، عمد جيم وجين إلى تقديم عرض ثنائي قصير وبالطبع اسم الأغنية كان البلد الذي ينتمي إليه أسد خليل. والحق أن هذا العرض كان أكثر تشويقاً من العرض السابق ولقد استحوذ على بعض انتباهنا. كانا يتحدثان عن رئيس تلك الدولة وعلاقته بالولايات المتحدة، وعن بلده الداعم للإرهاب، وعن القصف الجوي الذي حصل عام 1986.

فقالت جين "وأكبر الظن أن أسد خليل - المشتبه بقيامه بحادثة أمس - مواطن من تلك الدولة، بالرغم من أنه يسافر أحياناً حاملاً جوازات سفر من بلاد شرق أوسطية أخرى". ثم ظهرت صورة أسد خليل على الشاشة فجأة، فيما أردفت جين "هذه هي الصورة التي أرسلت إليكم من باريس، ولديّ صورة أوضح له سأعطيها لكم في وقت لاحق. كما أننا التقطنا له المزيد من الصور في باريس".

تتابعت إثر هذا سلسلة من الصور على الشاشة تظهر خليل في أوضاع طبيعية متنوعة وهو في أحد المكاتب، وبات واضحاً أنه يجهل وجود هذه الكاميرا الخفية.

"قام رجال المخابرات في السفارة بالتقاط هذه الصور لخليل أثناء استجوابه، ولقد عاملوه باعتباره لاجئاً قانونيًّا حيث إنه قدّم نفسه هكذا للسفارة".

سألتها "وهل فتشوه؟"

"تفتيش سطحي؛ فلقد ربتوا على جسده فقط، ومرروه بجهاز كاشف المعادن".

"ألم يتم تفتيشه عارياً؟"

"كلا، فنحن لا نريد أن يتحول المخبر أو مصدر المعلومات إلى سجين مُعادٍ".

فقلت لها "البعض يحب أن ينظر الآخرون إلى أجسادهم، ولكن عليكِ أن تسألي أولاً لتتأكدي". حتى تيد العجوز ضحك على هذا التعليق، بينما أجابت جين في برود "إن العرب متحفظون عندما يتعلق الأمر بالتجرد من الملابس والظهور على نحو سافر وما إلى ذلك، فهم يغضبون كثيراً ويشعرون بالإذلال تجاه التفتيش الذاتي".

"ولكن كان من الممكن أن يحمل هذا الرجل حبوب السيانيد في أي مكان في جسده، فيقتل نفسه أو يعطي أيًّا من رجال السفارة جرعة قاتلة".

حدقت جين إليّ بعينين جامدتين وقالت "إن مجتمع المخابرات ليس بالغباء الذي تظنه".

هنا ظهرت على الشاشة مجموعة أخرى من صور أسد خليل وهو في الحمام؛ كان يخلع ملابسه ويستحم، ويذهب لقضاء حاجته، ومثل هذه الأشياء. فقالت جين "بالطبع تم التقاط هذه الصور بكاميرا خفية، ولدينا شريط فيديو بنفس المشاهد يا سيد كوري، في حال كنت مهتمًّا بهذا".

"لن أعلق على هذا".

ثم نظرت إلى الصورة على الشاشة وكانت صورة أمامية كاملة لأسد خليل وهو عارٍ تماماً عند خروجه من حوض الاستحمام. كان رجلاً قوي البنية، يبلغ طوله حوالي ستة أقدام، كثيف الشعر، ولا أثر لديه لجروح مرئية أو وشم من أي نوع، ومحنياً كالحمار، فقلت لكيت "سأضع هذه الصورة في إطار وأقدمها لكِ".

إلا أن هذه المزحة لم تترك أثراً جيداً على المجموعة، وصارت الأجواء أكثر برودة على نحو ملحوظ، وللحظة شعرت أنه سيُطلب مني أن أقف ووجهي إلى الحائط. إلا أن جين تابعت قائلة "وبينما كان السيد خليل مستغرقاً في نوم عميق - بالطبع نتيجة للمخدر الذي وُضع له في الحليب - قام بعض رجال السفارة بتفتيش ملابسه وأخذوا منها بعض العيّنات من الألياف، بالإضافة إلى بصمات أصابع يديه وقدميه، وبعض خلايا الأغشية من فمه لتحليل الحمض النووي الريبي المنقوص، وعينات من شعره، وحتى صورة من فكه". ثم نظرت نحوي وسألتني "أترانا نسينا شيئاً سيد كوري؟"

"كلا، بيد أنني لم أكن أعرف أن الحليب قد يفعل كل هذا في المرء".

"وستكون كل هذه الأشياء متاحة لاستخدامكم. ويوضح التقرير الأولي حول الملابس - حلّة رمادية، وقميص، وربطة عنق، وحذاء أسود، وملابس داخلية – أنّها كلها أشياء مُصنّعة في أميركا، وهو أمر مثير للاهتمام، حيث إن الملابس الأميركية ليست واسعة الانتشار في أوروبا والشرق الأوسط. ومن ثم فإننا نشك أن خليلاً أراد أن يمتزج مع المجتمع الأميركي الحضري فور وصوله".

وهذا ما راودني أنا أيضاً.

قالت جين "هناك نظرية بديلة، وهي ببساطة أن خليلاً يحمل جواز سفر مزيَّفا، فتوجه إلى صالة الوصول والمغادرة الدولية حيث كانت تنتظره في مكتب أحد خطوط طيران الشرق الأوسط - أو أي خطوط طيران أخرى - تذكرة صادرة باسمه المذكور في جواز السفر المزيف، أو أن يوسف حداد أعطى خليلاً تذكرته على متن الطائرة 175".

نظرت جين إلينا قبل أن تتابع "أعرف بالطبع أنكم فكّرتم في الاحتمالين - أن خليلاً ظل بالبلاد، أو أنه رحل - فكليهما معقول جداً. ولكن ما نعرفه يقيناً هو أن يوسف حداد قد بقي، ونحن نحاول الآن الوصول إلى هويته الحقيقية، وتحديد شبكة اتصالاته. أترون كم هو عديم الرحمة - أعني خليل - بحيث يقتل مساعده؛ يقتل الرجل الذي جازف بحياته ليدخله إلى البلد؟ فكروا فيه وهو يدق عنق حداد، ثم

يجلس بمفرده على متن طائرة محملة بالجثث آملاً أن القائد الآلي سيهبط بالطائرة في المطار. ثم لا يعمد إلى الهروب، بل يذهب إلى نادي الفاتحين ويقتل ثلاثة من رجالنا. وعندما نطلق على خليل أنه عديم الرحمة وبلا قلب فإننا نصف جزءاً من شخصيته، فهو أيضاً جريء بشكل يصعب تصديقه، بل ووقح كذلك. وهو مدفوع بشيء بالغ القوة والتأثير".

ما من شك في هذا. وبالرغم من أنني أعتبر نفسي جريئاً ووقحاً، ولكنني أعترف -على الأقل لنفسي - أنني ما كنت لأفعل ما فعله أسد خليل. ولم يحدث أن قابلت في حياتي المهنية خصماً شعرت أنه أكثر شجاعة مني سوى مرة واحدة، وعندما تمكنت أخيراً من قتله شعرت أنني لم أكن جديراً بقتله؛ كصيّاد يحمل بندقية متطوّرة ويقتل أسداً وهو يعرف أن هذا الأسد أكثر قيمة وشجاعة منه.

ضغطت جين زر عارض الفيديو فظهرت على الشاشة صورة جانبية مكبرة لوجه رجل، وقالت جين "ترون في هذه الصورة المحسنة لوجنة خليل اليسرى ثلاث ندبات باهتة ومتوازية، ولديه مثلها على الوجنة اليمنى. ووفقاً لأخصائي علم الأمراض لدينا فإن هذه ليست بحروق أو جروح أحدثتها آلة حادة أو سكين، بل هي جروح أحدثتها أظافر بشرية أو حوافر حيوان ما؛ فهي تمزقات متوازية ومتعرجة بعض الشيء. وتلك هي كل الندبات التي وجدناها في جسد أسد خليل".

سألتها "هل لنا أن نفترض أن هذه الندبات قد صنعتها أظافر امرأة؟"

"لك أن تفترض ما شئت سيد كوري، فكل ما قصدته هو أن أشير إلى سماته المميزة في حال عمد هو إلى تغيير مظهره الخارجي".

"شكراً لكِ".

"بالإضافة إلى هذه الخطوط، قام الرجال في باريس بوشم جسد أسد خليل بثلاث نقاط؛ إحداها على شحمة أذنه اليمنى من الداخل". ثم أشارت إلى صورة مقربة، "وواحدة بين الإصبع الكبير والذي يليه في قدمه اليمنى". ومرة أخرى ظهرت صورة غريبة، "والثالثة قريبة من شرجه، إلى جهة اليمين".

ثم تابعت "لذا، في حال كان لديكم مشتبه به، أو عثرتم على جثة ما، يمكنكم استخدام هذا كطريقة سريعة للتعرف عليه قبل المضي في إجراء بصمات الأصابع أو الأسنان إذا كان هذا ضرورياً".

ثم حان دور جيم ليتحدث "عندما نفحص هذه العملية نجد أن الإعداد لها بسيط للغاية، فالانتقال من بلد مفتوح نسبياً إلى بلد آخر ليس بالأمر الصعب. كما أن يوسف حداد كان يسافر على درجة رجال الأعمال، وهو عادة ما يجعل الأمور أسهل بكثير؛ بما في ذلك حمل حقيبة ملابسك معك، وكذلك استخدام الأكسجين الطبي. كما أن حداد متأنق في ملابسه، ومن المحتمل أنه يتحدث الفرنسية على نحو جيد يكفي لفهم ما يقولونه في مطار ديغول، ومن المحتمل أيضاً أنه يتحدث الإنكليزية بحيث إنه لا يسبب إزعاجاً للمضيفات على متن الترانس - كونتيننتل".

فرفعت يدي قائلاً "هل لي أن أسأل سؤالاً؟"

"بالطبع".

"كيف عرف يوسف حداد أي رحلة سيكون أسد خليل على متنها؟"

"حسناً سيد كوري، هذا سؤال جيد".

"نعم، لطالما فكّرت في هذا الأمر".

"حسناً، للأسف الإجابة بسيطة للغاية. نحن غالباً ما نستخدم ترانس - كونتيننتل، فهي شركة الطيران الوطنية حيث أجرينا تخفيضات على درجة رجال الأعمال، ولكن الأهم هو أنه لدينا شخص اتصال أمني يعمل مع ترانس - كونتيننتل. كما أننا نعمل على سرعة صعود وهبوط المسافرين من وإلى الطائرة بأقل مشكلات ممكنة. من الواضح أن أحدهم قد علم بهذه الترتيبات، فهي ليست بهذه السرية".

"لكن كيف علم حداد أن خليلاً سيكون على متن هذه الرحلة؟"

"من الواضح أن ثمة اختراقاً أمنيًّا ضمن شركة ترانس - كونتيننتل في مطار ديغول؛ ربما قام أحد موظفي الشركة في باريس - وربما كان موظفاً عربياً، فهم كُثر في باريس - بإخطار يوسف حداد. في الواقع، لو رجعنا بالأحداث إلى أبعد من هذا فسنجد أن خليلاً قد سلّم نفسه في باريس وليس في أي بلد آخر بسبب الضعف الأمني هناك. بل ويجدر بالذكر أن خطوط الطيران الأميركية تنتهج سياسة تمنع الصعود إلى متن الطائرة ومعك الأكسجين الخاص بك لأسباب أمنية، حيث يتعين عليك أن تضعه في مكان مخصص لحفظ الأكسجين، على أن تتسلمه قبل مغادرتك الطائرة مقابل أجر زهيد. من الواضح أن أحدهم قد فكّر في هذه المشكلة الأمنية منذ سنوات. ولكن لو أن الأمر كذلك، فسيعني هذا أن أحد موظفي شركة الطيران قد وضع علبة من الغاز السام محل إحدى علب الأكسجين".

قلتُ معلقاً "بدت لي العلبتان متماثلتين، أظن أنّه تم وضع علامة ما على إحداهما".

"يوجد على علبة الأكسجين خدش صغير متعرّج في الطلاء، بخلاف علبة الغاز السام".

عندئذ تخيلت يوسف حداد يحدث نفسه "فلنرَ علبة الأكسجين مخدوشة، وعلبة الغاز السام بلا خدوش؛ أم العكس؟"

سألني جيم "أهناك ما يُضحك سيد كوري؟"

فقلت له فكرتي السخيفة تلك، ولكن كان ناش هو الوحيد الذي ضحك عليها.

ثم أشار جيم إلى بعض الملاحظات وقال "لدينا تقرير أولي في ما يتعلق بالغاز. لست خبيراً في هذا الشأن، لكنهم أخبروني أن هناك أربعة أنواع رئيسية من الغاز السام؛ الغاز الخانق، أو ذلك الذي يسبب البثرات، أو الذي يدخل في الدم، أو الذي يؤثر على الأعصاب.

مما لا شك فيه أن الغاز الذي استخدم على متن الرحلة 175 كان من نوع الغاز الذي يؤثر في الدم، ربما كان نوعاً مطوراً من مركب كلوريد السيانيد، فهو سريع التطاير وينتشر بسرعة في الهواء المحيط. ووفقاً لخبرائنا الكيميائيين، ربما لاحظ المسافرون رائحة تشبه رائحة اللوز المر أو الخوخ، ولكن بما أنه من غير

الضروري أن يكون المسافرون يعلمون شيئاً عن السيانيد، فمن الأرجح أن الأمر لم يسبب أي انزعاج".

نظر إلينا جيم ورأى أنه قد أثار اهتمامنا جميعاً، ولو على سبيل التغيير؛ سبق أن شعرت بمثل هذا الإحساس في فصلي الدراسي في جون جاي. فكنت كلما شعرت بأن طلابي قد شرعوا يشردون، أبدأ في الحديث إما عن القتل أو عن الجنس، وسرعان ما ينتبه الجميع.

كان جيم ما زال يتحدث عن الغاز وقال "إليكم الأمر كما نظنه قد حدث. طلب أسد خليل استخدام الحمام، وبالطبع اصطحبه إما فيل هاندري أو بيتر جورمان. على أي حال، أياً كان من ذهب معه فقد تفقد الحمام كما يفعلان في كل مرة يطلب فيها أسد خليل أن يدخل الحمام، خشية أن يشهر سلاحاً أو شيئاً كهذا". ثم نظر إلينا وقال، بلا مبرر "تعرفون أنه قد يخبّئ شخص ما سلاحاً في الحمام. ومن ثم عمد فيل وبيتر إلى فحص النفايات، وربما فتشا خلف لوحة الصيانة أسفل الحوض، حيث من السهل أن يخبّئ شخص ما أي شيء في هذا المكان. بل وفعلها أحدهم ذات مرة، إلا أن ما أخفاه لم يكن شيئاً مرئياً، ولا يبدو أن فيل وبيتر كانا سيلحظان وجود شيء لا يجب أن يكون هناك. فلم تكن هناك سوى قنينة أكسجين صغيرة وقناع من ذاك النوع الذي تجده في كل قمرة في كافة طائرات العالم. فهو أكسجين علاجي للمسافرين الذين يتعرضون للخطر، إلا أنه لا يوضع أبداً أسفل الحمام. بيد أنك لن تلاحظ ذلك ما لم تكن على علم بالإجراءات المتبعة في شركات الطيران. فحتى لو أن فيل أو بيتر قد رأيا قنينة الأكسجين تلك، فما كانا ليرتابا في أمرها".

مرة أخرى، توقف جيم عن الحديث ليراقب تأثيره علينا قبل أن يتابع سرده، ثم طفق يخبرنا "ولقد عمد أحدهم - ربما عامل النظافة أو مسؤول الصيانة في مطار ديغول - إلى وضع علبة الأكسجين أسفل الحوض في حمام القبة قبل الإقلاع. وعندما سمح فيل أو بيتر لخليل بدخول الحمام، تركاه مصفداً وأمراه ألا يغلق الباب. وهو إجراء عادي متبع. وعندما كان خليل في الحمام، كانت تلك هي الإشارة لحداد كي يطلق الغاز من العلبة الثانية. وفي اللحظة التي بدأت علامات المرض تظهر على المسافرين، كان الأوان قد فات كي يدرك أي شخص المشكلة التي يواجهونها. ولأن الطيار الآلي دائماً ما يكون مُفعّلا أثناء الطيران، تابعت الطائرة تحليقها".

أخيراً، أنهى جيم حديثه قائلاً "أما خليل، والذي كان يستنشق الأكسجين من علبة الطائرة الموضوعة أسفل الحوض، فقد خرج من الحمام بعد مرور وقت كاف لكي يتأكد من أن الجميع قد فقدوا وعيهم أو لقوا حتفهم. في هذه اللحظة كان لدى خليل وحداد أكثر من ساعتين لترتيب الأشياء، ومن ضمنها فك أصفاد خليل، ووضع العميل الفيدرالي على مقعده، والأكسجين الطبي التابع لحداد في حجرة المعاطف، وما إلى ذلك من إجراءات. ثم أدرك خليل أنه كان بحاجة إلى بعض الدقائق الحرجة بعد هبوط الطائرة حتى يتمم خطة هروبه، فعمد إلى ارتداء زي حملة الحقائب من ترانس - كونتيننتل ومن ثم الاختلاط بهؤلاء الذين صعدوا إلى الطائرة في المنطقة الأمنية. ولهذا أراد خليل أن تبدو الأمور طبيعية ما أمكن بالنسبة لموظفي خدمة الطوارئ الذين سيصعدون إلى الطائرة لدى نهاية المدرج، فلا تبدو

الطائرة كمسرح للجريمة، بحيث سيتم سحب الطائرة إلى المنطقة الأمنية المغلقة حيث سيصعد إلى الطائرة موظفون آخرون مع رجال خدمة الطوارئ".

ثم صمت جيم، وعاودت جين الحديث، وهكذا استمر الحال حتى الرابعة عصراً، وكنت بالفعل بحاجة إلى استراحة.

كنا قد وصلنا إلى مرحلة الأسئلة والإجابات عندما سألت كيت "كيف عرف خليل وحداد أن الطائرة 747 مبرمجة للهبوط في مطار كنيدي؟"

أجابها جيم "لدى شركة ترانس - كونتيننتل سياسة تتطلب أن يقوم الطيارون ببرمجة جهاز الكمبيوتر في الطائرة للرحلة بأسرها، بما في ذلك معلومات الهبوط. وهذا ليس بسر، بل ويتم تقريره تفصيلاً في كافة المجلات الملاحية. هذا بالإضافة إلى الاختراق الأمني في ترانس - كونتيننتل في ديغول".

ثم أضاف "الشيء الوحيد الذي لا يأتمن أحد الكمبيوتر على فعله هو تشغيل المدافع العكسية. فلو أخطأ الجهاز وقام بتشغيلها أثناء التحليق، سينفصل المحرك أو أي جزء آخر من أجزاء الطائرة الأساسية. ولذلك يتم تشغيل هذه المدافع يدوياً بعد الهبوط مع أقل تدخل آلي ممكن. إنها سمة أمنية، وربما هي المهمة الوحيدة التي بقيت للطيار البشري كي يقوم بها، بالطبع بالإضافة إلى الجملة الترحيبية *مرحباً بكم في نيويورك* أو أي مكان كان، ثم استقلال سيارة أجرة إلى البوابة". ثم أردف جيم ضاحكاً "وهو ما لا تستطيع أجهزة الكمبيوتر فعله كذلك. على أي حال، عندما هبطت الطائرة 747 في مطار كنيدي بدون تشغيل المدافع العكسية كان في هذا إشارة إلى وجود مشكلة ما".

قال كوينج "كنت أظن أنه يتم تحديد المدارج فقط عند اقتراب الطائرة من المطار".

"صحيح. إلا أنه عادة ما يكون الطيارون على علم بالمدارج التي سيتم استخدامها. كما أن البرمجة المسبقة لا تعني أن يحل هذا محل الهبوط الذي يقوم به الطيار باليد وباتباع تعليمات اللاسلكي. إنه فقط إجراء احتياطي. ولقد أخبرني الطيار الذي تحدثت إليه أن هذا الإجراء يجعل حسابات الكمبيوتر أثناء التحليق أكثر دقة". ثم أردف "وكما اتضح في ما بعد، كان المدرج أربعة يميناً - والذي

كان متضمناً في البرمجة - لا يزال قيد الاستخدام بالأمس في وقت وصول الرحلة 175".

مدهش، مدهش جداً، لكم أحتاج إلى جهاز كمبيوتر مثل هذا في سيارتي، فأنام خلف عجلة القيادة كما يحلو لي.

ثم تابع جيم "سأخبركم ماذا أيضاً يعرف هؤلاء الجناة عنّا؛ إنهم يعرفون إجراءات خدمة الطوارئ في مطار كنيدي، وهي تقريباً نفس الإجراءات المتبعة في كافة المطارات الأميركية. ربما كانت الإجراءات في مطار كنيدي أكثر تعقيداً منها في المطارات الأخرى، إلا أنها ليست سرية للغاية، فكثيراً ما نشرت مقالات عن قسم *الأسلحة والخراطيم*، ناهيك عن أن أدلة العمل والتشغيل ليست بسر ومن السهل الوصول إلى أي منها. ربما كانت المنطقة الأمنية هي التي لا يعرف الجميع الكثير عنها، إلا أنها ليست على قدر عالٍ من السرية كذلك".

أعتقد أن جيم وجين كانا بحاجة إلى الاستراحة مني. لذا، ما إن انتهى جيم حتى قالت جين "فلنأخذ استراحة لخمس عشرة دقيقة. ستجدون دورات المياه ومنضدة القهوة في آخر الرواق".

على الفور نهضنا جميعاً خشية أن يغيّرا رأيهما.

رحتُ وتيد وكيت وجاك نثرثر قليلاً، واكتشفت أن اسمي جيم وجين الحقيقين هما كون وليزا. ولكنهما سيظلان جيم وجين بالنسبة لي، فالجميع هنا جيم وجين، فيما عدا بوب وبيل وجان، وكلهم كانوا يرتدون ملابس زرقاء، وجميعهم يلعبون الاسكواش في الدور السفلي، وجميعهم يتسكعون في أرجاء بوتوماك، ولديهم جميعاً منازل في ضواحي فيرجينيا، ويذهبون إلى دار العبادة أيام الآحاد إلا عندما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، مثلما حدث اليوم. ولدى المتزوجون منهم أولاد؛ أولاد رائعون بحق، يبيعون الحلوى للحصول على المال لمعدات الكرة، وما إلى ذلك من الأشياء.

من ناحية ما، أنت لا تملك إلا أن تحب هؤلاء الأشخاص. أعني بهذا أنهم مثال للمثالية، أو على الأقل المواطن الأميركي المثالي كما يرونه. فهؤلاء العملاء جيدون بحق في أعمالهم، ومعروفون على مستوى العالم بأمانتهم، ورزانتهم، وولائهم، وذكائهم. فماذا يعني لو أن معظمهم من المحامين؟ جاك كوينج، على

سبيل المثال، كان رجلاً صالحاً جعل منه حظه العثر محامياً. وكيت كذلك، لا بأس بكونها محامية. لكم أحببت أحمر شفاهها اليوم؛ كان وردياً باهتاً.

على أي حال، ربما كنت أشعر ببعض الحقد تجاه الأُسر ودور العبادة، فكنت أرى بعيني الخيال منزلاً بسياج خشبي مدبب، وزوجة ودودة، وطفلين وكلباً، ودوام عمل من التاسعة وحتى الخامسة حيث لا أحد يسعى إلى قتلي.

مرة أخرى ذهبت أفكاري إلى بيث بينروز في لونغ أيلاند، ورحت أفكر في منزل عطلة نهاية الأسبوع الذي اشترته في نورث فورك بالقرب من البحر ومزارع العنب. من الواضح أنني لم أكن على ما يرام ذاك اليوم، ولأسباب مخيفة أخشى كثيراً أن أتأملها أو أفكر فيها.

الفصل الحادي والثلاثون

نظر أسد خليل إلى عداد الوقود في سيارته ووجده ممتلئاً حتى ربع سعته، فيما أظهرت ساعة لوحة العدادات أنها الثانية وثلاث عشرة دقيقة من بعد الظهر، وكان قد قطع نحو ثلاثمئة ميل منذ غادر واشنطن، فلاحظ كيف أن هذه السيارة القوية تستهلك وقوداً أكثر من أي سيارة أخرى سبق وأن قادها في أوروبا أو في بلده.

لم يكن خليل يشعر بالجوع ولا بالعطش، أو ربما لم يكن الأمر كذلك، بيد أنه تعلم كيف يكبت تلك المشاعر، ولقد كيّفه تدريبه على البقاء لفترات طويلة بدون طعام أو نوم أو ماء، وبالطبع فالعطش هو أصعب احتياج يتعين عليه تجاهله. لكنه يذكر تلك المرة التي قضى فيها ستة أيام في الصحراء بدون ماء ولم يصبه هذيان؛ فهو يعرف إذاً إلى أي مدى يمكن لجسده أن يتحمل.

اقتربت منه سيارة بيضاء مكشوفة من ناحية اليسار، ورأى فيها أربع شابات يتحدثن ويضحكن، ولاحظ خليل أن شعرهن جميعاً فاتح اللون بالرغم من سمرة بشراتهن بفعل أشعة الشمس. ثلاث منهن كن يرتدين قمصاناً قطنية بينما الرابعة - وهي الأقرب إليه - كانت ترتدي الجزء العلوي من رداء سباحة وردي اللون. كان خليل قد رأى ذات مرة شاطئاً في جنوب فرنسا حيث النساء لا يستر نصفهن العلوي أي ملابس، ونهودهن مكشوفة للعالم بأسره.

في حال كُنّ في بلده كُنّ سيُجلدن لا مراء، وربما حُكم عليهن بالسجن لسنوات. كان من الصعب على خليل تحديد عقوبة هذا الفعل المشين بدقة حيث من المستحيل أن يحدث هذا في بلده.

نظرت إليه الفتاة ذات الرداء الوردي، وابتسمت، ولوّحت له، وهكذا فعلت الفتيات الأخريات.

زاد خليل من سرعة سيارته.

ففعلن هن مثلما فعل حتى يبقين بالقرب منه، حتى وصلت سرعته إلى 76 ميلاً في الساعة، فخفف من سرعته حتى باتت 65 ميلاً بالساعة، فحذت الفتيات حذوه، وظللن يُلوحن له.

ثم علا صوت إحداهن تقول له شيئاً لكنه لم يسمعها، ولم يعرف كيف يتصرف حيالهن، وشعر للمرة الأولى منذ هبط بتلك الطائرة أنه لا يسيطر على الموقف. فما كان منه إلا أن زاد من سرعة سيارته مرة أخرى، ومرة أخرى لحقن به.

فكّر خليل في الخروج من المفرق القادم، ولكن قد يتبعنه إلى هناك، وعندما زاد من سرعته مرة أخرى، فعلن هن مثل ذلك وهن يضحكن ويلوحن. أدرك خليل أن هذا المشهد سرعان ما سيجذب انتباه الآخرين، وشعر بالعرق يتكون فوق حاجبيه.

فجأة ظهرت في مرآة سيارته الجانبية سيارة شرطة يوجد داخلها شرطيان، وهنا لاحظ خليل أنه يسير بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة وسيارة الفتيات ما زالت

بجواره، "عاهرات قذرات!"

انحرفت سيارة الشرطة إلى المسار الخارجي خلف السيارة المكشوفة التي زادت من سرعتها، فيما خفف خليل من سرعته وترك سيارة الشرطة تمضي بجواره وهو يضع يده اليمنى في جيب سترته ويتحسس بأصابعه عقب مسدسه، بينما يبقي رأسه وعينيه على الطريق أمامه.

أما سيارة الشرطة فقد تخطته ثم دخلت في طريقه وصارت أمامه دون أن يشير من فيها إليه، ثم ازدادت سرعة سيارة الشرطة لتلحق بسيارة الفتيات المكشوفة. خفف خليل من سرعته ثانية وراح يراقب الموقف. بدا له أن الرجل في سيارة الشرطة يتحدث إلى الفتاة التي تقود السيارة، ثم لوحن جميعاً وانطلقت سيارة الشرطة.

أصبحت السيارة المكشوفة تسبق سيارة خليل بنحو مئة متر، وبدا أن الفتيات قد فقدن اهتمامهن به، فأبقى سرعته عند 65 ميلاً في الساعة، ومن ثم اتسعت المسافة بين السيارتين، ولاحظ أن سيارة الشرطة قد اختفت تماماً.

أخذ خليل نفساً عميقاً، وشرع يفكر في ما حدث إلا أن الأمر كله بدا مبهماً بالنسبة له، وتذكر شيئاً أخبره به بوريس ذات مرة "يا صديقي، الكثير من النساء الأميركيات سيجدنك وسيماً. ولن تجد الأميركيات مباشرات وصريحات جنسياً كالأوروبيات، لكن ربما يحاولن التودد إليك، حيث يعتقدن أنه بوسعهن أن يكنّ لطيفات مع أحد الرجال بدون استفزاز وبدون لفت الانتباه إلى الاختلافات الواضحة بين الجنسين. أما في روسيا - كما هو الحال في أوروبا - فنجد هذا ضرباً من حماقة؛ فلماذا ستتحدث إلى أي امرأة إن لم يكن ذلك بغرض الجنس؟ أما في أميركا - وبصفة خاصة الشابات الصغيرات في السن - فستجدهن يتحدثن إليك، وربما تتضمن أحاديثهن مواضيع تتعلق بالجنس، بل ويدعونك إلى منازلهن، فقط ليخبرنك أنهن لن يفعلن ذلك معك".

وجد خليل صعوبة في تصديق ذلك، ولكنه أجاب بوريس بقوله "لن يكون لي شأن بالنساء هناك وأنا أقوم بمهمتي".

ضحك بوريس ساخراً منه وقال "يا صديقي المسلم الصالح، إن الجنس جزء من مهمتك. كما أنه لا ضرر من بعض المرح فيما تجازف بحياتك. لا شك أنك رأيت أفلام جيمس بوند".

إلا أن خليلاً لم يكن قد رأى أيًّا منها، فقال "ربما لو أن المخابرات الروسية قد أعارت اهتماماً أكبر بمهامها واهتماماً أقل بالنساء لكانت بقيت حتى يومنا هذا".

استاء الروسي من رد خليل ذاك، لكنه أجابه قائلاً "على أي حال، غالباً ما تصرف النساء انتباه المرء، وحتى إن لم تبحث أنت عنهن، فهنّ سيجدنك! عليك أن تتعلم كيف تتعامل مع تلك المواقف".

"أنا لا أنوي التعرض لتلك المواقف، فوقتي محدود في أميركا وكذلك فرص التحدث إلى النساء هناك".

"لكن ها هي هذه الأشياء تحدث بالفعل". أطرق خليل وهو يحدث نفسه؛ فلقد مرّ بهذا الموقف لتوّه، ولم يحسن التعامل معه.

ثم فكّر في الفتيات الأربع في السيارة المكشوفة، وبالقليل الذي كن يرتدينه، وبغض النظر عن ارتباكه حول ما يجدر به عمله، لم يسعه إلا أن يدرك، بل ويعترف بتلك الرغبة الغريبة التي تدفعه لينام مع امرأة عارية.

إنه أمر يستحيل القيام به في بلده دون التعرض للخطر. وتذكر كيف أنه وجد في ألمانيا العاهرات التركيات في كل مكان، ولكنه لم يتحمل فكرة شراء جسد امرأة من ملته بالمال. وكان قد أباح لنفسه الاستمتاع مع العاهرات الأفريقيات في فرنسا عندما أكدن له أنهن لسن من ملته. أما في إيطاليا، فكان هناك العديد من اللاجئات من يوغسلافيا وألبانيا، ولكن معظمهن كنّ من ملته. وتذكر مرة كان فيها مع امرأة ألبانية ثم اكتشف أنها من ملته فضربها ضرباً مبرحاً حتى غدا يتساءل ما إذا كانت ما زالت على قيد الحياة.

لقد قال له مالك قبل رحيله "عندما تعود سيكون الوقت قد حان كي تتزوج، وسوف تختار زوجة من بين فتيات أفضل عائلات البلد". والحق أن مالك قد رشح له واحدة بالفعل؛ عليمة نادر، الأخت الصغرى لبهيرة، وكانت في التاسعة عشرة من عمرها ولم تتزوج بعد.

فكّر خليل في عليمة، فبالرغم من أن النقاب يغطيها، إلا أنه كان يشعر أنها لم تكن بجمال أختها بهيرة، ولكنه شعر فيها بنفس الجرأة التي أحبها وكرهها في بهيرة. نعم، سيتزوجها.

أما الكابتن نادر الذي كان سيرفض اهتمامه ببهيرة آنذاك، فهو سيرحب الآن بأسد خليل باعتباره أحد أبطال ملته، وفخر أرض الأجداد، والصهر الغالي.

ومض ضوء ما على لوحة العدادات وعلا رنين قصير، فراحت عينا خليل تمسحان المعدات وأبصر انخفاض مستوى الوقود، ومن ثم اتخذ أول مخرج صادفه، ومنه توجّه إلى الطريق المحلي، ثم إلى محطة وقود شل.

مرة أخرى قرر خليل ألا يستخدم بطاقة الائتمان خاصته واتجه نحو مضخة الوقود الذاتية الخدمة والتي تسدد فيها النقود نقداً. فوضع نظارته الشمسية وخرج من سيارته، ثم اختار وقوداً عالي الأوكتان وملأ خزان الوقود الذي استوعب 22 غالوناً من الوقود. حاول خليل أن يحسب هذه الغالونات بالليترات فوجدها حوالى المئة ليتر، وتعجب من غرور - أو ربما غباء - الأميركيين من أنهم آخر أمّة على وجه الأرض لا تستخدم النظام المتري.

أزاح خليل خرطوم مضخة الوقود، ولاحظ عدم وجود كشك زجاجي يستطيع الدفع فيه، وأدرك أنه سيتعين عليه دخول ذاك المكتب الصغير، فلعن نفسه أنه لم يلحظ هذا من قبل.

سار خليل نحو المكتب في محطة الوقود ثم دخله. وبالداخل كان يجلس رجل فوق مقعد خلف منضدة صغيرة، يرتدي بنطالاً من الجينز الأزرق وقميصاً قطنياً، وكان يشاهد التلفاز، ويدخن سيجاراً.

نظر الرجل إلى خليل ثم إلى لوحة العداد الرقمي وقال ‘‘ثمانية وعشرون دولاراً وخمسة وثمانون سنتاً’’. فوضع خليل ورقتين من فئة العشرين دولاراً فوق المنضدة.

فقال له الرجل وهو يحسب باقي النقود ‘‘أي خدمة أخرى؟’’

‘‘كلا’’.

‘‘لديّ مشروبات باردة في الثلاجة هناك’’.

وجد خليل صعوبة في فهم لكنة الرجل، ثم أجاب ‘‘كلا، شكراً لك’’.

ناوله الرجل بقية النقود وسأله ‘‘من أين أتيت يا صديقي؟’’

‘‘من نيويورك’’.

‘‘أحقاً؟ مسافة طويلة قطعتها إذاً. إلى أين وجهتك؟’’

‘‘إلى أتلنتا’’.

‘‘انتبه إذاً ألا يفوتك الطريق I-20 على هذا الجانب من فلورنس’’.

أخذ خليل نقوده وهو يقول ‘‘حسناً، شكراً لك’’. ثم ألقى نظرة على التلفاز وكان يعرض مباراة لكرة السلة. وعندما لاحظ الرجل نظرة خليل إلى التلفاز، قال ‘‘إن فريق الشجعان يقود نيويورك؛ أراهن أنهم سيلقنون فريق اليانكيز درساً قاسياً اليوم’’.

أومأ أسد خليل موافقاً بالرغم من أنه لا يعرف شيئاً عمّا يتحدث عنه الرجل، ومرة أخرى شعر بالعرق يعلو حاجبيه ولاحظ ارتفاع نسبة الرطوبة في هذا المكان، فاستدار خارجاً من المكتب ومنه إلى سيارته وهو يتمنى للرجل يوماً طيباً.

من داخل سيارته ألقى خليل نظرة على نافذة المكتب الزجاجية الكبيرة ليرى ما إذا كان الرجل يراقبه، لكن هذا الأخير كان قد عاود توجيه انتباهه إلى التلفاز.

انطلق خليل بسيارته مسرعاً تاركاً محطة الوقود، حيث عاد إلى الطريق I-95 وتابع سفره نحو الجنوب.

أدرك خليل أن الخطر الأعظم يكمن في التلفاز، فإذا ما بدأوا في إذاعة صورته - وربما يكونون قد بدأوا بالفعل – فسيمثل هذا تهديداً له في أرجاء أميركا بأسرها. كان متيقناً من أن الشرطة على طول البلاد وعرضها لديها نسخ من صورته الآن، لكنه لا ينوي الاحتكاك بالشرطة على أي حال. إلا أنه سيحتاج إلى الاتصال بعدد قليل من الأميركيين لا محالة. أنزل خليل مرد أشعة الشمس الذي يعلو عجلة القيادة وراح يدرس وجهه في المرآة المثبتة على ظهره، وكان لا يزال يضع نظارته الشمسية، وهناك ذاك الفرق في شعره، واللون الرمادي الذي أضافه، والشارب المستعار والنظارة. كان متأكداً إلى حدٍّ كبير أنه لا يشبه أيًّا من الصور التي سبق والتقطت له. ولكنهم أروه في بلده ما يستطيع الأميركيون فعله بالكمبيوتر؛ فهم يضيفون شارباً أو لحية، أو نظارة، وقد يجعلون شعره أقصر طولاً أو أفتح لوناً، أو يمشطونه بشكل مختلف. إلا أن خليلاً كان يعتقد أن الإنسان العادي ما كان

ليتعرف عليه حتى وإن كان تتكره أقل من هذا بكثير، فمن الواضح أن الرجل في محطة الوقود لم يتعرف عليه وإلا لكان خليل قد لاحظ على الفور ولكان الرجل في عداد الموتى الآن.

لكن ماذا لو كانت محطة الوقود تلك تعج بالرواد آنذاك؟

مرة ثانية نظر خليل إلى المرآة حيث خطر له فجأة أنه لم يبتسم أبداً في أي من صوره. عليه أن يبتسم. ولكم أخبروه بهذا في بلده؛ ابتسم! ابتسم خليل لنفسه في المرآة وأدهشه كم جعله هذا يبدو مختلفاً، حتى لنفسه. ثم ابتسم مرة أخرى قبل أن يعيد المردّ إلى مكانه.

تابع خليل القيادة وهو لا يزال يفكر في صورته على شاشة التلفاز؛ قد لا يكون في الأمر مشكلة على أي حال.

كانوا قد أخبروه في بلده أيضاً أن الأميركيين - لسبب أو لآخر - يضعون صور المجرمين اللاجئين في كافة مكاتب البريد، ولم يفهم ما السر وراء اختيار مكاتب البريد لوضع هذه الصور بها، ولكن يكفيه أنه لن يتعامل مع هذه المكاتب على أي حال، ومن ثم فلا داعي لأن ينشغل بالأمر.

كما خطر لخليل أنه في حال صح تفكيره وتخطيطه، هو وضباط المخابرات في بلده، فإن الأميركيين يعتقدون الآن أن أسد خليل قد غادر البلاد من المطار في نيويورك مباشرة بعد هبوطه بتلك الطائرة. كان الأمر قد أثار جدلاً في بلده، حيث قال الروسي بوريس "لا يهم ما قد يعتقدونه، فالفيدراليون والشرطة المحلية سيبحثون عنك داخل أميركا، بينما ستبحث عنك المخابرات الأميركية وحلفاؤها في باقي أرجاء العالم. ومن ثم فمن الأهمية بمكان أن توهمهم بأنك قد عدت أدراجك إلى أوروبا".

أومأ خليل لنفسه؛ كم هو ماهر بوريس هذا في فهم لعبة الخداع تلك! كان الرجل قد لعب اللعبة نفسها مع الأميركيين لأكثر من عشرين عاماً. لكن بوريس كان لديه كل ما يحتاجه لهذه اللعبة، أما بلده فلا. ولكنهم وافقوه، وصنعوا أسد خليل آخر ليقوم بعمل إرهابي آخر في أوروبا في خلال يوم أو يومين، وقد تنطلي الخدعة على الأميركيين، وربما لا.

قال مالك آنذاك "في أيامي، كان رجال المخابرات الأميركية يتسمون بالسذاجة والبساطة، ولكنهم انخرطوا في العالم لوقت طويل أتاح لهم أن يكتسبوا فلسفة العربي، وتعقيد الأوروبي، وازدواجية الشرقي، بالإضافة إلى ما حققوه من تقدم تكنولوجي هائل يُنسب إليهم وحدهم. لا يجدر بنا أبداً الاستهانة بهم، ولكن لا يعني هذا أيضاً أن نبالغ في تقديرهم. صحيح أنه يمكن خداعهم، ولكن يمكنهم أيضاً ادعاء أن الخدعة قد انطلت عليهم. ومن ثم، يمكننا بالفعل زرع أسد خليل آخر في أوروبا لأسبوع أو نحوه، وسيتظاهر الأميركيون بأنهم يبحثون عنه هناك، بينما هم يعرفون طوال الوقت أنه لا يزال في أميركا، وأسد خليل الحقيقي يجب ألا يعتمد سوى على نفسه. سنفعل كل ما في وسعنا لتشتيتهم، ولكن عليك يا أسد أن تحيا كل لحظة في أميركا وكأنهم على مقربة خمس دقائق منك".

فكَر أسد في بوريس وفي مالك؛ كم هما مختلفان! كان مالك يفعل ما يفعله مدفوعاً بحبه لله ولملته ولبلده ولقائده، ناهيك عن مقته للغرب.

أما بوريس فيعمل من أجل المال، وليس لديه كره خاص للأميركيين أو للغرب. كما أن بوريس شخص لا ملة له، ولا قائد، ولا بلد. ويذكر خليل كيف وصف مالك بوريس ذات مرة بأنه شخص يُرثى لحاله، فيما وجده خليل حقيراً وتافهاً. إلا أن بوريس بدا سعيداً؛ لا يشعر بمرارة أو بهزيمة، ولقد قال ذات مرة "إن روسيا ستنهض مرة أخرى، فهذا قدر محتوم".

على أي حال، هذان الرجلان يعملان معاً بشكل جيد على الرغم من اختلافهما، ولقد تعلم خليل من كل منهما شيئاً يصعب على الآخر فهمه. بالطبع كان أسد يفضل مالك، بالرغم من أنه يمكن الثقة في أن ما يذكره بوريس هو الحقيقة بعينها. والحق أن بوريس قد قال له سراً ذات مرة "إن قائدك لا يريد أن يرى قنبلة أميركية أخرى تسقط فوق رأسه، فلا تنتظر منه أن يساعدك إذا ما تم القبض عليك. ولكن إذا ما عدت إلى هنا، ستلقى معاملة رائعة. ولكن إذا بدا له أنك قد حوصرت في أميركا ولا تستطيع الخروج منها، فإن أول شخص من بلدك ستراه هناك، سيقتلك!"

شرع خليل يفكر في هذا الأمر، ثم استبعده بوصفه تفكيراً سوفياتياً قديماً؛ فالمقاتلون من ملته لا يخدعون بعضهم ولا يتخلون عن بعضهم البعض. فلن يرضى الله عن هذا أبداً.

أعاد خليل انتباهه إلى الطريق. كبيرة هي أميركا. ونظراً لاتساعها وتنوعها هذا، ليس من الصعب على المرء أن يختبئ أو أن يمتزج مع الآخرين، حسب احتياجه. إلا أن لاتساعها ذاك عيبه أيضاً، فبعكس أوروبا، ليست هناك حدود عديدة يمكن له أن يعبرها ويهرب إذا ما لزم الأمر. كما أن بلده بعيدة جداً عن هنا. وهناك أمر آخر، أدرك خليل أن الإنكليزية التي يعرفها ليست الإنكليزية التي يتحدثون بها هنا في الجنوب. ولكنه تذكر أن بوريس قد أخبره بهذا من قبل، وأن الإنكليزية المستخدمة في فلوريدا هي الأقرب لفهمه.

مرة أخرى شرع خليل يفكر في الملازم أوّل بول غراي وتذكر صورة منزل الرجل؛ فيلا جميلة جداً تحتوي على أشجار النخيل. وذكره هذا بمنزل الجنرال وايكليف. لقد عاد هذان المجرمان إلى وطنهما بعد تلك الهجمة على بلده، واستمتعا بحياة طيبة مع زوجتيهما وأطفالهما بعد أن دمرا حياة أسد خليل دون أن يهتز فيهما ساكن. وبالنسبة لجهنم، فأسد خليل يعرف ثلاثة من أسماء داخليها؛ الملازم أول ستيف كوكس، وقد قُتل في الخليج، والعقيد هامبريشت والجنرال تيرانس وايكليف، وقد قتلهما أسد خليل. ولو أنهم يتحدثون إلى بعضهم البعض الآن، فسيروي هذان الأخيران للأول كيف لقيا حتفهما، وسيتساءلون على من سيقع اختيار أسد خليل من بين أقرانهم في ذاك السرب ليكون التالي الذي سيلحق بهم.

فشرع يقول في صوت عالٍ "الصبر يا سادة، فستعرفون عمّا قريب. وسرعان ما سيلتمّ شملكم مرة أخرى".

الفصل الثاني والثلاثون

انقضت فترة الاستراحة وعدنا إلى غرفة الإحاطة تلك، ووجدنا أن جيم وجين قد انصرفا وحلّ محلهما رجل بدا لنا عربياً. ظننت في البداية أن هذا الرجل هنا لأنه ضل طريقه إلى ما كان يقصده، أو شيئاً من هذا القبيل، أو ربما قد اختطف جيم وجين وهو يحتجزهما كرهينتين. ولكن قبل أن أنقض على هذا الدخيل، وجدته يبتسم ويقدم نفسه باسم أباح بن عبد الله، ولقد بدا الاسم لطيف الشكل وهو يكتبه فوق اللوح. على الأقل لم يكن اسمه بوب، أو بيل، أو جيم. إلا أنه قال في آخر الأمر "ولكن نادوني باسم *بن* على أي حال". وهو ما يتسق مع نظام التسمية المحدودة المعمول به هنا.

كان السيد عبد الله - أو بن - يرتدي حلة صوفية ثقيلة، بيد أنها لم تكن زرقاء اللون، ويضع فوق رأسه منديلاً بمربعات ملونة، كتلك التي تُستخدم في السباقات، وبالنسبة لي كانت تلك الدلالة الأولى على أن هذا الرجل لا ينتمي إلى هذا المكان.

جلس *بن* معنا وابتسم مجدداً. أظنه كان في الخمسين من عمره، بديناً إلى حدٍّ ما، ملتحياً، يضع نظارة طبية، ذا شعر خفيف، وأسنان جيدة، وكانت رائحته طيبة. ثلاث نقاطٍ سلبية في ملفك لهذه الملاحظة الأخيرة أيها المخبر كوري.

ساد الغرفة شيء من الاحساس بالارتباك، أو ليس هذا بالتحديد. أعني أننا - أنا وجاك وكيت وتيد - كنا محترفين، ومتفتحين، وكل هذه الأشياء، ولقد عملنا مع أناس من الشرق الأوسط من قبل واختلطنا بهم، ولكن لسبب ما كان هناك شيء من التوتر شعرنا به في هواء الغرفة اليوم.

بدأ *بن* حديثه بأن قال "يا لها من مأساة بشعة".

لم يعلق أحد على هذا، فأردف الرجل "أنا أعمل كعميل خاص مؤقت لدى المكتب".

يعني هذا أنه *مثلي*، وبالطبع لم يكن الرجل مستشار الأزياء هنا، وعلى الأقل لم يكن محامياً.

"لقد رأى نائب المدير أنها قد تكون فكرة جيدة إذا ما أتحتُ نفسي لمساعدتكم".

فسأله كوينج "بأي غرض؟"

نظر السيد عبد الله إلى كوينج وأجاب "أنا أستاذ الدراسات السياسية الشرق أوسطية بجامعة جورج واشنطن، ومتخصص في دراسة المجموعات المختلفة التي تتسم بالتطرف".

قال كوينج "تعني المجموعات الإرهابية". وكأنه يلقن الرجل الكلمات.

"نعم. في حال كنت تريد وصفاً أوضح".

فقلت مساعداً "وما رأيكم بتسميتهم بالمرضى النفسيين أو القتلة؟ أظنها تسميات أفضل".

بدا البروفيسور عبد الله هادئاً، وكأنه قد مرّ بمثل هذا الموقف من قبل. كان الرجل حسن المقال، ذكياً، وهادئ الطباع والسلوك. وأياً كان ما حدث بالأمس، فليس خطأه بالطبع.

لكن لا شك أن مهمة السيد عبد الله عصر هذا اليوم مهمة صعبة حقاً.

تابع السيد عبد الله حديثه قائلاً "أنا مصري، لكنني على دراية جيدة بالشعب الذي ينتمي له خليل. فهم شعب مثير للاهتمام، وهم يتحدرون جزئياً من القرطاجيين القدامى. ثم أتى الرومان فأضافوا نسلهم إلى هذا الشعب، وبالطبع لم تخلُ بلده أبداً من المصريين. وعقب الرومان، جاء الونداليون من إسبانيا فهزمهم البيزنطيون، قبل أن يقضي عليهم عرب الجزيرة العربية الذين أتوا حاملين معهم الدين الجديد. ويعتبر الشعب الذي ينتمي إليه خليل من العرب، إلا أنهم شعب قليل العدد، لذا لم يكن من الصعب على كل غازٍ أن يترك جيناته بينهم".

هكذا حدثنا السيد عبد الله عن شعب خليل وشغلنا بهم، فأعطانا لمحات عن ثقافتهم، وعاداتهم، وما إلى ذلك، وكان لديه حفنة من المطبوعات أحضرها لنا، تضم مسرد للكلمات التي تخصهم وحدهم دون غيرهم في حال كان هذا مهماً بالنسبة لنا، بالإضافة إلى قائمة بمأكولاتهم، والتي لم أظن أنني سأعلقها في مطبخي على أي حال. ثم قال "إنهم يحبون المعكرونة، ربما بسبب الاستعمار الإيطالي لهم". وأنا أيضاً أحب المعكرونة، إذاً ربما صادفت أسد خليل في مطعم غويليو، وربما لا.

ثم أطلعنا البروفيسور على سيرة ذاتية مختصرة لقائدهم، بالإضافة إلى العديد من الكتيبات حول الثقافة والعقيدة الإسلامية.

على أي حال، استمر بن في الثرثرة قليلاَ، وكان رجلاَ لطيفاَ، ومهذباَ للغاية، وواسع المعرفة، ومخلصاً بحق. إلا أنه انتابني إحساس بأنني خطوت خلال واحدة من تلك المرايا المزدوجة وأن كل ما حدث قد تم تدوينه وربما تسجيله على شريط فيديو من قِبل هؤلاء المختفين خلف المرايا. فالمكان بأسره كان ضرباً من الجنون والحماقة.

أعني أنه لا بد من سبب وراء هذه المحاضرة، ولكن ربما كان بوسعنا إنهاء المهمة بدون أن نكون بالغي الحساسية تجاه الطرف الآخر. حاولت أن أتخيل المشهد قبل يوم الغزو هذا، وأحد جنرالات فرق المظلات يقول لقواته "حسناً يا رجال، غداً سنقرأ غوتة وشيلر. ولا تنسوا أن هناك حفلة موسيقية لواغنر ستقام غداً في حظيرة الطائرات ذات الرقم إثنا عشر. والحضور إلزامي. وتقدم قاعة الطعام الليلة الروزبيف بالخل. وجبة سعيدة".

نعم، صحيح!

تابع البروفيسور عبد الله حديثه لنا قائلاً "للإمساك بهذا الرجل - أعني أسد خليل - يتعين علينا أولاً أن نفهمه، ولنبدأ باسمه؛ أسد. فأن يُعطى المرء اسماً إسلامياً ليس فقط أمراً يتعلق بالعرف، بل هو أيضاً بمثابة تعريف للشخص حامل الاسم، حتى وإن كان بصفة جزئية. فالكثير من الرجال والنساء في البلدان العربية يحاولون محاكاة ما تدل عليه أسماؤهم".

فقلت مقترحاً "علينا أن نبدأ بالبحث في حدائق الحيوان إذاً".

كانت تلك دعابة لطيفة بالنسبة لبن فشرع يضحك عليها، بل وزاد عليها قائلاً "نعم، ولنبحث عن رجل يهوى قتل الحمير الوحشية". ثم نظر إليّ في عينيّ مباشرة وقال "رجل يهوى القتل".

لم يأتِ أحد من الحاضرين بأي تعليق، وتابع بن "إن الشعب الذي ينتمي إليه خليل منعزل؛ أمة منعزلة حتى عن سائر البلدان الإسلامية الأخرى، ناهيك عن التأثير الغامض الذي يتمتع به قائدهم على نفوس الكثيرين من أبناء شعبه. وفي حال كان أسد خليل يعمل لحساب المخابرات مباشرة، فهو يعمل لحساب القائد بشكل مباشر. وإن كان الأمر كذلك، فإن مهمته مهمة مقدسة، وسيسعى إلى تحقيقها بكل ما أوتي من حماسة".

صمت بن برهة تركنا نستوعب فيها ما قاله، ثم أردف "لكن الشعب الذي ينتمي إليه خليل لديهم مقولة - كمقولة الفرنسيين - تقول للانتقام مذاق أفضل عندما يقدم على صحن بارد. أتفهمون ما أعني؟"

أظننا فهمنا ما كان بن يعني، أما هو فتابع قائلاً "أي أنه ربما كان قائدهم يرى أن هناك بعض الأحقاد القديمة التي لم تُوَفّ بالكامل. ابحثوا عن السبب الذي قد يكون

وراء إرسال خليل إلى أميركا، ربما تعرفون عندها لماذا فعل خليل ما فعله، وما إذا كان قد فرغ من انتقامه أم بعد".

قالت كيت "بل أحسب أن الانتقام قد بدأ لتوه".

هزّ البروفيسور عبد الله رأسه وقال "بل بدأ منذ وقت بعيد، فالثأر ينتهي بموت آخر رجل يقف على قدميه".

أظن أن هذا يعني أنني سأظل في هذه المهنة الأمنية حتى أصير حطاماً، فقلت لبن "ربما كان انتقاماً شخصياً لخليل ولا علاقة لدولته به".

هزّ بن كتفيه وقال "من يدري؟ اعثروا على الرجل وسيسعد بأن يخبركم. وحتى لو لم تجدوه، سيخبركم هو في آخر الأمر لماذا فعل ما فعله. فمن الأهمية بمكان لخليل أن تعرفوا السبب".

وقف البروفيسور عبد الله، وأعطى كُلاً منا بطاقته وهو يقول "في حال احتجتم أي مساعدة قد أستطيع تقديمها إليكم، رجاءً لا تترددوا في الاتصال، وبوسعي السفر إلى نيويورك إذا أردتم".

وقف جاك كوينج بدوره وقال "لدينا أناس مثلك في نيويورك يمكننا الاعتماد على خلفيتهم ومعلوماتهم الثقافية، ولكن شكراً لك بالطبع على وقتك وخبرتك".

شرع البروفيسور عبد الله يجمع أغراضه ويتحرك نحو الباب، ثم قال لنا "لديّ رخصة أمنية من الدرجة العليا، فلا تترددوا في الاتصال بي". ثم غادر الغرفة.

لم يتفوّه أي منا بكلمة لدقيقة أو نحوها؛ جزئياً لأن الغرفة سادها مناخ مزعج، وجزئياً لأن المحاضرة التي ألقاها بن - أو عبد الله - كانت غريبة.

لكم يتغير العالم بحق، والبلد كذلك. فأميركا ليست - ولم تكن أبداً – بلد العرق الواحد، أو الدين الواحد، أو الثقافة الواحدة، والرابط الوحيد الذي يجمعنا ببعضنا البعض هو اللغة - إلى حدٍّ ما - وليس على نحو ثابت. كما أننا نتشارك إيماناً راسخاً بالقانون، والعدالة، والحرية السياسية، والتسامح الديني. فشخص مثل أباح بن عبد الله إما أن يكون موالياً لأميركا أو وطنياً تجاهها، وعميلاً خاصاً ثميناً جداً لديها، أو أن يكون تهديداً أمنياً، وربما ليس هناك مجالٌ للشك في أنه الاحتمال الأول. إلا أن ذاك الواحد بالمئة الخاص بالاحتمال الآخر - مثلما يحدث في الزواج - يزداد في خيالك. "لا تترددوا في الاتصال بي!"

ثم عاد كل من جيم وجين، وكنت سعيداً لأن بن لم يختطفهما، وكان بصحبتهما ولد وفتاة يدعيان بوب وجاين، أو شيئاً من هذا القبيل.

أما اسم هذه الجلسة فكان "وماذا بعد؟"

كانت أشبه بجلسة حوارية، وهذا أفضل على أي حال من أن نبدأ في لوم بعضنا البعض، وكنا جميعاً مدعوِين للمشاركة والمساهمة في الحديث؛ فناقشنا خطوة أسد

خليل التالية، وكنت سعيداً لأن نظريتي تلقى بعض الاهتمام هنا.

ثم لخّص بوب الأمر بأن قال "نحن نظن أن أسد خليل إرهابي عمل في أوروبا كمقدمة لمجيئه إلى أميركا. ولاحظوا أن الأهداف الأميركية والبريطانية ذات صلة بأوروبا، ولاحظوا أيضاً أنه لم تكن هناك أبداً أي طلبات معلنة، ولا ملاحظات، ولا أي اتصال بوسائل الإعلام قبل أو بعد أي هجوم، ولم تعلن أي جهة مسؤوليتها؛ سواء خليل أو أي منظمة. فكل ما لدينا هو سلسلة من الهجمات على الناس والأماكن الأميركية، أو البريطانية كما حدث في تلك المرة. يبدو هذا وكأنه يتسق مع رجل تحدوه رغبة شخصية وخاصة وجامحة في الانتقام مقابل مهمة أو خطة سياسية أو دينية قد يرغب في أن يروّج لها".

ألقى بوب محاضرة كاملة عن خليل عمد فيها إلى مقارنته مع وضد بعض مهووسي تفجير القنابل الأميركيين في ما مضى ممن كانت تحدوهم أحقادهم ضد أصحاب أعمالهم، أو ضد التكنولوجيا، أو الأشخاص المسيئين للبيئة، وما إلى ذلك، ثم قال "ولا ينظر مرتكب هذه الجرائم إلى نفسه باعتباره مجرماً، أو شريراً، بل مجرد أداة لتحقيق العدالة. فهو يرى أن أياً كان ما يفعله فهو صحيح ومرضٍ تماماً من الناحية الأخلاقية".

تابع "بالنسبة لأسد خليل، نحن لم نُركم كافة الصور التي التقطناها له في غرفة الضيافة بالسفارة، فهناك صور أخرى له وهو يصلي. إذاً، لدينا هنا رجل متدين إلا أنه يتناسى ذاك الجزء في عقيدته الذي يحرم قتل الأبرياء. في الحقيقة، يبدو أن أسد خليل مقتنع تماماً بأنه يقوم بنوع من الجهاد، أي حرب مقدسة، وأن الغاية تبرر الوسيلة".

ثم أوضح بوب الصلة بين ذكرى الخامس عشر من أبريل والهجمة الجوية الأميركية على بلد خليل، وقال "ولهذا السبب - إن لم تكن هناك أسباب أخرى - نحن نعتقد أن أسد خليل مواطن يحمل جنسية ذلك البلد. ولكن دعوني أخبركم أن الهجوم على مركز التجارة العالمي حدث في الذكرى الثانية لطرد القوات الأميركية للقوات العراقية من الكويت، ومع ذلك لم يكن العراقيون وراء الحادث. ومن ثم يجب أخذ فكرة الوحدة العربية في الاعتبار عند بحث مثل هذه القضايا. ربما كان هناك العديد من الخلافات بين الأقطار العربية، ولكن ما يربط بين المتطرفين في كل منها هو كرههم لأميركا ولإسرائيل. أي أن الخامس عشر من أبريل قد يكون مفتاحاً لهجمة أمس، إلا أنه لا يعد دليلاً".

هذا صحيح، إلا أن الأمر يبدو كالبطة، ويمشي كالبطة، وله صوت مثل البطة، ثم هناك احتمال أن يكون نورساً وليس بطة! وعليك أن تُبقي عقلك متيقظاً ومنفتحاً.

ثم سألت بوب "معذرة سيدي، هل هناك شيء مشترك بين كل ضحايا خليل؟"

"كلا، ما من شيء مشترك. ليس حتى الآن. بالتأكيد ليس هناك ما يربط بين جميع الركاب على متن تلك الطائرة، باستثناء وجهتهم. إلا أن الشخص الذكي قد يثير البلبلة باستهداف بضعة أشخاص لا صلة لهم بأهدافه الحقيقية. ولقد رأينا هذا يحدث مع مفجري القنابل المحليين الذين يحاولون تضليلنا بإلقاء قنبلة على آخر مكان نتوقع أن يقصدوه".

بيد أنني لم أكن متأكداً من هذا.

تابع بوب "ولقد اتصلنا بكافة هيئات تطبيق القانون والمخابرات لمعرفة ما إذا كانت لديهم أي معلومات عن أسد خليل هذا. فأرسلنا لهم بصمات أصابعه وصوره، إلا أنه حتى الآن - ولم يزل الوقت مبكراً - لا يبدو أن لدى أيًّا منهم معلومات بشأنه، على الأقل سوى تلك التي قرأتموها في ملفه. يبدو أنّه ليس لهذا لرجل أي اتصالات بالمنظمات الإرهابية المعروفة هنا أو في أي مكان آخر في العالم. إنه كذئب وحيد، ولكننا نعرف بالطبع أنه لا يستطيع القيام بهذه الأعمال بمفرده على أي حال. ومن ثم فإننا نعتقد أنه يعمل تحت إدارة وإشراف مخابرات بلده بشكل مباشرة، والمتأثرة بدورها بالكيه جي بي. لقد دربوه، ودعموه بالمال، وأرسلوه في بضع مهام في أوروبا ليروا معدنه الذي صقلوه، ثم أعدّوا له هذه الخطة التي سلم فيها خليل نفسه إلى السفارة الأميركية في باريس. وكما تعرفون كانت هناك حالة مماثلة في فبراير، والتي نظنها كانت بمثابة بالون اختبار".

هنا قال جاك كوينج مذكراً بوب "لقد قامت وحدة مكافحة الإرهاب بتسليم لاجئ فبراير ذاك إلى مكتب التحقيقات الفيدرالية ووكالة المخابرات المركزية هنا في واشنطن، ثم أطلق أحدهم سراحه".

أجابه بوب "في الواقع ليست لديّ معلومات مؤكدة حول هذا الأمر، إلا أن ما تقوله صحيح".

قال جاك مؤكداً "لو لم يُطلق سراح رجل فبراير، لما استطاع رجل أبريل - أعني خليل - أن يصل إلى ما وصل إليه".

"هذا صحيح. لكنني أؤكد لك أنه كان ليفعل ما فعله بطريقة أو بأخرى".

فسأله كوينج "هل لديك أي معلومات عن لاجئ فبراير؟ ربما لو استطعنا العثور عليه".

"لقد لقي حتفه. لقد أبلغت شرطة ولاية ميريلاند عن جثة محترقة ومتحللة وجدوها في منطقة الغابات خارج سيلفر سبرينغ؛ بدون بطاقة هوية، ولا ملابس، وقد احترقت بصمات الأصابع والوجه كذلك. فأبلغوا إدارة الأشخاص المفقودين بمكتب التحقيقات الفيدرالية الذين يعرفون بدورهم أن قسم مكافحة الإرهاب يبحث عن لاجئ هارب. وبالرغم من تشوه الأوشام التي عادة ما نلجأ إليها، إلا أننا استطعنا مطابقة بصمات الأسنان بتلك التي أخذناها من الرجل أثناء نزوله ضيفاً علينا في باريس. ومن ثم تعرفنا عليه".

لم يتحدث أي منا لبضع ثوان، ثم قال جاك "لم يخبرني أحد بذلك".

"يجدر بك أن تتحدث في هذا الأمر مع نائب المدير المسؤول في إدارة عمليات مكافحة الإرهاب".

"شكراً لك".

أنهى بوب حديثه قائلاً "ولدينا في الوقت نفسه لاجئين شرعيين من بلده هنا وفي أوروبا، ونحن نستجوبهم الآن في حال كان لديهم أي معلومات عن أسد خليل.

فتعداد سكان بلده يبلغ خمسة ملايين نسمة، فمن المحتمل أن نعرف شيئاً عن أسد خليل، إذا كان هذا هو اسمه الحقيقي بالطبع. ولكننا لم نتوصل حتى الآن إلى معرفة شيء عنه سواء من اللاجئين أو المهاجرين، سوى أن رجلاً يُدعى كريم خليل، يحمل رتبة مهمة في الجيش، قد قُتل في باريس عام 1981. ولقد أخبرتنا الشرطة الفرنسية أنه من الأرجح أن كريم خليل قد قُتل على يد نظامه، وأن حكومة بلده قد حاولت أن تلصق التهمة بالموساد. ويعتقد الفرنسيون أن زوجة كريم كانت على علاقة مع أحد أركان النظام لذلك تم التخلص من زوجها". ثم ابتسم بوب وتابع "ولكن تذكروا أن هذا مجرد تفسير فرنسي؛ ابحث عن المرأة".

ابتسمنا جميعاً لهذا التعليق الأخير؛ مجانين هؤلاء الفرنسيون، كل الأشياء لديهم تتعلق بهذا الأمر. ثم تابع بوب حديثه "نحن الآن نحاول التأكد مما إذا كان أسد خليل على صلة بكريم خليل، فهو في عمر يتناسب لكي يكون ولده أو ابن أخيه مثلاً. ولكن حتى لو توصلنا إلى وجود مثل هذه القرابة، فلن يكون الأمر بذي أهمية للقضية التي نحن بصددها".

فقلت مقترحاً "لماذا لا نطلب من وسائل الإعلام الإخبارية أن تروج لقصة زوجة كريم خليل، وكيف تم التخلص منه لجعل حياة أحد ما أسهل. عندها سيسمع أسد خليل بالقصة، وفي حال كان ابن كريم بالفعل سيعود إلى بلده ويقتل قاتل أبيه. أليس هذا ما يفعله الرجل العربي الجيد؛ الأخذ بالثأر؟ ألن يكون هذا عظيماً؟"

فكّر بوب لبرهة ثم ابتلع ريقه وقال "سأقترح عليهم الأمر".

وهنا التقط تيد ناش طرف الحديث، وكنت أعرف أنه سيفعل، وقال "في الواقع أجدها فكرة جيدة".

لكن من الواضح أن هذا النوع من التفكير بدا صعب التنفيذ بالنسبة لبوب، فقال "دعونا نتأكد أولاً من صلة القرابة هذه، فمثل هذا النوع من العمليات النفسية قد يأتي بتأثير عكسي. ولكننا سنضع هذا الاقتراح ضمن جدول الاجتماع التالي لإدارة مكافحة الإرهاب".

ثم تحدثت جاين، وقدمت نفسها تحت اسم آخر، ثم قالت "إن دوري في هذه القضية هو مطالعة كافة الحوادث التي حدثت في أوروبا والتي نعتقد أن أسد خليل على علاقة بها. نحن لا نريد تكرار العمل الذي قامت به وكالة المخابرات المركزية". وأومأت إلى العميل العظيم ناش، ثم تابعت "ولكن وبما أن أسد خليل هنا، أو كان هنا، فإن مكتب التحقيقات الفيدرالية يحتاج إلى معرفة أنشطة خليل في الدول الأخرى".

استمرت جاين في حديثها عن التعاون في مجال الخدمات المتبادلة، والتعاون الدولي، وما إلى ذلك من هذه الأشياء.

بات جلياً أن أسد خليل الذي لم يكن سوى إرهابي مشتبه به تحول إلى الإرهابي الأكثر طلباً في العالم منذ كارلوس. وها قد وصل الأسد. الأسد، أنا على يقين من أنه سعيد الآن وممتلئ فخراً بكل هذا الاهتمام به. فما فعله في أوروبا - بالرغم من وحشيته - لم يصنع منه اللاعب الرئيسي في عالم الإرهاب الذي أصبح يتصدر

العناوين الرئيسية. ومما لا شك فيه أنه لم يستحوذ بعد على اهتمام الأميركيين، فاسمه لم يُذكر قط في الأخبار، حيث أذيعت أفعاله فحسب، وأظن أن أشدها وقعاً كانت قتل الأطفال الأميركيين الثلاثة في بلجيكا. وسرعان ما ستكون صورة أسد خليل في كل مكان فور إعلان القصة الحقيقية لما حدث بالأمس، وسيجعل هذا من حياته خارج بلده أمراً صعباً؛ الأمر الذي دفع الكثيرين إلى الاعتقاد بأن أسد قد عاد إلى وطنه. ولكنني أظن أنه يفضل هزيمتنا على أرضنا.

أنهت جاين حديثها قائلة "وسنبقى على اتصال مباشر بوحدة مكافحة الإرهاب في نيويورك، حيث سنتشارك معكم كل المعلومات التي نتوصل نحن إليها أو تتوصلون أنتم إليها. فالمعلومات في مهنتنا كالذهب؛ الجميع يطمحون إليها ولا يرغبون في مشاركتها مع أحد. فلنقل إذاً إننا لن نتشارك المعلومات، ولكن سنستعيرها من بعضنا البعض، وسنصفي حساباتنا في آخر الأمر".

هنا لم أستطع مقاومة إطلاق التعليق التالي "سيدتي، أؤكد لكِ أننا سنخبرك في حال وجدنا جثة أسد خليل في سنترال بارك".

ضحك تيد ناش، وشعرت أنني بصدد أن أكن بعض مشاعر الحب لهذا الشخص، حيث اكتشفت أننا نتشارك في هذه الأجواء أشياء أكثر من تلك التي نتشاركها وسط الأشخاص الذين يتسمون باللطف والأناقة في هذا المبنى.

يا لها من فكرة تبعث على الاكتئاب.

ثم سألنا بوب "ألديكم أي أسئلة؟"

فسألته "وأين يتسكع أناس الإكس فايلز الآن؟"

قال كوينج "تهذّب يا كوري".

"حسناً يا سيدي".

على أي حال، كانت الساعة قد قاربت السادسة مساءً واكتشفت أننا في هذه الجلسات منذ الصباح الباكر، إلا أن وقت الرحيل لم يحن بعد، حيث تحركنا جميعاً نحو غرفة اجتماعات كبرى تحتوي على منضدة بطول ملعب كرة القدم.

ثم دخل الغرفة نحو ثلاثين شخصاً كنا قد قابلنا معظمهم ذاك اليوم في عدة مواقع مختلفة.

أخيراً، ظهر نائب مدير مكافحة الإرهاب وألقى خطبة لم تتجاوز الخمس دقائق، ثم صعد إلى السماء بعدها أو اختفى في مكان ما.

قضينا نحو ساعتين في ذاك المؤتمر حيث بشكل أو بآخر أعدنا قول كل ما قلناه طوال العشر ساعات الماضية، ثم شرعنا نتبادل الاقتراحات والأفكار الذهبية، وخطة هجوم، وما إلى ذلك.

أصبح لدى كل منا ملف ضخم يحتوي على صور، وأسماء أشخاص للاتصال بهم، وأرقام، وحتى ملخصات لكل ما قيل اليوم، والذي بالقطع تم تسجيله، وتحريره، وطباعته أثناء اليوم.

إنها منظمة على مستوى عالمي لا مراء!

كانت كيت من اللطف بأن وضعت كل أوراقي في حقيبتها الدبلوماسية فانتفخت، فقالت لي ناصحة "يجدر بك أن تحمل حقيبة كهذه دائماً، فهناك دائماً مثل هذه الأوراق". ثم أضافت "كما أن هذه الحقائب لا تخضع للضريبة".

أخيراً، انتهى المؤتمر الكبير واندفع الجميع نحو الردهة، فيما عمدنا إلى تبادل أحاديث قصيرة هنا وهناك، إلا أن الأمر الأساسي كان قد انتهى، وأظن أنني كنت بالفعل قد بدأت أشم رائحة الهواء فوق درب بنسلفانيا، ثم إلى السيارة، ومنها إلى المطار، فطائرة التاسعة مساءً لأصل في العاشرة إلى لاغارديا، فأكون في المنزل قبل أخبار الساعة الحادية عشرة. وتذكرت بعض بقايا الطعام الصيني الذي تركته في الثلاجة، وحاولت أن أتذكر منذ متى وأنا أحتفظ به هناك.

في هذه اللحظة أتانا رجل في حُلة زرقاء، يُدعى بوب أو بيل، وسألنا ما إذا كنا نرغب في اتباعه لمقابلة نائب المدير.

كانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير، فأجبته "كلا". إلا أن هذا الاختيار لم يكن قائماً.

أما الأخبار الجيدة فكانت أن تيد ناش ليس مدعواً إلى ذاك المكتب الداخلي الخاص، إلا أنه لم يبدُ منزعجاً، وقال "يجب أن أسافر إلى لانغلي الليلة".

تعانقنا جميعاً، وأطلقنا الوعود بأن نتراسل وأن نظل على اتصال، ثم كانت القبلات وأخيراً الرحيل، ولا أعتقد أن هناك فرصة لأرى تيد ناش مرة أخرى.

ثم توجهت وجاك وكيت بصحبة مرافقنا إلى المصعد حيث صعدنا إلى الطابق السابع، ثم قادنا إلى غرفة مكتب مظلمة تضم مكتباً كبيراً كان يجلس خلفه السيد نائب مدير عمليات مكافحة الإرهاب.

كانت الشمس قد غربت عن الأفق، فلم يكن يضيء الغرفة سوى مصباح وحيد ذي ظلة خضراء اللون موضوعة فوق مكتب نائب المدير. كانت الإضاءة التي يطلقها ذاك المصباح لا تصل إلى مستوى الخصر، فغدا من الصعب أن يرى أي منا وجه الآخر بوضوح. ولكم كان هذا مسرحياً كمشهد في أحد أفلام المافيا حين يقرر السيد غومبا مَن الضحية التالية.

على أي حال، تصافحنا بالأيدي - حيث كان من السهل رؤية الأيدي في ضوء المصباح القريب ذاك - ثم جلسنا جميعاً.

أخذ نائب المدير يتحدث قليلاً عمّا حدث بالأمس واليوم، ثم بدأ يتحدث عن الغد. كان حديثه مختصراً، فقال "إن وحدة مكافحة الإرهاب في نيويورك تقع في موقع فريد في هذه القضية، ونحن لن نتدخل ولن نرسل لكم أي أشخاص ما لم تطلبوهم بأنفسكم. على الأقل في الوقت الحالي. إلا أن هذا القسم سيكون بالطبع مسؤولاً عن أي شيء خارج نطاق عملياتكم، وسنمدكم بأي معلومات قد نصل إليها. وسنحاول أن نعمل بشكل مباشر مع وكالة المخابرات المركزية، وسنطلعكم على هذا الأمر أيضاً. وأنا أقترح أن تستمروا في عملكم على أساس أن خليلاً لا يزال في نيويورك. اقلبوا المكان رأساً على عقب، واعتمدوا على مصادركم، وادفعوا

الأموال متى كان هذا ضرورياً. وسأقوم بتخصيص ميزانية قدرها مئة ألف دولار للحصول على المعلومات، فيما ستقدم وزارة العدل مليون دولار كمكافأة للقبض على أسد خليل. من شأن هذا أن يُشكل إغراءً لحلفائه في الولايات المتحدة. ألديكم أي أسئلة؟"

أجابه جاك "كلا يا سيدي".

"جيد. آه، بقي شيء واحد أخير". قال الرجل ثم نظر إليّ ثم إلى كيت وقال "فكرا كيف تدفعان أسد خليل إلى فخ ما".

فأجبته "أتعني أن أستخدم نفسي كطعم له".

"لم أقل هذا، فقط قلت إنه يجدر بكما أن تفكرا في أفضل وسيلة لإغواء أسد خليل نحو الوقوع في فخ؛ أياً كانت تلك الوسيلة".

قالت كيت "سأتناقش وجون في الأمر".

"جيد". قال الرجل ثم وقف، وتابع "أشكركم للتخلي عن يوم إجازتكم. جاك، أود لو تحدثت إليك للحظة من فضلك".

شددنا على أيدي بعضنا البعض مرة أخرى، وخرجت وكيت، حيث رافقنا الرجل ذو الحلة الزرقاء إلى المصعد متمنياً لنا حظاً سعيداً وصيداً موفقاً.

في الردهة قابلنا أحد رجال الأمن الذي دعانا إلى الجلوس، فجلسنا، بيد أننا لم ننطق بكلمة.

لم أكن أعرف - ولم أكن مهتماً لأعرف - الأمر الذي يتحدث عنه نائب المدير مع جاك، طالما أنني لست موضوع هذا الحديث، وكنت متأكداً أن لديهم أشياء لمناقشتها أكثر أهمية مني ومن سلوكي. في الحقيقة، لم أكن بهذا السوء اليوم، إضافة إلى بعض النقاط الذهبية التي أحرزتها في مباراة الأمس.

نظرت إلى كيت، وكذلك فعلت هي. فهنا، في وزارة العشق، حتى جرائم الوجه يمكن ملاحظتها، ومن ثم لم يُظهر أي منا سوى التفاؤل الشديد. ولم أحاول حتى النظر إلى ساقيها وقد وضعت واحدة فوق الأخرى.

مضت عشر دقائق قبل أن يظهر جاك ليخبرنا "سأظل هنا الليلة. فلتذهبا وسأراكما غداً". ثم أضاف "أخبرا جورج في الصباح أنني سألتقي والفريق بأكمله في وقت ما غداً، وسأطلع الجميع على المستجدات، وسنرى ما إذا كانت هناك أي أدلة أو معلومات جديدة، ثم سنقرر خطواتنا التالية".

قالت كيت "سأذهب وجون إلى فيدرال بلازا اليوم ونرى ماذا يحدث".

"ماذا؟"

"هذا جيد. ولكن لا تجهدا نفسيكما، فهذا سباق طويل، وكما يقول السيد كوري اللاعب في المركز الثاني هو الخاسر الأول". ثم نظر إلى كلينا وقال "لقد أبليتما بلاءً حسناً اليوم". ثم خصّني بالقول "أتمنى لو أن تقديرك للتحقيقات الفيدرالية قد تحسّن".

“تماماً. باقة رائعة من الرجال والفتيات، أو السيدات. إلا أنني لست مطمئناً تماماً للمدعو بن“.

“لا بأس بالرجل، بل أظن أنك يجب أن تبقي عينيك مفتوحتين على تيد”.

يا الله.

ثم تصافحنا وذهبنا - أنا وكيت - مع رجل الأمن إلى المرآب في أسفل المبنى حيث أقلتنا إحدى السيارات إلى المطار.

في السيارة سألتها “كيف أبليت؟”

“كان أداؤك متوسطاً”.

“لقد ظننت أنني أبليت بلاءً حسناً”.

“هذا مخيف”.

“على الأقل أنا أحاول”.

“نعم، تحاول بجهد بالفعل”.

الفصل الثالث والثلاثون

وقع بصر أسد خليل على لافتة تقول "مرحباً في كارولاينا الجنوبية - بالميتو ستيت". وبالرغم من أنه لم يفهم معنى ذاك السطر الأخير، إلا أنه فهم اللافتة التالية التي سُطر فوقها "قُد بحذر؛ يتم تطبيق قوانين الولاية بحزم".

نظر خليل إلى لوح العدادات بسيارته وأبصر الساعة تشير إلى الرابعة وعشر دقائق صباحاً، فيما بقيت درجة الحرارة 25 درجة مئوية.

وبعد مُضي أربعين دقيقة، لمح خليل المخارج إلى فلورنس والطريق I-20 إلى كولومبيا وأتلنتا. ولأنه كان يتذكر بعض الأجزاء من الخارطة إلى الجنوب، فكان بوسعه أن يعطي اتجاهات تبدو معقولة - وإن كانت خاطئة - لكل من يسأله عن الطريق. وبينما هو الآن يعبر الطريق السريع بين الولايات إلى كولومبيا وأتلنتا، فإن الجهة المزيفة التالية التي قد يذكرها قد تكون شارلستون أو سافانا.

على أي حال، كان لدى خليل خارطة طريق جيدة في صندوق السيارة بالإضافة إلى ملاّح القمر الصناعي في حال أراد أن يعيد تنشيط ذاكرته. ولاحظ خليل أن ازدحام السيارات حول مدينة فلورنس هذه كان أشد وطأة، وشعر بنفسه يرحب بوجود سيارات أخرى على الطريق بعد عدة أميال شعر فيها أنه وحيدٌ ومكشوف.

اندهش خليل لحقيقة أنه لم يرَ أيًّا من سيارات الشرطة سوى تلك التي ظهرت في أسوأ لحظة يمكن أن يمر بها، عندما اقتربت منه سيارة العاهرات الأربع. بيد أنه كان يعرف أن هناك بين تلك العربات على الطريق سيارات للشرطة في هيئة سيارات عادية، بالرغم من أنه لم يلحظ أي سيارة بداخلها رجال للشرطة.

من ناحية أخرى، كان خليل أكثر اطمئناناً منذ ترك نيوجيرسي، بل وأصبح قادراً على محاكاة عادات القيادة لدى هؤلاء من حوله، وكان قد لاحظ العدد المدهش من كبار السن الذين يقودون سياراتهم، الأمر الذي نادراً ما رآه في أوروبا أو في بلده. ولكم كانت سيئة قيادة هؤلاء المسنين. كما كان هناك العديد من صغار السن الذين يقودون سياراتهم أيضاً، وقلّما رأى ذلك في أوروبا أو بلده أيضاً. ولقد لاحظ خليل أنّ قيادة هؤلاء الصغار سيئة أيضاً، ولكن بشكل يختلف عن سوء قيادة المسنين.

لقد كان عدد النساء اللواتي يقدن السيارات في أميركا كبيراً؛ أكبر من عدد مثيلاتهن في أوروبا. وما وجد خليل صعوبة في تصديقه هو أنه رأى نساء يقدن السيارات للرجال، وهو شيء تندر رؤيته في أوروبا، كما أنه لم يرَ قطّ نساء يقدن سيارات وبجانبهن رجال في بلده. لقد لاحظ خليل أن الأميركيات ماهرات حقاً في القيادة، إلا أنهن عصبيات وغالباً ما يكنّ عدوانيات؛ مثل العاهرات على الطريق في كارولاينا الجنوبية.

كان أسد خليل مقتنعاً أن الرجال الأميركيين قد فقدوا سيطرتهم على نسائهم.

وصَعُب على خليل أن يفهم كيف اكتسبت النساء الغربيات كل تلك القوة والسطوة، فخالفن في ذلك الطبيعة التي خلقها الله والتي تفرضها عليهن طبيعتهن، ورأى أن لذلك شأناً بالديمقراطية التي ساوت بين الأصوات.

لسبب لم يعرفه عاد تفكيره إلى تلك الطائرة وإلى الوقت الذي كانت تُنقل فيه إلى المنطقة الأمنية، وفكّر مرة أخرى في الرجل والمرأة اللذين رآهما؛ كلاهما كان يضع تلك الشارة، وكلاهما يلقي الأوامر كما لو كانا متساويين. لم يستطع عقل خليل استيعاب فكرة أن شخصين من الجنسين يعملان في تناغم، ويتحدثان إلى بعضهما البعض، ويتلامسان، بل وربما يتناولان وجباتهما سوياً. والأكثر إدهاشاً بالنسبة له كان حقيقة أن تلك المرأة كانت ضابطة شرطة ولا شك أنها كانت تحمل سلاحاً. وتساءل خليل كيف يسمح آباء هؤلاء النسوة بأن تكون بناتهن بمثل هذه الجرأة والوقاحة.

ثم تذكر خليل أولى رحلاته إلى أوروبا - وكانت إلى باريس - وتذكر دهشته وانزعاجه من تحرّر وجرأة النساء هناك. إلا أن السنوات مضت واعتاد خليل على النساء الأوروبيات إلى حدٍّ كبير، إلا أنه في كل مرة يعود فيها إلى أوروبا -والآن إلى أميركا- كان يعاوده ذلك الشعور بالانزعاج والارتياب.

فالنساء في الغرب يمشين بمفردهن، ويتحدثن إلى الغرباء من الرجال، ويعملن في المتاجر والمكاتب، ويظهرن لحمهن، بل ويجادلن الرجال متى لزم الأمر.

تابع خليل طريقه وهو يتجاهل ذاك الإحساس بالعطش الذي راح يتزايد لديه، فأدار المذياع وأخذ يقلّب الترددات، حيث كان بعضها يذيع موسيقى غريبة أطلق عليها المذيع اسم الموسيقى الغربية، فيما كانت بعض الترددات الأخرى تذيع موسيقى كتلك التي سمعها في مذياع شمال واشنطن، والعديد من الترددات الأخرى كانت تبث ما تعرف عليه خليل بأنه ترانيم دينية، كما كان هناك ذاك الرجل الذي كان يقرأ من الإنجيل والتوراة، وكانت لكنته غريبة حتى أن خليلاً لم يستطع تمييز كلمة واحدة مما كان يقوله، بيد أنه استطاع التعرف على بعض الفقرات. واصل خليل الاستماع لفترة، ولكن الرجل كان يتوقف عن القراءة من وقت لآخر ليتحدث عمّا قرأه وبالكاد كان خليل يفهم نصف ما يقوله. ربما كان هذا مسلياً، لكنه كان مشوشاً، ومن ثم عمد خليل إلى تغيير الترددات حتى عثر على محطة إذاعية جديدة.

كان الرجل في هذه المحطة يتحدث لغة إنكليزية مفهومة، ولنحو عشرين دقيقة استمع خليل إليه وهو يتحدث عن حوادث الاغتصاب، والسرقة، والقتل، ومنها انتقل إلى الموضوعات السياسية، ثم إلى الأخبار حول العالم.

أخيراً، قال الرجل "ولقد أصدر مجلس سلامة النقل الوطني بياناً مشتركاً مع إدارة الملاحة الفيدرالية بشأن الحادثة المأساوية في مطار كنيدي في نيويورك. ولقد ورد في هذا التصريح أنّه لم ينجُ أحد من الحادث، فيما يقول المسؤولون الفيدراليون أنه ربما استطاع الطيارون الهبوط بالطائرة قبل أن تقضي عليهم الغازات السامة، أو ربما قاموا ببرمجة حاسوب الطائرة لدى إدراكهم غلبة تلك الغازات عليهم، ومن ثم هبطت الطائرة آلياً.

أما مسؤولو إدارة الملاحة الفيدرالية فلم يذكروا ما إذا كان هناك أي رسائل لاسلكية مسجلة من قِبل الطيارين، بيد أن أحد المسؤولين الذي رفض ذكر اسمه وصف الطيارين بالأبطال لأنهم نجحوا في الهبوط بالطائرة بدون تعريض أي شخص للخطر، سواء داخل المطار أو بالقرب منه. من ناحية أخرى، فإنّ الجهتين المذكورتين تدعوان هذه المأساة بالحادثة، إلا أن التحقيق حول الأسباب لم يزل مستمراً. ومرة أخرى نذكر التصريح الرسمي بأنه ما من ناجين على متن الرحلة ترانس - كونتيننتل 175 القادمة من باريس، وتم تقدير الخسائر في الأرواح بنحو 314 من القتلى؛ سواء من الطاقم أو المسافرين. المزيد حول هذا الموضوع لدى وروده".

أطفأ خليل المذياع، وفكّر أنه ما من شك في أن الأميركيين بتقدمهم التقني قد عرفوا الآن كل ما يجب معرفته حول ما حدث على متن الطائرة 175، وتساءل عن سبب تأجيلهم إذاعة الحقيقة كاملة. ربما كان ذلك نوعاً من الكبرياء الوطني، بالإضافة إلى الميل الطبيعي لدى وكالات الاستخبارات نحو إخفاء أخطائها.

على أي حال، طالما أن الأخبار بالمذياع لا تنقل الحادث بوصفه هجوماً إرهابياً، فإن هذا يعني أن صورته لم تنتشر على شاشات التلفاز بعد.

تمنى خليل لو أن هناك طريقة أسرع للوصول إلى واشنطن وفلوريدا، إلا أن طريقه ذاك كان هو الأسرع بالفعل.

كانوا قد ناقشوا في بلده وسائل السفر البديلة، ووجدوا أن السفر إلى واشنطن جواً سيعني الذهاب إلى مطار لاغارديا، وبالطبع ستكون قوات الشرطة هناك على علم بالموضوع قبل وصوله. والأمر ذاته في حال اختارت أجهزة المخابرات في بلده أن يسافر بالقطار السريع، حيث سيتطلب ذلك الذهاب إلى قلب المدينة، إلى ذاك المكان الذي يطلق عليه اسم محطة بنسلفانيا، ومرة أخرى ستكون قوات الشرطة هناك على علم بما حدث قبل وصوله إلى هناك. وعلى أي حال، لم تكن مواعيد القطارات مناسبة.

صحيح أن الرحلات الجوية كانت مؤاتية لنقله من واشنطن إلى فلوريدا، ولكن كان سيستلزم هذا استقلال طائرة خاصة. وكان بوريس قد فكّر في هذا الخيار، ولكنه وجد في الأمر خطورة، وأوضح قائلاً "إنهم شديدو الاهتمام بالحالة الأمنية في واشنطن، والمواطنون هناك يعتنون كثيراً بالأخبار. ففي حال ظهرت صورتك على التلفاز، أو نُشرت في الصحف، فمن المحتمل أن يتعرف عليك أحد المواطنين المنتبهين، أو حتى طيار الرحلة الخاصة. فمن الأفضل أن نرجئ اختيار الرحلة الخاصة إلى وقت لاحق يا أسد، ومن ثم عليك السفر بالسيارة، فهي الوسيلة الأكثر أمناً والأفضل بالنسبة لك حتى تعتاد على ذلك البلد، كما سيعطيك هذا فرصة للتفكير وتقدير الموقف. صحيح أن السرعة مطلوبة، ولكن ليس إذا كانت ستقودك إلى فخ. ثِق برأيي في هذا، فلقد عشت وسط هؤلاء القوم لخمس سنوات، وأعرف أن انتباههم قصير المدى، ويخلطون بين الواقع والخيال. فإذا ما تعرف عليك أحدهم من صورة رآها في التلفاز، فقد يختلط عليه الأمر ويظنك نجماً من نجوم التلفزيون، أو ربما يظنك عمر الشريف ويطلب منك صورة موقعة".

أضحك هذا الجميع، وبات واضحاً أن لدى بوريس قدراً من السخرية إزاء الشعب الأميركي. إلا أن أهم ما اعتنى به بوريس آنذاك هو أن يتأكد من أن أسد خليل لا يستخف أبداً بقدرات المخابرات الأميركية، ولا حتى بالشرطة المحلية، في بعض الأحيان.

على أي حال، فبوريس، ومالك، وآخرون قد وضعوا خطة هذه الرحلة وأعينهم على مزيج من السرعة والتأني، والجرأة والحذر، والدهاء والبساطة. إلا أن بوريس حذره قائلاً "ليس هناك خطط بديلة على الطريق يا أسد إلا في مطار كنيدي، حيث يوجد أكثر من سائق تم تكليفهم بمهمة نقلك في حال أخفق أحدهم. وبالطبع فإن أقلهم حظاً هو من سيأخذك إلى السيارة المستأجرة لك".

وجد بوريس هذا أمراً يبعث على الضحك، فيما لم يكن الأمر كذلك لأي من الآخرين. في الحقيقة، لقد تجاهل بوريس الوجوه الواجمة من حوله في ذاك الاجتماع الأخير، وقال "وبالتفكير في ما سيحدث لأول رفيقين سيصاحبانك في رحلتك؛ أعني حداد وسائق سيارة الأجرة، أرجو ألا تطلب مني أبداً أن أسافر معك".

مرة أخرى لم يبتسم أي منهم لهذا التعليق، وبدا أن بوريس لا يهتم بهذا فضحك وحده. إلا أنه لن يضحك كثيراً، فسرعان ما سيلحق به الموت.

عبر خليل جسراً طويلاً فوق بحيرة واسعة يطلق عليها اسم بحيرة ماريون، وأدرك أنه على بعد قرابة خمسين ميلاً إلى الجنوب حيث يعيش سادزرويت، الملازم السابق في القوات الجوية الأميركية؛ والقاتل. وكان موعد أسد خليل مع هذا الرجل في اليوم التالي، ولا يعرف سادزرويت الآن كم أن موته وشيك.

تابع خليل طريقه، وفي السابعة وخمس دقائق مساءً لمح لافتة كُتب عليها "مرحباً في جورجيا؛ ولاية الخوخ". كان خليل يعرف ما هو الخوخ، ولكن لماذا قد ترغب ولاية ما بربط نفسها بهذه الفاكهة؟! أمر غريب!

ألقى خليل نظرة على عداد الوقود ورأى المؤشر يشير إلى أنه ممتلئ إلى ما دون الربع، فأخذ يفكر ما إن كان يجدر به أن يتوقف الآن، أم ينتظر حتى يحل الظلام. وبينما كان يفكر في هذا، أدرك أنه يقترب من سافانا، وأن السيارات تزداد ازدحاماً، مما يعني أن محطات الوقود ستعج بروادها، فقرر أن ينتظر.

في السابعة والنصف لاحظ خليل كيف أن منسوب الوقود لديه قد انخفض كثيراً، وبدا له أن هناك بضعة مخارج على هذا الجزء من الطريق السريع. وأخيراً ظهرت له علامة أحد المخارج، فتوجه على الفور نحوه، واندهش كثيراً عندما وجد محطة وقود واحدة هناك، وكانت مغلقة. تابع خليل مسيره إلى الغرب في طريق ضيق حتى وجد بلدة صغيرة اسمها كوكس؛ وهو أيضاً اسم الطيار الذي لقي حتفه في حرب الخليج، فكان الأمر بمثابة نذير بالنسبة لخليل، بيد أنه لم يعرف إن كان نذير خير أم نذير سوء.

بدت البلدة الصغيرة مهجورة تقريباً، لكنه أبصر محطة وقود مضاءة على جانب البلدة، فقصدها بعد أن وضع نظارته وأدار السيارة الميركوري باتجاه المحطة.

كانت دافئة، ورطبة، ولاحظ خليل كماً هائل من الحشرات التي تطير حول أضواء المحطة ومضخات الوقود. ورغم أنه قرر استخدام بطاقته الائتمانية في هذه المحطة، إلا أنه لم يكن هناك مكان لاستخدامها. بل بدا له أنه ليس هناك مجال للخدمة الذاتية في هذه المحطة، حتى أن المضخات بدت قديمة وأكثر بدائية من تلك التي اعتاد استخدامها. تردد خليل للحظة قبل أن يلاحظ رجلاً طويل القامة يرتدي الجينز الأزرق وقميصاً أسود يخرج من مكتب تلك البناية الصغيرة هناك، وقال الرجل "هل من خدمة أؤديها إليك؟"

"أحتاج التزود بالوقود". وتذكر خليل نصيحته لنفسه، فرسم تلك الابتسامة على وجهه.

نظر الرجل الطويل إلى خليل، ثم إلى السيارة ولوحة ترخيصها، ومرة أخرى إلى الزبون، ثم قال "وأي وقود تريد لها؟"

"جازولين".

"نعم، ولكن أتريد نوعاً بعينه؟"

"نعم، أريد جازولين عالي الأوكتين من فضلك".

أخرج الرجل خرطوم إحدى المضخات ودفع به في فتحة خزان وقود الميركوري، وشرع يضخ الوقود، وهنا أدرك خليل أنهما سيظلان معاً لفترة ليست بقصيرة.

سأله الرجل "إلى أين أنت ذاهب؟"

"إلى منتجع جزيرة غيكيل".

"لا يمكن أن تكون جاداً".

"المعذرة؟"

"أعني أنكم تتأنقون كثيراً لجزيرة غيكيل".

"نعم، كان لدي اجتماع عمل في أتلنتا".

"وما هو عملك؟"

"أنا مصرفي".

"حقاً؟ نعم ترتدي كمصرفي بالفعل".

"هذا صحيح".

"ومن أين أنت؟"

"من نيويورك".

ضحك الرجل وقال "أحقاً؟ لكنك لا تبدو من اليانكيزين الملاعين".

كان خليل يعاني من بعض المشكلات في فهم كل ما يقوله الرجل، فقال ‘‘أنا لست لاعب بيسبول’’.

ضحك الرجل مرة أخرى وقال ‘‘هذه دعابة جيدة، وفي حال كنت ترتدي حلّة مخططة، لظننتك مصرفياً أميركياً يلعب الكرة’’.

فابتسم خليل.

ثم سأله الرجل ‘‘ومن أين كنت قبل نيويورك؟’’

‘‘من سردينيا’’.

‘‘وأين تقع هذه بحق السماء؟’’

‘‘إنها جزيرة في البحر المتوسط’’.

‘‘حسناً، أنت تعرف أكثر بالتأكيد. وهل أتيت من طريق I-95؟’’

‘‘نعم’’.

‘‘وهل أغلقت محطة فيليبس تلك؟’’

‘‘نعم’’.

‘‘ظننت ذلك بالفعل، فذلك المغفل لن يجني أي أرباح طالما أنه يغلق أبوابه مبكراً هكذا. وهل الازدحام شديد على الطريق I-95؟’’

‘‘ليس كثيراً’’.

انتهى الرجل من ضخ الوقود وقال ‘‘يبدو أن وقودك كان قد شارف على النفاد تماماً’’.

‘‘هذا صحيح’’.

‘‘أترغب في فحص الزيت؟’’

‘‘كلا، شكراً لك’’.

‘‘نقداً أم ببطاقة ائتمان؟’’

قال خليل وهو يخرج حافظة نقوده ‘‘نقداً’’.

حدّق الرجل في المضخة أسفل مصباح الضوء الخافت وقال ‘‘تسعة وعشرون دولاراً وخمسة وثمانون سنتاً’’.

فناوله خليل ورقتين من فئة العشرين دولاراً.

فقال الرجل ‘‘سأذهب لإحضار بعض الفكة. لن أتأخر. لا تذهب إلى أي مكان’’.

ثم استدار ومشى بعيداً، ولمح خليل فيما كان يتبع الرجل قراباً ومسدساً يتدليان من حزامه. وداخل المكتب الصغير سأله خليل ‘‘ألديكم أي أطعمة أو مشروبات هنا؟’’

فتح الرجل درج النقود وقال "لدينا ماكينة الكوكا هناك بالخارج، ويوجد بعض ماكينات الحلوى هنا. أترغب في بعض الفكة؟"

"نعم".

ناوله الرجل الفكة متضمنة العديد من أرباع الدولارات، فوضعها خليل في الجيب الداخلي لسترته. ثم سأله الرجل "أتعرف كيف تصل إلى جزيرة غيكيل؟"

"أعرف الاتجاهات ولديّ خريطة".

"وأين ستقيم هناك؟"

"فندق هوليداي إن".

"لا أعتقد أن هناك هوليداي إن في تلك الجزيرة".

لم يعلق أي من الرجلين، ثم استدار خليل صوب ماكينة الحلوى، فوضع يده في جيبه وأخرج ربعين دفع بهما إلى فتحة الماكينة، ثم سحب المقبض فخرج كيس صغير من الفستق المملح وسقط في الصينية. ثم وضع خليل يده في جيبه مرة أخرى.

كانت هناك مرآة على شكل شريط مثبتة على الماكينة في مستوى العين، ورأى فيها خليل الرجل يقترب من خلفه من جهة اليمين. وعلى الفور أخرج خليل سلاحه من جيبه واستدار مطلقاً رصاصة واحدة بين عيني الرجل، محطماً الطبق الزجاجي على الحائط خلفه.

انطوت ركبتا الرجل الطويل ذاك، وهوى فوق الأرض على وجهه.

بسرعة أخرج خليل محفظة الرجل، ولمح دبوساً داخل شارة كُتب عليها نائب قائد الدفة بي دي. لعن خليل حظه السيئ ثم أخرج النقود من محفظة الرجل، وتلك النقود في الدرج، حيث بلغ مجموعها جميعاً مئة دولار.

ثم التقط غلاف الرصاصة عيار 40 مل، وكانوا قد أخبروه في بلده أن هذا العيار ليس معتاداً هنا، وغالباً ما يستخدمه الفيدراليون، ومن ثم يجب عليه ألا يترك خلفه دليلاً بهذه الأهمية.

لمح خليل باباً مفتوحاً جزئياً يفضي إلى حمام صغير، فأمسك بالرجل من كاحله الأيسر ودفعه صوب ذاك الحمام، ثم تبول قبل أن يرحل دون أن يعبأ بترك الماء يتدفق لتنظيف ما فعله، ثم أغلق باب الحمام خلفه، وغادر قائلاً "أتمنى لك يوماً طيباً".

التقط خليل صحيفة كانت موضوعة في المكتب، وألقى بها فوق بقعة الدم الصغيرة فوق الأرض، ثم عمد إلى لوحة المفاتيح فأطفأها جميعاً، تاركاً المحطة بأسرها في ظلام تام. أخيراً ترك المكتب، وأغلق الباب، وتوجَّه إلى ماكينة الكوكا حيث دفع بثلاثة أرباع في المكان المخصص لاختيار مشروب الفانتا بنكهة البرتقال، ثم أسرع الخطى نحو الميركوري. فدلف بداخلها، وشغل المحرك، ثم

استدار عائداً بها إلى ذاك الطريق الصغير المؤدي إلى الطريق السريع بين الولايات.

في غضون خمس عشرة دقيقة كان خليل يستقل الطريق I-95 متجهاً صوب الجنوب وقد زاد من سرعته إلى 75 ميلاً في الساعة، متماشياً مع الازدحام الخفيف من حوله، وشرع يأكل الفستق ويشرب الفانتا. في غضون ساعة لمح لافتة تقول "مرحباً في فلوريدا؛ ولاية الشمس". إلا أن خليلاً التزم بالطريق I-95، وبالقرب من جاكسونفيل ازداد الازدحام. ولدى المدخل المشير إلى مطار جاكسونفيل الدولي، ترك خليل الطريق وتبع الإشارات متوجهاً صوب المطار، وهو ينظر إلى الملاح الآلي خاصته ليتأكد من أنه يتبع الطريق الصحيح. عندما نظر إلى الساعة المثبتة على لوح العدادات في سيارته، وجدها تشير إلى العاشرة مساءً تقريباً.

سمح خليل لنفسه بدقيقة ليفكر في ما حدث في محطة الوقود في تلك القرية المدعوة كوكس. ذاك الرجل كان شرطياً، لكنه كان يعمل في المحطة، وقد يعني هذا أنه شرطي سري. إلا أن خليلاً بدا وكأنه تذكر شيئاً كان قد قرأه أو أخبروه به عن الشرطة الأميركية في البلدات الصغيرة؛ أن بعضهم كانوا متطوعين ويُطلق عليهم اسم النوّاب. نعم، ها هو يتذكر الأمر برمته الآن؛ فهؤلاء الرجال يحبون حمل السلاح ويعملون بلا أجر، وهم أكثر فضولاً من رجال الشرطة العاديين. ولقد كان هذا الرجل فضولياً بحق، وكانت حياته تتعلق بخيط وهو يضخ الجازولين ويطلق هذا الفيض من الأسئلة، وما شد هذا الخيط كان السلاح في حزامه، أما ما قطعه فكان ذاك السؤال الأخير عن هوليداي إن. وسواء كان الرجل قد حاول التقاط سلاحه أم لا، فلقد كان كثير السؤال، وكان أسد خليل قد استنفد ما لديه من إجابات صحيحة.

الفصل الرابع والثلاثون

لم يكن هناك مجال لكي نلحق بطائرة التاسعة مساءً التابعة للخطوط الجوية الأميركية، فذهبنا إلى شركة دلتا، ولحقنا بطائرة التاسعة والنصف إلى لاغارديا. كانت الطائرة نصف ممتلئة في حال كنت شخصاً يتسم بالتفاؤل، أو نصف فارغة في حال كنت من حملة الأسهم بشركة دلتا. واتخذت وكيت مقعدين في مؤخر الطائرة.

أقلعت الطائرة 727، وعمدت إلى الانشغال بالنظر إلى واشنطن. كان بوسعي أن أرى نصب واشنطن مضاءً بالكامل، والكابيتول، والبيت الأبيض، ونصب لينكولن وجيفرسون، وكل هذه المعالم. ورغم أنني لم أستطع أن أرى مبنى جي إدغار هووفر، إلا أن المكان بأسره كان لم يزل بعد في رأسي، فقلت "يستلزم الأمر بعض الوقت للاعتياد على هذا".

"لعلك تعني أن يعتاد مكتب التحقيقات الفيدرالية عليك. أليس كذلك؟"

أضحكني هذا.

ثم أتت مضيفة الطائرة، وعلى الفور عرفت من مظهرنا أننا فيدراليان، ومن ثم لم تعرض علينا أيًّا من المشروبات الكحولية وسألتنا إن كنا نرغب في أي مشروب غازي.

فقالت كيت "زجاجة ماء من فضلك".

"وأنت يا سيدي؟"

"شراب اسكتلندي مزدوج، فأنا لا أجيد الطيران بجناح واحد".

"أعتذر يا سيد كوري، ولكن لا يسمح لي بتقديم الكحول للمسلحين".

تلك بالتحديد كانت اللحظة التي انتظرتها طوال اليوم، فقلت "ولكنني لست مسلحاً، تحققي من بيان المسافرين، أو فتشيني في الحمام إن أردتِ".

ولمّا لم يبدُ عليها ميل لتفتيشي في الحمام، شرعت تتحقق من البيان، ثم قالت "أوه، حسناً".

"نعم، فأنا أفضل الشراب على حمل السلاح".

ابتسمت المضيفة، ووضعت زجاجتين صغيرتين من الشراب الاسكتلندي فوق صينيّتي، وكوباً من البلاستيك يحتوي على قطع الثلج.

"على حساب صاحب البيت".

"بل صاحب الطائرة".

"أياً كان".

بعد ذهابها عرضت على كيت إحدى الزجاجتين، لكنها أبت قائلة "لا أستطيع".

"هيا، لا داعي لهذا التزمت. فلتحتسي الشراب".

"لا تحاول إفسادي سيد كوري".

"ولكنني أكره أن أكون الفاسد الوحيد هنا. هيا، سأحمل عنكِ سلاحك حتى تنتهي من الشراب".

قالت كيت "فلتكف عن هذا". وشربت قنينة الماء الخاصة بها.

أما أنا فصببت زجاجتي الشراب فوق كوب الثلج ورحت أرتشف، ثم لعقت شفتي وأنا أقول "آه، كم هو جيد".

"فلتغرب عني".

يا الله!

جلسنا صامتين لبرهة، ثم قالت لي كيت "هل سويت الأمور مع صديقتك تلك في لونغ أيلاند؟"

كان هذا السؤال يعني الكثير، ففضلت أن أفكر في إجابتي قبل أن أتفوه بها. صحيح أن جون كوري وفيّ لأصدقائه ومحبّيه، إلا أن جوهر الوفاء أن يكون شعوراً متبادلاً، وبيث بينروز، بالرغم من كل الاهتمام الذي تبديه نحوي إلا أنها لم تظهر القدر الكافي من الولاء. أفترض أن ما أرادته مني كان ما تدعوه النساء بالالتزام، ثم تعمد إلى الولاء من بعده. إلا أن الرجال يهتمون بالولاء أولاً، ثم ربما يفكرون في الالتزام. وهما موقفان متناقضان، ولا يبدو أن هناك مجالاً لحل هذا التناقض إلاّ بتحول أحد الطرفين إلى جنس الآخر. على أي حال، كنت بالفعل أتساءل لماذا سألت كيت هذا السؤال. بل الحق هو أنني لم أتساءل على الإطلاق، وأخيراً أجبتها "لقد تركت لها رسالة على جهاز تسجيل مكالماتها".

"وهل هي من النوع المتفهم؟"

"كلا، ولكنها شرطية، وتعرف كيف تسير هذه الأشياء".

"هذا جيد. فربما يمضي وقت قبل أن يكون لديك متسع من الوقت".

"سأرسل لها بريداً إلكترونياً في هذا الشأن".

"أتعرف، عندما عملت وحدة مكافحة الإرهاب على قضية انفجار تي دبليو إيه، كانوا يعملون على مدار الساعة، وطوال أيام الأسبوع".

فقلت مشيراً "ولم تكن حتى هجمة إرهابية".

لم تجب كيت، ولم يكن بوسع أي أحد أن يجيب عن أي أسئلة تتعلق بحادثة تي دبليو إيه، وهناك بالفعل الكثير من الأسئلة بلا إجابات. فعلى الأقل في حادثتنا هذه نحن نعرف من، وماذا، وأين، ومتى، وكيف. ربما لسنا متأكدين من لماذا، لكننا سنعرف عمّا قريب.

ثم سألتني كيت "ماذا حدث بزواجك؟"

لم يسعني إلا أن أستشعر خيطاً يربط بين هذه الأسئلة، ولكن في حال كنت تظن أن مهنة المخبر السري تجعل الرجل أكثر خبرة بأحوال النساء، ففكر مرتين إذاً. إلا أنني شككت بالفعل أن هناك دافعاً بعينه وراء أسئلة الآنسة مايفيلد؛ دافعاً يتعدى الفضول العادي. فأجبتها "كانت محامية".

صمتت كيت لثوانٍ ثم قالت "ولهذا السبب لم ينجح الزواج؟"

"نعم".

"ألم تكن تعرف أنها محامية قبل الزواج؟"

"ظننت أنني قد أستطيع أن أصلح من شأنها".

فضحكت كيت.

ثم حان دوري، فسألتها "وهل سبق لكِ الزواج؟"

"كلا".

"ولم لا؟"

"هذا سؤال شخصي".

كنت ظننت أننا بالفعل نتبادل الأسئلة الشخصية منذ بدأنا الحديث، وكان الأمر كذلك حقاً طالما كنت أنا الشخص المتلقي للأسئلة. إلا أنني رفضت أن ألعب هذه اللعبة، وعمدت إلى التقاط إحدى مجلات دلتا من جيب المقعد.

فقالت كيت "لقد سافرت كثيراً".

شرعت أدرس خريطة طرق دلتا العالمية، إذ ربما أذهب إلى روما حينما ينتهي كل هذا. وقد أقابل سيد الفاتيكان. وخطر لي أن أرى ما إذا كانت دلتا تذهب إلى بلد صاحبنا أسد خليل، ومن هنا شرد ذهني إلى رجال تلك الغارة الجوية في العام 1986 الذين حلقوا بتلك المقاتلات الصغيرة من مكانٍ ما في إنكلترا، ثم حول فرنسا وإسبانيا، ليعبروا البحر الأبيض المتوسط، وأخيراً إلى مقصدهم. واو. يا لها من رحلة طويلة كما تبدو على هذه الخريطة، ولم يكن هناك من يقدم لهم الشراب الاسكتلندي، بل وكيف كانوا يتبولون؟

"هل سمعتني؟"

"معذرة، كلا لم أسمعك".

"سألتك إن كان لديك أطفال؟"

"أطفال؟ أوه، كلا. لم يكن زواجنا مكتملاً أبداً، فهي لم تكن تؤمن بالعلاقة الجنسية بعد الزواج".

"حقاً؟ حسناً. ولكن ليس من المفترض أن يشكل هذا صعوبة لرجل في عمرك".

فقلت "هل لنا أن نتحدث في شيء آخر؟"

"عمّ تريد أن تتحدث؟"

في الحقيقة، لم يكن هناك شيء بعينه أرغب في الحديث عنه، ربما باستثناء كيت مايفيلد، إلا أن هذا كان موضوعاً شائكاً، فقلت "ربما يجدر بنا أن نتناقش في ما عرفناه اليوم".

"لا بأس".

ثم شرعنا نتناقش في المعلومات التي تلقيناها اليوم، وما حدث بالأمس، وماذا سنفعل في يومنا التالي.

كنا قد اقتربنا من نيويورك، وكنت سعيداً برؤية أن تلك المدينة لم تزل في مكانها، وأن أنوارها مضاءة.

وبينما كنا ندخل لاغارديا سألتني كيت "هل ستأتي معي إلى فيدرال بلازا؟"

"إذا كنتِ ترغبين".

"أرغب. ثم يمكننا أن نذهب لتناول العشاء بعدها".

نظرت إلى ساعة يدي وكانت تشير إلى العاشرة والنصف مساءً، وأحسبها ستكون قرابة منتصف الليل لدى رحيلنا من فيدرال بلازا. فقلت "الوقت متأخر لتناول الطعام".

"فلنحتسي شراباً إذاً".

"يبدو هذا جيداً".

هبطت الطائرة، وبينما كانت تخفف من سرعتها فوق المدرج سألت نفسي السؤال ذاته الذي يرد بذهن كل الرجال في مثل هذا الموقف؛ "هل أقرأ هذه الإشارات على نحو صحيح؟"

فلو لم يكن الأمر كذلك، فقد يعني هذا أنني في مشكلة مهنية، وإن كان كذلك فأنا في مشكلة شخصية. فقررت أنه من الأفضل أن أنتظر وأرى ما سيحدث. أي أنه عندما يتعلق الأمر بالنساء، من الأفضل توخي الحذر.

تركنا الطائرة ثم ذهبنا إلى الخارج، ومن المطار إلى داخل إحدى سيارات الأجرة وتوجهنا صوب فيدرال بلازا عبر الطريق السريع بروكلين - كوينز وجسر بروكلين. وبينما كنا نعبر الجسر ذاك، سألت كيت "أتحبين نيويورك؟"

"كلا، أتحبها أنت؟"

"بالطبع".

"لم؟ إنها مكان مجنون".

"الجنون هو ما تتسم به واشنطن، أما نيويورك فغريبة الأطوار ومثيرة".

"بل إن نيويورك هي الجنون ذاته. لكم أشعر بالأسف لأنني اضطلعت بهذه المهمة، فليس من بين الفيدراليين من يُقبل عليها. كما أنها غالية جداً، وبدل المعيشة الذي نتقاضاه بالكاد يغطي النفقات الإضافية".

"لم قبلتها إذاً؟"

"لنفس الأسباب التي من أجلها يقبل رجال الجيش المهام الصعبة ويتطوعون للمعركة. إنها دفعة قوية في المجال المهني. فلا بد من العمل في نيويورك وواشنطن العاصمة على الأقل مرة واحدة لتحصل على ترقية". ثم أضافت "ناهيك عمّا في الأمر من تحدٍّ، بالإضافة إلى الأشياء العجيبة، وصعبة التصديق التي تحدث هنا؛ فبوسعك أن تذهب إلى أي من المكاتب الميدانية الخمسة والخمسين الأخرى المنتشرة عبر البلاد ولديك كل أساطير نيويورك لتتحدث عنها بقية حياتك".

"حسناً، أظن أن في هذا اتهاماً ظالماً لنيويورك. انظري إلي، أنا من نيويورك، فهل أبدو لكِ غريب الأطوار؟"

لم أستطع سماع ردها، ربما لأن سائق سيارة الأجرة كان يصرخ على أحد المشاة الذي كان يصيح عليه بدوره. ولأنهما كانا يتحدثان لغتين مختلفتين، لم يدم الشجار طويلاً.

وصلنا إلى فيدرال بلازا، ودفعت كيت للسائق أجره، ثم ذهبنا إلى الباب الخاص بالعمل بعد الساعات الرسمية في الناحية الجنوبية، وفتحته كيت باستخدام شيفرة أدخلتها على لوحة مفاتيح هناك، وكان لديها مفاتيح للمصعد الذي أخذنا إلى الطابق السابع والعشرين، حيث أبصرت بعض الحُلاّت معلّقة هناك.

كان هناك بضعة رجال يبدو عليهم التعب، والتعاسة، والقلق. كانت الهواتف ترنّ، وكذلك أجهزة الفاكس، وصوت أجهزة الحاسوب البارد يعلن لأصحابه، "لديك بريد إلكتروني!" تحدثت كيت إلى الجميع تقريباً، ثم شرعت تتحقق من رسائلها الهاتفيّة، وصندوق بريدها الإلكتروني، ومراسلات اليوم، وما إلى ذلك.

كان لديها رسالة إلكترونية من جورج فوستر يقول فيها "اجتماع مع جاك في غرفة اجتماعات الطابق الثامن والعشرين في الثامنة صباحاً".

أمر لا يصدق! فكوينج - وهو في واشنطن - يدعو إلى اجتماع في الثامنة صباحاً في نيويورك! هؤلاء القوم إما لا يتعبون أو مذعورون كالجحيم، والاحتمال الثاني هو الأكثر ترجيحاً، حيث لن يسمح لهم الخوف بالنوم على كل حال.

وهنا سألتني كيت "ألا ترغب في أن تتفقد مكتبك؟"

كان مكتبي في الطابق الأسفل، وحقاً لم أجد مبرراً للتفكير في أنه قد يوجد هناك شيء مختلف عمّا لدى كيت في مكتبها هنا، فقلت لها "سأتفقده غداً عندما أصل في الخامسة".

شرعت كيت تتحرك حول المكان لفترة أطول لتتفقد بعض الأشياء، فيما شعرت بأنني عديم الفائدة، فقلت "سأمضي إلى المنزل".

فوضعت أياً كان ما تحمله في يدها وتقرأه وقالت "كلا، ستدعوني إلى الشراب. ألا تريد أوراقك من حقيبتي الدبلوماسية؟"

"سآخذها غداً".

"ربما يجدر بنا أن نطلع على بعض هذه الأشياء في ما بعد إذا أردت".

بدا لي قولها هذا كدعوة إلى قضاء ليلة طويلة معاً، ورغم أنني ترددت قليلاً إلا أنني قلت لها في النهاية "حسناً، لا بأس".

فوضعت كيت حقيبتها الدبلوماسية أسفل مكتبها.

غادرنا المكان، ووجدنا نفسينا في الشارع الهادئ المظلم مرة أخرى، ومن بدون سيارة، ولم أكن أحمل سلاحاً. في الحقيقة، لم أكن بحاجة إلى سلاح ليشعرني بالأمان، ولقد أصبحت نيويورك بلداً آمناً بحق، بيد أنه من اللطيف أن تحمل شيئاً معك عندما ترتاب في أن إرهابياً يضمر لكِ الشر ويحاول قتلك. ولكن بما أن كيت كانت تحمل سلاحها، فقلت مقترحاً "فلنتمشَّ قليلاً".

بالفعل شرعنا نتمشى. لم يكن هناك الكثير من المتاجر والمحال المفتوحة في هذه الساعة المتأخرة من ليل يوم الأحد، ليس حتى في المدينة التي لا تنام. إلا أن الحي الصيني عادة ما يكون مستيقظاً ليالي الآحاد، فقصدناه. لم نمشِ وذراع أحدنا تمسك ذراع الآخر، ولكن كيت كانت شديدة القرب مني حتى أن كتفينا كانتا تتلامسان طوال الوقت، بل وكانت تضع ذراعها على كتفي من حين لآخر ونحن نتحدث. كان جلياً أن تلك المرأة معجبة بي، ولكن ربما كانت تحدوها الرغبة فحسب. ورغم أنني لا أحب أن أُستغل من قِبل النساء قيد الاحتياج والرغبة، إلا أن هذا يحدث أحياناً.

على أي حال، وصلنا إلى ذاك المكان الذي أعرفه بالحي الصيني، نيو دراغون (التنين الجديد). وأذكر أنني كنت هناك ذات مرة منذ بضع سنوات حيث كنت أتناول العشاء مع آخرين من رجال الشرطة، حين سألت صاحب المكان، السيد تشانغ، عمّا حدث للتنين القديم، فأسرّ لنا قائلاً "ها أنتم تأكلونه الآن!" ثم انفجر ضاحكاً على ما قاله، وهرع نحو المطبخ.

على أي حال، كانت هناك حانة صغيرة في المكان، ومنطقة للشراب التي كانت ما تزال تعج بالزوار ودخان السجائر. إلا أننا وجدنا مقعدين بالقرب من منضدة الشراب، ووجدت الزبائن الآخرين ينظرون إلينا وقد بدوا كهؤلاء الرجال الذين يظهرون في أفلام بروس لي.

نظرت كيت حولها وقالت "أتعرف هذا المكان؟"

"كنت آتي إلى هنا من وقت لآخر".

"الجميع يتحدثون الصينية هنا".

"أنا لا أتحدث الصينية، ولا أنتِ".

"ولكن الجميع باستثنائنا يفعلون ذلك".

"أظنهم جميعاً صينيين إذاً".

"يا لك من ذكي".

"شكراً لكِ".

أقبلت النادلة، ولكنني لم أكن أعرفها. كانت ودودة، ومبتسمة، وأخبرتنا أن المطبخ كان لا يزال مفتوحاً، فطلبت طعاماً صينياً بسيطاً.

سألتني كيت ‘‘ما هو هذا الطعام الذي طلبته؟ ولكن أعطني إجابة واضحة’’.

‘‘إنها كـ... مقبلات. فطائر وأشياء من هذا القبيل. مذاقها طيب مع الشراب الاسكتلندي’’.

ومرة أخرى التفتت كيت حولها وقالت ‘‘هذا أمر غريب’’.

‘‘ليس بالنسبة لهم’’.

‘‘أحياناً أشعر أنني ريفية حمقاء هنا’’.

‘‘منذ متى وأنتِ في المدينة هنا؟’’

‘‘ثمانية شهور’’.

أتتنا النادلة بالشراب، وأتبعناه بالمزيد، حتى بدأت أتثاءب عندما أتانا ذاك الطعام الصيني. ويبدو أن كيت قد استمتعت بمذاقه. وبعد الكوب الثالث شعرت بجفنيّ يتثاقلان، فيما بدت كيت مستيقظة ومنتبهة تماماً.

طلبت من النادلة أن تأتينا بسيارة أجرة، ودفعت لها ثمن الطعام والشراب. وعندما خرجنا إلى شارع بيل، شعرت بتحسن في ذاك الهواء البارد. وبينما كنا في انتظار سيارة الأجرة، سألتها ‘‘وأين تقيمين؟’’

‘‘إلى جهة الشرق من شارع ستة وثمانين، منطقة جيدة برأيي’’.

‘‘هي كذلك بالفعل’’.

‘‘لقد أخذت تلك الشقة من الزميل الذي حللت محله، وذهب هو إلى دالاس. لقد سمعت أخباره مؤخراً؛ يقول إنه يفتقد نيويورك بالرغم من أنه سعيد في دالاس’’.

‘‘ونيويورك سعيدة لأنه في دالاس’’.

ضحكت كيت لهذا التعليق، وقالت ‘‘أنت مضحك بحق، ولقد أخبرني جورج أنك تتمتع بروح دعابة نيويوركية’’.

‘‘الحق أنني ورثت هذا عن أمي’’.

وصلت سيارة الأجرة، وعندما جلسنا بداخلها قلت للسائق ‘‘لدينا محطّتان للوقوف؛ الأولى في الجهة الشرقية من ستة وثمانين’’.

أخبرت كيت السائق بالعنوان تفصيلاً، ومضينا في شوارع الحي الصيني الضيقة حتى وصلنا إلى باوري.

كنا صامتين تقريباً، وفي غضون عشرين دقيقة وصلنا إلى البناية حيث كانت شقة كيت في بناية حديثة عالية ولها حارس. فحتى لو كانت شقتها صغيرة فلا شك أنها باهظة الثمن بحيث لا يصمد أمامها بدل السكن الذي تحصل عليه. ولكن وفقاً

لمعرفتي، فإن امرأة مثلها كانت لتختار بناية جيدة في منطقة جيدة حتى لو كانت ستقتصد في الأساسيات، كالطعام والملابس.

ومن ثم، وقفنا هناك للحظة على الرصيف، وقالت كيت "ألا ترغب في الدخول؟"

يقول أهل نيويورك "ألا ترغب في الصعود؟" بينما الأشخاص من المناطق الداخلية يقولون "ألا ترغب في الدخول؟" وعلى أي حال كان قلبي قد تلقى الرسالة وشعرت بدقاته تتسارع. بيد أنني كنت في هذا الموقف من قبل، فنظرت إليها وقلت "هل بوسعي أن أؤجل هذا إلى وقت لاحق؟"

ابتسمت كيت وقالت "بالطبع. أراك في الخامسة إذاً".

"ربما بعد الخامسة بقليل، في الثامنة مثلا".

ابتسمت ثانية وقالت "ليلتك سعيدة". ثم استدارت وحياها حارس البناية وهو يُبقي الباب مفتوحاً.

ظللت أراقبها وهي تسير عبر البهو، ثم استدرت عائداً إلى سيارة الأجرة، وقلت للسائق "شرقاً الشارع اثنان وسبعون".

قال السائق بلغة إنكليزية جيدة "ربما لا شأن لي بالأمر، ولكنني أظن أن تلك السيدة كانت تريدك أن تصعد معها".

"أحقاً تظن ذلك؟"

"نعم".

رحت أحدق خارج النافذة بينما نمضي. لكم كان هذا يوماً عجيباً، والغد المنتظر سيكون بغيضاً وموتِّراً.

من يدري، فربما لن يكون هناك غد، أو أي يوم آخر بعد اليوم. فكرت حتى أن أطلب من السائق أن يستدير عائداً إلى حيث تركنا كيت، ولكنني قلت له في إشارة إلى عمامته "هل أنت جنيّ؟"

ضحك الرجل وقال "نعم، وهذه هي سجادتي السحرية، ولك ثلاث أمنيات لأحققها لك".

"حسناً". وبالفعل تمنيت تلك الأمنيات الثلاث لنفسي، إلا أن الجني قال "عليك أن تخبرني بها وإلا فكيف أحققها لك!"

فأخبرته "أن يعم السلام العالم، وأن نتمتع بسلام داخلي، وأن نفهم النساء".

ضحك الرجل ثانية وقال "لا أجد مشكلة في الأمنيتين الأولى والثانية، أما إذا عرفت كيف تحقق الأمنية الثالثة، فأرجو أن تتصل بي وتخبرني كيف فعلت ذلك".

كنا قد وصلنا إلى منزلي، وأجزلت العطاء للجني الذي قال لي ناصحاً "ادعُها للخروج معك مرة أخرى".

قال هذا، وانطلق.

كان ألفريد لم يزل في نوبة عمله لسبب لا أعرفه، ويبدو أنني لن أفطن أبداً إلى مواعيد عمل حراس البنايات، بل وأجدها أكثر إزعاجاً من مواعيد عملي. فحياني ألفريد، ‘‘مساء الخير سيد كوري، هل كان يومك جيداً؟’’

‘‘كان يوماً مثيراً يا ألفريد’’.

ثم استقللت المصعد إلى الطابق العشرين، وفتحت بابي، ودخلت وأنا أتخذ أيسر قدر من الإجراءات الاحتياطية. في الحقيقة، لقد وددت لو ضربني أحدهم على رأسي فأستفيق في الشهر التالي كما يحدث في الأفلام.

لم أحاول تفقد جهاز تسجيل المكالمات، فكل ما فعلته كان أن خلعت ملابسي، وسقطت على فراشي. ورغم أنني كنت أظن نفسي مرهقاً للغاية، إلاّ أنني اكتشفت أنني كنت متوتراً ومشدوداً كزنبرك الساعة.

فرحت أحدّق في سقف الغرفة وأنا أفكر في الحياة والموت، والحب والكراهية، والقدر والحظ، والجبن والشجاعة، وأشياء كهذه. وفكّرت كذلك في كيت، وتيد، وجورج، وهؤلاء الأشخاص في حلاّتهم الزرقاء، وجنيّ الزجاجة، وأخيراً في نيك مونتي ونانسي تايت، وكم سأفتقدهما. وكذلك ماغي، ضابطة المناوبة التي لم أعرفها، بيد أن عائلتها وأصدقاءها سيفتقدونها بلا شك. وبالطبع فكرت في أسد خليل، وتساءلت إن كنت سأحظى بفرصة لكي أرسله مباشرة إلى الجحيم.

ثم خلدت للنوم، لكن هاجمتني الكوابيس، الواحد تلو الآخر!

الفصل الخامس والثلاثون

وجد أسد خليل نفسه على طريق مزدحم تصطف فيه الفنادق الصغيرة، ومكاتب تأجير السيارات، ومطاعم الوجبات الجاهزة والسريعة، وطائرة تقترب للهبوط في المطار القريب. كانوا قد أخبروه في بلده أن يبحث عن فندق صغير بالقرب من مطار جاكسونفيل الدولي، بحيث لا يجذب مظهره أو لوحة سيارته الانتباه.

ثم وقع بصره على مكان بدا لطيف الشكل اسمه شيراتون؛ اسم كان قد شاهده في أوروبا كثيراً، فتوجه إلى مكان الوقوف ثم إلى اللافتة المكتوب عليها *دخول السيارات؛ التسجيل*. فعدّل من ربطة عنقه، ومشّط شعره بأصابعه، ووضع نظارته، ثم دخل مكان التسجيل ذاك.

ابتسمت له فتاة خلف منضدة الاستقبال وهي تحيه قائلة "مساء الخير".

رد عليها خليل الابتسامة والتحية، ولاحظ أن هناك ثلاثة ممرات إلى البهو كُتب على أحدها *بار - قاعة الجلوس - مطعم*، ثم تناهى إليه صوت الموسيقى والضحكات يأتيه عبر الباب. فقال للفتاة "أريد غرفة لليلة واحدة من فضلك".

"حسناً يا سيدي. غرفة عادية أم فاخرة؟"

"فاخرة".

فناولته استمارة التسجيل وقلماً وهي تقول "وكيف ترغب في الدفع يا سيدي؟"

قال خليل "بطاقة أميركان اكسبرس". وهو يخرج محفظته ويناولها بطاقة ائتمانه بينما يملأ خانات الاستمارة.

كان بوريس قد أخبره أنه كلما كان المكان أرقى كلما كانت المشكلات أقل، خاصة في حال كان يستخدم بطاقة ائتمانية. وبالرغم من أن خليلاً لم يشأ أن يترك وراءه الكثير من الأوراق، إلا أن بوريس قد أكّد له أنه لا بأس من استخدام البطاقة طالما أنه سيستخدمها على نحو مقتصد.

أعطته الفتاة قصاصة ظهرت عليها صورة البطاقة، ثم أعادت له بطاقة الأميركان اكسبرس خاصته. وقّع لها خليل على تلك الورقة ووضع البطاقة في

جيبه.

أكمل خليل بيانات الاستمارة وهو يترك الفراغات الخاصة بالسيارة؛ أخبروه في بلده أنه بوسعه تجاهل هذه البيانات في الأماكن الراقية، كما أخبروه أنه - بعكس أوروبا - لا يوجد مكان لرقم جواز السفر في استمارة الدخول تلك، وأن موظف الاستقبال لن يسأل عنها. من الواضح أنهم يعتبرونها إهانة أن يُظن بالمرء أنه أجنبي، بغض النظر عمّا إن كان يبدو أجنبياً بالفعل. أو ربما كما قال بوريس، إن جواز السفر الوحيد الذي تحتاجه في أميركا هو بطاقة أميركان اكسبرس.

على أي حال، ألقت الفتاة نظرة على استمارة خليل ولم تطلب منه شيئاً آخر، وقالت "أهلاً بك في شيراتون سيد...".

فنطق لها خليل الاسم قائلاً "بدر".

فقالت الفتاة "حسناً سيد بـ...در، إليك بطاقة المفتاح الإلكتروني للغرفة مئة وتسعة عشر، الطابق الأول، إلى اليمين وأنت تغادر البهو". ثم تابعت في صوت رتيب "هذه حافظة النزلاء خاصتك، ورقم الغرفة مدون عليها. البار والمطعم بعد هذا الباب مباشرة، ولدينا مركز للياقة البدنية، ومسبح. أما وقت ترك الغرفة فهو الحادية عشرة صباحاً. يُقدم الفطور في قاعة الطعام من السادسة إلى السابعة صباحاً، وخدمة الغرف متاحة من السادسة صباحاً وحتى منتصف الليل. تغلق قاعة الطعام قبل العشاء بقليل، بينما البار وقاعة الجلوس مفتوحان حتى الواحدة من بعد منتصف الليل، حيث يمكنك الحصول على بعض الوجبات الخفيفة. كما أن لديك ثلاجة مشروبات صغيرة في غرفتك. أترغب في الاتصال بك لإيقاظك في أي ساعة؟"

لم يجد خليل صعوبة في فهم اللكنة التي كانت تتحدث بها الفتاة، لكنه بالكاد استوعب كل تلك المعلومات التافهة. أما في ما يتعلق بمكالمة الإيقاظ تلك، فأجابها بقوله "نعم، فلديّ طائرة عند التاسعة صباحاً، فأرجو إيقاظي عند السادسة".

كانت الفتاة تنظر إليه بجرأة، بعكس فتيات بلده اللواتي يتجنبن النظر مباشرة إلى أعين الرجال. ظل خليل ينظر إلى الفتاة، إلى عينيها - كما أخبروه - حتى يتجنب أن يرتابوا فيه، وأيضاً كي يرى في عينيها أي أمارات لتعرفها عليه. لكنها بدت غافلة بالكامل عن حقيقة هويته.

"حسناً يا سيدي. مكالمة إيقاظ عند السادسة صباحاً. أترغب في تسجيل خروج سريع؟"

كانوا قد أخبروه أن يجيب بالإيجاب عن هذا السؤال، حيث هذا النوع من تسجيل الخروج لن يتطلب منه العودة إلى مكتب الاستقبال، فأجاب "نعم، لا بأس بهذا".

"ستجد نسخة من فاتورة حسابك أسفل باب غرفتك قبل السابعة صباحاً. أي خدمة أخرى؟"

"كلا، شكراً لكِ".

"أتمنى لك إقامة سعيدة".

قال خليل مبتسماً "شكراً". وهو يأخذ حافظة النزلاء خاصته، ثم استدار وترك البهو.

فكّر خليل أن الأمر قد مضى على نحو جيد هذه المرة؛ أفضل من المرة الأخيرة التي نزل فيها بذاك النُزُل خارج واشنطن حيث توجّب عليه أن يقتل موظف الاستقبال ذاك. وابتسم مرة أخرى.

دخل أسد خليل سيارته مرة أخرى وقادها إلى باب الغرفة رقم 119 حيث كانت هناك مساحة خالية ليوقف سيارته بها. ثم سحب حقيبته وخرج من السيارة وأغلقها. توجّه خليل صوب الباب ثم دفع بالبطاقة في المكان المخصص لها فأصدر قفل الباب صوتاً ونقراً فيما أضاء ضوء أخضر اللون ذكّر خليل بنادي الفاتحين، ثم انفتح الباب.

دخل خليل الغرفة، وأغلق رتاج الباب خلفه.

شرع خليل يفتش الغرفة، والخزائن، ودورة المياه التي كانت نظيفة جداً وحديثة الطراز، رغم أنه وجدها مريحة أكثر مما يتناسب معه. كان يفضل أن يكون محاطاً بأشياء صارمة بطبيعتها، تليق بمفهوم الجهاد. فكما قال له أحد رجال الدين من قبل "إن الله يسمع دعاءك في حال كنت في المسجد ومعدتك ممتلئة، تماماً كما يسمعك وأنت في الصحراء بمعدة خاوية. ولكن إن أردت أن تسمع أنت الله، فاذهب إلى الصحراء جائعاً".

لم يكن خليل بعيداً عن تلك النصيحة؛ كان جائعاً. فمنذ اليوم الذي يسبق تسليم نفسه للسفارة الأميركية في باريس - أي منذ نحو أسبوع مضى - وهو يأكل القليل. ذكّره هذا بأن يلقي نظرة على قائمة الطعام والخدمات، إلا أنه قرر أن يتفادى شخصاً آخر يحدق في وجهه. قليلون هم من رأوه عن قرب، ومعظمهم لقي حتفه بالفعل.

فتح خليل ثلاجة المشروبات الصغيرة حيث وجد علبة من عصير البرتقال، وقنينة بلاستيكية من ماء فيتيل، ومرطباناً من زبدة الفول السوداني، وشوكولاته توبليرون التي لطالما استمتع بها في أوروبا.

جلس خليل على مقعد بذراعين في مواجهة الباب ولم يزل بعد في كامل ملابسه، والمسدسان في جيبيه، وأخذ يأكل ويشرب ببطء.

وبينما كان يأكل، تذكر إقامته القصيرة في مقر السفارة الأميركية في باريس؛ ربما كانوا مرتابين بشأنه، لكنهم لم يعاملوه بعنف؛ استجوبه في البداية ضابط عسكري ورجل في ثياب مدنية، وفي اليوم التالي وصل رجلان من أميركا - قدّما نفسيهما له باسمي فيليب وبيتر - وأخبراه أنهما سيرافقانه في سلام إلى واشنطن. كان خليل يعرف أن كل هذا كذب وهراء، وأنهما سيأخذانه إلى نيويورك لا إلى واشنطن، وأن الرجلين لن يصلا بسلام.

كانوا قد خدروه ليلة رحيله تلك كما أخبره بطرس أنهم سيفعلون، ولقد سمح لهم خليل بذلك كي لا يثير شكوكهم، بالرغم من أنه لم يكن متيقناً مما سيفعلونه به بعد تخديره، إلا أنه لم يهتم. كانت مخابرات بلده قد استجوبته بعد تخديره لترى قدرته

على مقاومة تأثير ما يُطلق عليه اسم مصل الحقيقة، ونجح خليل في الاختبار بلا مشكلات.

لقد أخبروه أنه من المرجح أن الأميركيين لن يُخضعوه لجهاز كشف الكذب في السفارة، حيث إن الدبلوماسيين يريدونه خارج السفارة في أقرب وقت ممكن. ولكن في حال طُلب منه إجراء هذا الاختبار، فعليه أن يرفض، وأن يطالب بالذهاب إلى أميركا، أو أن يُطلق سراحه. على أي حال، تصرف الأميركيون كما هو متوقع منهم، وعملوا على إخراجه من السفارة ومن باريس في أسرع وقت ممكن.

كما قال له مالك من قبل ‟أنت مطلوب للاستجواب من قِبل الفرنسيين، والألمان، والإيطاليين، والبريطانيين. ويعرف الأميركيون هذا، بيد أنهم يريدونك لأنفسهم فقط، ولذلك سيعملون على إخراجك من أوروبا في أسرع وقت. وهم عادة ما يأخذون القضايا البالغة الحساسية إلى نيويورك حتى يستطيعوا أن ينكروا احتجازهم للاجئ أو جاسوس في واشنطن. صحيح أنهم سيأخذونك إلى واشنطن في نهاية المطاف، لكنني أظن أنه بوسعك الوصول إلى هناك بمفردك".

ضحك جميع من في الغرفة على تعليق مالك المرح ذاك. لا شك أن مالكاً كان يتمتع ببلاغة في الحديث، ومرح يعمد إلى استخدامه لتوضيح مقصده. إلا أن خليلاً لم يكن ليقدّر الكثير من مرح مالك أو بوريس، ولكن طالما أن السخرية كانت على حساب الأميركيين أو الأوروبيين، فلا بأس.

كما قال له مالك ‟لكن في حال أخبرنا صديقنا الذي يعمل بخطوط ترانس - كونتيننتل في باريس أنهم سيأخذونك إلى واشنطن بالفعل، فاعلم أن حداد - رفيق سفرك الذي يحتاج إلى الأكسجين - سيكون معك على تلك الطائرة أيضاً. والإجراءات في مطار دولز مماثلة، فسيتم سحب الطائرة إلى المنطقة الأمنية، وستستمر في الخطة كأنك في نيويورك". ثم أعطاه مالك نقطة ملتقى في مطار دولز حيث سيقابل سيارة الأجرة المخصصة له وسائقها الذي سيصحبه إلى سيارته المستأجرة، ومن هناك - بعد إسكات السائق بالطبع - سينزل في فندق صغير حتى صباح يوم الأحد، ثم سيذهب إلى المدينة حيث سيقوم بزيارة الجنرال وايكليف قبل أو بعد زيارته لدار العبادة.

أثار إعجاب خليل مدى إتقان وذكاء إدارة المخابرات في بلده، فلقد فكّروا في كافة التفاصيل، ووضعوا خططاً بديلة في حال غيّر الأميركيون طريقة عملهم. والأهم من هذا أن ضباط العمليات أكدوا له أن أفضل الخطط على الإطلاق قد يتعذر تنفيذها من دون روح المقاتل المؤمن بحق، كأسد خليل، ومن دون عون الله وتوفيقه.

أما بوريس فقد قال بالطبع إن الخطة خطته بالكامل ولا شأن لله بها أو بنجاحها، بيد أن بوريس نفسه كان يوافق على أن خليلاً عميل استثنائي، بل وقال لضباط المخابرات ‟لو كان لديكم المزيد من الرجال مثل أسد خليل، لما أخفقتم كثيراً".

لطالما فكّر خليل أن بوريس كان يحفر قبره بفمه، وكان على يقين من أن بوريس نفسه كان يدرك هذا، وربما كان هذا هو السبب وراء ثمله في معظم الأحيان.

كان بوريس بحاجة إلى إمداد دائم بالنساء والشراب، وقد كفلت له الدولة المستضيفة هذا، بالإضافة إلى المال الذي كان يُحوَّل لعائلته في ذاك البنك السويسري. حتى بعد أن سمموه كان هذا الروسي شديد الدهاء والبراعة، بل ومفيداً للغاية، ولقد كان من الذكاء ليعرف أنه لن يغادر حياً على أي حال. ولقد قال لمالك ذات يوم "إذا حدث لي سوء هنا، عِدني بأن ترسل جثماني إلى وطني".

أجابه مالك "تأكد أنه لن يحدث لك سوء هنا يا صديقي، فنحن نراقبك عن كثب".

فرد عليه بوريس بقوله "تباً لك". وهو رد اعتاد مالك أن يسمعه من بوريس.

انتهى خليل من وجبته تلك، وشغل التلفاز وهو يرتشف الفيتيل من الزجاجة. وعندما انتهى من شرب الماء، وضع الزجاجة الفارغة في حقيبة سفره.

كانت الساعة قد شارفت على الحادية عشرة مساءً، وفيما كان ينتظر أنباء الحادية عشرة، راح يبدل بين القنوات مستخدماً جهاز التحكم عن بعد. شاهد على القناة الأولى امرأتين في حوض صغير للبخار والمياه، وقد بدأتا التعامل بحميمية مع بعضهما البعض. بدّل خليل القناة، ثم عاد ثانية ليشاهد المرأتين.

راح خليل يشاهد المرأتين وهو ثابت كالحجر؛ إحداهما شقراء والأخرى ذات شعر أسود، كانتا تقفان في ذاك الماء الساخن، تداعبان بعضهما البعض. ثم ظهرت امرأة ثالثة - إفريقية - على حافة الحوض وكانت... تماماً، إلا أنهم عمدوا إلى إضفاء تشويش إلكتروني يخفي أجزاء من جسدها فيما كانت تهبط الدرج إلى داخل المسبح.

ولاحظ خليل أن النساء الثلاث لم يكنّ يقلن الكثير، ولكن كن يضحكن كثيراً فيما يبعثرن الماء على بعضهن البعض. فكّر خليل أنهن يتصرفن كالثملات أو الحمقاوات، ولكنه تابع المشاهدة. وهنا ظهرت امرأة رابعة تهبط الدرج وظهرها نحو الكاميرا، ورأى خليل... وهي تنزل إلى الماء. وسرعان ما بدأت النساء الأربع في فرك وتمسيد أجساد بعضهن البعض. كان خليل يجلس كالصنم، ولكنه أدرك أن رؤية تلك المشاهد قد أثارته، وراح يتململ على مقعده في عدم ارتياح.

فهم خليل أنه لم يكن يجدر به أن يشاهد هذا، وأن ذاك كان أسوأ صور الانحطاط الغربي، وهو ما وصفته كافة العقائد السماوية بكونه محرَّما ومنافياً للطبيعة. ولكن بالرغم من كل ذلك، لا شك أن أولئك النسوة اللواتي يلمسن بعضهن البعض بتلك الطريقة القذرة قد أثرنه وذهبن بعقله إلى صور وخيالات شهوانية بذيئة، فتصور نفسه في ذاك المسبح وسطهن.

انتفض خليل من أحلام يقظته تلك، وألقى نظرة على الساعة الرقمية ليجدها الحادية عشرة وأربع دقائق بالفعل. وفيما كان يحوّل القناة كان يلعن نفسه، ويلعن ضعفه، والقوى الشيطانية الطليقة فوق هذه الأرض الملعونة.

وجد خليل البرنامج الإخباري وتوقف عنده.

كانت مذيعة الأخبار تقول "هذا هو الرجل الذي أعلنت السلطات أنه المشتبه به الأول في الهجمة الإرهابية على الولايات المتحدة".

ثم ظهرت على الشاشة صورة كتب أسفل منها "أسد خليل" بالحروف الإنكليزية الكبيرة، فانتفض أسد على قدميه بسرعة، وانحنى أمام التلفاز ليدرس الصورة. لم يكن قد رأى هذه الصورة الملونة لنفسه من قبل، وارتاب في أنهم التقطوها له في السفارة في باريس على غفلة منه أثناء استجوابه. والحق أنه لاحظ أن البذلة كانت هي ذاتها التي كان يرتديها في تلك اللحظة التي يشاهد فيها التلفاز، وربطة العنق كانت تلك التي كان يضعها في باريس، ولكنه يضع غيرها الآن.

ثم تابعت المذيعة "رجاءً أن تمعنوا النظر في هذه الصورة، وأن تبلغوا السلطات في حال صادفتم هذا الرجل. من المفترض أنه مُسلّح وخطِر، ويجب تجنب محاولة مواجهته أو احتجازه. فقط اتصلوا بالشرطة أو مكتب التحقيقات الفيدرالية. إليكم رقمين مجانين يمكنكم الاتصال بهما". ثم ظهر الرقمان أسفل الصورة. كان الرقم الأول للإدلاء بالمعلومات على شريط تسجيل دون الإفصاح عن الهوية، والرقم الثاني هو الخط الساخن الذي يقوم على إدارته الفيدراليون، وكلا الخطين متاحان طوال أربع وعشرين ساعة، طوال أيام الأسبوع. كما أن وزارة العدل تقدم مليون دولار مكافأة لمن يُدلي بمعلومات تؤدي إلى القبض على المشتبه به.

ثم ظهرت صورة أخرى لأسد خليل على الشاشة وقد علا وجهه تعبير مختلف بعض الشيء، ومرة أخرى عرف خليل أنها صورة من صور السفارة في باريس. كانت المذيعة تقول "مرة أخرى، يرجى التحقق من هذه الصورة، حيث السلطات الفيدرالية تطلب مساعدتكم في العثور على هذا الرجل المدعو أسد خليل. وهو يتكلم الإنكليزية، والعربية، وبعض الفرنسية، والألمانية، والإيطالية. وهو مشتبه به كإرهابي دولي، ومن المحتمل أن يكون في الولايات المتحدة الآن. هذا هو كل ما لدينا من معلومات حول هذا الرجل، وسوف نوافيكم بكل جديد ما إن تتاح لدينا أي تفاصيل أخرى".

كان وجه أسد خليل يطل من شاشة التلفاز طوال فترة النشرة، وعندما شرعت المذيعة بإخبار المشاهدين خبراً آخر أوقف خليل الصوت ثم توجه إلى المرآة ووضع نظارته الثنائية البؤرة، وراح يحدّق في انعكاس وجهه.

أسد خليل؛ ذاك المطلوب على شاشة التلفاز، ذو شعر أسود مسرح إلى الوراء، أما حنفي بدر، المصري في جاكسونفيل، بفلوريدا، فلديه شعر رمادي، مفروق على الجانب.

وأسد خليل على شاشة التلفاز لديه عينان سوداوان، فيما حنفي بدر في جاكسونفيل يضع نظارة ثنائية، وتبدو عيناه مشوشتين لمن ينظر إليهما.

وأسد خليل على شاشة التلفاز كان حليق الوجه، بينما حنفي بدر لديه شارب رمادي.

وأسد خليل على شاشة التلفاز متجهم الوجه، بينما حنفي بدر في المرآة يبتسم؛ لأنه لا يبدو كأسد خليل.

ومن ثم أدّى خليل صلواته، وخلد إلى الفراش.

الفصل السادس والثلاثون

وصلت إلى اجتماع الثامنة صباحاً في الطابق الثامن والعشرين في فيدرال بلازا تحدوني مشاعر مختلفة لأنني لم أقضِ تلك الليلة مع كيت مايفيلد. في الحقيقة، لقد وجدت في نفسي القدرة على النظر إلى عينيها مباشرة وأنا أقول لها "صباح الخير". وبالفعل ردّت عليّ تحيتي وظننت أنني سمعت كلمة "أيها الأحمق". ولكن ربما كان هذا إحساسي فحسب.

وقفنا حول مائدة الاجتماعات تلك في إحدى الغرف التي لا نوافذ لها، وأخذنا نثرثر حتى كانت الدعوة إلى بدء الاجتماع. كانت جدران الغرفة مزدانة بصور مكبرة لأسد خليل في عدة لقطات التُقطت له في باريس، بالإضافة إلى صورتين إحداهما معنونة *يوسف حداد وهي لقطة من المشرحة*، فيما كان عنوان الأخرى *صورة جواز السفر*، والحق أن صورة المشرحة بدت أفضل من صورة جواز السفر. كما كان هناك بضع صور للاجئ فبراير، والذي اتضح أن اسمه بطرس ظهر، وقد ذكر التعليق أسفل الصورة أنه ميت.

كان لديّ انطباع أن كل هؤلاء الأشخاص يتسمون بالوضاعة لما لهم من أسماء سخيفة؛ كفتى يُدعى *سو*.

على أي حال، عددت فوق المائدة عشرة أقداح من القهوة وعشر مفكرات، ومن ثم استنتجت أنه سيكون هناك عشرة مجتمعين. كما وجدت أنهم قد كتبوا فوق كل مفكرة اسم شخص ما، فاستنتجت أيضاً أنه من المفترض أن أجلس أمام المفكرة التي تحمل اسمي، ففعلت. كان هناك أربعة أباريق من القهوة فوق المائدة، فصببت لنفسي قدحاً ثم دفعت بالإبريق عبر المائدة لكيت التي كانت تجلس قبالتي.

كانت كيت ترتدي سترة رسمية زرقاء مخططة وقد بدت فيها أكثر حدة عمّا كانت تبدو عليه في الزي الذي كانت ترتديه يوم السبت؛ السترة الزرقاء والتنورة التي تصل إلى ركبتيها. أما أحمر شفتيها فكان مرجانياً.

ابتسمت لي كيت، فرددت لها الابتسامة.

فلنعد على أي حال إلى اجتماع وحدة مكافحة الإرهاب ذاك. كان الجميع يتخذون مقاعدهم الآن؛ فعند طرف المائدة كان يجلس جاك كوينج، وكان قد وصل مؤخراً

من واشنطن العاصمة ويرتدي نفس الحُلة التي كان يرتديها بالأمس. وعند الطرف الآخر كان يجلس النقيب ديفيد ستين من مديرية شرطة نيويورك، بحيث إنه بوسع كل من ستين وكوينج أن يظن أنه يرأس مائدة الاجتماع تلك.

وإلى يساري كان يجلس مايك أوليري من وحدة استخبارات مديرية شرطة نيويورك، ولاحظت أن الاسم المدون فوق المفكرة مطابق لاسمه، مما جعلني أطمئن على مستوى ذكاء وحدة استخبارات الشرطة.

وإلى يميني كان العميل الخاص آلان باركر من مكتب التحقيقات الفيدرالية، وحدة مكافحة الإرهاب، وكان آلان هو رجل العلاقات العامة لدينا. وبالرغم من أنه في منتصف العقد الثاني من العمر، إلا أنه يبدو في الثالثة عشرة. ولأنه يتسم بتفاهة على مستوى عالمي، فإن هذا ما كنّا نحتاجه في هذه القضية.

إلى يمين باركر، بالقرب من كوينج، كان النقيب هنري ويدرزينسكي، نائب رئيس المخبرين لدى شرطة سلطة المطار. وكنت قد قابلت هذا الرجل بضع مرات عندما كنت مخبراً لدى مديرية شرطة نيويورك. ولقد كان رجلاً جيداً ما عدا اسمه الذي يبدو كالسطر الثالث في لوحة قياس قوة الإبصار؛ أعني أنه ربما يجدر بي أن أشتري حرفاً متحركاً لهذا الرجل.

أما في الجهة المقابلة لي فكانت تجلس كيت وثلاثة أشخاص آخرين وإلى الطرف الأقصى، بجوار النقيب ستين، كان يجلس روبرت موودي، رئيس المخبرين بمديرية شرطة نيويورك، وواقع الأمر أنه كان رئيسي السابق قبل تلك الحادثة التي أوشكت فيها على الموت، وبالطبع لا أحتاج إلى أن أخبركم كم هو شاق أن تكون قائداً لبضعة آلاف من الرجال أمثالي. ولقد قابلت الرئيس موودي في عدة مناسبات، وشعرت أنه لا يكن لي أي مشاعر كراهية بصفة خاصة، وهو أحسن ما قد أصل إليه مع رؤسائي.

وإلى يسار كيت كان العريف جابريل هيثم، وهو عميل عربي لدى وحدة مكافحة الإرهاب بمديرية شرطة نيويورك. وبجوار جابريل، إلى يمين كوينج، كان يجلس رجل لا أعرفه. وفي الحقيقة، الشيء الوحيد الذي بدا مجهولاً فيه كان اسمه، حيث لم يكن لديّ أدنى شك أن هذا الرجل المحترم المتأنق من المخابرات المركزية. كم هو مضحك أنني بالفعل أستطيع التعرف عليهم؛ فهم يعطون ذاك الانطباع باللامبالاة الجوفاء، وينفقون ببذخ على ملابسهم، ودائماً ما يبدون وكأنه من المفترض أن يكونوا في مكان أكثر أهمية من مكانهم هذا أو ذاك.

على أي حال، كنت أشعر ببعض الفراغ الداخلي منذ ذهاب تيد ناش، وقد بدأت أشعر بتحسن الآن حيث هناك من سيحل محله. لقد دفع هذا بالسيد تيد ناش إلى تفكيري، فتخيلته يحزم ملابسه الداخلية الحريرية لرحلته إلى باريس. كما تخيلته يعود إلى حياتي في وقت ما، كما يفعل دائماً. تذكرت حينها كلمات كوينج: إنه تيد من يجب أن تضع عليه عينيك. فجاك كوينج لا يطلق العبارات اعتباطاً.

كما أنني أفتقد جورج فوستر، الذي كان يتدبر أمر المتجر كما يقولون؛ فكان يبقى في نادي الفاتحين لفترات

طويلة، وكانت وظيفته في لغة التحقيق الجنائي أن يلعب دور *المضيف* أو المنسق في مكان وقوع الجريمة، بوصفه شاهداً على الأحداث ومشاركاً فيها. أظنه أفضل مني في أداء هذه المهمة.

إلى جانب ناش وفوستر، كنت أفتقد أيضاً من تلك المجموعة نيك مونتي. وبالفعل بدأ جاك كوينج الاجتماع باقتراح دقيقة صمت على روح نيك، وكذلك فيل وبيتر؛ اللذين كانا على متن الرحلة 175، وأيضاً آندي ماكيغل من وحدة طوارئ المطار، ونانسي تايت، وضابطة المناوبة ماغي كولينز، وكافة ضحايا الرحلة 175.

بعد دقيقة الحداد تلك دعا جاك إلى بدء الاجتماع، حيث كانت الساعة تشير إلى تمام الثامنة صباحاً. وأول ما فعله جاك كان أن قدّم لنا ذاك المحترم إلى جانبه، فقال "معنا هذا الصباح إدوارد هاريس، من وكالة الاستخبارات المركزية".

تباً، أعني أنه كان يكفي أن يقول "السيد هاريس تعرفون من أين".

ثم أضاف جاك "والسيد هاريس يعمل في وحدة مكافحة الإرهاب بالوكالة".

صدّق هاريس على تلك المقدمة بأن حرّك قلمه الرصاص إلى الخلف وإلى الأمام كماسحة الزجاج؛ كم هو بارد!

كما أن هؤلاء الرجال - بخلاف رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية - غالباً ما يستخدمون أسماءهم كاملة. فما من مجال أن يحل *إد* محل *إدوارد هاريس*. إلا أن تيد ناش كان استثناءً لهذه القاعدة، وخطر لي فجأة أن أدعوه تيدي في المرة القادمة التي سألقاه فيها.

تجدر الإشارة هنا إلى أنه في الظروف الطبيعية ما كنت أنا أو كيت لنكون بين الحاضرين في اجتماع بهذا المستوى. ولكن لأننا كنا شاهدين ومشاركين في الحدث الذي أحضرنا جميعاً إلى هنا، فلقد تم ضمنا في هذه القائمة المحترمة. ولكن، هل يبدو هذا جيداً؟

قال جاك كوينج معلناً "كما قد يعرف البعض منكم، تم اتخاذ قرار في واشنطن ظهر أمس بنشر بيان قصير في وسائل الإعلام الإخبارية مصحوباً بصورة لأسد خليل. ويذكر البيان أنه مشتبه فيه في قضية تتضمن إرهاباً دولياً، وهو مطلوب من قِبل السلطات الفيدرالية، ولم يرد ذكر الرحلة 175. ولقد ظهر البيان والصور في أنباء الحادية عشرة بالتلفاز، ولربما شاهده بعضكم الليلة الماضية. وسوف تحمل صحف اليوم نفس البيان والصور". وبالرغم من أن أحداً لم يتفوه بتعليق مسموع، إلا أن التعبير الذي علا الوجوه كان "لقد حان الوقت لذلك بالفعل".

هنا شرع النقيب ديفيد ستين يفرض دوره في هذه القيادة المشتركة، فوقف دونما استئذان من الملك جاك، وقال معلناً "سنقيم مركز قيادة الحدث في الطابق السادس والعشرين، وسوف ينتقل إليه كل المشاركين في هذه القضية مع ملفاتهم. وكل ما يتعلق بهذه القضية سيكون متاحاً في هذا المركز - الملفات، والصور، والخرائط، والمخططات، والمعلومات، والأدلة، ونصوص المقابلات - كل ما تحتاجون إليه. وحتى تأتيكم تعليمات أخرى، فإن هناك ثلاثة أماكن فقط يُسمح لفريق وحدة مكافحة الإرهاب بالتواجد فيها؛ مركز القيادة، والفراش، أو في أماكن البحث، ولن يكون لديكم الكثير من الوقت لتقضوه في الفراش". ثم نظر في أرجاء الغرفة من حوله وأضاف "وفي حال كان أحدكم يرغب في حضور الجنازات، فليتفضل. أي أسئلة؟"

ولما لم يكن لدينا أي أسئلة، تابع الرجل قائلاً "سيقوم قسم الشرق الأوسط في وحدة مكافحة الإرهاب بتخصيص خمسين عميلاً لهذه القضية من كافة هيئات تنفيذ القانون التي تشكل لجان المهام لدينا. من ناحية أخرى، سيتم تعيين مئة رجل وامرأة أو نحو ذلك في منطقة نيويورك للقضية ذاتها، بالإضافة إلى مئات العملاء الآخرين الذين يعملون على هذه القضية في نيويورك وخارجها". وما إلى ذلك من هذا الحديث...

أما المتحدث التالي فكان الملازم مايك أوليري من وحدة استخبارات مديرية شرطة نيويورك، فتحدث قليلاً عن نيك مونتي من حيث إنه كان أحد رجال المخابرات، ثم أخبرنا أحد المواقف الطريفة حول نيك، والتي أظن أنه اختلقها.

ومن الجدير بالذكر، أن القليل من قوات الشرطة المحلية تتمتع بإدارات استخبارية خاصة بها، ولكن مدينة نيويورك، بوصفها وطناً لكافة الحركات السياسية الشاذة على وجه هذا الكوكب، لذا فهي تحتاج إلى هذا الإطار. ولقد تم تأسيس وحدة الاستخبارات بمديرية شرطة نيويورك أثناء الخوف الأحمر، ولقد اعتادت وحدة الاستخبارات مطاردة ومضايقة المجتمعات المحلية، التي - في الحقيقة - يحب أفرادها أن يُعتقلوا على أيدي رجال الشرطة، حيث لا يعيرهم الانتباه سوى رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية.

ثم تحولت الفرقة الحمراء القديمة إلى ما هي عليه اليوم، وهم جيدون في ما يفعلونه، بيد أنهم يتحركون في حدود. كما أنهم لا يحبون وحدة مكافحة الإرهاب حيث يعتبرونها منافساً لهم. إلا أن مايك أوليري أكد للجميع أن هيئته مهتمة بالقضية وأنهم سيتعاونون على أكمل وجه. وكنت أعرف في داخلي أنه في حال أمسك رجاله بزمام الأمر، فلن نسمع عنه شيئاً أبداً. ولكن إحقاقاً للحق، لو أن مكتب التحقيقات الفيدرالية تولى القضية، فلن يسمع عنها أوليري شيئاً كذلك.

وأخيراً باركنا الملازم أوليري جميعاً وجلس. كم هم حمقى هؤلاء الإيرلنديون. أعني أنك بالقطع تعرف أنهم يكذبون، وهم يعرفون كذلك أنك تعرف أنهم يكذبون، إلا أنهم يكذبون في وجهك بمنتهى السحر والإقناع والجهد، بحيث يتولد لدى الجميع شعور جيّد تجاه ذاك الكذب.

ثم حان دور روبرت موودي، رئيس المخبرين بمديرية شرطة نيويورك، وقال "سوف يبقي مخبرونا أعينهم وآذانهم مفتوحة في هذه القضية أثناء العمل على قضايا أخرى. وأؤكد لكم أن الأربعة آلاف رجل وامرأة تحت قيادتي سوف يحملون معهم طوال الوقت صوراً لمرتكب هذه الجرائم المزعوم، وسوف يرسلون كافة المعلومات إلى مركز قيادة الحدث التابع لوحدة مكافحة الإرهاب". هراء!

ثم أنهى الرئيس موودي حديثه بأن قال "فلو أنه موجود في أي مكان في البلدان الخمس، فلدينا فرصة جيدة للعثور عليه، وسنفعل".

وما يفهم ضمنيًّا من قوله هنا هو أن موودي يتمنى وضع الطوق على عنق خليل حتى قبل أن يحصل الفيدراليون على أي معلومات بشأنه، ثم يخبرهم بالأمر في صحف الصباح.

وهنا تقدم النقيب ستين بالشكر للمفتش موودي، وأضاف "كما أن لديّ تأكيدات من مفوض الشرطة أنه سيتم إخبار كافة الضباط الرسميين بالأمر قبل البدء في نوباتهم وجولاتهم. كما أن المفوض يجتمع اليوم بكافة مفوضي الشرطة من الضواحي والمقاطعات والبلديات المدنية المحيطة، لكسب تعاونهم ودعمهم. ويعني هذا أن أكثر من سبعين ألف ضابط لتنفيذ القانون في المنطقة الحضرية سيقومون بالبحث عن نفس الشخص، مما يجعل من هذه المطاردة أكبر مطاردة شهدها تاريخ نيويورك".

لاحظت أن آلان باركر كان يدوّن الكثير من الملاحظات، ربما لاستخدامها في التصريحات الصحفية، أو ربما كان يكتب مسلسلات تلفزيونية قصيرة. أنا لا أثق في الكُتّاب على كل حال.

ثم قال ستين "في الوقت نفسه، فإن تركيزنا الأساسي سيكون على المجتمع الشرق أوسطي". ثم أشار إلى جابريل هيثم.

وقف هيثم وراح ينظر حوله في الغرفة. وبوصفه العربي المسلم الوحيد في هذا الجمع، فمن الطبيعي أن يكون متوجساً بعض الشيء. ولكن بعد سنوات من العمل مع وحدة استخبارات مديرية شرطة نيويورك، والآن مع وحدة مكافحة الإرهاب، فإن العريف جابريل هيثم كان هادئاً. ولقد أسرّ لي الرجل ذات يوم قائلاً "اسمي الحقيقي هو جبريل بالعربية، ولكن لا داعي لنشر ذلك، فأنا أفضل أن يُنظر إليّ بوصفي أميركيًّا أبيض مدنيًّا ومحترفاً".

أحب الرجل خفيف الظل، وكان جابي يتمتع بروح دعابة عالية، وثقة في نفسه تؤهله لفعل ما كان يفعل. أعني أنه ليس بهذه الصعوبة أن تكون عربياً - أميركياً في نيويورك، ولكن أن تكون عربياً - أميركياً مسلماً معيناً في قسم الشرق الأوسط التابع لوحدة مكافحة الإرهاب هو أمر جلل بحق. ترى ماذا يقول هذا الرجل لرفاقه في المسجد؟ أتراه يقول شيئاً مثل "أهلاً عبد الـ...، لقد صفعت اثنين من رفاقنا ليلة أمس". لا يبدو الأمر كذلك.

وكان العريف هيثم هو قائد الوحدات الخارجية ومخبري مديرية شرطة نيويورك المفوضين لدى وحدة مكافحة الإرهاب الذين يقومون بالعمل الشاق

الخاص بجمع المعلومات، وتتبع ومراقبة المشتبه في أنهم أعضاء في جماعات أو منظمات إرهابية متطرفة. هؤلاء الرجال يقضون ساعات خارج منازلهم يلتقطون فيها الصور، ويستخدمون أجهزة التنصّت واسعة المدى وأجهزة التسجيل، ويتعقبون الأشخاص في السيارات، وعلى الطرقات الجانبية، وباستخدام سيارات الأجرة، والقطارات، والحافلات، وحتى على الأقدام؛ وهي أشياء لا يستطيع الفيدراليون القيام بها، بل ولن يوافقوا على القيام بها. ربما لم يكن ذاك عملاً جيداً يقوم به المرء، لكنه أساس العمل بوحدة مكافحة الإرهاب، حيث الكثير من الوقت والمال يُستهلكان هناك، وبالطبع لا يحب المجتمع الشرق أوسطي أن يكون تحت المراقبة طوال الوقت، ولكن كما يُقال "إن لم تفعل شيئاً خاطئاً، فليس هناك ما تقلق بشأنه".

على كل حال، كان جابريل يقول "ما بين الخامسة من مساء يوم السبت وحتى الآن تخفَّى المسّاحون وقلبوا المدينة رأساً على عقب. استطعنا الحصول على موافقات للبحث، وضمانات بحث مُغطى تغطي كافة الأماكن ما عدا غرفة نوم المحافظ. ولقد قمنا باستجواب قرابة ثمانمئة شخص في منازلهم، في مقار الشرطة، وفي الشارع، في أماكن عملهم، وهنا، منهم زعماء مدنيون، ومشتبه بهم، وكل من يدعون يوسف، وحتى الزعماء الإسلاميون".

لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أقول معلقاً لجابي "إذاً إن لم نسمع شكاوى من عشرين من محامي الحقوق المدنية التابعين لجامعة الدول العربية قبل الظهيرة، فإن هذا سيعني أنك لم تقم بعملك كما يجب".

أضحك هذا الجميع بلا استثناء؛ حتى كيت ضحكت. أما جابي فقال موجهاً حديثه لي "يا رجل، لقد أنهكنا محامو الجامعة العربية. إنهم يعينون محامين من اليهود لرفع القضايا".

ومرة أخرى ضحك الجميع على تعليق جابريل، ولكن ليس بنفس الدرجة، فالأمر يبعث على بعض التوتر، ويصعب المرح عندما يتعلق الأمر بالمواضيع الحساسة. أعني أن الغرفة كانت تعج بالتنوع الثقافي ونحن لم نستمع بعد إلى الرجل البولندي؛ النقيب ويدرزينسكي. لديّ بالفعل مزحة بولندية رائعة، لكنني سأرجئها إلى وقت آخر.

تابع جابريل حديثه دون أن يضفي إليه حماسة زائدة، ومن ثم قال معترفاً "يتعين عليّ أن أخبركم أنه ليس لدينا أي معلومات، ولا حتى لمحة واحدة منها، ولا حتى تلك الأشياء التي عادة ما يخلفها مثل هؤلاء الأشخاص. كما أنه لا أحد يرغب في التعرض لهذا الموضوع. ولكن ما زال لدينا ألف من الأشخاص لاستجوابهم، ومئة من الأماكن للبحث فيها، بالإضافة إلى الأشخاص والأماكن التي سنعاود التعامل معها. فنحن نضغط بشدة على المجتمع الشرق أوسطي، وصحيح أننا قد نتخطى بعض الحقوق المدنية في هذا، إلا أننا سنهتم بهذا في ما بعد. لست أعني بهذا أننا سنعمد إلى التعذيب مثلاً".

فقال كوينج بلهجة جافة "ستقدر لك واشنطن محاولة ضبط النفس".

فقال جابريل لجاك "إن معظم هؤلاء قد أتوا من بلاد تعمد فيها قوات الشرطة إلى استخدام الضرب في أول استجواب، وقد يكون الأمر مشوِشاً بالنسبة لهم إذا لم نمارس الحد الأدنى من الضغط الجسدي عليهم".

تنحنح كوينج وقال "لست أظن أننا بصدد سماع ذلك الآن، وعلى كل حال أيها العريف، نحن لا..."

قاطعه العريف هيثم قائلاً "إن لدينا أكثر من ثلاثمئة جثة ترقد في مشارح المدينة ومستشفياتها، ولا نعرف كم من الموتى سنستقبل بعد. وأنا بالقطع لا أرغب في رؤية جثة واحدة في نطاق مسؤوليتي".

شرع كوينج يفكر للحظة، إلا أن مكبر الصوت المخفي في عقله لم يقل شيئاً.

ثم جلس جابريل هيثم.

ساد الغرفة نوع من السكون، وأظن أن الجميع كانوا يفكرون في الأمر ذاته؛ أن العريف جابريل هيثم بوسعه أن يُفلت ببعض العنف بشأن إخوته في الدين. وقد يكون هذا بالطبع أحد الأسباب التي اختير من أجلها لهذا العمل، والذي كان يبلي فيه بلاءً حسناً بالفعل. وربما يجدر بالذكر أن معظم نجاحات وحدة مكافحة الإرهاب إنما تعود إلى مسّاحي مديرية شرطة نيويورك، حيث كافة المصادر الأخرى - مخبرو المعلومات، والاستخبارات الأجنبية، والمعلومات التي ترد عبر الهاتف، والمدانون الذين يتم الإبلاغ عنهم، وما إلى ذلك - لا تأتي بمعلومات كتلك التي يحصل عليها هؤلاء المسّاحون.

ثم نهض النقيب ويدرزينسكي من هيئة الميناء، وأخبرنا "كافة قوات شرطة هيئة الميناء، بالإضافة إلى المتصلين على الرقم المجاني، وموظفي هيئة الميناء على محطات النقل الطرفية، لديهم جميعاً صورة لأسد خليل ومذكرة توضح أن هذا الهارب هو على قائمة المطلوب القبض عليهم الآن في أميركا. ولقد حاولنا التكتم عن أن الحادث طرأ بالرحلة 175، إلا أن الأمر قد تسرب".

وهكذا استمر النقيب ويدرزينسكي في حديثه لفترة أطول، حيث كانت تلك واحدة من القضايا التي تلعب فيها هيئة الميناء دوراً كبيراً. فعادة ما يعمد الهاربون في تحركاتهم إلى العبور من أمام موظف البطاقات، أو جامع الرسوم، أو شرطي هيئة الميناء في محطة الحافلات أو المطار. ومن ثم فإنه من الضرورة بمكان أن يتم دفع هؤلاء الأشخاص وتحفيزهم.

أما بالنسبة لهنري ويدرزينسكي، فلم أكن أعرف الرجل. ولكن، حسناً، إليكم المزحة. دخل ذاك الرجل البولندي إلى مكتب الخبير البصري، الذي قال للرجل "أتستطيع قراءة تلك العلامات؟" فقال البولندي "بالطبع فأنا أعرف كل هؤلاء الرجال".

على كل حال، بالرغم من أنني لم أكن أعرف النقيب ويدرزينسكي، إلا أنني كنت أعرف أنه - مثله في هذا مثل معظم رجال شرطة هيئة الميناء - لم يكن يتبنى موقفاً واضحاً؛ فكل ما كانوا يريدونه هو الشهرة والاحترام، ومن ثم كان هذا ما يجنونه من رجال مديرية شرطة نيويورك الأذكياء؛ من أمثالي بالطبع. إلا أنهم

أناس جيدون، ويسدون المساعدة بالفعل. أما إذا أخطأت بحقهم، فلديهم ألف طريقة لمعاقبتك، كأن يضيفوا ألف دولارٍ مثالاً على حساب ترخيصك لعبور الجسور والطرقات.

ولقد كان ويدرزينسكي رجلاً ضخم الجثة في حُلّته تلك، وكأن سبعة أرطال من النقانق البولندية محشوة في كيس يتسع لخمسة أرطال. كما بدا أنه يفتقر إلى أي جاذبية أو دبلوماسية، ولقد أحببت فيه ذلك.

توجّه إليه جاك كوينج بالسؤال "متى أصبحت صورة أسد خليل في يد رجالك؟"

أجابه النقيب ويدرزينسكي "لقد نسخنا من هذه الصور المئات في أسرع وقت استطعناه. وكلما انتهينا من نسخ دفعة ما، كنا نرسل سيارات الدورية بها إلى الجسور، والأنفاق، والمطارات، ومحطات الحافلات، وما إلى ذلك. كما أرسلنا بعض الصور بالفاكس إلى كل مكان يتوافر فيه جهاز فاكس، وبالمثل عبر الإنترنت". ثم نظر في أرجاء الغرفة وقال "وأتوقع أنه بحلول التاسعة من مساء يوم السبت سيكون لدى كافة رجالي نسخة من صورة خليل، وربما قبل ذلك في بعض المواقع. ولكن دعوني أخبركم أن حالة الصور مزرية".

وهنا قال النقيب ستين "نفهم إذاً أن أسد خليل كانت لديه فرصة الصعود إلى متن طائرة أو حافلة، أو عبور جسر ما أو نفق قبل التاسعة مساءً دون أن يلحظه أحد".

"هذا صحيح" أجابه ويدرزينسكي، ثم أضاف "لقد عنينا بتوصيل الخبر والصور إلى المطارات أولاً، لكن الهارب يتحرك بسرعة، ومن الجائز أنه ذهب على متن إحدى الرحلات، خاصة أنه كان في مطار كنيدي بالفعل".

ولم يعلق أحد على ذلك.

تابع النقيب ويدرزينسكي قائلاً "لديّ أكثر من مئة من التحريّين هناك في الخارج يحاولون معرفة ما إذا كان هذا الرجل قد ترك نيويورك العظمى، أو منطقة نيوجيرسي الحضرية من خلال مرفق هيئة الميناء. ولكن كما تعرفون، هناك ستة عشر مليون نسمة في نيويورك وحدها، ولو أن هذا الرجل متنكر، أو لديه بطاقة هوية مزورة، أو متواطئ يعاونه، أو أي من هذه الأشياء، فبوسعه الإفلات. فهي ليست مدينة تتمتع بشرطة قوية".

ومرة أخرى لم يتفوه أي منا بكلمة لبضع ثوانٍ، حتى قال كوينج متسائلاً "ماذا عن السفر بحراً؟"

أجابه ويدرزينسكي "نعم، هناك احتمال بعيد أن يكون لدى هذا الرجل تذكرة للصعود على أحد القوارب البطيئة للذهاب إلى الجزيرة العربية، ولذا قام مكتبي بإخطار الجمارك والهجرة على طول الأرصفة البحرية، وكذلك أرصفة البضائع والسفن الخاصة. ولقد أرسلت التحريّين إلى تلك الأنحاء مع مجموعات من الصور. ولكن لم يُشاهد خليل هناك حتى الآن. ولسوف نُبقي الأرصفة قيد المراقبة على كل حال".

توجه الجميع بأسئلتهم إلى ويدرزينسكي، وبات جلياً أن هذه الوكالة الشقيقة الصغرى قد أصبحت لها أهميتها على نحو مفاجئ. وتمكن ويدرزينسكي من ذِكر

حقيقة أن أحد هؤلاء الذين لقوا حتفهم، وهو آندي ماكيغل، كان يعمل في شرطة هيئة الميناء، وعلى الرغم من أن رجاله ليسوا بحاجة إلى دافع سوى الوطنية والواجب المهني، إلا أن موت ماكيغل قد جعل الدماء تغلي في عروقهم.

ثم تعب ويدرزينسكي من كونه محط الأنظار لهذه الفترة، فأدار الدفة قليلاً بأن قال "دعوني أخبركم أنني أظن أنه كان يجب أن تظهر صورة أسد خليل تلك على شاشة التلفاز بعد نصف ساعة من اكتشاف الجريمة. أعرف بالطبع أنه كان هناك اعتبارات أخرى، ولكن ما لم نفضِ إلى الجمهور بهذه الأشياء على الفور، فإننا بذلك نعطي فرصة لهذا الرجل لكي يهرب".

فقال جاك كوينج "هناك احتمال وارد بأنه قد هرب بالفعل، بل وربما استقل طائرة الشرق الأوسط من مطار كنيدي قبل أن تبرد جثث ضحاياه. هذا ما تراه واشنطن، ولذلك كان القرار بأن نستبقي الأمر داخل دائرة تنفيذ القانون حتى يستوعب الجمهور مأساة الترانس - كونتيننتل تماماً".

وهنا تحدثت كيت قائلة "أنا أتفق مع النقيب ويدرزينسكي، فلم يكن هناك من سبب لإخفاء الحقائق سوى أن نخفي خطأنا في... أيَّا يكن الخطأ".

كما وافقهما النقيب ستين، وقال "أظن أن الفزع قد استحوذ على واشنطن فاتخذت القرار الخطأ، ولقد تبعناها، وها نحن الآن نقتفي أثر شخص يسبقنا بيومين".

حاول كوينج أن يتخطى هذه النقطة سريعاً، فقال "حسناً، إن صورة خليل مذاعة عبر الوسائل الإعلامية الآن، ولكن النقطة موضع النقاش الآن هي فرار خليل السريع". ثم نظر كوينج إلى بعض الأوراق أمامه وقال "كانت هناك أربع رحلات طيران تركت مطار كنيدي، حيث كان بوسعه أن يصعد على متن أي منها قبل أن تتنبه شرطة المطار". وشرع يذكر أسماء حاملات الشرق الأوسط وساعات مغادرتها، ثم أضاف "وبالطبع كانت هناك رحلات أخرى دولية ومحلية وكاريبية لا تتطلب رؤية جواز السفر، حيث يكفي إبراز أي صورة لأي مستند شخصي".

ثم أنهى كوينج حديثه بأن قال "بالطبع كان لدينا أناس عند الطرف الآخر؛ لوس أنجلوس، والكاريبي وما إلى ذلك، في انتظار هذه الرحلات، إلا أنهم لم يلحظوا وصول أي أشخاص بهذه المواصفات".

شرعنا جميعاً نفكر في الأمر، ولاحظت أن كيت كانت تنظر إليّ، وخمنت أنها تريدني أن أقول شيئاً، ولا بأس فأنا هنا كعميل مأجور فحسب، فقلت "أعتقد أن خليلاً ما زال في نيويورك، وإن لم يكن كذلك فهو بالقطع في مكان آخر داخل البلاد".

سألني النقيب ستين "وما السر وراء اعتقادك هذا؟"

"لأنه لم ينتهِ من مهمته بعد".

"حسناً، وما الذي يحتاج إلى أن يتمه هنا؟"

"ليست لديّ فكرة".

“حسناً، على الأقل كانت بدايته مروعة بحق”.

“هذا ما أعنيه، وما زال هناك المزيد في جعبته”.

ولأن النقيب ستين - مثلي - أحياناً ما يميل إلى لغة أقسام الشرطة، قال “تباً له. أتمنى ألا يكون الأمر كذلك”.

كنت على وشك الرد عليه، إلاّ أن السيد من وكالة المخابرات المركزية شرع يتحدث للمرة الأولى، وسألني “ما السر وراء تأكدك هذا من أن أسد خليل ما زال في البلاد؟”

نظرت نحو السيد هاريس الذي كان يحدق بي بدوره، وفكرت في عدة إجابات عن سؤاله هذا كلها تبدأ وتنتهي بعبارة *تباً لك*، إلا أنني فكرت بأن أعامله بشيء من اللياقة، فقلت “حسناً يا سيدي، إنه مجرد حدس على أساس فهمي لشخصية أسد خليل؛ على أنه ليس من نوع الرجال الذي يكر ويفر، بل أعتقد أنه لا يذهب إلا بعد أن ينتهي تماماً.

تسألني كيف لي أن أعرف هذا. حسناً، كنت أفكر في أن رجلاً كهذا كان بوسعه أن يستمر في الإضرار بالمصالح الأميركية على المستوى العالمي، وأن يستطيع الإفلات بهذا لعدة سنوات. ولكنه بدلاً من ذلك، قرر أن يأتي إلى هنا، إلى أميركا، وأن يحدث المزيد من الضرر؟ فهل ترى في هذا النسق مهمة كر وفر؟”

قلت هذا ونظرت حولي إلى الوجوه المتسائلة، وأوضحت “مهمة الكر والفر هي تلك التي يضرب فيها المرء ضربته، ويخرج لسانه للجميع، ثم يهرب فوراً”.

ضحك البعض على هذا التعليق، ثم تابعت أنا حديثي “كلا، لم تكن مهمته من هذا النوع. إنها، إنها مهمة مصاصي الدماء”.

بدا الأمر وكأنني استقطبت بالفعل انتباه الجميع، فتابعت “كان بوسع الكونت دراكولا أن يشرب من دماء البشر في ترانسيلفانيا لثلاثمئة عام دون أن يفطن إليه أحد. ولكنه أراد أن يبحر إلى إنكلترا. أليس كذلك؟ ولكن لماذا؟ ليشرب من دماء الطاقم على السفينة؟ كلا، بل كان هناك شيء بعينه في إنكلترا يرغب به الكونت. ماذا كان هذا الشيء؟ لقد أراد طفلته؛ ذلك الذي رآه في صورة جوناثان باركر. أليس كذلك؟ ماذا كان اسمهما؟ على كل حال، لقد كان مغرماً بالطفلة، والطفلة في إنكلترا. أتفهمون ما أعني؟ الأمر كذلك مع أسد خليل؛ فهو لم يأتِ إلى هنا لقتل الجميع على متن تلك الطائرة أو الجميع في نادي الفاتحين، فهؤلاء ليسوا سوى فاتحي شهية؛ بعض الدماء ليشربها قبل طبق الوليمة الأساسي. وكل ما علينا معرفته هو من هي الطفلة - أو مسعى خليل الحقيقي - ومن ثم سنعثر عليه. أفهمتم ما أعني؟”

ساد الغرفة صمت طويل قبل أن يدير بعض ممن كانوا يحدقون بي رؤوسهم بعيداً عني، وفكرت أنه ربما عمد كوينج أو ستين إلى إعطائي إجازة مرضية أو شيئاً من هذا القبيل. أما كيت فكانت تنظر إلى مفكرتها.

وأخيراً قال لي المحترم إدوارد هاريس "شكراً لك سيد كوري؛ كان هذا تحليلاً شيقاً، أو مناظرة، أو أياً كان".

أضحك هذا البعض.

فقلت "لقد راهنت تيد ناش على عشرة دولارات أنني على صواب. أتريد المراهنة؟"

بدا هاريس وكأنه يريد أن يترك المكان ويرحل، لكنه كان نظيراً قوياً، فقال "بالقطع. فلنجعلها عشرين دولاراً".

"فليكن، أعطِ السيد كوينج عشرين دولاراً إذاً".

تردد هاريس للحظة ثم أخرج عشرين دولاراً من محفظته ومرّرها إلى كوينج الذي وضعها في محفظته بدوره، وفعلت أنا مثلما فعل هاريس.

بالقطع يمكن للاجتماعات التي تضم الوكالات والهيئات المختلفة أن تكون مملة جداً، لكن ليس وأنا بين الحاضرين. أعني أنني أمقت البيرقراطيين الذين لا طعم لهم ولا رائحة، ويحرصون على ألا يسقطوا من ذاكرتك بعد أقل من ساعة من انقضاء اجتماعك بهم. وبغض النظر عن هذا، أردت بالفعل أن يتذكر كل من كانوا بغرفة الاجتماعات تلك أننا كنا مجتمعين هناك على افتراض أن يكون أسد خليل ما زال في البلدة. فما إن شرعوا في تصديق أنه رحل حتى أصابهم الكسل والخمول، تاركين الأمر لهؤلاء المعنيين بالعمل الدولي. فأحياناً يتحتم عليك أن تتصرف بشيء من الغرابة حتى تتأكد من توصيل الفكرة إليهم. وأنا جيد في التصرف بغرابة.

والحقّ أن كوينج - والرجل ليس أحمق - قال "شكراً لك سيد كوري لتلك الحجة المقنعة، وأعتقد بالفعل أن النسبة هي خمسون بالمئة إلى خمسين. أعني أن يكون خليل داخل البلاد بالفعل أو خارجها".

رفعت كيت عينيها عن المفكرة وقالت "بل أظن أن السيد كوري محقّ". ثم نظرت نحوي وتلاقت أعيننا لنصف ثانية.

لو كنت قضيت تلك الليلة في فراشها، لعلت الحمرة وجهي الآن، كما أنه ليس بوسع أي من الموجودين في الغرفة الآن - وجميعهم مدربون على قراءة تعابير الوجه - أن يتتبع على وجهينا ولو لمحة طفيفة من تحالف شخصين بعد علاقتهما. حمداً لله. لقد اتخذت القرار الصحيح ليلة أمس. ولكن، هل كان حقاً قراراً صحيحاً؟

كسر النقيب ستين حاجز الصمت بأن قال موجهاً حديثه إلى إدوارد هاريس "هل هناك ما تود مشاركته معنا؟"

هزّ هاريس رأسه وقال "لقد تمّ اختياري مؤخراً لهذه القضية، ولم يتم إطلاعي على التفاصيل بعد. أي أن لديكم جميعاً معلومات أكثر مما لديّ".

وفكرنا جميعاً في الفكرة ذاتها على نحو متزامن ‘‘هراء’’. إلا أننا آثرنا الصمت.

ولكني وجدت هاريس يقول لي ‘‘تلك الطفلة كان اسمها مينا’’.

‘‘صحيح. كان على طرف لساني’’.

وبعد هذا أخذنا جميعاً نثرثر لعشر أو خمس عشرة دقيقة أخرى قبل أن ينظر كوينج إلى ساعته ويقول ‘‘وأخيراً وليس آخراً، فلنستمع إلى آلان’’.

فوقف العميل الخاص آلان باركر، وكان قصيراً نوعاً ما بالنسبة لسنه، ما لم يكن سنه الحقيقي هو الثالثة عشرة.

قال آلان ‘‘سأكون صريحاً للغاية معكم’’.

فَسَرت همهمة بين الجميع.

بدا آلان مرتبكاً بعض الشيء قبل أن يسيطر على ارتباكه ويبتسم، ثم تابع قائلاً ‘‘دعوني. حسناً، في البداية، هؤلاء في واشنطن الذين يرغبون في إدارة تدفق المعلومات -‘‘.

قاطعه النقيب ستين وقال ‘‘تحدث بالإنكليزية’’.

‘‘ماذا؟ أوه، حسناً. هؤلاء الذين يرغبون في التحكم في هذا -‘‘.

‘‘من هم؟’’ سأله ستين مطالباً بإجابة.

‘‘من؟ حسناً، بعض القائمين على الإدارة’’.

‘‘مثل من؟’’

‘‘لا أعرف. حقاً لا أعرف. لكنني أعتقد أنهم مجلس الأمن القومي وليس مكتب التحقيقات الفيدرالية’’.

فأوضح النقيب ستين، والذي كان على دراية بهذه الأشياء ‘‘إن مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية عضو بمجلس الأمن القومي يا آلان’’.

‘‘أحقاً؟ على كل حال، أياً كان هؤلاء، فقد قرروا أن الوقت قد حان لبدء كشف الأمر تماماً، ولكن تدريجياً على مرّ الساعات الاثنتين والسبعين القادمة؛ أي بنحو ثلث ما لدينا من معلومات لكل يوم لفترة ثلاثة أيام’’.

قال النقيب ستين متسائلاً، وهو يمتلك هذه النبرة الساخرة ‘‘أتعني أن يعلنوا عن الأسماء اليوم، والأفعال غداً، وما تبقى يوم الأربعاء؟’’

ابتسم آلان رغماً عنه وقال ‘‘كلا، ولكن لديّ ثلاث مجموعات من الأخبار لإطلاقها، ولسوف أعلن المجموعة الأولى للجميع اليوم’’.

قال ستين ‘‘بل نريد كل ما لديك في الدقائق العشر القادمة. استمر’’.

قال آلان ‘‘أرجو أن تتفهموا أنني لا أصنع الأخبار بنفسي، ولا أقرر أيًّا من الأخبار ينبغي الإعلان عنها وأيها لا. أنا أفعل فقط ما يُطلب مني فعله، فأنا محطة إطلاق الأخبار، ومن ثم أرجو ألا تعقدوا أي مقابلات أو مؤتمرات صحفية قبل

مراجعة مكتبي". ثم أضاف قائلاً "من الأهمية بمكان أن يظل الإعلام والجمهور على علم بما يحدث، ولكن الأكثر أهمية هو أن يعرفوا ما نريدهم نحن أن يعرفوه".

ولم يبدُ أن آلان قد فطن إلى أي تناقض في ما قاله لتوه، وهو أمر مفزع في حدّ ذاته.

على كل حال، كان آلان يثرثر حول أهمية الأخبار بوصفه سلاحاً آخر في ترسانة الأسلحة خاصتنا، وما إلى ذلك من هذا الحديث، وظننته سيقول شيئاً عن استخدامي أنا وكيت كطعم، أو نشر علاقة القائد بأم أسد خليل، إلا أن آلان لم يذكر أيًّا من هذا أو ذاك، وشرع يذكر - بدلاً من ذلك – قصصاً عن كيفيّة تسبب تسرب الأخبار في مقتل بعض الأشخاص، أو تحذير بعض المشتبه فيهم، أو إفساد عمليات برمتها، والتسبب في كافة أنواع المشكلات، بما في ذلك السمنة، ورائحة الفم الكريهة، وحتى العجز!!

ثم أنهى آلان حديثه بأن قال "صحيح أنه للعامة الحق في أن يعرفوا، ولكن هذا لا يعني أنه من واجبنا إخبارهم بكل شيء". ثم جلس.

لم يبدُ أن أحداً قد فهم ما كان آلان يقوله، ومن ثم لتوضيح الأمر، قال جاك كوينج "لا يجب أن يتحدث أحدكم إلى الصحافة". إلا أنه أضاف "سينعقد هذا المساء مؤتمر صحفي من قِبل مديرية شرطة نيويورك ومكتب التحقيقات الفيدرالية، على أن يتبعه مؤتمر صحفي آخر يضم حاكم نيويورك، ومحافظ مدينة نيويورك، ومفوض مديرية شرطة نيويورك، وآخرين، حيث سيعلن أحدهم في وقت ما، وبطريقة ما، أسماء العديد من الناس الذين يعرفون بالفعل - أو يشتبهون - أن الرحلة 175 كانت بالفعل هدفاً لهجمة إرهابية دولية. كما سيظهر الرئيس وأعضاء في مجلس الأمن القومي على شاشة التلفاز حيث سيعلنون الأمر نفسه. بالطبع سيتسبب الأمر في إثارة إعلامية لبضعة أيام، وسيتلقى ممثلو هيئاتكم العديد من المكالمات الهاتفية، فيرجى إحالتها جميعها إلى آلان، الذي يتلقى راتبه ليتحدث إلى الصحافة".

ثم شرع كوينج يذكِّر الجميع بأن هناك مليون دولار مكافأة لمن يقدم معلومات تقود إلى القبض على أسد خليل، بالإضافة إلى الأموال الفيدرالية المتاحة لشراء المعلومات. أخذنا نربط بعض الخيوط معاً، فيما قال جاك كوينج منهياً حديثه "أنا أدرك أن التعاون بين الهيئات المختلفة يشكل تحدياً صعباً، ولكن في حال كنا نبحث عن فرصة للجميع كي يجتمعوا ويعملوا معاً، ويتشاركوا المعلومات، ويظهروا النوايا الحسنة، فهذه هي الفرصة. وأؤكد لكم أنه ما إن نقبض على هذا الرجل فستكون هناك مكافأة سخية للجميع".

فسمعت روبرت موودي - رئيس التحريين بمديرية شرطة نيويورك - يقول شيئاً مثل "هناك دائماً المرة الأولى في كل شيء".

وقف النقيب ديفيد ستين وقال "وبالطبع نحن لا نريد أن نكتشف في ما بعد أنه كان لدينا طريق إلى هذا الرجل وفقدناه في أروقة البيروقراطية، مثلما حدث في تفجير مركز التجارة. تذكروا أن وحدة مكافحة الإرهاب هي المصدر الرسمي للمعلومات، وتذكروا أن كافة وحدات تنفيذ القانون في هذه البلدة، وكندا، والمكسيك

لديها كافة التفاصيل حول هذا الرجل، وسوف يتم إرسال كافة المعلومات إلى هنا. بالإضافة إلى هذا، بعد نشر صورة أسد خليل على التلفاز الآن، يمكننا الاعتماد على بضعة ملايين من المواطنين ممن يقومون بالمراقبة معنا. فإذا كان الرجل لم يزل في هذه القارة، فربما يحالفنا الحظ".

في تلك الأثناء، خطر على بالي رئيس الشرطة كورن بون في هوميني جريتز، بولاية جورجيا. وتخيلت أن تأتيني مكاملة مباشرة منه يقول فيها "صباح الخير يا جون. سمعت أنك من بين المسؤولين عن البحث عن هذا العربي المدعو خليل لا أعرف ماذا؟ حسناً يا جون، إن الرجل محتجز لدينا هنا وسوف نتحفظ عليه حتى تأتي لتأخذه. ولكن يجدر بك أن تسرع، فالرجل ممتنع عن الطعام ويكاد يلقى حتفه في ذلك".

وهنا قال النقيب ستين موجهاً حديثه لي "هل هناك ما يضحك أيها التحري؟"

"كلا يا سيدي، فقط شرد تفكيري إلى شيء ما".

"حقاً؟ أخبرنا إذاً إلام شرد عقلك؟"

"حسناً".

"كلنا آذان صاغية سيد كوري".

ولكن بدلاً من مشاركة فكرتي الغبية عن رئيس الشرطة كورن بون، والتي قد تبدو مضحكة لي أنا فقط، استحضرت سريعاً مزحة مناسبة لهذا الاجتماع، فقلت "حسناً، أراد المدعي العام أن يعرف أفضل جهات تنفيذ القانون: مكتب التحقيقات الفيدرالية، أو وكالة المخابرات المركزية، أو مديرية شرطة نيويورك، حسناً؟ فاستدعى مجموعة من كل من تلك الهيئات ليقابلها خارج العاصمة وأطلق أرنباً في الغابات، ثم قال لرجال مكتب التحقيقات الفيدرالية، اذهبوا وأحضروا هذا الأرنب". قلت هذا ثم نظرت إلى المستمعين وكانت ملامحهم تحمل تعبيراً حيادياً جداً، ما عدا مايك أوليري الذي كان يبتسم على نحو مسبق. ثم تابعت "ذهب رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية وراء الأرنب وعادوا بعد ساعتين بدون الأرنب، لكنهم بالطبع دعوا إلى عقد مؤتمر صحفي قالوا فيه: لقد قمنا باختبار معملي لكل غصن وورقة نبات في الغابة، واستجوبنا مئتين من الشهود، وانتهينا إلى أن ذاك الأرنب لم يقم بخرق أي قوانين فيدرالية، ومن ثم أطلقنا سراحه. فقال المدعي العام: هراء، ما حدث هو أنكم لم تعثروا على الأرنب على الإطلاق. ثم انطلق رجال وكالة المخابرات المركزية". وهنا ألقيت نظرة على السيد هاريس "ثم عادوا بعد ساعة ولم يعثروا على الأرنب كذلك، إلا أنهم قالوا: لقد أخطأ الفيدراليون. لقد عثرنا على الأرنب واعترف بالمؤامرة. ولقد استجوبناه واستغليناه للعمل لصالحنا، وهو الآن عميل مزدوج. فقال المدعي العام: هراء، إنكم لم تعثروا على الأرنب كذلك. ثم حان دور رجال مديرية شرطة نيويورك الذين ذهبوا إلى الغابة وعادوا بعد خمس عشرة دقيقة ممسكين بذاك الدب الذي كان يرتجف في أيديهم وقد أوسعوه ضرباً، وكان يلوّح بذراعيه في الهواء ويصرخ: حسناً، حسناً! أنا الأرنب، أنا الأرنب!"

أطلق كل من أوليري، وهيثم، وموودي، وويدرزينسكي ضحكة عالية، فيما حاول النقيب ستين جاهداً ألا يبتسم، بينما لم يبتسم جاك كوينج بالفعل، وبالتالي لم يبتسم آلان باركر، ولم يبدُ أن المزحة قد أعجبت السيد هاريس بالأساس.

أما كيت، حسناً، أظن أنها قد اعتادت عليّ على كل حال.

ثم قال النقيب ستين "شكراً لك سيد كوري، وأعتذر لأنني سألتك في البداية عمّا كنت تفكر فيه".

ثم أنهى ديفيد ستين الاجتماع ببضع كلمات تحفيزية "إذا ما أتى هذا السافل بضربة أخرى في نيويورك، سيتعين على معظمنا التقدم باستقالتهم. انتهى الاجتماع".

الفصل السابع والثلاثون

في السادسة من صباح يوم الاثنين رفع أسد خليل سماعة الهاتف الذي كان يرن في غرفته، فجاءه صوت يقول "صباح الخير"، وعندما همّ خليل بردّ التحية تابع المتحدث عند الجهة الأخرى حديثه بدون توقف، فأدرك خليل أنها رسالة مسجلة، فقال الصوت "هذه مكالمة إيقاظ السادسة صباحاً. درجة الحرارة اليوم ستصل إلى السبعينات. السماء صافية، مع فرصة انتشار السحب في وقت متأخر من اليوم. نتمنى لك يوماً سعيداً، وشكراً لاختيارك الإقامة في شيراتون".

وضع خليل سماعة الهاتف والكلمات ترن في أذنه. ثم نهض من السرير، وحمل مسدسيه متجهاً إلى الحمام، حيث حلق ذقنه، ونظف أسنانه، واستخدم الحمام، واستحم، ثم أضاف اللمسة الرمادية إلى شعره ومشطه محدثاً ذاك الفرق باستخدام مجفف الشعر المعلق على جدار الحمام.

فكّر أن هناك تشابهاً بين أوروبا وأميركا من حيث الرفاهية، ففي أميركا كما في أوروبا يوجد الكثير من الرسائل الصوتية المسجلة، والمفارش الناعمة، والماء الساخن بمجرد برم الصنبور، وغرفة خالية من الحشرات والقوارض. حضارة كهذه لا يمكن أن تنتج جنود مشاة جيّدين، ولهذا أعاد الأميركيون مفهوم الحروب؛ حروب الضغط على الأزرار، والقنابل والصواريخ التي يتم توجيهها بالليزر. حروب تتسم بالجبن، تماماً كما فعلوا في زياراتهم تلك لبلده.

أما الرجل المفترض أن يقابله اليوم، بول غراي، فكان ممارساً قديماً لذلك النوع من القصف الجبان للقنابل، وهو الآن خبير في لعبة القتل عن بعد هذه، ولقد أصبح تاجراً ثرياً من تجار الموت. وسرعان ما سيكون تاجراً ميتاً من تجار الموت.

عاد خليل إلى غرفة النوم، ووجّه وجهه نحو مكة، وصلّى صلاة الفجر. وعندما أتمها، شرع يدعو قائلاً "اللهم هبني حياة بول غراي في يومي هذا، وحياة ويليام سادزرويت غداً. اللهم هوّن عليّ رحلتي هذه، وكلل جهادي بالفلاح".

ثم نهض وارتدى ملابسه المؤلّفة من سترة واقية من الرصاص، وقميص نظيف، وملابس داخلية، وبذلة رمادية.

فتح خليل دليل هواتف جاكسونفيل على القسم الذي نصحوه بأن يبحث فيه؛ تأجير الطائرات وخدمات التأجير، وقام بنسخ العديد من أرقام الهواتف على ورقة انتزعها من مفكرة بجوار الهاتف، ووضعها في جيبه.

ثم وجد مغلفاً أسفل باب غرفته يحتوي على فاتورة إقامته لتلك الليلة، ووريقة تخطره أن جريدته موضوعة خارج باب غرفته. وبالفعل عندما نظر عبر ثقب الباب، كانت الجريدة هناك، فأخذها، وأغلق الباب بإحكام مرة أخرى.

وقف خليل بجوار المصباح الموضوع فوق المنضدة، ونظر إلى الصفحة الأولى حيث وجد صورتين

فوتوغرافيتين ملونتين له تحدقان فيه؛ لقطة لكامل وجهه، والأخرى صورة جانبية لوجهه، وقد كُتب بالأسفل منهما *مطلوب القبض عليه - أسد خليل – هو في حوالى الثلاثين من عمره، يبلغ طوله ستة أقدام. يتحدث الإنكليزية، والعربية، وبعض الفرنسية، والإيطالية، والألمانية. مسلّح وخطير.*

أخذ خليل الجريدة إلى الحمام، ورفعها إلى اليسار من وجهه في مواجهة المرآة، ثم وجّه نظارته الثنائية وأخذ ينقل عينيه بين انعكاس صورته في المرآه وتلك البادية في الجريدة، ثم أدار وجهه قليلاً إلى أحد الجانبين حتى يرى في مرآة الحائط المنحنية كيف يبدو وجهه من الجانب.

وضع الصحيفة جانباً، وأغلق عينيه، وأخذ يتخيل صورته الآن وتلك الصور في الصحيفة، وبدا له أن الشيء الوحيد المشترك بينها هو أنفه الرفيع المعقوف بفتحتيه الواسعتين، ولقد ذكر ذلك لبوريس ذات مرة.

عندها أجابه بوريس "هناك العديد من الخصائص العرقية في أميركا. فهناك أميركيون في بعض المناطق الحضرية بوسعهم التمييز بين الفيتنامي والكمبودي على سبيل المثال، أو بين الفيليبيني والمكسيكي. ولكن عندما يكون الشخص من منطقة حوض البحر المتوسط، فحتى الأشخاص الأكثر فطنة يجدون صعوبة في تمييز موطنه. فيمكن أن تكون إسرائيلياً، أو مصرياً، أو صقلياً، أو يونانياً، أو سيردينياً، أو إسبانياً، أو ليبياً". قال بوريس، وشرع يضحك على مزحته تلك حيث كان متأثراً بالشراب في ذلك اليوم، ثم أضاف "إن البحر الأبيض المتوسط هو حلقة الوصل بين العالم القديم؛ فهو لم يفصل الشعوب كما يفعل اليوم، ولقد كان هناك الكثير من البذاءة قبل قدوم الديانات السماوية".

تذكر خليل حديث بوريس هذا جيداً، وكيف أنه كان على وشك أن يقتله في تلك اللحظة بعينها لولا أن مالك كان حاضراً؛ كان مالك يقف خلف بوريس، فهز رأسه وهو يشير بعلامة الذبح عبر عنقه.

في مرة أخرى، قال بوريس لأسد "فلتتجنب الشمس لمدة شهر قبل سفرك إلى أميركا، واغسل وجهك ويديك بالصابون المبيّض الذي سيعطونك إياه. فكلما كانت بشرتك أفتح لوناً في أميركا، كلما كان هذا أفضل. كما أن تلك الندبات في وجهك تزداد وضوحاً مع سمرة بشرتك".

ثم سأله بوريس "من أين أتتك تلك الندبات؟"

فأجابه خليل بصدق "من امرأة".

ضحك بوريس، وصفع خليلاً على ظهره وقال "حسناً يا صديقي المتدين، لقد اقتربت من امرأة ما إذاً بما يكفي لكي تخدش وجهك. هل عاشرتها؟"

في لحظة نادرة من الصدق، ربما لأن مالك لم يكن هناك، أجابه خليل "نعم، لقد فعلت".

"وهل خدشت وجهك قبل ذلك أم بعده؟"

"بعده".

انهار بوريس فوق المقعد وهو يضحك بقوة حتى أنه بالكاد كان يستطيع التحدث "عادة لا يخدشن وجهك بعد معاشرتك لهن. انظر إلى وجهي. لا بأس، جرِّب مرة أخرى، فربما تسير الأمور على نحو أفضل".

كان بوريس لا يزال يضحك عندما اقترب منه خليل وقرّب فمه من أذنه وقال "بعد أن خدشت وجهي، خنقتها حتى الموت بيديّ العاريتين".

فتوقف بوريس عن الضحك، ونظر إلى عيني خليل، قائلاً "لا أشك بأنك فعلت ذلك".

فتح خليل عينيه، ونظر إلى نفسه في مرآة الحمام في فندق شيراتون موتور إن، لم تكن الندبات التي أحدثتها بهيرة في وجهه بهذا الوضوح، وربما لم يكن أنفه المعقوف علامة مميزة الآن بعد وضعه للشارب والنظارة. على أي حال، لم يكن لديه خيار سوى المضي قدماً، وأن يثق في أن الله سيغشي أبصار أعدائه، وأن أعداءه هؤلاء سيعمون أنفسهم بغبائهم، وبعجز الأميركيين عن التركيز على أي شيء لأكثر من بضع ثوانٍ.

أخذ خليل الصحيفة إلى المنضدة مرة أخرى، وراح يقرأ القصة الموجودة على الصفحة الأولى وهو لا يزال واقفاً على قدميه.

كان يتقن الإنكليزية على نحو جيد، لكنّ قدرته على قراءة هذه اللغة الصعبة كانت ضعيفة؛ فالحروف اللاتينية تربكه، وبدت له تهجئة الكلمات غير منطقية، حيث لم يكن يعرف كيف يقرأ الحروف المجمعة مثل ght وough، كما أن لغة الصحافة بدت مختلفة تماماً عن اللغة التي يتحدث بها الناس.

إلا أنه حاول جاهداً قراءة القصة، واستطاع فهم أن الحكومة الأميركية صرحت بأن هجوماً إرهابياً قد وقع. ثم ذكرت الصحيفة بعض التفاصيل، إلاّ أنها - من وجهة نظر خليل - لم تكن تفاصيل شيقة، كما أنهم أغفلوا أكثر الحقائق إحراجاً.

لقد أفردت الصحيفة صفحة كاملة ذكرت فيها أسماء الثلاثمئة وسبعة مسافرين الذين لقوا حتفهم، وقائمة منفصلة لأفراد الطاقم، ولم يكن من بين الأسماء مسافر يُدعى يوسف حدّاد. وقد ذُكرت أسماء هؤلاء الذين قتلهم على نحو فردي تحت عنوان قتلوا أثناء تأدية واجبهم.

ثم لاحظ خليل أن مرافقيه اللذين كان يعرفهما باسم فيليب وبيتر، هما في الحقيقة هاندري وجورمان، وكانا مذكورين في تلك القائمة الأخيرة، بالإضافة إلى رجل

وامرأة أشير إليهما بوصفهما مسؤولين فيدراليين، ولم يكن خليل يعرف بوجودهما على الطائرة.

فكر خليل للحظة في مرافقيه، لقد كانا مهذبين للغاية معه، بل ومراعين لشعوره إلى أقصى حدّ، ولقد بذلا الجهد ليتأكدا من أنه يشعر بالراحة ويحصل على كل ما يحتاج إليه، حتى أنهما اعتذرا له بشأن الأصفاد، وعرضا عليه أن يخلعا عنه السترة الواقية من الرصاص أثناء وجودهم بالطائرة، ولكنه رفض اقتراحهما هذا.

إلا أنه بالرغم من لطفهما هذا، استشعر خليل درجة من الترفع من جهة هاندري، الذي قدّم نفسه بوصفه عميلاً فيدرالياً في قسم التحقيقات. في الحقيقة، لم يكن هاندري مترفعاً وحسب، بل وبدا أحياناً محتقراً له، وأظهر عداءً مرة أو مرتين.

أما المرافق الآخر، جورمان، فلم يقدم له نفسه سوى باسمه فحسب، والذي ذكر أنه بيتر، بيد أن خليلاً لم يساوره شك في أن هذا الرجل كان عميلاً لدى وكالة الاستخبارات المركزية. والحق أن جورمان لم يُظهر أي عداء، بل وبدا كأنه يعامل أسد خليل كنظير؛ ربما كضابط استخبارات زميل له.

ولقد تناوب هاندري وجورمان على الجلوس في المقعد بجوار سجينهم، أو اللاجئ الذي يصحبانه كما كانا يشيران إليه. وعندما جلس بيتر جورمان بجواره انتهز خليل الفرصة ليحكي له عن أنشطته في أوروبا. وبالرغم من أن جورمان بدا في البداية مرتاباً وغير مصدق، إلا أنه انتهى معجباً بما سمعه، وقال لأسد خليل "إما أنك كاذب جيد، أو قاتل ممتاز. وسنعرف ذلك عمّا قريب".

فأجابه خليل "أنا كلا الأمرين، ولن تعرف أبداً أيهما الكذب وأيهما الحقيقة".

"لا تكن متأكداً هكذا".

ثم تشاور العميلان في هدوء لبضع دقائق، ثم جلس هاندري بجواره، وأخذ يحاول دفع خليل ليخبره بما أخبر به جورمان، ولكنّ خليلاً لم يتحدث معه سوى عن دينه، وعن ثقافته، وعن بلده.

ابتسم خليل وهو يتذكر تلك اللعبة الصغيرة التي تسلّى بها أثناء تلك الرحلة، حتى إن العميلين نفسيهما قد وجدا الأمر مسلياً مع الوقت، وتحول الأمر إلى مزحة، ولكن من المؤكد أنه اتضح لهما أنه لا يجدر بهما التعامل معه بترفّع.

أخيراً، ما إن دخل يوسف حداد إلى الحمام، وكانت تلك هي العلامة المتفق عليها مع خليل كي يستأذن لاستخدام الحمام، حتى قال لجورمان "لقد قتلت العقيد هامبريشت في إنكلترا كجزء أول في مهمتي".

"أي مهمة؟"

"مهمتي هي قتل الطيارين السبعة الأحياء الذين اشتركوا في الهجمة الجوية على بلدي عام 1986. لقد قُتل كل أفراد أسرتي في تلك الهجمة".

ظل جورمان صامتاً للحظة طويلة، ثم قال "أنا آسف بشأن أسرتك، ولكنني أظن أن أسماء هؤلاء السبعة مصنفة كسري للغاية".

“هي كذلك بالطبع، لكن حتى الأسرار العليا يمكن الوصول إليها؛ ربما يتطلب الأمر بعض المال فحسب”.

حتى في هذه اللحظة لم يقل جورمان شيئاً من شأنه أن يزعج خليلاً أو يضايقه، لكنه قال “لدي سر لك يا سيد خليل، وهو يخص أمك وأباك، وبعض الشؤون الخاصة الأخرى”.

لقد استدرج هذا خليلاً بالرغم من حذره، فسأله “ماذا لديك؟”

“ستعرف في نيويورك، بعد أن تخبرنا بما نريد معرفته منك”.

خرج يوسف حداد من الحمام، ولم تكن هناك فرصة لإضاعة دقيقة أخرى في بحث هذا الأمر، لذا طلب أن يذهب إلى الحمام. وبعد بضع دقائق كان بيتر جورمان يأخذ سره وسر خليل معه إلى القبر.

نظر أسد خليل إلى الصحيفة مرة أخرى، إلا أنه لم يجد فيها ما يثير الانتباه سوى مكافأة المليون دولار، والتي لم يعتبرها مبلغاً كبيراً مقارنةً بكل هؤلاء الذين قتلهم. بل بدا له الأمر كإهانة لكل عائلات الموتى، ناهيك عن الإهانة الشخصية بالنسبة له.

ألقى خليل الصحيفة في سلة المهملات، وشرع يجمع أغراضه داخل الحقيبة، ثم نظر من ثقب الباب مرة أخرى قبل أن يفتح الباب ويتّجه مباشرة نحو سيارته.

دخلها، وشغّل محركها، وسار بها خارج ساحة الانتظار الخاصة بفندق شيراتون موتور إن، ثم إلى الطريق السريع مرة أخرى.

كانت الساعة السابعة والنصف صباحاً، والسماء الصافية، وكان هناك عدد قليل من السيارات على الطريق.

قاد خليل سيارته إلى مجموعة المتاجر، والتي يطغى عليها سوبر ماركت ضخم يطلق عليه اسم وين-ديكسي. كانوا قد أخبروه في بلده أنه عادة يستطيع أن يجد الهواتف التي تعمل بالعملات في محطات الوقود أو بالقرب من المتاجر، وأحياناً في مكاتب البريد، كما هو الحال في بلده وأوروبا. ولكنّ مكاتب البريد كانت من ضمن الأماكن التي يرغب في تجنبها. ما لبث خليل أن وجد صفاً من الهواتف مثبتة على جدار السوبر ماركت بالقرب من المدخل، فأوقف سيارته بالقرب من أحد الهواتف الخالية. وجد خليل بعض العملات في حقيبة سفره، فأخذ واحدة منها، ووضع أحد المسدسين في جيبه، وخرج من السيارة، واتجه إلى أحد الهواتف.

نظر خليل إلى الأرقام التي كان قد دونها من الدليل، وشرع يطلب أولها.

أجابته امرأة في الناحية الأخرى، وقالت “خدمات ألفا للملاحة”.

“أرغب في استئجار طائرة وطيار إلى دايتون بيتش”.

“حسناً يا سيدي، ومتى ترغب في الذهاب؟”

“لديّ موعد هناك عند الساعة التاسعة والنصف صباحاً”.

"أين أنت الآن؟"

"أنا أتحدث من مطار جاكسونفيل".

"حسناً، عليك أن تأتي إلينا في أسرع وقت. ستجدنا في مطار كريغ. أتعرف كيف تصل إليه؟"

"كلا، ولكنني سأستقل سيارة أجرة".

"حسناً، كم مسافراً معك يا سيدي؟"

"أنا فقط".

"حسناً، وهل ستكون رحلة ذهاب وإياب؟"

"نعم، ولكنّ فترة الانتظار ستكون قصيرة".

"حسناً، لا أستطيع أن أعطيك سعراً محدداً، إلا أن رحلة الذهاب والإياب تلك ستكلفك نحو ثلاثمئة دولار بالإضافة إلى مقابل ثمن الانتظار، ثم ستتمّ إضافة أجرة إيقاف الطائرة في ساحة الانتظار المخصصة".

"لا بأس".

"ما اسمك يا سيدي؟"

قال خليل "ديميتريوس بولس". ثم هجّى لها الاسم.

"حسناً سيد بولس، عندما تصل إلى مطار كريغ، أخبر سائق سيارة الأجرة أن يتّجه إلى آخر صف الحظائر إلى الجانب الشمالي من الساحة. واضح؟ ستجد لافتة كبيرة كُتب عليها *خدمات ألفا للملاحة*. بوسعك أن تسأل أي شخص ليرشدك إلى المكان".

"شكراً لكِ. طاب يومك".

"وأنت أيضاً".

ثم أنهى خليل المكالمة.

كانوا قد أكدوا له في بلده أن استئجار طائرة مع طيّارها في أميركا أسهل من استئجار سيارة. فعندما تشرع في استئجار سيارة، يتطلب الأمر بطاقة ائتمان، ورخصة قيادة، ويجب أن تكون في سن معينة. أما استئجار طائرة مع طيّارها، فشبيه باستئجارك سيارة أجرة. قال له بوريس "ما يطلق عليه الأميركيون اسم ملاحة عامة - الطيران الخاص - لا يخضع للمراقبة الحكومية المشددة كما هو الحال في بلدك أو في بلدي. فلا تحتاج إلى إثبات شخصية. لقد فعلت ذلك بنفسي عدة مرات. وهي فرصة جيدة لاستخدام النقود بدلاً من بطاقة الائتمان، حيث

يتجنبون هم الضرائب عندما تدفع لهم نقداً، فسجلاتهم بشأن المدفوعات النقدية ليست دقيقة تماماً".

أومأ خليل لنفسه، فها هي رحلته تصبح أقل صعوبة. ثم وضع عملة أخرى في الهاتف، وطلب رقماً كان يتذكره، فجاءه صوت يقول "برامج غراي المحاكية. يحدثك بول غراي".

أخذ خليل نفساً طويلاً قبل أن يقول "سيد غراي، إليك العقيد إيزاك هيوروك من السفارة الإسرائيلية".

"أوه، نعم، كنت أنتظر مكالمتك".

"هل تحدث إليك شخص ما من واشنطن؟"

"نعم، بالطبع، أخبروني أن الموعد في التاسعة والنصف. أين أنت الآن؟"

"جاكسونفيل، لقد هبطت بالطائرة لتوي".

"أوه، حسناً، سيتسغرق منك الأمر نحو ساعتين ونصف كي تصل إلى هنا".

"لدي طائرة خاصة في انتظاري في مطار كريغ المحلي، وحسب علمي أنت تعيش في أحد المطارات".

ضحك بول غراي وقال "يمكنك قول هذا، فالمكان أشبه بمعرض للطائرات؛ سبروس كريغ، خارج دايتون بيتش. اسمع أيها العقيد، لديّ فكرة. لماذا لا أطير أنا إلى مطار كريغ، وأصطحبك بسيارتي الخاصة؟ قابلني في ساحة الانتظار. فالرحلة تستغرق أقل من ساعة، حيث بوسعي أن أكون على متن طائرتي في غضون عشر دقائق من الآن، ثم أعيدك إلى مطار جاكسونفيل الدولي في موعد طائرة العودة إلى واشنطن. ما رأيك؟"

لم يتوقع خليل هذا، وكان عليه أن يفكر بسرعة، ثم قال "لقد استأجرت بالفعل سيارة لتأخذني إلى مطار كريغ، ولقد أعدت سفارتي أمر الطائرة. وعلى أي حال، لدي تعليمات ألا أقبل أي مجاملات. أرجو أن تفهمني".

"بالتأكيد، أفهمك. ولكن عليك أن تقبل الشراب البارد الذي سأقدمه لك هنا".

"فلنقل، إنني أتطلع إلى ذلك".

"حسناً إذاً. تأكد من أن السائق لديه المعلومات الصحيحة ليهبط بك في سبروس كريغ. وفي حال واجهت أي مشكلات، اتصل بي هنا قبل إقلاعك".

"سأفعل بالتأكيد".

"عندما تهبط بالطائرة، اتصل بي من محطة الوقود والصيانة الموجودة في المطار، وسآتي لاصطحابك في سيارتي الجولف. اتفقنا؟"

"شكراً لك، وكما أخبرك زميلي، هناك بعض التحفظ في زيارتي".

"هه؟ أوه، نعم. لا بأس، فأنا بمفردي".

"جيد".

قال بول غراي "لديّ الكثير لأعرضه عليك".

أنا أيضاً لديّ الكثير أيها النقيب غراي. "وأنا أتطلع إلى رؤية ما لديك".

أنهى خليل المكالمة، ودخل سيارته الميركوري حيث ضبط الملاّح الآلي كي يوجّهه إلى مطار كريغ، واتّجه إلى الطريق السريع، وتوجّه شرقاً من الجانب الشمالي لجاكسونفيل متبعاً تعلميات الملاّح الآلي، وفي غضون عشرين دقيقة كان قد اقترب من مدخل المطار.

كما أخبروه في بلده، لم يكن هناك حرّاس عند البوابة، فتقدم بسيارته مباشرة متبعاً الطريق الذي يقود إلى البنايات حول برج المراقبة.

كانت الشمس ساطعة هناك فذكرته بشمس بلاده المشرقة، وكانت الأرض مسطحة وبلا ملامح مميزة باستثناء بعض أشجار الصنوبر. أما البنايات فمعظمها كانت مؤلفة من الحظائر، بالإضافة إلى بناية صغيرة موجودة عند الجانب ووكالة لاستئجار السيارات. انزعج خليل عندما لمح لافتة كُتب عليها قائد حرس فلوريدا الوطني الجوي حيث بدا له الأمر عسكرياً. كما أنه لم يكن يعرف أن الولايات المنفردة لديها قواتها العسكرية الخاصة. ثم فكر أنه ربما أخطأ تفسير ما قرأه، فلقد أخبره بوريس من قبل "في أميركا، عادة ما يصعب تفسير المعنى الحقيقي للافتات، حتى من قِبل الأميركيين أنفسهم. فلا تفزع إذا أخطأت في فهم إحدى اللافتات، ولا تحاول الهرب، ولا تحاول قتل أي شخص. فقط اعتذر، وأوضح لهم أن اللافتة ليست واضحة، أو أنك لم ترَها. حتى الشرطة ستقبل مثل هذا العذر. فاللافتات الوحيدة التي يراها ويفهمها الأميركيون هي تلك التي تقول تخفيضات، مجاناً، أو أي *لافتات جنسية*. لقد رأيت ذات مرة لافتة على أحد طرقات أريزونا كانت تذكر "جنس مجاني. السرعة القانونية أربعين ميلاً في الساعة... أتفهم معنى هذا؟"

وبما أن خليلاً لم يكن قد فهم، لذا اضطر بوريس أن يشرح له.

على أي حال، تجنّب خليل المنطقة التي تتبع تلك اللافتة التي بدت له عسكرية، وسرعان ما رأى اللافتة الضخمة لشركة خدمات ألفا الملاحية. كما لاحظ وجود العديد من لوحات الترخيص متعددة الألوان في ساحة الانتظار بالقرب من مكتب تأجير السيارات، ومن ثم لم تكن لوحة نيويورك الخاصة بسيارته مميزة على نحو خاص.

اندفع خليل بسيارته إلى المكان الشاغر، وكان يبعد قليلاً عن المكان الذي يقصده، ثم أخذ حقيبة سفره وبها المسدس الآخر والطلقات الاحتياطية، ثم خرج من السيارة وأغلقها، وشرع يسير نحو شركة ألفا للملاحة.

كان الجو شديد الرطوبة، والشمس ساطعة، وأدرك أن بوسعه وضع نظارته الشمسية كما يفعل الجميع. ولكنه تذكر كيف أخبروه في بلاده أن الأميركيين يعتبرون ذلك إساءة لهم إذا تحدث إليهم شخص ما وهو يضع نظارة شمسية. إلا أن رجال الشرطة الجنوبية يضعون نظارات شمسية وهم يتحدثون إلى الآخرين - وفقاً لبوريس بالطبع - وهم يفعلون ذلك عن عمد؛ ليس بقصد الوقاحة ولكن بقصد تأكيد سلطتهم وقوتهم. وعندما سأل خليل بوريس عن هذا الأمر، اعترف بوريس أنه لا يفهم المغزى من هذه الفروق الغريبة.

نظر خليل من حوله في أرجاء المطار، وهو يغطي عينيه بيده. كانت معظم الطائرات التي رآها صغيرة الحجم، بمحرك واحد أو بمحركين، وكان هناك عدد لا بأس به من الطائرات النفاثة متوسطة الحجم، وكلها تحمل أسماء بدت كأسماء الشركات.

كانت إحدى الطائرات الصغيرة تقلع ببطء من مدرج بعيد، فيما كانت بضع طائرات تُقبل ببطء نحو المدارج، ولقد أحدث هذا كله الكثير من ضوضاء المحركات من حوله، بالإضافة إلى رائحة الوقود العالقة في الجو.

مشى خليل نحو الباب الزجاجي لمكتب شركة ألفا للملاحة، ثم فتحه ودلف إلى الداخل، فصدمه الهواء البارد المندفع من الداخل بحيث توقف عن التنفّس لثوانٍ.

لدى دخول خليل إلى المكتب، وقفت امرأة في مقتبل العمر خلف منضدة الاستقبال وقالت "صباح الخير. هل هناك أي خدمة يمكنني أن أسديها لك؟"

"نعم، اسمي ديميتريويس بولس، ولقد اتصلت...".

"نعم يا سيدي. أنا من تحدثت إليك. كيف تريد أن تدفع مقابل الرحلة؟"

"نقداً".

"حسناً، فلتدفع خمسمئة دولار الآن، وسنسوي بقية الحساب عند عودتك".

قال خليل "لا بأس". وعدّ لها الخمسمئة دولار، فيما ناولته السيدة إيصالاً بالقيمة ذاتها، وقالت "تفضل بالجلوس يا سيدي. سأتصل بالطيار".

جلس خليل في منطقة الاستقبال داخل ذلك المكتب الصغير، وعلى الرغم من الهدوء داخل المكتب إلا أن الجو كان بارداً جداً.

كانت السيدة تتحدث عبر الهاتف، ولاحظ خليل وجود جريدتين فوق المنضدة المنخفضة أمامه. كانت إحداهما جريدة فلوريدا تايمز يونيون، والتي كان قد قرأها في الفندق، والأخرى كانت جريدة يو أس أيه توداي، حيث تصدرت صورتاه الصفحة الأولى. التقط خليل الجريدة الثانية، وقرأ المقالة الموجودة فيها، وهو ينظر من فوق الجريدة نحو المرأة، وكان يرى رأسها من فوق حاجز منضدة الاستقبال. كان خليل على أتم الاستعداد لقتلها هي والطيار، أو أي شخص آخر يلمح في عينيه ولو تلميح بأنه قد تعرف عليه.

أما المقالة في جريدة يو أس أيه توداي فكانت أقل وضوحاً من نظيرتها في الجريدة الأولى، بالرغم أن الكلمات فيها كانت أبسط. وكانت تضم خريطة ملونة توضح مسار رحلة ترانس - كونتيننتل 175 من باريس إلى نيويورك، وتساءل خليل ما أهمية هذه الخريطة.

مضت بضع دقائق، فُتح بعدها باب جانبي، ودخلت إلى المكتب امرأة نحيفة في منتصف العشرينيات. كانت ترتدي سروالاً فضفاضاً كاكي اللون، وسترة، وكانت تضع نظارة شمسية. كان شعرها الأشقر قصيراً. في البدء ظنّها خليل ذكراً، ثم أدرك أنه كان مخطئاً. بل ولاحظ خليل أنها جذابة بعض الشيء.

سارت تلك المرأة نحوه وقالت متسائلة ''السيد بولس؟''

''نعم''. أجابها خليل، وهو يقف ويطوي الجريدة بحيث لا تصبح صورته ظاهرة، ثم وضعها فوق الجريدة الأخرى.

أزاحت المرأة نظارتها الشمسية وتلاقت أعينهما، ثم ابتسمت، فأنقذت بذلك حياتها وحياة المرأة الأخرى خلف منضدة الاستقبال، ثم قالت ''أهلا بك. أنا ستاسي مول، وسأقود طائرتك اليوم''.

صمت خليل للحظة، ثم أطرق، ولاحظ أن المرأة كانت تمد له يدها لتصافحه، فمد لها يده وصافحها، وهو يأمل ألا تلاحظ الاحمرار الذي علا وجهه.

ثم تركت يده وقالت ''ألديك أي أمتعة أخرى سوى هذه؟''

''كلا، لا شيء آخر''.

''حسناً، أتستخدم الغليون أو أي شيء كهذا؟''

''أوه، كلا''.

''جيد. ألا تدخن؟''

''كلا''.

''أحتاج إذاً إلى تدخين سيجارة هنا قبل أن نمضي''. قالت هذا، وأخرجت علبة السجائر من الجيب فوق صدرها، وأشعلت لفافة باستخدام عود ثقاب، ثم قالت له

"لن يستغرق الأمر سوى دقيقة. أترغب في بعض الحلوى أو أي شيء آخر؟ أو نظارات شمسية؟ لدينا بعضها هنا. فهي مفيدة عند التحليق".

نظر خليل صوب منضدة الاستقبال، ولاحظ النظارات الشمسية المعروضة، ثم شرع يجرب إحداها وقد ذكرت بطاقتها أن سعرها 24.95 دولاراً. لطالما صعُب على خليل فهم تلك الأسعار الأميركية، حيث جميعها تقل بضعة بنسات عن الدولار الكامل. على أي حال، أزاح خليل نظارته ثنائية البؤرة، ووضع تلك النظارة الشمسية، ونظر إلى نفسه في المرآة الصغيرة المرفقة بمنضدة المعروضات، ثم ابتسم وقال "نعم. سآخذ هذه".

قالت المرأة خلف منضدة الاستقبال "فقط أعطني خمسة وعشرين دولاراً، وسأتولى أنا أمر فلوريدا".

لم يكن لدى خليل أي فكرة عمّا كانت تتحدث عنه، إلا أنه أخرج ورقتين من فئة العشرين دولاراً من محفظته وناولها إياهما. ومن ثم، أعطته هي بقية نقوده وقالت "أعطني النظارة حتى أزيل عنها البطاقة".

تردد خليل للحظة، لكن لم تكن هناك طريقة لرفض طلبها، فخلع النظارة وأعطاها إياها، بيد أنها لم تنظر إليه وهي تزيل الخيط البلاستيكي وبطاقة السعر. وعندما أعادت النظارة إليه سارع إلى وضعها وهو يحدّق في وجهها طوال الوقت.

هنا قالت له السيدة التي ستقود طائرته "حسناً، أنا مستعدة".

استدار إليها خليل، ورأى أنها كانت تحمل حقيبة سفره، فقال "دعيني أحملها".

"كلا، فهذا عملي، وأنت العميل هنا. هل أنت مستعد؟"

كانوا قد أخبروا خليلاً في بلده أنهم يقومون بتسجيل خطة الرحلة، إلا أن قائدة الطائرة كانت بالفعل قرب الباب، فحذا خليل حذوها فيما كانت المرأة خلف المنضدة تقول "أتمنى لك رحلة سعيدة".

"شكراً لكِ. طاب يومك".

فتحت قائدة الطائرة باب المكتب لخليل، وشرعا يمشيان تحت حرارة الشمس الحارقة وقد ساعدته النظارة على الرؤية، ثم قالت له "اتبعني".

سار خليل بجوارها بينما كانا يشقان طريقهما صوب الطائرة الصغيرة المركونة بالقرب من المكتب، ثم قالت

"من أين أنت؟ من روسيا؟"

"لا من اليونان".

"أحقاً؟ كنت أعتقد أن اسم ديميتريوس اسماً روسياً".

"بل ديميتري، أما ديميتريوس فاسم يوناني".

"كما أنك لا تبدو روسياً".

"كلا، أنا بولس، من أثينا".

“وهل أتيت إلى جاكسونفيل بالطائرة؟”

“نعم، إلى مطار جاكسونفيل الدولي”.

“من أثينا مباشرة؟”

“كلا، من أثينا إلى واشنطن”.

“صحيح. ولكن، ألا تشعر بالحر في هذه البذلة؟ بوسعك أن تخلع سترتك وربطة عنقك”.

“أنا بخير. فلقد أتيت من بلاد أكثر حرارة بكثير”.

“أتمزح؟”

“دعيني أحمل عنكِ الحقيبة”.

“لا مشكلة”.

وحين وصلا إلى الطائرة، سألته “هل تحتاج إلى الحقيبة؟ أم يمكن أن أضعها في مقصورة المسافر؟”

“بل أحتاجها. إذ يوجد فيها قطع فخارية رقيقة”.

“ماذا تعني؟”

“زهريات قديمة. فأنا أتاجر في التحف”.

فقالت ضاحكة “أتمزح؟ حسناً، سأحاول ألا أجلس فوقها”. ثم وضعت الحقيبة برفق فوق الطريق.

ألقى خليلٍ نظرة إلى الطائرة الصغيرة بلونيها الأزرق والأبيض، وقالت ستاسي مول “حسناً، لمعلوماتك، إنها من طراز بيبر شيروكي. عادة ما أستخدمها في دروس الطيران، وكذلك في الرحلات القصيرة. ولكن، ألديك مشكلة في أن تتولى امرأة قيادة رحلتك الجوية؟”

“كلا، أنا متأكد من أنكِ مؤهلة تماماً”.

“بل أفضل من ذلك؛ أنا ماهرة جداً”.

أطرق خليل، وعلا الإحمرار وجهه مرة أخرى وتساءل عمّا إذا كانت هناك طريقة لقتل هذه المرأة الوقحة من دون أن يعرض خططه المستقبلية للخطر. فقد قال له مالك من قبل “ربما تفكر في القتل لمجرد الرغبة لا الاحتياج. ولكن، تذكر: الأسد لا يرغب في القتل، بل يحتاجه. وتذكر، كل محاولة قتل تحفها المخاطر ويزداد معها الخطر. فلتقتل فقط عندما تكون مضطراً، ولا تقتل أبداً بهدف المران أو الغضب”.

قالت له المرأة “تبدو وسيماً في النظارة الشمسية”.

أطرق خليل وقال “شكراً لكِ”.

"الطائرة الآن معدة للإقلاع، ولقد قمت بكافة اختبارات ما قبل الطيران. أمستعد؟"

"نعم".

"هل يصيبك التحليق بالتوتر؟"

كان لدى خليل شعور مُلّح لكي يخبرها أنه وصل إلى أميركا في طائرة بطيارين ميتين، إلا أنه قال لها بدلاً من ذلك "لقد اعتدت رحلات الطيران".

"هذا جيد". قالت قائدة الطائرة وهي تقفز صوب جهة اليمين وتفتح باب الطائرة، ثم مدت يدها إلى خليل وهي تقول "أعطني الحقيبة".

رفع خليل الحقيبة إليها فوضعتها فوق المقعد الخلفي، ثم مدت له يدها مرة أخرى وهي تقول "ضع قدمك اليسرى فوق الدرجة الصغيرة، واستخدم حامل اليد المثبت على هيكل الطائرة". ثم أشارت إلى القوس البارز فوق النافذة الخلفية، "يجب أن أصعد أنا أولاً - حيث لا يوجد سوى هذا الباب - ثم تصعد أنت خلفي". قالت ستاسي ذلك، وصعدت إلى الطائرة.

اتّبع خليل الخطوات التي لقنته إياها وصعد إلى الطائرة، وشرع يضبط جلسته في المقعد الأمامي، ثم التفت ونظر إليها. لم يكن يفصل بين وجهيهما سوى بضع بوصات، ثم ابتسمت هي وسألته "أتشعر بالارتياح؟"

"نعم".

فمدّت يدها من خلفه، والتقطت الحقيبة ووضعتها فوق فخذيه، ثم ربطت حزامها، وطلبت منه أن يفعل مثل ما فعلت، وتمكن خليل من ربط حزامه، والحقيبة لا تزال في مكانها.

"أتود أن تحتفظ بالحقيبة هكذا؟"

"فقط حتى نُحلّق".

"أترغب في دواء ما أو شيء كهذا؟"

بل أرغب في أن أظل قريباً من أسلحتي حتى نخرج من هنا بأمان.

"تلك التحف رقيقة جداً. كنت أود أن أسألك عن شيء ما، هل سنحتاج إلى تسجيل مسار الرحلة، أم أنكم قمتم بهذا بالفعل؟"

أشارت خارج النافذة وقالت "السماء الزرقاء للغرفة التجارية لا تحتاج إلى خريطة للرحلة". ثم ناولته سمّاعة مكبرة للصوت، فوضعها، ثم وضعت هي سماعتها وقالت "أنادي ديميتريوس. هل تسمعني؟"

تنحنج خليل وقال "أسمعك بوضوح".

"وأنا كذلك. هذا أفضل من أن نصرخ لكي يطغى صوتانا على ضوضاء المحرك. هل لي أن أدعوك ديميتريوس؟"

"لا بأس".

"وأنا ستاسي".

"حسناً".

ثم وضعت ستاسي نظارتها الشمسية، وشغلت المحرك، وشرعت الطائرة تسير. "نحن نستخدم المدرج الرابع عشر اليوم، والسماء صافية طوال الطريق إلى دايتون بيتش، حيث لم ترد أي تقارير تشير إلى اضطرابات جوية؛ الرياح جنوبية لطيفة وأفضل طياري فلوريدا على الإطلاق يتولون أمر المراقبة".

أطرق خليل ولم يقل شيئاً.

أوقفت ستاسي الطائرة لدى نهاية المدرج، ومدت جسدها من فوق جسد خليل لإغلاق الباب وإحكام إغلاقه، ثم أذاعت "بيبر 1-5 وسكي مُعدة للإقلاع".

أتاها الصوت من برج المراقبة يقول "المدرج ممهد للإقلاع يا 1-5 وسكي".

رفعت ستاسي مول من سرعة المحرك، ثم حررت المكابح، وبدأت الطائرة تتحرك فوق المدرج، وخلال عشرين ثانية كانت الطائرة تترك المدرج وتحلق في الهواء.

أدارت ستاسي الطائرة ثلاثين درجة إلى اليمين نحو مسار مئة وسبعين درجة إلى الجنوب تقريباً، ثم شرعت تضغط بعض الأزرار في لوحة المفاتيح وهي تقول لخليل موضحة "هذا راديو الملاّح الآلي لتحديد المواقع. أتعرف كيف يعمل؟"

"نعم، لدي جهاز مثله في سيارتي؛ في اليونان".

ضحكت ستاسي وقالت "جيد جداً. أنت مسؤول إذاً عن ملاّح تحديد المواقع يا ديميتريوس".

"ماذا؟"

"كنت أمزح. أم تفضل أن أغلق فمي؟ ألا تحب أن تكون لديك صحبة؟"

وجد خليل نفسه يقول "بل أستمتع بالصحبة".

"حسناً إذاً. ولكن أخبرني متى شعرت أنني ثرثارة أكثر من اللازم وسألتزم الصمت".

أطرق خليل ثانية.

"من المتوقع أن تستغرق رحلتنا إلى دايتون بيتش نحو خمسين دقيقة، وربما أقل".

"إن دايتون بيتش ليست وجهتي تماماً".

ألقت إليه ستاسي نظرة خاطفة وقالت "إلى أين تريد الذهاب إذاً؟"

"إلى مكان يُطلق عله اسم سبروس كريغ. أتعرفينه؟"

"بالطبع فالمكان أشهر من نار على علم هناك. سأقوم بالبرمجة". ثم قامت بالضغط على بعض الأزرار على اللوحة.

"أعتذر إن كنت تسببت في إرتباك أو تشويش".

"ليس هناك مشكلة، بل الأمر أسهل بكثير من المطار الكبير، خاصة في يوم مثالي كهذا".

"جيد".

استقرت ستاسي على مقعدها مرة أخرى، وتحققت من لوحة التحكم، ثم قالت "ثمانية وأربعون ميلاً بحرياً، بزمن تحليق واحد وأربعين دقيقة، باستهلاك متوقع للوقود يبلغ تسعة غالونات ونصف. قطعة حلوى".

"كلا، أشكرك".

نظرت ستاسي إلى خليل وضحكت وهي تقول "لا. أعني، إنه مجرد مصطلح؛ قطعة حلوى تعني أن الأمر سهل وما من مشكلة".

أطرق خليل، فقالت "سأحاول أن أحد من استخدام المصطلحات، وفي حال قلت شيئاً يصعب عليك فهمه، عليك فقط أن تقول: ستاسي، تحدثي بالإنكليزية".

"فليكن".

"حسناً، نحن نرتفع خمسة وعشرين قدماً، مروراً بالشرق من محطة جاكسونفيل البحرية الجوية، يمكنك رؤيتها إذا نظرت إلى أسفل. ألقِ نظرة إن أردت. أما الحقل الجوي الآخر إلى الغرب فكان يُطلق عليه اسم حقل سيسيل، وهو حقل بحري أيضاً، ولكنه خارج الخدمة الآن. هل ترى أي مقاتلات هناك؟ فهم يقومون ببعض التدريبات في معظم الأيام. استمر في المراقبة، فآخر ما أريده الآن هو طيار أحمق يعترض طريقي.

والآن، أعرف أن هذا ليس من شأني، ولكن لماذا تذهب إلى سبروس كريغ؟"

"لديّ موعد عمل هنا مع جامع للتحف اليونانية".

"حسناً، هل سيستغرق ذلك نحو ساعة فوق الأرض؟"

"وربما أقل، ولكن بالقطع ليس أكثر من ذلك".

"خذ وقتك، فأنا لديّ اليوم بأكمله".

"لن أتأخر".

"هل تعرف كيف تذهب إلى مكان الاجتماع؟ أعني بعد الهبوط؟"

"نعم، لديّ المعلومات المطلوبة".

"ألم تذهب إلى هناك من قبل؟ أعني إلى سبروس كريغ؟"

"كلا".

"حسناً، أتعرف؟ هؤلاء الذين يمتلكون الكثير من المال، ربما ليسوا جميعاً بهذا الثراء، لكنهم يقحمون أنوفهم في الهواء. العديد من الأطباء، والمحامين، ورجال الأعمال يعتقدون أن لديهم القدرة على الطيران، رغم أن لديهم العديد من الطيارين

التجاريين العاملين والمتقاعدين. فهم يعرفون كيف يقودون الطائرات الكبيرة، بيد أنهم أحياناً يلقون حتفهم في طائراتهم الرياضية الصغيرة. أعتذر. فليس من المفترض أن أتحدث عن عملاء تتحطم بهم الطائرات". قالت ستاسي ذلك وضحكت مرة أخرى.

فابتسم خليل.

ثم تابعت ستاسي قائلة "على أي حال، ستجد في سبروس كريغ بعض العسكريين المتقاعدين؛ من ذاك النوع المتفاخر برجولته بحق. أتفهم ما أعني؟ أعني أنهم يظنون أنفسهم هدية الله لنساء الأرض. أفهمتني؟"

"نعم".

"أتمنى ألا يكون الرجل الذي ستلتقي به يُدعى جيم ماركوس، أم أنه كذلك؟"

"كلا".

"جيد! لقد كنت أواعد ذاك الأحمق؛ هو بحريّ سابق، وهو الآن طيّار بالخطوط الجوية الأميركية. كان أبي طياراً حربياً، ونصحني ألا أواعد طيارين قط. كانت تلك نصيحة جيدة بحق. ما الفرق بين الطّيار والخنزير؟ استسلمت؟ حسناً، الخنزير لن يسهر طوال الليل ليحرس الطيار". ثم ضحكت وقالت "المعذرة، أعرف أنك لن تفهم مغزى المزحة على أي حال. أليس كذلك؟ على أي حال، إن لم أرَ ذلك السافل ثانية، سرعان ما ستنتهي علاقتي به. يكفيني ما لديّ من مشكلات. بالأسفل إلى اليسار تجد مستوطنة سانت أوجستين؛ ربما لن تراها الآن، ولكن يمكنك رؤيتها في طريق العودة؛ إنها أقدم المستوطنات في أميركا، أعني أقدم المستوطنات الأوروبية. فالهنود كانوا هنا في بادئ الأمر. آه، يجب أن أتذكر حاسوبي الشخصي".

سألها خليل "وهل يتقاضى الطيارون المتقاعدون في أميركا الكثير من المال؟"

"ليس دائماً. فهم يتقاضون معاشاً جيداً في حال قضوا وقتاً طويلاً في الخدمة بحيث يصلون إلى مرتبة جيدة؛ كرتبة عقيد مثلاً أو نقيب في البحرية. ولكنهم يكونون في حالة جيدة إذا ما استطاعوا توفير بعض المال ولم ينفقوا كل ما يتقاضونه. كما أن العديد منهم يدخلون في بعض الأعمال ذات الصلة؛ كالعمل لدى شركة خاصة تصنع قطع الغيار أو الأسلحة للمقاتلات الحربية. فهم لديهم اتصالاتهم ويجيدون هذا النوع من الحوار. والبعض ينشئ شركات طيران خاصة، أما الكبار منهم فيحبون تعيين العسكريين السابقين، كهؤلاء المهووسين بأنفسهم الذين أخبرتك عنهم. أي أنها شبكة من المسنين؛ فالمديرون التنفيذيون يريدون أشخاصاً سبق لهم أن أسقطوا القنابل على بعض المساكين. فهم يخبرون كافة أصدقائهم، مثل الطيار الذي أواعده، العقيد سميث، الذي قصف هؤلاء في صربيا أو العراق. أتفهمني؟"

"أو ...".

"نحن لم نقم أبداً بقصف ... أم أننا فعلنا ذلك؟"

"أظن ذلك. كان هذا منذ عدة سنوات مضت".

"أحقاً؟ لا أذكر هذه الواقعة. يجب علينا أن نتوقف عن فعل هذه الأشياء، فهذا يغضب منا الآخرين".

"صحيح".

تابعت الطائرة بيبر مسارها نحو الجنوب.

ثم قالت ستاسي مول "لقد عبرنا بالاتكا لتونا، وإذا نظرت إلى يمينك سترى حقل القصف البحري. أترى تلك المساحة المهملة هناك؟ لا يمكننا الاقتراب أكثر، حيث إنها منطقة مجال جوي محظور. لكن ما يزال بوسعك رؤية المناطق الهدف. أوه! إنهم يقومون بالقصف اليوم. أترى هذا الرجل الذي يقوم بالانقضاض هناك، ثم يرتفع مرة أخرى؟ واو، لم أرَ مثل هذا الشيء منذ نحو عام. أبقِ عينيك على تلك الطلقات الساخنة. عادة ما يرتفعون ثم يطلقون الطلقات من مستوى مرتفع، وأحياناً يتدربون على ارتفاعات منخفضة؛ مثلما يفعلون عندما يحاولون تجنب رادار العدو، وعليهم عندئذ أن يكونوا حذرين. هاي، انظر! أترى هذا؟ طيار آخر يقوم بالحركة على ارتفاع منخفض. واو، هل ترى أي مقاتلات؟"

كان قلب خليل يخفق بشدة في صدره، فأغلق عينيه حيث رأى في الظلام تلك الخطوط الحمراء المشتعلة التي خلفتها المقاتلة التي كانت تتجه نحوه تلك الليلة، ثم وهج الطائرة غير المحدد الملامح، ومن خلفه أضواء العاصمة. كانت تلك المقاتلة تبعد ذراعاً عن وجهه، أو هكذا يشعر عندما يسترجع الأمر بعد كل هذه السنوات. ثم ارتفعت الطائرة على نحو مفاجئ، ومضت ثوانٍ قبل اندلاع الانفجارات الأربعة الصاخبة، وساد الدمار من حوله.

"ديميتريوس؟ ديميتريوس؟ هل أنت بخير؟"

أدرك خليل أنه كان يغطي وجهه بيديه، والعرق يتصبب منه، بينما كانت ستاسي تهزه من كتفيه.

أنزل خليل كفيه، وأخذ نفساً عميقاً، ثم قال "نعم، أنا بخير".

"أمتأكد؟ إذا كنت تشعر بالغثيان لديّ حقيبة تصلح للغرض".

"أنا بخير. شكراً لكِ".

"أتريد بعض الماء؟ لدي بعض الماء في الخلف".

هزّ خليل رأسه وقال "أنا بخير الآن".

"حسناً".

استأنفت الطائرة رحلتها فوق فلوريدا الريفية، وبعد بضع دقائق قال خليل "أشعر بتحسن كبير".

"أحقاً؟ ربما لا يجدر بك النظر إلى أسفل، ربما يصيبك هذا بالدوار. كيف تقول هذا باليونانية؟"

"نحن نستخدم الكلمة ذاتها".

"أتمزح؟ هل يعني هذا أنني أتحدث اليونانية؟"

نظر إليها خليل، ونظرت هي إليه، ثم قالت "أنا أمزح فحسب".

"بالطبع". فلو أنكِ تتحدثين اليونانية لعرفتِ أنني أجهلها.

ثم قالت ستاسي "تقع دايتون بيتش هناك إلى اليسار، ولكن لا تنظر. يمكنك أن ترى بالفعل الفنادق الكبيرة على الشاطئ. لا تنظر. كيف حال معدتك؟"

"بخير".

"حسناً، سنبدأ الهبوط، ربما يصيبك هذا ببعض الغثيان".

قالت ستاسي وشرعت الطائرة بيبر تهبط نحو ألف قدم، وكلما انخفضت الطائرة كلما مروا بمطبات هوائية، فسألت ستاسي مول "كيف حالك؟"

"بخير".

قالت "جيد، لن يحدث أسوأ من ذلك؛ فقط بعض اضطرابات الهبوط". ثم شرعت تضبط تردد الراديو ونقرت جهاز الإرسال ثلاث مرات. انبعث صوت نسائي عبر الهواء يقول "مرشد مطار سبروس كريغ؛ سرعة الرياح مئة وتسعين درجة لدى تسع عقدات، بمقياس ارتفاع 3-0-2-4".

غيرت ستاسي مول الترددات ثم أرسلت تقول "مرور سبروس كريغ، هنا بيبر 5-1 وسكي على بعد ميلين إلى الغرب، للدخول باتجاه الريح مدرج 2-3".

سألها خليل "إلى من تتحدثين؟"

"أنا فقط أقوم بإعلان موقعي إلى أي طائرة أخرى قد تكون في المنطقة، إلا أنني لا أرى أيًّا منها، ولا يأتيني أي شيء من أي شخص على هذا التردد، وهذا يعني أن مسارنا مناسباً". ثم أضافت "لا يوجد برج مراقبة في سبروس كريغ، والتي تبعد ستة أميال عن دايتونا بيتش الدولي. وأنا أحافظ على موقعي المنخفض غرب دايتونا بحيث نتفادى رادارهم ولا نضطر إلى التحدث إليهم. أفهمتني؟"

أطرق خليل، ثم سأل "هذا يعني أنه لن يكون هناك تسجيل بوصولنا؟"

"كلا. لماذا تسأل؟"

"في بلادي نقوم بتسجيل كافة الرحلات".

قالت ستاسي "لكن هذا مطار خاص". وراحت تخفف من سرعة الطائرة وتدور بها، ثم قالت "إنه مجتمع حراسة. أتفهم ما أعني؟ إذا قدت سيارتك إلى الداخل سيعمد النازيون لدى البوابة إلى تفتيشك إلى أن ينجيك منهم أحد السكان من الداخل؛ وحتى حينئذ لا مفر من تفتيش سريع من الدرجة الثالثة".

أطرق خليل، فكان يعرف هذا الأمر، ولهذا اختار الوصول إلى هناك جواً.

تابعت ستاسي مول قائلة "لقد اعتدت أن آتي بسيارتي إلى هنا من حين إلى آخر لرؤية السيد الرائع، وأحياناً كان ذلك الأحمق ينسى أن يترك خبراً لدى هؤلاء النازيين ليعرفوا أنني قادمة. أتعرف؟ أعني أن السيد الرائع سينا... على كل حال، بالطبع تتوقع أن يتذكر أنني قادمة، أليس كذلك؟ ومن ثم، اعتدت أن آتي بالطائرة متى كان هذا متاحاً. أتعرف؟ قد تكون مجرماً أو قاتلاً، وبالرغم من ذلك تستطيع الدخول بالطائرة. ربما يجب عليهم أن يضعوا مدفعية مضادة للطائرات، وكلمة مرور للصوت الآلي. عدو أم صديق؟ ففي حال كنت تجهل كلمة المرور، يفتحون عليك النيران ويفجرونك في السماء". قالت ستاسي ذلك وضحكت، ثم أضافت "أظنني سأسقط قنبلة ذات يوم على منزل ذاك السيد الرائع؛ ربما في حوض السباحة حيث يسبح عارياً، هو وآخر صديقاته. يا للرجال. يا الله، كم يغضبونني؛ لا يمكن العيش معهم، ولا يمكن العيش من دونهم. أمتزوج أنت؟"

"كلا".

لم تعلّق ستاسي على هذا، بل قالت "أترى نادي البلدة هناك؟ ملعب للجولف، وملاعب للتنس، وحظائر خاصة بجوار بعض المنازل مباشرة، وأحواض للسباحة. هؤلاء الحمقى يعرفون كيف يمتعون أنفسهم. أترى ذلك المنزل الأصفر الكبير هناك؟ انظر. إنه ملك لممثل سينمائي شهير يعشق التحليق بطائرته الخاصة. أراهن أن العجائز هنا لا يحبونه، ولكنني أراهن أن النساء يعشقنه. هذا البيت الأبيض الكبير هناك، ذو حوض السباحة، إنه ملك أحد أساطين العقارات في نيويورك، ويملك أيضاً طائرة ستايشن بمحركين. قابلته ذات مرة، وهو رجل لطيف، إنه يهودي. بيد أنهم لا يحبونه هنا أكثر من حبهم لذاك الممثل. وهناك أيضاً ذاك المنزل الذي يملكه رجل اسمه ... لا أذكر، ولكنه طيار في الخطوط الجوية الأميركية، ولقد كتب روايتين عن الطائرات، ولكنني لا أذكر عنوانيهما أيضاً. لقد كان صديقاً للسيد الرائع، وأراد أن يضعني في إحدى قصصه. ترى ماذا كان سيكلفني هذا؟ ها، يا للرجال!"

راح خليل ينظر إلى الأسفل؛ إلى المساحة التي شُيدت فوقها المنازل الكبيرة، وأشجار النخيل، وحمامات السباحة، والمروج الخضراء، والطائرات الواقفة بجوار بعض المنازل. وفكر أن الرجل الذي قتل عائلته قد يكون من بين هؤلاء القوم في الأسفل، في انتظاره مع ابتسامة وشراب. وشعر خليل أنه يكاد يتذوق طعم دم الرجل في فمه.

هنا قالت ستاسي "حسناً، فلنلتزم الصمت في الثواني القادمة".

ثم شرعت الطائرة تهبط صوب المدرج 2-3 وقد هدأ محركها، وبدا المدرج وكأنه يرتفع إلى أعلى فيما كانت الطائرة تمسه بلطف. "هبوط عظيم". قالت ستاسي ضاحكة، ثم أبطأت من سرعة الطائرة على الفور باستخدام كابحات العجلات، "لقد واجهت هبوطاً عنيفاً الأسبوع الماضي حيث كنت أهبط وسط عواصف متقاطعة، والعميل الذكي الذي كان بصحبتي سألني هل هبطنا أو أسقطتنا قذيفة ما؟" ثم ضحكت ثانية.

وقفت الطائرة أمام ميناء الطائرات الجوي المركزي، ثم خرجت منه إلى المدرج الفرعي، وسألت ستاسي "أين سيقابلك هذا الرجل؟"

"في منزله، فهو يعيش في ميناء طائرات".

"أوه، حقاً؟ إنه فاحش الثراء إذاً. وهل تعرف كيف تذهب إليه؟"

التقط خليل حقيبته السوداء، وأخرج منها ورقة خُطّت عليها خريطة رسمها الحاسوب، وكانت معنونة: *خريطة توضيحية - سبروس كريغ، فلوريدا.*

أخذت ستاسي الخريطة من خليل، ثم نظرت إليها وقالت "حسناً، ما هو عنوان الرجل؟"

"إنه مرفأ يانكي، في الخلف".

"إنه لا يبعد كثيراً عن منزل السيد الرائع. حسناً، فلنجد سيارة أجرة".

ثم مدّت جسدها من فوق المسافر بجانبها مرة أخرى، وفتحت الباب لتهوئة قمرة القيادة التي شرعت درجة حرارتها ترتفع بالفعل، ثم ألقت نظرة أخرى على الخريطة وعمدت إلى إيقاف الطائرة. ثم قالت "حسناً، هنا منطقة تعبئة الوقود وصيانة الحظائر التابعة لشركة سبروس كريغ للملاحة، وهنا بيتش بوليفارد". ثم أوقفت الطائرة في ممر خرساني عريض، وقالت "بعض هذه الطرقات مخصص لسيارات الأجرة فقط، وبعضها للسيارات العادية فقط، وبعضها الآخر للطائرات والسيارات. وكأنني سأود أن أتشارك الطريق مع قائد سيارة أحمق، أليس كذلك؟ احترس من عربات الجولف، فسائقوها أكثر حماقة من سائقي العربات العادية. حسناً، هنا جادة سيسنا. أسماء جميلة، أليس كذلك؟" ثم استدارت يساراً على طريق سيسنا، ثم إلى اليمين إلى مرفأ تانجو، وقالت "انظر إلى هذه المنازل".

كان هذا ما يفعله خليل بالفعل، فعلى جانبي الطريق اصطفت المنازل الفخمة، والحظائر الخاصة الضخمة، وأحواض السباحة، وأشجار النخيل التي ذكرته بوطنه. ثم قال خليل "هناك العديد من أشجار النخيل هنا، بينما تختفي تماماً في جاكسونفيل".

"أوه، إنها لا تنمو هنا على نحو طبيعي، فهؤلاء الحمقى يحضرونها من جنوب فلوريدا. فهنا شمال فلوريدا، ويظنون هنا أنهم بحاجة إلى أشجار النخيل من حولهم. من المدهش أنهم لا يحتفظون بطيور النعام مقيدة في ساحاتهم".

لم يعلّق خليل على هذا، حيث طفق يفكر مرة أخرى في بول غراي الذي سيقابله في غضون دقائق قصيرة. ومما يراه من حوله، شعر خليل أن ذاك القاتل كان يعيش في الجنة بينما كان هو يحترق في الجحيم. ولكن سرعان ما سينعكس الحال.

قالت ستاسي مول "حسناً، هذا هو ميناء مايك". ثم انعطفت الطائرة إلى الشريط الأسفلتي الضيق. كان هناك عدد من الحظائر تُركت أبوابها مفتوحة، ورأى خليل

أنواع الطائرات بداخلها: طائرات صغيرة أحادية المحرك كتلك التي كان يركبها بصحبة ستاسي، وطائرات غريبة حيث أحد الجناحين فوق الآخر، وطائرات متوسطة الحجم. ثم سأل خليل ‘‘هل لهذه الطائرات أي غرض عسكري؟’’

ضحكت ستاسي وقالت ‘‘كلا، فهي مجرد لعب لهؤلاء الأطفال. أتفهم ما أعني؟ فأنا أطير لكسب الرزق، بينما هؤلاء المهرجون يطيرون فقط ليجدوا شيئاً يفعلونه، أو لإثارة إعجاب أصدقائهم. مثل: هاي، أنا ذاهب إلى مدرسة التدريب على الطيران! ثروات ضخمة، ولكن بعضهم يدفع جيداً. عرض عليّ أحدهم أن أقود الطائرة الخاصة بشركته. أتعرف؟ بعض هؤلاء الأثرياء يفضلون العسكريين كما قلت لك، ولكن بعضهم يرغب في... في لعبة داخل اللعبة. أتفهم ما أعني؟’’

‘‘المعذرة؟’’

‘‘من أين أتيت؟’’

‘‘من اليونان’’.

قالت ستاسي ‘‘حقاً؟ كنت أظن أن مليونيرات اليونان. حسناً، ها قد وصلنا إلى ميناء يانكي’’. وانحرفت إلى اليمين، حيث انتهى الميناء بساحة من الخراسان ملحقة بحظيرة ضخمة، حيث عُلّقت على جدارها لافتة كُتب عليها *بول غراي*. كانت الحظيرة مفتوحة وتظهر في داخلها طائرة تعمل بمحركين، ومرسيدس بينز متحولة، وسلم يؤدي إلى سيارة جولف مخزنة في العلية.

قالت ستاسي ‘‘إن هذا الرجل لديه كل أنواع اللعب؛ فهذه بيتش بارون، طراز عام 58، وتبدو في حالة مثالية وكأنها جديدة. إنه فاحش الثراء، أتبيعه شيئاً؟’’

‘‘نعم، التحف’’.

‘‘هل هي غالية الثمن؟’’

‘‘جداً’’.

‘‘جيد، فلديه المال اللازم لذلك. أتعرف ما إذا كان هذا الرجل متزوجاً؟’’

‘‘كلا، إنه غير متزوج’’.

فقالت ضاحكة ‘‘اسأله إن كان بحاجة إلى طيار؟’’

ثم أطفأت محرك الطائرة وقالت ‘‘عليك أن تنزل أولاً، إلا إذا كنت تريدني أن أزحف فوق ساقيك’’. ثم ضحكت وأردفت ‘‘خذ الأمر ببساطة ويسر، سأناولك حقيبتك’’. ثم رفعت عنه الحقيبة.

غادر خليل الطائرة إلى الجزء المُغطى من الجناح، ثم ناولته ستاسي الحقيبة حيث وضعها خليل فوق الجناح، ثم خطا خارج الحدّ الخلفي لجناح الطائرة، ومنه إلى الطريق الخراساني، ثم استدار والتقط حقيبته من فوق الجناح، وتبعته ستاسي حيث قفزت من فوق الجناح المنخفض إلى الأرض الخراسانية، بيد أنها فقدت توزانها ووجدت نفسها تسقط فوق عميلها وتمسك بكتفيه حتى لا تسقط. سقطت النظارة عن وجه أسد خليل الذي وقف وجهاً لوجه أمام ستاسي مول حيث فصلت بينهما مسافة أقل من ست بوصات.

أخذت ستاسي تحدّق في عينيه وهو يحدّق في عينيها، وأخيراً ابتسمت وهي تعتذر له "أنا آسفة".

انحنى خليل، والتقط نظارته الشمسية ووضعها فوق أنفه من جديد، فيما كانت هي تخرج سجائرها من جيبها وتشعل إحداها، ثم قالت "سأنتظر هنا في الحظيرة، فهي ظليلة بعض الشيء. وربما أبحث لنفسي عن مشروب ما في ثلاجته، وأستخدم دورة المياه الموجودة في الحظيرة. فكل الحظائر يوجد فيها ثلاجات ودورات مياه، وأحياناً مطابخ ومكاتب، فعندما يركل السيد موظفيه يظلون بالقرب منه ولا يذهبون بعيدا". ثم ضحكت وأردفت "أخبر هذا الرجل أنني سآخذ واحدة من علب الكوكا وسأترك له دولاراً".

"حسناً".

"بالمناسبة، إن منزل السيد الرائع قريب جداً من هنا، ربما أذهب لأراه".

"ربما كان من الأفضل لو بقيتِ هنا، فأنا لن أتأخر".

"حسناً، كنت أمزح فحسب. فأنا أفضل لو وضعت له الغراء في وقوده إن لم يكن هناك".

استدار خليل صوب الممشى الخرساني المؤدي إلى المنزل، فنادته قائلة "حظاً سعيداً، اعتصره ما استطعت، فليدفع من دمه".

نظر إليها خليل من فوق كتفيه وقال "معذرة؟"

"أعني اجعله يدفع الكثير من المال".

"نعم، سأجعله يدفع من دمه".

اتبع خليل الطريق عبر بعض الأجمات حتى انتهى إلى باب زجاجي يؤدي إلى حوض استحمام ضخم، وعندما دفع الباب وجده مفتوحاً، فدخل منطقة حوض السباحة وهو ينظر إلى مقاعد الجلوس، ومنضدة صغيرة للمشروبات، وعوّامة في الماء. ثم كان هناك باب آخر صعد خليل نحوه، حيث وجد مطبخاً بمساحة هائلة، وعندما نظر إلى ساعة يده كانت تشير إلى التاسعة وعشر دقائق.

ضغط خليل على زر الجرس وانتظر. كانت العصافير تزقزق فوق الأشجار القريبة، وثمة مخلوق ما كان يصدر صوتاً كالنعيق، وطائرة صغيرة تحلق فوق رأسه. بعد دقيقة حضر إلى الباب رجل يرتدي بنطالاً أسود وقميصاً أزرق وأخذ ينظر إلى خليل عبر الزجاج، فابتسم خليل.

فتح الرجل الباب وسأله "العقيد هيوروك؟"

"نعم، وأنت النقيب غراي؟"

"نعم يا سيدي. فقط نادني السيد غراي، أو نادني بول. تفضل بالدخول".

دخل خليل إلى المطبخ الكبير الخاص بالسيد بول غراي، ورغم أن المنزل كان مكيفاً إلا أنه لم يكن بارداً على نحو مزعج.

قال بول غراي "هل لي أن أحمل عنك هذه الحقيبة؟"

"لا داعي لذلك".

ألقى بول غراي نظرة على ساعة الحائط وقال "لقد أتيت مبكراً بعض الشيء عن موعدك، ولكن لا مشكلة، فأنا مستعد تماماً لاستقبالك".

"هذا جيد".

"وكيف وصلت إلى المنزل؟"

"لقد أعطيت قائد الطائرة تعليمات بأن يستخدم الحظائر".

"وكيف عرفت أي حظيرة يجدر استخدامها؟"

"سيد غراي، هناك القليل الذي تجهله المنظمة التي أعمل بها. ولهذا أنا هنا، حيث تم اختيارك".

"حسناً، يبدو هذا جيداً بالنسبة لي. ماذا عن بعض الشراب؟"

"فقط بعض الماء المعدني من فضلك".

أخذ خليل يراقب بول غراي وهو يُخرج من الثلاجة دورقاً يحتوي بعض العصير وزجاجة بلاستيكية من الماء المعدني، ثم ذهب إلى الدولاب حيث أحضر كوبين زجاجيين. لم يكن بول غراي طويل القامة، ولكنه بدا في لياقة بدنية رائعة. أما جلده فكان بنياً كالبرابرة، وشعره رمادياً - مثل الجنرال وايكليف - ولم يكن وجهه ينم عن كبر سنه.

سأله بول غراي "وأين قائد طائرتك؟"

"إنها تحتمي في حظيرتك من الشمس، وكانت تستأذن في استخدام الحمام هناك وأخذ شيء لتشربه".

"بالطبع، على الرحب والسعة. إذاً قائد طائرتك امرأة؟"

"نعم".

"ربما تود لو دخلت إلى هنا وألقت نظرة على المكان؛ إنه مكان رهيب".

"كلا. فكما أخبرتك من قبل، نحن نفضل السرية".

"نعم بالطبع، من فضلك تقبل اعتذاري".

فأضاف خليل ‘‘لقد أخبرتها أنني يوناني وأنني هنا لأبيعك بعض الزهريات اليونانية القديمة’’.

ابتسم بول غراي وقال ‘‘هذا تتكر جيد، بل وأظن أنك تبدو يونانياً بالفعل’’.

‘‘ولم لا؟’’

ناول غراي كوباً من الماء المعدني لخليل، وقال الأخير ‘‘لا داعي للكوب’’. ثم أضاف موضحاً ‘‘أنا كوشري. لا أعني الإساءة، لكنني لا أستخدم سوى أشياء كوشرية. المعذرة’’.

‘‘لا توجد مشكلة’’. قال غراي وهو يخرج قنينة ماء معدني بلاستيكية أخرى من الثلاجة ويعطيها لضيفه.

أخذها منه خليل وقال ‘‘كما أن لديّ مشكلة في عينيّ وأحتاج إلى أن أظل واضعاً النظارة الشمسية’’.

رفع غراي كوب العصير الخاص به وقال ‘‘مرحباً بك أيها العقيد هيوروك’’.

بعد أن لامسا الكوب بالقنينة، قال غراي ‘‘حسناً، تفضل معي إلى غرفة الحرب خاصتي أيها العقيد، حيث يمكننا البدء هناك’’.

بالفعل تبعه خليل عبر المنزل المتشعب، وقال معلقاً ‘‘منزل جميل حقاً!’’

قال غراي ‘‘أشكرك. لقد كنت محظوظاً بشرائه أثناء فترة ركود سوق العقارات، فدفعت فيه نصف ما يستحق فقط’’. وضحك على دعابته.

ثم دخل الرجلان غرفة كبيرة حيث فتح بول غراي الباب الجرار، ثم أعاد إغلاقه خلفهما وهو يقول ‘‘لن يزعجنا أحد هنا’’.

‘‘أهناك آخرون بالمنزل؟’’

‘‘فقط السيدة التي تقوم بالتنظيف، وتأكد أنها لن تزعجنا هنا’’.

نظر خليل في الغرفة من حوله، والتي بدت له مزيجاً من غرفة الجلوس وغرفة المكتب. ولكن الشيء الأكيد هو أن كافة الأشياء بدت باهظة الثمن: السجاد الفاخر، والأثاث الخشبي، والإلكترونيات المعلقة على الجدار الخلفي، حيث رأى خليل أربع شاشات للحاسوب، بلوحات مفاتيح ومتحكمات أخرى أمام كل شاشة منها.

قال بول غراي ‘‘دعني أحمل عنك حقيبتك؟’’

‘‘سأضعها مع قنينة الماء’’.

أشار بول غراي إلى منضدة قهوة منخفضة، وكانت الصحف فوقها. وضع الرجلان شرابيهما فوق المنضدة، فيما وضع خليل حقيبته فوق الأرض، وقال ‘‘أتمانع لو ألقيت نظرة على الغرفة؟’’

‘‘لا أبداً، تفضل’’.

تحرك خليل نحو أحد الجدران كان مزداناً بصور فوتوغرافية، ولوحات للعديد من الطائرات، بما فيها صورة حقيقية للطائرة F-III، وراح خليل يفحصها.

قال بول غراي "لقد طلبت رسم هذه اللوحة بشكل يطابق الصورة الأصلية للطائرة، فلقد حلّقت بالطائرة F-III لسنوات عديدة".

"نعم، أعرف هذا".

لم يجبه بول غراي على قوله هذا.

أخذ خليل يفحص أحد الجدران حيث عُلّقت العديد من المقولات، وخطابات التزكية، وعلبة بإطار وواجهة زجاجية تضم تسع ميداليات عسكرية، وقال غراي "لقد تلقيت العديد من هذه الميداليات لدوري في حرب الخليج، وأظن أنك تعرف هذا أيضاً".

"نعم، ولكم تقدر لك حكومتي الخدمات التي أديتها نيابة عنا".

سار خليل نحو بعض الرفوف التي تحمل بعض الكتب والنماذج البلاستيكية للعديد من الطائرات، فتقدم نحوه بول غراي والتقط كتاباً من فوق الرف وهو يقول "انظر، سيعجبك هذا الكتاب. كتبه الجنرال جدوين شودار، ولقد وقّع لي عليه". أخذ منه خليل الكتاب، ووجد أنه كتاب عبريّ، وعليه صورة طائرة مقاتلة تزين الغلاف.

قال بول غراي "انظر إلى الإهداء".

فتح خليل الكتاب من جهة اليمين، حيث كان يعرف أن الكتب العبرية شأنها في هذا شأن الكتب العربية، ورأى أن الإهداء كان مكتوباً بالإنكليزية، بيد أنه احتوى على حروف عبرية لم يتمكن من قراءتها، فقال بول غراي "أخيراً، وجدت شخصاً يستطيع ترجمة العبرية لي".

حدّق خليل في العبرية المكتوبة أمامه وقال "بل هو مثل عربي نحن الإسرائيليون مغرومون به؛ عدو عدوي هو صديقي". قال خليل وأعاد الكتاب إلى غراي وهو يقول "كم هذا صحيح!"

أخذ منه بول غراي الكتاب وقال "دعنا نجلس معاً دقيقة قبل أن نبدأ". ثم أشار إلى مقعد وثير بجوار منضدة القهوة حيث جلس خليل وأمامه بول غراي.

ارتشف بول غراي عصير البرتقال، فيما شرب خليل من قنينة الماء، وقال غراي "أرجو أن تتفهم أيها العقيد أن عرض البرنامج الذي سأريه لك الآن هو مادة غاية في السرية، لكن -حسب علمي- يمكنني أن أري هذا العرض لممثل حكومة صديقة، ولكن حين يتعلق الأمر بالشراء، علينا أن نحصل على إذن أولاً".

قال خليل "أفهم ما تعنيه، وحكومتي تعمل على هذا الأمر". ثم أضاف "كما أنني أقدر السرية والضرورة الأمنية، فنحن لا نرغب أن يقع هذا البرنامج في أيدي... فلنقل في أيدي أعدائنا المشتركين". وابتسم.

رد بول غراي بابتسامة وقال ‘‘في حال كنت تعني أمماً شرق أوسطية بعينها، فأنا أشك أن بوسعهم استخدام مثل هذا البرنامج في الأساس. كي أكون أميناً معك أيها العقيد، هذه الشعوب تفتقر إلى العقول التي ولدت بها’’.

عاود خليل الابتسام وقال ‘‘لا تقلل أبداً من شأن أعدائك’’.

‘‘أنا لا أفعل هذا، ولكن في حال كنت في قمرة قيادتي في الخليج، لكنت اعتقدت أنهم كانوا يطيرون في مواجهة مجموعة من المبيدات الحشرية. لست أعني بهذا أن أتفاخر بنفسي، فأنا أتحدث إلى حليف هنا، ويجب أن أكون صادقاً’’.

‘‘كما أخبرك زملائي، فبالرغم من أنني الملحق الجوي للسفارة إلا أنني أفتقر إلى الخبرة في ما يتعلق بالهجمات الجوية، حيث إن مجال خبرتي هو التدريب والعمليات، ومن ثم لا أستطيع مجاراتك في قصص الحرب البطولية’’.

أطرق غراي ولم يقل شيئاً.

نظر خليل إلى مضيفه للحظة؛ كان بوسعه أن يقتله لحظة أن فتح له باب المطبخ، أو بعد دقيقة من ذلك، ولكنه كان سيكون قتلاً بلا معنى ومن دون بعض العبث اللطيف. ولقد قال له مالك من قبل ‘‘إن كافة أنواع الحيوانات من فصيلة القطط تهوى اللعب بفريستها الواقعة في قبضتها قبل قتلها. خذ وقتك، واستمتع باللحظة، فهي لن تتكرر!’’

نظر خليل نحو الصحف الموضوعة فوق منضطدة القهوة وقال ‘‘هل قرأت الأنباء المنشورة في الصحف عن الرحلة 175؟’’

ألقى غراي نظرة خاطفة نحو الصحيفة وقال ‘‘نعم. سيدير هذا الحادث بعض الرؤوس؛ أعني كيف بحق الجحيم استطاع هؤلاء المهرجون الإتيان بمثل هذا الفعل؟ فقنبلة على متن طائرة ما شيء، والغاز السام شيء مختلف تماماً. ثم يهرب الرجل ويقتل حفنة من الفيدراليين. يمكنني بالطبع رؤية بصمات قائدهم في الأمر برمته’’.

‘‘أحقاً؟ ربما. من المؤسف أن تلك القنبلة التي سقطت فوق مقره لم تقتله’’.

التزم بول غراي الصمت لبضع ثوان، ثم قال ‘‘أنا لم أشترك في هذه المهمة أيها العقيد، وفي حال كانت استخبارات بلدك تظن هذا، فهم مخطئون’’.

لوّح أسد خليل بيده في بادرة أراد بها تهدئة بول، ثم قال ‘‘لا، لا أيها النقيب. لم أكن أعنيك بصفة شخصية، بل كنت أتحدث عن القوات الجوية الأميركية’’.

‘‘أوه، حسناً. تقبّل اعتذاري’’.

‘‘ولكن، في حال كنت في تلك المهمة، لكنت هنأتك وشكرتك نيابة عن الشعب الإسرائيلي’’.

ظل بول غراي ثابتاً بلا تعبير، ثم وقف وقال ‘‘لماذا لا نتحرك وأريك المكان؟’’

فوقف خليل، والتقط حقيبته، ثم تبع بول غراي إلى الجانب البعيد من الغرفة، حيث كان هناك مقعدان دوّاران من الجلد وضعا في مواجهة شاشتين، وقال بول

غراي ''سأريك أولاً عرض البرنامج باستخدام المقود ولوحة المفاتيح، ثم سننتقل إلى المقعدين الآخرين هناك حيث سندخل معاً عالم الحقيقة الافتراضية''. قال هذا وتحرك نحو المقعدين الأكثر تطوراً، ولكن بلا شاشات أمامهما، وأردف ''هنا نستخدم نموذج محاكاة الحاسوب لتمكين الشخص من التفاعل مع بيئات صناعية، بصرية وحسية، ثلاثية الأبعاد. هل يبدو لك هذا مألوفاً؟''

لم يجبه خليل.

تردد بول غراي للحظة ثم تابع قائلاً ''من شأن تطبيقات الحقيقة الافتراضية أن تجعل المستخدم موجوداً في بيئة صنعها الحاسوب تحاكي الحقيقة من خلال استخدام بعض الأدوات التفاعلية التي تقوم بإرسال واستقبال المعلومات. وهذه الأدوات تتمثل في نظارات وقائية، وخوذات، وقفازات، وحتى سترات كاملة. ولديّ هنا خوذتان مع شاشة مجسمة لكل عين، يمكنك من خلالها رؤية صور متحركة للبيئة المقلّدة. فالوجود الوهمي في هذه البيئة يتأثر بحركة المحسّات التي ترصد تحركات المستخدم، وتقوم بتعديل الصورة على الشاشات وفقاً لهذه التحركات، عادة في نفس اللحظة''. نظر بول غراي إلى عميله المرتقب، ولم يبصر أي دلالة على الفهم أو عدم الفهم من خلف تلك النظارة الشمسية، فتابع ''سترى هنا أنني أعددت قمرة قيادة لمقاتلة قاذفة كاملة، مزودة بدواسات الدافة، والصمامات، وعصا التحكم، ومطلقات القنابل، وما إلى ذلك. ولكن بما أنك لست على دراية بالطائرات المقاتلة، فلن تستطيع التحليق بهذا الشيء، بينما يمكنك تجربة إطلاق إحدى القنابل إذا وضعت هذه الخوذة التجسيمية بينما أقوم أنا بالتحليق''.

طفق خليل ينظر إلى كل هذه التقنيات المتطورة من حوله، وقال ''نعم، فلدينا نفس الإمكانيات في سلاحنا الجويّ''.

''أعرف هذا، لكن هذا البرنامج الذي تم تطويره حديثاً إنما يسبق البرنامج الحالي بسنوات. دعنا نجلس أمام الشاشات، وسأعطيك نظرة سريعة قبل أن نمضي إلى الحقيقة الافتراضية''.

انتقل الرجلان إلى الجانب الآخر من الغرفة، وأشار بول غراي إلى أحد المقعدين الدوارين الجلديين بحامل بينهما ولوحة مفاتيح أمام كل مقعد. جلس خليل، أما بول غراي الذي كان ما يزال واقفاً، فقال ''هذه مقاعد من طائرة F-III قديمة وقد زودتها بدواليب دوّارة، فقط لإضفاء بعض الروح على التجربة''.

''لكنها ليست مريحة''.

''كلا، ليست مريحة. لقد حلّقت مرة، أعني أنني حلّقت لمسافات طويلة وأنا جالس على هذه المقاعد. هلاّ أعطيتني سترتك لأعلقها؟''

''كلا، شكراً لك. فأنا لست معتاداً على تكييف الهواء''.

''ولكن ربما ترغب في خلع نظارتك الشمسية عندما أقوم بتعتيم الغرفة''.

''لا بأس''.

جلس بول غراي على مقعد الطائرة بجوار خليل والتقط جهاز التحكم عن بعد حيث ضغط زرين، فانطفأت الأنوار فيما كانت الستائر الثقيلة تتحرك لتغطي النوافذ، وخلع خليل نظارته. ظل الرجلان صامتين في ظلام الغرفة لثانية وهما ينظران إلى أضواء الأجهزة الإلكترونية من حولهما. ثم أضاءت الشاشة، وأظهرت قمرة القيادة والمقدمة الزجاجية لطائرة مقاتلة متطورة.

قال بول غراي "هذه قمرة قيادة الطائرة F-16، ولكن يمكن استخدام طائرات أخرى في هذه المحاكاة، ولديكم بالفعل بعض من هذه الطائرات في سلاحكم الجوي، سأريك في تجربة المحاكاة الأولى مهمة قصف جوية، حيث الطيارون المقاتلون الذين يقضون عشر أو خمس عشرة ساعة مع هذا البرنامج الزهيد السعر نسبياً إنما يسبقون بعدة ساعات الطيار الذي يتجمد في برنامج التدريب على الطيران. من شأن هذا أن يوفر ملايين الدولارات لكل طيار".

على نحو مفاجئ تغيّر المشهد أمام الواجهة الزجاجية للقمرة المقلّدة، من السماء الزرقاء الصافية إلى الأفق الأخضر، وقال بول غراي "أنا الآن أستخدم عصا التحكم هذه بالإضافة إلى بعض المتحكمات الأخرى ولوحة المفاتيح، ولكن يمكن مشاركة البرنامج مع المتحكمات الفعلية لدى معظم المقاتلات الأميركية الحديثة، والموضوعة في خلفية محاكي الواقع الافتراضي الذي سنراه في وقت لاحق".

"هذا مثير جداً".

"الآن، إن معظم الأهداف المبرمجة داخل البرنامج هي أهداف خيالية؛ أشياء عامة، وجسور، ومطارات، ومواقع مضادة للطائرات، ومواقع صواريخ، وهي ترد عليك القذائف أيضاً". ثم ضحك وأردف "ولكن لديّ بعض الأهداف الحقيقية المسبقة البرمجة، بالإضافة إلى أهداف حقيقية يمكن برمجتها في حال كانت هناك خدع جوية جديدة، أو طقلقات قمر صناعي".

"نعم، أفهمك".

"جيد، إذاً سنستولي على أحد الجسور".

ثم تغيّر المشهد عبر الواجهة الزجاجية التي اختلقها الحاسوب من أفق بلا ملامح محددة إلى تلال ووديانٍ، ونهر يتدفق من خلالها. ومن مسافة بعيدة، كان أحد الجسور، ومجموعة مقلّدة من الدبابات والشاحنات المتحركة تبدو وكأنها تقترب بسرعة.

فقال بول غراي "تشبث". ثم اختفى الأفق، وعادت صورة السماء الزرقاء، بينما الطائرة ترتفع في الهواء، فيما شغلت شاشة الرادار بالقمرة شاشة المشاهدة اليُمنى، وقال غراي في كلمات مسرعة "هذا ما يتعين على الطيار أن ينتبه إليه لدى هذه النقطة. هل ترى الصورة الرادارية للجسر؟ لقد قام الحاسوب بعزلها تماماً عن فوضى الخلفية. هل ترى خطي التقاطع؟ إلى اليمين. إطلاق: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة".

في هذه اللحظة أظهرت الشاشة أمام خليل مشهداً رأسياً مقرَّبا للجسر المقلّد والمدرعات تعبره، ثم دوّت أربعة انفجارات رهيبة مصحوبة بصخب بالغ اندفع

من مكبر الصوت في اللحظة التي تحول فيها الجسر والشاحنات من فوقه إلى كرة نار ضخمة. ثم بدأ الجسر ينهار وتسقط من فوقه بعض الشاحنات قبل أن يتجمد المشهد المُحاكى، قال بول غراي "لم أرغب في عرض الكثير من الدماء أو الأحشاء في البرنامج، كي لا أتهم بأنني أحب هذه الأشياء".

"ولكن لا بد أن يعطيك الأمر بعض المتعة".

لم يجبه بول غراي.

كانت الشاشة قد أصبحت خالية تماماً، بينما كانت الغرفة مظلمة.

جلس الرجلان في الظلام لبرهة، ثم قال غراي "معظم أجزاء البرنامج لا تُظهر هذه التفاصيل الدقيقة؛ فمعظمها يهتم بتقدير أداء الطيار ونتائج الخسائر التي أحدثها. والحق أيها العقيد أنني لا أستمتع بالحرب".

"لم أقصد أن أكون هجومياً أو مزعجاً".

أضيئت الغرفة بعض الشيء، وأدار بول غراي رأسه نحو ضيفه، وقال "هل لي أن أرى بعض أوراق هويتك؟"

"بالطبع. ولكن دعنا أولاً نذهب إلى مقعدي الواقع الافتراضي، لندمّر موقعاً حقيقياً يعج بالأطفال والنساء. ربما، حسناً، هل لديك هدف عربي على سبيل المثال؟"

وقف بول غراي وتنهد بعمق قبل أن يقول "من أنت بحق الجحيم؟"

وقف أسد خليل بدوره وهو يحمل قنينة المياه في يد، ويده الأخرى في جيب سترته.

"من تظنني أكون إن لم أكن العقيد إيزاك هيوروك من السفارة الإسرائيلية؟"

لم يجبه بول غراي.

"سألمّح لك، انظر إليّ من دون النظارة الشمسية، وتخيلني من دون الشارب. من أكون؟"

هزّ بول غراي رأسه.

"لا تدّعي الغباء أيها النقيب، فأنت تعرف تماماً من أكون".

مرة أخرى هزّ بول غراي رأسه، إلا أنه هذه المرة ابتعد عن ضيفه خطوة إلى الوراء، وهو يركّز على يد خليل التي وضعها داخل جيبه، فيما قال أسد خليل "لقد تقاطعت حياتانا مرة واحدة عام 1986. كنت أنت مساعد الطيار في المقاتلة F-III من قاعدة لاكينهيث، بنداء 38. آنذاك، كنت أنا فتى في السادسة عشرة من عمره، أعيش حياة لطيفة مع أم، وأخوين، وأختين في مكان ما يُدعى...، بيد أنهم ماتوا جميعاً في تلك الليلة. هذا أنا إذاً. والآن، لماذا تظنني هنا الآن؟"

بلع بول غراي ريقه وقال "لو أنك عسكري فأنت بالقطع تفهم طبيعة الحرب، وأنه لا مناص من إطاعة الأوامر".

قال خليل "اخرس. فأنا لست عسكرياَ، ولكنني مقاتل. وواقع الأمر أنك أنت ورفاقك من القتلة من جعلتموني هكذا. وها أنا الآن قد وصلت إلى بيتك الجميل للانتقام لأفراد بلادي أجمعين". ثم أخرج مسدسه من جيبه وصوّبه باتجاه بول غراي.

دارت عينا بول غراي في الغرفة، وكأنه يبحث عن مهرب، فقال له خليل "انظر إليّ أيها النقيب بول غراي، انظر إليّ. أنا حقيقة، ولست جزءاً من حقيقتك الإفتراضية الغبية الخالية من الدماء. أنا حقيقة من لحم ودم. وأرد على النار بالنار".

عادت عينا بول غراي لتستقرا على أسد خليل الذي قال "اسمي أسد خليل، ويمكنك اصطحاب هذا السر معك إلى الجحيم".

قال بول غراي وهو يحدّق في خليل "اسمع، سيد خليل". وقد بدأت أمارات التعرف عليه تبدو في عينيه.

"نعم، أنا أسد خليل ذاك؛ الرجل الذي أتى على متن الرحلة 175، والذي تبحث عنه حكومتك. كان يجب عليهم البحث هنا، أو في منزل الراحل الجنرال وايكليف والفقيدة زوجته".

"أوه، يا الله".

"أو في منزل السيد ساذرويت؛ محطتي التالية هي إمّا السيد ويجينز، أو السيد ماكوي، أو العقيد كالوم. ولكن يسعدني أن أرى أنك لم تتوصل إلى أي نتائج، ولا هم كذلك".

"كيف عرفت؟"

"كل الأسرار يمكن شراؤها؛ لقد باعك أبناء بلدك في واشنطن مقابل المال".

"كلا".

"كلا؟ ربما إذاً كان العقيد هامبريشت، رفيقك في السرب هو من وشى لي بك".

"كلا، هل... هل قمت بـ".

"نعم، لقد قتلته، بفأس. لكنك لن تعاني العذاب الجسدي الذي عاناه، فقط بعض الألم العقلي بينما تقف هناك وأنت تتأمل ذنوبك وعقابك".

التزم بول غراي الصمت.

"إن ركبتيك ترتعدان أيها القائد، يمكنك التبول إن أردت، فلن يضايقني هذا".

تنهد بول غراي بعمق وقال "اسمع، إن معلوماتك خاطئة، فأنا لم أكن عضواً في تلك المهمة، أنا -"

قال خليل "أوه، سامحني إذاً، يجب عليّ أن أرحل". ثم ابتسم وسكب محتويات القنينة فوق السجادة.

طفق بول غراي يشاهد الماء وهو ينسكب فوق الأرض، ثم نظر إلى أسد خليل وقد كسى وجهه تعبير ينم عن الحيرة وعدم الفهم.

أما خليل فكان يحتفظ بالمسدس بالقرب من جسده، فدفع بفوهته إلى عنق الزجاجة البلاستيكية، فيما كان بول غراي يرى قاع القنينة مصوباً تجاهه، ثم رأى خليلاً يرفع السلاح من خلفها، وأدرك أخيراً ما كان يحدث، فمد ذراعيه في بادرة وقائية وهو يقول "لا! لا!"

أطلق خليل رصاصة واحدة عبر القنينة أصابت بول غراي في معدته. وعلى إثرها، انثنى الرجل ثم تعثر إلى الخلف حتى هوى على ركبتيه وهو يمسك بمعدته بكلتا يديه في محاولة منه لوقف نزيف الدماء، ثم نظر إلى الأسفل ليرى دمه وهو يتسرب من بين أصابعه.

رفع بول غراي عينيه إلى أسد خليل الذي كان يسير صوبه، وقال "توقف... لا ...".

لكنّ خليلاً صوّب مسدسه المزود بكاتم الصوت إلى بول غراي وهو يقول "لم يعد لديّ وقت أضيعه معك، فليس لديك العقل الذي ولدت به". ثم أطلق رصاصة أخرى إلى جبهة بول غراي فجّر بها دماغه، فاندفعت خلايا مخه من مؤخر جمجمته. وقبل أن يرتطم بول غراي بالأرض كان أسد خليل قد استدار والتقط غلاف الرصاصتين فيما تناهى إليه صوت جسد غراي وهو يهوي فوق السجادة.

بعد ذلك، توجّه خليل إلى خزانة مفتوحة مثبتة بين شاشتي العرض، حيث وجد بداخلها كومة من أقراص الحاسوب فأخذها ووضعها في حقيبته السوداء، ثم أخرج من الحاسوب ذاك القرص الذي كان بول غراي يستخدمه، وقال "شكراً لك سيد غراي على العرض، ولكن الحرب في بلادي ليست لعبة فيديو".

طفق خليل يدور بعينيه في أرجاء الغرفة من حوله حتى وقع بصره على دفتر مواعيد بول غراي موضوعاً فوق مكتبه، وكان مفتوحاً على ذاك اليوم، وفيه ملاحظة تقول "العقيد هـ، التاسعة والنصف صباحاً". وعندما قلب صفحات الدفتر قرأ "مكالمة جماعية - السرب - صباحاً". أغلق خليل دفتر المواعيد وتركه فوق المكتب؛ فلتبحث الشرطة عن المدعو العقيد هـ، وليظنوا أن هذا العقيد الغامض قد سرق بعض الأسرار العسكرية من ضحيته.

ثم شرع خليل يقلب دفتر البطاقات، وانتزع منه بطاقات بقية أعضاء السرب: كالوم، وماكوي، وساذرويت، وويجينز، حيث ذكرت كل بطاقة العنوان، ورقم الهاتف، وملاحظات حول الزوجات والأبناء.

كما اهتم خليل بأخذ بطاقة الجنرال تيرانس والسيدة جيل وايكليف؛ من ساكني واشنطن العاصمة سابقاً والجحيم حالياً؛ ووجد كذلك بطاقة ستيفين كوكس، ولاحظ أنه دُوّن عليها باللون الأحمر الحروف الأولى من عبارة

قتل في الحرب، وكذلك اسم امرأة تُدعى ليندا، وملاحظة تقول: تزوجت مرة ثانية من تشارلز دوير. وتلا ذلك عنوان ورقم هاتف.

أما البطاقة الخاصة بويليام هامبريشت فكانت تحمل عنواناً بإنكلترا وقد شطبه أحدهم واستبدله بعنوان آخر في مكان يُدعى آت آربور، بولاية ميتشيغن، وكتبت إلى جانبه كلمة *متوفى* وبجوارها تاريخ اليوم الذي كان خليل قد قتله فيه. كما كان هناك اسم امرأة أخرى - روز - واسمان آخران لأنثيين، واسم ذكر، كُتب بجوارهما كلمة *أبناء*. ثم وضع كل البطاقات في جيبه وهو يفكر أنه ربما احتاج إلى استخدام هذه المعلومات يوماً ما، ولقد أسعده أن بول غراي كان بهذه الدقة في تدوين المعلومات.

وضع خليل قنينته البلاستيكية أسفل ذراعه، وحمل مسدسه باليد الأخرى، ثم قذف بحقيبته السوداء فوق كتفه وفتح الباب الجرار. وما إن فعل ذلك حتى سمع صوت المكنسة الكهربائية وهي تمور في مكان ما، فأغلق الباب خلفه وسار في اتجاه الصوت.

كانت المرأة التي تقوم بتنظيف المنزل تعمل في غرفة المعيشة وظهرها للباب حيث وقف أسد خليل، ولم تسمعه وهو يخطو خلفها، حيث كانت المكنسة تحدث صخباً عالياً، بالإضافة إلى الموسيقى التي كانت تنبعث من مكان ما، لذا لم يعبأ خليل باستخدام القنينة البلاستيكية، واكتفى بأن صوّب فوهة المسدس إلى مؤخر عنقها فيما كانت هي تدفع وتسحب المكنسة الكهربائية. وعندما اقترب منها، سمعها خليل وهي تغني مع تلك الموسيقى بينما كانت تؤدي عملها. وما إن أطلق الزناد حتى تعثرت إلى الأمام ثم سقطت فوق السجادة بجوار المكنسة الكهربائية التي انقلبت بدورها.

أخيراً وضع خليل المسدس في جيبه والقنينة في حقيبته، وعدّل من وضع المكنسة فيما أبقاها تمور، وكالمعتاد أخذ غلاف الرصاصة، ثم سلك طريقه إلى المطبخ ومنه إلى الخارج حيث الباب الخلفي.

وضع خليل نظارته الشمسية وتتبع الطريق نفسه الذي أتى منه، مروراً بحوض السباحة، ثم خارج المنطقة المسورة، ثم أسفل الطريق المحدد بالشجيرات، وأخيراً إلى الحظيرة، حيث لاحظ أن الطائرة التي أقلته إلى هناك كانت مقدمتها تشير إلى الميناء. ولمّا لم يرَ قائدة طائرته، أسرع إلى الحظيرة وبحث داخلها، لكنها لم تكن هناك. ثم سمع خليل صوت حديث يأتي من الغرفة العلوية، فتوجّه إلى السلم وصعد

إلى العلية ليجد أن هذا الصوت كان ينبعث من تلفاز أو راديو. كان خليل قد نسي اسم المرأه، فشرع ينادي "هاي، هل من أحد هنا؟"

توقف صوت الحديث، وأطلت عليه ستاسي مول من فوق الجدار النصفي للعلية وهي تقول "انتهت المهمة؟"

"انتهت المهمة".

"حسناً سأنزل إليك في الحال". ثم اختفت لتعاود الظهور فوق درجات السلم ومنه إلى أرض الحظيرة.

"مستعد للإقلاع؟"

"نعم، مستعد".

ثم سارت ستاسي إلى خارج الحظيرة وتبعها خليل وهي تقول "يمكنك أن تأكل من فوق أرضية هذه الحظيرة. فكم هي نظيفة!" ثم سارت نحو جانب المسافر في الطائرة بيبر ومن ورائها خليل، ثم سألته "هل اشترى منك الزهريات؟"

"نعم، اشتراها".

"عظيم. كنت أود لو رأيتها. هل اشتراها كلها؟"

"نعم، اشتراها كلها".

"حظي سيىء. أعني أنه حظ جيد بالنسبة لك. وهل حصلت على السعر الذي أردته؟"

"نعم".

"عظيم". ثم قفزت فوق الجناح، ومدت يدها لتلتقط حقيبة خليل الذي ناولها إياها، وقالت "لا تبدو لي أخف وزناً عن ذي قبل".

"لقد أعطاني الرجل بضع قناني الماء لرحلة العودة".

فتحت ستاسي الباب الجانبي حيث وضعت الحقيبة في مؤخر الطائرة وقالت "أتمنى أن يكون قد أعطاك نقوداً كذلك".

"لقد فعل بالطبع".

دخلت ستاسي إلى الطائرة، وانزلقت فوق المقعد إلى اليسار وتبعها خليل، حيث جلس على المقعد إلى اليمين داخل قمرة القيادة الصغيرة، ثم ثبّت نفسه. وبالرغم من أن باب الطائرة كان لا يزال مفتوحاً، إلى أن درجة الحرارة داخل القمرة كانت مرتفعة حتى أن خليلاً شعر بوجهه يتعرق.

شغّلت ستاسي المحرك، وشرعت تخرج من الساحة قبل أن تستدير إلى يمين الميناء، ثم وضعت السماعات، وأشارت إلى خليل ليفعل مثلها.

لم يكن خليل يرغب في الاستماع إلى المزيد من حديث هذه المرأة، لكنه اتبع إرشاداتها على أي حال. وعلى الفور أتاه صوتها عبر السماعة وهي تقول "لقد

أخذت زجاجة من شراب الكوكا، ووضعت له دولاراً في الثلاجة، هل أخبرته؟"

"نعم، أخبرته".

"إنه البروتوكول. أتفهم ما أعني؟ فهناك العديد من المراسم في لعبة التحليق هذه؛ يمكنك استعارة أي شيء تحتاجه من دون استئذان على أن تترك ورقة بذلك. ويمكنك أن تحصل على الكوكا أو الشراب على أن تترك ثمنه. ولكن، ما هي طبيعة عمل غراي هذا؟"

"لا شيء".

"من أين يأتي بالمال إذاً؟"

"ليس من شأني أن أسأله عن هذا".

"صحيح، ولا من شأني أيضاً".

واصلت الطائرة خروجها من الميناء واتجاهها صوب المطار حتى وصلت إليه، فألقت ستاسي مول نظرة على عداد الرياح، ثم شرعت تسير إلى نهاية المدرج الثالث والعشرين. ومرة أخرى، مدّت ستاسي جسدها من فوق خليل لتحكم إغلاق الباب، ثم أذاعت لاسلكياً إلى طائرة أخرى، وتحققت بعينيها من الأجواء من حولها، وأخيراً شغّلت المحرك بكامل طاقته، وحررت المكابح، فطفقت الطائرة تسرع فوق المدرج حتى أقلعت عند خمسمئة قدم، ثم بدأت تستدير صوب الشمال عائدة إلى مطار كريغ في جاكسونفيل. كانت الطائرة تحلق على نحو منخفض في بادئ الأمر ثم عمدت إلى الصعود حتى استقرت على ارتفاع ثلاثة آلاف وخمسمئة قدم عند مئة وأربعين عقدة، ثم قالت ستاسي "زمن الرحلة إلى كريغ ثماني وثلاثين دقيقة إضافية".

لم يعلق خليل على هذا.

ساد الصمت الطائرة لبرهة من الزمن حتى سألته ستاسي "ما هي وجهتك بعد ذلك؟"

"لديّ رحلة بالطائرة في وقت مبكر من عصر اليوم إلى واشنطن، ومن هناك إلى أثينا".

"هل أتيت كل هذه المسافة فقط من أجل هذا الموعد؟"

"نعم".

"واو، أتمنى أن الأمر كان يستحقّ كل هذا العناء".

"يستحق بالفعل".

"ربما يجدر بي أن أنتقل إلى تجارة الزهريات اليونانية إذاً".

"لا يخلو الأمر من المخاطرة".

"حقا؟ أو، تعني مثلاً، مثلاً، أنه ليس من المفترض أن تخرج هذه الزهريات من بلادك؟"

“من الأفضل لو أنكِ لم تتحدثي عمّا دار بيننا في هذه الرحلة مع أي شخص آخر، حيث يبدو أنني قد تحدثت أكثر من اللازم”.

“اعتمد عليّ”.

“جيد. سأعود بعد أسبوع، وأتمنى لو حلّقت معكِ مرة أخرى”.

“على الرحب والسعة. ولكن في المرة القادمة حاول أن تبقى قليلاً فنحتسي معاً الشراب”.

“سيكون هذا لطيفاً”.

حلّقت الطائرة في صمت لنحو عشر دقائق قبل أن تقول ستاسي “في المرة القادمة اتصل من المطار وسيأتي أحدهم ليصطحبك، بحيث لا تحتاج إلى سيارة الأجرة”.

“شكراً لكِ”.

“إن أردت يمكنني أن أقلك إلى المطار”.

“هذا لطف بالغ منكِ”.

“لا توجد مشكلة. فقط اتصل أو أرسل فاكساً قبل مجيئك بيوم أو اثنين، وسأرتب الأمر بحيث أكون متاحة لك، أو يمكنك أن تقوم بالحجز لدى عودتنا إلى المكتب الآن”.

“سأفعل هذا”.

قالت ستاسي “جيد. إليك بطاقتي”. وأخرجت من جيب سترتها بطاقتها وناولتها لخليل، ثم أخذت تتحدث إلى المسافر بصحبتها طوال فترة الرحلة وهو يرد عليها بالردود المناسبة. وعندما شرعا في الهبوط، سألها خليل “هل اتصلتِ بصديقك في سبروس كريغ؟”

“حسناً، لقد فكرت في الاتصال به وإخباره أنني على بُعد بنايتين، ولكنني قلت لنفسي تباً لهُ، فهو لا يستحق حتى هذه المكالمة. في يوم ما سأطير على مستوى منخفض، وأسقط تمساحاً في حوض السباحة خاصته”. ثم ضحكت وقالت “أعرف رجلاً قد فعل ذلك ذات يوم بصديقته السابقة، لكن التمساح ارتطم بالسقف ومات من جرّاء الارتطام. خسارة، كان تمساحاً جيداً”.

وجد خليل نفسه يبتسم وهو يتخيل المنظر، وعندما لمحت ستاسي ابتسامته ضحكت وقالت “قصة جيدة. أليس كذلك؟”

عندما اقتربت الطائرة من مطار كريغ، اتصلت ستاسي ببرج المراقبة للحصول على تعليمات الهبوط. صرّح لها البرج بالهبوط، وفي غضون خمس دقائق كانت الطائرة تحوم فوق المدرج، وسرعان ما لامست عجلاتها الأرض.

ثم تحركت الطائرة ببير من ذاك المدرج عائدة إلى خدمات ألفا للملاحة حيث أوقفت ستاسي محرك طائرتها قبل الوصول إلى المكتب بنحو خمسين قدماً.

التقط خليل حقيبته، ونزل وستاسي من الطائرة، ثم شرعا يسيران نحو البناية.

سألته ‘‘هل استمتعت برحلتك؟’’

‘‘كثيراً’’.

‘‘جيد جداً. عادة لا أتحدث كثيراً أثناء رحلاتي، لكنني استمتعت بصحبتك’’.

‘‘أشكرك. أنا أيضاً استمتعت بصحبتك، كما أنك قائدة طائرات ماهرة’’.

‘‘شكراً لك’’.

وقبل أن يصلا إلى المكتب، سألها خليل ‘‘هل من المتاح لو طلبت منكِ ألا تذكري ذهابنا إلى سبروس كريغ؟’’

ألقت عليه ستاسي نظرة خاطفة وقالت ‘‘بالتأكيد. لا بأس، فثمن الرحلة إلى هناك هو نفس ثمن الرحلة إلى دايتون بيتش’’.

‘‘أشكرك’’.

ثم دخلا المكتب، وأقبلت عليهما المرأة خلف منضدة الاستقبال وسألته ‘‘أكانت رحلة جيدة؟’’

‘‘نعم، كانت جيدة جداً’’.

شرعت موظفة الاستقبال تدقق في بعض الأوراق، ثم نظرت إلى ساعتها، وأدخلت بعض الملاحظات وقالت ‘‘حسناً، ثلاثمئة وخمسون دولاراً تغطي تكلفة رحلتك’’. ثم عدّت مئة وخمسين دولاراً وأعطتها لخليل وهي تقول ‘‘يمكنك الاحتفاظ بالإيصال الذي يغطي المئة وخمسين دولاراً إن أردت’’. ثم غمزت له بعينها في إشارة إلى التآمر على شركته أو الهيئة التي يعمل بها إن أراد.

فوضع خليل المال في جيبه، فيما قالت ستاسي مول ‘‘سأعيد السيد بولس إلى مطار جاكسوفيل، إلا إذا كانت لديكِ رحلة أخرى لي’’.

‘‘كلا، معذرة يا عزيزتي’’.

‘‘لا بأس. سأهتم أنا ببيبر لدى عودتي’’.

قالت موظفة الاستقبال لأسد خليل ‘‘شكراً لاختيارك خدمات ألفا. ونتمنى عودتك ثانية’’.

أما ستاسي فسألته ‘‘أتود الحجز لرحلة الأسبوع القادم؟’’

‘‘نعم. في نفس الوقت بعد أسبوع واحد من اليوم، وإلى نفس المكان؛ دايتون بيتش’’.

دونت موظفة الاستقبال هذه الملاحظات على قطعة من الورق وقالت ‘‘لكَ هذا’’.

‘‘أتمنى أن تقود طائرتي هذه السيدة’’.

ابتسمت المرأة وقالت ‘‘لا بد وأنك صبور للغاية’’.

"لِمَ؟"

"بوسع ستاسي أن تتحدث حتى تأكل أذنيك. حسناً، أراك في الأسبوع القادم". ثم توجهت إلى ستاسي مول وقالت لها "شكراً لعودتك بالسيد بولس".

"على الرحب والسعة".

خرج أسد خليل برفقة ستاسي مول إلى الخارج حيث الشمس الحارة، فقالت "سيارتي هناك".

تبعها خليل إلى سيارة صغيرة، وفتحت ستاسي أبوابها بجهاز التحكم عن بعد، وسألته "هل نفتح سقفها أو تفضلها مغلقة؟"

"أفضلها كما هي الآن".

"حسناً، ابقَ هنا حتى أُبرّدها قليلاً". قالت ستاسي ثم دخلت سيارتها، وشغّلت المحرك ومكيف الهواء. وبعد دقائق، أشارت لخليل بالدخول "حسناً، هيا".

جلس خليل على المقعد إلى جوارها وقال "اربطي حزامك. إنه القانون". وربط هو حزامه.

أغلقت ستاسي بابها، وضبطت السيارة في وضع الانطلاق، ثم سارت بها نحو المخرج، ثم سألته "ما هو موعد رحلتك؟"

"الواحدة من بعد منتصف الليل".

"ستصل في الموعد المناسب إذاً".

كانت ستاسي قد خرجت من المطار وبدأت تزيد من سرعتها "أنا لا أقود السيارة بنفس مهارتي في قيادة الطائرة".

"هلاّ أبطأتِ من سرعتك من فضلك؟"

"بالتأكيد". وسألته فيما كانت تخفف من سرعتها "أتمانع لو دخنت لفافة تبغ؟"

"أبداً، تفضلي".

"ستقتلني هذه الأشياء في يوم من الأيام".

"ربما".

أخرجت القدّاحة من مكانها، والتقطتها ستاسي، وأشعلت بها لفافة التبغ وهي تقول "هناك مطعم يوناني رائع في جاكسونفيل. سبيرو، ربما نذهب إلى هناك معاً عندما تعود في الأسبوع القادم".

"سيكون هذا رائعاً، بل وسأرتب لقضاء الليلة هنا".

"نعم. استمتع بوقتك، فالحياة قصيرة".

"هي كذلك بالفعل".

"ماذا تطلقون على ذلك الباذنجان المحشو؟ موو موولاكا؟ أهو كذلك؟"

"لا أعرف".

نظرت إليه ستاسي وقالت "لا تعرف! إنه طبق يوناني شهير... موو... باذنجان مقلي في زيت الزيتون وجبن الماعز، ألا تعرفه؟"

"هناك العديد من المأكولات التي لم أسمع بها قط. أنا من أثينا".

"أحقاً؟ وكذلك الرجل صاحب ذاك المطعم".

"ربما يخترع مأكولات تناسب ذوق الأميركيين ويضع لها أسماء من خياله".

ضحكت ستاسي وقالت "لن يكون هذا أمراً مفاجئاً، فقد حدث لي هذا ذات مرة في إيطاليا، حيث وجدتهم لم يسمعوا قط بالأطعمة الإيطالية التي أردتها".

كانت السيارة تسير على طريق سريع نصف ريفي، وقال خليل "أشعر بالإحراج. كان يجب عليّ أن أستخدم الحمام في مكتبكم".

"ها؟ أوه، تحتاج أن تقضي حاجتك؟ لا بأس، فهناك محطة وقود على الطريق".

"ربما فعلت هذا هنا إن لم يكن لديك مانع، فأنا لا أستطيع الانتظار".

"لا بأس". ثم اندفعت إلى داخل طريق زراعي وأوقفت السيارة "هيا، اعتنِ بنفسك، ولن أختلس النظر".

"شكراً لكِ". خرج من السيارة، وسار مسافة بضعة أقدام نحو مجموعة من الأشجار، وتبوّل. وضع خليل بعدها يده اليمنى في جيبه وسار عائداً صوب السيارة ووقف لدى الباب المفتوح.

"أتشعر بتحسن الآن؟"

لم يجبها خليل.

"هيا ادخل".

إلا أنه لم يجبها كذلك.

"هل أنت بخير؟ ديميتريوس؟"

تنفس خليل بعمق، ولاحظ أن قلبه كان يخفق بشدة، فيما خرجت ستاسي من سيارتها مسرعة وهرعت إليه وأمسكت بذراعه "هاي، هل أنت بخير؟"

فنظر إليها خليل وقال "أنا، نعم، أنا بخير".

"أتريد بعض الماء؟ هل لديك تلك المياه المعدنية في حقيبتك؟"

تنهد ثانية وقال "كلا، أنا بخير". ثم أجبر نفسه على الابتسام وهو يقول "هيا بنا".

ردت له ستاسي الابتسامة بمثلها وقالت "عظيم، فلنذهب إذاً".

دخلا السيارة وعادت ستاسي إلى الطريق الرئيسي.

أما خليل فجلس صامتاَ وهو يحاول أن يفسر لنفسه السبب الكامن وراء عدم قتلها، حتى اهتدى إلى تفسير أرضى نفسه وهو قول مالك له إن كل محاولة قتل تتضمن مجازفة من نوع ما، كما أن قتل ستاسي ليس ضرورياً. ولكن ثمة سبب آخر منعه من قتلها، بيد أنه لم يرد أن يمعن التفكير في ماهية هذا السبب.

أخيراً وصلا إلى مطار جاكسونفيل الدولي، واتجهت ستاسي بالسيارة إلى منطقة المغادرة الدولية، ثم قالت "ها قد وصلنا".

"أشكرك. ترى هل من اللائق لو دفعت لكِ بقشيشاً؟"

"كلا، لكن يمكنك دعوتي على العشاء".

"فليكن، الأسبوع القادم". ثم فتح باب السيارة وخرج.

"أتمنى لك رحلة عودة سعيدة إلى الوطن، وأراك الأسبوع القادم"

قال خليل "نعم". وأخذ حقيبته من السيارة وأغلق الباب، ثم قال "لقد استمتعت بالحديث معك".

ضحكت ستاسي وقالت "تعني بحديثي الفردي؟ هيا، أراك في وقت لاحق أيها التمساح".

"معذرة؟"

"ألا تعرف مقولة بعد قليل أيها التمساح؟"

"وماذا تعني؟"

ضحكت وقالت "لا عليك، فقط تذكر: عشاء في مطعم سبيرو، وأريدك أن تطلب لنا الطعام باليونانية".

"حسناً، طاب يومك". ثم أغلق خليل الباب.

أنزلت ستاسي زجاج النافذة وهي تصيح من خلفه "موساكا".

"معذرة؟"

"موساكا، الطبق اليوناني".

"آه، نعم، بالطبع".

ثم لوّحت له وانطلقت، فيما وقف يشاهد سيارتها حتى اختفت عن ناظريه، ثم توجّه إلى صف سيارات الأجرة ودخل إلى السيارة الأولى.

سأله السائق "إلى أين؟"

"مطار كريغ".

"فليكن".

أقلّته سيارة الأجرة إلى مطار كريغ حيث وجّه خليل السائق صوب وكالة السيارات الموجودة بالقرب من المكان الذي أوقف فيه سيارته الميركوري، ثم دفع

لسائق السيارة أجرته وانتظر حتى ذهب، ثم سار إلى سيارته.

دخل خليل السيارة، وشغّل محركها، وفتح نوافذها، وشرع يقودها خارج منطقة المطار، وهو يبرمج الملاّح الآلي على مونكس كونر، في جنوب كارولاينا، وهو يقول لنفسه "والآن سأقوم بزيارة طال انتظارها إلى الملازم الأول ويليام ساذرويت؛ صحيح أنه يتوقع زيارتي، لكنه لا يتوقع أن يموت اليوم".

الفصل الثامن والثلاثون

بحلول منتصف يوم الاثنين كنت قد نقلت أغراضي إلى مركز قيادة الحادث، وكذلك فعل نحو أربعين رجلاً وامرأة آخرين، حيث أقيم المركز في غرفة الاتصالات الضخمة تلك، والتي ذكرتني بالغرفة في نادي الفاتحين.

كان المكان يعج بالنشاط والحركة وكأن الجميع يتحركون على أطراف أصابعهم، ولم تكف الهواتف عن الرنين، ورسائل الفاكس عن الإنهمار، وكانت محطات الحاسوب الطرفية تضيء هنا وهناك، وما إلى ذلك من الإعدادات. والحق يقال إنني لست أعلم الكثير عن التكنولوجيا الحديثة، وكل فكرتي عن التقنيات المتقدمة لا تتعدى المصباح والهاتف، إلا أن عقلي يعمل على نحو جيد. على أي حال، كان مكتبي في مواجهة مكتب كيت في مقصورة صغيرة، ولكنها مرتبة إلى حدٍّ ما، بيد أنني كنت أجدها غريبة نوعاً ما.

استقررت، وشرعت أقرأ كدسة كبيرة من المذكرات وتقارير التحقيقات، بالإضافة إلى بعض الترهات التي أخذناها في واشنطن في اليوم السابق. بالطبع ليست هذه فكرتي عن العمل على قضية كهذه، ولكن لم يكن هناك الكثير مما يمكن عمله في هذه اللحظة. أعني أنه في قضايا القتل العادية، عادة ما أكون في الشارع أو في المشرحة، أو أزعج الأطباء الشرعيين، أي أنني عادة ما أكون سبباً في أن تصبح حياة الكثيرين من حولي صعبة بحق حتى تصبح حياتي أسهل في القضية التي أعمل عليها.

نظرت إليّ كيت من فوق مكتبها وقالت "هل رأيت هذه المذكرة حول الجنائز؟"

"كلا، لم أفعل".

فنظرت إلى المذكرة التي تحملها في يدها، وشرعت تقرأ بعض الترتيبات. كانت جثة نيك مونتي معروضة لإلقاء النظرة الأخيرة عليها في دار الجنائز في كوينز، ومن المزمع إقامة جنازته الرسمية يوم الخميس، فيما أرسلت جثتا فيل هاندري وبيتر جورمان إلى موطنيهما. أما جثة ماغي كولينز - ضابطة المناوبة - فكانت معروضة لإلقاء النظرة الأخيرة عليها في نيوجيرسي ومن المقرر دفنها يوم الأربعاء. أما الترتيبات الخاصة بآندي ماكيغل ونانسي تايت فلم تكن معلنة بعد، وخطر لي أن الطبيب الشرعي قد أجلها لغرض ما.

لقد حضرت كافة عروض إلقاء النظرة الأخيرة، والدفن، ومراسم التأبين لكل من عملت معهم ولم يحدث أن فاتتني مناسبة كان المتوفى فيها قد لقي حتفه أثناء تأدية وظيفته. ولكن لم يكن ثمة وقت الآن لحضور هذه المراسم الأخيرة، فقلت لكيت "أظنني سأفوّت فرصة إلقاء النظرة الأخيرة والدفن".

أطرقت كيت، لكنها لم تقل شيئاً.

في تلك الأثناء كان المزيد من أعضاء فريق العمل يصلون إلى الغرفة، ولا يغفلون عن النظر نحوي ونحو كيت، وكأننا اثنان من صغار المشاهير، أعتقد أن

السبب يرجع إلى كوننا الشاهدين الوحيدين على حادثة القتل الجماعي الكبرى في التاريخ الأميركي؛ أو لأننا الشاهدان الحيّان الوحيدان على هذه الجريمة.

أخيراً، دخل جاك كوينج الغرفة وتوجّه نحونا، ثم جلس بحيث بدا وكأنه يجلس أسفل ذاك القسم من المقصورة، وقال "لقد وصلني بيان سري من لانغلي في السادسة والنصف مساءً بتوقيت ألمانيا، يذكر فيه أن رجلاً تطابق مواصفاته مواصفات أسد خليل قد أطلق الرصاص على صراف أمريكي في فرانكفورت، ثم فر هارباً. ولقد وصفه أربعة من شهود العيان بأنه عربي الملامح، ولقد تعرفوا جميعاً عليه، وقالوا إنه أسد خليل عندما عرضت عليهم الشرطة الألمانية صورته".

أقل ما يوصف به ردّ فعلي لدى سماع ذلك هو الذهول، فقد صدمني بحق ما سمعته، ووجدت مهنتي تذهب أدراج الرياح. فهذا الحادث كان يعني أنني أخطأت في تقديراتي بشكل فادح، وعندما يحدث لك هذا تبدأ في التساؤل ما إذا كنت فقد فقدت كل ما كان لديك على أي حال.

عندما نظرت إلى كيت، وجدت الدهشة ذاتها على ملامح وجهها، فهي أيضاً كانت على يقين بأن أسد خليل لا يزال في الولايات المتحدة.

على الفور رحت أفكر في تقديم استقالتي والانضمام إلى حزب المتقاعدين، ويا لها من نهاية سيئة لرحلة عملي! ولكنك لا تتعافى مهنياً أبداً عندما تفسد أكبر قضية على مستوى العالم، عندئذ وقفت، وقلت لجاك "حسناً، انتهى الأمر إذاً، أظنني... أعني". وللمرة الأولى في حياتي شعرت أنني خاسر بحق، أو متفاخر أصابه العجز، أو حتى أحمق أو أبله، بيد أن كل ما قاله جاك كان "اجلس!"

"كلا، لم أعد أنتمي إلى هذا المكان يا رفاق".

ثم التقطت سترتي، وانطلقت نحو الممر الطويل، وقد توقّف عقلي تماماً عن العمل، فيما جسدي يتحرك فقط لأنه معتاد على الحركة، تماماً كما كانت حالتي وأنا أنزف بشدة في عربة الإسعاف.

عندما وصلت إلى المصعد، ومكثت أنتظر انفتاح بابه، لاحظت أنني لم أتذكر حتى كيف وصلت إلى هناك. وما زاد الأمر سوءاً هو أنني فقدت الثلاثين دولاراً التي راهنت بها مع الاستخبارات المركزية.

على نحو مفاجئ، وجدت كيت وجاك بجواري فيما كان هذا الأخير يقول "اسمع إياك أن تتلفّظ بكلمة عن هذا الأمر أمام أي شخص".

لم أفهم قصد جاك، إلا أنه تابع قائلاً "لم يكن ذلك التعرف على صورة أسد خليل صحيحاً؛ أليس هذا أمراً مستحيلاً؟! ومن ثم فإننا نحتاج أن يستأنف الجميع عملهم في هذه القضية على أساس أن أسد خليل لا يزال هنا. أتفهم هذا؟ فقلة هم من يعرفون بأمر حادثة فرانكفورت تلك، ولقد أخبرتك لأنني شعرت أنني أدين لك بهذا. ولكن حتى ديفيد ستين لا يعرف شيئاً عن الأمر. جون عليك أن تحتفظ بهذه المعلومة لنفسك".

فأطرقت ولم أجب.

"ومن ثم لا يجدر بك أن تقوم بأي سلوك من شأنه أن يثير الشكوك، أي أنه ليس تقديم استقالتك".

"بل يمكنني".

فقالت كيت "بل لا يمكنك يا جون، وعليك أن تقوم بهذا؛ أن تتصرف وكأن شيئاً لم يكن".

"لا أستطيع، فأنا لا أجيد التمثيل. ثم ما الهدف من ذلك؟"

أجابني جاك "الهدف هو الحفاظ على حماسة أفراد الفريق ومعنوياتهم. اسمع نحن لا نعرف يقيناً ما إذا كان ذلك الرجل الذي ظهر في فرانكفورت هو بالفعل أسد خليل". ثم حاول أن يأتي بمزحة وهو يقول "ما الذي يدفع بدراكولا هذا ليذهب إلى ألمانيا؟"

لم أكن راغباً في تلك اللحظة أن يذكرني أحدهم بالمقارنة الغبية التي عقدتها من قبل مع قصة دراكولا، ولكنني حاولت بالفعل أن أهدأ وأفكر بمنطقية، وأخيراً قلت "ربما كان في الأمر خدعة، ربما زرعوا هناك شبيهاً له".

أطرق كوينج ثم قال "هذا صحيح، فنحن لا نعرف على وجه التحديد".

هنا وصل المصعد وانفتح بابه، إلا أنني لم أدخله، ولاحظت أن كيت كانت تمسك بذراعي.

قال كوينج "والآن أعرض عليكما فرصة السفر إلى فرانكفورت الليلة والالتحاق بالفريق الأميركي هناك من فيدراليين ورجال الاستخبارات المركزية، وكذلك الشرطة الألمانية والاستخبارات الألمانية. بالفعل أرى أن عليكما الذهاب إلى هناك".

لم أجبه بأي شيء حتى قالت كيت أخيراً "أتفق معك. أليس كذلك يا جون؟"

"نعم، أعتقد أنه... أفضل من البقاء هنا".

نظر كوينج إلى ساعة يده ثم قال "هناك طائرة لوفتهانزا تنطلق من مطار كنيدي عند الساعة الثامنة وعشر دقائق مساءً، وتصل صباح الغد. وسيقابلنا ناش عند ...".

"تيد؟ تيد هناك؟ ظننته في باريس".

"أعتقد أنه كان في باريس بالفعل، ولكنه في طريقه إلى فرانكفورت الآن".

أومأت وقد انتابني شعور بأن ثمة شيئاً مضحكاً في الأمر.

قال كوينج "حسناً، فلنغلق ملفاتنا هنا، ونتقابل في مطار كنيدي في تمام الساعة السابعة مساءً على أبعد تقدير للحاق برحلة لوفتهانزا في الثامنة وعشر دقائق المتوجهة إلى فرانكفورت. ستكون تذاكر الطائرة في انتظارنا، واحزما أمتعة تصلح للبقاء لفترة طويلة". واستدار عائداً إلى مركز الحدث.

أما كيت، فقد ظلت واقفة لبرهة قبل أن تقول "جون، إن أكثر ما أحبه فيك هو أنك شخص متفائل، ولا تسمح لأي شيء بهزيمتك أو إحباطك، وكذلك لأنك تنظر إلى المتاعب بوصفها تحديات جديدة، وليس...".

"أنا لست بحاجة إلى هذا الحديث التشجيعي".

"حسناً، لا بأس".

ثم توجهنا صوب المركز فيما كانت كيت تقول "لقد أحسن جاك صنعاً بإرسالنا إلى فرانكفورت، هل سبق لك الذهاب إلى هناك؟"

"كلا".

"لقد ذهبت بضع مرات، ولربما قادتنا هذه الرحلة إلى الطواف بأوروبا كلها وراء المعلومات. هل تستطيع الاختفاء لفترة قصيرة دون إحداث الكثير من الإزعاج؟"

أجبتها ببساطة "لا مشلكة". بيد أنني شعرت أن هناك المزيد من الأسئلة خلف ذلك السؤال.

وما إن وصلنا إلى المركز حتى توجهنا إلى مكتبينا، وشرعت أضع بعض الأوراق في حقيبتي الدبلوماسية، تاركاً في الأدراج أشياء لا قيمة لها. أردت أن أهاتف بيث، لكنني فكرت أنه ربما كان من الأفضل أن أنتظر حتى عودتي إلى المنزل.

كانت كيت قد انتهت من إعداد مكتبها حين قالت "سأذهب إلى المنزل لحزم أمتعتي. هل سترحل الآن؟"

"كلا، لا يلزمني سوى خمس دقائق لحزم أمتعتي على أي حال. أراك في مطار كنيدي".

"إذاً، أراك في ما بعد". وخطت بضع خطوات قبل أن تعود أدراجها، وقرّبت وجهها من وجهي وهي تقول "لو أن خليلاً هنا، فسيعني هذا أنك على حق، أما إن كان في أوروبا، فستكون أنت أيضاً هناك، أليس كذلك؟"

لاحظت أن هناك بضعة أشخاص ينظرون إلينا، فقلت لها "شكراً لكِ". ثم ذهبت.

مكثت جالساً على مقعد مكتبي، وأنا أفكر في تحول الأحداث هذا، وأحاول التأكد من مفردات حدسي. فحتى لو أن خليلاً قد ترك البلاد، فلماذا وكيف ذهب إلى أوروبا؟ فحتى رجل مثله كان سيعود إلى وطنه ليحصل على التهنئة والمكافأة. كما أن قتل صراف ليس بالعمل العظيم التالي الذي قد يقوم به بعد حادثة الطائرة تلك. وعلى الرغم مما تقدم كانت أعصابي تحترق بالفعل بسبب هذا، فمن السهل أن تتحايل على نفسك عندما تكون أكثر ذكاءً مما يجب.

ما أعنيه هو أن المخ تكوين عبقري بحق، فهو العضو الإدراكي الوحيد في الجسد البشري، باستثناء العضو التناسلي بالطبع. ومن ثم مكثت هناك على مقعد مكتبي وأن أتوجه بعقلي في كافة الاتجاهات فيما كان عضوي الآخر يحدثني قائلاً

"اذهب إلى أوروبا مع كيت واقضيا معاً وقتاً ممتعاً، فليس هناك ما يدعوك إلى البقاء في نيويورك يا جون". إلا أن المناطق الأعلى فكرياً كانت تقول "هناك شخص ما هنا يحاول التخلص منك". لست أعني تحديداً أن هناك شخصاً بعينه يسعى إلى إرسالي عبر البحار لأقع في فخ من نوع ما. ولكن ربما كان هناك شخص ما يريد إبعادي عن موقع الحدث، ربما كانت تلك الواقعة في فرانكفورت واقعة مفتعلة، سواء من قِبل الجهة التي تحرك أسد خليل أو حتى من وكالة الاستخبارات المركزية. ولكم هو مزعج ألا تعرف الحقيقة من الزيف، من هم أصدقاؤك ومن هم أعداؤك مثل تيد ناش.

في بعض الأحيان أشعر بالحسد تجاه ذوي العقول المحدودة، مثل عمي بيرتي؛ العجوز الخرف. بإمكانه أن يخفي عن نفسه بيض الفصح، أتتخيل هذا؟ لكنني لم أصل بعد إلى مرحلة عمي بيرتي، ولا يزال لدي الكثير من الأطراف العصبية تنفتح وتنغلق، وأعصابي تتوهج الآن بالمعلومات، والنظريات، والشكوك.

انغمست في تفكيري هذا، ثم نهضت، وهممت في الذهاب، لكنني عاودت الجلوس، ثم وقفت مرة أخرى. بدا هذا غير مألوف للأشخاص من حولي، فاتجهت صوب الباب وأنا أحمل حقيبتي وقد عقدت العزم على اتخاذ قراري قبل ذهابي إلى المطار، وقد كنت أميل في هذه اللحظة إلى الذهاب إلى فرانكفورت.

كنت قد وصلت إلى المصاعد في اللحظة التي كان جابريل هيثم يقترب فيها مني، وما إن رآني حتى أشار لي للذهاب إليه. فذهبت إلى حيث كان يقف فقال في صوت ناعم "أظن أن لديّ عرضاً حياً لأجلك".

"ماذا تعني".

"لدي رجل في غرفة الاستجواب، ... الجنسية، وقد اتصل بأحد فرق البحث التابعة لنا".

"أتعني أنه متطوع؟"

"نعم، إنه كذلك. ولم يسبق له أن وقع في أي متاعب معنا، ولم يحدث أن تقدم إلينا بأي معلومات من قبل؛ أي أنه ليس مدرجاً في أي من قوائمنا. واسمه فادي أسوَد".

"لماذا تشبه كافة أسمائكم أسماء لاعبي الصف الأول في فريق نيكس لكرة السلة؟"

ضحك جابريل وقال "يا رجل، جرّب إذاً أن تعرف أسماء لجنة العمل بالحي الصيني؛ ستبدو لك كالضوضاء التي تحدثها ماكينات اللعب بالكرات الحديدية. اسمع هذا الرجل سائق سيارة أجرة، ولديه زوج أخت – من جنسيته أيضاً - يُدعى جمال جبّار، وهو سائق سيارة أجرة كذلك. يجعلنا هذا جميعاً - نحن العرب - نبدو كسائقين لسيارات الأجرة، أليس كذلك؟"

"بلى".

"حسناَ، في وقت مبكر من صباح يوم السبت اتصل جمال جبار بأخ زوجته - فادي أسود- وأخبره أنه سيختفي اليوم بأكمله، حيث سيذهب في توصيلة خاصة من مطار كنيدي. وقال له إنه لا يطمئن لهذه المهمة".

"استمر".

"كما قال له إنه في حال تأخر في العودة إلى منزله، يتعين على فادي هذا أن يتصل بأخته - زوجة جمال - ويخبرها أنه بخير وأنه ما من خطب".

"ثم؟"

"عليك أن تتفهم طبيعة العرب".

"أحاول هذا بالفعل".

"ماذا كان جمال جبار يحاول قوله لنسيبه هذا؟"

"نعم، فهمت هذا. كان يعني أنه ربما وصل الأمر إلى أكثر من مجرد تأخير".

"تماماً، وكأنه كان يعني أنه ربما سيلقى حتفه في هذه المهمة".

"وأين جمال الآن؟"

"لقد لقي حتفه بالفعل، ولكن فادي لا يعلم بالأمر. لقد انتهيت لتوي من الاتصال بالقسم الجنائي، حيث تلقى رجال شرطة بيرث أمبوي اتصالاً هذا الصباح من مسافر ما كان قد ذهب إلى مرآب ما حوالى الساعة السادسة والنصف صباحاً حيث رأى سيارة الأجرة الصفراء وعليها لوحات نيويورك، فوجد الأمر غريباً، وبينما كان يسير نحو مظلة الحافلات، نظر إلى داخل السيارة، فرأى رجلاً نصف ملقى على أرضية السيارة تجاه مقعد السائق، والأبواب مغلقة. فالتقط هاتفه الخلوي واتصل بالرقم 911".

"فلنذهب إذاً ونتحدث مع فادي".

"حسناً، ولكن أظنني اعتصرته حتى آخر قطرة وكنا نتحدث العربية".

"دعني أجرب الإنكليزية إذاً".

بينما كنا نسير أسفل الممر قلت لجابي "لماذا أخبرتني بهذا الأمر؟"

"ولم لا؟ أنت بحاجة إلى بعض المعلومات. فليذهب مكتب التحقيقات الفيدرالية إلى الجحيم".

"آمين".

ثم توقفنا أمام باب غرفة الاستجواب، وقال جابي "لقد تلقيت تقريراً أولياً من الطب الشرعي عبر الهاتف؛ ذاك المدعو جمال قد قتل بطلقة واحدة أطلقت عليه من خلف مقعده اخترقت عموده الفقري وبطينه الأيمن، ثم استقرت في لوحة العدادات بالسيارة".

"طلقة من عيار أربعين؟"

“نعم، بالرغم من أن الطلقة قد تشوهت، إلا أنه ما من شك في أنها عيار أربعين. ولقد قُتل الرجل عصر يوم السبت على وجه التقريب، أو في وقت مبكر من مساء ذلك اليوم”.

“وهل تحقق أحد من ترخيص العداد خاصته؟”

“نعم، ولكن لم يتم تسجيل أي مدفوعات لترخيصه طوال يوم السبت. كان جمال يعيش في بروكلين، ويبدو أنه قد ذهب إلى مطار كنيدي، وتمت تصفيته في نيوجيرسي. بالطبع لا يمكن الوصول إلى هناك من دون تسديد رسوم، ما يعني أنه سدد الأموال نقداً، بينما راكبه يختفي خلف جريدة أو شيء كهذا. ربما لن يمكننا أن نتتبّع مساره، إلا أن قراءة الأميال على عداداته تتناسب والمسافة بين مطار كنيدي وحيث وجدنا سيارة الأجرة. رغم أنه ليس لدينا بطاقة هوية أكيدة للرجل بعد، إلا أن الصورة على رخصته تشبه الجثة التي عثرنا عليها”.

“هل ثمة شيء آخر؟”

“تلك كانت كل المعلومات الهامة”.

فتحت الباب، ودخلنا غرفة تحقيقات صغيرة، حيث كان فادي أسود يجلس إلى المنضدة وهو يرتدي بنطالاً من الجينز وقميصاً قطنياً أخضر اللون، وينتعل حذاءً رياضياً. كان يدخن لفافة تبغ ومنفضة السجائر أمامه تفيض بمحتوياتها، فيما كان الدخان يغمر هواء الغرفة. بالطبع كانت تلك بناية فيدرالية حيث التدخين محظور، ولكن في حال كنت مشتبهاً به أو شاهداً في قضية كبرى كتلك، يمكنك حينئذ التدخين.

كان يوجد في الغرفة رجل من وحدة مكافحة الإرهاب التابعة لشرطة نيويورك، يراقب الشاهد علّه يجد أي علامات تدل على أنه سيقتل نفسه بطريقة ما قبل أن يقتله الدخان، أو ليتأكد من أنه لن ينهض على نحو مفاجئ ويقصد المصاعد ويذهب، كما حدث من قبل.

ما إن رأى فادي أسود جابريل هيثم يدخل الغرفة حتى نهض واقفاً على قدميه. ولقد أعجبني هذا السلوك. ربما يجدر بي أن أدفع الشهود والمشتبه فيهم الذين أحقق معهم إلى النهوض متى دخلت الغرفة.

على أي حال، غادر رجل وحدة مكافحة الإرهاب الغرفة، وقدمني جابريل إلى الشاهد النجم في هذه الحلقة “فادي أقدم لك العقيد جون”.

يا الله يبدو أنني أبليت بالفعل بلاءً حسناً في اختباراتي كعريف، فقد وجدت فادي يحني رأسه ولم يقل شيئاً.

دعوت الجميع إلى الجلوس، ووضعت حقيبتي فوق المنضدة بحيث يراها فادي؛ فهؤلاء القوم من العالم الثالث يساوون بين فخامة الحقيبة وسطوة الشخص لسبب أو لآخر.

كان فادي شاهداً متطوَّعا، وبالتالي كان يجب أن يُعامل جيداً. لم يبدُ أن أنفه كُسِر يوماً، ولم تبدُ على وجهه علامات لأي كدمات. بالطبع قصدت المزاح في قولي

هذا، بيد أنني أعرف أن جابي قد يكون قاسياً في بعض الأحيان.

التقط جابي علبة سجائر فادي وقدّم إليّ واحدة منها. لاحظت أنها من ماركة كاميلز (الجمال)، وهو أمر وجدته مضحكاً بعض الشيء؛ فهو عربي لا مراء! على أي حال، أخذت لفافة التبغ وكذلك فعل جابي، وكذلك استخدمنا قداحته في إشعال اللفافتين، لكنني لم أحاول الاستنشاق.

ثم ضغط جابي على زر التسجيل الذي لاحظت وجوده فوق المنضدة، وقال موجهاً حديثه لفادي "فلتخبر العقيد بما أخبرتني به".

وعلى الرغم من أن فادي بدا حريصاً على أن يكون سلوكه مُرضياً، إلا أنه لم يبدُ عليه الخوف على الإطلاق. ما أعنيه هو أن دخول عربي إلى هذه البناية إنما يعني أنه قادم لإيقاع الضرر بشخص آخر، أو للحصول على مكافأة ما، أو لاستفزاز الفيدراليين. على أي حال، كان الرجل الذي يتحدث عنه فادي، والمدعو جمال جبار، ميتاً بالفعل؛ أي أن جزءاً من رواية هذا الرجل قد تم التحقق من صحته بالفعل، على الرغم من أنه لا يعلم بذلك بعد.

كان فادي يتحدث الإنكليزية بشكل جيد، بغضّ النظر عن أنه لم يفهمني بضع مرات، وأنه كان يميل إلى العربية أحياناً، ثم ينظر إلى جابي ليقوم بالترجمة لي. أخيراً، انتهى من روايته، وأشعلنا ثلاث لفافات أخرى، حيث مكثنا دقيقة كاملة في صمت تام، ولاحظت أنه بدأ يتعرق بالفعل، فملت نحوه وسألته بهدوء "لماذا أتيت لتخبرنا بقصتك تلك؟"

تنهد الرجل بعمق حتى بدا وكأنه امتص نصف دخان الغرفة إلى رئتيه، ثم أجاب "لأنني قلق على زوج أختي".

"وهل سبق لجمال أن اختفى على هذا النحو؟"

"كلا، فهو ليس من هذا النوع من الرجال".

تابعت التحقيق مع فادي أسود وأنا أركن أحياناً إلى الأسئلة الصعبة وأحياناً إلى الأسئلة العادية، وتعمدت أن أكون فظاً فيما أنا أفعل ذلك، فهو أمر يوفر الوقت ويبقي الشاهد أو المشتبه به مختل التوازن. لكن من تدريبي الموجز وخبرتي مع الأنماط الشرق أوسطية، كنت أعرف أنهم ماهرون في المراوغة والإطناب في حديثهم، وفي الإجابة عن السؤال بسؤال آخر، وفي إدخالك بمناقشة نظرية لا نهاية لها، وما إلى ذلك من المهارات. وربما كان هذا هو السبب في إخفاق الشرطة في التوصل إلى أي حلول معهم في قضاياهم. لكنني كنت أجيد لعب اللعبة، ومن ثم قضينا نصف ساعة في ثرثرة غير مثمرة، وكلانا يتساءل عمّا حدث لجمال جبار.

بدا أن جابي يقدّر لي حساسيتي الثقافية، ولكن على الرغم من ذلك بدأ صبره ينفد. فالثابت في الأمر هنا هو أننا حقاً لدينا دليل؛ فجوة ننفذ منها. تعرف عادة أن أمراً ما سيظهر على نحو مفاجئ، إلا أنك تندهش دائماً عندما يحدث ذلك بالفعل. في الحقيقة، كنت شبه متيقّن من أن جمال جبار هو من اصطحب أسد خليل من مطار كنيدي إلى ذاك المرآب في بيرث أمبوي بولاية نيوجيرسي، ثم تلقى رصاصة في ظهره نظير صنيعه ذلك. إلا أن أسئلتي الأساسية كانت إلى أين ذهب

أسد خليل بعد ذلك؟ وكيف وصل إلى هناك؟ فتوجهت إلى فادي أسود متسائلاً ‘‘هل أنت متأكد من أن جمالاً لم يخبرك بأنه سيصطحب... من المطار؟’’

‘‘كلا يا سيدي. لم يقل شيئاً ولكنه احتمال قائم. وأنا أقول ذلك لأنني لا أعتقد أن زوج أختي كان ليقوم بهذه التوصيلة الخاصة لفلسطيني أو عراقي. فزوج أختي كان وطنياً متعصباً، ولم يكن مهتماً بسياسات البلدان الأخرى التي تشاركنا العقيدة. ومن ثم يا سيدي، أنا لست متأكداً إن كان زبونه ذاك... أو لا، ولكنني عندئذ أتساءل، ما الذي يجعله يتكبد كل هذه المشقة من أجل شخص من غير بني وطنه؟ هل فهمت ما أعنيه يا سيدي؟’’

تباً! كان رأسي يطن وعيناي تدوران في محجريهما، حتى أنني لم أعد أتذكر سؤالي الذي وجّهته إليه في المقام الأول! ثم نظرت إلى ساعتي ورأيت أنه لا يزال بوسعي اللحاق بالطائرة ولكن لماذا أفعل؟

ثم سألت فادي ‘‘ألم يخبرك جمال عن وجهته؟’’

‘‘كلا يا سيدي’’.

أدهشتني قليلاً إجابته القصيرة الواضحة، ثم سألته ‘‘ألم يذكر لك مطار نيوارك؟’’

‘‘كلا يا سيدي، لم يفعل’’.

ملت إلى الأمام نحو فادي وأنا أقول ‘‘اسمع لم يحدث أنك اتصلت بوحدة مكافحة الإرهاب لتبلغ عن زوج أختك المفقود، فمن الجلي أنك تعرف تماماً من نحن، وماذا نفعل، وأن هذه ليست محكمة الأسرة يا صديقي. واضح؟’’

‘‘معذرة؟’’

‘‘إليك سؤال مباشر، وأرغب في إجابة تتألف من كلمة واحدة. هل تعتقد أن لاختفاء زوج أختك أي علاقة بحادثة الطائرة ترانس - كونتيننتل التي وقعت بمطار كنيدي يوم السبت؟ نعم أم لا؟’’

‘‘حسناً، كنت أفكر في هذا الاحتمال’’.

‘‘نعم أم لا؟’’

أخفض فادي عينيه وقال ‘‘نعم’’.

‘‘أتعني أنك ترى أن ثمة سوءاً ربما قد حلَّ بزوج أختك؟’’

أطرق فادي ولم يجب.

‘‘أتعتقد أنه ربما قُتل؟’’

‘‘نعم’’.

‘‘هل من المحتمل أنه قد ترك أي دليل آخر’’. ثم نظرت إلى جابي حتى يعيد عليه السؤال باللغة العربية، فأجاب فادي باللغة ذاتها وقام جابي بالترجمة لي ‘‘أوصى جمال فادي بأن يعتني بأسرته في حال وقع له سوء، وقال له إنه مضطر للقيام بهذه المهمة، وأنه يِسأل الله أن يعيده برحمته سالماً إلى أسرته’’.

ظللنا جميعاً صامتين لبرهة، ورأيت بوضوح أن فادي كان منزعجاً.

أما أنا فقد استغللت فترة الصمت تلك للتفكير في الأمر، فمن ناحية، ليس لدينا ما يمكن استخدامه على الفور. فكل ما لدينا هو تحركات خليل من مطار كنيدي وحتى بيرث أمبوي، هذا إن سلّمنا أن أسد خليل كان هو بالفعل الراكب في سيارة جمال. وحتى إن كان الأمر كذلك، فالمعلومات الأكيدة لدينا تتمثل في أنه من الأرجح أن خليلاً قد قتل جمال ثم ترك سيارة الأجرة خاصته واختفى. ولكن إلى أين؟ إلى مطار نيوارك؟ وكيف عساه وصل إلى هناك؟ بسيارة أجرة أخرى؟ أم أن سيارة خاصة كانت في انتظاره في ذلك المرآب؟ أو ربما سيارة مأجورة؟ وفي أي اتجاه ذهب؟ على أي حال، الثابت في الأمر هو أن خليلاً قد اختفى في حنايا الشبكة، وأنه لم يعد بأي حال في منطقة نيويورك أو العاصمة.

فنظرت إلى فادي، وسألته "هل يعلم أي شخص آخر باتصالك بنا؟"

هز الرجل رأسه نافياً.

"ولا حتى زوجتك؟"

نظر فادي إليّ كأنه ينظر إلى معتوه، ثم قال "أنا لا أتحدث إلى زوجتي في مثل هذه الأشياء؛ فلماذا عساك تخبر امرأة أو طفلاً بهذه الأمور؟"

قلت وأنا أقف "معك حق". ثم أردفت "حسناً يا فادي، لقد فعلت الصواب بقدومك إلينا، سيحبك العم سام لقيامك بهذا. والآن عد إلى عملك وتصرف وكأن شيئاً لم يكن. اتفقنا؟"

أطرق الرجل بصمت.

"كما أن لديّ لك أخباراً سيئة، لقد قُتل زوج أختك".

وقف فادي وحاول أن يتكلم، ثم نظر إلى جابي الذي تحدث إليه بالعربية، فتهاوى فادي فوق مقعده، وأخفى وجه بكفيه. فقلت لجابي "أخبره ألا يقول شيئاً لرجال التحقيقات الجنائية عندما يأتون لسؤاله، وأعطِه بطاقتك ليظهرها للتحريين ويطلب منهم أن يتصلوا بوحدة مكافحة الإرهاب".

أومأ جابي موافقاً، ثم شرع يتحدث إلى فادي باللغة العربية، ثم ناوله بطاقته.

ثم خطر لي أنني كنت محققاً جنائياً ذات مرة، وها أنا أطلب من أحد الشهود ألا يتحدث إلى رجال التحقيقات الجنائية لدى مديرية شرطة نيويورك، وأن يتصل بالفيدراليين بدلاً من ذلك. يبدو أن التحول قد اكتمل كلّه. لكم هذا مخيف.

حملت حقيبتي، وتركت أنا وجابي الغرفة فيما دخل رجل وحدة مكافحة الإرهاب.

بينما كنّا نسير في الممر، قلت لجابي "أبقِه تحت المراقبة طوال 24 ساعة؛ هو وأسرته وأخته وجميع من يعرفهم".

"اعتبر الأمر قد حدث بالفعل".

"وتأكد من ألا يراه أحد وهو يغادر المبنى".

"هذا ما نفعله دائماً".

"صحيح، واستعلم عمّا إذا كان هناك المزيد من القتلى من سائقي سيارات الأجرة".

"لقد أرسلت في طلب هذه المعلومات بالفعل، والبحث جارٍ".

"جيد، هل تجد في طلباتي هذه إهانة لذكائك؟"

"بعض الشيء".

فابتسمت للمرة الأولى منذ بدأ ذلك اليوم، وقلت لجابي "أشكرك لإطلاعي على هذا الأمر، أنا مدين لك بهذا".

"لا بأس، ولكن ماذا تظن؟"

"ما كنت أظنه دائماً؛ خليل في أميركا وهو ليس مختبئاً، بل يتحرك، إنه في مهمة بعينها".

"هذا ما أظنه أيضاً. ولكن ترى ما هي هذه المهمة؟"

"هذا ما يحيرني يا جابي. فكّر في الأمر. أخبرني بحق هل أنت وجبار من نفس الجنسية؟"

"كلا، وليس هناك العديد من أفراد بلده هنا فبلده صغير، والقليل من مواطنيه مهاجرون إلى الولايات المتحدة". ثم أضاف "أنا فلسطيني".

على عكس حسن تقديري للأمور، سألته "ولكن ألا تجد هذا الأمر مربكاً؟ ألا يمثل نوعاً من الضغط على أعصابك؟"

هزّ جابريل كتفيه وقال "الأمر يمضي بسلام في معظم الأحيان. أنا أمريكي من الجيل الثاني، وابنتي ترتدي البنطال القصير وتضع مساحيق التجميل، ولا ترد عليّ وتخرج مع...".

ابتسمت ونظرت نحوه ثم سألته "هل تتلقى أي تهديدات من أي أشخاص؟"

"من حين لآخر، ولكنهم يعرفون أن فكرة تهديد شرطي مفوض كضابط فيدرالي ليست بفكرة جيدة".

ربما كنت سأوافقه الرأي قبل يوم السبت، إلا أنني قلت له "حسناً، فلنطلب من رجال مديرية شرطة نيويورك ورجال الشرطة المدنيين أن يبدأوا البحث في السجلات عن كافة وكالات تأجير السيارات، وأن يبحثوا عن الأسماء التي تبدو أسماء عربية. أعرف أنه أمر يتطلب وقتاً طويلاً، وقد يستغرق أسبوعاً أو نحو ذلك، ولكننا لا نفعل شيئاً في أي اتجاه آخر على أي حال. وأعتقد أنه يجدر بك أن تقوم بزيارة شخصية إلى أرملة جمال جبار، وتعرف ما إذا كان قد أسرّ لها بأي شيء، ثم افعل المثل مع أصدقائه وأقربائه. فمن لدينا هنا يا جابي هو دليلنا الأول، وربما يقودنا إلى شيء ما، رغم أنني لست متفائلاً".

"لنفترض أن خليلاً هو من قتل جمال جبار، فكل ما لدينا هو شاهد ميت، ونقطة ميتة في بيرث أمبوي. والموت في نيوجيرسي ليس بالحدث النادر".

فضحكت وقلت له "معك حق، وأين سيارة الأجرة الآن؟"

"تتحقق منها شرطة ولاية نيوجيرسي، وما من شك أنه سيصلنا تقرير الفحص الشرعي للسيارة لاستخدامه في جمع الأوراق لتقديم قضية للمحكمة حال لزم الأمر".

أطرقت ولم أعلّق، كنت أفكر أنهم ربما وجدوا أي ألياف، أو قذيفة من عيار 40 تتسق وسلاحي هاندري وجورمان. عمل الشرطة المعتاد. ولقد شاهدت قضايا قتل حيث يستلزم تقديم الدليل المادي إلى هيئة التحكيم قرابة الأسبوع. وطبقاً لما كنت أقوم بتدريسه في جون جاي، فإنك تحتاج إلى دليل مادي لإدانة أي مشتبه فيه، إلا أنك لا تحتاجه للإمساك به.

لقد بدأنا في هذه القضية باسم القاتل، وصورته، وبصمات أصابعه، وتحليل الدي أن أيه خاصته، وحتى صور له وهو يتغوط؛ بالإضافة إلى طن من أدلة الطب الشرعي التي تربط بينه وبين الجرائم التي وقعت في مطار كنيدي. فالمشكلة ليست هنا إذاً، ولكن المشكلة تكمن في أن أسد خليل شيطان سريع مثل الزئبق، ولديه كافة الأعذار الإدراكية، إضافة إلى كونه عديم الرحمة، ويتمتع بالقدرة على تحديد أهدافه واختيار تحركاته.

قال جابي "لقد كنا نولي المجتمع الذي ينتمي إليه جبار انتباهنا على أي حال. ولكن الآن بعد أن قُتل أحدهم، ربما ينفتحون قليلاً. ومن ناحية أخرى، قد يسفر هذا عن رد فعل عكسي تماماً".

"ربما، ولكنني لا أعتقد أن لدى خليل العديد من المتواطئين؛ ليس بين الأحياء على الأقل".

"ربما لا. حسناً يا كوري سأذهب الآن حيث لديّ الكثير من العمل لأقوم به، وعليك أن توصل هذه المعلومات إلى المعنيين بالأمر في أسرع وقت ممكن، وكذلك تفاصيل اللقاءات التي تمّت مع فادي أسود. اتفقنا؟"

"حسناً، بالمناسبة، تأكد من ذهاب بعض الفيدراليين الساعين وراء المعلومات إلى فادي أسود؛ لإعطائه السجائر والمهدئات".

قال جابي "سأفعل، أراك في وقت لاحق". واستدار عائداً إلى غرفة الاستجواب فيما عدت أنا إلى المركز، حيث كان لا يزال يعج بشاغليه رغم أن الساعة قد تعدت السادسة مساءً بالفعل. فوضعت حقيبتي، وحاولت الاتصال بكيت في شقتها، إلا أن ما أجابني كان صوت بريدها الصوتي يقول "أنا لست في المنزل، رجاء اترك رسالة مفيدة".

تركت لها تلك الرسالة على افتراض أنها قد تتحقق من بريدها الصوتي، ثم حاولت الاتصال بهاتفها الخلوي بيد أنها لم تجبني. وعندما اتصلت بجاك كوينج على رقم منزله في لونغ أيلاند، أخبرتني زوجته أنه في طريقه بالفعل إلى المطار، ولم يحالفني الحظ مع للاتصال به على الهاتف الخلوي كذلك.

أما محاولتي التالية فكانت مع هاتف بيث في منزلها، ومرة أخرى أجابني المجيب الصوتي، فتركت لها الرسالة التالية "أنا في عملي في هذه اللحظة، وربما قد يرسلونني في رحلة ما. أنا أحب عملي، وأحب حياتي، وأحب رؤسائي، وكذلك مكتبي الجديد. إليكِ رقم هاتفي الجديد". ثم تركت لها رقمي المباشر في مركز الحدث، ثم قلت "كم أفتقدك، سارعي في الاتصال بي". وعندما أنهيت المكالمة أدركت أن ما كنت أقصد قوله لها هو أحبك. ولكن على أي حال، شرعت بعد ذلك في الاتصال بالنقيب ستين، وطلبت من سكرتيرته أن تحدد لي موعداً فورياً معه، ولكنها أخبرتني أنه مشغول في حضور العديد من الاجتماعات والمؤتمرات الصحفية. فتركت له رسالة غامضة محيرة حتى أنا لم أفهم مغزاها.

بعد أن انتهيت من إنجاز مهمتي في محاولة إطلاع الجميع على ما لديّ من معلومات، جلست إلى مكتبي أدير إبهاميّ حول بعضهما البعض. كان الجميع من حولي يبدون منشغلين، ولكنني لست ماهراً في أن أدعي الانهماك في العمل عندما لا أكون كذلك فعلاً. ومن ثم شرعت أحرك المزيد من الأوراق فوق مكتبي حين شعرت أنني بالفعل مُحمّل بالعديد من المعلومات عديمة الفائدة. ولمّا لم يكن هناك ما يمكنني فعله في الشارع، فقد ظللت في مركز قيادة الحدث، إذ ربما طرأ شيء جديد. وخمنت أنه يمكنني البقاء هناك حتى الثانية أو الثالثة من صباح اليوم التالي. ولأنه من المحتمل أن يطلب الرئيس مقابلتي، وحيث إنه يتعين عليّ ترك رقم يستطيعون الاتصال بي من خلاله، فمن الأفضل ألا أكون في المنزل ولا في مشرب غويليو أتناول الشراب.

أدركت لحظتها أنني لم أكتب بعد تقرير الحادث الخاص بي، والذي يتعلّق بكل ما حدث في مطار جون كنيدي. لقد أزعجني قليلاً أن أحمق ما في مكتب كوينج ظل يرسل لي رسائل البريد الإلكتروني طلباً لهذا التقرير، ورفض اقتراحي بأن نكتفي بتوقيعي محضر الاجتماع الذي تم في مكتب كوينج، والذي تم تسجيله على شريط، أو عشرات الاجتماعات التي تمت في واشنطن العاصمة. تباً لهذا الإصرار على تقريري الخاص! لكم تدنى مستوى الفيدراليين!

بعد ذلك، شغلت برنامج الكتابة بالحاسوب الخاص بي، وشرعت أكتب الموضوع؛ تقرير الحادث المؤسف. إلا أن أحدهم مرّ بجانبي، ووضع مغلفاً مغلقاً على مكتبي كُتب عليه من الخارج رسالة فاكس عاجلة؛ لاطلاعك أنت فقط، ففتحته وقرأته. كان تقريراً مبدئياً حول حادثة القتل التي وقعت في فرانكفورت. الضحية رجل يُدعى سول ليبويتز، معروف بأنه مصرفي يهودي أمريكي مستثمر يعمل في بنك نيويورك. وبقراءة ملخص ما حدث لذلك الرجل التعيس، انتهيت إلى أن السيد ليبويتز ذاك كان في المكان الخطأ، وفي الزمن الخطأ فحسب، فهناك الآلاف من المصرفيين الأميركيين في أوروبا - سواء كانوا يهوداً أم لا - يمكن العثور عليهم في أي لحظة، وكنت على يقين من أن هذا الرجل لم يكن سوى هدف سهل لرجل مسلح من الدرجة الثالثة، كل ما يميزه هو أنه يشبه أسد خليل. إلا أن هذه الحادثة قد أسفرت عن بعض الشكوك والتشويش لدى هؤلاء الذين يقتاتون على الشكوك والتشويش.

بالإضافة إلى هذا المغلف، استقرت وثيقتان أخريان هامتان فوق مكتبي؛ قائمتان للطعام، إحداهما إيطالية وأخرى صينية.

ثم رنّ جرس هاتفي، وكانت كيت هي المتصلة، وقالت "ماذا عساك تفعل عندك حتى الآن؟"

"أقرأ قوائم الطعام، وأين أنتِ؟"

"أين تظنني أكون؟! في المطار بالطبع يا جون. أنا وجاك ننتظرك في غرفة انتظار درجة رجال الأعمال، ومعنا تذكرة الطائرة الخاصة بك. هل انتهيت من حزم أمتعتك؟ وهل لديك جواز السفر خاصتك؟"

"كلا، استمعي إلي".

"انتظر".

سمعتها تتحدث إلى جاك كوينج ثم عادت إليّ لتقول "يقول جاك إنه يجب عليك أن تذهب معنا، وأنه يستطيع أن يؤمن صعودك إلى الطائرة بدون جواز سفر. ولكن أسرع كي تلحق بالطائرة. هذا أمر يا جون".

"اهدئي، واستمعي إليّ. لدينا دليل هنا". ثم أخبرتها بشأن ما حدث مع جابي هيثم، وفادي أسود، وجمال جبار.

استمعت إليّ كيت حتى انتهيت ولم تقاطعني، ثم قالت "انتظر". وعندما عادت إليّ مرة أخرى قالت "ولكن هذا لا يثبت أن أسد خليل لم يستقل طائرة من مطار نيوارك متوجهاً إلى أوروبا".

"كيت، الرجل كان في المطار بالفعل، على بعد أقل من نصف ميل من صالة السفر الدولية، وفي غضون عشر دقائق من تنبيه رجال شرطة هيئة الميناء في مطار كنيدي، كان أقرانهم في مطار نيوارك على علم بالأمر، فيما تستغرق المسافة قرابة الساعة للذهاب بالسيارة من المطار الأول إلى الثاني!"

"انتظر". ومرة أخرى سمعتها تتحدث إلى كوينج، ثم عادت إليّ لتقول "يقول جاك إن مواصفات القاتل في حادثة فرانكفورت مطابقة لـ...".

"أعطيني جاك".

بالفعل وجدت جاك معي على الخط، وما إن شرع يعرب عن غضبه مني حتى قاطعته قائلاً "جاك، السبب وراء تطابق المواصفات هو أنهم يحاولون خداعنا. لقد ارتكب أسد خليل لتوه جريمة القرن، ولن يسافر إلى ألمانيا لقتل مصرفي بحق الله! ولو أنه كان يقصد مطار نيوارك، فلماذا سيقتل سائق سيارة الأجرة؟ هذه الافتراضات لا تتسق وبعضها البعض. جاك، فلتذهب أنت إلى ألمانيا لو أردت، ولكنني سأظل هنا. فلترسل لي بطاقة بريدية وتحضر لي معك دزينة من مقانق فرانكفورت الحقيقية بالخردل الألماني الحار. وشكراً لك".

قلت هذا، وأنهيت الحديث قبل أن يستطيع فصلي من عملي. ولأن هذا الاحتمال كان قائماً بالطبع، صرفت انتباهي عن تقرير الحدث، وعدت إلى العمل على

مكتبي حيث رحت أخوض في أكوام الأوراق المتعلقة بالخلفية الثقافية، والتقارير الصادرة من الوكالات المختلفة، وكلها لم تأتِ بشيء مفيد. أخيراً، وصلت إلى ذلك النصف من طن الأوراق المتعلق بحادثة يوم السبت: الطب الشرعي، وشرطة المطار، وشكوى من إدارة الملاحة الفيدرالية وقد ظهر فيها اسمي واضحاً جلياً، وصور لأشخاص موتى على مقاعدهم، وتقرير قسم علم السموم، حيث ذكر أن الغاز كان مركب السيانيد وما إلى ذلك.

فكرت أن شيئاً ما في هذه الأوراق قد يكون دليلاً على شيء ما، بيد أن كل ما رأيته كان أعمالاً مكتبية لأناس ذوي أفق محدود جُلّ ما يبرعون فيه هو استخدام تقنية التصحيح الإملائي بأجهزة الحاسوب لديهم؛ الأمر الذي ذكرني بأنهم قد أوقفوا راتبي حتى أرسل لهم ذلك التقرير، ومن ثم أدرت مقعدي مرة أخرى صوب الشاشة ولوحة المفاتيح، وشرعت أبدأ التقرير بمزحة عن أحد أعضاء رابطة المحاربين الفرنسيين وأحد الجمال، لكنني محوتها، وبدأت أكتب من جديد.

قرابة الساعة التاسعة إلا ربعاً، وجدت كيت تدخل الغرفة وتتّجه صوب مكتبها المواجه لمكتبي، وراحت تراقبني وأنا أكتب تقريري ذلك، إلا أنها لم تقل شيئاً. وبعد بضع دقائق من المراقبة كنت قد بدأت فيها أتعثر ببعض الأخطاء الإملائية، نظرت إليها وقلت ”كيف كان الحال في فرانكفورت؟“

لم تجبني كيت، ولم يكن من الصعب أن ألحظ أنها كانت غاضبة بعض الشيء؛ فأنا أعرف نظرتها تلك. فسألتها ”أين جاك؟“

”لقد ذهب إلى فرانكفورت“.

”جيد، وهل فصلني من عملي؟“

”كلا، ولكنه سيجعلك تتمنى لو أنه فعل ذلك“.

”أنا غير قابل للتهديد“.

”قابل لماذا إذاً؟“

”ليس الكثير. ربما لمسدس مصوب إلى رأسي. نعم، فعادة ما يشد هذا انتباهي“.

”حدّثني ثانية عن ذلك الاستجواب“.

فأخبرتها بالأمر مرة أخرى، ولكن بمزيد من التفاصيل، فيما كانت هي تسأل العديد من الأسئلة. إنها فتاة ذكية بحق، ولهذا السبب كانت تجلس الآن في مركز قيادة الحدث بدلاً من مقعد الطائرة ذلك إلى فرانكفورت. أخيراً قالت ”تعتقد إذاً أن أسد خليل قد غادر ذلك المرآب في سيارة؟“

”أعتقد هذا“.

”وربما استقل حافلة مسافرين إلى مانهاتن“.

”لم لا؟ لقد فكرت بالفعل في هذا الاحتمال، فالناس يذهبون إلى ذاك المرآب لهذا السبب؛ أعني ليستقلوا الحافلة إلى مانهاتن، ولكن تبدو لي مبالغة أن يقتل سائق

سيارة الأجرة ثم يمكث في انتظار الحافلة. في الحقيقة، إنني أعتقد أنه لو طلب أسد خليل من جبار أن يُقلّه إلى مانهاتن لفعل جبار ذلك".

"لا داعي لأن تلجأ إلى السخرية معي يا جون، فأنت بذلك تخطو فوق طبقة رقيقة من الجليد".

"حسناً يا سيدتي".

ضغطت كيت على أسنانها من الغيظ للحظة، ثم قالت "حسناً، فلنقل إن سيارة ما كانت موجودة في ذاك المرآب ومعدة لفرار أسد خليل. ولا بد أنها كانت سيارة عادية لا تلفت الانتباه، ومتوفر بها سبل الأمان. فقام جبار بإيصال خليل إلى هناك، ثم أطلق عليه خليل رصاصة واحدة - من عيار أربعين - اخترقت عموده الفقري وقضت على حياته، ثم استقل تلك السيارة. ترى هل كان هناك سائق آخر بانتظاره؟ أو مساعد ما؟"

"لا أعتقد. فلماذا يحتاج إلى سائق؟ إنه يعمل على نحو منفرد، ومن الأرجح أنه كان يقوم بالقيادة في أوروبا بنفسه. فكل ما يحتاجه هو المفاتيح وأوراق السيارة، وربما قد حصل عليها من جبار. جبار، لا بد أن الرجل قد عرف ورأى أكثر مما يجب، فكان لا بد من التخلص منه. وفي تلك السيارة، أو ربما في سيارة الأجرة، كانت حقيبة سفره بانتظاره وفيها كل ما يحتاج إليه: نقود، وهوية مزيفة، وربما تنكر ما. ولهذا السبب لم يحاول خليل أخذ أي من نقود فيل أو بيتر. إن أسد خليل شخص آخر الآن، شخص يجوب طرقات أميركا السريعة العظيمة".

"وما هي وجهته؟"

"لا أعرف، ولكن لو افترضنا أنه يقود بأقل سرعة ممكنة، فربما يقود الآن سيارته عبر الحدود المكسيكية، أو ربما الساحل الغربي. خمسون ساعة من القيادة بسرعة خمسة وستين ميلاً بالساعة تكفل له مسافة تتعدى الثلاثمئة ميل، وبالأميال المربعة. دعينا نرى".

"لقد فهمت ما ترمي إليه".

"جيد، إذاً لنفترض أن لدينا قاتلاً طليقاً على أحد الطرقات السريعة، وبافتراض أن لديه هدفاً آخر غير رؤية ديزني لاند، إذاً علينا أن نمكث في انتظار فعلته التالية. فليس لدينا ما نفعله في هذه النقطة سوى أن نأمل في أن يتعرف أحدهم على الرجل".

أطرقت كيت، ثم نهضت واقفة وقالت "هناك سيارة أجرة تنتظرني بالخارج تحمل أمتعتي. سأعود إلى المنزل لتفريغ الأمتعة".

"أيمكنني المساعدة؟"

"سأنتظرك في السيارة".

جلست هناك لبضع دقائق رنّ في أثنائها جرس هاتفي مرة، وأتى أحدهم بكومة أخرى من الأوراق وضعها على مكتبي. كنت حينئذ أفكر في السبب الذي دفعني إلى عرض المساعدة على كيت؛ ربما يجدر بي أن أبقي فمي مغلقاً من الآن

فصاعداً. فهناك أوقات أفضل فيها مواجهة معتوه مسلح على مواجهة ليلة أخرى في شقة امرأة. فعلى الأقل تعرف موقفك أمام قاتل مجنون، وغالباً ما يكون الحديث مختصراً ومحدداً. ثم علا صوت رنين جرس هاتفي مرة أخرى. في الواقع، إن الهواتف كانت تدق في كافة أرجاء الغرفة المتسعة، وقد بدأ الأمر يثير أعصابي. على أي حال، بقدر براعتي في سبر أغوار عقول القتلة وتوقّع تحرّكاتهم، بقدر خيبتي في ما يتعلق بالارتباطات الجنسية، فأنا لا أعرف كيف أبدأ مثل تلك العلاقات، وما الذي يفترض بي أن أفعله ما إن أصبح متورطاً في إحداها. بل لا أعرف بالأساس السبب وراء وقوعي فيها، وكيف أخرج منها. ولكن عادة ما أكون على علم بالطرف الآخر، فأنا جيد في تذكر الأسماء، حتى في السادسة مساءً.

كما أنني أشم رائحة المشكلات عندما تكون وشيكة، وكانت تلك إحداها. هذا بالإضافة إلى أنني أصبحت مستقيماً ومحدداً كالسهم منذ علاقتي ببيث بينروز، ولم أكن أرغب في تعقيد تلك العلاقة ولا في تعقيد حياتي. ومن ثم قررت أن أذهب إلى حيث سيارة الأجرة تلك وأن أخبر كيت أنني قررت الذهاب إلى المنزل. فنهضت، والتقطت حقيبتي وسترتي وذهبت إلى أسفل البناية، ثم جلست إلى جوارها في سيارة الأجرة.

الفصل التاسع والثلاثون

تابع خليل طريقه نحو الشمال على الطريق I-95، وهو يتتبع ثانية طريقه من جاكسونفيل عبر حدود جورجيا، ومنها إلى كارولاينا الجنوبية. وعلى طول طريقه كان يتخلص من أقراص الحاسوب التي كان قد أخذها من مكتب بول غراي، وهو يتأمل فيما يقود تلك الأنشطة التي قام بها صباح ذاك اليوم. فما من شك أنه بحلول مساء ذاك اليوم سيأتي أحدهم لتفقد عاملة النظافة أو بول غراي، وسيعثر على جثتيهما. وبالطبع سيكون الدافع الواضح وراء قتل بول غراي هو سرقة ذلك البرنامج الهام، تماماً وفق الخطة الموضوعة. ولكنّ خليلاً أدرك أن ما لم يفكر به على نحو جيد كان مشكلة قائدة تلك الطائرة. فبحلول المساء أو صباح الغد من المحتمل أن تجذب أنباء جريمتي القتل في سبروس كريغ انتباه أي من العاملين في مكتب ألفا للخدمات الملاحية، وبالطبع لن يصعب على تلك القائدة أن تتذكر اسم بول غراي. فلم يخطر ببال أسد أن اسم الرجل سيكون معلقاً على باب حظيرته. فقد تتصل هذه المرأة بالشرطة وتخبرهم أنه ربما لديها معلومات حول الجريمة. وعلى الرغم من أنه لا يوجد أحد في بلده قد يقدم على الاتصال بالشرطة للإدلاء بأي معلومات قد تدفع به إلى التعامل مع السلطات، إلا أن بوريس كان على يقين من أن هذا قد يحدث في أميركا.

أومأ خليل لنفسه، وهو يقود السيارة، ويتذكر كيف أن بوريس قد طلب منه أن يستخدم حكمه على الأمور في ما يتعلق بقائد الطائرة، وأوضح له "إذا اضطررت إلى قتل الطيار، سيتعين عليك أن تقتل كذلك كل من كان على علم برحلتك تلك، وكل من رأى وجهك هناك. فالموتى لا يذهبون إلى الشرطة. ولكن كلما زاد عدد الجثث التي تتركها وراءك، كلما ازداد إصرار الشرطة على العثور على القاتل. فحادثة قتل فردية لرجل في منزله بغرض السرقة قد لا تثير الكثير من الاهتمام، بل وربما تكون محظوظاً بحيث يمضي الأمر في جاكسونفيل دون أن يلاحظه أحد".

مجدداً، أومأ خليل لنفسه، وهو يفكر أنه كان مضطراً إلى قتل عاملة التنظيف، تماماً كما فعل في واشنطن، حتى يعطيه هذا بعض الوقت كي يبتعد عن مكان الجريمة. ربما يجب على أحدهم أن يخبر بوريس أن الأميركيين لا يحبون تنظيف منازلهم بأنفسهم.

على أي حال، فالشرطة تبحث عن لص، وليس عن أسد خليل. كما أنهم لا يبحثون عن سيارته، وفي حال اتصلت قائدة الطائرة تلك بالشرطة، فإنهم سيبحثون عن اليوناني الماضي في طريقه الآن إلى واشنطن العاصمة. والأمر برمته يعتمد على مدى غباء رجال الشرطة.

وبالطبع كان هناك ذلك الاحتمال الآخر، وهو أن تلك المرأة قد ترى الصفحة الأولى المنشورة في الصحف وقد تتعرف عندئذ على هوية ذلك المسافر الذي اصطحبته وكان يجلس إلى جوارها. ما من شك أنه كان يجدر به قتلها، لكنه لم يفعل. وهو يعرف أنه لم يفعل ذلك بدافع الشفقة، ولكن بسبب ما قاله له بوريس ومالك عن كثرة القتلى. يبدو أن بوريس لم يكن بالغ الحذر فحسب، بل ومهتماً أيضاً بأرواح الأعداء، حتى أنه أراد أن يُحبط عملية قتل المسافرين على تلك الطائرة، ووصف هذا العمل بكونه *عملية قتل جماعي مجنونة*.

بينما كان يقود سيارته على الطريق I-95، حاول خليل أن يُخرج تلك الأفكار من رأسه وأن يعاود التفكير في بول غراي، وفكّر أن ميتته لم تكن ببسالة ميتة الجنرال وزوجته. بيد أنه لم يمت وهو يتوسل كي ينجو بحياته أيضاً. فكّر خليل أنه ربما يجب أن يجرب طريقة أخرى مع ويليام سادرويت. كانوا قد أخبروه في بلده أن الملازم أول سادرويت قد واجه بعض الصعوبات في حياته، وقال له بوريس "حتى إن قتله قد يكون بمثابة خدمة له". فأجابه خليل "ولكن ما من شخص يرغب حقاً بالموت. وسيسرني قتله تماماً كقتل الآخرين".

نظر خليل إلى الساعة المثبتة في لوحة العدادات، وكانت تشير إلى الثالثة عصراً وخمس دقائق. فنظر إلى الملاّح الآلي، وأدرك أنه سرعان ما سيترك ذلك الطريق ويتوجّه إلى طريق آخر يُدعى ALT17، حيث سيأخذه مباشرة إلى منطقة مونكس كورنر.

مرة أخرى، عادت أفكاره نحو صباح ذلك اليوم، حيث لم يزل تعامله مع تلك المرأة يترك أثراً مزعجاً لديه، بالرغم من أنه لم يستطع أن يفطن تماماً إلى سبب هذا التردد والتشويش الذي يحدوه. لقد كان لديه أكثر من سبب يكفي لقتلها، وأسباب أخرى تحول دون قتلها. وتذكر أنها قد قالت لتلك المرأة الأخرى خلف منضدة الاستقبال "سأعود لأعتني بأمر الطائرة". أي أنه في حال لم تعد كانوا سيشرعون في البحث عنها، وعنه بالطبع، إلا إذا فكّرت موظفة الاستقبال أن قائدة الطائرة والعميل قد قررا أن يظلا معاً. نعم، بوسعه الآن أن يرى من تعبير وجهها وسلوكها أن هذا ما كانت تفكر فيه. ولكن، حتى لو كان هذا صحيحاً، فلقد كان القلق سيساورها بعد مُضي بعض الوقت وستتصل بالشرطة في نهاية الأمر. لذا، ربما من الأفضل أنه لم يقتلها.

بينما كان يقود السيارة، كان مشهد قائدة الطائرة يملأ عليه عقله: ابتسامتها، حديثها إليه، مساعدتها له داخل الطائرة؛ لمسها له. لقد ظلّت هذه الأفكار تراود عقله حتى وهو يبذل الجهد كي يبعدها عن خياله وتفكيره. ثم تذكر بطاقتها في

جيبه، فأخرجها وراح ينظر إليها؛ كانت البطاقة تحمل رقم هاتف منزلها وقد كُتِب بخط اليد فوق رقم مكتبها في ألفا للملاحة، أعاد أسد البطاقة إلى جيبه مرة أخرى.

في آخر لحظة، لمح خليل المخرج الذي يقصده، فاندفع بالسيارة صوب اليمين، ثم إلى المخرج حيث يقوده إلى الطريق ALT17. وهنا وجد نفسه يجتاز طريقاً ذا اتجاهين، ومختلف تماماً عن الطريق السريع بين الولايات. كانت المنازل والمزارع على الجانبين، وكذلك القرى الصغيرة، ومحطات الوقود، وغابات الصنوبر. لقد حدث أن مرّ أحد المواطنين بهذا الطريق منذ عدة أشهر مضت نيابة عن خليل، وجاء في تقريره "يُعد هذا الطريق من أخطر الطرقات، حيث إن السائقين مجانين، ورجال الشرطة يراقبون كل المارة على درّاجاتهم النارية".

بالفعل، احترم خليل هذا التحذير، وراح يقود سيارته بحيث لا يلفت الانتباه إليه، فمرّ في طريقه بعدد من القرى، ولمح سيارة شرطة ودراجة نارية في اثنين منها. وعلى أي حال، لم يكن المكان الذي يقصده بعيداً، فقد كان يبعد مسافة 60 كيلومتراً أو 40 ميلاً فحسب، وفي غضون ساعة كان سيقترب من مدينة مونكس كورنر.

كان بيل ساذرويت يجلس مادًّا قدميه فوق مكتب صغير تبعثرت الأشياء من فوقه، في مبنى خراساني صغير في مطار بيركلي، بمدينة مونكس كورنر، في كارولاينا الجنوبية. كان يمسك بسماعة الهاتف المتسخة الرخيصة تلك بين أذنه وكتفه فيما يستمع إلى صوت جيم ماكوي عند الطرف الآخر. نظر ساذرويت إلى مكيف الهواء الضعيف المثبت على الحائط، حيث شفرته تصدر صوتاً في إيقاع منتظم، وينبعث تيار هزيل من الهواء البارد من فتحاته. كان شهر إبريل، وكانت درجة الحرارة بالخارج تقارب التسعين، وكأن طاقة من جهنم تنفتح فوق الرؤوس.

كان جيم ماكوي يقول "هل سمعت شيئاً من بول؟ كان من المفترض أن يتصل بك".

أجابه ساذرويت "كلا، وأعتذر لأنني لم أستطع أن أكون معكم في المكالمة الجماعية يوم السبت. كان يومي مشحوناً".

"لا بأس، فكّرت فقط أن أتصل كي أطمئن عليك".

قال ساذرويت "أنا بخير". وهو ينظر إلى درج المكتب أسفل المكان الذي استقرت فيه قدماه، حيث يعرف أنه في داخل ذلك الدرج قنينة ممتلئة من شراب جاك دانيال. عندما نظر إلى الساعة، وجدها الرابعة وعشر دقائق من بعد الظهر، بيد أنها الخامسة في مكان ما بالعالم دون شك، أي أن الوقت مناسب لبعض الشراب، في ما عدا أن الزبون القادم من أجل الطائرة كان من المفترض أن يكون هنا بحلول الرابعة. فقال ساذرويت "هل أخبرتك أنني سافرت منذ بضعة أشهر لرؤية بول؟"

"نعم، لقد أخبرتني بذلك".

"نعم، يجدر بك أن ترى مسكنه؛ منزل كبير، وحوض سباحة، وحظيرة، وفتيات جميلات يركضن هنا وهناك". ثم ضحك وهو يضيف "وعندما رأينني أقترب بطائرتي الأباتشي، حاولن حملي على الابتعاد". ثم تابع الضحك.

انتهز ماكوي الفرصة ليقول "لقد كان بول قلقاً بعض الشيء بشأن الأباتشي".

"أحقاً؟ إن بول كالمرأة العجوز في حال رغبت في معرفة رأيي فيه. كم مرة أضاع وقتنا للتأكد من الأشياء وفحصها مئات المرات؟ والحوادث تحدث لهؤلاء المبالغين في حرصهم. لقد اجتازت الأباتشي كافة اختبارات الملاحة الفيدرالية".

"فكّرت فقط أن أخبرك بالأمر يا بيل".

قال بيل "نعم". وهو لا يزال محدقاً في الدرج، ثم أزاح قدميه عنه، واعتدل بجلسته على مقعده الدوار قبل أن يميل إلى الأمام ويفتح درج المكتب ذلك، وهو يقول لجيم ماكوي "ولكن عليك أن تسافر إلى بول وترى مسكنه".

في الحقيقة، كان جيم ماكوي قد سافر إلى سبروس كريغ بضع مرات إلا أنه لم يشأ أن يذكر الأمر لساذرويت الذي دُعي إلى هناك مرة واحدة فحسب، بالرغم من أنه لا يبعد عن المكان أكثر من نصف ساعة بالطائرة "نعم، كم أحب ذلك".

"منزل رائع بكل ما فيه، ولكن عليك أن ترى ما يعمل عليه بول. تلك الحقيقة الافتراضية، بحق الله! لقد جلسنا هناك طوال الليل نحتسي الشراب ونطلق القنابل على كل شيء". ثم ضحك وأردف "ولقد قصفنا خمس مرات. شيء رائع بحق! وفي المرة الخامسة كنا قد ثملنا تماماً حتى إننا لم نستطع قصف الأرض العارية". ثم انفجر في موجات من الضحك المتواصل. ولقد جاراه ماكوي في الضحك، إلا أن ضحكه كان متكلفاً، فهو لم يكن بحاجة إلى سماع نفس القصة التي سمعها عشرات المرات منذ أن لبى ساذرويت دعوة بول لزيارته في سبروس كريغ لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، والتي وصفها بول في ما بعد بأنها كانت عطلة نهاية أسبوع طويلة جداً. فحتى هذه اللحظة لم يستطع أي من الرفاق أن يتفهموا كيف تدهور حال بيل ساذرويت في السنوات السبع الأخيرة منذ ان اجتمع طاقم الطيران في ذلك السرب في اجتماع غير رسمي. أما الآن فلم يعد الأمر يخفى على أحد منهم.

التقط بيل ساذرويت أنفاسه وقال "أتذكر عندما تأخرت كثيراً في فك المكابح؟ كاد تيري أن يتسلق فوق ظهري". ثم ضحك ثانية وهو يضع القنينة فوق المكتب، فيما لم يجبه جيم ماكوي الذي كان يجلس في مكتبه في المتحف الملاحي بلونغ أيلاند. في الحقيقة، كان ماكوي يجد صعوبة في الربط بين بيل ساذرويت الذي كان يعرفه وبيل ساذرويت الذي يتحدث إليه الآن. فالأول كان طياراً ماهراً وضابطاً في القوات الجوية. ولكن منذ تقاعده المبكر جداً وهو ينزلق على منحدر سريع نحو الهاوية، حتى أنه أصبح لا ينقطع عن سرد قصصه الحربية لأي شخص يتبرع بالاستماع إليه، بل وأصبح يرويها للرجال الذين كانوا معه في هذه المهات. وفي كل عام كانت هذه القصص تزداد إثارة.

كان جيم ماكوي قلقاً بشأن تفاخر بيل ساذرويت المتزايد بتلك المهمة التي اشتركوا فيها، فلم يكن من المفترض أن يذكر أحد منهم أنه شارك في هذه المهمة، وبالطبع ليس من المفترض أن يذكر أحدهم أيًّا من أسماء الطيارين الآخرين في السرب. ولقد طلب ماكوي من ساذرويت عدة مرات أن يكون حذراً في ما يقوله، وأكد له هذا الأخير أنه يستخدم فقط أسماءهم الشفرية التي كانوا يستخدمونها في

الرسائل اللاسلكية، أو أسماءهم الأولى فقط، متى ذكر تلك المهمة أو تحدث عنها. ولقد حذره ماكوي قائلاً "لا يجدر بك في الأساس أن تذكر أنك كنت أحد المشتركين في تلك المهمة. فلتتوقف عن الحديث عنها". وغالباً ما كان سادزرويت يجيب بقوله "يا صاح، أنا فخور بما فعلته، وليس هناك ما يدعوك إلى القلق، فهؤلاء الحمقى لن يأتوا إلى مونكس كورنر في كارولاينا الجنوبية للانتقام. انسَ الأمر".

فكّر ماكوي أنه ربما يجب عليه أن يذكر الأمر ثانية، ولكن ما الفائدة؟ وكثيراً ما تمنى لو أن رفيقه في السرب ظل في القوات الجوية على الأقل حتى حرب الخليج، ربما لو شارك فيها لكانت حياته أفضل الآن.

أما بيل سادزرويت، وبينما كان يتحدث عبر ذلك الهاتف، كانت عيناه معلقتين بالساعة والباب. أخيراً، أزاح غطاء القنينة وشرب منها، وقال وهو ينفجر ضاحكاً "وتشب اللعين، لقد نام طوال الطريق إلى هناك، ثم أيقظته، فقذف بالقنابل الأربع، وعاد إلى النوم مرة أخرى".

كاد صبر ماكوي ينفد وهو يذكّر سادزرويت "لقد قلت إنه لم يكف عن الثرثرة طوال الطريق إلى هناك".

"نعم، لم يغلق فمه للحظة".

هنا أدرك ماكوي أن سادزرويت لا يلاحظ التناقض بين الروايتين، فقال "حسناً يا صديقي، فلنظل على اتصال".

"كلا، لا تذهب الآن. فأنا أنتظر زبوناً ما، رجلاً يحتاج إلى الذهاب إلى فيلي حيث سيقضي الليلة ثم يعود إلى هنا مرة أخرى. كيف حال العمل لديك؟"

"لا بأس به. إنه مرفق على طراز عالمي، ربما لم ينته بعد، ولكن لدينا نماذج من الطائرات؛ F-III، بل ونموذج من سبريت سانت لويس؛ أقلع بها لينبيرج من مطار روزفلت على بُعد بضعة أميال من هنا. فلتأتِ لتراها، وسأدعك تصعد إلى الطائرة F-III".

"لأنها مهد الملاحة، لونغ أيلاند هي مهد الملاحة".

"وماذا عن كيتي هاوك؟"

"الأمر لا يعنيني، فأنا لست المسؤول عن هز المهد". قال ماكوي وضحك وهو يقول "فلتأتِ لزيارتنا عمّا قريب. اذهب إلى لونغ أيلاند ماك آرثر ولسوف آتي لاصطحابك من هناك".

"حسناً، سأفعل عمّا قريب. وكيف حال تيري؟"

كان جيم ماكوي يرغب في إنهاء المكالمة، ولكن لا مناص من تدليل الرفاق القدامى في الجيش، ولكن ليس أكثر مما ينبغي، فأجاب "إنه يرسل لك تحياته".

"هراء".

قال ماكوي "بل إنه يفعل بحق". وهو يحاول أن يبدو صادقاً، فبيل سانروويت لم يعد الصديق المفضل لأي منهما، ولعله لم يكن أبداً، ولكنهم يتشاركون رابط المعمودية المقدس وأخلاقيات المحاربين؛ أو على الأقل ما تبقى منها في أميركا، وهي أشياء تقتضي أن تظل هذه الروابط قائمة حتى يلفظ آخر رجل منهم أنفاسه الأخيرة. ولقد حاول جميع أفراد ذلك السرب أن يستوعبوا سانروويت، في ما عدا تيري وايكليف، ولقد التزم الجميع الصمت إزاء هذا الموقف من الجنرال.

قال سانروويت "أظن تيري لا يتملق وزارة الدفاع الأميركية، أليس كذلك؟"

"إنه لا يزال واحداً منهم، ومن المتوقع أن يتقاعد وهو لا يزال في منصبه هناك".

"تباً له".

"سأعمل جاهداً لأوصل له تحياتك".

ضحك سانروويت وقال "نعم، أتعرف ماذا كانت المشكلة مع هذا الرجل؟ إنه جنرال منذ أن كان ملازماً. أتفهم ما أعني؟"

"أنت تعرف يا بيل أن العديد من الأشخاص قالوا الشيء ذاته عنك؛ أعني أنني أجد في ذلك نوعاً من المجاملة".

"لو كانت هذه هي المجاملة من وجهة نظركم، فأنا بالقطع لا أريد أن أسمع إهاناتكم. ولكنها عادة تيري معي؛ وهو يتنافس مع الجميع. ولقد عذّبني لأنني تأخرت في فتح تلك المكابح اللعينة، وكتب ذات التقرير حول الحادثة، ووجّه لي اللوم بسبب تلك القنبلة التي سقطت في المكان الخطأ، بدلاً من لوم ويجينز على ذلك".

"على مهلك يا بيل، أنت تتجاوز الحدود".

تناول بيل سانروويت جرعة أخرى من الشراب، وحاول كتم التجشؤ الذي أصابه وهو يقول "نعم، حسناً، المعذرة".

قال ماكوي "لا بأس؛ فلتنسَ الأمر". وهو يفكر في تيري وايكليف وبيل سانروويت. لم يكن بيل حتى من ضمن احتياطي القوات الجوية، ولهذا السبب من الطبيعي أنه فقد كافة مميزات ما بعد الخدمة، وتلك كانت الضربة الكبرى لسانروويت؛ بما في ذلك التخفيض الذي يناله على الشراب في قاعدة شارلستون الجوية. ولكن تيري وايكليف لعب ببعض الخيوط - التي لا يعرفها بيل سانروويت - وكفل له بطاقة التخفيض على المشتريات من القاعدة، ثم قال لمحدثه "بالمناسبة، كان بوب معنا في المكالمة الجماعية".

تلوى بيل سانروويت في مقعده وهو يفكر في بوب كالوم ومرض السرطان الذي أصابه رغم أنفه. كان كالوم قد أصبح برتبة عقيد، وآخر ما سمعه عنه سانوريت هو أنه كان لا يزال يعمل كمدرب أرضي في أكاديمية القوات الجوية بكولورادو سبرينغز، ومن ثم سأل ماكوي "ألا يزال في الخدمة؟"

"نعم، وفي نفس المكان. فلتحاول الاتصال به في وقت ما".

“سأفعل، يا لها من ضربة قاسية”. ثم طفق يفكر للحظة قبل أن يقول “تنجو من الحرب، وتموت بما هو أسوأ”.

“ربما يستطيع التغلب على مرضه”.

“نعم، وأخيراً وليس آخراً، كيف حال تشب صديقي العزيز الصغير؟”

“لم استطع الاتصال به، ولقد أعادوا لي آخر خطاب أرسلته إليه على عنوانه في كاليفورنيا دونما عنوان بديل، وهاتفه لا يعمل، وليس لديّ أي معلومات عنه”.

“تماماً كويجينز في نسيانه تحديث أعماله المكتبية، وكنت بحق أبذل الجهد كي يبقى ذلك الرجل على علم بالأشياء، فاعتدت أن أذكره بكل ما يلزم عليه فعله”.

“إن تشب لا يتغير أبداً”.

“بالتأكيد”.

راح ماكوي يفكر في تشب ويجينز، فآخر مرة تحدث فيها معه كانت في الخامس عشر من إبريل العام الماضي. كان ويجينز قد عمد إلى دروس الطيران بعد تركه القوات الجوية، وهو يعمل الآن كطيار يحمل البضائع لدى العديد من خطوط الطيران الصغرى. كان تشب محبوباً من الجميع، بيد أنه لم يكن جيداً في الانتباه للتفاصيل، مثل تغيير بطاقة التعريف مثلاً. وما خطر على بال كلٍ من جيم ماكوي، وتيري وايكليف، وبول غراي هو أن السبب وراء إختفاء ويجينز هو انغماسه في عمله، وأنه أصبح الآن طياراً فيما لم يكن كذلك من قبل. كما أنه كان ضمن طاقم ساذرويت، وربما كان ذلك سبباً كافياً لإحساسه المتضارب نحو الماضي. أخيراً قال جيم ماكوي “سأحاول العثور عليه. ولا أظن أن تشب قد علم بأمر ويلي بعد”.

مرة أخرى، شرب ساذرويت من القنينة وهو يلقي نظرة على الساعة ثم على الباب. وفي ما يتعلق بالعقيد الراحل هامبريشت قال “كان تشب يحب ويلي كثيراً، ويجب أن يعلم بالأمر”.

أجابه ماكوي “صحيح، سأفعل ما بوسعي”. حيث لم يجد شيئاً آخر ليقوله وهو يعرف أن بيل ساذرويت لن يتحمل مشقة لصق طابع بريد على مغلف ليبقى على اتصال بالمجموعة، وأن مهمة إبقاء الجميع على اتصال إنما تعود بالأساس إليه هو وتيري.

في الواقع، منذ أن حصل على وظيفته كمدير لمتحف المهد الملاحي في لونغ أيلاند، أصبح جيم ماكوي بمثابة السكرتير غير الرسمي المسؤول عن المراسلات الخاصة بمجموعتهم الصغيرة غير الرسمية. ولقد وجد الرفاق سهولة في استخدامه كنقطة اتصال؛ فلديه الأصول المكتبية التي تيسر له استخدام الهاتف، والبريد، والفاكس، والبريد الإلكتروني. أما تيري وايكليف فكان بمثابة رئيس لهم، بيد أن عمله في وزارة الدفاع الأميركية جعلته غير متاح في معظم الوقت، ولذا لم يحاول جيم ماكوي الاتصال به أبداً إلا عند الضرورة القصوى. وعلى أي حال، سرعان ما سيصبحون جميعاً من العجائز، وسيكون لديهم الكثير من الوقت كي يظلوا على اتصال مع بعضهم في حال كانت تلك رغبتهم.

ثم قال ماكوي لساذرويت ‘‘هل قلت إن لديك رحلة بالطائرة؟’’

‘‘نعم، ولقد تأخر الرجل’’.

‘‘بيل، هل كنت تحتسي الشراب؟’’

‘‘أجننت؟ هل أحتسي الشراب قبل الإقلاع بالطائرة؟ بحق الله أنا طيار محترف!’’

‘‘حسناً’’. كان ماكوي يعرف أن بيل يكذب في هذا الشأن، ومن ثم تمنى لو أنه كان يكذب أيضاً في ما يتعلق بذلك العميل الذي ينتظره. ثم طافت أفكاره للحظة إلى ذاك السرب القديم؛ ستيف كوكس قُتل في الخليج، وويلي هامبريشت قُتل في إنكلترا، وتيري وايكليف يمضي في مهنة عسكرية رائعة، وبول غراي مدني ناجح، وبوب كالوم مريض بالسرطان في كولورادو، وتشب ويجينز مفقود وأغلب الظن أنه بخير، فيما بيل ساذرويت أصبح شبحاً للشخص الذي اعتاد أن يكونه، وهو - جيم ماكوي - مدير للمتحف، عمل لا بأس به ويتقاضى عنه راتباً سيئاً. مات اثنان من الرجال الثمانية، والثالث يقضي عليه مرض السرطان، والرابع ميت على قيد الحياة، والخامس مفقود، وثلاثة لا بأس بحالهم حتى الآن. ثم قال لبيل ساذرويت في صوت ناعم ‘‘ربما يجدر بنا جميعاً أن نطير لرؤية بوب، وبلا تأخير. سأعمل على جمع الجميع، ويجب أن تكون معنا يا بيل’’.

مكث بيل ساذرويت صامتاً لبضع لحظات، ثم قال ‘‘حسناً، لا بأس سأفعل’’.

‘‘خذ الأمور ببساطة يا صديقي’’.

‘‘نعم، وأنت أيضاً’’.

أنزل ساذرويت سماعة الهاتف عن أذنه، وفرك عينيه اللتين كانتا شبه مبتلتين بالفعل، ثم احتسى جرعة أخرى قبل أن يضع القنينة في حقيبة السفر خاصته، ثم وقف وراح ينظر من حوله إلى مكتبه الرث. فعلى الجدار في خلفية الغرفة كان علم ولاية كارولاينا الجنوبية، وبجواره علم الحلفاء الذي استاء من وجوده العديد من الأشخاص، وهو السبب الذي دفع ساذرويت إلى استبقائه هناك. كان يرى أن البلد بأكمله قد ذهب إلى الجحيم، حيث إنّ حزمة من الفاسدين سياسياً أصبحت تمسك بزمام الأمور فيها. وعلى الرغم من أن إنديانا هي مسقط رأس ساذرويت، إلا أنه كان يحب الجنوب، إلا في ما يتعلق بالحر والرطوبة. فكان يحب سلوكيات أهلها، كما أحب علم الحلفاء. ‘‘فليذهبوا إلى الجحيم!’’

على الجدار الجانبي كان هناك تخطيط ضخم لمسار طيراني، وبجانبه ملصق قديم بهتت ألوانه وتجعد بفعل الرطوبة. وكان ذلك الملصق يظهر صورة للقائد الذي قامت مجموعته بالإغارة على مقره ودوائر تصويب السهام مرسومة حول رأسه، فالتقط ساذرويت سهماً من فوق مكتبه المبعثر بالأغراض وصوّبه نحو الصورة، حيث اخترق السهم جبهة القائد في منتصفها، وصاح ساذرويت مبتهجاً ‘‘نعم، تباً لك’’.

تحرك بيل ساذرويت باتجاه نافذة غرفة مكتبه الصغيرة، وراح ينظر إلى الخارج حيث الشمس الساطعة، وقال ‘‘يوم لطيف للطيران’’. وعلى المدرج، كانت إحدى

طائرتيه - الشيروكي 140 التدريبية - تقلع لتوها، وجناحاها يرتعشان في حرارة الظهيرة، بينما المتدرب يجاهد للحفاظ على ارتفاعه.

أخذ سادرويت يراقب الشيروكي وهي تختفي بينما لم تزل مستمرة في ارتفاعها المتأرجح، وفرح لأنه لم يكن في تلك القمرة مع ذلك المتدرب الصغير الذي يفتقر إلى الحس الملاحي، بينما يتمتع بالثراء الفاحش، وتذكر الأيام التي كان فيها طالباً في القوات الجوية، حين كانوا يحلقون فوق الغابات. أما الآن فعليه تدليل المتدربين، وهذا الصغير لن يشهد أبداً دقيقة واحدة في معركة حقيقية، فهدفه الوحيد من الطيران هو إبهار فتياته، وما من شك أن البلد ينهار إلى الحضيض وبسرعة.

ما يزيد من سوء ذلك اليوم هو أن عميله القادم كان أجنبياً غبياً، ولعله غريب غير قانوني يأخذ المخدرات إلى مدمني فيلي، على أي حال، لقد تأخر الوغد. على الأقل لن يعلق على الأمر لو اشتم رائحة الشراب، فلربما ظنه شراباً غازياً أمريكياً. ضحك سادرويت على الفكرة، ثم عاد إلى مكتبه وتأكد من الملاحظات التي سبق ودونها؛ أليساندرو فانيني. بدا له الاسم إسبانياً أو إيطالياً "الوغد إيطالي على ما يبدو، لا بأس، هذا أفضل من أن يكون إسبانياً أو برتغالياً من الحدود الجنوبية".

"عمت مساءً".

إلتف سادرويت حول نفسه بسرعة، ورأى ذلك الرجل الطويل خلف نظارته الشمسية الداكنة وهو يقف عند الباب المفتوح، وقال الرجل "أليساندرو فانيني، وأعتذر للتأخير". هنا تساءل سادرويت ما إذا كان الرجل قد سمع ما كان يقوله عنه منذ لحظات، ثم ألقى نظرة خاطفة على ساعة الحائط وقال "إنها نصف ساعة فحسب، لا مشكلة".

سار الرجلان نحو بعضهما البعض، ومدّ سادرويت يده إليه وتصافحا، فيما قال خليل "أخرّني موعدي الأخير في شارلستون".

قال سادرويت "لا بأس". ولاحظ أن الرجل يحمل حقيبة من القماش الأسود ويرتدي حلة رمادية، فسأله "هل لديك أمتعة أخرى؟"

"لقد تركت أمتعتي بالفندق في شارلستون".

"جيد، أتمنى ألا تمانع ارتدائي القميص القطني وبنطال الجينز".

"على الإطلاق، أياً كان ما يشعرك بالارتياح. ولكن - كما أخبرتك من قبل - إننا سنقضي الليلة هناك".

قال سادرويت "نعم، ولقد أعددت حقيبتي لقضاء الليلة". وهو يشير إلى حقيبة القوات الجوية القابعة فوق الأرضية المتسخة، ثم أردف "ولسوف تأتي صديقتي إلى هنا في ما بعد لتعتني بالمتجر وتغلقه".

"جيد، أظنك ستكون هنا قبل منتصف يوم غداً".

"أياً كان، لا بأس".

“لقد تركت سيارتي المستأجرة بالقرب من المبنى الرئيسي، فهل المكان آمن هناك؟”

قال ساذرويت “بالتأكيد”. ثم سار نحو رف الكتب المتدلي والتقط كومة من المخططات الملفوفة، ثم حقيبة سفره، وقال “هل أنت مستعد؟” ثم تابع مسار عيني عميله ذلك، وقد ارتكزتا على صورة القائد.

اتسعت ابتسامة ساذرويت وهو يقول “أتعرف من هذا؟”

“بالطبع، فلقد مرّت بلادي بالعديد من المجابهات مع هذا الرجل”.

“حقاً؟ هل اصطدتم رأسه؟”

“نعم، فهو كثيراً ما يوجه لنا التهديدات”.

“حقاً؟ حسناً، لمعلوماتك كنت على وشك قتل هذا الرجل بنفسي ذات مرة”.

“أحقاً؟”

“هل أنت إيطالي الموطن؟”

“أنا من صقلية”.

“أتمزح؟ لقد كنت على وشك السقوط هناك ذات مرة عندما نفد الوقود من طائرتي”.

“المعذرة؟”

“لا عليك، إنها قصة طويلة وليس من المفترض أن أتحدث عنها على أي حال”.

“كما تحب”.

“حسناً، هلا سمحت بفتح هذا الباب من أجلي، علينا الذهاب من هنا”.

“أوه، ولكن يبقى شيء واحد. هناك تغيير طفيف في خطتي ربما قد يستلزم بعض التغيير من ناحيتك”.

“وما هو؟”

“لقد استدعتني شركتي إلى نيويورك”.

“فعلا؟ لكنني لا أحب التحليق إلى نيويورك سيد ...”.

“فانيني”.

“نعم، حيث الازدحام والعديد من المضايقات”.

“بوسعي أن أدفع لك المزيد إن أردت”.

“ليست المسألة مسألة مال، ولكنه الانزعاج. وأي مطار تقصد؟”

“ماك آرثر، أتعرفه؟”

"أوه، نعم أعرفه، بيد أنني لم أذهب قط إلى هناك من قبل. لا بأس، إنه مطار مدني خارج لونغ أيلاند، وسيتطلب ذلك أجراً إضافياً".

"أفهم ذلك بالطبع".

وضع ساذرويت أغراضه فوق المكتب، وأخذ يبحث عن مخطوطة أخرى فوق الرف، وقال "مصادفة مضحكة. لقد كنت أتحدث لتوي مع صديق في لونغ أيلاند، ولقد أرادني أن أتوقف هناك لزيارته؛ ربما أفاجئه بزيارتي له. أو ربما يجدر بي أن أتصل به".

"ربما من الأفضل لو فاجأته، أو اتصل به بعد الهبوط".

"نعم، دعني آخذ أرقام هاتفه". وراح يقلب حافظة بطاقات دوارة، والتقط إحداها.

سأله خليل "وهل يسكن بالقرب من المطار؟"

"لا أعرف، لكنه سيأتي لاصطحابي على أي حال".

"يمكنك أخذ سيارتي المستأجرة إن أردت، فلدي سيارة محجوزة باسمي وغرفتين في نزل من أجلنا".

"نعم، كنت سأسألك عن هذا، فأنا لا أتشارك الغرف مع الرجال".

أجبر خليل نفسه على الابتسام وهو يجيب "ولا أنا".

"جيد، طالما أن الأمور بيننا واضحة. أترغب في الدفع مقدماً؟ ستحصل على تخفيض إن فعلت".

"وكم أجرك؟"

"أوه، نحن الآن نقصد مطار ماك آرثر، بالإضافة إلى قضاء الليلة هناك، أي أنني سأفقد بعض تعليمات الطيران صباح الغد، بالإضافة إلى الوقود... حسناً، ثمانمئة دولار نقداً ستكفي".

قال خليل "يبدو لي هذا معقولاً". وأخرج حافظة نقوده، وعدّ المبلغ المطلوب، وأضاف إليه مئة دولار أخرى وهو يقول "بالإضافة إلى بقشيش من أجلك".

"شكراً".

كان هذا معظم ما لدى خليل من الدولارات، بيد أنه كان يعرف أنه سيستعيدها كلها عمّا قريب. أما ساذرويت، فعمد إلى عدّ المال ووضعه في حافظته، ثم قال "حسناً، أتممنا الصفقة".

"جيد، وأنا مستعد".

قال ساذرويت "حسناً، أمهلني دقيقة لأذهب إلى الحمام". وفتح أحد الأبواب، ثم اختفى داخل الحمام.

مرة أخرى نظر خليل إلى صورة القائد وأبصر السهم المغروس في جبهته، فأزاحه وهو يقول لنفسه ""لا يستحق الموت سوى هذا الخنزير الأميركي لا مراء!""

خرج بيل ساذرويت من الحمام، والتقط الحقيبة والمخطوطات وهو يقول ""بوسعنا الذهاب الآن في حال لم يكن لديك أي تعديلات أخرى"".

""ألديك أي مشروبات يمكننا أخذها معنا؟""

""نعم، ولديّ بالفعل ثلاجة في الطائرة"".

كان خليل يشتم بوضوح رائحة الخمر تنبعث مع أنفاس الرجل، لكنه قال ""وهل لديك مياه معدنية؟""

""كلا، فلماذا أنفق المال على الماء وهو مجاني ومتاح؟"" فالحمقى والشخصيات الخيالية فقط هم من يشترون الماء، ""أترغب في بعض الماء؟""

قال خليل ""ليس الأمر ضرورياً"". وفتح الباب حيث خرج الرجلان إلى الهواء الساخن.

بينما كانا يسيران عبر المنحدر الخراساني الحار باتجاه طائرة الأباتشي المركونة على بعد مئة قدم من المكتب، سأله ساذرويت ""أي نوع من الأعمال تقوم به سيد بانيني؟""

""فانيني، وكما أخبرك زميلي عندما اتصل بك من نيويورك، نحن نعمل في مجال المنسوجات؛ وأنا هنا لشراء القطن الأميركي"".

""حقاً؟ لقد أتيت إلى المكان الصحيح إذاً، فلم يتغير شيء هنا منذ الحرب الأهلية، باستثناء أنهم يدفعون إلى العبيد أجوراً الآن"". ثم ضحك وأضاف ""بعض هؤلاء العبيد الآن من الإسبان والبيض. هل سبق لك أن شاهدت حقلاً من حقول القطن؟ أعني للحديث في أمور العمل اللعينة. ليس لديهم ما يكفي من العاملين الآن للقيام بالعمل"".

لم يجبه خليل عن هذا، ولكن سأله ""هل تحتاج إلى تسجيل خطة الرحلة؟""

""كلا""، ثم اشار إلى السماء الصافية فيما هما يستأنفان سيرهما تجاه الطائرة، وقال ""هناك منطقة عالية الضغط عبر الساحل الشرقي كله؛ الطقس جيد طوال الطريق"". ولما فكّر أنه ربما كان يصطحب مسافراً عصبياً، أضاف ""الله يحبك سيد فانيني، حيث إن اليوم رائع للسفر إلى نيويورك، وربما يظل كذلك في طريق عودتنا غداً"".

لم يكن خليل بحاجة إلى أن يستمع إلى هذا الرجل وهو يخبره أن الله يبارك جهاده، فهو يعي ذلك يقيناً في سرّه، تماماً كما كان يعرف أن السيد ساذرويت لن يحلّق بطائرته غداً.

ثم قال ساذرويت وكأنما يفكر بصوت مرتفع ""ربما أحتاج إلى تسجيل الدخول عند الاقتراب من منطقة الرادار الخاصة بنيويورك بعد أن نعبر المحيط جنوب

مطار كنيدي ثم إلى إيسليب مباشرة. فهذا سيبقينا بعيداً عن الخطوط المتجهة إلى مطار كنيدي".

للحظة فكّر خليل أنه كان بالفعل في رحلة من تلك التي يتحدث الرجل عنها منذ بضعة أيام فحسب، بيد أنه يبدو الآن وكأن دهراً يفصل بينه وبينها.

ثم أردف سانرويت قائلاً "وسأتصل ببرج لونغ أيلاند لإخلاء مكان للهبوط. فليكن". ثم لوّح بيده حول المجال الجوي لمونكس كورنر الذي يكاد يكون مهجوراً، وقال "لا شك أن ليس هناك أحد هناك تتحدث معه لمغادرة هذا المكان". ثم ضحك وهو يقول "ليس هناك من تتحدث معه سوى ذلك الصغير الذي يتدرب عندي على الطائرة الشيروكي خاصتي، وعلى كل حال أؤكد لك أنه يجهل كيف يجيب على الراديو إذا ما اتصلت به".

نظر خليل إلى حيث كان سانرويت يشير، ورأى طائرة صغيرة أحادية المحرك، والتي كانت في تلك اللحظة تستعد للهبوط على المدرج، وهي تتأرجح بعض الشيء من جانب إلى الآخر، ولاحظ أنها تشبه كثيراً نوع الطائرة التي ركبها من جاكسونفيل والتي كانت تقودها تلك المرأة. وعلى الفور راحت ذكرياته عنها تزحف إلى أفكاره، فعمل جاهداً على إبعادها عن ذهنه.

ثم توقف الرجلان أمام طائرة بيبر أباتشي بلونيها الأبيض والأزرق، وكان سانرويت قد حل قيودها من قبل، وأزاح أقفال التحكم خاصتها، ووضع أوتاد العجلات جانباً، كما تحقق من الوقود؛ وكان ذاك هو الشيء الوحيد الذي يتفقده على كل حال، ربما لكثرة المشكلات الأخرى بتلك الطائرة العجوز، ومن ثم فإن فحص الأشياء الأخرى هو بمثابة هدر للوقت. وهنا قال سانرويت لعميله "لقد فحصتها قبل مجيئك، وهي بحالة ممتازة".

ألقى أسد خليل نظرة على الطائرة القديمة، وسرّه أنها ثنائية المحرك. ولما لاحظ سانرويت ذلك الاهتمام البادي على عميله الذي أجزل له العطاء، شرع يقول "إنها طائرة متينة سيد فانيني، ويمكنك الاعتماد عليها في توصيلك وإعادتك سالماً".

"أنا على يقين".

أخذ سانرويت ينظر إلى الطائرة في محاولة منه لمعرفة ما يزعج هذا الأجنبي؛ كانت نوافذ تلك الطائرة التي تعود إلى العام 1954 متسخة إلى حدٍّ ما بالإضافة إلى بعض الخدوش، وقد بهت الطلاء على هيكل الطائرة. في الحقيقة، كان سانرويت يعترف أن الطائرة أصبحت مجرد إشارة إلى ما كانت عليه من قبل. ثم نظر إلى السيد فانيني المتأنق والمختفي خلف نظارته الشمسية، وعمد إلى تشجيعه وتحميسه، "ليس هناك شيء معقد أو خيالي بهذه الطائرة، مما يعني أنه لا مجال لحدوث خطأ جسيم. فالمحركات جيدة، والمتحكمات تعمل على نحو جيد. أما أنا فاعتدت على التحليق بالطائرات الحربية، ودعني أخبرك أن تلك الطائرات بالغة التعقيد بحيث تحتاج إلى جيش من مهندسي الصيانة فقط للتحليق في مهمة لا تحتاج إلى أكثر من ساعة". قال سانرويت وهو ينظر أسفل المحرك الأيمن حيث تكومت بقعة من الزيت الأسود خلال الأسبوع منذ رحلته الأخيرة بتلك الطائرة. "في

الحقيقة، لقد طرت بها إلى كي ويست بالأمس، وهي تحلق بشكل جيد، أمستعد أنت؟"

"نعم".

"جيد". رمى ساذرويت بحقيبته على الجناح، ثم وضع المخطوطات أسفل إبطه، وشرع يتسلق جناح الأباتشي الأيمن، ثم فتح بابها الوحيد والتقط الحقيبة، حيث رماها والمخطوطات في مؤخر الطائرة قبل أن يسأل مسافره "أترغب بالجلوس في الأمام أم في الخلف؟"

"في الأمام".

"حسنا". أحياناً كان ساذرويت يعمد إلى مساعدة مسافريه، بيد أن هذا المسافر بدا وكأنه يستطيع تدبر أمره ومن ثم تسلق ساذرويت إلى القمرة، وسلك طريقه إلى مقعد الطيار. كانت الحرارة مرتفعة داخل القمرة، ففتح نافذة التهوئة إلى الجانب، ومكث في انتظار المسافر، ثم ناداه "ألن تأتي؟"

وضع أسد خليل حقيبته فوق الجناح، ثم صعد إلى السطح فوق العجلات، والذي غدا أملس، والتقط حقيبته وهو ينزلق إلى المقعد داخل القمرة، ثم يضع حقيبته خلف ظهره.

"اترك بابك مفتوحاً لدقيقة من فضلك. واربط حزامك".

أطاع خليل تعليمات الطيار.

وضع خليل سماعة رأسه، وأدار بعض المفاتيح، ثم ضغط على مشغل المحرك الأيسر الذي لم يستجب لثوانٍ ثم بدأت الدعامة تتأرجح، ودبت الحياة في مكبس المحرك العجوز. وما إن بدأ المحرك في العمل بانتظام حتى عمد ساذرويت إلى تشغيل المحرك الأيمن، الذي بدأ العمل على نحو أفضل من نظيره الأيسر "حسناً، ها هي الحسناء تغني".

فصاح خليل بصوت مرتفع "ولكن صوتها مرتفع جداً".

فأجابه ساذرويت وهو يصيح كذلك "نعم، فبابك لا يزال مفتوحاً، وكذلك نافذتي". ولم يقل للمسافر إن إقفال بابه لن يمنع الضجيج، وأن الوضع لن يكون أفضل كثيراً عندما يغلقه، بل قال "ما إن نرتفع إلى مستوى التحليق سيعم الهدوء حتى أنك ستسمع صوت شاربك وهو ينمو". ثم ضحك وشرع يسير نحو المدرج، وهو يفكر، فبذلك المال المستقر في جيبه، لم يعد مضطراً إلى تملق ذلك الإيطالي الجالس إلى جواره، ثم سأله مرة أخرى "قلت لي من أين أتيت؟"

"من صقلية".

"أوه نعم". وتذكر ساذرويت أن صقلية هي مسقط رأس عصابات المافيا، فألقى نظرة على المسافر بجواره بينما هو يغادر المدرج، وسرعان ما خطر له أن ربما كان هذا الرجل من هؤلاء القوم، وعلى الفور ندم على سلوكه المتعجرف معه وحاول أن يصلح الأمر، فقال "أتشعر بالارتياح سيد فانيني؟ أو هل لديك أي تساؤلات حول الرحلة؟"

"زمن الرحلة؟"

"حسنا يا سيدي، إذا كانت سرعة الرياح جيدة كما أتى في التوقعات الجوية، سنكون في ماك آرثر في غضون ثلاث ساعات ونصف". ثم تحقق من ساعته وقال "أي أننا سنكون فوق الأرض في الثامنة والنصف تقريباً. أيناسبك هذا؟"

"سيكون هذا جيداً، وهل سنحتاج إلى التزود بالوقود أثناء الرحلة؟"

"كلا، فلدي خزانات وقود إضافية مثبتة بالطائرة بحيث يمكنني التحليق لسبع ساعات متواصلة. وسنتزود بالوقود في نيويورك".

"وهل تجد صعوبة في الهبوط بالطائرة في الظلام؟"

"كلا يا سيدي، كما أنه مطار جيد؛ فشركات الطيران ترسل طائراتها إلى هنا. وأنا طيار أتمتع بخبرة عالية".

"هذا جيد".

هكذا ظن ساذرويت أنه أصلح أموره مع السيد فانيني، وابتسم لنفسه في رضا وهو يوجه الطائرة نحو نهاية المدرج، ثم نظر إلى الأعلى عبر زجاج الواجهة الأمامية حيث تلميذه ذلك لم يزل يدور مرة أخرى في نموذج التحليق 23، مؤدياً حركات هبوط خطرة، ولم يبدُ عليه أنه يواجه أي مشكلات، فقال "إن ذلك الصبي بالأعلى الذي يتدرب على التحليق إنما يحتاج إلى عملية زرع ذكورة. أتعرف؟ لقد أصبح الفتيان الأميركيون غاية في النعومة، ويحتاجون إلى بعض الشدة كي يصبحوا مقاتلين. إنهم يحتاجون إلى تذوق طعم الدماء".

"أهكذا ترى الأمر؟"

ألقى ساذرويت نظرة على المسافر إلى جواره وقال "أعني أنني شهدت المعارك، وبوسعي أن أخبرك أنه متى كانت المدفعية المضادة للطائرات ثقيلة بحق لا يمكنك رؤية السماء، ومتى وجدت الصواريخ تبحر بجوار قمرتك مباشرة، سرعان ما تصبح رجلاً بكل ما للكلمة من معنى".

"وهل مررت أنت بتلك التجارب؟"

"العديد من المرات، حسناً، نحن مستعدون الآن للإقلاع. أغلق بابك". قال ساذرويت وهو يزيد من سرعة محركاته ويتفقد معداته، ثم ألقى نظرة سريعة على المطار من حوله. لم يكن هناك سوى الشيروكي، ومن ثم ما من مجال للتصادم.

سارت الأباتشي إلى المدرج، ثم زاد ساذرويت من سرعتها، وشرعت الطائرة تندفع إلى الأمام حتى وصلت إلى سرعتها المطلوبة لدى نصف المدرج، ثم أقلعت.

التزم ساذرويت الصمت بينما كان يدخل التعديلات على الصمامات والمتحكمات، ثم مال بالطائرة واستدار إلى المسار 40 درجة فيما كانت الطائرة مستمرة في صعودها.

أما خليل فكان ينظر إلى خارج النافذة إلى الريف الأخضر بالأسفل، وشعر أن الطائرة في حالة أفضل مما تبدو، والأمر ذاته بالنسبة للطيار، فقال له "وما هي

الحروب التي شاركت فيها؟"

وضع ساذرويت علكة في فمه ثم قال "لقد شاركت في العديد من الحروب، منها حرب الخليج".

كان خليل يعرف أن هذا الرجل لم يشترك في حرب الخليج. في الحقيقة، كان يعرف عن ساذرويت أكثر مما يعرف هذا الأخير عن نفسه.

"أتريد بعض العلكة؟"

"كلا، أشكرك. وأي نوع من الطائرات كنت تقود في تلك الحروب؟"

"الطائرات المقاتلة".

"وما هي؟"

"المقاتلات، الطائرات الحربية، وقاذفات القنابل. لقد حلقت بأنواع مختلفة، لكنني اختتمتها بطائرة F-III"

"هل لك أن تخبرني عن ذلك، أم أنه سر عسكري؟"

ضحك ساذرويت وقال "كلا يا سيدي، ليس الأمر بسر. إنها طائرة من طراز قديم، ولم تعد في الخدمة. مثلي تماماً".

"أتفتقد إلى العمل كمقاتل؟"

"بالطبع لا أفتقد الجزء الروتيني فيه؛ مثل طريقة إلقاء التحية، والجميع ينظرون إلى مؤخرتك طوال الوقت. وتخيل أن لديهم الآن نساء يحلقن بالطائرات الحربية، آه، بحق الله! أنا لا أستطيع حتى مجرد التفكير في الأمر، فهؤلاء العاهرات يتسببن في كل أنواع المشكلات بذلك الهراء الذي يدعينه حول التحرش الجنسي وما إلى ذلك. المعذرة، ولكنك جعلتني أبدأ هذا الحديث. وبالمناسبة، كيف حال النساء لديكم؟ أيعرفن مكانتهن الحقيقية؟"

"على نحو مذهل".

"رائع، ربما اتخذت لنفسي واحدة منهن إذاً. قلت لي إنك من صقلية، أليس كذلك؟"

"نعم".

"وأي لغة تتحدثون هناك؟"

"لهجة من اللهجات الإيطالية".

"سأتعلمها إذاً، وأذهب إلى هناك، أهم بحاجة إلى طيارين هناك؟"

"بالطبع".

"جيد جداً".

كانا يحلقان على ارتفاع 5000 قدم، وشمس عصر ذاك اليوم خلفهم مباشرة مما جعل الرؤية أمامهما صافية تماماً وساحرة. أو هكذا وجدها ساذرويت. ومع الإضاءة الخلفية تلك، بدت التضاريس الربيعية المعشبة ذات ألوان أكثر عمقاً، بحيث بدت كحدّ فاصل عن زرقة المياه الساحلية. ولقد زادت الرياح ذات الخمس وعشرين عقدة من سرعتهم الأرضية، ومن ثم بات ممكناً أن يصلا إلى لونغ أيلاند قبل الموعد المتوقع.

في مكان ما في خلفية تفكيره كان ساذرويت يرى في الطيران أكثر من مجرد مهنة، فهي رسالة، بل تجربة خيالية، تماماً كتلك التي يشعر بها المتحمسون دينياً في دار العبادة في مونكس كورنر. فعندما يكون محلقاً في السماء يكون إحساسه بنفسه أفضل كثيراً، وأدرك أن الأمور تسير بشكل جيد كما أراد لها، فالتفت إلى خليل وقال "لكم أفتقد إلى المعارك".

"كيف يمكنك افتقاد شيء كهذا؟"

"لا أعرف، فأنا لم أشعر أبداً بشعور أفضل من ذلك الذي كنت أشعر به وأنا وسط المتعقبات والقنابل". ثم أردف "حسناً، ربما لو حدث أن أصبت في إحدى المرات لكان إحساسي اختلف. ولكن هؤلاء السفلة الأغبياء كانوا عاجزين عن ضرب الأرض حتى بسيل بولهم".

"من تعني بالسفلة الأغبياء؟"

"فلنقل إنني أعني العرب. فليس بوسعي أن أخبرك أيهم أعني على وجه التحديد".

"ولم؟"

"سر عسكري". ثم ضحك وأردف "لست أعني المهمة في حدّ ذاتها، ولكن الأشخاص الذين قاموا بها".

"ولم هذا؟"

رمق ساذرويت خليلاً بنظرة ثم قال "إنها السياسة، فيجب ألا نفصح عن أسماء الطيارين الذين يشتركون في مهام القصف، حيث ترى الحكومة أن أهل المقصوفين قد يأتون إلى أميركا للانتقام. هراء. ولكن حدث في كاليفورنيا أن زرع أحدهم قنبلة أسفل كابينة السائق في شاحنة قائد فينسينز؛ وهي سفينة حربية أسقطت بطريق الخطأ طائرة إيرانية. وكان حادثاً مروعاً. يا الله، وكادت زوجته أن تلقى حتفها".

أومأ خليل، وقد كان على علم تام بتلك الحادثة، حيث أوضح الإيرانيون بتلك السيارة المفخخة أنهم لم يقبلوا أي تفسيرات أو اعتذارات، ثم قال "في الحروب يؤدي القتل إلى المزيد من القتل".

"بلا شك، على أي حال، ترى الحكومة أن هؤلاء قد يشكلون خطراً على محاربيها الكبار الشجعان. هراء، أنا لا أكترث بأن يعرف أحدهم أنني كنت أحد

هؤلاء الذين قصفوا في معركة أو أخرى. فليبحثوا عني إن أرادوا، وسيندمون عندما يعثرون عليّ".

"نعم بالطبع، وهل أنت مسلح؟"

نظر ساذرويت إلى المسافر بجانبه وقال "إن السيدة ساذرويت لم تربِ أحمق".

"معذرة، ماذا تعني؟"

"أعني أنني مسلح وخطر". ثم أردف بينما يزيد الارتفاع إلى 7000 قدم "إلا أنه أثناء حرب الخليج، كانت الحكومة الغبية تسعى وراء ترويج إعلامي جيد، ومن ثم أظهرت طياريها على شاشة التلفاز. يا الله، فهم من ناحية يخشون السفلة، ومن ناحية أخرى، يضعون المقاتلين أمام شاشات التلفاز! ولكنني سأخبرك لماذا، لقد كانوا يسعون إلى دعم شعبي ضخم لدى عودتهم إلى الديار، فظهر الطيارون على الشاشات كي يبتسموا ويقولوا كم كانت تلك حرب نبيلة وعظيمة، وأنهم يحبون أداء واجبهم المقدس من أجل الله والوطن. والآن لديهم في مقابل كل رجل مئة فتاة، صدقني. بيد أن استعراض الهررة هذا أمام الكاميرات إنما كان ليثبت صحة وجهة النظر السياسية للجيش والقوات العسكرية. بحق الله، لو أنك رأيت تلك الحرب على شاشة السي أن أن، لشعرت أن المعركة بأسرها كانت تعج بمقاتلين كالفتيات، كم أنا سعيد أنني لم أعد أنتمي إليهم".

"واضح".

"نعم، فلكم يثيرني هذا، المعذرة".

"بل أشاركك نفس الشعور تجاه قيام النساء بأعمال الرجال".

"جيد، علينا أن نتضامن إذاً". ثم ضحك وهو يفكر أن هذا الرجل ليس سيئاً كما يبدو بالرغم من كونه أجنبياً، وربما يفتقر إلى بعض الذكورة.

قال خليل "ماذا عن تلك الصورة فوق جدار مكتبك".

أجابه ساذرويت دون أن يعبأ بسرية الموضوع "كي تذكرني بتلك المرة التي كدت أسقط فيها القنبلة فوق رأس القائد. في الحقيقة، لم تكن مهمتي تتضمن قصف بيته، حيث كانت تلك مهمة جيم وبول، حيث أسقطا واحدة فوق منزله مباشرة، إلا أنه كان نائماً في خيمة خارج البيت. بحق الله كم يحب هؤلاء الناس خيامهم! إلا أن آخرين قتلوا وهذا أمر مؤسف بالطبع، لكنها الحرب على أي حال. لم يرغب أحد في قتل النساء والأطفال، ولكنهم كانوا في المكان الخطأ".

تنهد خليل بعمق وهو يحاول التحكم في نفسه، ثم سأله "وماذا كانت مهمتك أنت؟"

"ضرب مركز الاتصالات، ومستودع الوقود، والثكنات، وشيء آخر، لكنني لا أذكره. ولماذا تسأل؟"

"ليس لسبب بعينه، ولكنني أجد الأمر مشوقاً".

"أحقا؟ حسناَ، فلتنسَ الأمر سيد فانيني. فكما قلت لك من قبل، ليس من المفترض أن أتحدث عن الأمر".

"بالطبع".

كانا يحلقان الآن على ارتفاع 7500 قدم، ومن ثم عمد بيل ساذرويت إلى خفض الطاقة، ومن ثم أصبحت المحركات أهدأ بعض الشيء، فقال خليل "هل ستتصل بصديقك ذلك في لونغ أيلاند؟"

"نعم، سأفعل"

"هل كان زميلاً لك في الجيش؟"

"نعم، وهو الآن مدير المتحف الملاحي. ربما أذهب إليه هناك، في حال توفّر لنا بعض الوقت في الصباح. يمكنك أن تأتي معي إن أردت، وسأريك الطائرة F-III القديمة خاصتي، حيث لديهم واحدة هناك".

"كم سيكون هذا شيقاً".

"نعم، فلم أرَ مثلها في السنوات الماضية".

"يبدو أنني سأعود إلى وطني محملاً بالذكريات".

"نعم".

راح خليل ينظر إلى المناظر الطبيعية بالأسفل وهو يفكر في سخرية الأقدار؛ فلقد قتل لتوه أحد زملاء هذا الرجل الذي يجلس إلى جانبه، وها هو الآن يقوم بتوصيله إلى حيث سيقتل زميلاً آخر له، وتساءل إن كان ساذرويت سيقدر طرافة الموقف لو علم به.

أسند خليل ظهره إلى الوراء، وهو ينظر إلى السماء، وقد بدأت الشمس تغيب، فتلى صلواته في صمت، ثم قال "فليبارك الله جهادي، ويشوي أعدائي، ويسلمهم إليّ واحداً تلو الآخر، الله أكبر".

فسأله بيل ساذرويت "أتقول شيئاً؟"

"كنت فقط أشكر الله على هذا اليوم الجميل، وأسأله التوفيق في رحلتي إلى أميركا".

"أحقاً؟ فلتطلب منه إذاً أن ينفّذ لي طلبين".

"لقد طلبت، وسيلبي".

الفصل الأربعون

بينما كانت سيارة الأجرة تبتعد عن بناية فيدرال بلازا، سألتني كيت "هل ستأتي معي فعلاً هذه المرة؟ أم تحتاج إلى أن تخلد للنوم؟"

بدا لي في صوتها لمحة تهكم، بل وربما استفزاز لرجولتي. هذه المرأة كانت تعرف أي أزرار يجدر بها الضغط عليها، فقلت "بل سأرافقك إلى الأعلى، طالما أنكِ تدعينني إلى الأعلى وليس إلى الداخل".

"أياً كان".

مضت بنا سيارة الأجرة ونحن نكاد نكون صامتين. لم يكن الطريق مزدحماً، ولقد غسلت أمطار نيسان الشوارع. أما سائق السيارة فكان من كرواتيا؛ عادة ما أسأل عن هذا الأمر، فثمة بحث أقوم به في هذا الشأن.

على أي حال، وصلنا إلى البناية حيث شقة كيت، فنقدت سائق السيارة أجرته متضمنة أجرة الرحلة من مطار كنيدي والوقت الذي انتظره أسفل بناية فيدرال بلازا. كما حملت عنها حقيبتها، وبالمناسبة أقول ليس هناك ما يُطلق عليه اسم المساواة بين الجنسين.

فتح حارس البناية الباب وقد بدا عليه التساؤل؛ وربما كان يتساءل لماذا غادرت السيدة مايفيلد بحقيبة سفرها ثم عادت بعد بضع ساعات وهي تحمل نفس الحقيبة ومعها رجل! أتمنى أن يبقيه هذا الأمر منزعجاً طوال ليلته تلك.

دخلنا المصعد، ومنه إلى شقتها في الطابق الرابع عشر. كانت شقة صغيرة مستأجرة، يغلب البياض على لون جدرانها، وأرضيتها من البلاط من دون بُسُط تغطيها، وتحتوي على أقل ما يُذكر من الأثاث الحديث. بالطبع خلا المكان من أي نباتات حية، أو صور فوق الجدران، أو منحوتات، أو حتى تحف رخيصة، وحمداً لله لم تكن هناك هرة كذلك. لم يكن هناك سوى وحدة جدارية حُشرت فيها الكتب، وجهاز تلفاز، ومشغل أسطوانات وُضعت مكبرات صوته على الأرض. ثم أبصرت كيت تدخل إلى ما يشبه مطبخ السفينة المفتوح حيث فتحت خزانة ما، وهي تسألني "أترغب ببعض الشراب؟"

أجبتها "نعم من فضلك". وأنا أضع حقيبتها وحقيبتي على الأرض.

وضعت كيت قنينة الشراب فوق المنضدة القائمة بين المطبخ ومنطقة الطعام التي كانت تخلو من الموائد. فجلست على المقعد العالي بجوار المنضدة، بينما وضعت كيت كأسين على المنضدة، وقطع الثلج، وشرعت تصب الشراب في الكأسين.

"صودا؟"

"كلا، شكراً لكِ". ثم لامسنا الكأسين، وشربنا محتويات الكأسين، فملأتهما كيت مرة أخرى بالشراب ذاته، ثم سألتني "هل تناولت العشاء؟"

"كلا، لكنني لا أشعر بالجوع الآن".

"جيد، ولكن لديّ بعض المأكولات الخفيفة". ثم فتحت الخزانة، وأخرجت بعض الأشياء الجاهزة البشعة المحفوظة في أوراق النايلون، وقد كُتبت عليها أسماء غريبة - مثل كرانشوز - وعمدت إلى تناول بعض من تلك اليرقات البرتقالية، أو أياً كانت تلك الأشياء وهي تصب لنفسها كأساً آخر من الشراب، قبل أن تذهب إلى مشغل الأسطوانات وتدير إحداها؛ وكانت تلك أسطوانة بيلي هوليداي.

خلعت كيت حذاءها، وسترتها، فبدت لي كنزة بيضاء ناعمة، وأبصرت كذلك سلاحها الذي تحمله أسفل ذراعها، بالرغم من أن قلة من رجال تطبيق القانون يرتدون حمّالة الكتف هذه الآن، وتساءلت لماذا عساها ترتديها. رمت كيت بسترتها فوق مقعد بذارعين، ثم خلعت حمّالة سلاحها ورمت بها فوق السترة، فيما كنت أنتظرها أنا حتى تنتهي من خلع كل ما يسبب لها عدم الارتياح، إلا أن هذا كان كل شيء.

ولمّا كنت في غير حاجة إلى احتياط أمني، فعلت مثلها وخلعت سترتي وحزام سلاحي، فأخذتهما ووضعتهما فوق سترتها وسلاحها، ثم جلست فوق المقعد بجواري. ولمّا كنت شخصاً محترفاً، رحت أتحدث عن مزايا المسدس الفيدرالي الجديد، من عيار أربعين، وكيف أنه تغلب في كفاءته على المسدس عيار 9 ملم، وما إلى ذلك من هذا الحديث، فقلت "ربما لن يخترق السترة المدرعة، ولكنه يكفي لإسقاط الشخص".

بدت كيت غير مهتمة بالموضوع، وقالت "أحتاج إلى قلب هذا المكان رأساً على عقب".

"بل يبدو بحالة جيدة".

"أحقاً؟ أيعني هذا أنك تعيش في مزبلة؟"

"كنت. ولكنني أتمتّع الآن بالعيش في عشّ الزوجية. ليس بسيء على كل حال".

"وكيف تعرفت إلى زوجتك؟"

"في طلب بريدي".

ضحكت كيت، فيما أردفت "أرسلت في طلب ماكينة صنع الكابتشينو، ويبدو أنني أخطأت في كتابة رقم البند، فظهرت لي هي في صندوق البريد بدلاً من الآلة".

"أنت غريب بحق". ثم قالت وهي تنظر إلى ساعتها "لا أريد أن أفوّت أنباء الحادية عشرة، فهناك ثلاثة مؤتمرات صحفية تم عقدها".

"هذا صحيح".

ثم وقفت وهي تقول "سأتحقق من رسائل بريدي الصوتي، ثم أتصل بمركز الحدث لأخبرهم في المنزل. هل أخبرهم أنك هنا أيضاً؟"

"إنها مكالمتكِ أنتِ وليست مكالمتي".

"لكنك تعرف أنك يجب أن تبقيهم على علم بمكانك ما دمت تعمل في هذه القضية".

"أعرف هذا".

"حسناً؟ هل ستبقى هنا إذاً أم ستذهب؟"

"فلتتمي مكالمتكِ كما تريدين؛ فاجئيني".

"حسناً". ثم استدارت وعبرت الباب المؤدي إلى غرفة نومها أو لعلها غرفة مكتبها.

رحت أرتشف شرابي، وأنا أفكر إلى متى من المفترض أن تطول زيارتي هذه، وما هو الغرض منها. كنت أعرف أنني إذا رحلت فور انتهائي من الشراب، فسيعني هذا أن علاقتي الشخصية بكيت مايفيلد انتهت إلى الأبد. ولكنني كنت أعرف أيضاً أن النتيجة هي ذاتها إن بقيت. آه، يبدو أنني أوقعت نفسي في هذا الفخ.

على أي حال، عادت كيت لتقول "لم يكن هناك سوى تلك الرسالة التي تركتها أنت". ثم جلست إلى جواري مرة أخرى، ورفعت كأس الشراب خاصتها، وأمسكت بقطعة من الثلج بإصبعها، وتابعت قائلة "ولقد اتصلت بالمركز".

أخيراً سألتها "وهل ذكرتِ أنني هنا؟"

"نعم، كنت أتحدث مع ضابط المناوبة، فأخبرته وأظنني سمعت بعض الهتاف من القوم هناك".

ابتسمت لما قالته، ولم أعلق.

مرة أخرى صبّت كيت لنفسها كأساً آخر، وراحت تعبث بتلك الأطعمة المغلّفة بورق النايلون وهي تقول "يجب أن أكفّ عن حشو المنزل بهذه المأكولات السيئة، فبوسعي أن أطهو على الرغم من أنني لا أفعل. كيف تتناول أنت الطعام في منزلك؟"

"أحياناً أجلب معي الطعام في طريق العودة، أو أنسى الأمر برمته".

"وهل يروق لك العيش بمفردك؟"

"أحياناً".

"لم يسبق لي العيش مع شخص آخر من قبل".

"ولِمَ؟"

"أظنه العمل. ساعات العمل التي لا تنتهي، والهواتف التي ترن طوال الوقت، والسفر هنا وهناك، ناهيك عن احتفاظك بالأسلحة والوثائق السرية في منزلك. ولكنني لا أظن كذلك أن الأمر يستحق ذلك. يخبرني الرفاق الأكبر سناً أنه عندما تعمد عميلة فيدرالية إلى العيش مع رجل ما، فإنها توقع نفسها في مشكلة".

"ربما كانوا محقين في ذلك".

"لا أظن أن الأمر يختلف مع الرجال أيضاً. ولكن مكتب التحقيقات الفيدرالية قد تغير. ولكنك أحد هؤلاء الكبار الذين أتحدث عنهم. فأخبرني كيف كانت الأشياء في الأربعينيات".

ابتسمت لها، بيد أنني لم أجد ما قالته مضحكاً.

كانت كيت قد شربت قنينة الشراب كلها تقريباً، لكنها بدت مرتاحة ونحن نستمع إلى أغنية لا أرى في الدنيا سواكِ، ونثرثر من وقت لآخر. ولكنها فاجأتني بأن قالت بلا مقدمات "أنا أفرط في الشراب عندما أكون متوترة، فعادة ما تصيبني العلاقات الحميمة بالتوتر، أعني المرة الأولى مع رجل ما، وليس الأمر في حدّ ذاته. ماذا عنك؟"

"نعم، أظنني أتوتر بعض الشيء".

"أنت لست صلباً كما تدّعي".

"إنه قريني الشرير ذلك الصلب الذي تتحدثين عنه. جيمس كوري".

"ومن هي تلك المرأة في لونغ أيلاند؟"

"لقد أخبرتك بشأنها من قبل؛ إنها شرطية جنائية".

"وهل علاقتك بها علاقة جادة؟ أعني، أنا لا أرغب في أن أتسبب لك في مشكلة معها".

فلم أجبها.

"الكثير من النساء في المكتب يجدنك رجلاً جذاباً".

"حقاً؟ لقد أبليت بلاءً حسناً إذاً".

"ليس الأمر ما تقوله أو تفعله، بل كيف تسير أو كيف تبدو".

"هل احمرّ وجهي خجلاً أم بعد؟"

"بعض الشيء، هل تسرّعت أنا في حديثي هذا؟"

ولمّا كانت لديّ إجابة قياسية جاهزة عن هذا السؤال، أجبتها قائلاً "بل تتحدثين بصدق وتلقائية، وتعجبني المرأة التي تعبر عن اهتمامها بالرجل دونما اكتراث بتلك الضوابط التي يفرضها المجتمع عليها".

"هراء".

"هذا صحيح، إليّ ببعض الشراب".

التقطت كيت القنينة وسارت نحو الأريكة وهي تقول "فلنشاهد الأخبار".

فأخذت كأسي، وجلست على الأريكة فيما أسكتت هي مشغل الأسطوانات، والتقطت جهاز التحكم عن بعد وسرعان ما كانت أنباء الحادية عشرة على الشاشة.

كان الخبر الرئيسي يدور حول رحلة الترانس - كونتيننتل 175 والمؤتمرات الصحفية ذات الصلة، فقالت المراسلة "لدينا اليوم بعض التطورات الجديدة المذهلة حول مأساة الرحلة 175 التي وقعت بمطار كنيدي يوم السبت الماضي. فاليوم، ضمن فاعليات مؤتمر صحفي مشترك، أعلن كل من مكتب التحقيقات الفيدرالية وشرطة مدينة نيويورك الأمر الذي أشيعت حوله الشائعات لعدة أيام؛ ألا وهو أن موت الركاب في رحلة ترانس - كونتيننتل كان عملاً إرهابياً وليس حادث قضاء وقدر. ولدى مكتب التحقيقات مشتبه به أساسي وراء هذا الحادث، ويُدعى أسد خليل". ثم ظهرت صورة أسد خليل على شاشة التلفاز بينما كانت المراسلة تتابع قائلة "هذه هي الصورة التي أذعناها على سيادتكم في الليلة الماضية، حيث يتم البحث عن هذا المشتبه به محلياً وعالمياً. ولقد وصلنا الآن أنه المشتبه به الرئيسي في حادثة الترانس - كونتيننتل".

وهنا انتقلت كيت إلى محطة أن بي سي، حيث كانت القصة ذاتها هي الخبر الرئيسي هناك أيضاً، وكذلك الحال في محطتي أيه بي سي والسي أن أن. ودأبت تغيّر المحطات على نحو مستمر؛ وهو أمر لا بأس به حينما أفعله أنا، ولكن حينما يفعله شخص آخر - ولا سيما لو كان امرأة - أجده مزعجاً بحق.

على أي حال، كنا قد شاهدنا فحوى المحطات الإخبارية المختلفة، حينما ظهر الشريط التسجيلي لأول مؤتمر صحفي، حيث كان فيليكي مانكوس - رئيس مكتب نيويورك الميداني التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالي - يعطي بياناً تفصيلياً حذراً للحادث، ثم أعقبه المفوض من قِبل الشرطة.

أخيراً، ظهر جاك كوينج حيث قال بضع كلمات حول التعاون القائم بين مكتب التحقيقات الفيدرالية ومديرية شرطة نيويورك، وجهودهما المبذولة، وما إلى ذلك، إلا أنه لم يذكر أبداً وحدة مكافحة الإرهاب. فلم يذكر بيتر جورمان، ولا فيل هاندري، بيد أنه تحدث عن موت نيك مونتي ونانسي تايت، وماغي كولينز التي أشير إليها بصفتها واحدة من قوات تطبيق القانون الفيدرالية، ولم يذكر نادي الفاتحين بالطبع. ولكن الطريقة التي ذكر بها جاك كوينج موتهم جعلت الأمر يبدو وكأنهم لقوا حتفهم إثر إطلاق النيران في مطاردة مع الإرهابي عند فراره.

انتهى عرض المؤتمر الصحفي المشترك بوابل من أسئلة المراسلين، ولكن يبدو أن كل الأشخاص ذوي الحيثية قد اختفوا تاركين آلان باركر بمفرده على المنصة، وقد بدا كالغزال وقد وقع لتوه في شرك الأضواء.

ثم شرعت المراسلة تذيع خبر المؤتمر الصحفي الثاني الذي عُقد في مجلس البلدية، حيث تتابعت لقطات ظهر فيها رئيس البلدية، والمحافظ، وبعض السياسيين، وكلهم يقسمون على فعل شيء ما حيال الأمر، بالرغم من أن هذا الشيء لم يكن محدداً على الإطلاق. فالمهم، هو أن الحادث قد أتاح لهم فرصة الظهور على شاشة التلفاز.

تلا ذلك عرض شريط تسجيلي من واشنطن ظهر فيه مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية، وكذلك نائب المدير

المسؤول عن مكافحة الإرهاب، والذي كنا قد قابلناه في مقر مكتب التحقيقات الفيدرالية. بالطبع كانت تصريحاتهم جميعاً تعرب عن الاستياء والتفاؤل في آن واحد. ثم انتهز نائب المدير الفرصة ليعلن مرة أخرى عن مكافأة المليون دولار لمن يدلي بأي معلومات تؤدي إلى القبض على أسد خليل، وحتى لم يقل *اتهامه*، بل فقط القبض عليه. وبالنسبة للعاملين بالمجال، فإن هذا إنما يدل على درجة عالية من التوتر واليأس.

على أي حال، تلا ذلك عرض سريع للقطات من البيت الأبيض حيث أدلى الرئيس ببيان كُتبت كلماته بحذر ودقة بالغين، حتى إنني وجدته يفي بأن يُقال في أي مناسبة، بما في ذلك أسبوع المكتبة القومية.

لاحظت أن القصة بأكملها، متضمنة المؤتمرين الصحفيين، قد استغرقت نحو سبع دقائق، وهي فترة طويلة من البث عبر شبكة الأخبار. استحضر هذا في ذهني صورة مضحكة لمذيع يصوّب عينيه إلى الجهاز الذي يعرض له ما يقرأه، والذي لا يراه المشاهدون، فيقول في نغمة واحدة رتيبة ومملة بيان يقول فيه "ويتجه هذا النيزك صوب كوكب الأرض وسوف يدمر الكوكب بأسره يوم الأربعاء القادم"، ثم يتجه إلى المذيع الرياضي ويقول "ها يا بيل، كيف حال فريقنا اليوم؟"

قد أكون مبالغاً، ولكن ما لدينا هنا هو حادثة في منتهى الأهمية، وحدث أنني على علم مباشر بها، وبالرغم من ذلك لم أستطع أن أتابع كل تلك اللقطات والمقاطع الصوتية السريعة المتلاحقة. إلا أن كل واحدة من الشبكات الإخبارية قد وعدت بأن تأتي بتقرير خاص عند الساعة الحادية عشرة والنصف، وعادة ما تكون هذه التقارير الخاصة أعمق وأفضل، حيث نشرة الأخبار المنتظمة تكون متضمنة أهم العناوين لاجتذاب المشاهدين.

الثابت في الأمر هو أن أمر أسد خليل قد انفضح، وها هي صورته تنتشر عبر الأثير. كان يجب فعل هذا منذ وقت طويل، ولكن المهم أنه حدث.

هنا أغلقت كيت التلفاز وأعادت تشغيل الأسطوانات.

مدهش بحق!

فقلت "أود مشاهدة إعادة إكس-فايلز لهذه الليلة، حيث سيكتشف كل من مولدر وسكالي أنه يحمل أسفل ملابسه الداخلية شكلاً من أشكال الحياة الغريبة". ولكنها لم تقل شيئاً.

حانت اللحظة. صبت كيت لنفسها كأساً من الشراب، ولاحظت أن يديها كانتا ترتجفان بالفعل. ثم انزلقت عبر الأريكة في اتجاهي، وطوقتها بذراعي، ثم ارتشفنا

الشراب من الكأس نفسه بينما كنّا نستمع إلى صوت بيلي هوليداي المثير وهو يغني أغنية خُلوة.

فابتلعت ريقي وقلت "ألا يمكن أن نظل صديقين فحسب؟"

"كلا، فأنت لا تروقني كصديق على الإطلاق".

"أوه".

حسناً؛ قبلنا بعضنا البعض، وفي ثانيتين تحوّل جوني الصغير إلى جون الكبير الشرير، وقبل أن أدرك ما يحدث كانت ملابسنا بأسرها مبعثرة على الأرض وفوق منضدة القهوة، وكنا نستلقي عاريين فوق الأريكة، على جانبينا، ووجهاً لوجه. ولو أن مكتب التحقيقات الفيدرالية يعطي ميداليات لحسن القوام، لحظيت كيت مايفيلد على النجمة الذهبية المرصعة بالألماس. كنت قريباً جداً من جسدها كي أراه، ولكن شأني شأن كل الرجال في تلك اللحظات الحميمة المعتمة، تتطوّر لديّ حاسة الرؤية باللمس.

راحت يداي تجوبان جسدها. كان جلدها ناعماً وبارداً، ولقد أحببت هذا كثيراً، ومما لا شك فيه أن عضلاتها كانت منحوتة بشكل مثالي بفعل التدريبات الرياضية.

أما جسدي – في حال كان هذا يهمك - فيمكن وصفه بأنه قوي، ولكنه مرن. كان لدي في ما مضى بطن مشدود، ولكن ما إن تلقيت تلك الركلة أسفل بطني حتى ربيت تلك الكرش، وكأنها منشفة مبللة ومطوية موضوعة فوق ذاك البطن المشدود. على أي حال، مررت كيت يدها فوق مؤخرتي ناحية اليمين، وتوقفت عند الندبة السفلى الجامدة.

"ما هذا؟"

"جرح نفذت منه رصاصة".

"وأين مدخلها؟"

"أسفل البطن".

فذهبت بيدها إلى هناك، وراحت تدور براحتها حول المكان حتى عثرت على الجرح؛ نحو ثلاث بوصات باتجاه الشمال الشرقي من جبل ويلي.

"أوه. لكم كان شديد القرب!"

"نعم، أقرب من هذا وكنا سنصير صديقين بحق".

ضحكت كيت وضمتني بشدة حتى شعرت بالهواء يخرج من رئتيّ السيئتين. لكم هي قوية هذه المرأة!

في مكان ما في عقلي كنت أعرف أن بيث بينروز ما كانت لتحب ما يحدث الآن. فأنا لديّ ضمير في آخر الأمر، ولكن جبل ويلي لا ضمير له. ومن ثم - لفض النزاع - قررت أن أعطل رأسي عن العمل، فاسحاً المجال للعم ويلي.

فتلامسنا، وقبلنا بعضنا البعض، وتعانقنا لنحو عشر دقائق. ومن ثم اقترحت عليها أن نعثر على غرفة النوم.

"كلا، افعل ذلك هنا الآن".

لا مشكلة، حسناً، بالطبع الأمر ليس مريحاً تماماً فوق الأريكة، ولكن متى وجدت الرغبة، وجدت معها الطريقة. وفي نبضة قلب واحدة، تغيرت طبيعة علاقتنا المهنية.

مكثت مستلقياً فوق الأريكة بينما ذهبت كيت إلى الحمام. لم أكن أعرف أي نوع من موانع الحمل تستخدم، لكنني لم ألحظ كذلك إشارة لوجود أطفال في حياتها، ومن ثم أدركت أنه لا بد وأن لها طريقتها الخاصة.

عندما عادت إلى غرفة المعيشة، أشعلت المصباح بجوار الأريكة، ووقفت هناك تنظر إليّ، فجلست. كنت أستطيع أن أرى جسدها بشكل كامل الآن، وكان بالفعل مبهراً، وأكثر امتلاءً مما تخيلت في تلك المرات القليلة الأولى التي أزحت عنها ملابسها في خيالي. كما لاحظت أنها بحق شقراء، من أصابع قدميها وحتى أطراف شعرها، ولكنني كنت قد خمنت ذلك أيضاً من قبل.

ثم جلست فوق ركبتيها أمامي، وباعدت ما بين قدميّ، ولاحظت أنها تحمل في يديها قطعة من القماش المبلل. وفي ضوء المصباح استطاعت أن ترى الندبة فوق صدري، ولمستها بأصابعها، ثم شرعت تحرك يدها فوق ظهري حتى عثرت أناملها على الجرح حيث خرجت الرصاصة "هذه الرصاصة اخترقت الضلعين الأمامي والخلفي".

أعتقد أن الفيدراليات يعرفن هذه الأشياء. ربما بدا الأمر عمليًّا جداً، ولكنه أفضل كثيراً من "عزيزي المسكين. لا بد أن الأمر كان مؤلماً بحق".

ثم تابعت كيت قائلة "بوسعي الآن أن أخبر جاك بمواطن جروحك. أتشعر بالجوع؟"

"نعم".

"جيد، سأعد بعض البيض".

فيما اتجهت هي صوب المطبخ كنت أرتب الملابس المبعثرة.

وسمعتها تصيح "لا ترتدي ملابسك".

"فكرت فقط في تجربة حمالة صدرك وسروالك للحظة". فضحكت كيت مرة أخرى.

رحت أراقبها تتحرك عارية في المطبخ المفتوح. ثم رحت أُقلّب الأسطوانات فعثرت على ويلي نيلسون؛ مطربي المفضل بعد الانتهاء من اللقاءات الحميمة، فراح يغني لا داعي للبحث كثيراً بعد الآن.

سمعت كيت تقول "أحب هذه الأغنية".

ثم انتقلت إلى الكتب الموجودة على الرفوف. فعادة، تعرف شيئاً عن شخصية الإنسان من نوعية قراءاته، وغالبية الكتب لدى كيت كانت أدلة تدريبية من ذلك النوع الذي يجدر بك قراءته بالفعل إن أردت أن تظل ماهراً في عملك. كما كان هناك العديد من الكتب حول الجرائم الواقعية، وأخرى عن مكتب التحقيقات الفيدرالية، والإرهاب، وعلم نفس الشواذ، وكل تلك الأشياء. لم يكن هناك أثر لروايات، ولا كلاسيكيات، ولا دواوين شعر، ولا كتب فنية أو فوتوغرافية. ولقد دعم هذا فكرتي الأصلية عن مايفيلد بأنها تكرس نفسها لعملها تماماً؛ امرأة تجد نفسها في العمل ضمن فريق عمل، فلا تشرق أبداً خارج الصفوف. ولكن من الواضح أن هناك جانباً آخر في تلك القائدة الحادة، ولم يكن ذلك صعب الفهم؛ فهي تحب الرجال وتحب اللحظات الحميمة. ولكن، ما الذي أعجبها فيّ؟ ربما أرادت أن تثير غيظ بعض زملائها الفيدراليين بمرافقتها لشرطي، أو لعلها سئمت من اللعب وفقاً للقواعد غير المكتوبة والتوجهات المُسّطرة. وربما كانت في حالة احتياج. فمن يدري؟ قد يفقد الرجل صوابه في محاولة معرفة السبب وراء اختياره كشريك فراش.

هنا رنّ الهاتف. من المفترض أن يكون للعملاء خطوط منفصلة للمكالمات الرسمية، إلا أنها لم تكترث حتى بالنظر إلى سماعة الهاتف المعلقة في المطبخ لترى أيًّا من الخطين كان يرن. وبالفعل ظل الهاتف يرن حتى رد عليه جهاز تسجيل المكالمات.

فسألتها "هل هناك ما أفعله من أجلك؟"

"نعم، اذهب وصفف شعرك، وأزل أحمر الشفاه عن وجهك".

"حسناً". دخلت غرفة نومها، ولاحظت أن فراشها كان مرتباً. لماذا ترتب النساء أسرّتهن؟!

على أي حال، كانت غرفة النوم بمثابة غرفة معيشة إضافية، وربما اعتبرت نفسي في غرفة ما في فندق صغير. من الواضح أن كيت مايفيلد لم تعبأ بأن تصنع لنفسها منزلاً في مانهاتن.

ذهبت إلى الحمام، ووجدته نظيفاً ومرتباً شأن بقية الغرف، وبدا وكأن أحدهم كان هناك لتوه بأمر تفتيش. استعرت فرشاة من وسط الأشياء المبعثرة وصففت شعري، ثم غسلت وجهي، وتغرغرت بغسول الفم. وعندما نظرت إلى نفسي في المرآة، لاحظت الانتفاخ أسفل عينيّ، وبعض الشحوب الذي اعتلى بشرتي، وبدت الندبة على صدري بيضاء ولا يغطيها الشعر مقارنة ببقية هذه المنطقة في جسدي. ما أظهره هذا الجسد هو الصعاب التي واجهها جون كوري في حياته حتى الآن، ويبدو أنه لا يزال هناك المزيد في انتظاره. ولكن عقلي لم يزل يعمل، حتى وإن كان شيء من العطب قد لحق بطاقتي.

ولأنني لم أشأ أن أمكث طويلاً في ساحات الآنسة الخاصة، أسرعت بالعودة إلى غرفة المعيشة. كانت كيت قد وضعت طبقين من البيض المقلي، والخبز، وكوبين من عصير البرتقال. فجلست علي الأريكة وجلست هي على الأرض أمامي، وشرعنا نأكل. وكنت أتضور جوعاً.

قالت كيت "لقد أتيت إلى نيويورك منذ ثمانية شهور، وأنت أول رجل أرافقه".

"بوسعي أن أرى هذا بوضوح".

"وماذا عنك؟"

"أنا أيضاً لم أرافق رجلاً منذ فترة طويلة".

"هيا، كن جاداً".

"حسناً، ماذا تريدينني أن أقول؟ أنتِ تعرفين أنني أواعد امرأة ما".

"ألا يمكننا التخلص منها؟"

فضحكت لهذا، ولكنها تابعت قائلة "أنا جادة في هذا يا جون. أنا لا أمانع في أن أحتملها في حياتك بضعة أسابيع أخرى، ولكن أكثر من ذلك سأشعر أن... أنت تعرف ما أعني".

لم أكن متأكداً من أنني فهمت ما تعنيه، لكنني قلت لها "أفهمك جيداً بالطبع".

ثم مكثنا ننظر إلى بعضنا البعض لفترة طويلة، ثم أدركت أنه من المفترض أن أقول لها شيئاً، فقلت "اسمعي يا كيت، أعتقد أنك تشعرين بالوحدة، وأن هذا كل ما في الأمر. وأنا رجل مشغول، ولست الشخص المناسب لكِ، قد أكون كذلك الآن، في هذه اللحظة فحسب، ولذا ...".

"هراء، أنا لست وحيدة إلى هذا الحدّ وأنت لست مشغولاً على نحو قاتل. كما أن لديّ العديد من الرجال يطرقون بابي طيلة الوقت؛ صديقك تيد ناش سألني الخروج معه عشرات المرات".

أسقطت شوكة الطعام من فرط الدهشة وأنا أصيح "ماذا؟ هذا الضئيل التافه".

"ليس ضئيلاً".

"لكنه تافه".

"كلا، ليس تافهاً".

"هذا يغضبني بحق؛ هل خرجت معه بالفعل؟"

"فقط بضع مرات قليلة لتناول العشاء. نوع من التعاون بين الوكالات".

"اللعنة، لكم يثير هذا غضبي. علام تضحكين؟"

لم تخبرني كيت لماذا كانت تضحك، لكنني أظن أنني كنت أعرف السبب. ورحت أراقبها وهي تغطي وجهها بكفيها وهي تحاول بلع البيض والضحك في نفس الوقت، فقلت "احترسي، فلن أعرف ماذا يجب أن أفعل لو اختنقتِ".

فزاد هذا من ضحكها.

على أي حال، عمدت إلى تغيير الموضوع، فسألتها عن رأيها في المؤتمر الصحفي. وبالرغم من أنها أجابتني إلا أنني لم أكن منصتاً لما تقوله؛ كنت أفكر في

تيد ناش، وكيف أنه بدأ التودد إلى بيث بينروز أثناء قضية بالم أيلاند. حسناً، ربما كان الإعجاب بينهما متبادلاً، ولم يسفر الأمر عن شيء هام على أي حال. ولكنني لا أتسامح مع المنافسة في هذه الأشياء. وأظن أن كيت مايفيلد قد اكتشفت هذا الأمر، ولعلها تستخدمه ضدي الآن.

ثم انتقل تفكيري إلى بيث بينروز، والحق أنني كنت أشعر ببعض الذنب تجاهها. وبينما كانت كيت لا تمانع في الانتظار بضعة أسابيع ريثما أتخلص منها، إلا أنني أحادي النزعة، وأكتفي بمصدر واحد لألم الرأس؛ إلا في ما يتعلق بعطلة نهاية الأسبوع في أتلنتا مع هاتين الأختين، ولكن تلك قصة أخرى.

مكثنا في منزل كيت لفترة، نتناول الطعام ونتلامس؛ مضت فترة طويلة منذ آخر مرة تناولت فيها الطعام مع امرأة عارية، وما زلت أذكر أنني أستمتع بحق بهذه التجربة. فهناك شيء ما يربط بين الطعام والجسد العاري، بين الأكل والجنس، فهما متلازمان في حال فكرت في الأمر، فكلاهما تعبير عن البدائية والشهوة الحسية.

يبدو أنني كنت على حافة الانزلاق في الحب، والصحبة، والسعادة، وبالطبع تعرف إلى أين يؤدي هذا؛ إلى المأساة. ولكن ماذا في هذا؟ إنه أمر لا مفر منه. فقلت لكيت "سأتصل ببيث في الصباح وأخبرها أن ما بيننا قد انتهى".

فضحكت وقالت "يمكنني أن أقوم بالأمر نيابة عنك".

من الواضح أن لقاءنا الحميم ذاك قد أكسب كيت معنويات مرتفعة؛ ربما أكثر مني. كنت متضارباً، ومشوشاً، وخائفاً بعض الشيء. لكن كنت أعتقد أن الأمور ستتضح في الصباح.

قالت كيت "فلنعد إلى العمل. أخبرني بالمزيد عن ذلك الرجل الذي أخبركم بالمعلومات".

فأخبرتها ثانية عن الاستجواب الذي قمت به مع فادي أسود، مما قلّص شعوري بالذنب تجاه الانصراف عن العمل إلى الطعام والحب.

أما كيت، فاستمعت إليّ حتى انتهيت، ثم سألت "ألا تظن أنه ربما كان مدفوعاً عن عمد؟"

"كلا، فهو أخ زوجة القتيل".

"هذا لا يعني شيئاً، بل قد يكون جزءاً من الخطة، فهؤلاء القوم قد يكونون عديمي الرحمة بشكل لا يمكننا استيعابه".

فكرت في الأمر ثم قلت لها "ماذا سيكون الغرض من محاولة حملنا على الاعتقاد بأن أسد خليل قد ذهب إلى بيرث أمبوي في سيارة أجرة؟"

"أن نفكر أنه على الطريق، ومن ثم نتوقف عن البحث عنه في مدينة نيويورك".

"أعتقد أنكِ تبالغين. لو أنكِ رأيت فادي أسود هذا، لكنت عرفت أنني أقول لكِ الحقيقة. وهذا رأي جابي أيضاً، وأنا أثق في حدس جابي".

"لقد قال فادي الحقيقة حسب علمه، وهذا لا يثبت أن خليلاً هو من كان في سيارة الأجرة تلك. ولكن لو افترضنا أن هذا هو ما حدث فعلاً، عندها يصبح قاتل فرانكفورت قد وضع في طريقنا فقط لصرف انتباهنا، في حين يكون قاتل بيرث أمبوي هو الأمر الحقيقي".

"هذا هو الأمر الصحيح". كان من النادر أن أقوم بجلسات عمل وأنا عارٍ مع زميل من الجنس الآخر، وهو ليس بالأمر الممتع كما قد يبدو، ولكنه بالقطع أفضل من غرفة الاجتماعات الطويلة.

فقلت "حسناً، لقد أنقذتك من قضاء بضعة أسابيع في أوروبا مع تيد ناش".

"وهذا هو السبب الذي يدفعني إلى الظن بأنك قد اختلقت الأمر برمته؛ كي تعيدني إلى هنا".

فابتسمت لهذا.

ظلت كيت صامتة لثوانٍ، ثم قالت "أتؤمن بالقدر؟"

فكرت في الأمر، فالصدفة التي جعلتني أقابل الرجلين الإسبانيين في الشارع 102 الغربي منذ عام مضى قد أسفرت عن سلسلة من الأحداث أدّت بي إلى إجازة للاستشفاء، ومنها إلى وحدة مكافحة الإرهاب، ثم إلى هنا، إلى هذه اللحظة. أنا لا أؤمن بالأقدار، والمصير، والصدفة، والحظ، ولكنني أؤمن بأن الجمع بين الإرادة الحرة والفوضى العشوائية هو ما يتحكم في مصائرنا، وأن العالم بمثابة رداء للسيدات معروض للبيع في متجر ليوهمان. الثابت هو أنه يجب عليك أن تظل يقظاً وحذراً، ومستعداً لتنفيذ إرادتك الحرة وسط بيئة تزداد الفوضى فيها ومن ثم يزداد خطرها.

"جون؟"

"كلا، أنا لا أؤمن بالقدر. ولا أعتقد أنه كان مقدراً لنا أن نتقابل، ولا أن نمارس الحب في شقتك. إن لقاءنا هذا عشوائي، وتلك اللحظات الحارة كانت فكرتك؛ وهي فكرة رائعة بالمناسبة".

"شكراً، ودورك الآن كي تبدأ في مطاردتي".

"أنا أعرف قواعد اللعبة، وأبرع دائماً في إرسال الزهور".

"فلتنسَ الجزء الخاص بالزهور، فقط كن لطيفاً معي أمام الجميع".

كانت لديّ صديقة - كاتبة - ماهرة جداً في شؤون النساء، ولقد قالت لي ذات يوم "الرجال يتحدثون إلى النساء كي يعاشروهن، بينما النساء يعاشرن الرجال كي يتحدثن إليهم". بدا لي أن هذه المقولة تتطابق مع الجميع، ولكنني لم أكن متأكداً من قدر الحديث الذي عليّ أن أقوم به مع امرأة بعد معاشرتها. ولكن مع امرأة مثل كيت مايفيلد يبدو أنه الكثير والكثير.

"جون؟"

"أوه، حسناً. ولكن لو أصبحت لطيفاً معك أمام الجميع، سيتحدثون عنّا".

"جيد، ولكن هذا سيُبقي الحمقى الآخرين بعيداَ".

"من تعنين بالحمقى الآخرين؟ أعني من سوى ناش؟"

"لا يهم". قالت كيت ثم أسندت ظهرها، ووضعت قدميها العاريتين فوق منضدة القهوة، ثم تمددت، وتثاءبت، ولوّت أصابعها، ثم قالت "يا الله، لكم استمتعت".

"لقد فعلت كل ما في وسعي".

"كنت أتحدث عن الطعام".

"أوه". وهنا لمحت الساعة الرقمية فوق التلفاز، فقلت "عليّ أن أذهب".

قالت كيت "فلتنسَ الأمر. مضى وقت طويل منذ آخر مرة أمضيت فيها ليلتي مع رجل، ولست أذكر من يقيد الآخر في الفراش". وابتسمت.

أضحكني هذا، وأظن أن أكثر ما كان يجذبني إلى كيت مايفيلد هو أنها تتصرف أمام الجميع بحذر وهدوء العذراء، ولكن هنا، تختلف الصورة تماماً. وفي هذا ما يثير الرجل جداً وأنا رجل في آخر الأمر.

فقلت "ولكن ليس لديّ فرشاة أسنان هنا".

"لديّ مجموعة من أدوات العناية الشخصية التي يوزعونها في درجة رجال الأعمال للمسافرين من الرجال، وأظنك ستجد فيها كل ما تحتاج إليه. كنت أدخرها لوقت الحاجة".

"أي خطوط تلك؟ فأنا أفضل الخطوط البريطانية".

"أظنها الخطوط الفرنسية، ومن ضمنها واقٍ ذكري".

"بالحديث عن هذا".

"يمكنك أن تثق بي، فأنا أعمل لدى الحكومة الفيدرالية".

كان هذا أكثر شيء سمعته وأضحكني منذ شهور.

أدارت كيت التلفاز ثم استلقت فوق الأريكة ورأسها فوق فخذيّ، فرحت أداعبها.

على كل حال، شاهدنا العديد من الإعادات الإخبارية حتى صارت الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، بالإضافة إلى بعض التقارير الخاصة حول ***هجوم الرحلة 175 الإرهابي***، وبدا أن الشبكة الإخبارية كانت تتجنب ترديد اسم أكبر المعلنين لديها، وهي شركة ترانس – كونتيننتل، في هذا الحدث المؤلم. ولكن ما بدا لي غريباً بحق هو أن إحدى الشبكات الإخبارية كانت تذيع إعلاناً

لترانس - كونتيننتل حيث يظهر فيه المسافرون سعداء حتى في أدنى درجاتها، مما بدا شديد التناقض مع ما يذاع. وأظنهم يستعملون الأقزام كمسافرين كي تبدو مقاعدهم أكبر. كما لاحظت أنه ليس من بين المسافرين من قد يحمل أي ملامح عربية.

على أي حال، وفي ما يتعلق بالتقارير الخاصة، كانت الرؤوس الناطقة تطل من كافة أرجاء وأركان الكون بأسره؛ يثرثون حول الإرهاب العالمي، وتاريخ الإرهاب في الشرق الأوسط، والطيارين الأوتوماتيكيين، إلخ... إلخ...

وعندما أصبحت الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل، قصدنا غرفة النوم ونحن لا نحمل سوى مسدسينا، فقلت "أنا أنام عارياً إلا من سلاحي".

ابتسمت كيت وتثاءبت، ثم ارتدت حمالة كتفها وسلاحها فوق جلدها السافر، ولو أنك من أولئك القوم، لعرفت كم يبدو هذا مثيراً. ثم نظرت في المرآة وقالت "يبدو هذا غريباً. أعني النهدين بالقرب من السلاح".

"لا تعليق".

فقالت "إن حمالة السلاح هذه كانت لأبي، ولم أرغب في أن أقول له إنها لم تعد مستخدمة. ولكنني جربت الحزام؛ كنت أرتديه مرة واحدة كل أسبوع، وفي كل مرة أعود فيها إلى المنزل".

أطرقت ولم أقل شيئاً، إلا أن هذا أخبرني شيئاً لطيفاً عن كيت مايفيلد.

خلعت حمالة سلاحها، واتجهت إلى جهاز تسجيلها الهاتفي فوق المنضدة بجوار الفراش، وضغطت على زر تشغيله. انبعث على الفور صوت تيد ناش الذي لا يمكن الخطأ بشأنه وهو يقول "كيت هذا أنا تيد أتصل بكِ من فرانكفورت. كنت على علم بأنكِ وكوري ستنضمان إلينا هنا. عليكِ إعادة التفكير بالأمر؛ أظن أنكما تفقدان فرصة حقيقية بعدم المجيء، فأنا أظن أن تلك القصة حول مقتل سائق سيارة الأجرة ما هي إلا إشارة تمويهية. على أي حال، اتصلي بي إنها بعد منتصف الليل في نيويورك. اعتقدت أنني سأجدك في المنزل؛ أخبروني بذلك عندما اتصلت بكِ في المكتب. كما أن كوري ليس في منزله كذلك. حسناً، بوسعك الاتصال بي حتى الثالثة أو الرابعة من بعد منتصف الليل بتوقيت نيويورك". ثم ترك لها رقمه وقال "وربما حاولت الاتصال بكِ في المكتب مرة أخرى في وقت لاحق. أريد التحدث إليكِ".

لم يعلّق أي منا على مكالمة تيد، ولكن صوته في غرفة نوم كيت مايفيلد أغضبني بحق، وأظنها شعرت بذلك، فقالت "سأتحدث إليه في ما بعد".

"إنها الثالثة من بعد منتصف الليل أي التاسعة هناك. يمكنك اللحاق به في غرفته بالفندق كي لا يظل يحدّق إلى نفسه في المرآة".

ابتسمت كيت ولم تقل شيئاَ.

كالعادة، أنا وتيد نتبنى نظريتين مختلفتين تماماً؛ فأنا أرى أن حادثة فرانكفورت هي المزيفة، بل وأظن أن هذا ما يعتقده تيد العجوز أيضاً. لكنه يريدني في ألمانيا على كل حال. كم يبدو لي هذا مثيراً للاهتمام!

حسناً، المعتاد أنه كلما كان رأي تيد أن نذهب إلى النقطة (ب)، يكون رأيي أنا أن النقطة (أ) هي النقطة التي يجدر الذهاب إليها.

كانت كيت في الفراش في هذه اللحظة، تحثني على الانضمام إليها. ومن ثم زحفت إلى الفراش وسرعان ما كنا بين ذراعي بعضنا البعض، وتعانقت أيدينا وأرجلنا. كانت الشراشف باردة وناعمة، بينما كان الفراش صلباً وكذلك الوسائد، وكذلك كانت مايفيلد. كان هذا أفضل من الغفوات التي عانيتها فوق المقعد أمام شاشة التلفاز.

كان عقلي الكبير يسقط في النوم، بينما عقلي الصغير الآخر في قمة الانتباه، وهو ما يحدث في بعض الأحيان.

الفصل الحادي والأربعون

كان أسد خليل يشاهد الريف يمضي بالأسفل بينما الطائرة البيبر أباتشي العجوز تحلق على ارتفاع 7500 قدم، وتشق عنان السماء الصافية صوب الشمال الشرقي في اتجاه لونغ أيلاند.

هنا قال ساذرويت مخبراً المسافر إلى جواره "الرياح في صفنا، ومن ثم أتوقع أن نقطع الرحلة في وقت أقل".

"ممتاز". فتلك الرياح سرقت بعض الوقت من عمرك.

"حسناً، كما كنت أقول لك، كانت تلك أطول مهمة هجوم جوية قمت بها، والطائرة F-III ليست مريحة بما يكفي".

كان خليل يستمع إلى ساذرويت وهو جالس في هدوء، فتابع الأخير قائلاً "ومن ناحية أخرى، رفض الفرنسيون السفلة أن يدعونا نحلق فوق أراضيهم، فيما وافق الإيطاليون، بل وقالوا إنه بوسعنا الهبوط في صقلية إذا ما استلزم الأمر، أي أن تاريخكم مُشرف لدي يا رفاق".

"شكراً لك".

كانا يحلّقان الآن فوق نورفولك وفيرجينيا، وانتهز ساذرويت الفرصة ليشرح حول مرفق البحرية الأميركية إلى جهة اليمين، "انظر إلى الأسطول هناك. أترى حاملتي الطائرات في المرسى هناك؟ أتراهما؟"

"نعم".

"لقد قامت البحرية بعمل جيد لنا تلك الليلة. ربما لم يروا أيًّا من الأفعال، ولكن مجرد معرفة أنهم هناك لتغطيتنا أثناء الهجوم كان يعطينا ثقة كبيرة".

"نعم، بوسعي أن أتفهم ما تقوله".

قال ساذرويت "ولكن اتضح أن رجال القوات الجوية الجبناء لم يذهبوا في إثرنا بعد أن انتهينا من هجمتنا؛ على الأرجح أن طياريهم كانوا مختبئين أسفل أسرتهم وقد بللوا سراويلهم". وضحك.

جعل هذا خليل يتذكر ما كان هو شخصياً يفعله آنذاك؛ تذكّر فعلته تلك المفعمة بالخجل والغضب، فبلع ريقه، وقال "ولكنني أذكر أن القوات الجوية أسقطت إحدى المقاتلات الأميركية".

"على الإطلاق، بل لم تُتح لهم فرصة الإقلاع عن الأرض في المقام الأول".

"ولكنكم فقدتم واحدة من الطائرات، أليس كذلك؟"

ألقى ساذرويت نظرة على مسافره وقال "بلى. فقدنا تلك المقاتلة، ولكننا جميعاً أكيدون من أن ذلك الرجل قد أخطأ في مساره الهجومي؛ أظنه هبط إلى مستوى

متدنٍ وارتطم بالماء فيما كان يقصد الهبوط على الشاطئ".

"ربما سقط بفعل أحد الصواريخ، أو بمدفعية مضادة".

نظر إليه ساذرويت مرة أخرى، وقال "كانت مدفعياتهم ضعيفة؛ فعلى الرغم من كل ما كان لديهم من تقنيات الروس العالية، إلاّ أنه لم يكن لديهم لا العقل أو الشجاعة اللازمان لاستخدام هذه التقنية". ثم فكّر ثانية في هذه الملاحظة الأخيرة وقال "ولكن الحق يقال: كان هناك العديد من المدفعيات المضادة والصواريخ تتدفع باتجاهنا، وكنت مضطراً لمناورة تلك الصواريخ وتفاديها، بعكس المدفعية المضادة حيث من الأفضل أن تخترقها".

"لقد كنت غاية في الشجاعة إذاً".

"كنت أؤدي واجبي فحسب".

"وهل كانت طيارتك هي الأولى في الاختراق؟"

"نعم، كانت طائرتي هي الطائرة الأولى؟"

ثم تابع "لكم تمنيت لو كنت مسؤولاً عن ضرب منزل القائد، لكنه كان هدف بول؛ المحظوظ اللعين. صحيح أننا لم نكن متأكدين من أن ذاك الأحمق موجود في ذلك المجمع العسكري آنذاك، إلا أن رجالنا كانوا يظنون ذلك. ليس من المفترض أن تغتال رؤساء الدول؛ قانون غبي هذا الذي وقعه كارتر الجبان! لا يُسمح لك بمحاولة قتل رئيس دولة هراء. يمكنك أن تقصف المدنيين وتثير في قلوبهم الرعب، ولكن الرئيس لا. ولكن ريغان يتحلى بشجاعة وجرأة تفوق كارتر آلاف المرات، ومن ثم فعلنا كما يقول روني *فتأتِ برأسه*، وكانت الإشارة الخضراء من نصيب بول. أتفهم ما أقول؟ كان جيم هو ضابط الأسلحة المرافق له، وهو يعيش الآن في لونغ أيلاند؛ يعثر بول على منزل القائد بسهولة، ويلقي جيم بالقنبلة على الهدف، ويذهب المنزل أدراج الرياح. ولكن القائد اللعين ينام في خيمة خلف منزله أو في مكان ما أياً كان. هل سبق وأخبرتك بهذا؟ على كل حال، لقد نجا".

تنهد أسد خليل بعمق مرة أخرى وقال "لكنك أخبرتني أن أحد أفراد عائلته قد لاقى حتفه في ذلك القصف".

"نعم، ضربة قاسية. ولكن هكذا تسير الأشياء في هذا العالم اللعين. أليس كذلك؟ أعني أنهم حاولوا قصف هتلر بقنبلة، فأطاحوا بمجموعة من البشر من حوله، وفرّ هو بشارب محروق فحسب".

مكث خليل صامتاً ولم يعلق.

"أما الضربة الهامة الأخرى فكانت لفرد آخر من أفراد السرب، هل أخبرتك عن ذلك؟ كانت أهدافه في العاصمة، وكانت السفارة الفرنسية إحداها. لم يكن من المفترض أن يعترف أحد بذلك، وكان المطلوب أن يظل الأمر وكأنه قد حدث عن طريق الخطأ. إلا أن ما حدث هو أن أحد رجالنا قد ألقى بالقنبلة في الساحة الخلفية للسفارة الفرنسية. لم يرغب في أن يتسبب هذا في مقتل أي شخص، وكانت ساعة مبكرة جداً من ساعات الصباح، ومن ثم لم يكن من المفترض أن يكون هناك أحد، ولم يكن هناك أحد بالفعل. ولكن فكّر في الأمر: لقد قصفنا منزل القائد فيما كان هو خلف منزله، ثم قصفنا الساحة الخلفية للسفارة متعمدين في حين أننا كنا نعرف أن السفارة ذاتها خاوية. أترى ما أعنيه؟ ماذا لو كان الوضع معكوساً؟ لقد كان الله يرعى ذلك الأحمق تلك الليلة. لكم أتعجب من هذا الأمر".

شعر خليل بيديه ترتعشان، وبدأ جسده يرتعد، ولو أنهما فوق الأرض في هذه اللحظة لقتل هذا الكلب بيديه العاريتين. فحاول التماسك وأغمض عينيه وطفق يدعو ويصلي، فيما تابع سادرويت حديثه "ما أعنيه هو أن الفرنسيين من أصدقائنا، أو حلفائنا، ولكنهم خذلونا ومنعونا من التحليق في مجالهم الجوي، ومن ثم أريناهم أن الحوادث قد تحدث عندما يطير المقاتلون لساعات طويلة زائدة عن الحاجة فيتعبون". ثم أطلق ضحكة عالية وأردف "مجرد حادثة. سامحونا". ثم ضحك ثانية قبل أن يقول "ألا يتحلى روني بالشجاعة؟ لكم نحتاج إلى رجل آخر مثل هذا في البيت الأبيض. لقد كان بوش طياراً مقاتلاً. أتعرف هذا؟ ولقد أسقطه اليابانيون في المحيط الهادئ. كان رجلاً جيداً. ثم جاءنا ذاك الفرخ الشرقي الشارد؛ أركانساس، أمهتم أنت بالسياسة؟"

فتح خليل عينيه وأجابه "بما أنني ضيف في بلادك، ليس من المفترض أن أعلّق على السياسة الأميركية".

"أحقاً؟ أختلف معك. على أي حال، لقد نال هؤلاء الملاعين عقابهم جزاء تفجيرهم للملهى".

ظل خليل صامتاً لثانية، ثم قال "لقد مضت سنوات عدة على هذا الأمر، ومع ذلك أرى أنك تتذكره جيداً".

"هذا صحيح، فمن الصعب أن تنسى معركة قمت بخوضها".

"ولا شك أنهم لم ينسوا الأمر كذلك".

ضحك سادرويت وقال "لست أدري، فلعلك تعرف أنهم يتمتعون بذاكرة طويلة الأمد. أعني أنه بعد سنتين من قصفنا الجوي ذاك، حصل تفجير بان آم في

السماء".

"كما هو مذكور في التوراة؛ العين بالعين والسن بالسن".

"نعم، وأتساءل لماذا لم نرد عليهم ضربتهم تلك. على كل حال، ذلك القائد سلّم أولئك الرجال الذين زرعوا القنبلة. ولقد أدهشني هذا حقاً، فما هي الخدعة من وراء ذلك؟"

"ماذا تعني؟"

"أعني أن شيئاً ما يدور في عقل ذلك القائد، وإلا فما الذي يدفعه إلى تسليم اثنين من رجاله سبق وأن أمرهما هو نفسه بزرع تلك القنبلة؟"

أجابه خليل "ربما فعل ذلك تحت ضغط من محكمة العدل الدولية كي يبدي بعض التعاون".

"حقاً؟ ثم ماذا؟ يعود إلى أصدقائه ويقوم بالإعداد لضربة أخرى. أتعرف؟ ربما كانت حادثة الترانس - كونتيننتل تلك واحدة من ألاعيبه الانتقامية. ألا يشكون في أن الفاعل من أتباعه؟"

"لست على علم بتفاصيل هذا الحادث".

"ولا أنا، والأخبار لا تخبرك بالكثير".

"ولكن قد تكون محقاً في أن هذا الفعل الإرهابي هو آخر الهجمات الإرهابية التي ينتقم فيها قائدهم لاضطراره إلى تسليم من سلمهم. أو ربما لم يشبع بعد رغبته في الانتقام من تلك الهجمة الجوية".

"من يعرف؟ ومن يعبأ بالأساس؟ فمحاولة فهم هؤلاء الحمقى قد تصيبك بالجنون".

لم يرد خليل.

تابعا التحليق. بدا ساذرويت وكأنه فقد الاهتمام بالحديث وصار يتثاءب، بينما يتبعان ساحل نيوجيرسي فيما الشمس تستمر في المغيب. بدأ خليل يُبصر الأضواء المبعثرة بالأسفل، فيما لمح ذلك الوهج أمامه فوق المحيط، فسأل ساذرويت "ما هذا؟"

"أين؟ أوه إنها مدينة أتلنتا بدأت في الظهور. لقد زرتها مرة واحدة؛ إنها مكان رائع في حال كنت تحب الشراب والنساء والأغاني".

تعرّف خليل في قول ساذرويت هذا على بيت شعري للشاعر عمر الخيام.

ضحك ساذرويت وقال "نعم. أو لعله الجحيم، حسب ما لديك من ورق. بالمناسبة هل تحب المقامرة؟"

"كلا، أنا لا أقامر".

"كنت أظن أن أهل صقلية يقامرون".

“نحن نشجع الآخرين على المقامرة، فالفائزون في هذه اللعبة هم من لا يدخلونها”.

“إنك على حق في هذا”.

استدار ساذرويت بالطائرة إلى جهة اليمين واتبع مساراً جديداً، ثم قال “سنطير فوق الأطلسي ثم نتوجه مباشرة إلى لونغ أيلاند. سأبدأ الهبوط الآن، قد تشعر ببعض الفرقعة في أذنيك”.

نظر خليل إلى ساعته فوجدها السابعة والربع، وكادت الشمس تختفي في الأفق الغربي.

فوق الأرض أسفلهما كان الظلام يعم المكان. أزاح خليل نظارته الشمسية، ووضعها في جيب سترته، ثم ارتدى بدلاً منها نظارته ثنائية البؤرة، وقال للطيار “كنت أفكر في مصادفة أن لديك صديق في لونغ أيلاند”.

“ثم؟”

“لديّ عميل في لونغ أيلاند، واسمه جيم كذلك”.

“لا يمكن أن يكون جيم ماكوي”.

“بلى، هذا هو اسمه”.

“جيم أحد عملائك؟ جيم ماكوي؟”

“أهو نفس الرجل الذي يدير المتحف الملاحي؟”

“نعم، اللعنة. كيف تسنى لك أن تعرفه؟”

“إنه يشتري الأقمشة القطنية من مصنعي في صقلية؛ أنواع خاصة تصلح للألواح الزيتية، لكنها ممتازة في تغطية إطارات الطائرات القديمة في المتحف”.

“حسناً، يا الله! أنت تبيع الأقمشة لجيم؟”

“بل لمتحفه، فأنا لم أقابله من قبل. لكنني أعرف أنه راضٍ تماماً عن جودة القطن، فهو ليس بثقيل مثل قماش الأشرعة، وعدم كثافته هذه مطلوبة حتى يصبح بالإمكان شدّه على الإطارات القديمة”. ثم حاول خليل أن يتذكر الأشياء الأخرى التي أخبروه بها في عاصمته، فتابع قائلاً “وبالطبع لأن هذا القماش يُصنع في الأساس لاستخدام الفنانين، فإن لديه القدرة على امتصاص طلاء الطائرات على نحو أفضل بكثير من قماش الأشرعة، والذي أضحى نادراً هذه الأيام على أي حال، حيث يتم تصنيع الأشرعة الآن من الألياف الصناعية”.

“أتمزح؟”

ظل خليل صامتاً لثانية، ثم سأل “ربما يجدر بنا زيارة السيد ماكوي هذا المساء، ما رأيك؟”

فكر ساذرويت في الأمر لبرهة ثم قال “ربما سأتصل به و...”.

“بالطبع لن أحاول الاستفادة من صداقتك به، ولن أتحدث في العمل. فقط أريد أن أرى الطائرة التي يستخدم فيها الأقمشة التي يشتريها مني”.

“بالتأكيد. أعتقد أن ...”.

“بالطبع سأصر على إعطائك هدية صغيرة لقاء هذا المعروف ماذا عن خمسمئة دولار؟”

“حسناً، اعتبر الأمر منتهياً. سأتصل به في مكتبه، وأرى إن كان لا يزال هناك”.

“إن لم يكن هناك، يمكنك أن تتصل به في المنزل، وأن تطلب منه مقابلتنا في المتحف”.

“بالتأكيد، سيفعل جيم هذا من أجلي. فهو يرغب بأن يأخذني في جولة على أي حال”.

“هذا جيد، فربما لن يكون هناك وقت في الصباح. على أي حال، أتمنى لو تبرعت بألفي متر مربع من القماش للمتحف، بغرض الدعاية، وهذا اللقاء سيعطيني الفرصة لأقدم له هديتي”.

“بالتأكيد، يا لها من مصادفة، ويا له من عالم صغير”.

“بل ويصبح أصغر بمرور كل عام”. ثم ابتسم خليل لنفسه، فهو يعرف أنه لم يكن بحاجة إلى هذا الطيار لتسهيل مقابلته بالملازم السابق ماكوي، ولكن هذا يجعل الأمر أسهل. كان خليل يعرف عنوان منزل ماكوي، ولم يكن ليشكل فارقاً إن قتله في المنزل مع زوجته، أو قتله في المتحف في مكتبه. إلا أن قتله في المتحف سيكون أفضل لما في ذلك من رمزية، الأمر الوحيد الهام في هذا الأمر هو أن أسد خليل كان يحتاج إلى الطيران إلى الغرب في هذه الليلة لإنهاء الشق الأخير من رحلة عمله إلى أميركا.

فكّر خليل أنه حتى الآن كانت كل الأشياء تسير وفق الخطة الموضوعة، وفي غضون يوم أو اثنين سيتمكن أحد رجال الاستخبارات الأميركية من الربط بين حوادث القتل التي تبدو وكأن لا صلة بينها. ولكن حتى لو فعلوا، فأسد خليل على أهبة الاستعداد للموت الآن وقد أتم القسم الأكبر من مهمته هامبريشت، ووايكليف، وغراي، ولو أنه استطاع بالفعل إضافة ماكوي إلى القائمة فسيكون خيراً كثيراً. ولكن في حال كانوا في انتظاره في المطار، أو في المتحف، أو في منزل ماكوي، أو حتى في الأماكن الثلاثة، فعلى الأقل سيكون قد تخلص من هذا الخنزير الجالس إلى جواره. ثم ألقى نظرة عليه وابتسم؛ ميت أنت بالفعل أيها الملازم ساذرويت، ولكنك لا تعرف فحسب.

كانا لا يزالان يهبطان صوب لونغ أيلاند، وكان خليل يستطيع بالفعل رؤية خط الساحل أمامه. كان هناك العديد من الأضواء على طول الساحل، ثم امتدت أمامه ناطحات سحاب نيويوك إلى يساره، فسأل ساذرويت “هل سنحلّق بالقرب من مطار كنيدي؟”

قال سادرويت ‘‘كلا، ولكن يمكنك رؤيته هناك بالقرب من الخليج’’. وهو يشير إلى مساحة شاسعة مضيئة بالقرب من المياه، ‘‘أتراه؟’’

‘‘نعم’’.

‘‘نحن نطير على ارتفاع ألف قدم الآن، أسفل المسارات الخاصة بمطار كنيدي، أي أنه لن يتعين علينا أن نتعامل مع هذا الهراء. يا عيسى، هؤلاء الرجال في الملاحة الفيدرالية حمقى بحق’’.

لم يعلق خليل، بيد أنه كان مندهشاً من مقدار التجديف الذي يغمر حديث هذا الرجل. صحيح أن هذا وارد أيضاً بين رجال بلده، ولكنهم لا يكفرون في كل كلمة مثل هذا الخنزير الذي لا دين له؛ فهو يستخدم اسم النبي عيسى في كل التفاهات. لو أنه في بلد خليل لجلدوه للإساءة للأنبياء، ولقتل لو ذكر اسم الله في لغوٍ.

ألقى سادرويت نظرة على رفيقه في السفر وقال ‘‘تعمل إذاً في مجال الأقمشة’’.

‘‘نعم، ماذا كنت تظنني؟’’

ابتسم سادرويت وقال ‘‘حسناً، أصدقك القول فكرت أنك ربما كنت من رجال العصابات’’.

‘‘ماذا تعني؟’’

‘‘المافيا’’.

ابتسم أسد خليل وقال ‘‘أنا رجل طيب؛ تاجر أنسجة، وهل كان رجل من المافيا ليطير في مثل هذه الطائرة القديمة؟’’

أجبر سادرويت نفسه على الابتسام وهو يقول ‘‘معك حق، لا أظنه كان سيفعل ذلك، ولكنني أوصلتك إلى هنا سالماً، أليس كذلك؟’’

‘‘ولكننا لم نهبط بعد’’.

‘‘سنهبط، فلم يسبق لي أن تسببت في قتل أي شخص حتى الآن’’.

‘‘بلى، لقد فعلت’’.

‘‘نعم، ولكنني كنت أتلقى أجراً لقتلهم. أما الآن فأتلقى أجري كي لا أقتلهم’’. ثم ضحك وقال ‘‘كما أن أول الصرعى في حوادث الطائرات هو الطيار نفسه، فهل أبدو لك رجلاً ميتاً؟’’

ابتسم خليل مرة أخرى، لكنه لم يجب عن هذا السؤال الذي يعرف إجابته.

عمد سادرويت إلى اللاسلكي، وشرع يتصل ببرج ماك آرثر قال سادرويت ‘‘برج لونغ أيلاند، الطائرة أباتشي ستة-أربعة بوب على بُعد عشرة أميال من جهة الجنوب، على ارتفاع ألف قدم، تحقق، الهبوط في ماك آرثر’’. ثم راح يستمع إلى رد اللاسلكي القادم من البرج، ثم أقّر استلام تعليمات الهبوط.

مضت بضع دقائق قبل أن يظهر أمامهما المطار الكبير، فأدار سادرويت الطائرة حتى تتسق والمدرج أربع وعشرين، حيث بات خليل يرى المبنى الرئيسي

على مسافة بعيدة إلى يساره، فيما كانت مجموعة الحظائر إلى اليمين، حيث وقفت بالقرب منها بعض الطائرات. كان المطار محاطاً بالأشجار، والمنازل الحضرية، والطرقات السريعة. ووفقاً لما لديه من معلومات، فإن هذا المطار يقع على بعد 75 كيلومتراً إلى الشرق من مطار كنيدي، وحيث إنه لم يكن مخصصاً لاستقبال الرحلات الدولية، فلم تكن الاستعدادت الأمنية فيه مكثفة. على كل حال، إنه يسافر الآن في طائرة خاصة، وهكذا سيفعل في ما بعد، والناحية الأمنية في ما يتعلق بالقطاع الخاص بالمطار - كما هو الحال مع كافة الطائرات الخاصة في أميركا - معدمة تماماً".

فكّر خليل أن الأمر لا يخلو من السخرية؛ فوفقاً لما أُخبِر به في بلده، فإنه منذ خمسة عشر عاماً على الأقل، قامت الحكومة الأميركية بوضع المطارات التجارية على المستوى الأمني الأول، ولم يتم رفعه أبداً. ومن ثم فإن الطائرات الخاصة التي تحمل مسافرين أو أفراد طاقم غير محددي الهوية لا يُسمح لها أبداً بالهبوط في الممرات التجارية، مثلما كان الحال منذ عدة سنوات مضت. أما الآن، فيُطلب من الطائرات الخاصة أن تهبط في مكان يُطلق عليه اسم الملاحة العامة، حيث لا توجد إجراءات أمنية على الإطلاق.

أتاح هذا للأشخاص الذين يخشاهم الأميركيون - المخربون، ومهربو المخدرات، والقتلة، والمرضى النفسيّون - أن يحلقوا بحرية في أجواء البلاد طالما أنهم يطيرون في طائرات خاصة، ويهبطون في مطارات خاصة، أو - كما هو الحال اليوم - في المنطقة الخاصة في مطار تجاري. فما من أحد - بمن في ذلك هذا الطيار الأحمق - سيسأل ما الذي يدفع بمسافر احتاج أن يستأجر سيارة، أو سيارة أجرة، أو اتخذ طائرة تجارية، إلى أن يهبط على هذه المسافة البعيدة من المبنى الرئيسي؛ فببساطة هذا ليس مسموحاً. وتمتم خليل ببعض كلمات الشكر للبيرقراطية الغبية التي سهّلت عليه مهمته.

استقرت الأباتشي في يسر وهي تمس الأرض بعجلاتها، واندهش خليل لسهولة ويسر ذلك الهبوط، خاصة في ظل حالة هذا الطيار العقلية المتدهورة على نحو جليّ.

قال ساذرويت "أترى؟ ها أنت على قيد الحياة وبحالة جيدة".

لم يجبه خليل.

سار ساذرويت بالطائرة حتى آخر الممر ثم اتجه صوب المخرج، وتابعا طريقهما حتى المنطقة حيث الحظائر الخاصة التي سبق له أن رآها من الأعلى. كانت الشمس قد غربت والظلام يسود المطار باستثناء الأضواء على الممرات ومباني الملاحة العامة البعيدة. أخيراً، توقفت الأباتشي بالقرب من مجموعة من المباني والحظائر بعيداً عن المبنى الرئيسي.

نظر خليل من خلال النافذة المتسخة الزجاج بحثاً عن أي إشارة قد تشكل أي خطر، أو فخ قد يكون معداً له، ولقد كان على أتم الاستعداد لسحب مسدسه فيأمر الطيار بالإقلاع مرة أخرى، ولكن لم يظهر له سوى الحركة الطبيعية التي عادة ما تدور حول الحظائر.

ركن ساذرويت الطائرة فوق منصة الإيقاف، وأوقف عمل المحركات، وقال ضاحكاً ‘‘حسناً، فلنخرج من هذا التابوت الطائر’’.

فك الرجلان حزامي مقعديهما، والتقطا حقيبتيهما، ثم فتح خليل الباب، وخرج من فوق الجناح بينما يده اليمنى في جيب سترته تحمل سلاحه. فلدى أول علامة على وجود خطب ما، سيدفع بفوهة السلاح إلى رأس الملازم ساذرويت، ولن يأسف إلا لفقدانه فرصة إخباره عن السر وراء قتله إياه.

توقف خليل عن البحث عن مصادر الخطر، وراح يحاول أن يشعر بها. فوقف بلا حراك، تماماً كالأسد، يستنشق رائحة الخطر في الهواء، حتى قال ساذرويت ‘‘هل أنت بخير؟ فلتقفز. إن قدميك أقرب إلى الأرض من عينيك. هيا اقفز’’.

نظر خليل حوله مرة أخيرة وتأكد أنه ليس هناك ما يدعو للقلق، ثم وثب إلى الأرض. ثم تبعه ساذرويت، ووقف يتمدد ويتثاءب، ثم قال ‘‘الجو هنا لطيف وجميل. سأحضر من يصحبنا إلى المبنى الرئيسي. بوسعك أن تنتظرني هنا’’.

‘‘بل سأمشي معك’’.

‘‘كما تريد’’.

من ثم مشيا صوب أقرب الحظائر حتى عثرا على أحدهم، وقال له ساذرويت ‘‘هل لك أن تأخذنا إلى المبنى الرئيسي؟’’

فأجابه الرجل ‘‘إن الشاحنة البيضاء تلك متوجهة إلى هناك الآن’’.

قال ساذرويت ضاحكاً ‘‘رائع، سأقضي الليلة هنا، ثم أغادر عند منتصف نهار غد، أو ربما بعد ذلك. فهل لك أن تزود طائرتي بالوقود وتعيد طلاءها؟’’

فأجابه الرجل ‘‘إن هذا الشيء يحتاج إلى أكثر من مجرد طلاء يا صديقي، هل أوقفت المكابح؟’’

‘‘نعم’’.

‘‘سأسحبها إلى حيث يمكن تزويدها بالوقود’’.

‘‘فلتملأ خزاناتها الستة إذاً’’.

ثم أسرع كل من خليل وساذرويت إلى الشاحنة البيضاء، حيث تحدث هذا الأخير إلى السائق، وسرعان ما كانا يجلسان في الجزء الخلفي من الشاحنة، حيث كان يجلس شاب وامرأة شقراء جذابة على المقاعد الوسطى.

لم يكن خليل يشعر بالارتياح لهذه الترتيبات، ولكنه كان يعرف من التدريب الذي تلقاه أنه ما كان ليصل إلى هذه الشاحنة لو أن في الأمر فخاً. إلا أنه استبقى يده فوق سلاحه.

أدار السائق محرك الشاحنة، وبدأ التحرك. كان خليل يرى المبنى الرئيسي مضاءً على بعد كيلومترٍ عبر الأرض المستوية.

ما إن خرجت الشاحنة من المطار حتى سأل خليل سائق الشاحنة "إلى أين أنت ذاهب؟"

"الملاحة العامة والطرف التجاري من المطار منفصلان، لا يمكنك العبور بينهما".

صمت خليل ولم يعلق.

مكث الجميع صامتين لبرهة، حتى توجّه ساذرويت بالحديث إلى الشاب والفتاة الجالسين على المقعدين أمامه قائلاً "هل وصلتما لتوكما؟"

أدار الرجل رأسه إليه، فنظر أولاً إلى خليل وتلاقت أعينهما. ولكن في ذلك الظلام داخل الشاحنة، كان خليل يعرف أنه من الصعب رؤية ملامحه.

ثم انتقل الرجل بعينيه إلى ساذرويت وقال "نعم، لقد وصلنا لتونا من مدينة أتلنتا.

قال ساذرويت "وهل كنت سعيد الحظ؟" وهو يومئ إلى الشقراء، ويغمز بعينيه ويبتسم.

أجبر الرجل نفسه على رد الابتسامة وأجاب "ليس للحظ دخل في هذا". ثم استدار إلى الأمام مرة أخرى، وغرق الجميع في الصمت طوال الطريق.

مرة أخرى، عاودت الشاحنة دخول المطار، وتوجهت نحو المبنى الرئيسي، حيث نزل الشاب والفتاة وتوجها إلى موقف سيارات الأجرة.

فقال خليل موجهاً حديثه إلى السائق "معذرة، ولكن لديّ سيارة مستأجرة لدى هيرتز لاستئجار السيارات، خدمة البطاقات الذهبية. وأرى أنه من الأفضل لو اتجهت صوب موقف هيرتز مباشرة".

قال السائق "حسناً، لا بأس". وتحرك بالشاحنة حتى أصبحوا في غضون دقيقة في المنطقة الخاصة الصغيرة المحجوزة لعملاء البطاقات الذهبية لدى هيرتز، حيث كان هناك عشرون مكاناً مرقماً مخصصاً لوقوف السيارات أسفل مظلة طويلة من المعدن المضاء، ولكل منطقة اسم تبرزه الأضواء، حيث كان يُطلق على إحداها اسم بدر، وسار خليل صوبها وتبعه ساذرويت.

ثم وصلا إلى السيارة، وكانت سيارة لينكولن سوداء. ففتح خليل بابها الخلفي حيث وضع حقيبته.

فسأله ساذرويت "أهذه سيارتك المستأجرة؟"

"نعم، وبدر هو اسم الشركة".

"أوه، ولن يتعين عليك التوقيع على أي أوراق أو شيء من هذا القبيل؟"

"إنها خدمة خاصة تتيح لك فرصة تجنب الطوابير الطويلة لدى منضدة الاستئجار، هلاّ دخلت من فضلك!"

هزّ ساذرويت كتفيه، وفتح باب الراكب الأمامي، وانزلق إلى الداخل وهو يرمي بحقيبته فوق المقعد الخلفي. كانت مفاتيح السيارة في مكانها، وعلى الفور شغّل خليل محرك السيارة وأنار مصابيحها، فيما كان يقول لساذرويت "هلاّ أخرجت الأوراق من الصندوق أمامك من فضلك".

فتح ساذرويت صندوق السيارة، وأخرج الأوراق بينما كان خليل يقود نحو المخرج. ولدى كشك الخروج، فتحت امرأة نافذتها وقالت "هل لي أن أرى أوراق استئجار السيارة ورخصة القيادة خاصتك يا سيدي؟"

أخذ خليل أوراق استئجار السيارة من ساذرويت وناولها إياها، فشرعت تنظر إليها، ثم أخذت إحداها بينما كان خليل يناولها رخصة قيادته المصرية والرخصة الدولية. نظرت إليهما المرأة لبضع ثوانٍ، ثم ألقت نظرة على خليل، وأعادتهما إليه مع بقية أوراق الاستئجار، وهي تقول "حسناً، لا بأس".

قاد خليل السيارة إلى الطريق الرئيسي، ثم انعطف يميناً كما قد أخبروه من قبل، وهو يضع رخصة القيادة في جيب سترته الداخلي مع وثيقة الاستئجار.

قال ساذرويت "كم كان هذا سهلاً، هذا ما يفعله الأثرياء إذاً".

"معذرة؟"

"ألست من الأثرياء؟"

"بل شركتي"

"هذا جيد، فهم يجنبونك الحديث مع الحمقى في المكاتب الأمامية لدى شركات استئجار السيارات".

"بالضبط".

"كم يبعد النُزل الذي ستبقى فيه الليلة عن هنا؟"

"كنت أظن أنه ربما يجدر بنا الاتصال بالسيد ماكوي قبل الذهاب إلى الفندق، فالساعة تكاد تقترب من الثامنة مساءً بالفعل".

قال ساذرويت "نعم". وهو ينظر إلى الهاتف الخلوي الموضوع فوق لوح العدادات بالسيارة، وأردف "لم لا؟"

شاهد خليل الرقم الشفري لتشغيل الهاتف الخلوي مذكوراً على وثيقة الاستئجار، فأعاده إلى ساذرويت، وسأله "ألديك رقم هاتف صديقك؟"

أخرج ساذرويت بطاقة ماكوي من جيبه، وأنار مصباح السيارة فوق رأسه، وقال "ربما يُفضّل أن تخبره أنني صديق فحسب، وسأقدم له نفسي عندما نصل إليه". ثم أضاف "ومن فضلك أخبر السيد ماكوي أن وقتك محدود هنا، وأنك ترغب بحق في رؤية المتحف الليلة. وفي حال كان الأمر ضرورياً، يمكننا اصطحابه من المنزل، فالسيارة مزودة بملاّح آلي كما ترى، ولن نجد مشقة في الوصول إلى منزله أو إلى المتحف. ومن فضلك تحدث إليه من خلال مكبر الصوت حتى أسمعه".

نظر ساذرويت إلى خليل، ثم إلى شاشة الملاّح الآلي المثبت في اللوح، ثم قال "لك هذا" وشرع يزود الهاتف بالكود الشفري، ثم طلب رقم جيم ماكوي.

ثم سمع صوت رنين الهاتف عند الناحية الأخرى من خلال مكبر الصوت، وبعد الرنة الثالثة انبعث صوت سيدة وهي ترد قائلة "ألو؟"

"بيتي، هذا أن ساذرويت".

"أوه، مرحباً يا بيل، هل أنت هنا؟"

"أنا بخير، وكيف حال الأولاد؟"

"بخير".

"وهل جيم بالمنزل؟" وقبل أن يعطيها فرصة الرد، أسرع بيل ساذرويت - الذي اعتاد أن ينكر الناس وجودهم له - يقول لها "لا بد أن أتحدث إليه للحظة، الأمر هام".

"أوه، حسناً، دعني أرى ما إذا كان قد انتهى من مكالمته الأخرى".

"شكراً لكِ، أخبريه أن لديّ مفاجأة من أجله".

"لحظة واحدة".

ثم وضعت المكالمة في وضع الانتظار.

بالطبع أدرك خليل ما بين سطور تلك المحادثة، وأراد أن يهنئ السيد ساذرويت على حسن اختياره لكلماته، بيد أنه تابع القيادة وهو يبتسم.

كانا يسيران فوق الطريق السريع باتجاه الغرب، صوب مقاطعة ناساو حيث يقع المتحف، وحيث يعيش جيم ماكوي وحيث سيموت.

ثم انبعث صوت آخر من مكبر الصوت يقول "مرحباً يا بيل، ما الأمر؟"

اتسعت ابتسامة ساذرويت وهو يقول "لن تصدق ما سأقوله له، خمّن أين أنا الآن؟"

ساد الصمت قليلاً، ثم قال جيم ماكوي متسائلاً "أين؟"

"لقد هبطت لتوي في مطار ماك آرثر. أتتذكر ذاك العميل الذي حدثتك عنه؟ لقد غيّر خطته، وها أنا ذا".

"هذا عظيم".

"ولكن يا جيم، عليّ أن أعود غداً في الصباح الباكر، فكنت أفكر لو مررت عليك في المنزل، أو ربما قابلتك في المتحف".

"حسناً، أنا لديّ..."

"فقط لنصف ساعة فحسب. نحن في الطريق إليك الآن، فأنا أتصل بك من سيارته. أود فعلاً لو رأيت الطائرة F-III. بوسعنا أن نأتي لاصطحابك".

"من معك؟"

"صديق، رجل طار معي من كارولاينا الجنوبية، وهو يرغب في أن يرى بعض الطائرات القديمة. كما أن لدينا مفاجأة من أجلك. وتأكد من أننا لن نؤخرك في حال كنت مشغولاً بالفعل". ثم أردف "أعرف أن الأمر ليس مخططاً له، ولكنك قلت من قبل إن ..."

"نعم، حسناً، لماذا لا نتقابل في المتحف؟ أتعرف كيف تصل إلى هناك؟"

"نعم، فلدينا ملاّح آلي في السيارة".

"أين أنت الآن؟"

نظر ساذرويت إلى خليل، الذي أجاب ماكوي بأن رفع صوته ليصل عبر مكبر الصوت "نحن على الطريق 495 بين الولايات، ولقد مررنا لتونا بمخرج الطريق السريع التذكاري للمحاربين".

فقال ماكوي "حسناً، إنكما على طريق لونغ أيلاند السريع إذاً، وأمامكما قرابة النصف ساعة في حال كان الطريق غير مزدحم. سأوافيكما لدى بوابة المتحف الرئيسية. ابحثا عن نافورة كبيرة، وأعطني رقم هاتفك الخلوي على أي حال".

قرأ له ساذرويت رقم الهاتف، ثم قال ماكوي "لو لم نتقابل لأي سبب سيتصل أحدنا بالآخر. إليك رقم هاتفي الخلوي". وأعطاه الرقم ثم سأله "ما نوع سيارتكما؟"

"لينكولن سوداء كبيرة".

"حسناً، ربما طلبت من أحد الحراس أن ينتظركما عند البوابة". ثم أضاف في صوت يشوبه المرح "تم ترتيب الموعد في الساعة ألفين ومئة، ونقطة الميعاد حسبما اتفق، وتم الاتصال بين كافة الأطراف. أراك في ما بعد يا كارما 75. حوّل".

رد عليه ساذرويت "روجر، إلتون 38". وابتسامة عريضة تعلو وجهه، ثم أنهى المكالمة، ونظر إلى خليل.

"ما من مشكلة. انتظر حتى تعرض عليه ألفي يارد مجانية من القماش، عندها سيدعونا إلى الشراب".

"تعني ألفي متر من القماش".

"نعم، هو ما قلتَه".

مرت عشرون دقيقة ساد فيها الصمت، ثم قال ساذرويت "أوه، لست أعني حثك على شيء، لكنني قد أخرج لبعض الوقت بعد اللقاء، وفكرت أنني ربما أحتاج إلى المزيد من المال".

قال خليل "أوه، نعم، بالطبع". وأخرج محفظته من جيب سترته، ثم أخرج منها حفنة من الدولارات ناولها لساذرويت وقال "أخرج منها خمسمئة دولارٍ".

"ربما كان من الأفضل لو عددتها بنفسك".

"أنا أقود السيارة، كما أنني أثق بك".

"هز ساذرويت كتفيه، وأنار مصباح السيارة العلوي مرة أخرى، وأخذ النقود من خليل، وراح يعد الخمسمئة دولار، أو لعلها كانت خمسمئة وعشرين، حيث لم يكن متأكداً في ذلك الضوء الضعيف، ثم قال "ولكن ذلك لن يترك لك الكثير من النقود".

"لا بأس، سأتجه إلى أي من ماكينات الصرف الآلية في ما بعد".

أعاد ساذرويت بقية النقود إلى خليل وهو يقول "أمتأكد أنت من ذلك؟"

قال خليل "نعم، لا بأس". وهو يضع محفظة النقود في جيبه فيما كان ساذرويت يضع النقود في محفظته.

ثم اتجها غرباً على الطريق السريع، قام خليل ببرمجة الملاّح الآلي ليقوده إلى متحف المهد الملاحي، وفي غضون عشرين دقيق كانا يندفعان جنوباً على طريق معشوشب، ومنه إلى المخرج M4، حيث كان هناك لافتة كتب عليها *متحف المهد الملاحي*. فاتبعا العلامات إلى حيث تشارلز ليندبيرج بوليفارد، ثم استدارا يميناً إلى الطريق المتسع المصطف بالأشجار والمؤدي إلى المدخل. وأمامهما مباشرة كانت نافورة بأضوائها الزرقاء والحمراء، ومن خلفها هيكل ضخم من الزجاج والحديد، ومن خلفه ارتفعت قبة مهيبة.

قاد خليل السيارة حول النافورة، ثم توجّه صوب البوابة الرئيسية حيث خرج إليهما حارس بزيه الرسمي. أوقف خليل السيارة فيما كان الحارس يقول "يمكنك ترك السيارة هنا".

أوقف خليل محرك السيارة اللينكولن عن العمل، وخرج منها، ثم سحب حقيبته من المقعد الخلفي، وكذلك فعل ساذرويت، إلا أنه ترك حقيبته في السيارة، ومن ثم أغلقها خليل باستخدام جهاز التحكم عن بعد، وقال الحارس وهو ينظر إلى الرجلين "أهلاً بكما في متحف المهد الملاحي. السيد ماكوي في انتظاركما في مكتبه، سأصطحبكما إلى هناك". ثم توجّه إلى خليل متسائلاً "هل أنت بحاجة إلى هذه الحقيبة معك يا سيدي؟"

"نعم، فلديّ هدية للسيد ماكوي، وكاميرا للتصوير".

"حسناً، لا بأس".

كان ساذرويت ينظر من حوله في أرجاء ذلك المجمع الضخم. فإلى يمين المجمّع، في ملحق بالمبنى الحديث أمامهما، كانت هناك حظيرتان ممتازتان تعودان إلى الثلاثينيات، وقد أعيد ترميمهما وطلاؤهما، فقال ساذرويت "هيه، انظر إلى هذا".

فقال الحارس "إنها قاعدة القوات الجوية لسلاح ميتشيل، والتي كانت تخدم كقاعدة للتدريب والدفاع الجوي في الثلاثينيات وحتى منتصف الستينيات. ولقد تُركت الحظائر في مكانها، وأعيد ترميمها إلى حالتها الأولى، وهي تحمل معظم

طائراتنا الممتازة. أما هذه البناية الجديدة أمامنا فتضم مركز الزوار ومسرح قبة جرومان إيماكس. أما إلى اليسار، فهناك متحف العلوم والتكنولوجيا وقاعة العلوم الفضائية تيكسباي. اتبعاني رجاءً".

تبع خليل وساذرويت الحارس إلى بوابات الدخول، ولاحظ خليل أن ذلك الحارس لم يكن يحمل سلاحاً. ثم دخلوا جميعاً البناية حيث رأيا بهواً بارتفاع أربعة طوابق، وقال الحارس "هذا هو مركز الزوار الذي - كما تريان - يضم مكاناً للعرض، ومتجر المتحف هناك، وكافيتيريا الكوكب الأحمر إلى الأمام مباشرة".

شرع كل من خليل وساذرويت ينظران من حولهما في أرجاء البهو المرتفع، بينما كان الحارس يتابع قائلاً "وهناك أيضاً جيرودين روتورسايكل؛ وهي طائرة مروحية تجريبية، تتسع لشخص واحد، من طراز عام 1959. وهناك الطائرة الشراعية ميرلين، والطائرة الشراعية فيليجدون التي تم بناؤها هنا في لونغ أيلاند عام 1981".

تابع الحارس جولته الإرشادية بينما كان يقود الرجلان عبر المساحة الشاسعة، بينما يتردد صدى وقع خطواتهم فوق الأرضية المغطاة بالغرانيت. ولاحظ خليل أن أضواء معظم الأبنية لا تزال مضاءة، فسأل الحارس "هل لديكم زائرون سوانا هذا المساء؟"

"نعم يا سيدي. في الحقيقة، إن المتحف لم يتم افتتاحه بصفة رسمية بعد، إلا أننا نستقبل مجموعات صغيرة من المتبرعين المحتملين، بالإضافة إلى بعض حفلات الاستقبال التي نقيمها أحياناً على شرف بعض الأثرياء". ثم ضحك وقال "وسيكون الافتتاح الرسمي بعد ستة أو ثمانية شهور".

فقال ساذرويت "أي أننا نحظى بجولة خاصة اليوم".

"نعم يا سيدي".

نظر ساذرويت إلى خليل، وغمز له بعينه.

تابعت المجموعة الصغيرة طريقها مروراً بباب كُتب عليه *خاص. للعاملين فقط*. ومن خلف ذلك الباب كان ممر اصطفت على جانبيه أبواب المكاتب. ثم توقف الحارس لدى الباب المكتوب عليه *مكتب المدير*، فطرقه، ثم فتحه وهو يقول "أتمنى لكما زيارة سعيدة".

خطا خليل وساذرويت إلى داخل منطقة الاستقبال الصغيرة بالمكتب، حيث كان ماكوي يجلس إلى مكتب موظف الاستقبال وينظر إلى بعض الأوراق التي وضعها لدى دخولهما، ثم وقف ودار حول المكتب وهو يبتسم ويمد يده "بيل، كيف حالك؟"

"أنا في أحسن حال".

أخذ بيل ساذرويت يد رفيقه في السرب، ووقفا ينظران إلى بعضهما البعض ويبتسمان.

أما خليل فكان يشاهد الرجلين وكل منهما يحاول إدعاء السعادة للقاء الآخر، ولاحظ أن ماكوي لم يكن بلياقة الجنرال وايكليف أو الملازم غراي، ولكنه كان - بالقطع - أفضل حالاً من ساذرويت. كما لاحظ أنه كان يرتدي حلة كاملة، مما أبرز مدى التناقض بينه وبين ساذرويت.

تحدث الرجلان سوياً على نحو مختصر، ثم استدار ساذرويت وقال "جيم، أقدم لك عميلي السيد ...".

قال خليل "فانيني. أليساندرو فانيني". وهو يمد يده حيث أمسكها جيم، فيما أردف خليل "أنا مُصنّع أقمشة". ثم نظر إلى جيم ماكوي وتلاقت أعينهما، بيد أنه لم تبدُ على هذا الأخير أي إشارات حذر أو توجس. ولكنّ خليلاً لاحظ الذكاء يبرق في عيني هذا الرجل، وأدرك أنه ليس أحمق أو غبياً بقدر ساذرويت، وليس من النوع سريع الثقة بالآخرين.

قال ساذرويت "إن الشركة التي يعمل بها السيد فانيني قد باعت ...".

قاطعه خليل قائلاً "إن شركتي تقوم بتوريد أغطية الطائرات القديمة. وفي تعبير عن امتناننا بهذه الجولة الخاصة، يسرني أن أرسل لك ألفي متر من الأغطية المصنعة من القماش الفاخر، بلا أي التزام من جانبك".

مكث ماكوي صامتاً لبرهة ثم قال "هذا كرم بالغ منكم، ويسعدنا أن نقبل تبرعكم هذا".

ثم توجه ساذرويت إلى خليل وقال "ألم تقل إن؟"

فقاطعه خليل مرة أخرى وقال "أتساءل إن كانت هناك فرصة لكي أرى بعض طائراتكم القديمة لأختبر جودة الأغطية التي تستخدمونها. فلو أنها أفضل مما أستطيع تقديمه لكم، عندئذ سأعتذر عن تقديم منتجي الأقل جودة".

فهم ساذرويت أن السيد فانيني يريده أن يغلق فمه لسبب أو لآخر. أما ماكوي فلم يرَ في فانيني سوى بائع حقير فرض نفسه عليه، فقال لخليل "حيث إن طائراتنا القديمة لا تبرح عجلاتها الأرض، فإننا نستخدم أغطية ذات قدرة تحمل عالية".

"أفهم ما تعنيه. حسناً، إذن سأهتم بأن أرسل إليك أفضل أنواع القماش لدينا".

بدت هذه المعلومة مناقضة لما أخبره به السيد فانيني من قبل، ولكنه التزم الصمت.

استمر الحديث بينهما لبضع ثوانٍ، بدا ماكوي خلالها غاضباً من أن بيل ساذرويت قد جلب معه هذا الغريب إلى لقائهما بعد كل هذه الفترة التي لم يتقابلا فيها. إلا أن ماكوي وجد هذا ملائماً تماماً لشخصية ساذرويت؛ بلا منطق، وبلا تدبر، وبدون أي مهارات اجتماعية على الإطلاق. بالرغم من كل ما يجري ابتسم وقال "فلنذهب ونرى بعض تلك الماكينات الطائرة". ثم توجّه إلى خليل، وأردف "يمكنك ترك حقيبتك هنا".

"بل أفضل أن أبقيها معي في حال لم يكن لديك مانع؛ إذ يوجد فيها آلة التصوير الفوتوغرافية وكاميرا تصوير الفيديو".

قال ماكوي "لا بأس". وقادهما عبر الممر، ثم إلى البهو مرة أخرى، ومنه إلى مجموعة من الأبواب الكبيرة التي تؤدي إلى الحظائر.

فوق أرضية الحظائر المجاورة كانت تربض أكثر من خمسين طائرة تعود إلى حقبات تاريخية مختلفة، شرع جيم ماكوي يقول "معظم هذه الطائرات - وليس جميعها - تم صنعها هنا في لونغ أيلاند؛ مثل وحدات الهبوط القمرية جرومان، في الحظيرة المجاورة. وكافة أعمال الترميم التي سترونها قد تمت على أيدي عمّال متطوعين من الجنسين ممن عملوا في صناعة المركبات الفضائية هنا في لونغ أيلاند، أو في الطيران التجاري أو العسكري. ولقد قضوا في هذا آلاف الساعات من العمل مقابل القهوة والحلوى وكتابة أسمائهم على جدران البهو".

مضى ماكوي في حديثه بتلك النبرة في صوته التي كانت تحمل بوضوح مغزى أن هذه الجولة ستكون جولة قصيرة، فقال "أما هناك - كما ترون - فتقف الطائرة Ryan NYP، وهي الشقيقة الأصلية لطائرة Spirit of St. Louis، ومن ثم سمحنا لأنفسنا بوضع ذاك الاسم على هيكل الطائرة".

كان الرجال الثلاثة يسيرون بينما ماكوي يتحدث إليهم في جولته الإرشادية، وهم يمرون بالعديد من الطائرات، وقد بات واضحاً أن تلك ليست الجولة التي يلقاها كبار المتبرعين على الإطلاق.

أخيراً، توقف ماكوي أمام طائرة قديمة، وقد طُليت باللون الأصفر، وقال "أما هذه فهي الطائرة Curtiss JN-4، وندعوها جيني. تم بناؤها في العام 1918، وهي أولى طائرات ليندبيرج".

أخرج أسد خليل آلة التصوير خاصته والتقط بعض الصور التي لا قيمة لها، ثم نظر إليه ماكوي وقال "يمكنك فحص الأغطية إن أردت".

فشرع خليل يمس الأقمشة الخشنة الملونة وقال "نعم، أدركت ماذا تعني. فهذا النسيج ثقيل جداً بالنسبة لطائرة، وسآخذ هذا في عين الاعتبار عندما أرتب للقماش الذي ستتبرع به شركتي لكم".

"هذا جيد. أما هنا فلدينا الطائرة Sperry Messenger، وهي طائرة استكشافية بُنيت عام 1922. وهناك، في الركن البعيد، لدينا مجموعة من مقاتلات جرومان التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية: طائرات القط الوحشي F4F، وقط الجحيم F6F، والمنتقم TBM...". وهنا قاطعه خليل قائلاً "معذرة سيد ماكوي، ولكن ليس لدينا متسع من الوقت، وأنا أعرف أن السيد ساذرويت يرغب في رؤية طائرته القديمة".

نظر ماكوي إلى ضيفه، ثم أطرق وقال "فكرة جيدة. اتبعاني". ثم ساروا عبر فتحة ضخمة في الحظيرة الثانية، والتي كانت تضم بالأساس طائرات نفاثة ومركبات استكشاف فضائية.

اندهش خليل لحقيقة أن كل هذه المقاتلات تجتمع في هذا المكان، حيث كان يعرف أن الأميركيين يحبون أن يقدموا أنفسهم للعالم على أنهم شعب محب للسلام. ولكن هذا المتحف كان بمثابة إشارة واضحة على أن فن الحرب كان أبلغ صور ثقافتهم. ولم يكن خليل في حكمه هذا جائراً عليهم.

سار ماكوي مباشرة إلى حيث تقف الطائرة F-III؛ كانت طائرة بمحركين، فضية اللون على نحو لامع، ومزدانة بشارة القوات الجوية الأميركية، وكانت أجنحتها مسحوبة إلى الخلف، وعلى هيكلها - أسفل جانب الطيار - كان اسم هذه الطائرة منقوشاً؛ بيتي القفّازة.

هنا وجّه ماكوي حديثه إلى بيل ساذرويت قائلاً "حسناً، إليك الطائرة. أتثير لديك أي ذكريات؟"

راح ساذرويت يحدّق في الطائرة النفاثة المقاتلة وكأنها ملاك فوق الأرض، يشير إليه كي يأخذ بيده ويحلّق به. أما الرجلان الآخران فقد لزما الصمت بينما ساذرويت مأخوذ بمرأى ماضيه، وقد غشيت عيناه بالدموع.

كان جيم ماكوي يبتسم، ثم قال برفق "لقد أسميتها على اسم زوجتي".

أما خليل، فكان محدِّقا بعينيه كذلك، بيد أنه كان غارقاً في ذكرياته الخاصة.

أخيراً، اقترب ساذرويت من الطائرة ومسّ هيكلها، ثم راح يدور حولها وأنامله تداعب هيكلها الصلب، بينما عيناه تلتهمان كافة تفاصيل جسدها المثالي الناعم. وعندما أنهى جولته حولها، نظر إلى ماكوي وقال "لقد حلّقنا بهذه يا جيم، لقد فعلنا".

"نعم، فعلنا. منذ ملايين السنوات".

استدار أسد خليل مبتعداً وهو يعطي انطباعاً أنه متأثر بهذه اللحظة بين المحاربين القدامى، ولكن في الحقيقة كان متأثراً بلحظته الخاصة، بوصفه ضحية هذين المحاربين.

كان يوليهما ظهره ويسمعهما يتحدثان، ويضحكان، ويذكران أشياء تثير فيهما السعادة، بينما كان هو يغلق عينيه على مشهد ذلك البريق يقترب منه ثم يتخذ شكل تلك المقاتلة في وضوح، وذلك الذيل الأحمر ينبعث من مؤخرها وكأنه شيطان خرج لتوه من قلب الجحيم. حاول خليل جاهداً إبعاد صورته وهو يبول في سرواله من الخوف، إلا أن الذكرى كانت أقوى منه، فتركها تلتهمه، وهو يعرف أنه على وشك غسل ذلك العار.

ثم سمع ساذرويت ينادي عليه، فاستدار. كانت هناك منصة متحركة من الألمنيوم بجوار الطائرة إلى جانب الطيار، وقال ساذرويت لأسد خليل "هل لك أن تلتقط لنا صورة ونحن في قمرة القيادة؟"

وكان هذا بالتحديد هو ما يدور في عقل خليل، فقال "على الرحب والسعة".

صعد جيم ماكوي أولاً، فصعد السلم ورفع قبة القمرة، ثم انحنى وانزلق إلى جهة اليمين حيث مقعد ضابط الأسلحة. ثم تبعه ساذرويت فوق درجات السلم تلك، ومنها

إلى مقعد الطيار وهو يطلق صيحة سعادة عالية ويقول "مرة أخرى نقبض على زمامها. هيا، فلنقتل بعض الحمقى! نعم!"

نظر إليه ماكوي بغير استحسان لما يفعله، إلا أنه لم يحاول قول شيء من شأنه أن يفسد لحظة السعادة التي يعيشها صديقه.

صعد أسد خليل السلم.

كان ساذرويت يقول لماكوي "حسناً يا صاح، سنذهب إلى أرض الرمال. لكم كنت أتمنى لو أنك كنت رفيقي آنذاك بدلاً من تشب. ذلك اللعين يمكنه أن يخرج ثوراً عن شعوره". وراح يداعب أزرار التحكم وهو يقلد أصوات المحركات وهي تدور "المحرك الأول ينطلق، المحرك الثاني ينطلق". ثم اتسعت ابتسامته هو يمر بيده عبر المتحكمات في قمرة القيادة، وهو يومئ برأسه كلما تعرف على أحدها.

"أراهن أنه يمكنني أن أقوم بكافة إجراءات ما قبل الإقلاع من الذاكرة فقط".

قال ماكوي وهو يحاول تدليل صديقه "وأنا أيضاً أراهن على أنك تستطيع".

"حسناً يا صديقي، أريدك أن تسقط قنبلة على تلك الخيمة ...". ثم أطلق ضحكة عالية وهو يقلد أصوات المزيد من ضوضاء المحركات.

نظر جيم ماكوي إلى السيد فانيني الذي كان يقف في تلك اللحظة فوق المنصة أعلى السلم، وأجبر نفسه على الابتسام لضيفه ذلك، وهو يتمنى مرة أخرى لو أن ساذرويت قد أتى بمفرده.

أما أسد خليل فرفع آلة التصوير خاصته، وصوبها نحو الرجلين داخل القمرة، وقال "مستعدان؟"

ابتسم ساذرويت ابتسامة عريضة أمام الكاميرا، وانطلق الفلاش. حاول ماكوي أن يكون تعبير وجهه حيادياً عندما برق ضوء الفلاش مرة أخرى، بينما رفع ساذرويت يسراه أمام الكاميرا في إشارة بذيئة بإصبعه الأوسط، في حين لم يقل ماكوي سوى "حسناً". ثم تتابعت اللقطات وساذرويت يشد رأس ماكوي في مرح ويقبض عليه بذراعه، وأخيراً قال ماكوي "حسناً، فلنكتفِ بهذا القدر".

أعاد خليل آلة التصوير إلى داخل حقيبته السوداء، ثم أخرج القنينة البلاستيكية التي سبق وأن أخذها من الشيراتون من قبل، ثم قال "بقيت تصويبتان أخريان أيها النبيلان".

كان ماكوي لا يزال يغمض عينيه ويفتحهما من أثر الفلاش وهو ينظر إلى ضيفه، ثم لاحظ قنينة الماء، بيد أنها لم تثر لديه أي إشارة إلى وجود خطر ما، ولكن ذلك التعبير الذي رآه على وجه السيد فانيني هو ما أزعجه. وفي لحظة واحدة أدرك أن ثمة خطباً ما بشع، وكان أسد خليل يقول "حسناً يا سادة، أتراكما تستمتعان بذكرياتكما حول مهمة القصف تلك؟"

لم يجب ماكوي، بينما قال ساذرويت "سيد فانيني لماذا لا تتقدم نحو أنف الطائرة وتلتقط لنا صورة من المقدمة؟"

لم يتحرك أسد خليل.

فقال جيم ماكوي "حسناً، فلنخرج من هنا. هيا يا بيل".

فقال خليل "اثبت مكانك، لا تتحرك".

حدّق ماكوي في وجه أسد خليل وجف حلقه على نحو مفاجئ، ففي مكان ما في أعماقه كان يعرف أن هذا اليوم سيأتي لا محالة وها هو قد أتى الآن.

قال سادرويت لخليل "حرك هذا السلم حول الطائرة والتقط لنا صوراً من الجانب الآخر. ولقطات أخرى من فوق الأرض بعد ذلك".

"اخرس".

"ها؟"

"أغلق فمك".

قال سادرويت "بحق الجحيم من -" ثم وجد نفسه ينظر إلى فوهة مسدس بالقرب من جسد عميله ذلك.

أما ماكوي فقال في صوت خافت "أوه، يا الله، كلا، كلا".

أما خليل فابتسم وقال "حسناً سيد ماكوي. أرى أنك خمنت بالفعل أنني لست مصنًّعا للأقمشة. ربما أصلح أن أكون صانع أكفان".

"أوه".

بدا سادرويت مشوشاً، وهو ينقل نظراته بين ماكوي وخليل وهو يحاول اكتشاف ما يعرفانه ولا يعرفه هو. "ما الذي يحدث هنا؟"

قال ماكوي "أغلق فمك يا بيل". ثم توجّه إلى خليل وقال "المكان يعج بالرجال المسلحين وكاميرات المراقبة الأمنية. أقترح عليك أن تذهب الآن ولن -".

"فلتصمت! أنا من سيتحدث هنا، وأعدك ألا أطيل عليكما الحديث".

صمت ماكوي ولم يجب.

للمرة الأولى لم يتحدث بيل سادرويت، بيد أن لمحة فهم بدأت تخترق عقله، فيما كان أسد خليل يقول "عندما قمتم بالقصف، كنت أنا ولداً صغيراً أعيش مع أسرتي في مكان تعرفانه جيداً".

وهنا قال سادرويت "كنت تعيش هناك؟"

"اصمت! ولقد حلقتما فوق مدينتي، وأسقطتما القنابل فوق رؤوس قومي، وقتلتما عائلتي - أخواي وأختاي وأمي - ثم عدتما إلى إنكلترا، حيث أفترض أنكما احتفلتما بجرائمكما البشعة. ولقد حان الوقت كي تسددا دينكما".

أخيراً أدرك سادرويت أنه على وشك الموت، فنظر إلى جيم ماكوي الجالس بجواره وقال "اقبل اعتذاري يا صديقي".

صاح خليل "أمرتك أن تصمت". ثم تابع "أولاً أشكر لك دعوتك لي لحضور لم الشمل اللطيف هذا، وأريدكما أن تعرفا أنني قد قتلت العقيد هامبريشت، والجنرال وايكليف وزوجته".

فقال ماكوي في خفوت "أيها السافل".

"وكذلك بول غراي، ولقد حان دوركما. ثم سيتعين عليّ بعد ذلك أن أقرر ما إذا كنت سأحتفظ برصاصة للعقيد كالوم لإنهاء عذابه، ثم يليه السيد ويجينز، وبعد ذلك".

وهنا مدّ سادزرويت يده في وجه خليل بنفس الحركة البذيئة وهو يقول "فلتذهب إلى الجحيم أيها الأحمق".

فوضع خليل عنق الزجاجة البلاستيكية فوق فوهة المسدس، وأطلق رصاصة واحدة على مقربة من جبهة سادزرويت، وترددت أصداء الطلقة المكتومة في الحظيرة المجوفة، بينما ارتدّ رأس سادزرويت إلى الخلف كبقعة من الدماء والعظام قبل أن يسقط فوق صدره.

أما ماكوي فتجمد في مقعده، ثم شرعت شفتاه تتحركان وهو يتلو الأدعية، ثم أحنى رأسه ورسم علامة ... على جسده، وظل يتمتم بالصلوات.

صاح به خليل "انظر إليّ". وأطلق الرصاصة عبر قلب جيم ماكوي مباشرة، ووقف يراقبه والحياة تفارقه، والتقت أعينهما للحظة قبل أن تتوقف عيناه عن الرؤية تماماً.

أعاد خليل مسدسه إلى جيبه والقنينة البلاستيكية إلى حقيبته، ثم دخل إلى القمرة وأخذ محفظة سادزرويت من جيب بنطاله الجينز، ثم محفظة ماكوي من جيب سترته الداخلي وقد غطتها دماؤه.

وضع خليل المحفظتين في حقيبته، ثم مسح أصابعه في قميص سادزرويت القطني قبل أن يفتشه بحثاً عن أي أسلحة، بيد أنه لم يجد أياً منها، واستنتج أن هذا الرجل كان كثير الكذب.

صعد خليل إلى أعلى، ثم أنزل قبة القمرة وهو يقول "أتمنى لكما ليلة سعيدة أيها السيدان. ولعلكما في جهنم الآن مع أصدقائكما". ثم نزل درجات السلم تلك، والتقط غلافي الرصاصتين، ثم شرع يدفع السلم بعيداً؛ إلى جوار طائرة أخرى.

وضع أسد خليل مسدسه في جيب سترته، وطفق يسير بسرعة خارج الحظيرة، ثم مرة أخرى إلى البهو، حيث لم يرَ الحارس في تلك المساحة الشاسعة، ولم يبصره كذلك عندما نظر عبر الأبواب الزجاجية إلى الخارج. ولكن عندما دخل منطقة المكاتب، سمع صوتاً يأتيه من خلف أحد الأبواب المغلقة، ففتحه ووجد الحارس يجلس إلى أحد المكاتب يستمع إلى الراديو ويقرأ مجلة كان اسمها التحليق. ومن خلف الحارس، كانت هناك خمس عشرة شاشة تلفاز تعرض مشاهد مختلفة من مبنى المتحف من الداخل والخارج.

رفع الحارس عينيه عن المجلة وقال "هل انتهيتم يا رفاق؟" فما كان من خليل إلا أن أغلق الباب خلفه، ثم أطلق رصاصة إلى رأس الرجل مباشرة، ثم سار نحو الشاشات، فيما كان الحارس يسقط من فوق مقعده.

راح خليل يمسح الشاشات بعينيه حتى عثر على تلك التي تعرض صور الحظائر التي تحتوي على الطائرات النفاثة الحديثة، وأخذ يشاهد المناظر المتغيرة لمنطقة العرض؛ فأبصر السلم المتحرك، ثم الطائرة F-III بقمرتها المنخفضة، وكذلك المسرح، والأبواب الخارجية حيث وقفت سيارته، وعدة مشاهد من البهو، وبدا له أن المكان قد خلا من سواه.

ثم لمح خليل مسجلات الفيديو وقد وُضعت فوق قائم جانبي، فراح يضغط على زر الإيقاف بكل منها، ثم أخرج الخمسة عشر شريطاً ووضعها جميعاً في حقيبته. ركع بعدها بجوار الحارس المقتول، فأخرج محفظته، وعثر على غلاف الرصاصة التي أطلقها عليه، ثم ترك مكتب الأمن مغلقاً الباب من خلفه.

عاد خليل مسرعاً عبر البهو، ثم خرج من أحد الأبواب الأمامية، وعندما أغلق الباب من خلفه سرّه كثيراً أن الباب ينغلق.

دخل خليل سيارته المستأجرة، وانطلق بها وهو ينظر إلى الساعة في لوح العدادات. وكانت الحادية عشرة مساءً إلا ثلاث دقائق، فضبط ملاّحه الآلي بحيث يقوده إلى مطار ماك آرثر في لونغ أيلاند، ولم تمضِ عشر دقائق أخرى إلا وكان خليل يمضي فوق الطريق المعشوشب في اتجاهه إلى طريق لونغ أيلاند السريع.

للحظة راح خليل يفكر في الدقائق الأخيرة في حياة السيدين ساذرويت وماكوي، وخطر له أنه من المستحيل على المرء أن يتوقع كيف سيموت. كانت الفكرة مثيرة بالنسبة لخليل، وتساءل كيف كان سيتصرف في موقف مماثل. في الحقيقة، إن جرأة ساذرويت في اللحظات الأخيرة قد فاجأته، وشعر خليل أن الرجل قد داهمته بعض الشجاعة لدى انتهاء حياته، أو ربما كان الرجل يحتفظ في داخله بقدر هائل من الشر، وأن ما انطلق منه من كلمات آنذاك لم يكن شجاعة على الإطلاق بل هو كره صرف. وانتاب خليل إحساس أنه من المرجّح كان سيفعل مثلما فعل ساذرويت في موقف مشابه.

وماذا عن ماكوي؟ لقد أتى بردود أفعال متوقعة بافتراض أنه رجل متدين، أو لعله تدين في اللحظة الأخيرة من حياته فمن المستحيل معرفة ذلك. وعلى كل حال، كان خليل يقدر له اختياره للمزامير.

ترك خليل الطريق المعشوشب ذاك متجهاً شرقاً إلى طريق لونغ أيلاند السريع. لم يكن الطريق مزدحماً، ولم يزد هو عن سرعة السيارات الأخرى من حوله، فأبقى سرعته على عداد السرعة ثابتة على تسعين كيلومتراً في الساعة.

كان يعرف هذه المرة أن وقته محدود، وأن هذه الجريمة الثنائية ستثير الانتباه بلا شك. فأن يُعزى الأمر إلى السرقة كان أمراً بعيد الاحتمال، وكان يعرف أنه في وقت ما من هذا المساء ستقوم السيدة ماكوي بإبلاغ الشرطة عن اختفاء زوجها، وأنه ما من أحد يجيب على الهاتف في المتحف. إلا أن قصتها حول ذهاب السيد

ماكوي للقاء زميل قديم من القوات الجوية ستجعل قلق الشرطة أقل كثيراً من قلقها. ولكن سرعان ما سينفضح أمر الجثث، إلا أنه سيمضي بعض الوقت قبل أن تفكر الشرطة في الذهاب إلى المطار لتفقد الطائرة التي أتى بها ساذرويت. ولو افترضنا أن ماكوي لم يذكر لزوجته الطريقة التي أتى بها صديقه، فلن يخطر للشرطة أبداً أن تتفقد المطار على الإطلاق.

على أي حال، وبغض النظر عمّا ستفعله السيدة ماكوي أو الشرطة، فالواقع هو أن أسد خليل لا يزال لديه الوقت لانتقامه التالي. ولكنه شعر للمرة الأولى - بينما كان يقود سيارته الآن - بالخطر يقترب منه، وأن أحدهم في مكان ما كان يذهب في إثره. كان على يقين من أن متعقبه هذا لا يعرف مكانه الآن، ولا يدرك تماماً أهدافه ومقاصده، ولكن أسد خليل بات يشعر أن الأسد قد أصبح مُطارداً، وأن الصياد المجهول ذلك قد فهم على الأقل طبيعة الفريسة التي يسعى إليها الأسد. ثم طفق خليل يحاول رسم صورة لهذا الصياد، ليس صورته الجسدية أو ملامحه، ولكن صفاته وروحه، لكنه أخفق في اختراق طبيعته، إلا في ما يتعلق بقوى الخطر القوية التي تشع من هذا الرجل.

ثم استفاق خليل من شبه الغيبوبة تلك، وراح يفكر في خيط الجثث الذي يخلفه من ورائه؛ فبالنسبة لجثتي الجنرال وايكليف وزوجته، لا مجال لأن يكون العثور عليهما قد تم قبل وقت متأخر من صباح يوم الاثنين، وربما حاول أحد أفراد أسرة وايكليف الاتصال بزملاء الجنرال المتوفى من أفراد ذلك السرب. في الحقيقة، كان خليل مندهشاً أنه حتى هذه اللحظة - مساء يوم الاثنين - لم يكن أحد قد اتصل بماكوي لإبلاغه. فالاتصال ببول غراي ما كان ليجدي نفعاً بأي حال، فالرجل لن يتمكن من الرد على الهاتف، وكذلك الأمر بالنسبة لساذرويت.

لكن خطر لخليل أن قلق السيدة ماكوي على زوجها ربما قد يتضاعف الليلة أو غداً لدى تلقيها مكالمة من آل وايكليف أو آل غراي، تحمل لها أنباء جرائم القتل المأساوية تلك. فكان يعرف أنه سرعان ما ستنهال المكالمات الهاتفية، بعضها سيجد من يرد عليها، وبعضها سيمضي بلا إجابة. وبحلول مساء الغد، ستكون لعبة الأسد قد شارفت على الانتهاء؛ ربما قبل هذا أو بعد هذا.

لمح خليل لافتة كُتب عليها *استراحة*، فتمهل بسيارته قرب موقف السيارات بجوارها وقد خبّأته الأشجار فاختفى عن العيون. كانت هناك بضع شاحنات في ساحة الوقوف تلك، بالإضافة إلى عدد قليل من السيارات، ولكنه أوقف سيارته بعيداً عنها. ومن فوق المقعد الخلفي سحب خليل حقيبة سفر ساذرويت التابعة للقوات الجوية، وراح يتفحص محتوياتها؛ قنينة شراب، وبعض الملابس الداخلية، وعقاقير واقية، وأدوات النظافة الشخصية،

وقميص قطني عليه صورة نفاثة مقاتلة والكلمات قنابل نووية، نابالم، وصواريخ؛ التوصيل مجاني.

أخذ خليل حقيبة ساذرويت وحقيبته واختفى داخل الغابة خلف دورات المياه، حيث استعاد نقوده من محفظة ساذرويت، وكذلك النقود من محفظة ماكوي، وكانت نحو خمسة وثمانين دولاراً، وكذلك محفظة الحارس وكان بها أقل من عشرين دولاراً، ووضعها جميعاً في محفظته قبل أن يشرع في بعثرة محتويات المحافظ الثلاث بين الشجيرات الصغيرة أسفل الأشجار الضخمة، ثم رمى بالمحافظ إلى داخل الغابة، وكذلك فعل بمحتويات حقيبة ساذرويت، ثم قذف بالحقيبة ذاتها إلى أجمة كثيفة الأشجار. أخيراً، أخرج شرائط الفيديو من حقيبته، وألقى بها في اتجاهات مختلفة من الغابة، ثم عاد أدراجه إلى السيارة، وسلك طريقه إلى الطريق السريع مرة أخرى.

بينما كان يقود سيارته ألقى بأغلفة الرصاصات الثلاث من عيار 40 على الطريق، ولكن على مسافات متباعدة. وكانوا قد أخبروه في بلاده أنه "لا داعي لإضاعة الوقت في محو بصمات الأصابع أو القلق بشأن الأدلة العلمية الأخرى التي تتركها أثناء زياراتك، ففي الوقت الذي تصل فيه الشرطة إلى كل هذه الأشياء، ستكون أنت قد ذهبت. ولكن تأكد من ألا يُمسك بك وفي حوزتك أي أدلة تدل على شخصيتك. فحتى أغبى رجال الشرطة سيشتبه فيك في حال وجد معك محفظة رجل آخر في جيبك".

بالطبع، لم يغفل خليل عن أنه يحمل هذين المسدسين، إلا أنه لم يعتبرهما دليلاً، فقد كان يرى أن الأسلحة هي آخر ما قد يراه رجل الشرطة، فهو لن يتركه يصل إلى هذه المرحلة بالأساس. ولكنه كان أمراً جيداً بلا شك أن يتخلص من الأشياء الأخرى، وأن يترك السيارة من دون دليل واضح بها.

وبينما كان خليل يتابع طريقه، ذهبت أفكاره إلى وطنه؛ إلى مالك وبوريس، وكان يعرف - تماماً كما كان يعرف مالك وبوريس - أنه لا يستطيع المضي في هذه اللعبة لوقت طويل. ولقد سبق أن قال له مالك من قبل "الأمر ليس في اللعبة ذاتها يا صديقي، ولكن في كيفية لعبها. وقد اخترت أن يضع الأميركيون أيديهم عليك في باريس بحيث تستطيع أن تدخل أميركا في حادث جلل، فيعرفون من أنت، وكيف تبدو، ومتى وأين وصلت. ومن ثم، لقد وضعت بنفسك يا أسد قواعد اللعبة، ولقد صعّبتها على نفسك. أنا أتفهم تماماً لماذا تفعل هذا، ولكن عليك أن تفهم بدورك أن الاحتمالات كلها ضد إكمالك مهمتك بنجاح، ولا تلم إلا نفسك في حال أخفقت في تحقيق النصر الكامل".

يذكر خليل أنه أجاب مالك بقوله "إن الأميركيين لا يخوضون الحرب إلا وهم على يقين من أنهم قد فعلوا كل ما يضمن لهم الفوز حتى قبل الضربة الأولى. يبدو الأمر كاصطياد أسد من شاحنة باستخدام بندقية مزودة بتلسكوب. ولست أرى في هذا أي انتصار على الإطلاق، بل هي عملية ذبح فحسب. فالأفارقة في القبائل لديهم أسلحة وبنادق، ولكنهم لا يزالون يصطادون الأسود بالرماح. فأي متعة في انتصار جسدي يخلو من الانتصار المعنوي أو الأخلاقي؟ أنا لم أعنِ أن تكون

الاحتمالات ضد نجاحي، ولكنني أردت ببساطة أن أجعلها متساوية، ومن ثم أكون أنا الفائز الحقيقي بغض النظر عن كيفية انتهاء اللعبة".

كان بوريس يستمع إلى هذا الحوار، فقال معلقاً "فلتكرر هذا القول ثانية وأنت متعفن في إحدى الزنازين الأميركية، وكافة شياطين القوات الجوية الأميركية يهنأون بحياة سعيدة".

يذكر خليل أيضاً أنه استدار إلى بوريس وقال "لم أتوقع منك أن تفهم ما قلته على أي حال".

فضحك بوريس وأجابه "بل أفهمك يا سيد أسد، أفهمك جيداً. ولمعلوماتك، أنا لا أعبأ إن قتلت هؤلاء الطيارين أو لم تفعل، ولكن من الأفضل ألاّ تعبأ أنت أيضاً. ففي حال كان الصيد يستهويك أكثر من القتل، فاكتفِ بأن تلتقط صورهم كما يفعل الأميركيون الرقيقو المشاعر في رحلات السفاري. ولكن، في حال أردت أن تتذوق طعم دمائهم يا سيد أسد، فمن الأفضل أن تفكر في طريقة أخرى لتدخل بها أميركا".

أخيراً، استفتى أسد خليل قلبه وروحه، وانتهى إلى أنه بوسعه أن يحظى بالأمرين معاً؛ بلعبته، وقواعده، ودمائهم.

لمح خليل لافتة مطار ماك آرثر، ومن ثم اندفع إلى المخرج الذي تشير إليه. وفي غضون عشر دقائق كان يقود السيارة اللينكولن إلى داخل المرآب الطويل التابع للمطار، ثم خرج من السيارة وأغلقها بعد أن أخذ حقيبته منها. ولم يعبأ خليل بإزالة بصمات أصابعه عن السيارة. فلو أن اللعبة قد انتهت بالفعل، فلن يُجدي هذا نفعاً. ونوى خليل أن يفعل أقل ما يلزم ليخفي الآثار التي يتركها، فكل ما يحتاجه هو أربع وعشرين ساعة أخرى، وربما أقل، وحتى لو افترضنا أن الشرطة خلفه بخطوتين، فهذا يعني أنه لا يزال يسبقها بخطوة.

اندفع خليل إلى مظلة الحافلات، ولم يمضِ وقت طويل حتى وصلت الحافلة الصغيرة والتقطته، فصعد وهو يقول للسائق "المحطة الرئيسية من فضلك". فأجابه السائق "ليس هناك سوى محطة واحدة يا صديقي. لك هذا على أي حال".

مضت بضع دقائق قبل أن تصل الحافلة إلى مدخل المحطة التي كانت تبدو مهجورة، ومنها سار خليل نحو موقف سيارات الأجرة، ولم تكن هناك سوى سيارة واحدة، فقال لسائقها "أحتاج فقط إلى الذهاب إلى قسم الملاحة العامة من المطار، ولكنني سأدفع لك عشرين دولاراً نظير مساعدتك".

"ادخل إذاً".

دلف خليل إلى المقعد الخلفي من السيارة وفي أقل من عشر دقائق كان في الناحية الأخرى من المطار، وسأله السائق "أثمة مكان محدد ترغب في الذهاب إليه؟"

"ذلك المبنى هناك".

اندفع السائق بسيارته حتى توقف أمام المبنى الصغير الذي كان يضم العديد من مكاتب الملاحة الخدمية، فناوله خليل الورقة النقدية من فئة العشرين دولاراً، ومضى خارج السيارة. كان هذا المكان على بعد أقل من خمسين متراً من حيث هبطت به طائرة ساذرويت من قبل، بل وكان يرى الطائرة مركونة في مكانها. ثم دخل المبنى وعثر على مكتب ستيوارت الملاحي.

كان هناك رجل خلف منضدة الاستقبال، فوقف لدى دخول خليل، وقال "تحت أمرك؟"

"نعم، أُدعى صموئيل بيرلمان، وأظن أن هناك طائرة محجوزة باسمي".

قال الرجل "هذا صحيح، في رحلة منتصف الليل". ونظر إلى ساعته، ثم أردف "لقد أتيت مبكراً بعض الشيء، لكن أظن أننا مستعدون".

قال خليل وهو يتأمل وجه الرجل "شكراً لك". بيد أنه لم يكن في ملامحه أي أمارات تدل على تعرفه عليه، إلا أن الرجل تابع قائلاً "سيد بيرلمان لديك شيء ما على وجهك وقميصك".

وعلى الفور أدرك خليل ما يرمي إليه الرجل، كانت تلك أجزاء من محتويات رأس ساذرويت التي انفجرت هناك، فقال "أخشى أن لديّ عادات سيئة في تناول الطعام".

فابتسم الرجل وقال "يوجد غرفة للاغتسال هناك". ثم أشار إلى باب إلى اليمين وقال "وسأتصل أنا بالطيار".

توجّه خليل إلى غرفة الاغتسال، ونظر إلى وجهه في المرآة. كانت هناك نقاط من الدم البني المائل إلى الاحمرار، وقطعة رمادية من الدماغ، وحتى شظية من العظم فوق قميصه، وبعض البقع فوق إحدى عدستي نظارته، وبقعة أو اثنتين فوق وجهه وربطة عنقه.

أزاح خليل نظارته، وغسل وجهه ويديه بحذر بالغ كي لا يفسد تصفيفة شعره أو شاربه، ثم جفف يديه ووجهه بمنديل ورقي، ثم نظف قميصه وربطة عنقه ونظارته بمنديل ورقي مبلل، ثم أعاد وضع نظارته أمام عينيه مرة أخرى، قبل أن يعود إلى منطقة الاستقبال في ذلك المكتب وهو يحمل حقيبته السوداء.

فقال الرجل "سيد بيرلمان، لقد سبق أن سددت شركتك تكلفة هذه الرحلة مسبقاً، ولكن كل ما عليك فعله الآن هو قراءة هذه الاتفاقية ووثيقة التنازل، ثم التوقيع بجوار هذه العلامة".

تظاهر خليل بأنه يقرأ الورقة، ثم قال "لا بأس". ثم وقّع مستخدماً القلم الموضوع فوق المنضدة، فيما سأله الرجل "هل أنت إسرائيلي؟"

"نعم، ولكنني أعيش هنا الآن".

"لديّ أقارب في إسرائيل يعيشون في جيلجال، في الضفة الغربية. أتعرفها؟"

"بالطبع". وتذكر خليل ما أخبره به بوريس "إن نصف الإسرائيليين دائمو التواجد في منطقة نيويورك في أي وقت، ومن ثم لن تكونَ ملفتاً للانتباه إلا من قِبل بعض اليهود ممن قد يرغبون في التحدث معك عن أقاربهم أو إجازاتهم هناك. فيجدر بك أن تستذكر جيداً الخرائط والكتب الإرشادية حول إسرائيل".

فقال خليل "إنها مدينة متوسطة الحجم تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً إلى الشمال من القدس. الحياة قاسية هناك وهؤلاء الفلسطينيون يحيطون بالبلدة من كل جانب، حتى أنني أهنئ أقاربك على شجاعتهم، وقوة احتمالهم البقاء هناك".

"نعم، فالمكان متعفن. ربما يجدر بهم الانتقال للعيش على الساحل، وربما يأتي يوم نتعلم فيه كيف نعيش مع العرب".

"ليس من السهل على الإطلاق أن تعيش مع العرب".

ضحك موظف الاستقبال وقال "نعم أظن هذا، وبالتأكيد أنت تعرف أكثر مني عن هذا".

"هذا صحيح".

هنا ظهر رجل في منتصف العمر وهو يرتدي زياً أزرق غير مميز، فدخل إلى المكتب وحيا الموظف بقوله "طاب مساؤك يا دان".

فأجابه الموظف "بوب. أقدم لك السيد بيرلمان، المسافر الذي ستصطحبه".

استدار خليل نحو الرجل الذي كان بالفعل يمد يده لتحيته، بيد أن خليلاً كان لا يزال متحيراً بشأن مصافحة الأميركيين بالأيدي. صحيح أن العرب يتصافحون بالأيدي، ولكن ليس بقدر ما يفعل الأميركيون، وبالطبع لا يمس العرب النساء، ولقد نصحه بوريس قائلاً "لا تقلق بهذا الشأن، فأنت أجنبي في آخر الأمر".

صافح خليل يد الطيار الذي قال بدوره "أنا الكابتن فيسكي، ويمكنك أن تدعوني بوب. سأقلك إلى دنفير الليلة، ثم إلى سانت دياغو، أليس كذلك؟"

"بلى، هذا صحيح".

نظر خليل إلى عينيّ الرجل مباشرة، إلا أن الرجل لم ينظر إلى عينيه. وكان خليل قد لاحظ أن الأميركيين ينظرون إليك، ولكن لا يعني هذا بالضرورة أنهم يرونك بالفعل. ربما يسمحون بتواصل العينين، ولكن فقط لبرهات قصيرة، بعكس أبناء وطنه حيث أعينهم لا تبرحك أبداً، إلا في حال كان الناظر إليك في مرتبة أدنى من مرتبتك، أو بالطبع إذا كنّ من النساء. والأميركيون يعتنون كثيراً بالمسافات، فهم يحافظون على مسافة متر على الأقل بينهم وبين محدثيهم، كما أخبره بوريس، وفي حال قصرت هذه المسافة، ينتابهم الانزعاج، وربما يصبحون عدائيين.

قال كابتن فيسكي "الطائرة معدّة. ألديك أمتعة سيد بيرلمان؟"

"لا شي سوى هذه الحقيبة".

"سأحملها عنك إذاً".

لقد اقترح عليه بوريس رداً أمريكياً مهذباً بشأن هذه الاقتراح، فقال ‘‘شكراً لك، فأنا بحاجة إلى بعض التمرين’’.

ابتسم الطيار وسار نحو الباب وهو يقول ‘‘أظنك بمفردك، أليس كذلك يا سيدي؟’’

‘‘هذا صحيح’’.

وبينما كان خليل يغادر المكان، صاح نحوه موظف الاستقبال قائلاً ‘‘شالوم’’، وكان خليل على وشك أن يرد عليه بالعربية فيقول وعليكم السلام، إلا أنه أمسك لسانه في اللحظة الأخيرة وقال ‘‘شالوم’’.

تبع خليل الطيار إلى الحظيرة حيث قبعت في مقدمتها طائرة نفاثة بيضاء صغيرة كانت تربض فوق المنحدر، وكان هناك قلة من أفراد الخدمة يتجوّلون في المنطقة من حولها. ومرة أخرى لمح خليل طائرة ساذرويت، وتساءل كم من الوقت تبقى قبل أن يحين موعد الإقلاع في صباح الغد، بحيث يهتمّون، ويبدأ التحقيق بشأنها. بالتأكيد ليس قبل مرور يوم آخر، وكان خليل يعرف أنه سيكون بعيداً جداً حينما يحدث ذلك.

قال الطيار ‘‘سنطير الليلة بهذه الطائرة؛ لير 60. فقط نحن الثلاثة والقليل من الأمتعة، أي أن وزننا سيكون أخف كثيراً من الوزن الإجمالي الذي يُسمح الإقلاع به. ولقد ملأت كافة خزانات الوقود كلها، أي أننا نستطيع الوصول إلى دنفير من دون توقف. فالرياح خفيفة، والأجواء ممتازة للتحليق هنا وفي دنفير. أظن أن الرحلة ستستغرق نحو ثلاث ساعات وثماني عشرة دقيقة. درجة الحرارة في دنفير ستكون نحو أربعين درجة - أي خمس درجات مئوية - عندما نهبط بالطائرة. وحسب علمي، ستقضي بضع ساعات في دنفير، أليس كذلك؟’’

‘‘بلى’’.

‘‘حسناً، من المفترض أن نهبط بالطائرة قبل الثانية من بعد منتصف الليل، بتوقيت ماونتن، هل لديك فكرة عن هذا يا سيدي؟’’

‘‘نعم، سأتصل بزملائي من هاتف طائرتك الذي طلبت تواجده’’.

‘‘نعم يا سيدي، هناك دائماً هاتف على متن الطائرة، وسوف نحلق فوق سانت دياغو في وقت ما، أليس كذلك؟’’

‘‘هذا صحيح’’.

‘‘إنهم يبلغون الآن عن اضطراب طفيف فوق الروكيز، وأمطار خفيفة فوق سانت دياغو، ولكن هذا عرضة للتغيير بالطبع. بوسعي أن أطلعك على التغيّرات باستمرار في حال كانت هذه رغبتك’’.

لم يجبه خليل على هذا، إلا أنه انزعج بشأن يقين الأميركيين من توقعهم للأرصاد الجوية. ففي بلده، الطقس دائماً حار وجاف، وبعض الأيام أكثر حرارة من غيرها. أما الأمسيات فباردة، والرياح تهب في الربيع. إن الطقس من صنع الله

ليحياه الإنسان، فما الفكرة وراء محاولة توقعه، أو الحديث عنه؟ فهو لن يتغير بأي حال.

قاد الطيار خليلاً إلى الجانب الأيسر من الطائرة ذات المحركين، وكانا يبعدان عن الباب خطوتين، فأشار له الطيار كي يتقدمه، قفز خليل فوق درجات المدخل، ثم أحنى رأسه كي يستطيع الدخول إلى الطائرة، وتبعه الطيار خلفه مباشرة وهو يقول "مرحباً بك على متن الطائرة يا سيدي".

"مساء الخير".

أشار الكابتن فيسكي نحو القمرة وقال "اتخذ أي مقعد ترغب به، وهناك بوفيه صغير ستجد عليه قهوة، وحلوى، وكعك، ومشروبات غازية، وأشياء أخرى غير كحولية". ثم ضحك وأردف "وهناك أيضاً صحف ومجلات فوق تلك الرفوف، وفي الخلف مباشرة ستجد الحمام، فتصرف بحرية".

قال خليل "شكراً لك". وتحرك نحو المقعد الأخير إلى اليمن من القمرة ذات المقاعد الستة، ثم جلس ووضع حقيبته في الممر بجواره، ولاحظ أن الطيار ومساعده كانا منشغلين بمعدات القمرة وبالحديث إلى بعضهما البعض.

نظر خليل إلى ساعته، ولم يكن متبقياً حتى يحلّ منتصف الليل سوى بضع دقائق، ففكّر أن ذلك لم يكن يوماً سيئاً؛ ثلاثة من القتلى أو خمسة إذا ما أضفنا بول غراي وعاملة التنظيف وحارس المتحف. ولكن لا يجب احتساب هذين الأخيرين، ولا حتى الثلاثمئة قتيل على متن رحلة الترانس - كونتيننتل، ولا أي من هؤلاء الذين يسقطون في طريقه أو يضطر إلى إسكاتهم. فهناك ستة أشخاص فقط في أميركا هو معني بأمر قتلهم، ولقد نجح في القضاء على أربعة منهم بالفعل، وتبقى اثنان. أو هكذا سيبدو الأمر للسلطات في حال وصلوا بالفعل إلى الاستنتاجات الصحيحة. ولكن هناك رجل آخر".

"سيد بيرلمان؟ يا سيدي؟"

رفع أسد خليل عينيه نحو الطيار الواقف بالقرب منه، وقال "نعم؟"

"نحن على وشك الإقلاع، فهلاّ ربطت حزام مقعدك؟"

ربط خليل حزامه فيما كان الطيار يتابع "الهاتف موجود عند البوفيه، وستصل السماعة إلى مقعدك".

"جيد جداً".

"أما الجهاز الآخر المثبت على الجدار الجانبي فهو للاتصال الداخلي. يمكنك الاتصال بنا في أي وقت شئت بالضغط على هذا الزر والحديث".

"شكراً لك".

"أو يمكنك أن تأتي إلى القمرة إذا أردت".

"أفهم هذا".

“جيد. هل هناك أي مساعدة أسديها لك قبل أن أجلس على مقعدي؟”

“كلا، أشكرك”.

“حسناً، هذا هو مخرج الطوارئ، وهناك أغطية على النوافذ إذا أردت سحبها إلى الأسفل. وبعد أن نحلق سأخبرك متى يمكنك فك حزامك والتحرك بحرية في المكان”.

“شكراً”.

قال الطيار “أراك في ما بعد”. ثم استدار ودخل قمرته، وأغلق المزلاج الذي يفصل القمرة عن كابينة الركاب.

أما خليل فراح ينظر خارج النافذة الصغيرة بينما الطائرة تتحرك نحو المدرج، وفكر أنه لم يمضِ وقت طويل منذ أن كان يهبط في المكان ذاته بصحبة رجل يرقد الآن ميتاً في قمرة طائرة حربية ربما سبق لها وأن تسببت في مقتل العديدين. بجوار هذا الرجل الميت يرقد قتيل آخر قد دفع ثمن جرائمه. كانت تلك لحظة رائعة؛ نهاية مناسبة جداً لحياتيهما المتعطشتين للدماء. ولكن الأمر يحمل علامة، بل لعله توقيع، يبصره فقط أولئك الذين سيستطيعون قراءة الحدث. ثم ندم خليل على استغراقه في هذا الفعل الرمزي، ولكن عندما فكّر في الأمر ثانية، وجد أنه ما كان ليغير كلمة واحدة، ولا لحظة واحدة، ولا شيئاً واحداً مما فعله، ثم ابتسم وهو يقول “لقد فرغ كأسي”.

ثم توقفت الطائرة النفاثة *لير*، وسمع خليل صوت المحركات وهو يعلو، ثم شعر وكأن الطائرة ترتجف قبل أن تندفع على المدرج. وفي غضون نصف دقيقة كانت الطائرة تحلّق، وسمع خليل صوت انسحاب أجهزة الهبوط والإقلاع أسفل منه. ولم تمضِ سوى دقائق قليلة حتى كانت الطائرة ترتجف قليلاً وهي تواصل ارتفاعها. وبعد قليل، أتاه صوت الطيار من مكبر الصوت وهو يقول “سيد بيرلمان، يمكنك التحرك بحرية الآن في حال أردت ذلك. ولكن من فضلك أبقِ حزام مقعدك مربوطاً متى جلست فوق المقعد. كما يمكنك إرجاع ظهر مقعدك إلى الخلف تماماً في حال أردت النوم. نحن الآن نطير فوق مانهاتن السفلى إذا أردت أن تلقي نظرة”.

نظر خليل من نافذته، وكانوا يحلقون فوق الرأس الجنوبي لجزيرة مانهاتن، وكان بوسع خليل أن يرى ناطحات السحاب إلى جانب المياه، ومن ضمنها برجا

مركز التجارة العالمي المتماثلان.

كانوا قد أخبروه في عاصمة بلاده أن هناك بناية بالقرب من مركز التجارة، يُطلق عليها اسم 26 فيدرال بلازا، حيث أُخذ بطرس، وهو المكان الذي سيصطحبونه إليه في حال ساءت الأمور. وقال له مالك "وما من طريقة للفرار من هذا المكان يا صديقي؛ فما إن تصبح هناك حتى تصبح ملكاً لهم، وتكون محطتك التالية هي أقرب سجن حكومي لديهم، ثم المحكمة القريبة أيضاً، ومنها إلى السجن في داخل البلاد المتجمد حيث ستقضي بقية حياتك. ولن يستطيع أحد مساعدتك هناك. بل ولن نعترف بك كواحد منا، ولن نعرض عليهم استبدالك بأحد الكفرة المعتقلين لدينا. فهناك العديد من المجاهدين في السجون الأميركية، ولكن السلطات هناك لن تسمح لك برؤيتهم. ومن ثم ستعيش بقية حياتك بمفردك على أرض غريبة، بين الغرباء، ولن ترى وطنك ثانية، بل ولن تسمع أحداً يتحدث لغتك مرة أخرى، ولن تقترب من امرأة قط. ستكون كالأسد في قفص يا أسد، تذرع أرضية سجنك إلى الأبد". ثم أضاف مالك "يمكنك لحظتها أن تتخلص من حياتك، وسيكون هذا نصراً لك، ولقضيتك، وهزيمة لهم". ثم سأله "فهل أنت مستعد لهذا النصر؟"

فأجابه خليل "لو افترضنا أنني على استعداد لكي أضحي بحياتي في معركة ما، فلماذا إذاً أحجم عن التخلص منها متى وقعت في أسر الإذلال؟"

أطرق مالك يفكر ثم قال "البعض يرى الأمر الأول أسهل من الثاني". ثم ناوله شفرة مشحذة وقال "هذه إحدى الطرائق. ولكن لا تقطع شرايين رسغك، فقد يتمكنون من إنقاذ حياتك. عليك بعدة شرايين رئيسية". ثم حضر طبيب وشرح لخليل كيف يحدد موقع الشريان السباتي وشريان الفخذ، وقال "ولكن تأكد من قطع رسغيك أيضاً".

بعد الطبيب حضر رجل آخر، راح يوضح لخليل كيف يصنع أنشوطة من عدة مواد قد تتواجد من حوله؛ غطاء الفراش، أو سلك كهربائي، أو حتى من الملابس.

بعد عروض الانتحار تلك، قال مالك لخليل "الموت مصيرنا المحتوم، وعلينا جميعاً أن نختار؛ إما الموت كمجاهدين، أو الموت على يد أعدائنا. ولكن، أحياناً نضطر إلى إنهاء حياتنا بيدينا. وأؤكد لك أن الجنة في انتظارك في آخر الطريق".

مرة أخرى نظر خليل خارج نافذة الطائرة، وألقى نظرة أخيرة على نيويورك التي لن يراها ثانية، حيث إن آخر أرض أميركية سيراها هي المكان المدعو كاليفورنيا. ثم ستكون محطته الأخيرة إما عاصمة بلاده أو الجنة، وفي الحالتين سيكون في وطنه.

الفصل الثاني وأربعون

استيقظت من نومي، وفي ثوانٍ قليلة أدركت أين أنا، ومن أنا، ومع من كنت. وغالباً ما ينتاب المرء شعور بالندم بعد تلك الأمسيات التي يفرط فيها في الشراب، وعادة ما يتمنى لو أنه استيقظ ليجد نفسه بمفرده، وفي مكان آخر بعيداً عن المكان حيث هو متواجد. ولكن لم يكن هذا شعوري عندما استيقظت هذا الصباح، في الحقيقة، كانت معنوياتي مرتفعة جداً، وقاومت الإغراء بأن أهرع إلى النافذة، فأطل منها وأصيح "استيقظي يا نيويورك، فلقد قضى جون كوري لتوه ليلة حميمة!"

على أي حال، كانت الساعة السابعة وأربع عشرة دقيقة وفقاً للساعة فوق المنضدة المجاورة. فنهضت من الفراش في هدوء، ومنه إلى الحمام حيث استخدمت مرافقه، ثم عثرت على علبة أدوات النظافة الشخصية التابعة للخطوط الفرنسية؛ فحلقت ذقني، ونظفت أسناني، ثم قفزت إلى حوض الاستحمام.

عبر زجاج الحوض المغبش، رأيت كيت تدخل الحمام، ثم سمعت صوت المياه تتدفع في الحمام، ثم سمعتها وهي تنظف أسنانها، وتتغرغر وتتثاءب.

في الحقيقة، هناك فارق بين أن تقضي لحظات حميمة مع امرأة تعرفها بالكاد، وأن تقضي معها الليلة. ناهيك عن أنني متحفظ بعض الشيء بشأن منطقة الحمام.

على أي حال، وجدت باب حوض الاستحمام ينفتح، وكيت مايفيلد تخطو إلى الداخل، وبدون استئذان دفعتني من تحت المياه ووقفت مكاني، ثم قالت "افرك لي ظهري".

فعمدت إلى فرك ظهرها بليفتي وما بها من صابون، فيما كانت هي تقول "أووووه كم هذا رائع". ثم استدارت نحوي، فتعانقنا، وقبلنا بعضنا البعض، والماء ينهمر فوق جسدينا.

بعد لقاء حميم آخر وسط الماء والصابون في حوض الاستحمام، خرجنا، واستخدمنا المناشف، ثم ذهبنا إلى غرفة النوم، وكلانا ملفوف بمنشفة. كانت غرفة نومها شرقية، والشمس تغمرها من النافذة، وبدا اليوم لطيفاً، ولكن مراوغاً، وقالت كيت "لقد استمتعت حقاً بليلة أمس".

"وأنا كذلك".

"هل سأراك ثانية؟"

"نحن نعمل معاً".

"صحيح، فأنت الموظف الذي يقع مكتبه قبالة مكتبي".

لا يمكنك أبداً توقع ما قد يحدث في الصباح، أو ماذا يجدر بك أن تقول، ولكن في كل الأحوال من الأفضل أن تقول أشياء خفيفة ولطيفة، وهذا ما كانت كيت مايفيلد

تفعله هذا الصباح. خمس نقاط إيجابية في ملفها لهذا.

على أي حال، كانت ملابسي في مكان آخر. في غرفة المعيشة، في حال كانت ذاكرتي لا تزال تعمل على نحو صحيح، ومن ثم قلت "سأتركك لمساحيقك، وأذهب أنا للبحث عن ملابسي".

"كلها مُعلّقة في خزانة الردهة، ولقد غسلت لك ملابسك الداخلية وجواربك".

"شكراً لكِ". عشر نقاط لهذا. ثم التقطت مسدسي وقرابه، وذهبت إلى غرفة المعيشة، حيث وجدت ملابسي لا تزال مبعثرة فوق أرضية الغرفة. لا بد أنها كانت تحلم بشأن ما قالته حول الغسل والكي. فلنسحب إذاً النقاط العشر تلك.

ارتديت بالفعل ملابسي، وأنا أشعر بالانزعاج لاضطراري ارتداء نفس الملابس الداخلية التي كنت ارتديها في اليوم السابق، فأنا مريض بالنظافة بالنسبة لرجل يعيش بمفرده، لكنني بالطبع أستطيع معالجة هذا المرض متى كان هذا ضرورياً. فذهبت إلى المطبخ، وعثرت لنفسي على كوب نظيف وصببت بعضاً من عصير البرتقال، وقد لاحظت أن الثلاجة تحتوي على القليل، إلا أنها لم تكن تخلو من الحليب، فهناك دائماً حليب في ثلاجة المرأة، ما شأن النساء بالحليب؟

التقطت سماعة الهاتف الموجودة في المطبخ وطلبت شقتي، فأتاني صوتي المسجل وهو يقول "منزل جون كوري. لقد هجرت سيدة المنزل عشها، فلا تترك رسالة لها هنا". وفكرت أنه بعد انقضاء عام ونصف العام، ربما يجدر بي أن أغير هذه الرسالة. على كل حال، عمدت إلى إدخال الشيفرة الخاصة بي، وجاءني الصوت الآلي يقول "لديك ثماني رسائل". كانت الأولى مسجلة الليلة الماضية من زوجتي السابقة، وكانت تقول "فلتغير هذه الرسالة السخيفة. اتصل بي، فأنا قلقة".

وكانت كذلك بالفعل، وكنت سأتصل بها متى تهيأت لي الفرصة. ثم كانت الرسالة القلقة التالية من أمي وأبي اللذين يعيشان في فلوريدا، وقد أصبحا أشبه بثمرتي الطماطم وقد جففتهما الشمس. ثم رسالة من أخي الذي لا يقرأ سوى صحيفة وول ستريت، ولكن يبدو أنه سمع شيئاً من والديّ وقد طلبا منه أن يحاول الاتصال بالنعجة السوداء؛ فهكذا يسمونني في عائلتي، وليس لهذه الكلمات أي مدلولات سلبية.

ثم كانت رسالتان من صديقين لي في العمل يسألان عمّا إذا كنت بالفعل مضطلعاً بقضية الرحلة 175. ثم رسالة من شريكي السابق - دوم فانيلي - وكان يقول "هاي يا صاح. هل دفعت بك مباشرة إلى هذه المأساة؟ اللعنة! وتخيل أنك كنت قلقاً بشأن عثور الأخوين بيدروس عليك؟ لقد قضى هذا السافل على طائرة بأسرها وعلى حفنة من الفيدراليين، ولعله في إثرك الآن. أتراك تستمتع بهذا؟ لقد رأوك تجلس وتحتسي الشراب بمفردك في حانة غويليو تلك الليلة. فلتشترِ باروكة شقراء يا رجل! اتصل بي، فأنت مدين لي بشراب، إلى اللقاء".

ابتسمت بالرغم مني وأنا أقول "إلى الجحيم يا دوم".

أما الرسالة التالية فكانت من تيدي ناش، وكان يقول "هذا أنا ناش. أعتقد أنه من المفترض أن تكون في فرانكفورت يا كوري. أتمنى لو أنك في الطريق إلى هنا

بالفعل؟ وإن لم يكن الأمر كذلك فأين أنت؟ عليك أن تظل على اتصال بنا. اتصل بي".

"إلى الجحيم مرتين أيها التافه الصغير". وأدركت أن هذا الرجل قد أصبح حملاً على أعصابي، وكما اقترحت عليّ كيت في المطار يجب عليّ بالفعل ألا أسمح بهذا.

كانت الرسالة الأخيرة من جاك كوينج، في منتصف الليل بتوقيتي، وقال "لقد حاول ناش أن يتصل بك، ولكنك لست في المكتب ولم تترك رقماً للاتصال بك، ولا تستجيب لجهاز النداء الآلي خاصتك، وأظنك لست في المنزل. اتصل بي على وجه السرعة".

أظن أن السيد كوينج قد هبط على أرض الأجداد منذ وقت طويل.

ثم أتاني الصوت الآلي مرة أخرى ليعلن عن انتهاء الرسائل.

كنت سعيداً لأنني لم أسمع صوت بيث، فقد كان هذا سيزيد من إحساسي بالذنب. ثم ذهبت إلى غرفة المعيشة، وجلست فوق الأريكة؛ مسرح أحداث جريمة ليلة أمس! أو أحد المسارح. على كل حال، عمدت إلى تصفح المجلة الوحيدة التي رأيتها هناك، وكانت عبارة عن عدد من أعداد مجلة إنترتينمنت الأسبوعية. وفي القسم الخاص بالكتب، رأيت فقرة عن كتاب دانيال ستيل الرابع لهذا العام، ونحن لم نزل في شهر أبريل. ليتني طلبت منها أن تكتب لي تقرير الحادث خاصتي، ولكنها ستقف كثيراً عند وصف ملابس القتلى في الدرجة الأولى على متن تلك الطائرة.

ثم انتقلت إلى قسم آخر، وكنت أتحضر لقراءة خبر حول باربارا سترايسيند التي ستقوم بحفل غنائي خيري في شبه جزيرة يوكاتان لصالح الماركسيين من قبائل المايا، ولكن ذهبت آمالي أدراج الرياح لدى ظهور كيت مايفيلد، وقد وضعت مساحيقها، وصففت شعرها، وارتدت ملابسها. والحق أن هذا لم يستغرق منها وقتاً طويلاً. حسناً، فلنعد لها العشر نقاط تلك.

وقفت وقلت لها "تبدين رائعة".

"شكراً لك. ولكن لا داعي لأن تلجأ إلى المجاملة والكلام المعسول معي، فأنا أحبك تماماً كما كنت".

"وكيف كنت؟"

"ساخر، ووقح، ومغرور، وأناني، وعديم الإحساس".

"حسناً، سأبذل كل ما في وسعي". خمس وعشرون نقطة.

ثم أخبرتني "سنقضي الليلة في شقتك، وسأحضر معي حقيبة للمبيت، فهل يناسبك هذا؟"

"بالطبع". طالما أن حقيبة المبيت لا تتألف من ثلاث حقائب وأربعة صناديق للانتقال من مكان إلى آخر؛ ربما يجدر بي أن أفكر في هذا الأمر.

ثم أضافت "بينما كنت في الحمام ليلة أمس أطلق جهاز الاتصال الآلي خاصتك أزيزاً ما، فتفقدته. كان ذاك مركز قيادة الحدث".

"أوه. كان من المفترض أن تبلغيني بهذا".

"لقد نسيت، ولكن لا داعي للقلق بهذا الشأن".

انتابني إحساس بأنني كنت أقوم بتسليم قيادة عملية من نوع ما، بل وربما كنت أُقلّد كيت مايفيلد مقاليد حياتي. أتركك تفهم ما أعني؟ فلننقص خمس نقاط إذاً.

توجّهت كيت صوب الباب وأنا في إثرها، فقالت "هناك مقهى فرنسي صغير في الجادة الثانية".

"جيد، سأدعوكِ إلى شيء ما هناك".

"كلا، أنا من سيدعوك".

"هناك إذاً ذلك المقهى أسفل البناية".

"لكنها فكرتي منذ البداية".

ثم أخذنا حقيبتينا الدبلوماسيتين وذهبنا، تماماً مثل جون وجاين جونز وهما يستعدان للذهاب إلى المكتب، ما عدا أن كلينا كان يحمل مسدساً من عيار 40.

بالمناسبة، كانت كيت ترتدي بنطالاً أسود وبليزر بلون هاينز كاتشاب وقد ارتدت أسفله كنزة بيضاء. أما أنا فكنت أرتدي ملابس الأمس. ثم أنزلنا المصعد إلى بهو البناية، وخرجنا منها. كان حارس البناية هو ذاته منذ ليلة الأمس، ربما كانوا يعملون ساعة أو ساعتين إضافيتين بحيث تصبح ساعات عملهم ثماني ساعات متصلة. على أي حال، بادرنا الرجل قائلاً "هل أحضر لكِ سيارة أجرة آنسة مايفيلد؟"

"كلا، شكراً لك يا هيربرت، سنسير قليلاً".

رمقني هيربرت بنظرة مفادها أنه كان يجب أن يكون هو الرجل الموجود في الشقة 1415، وليس أنا.

كان الطقس لطيفاً والسماء صافية. ربما كان بارداً بعض الشيء، ولكنه خلا من الرطوبة. مشيت وكيت شرقاً إلى شارع 86 في الجادة الثانية، ثم توجهنا جنوباً صوب شقتي، بالرغم من أننا لم نكن نقصد الذهاب إليها بالطبع. كان ازدحام السيارات شديداً في الجادة الثانية، أو بصفة عامة، فقلت - لا لسبب سوى مزاجي في تلك اللحظة - "كم أحب نيويورك".

أجابتني كيت بقولها "وكم أكره نيويورك". ثم أدركت أن هذه العبارة تحمل الكثير من المشكلات المستقبلية، خاصة لو افترضنا أنها هي الأخرى كانت تحمل في أحشائها شيئاً، فأضافت "ولكن ربما استطعت أن أحبها".

"كلا، لن تستطيعي، بل لا أحد يستطيع، ولكن يمكنك الاعتياد عليها. ربما تعشقينها أحياناً، وتكرهينها أحياناً، ولكنك لن تحبّيها على وجه العموم".

نظرت إليّ كيت لكنها لم تعلق على عمق ما قلته لها لتوي.

ثم وصلنا إلى مكان يحمل اسماً فرنسياً لا أذكره، ثم دخلنا واستقبلتنا سيدة فرنسية بحفاوة ودفء، وبدا أنها وكيت تعرفان بعضهما بعضاً جيداً، ثم تبادلتا بضع عبارات بالفرنسية، وشعرت أنني أريد الخروج من هذا المكان على الفور، فلننقص خمس نقاط أخرى.

جلست أنا وكيت إلى منضدة بالغة الصغر، بينما المقاعد سلكية، مصنوعة من مُعلّقات المعاطف. بدا لي المكان وكأنه محل لبيع مخلفات لورا آشلي، وسرعان ما شممت رائحة الزبدة، وشعرت بمعدتي تتوق للطعام. أما الرواد فكانوا جميعاً يرتدون ملابس الجنس الآخر.

وسألتني كيت "أليس المكان لطيفاً؟"

"كلا".

ثم أحضرت لنا السيدة الفرنسية قائمتي طعام صغيرتين، كُتبتا بخط اليد بالسنسكريتية، ولاحظت أن هناك اثنين وثلاثين نوعاً من الكعك والفطائر، كلها لا تصلح لتكون طعاماً للرجال، فسألت السيدة الفرنسية "هل لي في بعض الكعك؟"

"كلا يا سيدي".

"بيض؟ نقانق؟"

"كلا يا سيدي". ثم استدارت على عقبيها وابتعدت، فيما قالت كيت "لماذا لا تجرب فطيرة الفراولة؟"

"لماذا؟"

على أي حال، طلبت لنفسي القهوة، وعصير البرتقال، وست قطع من الخبز المُحلّى. إذ يمكنني احتمال الخبز المُحلّى، حيث إن طعمه كفطائر البيض والحليب التي تعدها الجدات الإنكليزيات. أما كيت فطلبت لنفسها الشاي وفطيرة الكرز.

فيما كنا نتناول فطورنا، سألتني كيت "ألديك أي معلومات أخرى تود أن تخبرني بها؟"

"كلا، فقط جريمة القتل في بيرث أمبوي".

"أليس لديك أي نظريات؟"

"كلا، أتأتين إلى هنا كثيراً؟"

"أكثر أوقات الصباح. ألديك أي خطة للعمل اليوم؟"

"أحتاج إلى أن أمر لأخذ ملابسي من محل التنظيف الجاف. ماذا عنكِ؟"

"عليّ أن أسرع لأنتهي من كل تلك الأشياء فوق مكتبي".

"فكري في الأشياء التي ليست فوق مكتبك".

"مثل ماذا؟"

“مثل معلومات تفصيلية عن ضحايا خليل المزعومين في أوروبا. فليس هناك ما يفيد في تلك الأشياء فوق مكاتبنا، إلا إذا كان قد فاتتني شيء ما. لا شيء من اسكوتلانديارد، ولا شيء من القوات الجوية، ولا من مكتب التحقيقات الفيدرالية”.

“حسناً، عمّ تبحث؟”

“أبحث عن صلة بين الأحداث، والدافع”.

“لا يبدو لي أن ثمة صلة بين الأحداث سوى استهداف بعض الأوروبيين والأميركيين، وهو دافع في حدّ ذاته”.

“الجريمة الوحيدة التي تبرز هنا هي قتل ذلك العقيد في سلاح الطيران الأميركي بالفأس في إنكلترا”.

“العقيد هامبريشت، وكان ذلك بالقرب من قاعدة لاكينهيث الجوية”.

“نعم، هو ذلك. بالمناسبة، هذه القهوة ليست بسيئة”.

“وما الذي يجعل هذه الجريمة أهم من غيرها؟”

“لأنها تحفل بالتفاصيل وتحمل صبغة شخصية”.

“وكذلك مقتل تلاميذ المدرسة”.

“لقد أُطلق عليهم الرصاص، لكنني أتحدث هنا عن الفأس. فلهذا معنى”.

نظرت إليّ كيت وقالت “حسناً أيها التحري كوري، أخبرني بوجهة نظرك”.

رحت أعبث ببقية الخبز، ثم قلت “إن جريمة كهذه تحمل في طياتها علاقة شخصية”.

“حسناً، ولكننا لسنا متأكدين في المقام الأول من أن أسد خليل هو من ارتكب هذه الجريمة”.

“صحيح، فالأمر لا يتعدى أن يكون شكوكاً، وتخمينات من قِبل الشرطة الدولية، وهم يتعقبون هذا الرجل. لقد خضت في نحو نصف طن من الأوراق بالأمس بينما كنتِ تسددين فواتير أجرة سيارة الأجرة إلى مطار كنيدي بصحبة جاك. ووجدت القليل من قِبل اسكوتلانديارد، أو القوات الجوية، أو أصدقائنا من وكالة الاستخبارات المركزية. ولا شيء على الإطلاق من مكتب التحقيقات الفيدرالية، بالرغم من أنه لا شك في أنهم قد أرسلوا فريقاً للتحقيق في مقتل هامبريشت والأطفال الأميركيين. فلماذا لم يمدّونا بأي من تلك التفاصيل؟”

“ربما لأنك نسيت أن ترسل في طلبها”.

“بل وضعت هذا الطلب في غرفة ملفات الحدث، وما زلت أنتظر”.

“لا داعي لأن تصاب بجنون الريبة”.

“ولا داعي لأن تكوني بالغة الثقة”.

لم ترد كيت على الفور، ولكنها قالت بعض برهة “لست كذلك”.

ثم اتفقنا في صمت أن ثمة شيئاً عفناً في الأجواء، إلا أن العميلة مايفيلد ما كانت لتفصح عن هذا.

وأخيراً أحضرت لي السيدة الفرنسية فاتورة الحساب، فدفعت بها إلى الآنسة قبالتي، والتي بدورها سددتها نقداً. خمس نقاط.

ثم أعطتها السيدة بقية النقود من محفظة تحتفظ بها فوق فخذها، كما هو الحال في أوروبا. كم هذا لطيف!

ثم غادرنا المقهى، وعمدت إلى إيقاف سيارة لتقلنا إلى المركز، وقلت للسائق "26 فيدرال بلازا". ولمّا لم يكن لدى الرجل أي فكرة عن المكان، رحت أصف له الطريق، ثم سألته "من أين أنت؟"

"من ألبانيا".

تذكرت أنه عندما كنت طفلاً كان لا يزال هناك سائقو سيارات من كزاريست القديمة في روسيا، وكلهم من طبقة النبلاء القديمة. هذا بالطبع في حال صدقت القصص التي كانوا يروونها عن أنفسهم. ولكنهم - على الأقل - كانوا يعرفون الطريق جيداً ويقلونك إلى أي مكان ترغب.

جلسنا صامتين لدقيقة قبل أن تقول كيت "ربما كان يجدر بك الذهاب إلى المنزل أولاً لتغيير ملابسك".

"سأفعل إن كان هذا يرضيكِ. فأنا أسكن على بعد بنايتين من هنا". ثم أضفت "نكاد أن نكون جارين".

ابتسمت كيت، وفكرت في الأمر ثم قالت "نحن كذلك بالفعل".

"هناك نحو خمسمئة تحري وفيدرالي في هذه البناية، أتظنين أنهم سيلحظون؟"

ضحكت كيت وقالت "ومن يعبأ؟"

"حسناً، فلندخل منفصلين".

إلا أنها جذبتني من يدي، واقتربت بشفتيها من أذني وقالت "فليذهبوا إلى الجحيم".

فقبلتها على خدها، ولاحظت كم أن رائحتها زكيّة، تماماً كمظهرها. وكنت أحب صوتها وهي تتحدث، فسألتها "من أين أتيتِ على وجه التحديد؟"

"من كل مكان في العالم، فأنا ربيبة مكتب التحقيقات الفيدرالية. أبي متقاعد، ولقد وُلد في سينسيناتي، بينما مسقط رأس أمي في تينيسي. ولقد سافرنا وانتقلنا كثيراً، حتى إن إحدى المحطات كانت في فنزويلا. ولدى مكتب التحقيقات العديد من الرجال في أميركا الجنوبية، فلقد حاول جي إدغار إبعاد الجنوب الأميركي عن الاستخبارات المركزية. هل كنت تعرف هذا؟"

"أظنني كنت أعرف. خيراً فعل هذا العجوز إدغار".

"ولكنهم أساءوا فهمه كثيراً كما كان أبي يقول".

"قد تكون لي صلة بالأمر".

ضحكت كيت.

"وهل يفتخر بكِ أبواكِ؟"

"بالطبع، ألا يفعل والداك؟ هل هما على قيد الحياة؟"

"نعم، ويعيشان في ساراسوتا".

فابتسمت وقالت "ألا تحبهما؟ وهل يفتخران بك؟"

"تماماً، حتى إنهما يطلقان عليّ كنية جميلة: النعجة السوداء".

ضحكت كيت. نقطتان.

صمتت كيت لبرهة ثم قالت "كانت لديّ علاقة طويلة الأمد مع عميل آخر من مكان بعيد". ثم أضافت "أنا سعيدة لأننا جاران. هذا يجعل الأمر أسهل وأفضل".

لكن عندما فكرت في علاقتي أنا البعيدة المسافة ببيث بينروز، وبزواجي السابق، لم أكن متأكداً أن هذا أفضل بالفعل، ولكنني أجبتها على كل حال "أفضل بالطبع".

ثم كشفت عن المزيد بأن قالت "أنا أحب الرجال الأكبر سناً".

خمنت أنها تقصدني بذلك، فسألتها "ولم؟"

"أحب هذا الجيل من الرجال؛ جيل أبي حيث الرجال رجال بحق. أظنك تفهم ما أعنيه".

"ولكن لا عيب في الرجال من جيلك يا كيت، بل العيب في طبيعة عملك وفي أولئك الذين يعملون من حولك. ربما كانوا رجالاً لا بأس بهم كذلك، ولكنهم يعملون لدى الحكومة الفيدرالية، والتي أصبحت غريبة بحق".

"ربما كان الأمر كذلك بالفعل، فجاك - على سبيل المثال - لم يكن رجلاً سيئاً. كان يكبرني سناً، ويتصرف كرجل طبيعي نصف الوقت".

"صحيح".

"أنا لست من نوع النساء اللواتي يرتمين على الرجال".

"ولكنني معتاد على ذلك".

فضحكت وقالت "حسناً، فلنكتفِ بهذا القدر من حديث الصباح".

"حسناً".

من ثم تحدثنا قليلاً؛ نوع الحديث الذي كان يسبق العلاقات الحميمة منذ ثلاثين عاماً. لقد تغيرت البلاد كثيراً، تغيرت للأفضل في معظم الأشياء، إلا أن الأمر بات أكثر تعقيداً في ما يتعلق بالعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة. أو ربما كنت أنا الرجل الوحيد الذي يصيبه هذا الأمر بالحيرة والتشويش. فلقد واعدت نساءً ما زلن يرزحن تحت وطأة قيود المفاهيم القديمة/الجديدة الخاصة بالعفة والأخلاق،

وواعدت أخريات يرتقين المرتفعات أسرع من راكبي خيل البريد. ومن الصعب أن تحكم على المرأة من مظهرها فتعرف إلى أي الحزبين تنتمي، ولا حتى من حديثها. أما بالنسبة للنساء، فالأمر أسهل بكثير، كل الرجال خنازير ببساطة شديدة.

على أي حال، ليس من المفترض أن تتحدث عن المحظورات في وجود المدنيين، حتى لو كانوا سائقي سيارات أجرة ألبان يتظاهرون بأنهم لا يتحدثون الإنكليزية ولا يعرفون أين يقع فيدرال بلازا. لذا، شرعنا نتحدث قليلاً طوال طريقنا إلى وسط المدينة، في محاولة لمعرفة بعضنا البعض على نحو أوثق.

اقترحت على كيت أن نغادر السيارة قبل مقصدنا ببناية أو نحوها ثم نصل إلى هناك كل بمفرده، ولكنها قالت "كلا، فأنا أجد الأمر مسلياً. فلنرَ من سيلاحظ ومن سيتخابث". ثم أضافت "كما أننا لم نفعل شيئاً خاطئاً".

مما لا شك فيه أن موظفي مكتب التحقيقات الفيدرالية ليسوا كمعظم موظفي القطاع الخاص، وليسوا حتى كموظفي مديرية شرطة نيويورك. وهم يبقون أعينهم مفتوحة على أي نزاعات أو مشكلات جنسية متوقعة، خاصة وأن مولدر وسكالي لم يفعلا ذلك بعد، وأتساءل إن كان هؤلاء الرفاق يمضون أيًّا من تلك اللحظات الحميمة. على أي حال، أنا أعمل لدى الفيدراليين بعقد، أي أن الأمر لا يعنيني.

وصلت سيارة الأجرة إلى 26 فيدرال بلازا قبل التاسعة صباحاً، ونقدت السائق أجرته.

ثم تركنا السيارة، ودخلنا البهو معاً، بيد أنه لم يكن هناك الكثير من الزملاء في المكان، وهؤلاء الذين ميزناهم من بين الحضور بدا وكأنهم لم يلحظوا أننا وصلنا معاً متأخرين، وفي السيارة نفسها، وأنني لم أبدل ملابس الأمس. حقيقة الأمر هي أنك عندما تقيم علاقة كهذه مع أحد زملاء العمل، فإنك تظن أن الجميع يعرف بتلك العلاقة، ولكن في الحقيقة، يوجد لدى الآخرين أشياء أكثر أهمية تشغل عقولهم. ولكن لو كان كوينج في الجوار، لكان أدرك الأمر على الفور، ولغضب كثيراً. فأنا أعرف هذا النوع من الرجال.

كان هناك كشك لبيع الصحف داخل البهو، فاشترينا صحف التايمز، وبوست، ودايلي نيوز، ويو أس أيه توداي، بالرغم من أن هذه الصحف وأكثر منها يصلنا خمسة أيام في الأسبوع. إلا أنني أحب مطالعة صحفي قبل أن يمسّها أحد قبلي.

وبينما كنا في انتظار المصعد، كنت أطوف بعيني على العناوين الرئيسية في التايمز، وكانت كلها تدور حول الهجمة الإرهابية الأخيرة التي تم الإعلان عنها مؤخراً، وطالعني اسم شخص ووجه مألوف لدي، فصحت "تباً لهذا. معذرة لقصوري في اللغة الفرنسية، فما زال لذلك الخبر تأثيره عليّ".

"ما الأمر؟"

رفعت إليها الجريدة، فحدقت وقالت "أوه".

ولألخص لك الأمر، كانت التايمز تذكر اسمي متبوعاً بصورة لي من المفترض أنها التقطت في مطار كنيدي يوم السبت. ولكنها بالطبع كانت صورة معالجة، موضوعة بجوار بضعة مقتبِسات مأخوذة عني، والتي لا أذكر أنني قلتها، باستثناء

واحدة منها "أعتقد أن خليلاً لا يزال في نيويورك، وإن كان الأمر كذلك، فسأجده دون شك". في الحقيقة، لم أقل هذا حرفياً، وليس للاستهلاك العام. لذا، نويت بحق أن ألكم آلان باركر الصغير على أنفه متى رأيته.

أما كيت فكانت تطالع صحيفة دايلي نيوز، ثم قالت "وهنا مقولة منسوبة لي من المفترض أنني أقول فيها أننا كنا على وشك وضع أيدينا على أسد خليل في مطار كنيدي، ولكنه استطاع الهرب بمساعدة معاونين له في المطار". قالت كيت ثم نظرت نحوي.

"أترين؟ لهذا السبب لا يجدر بنا التحدث إلى الصحافة. فإما جاك، أو آلان، أو أي شخص آخر قد قام بالحديث نيابة عنا".

فهزت كتفيها وقالت "حسناً، لقد وافقنا على أن نكون... ما هي الكلمة التي أبحث عنها؟"

"طعماً ولكن أين صورتك؟"

"ربما ينشرونها غداً، أو مساء اليوم، ولكنني لا أبدو جميلة في الصور". ثم ضحكت.

وصل المصعد، استقللناه مع آخرين يقصدون مكاتب وحدة مكافحة الإرهاب، فتحدثنا جميعاً بعض الشيء، باستثناء هؤلاء الذين كانوا يقرأون الصحف. ثم رفع أحدهم عينيه عن الجريدة، فنظر إليّ ثم إلى الجريدة مرة أخرى، وقال: "يا صاح، أنت في قائمة أكثر المطلوبين من قِبل خليل". ضحك الجميع، بيد أنني لم أجد هذا مضحكاً على الإطلاق، ترى لماذا؟

ثم قال شخص آخر: "إذاً يجب ألا نقف بالقرب من كوري". فتعالت الضحكات على نحو أشد. وكلما صعد المصعد، كانت المزحات تزداد سخافة وغباء. حتى كيت انضمت إليهم وقالت: "لديّ أنبوب صبغة من ليدي كليرول باللون الذهبي، يمكنني إعارتك إياها".

ها، ها، ها، ولولا أنني رجل محترم، لكنت استغللت هذا، وأعلنت أمام الجميع أنني قد رأيت لتوي، أو الليلة الماضية، كيف أن كيت مايفيلد شقراء على نحو طبيعي.

على أي حال، تركنا المصعد عند مركز قيادة الحادث في الطابق السادس والعشرين، وقالت لي كيت: "معذرة، لكنني وجدت الأمر مرحاً".

"ربما أفتقر أنا إلى روح الفكاهة!".

فأردفت بينما نسير تجاه المركز "ما بك يا جون؟ ما من خطر حقيقي عليك".

"حسناً، فلنرى ماذا سيكون رأيك عندما ترين صورتك غداً".

"أنا لا أهتم؛ لقد تطوعت وانتهى الأمر".

دخلنا المركز، واتجهنا صوب مكتبينا، ونحن نلقي التحية على هؤلاء الذين نقابلهم في الطريق، لم يأتِ أحدهم بأي تعليق طريف بشأن تلك الصورة في

الجريدة، فالأمر هنا مهني واحترافي بشكل بحت، بينما تلك الدقائق في المصعد لم تكن سوى انحراف عن النسق؛ لحظات غير حذرة من السلوك غير الفيدرالي. بل ولن أندهش إن علمت أن أولئك الظرفاء في المصعد يكتبون التقارير في بعضهم البعض الآن. ولو أننا الآن في غرفة التحقيقات الجنائية التي كنت أعمل فيها من قبل، لكانوا عمدوا إلى تكبير الصورة وتعليقها، ثم أضافوا إليها التعليق التالي: "أسد خليل يبحث عن هذا الرجل، أتستطيع المساعدة؟"

جلست خلف مكتبي، والحق أنني كنت أدرك تماماً أن ما من احتمال أن صورتي المنشورة في الصحف، أو حتى على شاشة التلفاز، ستدفع خليل إلى الظهور أو تصنع مني هدفاً له، إلا إذا أضحيت شديد القرب منه.

أما كيت، فجلست خلف مكتبها قبالتي، وراحت تتصفح الأوراق فوق مكتبها، وسمعتها تقول: "يا الله لديّ أطنان من هذه الأشياء هنا".

"معظمها لا قيمة له".

رحت أتصفح صحيفة نيويورك تايمز بحثاً عن تفاصيل حادثة قتل الصراف الأميركي في فرانكفورت. أخيراً، وقعت على خبر ذكر تفاصيل الخبر على نحو مجرد، ولا يذكر أن للحادث صلة بأسد خليل. وافترضت أن السلطات المختلفة لم تشأ أن تحدث تشويشاً أو اضطراباً بين المواطنين الأميركيين وهؤلاء القائمين على تنفيذ القانون ممن يبحثون عن أسد خليل.

ثم ناولت الصحيفة لكيت، فقرأت الخبر ثم قالت: "لا شك أنهم يشكون في الأمر، ولكن ربما لا يريدون أن يُحتسب الحادث كنقطة أحرزتها استخبارات البلد الذي ينتمي إليه خليل حال كان هذا هو هدف جريمة القتل في آخر الأمر".

"صحيح". فمعظم جرائم القتل التي عملت على التحقيق فيها كانت تصدر عن حمقى، حيث إن القائمين على لعبة الاستخبارات الدولية هم أناس أذكياء يتصرفون كالحمقى؛ أشخاص مثل تيد ناش وأعدائه. فخططهم الرائعة تصبح ملتوية ومتشابكة حتى إن نصفهم على الأقل يستيقظون كل صباح وهم لا يتذكرون إلى جانب من يلعبون هذا الأسبوع، وما هي الأكاذيب التي تبدو كالحقائق، والحقائق التي تبدو كالأكاذيب. لا عجب أن ناش لم يقل الكثير؛ فهو يستهلك أغلب طاقته العقلية في محاولة حل الحقائق المتعارضة. أما أنا، فشعاري هو "أترك الأشياء على بساطتها، أو حمقها".

على أي حال، التقطت كيت سماعة الهاتف وهي تقول "علينا أن نتصل بجاك".

"ولكننا نسبق توقيت فرانكفورت بنحو ست ساعات، فلا بد أنه نائم الآن".

"بل يسبقوننا هم بست ساعات أي أنه سيكون في المكتب الميداني الآن".

"أياً كان الأمر، اتركي الأمر له، فليتصل هو بنا".

ترددت كيت قليلاً، ثم تركت الهاتف.

عمد كلانا إلى قراءة العناوين الرئيسية في الصحف، وتبادلنا التعليقات عن أنه لم يكن هناك داعٍ لخداع أجهزة الإعلام، فها هم قد حصلوا على المعلومات الخاطئة

قبل أن يتم إعدادها على أي حال، باستثناء صحيفة التايمز -كي نعطي العجوز حقها- فوجدها كانت الأقرب إلى الصواب، بيد أنها كانت تفتقر إلى أهم التفاصيل وأكثرها إثارة؛ تماماً كملفاتي.

مرة أخرى ظهرت صور أسد خليل في الصحف، بالإضافة إلى بعض الصور المُعالجة؛ فوضعوا له نظارة، ولحية، وشارب، وشعر رمادي مصفف بشكل مختلف. وبالطبع فإن المفترض من هذا هو تنبيه العامة إلى احتمال لجوء هذا الهارب إلى التنكر أو تغيير مظهره. ولكن ما حدث بالفعل هو أنهم أثاروا ارتيابهم في أناس أبرياء يضعون النظارات، أو لهم شوارب أو لحى. من ناحية أخرى، فأنا - كشرطي - أعرف تماماً أن أقل من التنكر يكفي جداً، وحتى أنا قد أغفل عن الرجل المطلوب إذا ما لقيته وسط الزحام وقد ابتسم وتحت أنفه شارب.

ثم تابعت قراءة الأخبار لأرى ما إذا كان أحدهم قد ذكر تعليقاتي بشأن الإعلان عن نظرية العلاقة بين السيدة خليل والسيد ...، بوصفها أكثر من مجرد صداقة بريئة. لكن لم يكن هناك أي من هذا.

وعلى الرغم من نظريتي الخاصة بالبساطة، إلا أنني أعترف أن الحرب النفسية كثيراً ما تجدي نفعاً، إلا أنها غير مستغلة بما يكفي من قِبل العسكريين أو القائمين على تطبيق القانون - باستثناء تلك الأوقات التي تقوم فيها الشرطة باستجواب أحد المشتبهين، مستخدمة في هذا طريقة *الشرطي الطيب/الشرطي الشرير*. على أي حال، يجدر بك أن تزرع بذور الشك والخداع عبر أجهزة الإعلام، أملاً في أن يقرأ الهارب الخبر ويصدقه، بينما يدرك الأبرياء أن الأمر هراء لا أكثر.

في هذا الشأن، كنت أتساءل ما إذا كان السيد خليل يقرأ الآن هذه الأخبار التي نشرت عنه، أو لعله يرى صورته على شاشة التلفاز. حاولت أن أتخيله جالساً في مكان ما؛ يختبئ في نزل رخيص في حي لل...، ويأكل لحم الماعز المعلب وهو يشاهد التلفاز ويقرأ الصحف. لكنني لم أستطع رسم هذه الصورة له، بل تخيلته متأنقاً في حلته، ويندمج بين العامة، ويخطط لفعل جديد يفعله بنا.

لو أننا فكرنا في إطلاق اسم على هذه القضية، لأسميناها *قضية المعلومات المفقودة*، حيث إن بعض الأشياء المفقودة في الأخبار، كانت كذلك لأنهم لم يستطيعوا معرفتها، بيد أنها أيضاً أشياء كان يجدر بهم

معرفتها أو استنتاجها. وعلى رأس قائمة هذه الأشياء كانت الإشارة إلى قصف العام 1986. فأي مراسل بنصف عقل، أو نصف ذاكرة، كان ليفطن إلى هذه العلاقة. فحتى مراسلو الصحف ليسوا بهذا الغباء، ومن ثم خمنت أن هناك يداً خفية تعمل على إدارة هذه الأخبار والعبث بها. فما من شك أن الصحافة ستتعاون مع الفيدراليين لبضعة أيام أو أسبوع، حال اقتنعت أن الأمن القومي على المحك. من ناحية أخرى، ربما أكون أنا من يبالغ في قراءة ما بين السطور.

فسألت كيت: ”لماذا لم يرد في أي من هذه الأخبار أي ذكر للذكرى السنوية للقصف الجوي عام 1986؟“

رفعت كيت عينيها وأجابت: ”أعتقد أن أحدهم طلب منهم ألا يفعلوا، فليست بفكرة صائبة أن تعطي الطرف الآخر الصيت الذي يسعى إليه. فهم يهتمون كثيراً بالذكرى السنوية لمثل هذه الأشياء، ومن ثم يصيبهم تجاهلها بالإحباط“.

بدا لي هذا رأي جيد، فهناك بالفعل عدة اعتبارات تتصل بحدث بمثل هذا الثِقل. ربما يعد الممثلون السيئون بالحفاظ على استمرارية المأساة، ولكننا لن نعطيهم مساحة إعلانية مجانية يمرحون فيها.

على أي حال، لم يكن هناك جديد في هذه الأخبار، ففضلت أن أتفقد بريدي الصوتي كما كانت تفعل كيت، وكان حريّ بي أن أستخدم السماعة بدلاً من مكبر الصوت، حيث الرسالة الأولى كانت من بيث، وكانت في السابعة واثنتي عشرة دقيقة صباحاً: ”هاي، لقد اتصلت بك على هاتف المنزل الليلة الماضية وهذا الصباح لكنني لم أشأ أن أترك رسالة. أين تختبئ؟ اتصل بي في المنزل حتى الثامنة مساءً، بعد هذا الوقت ستجدني في المكتب. إليك قبلة كبيرة حارة. باي“.

تابعت كيت الاستماع إلى رسائلها وهي تتظاهر بأنها لم تسمع رسالة بيث، فقلت وكأنما أحدث نفسي: ”عليّ الاتصال بأمي“. لكنني لم أعتقد أن هذا قد انطلى على كيت.

أما الرسالة التالية فكانت من جاك كوينج: ”الرسالة لكوري ومايفيلد؛ اتصلا بي“.

كانت رسالة جاك مصحوبة برقم هاتف طويل جداً محفوف بالكثير من رقمي الصفر والواحد، وخمنت أنه لم يعد إلى مكتبه.

ثم كانت هناك رسالة مماثلة من تيد ناش، قمت بمسحتها.

لما لم يكن هناك المزيد من الرسائل، رحت أنظر في الأوراق فوق مكتبي. وبعد بضع دقائق، رفعت كيت عينيها ونظرت إليّ وسألتني: "ممن كانت تلك الرسالة؟"

"من جاك وتيد".

"أعني الرسالة الأولى".

"أوه، أتعنين رسالة أمي؟"

تمتمت كيت بشيء لم أستطع فهمه، لكنه بدا لي ساخطاً بشكل أو بآخر. ثم نهضت وتركت مكتبها.

ثم كنت أن هناك، أجلس على مكتبي، لم أنم جيداً، وجرح الرصاصة في بطني يؤلمني، وست قطع من الخبز غير المطهية في معدتي، والفصل الأخير في مهنتي يواجه متاعب جمة، وإرهابي مجنون في مكان ما يحدّق في صورتي في الصحف. بوسعي أن أتعامل مع كل هذه الأشياء، ولكن هل أنا بحاجة إلى ذلك بحق؟ أعني أعتقد أنني قد تسرعت مع كيت.

ما إن بدأت أعيد التفكير في علاقتي بالآنسة مايفيلد حتى وجدتها تعود إلى مكتبها وهي تحمل كوبين من القهوة، وقد وضعت أحدهما فوق مكتبي وهي تقول: "قهوتك سكر زيادة؛ أليس كذلك؟"

"نعم، شكراً لكِ"

"بوسعي أن أخرج، وأحضر لك بعضاً من كعك البيض مع الجبن والمقانق إن أردت".

"كلا، أشكرك".

"رجل مثلك كثير الحركة يحتاج إلى أن يأكل جيداً".

"في الحقيقة، إنني لا أتحرك من هنا، ومن ثم فإن القهوة تكفيني. شكراً".

"أظن أنك لم تتناول حبات الفيتامين الخاصة بك هذا الصباح. سأذهب لأحضر لك بعض منها".

كنت أتحسس نوعاً من التعنيف المستتر في لهجة الآنسة مايفيلد، أو لعلها عبارة "هذا الصباح" هي ما أزعجتني. أي أننا أزعجنا بعضنا بعضاً، فقلت: "أشكرك، القهوة هي كل ما أحتاج". ثم أنزلت عيني عنها، ورحت أقرأ مذكرة ما كانت فوق مكتبي.

أما هي فاكتفت بالجلوس أمامي، وارتشاف قهوتها، لكنني كنت أشعر بعينيها تنظران إليّ. ولما نظرت إليها مرة أخرى ألفيت عينيها الزرقاوين الملائكيتين وقد استحالتا كمكعبين من الجليد.

بعد أن أمضينا برهة في التحديق ببعضنا بعضاً، قالت أخيراً "أعتذر". ثم عاودت العمل على أوراقها، فقلت: "سأتولى هذا الأمر".

فأجابتني من دون أن تنظر إليّ ثانية "من الأفضل لو تفعل".

بعد دقيقة أو اثنتين، عدنا إلى العمل الخاص بالبحث عن أخطر إرهابيي العالم وأكثرهم طلباً، فقالت كيت: ‟هناك تقرير مجمع من قِبل أقسام مختلفة من الشرطة بشأن استئجار السيارات في المنطقة الحضرية، يذكر التقرير أن آلاف من السيارات يتم استئجارها كل يوم، لكنهم يحاولون فصل المستأجرين ذوي الأسماء التي تبدو شرق أوسطية. لا تبدو لي هذه ضربة موفقة".

‟على الإطلاق، فوفقاً لما لدينا من معلومات، فإن خليل يقود سيارة مستأجرة من قِبل متواطئ معه، وقد يكون اسمه سميث".

‟ولكن هذا الشخص قد لا يبدو كسميث".

‟صحيح، ولكن بوسعهم استخدام شخص يبدو مثل سميث، ثم قتله بعد ذلك. فلتنسِ قضية استئجار السيارة تلك".

‟لكننا كنا سعداء الحظ بشأن شاحنة الرايدر في قضية تفجير مركز التجارة العالمي، وحللنا القضية بها".

‟دعِ أمر هذا التفجير اللعين وشأنه".

‟لماذا؟"

‟لأنك ستجدين أن الأشرار لا يحاولون عيش هزائمهم السابقة، بعكس الجنرال العسكري الذي يحاول عيش نجاحاته السابقة في معركة جديدة".

‟أهذا ما تخبر به طلابك في جون جاي؟"

‟بالطبع، فإن هذا ينطبق على عمل التحري بالتأكيد. لقد رأيت العديد من رجال الشرطة الذين يحاولون حل لغز القضية (ب) بنفس طريقة حل الطريقة (أ)؛ فلكل قضية طبيعتها المتفردة، وبصفة خاصة قضيتنا هذه.

‟شكراً لك سيدي البروفيسور".

‟افعلي ما يحلو لكِ". وهكذا أصبحت فظاً، ومن ثم عدت إلى ما لديّ من مذكرات وتقارير. كم أكره الأوراق.

ثم وقعت على مغلف مغلق كتب فوقه *لعناية المرسل إليه فقط*. ولم يكن عليه أي ملاحظات عن توجيهه، ففتحته ووجدت أنه من جابي، وكان يقول: ‟لقد أبقيت فادي منعزلاً عن الاتصال بالآخرين طيلة يوم أمس، وذهبت إلى منزل جمال جبار وقابلت زوجته، وتدعى كولا. وادعت أنها لا تعرف شيئاً عن أنشطة زوجها، أو نواياه، أو ماذا كانت وجهته يوم السبت. ولكنها قالت إن ضيفاً أتى لزيارة جبار ليلة الجمعة، وبعد أن ذهب هذا

الضيف وضع جبار حقيبة من القماش الأسود تحت سريرهما وأمرها ألا تمسها. وقالت إنها لم تتعرف على هذا الضيف ولم تسمع أي شيء مما قالاه. في صباح اليوم التالي، ظل زوجها في المنزل، على غير عادته حيث إنه عادة ما يذهب لعمله أيام السبت. ثم ترك جبار شقته في بروكلين في تمام الثانية بعد الظهر وهو يحمل تلك الحقيبة، ولم يعد من حينها. وتقول الزوجة إنها لاحظت أنه كان قلقاً، وعصبياً، وحزيناً، ومشتتاً. وتميل السيدة جبار للإعتقاد أن زوجها قد مات، فاتصلت بالقسم الجنائي وأعطيتهم الإشارة كي يخبروها بخبر موت زوجها الفعلي، وأرسلت أحد الفيدراليين للشأن نفسه. سأتحدث إليك في وقت لاحق".

قرأت الرسالة ثم طويتها ووضعتها في جيب سترتي.

وسألتني كيت "ما هذا؟"

"سأدعك ترينه في ما بعد".

"ولم ليس الآن؟"

"إنكِ بحاجة إلى دليل نفي معقول قبل أن نتحدث إلى جاك".

"جاك رئيسنا، وأنا أثق به".

"وأنا كذلك، ولكنه شديد القرب من تيد في الوقت الحالي".

"عمّ تتحدث؟"

"هناك لعبتان قائمتان الآن في الملعب ذاته - لعبة الأسد، ولعبة شخص آخر".

"لعبة من تعني؟"

"لست أدري على وجه التحديد، لكن يخامرني شعور أن هناك ما يسوء".

"حسناً، إذا كنت تعني أن وكالة الاستخبارات المركزية تعمل بمفردها ولحسابها، فإن هذا ليس بخبر جديد".

"هذا صحيح، أبقي عينيك مفتوحتين على تيد".

"لا بأس، ربما أعمد إلى غوايته فيبوح لي بما لديه".

"فكرة جيدة. ولكنني رأيته عارياً من قبل، ولا أظن أن هناك ما قد يشد انتباهك".

نظرت إلي كيت ولاحظت أنني لم أكن أمزح، فسألتني: ‘‘متى رأيته عارياً؟’’

‘‘في حفلة للعزاب... الموسيقى والعاريات سلبن فؤاده...’’

‘‘اختصر. متى رأيته عارياً؟’’

‘‘في بالم أيلاند، بعد أن تركنا مختبر منع الانتشار، كان علينا جميعاً أن نغتسل للخروج’’.

‘‘أحقاً؟’’

‘‘ولكنني لا أعتقد أنه اغتسل جيداً، حيث إنه في وقت لاحق من ذاك اليوم أصابه خمول في أعضائه الحيوية’’.

ضحكت كيت، ثم صمتت لبرهة كانت تفكر فيها، ثم قالت: ‘‘لقد نسيت أنكما قد عملتما معاً من قبل في إحدى القضايا، وكان معكما جورج أيضاً. أليس كذلك؟’’

‘‘هذا صحيح، ولكن أعضاء جورج كانت بخير ... هذا لإقرار الحقائق لا غير’’.

‘‘شكراً لإطلاعي على الحقائق’’، قالت كيت ثم تريثت قليلاً وأردفت: ‘‘مرتاب أنت إذاً في تيد في ما يتعلق بهذه القضية’’.

‘‘ليس هذا بأمر قد طرأ تدريجياً، فشكي فيه قد بدأ بعد أن قابلته بثلاث ثوانٍ’’.

‘‘أي أنك ترتاب في أن مقابلتكما للمرة الثانية هي أمر بمحض الصدفة’’.

‘‘إلى حدٍّ ما. بالمناسبة سبق وأن وجه لي تهديداً مباشراً في قضية لونغ أيلاند’’.

‘‘وبم هددك؟’’

‘‘بالشيء الوحيد الذي له قيمة’’.

‘‘لا أستطيع تصديق هذا’’.

هززت كتفي، وأوضحت لمايفيلد قائلاً: ‘‘ولمعلوماتك كان مهتماً بأمر بيث بينروز’’

‘‘أوه، ابحث عن المرأة! لقد توضحت الرؤية الآن. فقد انتهى الأمر’’.

ربما لم يكن من الحكمة مني أن أشركها في هذا الأمر، ومن ثم لم أجب على استنتاجها غير المنطقي، فقالت ‘‘إليك إذاً حل لمشكلتينا، تيد وبيث معاً، فلنجمعهما سوياً’’.

هنا تحولت على نحو ما من عميل لمكافحة الإرهاب إلى شخصية ميلودرامية، فقلت لها كي أنهي الحوار ‘‘تبدو لي خطة معقولة’’.

‘‘جيد، والآن أرني هذا الشيء الذي وضعته في جيبك’’.

‘‘ولكنه خاص جداً للمرسل إليه’’.

‘‘إقرأه لي بنفسك إذاً’’.

فأخرجت خطاب جابي من جيبي، ورميت به إلى كيت عبر مكتبها، فقرأته ثم قالت لي "لست أرى أمراً جديداً هنا ما كان يجب أن أراه، ولا شيء قد أضطر لإنكار أنني رأيته". ثم أضافت "أنت تحاول أن تحتكر المعلومات يا جون؛ فالمعلومات مصدر للقوة، ونحن لا نعمل بهذه الطريقة هنا".

ثم أضافت "أنت وجابي وبعض الرجال الآخرون من مديرية شرطة نيويورك الموجودون هنا تلعبون لعبة (اخفِ الأمر عن الفيدراليين)، وهي لعبة خطرة".

ثم قضيت الثلاث دقائق التالية في محاضرة انتهت بأن قالت "نحن لا نريد ما يشبه المنظمة الفرعية داخل قوة عملنا".

فأجبتها "أعتذر لأنني احتفظت بالرسالة لنفسي وحاولت إخفاءها عنكِ، وأتعهد أن أتشارك كافة المذكرات المقبلة معكِ" ثم أردفت "أنا أعرف أن المكتب الفيدرالي والاستخبارات المركزية يطلعاني على كل ما يتوافر لديهما، ويفعلان هذا مع كافة الشرطيين التحريين المكلفين بالتعاون مع وحدة مكافحة الإرهاب، وكما قال ادغار هووفر-".

"حسناً، فلنكتفِ بهذا القدر، فقد فهمت ما تحاول قوله فقط لا تحاول أن تخفي عني الأسرار".

ثم تواصلنا بالأعين، وابتسمنا. أترى ماذا يحدث عندما تتورط في علاقة عاطفية مع زميلة عمل؟ فقلت لها "أعدكِ أنني لن أفعل".

من ثم عدنا إلى أعمالنا، حتى قالت كيت "إليك تقرير المعمل الجنائي حول سيارة الأجرة التي عثروا عليها في بيرث أمبوي ... واو ... خيوط صوفية على المقعد الخلفي تماثل تلك التي أخذت من سترة خليل في باريس".

على الفور، شرعت أبحث عن نسخة التقرير لديّ حتى وجدتها، ورحت أقرأ لنفسي فيما كانت كيت تقرأ بصوت مرتفع "وآثار واضحة لألياف البولي إيثيلين على مقعد السائق وجسده ... ماذا يعني هذا بحق الجحيم؟"

"يعني أن القاتل قد استخدم قنينة بلاستيكية ككاتم للصوت".

"أحقاً؟"

"نعم، ولا شك أنكِ ستجدين هذا مكتوباً في أحد الكتب الموجودة فوق الرفوف في منزلك".

"لم أحاول أبداً قراءة الـ ... حسناً ... ماذا لدينا هنا أيضاً؟ .. فتحات الطلقة تدل بالقطع على أنها من عيار 40 أعتقد أن هذا يعني أنه استخدم سلاح عميل فيدرالي".

"من المحتمل".

"وبصمات الأصابع تغطي السيارة، بيد أنها جميعاً لا تنطبق وبصمات أصابع أسد خليل".

هكذا قرأنا التقرير معاً، إلا أننا لم نجد فيه دليلاً قاطعاً على أن أسد خليل كان بالفعل في سيارة الأجرة تلك، في ما عدا ما يتعلق بالخيوط الصوفية، وهي بالطبع لا تعدّ دليلاً حاسماً على وجوده في مسرح الأحداث ذلك. ربما كانت سترته فحسب، أو حتى سترة مماثلة؛ فهذا ما قاله محامي للدفاع في المحكمة ذات مرة.

مكثت كيت تفكر لبرهة ثم قالت "إنه في أميركا".

"هذا ما قلته لكِ حتى قبل أن أعلم بجريمة القتل في بيرث أمبوي".

"وجريمة فرانكفورت ليست أكثر من مجرد تمويه".

"هذا صحيح، ولهذا السبب نحن لا نتبع هذه الرائحة. في الحقيقة، إننا لا نتبع أي رائحة على الإطلاق، فقد فقدنا الأثر في بيرث آمبوي".

"لكن يا جون الثابت في الأمر أننا نعرف أين كان ليلة السبت. فماذا يمكن أن نستنبط من هذا؟"

"لا شيء على الإطلاق".

في الحقيقة، إن الأدلة القوية والجيدة، والحقائق التي يمكن بالفعل التأكد من صحتها، عادة ما تؤدي إلى لا شيء. فعندما استقر اتهام الفيدراليين على أسد خليل، تمكنا من إضافة اسم جمال جبار إلى لائحة الثلاثمئة قتيل من الرجال والنساء والأطفال المشتبه بأن أسد خليل قد قام بقتلهم. إلا أن هذا لم يقربنا قيد أنملة من القبض عليه.

مرة أخرى عدنا إلى الأوراق فوق مكتبينا، وشرعت أبدأ من البداية؛ من أوروبا، وقرأت القليل المتاح عن جرائم القتل المشتبه التي وقعت هناك والمشتبه فيها أسد خليل، والأنشطة الأخرى المنسوبة إليه. لا بد أن ثمة دليل ما يوجد في أوروبا، لكنني لا أستطيع رؤيته.

كان أحدهم - وليس أنا - قد طلب من القوات الجوية الملف الخاص بالعقيد وليام هامبريشت، والذي يعرف بملف الخدمة، وكان لديّ نسخة منه فوق مكتبي في ملف مغلق، وشأنه شأن كل الملفات العسكرية مختوم بخاتم سري للغاية.

لقد أدهشتني حقيقة أن الملف قد تم طلبه منذ يومين وأنه لم يكن جزءاً من الملف الأصلي الخاص بأسد خليل. ما أعنيه هو أن أسد خليل سلّم نفسه للسفارة الأميركية في باريس يوم الخميس، وعندها أدركوا أنه مشتبه في قضية مقتل هامبريشت، ومن ثم كان يجب أن يكون ملف هامبريشت هنا قبل يوم السبت، أو الاثنين على أقصى تقدير. ولكن اليوم هو الخميس، وها أنا أرى الملف للمرة الأولى.

لكن، ربما أكون أعطي الفيدراليين أكثر مما يستحقون من التقدير حين أفكر أن الحصول على هذا الملف كان يجب أن يكون أول أولوياتهم. أو ربما كان هناك

شخص ما يحاول السيطرة على المعلومات، فكما قلت لكيت من قبل "فكري في ما لا يوجد فوق مكتبك". هناك شخص قد فعل ذلك بالفعل، ولكنني لا أعرفه، حيث إن ملف العقيد هامبريشت لم يكن ممهوراً بأي تواقيع.

فقلت لكيت وأنا أرفع أمام عينيها الصفحة الأولى من الملف "ألديكِ نسخة من ملف الخدمة الخاص بالعقيد وليام هامبريشت؟ يشبه هذا".

فقالت دون أن تنتظر "أعرف كيف يبدو، فلقد قمت بطلبه يوم الجمعة عندما تلقيت مهمة مقابلة خليل في المطار، وبعد أن قرأت ملفه. ولقد قرأت ملف هامبريشت من نصف ساعة مضت".

"لقد أثرتِ إعجابي، لقد أحسن والدك تدريبك".

"لقد علمني والدي كيف أتقدم في مهنتي، أما أمي فقد علمتني كيف أكون فضولية".

ابتسمت لما قالته، ثم شرعت أفتح الملف. كانت الصفحة الأولى تحتوي على البيانات الشخصية، والشخص الأكثر قرابة، وعنوان المنزل، وتاريخ ومحل الولادة، وما إلى ذلك من معلومات. ورأيت أن وليام هامبريشت كان متزوجاً من روز، ولديه ثلاثة أبناء، وكان سيبلغ الخامسة والخمسين من عمره في مارس المقبل. ولقد كان لوثري العقيدة، وكانت فصيلة دمه أ/+ ... إلخ.

تصفحت صفحات الملف، وكان معظمه مكتوباً بمفردات عسكرية غامضة، وكان بالأساس عبارة عن موجز لحياة مهنية بارزة وطويلة، وفكّرت أنه ربما قد عمل العقيد هامبريشت مع سلاح القوات الجوية بالاستخبارات، ومن ثم كان على اتصال بواحدة من الجماعات المتطرفة، ولكن الرجل كان طياراً في الأصل، ثم قائد طيران، ثم قائد سرب وبعدها قائد جناح. ولقد تميز في حرب الخليج، ونال العديد من الجوائز والميداليات والأوسمة في جميع أنحاء العالم، كما كان على اتصال بحلف شمال الأطلسي في بروكسل، قبل أن يتم تعيينه في قاعدة القوات الجوية الملكية في لاكينهيث بانكلترا، كضابط تدريب. لا شيء غير عادي في هذا، سوى أنه قد تم تعيينه من قبل في لاكينهيث في يناير 1984 وحتى مايو 1986. ربما اكتسب أعداءً في تلك الفترة؛ لعله عبث مع زوجة أحدهم آنذاك، ثم عندما أعيد تعيينه هناك مرة أخرى بعد عشر سنوات، كان الزوج لا يزال غاضباً. ففي هذا تفسير لمقتله بالفأس. وهكذا لن يكون لمقتله علاقة بأسد خليل.

على أي حال، تابعت قراءة الملف، ووجدت صعوبة في قراءة تلك الأشياء العسكرية، خاصة وأنهم يكتبون في مختصرات؛ مثل "العودة إلى CONUS"،

والتي أعرف أنها تعني العودة إلى القارة الأميركية، ثم هناك "DEROS" وتعني التاريخ التقديري للعودة إلى الخارج، وما إلى ذلك من المختصرات.

على الرغم من أن قراءة كل هذه المختصرات والاختصارات أصابتني بالصداع، إلا أنني تابعت القراءة. ولما لم أجد شيئاً مفيداً، كنت على وشك أن أطرح الملف جانباً، ولكنني ألفيت في الصفحة الأخيرة سطراً يذكر: "معلومات ممحاة - مهمة وزارة الدفاع رقم 25-369215، الأمر التنفيذي رقم 279651-351، Purp. Nat. Sec. سري للغاية". كنت أعرف أنهم لا يعمدون أبداً إلى اختصار عبارة سري للغاية، بل ويكتبونها في أحرف كبيرة لضمان فهمها.

ظللت أحدّق في تلك الأشياء المطبوعة، ولكن حتى شارلوك هولمز بنظارته المكبّرة ما كان ليصل إلى شيء. فلم تكن هناك طريقة يمكن بها معرفة ما الذي تم حذفه، أو متى حدث ذلك، أو منذ متى وتلك المعلومات مختفية من الملف. ولكنني كنت أعرف من حذفها ولماذا؛ إن وزارة الدفاع هي التي قامت بذلك، بل وربما رئيس الولايات المتحدة الأميركية. أما السبب، فهو الأمن القومي دون شك.

أما الترتيب الذي اتخذته الأرقام فمن شأنه أن يخبر المرء عن المعلومات المحذوفة، ولكن لم أكن أنا المرء المناسب لهذه المهمة.

أخذت أفكر بالمعلومات التي قاموا بحذفها، وأدركت أنها ربما كانت معلومات ذات أي طبيعة خاصة؛ فعادة، تتعلق هذه المعلومات بمهام سرية أو أشياء من هذا القبيل، ولكن في حالتنا هذه ربما كان الأمر يتعلق بمقتل العقيد هامبريشت، وربما كانا الأمرين معاً، أو لا شيء منهما على الإطلاق. وربما يتعلق الأمر بعلاقة له مع زوجة أحد الضباط.

لم تكن هناك أي إشارة تدل إن كانت تلك الأفعال المحذوفة ذات طبيعة مشرِّفة أو مخزية، ولكنني أفترض أنها كانت أفعالاً مشرفة، حيث إن حياته المهنية بدت لي جيدة ومستقيمة حتى اليوم الذي ظن فيه أحدهم أنه شجرة بلوط وأعمل فيه فأسه.

وسألتني كيت "إذاً؟ ماذا تعتقد؟"

نظرت إليها وقلت "لقد وجدت ما هو بين السطور".

"حقاً؟ لقد تقدمت بطلب إلى جاك بالفعل، وسيقوم بدوره بإحالة الطلب إلى المدير عبر القنوات الرسمية، ومن ثم سنحصل على المعلومات المحذوفة. ربما يستغرق هذا بضعة أيام، وربما أكثر. لقد وضعت علامة *عاجل وطارئ* فوق الطلب". ثم أضافت "ولكن هذا الملف لا يحمل سوى علامة *سري* وها قد وصلنا في أربعة أيام. أحياناً لا يعملون بالسرعة المطلوبة".

"نعم، علامة *سري للغاية* تستغرق وقتاً أطول".

"ومن ناحية أخرى، لو أن أحدهم في الأعلى يرى أن لا حاجة بنا للمعرفة، أو إذا ما قرر أن المعلومات المحذوفة لا صلة لها بأغراضنا، فلن نراها أبداً". ثم أضافت "بل وربما يرون أنها معلومات ذات صلة، ولكنها غاية في الحساسية بحيث إنه ليس من المفترض أن نراها. ولذا، يقوم أحدهم بإخفائها. ولكنني لست قلقة، وأنا أنتظر على كل حال".

فكرت في كل تلك الاحتمالات، ثم قلت "قد لا تكون المعلومات المحذوفة ذات صلة بالفعل، إلا إذا كانت تتعلق بجريمة القتل. وحتى إن كان الأمر كذلك، فما الذي يجعل هذه المعلومات بهذه السرية؟"

هزّت كيت كتفيها وقالت "قد لا نعرف على الإطلاق".

"ولكن ليس هذا ما أتقاضى راتبي لأجله".

"أي نوع من أنواع التراخيص لديك؟"

"حوالى ستة أقدام وبوصة واحدة. معذرة، إنها مزحة قديمة".

إلا أن كيت لم تبتسم، فأردفت "إنه ترخيص سري فحسب، عميل سري".

"لدي مثله، لكن لدى جاك تصريح *سري للغاية*، ومن ثم يستطيع رؤية المعلومات المحذوفة في حال أراد أن يعرف".

"وكيف سيفعل ذلك إذا لم يكن يعرف من قام بحذفها في المقام الأول؟"

"عندما يكون لدى شخص ما الحاجة إلى معرفة شيء ما، ويكون هناك في الوقت ذاته شخص آخر يحمل ترخيصاً سرياً للغاية، فإنه يخبره بما يريد معرفته".

"من هو الشخص الأول؟"

فأجابتني وكأنها تخبرني بمعلومة ما "ليس أنت، فالحكومة الفيدرالية ليست مديرية شرطة نيويورك. وأظن أنك قد اكتشفت هذا بالفعل".

"الجريمة هي الجريمة، والقانون هو القانون هذا هو الدرس الأول في منهجي في جون جاي". قلت هذا والتقطت سماعة الهاتف، وطلبت آن أربور في ميتشيغن، إذ كان رقم الهاتف مذكوراً في الملف، ومصحوباً بملاحظة تقول إنه ليس مدرجاً.

بالفعل سمعت الجرس يدق عند الناحية الأخرى، تبعه صوت مسجل المكالمات بصوت امرأة في منتصف العمر، لا شك أنها السيدة هامبريشت، وكانت تقول "هنا منزل هامبريشت. لا يسعنا الرد على الهاتف الآن. من فضلك اترك اسمك ورقم هاتفك، وسوف نعاود الاتصال بك في أقرب وقت".

لو أنها كانت تعني العقيد هامبريشت بصيغة الجمع تلك، فهو حتماً لن يجيب على هذه المكالمة. على كل حال انطلق صفير الآلة بعد عبارتها تلك، فقلت أنا "سيدة هامبريشت، معك هذا جون كوري، أتحدث إليكِ نيابة عن القوات الجوية. أرجو أن تعاودي الاتصال بي في أقرب فرصة، حيث إن الموضوع يتعلق بالعقيد هامبريشت". ثم أضفت رقم هاتفي المباشر، وقلت "أو اتصلي بالآنسة مايفيلد". وسجّلت رقم كيت الذي قرأته هي لي من فوق هاتفها. ثم أنهيت المكالمة. وفي الأوقات التي لن نتواجد فيها، سيرد بريدنا الصوتي قائلاً "كوري، القوات الجوية"، أو "مايفيلد، القوات الجوية"، ثم يسمع المتصل رسالة لطيفة تطلب اسم ورقم المتحدث. من شأن هذا أن يبدو مبهماً وغير مزعج طالما لم نستخدم كلمة *إرهابي*.

هكذا، وبعد أن أزحت عن رأسي هذا الخيط الذي لا أتوقع منه الكثير، عدت ثانية إلى تقرير الحدث الخاص بي، والذي تأخرت كثيراً في تقديمه. وبافتراض أن لا أحد سيقرأ هذا بالفعل، ظننت أنني قد أهرب من هذه المهمة بكتابة أربع صفحات، وحشو الملف بخمسين صفحة فارغة في المنتصف. في الحقيقة، قررت أن أبدأ بالنهاية. ولذا، كتبت "وهكذا... في النهاية"، ثم دق هاتف كيت، وكان المتحدث جاك كوينج. وبعد ثوانٍ، توجهت إليّ قائلة "ارفع سمّاعتك".

فضغطت على الزر الخاص بخط كيت ثم قلت "كوري". فقال السيد كوينج في مزاج مرح "أنت تثير أعصابي بحق يا كوري".

"نعم يا سيدي".

فأبعدت كيت السماعة عن أذنها في حركة مسرحية وكأنها لا ترغب في سماعه يوبّخني، فيما تابع كوينج قائلاً "لقد خالفت أمري بالسفر إلى فرانكفورت، ولم ترد على مكالمتي، ولم تكن في أي مكان يمكن الوصول إليك فيه طيلة ليلة أمس".

"نعم يا سيدي".

"أين كنت؟ كان من المفترض أن تظل على اتصال".

"نعم يا سيدي".

"حسناً، أين كنت إذاً؟"

كان لديّ بالفعل إجابة مضحكة عن هذا السؤال اعتدت استخدامها لدى سؤالي من قِبل أحد رؤسائي، فكنت أقول "لقد قبضوا على صديقتي في قضية دعارة، ولقد قضيت الليلة في المحكمة أدفع لها الكفالة". ولكن - كما أقول دائماً - هؤلاء القوم يفتقرون إلى روح الدعابة، فأجبت جاك قائلاً "ليس لديّ أي أعذار يا سيدي".

فقاطعتنا كيت وقالت "لقد اتصلت بمركز قيادة الحدث، وأخبرت الضابط المناوب أن السيد كوري في منزلي حتى الإبلاغ بخلاف ذلك، وكنا هنا قرابة الساعة التاسعة إلا ربعاً صباحاً".

ساد الصمت. ثم قال جاك "حسناً". ثم تنحنح وقال لكلينا "سأعود غداً إلى نيويورك، ومن المفترض أن أصل إلى المكتب قبل الثامنة بتوقيت نيويورك. أرجو أن تكونا هناك آنذاك إن لم يكن في الأمر إزعاج لكما".

أكدنا له أن لا إزعاج في الأمر على الإطلاق، وانتهزت الفرصة كي أسأله "هلا استعجلت طلب كيت الخاص بالمعلومات المحذوفة من ملف العقيد هامبريشت؟"

مرة أخرى ساد الصمت، حتى قال جاك "لقد أخطرتنا وزارة الدفاع أن هذه المعلومات ليست وثيقة الصلة بمقتله، ومن ثم لا صلة لها بالقضية خاصتنا".

"بم تتصل إذاً؟"

"كان لدى هامبريشت تصريح نووي، والمعلومات المحذوفة لها صلة بهذا الأمر. إنه إجراء قياسي أن يتم حذف أي معلومات خاصة بالنواحي النووية من ملفات العاملين". ثم أضاف "لا داعي لإضاعة الوقت في هذا الشأن".

"حسناً"، في الحقيقة، كنت أعرف أن ما قاله لي كان حقيقياً. فلقد سبق أن عملت على قضية أخرى منذ عدة سنوات، وكانت تدور حول أحد ضباط القوات الجوية.

ثم استطرد جاك في الحديث عن موضوعات أخرى، فتحدث عن جريمة قتل بيرث أمبوي، والتقرير الجنائي الخاص بها، ثم سأل عن شاهد جابي - فادي - وكيف كانت تسير القضية، وما إلى ذلك. ثم سأل عمّا ورد في صحف هذا الصباح، فأخبرته *صورتي*.

"وهل ذكروا عنوانك على نحو صحيح؟" ثم ضحك، وضحكت كيت، فيما قلت أنا لجاك "أنت مدين لي بواحدة إذاً".

"ماذا تعني؟"

"أعني أن جعلي هدفاً ليس من ضمن واجبات وظيفتي، ومن ثم أنت مدين لي بخدمة متى احتجتها".

"بل لديك العديد من النقائص بالفعل يا كوري، وبهذا الفعل قد اقتربت قليلاً من سدها".

في الحقيقة، لم أكن أفكر أنني هدف بالفعل، ولكن هذا ما كان كوينج يظنه، مما أوضح لي القليل عن تفكير الفيدراليين. فاخترت أن ألعب لعبته، وقلت "لست أجد في هذا تصفية حساب. على الأقل ليس من جهتي".

"أنتم يا رفاق تعرفون جيداً كيف تحافظون على مستوى نقاطكم المحرزة، أليس كذلك؟"

أظنه كان يعني *بالرفاق* رجال الشرطة بالطبع، فقلت "أنت مدين لي على أي حال".

"حسناً، ماذا تريد؟"

"ماذا عن الحقيقة؟"

"أنا أعمل على التوصل إليها".

بدا لي هذا كاعترف وتأكيد على أن هناك المزيد في هذا الأمر أكثر مما كنا نعرفه، فقلت "تذكر الشعار الذي يردده أصدقاؤنا في الاستخبارات المركزية ستتصل إلى الحقيقة، وعندها ستحررك الحقيقة".

"لكن الحقيقة قد ترديك قتيلاً. أنت شخص في غاية الذكاء يا كوري. وهذا ليس بالطريق الآمن".

قلت له "مع السلامة". وأنهيت المكاملة، وعدت ثانية إلى التقرير *في النهاية إذاً*.

أما كيت فتحدثت إلى جاك لفترة أطول، وقرأت له الخبر القصير حول مقتل السيد ليبويتز في فرانكفورت، ثم تحدثا قليلاً قبل أن تنهي المكالمة وتقول لي "الأمر يصبح مخيفاً بمرور الوقت".

رفعت رأسي عن لوحة المفاتيح وقلت "يذكرني الأمر بحلقات إكس فايلز، حيث سمكة سكالي الذهبية تحاول خطفها".

أغلب الظن أن الآنسة مايفيلد قد اعتقدت أنني أسخر من مكتب التحقيقات الفيدرالية على نحو غير مباشر، ولذا فقد عزفت عن الابتسام.

فعدنا إلى أعمالنا مرة أخرى *في النهاية إذاً*، ولكن الهواتف كانت ترن في أرجاء المكان بأسره، بالإضافة إلى رسائل الفاكس. وكانت شاشات الحاسوب متوهجة، والتلكسات تفعل أفعالها، والموظفون يروحون ويجيئون وهم يضعون المزيد من تلك الأشياء فوق مكاتب

الموظفين، وما إلى ذلك. كان ذاك بحق هو المركز العصبي؛ الدماغ الإلكتروني لعملية واسعة النطاق. ولسوء الحظ، لم يكن بوسع العقول البشرية في هذه الغرفة أن تتعامل مع كل هذا بالسرعة الكافية، أو أن تفصل بين ما هو مفيد وما هو غير مفيد.

وقفت وقلت لكيت "سأذهب لأبحث عن جابي. أتمانعين لو بقيتِ هنا فلا تفوتنا مكالمة السيدة هامبريشت؟"

"بالتأكيد. وعن ماذا ستسألها؟"

"لا أعرف بالتحديد، فقط حاولي إبقاءها في حالة مزاجية لطيفة، وأرسلي أحدهم في طلبي".

"حسناً".

تركت المركز، وذهبت صوب غرف الاستجواب حيث وجدت جابي في الرواق يتحدث إلى بعض التحريين من رجال مديرية شرطة نيويورك/وحدة مكافحة الإرهاب. فلما رآني انفصل عن الجمع وتوجّه نحوي، فيما كان هناك سيل متواصل من التحريين يخرجون من المصاعد أو يدخلون إليها وهم يجرّون أنماطاً شرق أوسطية، وقال جابي "أوصلتك مذكرتي؟"

"نعم، شكراً لك".

"بالمناسبة، لقد رأيت صورتك في الجريدة، وكذلك فعل كل من سألتهم اليوم".

تجاهلت هذا التعليق، وقلت لجابي "هناك الكثير من العرب هنا...".

"اتفقنا".

"أما من جديد؟"

"في الواقع، نعم. لقد اتصلت بالعاصمة؛ أعني ضباط المنطقة وليس المكتب. وعرفت أن السيد خليل لم تكن لديه فكرة عمّا إذا كانوا سيحضرونه إلى واشنطن أو إلى نيويورك. ثم سألت عن أي حالات قتل أو إختفاء بين سائقي سيارات الأجرة ممن ينتمون إلى دول الشرق الأوسط".

"ثم؟"

"هناك بلاغ واحد عن شخص مفقود. رجل يدعى داوود فيصل، سائق سيارة أجرة من جنسية أسد خليل. ولقد فُقد يوم السبت".

"ربما ذهب ليغيّر اسمه".

كان جابي قد تعلم بالفعل تجاهل تعليقاتي، فتابع قائلاً "لقد تحدثت إلى زوجته - بالعربية بالطبع - وقالت الزوجة إن زوجها قد ذهب إلى ديولز ليقوم بتوصيلة ما،

ولم يعد من حينها. ألا يبدو هذا مألوفاَ؟"

فكرت في الأمر، وبالضبط كما كان يفكر جابي، فكرت أن هذا السائق قد تم اختياره ليأخذ أسد خليل في حال كانت جهة وصوله هي واشنطن العاصمة. لدى نقطة ما، كانت المنظمة التي يتبعها خليل، سواء كانت الاستخبارات أو أي مجموعة متطرفة، تعرف أن ابنها ذلك سيصل إلى نيويورك. ولكن داوود فيصل كان يعرف أكثر مما ينبغي بالفعل، ولذا راقبوه على طول الخط على أمل أن يختطفوه ويحتجزوه حتى يتم الانتهاء من المهمة. فقلت لجابي "تفكير جيد، ولكن كيف نستفيد من هذه المعلومة؟"

"لا أدري فقط نقطة ميتة أخرى. ولكنها تشير إلى عملية متقنة ومخططة على نحو جيد. فليس هناك سفارة لدولة أسد خليل في هذه المنطقة، ولكن هناك ممثلون عن دولته يعملون في السفارة السورية، وهم من الأنصار السياسيين لقائده. كل العرب متشابهون، أليسوا كذلك؟ إن الاستخبارات المركزية والمكتب الفيدرالي يعلمان بالأمر، إلا أنهما يسمحان باستمراريته، فذلك يكفل لهم بعض الأشخاص لمراقبتهم. ولكن يبدو أن أحدهم لم يكن يقوم بالمراقبة على نحو جيد يوم الجمعة عندما ذهب أحدهم إلى بيت فيصل وهو يحمل حقيبة سوداء، وفق ما قالته السيدة فيصل. كما قالت السيدة جبّار إن زائر مساء يوم الجمعة كان يحمل حقيبة سوداء، وكان زوجها يبدو قلقاً. الأمر متسق تماماً، لكنها بطبيعتها أخبار قديمة".

"نعم، ولكن - كما قلت - إنها أخبار توضح أن هناك عملية منظمة، وأن هناك من يتعاون في تنفيذها هنا، داخل البلاد".

"وهذه أيضاً أخبار قديمة".

"صحيح، ولكن دعني أسألك سؤالاً بصفتك عربياً، هل تستطيع أن تفكر كما يفكر هذا الرجل؟ هل تستطيع تخمين ما يسعى إليه هذا الأخرق؟"

راح جابريل يفكر في السؤال الخاطئ من الناحية السياسية ثم أجاب "حسناً، فكِّر في ما لم يفعله؛ إنه لم يتسلل إلى هذا البلد متنكراً، بل لقد دخل البلد على نفقتنا، وبأكثر من طريقة".

"هذا صحيح. أكمل".

"إنه يلقي بروث الجمال في وجوهنا؛ يسخر منا، ويستمتع بهذا. إنه، كيف أقول هذا؟ إنه يجعل من الأمر لعبة، في الحقيقة، إنه يضيق الخناق على نفسه في حال فكرت في الأمر".

"فكرت به بالفعل. ولكن لماذا؟"

"حسناً، الأمر يتعلق بطبيعة العرب". ثم ابتسم وأضاف "إنه ذلك الشعور بالدونية تجاه الغرب. يزرع المتطرفون القنابل على متن الطائرات، وأشياء كهذه. ولكنهم يعرفون أن هذا أمر لا يتسم بالشجاعة، ومن ثم يأتون برجل يود أن يُري الكفار كم هم شجعان هؤلاء المجاهدون".

"المجا... ماذا؟"

"المقاتلون الإسلاميون. هناك تقليد قديم للفارس العربي، مثل ذلك في الغرب الأميركي؛ رجل خبيث ونحيل ابن جنية - كما يطلق عليه العرب - فيمتطي الفرس وحده ويقود جيشاً بأسره".

"بلى، ولكن ما الهدف؟"

"لا أعرف، كنت فقط أحاول أن أشرح لك من هو هذا الشخص".

"حسناً، ولكن ماذا يكون عادة هدف مثل هذا الرجل؟"

"أن يقتل نحو ثلاثمئة وعشرين شخصاً، والبقية في الطريق".

"نعم، عمل جيد! وكيف حال فادي؟"

"اسمه الآن ماريا وهو يقوم بالتنظيف في دار عبادة سانت باتريك". قال جابي وابتسم.

"أراك في ما بعد إذاً". قلت له وابتعدت فيما كان جابي يقول "إن خليلاً يعد العدة الآن للضربة الكبرى".

استدرت نحوه، فقال جابي "لن أندهش في حال ظهر كنادل في حفلة رئاسية لجمع التبرعات. ففي قلب هذا الرجل كراهية بالغة لشخص ما يظن أنه أضره أشد الضرر، أو أضر بالإسلام، أو ببلده. إنه يسعى إلى مواجهة شخصية".

"حسناً".

"إن العربي قد يُقدم على أفعال عظيمة وبالغة الشجاعة في سبيل الله، وأحياناً في سبيل وطنه. ولكنه قلما يفعل ذلك لهدف معنوي، كفلسفة سياسية، أو حتى لقائد سياسي. فهم عادة لا يثقون في قادتهم".

"يجعلني هذا أشعر وكأنني عربي".

"ولكن ثمة شيء آخر يدفع العربي بحق. وهو الثأر الشخصي. أتعرف ماذا أعني؟ شأنهم شأن أهل صقلية".

"أعرف ما تعنيه".

"فلو أنك قتلت ابني أو أبي، أو عاشرت ابنتي أو زوجتي، فسأطاردك حتى آخر الأرض، حتى لو أفنيت في هذا عمري كله. بل وسأقتل كل من تعرفهم أو من تتصل بهم حتى أصل إليك".

"لقد كنت أظن أن رئيس زوجتي في عملها يعاشرها، فأرسلت لها قنينة شراب".

"للعرب طبيعة مختلفة. هل تعي ما أقول؟"

"نعم، فهمتك. ربما في الأمر نزاع دموي أو ثأر شخصي".

"نعم، قد يكون الأمر كذلك. ومن ناحية أخرى، لا يعبأ خليل بموته أو نجاته وهو يحاول الانتقام في ذلك النزاع الدموي. فالمهم هو شرف المحاولة؛ فإذا مات، فسيكون بذلك قد انتقم وسيكون مصيره الجنة".

"سأساعده إذاَ كي يصل إلى هناك".

قال جابي وهو يضحك "إذا حدث وتلاقيتما، فإن آخر من سيتعرف عليه الثاني هو من سيدخل الجنة".

ثم ذهبت، وأنا أتساءل لماذا يرى الجميع أمر ظهور صورتي في الصحف مضحكاً بهذا الشكل؟!

عندما عدت إلى المركز، احتسيت قدحاً جديداً من القهوة الطازجة عند منضدة القهوة الموضوعة هناك، بالإضافة إلى الفطائر وقطع الخبز، والكيك، والحلوى، ولكن - ثانية - لم تكن هناك فطائر محلاة. هل هذا نوع من التعاون بين الوكالات؟

على أي حال، شرعت أفكر في ما قاله جابي. وبينما كنت أفكر، حضرت كيت وقالت "السيدة روز هامبريشت على الهاتف، ولقد أوضحت لها من أنت".

فأسرعت بوضع كوب قهوتي على المنضدة، وهرعت إلى مكتبي، فالتقطت السماعة وقلت "سيدة هامبريشت، هذا جون كوري من مكتب التحقيقات الفيدرالية، القوات الخاصة".

أجابني صوت لا يخلو من ثقافة واضحة، وقالت "وما دخلكم بالأمر يا سيد كوري؟"

جلست كيت على مقعدها قبالتي، ورفعت سماعة هاتفها فيما كنت أجيب "أود أولاً أن أتقدم بخالص عزائي لك".

"شكراً لك".

"لقد كلفت مهمة القيام ببعض المهام الخاصة بمتابعة حادثة وفاة زوجك".

"تقصد حادثة مقتل زوجي".

"نعم يا سيدتي، وأنا متأكد من أنكِ سئمتِ وتعبتِ من كثرة الأسئلة".

"بل سأجيب عن كافة الأسئلة حتى تعثروا على القاتل".

"شكراً لتعاونك".

كم ستندهش من عدد الزوجات اللواتي لن يعبأن إذا ما ذهب قاتلو أزواجهن دونما عقاب، ناهيك عن الزوجات اللواتي وددن في حقيقة الأمر لو توجّهن بالشكر إلى قاتلي أزواجهن.

لكنّ السيدة هامبريشت بدت لي أرملة حزينة بحق لفقدانها زوجها، ومن ثم قد ينجح هذا الأمر. فبدأت غرضي من المكالمة وقلت "تظهر سجلاتي أنه قد تم استجوابك من قِبل الفيدراليين، والقوات الجوية، والشرطة البريطانية، أليس كذلك؟"

"نعم، ومن قِبل استخبارات القوات الجوية، وجهاز الأمن البريطاني، ودائرة الاستخبارات البريطانية السرية، واستخباراتنا المركزية".

نظرت إلى كيت، وتلاقت أعيننا في فهم، وقلت لمحدثتي "يبدو إذاً أن البعض يرون أن هناك دافعاً سياسياً وراء جريمة القتل تلك".

"هذا ما أظنه، فلا أحد يخبرني بما يفكرون فيه".

"ولكن زوجك لم يكن مضطلعاً بالسياسة، أو عمل الاستخبارات وفقاً لما ورد في ملف عمله".

"هذا صحيح. لقد كان طياراً، ثم قائداً، وانتهى كضابط أركان".

كنت أحاول التطرق إلى المعلومات المحذوفة من دون أن أثير خوفها أو حذرها، فقلت على النقيض مما كنت أفكر فيه "لقد بدأنا نفكر أن حادثة القتل قد تمت على نحو عشوائي، أي أن زوجك كان مستهدفاً من قِبل مجموعة متطرفة فقط بسبب زيه الأميركي العسكري".

"هذا هراء".

كنت أوافقها هذا الرأي، فسألتها "هل لديكِ أي فكرة في هذا الشأن قد تجعلنا نفكر أن زوجك كان مستهدفاً من قِبل مجموعة متطرفة بعينها؟"

ساد الصمت، ثم قالت "حسناً، لقد كان من بين الأسباب المقترحة أن اشتراكه في حرب الخليج قد جعل منه هدفاً للمتطرفين، أتعرف بهذا الأمر؟"

"كلا يا سيدتي".

فراحت تشرح لي، ثم سألتها "أي أنه من المحتمل أن يكون مقتل زوجك نوعاً من الانتقام لدوره في حرب الخليج؟"

"نعم، هذا محتمل. ولكن كان هناك العديد من الطيارين في هذه الحرب؛ الآلاف منهم. ولم يكن زوجي سوى ملازم وقتها، لذلك لا أستطيع أبداً فهم لماذا اختاروه هو بالتحديد لهذا الانتقام".

"ولكن البعض قد اقترح عليكِ أن الأمر كان هكذا بالفعل".

"نعم، البعض فعل ذلك".

"ولكنكِ لستِ متأكدة".

"كلا". ثم صمتت لبرهة، وتركت لها الفرصة لتفكر في ما تعتقده هي. وأخيراً قالت "ثم مع موت كل من تيري وجيل وايكليف، من يظن أن مقتل زوجي كان عشوائياً، أو أن له صلة بحرب الخليج؟"

"ألم يكن تيري من المشتركين في حرب الخليج؟" سألتها وأنا أنظر إلى كيت، التي هزت كتفيها، ثم أدرفت وأنا أحاول ألا أظهر جهلي بهذه المعلومات "أتظنين أن لموت آل وايكليف علاقة بمقتل زوجك؟"

"ربما".

إن كانت هي تظن هذا، فهذا حالي أيضاً. ولكنها كانت تظن أنني على علم بالأمر، وهذا الجزء ليس صحيحاً.

“هل يمكنك إضافة أي شيء لما نعرفه نحن عن موت آل وايكليف؟”

“ليس أكثر مما ذُكر في الصحف”.

“وأي قصة قرأتِ؟”

“أي قصة؟ إير فورس تايمز، كما ذكرت واشنطن بوست الحادث بالطبع. لماذا تسأل؟”

نظرت إلى كيت التي كانت بالفعل قد عمدت إلى الحاسوب الخاص بها وأناملها تضغط على أزرار لوحة المفاتيح، فيما أجبت أنا السيدة هامبريشت “لم تكن بعض القصص صحيحة. ولكن أخبريني كيف علمت بخبر وفاتهما؟”

“أخبرتني ابنتهما سو؛ اتصلت بي بالأمس”. ثم أضافت “يبدو أنهما قد قتلا في وقت ما يوم الأحد”.

اعتدلت في مقعدي فور سماع كلمة القتل تلك. هل قُتلا إذاً؟ وكانت كيت قد عثرت على شيء ما بالفعل، فقلت للسيدة هامبريشت “وهل تحدث إليكِ أي من الفيدراليين أو رجال القوات الجوية حول هذا الحادث؟”

“كلا، أنت أول من يفعل ذلك”.

كانت كيت تقرأ على شاشة الحاسوب معلومات تتعلق بما طبعته، وأومأت إليها بصبرٍ نافد كي تعطيني إيّاها، إلا أنها ظلّت تقرأ، فسألت السيدة هامبريشت “وهل ذكرتْ لكِ ابنتهما ما تظنه أو تشتبه فيه بشأن مقتل والديها؟”

“حسناً، لقد كانت في حالة ذهول كما يمكن أن تتوقع بالطبع. وقالت إن الأمر يبدو كحادث سرقة، ولكنني شعرت أنها تشك في صحة هذا الأمر”. ثم أضافت “كما أن مدبرة منزلهم قد قتلت في اليوم ذاته”.

كنت قد استنفدت ما لديّ من أسئلة عامة، وأخيراً ناولتني كيت الورقة المطبوعة، فقلت للسيدة هامبريشت “هلا انتظرتِ لحظة من فضلك”. ووضعتها على الانتظار.

قالت كيت “أظننا حصلنا على شيء جديد”.

رحت أقرأ الأخبار التي وردت على شبكة الإنترنت من قِبل واشنطن بوست بسرعة، وعرفت أن تيرانس وايكليف كان جنرالاً في القوات الجوية، وكان يعمل في وزارة الدفاع. ولقد تم وصف الحادثة بأنها جريمة قتل على نحو بيّن، حيث عثر مساعد الجنرال على الجنرال وزوجته ومدبرة المنزل قتلى بالرصاص في منزل آل وايكليف في مدينة كابيتون هِل في وقت متأخر من صباح يوم الاثنين، وكان القلق قد ساور هذا المساعد عندما لم يجبه رئيسه لدى اتصاله به عبر الهاتف أو عبر جهاز النداء الآلي. وكانت هناك إشارة إلى اقتحام المنزل عنوة؛ حيث كانت سلسلة الباب قد انفكت من عضادتها، وبدا أن الغرض من الاقتحام كان السرقة، خاصة مع اختفاء الأموال والمقتنيات الثمينة التي كانت في المنزل. كان الجنرال يرتدي زيه الرسمي، ويبدو أنه كان قد عاد لتوه من دار العبادة، ولقد وقعت جريمتا القتل والسرقة صباح يوم الأحد. والشرطة تحقق في الحادث.

نظرت إلى كيت وقلت "ما الصلة بين الجنرال وايكليف والعقيد هامبريشت؟"

"لا أعرف، لكنني سأبحث في الأمر".

"حسناً". قلت لكيت ثم عدت إلى السيدة هامبريشت، وقلت "معذرة، وزارة الدفاع كانت معي على الخط الآخر". كانت تلك ضربة جيدة يا كوري! ثم قررت أن أكون مباشراً وصريحاً معها لنرى ماذا سيحدث، فقلت لها "سيدة هامبريشت، أود أن أكون صريحاً معك. في الحقيقة، أمامي ملف زوجك الشخصي هنا، وهناك بعض المعلومات المحذوفة، والتي أجد صعوبة في الحصول عليها، وأريد معرفتها بحق؛ أنا أحاول معرفة من قتل زوجك، ولماذا، فهلاّ ساعدتني؟"

ساد صمت طويل كنت أعرف أنه لن ينتهي، فقلت كي أحثها "أرجوكِ". ثم رفعت عينيّ إلى كيت فأومأت لي في استحسان لما أفعله.

أخيراً، أجابتني السيدة هامبريشت قائلة "لقد شارك زوجي، وكذلك الجنرال وايكليف، في إحدى العمليات العسكرية؛ مهمة قصف إحدى المواقع... كيف لا تعرف هذا؟"

ربما لم أكن أعرف من قبل، ولكنني في هذه اللحظة أصبحت أعرف على نحو مفاجئ، فما قاله لي جابي مؤخراً كان لا يزال يدور في رأسي، وعندما ذكرت روز هامبريشت عبارة مهمة قصف، اتسقت كل الأشياء في ذهني، وكأنه مفتاح فتح خمسة عشر قفلاً دفعة واحدة وانفتح الباب.

فقلت "لعلكِ تقصدين ...".

"نعم، ألا ترى أن لهذا علاقة؟"

"بلى". ثم نظرت نحو كيت والتي بدت لي وكأنها تحدّق في الفراغ، ومستغرقة تماماً في أفكارها.

ثم مضت السيدة هامبريشت تخبرني "وقد تكون هناك صلة بحادثة مطار كنيدي المأساوية؛ فهي حصلت في الذكرى السنوية لتلك العملية، خاصة إذا ما أخذنا في عين الاعتبار ما حدث لآل وايكليف".

تنهدت في عمق، وأجبتها "لست متأكداً من هذا، ولكن أخبريني، هل تعلمين ما إذا كان الأذى قد لحق بأي ممن كانوا مشتركين في تلك المهمة؟"

"هناك العشرات ممن اشتركوا في تلك المهمة، ولا أستطيع معرفة أخبارهم جميعاً".

فكرت للحظة، ثم قلت "ولكن ماذا عن أولئك الذين كانوا في وحدة زوجك؟"

"لو أنك تعني السرب، فأظنهم كانوا خمس عشرة أو ست عشرة مقاتلة".

"هل لديكِ أي معلومات عمّا إذا كان أي منهم قد لحق به السوء على نحو يثير الريبة؟"

"لا أظن ذلك. أنا أعرف أن ستيفن كوكس قد قتل في الخليج، ولكنني لا أعرف شيئاً عن الآخرين. بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا في فريق زوجي في تلك المهمة، أعرف أنهم قد ظلوا على اتصال، ولكنني لا أعرف شيئاً عن بقية أفراد السرب".

كنت أحاول أن أتذكر تلك المصطلحات التي يستخدمونها في القوات الجوية: مقاتلات، وأقسام، وأسراب، وأجنحة جوية، وما إلى ذلك، بيد أنني لم أستطع، فقلت لها "أرجو أن تغفري لي جهلي بالأمر، ولكن كم عدد المقاتلات والرجال في السرب الواحد؟"

"يختلف هذا باختلاف المهمة، ولكن بشكل عام، عادة يكون هناك أربع أو خمس مقاتلات في الرحلة، وربما ثماني عشرة أو عشرين في السرب".

"وكم كان عدد المقاتلات في رحلة زوجك عام 1986؟"

"أربع".

"والرجال، كانوا ثمانية، أليس كذلك؟"

"هذا صحيح".

"وهؤلاء الرجال...".

هنا تدخلت كيت في حديث الهاتف ذلك وقالت "سيدة هامبريشت، معكِ كيت مايفيلد مرة أخرى، وكنت أتساءل أيضاً عن تلك الصلة بين الأحداث. فلتخبرينا على نحو واضح بما تفكرين به حتى يتسنى لنا النفاذ إلى قلب الأمور مباشرة؟"

"لقد قلت ما يكفي".

لكنني لم أعتقد أنها بالفعل قد قالت كل ما لديها، وكذلك كيت، فقالت "سيدتي نحن نحاول المساعدة في حل لغز مقتل زوجك. وأنا أدرك أنكِ - كزوجة رجل عسكري – تتوخين الحذر الأمني، وكذلك نحن. أؤكد لكِ أن هذه هي المرة الوحيدة التي بوسعك التحدث فيها بحرية. فهل تقبلين أن نأتي إليكِ في آن أربور لنتحدث معكِ شخصياً؟"

مرة أخرى صمتت روز هامبريشت قبل أن ترفض اقتراح كيت باقتضاب بقولها "كلا".

ثم ساد صمت مرة أخرى، ولم ينطق أي منا بكلمة حتى أردفت السيدة هامبريشت قائلة "حسناً، المهمة التي ذهبت فيها مقاتلات زوجي الأربع، وكانت من طراز F-III، كانت لقصف مجمعاً عسكرياً في بلد عربي".

نظرت إلى كيت التي كانت قد عادت لتدق فوق لوحة المفاتيح خاصتها، وهي تنظر إلى الشاشة.

"عندما قُتل زوجي، ظننت أنه ربما للأمر علاقة بتلك المهمة، ولكن القوات الجوية أكدت لي أن أسماء كل الرجال الذين اشتركوا في هذا القصف محفوظة بمنتهى السرية طوال الوقت، ولا يمكن الوصول إليها بأي حال. فقبلت هذا، ولكنني فكرت أنه ربما تحدث أي من هؤلاء الرجال عن الأمر بلا تحفظ، أو ربما، لا

أعرف. ما حدث هو أنني أبعدت الفكرة عن رأسي حتى يوم أمس عندما علمت بأمر مقتل آل وايكليف. ربما كانت مجرد مصادفة".

ربما، ولكنني لم أرَ أبداً أن في الأمر مصادفة، فقلت لها "إذاً من الرجال الثمانية الذين قصفوا ... ما اسمها؟"

"... أحدهم قُتل في الخليج، ثم كان مقتل زوجي، وكذلك تيري وايكليف".

ألقيت نظرة على كيت مرة أخرى حيث كانت تقوم بطباعة بعض المعلومات، وسألت السيدة هامبريشت "من هم الرجال الخمسة الآخرين الذين كانوا في تلك المهمة؟"

"لن أخبرك بالطبع، لن أخبرك بهذا أبداً".

كان ذلك رفضاً قاطعاً، ومن ثم لم تكن هناك فائدة من المحاولة معها في هذا الشأن، ولكنني سألتها على الرغم من ذلك "هل لكِ - على الأقل - أن تخبريني إن كانوا بعد على قيد الحياة؟"

"إنهم يتحدثون إلى بعضهم البعض في الذكرى السنوية لتلك المهمة. ربما ليس الكل، ولكن تيري اتصل بي بعدها وأخبرني أن كل من تحدث إليهم كانوا بخير ويرسلون إليّ تحياتهم ما عدا أحدهم، فهو يعاني من مرض عضال".

نظرت وكيت إلى بعضنا البعض، ثم تحدثت كيت عبر الهاتف قائلة "سيدة هامبريشت، هل لكِ أن تعطيني رقم هاتف يمكنني من خلاله الوصول إلى أي من أفراد آل وايكليف؟"

"ربما من الأفضل لو اتصلتم بوزارة الدفاع الأميركية وسألتِ عن مكتب تيري. ستجدين هناك من يجيب عن كافة تساؤلاتك".

"لكنني كنت أفضل الحديث إلى أحد أفراد العائلة".

"فلتطلبي هذا إذاً من وزارة الدفاع".

كان من الواضح أن لدى السيدة هامبريشت بروتوكولاتها الخاصة البالغة الدقة، ومن الأرجح أنها قد ندمت على هذه المحادثة الهاتفية، حيث إن أقل ما يعرف عن العسكريين وأسرهم هو التعصب للعشائرية، إلا أن السيدة هامبريشت بدت وكأن لها آراء أخرى حول الولاء للعشيرة، ولقد خطر لها أنه من المفترض أن يكون هذا الولاء أمراً متبادلاً. ولم يكن لديّ أدنى شك أن رجال القوات الجوية والهيئات الحكومية قد خدعوها، وكانت هي مدركة لتلك الحقيقة؛ أو على الأقل لديها شكوكها.

كنت قد بدأت أشعر أنني لن أصل معها إلى أبعد من هذا، فقلت لها "شكراً لكِ يا سيدتي لتعاونك معنا، وأؤكد لكِ أننا نفعل ما في وسعنا كي نقدم قاتل زوجك للعدالة".

"لقد سبق وأكد لي الكثيرون هذا الأمر، ولقد مضت بالفعل ثلاثة شهور".

ولأنني أحياناً تنتابني نوبات من الإحساس، ومن ثم أبتعد عن تلك المواقف الجياشة ما إن أشم رائحتها، قلت "ولكنني أظن أننا قد اقتربنا بالفعل". ومرة أخرى نظرت إلى كيت، ووجدتها تبتسم لي ابتسامة حانية.

تنهدت السيدة هامبريشت بعمق حتى إنني سمعت تلك التنهيدة عبر الهاتف، ثم شعرت أن السيدة قد بدأت تفقد السيطرة على نفسها، ثم قالت "أسأل الله أن تكون محقاً. فكم أفتقده".

لم أجبها على هذا، ولكنني تساءلت: ترى من سيفتقدني عندما تنتهي حياتي؟

ثم استعادت السيدة هامبريشت رباطة جأشها وقالت "لقد قتلوه بالفأس".

"نعم، أعرف هذا! سأظل على اتصال بأي حال".

"شكراً لك".

ثم وضعت سماعة الهاتف.

مكثت كيت صامتة لبرهة قبل أن تقول "مسكينة هي تلك المرأة".

ناهيك عن المسكين ليام هامبريشت الذي قُطّع جسده، إلا أن النساء يتناولن تلك الأمور على نحو مختلف.

ثم تنهدت بدوري قبل أن أستعيد ذلك الرجل القوي المتماسك بداخلي مرة أخرى، وقلت "حسناً، أعتقد أننا نعرف الآن ما هي المعلومات السرية للغاية المحذوفة من قِبل السلطة التنفيذية ووزارة الدفاع. ولم يكن الأمر يتعلق بأي هراء نووي كما تفضل أحدهم بإخبار رئيسنا الموقر".

تركت الأمر لكيت كي تستنتج أنه ربما كان جاك كوينج هو من يخفي عنا المعلومات. أما كيت فلم تكن لتخض في هذا الأمر، ومن ثم اكتفت بأن تقول لي "لقد قمت بعمل جيد".

"وأنتِ كذلك، ماذا وجدتِ على شبكة الإنترنت؟"

فناولتني كيت بعض الأوراق التي قامت بطباعتها، وأخذت أتصفحها وقد لاحظت أن معظمها قد ورد على موقعي نيويورك تايمز وواشنطن بوست، ويعود تاريخها جميعاً إلى تاريخ عملية القصف التي تحدثت عنها السيدة هامبريشت.

نظرت إلى كيت وقلت لها "لقد بدأت الأشياء تتضح، أليس كذلك؟"

فأومأت موافقة وقالت "الأشياء كانت واضحة منذ البداية، ولكننا لسنا بالذكاء الذي نظن أننا نمتلكه".

"ولا أي من هؤلاء الأشخاص هنا، ولكن الحلول تبدو دائماً سهلة عندما نتوصل إليها. كما أن الأعداء ليسوا وحدهم من يقومون بالتمويه هنا".

لم تعلق كيت على ما لديّ من جنون الارتياب، إلا أنها قالت "على كل حال، هناك خمسة رجال في مكان ما حياتهم مهددة بالخطر".

"إن اليوم هو الخميس، وأشك أن الخمسة ما زالوا على قيد الحياة".

الفصل الثالث والأربعون

استيقظ أسد خليل من غفوته القصيرة، ونظر إلى خارج كوة الطائرة النفاثة. كان الظلام يعم معظم أرجاء الأرض بالأسفل، بيد أنه لاحظ بعض المساحات الصغيرة المنيرة، وانتابه إحساس أن الطائرة كانت تهبط. فلما نظر إلى ساعته، وجدها لا تزال الثالثة وست عشرة دقيقة من بعد منتصف الليل بتوقيت نيويورك. ولو أنهم كانوا يحلّقون وفق الخطة، فيعني هذا أنهم سيهبطون في دنفير في غضون عشرين دقيقة. لكنه لم يكن يقصد دنفير على أي حال.

فالتقط خليل سماعة الهاتف، وباستخدام بطاقة الائتمان المفعّلة خاصته، اتصل برقم كان يحفظه في ذاكرته عن ظهر قلب. وبعد ثلاث رنات، أتاه صوت امرأة عند الناحية الأخرى، بدت وكأن رنين الهاتف قد أيقظها من نومها، كما كان متوقعاً بالفعل في هذه الساعة "ألو؟ ألو؟ ألو؟" لم يرد خليل، ثم أنهى المكالمة.

كانت تلك هي السيدة روبرت كالوم، زوجة العقيد بوب كالوم، وقد كانت نائمة في فراشها في منزلها في كولورادو سبرينغز، ومن ثم افترض خليل أن السلطات لم تكن في بيتها، مما يعني أنهم ليسوا بانتظاره هناك، وهو ما أكده له بوريس ومالك من قبل حيث قالا له إن الأميركيين سيأخِذون ضحاياهم المتوقعين إلى مكان آمن في حال خططت السلطات أن تنصب له فخًّا.

بعد ذلك، رفع خليل سماعة الهاتف الداخلي، وضغط على الزر، فأتاه صوت مساعد الطيار عبر سماعة رأسه وهو يقول "نعم يا سيدي".

"لقد أجريت مكالمة هاتفية، وأعتقد أنه يجب أن نجري تعديلاً على الخطة، حيث يجب عليّ الهبوط في كولورادو سبرينغز".

"لا توجد مشكلة سيد بيرلمان، فهي تبعد خمسة وسبعين ميلاً إلى الجنوب من دنفير، أي نحو عشر دقائق أخرى بالطائرة".

كان خليل يعرف هذا بالفعل، فقد أكّد له بوريس أن إجراء التغييرات أثناء الرحلات الجوية ليس بالأمر الصعب، بل وقال له "مقابل المال الذي تدفعه لك خزينة دولتك لهذه الرحلات، سيحلقون بك في دوائر في حال رغبت في ذلك".

ثم قال مساعد الطيار "أفترض أنك تود الهبوط في المطار الرئيسي، أليس كذلك؟"

"نعم".

"سأخطرهم باللاسلكي بتغيّر الخطة يا سيدي. لا بأس".

قال أسد خليل "شكراً لك". أعاد السماعة إلى مكانها، ثم وقف، وسحب حقيبته السوداء، واتجه ناحية الحمام الصغير. وبعد أن استخدم الحمام، أخرج علبة أدوات السفر الصغيرة من حقيبته، فحلق ذقنه، ونظف أسنانه، واضعاً في ذهنه نصيحة بوريس بشأن هوس الأميركيين بالنظافة.

بعد ذلك، عمد خليل إلى فحص نفسه بدقة في المرآة المضيئة، فوجد أنه لا تزال هناك شظية من العظام في شعره. فغسل يديه ووجهه مرة أخرى، وحاول أن يزيل آثار ساذرويت عن ربطة عنقه وقميصه، إلا أن السيد ساذرويت، أو بعض أجزائه بدت مصرة على مصاحبته في رحلته تلك، أضحكت الفكرة خليل. ثم وجد ربطة عنق أخرى في حقيبته السوداء فوضعها بدلاً من تلك.

مرة أخرى، نظر خليل إلى حقيبته السوداء، وأخرج المسدسين، وبدّل مخزنيها بمخزنين محمّلين حتى آخرهما، وكان قد أخذهما من هاندري وجورمان، ثم ضبط المسدسين على وضعية الأمان، وأعادهما إلى الحقيبة السوداء.

بعد أن انتهى، ترك خليل الحمام، ووضع الحقيبة فوق الممر بجوار مقعده، ثم ذهب إلى منضدة الشراب المثبت عليها مشغل أسطوانات ولوحة مفاتيح. ولكنّ خليلاً كان يشك أنه سيجد هنا أيًّا من أنواع الموسيقى التي يحب الاستماع إليها، ثم وجد علبة من عصير البرتقال في الثلاجة الصغيرة المثبتة على منضدة الشراب، وراح يفحص الأطعمة الموجودة داخل الحاوية البلاستيكية الشفافة، فالتقط قطعة من الخبز وهو يشك أن هذا هو الكعك الذي أشار إليه قائد الطائرة. لقد كان بوريس من الحكمة بحيث أطلعه على حقيقة هذا الكعك، فقال "إنه منتج يهودي، ولكن كل الأميركيين يأكلونه. فأثناء رحلتك، وأنت متنكر بشخصية اليهودي، تأكد من ألا تخطئ هذا النوع من الكعك. وربما تجده على شكل شرائح مغطاة بالزبدة أو المربى. ولأنه يهودي الصنع فليس في مكوناته أي من الدهن أو لحم الخنزير... وهو ما يتسق وعقيدتك أيضاً".

كان الشيء الوحيد الذي يأسف خليل لأجله في ما يتعلق بمصير بوريس هو أن مالك لم يسمح له بقتل هذا الروسي بنفسه قبل أن يبدأ رحلة جهاده، حيث أوضح له بقوله "نحن نحتاج إلى هذا الروسي في قيادة العملية أثناء غيابك، وبالطبع لن نحتفظ به لأجلك حتى تقوم بقتله بعد عودتك، بل سنتخلص منه ما إن نتأكد من أنك قد تركت أميركا بسلام".

خطر لخليل أنهم ربما يحتفظون ببوريس لأن للرجل قيمة ما، بيد أن مالك أكّد له أن الروسي يعرف بالفعل أكثر مما يجب، ولا مناص من إسكاته إلى الأبد. ولكنّ خليلاً كان دائم التساؤل؛ لماذا هو - أسد خليل - الذي احتمل هذا الكافر، يُحرم من متعة قطع رقبته؟ إلا أنه أبعد الفكرة عن رأسه فيما كان يعود إلى مقعده.

ما إن استقر فوق المقعد حتى بدأ يأكل الكعك الذي بدا له قريب الطعم من الفطير الخالي من الخميرة، وشرب عصير البرتقال الذي كان يشبه طعم العلبة المعدنية. وكان احتكاكه المحدود بالطعام الأميركي قد علمه كيف أن الأميركيين لا يتذوقون الطعام، أو أنهم يتمتعون بقدرة عالية على قبول الطعم الرديء.

شعر خليل بالطائرة تزداد سرعتها لدى الهبوط، ولاحظ أنها تجنح إلى جهة اليسار. ولما نظر من نافذته، رأى مساحة هائلة من الضوء افترض أنها مدينة دنفير. وبعد المدينة كان يرتفع جدار من الجبال البيضاء، وقد بدت واضحة جلية في ضوء القمر.

قامت الطائرة بعدة مناورات أخرى قبل أن يطقطق جهاز النداء الداخلي، وانبعث صوت مساعد الطيار في القمرة وهو يقول ''سيد بيرلمان، لقد شرعنا في الهبوط في مطار كولورادو سبرينغز، من فضلك، اربط حزام مقعدك استعداداً للهبوط. يرجى تأكيد تلقيك الرسالة''.

التقط خليل السماعة، ثم ضغط على الزر وقال ''تلقيت رسالتك''.

''شكراً لك سيدي، سنكون على الأرض في غضون خمس دقائق. السماء صافية، ودرجة الحرارة ست درجات مئوية''.

ربط خليل حزام مقعده، ولم تمضِ بضع دقائق حتى كانت الطائرة عند مدخل المدرج، وفي غضون ثوانٍ كانت الطائرة تمس أرض المدرج الطويل المتسع. وهنا انبعث صوت مساعد الطيار مرة أخرى وهو يقول ''مرحباً بك في كولورادو سبرينغز''.

بالكاد استطاع خليل منع نفسه من أن يصرخ في الرجل كي يصمت، فهو لم يكن يرغب في أن يكون في كولورادو سبرينغز الآن، بل في عاصمة بلاده. ولم يكن يرغب في أن يكون مُرحباً به فوق أي بقعة من بقاع هذه الأرض التي لا دين لها. فكل ما كان يريده هو أن يقتل هؤلاء الذين يستحقون القتل، ثم يعود إلى دياره.

بينما كانت الطائرة تتجه صوب المدرج المخصص للوقوف، أنزل الطيار الفاصل بين القمرتين وقال ''صباح الخير''. إلا أن خليلاً لم يرد عليه.

فقال مساعد الطيار ''سنتابع حتى مكان الوقوف، ثم سنترك لك فرصة النزول من الطائرة قبل أن نعمد إلى إعادة تزويدها بالوقود. هل لديك فكرة كم من الوقت ستحتاج إلى البقاء هنا يا سيدي؟''

''كلا، للأسف. ربما يستغرق الأمر ساعتين، وربما أقل. ولكن من ناحية أخرى، قد يمضي الاجتماع على نحو جيد، ومن ثم ستكون هناك عقود لا بد من توقيعها، وربما نبقى لتناول الفطور. لكنني لن أتأخر عن الساعة التاسعة على أي حال''.

قال مساعد الطيار ''حسناً، لا نزال نسير وفقاً للخطة''. قبل أن يضيف ''نحن في المنطقة المخصصة لشركات الطائرات النفاثة الخاصة يا سيدي. هل سيقابلك أشخاص هنا؟''

''كلا، سأقابلهم في الصالة الرئيسية، وسننتقل منها إلى مكان آخر. أظن أنني سأحتاج إلى توصيلة إلى المحطة الرئيسية''.

''سأرى ماذا يمكنني أن أفعل لأجلك. لا أظن أن في الأمر مشكلة''.

اتجهت الطائرة النفاثة صوب صف من الحظائر الضخمة، فحلّ خليل حزام مقعده، والتقط حقيبته وهو يبقي عينيه على الطيارين. ثم أخرج مسدسيه، وثبتهما في الحزام حول خصره، خلف فخذيه، بحيث تغطيهما سترة بذلته. ثم وقف وأخذ الحقيبة وسار نحو الطيارين، وهناك أحنى ركبتيه حتى يتمكن من النظر عبر زجاج النافذة الأمامية، والنافذتين على جانبي القمرة.

فقال له الطيّار ''ستكون أكثر ارتياحاً في مقعدك يا سيدي''.

"لكنني أرغب في البقاء هنا".

"كما تريد يا سيدي".

راح خليل يمسح المدرج والحظائر بعينيه، وكما كان الحال في مطار لونغ أيلاند، لم يكن هناك ما يثير قلقه، كما بدا له الطياران طبيعيين للغاية.

تباطأت النفاثة حتى توقفت فوق منصة الوقوف، وظهر رجل وامرأة في زي العمل؛ ومرة أخرى لم يلحظ خليل ما قد يدعو إلى الريبة أو الإحساس بالخطر. وحتى لو كانوا في انتظاره، فسيرسل بعضهم إلى الجحيم قبل أن ينالوا منه.

تذكر خليل ذلك اليوم الذي أتى فيه مالك إلى مدرسة التدريب بصحبة المرشد الروحي الذي توجه إلى خليل قائلاً "حتى لو أتممت ولو جزءاً ضئيلاً من جهادك، فتأكد أن لك مكاناً في الجنة. فالله لا يحكم على الناس مثلما يحكمون هم على بعضهم البعض. فهو يرى ما في قلبك، وهو ما لا يراه البشر". ثم أكّد له "إن الله لا يكافئك بعدد الكفار الذين تقتلهم في سبيله، ولكنه يكافئك بعدد الكفار الذين أقسمت في قلبك على قتلهم".

ثم شكر مالك هذا المرشد، وبعد أن ذهب رجل الدين هذا، عمد مالك إلى توضيح ما كان هذا الرجل يقصده، فقال "إن الله يرضى أكثر بكثير عندما تتحول النوايا الحسنة إلى نجاحات عظيمة. حاول أن تقتلهم جميعاً دون أن تعرض نفسك للهلاك".

بينما كان خليل يحدّق خارج نوافذ قمرة القيادة، كان يفكر أنه بوسعه أن يفعل ذلك بحق. كان يشعر أنه اقترب من تحقيق النجاح في مهمته بمعناها الدنيوي. أما من الناحية الروحية، فهو يشعر بالفعل بالرضا عمّا أنجزه.

هنا أوقف الطيار المحركات عن العمل وقال "يمكنك ترك الطائرة الآن يا سيدي".

وقف خليل، ثم تراجع إلى حيث قمرته، فيما كان مساعد الطيار ينهض عن مقعده، ويتجه ناحية باب الخروج الذي فتحه، ثم تقدم خطوة إلى الأمام. وخطا خارج الطائرة، ومدّ يده لخليل لمساعدته في الهبوط. إلا أن خليلاً تجاهل اليد الممدودة، ووقف عند باب الطائرة وهو يشاهد المشهد أمامه. كان المطار مناراً بمصابيح علوية ضخمة، ولم يكن هناك سوى عدد ضئيل من الأفراد في هذه الساعة المتأخرة، حيث كانت الساعة قبيل الثانية من بعد منتصف الليل بتوقيتهم المحلي.

بينما كان خليل يقف عند الباب، كان الطيار لا يزال جالساً على مقعده، وكان خليل يعرف أنه بوسعه أن يهرب الآن في حال أراد ذلك. إلا أنه تذكر ما تلقاه من تدريب، حيث أكدوا له في في عاصمة بلاده أن لدى الأميركيين إجراء تشغيل قياسياً وأنهم لن يستخدموا أبداً قناصاً لقتله، إلا إذا كان محصناً، وشرع يطلق النيران عليهم، وفقط في حال لم يكن لديه رهائن، فهم سيتأكدون أولاً من أنه بمفرده في مكان مفتوح قبل أن يحيط به الرجال المسلحون - أو حتى نساء مسلحات - وعندها سيصيحون به ليرفع يديه ويستسلم. وسيكون كل منهم محتمياً

بسترة واقية من الرصاص، كما هي حاله، حيث يعرف أنه لن ترديه قتيلاً سوى طلقة في رأسه.

كان خليل قد تدرب على هذا الموقف في المعسكر بوجود رجال - وليس نساء - مرتدين زي الشرطة، أو البذلات، أو أي ملابس عسكرية. كانوا جميعاً يتحدثون القليل من الإنكليزية، وكانوا جميعهم يصيحون "اثبت مكانك! لا تتحرك! ارفع يديك! انحنِ على الأرض!"

لقد تلقى خليل تعليمات بأن يدّعي الخوف والحيرة، وأن يركع على ركبتيه بدلاً من أن يستلقي على الأرض. عندها سيقتربون منه وهم يصيحون، فهذه هي طريقتهم. وما إن يقتربوا من مجاله حتى يخرج مسدسيه من حزامه ويفتح عليهم النار. ربما لن تخترق الرصاصات من عيار 40 تلك السترات الواقية، ولكنها ستكفي لإسقاط الهدف أرضاً وتشويشه، على عكس الرصاصات من عيار 9 ملم.

حتى يقتنع خليل بهذا، عمد مدربوه إلى إجراء تجربة على سجين محكوم عليه بالإعدام، حيث أطلقوا عليه رصاصة من عيار 40 من مسافة عشرين متراً، مصوبة إلى صدره تماماً، وكان الرجل يرتدي سترة كيفلار الواقية، فسقط على قدميه، وظل راقداً لنصف دقيقة، وما إن نهض حتى تلقى رصاصة أخرى. ثم فعلا ذلك مرتين أخريين حتى لم يعد الرجل يقوى على الوقوف. ثم انتهى الإستعراض بطلقة في رأسه.

لقد قال له بوريس "لا تتوقع أن تفوز في معركة إطلاق الرصاص، فالأميركيون يفخرون بمهارتهم في الرمي والتصويب، والأسلحة جزء هام جداً من ثقافتهم، وملكية الأسلحة حق يكفله لهم الدستور".

كان خليل يجد صعوبة في تصديق هذا. فعادة، كان بوريس يختلق أشياء عن الأميركيين، ربما ليثير إعجاب ودهشة الجميع. على أي حال، لقد تدربوا على ما أسماه بوريس *إطلاق الرصاص لعدة مرات*. وانتهى الأمر ببوريس بأن قال "يمكنك الهروب من معركة إطلاق الرصاص تلك، فلقد حدث هذا من قبل. ففي حال لم تُصب بجروح خطيرة، يمكنك العدو كالأسد يا صديقي، اعدُ أسرع وأبعد مما تستطيع، فهم ليسوا مدربين على إطلاق الرصاص أثناء العدو، خشية أن يصيبوا بريئاً، أو بعضهم البعض. فهم إما يعدون أو يطلقون الرصاص، وفي الحالتين عليك أن تبقي على مسافة بينك وبينهم، وقد تستطيع بالفعل الفرار منهم".

يذكر خليل أنه سأل بوريس "وماذا لو كان لديهم قناص؟"

"عليك عندئذ أن تتوقع أن تصاب في ساقيك ومن ثم تهوي فوقهما. ولكنهم يترددون في القتل باستخدام بندقية القناص، فهم يفخرون بإسقاط الرجل واعتقاله بدون الحاجة إلى قتله". ثم أضاف "وفي هذه الحالة، تأكد من أنك تترك رصاصة لنفسك، ولا تخطئ التصويب على رأسك". ثم ضحك وقال في صوت ناعم "ولكنني ما كنت لأقتل نفسي لو كنت مكانك، فليذهب مالك إلى الجحيم".

لاحظ خليل في هذه اللحظة أن مساعد الطيار لا يزال واقفاً أسفل باب الطائرة وهو يحاول رسم الابتسامة على وجهه وهو ينتظر مسافره في صبر، فيما كان الطيار قد ترك مقعده كذلك ووقف ينتظر هبوط خليل من الطائرة.

التقط خليل حقيبته بيسراه، وقد حرص على أن تظل يمناه حرة في حال اضطر إلى التقاط مسدسه، ثم قفز إلى أرض المدرج، ووقف بالقرب من مساعد الطيار، ثم تبعه الطيار وسار نحو الرجل الذي كان يحمل شارة *عامل المنصة*.

ظل خليل بالقرب من مساعد الطيار، على مسافة أقل من المتر المعتاد، إلا أن الرجل لم يحاول اتخاذ أي خطوات تبعده عن مسافره، فيما ظل خليل يمسح المكان حوله بعينيه؛ المدرج، والشاحنات، والحظائر، والطائرات المركونة.

عاد الطيار إلى خليل وقال "سيأخذك هذا الرجل هناك إلى الصالة الرئيسية في سيارته". ثم أضاف في صوت أكثر رقة "ربما ترغب في أن تعطيه بقشيشاً يا سيدي".

"كم تقترح؟"

"عشرة دولارات تكفي".

سُرّ خليل بسؤاله، حيث إنّ عشرة دولارات في بلده تكفي لاستخدام أحد الرجال لبضعة أيام، بينما هنا بالكاد تكفي لكي تدفع لقاء معروف بسيط كهذا.

توجّه خليل إلى الطيار ومساعده وقال "شكراً لكما يا رفاق، في حال لم أعد في غضون ساعتين، يمكنكما إذاً أن تتوقعا عودتي قرابة الساعة التاسعة على أبعد تقدير".

فأجابه الكابتن فيسكي "اتفقنا. ستجدنا في ذلك المبنى حيث استراحة الطيارين".

انضم خليل إلى عامل المنصة، وبعد أن تبادلا بضع كلمات تقديمية تقليدية، سارا إلى ساحة وقوف السيارات ثم إلى داخل سيارة الرجل حيث جلس خليل على المقعد الأمامي بجوار مقعد السائق، على الرغم من أنه في بلده كان ليتخذ الموقع الشرفي في المقعد الخلفي. أما الأميركيون - كما دأب بوريس على تذكيره - فكانوا يتظاهرون بتشدقهم بالديمقراطية، فكان بوريس يقول "أما في بلدي السابق، حيث

العمّال اللاطبقيون، فلقد كان كل فرد يعرف مكانه ويلتزم به. أما في أميركا، فهم يتظاهرون بالمزج بين الطبقات. بالطبع لا أحد يحبذ الفكرة، ولكن عندما يحدث ذلك، تجدهم يعربون عن إيمانهم العظيم بالمساواة، لذا تجدهم يتجنبون هذه المناسبات".

شغّل الرجل محرك سيارته، واستدار بها، وأخذ يخرج من ساحة وقوف السيارات، وهو يقول لخليل "لعلها زيارتك الأولى إلى كولورادو سبرينغز سيد ...".

"بيرلمان، نعم هي كذلك بالفعل".

"ومن أين أنت؟"

"من إسرائيل".

"أتمزح؟ لقد كنت هناك ذات مرة. أتعيش هناك؟"

"نعم".

كانا يتبعان طريقاً ذا حاجز يفضي إلى الصالة الرئيسية.

اندفعت السيارة حتى توقفت أمام مبنى الصالة الرئيسية، ففتح خليل بابه، وشرع يترجل إلا أنه تراجع منحنياً، وناول الرجل عشرة دولارات وهو يقول "شكراً لك".

"أشكرك، وأراك في ما بعد".

ترك خليل السيارة التي انطلقت مبتعدة، ولاحظ أن الصالة كانت شبه خالية في هذه الساعة المتأخرة، بيد أنه أبصر سيارة أجرة تقف بعيداً حيث توقفت سيارتان صفراوان بالقرب منها.

دخل خليل الصالة، وهو يعرف أن رجلاً يمشي بمفرده في هذه الساعة سيلفت انتباه أي شخص قد يكون هناك، لكنه لم يرَ حتى شرطياً واحداً؛ فقط رجل يمسح بلاط الأرضية بمكنسة ضخمة، وحتى هذا الرجل لم يعبأ بالنظر نحوه. كانوا قد أكدوا له في بلده أن المستوى الأمني في المطارات الداخلية أقل بكثير من المطارات الدولية، وأنه حتى لو افترضنا أن السلطات كانت تبحث عنه في أميركا، فإن الخطر في المطارات الأصغر أقل بكثير.

حث خليل الخطى متعمداً وهو يقصد قاعة المؤتمرات وهو يتذكر من الصور والمخططات التي رآها في بلده أين يقع مركز الأعمال وقاعات المؤتمرات.

في منطقة مجاورة للبهو رأى باباً عُلّقت عليه لافتة كتب عليها *قاعة المؤتمرات 2*، ولافتة أخرى كتب عليها *محجوز*. وبجوار الباب كانت لوحة مفاتيح عمد

خليل إلى إدخال شيفرة فيها، فانفتح على إثرها الباب، فدخل، وأغلق الباب خلفه.

كان المكان مجهز بمنضدة اجتماعات، وثمانية مقاعد، وهواتف، وجهاز فاكس، وحاسوب، وماكينة صنع القهوة في الركن وقد وُضعت في فجوة صغيرة.

على شاشة الحاسوب كانت الرسالة التالية "مرحباً سيد بيرلمان. نتمنى لك اجتماعاً موفقاً. أصدقاؤك من مركز نيبلي للمؤتمرات". إلا أن خليلاً لم يتذكر أن لديه أيًّا من هؤلاء الأصدقاء.

وضع خليل حقيبته فوق الأرض، وعمد إلى لوحة مفاتيح الحاسوب، فمسح الرسالة، وشرع ينقر بالفأرة هنا وهناك حتى وصل إلى صفحة البريد الإلكتروني خاصته، فأدخل كلمة المرور وانتظر الدخول إلى بريده، ثم قرأ الرسالة الوحيدة الواردة لديه والتي ظهرت على الشاشة باللغة الإنكليزية وموجهة إلى السيد بيرلمان من أورشليم "لدينا تقارير تخبر عن حسن سير العمل لديك، ولقد ألغيت رحلة سول إلى فرانكفورت، حيث هناك شركة أميركية منافسة تقوم بالعمل هناك، وليس لدينا أي معلومات هنا عن علم تلك الشركة الأميركية بمخطط رحلتك. المهمة الخاصة بكولورادو ليست ذات أهمية، فلتتصرف بحكمة، إذ إن مهمة كاليفورنيا أكثر أهمية. أما بالنسبة لإجراءات عودتك إلى إسرائيل فلم تتغير. نتمنى لك المزيد من النجاح، نراك عمّا قريب. يرجى الرد على الرسالة. تحياتنا". كانت الرسالة تحمل توقيع موردخاي.

فتح خليل صفحة البريد الخاصة بالرد على الرسالة، وشرع يكتب ببطء "أجيب عن رسالتكم من كولورادو، والعمل على ما يرام، وسأتم مهمة كاليفورنيا في أسرع وقت".

حاول خليل أن يكتب جملاً تبدو أكثر إنكليزية، ولكن لم يكن هذا هو المهم الآن، ولقد أخبروه في بلاده أن رسالة ستفي بالغرض طالما أنها ستضم كلمة عمل، والتي كانت تعني أنه بخير، وأنه ليس في قبضة الأميركيين. ثم وقّع الرسالة باسم بيرلمان وأرسلها، ثم سجل الخروج من بريده، وعاد إلى الصفحة الرئيسية قبل أن يغلق الحاسوب تماماً.

عندما نظر خليل إلى ساعته، كانت الرابعة وسبع عشرة دقيقة فجراً، وكان يعرف أن توقيت نيويورك يسبق هذا التوقيت بساعتين. أما منزل العقيد روبرت كالوم فكان هناك أسفل التلال الجبلية على مسافة أقل من نصف ساعة من حيث يجلس الآن.

وقف خليل، وراح يدور في أرجاء الصالة، وهو يفكر في أن العمل في كولورادو ليس ضرورياً، ومهمة كاليفورنيا أكثر أهمية، ولكن ما الذي يمنع من أن يتم المهمتين؟ كانت تلك هي المرة الأولى منذ وطأ خليل بقدميه خارج السفارة الأميركية في باريس التي يستشعر فيها ليس بالخطر، وإنما بالاضطراب!

تابع خليل سيره في القاعة وهو يزن كافة الأمور في رأسه؛ أيذهب إلى قتل العقيد كالوم، وبالطبع زوجته وكل من في المنزل، أم لا؟

كانت الخطة بسيطة، تماماً كما كان الحال مع منزل الجنرال وايكليف؛ كان يعرف أن العقيد - أو زوجته - يخرج من المنزل كل صباح قبل السابعة والنصف، فيلتقط الصحف من صندوق بريده في آخر طريق السيارات الممهد المفضي إلى المنزل، ثم يدخل المنزل مرة أخرى. وكعادة معظم العسكريين، فإن آل كالوم يتسمون بالانضباط والحفاظ على عاداتهم.

وما إن ينفتح الباب حتى يصبح آل كالوم على بعد خمس أو عشر دقائق من الموت، حيث طول فترة حياتهم المتبقية يعتمد تماماً على مزاج أسد خليل ومدى صبره. وفيما كان خليل يفكر، كان لا يزال يجوب القاعة تماماً كالأسد؛ كذلك الأسد الذي كان الرومان يبقونه في ساحة ليبتيز، والتي رأى خليل آثارها بالقرب من عاصمته. كان ذلك الأسد يعرف من خبراته السابقة أن هناك رجلاً ما ينتظره في الساحة، ومن ثم كان الأسد نافد الصبر؛ فهو جائع! بالطبع كانوا يجوعونه، حيث يعرف - أيضاً من خبراته السابقة - أنه دائماً ما يقتل هذا الرجل. ترى ما هي الخبرات الأخرى التي سيتعلمها في حال ظل على قيد الحياة؟ ولكنه يعلم أيضاً أنه أحياناً ما يكون ذلك الرجل في الساحة مسلحاً، والرجال المسلحون يقاتلون من أجل حياتهم، بينما غير المسلحين يكتفون بالدعاء والصلوات. بيد أن مذاقهم سواء!

توقف خليل، ثم جلس القرفصاء على الأرض، وهو يحافظ على توازن جسده فوق فخذيه، تماماً كما يفعل الرجل البربري في قبيلته الصحراوية. ثم رفع رأسه وأغلق عينيه، لكنه لم يدعُ، بل انتقل بوجدانه إلى ليل الصحراء، وراح يتخيل ملايين النجوم تلمع في السماء السوداء؛ فرأى القمر في ضوئه واكتماله معلقاً فوق القاعة - واحته ومسقط رأسه - والنخيل يتمايل مع نسيم الصحراء البارد. الصحراء هادئة على الدوام. ظل خليل هناك في صحرائه لوقت طويل جداً، وهو يقبض على تلك الصورة في خياله بلا تغيير، وكأنه ينتظر أن يتغير المشهد فتظهر له صورة أخرى من رمال الصحراء.

كان الوقت يمر فوق الأرض، بيد أنه كان ثابتاً في تلك الصحراء. أخيراً، أتاه رسول من قلب الواحة، ملفوف برداء أسود وأبيض اللون، ويغمره القمر بنوره الفضي فيضيء، فيما يرمي بظلاله فوق الرمال وهو يتحرك صوبه. وقف الرسول أمام خليل وظل صامتاً، ولم يجرؤ خليل على الحديث، ولم يستطع حتى رؤية وجهه، لكنه سمعه يقول "في مكانك حيث أنت الآن، يقوم الله بعملك هناك. فلتذهب من مكانك هذا إلى ذلك المكان الآخر عبر الجبال، فرمال الزمن تذوي، والشيطان يهب من مكانه".

تلا خليل دعاء الشكر، ثم فتح عينيه، ووقف على قدميه. ولما نظر إلى الساعة المعلقة على الجدار المقابل، أدرك أنه ظل في حالته تلك لساعتين رغم أنها بدت له كبضع دقائق، فالتقط حقيبته السوداء وترك القاعة، ثم تحرك عبر البهو الخاوي.

في الخارج، كانت سيارة واقفة، لا يشغلها سوى السائق النائم، فدخلها، وأغلق الباب خلفه بقوة ففزع السائق، وشرع يتمتم بكلمات غير مفهومة، فقال خليل "إلى

المنطقة المخصصة لشركات الطائرات النفاثة الخاصة".

على الفور شغّل الرجل المحرك، واندفع ينطلق بالسيارة وهو يسأل "إلى أين؟"

أعاد عليه خليل وجهته التي يقصدها، وألقى ورقة من فئة العشرين دولاراً على المقعد الأمامي بجوار السائق وهو يقول "بسرعة من فضلك، لقد تأخرت".

بالفعل أسرع السائق نحو الطريق ذي الحاجز، وفي غضون عشر دقائق كان في المنطقة المخصصة لشركات الطائرات النفاثة الخاصة، فقال خليل "إلى هناك".

فاندفع السائق بسيارته نحو مبنى صغير. وما إن وصل، حتى قفز خليل خارج السيارة، وسار مسرعاً إلى الداخل، حيث عثر على الفور على استراحة الطيارين، وهناك وجد الرجلين نائمين فوق المقاعد. فراح يهز قائد الطائرة ويقول "هل أنت جاهز للرحيل، يجب أن نرحل على الفور".

نهض الكابتن فيسكي على قدميه على الفور، فيما كان مساعد الطيار مستيقظاً بالفعل، فوقف، ومدد جسده وهو يتثاءب.

نظر خليل في حدة إلى ساعته وهو يقول "كم يلزم من الوقت كي نرحل من هنا؟"

بلع الكابتن فيسكي ريقه وقال "حسناً، لقد أنهيت بالفعل الترتيبات الأولية لخطة طيران بديلة في حال احتجنا إلى الرحيل على نحو مفاجئ".

"جيد جداً، فنحن بالفعل نحتاج إلى ذلك الرحيل المفاجئ، متى يمكننا الإقلاع؟"

"في هذه الساعة المبكرة، لا أتوقع أن يكون هناك ازدحام، ومن ثم نستطيع اختصار بعض الإجراءات. وفي حال حالفنا الحظ، يمكننا الإقلاع في غضون خمس عشرة دقيقة".

"أريد الذهاب في أسرع وقت ممكن".

قال الكابتن فيسكي "حسناً يا سيدي". وهو يسير نحو الهاتف ويضغط على بضعة أرقام.

"بمن تتصل؟"

قال الكابتن فيسكي "ببرج المراقبة كي يفعّلوا الترتيبات الأولية خاصتي". وشرع يتحدث إلى شخص ما على الطرف الآخر من السماعة، بينما كان خليل يستمع بحذر إلى ما يقوله، ولم يكن هناك أكثر من مجرد حديث تقني. ثم نظر خليل إلى وجهه ثم إلى وجه مساعده، وكانا ثابتين على نحو طبيعي.

أخيراً، أنهى فيسكي حديثه الهاتفي بقوله "حسناً، شكراً لك". ووضع السماعة وهو يقول لخليل "لقد وعدوا بأن ينتهوا من إجراءات ترخيص المغادرة من مراقبة الملاحة الجوية في ربع ساعة على الأكثر. فالبرج المحلي يقوم بالتنسيق الآن مع رادار دنفير".

"كنت أعتقد أن رحلات الطائرات الخاصة تقلع وتهبط كيفما ومتى تشاء".

أجابه كابتن فيسكي "لا ينطبق هذا على النفاثات الخاصة يا سيدي، بسبب الارتفاعات التي نحلّق فيها. فأحياناً تصل لأكثر من ثمانية عشر ألف قدم، لذلك نراعي دائماً تطبيق قواعد الطيران".

"حسناً، فهمت. هل لنا أن نذهب الآن إلى الطائرة؟"

"بالتأكيد".

ثم قاد الطريق إلى خارج الاستراحة، وتبعه مساعده وأسد خليل. وسار الجميع يحثون الخطى عبر هواء الليل البارد صوب النفاثة القابعة على بعد أقل من خمسة عشر متراً خارج المبنى، وقد حرص خليل على أن يظل بالقرب من الطيارين، رغم أنه لم يكن يشعر حقاً بوجود خطر يحدق به.

فتح مساعد الطيار باب الطائرة ودخلها، ثم تبعه خليل، وأخيراً الكابتن فيسكي. اتخذ الطياران مقعديهما وبدءا إجراءات الفحص المعتادة قبل الإقلاع، بينما جلس خليل على مقعده نفسه في الخلف. ومرة أخرى، ارتفع صوت الطيار عبر الحاجز بين القمرتين وهو يقول لخليل "سرعان ما سنبدأ في التحرك، فهلاّ ربطت حزام مقعدك؟"

لم يجبه خليل.

بعد بضع دقائق كانت محركات الطائرة تمور، ومساعد الطيار يتحدث عبر اللاسلكي قائلاً "برج مراقبة سبرينغز - لير اثنان - الصدى الخامس معدة للخروج".

فأجابه البرج "عُلم، لير اثنان، الصدى الخامس. يمكنك الخروج إلى المدرج ثلاثة-خمسة إلى اليسار. لقد حصلنا على تصريح الخروج الخاص بكم، فلتعلمونا متى كنتم على استعداد".

قال مساعد الطيار "نحن على استعداد الآن". ثم بدأ يدوِّن ما يقوله له ذلك الشخص على الناحية الأخرى من مكبر الصوت.

في الوقت ذاته، كان الكابتن فيسكي يتابع الخروج بالطائرة إلى طرف المدرج، ثم اندفع بالطائرة إلى خط المنتصف بالمدرج، وهو يقول "ها نحن ذاهبون". على الرغم من أنه لم يكن يخاطب شخصاً بعينه، ثم دفع بالمكابح إلى أقصى الأمام.

في نصف دقيقة، كان أنف النفاثة يرتفع نحو الأعلى وهي تغادر الأرض، وتتسلق الهواء مبتعدة عن أضواء كولورادو سبرينغز بالأسفل. وجلس خليل يرقب الطيارين حيث كان الحاجز الذي يفصل بين القمرتين مفتوحاً.

بعد دقيقة، أطل خليل من النافذة الجانبية إلى يسار مقعده وراح يشاهد الجبال، وكانت لا تزال بادية في ضوء القمر.

ثم انبعث صوت مساعد الطيار من جهاز النداء الداخلي وهو يقول "سنحتاج إلى الاستمرار في التحليق صوب الشمال لفترة أطول قليلاً يا سيدي حتى نصل إلى الارتفاع المناسب للدوران غرباً ثم إلى المسار. فهناك تلك التلال إلى اليسار؛ تلال

الروكيز”. ثم ضحك وأضاف “بعض هذه القمم يرتفع إلى اثني عشر ألف قدم، أي نحو أربعة آلاف متر”.

لم يرد خليل على هذا، واكتفى بالنظر إلى سلسلة التلال والجبال إلى جهة اليسار، بينما كانت الطائرة تتابع طريقها نحو الشمال بوضوح. وفكّر خليل أنه في مكان هناك - بالأسفل - كان العقيد روبرت كالوم يستلقي في فراشه، يأكله مرضه اللعين. ولم يكن خليل يشعر وكأنه حُرم من حقه في الانتقام منه، وكذلك الأمر حينما قُتل ستيفين كوكس في الحرب على العراق.

الفصل الرابع والأربعون

أمضيت وكيت بقية ذلك النهار في قرع أجراس التنبيه، في حال صحّ التشبيه، وسرعان ما تحول مركز قيادة الحدث من تل نمل إلى خلية نحل، أيضاً في حال تسامحت مع ذلك التشبيه الحشري، ناهيك عن عشرات المكالمات الهاتفية التي تلقيتها وكيت من علية القوم هناك لتهنئتنا على ما توصلنا إليه من نتائج، وما إلى ذلك. أما بالنسبة للرؤساء، فلقد ألحوا في أن ننقل لهم ما توصلنا إليه، بيد أننا نجحنا في ثنيهم عن هذا، ولو في الوقت الراهن. في الحقيقة، لم تكن المعلومات غايتهم، بل أرادوا أن يلصقوا أنفسهم بعملية حل القضية فحسب، وهم يجهلون أنهم بذلك يصبحون جزءاً من المشكلة.

أخيراً، اضطررت إلى عقد اجتماع للقوى المشتركة، كذلك الذي أقمناه صباح أمس، بيد أنني استطعت إرجائه حتى الخامسة مساءً بحجة كاذبة مفادها أنني يجب أن أظل بجوار الهاتف حيث أنتظر مكالمات من شبكة المخبرين خاصتي والمنتشرين في جميع أرجاء العالم.

بقليل من الاحترام، يشبه هؤلاء الرؤساء كبار ضباط مديرية شرطة نيويورك عندما تكون هناك قضية كبرى تحتل العناوين الإخبارية الرئيسية؛ وبالطبع إن احتمال التقاط الصور معي ومع كيت لم يكن بالأمر بعيد الاحتمال. على أي حال، في الوقت الذي سيعود فيه جاك كوينج من رحلته الطويلة بأميالها المجانية سيكون الاجتماع قد انتهى، وكم سيغضب جاك لأجل ذلك. حسناً، لقد نصحته أن يبقى!

في غضون نصف ساعة من حديثنا مع السيدة هامبريشت، كان عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالية يطالبون بتسجيلات المحادثة الهاتفية معها، وبالطبع تلك الخاصة بالجنرال وايكليف. وفي الوقت ذاته، كان هؤلاء العاملون الجيدون في بناية جي إدغار هووفر يعملون بجد للحصول على المعلومات المحذوفة من ملف العقيد هامبريشت، والتي لم أعد بحاجة إليها. ولكنهم كانوا يحاولون أيضاً معرفة أسماء الرجال الخمسة الآخرين الذين كانوا في مهمة القصف تلك، وهو ما كنا نحتاج إليه بحق.

وفقاً لبريدي الإلكتروني، قام الفيدراليون على الفور بتوجيه تحذير للقوات الجوية ووزارة الدفاع بشأن رجال مهمة القصف تلك، من أنهم في خطر بالغ ووشيك. وبالطبع وافقت القوات الجوية على التعاون الكامل والسريع، ولكن السرعة مصطلح نسبي في عرف البيرقراطية.

لم أكن أعرف ما إذا كانوا قد أطلعوا وكالة الاستخبارات المركزية على ما حدث أم لا، لكنني تمنيت لو أنهم لم يفعلوا، بيد أنني كنت أشعر أن الاستخبارات المركزية تعرف شيئاً عن هذا بالفعل. حسناً، ليس من الصعب أن ترتاب تماماً في هؤلاء القوم على أي حال، على الرغم من أنني أذكر نفسي دائماً ولنصف الوقت تقريباً أن هؤلاء الرفاق ليسوا بهذا الذكاء أو الدهاء كما يراهم الناس. ولكنهم - كما هو الحال مع أي منظمة سرية - يقومون بأنفسهم ببذر بذور عدم الثقة والخداع، ثم

يتساءلون لماذا يظن الناس دائماً أنهم يخفون شيئاً ما؟! وما يدأبون حقاً على إخفائه هو حقيقة أنهم لا يعرفون الكثير، ولأنني أفعل الشيء ذاته أحياناً، فلا أجد نفسي أهلاً للشكوى منهم!

في الحقيقة، لم يخطر ببالي قط أن مكتب التحقيقات الفيدرالية - وهو قلب وحدة مكافحة الإرهاب - كان يعرف أكثر بكثير مما كان يفصح به لنا في نيويورك. ولكنني كنت مقتنعاً بكلام كيت حين قالت لي إن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تعمل لحساب نفسها، وأنهم يتركون الأمر يمضي لأننا - في نهاية الأمر - نلعب جميعاً في نفس الفريق، ولأننا جميعاً نعمل مع الملائكة في جانب الخير، ولأن الجميع يحملون في قلوبهم حب الوطن ويعملون لمصلحته. إلا أن المشكلة الحقيقية كانت في تعريف كلمة مصلحته هذه. وعلى العموم، أفضل ما في الأمر هو أن كوينج وناش كانا خارج البلاد.

على أي حال، انتهزت فترة الهدوء القصيرة التي حلّت بخلية النحل تلك، وشرعت أنظر إلى الأشياء التي كانت كيت لا تزال تقوم بطباعتها من الإنترنت، وقد بدأت بمقالة النيويورك تايمز، والمعنونة *إنفجار يحطم سيارة سكيبر الذي أسقط الطائرة الإيرانية* غير أنه لم يبدُ لي وثيق الصلة بالموضوع لدينا، سوى أنه مثال لما نشتبه في أنه يحدث الآن.

ثم ناولتني كيت خبراً من الأسوشييتد برس، وعنوانه *تسعى الدولة التي تعرض مجمعها للقصف إلى محاكمة*. ورحت أقرأها بصوت مرتفع "طالبت تلك الدولة يوم الإثنين الماضي بقيام الولايات المتحدة الأميركية بتسليم المخططين المنفذين للقصف الذي تعرضت له...".

"تابع القراءة".

تابعت القراءة، ثم نظرت إلى كيت، فقالت "أغلب الظن أن أسد خليل كان يعيش في المجمع الذي تعرض للقصف. لعلك تذكر ما ذكرته الملفات لدينا من وجود رابطة أسرية بين خليل والقائد".

"هذا صحيح". ثم فكرت في الأمر وقلت "وأظنه كان في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره وقت القصف. صحيح أن أباه كان قد مات قبل ذلك بزمن، لكن لا شك أنه كان لديه عائلة وأصدقاء في ذلك المجمع".

"إنه ينتقم لهم إذاً، ولأسرة القائد كذلك".

"يبدو هذا منطقياً بالنسبة لي". ثم أعدت التفكير في ما قاله لي جابي من قبل، فقلت لكيت "نحن نعرف الآن الدافع الذي يحرك هذا الرجل، ودعيني أخبرك أنني أتعاطف معه على الرغم من أنني لا أتبنى موقفه بالطبع".

أطرقت كيت وقالت "أعرف ماذا تعني. ولكن لو كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن أسد خليل أشد خطورة مما نظن. تابع القراءة".

قرأت حتى نهاية الخبر.

ثم وضعت المقال جانباً، وقلت "الأمر وكأنه دوائر ودوائر لا تنتهي؛ وأين سينتهي الأمر، لا أحد يعرف".

"معك حق؛ حرب بلا نهاية. وما هذه إلاّ معركة جديدة خلفتها المعركة الأخيرة، ولسوف تسفر هذه عن معركة جديدة".

كم هو كئيب هذا التفكير.

على أي حال، شرعت أقلّب بضع مقالات أخرى، ووجدت مقالات أحدث حول حادثة قبطان السفينة التي قصفت الطائرة. وكما قلت من قبل، لم تكن هناك علاقة مباشرة بين هذا الأمر وخليل، بيد أنني لاحظت بعض التقدم في العناوين الرئيسية؛ فأحدها من نيويورك تايمز كان يقول "تحقيق في القصف انطلاقاً من نظرية إرهابية رسمية".

أشارت المقالات التي تبعت هذا الخبر إلى أنه قد لا يكون للحكومة علاقة بالأمر على الإطلاق، ربما كان الأمر مصادفة فحسب، أو حتى ثأراً شخصياً، مما يثير التساؤل بشأن من عساه انزعج بشدة من القائد أو زوجته في نادي الضباط. هراء، كم هي مدهشة الطريقة التي تحيك بها واشنطن هذه الحكايات لتهدئة الناس كي لا يُعادوا أي شعوب أخرى لا تكن لنا مشاعر الحب، والتي يُثار أناسها ضدنا لدى أي حادثة طفيفة.

لا بد وأن هناك استراتيجية دبلوماسية عظيمة تعمل وراء كل هذا، غير أنني لا أعرفها.

وفي حال كنت لا تظن أن الجميع يعرفون ماذا يفعل القوم في البيت الأبيض، أو في بناية جي إدغار هووفر، أو في وزارة الدفاع، أو لانغلي، فعليك بالتفكير في وزارة الخارجية؛ فهم يعملون بمفردهم تماماً وكأنهم يبحرون وحدهم في بحر آخر وباستعمال مجذاف واحد.

فلنطرح الجغرافيا السياسية جانباً على أي حال، فما لدينا الآن هو أسد خليل؛ وهو إما أنجز مهمته ورحل، أو أنه في طريقه الآن نحو ضحيته التالية، فقلت لكيت "أي أخبار عن طاقم تلك المهمة؟"

"ليس بعد، وليس من المؤكد أنهم سيخبروننا، فربما توصل الفيدراليون إلى الناجين منهم وقاموا بتغطيتهم بالفعل".

"لكن أظن أنه يجدر بهم إخبارنا. ففي مديرية شرطة نيويورك، يعرف التحريّ المحقق كافة المعلومات ويكون مسؤولاً مسؤولية كاملة".

"بالرغم من أنني أكره أن أحمل إليك الأنباء السيئة يا جون، لكن عليك أن تعرف أن هذه ليست مديرية شرطة نيويورك، وستكون محظوظاً لو تلقيت مكالمة هاتفية تخبرك أنه تم القبض على خليل".

كم هذا سيئ حقاً! وبدأت أفكر في طريقة يمكنني من خلالها التوصل إلى أي جزء من الأحداث الجارية، ولكن كل ما أمكنني التفكير فيه هو أن جاك كوينج مدين لي بخدمة بالرغم من اختلافنا على الحقائق الواضحة والبسيطة. إلا أن كوينج لم يكن في الجوار الآن، وليس لدي تأثير عليه الآن، وما من شخص آخر مدين لي بأي خدمات، فسألت كيت "هل سبق وأن أقمتِ علاقة حميمة مع أحد الكبار الذي قد يسدي لنا صنيعاً الآن؟"

"ليس في نيويورك".

"في واشنطن إذاً؟"

بدت وكأنها تفكر في الأمر وتعد على أصابعها بينما تتمتم الأرقام حتى وصلت إلى الرقم سبعة، وقالت "أظنني استهلكت بالفعل كل الفرص". ثم ضحكت لتخبرني أنها كانت تمزح فحسب.

لما كان الأمر كذلك، عدت مرة أخرى إلى المقالات الإخبارية من الصحف الأخرى. وبالرغم من أنني لست على دراية تامة بكيفية عمل شبكة الإنترنت هذه، لكن يبدو وكأنها تستطيع إخبارك بأي شيء تبحث عنه، وتنفذ أوامرك بالحرف، وهذه فضائل لا أدعي وجودها في العديد من البشر ممن أعرفهم.

ثم وقعت على مقالة من بوسطن غلوب، وكانت غنية بالمعلومات.

هكذا جلست وكيت هناك نحاول استيعاب أخبار الأمس، فمن الجيد دائماً أن تعرف الأسباب، وهذا ما كنا نفعله الآن. كما أننا نعرف من، وماذا، وأين، ومتى. فنحن نعرف أنه أسد خليل، وأنه في مهمة اغتيال، في أميركا، الآن. إلا أننا لم نكن نعرف مكانه على وجه التحديد، أو إلى أين أو ماذا ستكون ضربته التالية. ولكننا كنا قريبين منه، وللمرة الأولى شعرت بالثقة بأننا نكاد نضع أيدينا على هذا السافل، فقلت لكيت "إن كان لا يزال هنا ولم يترك البلاد، فتأكدي من أننا سنقبض عليه".

إلا أنها لم تعلق على هذه الملاحظة المتفائلة. في الحقيقة، بالنظر إلى تاريخ أسد خليل، قد تساورني أنا كذلك بعض الشكوك.

ثم سألت كيت "أتظنين أن أحداً من أفراد أسرة أسد خليل قد قُتل في تلك الغارة؟"

فأجابت "لو أن ما لدينا من معلومات حول الصلة بين أسرة خليل وأسرة القائد صحيحة، فيمكننا بالطبع افتراض أن أسرة خليل كانت في المكان المقصوف. أظن أنه قد عانى من فقدان بعض الأشخاص على المستوى الشخصي".

"وهذا ما أظنه أنا أيضاً".

ثم حاولت رسم صورة لهذا الرجل - أسد خليل - وقد قفز من فراشه في ذلك الصباح الباكر، وقد تملكه الفزع والعالم من حوله يتحول إلى دمار. لا بد وأنه رأى العديد من جثث القتلى والأشلاء، وافترضت أيضاً أنه قد فقد أسرته في القصف. ثم حاولت تخيل حالته النفسية والذهنية آنذاك؛ الفزع، والصدمة، وربما الإحساس بالذنب لأنه بقي على قيد الحياة، ثم يأتي الغضب في النهاية. أخيراً، لدى نقطة ما، يقرر الانتقام.

"بماذا تفكر؟"

"في خليل، كيف جاء من هناك إلى هنا. لقد كان يحلم بالمجيء إلى أميركا طوال حياته، ولم نكن نحن نعرف ذلك، على الرغم من أنه كان يتعين علينا معرفة ذلك. وهو ليس هنا لبدء حياة جديدة، أو ليصبح سائق سيارة أجرة، أو للهرب من عقوبة أو مأساة اقتصادية. فهو ليس الشخص الذي كان في رأس إيما لازاروس".

"كلا بالطبع".

"بل وهناك المزيد منه هناك".

"نعم، بلا شك".

ثم بقينا في مكانينا في المركز كما طُلب منا، غير أنني لم أكن بارعاً في الجلوس وقراءة الأخبار والرد على مكالمات الهاتف التافهة. ومن ناحية أخرى، أردت الاتصال ببيث، لكن الوضع في مكتبي قد تغير، ومن ثم اكتفيت بأن أرسلت بريداً إلكترونياً إلى السيدة بيث، قلت لها فيه "لا أستطيع التحدث الآن، هناك تحول هائل في القضية، وقد أكون خارج البلد هذا المساء، وشكراً بشأن القبلة الكبيرة الرطبة". ثم ترددت أصابعي فوق لوحة المفاتيح، وشرعت أنهي الرسالة إلا أن هذا لم يبدُ لي بالأمر الجيد، فأضفت "أحتاج أن أتحدث إليكِ، سأتصل بكِ عمّا قريباً". ثم ترددت مرة أخرى، ثم أرسلت الرسالة.

"أحتاج أن أتحدث إليكِ". بالطبع العبارة تخبر عن الأمر برمته وكأنني هناك. فهي العبارة المختصرة التي يستخدمها الأحباء، أو كما كانت زوجتي تقول "جون، لا بد أن نتحدث". بدلاً من أن تقول "جون، تباً لك".

وهنا سألتني كيت "إلى من أرسلت ذلك البريد الإلكتروني؟"

"إلى بيث".

ثم ساد صمت قطعته كيت بأن قالت "أرجو ألا تكون قد استخدمت البريد الإلكتروني لتخبرها أن -".

"أوه، كلا بالطبع".

"نعم، فسيكون ذلك قاسياً لو فعلت".

"بالطبع، ماذا عن رسالة بالفاكس؟"

"يجب أن تخبرها وجهاً لوجه".

"وجهاً لوجه؟ ليس لديّ وقت حتى لأتحدث إلى نفسي وجهاً لوجه".

"حسناً، أخبرها عبر الهاتف إذاً. سأترك لك المكان".

"كلا، سأقوم بذلك في ما بعد".

"إلا إذا لم تكن هذه رغبتك بالفعل، وتأكد أنني سأتفهم الأمر".

شعرت بالصداع يزحف إلى رأسي.

"أعني حقاً ما قلته؛ سأتفهم الأمر في حال أعدت التفكير".

تُرى، لماذا لم أستطع تصديق أنها ستتفهم بالفعل؟!

"فما حدث بيننا بالأمس لا يلزمك بأي شيء على الإطلاق. فنحن كبيران بما يكفي، وبوسعنا تجميد الأمر لفترة، ونمضي في خطوات بطيئة".

"هل انتهيتِ من تلك الشعارات أم بعد؟"

"فلتذهب إلى الجحيم". قالت كيت، ونهضت عن مكتبها، وسارت مبتعدة. وكنت على وشك أن أنهض وأتبعها إلا أننا كنا قد اجتذبنا بالفعل انتباه بعض زملائنا، ومن ثم اكتفيت بأن ابتسمت ورحت أدندن لحن "بارك الله في أميركا" بينما أعضاء وحدة مكافحة الإرهاب من رابطة مكافحي الجنس يرسلون الخطابات الإلكترونية إلى الأخ الأكبر حول احتمال وقوع جريمة جنسية وشيكة.

لقد ذكرني هذا أنني بحاجة إلى ملابس داخلية نظيفة، وكنت أعرف بأمر ذلك المتجر في الجوار، ولقد خططت مسبقاً للذهاب إليه في زيارة قصيرة في وقت لاحق، وأن أصطحب معي كيت كي تنتقي لي قميصاً وربطة عنق.

على أي حال، فلنعد إلى أكثر الإرهابيين طلباً في أميركا. دخلت على بريدي الإلكتروني فوجدت رسالة من قسم مكافحة الإرهاب في العاصمة، وقد أشير إليه بوصفه عاجلاً. ولقد كان التوزيع مقتصراً على هؤلاء في مركز قيادة الحدث، فرحت أقرأ من فوق الشاشة مباشرة "أخبرتنا القوات الجوية أنه قد يكون من الصعب التعرف على هوية الطيارين الذين اشتركوا في مهمة القصف تلك. فالملفات تذكر الأسراب الكاملة والوحدات الأكبر، بينما الوحدات الفرعية تحتاج إلى المزيد من البحث".

فكّرت في الأمر، وشعرت أنه ربما كان هذا حقيقياً، ولكنني كنت بالفعل قد أُصبت بجنون الارتياب، حتى إنني لم أكن أصدّق علامة الخروج لو رأيتها بعيني رأسي. ثم تابعت قراءة الرسالة "ولقد أرسلنا إلى القوات الجوية فحوى المحادثة التي تمت مع السيدة هامبريشت مع العملاء من نيويورك؛ أي في ما يتعلق بأنها أربع مقاتلات من طراز F-III، وأن مهمة القصف كانت تستهدف...، وأن المجموعة كانت تضم ثمانية أفراد على متن الطائرات الأربع، وكذلك مقتل الجنرال وايكليف... وعليه، فإن أفراد مكتب شؤون الموظفين والتاريخ لدى القوات الجوية يبحثون الآن عن الأسماء وفقاً لهذه البيانات. كما تم الاتصال بالسيدة هامبريشت عبر الهاتف، ولكن لم يكن من الممكن البوح بالأسماء في الاتصال الهاتفي. لذا، تم إرسال ضابط عام من قِبل القاعدة الجوية في رايت بيترسون،

دايتون، بولاية أوهايو، إلى السيدة هامبريشت في آن أربور. ولقد ذكرت السيدة هامبريشت أنها ستفضي لهم بالأسماء على نحو شخصي، بالإضافة إلى الأسماء الكاملة، والرتب، وما إلى ذلك. وسنبقيكم على علم".

قمت بطباعة الرسالة الإلكترونية المزدانة بعلامة عاجل الحمراء المستديرة، ورميت بها فوق مكتب كيت، ثم رحت أفكر في الأمر في بادئ الأمر، كانت السيدة هامبريشت صلبة جداً في حديثنا معها، فلم يجدِ معها لا التهديد ولا التوسل ولا التودد في أن يجعلها تفعل ما قيل لها ألا تفعله منذ أن أصبحت زوجة لأحد رجال القوات الجوية منذ أمد بعيد.

أما الأمر الثاني، فقد خطر لي - على نحو ساخر - إن الإجراءات الأمنية التي اتُخذت لحماية هؤلاء الطيارين من الانتقام هي نفس الإجراءات الأمنية التي حالت دون أن نفهم نحن حقيقة ما كان يحدث، بل وأعاقت حمايتنا لهم. من ناحية أخرى، بات واضحاً أنه قد تم اختراق هذا الحاجز الأمني في نقطة ما، وإلا فكيف حصل أسد خليل على قائمة الأسماء بينما لم نستطع نحن؟! ولكن أي أسماء لدى أسد خليل؟ هل هي فقط أسماء هؤلاء الرجال الثمانية؟ من المحتمل. فهؤلاء هم الرجال الذين يريد قتلهم. وهل لديه الأسماء الثمانية؟ وهذا أيضاً محتمل.

كانت كل تلك الأفكار تضطرب في رأسي: ثمانية رجال؛ قُتل أحدهم في الخليج، والآخر في إنكلترا، وثالث قتل هو وزوجته في منزلهما في كابيتول هِل. ثم هناك رابع يعاني مرضاً خطيراً وفقاً لما قالته السيدة هامبريشت، ومن ثم يتبقى أربعة ضحايا، أو خمسة إن لم يمت الرجل المريض قبل أن يصل إليه خليل. ولكن لم يكن لديّ أدنى شك أن من هؤلاء الضحايا من تم قتله بالفعل، بل وربما جميعهم، بالإضافة إلى بعض الأشخاص من حولهم ممن وضعتهم أقدارهم في المكان الخاطئ في الزمن الخاطئ؛ كمدبرة منزل السيدة وايكليف.

إنه لأمر مزعج عندما تشعر أن وطنك مستهدفاً في الخطوط الأمامية. في الحقيقة، إنني عادة لا أتلو الصلوات، ولكنني صلّيت لهؤلاء الرجال وأسرهم، وصليت للموتى الذين أعرفهم، ولأولئك المحتمل أنهم قد ماتوا ولا نعرف عنهم بعد، ولأولئك الذين هم على وشك الموت.

ثم راودتني فكرة رائعة تفقدت على إثرها دفتر أرقام الهاتف، وقمت بالاتصال بأحد الأرقام.

الفصل الخامس والأربعون

واصلت النفاثة صعودها تاركة كولورادو سبرينغز، فيما انتقل خليل إلى الجانب الأيسر من الطائرة واتخذ لنفسه المقعد الأخير، وأخذ يحدّق في الجبال الشاهقة بينما كانت الطائرة لا تزال تحلق صوب الشمال. بدا له أنهم قد ارتفعوا بالفعل فوق أعلى قمم تلك الجبال، بيد أن الطائرة واصلت طريقها صوب الشمال، حتى أبصر أمامه دنفير الشاسعة بأضوائها البراقة.

فكّر خليل في أنه ربما تلقى الطياران تحذيراً لاسلكياً، ومن ثم سيتظاهران بوجود عطل ميكانيكي ما فيهبطان في أحد المطارات المنعزلة حيث السلطات في انتظاره. وكانت هناك طريقة سهلة وسريعة لمعرفة ما إذا كان الأمر كذلك بالفعل.

فنهض خليل عن مقعده، وسار في الممر نحو قبة الطيارين وكان الفاصل بين القمرتين لا يزال مفتوحاً، ثم وقف في المنتصف خلف الطيار ومساعده، وقال لهما "هل لدينا أي مشكلة؟"

نظر إليه الكابتن فيسكي من فوق كتفه وأجاب "كلا يا سيدي، كل شيء على ما يرام".

راح خليل ينظر إلى الطيارين في حذر وعن كثب، وكانت لديه مَلَكة معرفة ما إذا كان محدثه يكذب عليه، أو إذا كان متوتراً من شيء ما، حتى ولو ظن ذلك الشخص أنه أتقن التمثيل أو الإخفاء. ولكن لم يجد في سلوك هذين الطيارين ما يوحي بوجود أي مشلكة، غير أنه كان يتمنى لو استطاع النظر في أعينهما.

أردف الكابتن فيسكي "سنتجّه غرباً، فوق المرتفعات. وربما نواجه بعض الاضطرابات بسبب الجبال سيد بيرلمان، فربما كان من الأفضل لو عدت إلى مقعدك".

عاد خليل إلى مقعده، وأضاءت علامة ربط الحزام في جرس تنبيهي ولم يكن الطيار قد استخدم هذه الخاصية من قبل. ثم اتجهت النفاثة صوب اليسار، ثم استقامت، ومضت في طريقها. ولم تمضِ دقائق حتى بدأت الطائرة تكافح التيارات العالية، وكان خليل يشعر بالطائرة وهي مستمرة في الصعود والارتفاع، وأنفها موجَّه نحو أعلى في زاوية حادة.

انبعث صوت الطيار من جهاز النداء الداخلي يقول "لقد حصلنا لتونا على ترخيص مباشر إلى سانت دياغو، ومن المفترض أن تستغرق الرحلة ساعة وخمسين دقيقة، أي أننا سنهبط في حوالى الساعة السادسة وخمس عشرة دقيقة مساءً، بتوقيت كاليفورنيا، وهو يسبق على توقيت ماونتن بساعة واحدة يا سيدي".

"أشكرك، أظن أنني أدرك الآن النطاقات الزمنية".

"حسناً يا سيدي".

كان خليل يفكر أنه كان في الواقع يسافر مع اتجاه الشمس منذ ترك باريس، وقد أعطته التغييرات الزمنية السابقة بعض الساعات الإضافية، على الرغم من أنه لم يكن بالفعل في حاجة إليها. أما التغيير الزمني التالي فسيأخذه عبر خط الزمن الدولي، فوق المحيط الهادئ، لقد قال له مالك "سيخبرك قائد الطائرة عندما تعبر هذا الخط، وستكون مكة إلى الغرب منك وليس إلى الشرق. ومن ثم عليك أن تبدأ صلواتك صوب الشرق وأن تنتهي بها صوب الغرب".

استقر خليل على مقعده الجلدي فيما انتقلت أفكاره من مالك إلى بوريس، وأدرك أن هذا الأخير كان يشغل في تفكيره مساحة أكبر من تلك التي كان يشغلها مالك في الأيام القليلة الأخيرة. فبوريس كان الضابط الأساسي المسؤول عن تلقينه تلك الأشياء التي تتعلق بأميركا والعادات الأميركية، فكان من الطبيعي بالنسبة لخليل الآن أن يفكر فيه أكثر من تفكيره في الآخرين الذين عمدوا إلى تدريب عقله، وجسده، وروحه لأداء هذه المهمة. فبوريس هو من دربه على فهم تلك الثقافة المنحطة التي يجد خليل نفسه الآن في خضمها، بالرغم من أن بوريس لم يكن دائماً يراها منحطة تماماً.

لقد أخبره بوريس ذات مرة "في الحقيقة، تعج أميركا بالثقافات، من أرقاها إلى أدناها. وهناك العديد من الأشخاص - مثلك يا أسد - شديدو الإيمان بالله، بينما هناك من لا يؤمن سوى بالمتعة، والمال، والشهوة؛ كما يوجد هناك الوطنيون مقابل أولئك الذين يظهرون رفضهم للحكومة المركزية. وهناك الشرفاء واللصوص، غير أنني أرى أن المعتدلين الأميركيين بالأساس هم أكثر أمانة من اللصوص الذين تعاملت معهم في بلدكم، بالرغم من حبكم لله. ولا تستخف بأي حال بالأميركيين، فقد استخف بهم أباطرة الحرب البريطانيون، والفرنسيون، واليابانيون، وأدولف هتلر، وحتى حكومتي السابقة. وها قد ذهبت الإمبراطورية البريطانية، وكذلك الفرنسية، وهتلر، والإمبراطورية اليابانية، والروسية، وبقي الأميركيون يعربدون بيننا".

وهنا أجابه خليل "والقرن التالي سيكون لسيادة الإسلام".

ضحك بوريس وقال "لقد دأبتم على قول هذا منذ ألف عام، وسأخبرك بما سيطرحكم أرضاً ويتسبب في هزيمتكم؛ نساؤكم ...".

يذكر خليل أنه لم يحدث أن تحدث أي من الرجلين في هذا الأمر مرة أخرى، ولكن كلاهما كان يعرف أن الموت هو مصير بوريس المحتوم، ومن ثم لم يكن الأمر يستحق النقاش؛ كان الأمر أشبه برجل محكوم عليه بالإعدام يبصق في وجه ذلك الذي سيقوم بقطع رأسه.

كانت الطائرة النفاثة لا تزال مستمرة في صعودها وهي ما تزال في مهب الرياح الجبلية، وعندما نظر خليل إلى الأسفل، كانت قمم الجبال لا تزال بادية، غير أن ضوء القمر لم يكن كافياً لاختراق الوديان المظلمة.

مرة أخرى استقر خليل على مقعده وراح يفكر في بوريس مجدَّدا. فبكل ما فيه من كُفر، وسُكر، وغرور، إلا أنه أثبت أنه معلم جيد؛ فهو يعرف أميركا والأميركيين جيداً. ولقد اكتشف خليل ذات مرة أن معرفته تلك لم يكتسبها كلها في

الفترة التي قضاها في أميركا فحسب؛ فالحقيقة هي أن بوريس قد عمل ذات مرة مع معسكر تدريبي سري في روسيا، وكان أحد المرافق التابعة للاستخبارات الروسية، ويذكر خليل أنه كان يُطلق على هذا المعسكر اسم مدرسة السيدة إيفانوفا تشارم، حيث تعلم الجواسيس الروس كيف يصبحون أمريكيين.

لقد أخبره بوريس بهذا السر ذات مرة في لحظة كان ثملاً فيها، وقال إن ذلك كان من أحد أهم الأسرار الأخيرة التي لم تفصح عنها الاستخبارات السوفياتية قط بعد انهيار الإتحاد السوفياتي. ووفقاً لبوريس، فإن الأميركيين أيضاً رغبوا في أن يظل ذاك سراً دفيناً إلى الأبد. لم يدرك خليل وقتها ما كان يعنيه بوريس، وما كان هذا الأخير ليتحدث عن الأمر ثانية على أي حال، بالرغم من محاولات خليل المتكررة لفتح الموضوع مرة أخرى.

على أي حال، بسبب تلك الفترة التي قضاها بوريس في تلك المدرسة زعم أنه قد أصبح عميق الفهم بطبيعة الأميركيين المعنوية والنفسية أكثر من أي شيء سبق وأن تعلمه من العيش بينهم. في الحقيقة، لقد قال بوريس ذات مرة "أحياناً أشعر وكأنني أمريكي بالفعل. وأذكر تلك المرة التي ذهبت فيها لمشاهدة مباراة البيسبول في بالتيمور، وعندما رفرفت راية الولايات المتحدة شعرت بالدموع تملأ عينيّ". ثم أضاف "بالطبع لا تزال لديّ تلك المشاعر التي تنتابني لدى سماع النشيد الوطني لبلادي". ثم ابتسم وقال "ربما أصبحت أكثر من شخص واحد في الجسد ذاته".

تذكر خليل أن بوريس قال "وطالما أنك لن تكتسب العديد من الولاءات، ستكون أكثر سعادة وأوفر صحة".

وهنا طقطق جهاز الاتصال الداخلي ليقطع سيل ذكريات خليل حول بوريس بانبعاث صوت الكابتن فيسكي "سيد بيرلمان، أعتذر بشأن هذه الاضطرابات، ولكن هذا أمر من الطبيعي حدوثه عند التحليق في المجال الجبلي".

تساءل خليل عمّ يدفع هذا الطيار إلى الاعتذار عن شيء صنعه الله، وليس له أن يتحكم فيه.

"من المفترض أن تهدأ الأجواء في غضون عشرين دقيقة. ستأخذنا خطتنا الملاحية اليوم إلى الجنوب الغربي عبر كولورادو، ثم فوق ما يُعرف بالأركان الأربعة، حيث تلتقي حدود كل من كولورادو، ونيو مكسيكو، وأريزونا، ويوتا ثم سنتابع صوب الجنوب الغربي عبر الجزء الشمالي لأريزونا، ولكن للأسف لن تتمكن من رؤية الكثير ما إن يصبح القمر خلف الأفق الغربي، ولكن سيظل بوسعك أن تميز الصحراء والهضاب العالية".

أما بالنسبة لخليل فلقد رأى في حياته الصحراء أكثر مما رأى كل من هذين الرجلين في مجموع عمريهما معاً. فرفع سماعة جهاز النداء الداخلي وقال "من فضلك، هلاّ أخبرتني ونحن نمر فوق الوادي الكبير؟"

"نعم يا سيدي. هلاّ انتظرت لدقيقة، حسناً، في غضون أربعين دقيقة سنمر في جنوب الحافة الجنوبية من الوادي بنحو خمسين ميلاً. كما قد يمكنك رؤية الوادي

بشكل عام من جهة اليمين، وقطعاً سترى الهضاب الخلفية العالية. ولكن للأسف لن يكون المنظر واضحاً من هذا الارتفاع والمسافة".

في الحقيقة، لم يكن خليل مهتماً على الإطلاق برؤية الوادي، وكل ما هنالك هو أنه أراد أن يطمئن إلى أن الطيار سيوقظه آنذاك في حال غفا، فقال "شكراً لك، ولا تتردد في إيقاظي متى اقتربنا من الوادي".

"حسناً يا سيدي".

أرجع خليل ظهره في مقعده، وأغمض عينيه، وذهبت أفكاره مرة أخرى إلى العقيد كالوم، ولقد بات مقتنعاً أنه اتخذ القرار الصحيح بأن يترك الأمر لملاك الموت كي يتولى شأن هذا القاتل. ثم راح يفكر في زيارته التالية إلى الملازم أول ويجينز. فقد أخبروه في بلاده أن هذا الرجل مفاجئ في حركاته، بخلاف الرجال ذوي العادات الثابتة والتصرفات المتوقعة الذين قتلهم بالفعل، ولهذا السبب، ولأن ويجينز يأتي في ذيل القائمة، سيكون هناك - في كاليفورنيا - من سيتولى مساعدته.

لا يعني هذا أن خليلاً بحاجة إلى مساعدة، ولكنّ هذا الجزء من مهمته كان الأكثر خطورة، والأكثر أهمية كما سيكتشف العالم عمّا قريب.

شعر خليل بجفنيه يسقطان والنعاس يغزوه، مرة أخرى راوده حلم عن ذلك الرجل الذي كان يطارده. كان ذاك حلماً مشوشاً رأى فيه نفسه وذلك الرجل يحلّقان فوق الصحراء؛ خليل في المقدمة وذلك الرجل خلفه، ولكنه لا يراه، ومن فوقهما يطوف ملك الموت، وكان يشعر أن ملك الموت كان يفكر أيًّا من الرجلين عليه أن يمس فيسقط ميتاً فوق الأرض.

ثم تحول هذا الحلم إلى حلم آخر رأى فيه نفسه يحلّق وتلك المرأة التي قادت له تلك الطائرة، بيد أنهما كانا عاريين ويمسكان بأيدي بعضهما البعض، ويبحثان عن سطح يهبطان عليه ومن ثم ينغمسان في نشوتهما الجسدية، إلا أن كافة أسطح البنايات التي أبصراها كانت مدمرة بفعل القنابل.

وهنا طقطق جهاز النداء الداخلي ثانية واستيقظ خليل فزعاً وقد تعرق وجهه وغمرته الإثارة.

ثم قال القائد "إن الوادي يبدأ في الظهور إلى يمينك سيد بيرلمان".

أخذ خليل نفساً عميقاً، ثم تنحنح قبل أن يتحدث في سماعة جهاز النداء الداخلي ليقول "شكراً لك".

ثم نهض، وسار نحو الحمام، فغسل وجهه ويديه بالماء البارد، إلا أن تلك الأحلام كانت لا تزال تطوف بعقله. وعندما عاد إلى مقعده، وأطل من النافذة، كان القمر في اكتماله يعدو خلف الأفق، وأضحت الأرض بالأسفل مظلمة تماماً.

التقط سماعة الهاتف، وطلب رقماً استدعاه من الذاكرة، فأتاه صوت رجل "ألو".

"أنا بيرلمان، أعتذر لإيقاظك في هذه الساعة المتأخرة".

فأجابه الرجل "معك تاننباوم، ولا بأس، فأنا أنام بمفردي".

"جيد، فالهدف من اتصالي هو معرفة ما إذا كان لدينا عمل لنقوم به".

"نعم، المناخ مهيأ هنا الآن للقيام بالعمل".

"وأين منافسونا؟"

"ليسوا في المجال بحيث يمكن رؤيتهم".

هكذا اكتملت المحادثة المتفق عليها، فأنهاها خليل بأن قال "كم أتطلع إلى لقائنا إذاً".

"سنفعل، كما هو متفق عليه".

وضع خليل السماعة، ثم تنهد بعمق، وهو يلتقط جهاز النداء الداخلي حيث أجابه القائد على الفور "نعم سيد بيرلمان؟"

"لقد أجريت مكالمة هاتفية تستوجب أن نجري تغييراً آخر في الرحلة".

"نعم يا سيدي".

كان بوريس قد قال لخليل "لا يجب أن يبدي السيد بيرلمان الكثير من الاعتذار لدى كل تغيير يطلبه في الرحلة. فالسيد بيرلمان يهودي، وهو يدفع الكثير من المال في هذه الرحلة، ومن ثم يتوقع أن يتلقى الخدمة الجيدة في المقابل. وبالنسبة له، العمل يأتي على رأس قائمة الأولويات، وهو في هذا لا يعبأ إن انزعج منه الآخرون".

فقال خليل للطيار "أحتاج أن أذهب إلى سانتا مونيكا، أتمنى ألا تكون هناك مشكلة في هذا".

"كلا يا سيدي، فلن يشكل ذلك فارقاً ملحوظاً في زمن الرحلة من نقطتنا هذه".

كان خليل يعرف ذلك بالفعل، فأجاب "هذا جيد".

فأردف الكابتن فيسكي "ولا أتوقع أي تأخير في استجابة المراقبة الملاحية في هذه الساعة".

"ما هو زمن الرحلة إلى سانتا مونيكا؟"

"أنا أحاول حساب المتناظرات الآن يا سيدي. حسناً، ستستغرق الرحلة حوالى أربعين دقيقة، بحيث نكون في المطار المحلي قرابة السادسة صباحاً. قد نضطر إلى الإبطاء قليلاً حتى لا نصل قبل السادسة بسبب قانون حظر الضوضاء".

"أفهم هذا".

بعد عشرين دقيقة أخرى، كانت الطائرة النفاثة لير تبدأ هبوطها، ورأى خليل مجموعة منخفضة من الجبال تظهر من بين الوهج الناعم بسبب شروق الشمس من خلفها.

مرة أخرى أتى صوت الكابتن فيسكي عبر الجهاز "لقد بدأنا هبوطنا يا سيدي، فهلاّ ربطت حزام مقعدك. تلك المرتفعات أمامنا هي جبال سانت بيرناردينو، كما

يمكنك رؤية الأضواء على حافة لوس أنجلوس الشرقية بالأسفل. أما مطار سانتا مونيكا، فهو إلى الأمام إلى جهة اليسار، في تلك المنطقة التي يلتقي فيها الساحل بالمحيط. وسنكون على الأرض في غضون عشر دقائق".

لم يجبه خليل، وسرعان ما شعر بالطائرة تميل في هبوطها قبل أن يرى أشرطة الضوء الهائلة للطرقات السريعة المضاءة بالأسفل منهم.

ضبط خليل ساعة يده على توقيت كاليفورنيا، والذي كان السادسة إلا خمس دقائق صباحاً، عندما سمع الطيار يتحدث في جهازه اللاسلكي، إلا أنه لم يسمع ما كان يقوله الشخص عند الطرف الآخر حيث إن الطيارين كانا يضعان سماعات الرأس. لم تكن تلك عادتهما أثناء الرحلة من نيويورك، وكان خليل يستطيع من وقت لآخر سماع الرسائل اللاسلكية المتبادلة. لا يعني هذا أنه كان مرتاباً بشأن استخدامهما لسماعات الرأس، ولكن كان يجدر به ملاحظة الأمر في حال ظهرت أي تفاصيل أخرى من شأنها أن تشير إلى أي تغيّر في سلوكيهما.

كانوا قد وضعوا تخطيطاً لهذه الرحلة كاملاً في بلده، فكان تغييره للمسار بعد عبور الوادي الكبير سيجعله يصل إلى سانتا مونيكا في نفس زمن وصوله إلى سانت دياغو - أو حتى قبل ذلك بدقائق - وليس قبل موعد رفع حظر الضوضاء. فلو أنهم كانوا متربصين به في سانت دياغو ثم اكتشفوا أنه في طريقه إلى سانتا مونيكا آنذاك، فسيكون لديهم أقل من أربعين دقيقة لنصب الأفخاخ له. ولو أن الأمر يستلزم منهم أكثر من هذا، لا شك أن الطيار سيخبره بضرورة التأخير لبعض الوقت، وعندها سيطلب أسد خليل تغييراً آخر في الرحلة، ولكن وهو يصوب السلاح إلى رأسيهما هذه المرة.

أما المطار البديل فسيكون مرفقاً مهجوراً في مرتفعات سانت بيرناردينو على بعد دقائق من الطيران من مكانهم هذا، حيث كانت تنتظره سيارة، ومفاتيحها أسفل إحدى عجلاتها. أي أنه سرعان ما ستعرف السلطات لمن اليد العليا في هذا الموقف؛ وبالقطع كانت لأسد خليل في هذه الطائرة النفاثة الخاصة وبحوزته السلاح.

حلّقت الطائرة فوق المحيط، ثم استدارت عائدة إلى الساحل فيما كانت تتابع هبوطها. كان خليل يترقب أي إشارة إلى التأخير في الهبوط، عندما سمع أجهزة الهبوط تتحرك لتتخذ موضعها إلى الأسفل، ثم راح يشاهد الألواح وهي تمتد من خلف الجناح، وأضيئت أنوار الهبوط على حواف الجناحين وفي كوّات قمرة القيادة. لكنّ خليلاً كان يعرف أن كل أمارات الهبوط هذه لا تعني بالضرورة حتمية هبوطه على الأرض آمناً، ولكن طالما أن إمكانية تغيير الخطة متاحة وفقاً لقراره هو، فلا بأس من فعل هذا وجعل الأمور أصعب قليلاً بالنسبة للأميركيين حال كانوا بالفعل يحاولون نصب الأفخاخ له.

كان مالك قد أراه فيلمين غاية في الأهمية؛ شاهد الأول بالتصوير البطيء، وكان يصور أسداً يطارد غزالة حين غيرت تلك الأخيرة مسارها صوب اليسار، وقال مالك "لاحظ كيف أن الأسد لا يفرط في استدارته صوب اليسار ليعترض طريق فريسته، فهو يعرف أنه بوسع الغزالة أن تغير مسارها إلى اليمين بسرعة فائقة،

ومن ثم سيفقدها. لذا تجده يغير الاتجاهات في نفس زاوية فريسته ويلحق بها من الخلف مباشرة. فهو لن ينخدع، وهو يدرك تماماً أن سرعته تفوق حتى سرعة الغزالة طالما أنه يبقي عينيه على ساقيها الخلفيتين". وانتهى الفيلم بالأسد ينقض على فخذ الغزالة التي سقطت أسفل ثقل جسده وباتت تنتظر موتها في استسلام.

أما الفيلم الثاني فكان لأسد مطارد عبر سهل عشبي مفتوح من قِبل سيارة لاند روفر يوجد داخلها رجلان وامرأتان. وفقاً لراوي الفيلم، كانت تلك المجموعة في السيارة تحاول الاقتراب من الأسد لإصابته بجرعة مهدئة بحيث يمكن اصطياده لغرض ما. مرة أخرى كان الفيلم يدور بالعرض البطيء، ولاحظ خليل أن الأسد قد حاول في البداية الاعتماد على سرعته للابتعاد عن الشاحنة بمسافة كافية، ولكنه غير اتجاهه صوب اليمين في عدوه، وكذلك تبعته الشاحنة إلى اليمين، ولكن في زاوية حادة حتى تعترض طريق الأسد. ولكن الأسد - وهو الآن في وضع الغزالة الطريدة - كان يعرف بالغريزة والخبرة ما ترمي إليه الشاحنة، فعمد إلى تغيير اتجاهه إلى اليسار على نحو مفاجئ، فأصبحت الشاحنة على مسافة بعيدة جداً عنه إلى اليمين. وانتهى الفيلم، ولم يعرف خليل أبداً ما إذا كان الأسد قد نجح في الفرار.

لكن مالك قال حينذاك "عندما كان الأسد هو الصياد، ظل مولياً الفريسة انتباهه بالكامل، بينما حين كان هو الفريسة المطاردة، عمد إلى استخدام معرفته وفطرته كصياد حتى يخدع مطارديه. هناك أوقات يتعين عليك فيها أن تغير اتجاهاتك لتجنب مطارديك، وفي أوقات أخرى قد تتسبب التغييرات غير الضرورية في فرار الفريسة. وأسوأ التغييرات هي تلك التي تدفع بك إلى الفخ مباشرة. فاعلم إذاً متى ينبغي عليك أن تغير اتجاهك، ومتى تزيد من سرعتك أو تبطئ منها إذا ما شممت رائحة الخطر أمامك. واعلم أيضاً متى تتوقف وتختبئ في الغابة؛ فالغزالة التي تنجح في الفرار من الأسد تسرع فوراً إلى مرعاها، فيسعدها أن تملأ معدتها بالعشب عن أن تملأ هي معدة الأسد. ولكن هذا الأخير لا يزال يرغب في لحمها، وسينتظرها حتى تصبح أسمن وأثقل وأبطأ في حركتها".

كانت الطائرة النفاثة لير قد عبرت المدرج، ونظر خليل عبر الكوة بينما كانت الطائرة تمس المهبط الخرساني.

سرعان ما توقفت الطائرة، وبدأت تخرج من أحد المخارج، ولم تمضِ بضع دقائق إلا وتوقفت الطائرة تماماً فوق منصة الملاحة العامة التي كانت خالية تماماً في تلك الساعة.

نظر خليل عن كثب من نافذة القمرة، ثم وقف والتقط حقيبته، وسار حتى مقدمة الطائرة، ثم انحنى خلف الطيارين. كان يتفحص المكان من خلال نافذة القمرة الأمامية حين لمح أمامهم رجلاً يحمل ألواحاً مضيئة كان يلوح بها ليقود الطائرة إلى المكان الذي من المفترض أن تقف فيه أمام المبنى.

أوقف الكابتن فيسكي المحركات عن العمل وقال لمسافره "ها نحن قد وصلنا سيد بيرلمان. هل تحتاج إلى توصيلة إلى أي مكان؟"

"كلا، فهناك شخص بانتظاري". بيد أنني لا أعرف من هو!

مكث خليل ينظر عبر نوافذ قمرة القيادة.

كان مساعد الطيار واسمه سانفورد يحل أحزمته، ثم وقف وهو يستأذن كي يمر من خلف خليل، وشرع يفتح باب القمرة، فاندفع النسيم البارد إلى داخل الطائرة. قفز سانفورد إلى خارج الطائرة، وتبعه أسد خليل، وهو يستعد لإلقاء عبارة الوداع وإطلاق الرصاص على مؤخر رأس الرجل وفقاً لما سيحدث في الثواني القليلة المقبلة.

ثم لحق بهما الكابتن فيسكي، وقف الرجال الثلاثة معاً في الهواء البارد، فقال خليل "من المفترض أن أقابل زميلي هذا في المقهى".

قال فيسكي "حسناً يا سيدي، حسبما أتذكر منذ آخر مرة كنت فيها هنا، كان هناك مقهى في ذلك المبنى ذي الطابقين هناك. أظنه سيكون مفتوحاً الآن".

كانت عينا خليل تدوران في المكان عبر الحظائر وأبنية الصيانة، وكانت ظلال الصباح الباكر لم تزل تغمرها.

فأردف فيسكي "هناك يا سيدي، ذلك المبنى ذو النوافذ".

قال خليل "نعم، أراه". ثم نظر إلى ساعته، وقال مخاطباً الطيار "سيأخذني زميلي هذا إلى بيربانك، كم من الوقت من المفترض أن يستغرق ذلك؟"

فكّر الطيار ومساعده في سؤال خليل، ثم قال تيري سانفورد "إن مطار بيربانك يقع على بعد حوالى اثني عشر ميلاً من هنا، أي أنه لا يُفترض أن يستغرق الذهاب إلى هناك بالسيارة في مثل هذه الساعة وقتاً طويلاً؛ ربما عشرون أو ثلاثون دقيقة".

وبما أن الطيارين كانا يتساءلان، قال خليل "ربما كان من الأفضل لو أنني ذهبت إلى المطار هناك مباشرة إذاً".

"حسناً، إن رفع حظر الضوضاء هناك يبدأ من الساعة السابعة صباحاً".

"ولهذا طلب مني زميلي هذا أن أوافيه هنا".

"نعم يا سيدي، محتمل".

في الحقيقة، كان خليل يعرف كل هذا، وابتسم لنفسه وهو يفكر في الوقت الذي سيكتشف فيه الطياران أن مسافرهما لم يكن جاهلاً كما كانا هما في ما يتعلق بخطط رحلته.

شكر خليل الطيارين وقال "أشكر لكما مساعدتكما وصحبتكما".

أجابه الطياران أنه كان من دواعي سرورهما سفره على متن طائرتهما، بيد أن خليلاً كان مرتاباً في صدق مشاعرهما تلك. ثم نقدهما مئة دولار نقداً وقال "سأطلبكما بالاسم في المرة القادمة التي أتعامل فيها مع شركتكما".

شكر الطياران السيد بيرلمان، ومس كل منهما قبعته في إشارة إلى التحية والاحترام، ثم سارا مبتعدين إلى الحظيرة المفتوحة حيث طائرتهما.

وقف خليل بمفرده، مكشوفاً تماماً في العلية المفتوحة، وانتظر أن ينفجر هذا الهدوء بصيحات الرجال وهم يعدون نحوه. إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث، ولم يندهش خليل لهذا، فهو لم يكن يشم رائحة الخطر على أي حال، بل وأشعرته الشمس في إشراقها بوجود الله.

في تؤدة ورويّة سار خليل نحو المبنى الزجاجي إلى اليمين من الحظيرة، ثم دخله. وهناك وجد المقهى ورجلاً وحيداً يجلس إلى إحدى الطاولات. كان الرجل يرتدي بنطالاً من الجينز وقميصاً قطنياً أزرق اللون، وكان يقرأ صحيفة لوس أنجلوس تايمز. ولاحظ خليل أن الرجل يحمل نفس ملامحه السامية وكان في مثل عمره كذلك.

اقترب خليل من الرجل وسأله "سيد تاننباوم؟"

نهض الرجل عن مقعده وقال "نعم، سيد بيرلمان؟"

تصافح الرجلان، ثم سأل الرجل الذي يطلق على نفسه اسم تاننباوم "هل ترغب في بعض القهوة؟"

قال خليل "بل أعتقد أنه يجدر بنا الذهاب". وترك المقهى.

دفع الرجل ثمن القهوة التي احتساها لدى ماكينة النقد، ثم ذهب للحاق بالسيد بيرلمان خارج المقهى، ثم تركا المبنى معاً، وشرعا يسيران إلى المرآب، فيما كان السيد تاننباوم يتحدث الإنكليزية وهو يقول "هل كانت رحلة جيدة؟"

"هل كنت سأكون هنا الآن لو لم تكن كذلك؟"

لم يعلّق الرجل، وقد استشعر أن هذا الوطني الذي يسير بجواره لا يسعى إلى الصحبة أو الحديث الفارغ.

ثم سأله خليل "أمتأكد أنت أنه لم يتبعك أحد إلى هنا؟"

"نعم، ما من شك لديّ. كما أنني لست متورطاً في شيء من شأنه أن يجعلني محط انتباه السلطات".

فأجابه خليل بالعربية "وما زلت غير متورط في أي من هذه الأشياء يا صديقي، فلا داعي لافتراض ذلك".

فردّ عليه الرجل بالعربية كذلك "بالطبع، تقبّل اعتذاري".

كانا قد اقتربا من شاحنة زرقاء متوقفة في المرآب، وقد كُتب على جانبها *خدمة التوصيل السريع - محلياً وبين الولايات - التوصيل في نفس اليوم أو في اليوم التالي*، ثم رقم هاتف.

فتح الرجل باب الشاحنة، ثم دلف إلى مقعد السائق، بينما جلس خليل على المقعد إلى جواره، ثم ألقى نظرة إلى الجزء الخلفي من الشاحنة حيث العديد من الصناديق

موضوعة على أرضيتها.

أدار الرجل محرك الشاحنة وهو يقول "اربط حزام مقعدك من فضلك حتى نتجنب أن يوقفنا أحد رجال الشرطة".

فعل خليل ذلك، بينما لا يزال يضع حقيبته السوداء فوق فخذيه، ثم قال "اتخذ الطريق 405 إلى الشمال".

أخذ محرك الشاحنة يمور، والرجل يقودها خارج المرآب، ومنه إلى خارج المطار المحلي، وفي غضون دقائق كانا يسيران فوق الطريق السريع الذي يربط الولايات، صوب الشمال. بينما كان السائق يزيد من سرعة الشاحنة، كان كل منهما يراقب الطريق من مرآته الجانبية.

كانت السماء قد أشرقت، وخليل ينظر من حوله وهما متجهان صوب الشمال؛ فلمح علامة الخروج من مدينة سنشري، واستوديوهات سنشري-فوكس، وهوليوود الغربية، وبيفرلي هيلز، وشيء ما يُدعى UCLA، وكان خليل يعرف أن هوليوود هي مسقط رأس صناعة السينما الأميركية، بيد أن هذا الشأن كان خارج نطاق اهتماماته، كما أن السائق بجواره لم يتطوع بتقديم أي معلومات، بل قال "لديّ في الخلف صناديق مرسلة إلى السيد بيرلمان".

فلم يعلّق خليل.

"بالطبع لا علم لي بما في داخلها، ولكنني أثق في أنك ستجد فيها كل ما تحتاج إليه".

ومرة أخرى لم يعلق خليل.

فمكث السائق صامتاً، وشعر خليل أن الرجل قد انزعج وبات يشعر بعدم ارتياح، فشرع يخاطبه مستخدماً اسمه الحقيقي "أنت من ... إذاً يا عظيم".

"نعم".

"وهل تفتقد بلادك؟"

"بالطبع".

"وتفتقد عائلتك بالطبع. أظن أن أباك لم يزل يعيش هناك، أليس كذلك؟"

تردد عظيم قبل أن يجيب "بلى، هو كذلك".

"سرعان ما ستتمكن من زيارة بلدك وستمطر عائلتك بالهدايا".

"نعم".

ثم مضت برهة أمضياها في الصمت، وكلاهما يلقي نظرة على مرآته الجانبية من حين لآخر، حتى اقتربا من منطقة تبادل داخلية حيث طريق الولايات يقطع طريق فينتشورا السريع، وإلى الشرق منه كانت بيربانك، بينما يقود الطريق غرباً إلى فينتشورا.

قال خليل "أخبروني أن لديك العنوان الذي تقصده".

كان عظيم قد خرج بالشاحنة عن الطريق، وما إن سمع خليلاً يقول هذا حتى شرع يتحدث بسرعة قائلاً "كلا، كلا، أنا لا أعرف شيئاً لقد أخبروني أن -".

ضحك خليل، ووضع يده برفق على كتف عظيم، وقال "أوه، نعم، لقد نسيت. لديّ العنوان، فلتتخذ المخرج إلى فينتشورا".

أجبر عظيم نفسه على الابتسام ابتسامة صغيرة، ثم خفف سرعته بينما كان يأخذ الطريق إلى اليمين ومنه إلى مخرج فينتشورا.

أما خليل، فشرع ينظر إلى الوادي الفسيح حيث يعج بالبيوت والأبنية التجارية، ثم انتقل بعينيه إلى المرتفعات العالية البعيدة، فيما لم يغفل أيضاً عن أشجار النخيل التي ذكّرته ببلاده. بيد أنه أبعد عن رأسه التفكير في بلاده على الفور، معطياً كل انتباهه وتفكيره للوجبة القادمة.

كان ويجينز فريسة مراوغة، وقد انتقل على نحو مفاجئ إلى منطقة تُدعى فينتشورا تقع على الساحل، بعيداً إلى جهة الشمال. في الحقيقة، كان هذا الانتقال بمثابة خطوة قدرية وضعت ويجينز على مسافة أقرب من تلك التي كان من المخطط أن تنتهي عندها زيارة خليل إلى أميركا. ومن ثم لم يسع خليل إلا أن يثق أن يد الله كانت تحرك القليل مما تبقى من اللاعبين نحو الأماكن الأفضل بالنسبة له.

في حال كان الملازم أول ويجينز في منزله، فهذا يتيح لخليل أن يُنهي عمله اليوم، ويمضي إلى العمل الذي لم يتمه بعد. أما إذا لم يكن ويجينز في المنزل، عندها سيعود ليجد في انتظاره أسداً جائعاً يربض لينقض على عنقه.

هنا أطلق خليل ضحكة قصيرة، فنظر نحوه عظيم، ثم ابتسم، ولكن سرعان ما زالت ابتسامة هذا الأخير حين أبصر التعبير على وجه خليل الذي صاحب هذه الضحكة؛ شعر عظيم بشعر عنقه يقف وهو يحدّق في المسافر إلى جانبه، والذي بدا وكأنه يتحول من الآدمية إلى الوحشية.

الفصل السادس والأربعون

اتصلت برقم في واشنطن العاصمة، فأتاني صوت رجل من الناحية الأخرى يقول "القسم الجنائي؛ معك التحري كالوم".

فأجبته "وأنا جون كوري من مديرية شرطة نيويورك، القسم الجنائي كذلك، كنت أرغب في الحديث إلى التحري كالفين تشيلدرز".

"لديه حجّة غياب في تلك الليلة، فهو لم يكن هناك".

يبدو أن الجميع يظنون أنفسهم ظرفاء، غير أنني فضلت أن ألعب لعبته، فقلت "إنه أسود، ومسلح، ولن يأخذه سواي".

فضحك كالوم وقال "انتظر للحظة".

فانتظرت دقيقة حتى أتى كالفين تشيلدرز إلى الهاتف وقال "مرحبا يا جون، كيف الحال في نيويورك؟"

"رائع يا كال، الهراء القديم ذاته".

وعندما انقضت المجاملات المبدئية، قلت لكالفين "أنا أعمل على قضية الترانس-كونتيننتل".

"مرحى، كيف حظيت بقسط من هذا؟"

"إنها قصة طويلة، في الحقيقة، إنني أعمل لدى الفيدراليين الآن".

"كنت أعرف أن نهايتك ستكون سيئة".

ضحكنا لهذا التعليق. كنت أنا وكال تشيلدرز قد حضرنا ذلك المؤتمر الصغير الذي أقيم في مقر مكتب التحقيقات الفيدرالية منذ بضع سنوات، ولقد انجذبنا لبعضنا البعض لأسباب تتعلق في الغالب بمشكلاتنا مع السلطة والفيدراليين. ولقد كان كال هو من أخبرني بمزحة المدعي العام السخيفة تلك.

فقلت لكال "هل تمكنت من معرفة من قتل آل ويتي؟"

فضحك كالفين وقال "يا صاح، أكان هؤلاء القوم جثثاً هامدة؟ لقد جلسوا هناك من دون أدنى تعبير على وجوههم! وهل تعمل لدى هؤلاء المزهوين بأنفسهم؟"

"أعمل لديهم بمقتضى عقد قصير المدى، وبصلاحيات أقل بكثير".

"نعم، ماذا الآن؟ كيف يمكنني مساعدتك؟"

"حسناً، أتفضل أن أكون مباشراً معك، أو أن أتحايل عليك بحيث أستقي منك ما أريده بينما تعرف أنت القليل عمّا لدي؟"

"هل نحن على الهواء الآن؟"

"محتمل".

"هل لديك هاتف خلوي؟"

"بالطبع لديّ".

"اتصل بي إذاً". ثم أعطاني رقمه المباشر، فأنهيت تلك المكالمة، وقلت لكيت، وكانت قد عادت من حيث تذهب النساء في المعتاد "معذرة، هل لي أن أستخدم هاتفك الخلوي؟"

كانت تفعل شيئاً ما على حاسوبها، وبدون كلمة أو نظرة، مدت يدها إلى جيب سترتها، وناولتني هاتفها الخلوي.

قلت لها "شكراً لك". وطلبت رقم كالفين، فأجابني قائلاً "حسناً، هل تعمل في قضية مقتل الجنرال وايكليف؟"

"كلا، ولكنني أعرف المنوط بها".

"جيد، وهل توصلتم إلى أي أدلة".

"كلا، هل فعلتم أنتم؟"

"لديّ اسم القاتل".

"أحقاً؟ هل قبضتم عليه؟"

"ليس بعد. ولذا أحتاج إلى مساعدتك".

"بالطبع، أعطني اسم القاتل".

"لا مانع، ولكن أسدِ لي معروفاً أولاً".

ضحك كال وهو يقول "حسناً، ماذا تريد؟"

"إليك الإتفاق، أحتاج إلى أسماء بعض الرجال ممن قاموا بمهمة قصف برفقة الجنرال القتيل. سأكون مباشراً معك، هذه الأسماء سرية للغاية، والقوات الجوية ووزارة الدفاع جداران لا يمكن اختراقهما أو التحايل عليهما، أو ربما لا يعرفان".

"وكيف لي أن أعرف أنا إذاً؟"

"يمكنك أن تتحدث إلى أفراد العائلة، أو أن تذهب إلى منزل القتيل، وتلقي نظرة حول المكان؛ انظر إلى دفتر الهاتف خاصته، أو في ملفاته. أو ربما تجد صورة ما له هنا أو هناك، أو شيء كهذا. كنت أظنك تحريًّا يا رجل".

"أنا تحريّ لا مراء، ولكنني لست قارئاً للعقول. أعطني المزيد".

"حسناً، مهمة القصف تلك كانت على منطقة تُدعى ...".

"آه، لدي ابن عم اسمه ...".

هل ذكرت أنني وكال نتمتع بطرافة ذات طبيعة متفردة؟ فقلت له "إنه اسم مكان في... يا كال؛ بالقرب من العاصمة".

"أوه، حسناً، لماذا لم تقل ذلك؟ اتضح الأمر الآن".

"الأمر هو أنني أكيد من أن الجنرال وايكليف قد قتله رجل اسمه أسد خليل".

"الرجل الذي قتل ركّاب تلك الطائرة؟"

"هو بعينه".

"وماذا يفعل في العاصمة بحق الجحيم؟"

"يقتل الآخرين. إنه يتحرك وفقاً لخطة. أظنه يسعى إلى قتل كافة الطيارين وأفراد الطاقم الذين شاركوا في الهجمة على تلك المنطقة".

"أتمزح؟ ولم؟"

"لأنه يسعى إلى الثأر. أعتقد أنه كان يعيش في تلك المنطقة، وربما قتلت تلك القنابل بعضاً ممن كان يعرفهم. أتفهم ما أقصده؟"

"نعم، وهو يسعى الآن إلى الانتقام".

"هذا صحيح. وحين وقعت مهمة القصف تضمنت المهمة أربع طائرات من طراز F-III، وطاقمين يضمان ثمانية رجال. أحدهم، ويُدعى العقيد وليام هامبريشت، أعمل فيه القاتل فأساً بالقرب من قاعدة لاكينهيث الجوية في إنكلترا في يناير الماضي. ثم لدينا الجنرال وايكليف الذي كان مشتركاً في الهجمة ذاتها. وهناك رجل آخر لا أعرف اسمه قد قُتل في حرب الخليج. أي أن لدينا اسمين هما هامبريشت ووايكليف. ربما تجد صورة جماعية أو شيئاً من هذا القبيل".

قال كال "فهمتك". ثم صمت لثانية أو اثنتين وقال "ولكن، لماذا ينتظر هذا الرجل كل هذه السنوات للانتقام؟"

"لأنه كان صبياً وقتها، ولقد كبر الآن". ثم أعطيت كال خلفية مختصرة عن تاريخ أسد خليل، وتسليمه لنفسه في باريس، وبعض الأشياء الأخرى التي لم تذكرها الأخبار.

فقال كال "يا صاحبي، لو أن هذا الرجل كان بالفعل لدى السلطات في باريس، فلا شك أن لديهم بصمات أصابعه وتلك الأشياء الأخرى".

"معك حق. فلتتصل إذاً بمعمل مكتب التحقيقات الفيدارلي كي يرسلوا لك ما لديهم. وستجد لديهم أليافاً من سترته، ولعلّه لا يزال يرتديها في العاصمة، ولديهم كذلك حمضه النووي وبعض الأشياء الأخرى".

"وهل لديهم عينة من فضلاته؟"

"لديهم هذه أيضاً".

ضحك كال وقال "في الحقيقة، لم نجد الكثير في مسرح الجريمة، ولكن لو كان المدعو خليل ذلك هو من فعلها، فعلى الأقل بوسع المعمل الجنائي معرفة ما إذا كان هذا هو من يبحثون عنه بالفعل متى أرسل لنا الفيدراليون ما لديهم من بصمات وألياف وأشياء أخرى".

“هذا صحيح. وهل كانت الرصاصات التي أطلقت على الضحايا من عيار أربعين؟”

“كلا، من عيار خمسة وأربعين. فوفقاً لابنة الجنرال كان ذلك الأخير يحتفظ بمسدس آلي من عيار خمسة وأربعين، ولقد وُجد مفقوداً بعد حادثة القتل تلك”.

“كنت أظن أن لا شأن لك بالقضية”.

“أنا فعلاً لا أعمل فيها بشكل مباشر، ولكنها قضية كبيرة وهامة؛ علية القوم، تفهم بالطبع ما أعني؟”

“نعم، على الأقل ليس بوسعهم توريطك في الأمر”.

ضحك كال ثانية وقال “والآن. أحتاج إلى بضع ساعات كي -“.

“بل ساعة واحدة على الأكثر يا كال، فهناك أناس يجب تحذيرهم وحمايتهم. بل وربما نكون قد تأخرنا بالفعل”.

“حسناً، لا بأس. عليّ أولاً أن أتحدث إلى هؤلاء القائمين على القضية، ثم سأذهب على الفور إلى منزل الضحية بنفسي، وسأتصل بك من هناك. اتفقنا؟”

“أقدّر لك صنيعك يا كال”. ثم أعطيته رقم هاتف كيت الخلوي وأضفت “احتفظ بهذا الرقم لنفسك فقط”.

“تذكر أنت مدين لي بهذا الصنيع”.

“لقد سبق وأن دفعت يا صديقي، لا تنسَ أنك تبحث عن القاتل ولقد أرشدتك إليه”.

“من الأفضل لك أن يكون الأمر هكذا فأنا أعرض نفسي للخطر بهذا”.

“سأغطيك”.

“نعم، فعادة ما يغطي مكتب التحقيقات الفيدرالية رجال الشرطة”.

“ولكنني لم أزل شرطياً”.

قال كال “خير لك”. وأنهى المكالمة، ووضعت أنا الهاتف على مكتبي.

تحولت كيت بعينيها من شاشة الحاسوب إليّ وقالت “لقد سمعت المكالمة بأسرها”.

“لا بأس، ولكن دعي هذا يمضي بصفة غير رسمية”.

“فليكن، ولكن أحسبك تقوم بهذا بحرص”.

“هذا يأتي في المقام الأول”.

“لا داعي للارتياب، فمسموح لك أن تجوب كافة القنوات الشرعية في بحثك وتحقيقك”.

“حتى الأشياء السرية للغاية؟”

“كلا، ولكن يبدو أن مرتكب تلك الجرائم لديه بالفعل المعلومات التي تبحث عنها، مما يعني أن الأمر قابل للمساومة”.

“أكيدة أنتِ من ذلك؟”

“ثق بي، فأنا محامية”.

ابتسمنا، وأظننا عدنا بذلك لقواعدنا سالمين، ثم تبادلنا بعض العبارات القليلة بعد ذلك، من تلك التي يتبادلها العشاق بعد سوء التفاهم الطفيف حول تخلص أحدهما من شخص يكره الآخر وجوده، ثم انتقلنا في هدوء من ذلك الحديث إلى العمل مرة أخرى.

قالت كيت “لو استطعنا بالفعل الحصول على أسماء أولئك الأشخاص، وربما عناوينهم، قبل أن تفصح عنهم السيدة هامبريشت، أو قبل أن تعثر عليهم القوات الجوية أو وزارة الدفاع، فستكون لدينا فرصة جيدة جداً للاستمرار في العمل على هذه القضية، أعني قبل أن تحصل وحدة مكافحة الإرهاب في واشنطن على تلك الأسماء”.

نظرت إليها، لا شك أن الآنسة مايفيلد لاعبة متميزة في فريق العمل، وتجيد إعادة التفكير في الطريقة التي يمكن بواسطتها ممارسة اللعبة بالفعل.

تلاقت أعيننا، فابتسمت كيت، وقلت “نعم، فأنا أيضاً أكره أن يأخذ مني الآخرون أشياء أعتبرها أشيائي الخاصة”.

أطرقت كيت وقالت “أنا أجدك بالفعل غاية في الذكاء، فلم يخطر ببالي قط أن أتصل بأحد تحريي القسم الجنائي بالعاصمة”.

“أنا شرطي جنائي بالأساس، وهذا عمل من شرطي لآخر. نحن نفعل هذا طوال الوقت؛ وهذا ما فعله جابي كذلك”. ثم أضفت “ولكنكِ من فكرتِ في طلب ملف العقيد هامبريشت، أترين ما أعنيه؟ نحن جميعاً نعمل معاً؛ الفيدراليون، ورجال الشرطة، والمنسقون. الأمر يمضي بشكل جيد بحق، ويا له من مفهوم! لماذا لم أدخل في هذا الإطار منذ عشر سنوات؟ كلما فكرت في كل ذلك الوقت الذي أضعته في العمل مع الشرطة”.

“جون لا تفكر في الأمر”.

“أمرك يا سيدتي”.

“سأطلب طعاماً للغداء. ماذا تريد؟”

“نبات الكمأ مع الجاودار وصلصة البيرنازي، وبعض المخللات”.

“وماذا عن لكمة من قبضتي أسفل عنقك؟”

يا الله. نهضت وأنا أتمدد، ثم قلت لها “هيا، سأصطحبك لتناول الغداء بالخارج”.

“حسناً، أنا لا أريد”.

"هيا، فأنا أحتاج إلى الخروج من هنا. كما أنه بإمكانهم استدعاؤنا متى أرادوا". قلت هذا ووضعت هاتفها الخلوي في جيبي.

قالت كيت "حسناً". ووقفت، ثم اتجهت صوب مكتب الضابط المناوب - وكانت امرأة في تلك المناوبة - فأخبرتها أننا سنذهب لبعض الوقت وسرعان ما سنعود. ومن ثم تركنا مركز قيادة الحدث وفي غضون دقائق كنا نجوب برودواي. كان الطقس لا يزال لطيفاً، والأرصفة مزدحمة بالمارة الذين كانوا يهرعون لتناول غدائهم، حيث معظمهم من الموظفين الحكوميين الذين يأكلون من عربات بيع الأطعمة أو الحقائب البنية لتوفير بعض الدولارات. في الحقيقة، إن رجال الشرطة لا يتقاضون الكثير، بيد أننا نعرف كيف نصرّف أمورنا. وحقيقة الأمر أن المشتغلين بهذا العمل لا يمكنهم توقع ما ستجلبه عليهم أيامهم الآتية؛ ومن ثم، كل واشرب، واقضِ وقتاً ممتعاً ما استطعت!

ولأنني لم أشأ الابتعاد كثيراً عن وزارة العدل، لذا اكتفيت بأن تخطينا مبنيين جنوب شارع تشامبرز، بجوار مجلس المدينة.

ونحن في طريقنا، قالت كيت "اسمح لي أن أعتذر في حال بدوت غاضبة على نحو ما قبل أن نغادر المركز. ليس هذا من طبعي".

"فلتنسي الأمر. عادة ما تكون الأيام الأولى على قدر من الصعوبة".

"هذا صحيح تماماً".

لست أعني أنني لم أقدر لها محاولتها تلك. لكن، ما الداعي لذكر الأمر الآن وإفساد اللحظة؟!

ثم وجهت الآنسة مايفيلد إلى مكان يُدعى إيكو حيث دخلنا. وهو مكان مريح تنبعث منه رائحة نيويورك القديمة، فيما عدا أسعاره. لقد اعتدت أنا وزوجتي السابقة أن نتقابل هنا حيث إن كلينا كنا نعمل في المنطقة ذاتها، بيد أنني لم أذكر ذلك لكيت بالطبع.

حيّاني مدير المطعم باسمي، وهو أمر لا يخفق في أن يترك انطباعاً ايجابياً لدى من هم بصحبتك. وعلى الرغم من أن المكان كان مزدحماً، إلا أن الرجل قادنا إلى طاولة لطيفة لشخصين، بالقرب من الواجهة الأمامية.

يبدو أن الرجال المرتدين زي شرطة نيويورك ويحملون الأسلحة إنما يلقون معاملة متميزة في مطاعم نيويورك، بل وأظن في العالم أجمع. على الرغم من ذلك، لا مانع لديّ في أن أتنازل عن المنزلة والمنفعة مقابل تقاعد لطيف في مكان ما في فلوريدا، ألا يبدو ذلك أفضل؟

على أي حال، كان المكان يعج بالساسة من مجلس المدينة وبعض الهيئات الحكومية الأخرى. فالمكان هنا أشبه بمنطقة خاضعة للسلطة، وخاص بعلية القوم ممن يستطيعون تحمل نفقات المكان المرتفعة؛ وهو مكان تعود ضريبة مبيعاته إلى القطاع الخاص لبعض الوقت، قبل أن تفضي إلى خزينة الدولة مرة أخرى.

طلبتُ وكيت من الساقي الذي يُدعى إنريكو كوبين من الشراب.

وما إن تركنا إنريكو حتى قالت كيت "أنت لست مضطراً إلى دعوتي إلى غداء باهظ الثمن".

بالطبع كان يتعين عليّ هذا، لكنني أجبتها قائلاً "لكنني مدين لك بغداء جيد بعد ذلك الفطور".

ضحكت كيت، ثم أتانا الشراب، وقلت لإنريكو "قد أحتاج إلى تلقي رسالة بالفاكس على جهازكم هنا، فهلاّ أعطيتني الرقم؟"

"بالطبع سيد كوري". وعلى الفور كتب لي إنريكو رقم الهاتف على منديل المائدة، ثم غادرنا.

بعد أن لامستُ وكيت قدحينا ببعضهما قلت "Slainte"، فسألتني كيت "وماذا يعني هذا؟"

"في صحتك، ولكن بلغة السلتيين، فأنا نصف إيرلندي".

"أي نصف؟"

"النصف الأيسر".

"أعني أي من أبويك إيرلندي الجنسية؟"

"أمي، أما أبي فإنكليزي، وأي زواج كان ذلك! لقد كانا يرسلان لبعضهما البعض خطابات نارية".

فضحكت كيت مرة أخرى وهي تقول "يبدو أن أهل نيويورك شديدو الاهتمام بالأصول الوطنية، وبالفعل يقتصر هذا على أهل نيويورك".

"أحقاً؟ إنني أجد ذلك أمراً يبعث على الملل".

"مثل تلك المزحة التي قلتها عن الإيطاليين وشهود... لقد استغرق مني الأمر بضع ثوان كي أفهم المقصد منها".

"ربما يجدر بي أن أعرفك على زميلي السابق، دوم فانيلي فهو أكثر طرافة مني".

هكذا مضى الحديث بيننا. وشعرت أنه بالرغم من أنني قد ارتدت هذا المكان من قبل، إلا أن شعوري هذه المرة كان مختلفاً لسبب أو لآخر.

ثم أخذنا نطالع قوائم الطعام حيث توليت أنا الجانب الأيمن منها فيما تولت كيت أمر الجانب الأيسر، لاحظت أن الجانب الأيمن أسعاره أكثر ارتفاعاً، ولم ينقذني سوى رنين الهاتف الخلوي، فأخرجته من جيبي وأجبت "كوري".

أتاني صوت كالفين تشيلدرز وهو يقول "حسناً، أنا في عرين القتيل، وهناك صورة تضم ثمانية أشخاص أمام مقاتلة نفاثة أخبرني أحدهم أنها من طراز F-III، وهناك تاريخ مذكور على الصورة.

"نعم، حسناً، ربما كانت تلك مهمة سرية، أو ربما -".

"حسناً، فهمت ماذا تعني. ولكن لا أحد ممن يبدون في الصورة يحمل أي علامة على اسمه".

"اللعنة".

"رفقاً يا صاح. كالفين يعمل على القضية. لقد وجدت صورة كبيرة بالأبيض والأسود وقد كُتب أسفلها *جناح المقاتل التكتيكي 48، قاعدة لاكينهيث الجوية*، وهناك نحو خمسين أو ستين رجلاً في الصورة، وأسماؤهم مذكورة وفقاً لصفوفهم. سأضع العدسة المكبرة فوق هذه الوجوه حتى أجد الوجوه الثمانية للأشخاص الموجودين في الصورة الأخرى ومن ثم أحصل على أسمائهم؛ أعني سبعة منهم، فأنا أعرف بالفعل وجه وايكليف. وسأعمد بعد ذلك إلى دفتر هاتف القتيل فأبحث عن عناوين وأرقام هواتف الرجال السبعة".

تنهدت بعمق وقلت "ممتاز، ألا ترغب في إرسال هذه القائمة لي بالفاكس؟"

"وعلام سأحصل في المقابل؟"

"وجبة غداء في البيت الأبيض، وسام، أياً كان ما تريده".

"حسناً، ربما بعض الوقت في ليفينوورث. فليكن، هناك جهاز فاكس هنا في مكتب القتيل. أعطني رقم هاتفك".

فأعطيته رقم فاكس المطعم وقلت "أشكرك يا صديقي، أحسنت صنعاً".

"وأين تظن هذا المدعو خليل الآن؟"

"أظنه يقوم ببعض الزيارات لهؤلاء الطيارين. هل يسكن أي منهم في العاصمة"؟

"كلا، لدينا فلوريدا، وكارولاينا الجنوبية، ونيويورك".

"أين في نيويورك؟"

"دعني أرى، رجل يُدعى ماكوي، منزله في منطقى اسمها وودبيري، ومكتبه في متحف المهد الملاحي في لونغ أيلاند".

"حسناً، وماذا غير ذلك؟"

"أتريدني أن أقرأ لك هذا أم أن أرسله بالفاكس؟"

"أرسله بالفاكس، وأرسل كذلك صورة الأشخاص الثمانية واذكر لي أسماءهم عليها. وبينما تفعل ذلك، أرسل لي صورة جيدة للطائرة وأخطرني برقم الرحلة، وسأرسل أحداً ما لاستلامها".

"أنت متعب جداً يا كوري. حسناً. ولكن دعني أخرج من هنا أولاً قبل أن يسترعي وجودي الانتباه". ثم أضاف "إن هذا الرجل المدعو خليل شرير بحق. سأرسل لك بعض الصور من مسرح الجريمة".

"كن حذراً".

قال كالفين "عادة أفعل ذلك. أراك في البيت الأبيض". ثم أنهيت المكالمة.

نظرت إليّ كيت فقلت "لدينا الآن كل الأسماء والعناوين".

"فقط أتمنى ألا نكون قد تأخرنا كثيراً".

"بل تأخرنا بلا شك".

ثم ناديت على النادل وقلت له "أريد كشف الحساب من فضلك، كما أن لديّ رسالة قد وصلتني على جهاز الفاكس خاصتكم؛ موجهة إلى كوري".

اختفى الرجل، فاحتسيت الشراب، وكذلك فعلت كيت ثم وقفت وقلت لها "أنا مدين لكِ بوجبة غداء في وقت آخر".

ثم تحركنا صوب الباب الأمامي فيما أتانا النادل، فنقدته عشرين دولاراً وأعطاني في المقابل ورقتين؛ ورقة بخط اليد والأخرى كانت للصورة، ولم تكن واضحة بالطبع.

توجهت وكيت إلى شارع تشامبرز، وبينما كنا نسير مسرعين في طريق عودتنا إلى فيدرال بلازا، كنت أقرأ لها الأسماء المرتبة أبجدياً "بوب كالوم، كولورادو سبرينغز، أكاديمية القوات الجوية. ستيف كوكس، وبجواره ملاحظة *لقي حتفه في الخليج في العام 1991*. ثم بول غراي، دايتون بيتش، سبروس كريغ، فلوريدا. يليه بيل هامبريشت، ونحن نعرف بشأنه. ثم جيم ماكوي في وودبيري، وهذا مكان في لونغ أيلاند. ويليه بيل ساذرويت، مونكس كورنر، كارولاينا الجنوبية. أين يقع هذا المكان بحق الجحيم؟ وأخيراً لدينا رجل اسمه تشب ويجينز في بيربانك، بولاية كاليفورنيا، ولكنه يذكر أن

عنوان هذا الرجل ورقم هاتفه مشطوبان من دليل الهاتف الخاص بوايكليف".

قالت كيت "إنني أحاول تتبع خط سير خليل. لقد ترك مطار جون كنيدي في سيارة أجرة في الخامسة والنصف صباحاً تقريباً؛ فهل أخذه جبّار بعد ذلك إلى منزل جيم ماكوي؟"

"لست أدري، ولكننا سنعرف عندما نتصل بجيم ماكوي".

بالفعل رحت أتصل برقم ماكوي على الهاتف الخلوي بينما كنا لا نزال نسير في طريقنا، ولكن لم يجبني سوى جهاز تسجيل المكالمات. ولما لم أرد أن أترك رسالة قد تسير الإزعاج، اكتفيت بأن قلت "سيد ماكوي، أنا جون كوري من مكتب التحقيقات الفيدرالية. لدينا أسباب تدفعنا إلى الظن بأن". ماذا أقول؟ إن أسوأ السفلة على وجه الأرض في إثره؟ "بأنك قد تكون مستهدفاً من قِبل رجل يسعى إلى الثأر منك نظير اشتراكك في القصف الجوي على بلده. أرجو أن تخطر الشرطة المحلية لديك وكذلك مكتب التحقيقات الفيدرالية في لونغ أيلاند، وإليك رقمي المباشر في مانهاتن". ثم تركت له الرقم وأردفت "أرجوك أن تكون غاية في الحذر، بل وأنصحك وعائلتك أن تنتقلوا على الفور إلى مكان آخر".

ثم ضغطت زر إنهاء المكالمة، وقلت لكيت "ربما يظن أن هذه المكالمة خدعة على نحو ما، ولكن ربما يقنعه ذكر المكان المقصوف في الرسالة، ناهيكِ عن توقيت رسالتي".

كانت كيت قد أخرجت مفكرتها بالفعل، وراحت تدون بعض الملاحظات، ثم قالت "وقد لا يتلقى هذه الرسالة على الإطلاق".

"دعينا لا نفكر بهذا الشكل؛ فلنفكر بشكل إيجابي".

ثم توقفت لدى عربة لبيع الطعام، وقلت للبائع "اثنتان من هذه الشطائر من فضلك، مع الخردل والمخللات".

ثم طلبت رقم بيل سادزرويت في جنوب كارولاينا، وقلت لكيت "سأحاول الاتصال بالضحايا المتوقعين في منازلهم أولاً قبل أن أحاول الاتصال بالشرطة المحلية؛ فقد يقبضون على عنقك عبر الهاتف".

"هذا صحيح".

"ثم سأحاول مع أرقام مكاتبهم".

رن جرس الهاتف ثم انبعث صوت مسجل يقول "هذا بيل سادزرويت. اترك رسالة".

فتركت رسالة مماثلة لتلك التي تركتها لماكوي، وختمتها بنصيحة له بأن يترك مكانه.

كان بائع الأطعمة قد سمعني وأنا أترك الرسالة، فنظر إليّ بريبة، ثم ناولني وكيت الطعام الذي طلبناه ملفوفاً في ورق، فنقدته عشرة دولارات.

سألتني كيت ‘‘ما هذا؟’’

‘‘طعام، نوع من البطاطا المهروسة على الطريقة اليهودية. إنها مقلية وطعمها جيد’’.

ثم طلبت رقم هاتف منزل بول غراي في فلوريدا، ولاحظت أنه يعمل ويسكن في نفس المكان. بيد أن كل ما حصلت عليه كان جهاز تسجيل المكالمات يطلب مني ترك رسالة. فتركت له الرسالة ذاتها، وهنا كان البائع يحدّق فيّ وهو يناولني بقية النقود.

تابعت وكيت مسيرنا نحو فيدرال بلازا فيما كنت أجرب رقم مكتب غراي، فسمعت الرسالة ‘‘هنا مكتب غراي لبرامج المحاكاة. يتعذر علينا الإجابة على اتصالك الآن...’’. بالطبع لم أشعر بالارتياح لفكرة أن أحداً منهم ليس في منزله، وحتى غراي لم يكن في مكتبه. وتركت له نفس الرسالة، ومرة أخرى دونت كيت هذه الملاحظة.

ثم جربت رقم مكان عمل بيل ساذرويت المعنون *تأجير رحلات الطيران والتدريب على التحليق*. ومرة أخرى ردت عليّ رسالة مسجلة بصوت بائعة ما تطلب مني ترك رسالة ورقم. فتركت رسالة التحذير وقد لاحظت أنها بتكرارها قد فقدت صبغتها التحذيرية لديّ، وراودتني الرغبة في أن أصرخ في الهاتف قائلاً ‘‘انجُ بحياتك يا رجل!’’

ثم أنهيت المكالمة ونظرت إلى كيت متسائلاً ‘‘أين ذهب الجميع اليوم؟’’

فلم تجبني كيت.

كنا نسير في شارع برودواي وقد صار فيدرال بلازا على بُعد مبنى واحد، فابتلعت نصف كمية البطاطا في وقت قياسي بينما كنت أطالع رسالة الفاكس.

أما كيت فاكتفت بقضمة امتعض وجهها على إثرها قبل أن ترمي بها في سلة المهملات حتى بدون أن تحاول عرضها عليّ. ذكرني هذا بزوجتي السابقة حيث كانت تطلب من النادل أن يزيل صحونها بنصف ما بها من طعام من دون أن تسألني أولاً ما إذا كنت أريد أيًّا منها.

ليست هذه بعلامة جيدة.

قررت أن أجرب رقم متحف المهد الملاحي في لونغ أيلاند، وأنا على يقين بأن صوتاً بشرياً سيجيبني. وبالفعل أتاني صوت امرأة تقول ‘‘المتحف’’.

فقلت لها ”سيدتي، معك جون كوري من مكتب التحقيقات الفيدرالية، وأود الحديث إلى السيد جيم ماكوي، مدير المتحف، في أمر عاجل“.

ساد على الهاتف صمت طويل كنت أعرف معناه، ثم قالت ”السيد ماكوي-“. ثم سمعت صوت بكائها قبل أن تردف ”لقد مات السيد ماكوي“.

نظرت إلى كيت وهززت رأسي، ثم رميت ببقية طعامي في البالوعة وأنا أكمل حديثي مع سيدة المتحف تلك بينما كنا نعبر المبنى المتبقي مسرعين ”وكيف مات يا سيدتي؟“

”لقد قُتل“.

”متى؟“

”صباح يوم الاثنين، ورجال الشرطة منتشرون في كل مكان في المتحف، ومن غير المسموح دخول أي شخص إلى المبنى“.

”أين أنتِ إذاً يا سيدتي؟“

”أنا في متحف الأطفال بجوار متحف المهد الملاحي. أنا سكرتيرة السيد ماكوي، ولقد حوّلنا خط هاتفه بحيث تأتي مكالماته إلى هنا، فـ“.

”لا بأس. وكيف قُتل السيد ماكوي؟“

”لقد، لقد أطلق عليه أحدهم الرصاص في، في واحدة من الطائرات، وكان معه رجل آخر، أترغب في الحديث إلى أحد رجال الشرطة؟“

”كلا، ليس الآن. ولكن أتعرفين من كان هذا الرجل الآخر؟“

”كلا. حسناً، لقد قال السيد ماكوي إنه كان أحد أصدقائه القدامى، ولكني لا أذكر اسمه“.

”غراي؟“

”كلا“.

”ساذرويت؟“

”نعم، هذا هو الاسم. ساذرويت. دعني أحضر لك أحد رجال الشرطة ليتحدث معك عبر الهاتف“.

”لحظة من فضلك. هل قلتِ إنه أُطلق عليه الرصاص وهو داخل الطائرة؟“

”نعم. كان هو وصديقه يجلسان داخل إحدى المقاتلات“.

”حسناً، سأتصل مرة أخرى في وقت لاحق“.

أنهيت المكالمة، وأطلعت كيت على فحواها بينما كنا ندخل المبنى 26 فيدرال بلازا. وفي انتظارنا للمصعد شرعت أتصل بمنزل بوب في كولورادو سبرينغز حيث أجابتني امرأة بقولها ”منزل كالوم“.

"وهل أنا أتحدث إلى السيدة كالوم؟"

"نعم، ومن أنت؟"

"هل هذا هو منزل السيد كالوم؟"

"العقيد كالوم. من المتصل؟"

"أنا جون كوري يا سيدتي من مكتب التحقيقات الفيدرالية، وأود التحدث إلى زوجك في أمر هام وعاجل".

"ولكنه متوعك اليوم بعض الشيء ويستريح في الوقت الحالي".

"ولكنه في المنزل، أليس كذلك؟"

"نعم، ولكن ما الأمر؟"

كان المصعد قد وصل في هذه اللحظة، ولأنه من الممكن أن تفقد إشارة الهاتف الخلوي في المصعد، لذا قررنا أن نفوِّته، ومن ثم تابعت حديثي إلى السيدة كالوم "سيدتي، سأحول المكالمة إلى شريكتي في العمل - كيت مايفيلد - وهي ستوضح لكِ الأمر". ثم أخفيت سماعة الهاتف في صدري وأنا أقول لكيت "السيدات يتحدثن بشكل أفضل إلى بعضهن البعض".

ناولت كيت الهاتف وأنا أقول "سأصعد إلى المكتب".

بينما كنت أنتظر المصعد التالي سمعت كيت وهي تقدم نفسها للسيدة ثم تقول "سيدة كالوم، لدينا أسباب تدفعنا إلى الاعتقاد بأن هناك خطراً قد يحيق بزوجك. انصتي من فضلك لما سأقوله، وما إن أنتهي أرجو منكِ أن تتصلي بالشرطة المحلية لديكِ وبمكتب التحقيقات الفيدرالية وأمن القاعدة، ألا تعيشون في القاعدة؟"

هنا وصل المصعد فدخلته، وأنا أعرف أنني تركت هذا الجزء من العمل في أيدٍ أمينة.

في الطابق السادس والعشرين، تحركت مسرعاً نحو مركز قيادة الحدث، ثم إلى مكتبي على الفور حيث رحت أتصل بمكتب تشب ويجينز في بيربانك، وأنا آمل أن يدلني أحدهم على رقمه الحالي، بيد أن رسالة مسجلة أخطرتني أنه تم فصل هذا الرقم وأنه لا تتوافر لديهم أي معلومات أخرى في هذا الشأن.

شرعت أطالع ورقتي الفاكس، ولاحظت أن كلاًّ من وايكليف، وماكوي، وسانزرويت قد قتلوا بالفعل، بينما بول غراي لا يجيب على هاتفه، ولم يُعثر على ويجينز بعد. أما هامبريشت فقد قُتل في إنكلترا في شهر يناير، وتساءلت ما إذا كان أحدهم قد حاول بحث الأسباب وراء مقتله. ويبدو أن ستيفين كوكس هو الوحيد الذي لقي مصرعه بشكل طبيعي، أو على الأقل بشكل طبيعي بالنسبة لطيار مقاتل. ولقد أشارت السيدة هامبريشت إلى أن أحد رجال تلك المجموعة يعاني مرضاً شديداً، وأظنها كانت تعني كالوم بذلك. لا شك أن اجتماع المجموعة التالي لن يحتاج إلى غرفة كبيرة.

ثم عمدت إلى حاسوبي وقد تذكرت من خبراتي السابقة أنه في بعض المناطق الريفية في فلوريدا يتولى رئيس شرطة المقاطعة أمر جرائم القتل التي تحدث فيها. وعرفت من البحث أن سبروس كريغ تقع في مقاطعة فولوسيا، فبحثت حتى وجدت رقم هاتف رئيس الشرطة هناك وطلبته، وأنا أتوقع أن أتلقى إجابة مليئة بالأعيرة النارية.

كنت أعرف في الوقت ذاته أنه من المفترض أن أحذِّر وحدة مكافحة الإرهاب في مبنى هووفر على وجه السرعة، لكن مكالمة كتلك قد تمتد لساعة كاملة، وتعقبها كتابة التقرير الحتمي. بينما كان حدسي يخبرني أنه من الأهم أن أسارع بالاتصال بهؤلاء الذين هم على وشك أن ينضموا إلى قطار الضحايا. في الحقيقة، لم يكن الأمر يعدو عن كونه مجرد حدس، فتلك كانت إجراءات العمل خاصتي؛ كما أنني سأود أن أكون على علم مسبق في حال كان أحدهم بالخارج يسعى إلى قتلي.

"مكتب رئيس شرطة المقاطعة، معك النائب فولي".

بدا لي الرجل وكأنه يتحدث من المكتب إلى جواري.

"معك جون كوري من مكتب التحقيقات الفيدرالية في نيويورك، وأتصل كي أبلغ أن جريمة قتل قد تحصل لأحد ساكني سبروس كريغ، واسمه بول غراي".

"لقد تأخرت كثيراً".

"حسناً، متى وأين حدث ذلك؟"

"هل لك أن تخبرني أولاً بالمزيد عن نفسك؟"

"اتصل بي عبر شبكة الهاتف هنا". قلت للرجل وأعطيته الرقم العام للمكان، ثم أنهيت تلك المكالمة. بعد نحو خمس عشرة ثانية كان هاتفي يدق وكان بالفعل النائب فولي، وقال "وفقاً لجهاز الحاسوب لدي، فإن رقمك هو رقم وحدة مكافحة الإرهاب".

"هذا صحيح"

"ما الأمر إذاً؟"

"لا أستطيع أن أخبرك حتى أسمع ما لديك، قضية أمن عام!"

"أحقاً؟ وماذا يعني هذا؟"

لم يكن لديّ شك أن الرجل من نيويورك في الأساس، ومن ثم اخترت أن ألعب بهذه الورقة، فسألته "أنت من نيويورك، أليس كذلك؟"

"نعم، وكيف عرفت؟"

"مجرد حدس. كنت أعمل شرطياً لدى مديرية شرطة نيويورك في ما سبق، أي أنني خبير بالجهتين".

“أما أنا فكنت شرطي دورية في الوحدة 106 كوينز. ولدينا هنا العديد من رجال شرطة نيويورك؛ بعضهم تقاعد وبعضهم لا يزال قيد العمل. وأنا نائب رئيس شرطة المقاطعة. لعلك تجد هذا مضحكاً، أليس كذلك؟”

“خذ الأمر ببساطة يا صاح فلربما لحقت بك قريباً”.

قال الرجل “إنهم يحبون مديرية شرطة نيويورك هنا، ويظنون أننا نعرف ماذا نفعل بحق”. وضحك.

هكذا انتهت فترة التعارف والتودد، فقلت للرجل “أخبرني عن جريمة القتل تلك”.

“حسناً، لقد وقعت الجريمة في منزل الضحية؛ منزله ومكتبه في الوقت ذاته؛ ظهر يوم الاثنين حسبما أعلن المحقق في الجريمة. ولكن مكيف الهواء كان يعمل، وربما حفظ هذا الجثة لوقت أطول. ولقد اكتشفنا نحن الجثة في الثامنة والربع مساءً تقريباً بناء على إخطار من سيدة تُدعى ستاسي مول. وهي قائدة لطائرة خاصة كانت قد أوصلت عميلاً من مطار جاكسونفيل المحلي إلى منزل الضحية. ويقع المنزل على مهبط طائرات في مجمع يُطلق عليه اسم سبروس كريغ خارج دايتون بيتش. ولقد قال ذلك العميل أن لديه زيارة عمل مع القتيل”.

“نعم، كانت تلك زيارة عمل بالفعل”.

“صحيح. ولقد ذكر هذا العميل لستاسي مول أن اسمه ديميتريوس بولس، وأنه تاجر تحف يوناني. ولكن المرأة شاهدت صورته في الصحف في ما بعد وقالت إنها تظن أن اسمه الحقيقي هو أسد خليل”.

“وهي محقة في اعتقادها ذاك”.

“يا الله، كنا نظنها تهلوس، ولكن بعد أن وجدنا الرجل ميتاً، ولكن لماذا قد يرغب خليل في قتل هذا الرجل؟”

“ربما لديه عقدة ما تجاه الطائرات، لا أعرف. وماذا غير ذلك؟”

“حسناً، لدينا جرحان بفعل رصاصتين؛ واحدة في المعدة والأخرى في الرأس. ولدينا ضحية أخرى هناك؛ عاملة التنظيف، ولقد تلقت رصاصة في الجزء الخلفي من رأسها”.

“وهل عثرتم على الرصاصات أو أغلفتها”.

“فقط الرصاصات؛ وهي من عيار ثلاثة وأربعين”.

“أحسبك قد أبلغت مكتب التحقيقات الفيدرالية”.

“نعم، ولكننا لم نصدق بالفعل أن أسد خليل هذا هو من فعلها، حيث بدا أن القتيل متورط في بعض العمل الدفاعي ولقد أخبرتنا صديقته - بعد أن عثرنا عليها - أن هناك بعض أقراص الحاسوب مفقودة بالفعل”.

“ولكن هل أخبرت الفيدراليين بأنه ثمة علاقة محتملة بين الجريمة وخليل؟”

“لقد فعلنا، أخبرنا مكتب جاكسونفيل الفيدرالي بهذا، ولقد أخطرونا أنهم يتلقون مكالمة كل خمس عشرة دقيقة من شخص ما يقول إنه رأى أسد خليل”. ثم أضاف “لكنهم لم يأخذوا الأمر بجدية وقالوا إنهم سيرسلون أحدهم إلى مسرح الجريمة على أي حال. ولم نزل ننتظر”.

“ولكن إلى أين أقلّت ستاسي مول عميلها ذلك بعد ذلك؟”

“عادت به مرة أخرى إلى جاكسونفيل، ثم إلى مطار جاكسونفيل الدولي؛ كان الرجل قد أخبرها أنه سيطير عائداً إلى اليونان”.

فكّرت في هذا الأمر ثم سألت محدثي “وهل أخطرت شرطة جاكسونفيل بالأمر؟”

“بالطبع، فعلت. هل تظنني نسيت كل ما قد تعلمته؟ ولقد تفقدوا المطار، وقوائم الشحن، ومبيعات التذاكر، وما إلى ذلك، ولكن لم تكن هناك أي إشارة إلى ديميتريوس بولس”.

“لا بأس. ولكن كم من الوقت مكث الجاني في منزل الضحية؟”

“تقول ستاسي مول إنه قضى هناك قرابة النصف الساعة”.

أطرقت، وكنت تقريباً أعرف نوع الحديث الذي دار بين أسد خليل وبول غراي.

ثم ألقيت بضعة أسئلة أخرى على فولي، وتلقيت بضع إجابات، ولكن لم يكن هناك المزيد الذي يجدر بي معرفته، سوى أن بعض الفيدراليين في جاكسونفيل ما زلوا في غفوتهم ولا يعرفون شيئاً عن الأمر بعد. ربما كانوا يتلقون إخطارات كل ربع ساعة، لكن هذه كانت حقيقية. لم أكن أعرف من هي ستاسي مول، لكن قد أحاول أن أكفل لها مكافأة ما نظير وطنيتها تلك.

هنا سألني النائب فولي “هل اقتربتم من القبض على هذا الرجل؟”

“أظن ذلك”.

“إنه قاتل سافل”.

“هذا صحيح”.

“وكيف حال الطقس في نيويورك؟”

“مثالي”.

“إنه حار جداً هنا. بالمناسبة قالت ستاسي مول إن عميلها قال إنه سيعود مرة أخرى في الأسبوع المقبل، وقد حجز بالفعل لرحلة أخرى إلى سبروس كريغ”.

“لا تنتظر عودته”.

“حسناً، ولقد تقدمت هي إليه بدعوة على الغداء عندما يعود”.

“أخبرها أنها سعيدة الحظ لأنه تركها على قيد الحياة”.

“معك حق”.

"أشكرك على أي حال".

ثم أنهيت المكاملة وبجوار اسم بول غراي أضفت عبارة *تم قتله*. وكذلك تاريخ الوفاة وزمنها التقريبي. يبدو أن اللقاء سيكون محدوداً للغاية. بل يبدو أنه لن يكون هناك سوى تشب ويجينز، إلا إذا كان قد انتقل إلى الشرق، وتلقى بالفعل زيارة من أسد خليل. أما بوب كالوم فكان لم يزل بعد حياً يرزق في كولورادو، وتساءلت إن كان خليل قد تركه وشأنه فقط لأن الرجل - كما أخبرت السيدة هامبريشت - مريض للغاية. أو لعل الأمر ببساطة هو أن خليلاً لم يصل إلى كولورادو بعد. وأين ويجينز بحق الجحيم؟ لو استطعنا إنقاذ حياة ويجينز سيُعد هذا انتصاراً ضئيلاً في اللعبة التي أحرز فيها الأسد خمسة أهداف بالفعل. كم يعمل الفريق الوطني بجد!

كانت كيت قد وصلت إلى مكتبها، فجلست وقالت "لقد مكثت مع السيدة كالوم على الخط حتى اتصلت بالشرطة ورئيس مجلس الأكاديمية على خط آخر. ولقد قالت إن لديها سلاحاً وأنها تعرف كيف تستخدمه".

"هذا جيد".

"لقد ذكرت أن زوجها مريض للغاية، إنه مصاب السرطان".

فأطرقت ولم أجب.

"هل تظن أن خليلاً يعرف بهذا الأمر؟"

"بل كنت أحاول معرفة ما لا يعرفه خليل. لقد اتصلت بشرطة دايتون بيتش؛ لقد قُتل بول غراي ظهر يوم الاثنين، وربما قبل ذلك".

"أوه، يا الله".

ثم أخبرتها بالحديث الذي دار بيني ونائب رئيس الشرطة فولي ثم قلت "الأمر كما أراه هو أن خليلاً قد استقل سيارة جبّار إلا أنه لم يذهب إلى متحف ماكوي في لونغ أيلاند، بل انطلق خارج المنطقة، وهو تصرف غاية في الذكاء، حيث اتجه إلى مباشرة إلى بيرث أمبوي ثم قتل جبار، وقفز داخل سيارة كانت في انتظاره في المرآب، وانطلق بها إلى العاصمة فمكث في مكان ما قبل أن يقوم بزيارة منزل آل وايكليف حيث قتل الجنرال وزوجته ومدبرة المنزل. ومن هناك انطلق بطريقة ما إلى مطار جاكسونفيل المحلي، فاستقل تلك الطائرة الخاصة إلى سبروس كريغ

فقتل بول غراي وعاملة التنظيف قبل أن يستقل الطائرة ذاتها عائداً مرة أخرى إلى جاكسونفيل. وأظنه اتجه بعد ذلك إلى مونكس كورنر حيث مقر عمل بيل ساذرويت؛ الذي يقوم بتأجير الطائرات الخاصة، فاستأجر خليل طائرة ساذرويت، واستأجره كطيار عليها، فطارا إلى لونغ أيلاند لذاك اللقاء؛ وقتلهما معاً في المتحف، وداخل الطائرة F-III بالتحديد، وانتهى بالحارس. حقاً، إنه أمر لا يصدق!"

ثم أطرقت ولم أزد، وكذلك فعلت كيت قبل أن تسألني "وأين تظنه قد ذهب بعد ذلك؟ كيف ترك لونغ أيلاند؟"

"أظنه استقل طائرة ما من مطار ماك آرثر. فهو ليس مطاراً دولياً والأمن هناك ليس محكماً. ولكنني أبصر في هذا نمطاً يتعلق باستئجار الطائرات الخاصة".

"أظن أن الأمر كذلك بالفعل. ولعله يطير الآن إلى كولورادو سبرينغز أو إلى كاليفورنيا في طائرة خاصة. ومن الأرجح أن تكون نفاثة".

"ربما، وربما يرغب كذلك في أن يترك الأمر برمته وهو لا يزال يسبقنا بخطوات قبل أن يضيع الوقت، وربما يكون في هذه اللحظة في طريقه إلى بلاده".

"لكننا لم نعطِه سبباً يدعوه إلى الشك أو الشعور بخطر ما في أن يمضي في مهمته".

قلت لكيت "هذه وجهة نظر جيدة". والتقطت قلم رصاص أضفت به اسم القتيل الأخير على القائمة التي لم تتضمن كل القتلى على متن الرحلة 175. ثم قلت "إن هذا الرجل يحدّ من الزيادة السكانية في الساحل الشرقي دون شك". ثم وضعت القلم، ورحت أقرأ الأسماء "آندي ماكيغل، ونيك، ونانسي، وماغي كولينز، وجبار، ووايكليف وزوجته، ومدبرة المنزل، وساذرويت، وماكوي، والحارس. هذا يجعلهم ثلاثة عشر قتيلاً".

"ولا ننسَ يوسف حداد".

"صحيح. ذلك المتواطئ التافه. أربع عشرة ضحية إذاً، واليوم الثلاثاء لا أكثر".

لم تعلّق كيت.

فناولتها رسالة الفاكس، وقلت "في ما عدا كالوم، وقد حذرناه، لا يزال لدينا ويجينز؛ وهو الرجل الأخير الذي لا يزال على قيد الحياة - أو أظنه كذلك - ولم يتم تحذيره بعد".

فألقت نظرة سريعة على الورقة ثم سألتني "وهل حاولت مع رقم الهاتف المذكور هذا؟"

"نعم، ولكن الخط مفصول. فلنحاول العثور عليه في دليل بيربانك للمعلومات".

"وما اسمه الأول الحقيقي؟"

"اتصلي بوحدة مكافحة الإرهاب في العاصمة بينما أجرب أنا هذا. ثم اتصلي بمكتبنا في لوس أنجلوس، ثم أخطري الجميع هنا في المركز بما توصلنا إليه سواء

بالبريد الإلكتروني أو أياً كانت الطريقة الأسرع والأفضل".

لم أكن بالفعل مهتماً بإخبارهم، فما كان يشغل بالي هو أن أحاول التفكير أسرع من خليل قبل أن يتمكن من أن يزيد من عدد القتلى. وفي الوقت ذاته كان مزيج البطاطا، والخردل، والشراب يضطرب في معدتي.

لم أكن أرى سبباً مقنعاً لضرورة إطلاع الزملاء في المركز أو في واشنطن على الأمر، فلقد علمنا لتونا أن أربعة رجال قد قُتلوا بالفعل ولم تعد هناك حاجة لحمايتهم، كما تم بالفعل تحذير كالوم، ومن ثم فإن المشكلة المتبقية تكمن في العثور على ويجينز. في الحقيقة، إنني وكيت قادران تماماً على التعامل مع هذه المشكلة.

فقلت لها "سأتصل بمكتب التحقيقات الفيدرالية في لوس أنجلوس. أم لعلك ترغبين في إجراء هذه المكالمة بنفسك؟"

"كنت سأرغب في هذا لو أنك تجيد استخدام الحاسوب على نحو أفضل من هذا. سأبحث عن ويجينز". ثم أضافت "اسأل عن رجل يُدعى دوج ستيرجيس؛ إنه النائب المسؤول، واذكر له أنك من طرفي".

"فليكن". وبالفعل اتصلت بمكتب لوس أنجلوس، وقدمت نفسي بصفتي عاملاً في وحدة مكافحة الإرهاب في نيويورك، وهو أمر عادة ما يسترعي انتباه الآخرين، ثم سألت عن المدعو دوج ستيرجيس، فأتاني على الخط.

سألني دوج "كيف لي أن أساعدك؟"

لم أرد أن أشوش تفكير الرجل بكثرة الحقائق، ولم أرد كذلك أن أقحمه مع واشنطن، بل أردت فقط الحصول على ما يمكن أن يسديه لي من مساعدة، فقلت له "سيد ستيرجيس، نحن نبحث عن ذكر قوقازي يدعى تشب ويجينز، ولا نعرف اسميه الأول والأوسط. وهو في الخمسين من عمره تقريباً، وآخر عنوان معروف له كان في بيربانك". وأعطيته العنوان ثم أردفت "إنه شاهد محتمل في قضية غاية في الأهمية تتعلق بالإرهاب الدولي".

"عن أي قضية تتحدث؟"

لماذا أصبح الجميع على هذا القدر من الفضول؟ بيد أنني أجبته "القضية حساسة ولا تزال سرية حتى الآن. أرجوك اقبل اعتذاري إذ إنني لا أملك الصلاحية لكي أفضي إليك بها في الوقت الحالي. ولكن قد يكون لدى ويجينز معلومات نحتاج إلى معرفتها. وكل ما أحتاجه منك هو أن تبحث عنه وأن توفر له أقصى حماية ممكنة وأن تتصل بي في أسرع وقت". ثم أطلعته على القليل الذي أعرفه عن السيد ويجينز.

تلا هذا صمت قطعه السيد ستيرجيس بسؤاله "وما هي الجهة التي تستهدفه؟ أي جماعة هي؟"

"فلنقل إنه الشرق الأوسط، ومن الأهمية بمكان أن نجده نحن قبل أن يعثروا هم عليه. وسأعاود الاتصال بك في حال حصلت على أي تفاصيل أخرى".

لم يبدُ لي أن السيد ستيرجيس يرغب في المساعدة، فأضفت "بالمناسبة أنا أعمل مع كيت مايفيلد".

"أوه".

"لقد أخبرتني هي أنك الرجل المناسب لطلب عونه في هذا الأمر".

قال الرجل "حسناً، سنبذل أقصى جهدنا". وكرر عليّ آخر عنوان معروف لويجينز ورقم الهاتف المفصول ذلك، ثم قال "أبلغ كيت تحياتي".

"سأفعل". ثم أعطيته رقمي المباشر ورقم كيت، ثم شكرته، وأنهيت الاتصال كي أتصل بقسم المفقودين بشرطة لوس أنجلوس. وبعد أن قدّمت نفسي إلى محدثي سألته إن كان لديهم مشرف يُدعى الملازم مايلز، وبالطبع لجأت إلى بعض المراوغة والمجاملة، فأضفت "أنتم تبلون أفضل منا بكثير في العثور على الأشخاص المفقودين".

فقال الملازم مايلز "لا يمكن أن تكون أحد الفيدراليين".

فابتسمت في أدب وأنا أخبره "أنا في الأصل تحري في مديرية شرطة نيويورك؛ القسم الجنائي. وأنا هنا لتدريس أساسيات تطبيق القانون".

فضحك الرجل وقال "حسناً إذاً. في حال عثرنا على الرجل، سأطلب منه أن يتصل بك. فهذا كل ما أستطيع عمله طالما أنه ليس مشتبهاً به في أي قضية".

"سأقدر لك استدعاءك إياه إلى مقرك، فهو في خطر على نحو ما".

"أحقاً؟ أي خطر تعني؟"

"الأمر يتعلق بالأمن القومي، وهذا كل ما أستطيع قوله في الوقت الحالي".

"ها قد عدت لطبيعتك الفيدرالية مرة أخرى".

"بل أنا شرطي أخضع للقيود. كل ما أستطيع قوله هو أنني بحاجة إلى هذا الرجل، ولا أستطيع أن أخبرك بالسبب".

"حسناً. سنضع صورته على علب اللبن إن أردت. ألديك صورة للرجل؟"

تنهدت بعمق وقلت "ما لديّ لا يصلح لأن يكون صورة؛ إنها قديمة جداً. كما أنني لا أريد نشر صورته في حيّه القديم أيضاً. فنحن نحاول الوصول إلى الرجل الذي يسعى إليه، لا أن ندفعه إلى الهرب. اتفقنا؟ وبالمناسبة، لقد اتصلت بالمكتب الفيدرالي في لوس أنجلوس، وتحدثت إلى العميل ستيرجيس وهو يعمل الآن على الأمر ذاته. ومن سيعثر على الرجل أولاً سيحصل على ميدالية ذهبية".

"واو. لماذا لم تقل ذلك منذ البداية؟ سنضع أيدينا على الرجل أولاً دون شك".

أحياناً يصبح رجال الشرطة وخزاً في عنق المرء بحق!

"ولكن الأمر غاية في الجدية أيها الملازم".

"حسناً. سأرى ما يمكنني فعله وأعاود الاتصال".

أجبته "شكراَ لك". ثم أعطيته أرقام الهاتف الخاصة بكيت.

"كيف حال الطقس في نيويورك؟".

"ملبد بالثلج والجليد".

قال الرجل "حسناً. إلى اللقاء". وأنهى الحديث.

تركت كيت حاسوبها، ثم نظرت إليّ وقالت "لا أظن أنك مضطر إلى كل هذه السرية مع زملائنا، أو شرطة لوس أنجلوس".

"لكنني لم أكن سرياً".

"بلى، كنت كذلك".

"بل ليس هناك من ضرورة لأن يعرفوا السبب وراء طلبي هذا؛ الأمر ببساطة أن تشب ويجينز مفقود ونحتاج إلى العثور عليه. هذا كل ما يجب عليهم أن يعرفوه".

"نعم، ولكن معرفتهم بحقيقة الأمر كانت ستزيد من حماسهم".

بالطبع كانت كيت محقة في هذا، ولكنني كنت أفكر مثل شرطي بينما أتصرف كفيدرالي، وكل هذا الهراء حول الأمن القومي كان يترك آثاره عليّ.

عادت كيت لتولي الحاسوب اهتمامها وهي تقول "أنا لا أجد شيئاً في أدلة منطقتي بيربانك ولوس أنجلوس".

"أخبري الحاسوب عن سبب بحثك إذاً كي يتحمس".

"ابتعد عني يا جون". ثم أضافت "وتذكر أنني رئيستك في العمل؛ أي عليك أن تطلعني على الأمور الجديدة وأن تستمع إلى ما أقوله".

واو! أجبتها في لهجة المتنازل عن الأمر برمته "هل كنت أتعامل مع القضية على نحو لا يروق لكِ، أو أن ما توصلت إليه من نتائج حتى الآن لا-".

"لا بأس، أعتذر. أنا فقط أشعر ببعض التوتر والتعب. لقد بقيت مستيقظة طوال الليل". ثم ابتسمت لي، وغمزت بعينها.

أظنني بادلتها ما يشبه الابتسام. يبدو أن لشخصية الآنسة مايفيلد جانبها الصعب أيضاً، ومن الأفضل ألا أنسى هذا الأمر. فقلت لها "طلب ستيرجيس أن أبلغكِ تحياته".

لم تعلّق كيت على هذا، وتابعت النقر بأصابعها على لوحة المفاتيح وهي تقول "ربما انتقل هذا الرجل إلى نعومي في ألاسكا، فنحن لا نعرف عن ذلك شيئاً. أتمنى لو أن لديّ رقم الضمان الاجتماعي الخاص به. تفقّد بريدك الإلكتروني، فربما تلقينا رسائل من وزارة الدفاع أو القوات الجوية تتعلق بأي ملفات وظيفية للرجال الثمانية".

"عُلم يا سيدتي".

بالفعل قصدت بريدي الإلكتروني، ولكن بغض النظر عن بعض الترهات الداخلية لم يكن هناك شيء له أهمية، فقلت لكيت "الآن وقد أصبح لدينا بعض الأسماء، يمكننا أن نطلب من القوات الجوية ملف ويجينز على وجه التحديد".

"هذا صحيح، سأتقدم أنا بهذا الطلب". ومن ثم عمدت إلى الهاتف وسمعتها وهي تشق طريقها في أروقة البيرقراطية رواقاً تلو الآخر.

فقلت لا لأحد على وجه التحديد "أتمنى أن يكون لدى أسد خليل المصاعب ذاتها التي نواجهها نحن في العثور على ويجينز".

ثم قصدت حاسوبي، وشرعت أجرب بعض الطرق على طريق المعلومات السريع إنفورميشن هاي واي، بما في ذلك موقع القوات الجوية. وكان هناك قسم عن العاملين المفقودين وآخر للقتلى أثناء تأدية وظائفهم، ولم أصدق أنني وجدت اسم ستيفين كوكس حيث ذُكر أنه قد لقي حتفه في حرب الخليج. ولكن لم يكن هناك قسم *الرفاق في المهام السرية*.

وضعت كيت سماعة هاتفها، وقالت معلنة "قد يستغرق الحصول على ملف ويجينز بعض الوقت، حيث إن اسم تشب لا يعني لهم الكثير؛ فهم يحتاجون إلى رقم الضمان الاجتماعي، هذا ما يحتاجونه بحق".

قلت لها "صحيح". وأنا لا أزال أعمل على جهاز الحاسوب، بيد أنه بغض النظر عن وصفة جيدة لحلوى رقاقات الشوكولاتة، لم أحصل على شيء ذي قيمة. أنا بالفعل أفضل العمل عن طريق الهاتف!

أما كيت، فظلّت تزعجني كي أتصل بمكتب وحدة مكافحة الإرهاب في واشنطن، بينما بقيت أنا أحاول تأجيل الأمر لأنني كنت أدرك تماماً أن هذا سيستغرق حوالى الساعة على الهاتف، يتبعها أن أستقل أول طائرة إلى واشنطن. وفي الحقيقة، لم يبقَ أمام خليل سوى هدف واحد، كان من المهم أن أعثر على ويجينز قبل أن يجده خليل.

هنالك عدة طرائق للعثور على شخص مفقود في أميركا؛ بلد حفظ الملفات، وبطاقات الائتمان، ورخص القيادة، وما إلى ذلك. وحدث من قبل أن عثرت على أشخاص في أقل من ساعة، على الرغم من أنه قد يستلزم الأمر أحياناً يوماً أو اثنين. ولكن يحدث أحياناً ألا تعثر على أحد الأشخاص، حتى وإن كان هذا الشخص هو السيد سعيد صاحب الأملاك والأسرة. بينما كل ما لدينا عن هذا الشخص هو اسم مستعار ولقب العائلة، وآخر عنوان معروف له، كما أننا نعرف أنه كان يعمل لدى القوات الجوية ذات يوم.

اتصلت بقسم كاليفورنيا للسيارات، وعلى غير المعتاد أجابني مدني أعطاني الاسم إلوود ويجينز في بيربانك بنفس العنوان القديم ذلك، بالإضافة إلى تاريخ الميلاد؛ رائع!

الآن أصبح لدينا اسمه، وتاريخ ميلاد ملائم. كنت قد بدأت أكوّن صورة عن المدعو تشب؛ شخص أحمق، يتصرف بلامبالاة، ولا يعبأ بأن يُخبر العالم بما يفعله. ولكن - من ناحية أخرى - ربما كان هذا سبب بقائه على قيد الحياة.

قلت لكيت ‟ابحثي عن إلوود ويجينز من الآن فصاعداً. هذا هو اسمه على رخصة القيادة”. ثم أضفت ‟كما أن تاريخ الميلاد يتناسب وتشب 1960، لا أبناء له؛ فهو ليس أباً”.

قالت كيت ‟حسناً”. ثم ابتعدت عن الحاسوب، وشرعت تبحث في دليل الهاتف.

أما أنا فاتصلت بمكتب وفيات مقاطعة لوس أنجلوس لأرى ما إذا كان السيد إلوود تشب ويجينز قد أسدى لنا صنيعاً ومات ميتة طبيعية. ولكن عندما أخبرني الموظف بكل حالات وفيات العام الماضي التي تحمل اللقب ويجينز لم يكن من بينها إلوود ويجينز.

فقلت لكيت ‟ليس للرجل سجل لدى مكتب الوفيات”.

فقالت ‟أتعرف؟ قد يكون خارج مقاطعة لوس أنجلوس، أو خارج الولاية، أو حتى خارج البلاد. حاول مع مكتب الضمان الاجتماعي”.

‟كنت أفضل البحث عنه بنفسي. كما أنهم سيطلبون رقم ضمانه الاجتماعي”.

‟جرّب إدارة المحاربين إذاً يا جون”.

‟جربي أنتِ. ولكن دعيني أخبرك أن هذا الرجل لا يريد أن يخبر أحد بأمره. كم أتمنى لو أننا نعرف مسقط رأسه. أخطري إدارة الموظفين في القوات الجوية أن لدينا الاسم إلوود وتاريخ ميلاد الرجل. قد يساعد هذا أجهزة الحاسوب لديهم”.

هكذا أخذنا نعمل على أجهزة الحاسوب وعلى الهواتف لنصف الساعة؛ فاتصلت بقسم الموظفين المفقودين في شرطة لوس أنجلوس مرة أخرى وأعطيتهم الاسم إلوود وتاريخ الميلاد، وكذلك فعلت مع زملائنا في مكتب التحقيقات الفيدرالية في لوس أنجلوس.

شعرت بعدها أنني استنفدت كافة المصادر التي قد أتصل بها، حين فكرت أخيراً في الاتصال بالسيدة روز هامبريشت. وكانت هي المجيبة على الهاتف، وأعدت تقديم نفسي لها، فأخبرتني ‟لقد أعطيت كل المعلومات للجنرال أندرسون من رايت بيترسون”.

‟نعم يا سيدتي، لكنني لم أحصل على هذه المعلومات بعد. غير أن لديّ معلومات أخرى حول الرجال الثمانية الذين كانوا في تلك مهمة، وكنت أرغب في تأكيدها من قِبَلك”.

‟ألا تعملون جميعاً في فريق واحد؟”

كلا. "بلى يا سيدتي، ولكن الأمر يستغرق بعض الوقت، وأنا أسعى إلى الانتهاء من عملي على جناح السرعة".

"وماذا تريد؟"

"حسناً، إن اهتمامي الآن ينصب على شخص واحد؛ رجل يدعى تشب ويجينز".

"أوه. تشب، إنه شخصية مختلفة بحق".

"نعم يا سيدتي، ولكن أتعرفين ما إذا كان اسمه الأول هو إلوود أم لا؟"

"أنا لن أعرف قط اسمه الأول. فهو دائماً تشب فحسب بالنسبة لي".

"حسناً، لديّ عنوان له في بيربانك بولاية كاليفورنيا". ثم قرأت لها العنوان وأردفت "أهذا هو نفس العنوان لديكِ؟"

"دعني أتحقق من مفكرة الهاتف لديّ".

ثم انتظرت السيدة هامبريشت فيما ذهبت لتفقد مفكرتها، وقلت لكيت "كيف الحال عندك؟"

"لا شيء. أعتقد يا جون أن الوقت قد حان كي نتشارك ما لدينا مع كافة موظفي مركز قيادة الحدث. لقد أخرنا الأمر بما يكفي".

"ولكنني لا أحتاج إلى خمسين رجلاً كي يعاودوا الاتصال بنفس الأماكن التي اتصلنا نحن بها. في حال كنتِ تحتاجين إلى المساعدة، بوسعك إرسال بريد إلكتروني إلى الجميع، أو أخطري كافة القوات بالأمر إن أردتِ. أما أنا فأعرف كيف أعثر على رجل مفقود".

"معذرة؟" قالت السيدة هامبريشت التي كانت قد عادت لتوها إلى الهاتف "ماذا كنت تقول؟"

"آه. لا شيء يا سيدتي، كنت أتنحنح فحسب". وهكذا فعلت بالفعل.

"حسناً، لديّ نفس العنوان".

"ألا تعرفين مسقط رأسه؟"

"كلا، أنا لا أعرف الكثير عن تشب. فقط أذكره من ذلك اليوم في لاكينهيث في جولتنا الخدمية الأولى هنا في الثمانينيات، ولقد بدا لي ضابطاً غير مسؤول أبداً آنذاك".

"نعم يا سيدتي. ولكن هل ظل العقيد هامبريشت على اتصال به؟"

"نعم، ولكن ليس على نحو منتظم. ولكنهما – على حدّ علمي - قد تحادثا في إبيريل الماضي؛ في الذكرى السنوية للـ".

"لمهمة القصف".

"نعم".

ثم سألتها بضعة أسئلة أخرى لم تجب عن أي منها، حيث لم تكن لديها أي معلومات في هذا الشأن. أو ربما - شأنها في هذا شأن كل الناس - كانت تعتقد أنها لا تعرف شيئاً. وهنا يجب عليك أن تتوجه بالسؤال الصحيح، وهذا - للأسف – كل ما كنت أفتقر إليه في تلك اللحظة.

كانت كيت على الخط معنا، وشعرت أنني بدأت أستنفد ما لديّ من أسئلة؛ حتى الأسئلة الغبية، فغطت سماعة الهاتف براحة يدها وقالت لي "اسألها إن كانت تعرف إن كان متزوجاً أم لا".

ومن يعبأ؟! لكنني سألتها على كل حال "وهل تعرفين إن كان متزوجاً أم لا؟"

"لا أظن ذلك. ربما كان متزوجاً. لقد أخبرتك بكل ما أعرفه عنه".

"حسناً".

فقالت كيت "وماذا كان يعمل - أو ماذا يعمل في الوقت الحالي - لكسب قوته؟"

"أنا لا، حسناً. أتذكر أن زوجي قال لي ذات مرة أن تشب يتلقى دروساً في الطيران ليصبح طياراً".

"شرع يأخذ دروساً في الطيران بعد ذهابه في تلك الغارة الجوية؟ أعني ألم يكن هذا متأخراً بعض الشيء؟"

قالت السيدة هامبريشت بهدوء "لم يكن تشب ويجينز طياراً". ثم أردفت "بل ضابط أسلحة. كان يسقط القنابل، ولقد أبحر".

"الآن فهمت. ومن ثم".

"لقد أخذ دروس الطيران تلك بعد أن ترك القوات الجوية، وأظنه أصبح طياراً لنقلِ البضائع. نعم، فهو لم يستطع أن يجد وظيفة ضمن خطوط الطيران العادية، فحلّق بالبضائع. أتذكر هذا الآن".

"وهل تعرفين شركة نقل البضائع التي يعمل لديها؟"

"كلا".

"أهي شركة مثل فيديكس أو يو بي أس. أم واحدة من الشركات الكبرى؟"

"لا أظن. هذا كل ما لديّ".

"حسناً، شكراً جزيلاً لك سيدة هامبريشت، لقد كنتِ خير عون لنا. وفي حال تذكرتِ أي شيء آخر بشأن تشب ويجينز أرجو أن تتصلي بي على الفور". وأعطيتها رقم هاتفي.

فسألتني "ولِمَ كل هذا؟"

"ماذا تظنين؟"

"أظن أن أحدهم يحاول قتل الطيارين الذين كانوا في تلك المهمة. ولقد بدأ بزوجي".

"هذا صحيح يا سيدتي".

"يا الله".

"تقبلي تعازيّ مرة أخرى".

وسمعتها تقول بصوت ناعم "هذا لا يجوز، ليس هذا عادلاً، أوه، وليام المسكين".

"أرجوكِ أن تحترسي؛ فقط من باب الاحتياط. اتصلي بالشرطة ومكتب التحقيقات الفيدرالية الأقرب إليكِ".

لم تجبني السيدة هامبريشت، ولما لم يعد هناك ما لديّ لأقوله، وضعت سمّاعة الهاتف.

كانت كيت على خط الهاتف الآخر آنذاك، وقالت لي "معي إدارة الملاحة الفيدرالية، فهم يحتفظون بسجل لكافة تراخيص الطيارين".

"هذا صحيح، وأتمنى على الأقل أن تكون بياناته لديهم محدّثة".

"من الأفضل أن يكون الأمر كذلك، وإلا فسيقع في مشكلة كبيرة معهم".

كنت سعيداً لأن تلك كانت لا تزال أوقات العمل الرسمية لدى كافة الجهات في أميركا، وإلا كنا سنمضي الوقت في ألعاب الكمبيوتر.

كانت كيت تقول لمحدثها على الهاتف "نعم، لا أزال في انتظارك. حسناً". ثم التقطت قلمها في إشارة تبعث على التفاؤل، وشرعت تكتب على قطعة من الورق، ثم قالت "اعتباراً من متى؟ حسناً، أشكر لك تعاونك؛ كان هذا مفيداً جداً".

أنهت كيت المكالمة وقالت "فينتشورا إلى الشمال من بيربانك قليلاً، ولقد أرسل لهم عنوانه الجديد هذا منذ أربعة أسابيع، ولكن من دون رقم هاتف".

ثم بحثت على الإنترنت وعادت لتقول "ليس هناك دليل لفينتشورا. سأتصل بالدليل للمساعدة".

بالفعل اتصلت بهم وأعطتهم الاسم إلوود ويجينز، لكنها سرعان ما أنهت تلك المكالمة أيضاً وأعلنت ليس مدرجاً، ثم أردفت "سأطلب من مكتبنا هناك أن يبحثوا عن الرقم".

نظرت إلى ساعة يدي، وأدركت أن هذا الأمر قد استغرق ساعة وربع الساعة، ولو كنت قد اتصلت بواشنطن حين طلبت مني كيت ذلك، فمن الأرجح أن المكالمة كانت ستستمر حتى الآن.

قلت لكيت "وأين يقع أقرب مكتب تحقيقات فيدرالي لفينتشورا؟"

"هناك مكتب صغير هناك". ثم رفعت سماعة الهاتف وهي تقول لي "فقط أتمنى ألا نكون قد تأخرنا كثيراً. بل وأتمنى أن ينصبوا فخاً ما لخليل هناك".

"نعم". ثم وقفت وأخبرتها "سأتغيب لربع ساعة".

"إلى أين أنت ذاهب؟"

"إلى مكتب ستين".

"المزيد من أغراض رجال الشرطة؟"

"حسناً، بما أن كوينج لا يزال فوق الأطلسي، فإن ستين هو الرجل المناسب. سأعود على الفور". وأسرعت إلى خارج مركز قيادة الحدث.

استقللت المصعد كي أصعد إلى مكتب الكابتن ستين في الركن الجنوبي الغربي من الطابق الثامن والعشرين، ولم يكن لديّ أدنى شك أنه بنفس مساحة مكتب السيد كوينج في الجنوب الشرقي، وبمنتهى الدقة.

بعد أن تعثرت باثنين من مكاتب السكرتارية، وجدت نفسي في منتصف الغرفة في مواجهة الكابتن ستين الذي كان جالساً وراء مكتب ضخم ويتحدث عبر الهاتف. وعندما رآني أنهى حديثه وقال لي "لا بد أن الأمر غاية في الأهمية يا كوري، وإلا ما كنت لتعبأ بالقدوم إلى هنا بنفسك". ثم أشار إلى مقعد أمام مكتبه حيث جلست.

نظرنا إلى بعضنا البعض في تأكيد لأهمية ما أتيت من أجله. ثم فتح ستين درج مكتبه، وأخرج قنينة من الشراب، وصب لنا كوبين من الشراب في كأسين من البلاستيك. ناولني ستين أحدهما وشربت نصفه تقريباً، فيما احتسى ستين كأسه كاملاً وقال "ماذا لدينا؟"

"لدينا كل شيء يا كابتن، أو معظمه. ولكننا تأخرنا بنحو اثنين وسبعين ساعة".

"أسمعني ما لديك".

فأخبرته بما لديّ بسرعة دونما التفات للقواعد النحوية واللغوية؛ حديث شرطي لآخر إن أردت تسمية الأمر كذلك، حيث إن حديثي في نيويورك سريع الإيقاع.

استمع إليّ ستين، وأطرق دون تعليق، واكتفى بالجلوس على مقعده حتى انتهيت، ثم فكر قليلاً وأخيراً قال "أربعة رؤوس إذاً؟"

"بل خمسة إذا ما أضفنا إليهم العقيد هامبريشت، وأربعة عشر إذا ما أحصيناهم جميعاً، ناهيك عن الضحايا على متن رحلة ترانس - كونتيننتل 175".

"نعم، تلك الحادثة المؤسفة".

"نعم يا سيدي".

ثم فكّر لبرهة وقال "ولم تحاول الاتصال بأي شخص في واشنطن بعد؟"

"كلا يا سيدي، فكرت أنه ربما يكون من الأفضل لو أنك أجريت هذا الاتصال".

"نعم". ثم أخذ يفكر ثانية ولكن لفترة أطول قبل أن يتابع "حسناً، أعتقد أن لدينا هنا فرصة أو اثنتين للقبض على هذا الرجل، على افتراض أنه لم يضع يديه على المدعو ويجينز بعد، أو في حال كان سيذهب إلى كالوم".

"هذا صحيح".

"لكن هناك أيضاً احتمال بأن يكون قد انتهى من الأمر برمته، أو بدأ يشعر بعدم الارتياح هنا، وربما يكون في بلده بالفعل الآن".

"محتمل بالطبع".

قال ستين "اللعنة". ثم شرد للحظة سأل بعدها "وهل وجدت عنوان ويجينز الأخير في مكتب فينتشورا؟"

"إن كيت لا تزال تبحث في هذا الأمر".

"وهل أمّنتما الحماية للعقيد كالوم؟"

"نعم يا سيدي".

"هل نصب الفيدراليون فخاً لخليل عند كالوم؟"

"أظن أنهم لا يزالون يؤمنون الحماية لآل كالوم، وكنت أفكر أن خليلاً ربما لن يحاول الذهاب إلى كالوم، فهو لن يذهب إلى رجل محكوم عليه بالموت على كل حال؟"

فأجابني ستين "أظنه سيفعل إن كان يرى بالفعل أن هذا الرجل قد أسقط قنبلة فوق رأسه. سأتصل بمكتب التحقيقات الفيدرالية في دنفير، وأوصيهم بنصب فخ لخليل هناك".

ثم شرب الرجل بقية ما لديه من شراب، وأنهيت أنا كأسي، وراودتني فكرة أن أطلب المزيد! إلا أن الكابتن ستين نظر إلى سقف مكتبه العالي متأملاً، ثم عاود النظر إليّ وقال "أتعرف يا كوري، لقد أمضى الإسرائيليون ثمانية عشر عاماً لتصفية حساب مذبحة أولمبياد ميونيخ التي وقعت عام 1972".

"نعم يا سيدي".

"فقد أطلق الألمان سراح منفذي المذبحة الذين كانوا معتقلين لديهم مقابل إطلاق سراح طائرة لوفتهانزا، بينما تتبع رجال الاستخبارات الإسرائيلية أثر منفذي *سبتمبر الأسود* السبعة الذين نفذوا مذبحة الرياضيين الإسرائيليين تلك، واغتالوهم جميعاً؛ وكان آخرهم في العام 1991".

"نعم يا سيدي".

"إنهم يلعبون اللعبة بشكل مختلف في الشرق الأوسط؛ فعنصر الزمن لا يعني لهم شيئاً على الإطلاق".

مكث ستين بعد ذلك صامتاً لنصف دقيقة أو نحوها ثم قال "هل فعلنا كل ما بوسعنا؟"

"أظننا فعلنا، ولكنني لست متأكداً بشأن الآخرين".

لم يجب ستين على هذا، ولكنه قال "حسناً يا صاح. لقد أحسنت صنعاً. أتراك تحب العمل هنا؟"

"كلا".

"وماذا تريد؟"

"أن أعود إلى حيث كنت".

"لا يمكنك العودة مرة أخرى يا بني".

"بل يمكنني بالتأكيد".

قال ستين "سأرى ماذا يمكنني أن أفعل، بينما في الوقت نفسه عليك أن تكتب تقارير بما يبقيك منشغلاً طوال عطلة نهاية الأسبوع. وسأراك في ما بعد". ووقف، فوقفت كذلك، ثم أردف "وأبلغ تهنئتي للآنسة مايفيلد، وأتمنى أن تكون تهنئة شرطي لها أمراً ذا قيمة".

"بلا شك يا سيدي".

"حسناً، يبدو أن لديّ العديد من المكالمات الهاتفية التي يجب إجراؤها الآن. يمكنك الانصراف".

لكنني لم أنصرف، بل قلت "اسمح لي بالسفر إلى كاليفورنيا".

"لماذا؟"

"أحب أن أكون متواجداً في المشهد الأخير".

"أحقاً؟ ولكن قوات الشرطة ورجال مكتب التحقيقات الفيدرالية هناك بالفعل الآن، ولا أظنهم بحاجة إليك".

"ولكنني بحاجة إلى أن أكون هناك".

"لماذا لا تذهب إلى كولورادو سبرينغز؟ أعني من الناحية الجغرافية، تقع كولورادو على الطريق إلى كاليفورنيا؛ حسبما أذكر من آخر مرة طالعت فيها الخريطة".

"لقد سئمت من مطاردة هذا السافل، وأود أن أسبقه بخطوة".

"ماذا لو ذهبت أنت إلى كاليفورنيا بينما أمسك به الفيدراليون في كولورادو سبرينغز؟"

"لا بأس. سأتعايش مع المأساة".

"أشك في ذلك. حسناً اذهب إلى حيث شئت، فمن الأفضل ألا تظل هنا على أي حال. سأمنحك موافقتي على هذا، واستخدم بطاقة ائتمانك كي توفر الوقت. واحترس فنحن لا نريدك ميتاً؛ فما زالت هناك تقارير عليك كتابتها. هيا اذهب قبل أن أغيّر رأيي".

"سأصطحب شريكتي معي".

"افعل ما شئت، فأنت الفتى الذهبي هنا الآن. أظنك تشاهد إكس فايلز، أليس كذلك؟"

"أشاهده بالطبع".

"دائماً أتساءل كيف لا يقوم بمعاشرتها؟"

"صحيح. كم يحيرني هذا الأمر".

"وأنا كذلك". ثم مد يده نحوي وتصافحنا. وبينما كنت في طريقي إلى خارج المكتب، ناداني ستين وقال "أنا فخور بك يا جون؛ أنت شرطي جيد حقاً".

هكذا كان مكتب ستين بمثابة نفحة من الهواء الطلق في المبنى 26 فيدرال بلازا.

عدتُ أدراجي مسرعاً إلى مركز قيادة الحدث وأنا مدرك أنني قد أقع أسيراً لمكالمة هاتفية، أو أحد الرؤساء الفيدراليين، ومن ثم ذهبت مباشرة إلى مكتب كيت، وقلت لها وأنا أجذبها من ذراعها "هيا بنا فلنذهب من هنا".

"حقاً؟ الآن؟"

"فوراً وفي هذه اللحظة".

فوقفت وهي تسأل "وهل أحتاج إلى أن-".

"لا شيء على الإطلاق؛ سلاحك وشارتك فحسب، ولتسرعي".

لازمتني كيت في الطريق إلى حيث المصاعد، ثم سألتني "من سمح لك بأن -".

"ستين فعل".

"حسناً". ثم فكرت للحظة وقالت "ربما يجدر بنا الذهاب إلى كولورادو سبرينغز".

ربما كان هذا صحيحاً، لكنني لم أشأ أن أبدأ جدالاً مع الرئيسة، فقلت "لقد سمح لنا ستين بكاليفورنيا وحسب".

"ولمَ؟"

"لا أعرف، أظنه يريدنا أن نبتعد قدر المستطاع".

هنا وصل المصعد فدخلناه، ثم هبطنا به إلى بهو المبنى، ومنه إلى الخارج حيث برودواي. فأوقفت سيارة أجرة ودخلناها، ثم قلت للسائق "مطار كنيدي". وعلى إثر هذا اندفعت السيارة في قلب الازدحام.

قلت لكيت "ما أخبار فينتشورا؟"

"لقد توصل رجالنا في مكتب فينتشورا إلى رقم هاتف ويجينز غير المدرج، واتصلوا به بالفعل بينما كنت معهم على الهاتف. أجابهم جهاز تسجيل المكالمات، ولكنهم لم يتركوا له رسالة تفصيلية، بل طلبوا منه فقط أن يتصل بهم لحظة سماعه

الرسالة. ثم قاموا بإرسال بعض الفيدراليين إلى منزله الذي - وفقاً لهم - يقع على مقربة من الشاطئ. وأخيراً، اتصلوا لطلب تعزيزات من لوس أنجلوس". ثم أضافت "يبدو أن عدد الرجال في هذا المكتب قليل للغاية".

"أتمنى ألا يجدوه مقتولاً في منزله. وما هي خطتهم؟ هل سيحيطون المنزل بالدبابات؟"

"لسنا بالغباء الذي تظنه يا جون".

"هذا مطمئن".

"سيفحصون منزل ويجينز، ويسألون الجيران، وبالطبع سينصبون فخاً لخليل".

حاولت رسم صورة لمجموعة من الرجال في حللهم الزرقاء، وهم يجوبون أرجاء ذلك الحي بالقرب من الشاطئ. كم سيتسبب هذا في دفع بعض الخارجين على القانون إلى التوجه صوب الجنوب. وفي الوقت ذاته، لو افترضنا أن أسد خليل يراقب الحي، فلا شك أن هذا سيثير لديه الشكوك. ولكن كي أكون منصفاً، أنا نفسي لا أعرف كيف يمكن تناول هذا الأمر سوى بهذه الطريقة.

فقلت لكيت "اتصلي بمكتب فينتشورا مجدداً".

أخرجت كيت هاتفها الخلوي على الفور، وشرعت تطلب الرقم، فيما كانت السيارة تقترب من جسر بروكلين. وعندما نظرت إلى ساعتي كانت الثالثة من بعد الظهر؛ أي منتصف الظهيرة في كاليفورنيا. أم أنه العكس؟ كنت أعرف أن ترتيب التوقيت يتغير غرب الجادة 11.

في هذه اللحظة كانت كيت تتحدث عبر هاتفها "معك مايفيلد هل من جديد؟"

ثم استمعت إلى محدثها وقالت "حسناً، سأسافر الآن إلى مطار لوس أنجلوس الدولي؛ وسأتصل بكم في وقت لاحق لأخبركم بتفاصيل الرحلة. أريد سيارة تقلني من صالة الوصول إلى ساحة طائرات الهليكوبتر. قابلني بسيارة في المكان المفترض أن أهبط به في فينتشورا. نعم، هذا صحيح. لديّ صلاحيات بهذا. لا داعي للقلق، إلا إذا أخفقت في فعل ما أقوله لك، عندها سيكون لديك سبب للقلق بحق". قالت كيت لمحدثها وأنهت المكالمة ثم نظرت إليّ وقالت "أترى؟ بوسعي أن أصبح متغطرسة حمقاء مثلك".

فابتسمت وسألتها "ما الجديد في فينتشورا إذاً؟"

"حسناً، لقد ذهب العملاء الثلاثة الموجودون في مكتب فينتشورا إلى منزل ويجينز، واقتحموه خوفاً من أن يكون قتيلاً بالداخل، ولكنه لم يكن موجوداً بالمنزل. وهم الآن هناك ويستخدمون مفكرة الهاتف خاصته للاتصال بهؤلاء الذين قد يكون معهم أو يعرفون أين هو. يعني هذا أنه لو كان قد قُتل قبل الآن بالفعل، فإن ذلك لم يحدث في منزله".

"لا بأس. ربما يكون على متن رحلة طويلة الآن".

"هذا محتمل، فتلك هي مهنته على أي حال. وربما يكون هذا هو يوم عطلته ويقضيه على الشاطئ".

"كيف حال الطقس في فينتشورا؟"

"إنه لا يتغير هناك؛ مشمس، ودرجة الحرارة 72 دائماً". ثم أضافت "لقد عملت لعامين مع مكتب لوس أنجلوس؛ كان هذا منذ نحو ثلاثة أعوام".

"وهل أحببت العمل هناك؟"

"كان على ما يرام، وإن لم يكن مشوقاً كما هو الحال في نيويورك".

ابتسمنا قبل أن أسألها "وأين تقع فينتشورا هذه بحق الجحيم؟"

فأخبرتني كيت، لكن المشكلة أنني لا أفهم الكثير في الجغرافيا، كما لم أفهم تلك الأسماء الإسبانية التي راحت تقذفها في وجهي.

كنا في هذه اللحظة نعبر جسر بروكلين، حين انعطف السائق جنوباً إلى طريق بروكلين - كوينز السريع. وبالرغم من أنني قمت بالفعل بالقيادة على الطريق السريع من قبل، إلاّ أنه لم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا؛ إلا في الثالثة من بعد منتصف الليل. فأخرجت شارتي كفيدرالي وقلت للسائق "فلتتخطَّ تلك الإشارات". وهذا غالباً ما أفعله حتى لو لم أكن متأخراً ولا أعرف إلى أين أنا ذاهب.

ثم سألت السائق عن موطنه، وأخبرني أنه أردني الجنسية. وكان هذا جديداً عليّ؛ فبالرغم من أن باكستان تأتي على رأس القائمة، إلا أن مقدونيا قد لحقت بها.

قلت لكيت "لقد أوصاني ستين بتهنئتك بالنيابة عنه".

لكنها لم تجب.

فأضفت "وهناك فرصة كي أعود إلى عملي السابق كشرطي".

مرة أخرى، لم تعلّق كيت، ومن ثم عمدت إلى تغيير الموضوع، فسألتها "أين تعتقدين أن خليلاً موجود الآن؟"

"في كاليفورنيا، أو كولورادو سبرينغز، أو بينهما".

"ربما. ولكن هناك احتمال بأن تكون مهمته منحصرة في الساحل الشرقي حيث لديه أعوان، ومن ثم انتهى، وعاد إلى وطنه بمساعدة إحدى السفارات الشرق أوسطية. فكاليفورنيا أو كولورادو تقعان على مسافة بعيدة".

"جون، إن هذا الرجل لم يقطع مسافة تساوي نصف العالم حتى -". ثم ألقت نظرة على سائق سيارة الأجرة وتابعت "حتى يأكل جزءاً من الوجبة ويذهب. وأنت تعرف هذا جيداً".

"هذا صحيح. ولكنني أتساءل كيف سيصل إلى لوس أنجلوس، فكل المطارات تشكل خطراً بالنسبة له".

"المطارات الكبرى فقط. فأنا أذكر ذلك الهارب الذي انتقل من لوس أنجلوس إلى ميامي عبر المطارات الصغيرة. ربما كان من الأسرع له لو سافر سيراً على

الأقدام، ولكنه نجح في مراوغتنا حتى وضعنا أيدينا عليه في ميامي".

"صحيح".

"ولا تنسَ الطائرات الخاصة. حدث من قبل أن سافر أحد أباطرة المخدرات في طائرة نفاثة خاصة؛ والكثيرون منهم يفعلون هذا الآن، حيث لا نقاط أمنية، ولا تسجيل للرحلات، ويمكنهم الذهاب إلى أي مكان يمكن الهبوط فيه".

"ربما يجدر بنا أن نحذِّر المطارات المحلية في منطقة فينتشورا".

"لقد اقترحت هذا بالفعل على مكتب فينتشورا، ولكنهم ذكروني أن هناك العشرات من المطارات الصغيرة في المنطقة، والعشرات في المناطق الأخرى القريبة، ويمكن للطائرة الخاصة أن تهبط في أي منها في أي ساعة من الليل أو النهار. أي أنك تحتاج إلى جيش كامل لمراقبة كافة المرافق الملاحية العامة، ناهيك عن المهابط المجهولة أو المهملة".

"أظنك محقة".

بدا لي أن كيت على دراية أفضل مني بهذه الأشياء، فيما كانت سيارات الأجرة والطرقات الجانبية من تخصصي أنا. فنصف الهاربين الذين ألاحقهم إما يهرعون إلى بيوت أمهاتهم أو شقق صديقاتهم، أو يكتفون بالتسكع حول حاناتهم المفضلة. ومعظم المجرمين - القتلة بصفة خاصة - حمقى وأغبياء حقاً. لكنني أفضل الأذكياء منهم، حيث يمثلون تحدياً وتشويقاً.

قلت لكيت "ربما فعل خليل هذا بهدف السرعة؛ تماماً كمختطف المحافظ. إنه ليس أحمق، ويعرف تماماً أننا سنعرف لعبته تلك في غضون ثلاثة أو أربعة أيام".

"هذا يبعث على التفاؤل".

"حسناً، ما حدث هو أننا فطنا إلى الأمر في أقل من أربعة أيام، أليس كذلك؟"

"وماذا يعني هذا؟"

"يعني أن... لا أعرف. قد يكون ويجينز قد قُتل بالفعل، أو لعله يقضي وقته في مكان آخر. فربما قد حلّق ببعض البضائع إلى الساحل الشرقي، وعلم خليل بالأمر، واقتنصه هناك. أي أن هؤلاء العملاء في منزل ويجينز قد يقضون وقتاً طويلاً في انتظار عودته أو ظهور أسد خليل بلا جدوى".

"هذا محتمل بالطبع. وهل لديك أي اقتراحات؟ هل تفضل الانتظار هنا في نيويورك؟ هل تفضّل أن تذهب إلى اجتماع الساعة الخامسة مساء اليوم وأن تستمع إلى الجميع وهم يذكرون كيف أنك غاية في الذكاء والحنكة؟"

"هذا إتهام رخيص".

"ربما لا تريد أن يفوتك اجتماع الثامنة مساء الليلة مع جاك لدى عودته من فرانكفورت".

فضلت ألاّ أجيبها.

“أخبرني يا جون بما تريد أن تفعله”.

“لا أعرف، إن هذا الرجل يجعلني مشوشاً؛ فأنا أحاول أن أدخل إلى رأسه وأعرف كيف يفكر”.

“أتريد رأيي؟”

“بالتأكيد”.

“أنا أرجح ذهابنا إلى كاليفورنيا”.

“ولكنكِ اقترحتِ الذهاب إلى فرانكفورت”.

“بل لم أقل شيئاً كهذا أبداً. والآن ماذا تريد أن تفعل؟”

“اتصلي بفينتشورا مرة أخرى”.

“لديهم بالفعل رقم هاتفي الخلوي، وسيتصلون متى طرأ جديد”.

“اتصلي بدنفير”.

قالت كيت “لماذا لا تشتري هاتفاً خلوياً لنفسك؟” وشرعت تتصل بمكتب التحقيقات الفيدرالية في دنفير وتسأل إن كان قد طرأ جديد. ثم راحت تستمع إلى محدثها قبل أن تشكره وتنهي المكالمة.

“لقد تم اصطحاب آل كالوم إلى مقر ما داخل أكاديمية القوات الجوية، وهناك عملاء يراقبون مسكنهم من الخارج والداخل. وهكذا الحال في فينتشورا”.

“هذا جيد”.

كنا نسير فوق باركواي الآن متّجهين صوب مطار كنيدي، وكنت بالفعل أحاول الوصول إلى تسوية مع نفسي؛ أي طريق أرغب في اتباعه دون أن أفسد الأمر في النهاية. من الصعب بحق أن تكون رجل الساعة.

ربما لم أكن لأفضي بهذه الشكوك إلى أي شخص، لكنني أحسب أنني وكيت قد أصبحنا أكثر من مجرد شريكي عمل، فقلت لها “اتصلي بمكتب لوس أنجلوس وأخبريهم أن يضعوا مراقبة على مكاتب القنصليات التي قد تساعد خليل على الهرب. وتأكدي من أنهم يراقبون منزل ويجينز السابق، ربما تكون معلومات خليل غير محدّثة ومن ثم يظهر هناك”.

“لقد فعلت كل هذا بينما كنت في اجتماعك مع ستين، ولقد أخبروني أنهم يعرفون بالفعل ما يجب عليهم فعله. حاول أن تكن بعض الاحترام للفيدراليين يا جون، فلست العبقري الوحيد في هيئات تطبيق القانون”.

كنت أظن كذلك، لكن يبدو أنني لست العبقري الوحيد بالفعل. وبالرغم من ذلك، لم يزل هناك شيء ما يزعجني في خطوات اللعبة تلك؛ هناك شيء ما مفقود، وكنت أشعر أنني أعرف ذلك الشيء في مكان ما بداخلي، لكنني لا أستطيع أن أحدده أو أضع يدي عليه. مرة أخرى استعدت شريط الأحداث بأكمله منذ يوم

السبت وحتى هذه اللحظة. ولكن، أياً كان ذلك الشيء، فقد ظل يختفي في ذلك الركن المظلم في عقلي، تماماً كما كان يفعل أسد خليل.

أما كيت فكانت على الهاتف مع تلك المرأة في فيدرال بلازا والتي تقوم بإعداد إجراءات سفرنا، وكانت تقول إننا بحاجة إلى معلومات عن أول رحلة مباشرة - بدون توقف - إلى لوس أنجلوس وإلى دنفير. ثم استمعت إلى محدثتها، ونظرت إلى ساعة يدها، وقالت "هلاّ انتظرتِ لحظة من فضلك". ثم قالت موجهة حديثها إليّ "إلى أين تريد الذهاب؟"

"إلى حيث سيذهب خليل".

"إلى أين سيذهب خليل هذا؟"

"لوس أنجلوس".

فعادت إلى هاتفها وقالت "حسناً يا دوريس، هل لكِ أن تحجزي لنا مكانين على الطائرة الأميركية؟ كلا، ليس لدي رقم تخويل"، ثم نظرت إليّ متسائلة، فناولتها بطاقتي الائتمانية، فالتقطتها وهي تقول لدوريس "سنقوم نحن بالسداد على أن نسترد هذه الأموال في ما بعد". وبعد أن لقنتها رقم البطاقة، قالت لها "تأكدي من أن المكانين بالدرجة الأولى، واتصلي رجاءً بمكتب لوس أنجلوس وأخطريهم بميعاد وصولنا. شكراً لكِ".

ثم أعادت لي بطاقتي.

"فقط لأجلك يا جون سيوافقون على دفع ثمن تذكرتين في الدرجة الأولى".

"ربما يتحقق هذا اليوم، أما غداً فربما لن يدفعوا حتى أجرة هذه السيارة".

"إن الحكومة تحبك يا جون".

وصلنا إلى مطار جون كنيدي، وقال سائق السيارة "أي صالة تقصدان؟"

ذكرني هذا بالسؤال ذاته الذي تلقيته يوم السبت لدى مجيئي إلى مطار كيندي، إلا أنني هذه المرة لم أكن أقصد نادي الفاتحين.

أجابت كيت السائق بقولها "الصالة التاسعة".

ذهبنا إلى محطة الخطوط الجوية الأميركية حيث تركنا السيارة، ونقدت السائق أجرته، واتجهنا على الفور إلى منضدة التذاكر فحصلنا على تذكرتي الدرجة الأولى مقابل بطاقتي المتاحة بالطبع. ثم أبرزنا هوّيتينا وملأنا الاستمارة SS-113 التي تذكر أن معنا سلاحين آليين من عيار 40.

كان أمامنا خمس عشرة دقيقة للحاق بالطائرة، فاقترحت على كيت شراباً سريعاً. ولكنها نظرت صوب لوحة المغادرة وقالت "إن المسافرين يصعدون الآن، فلنؤجل الشراب حتى نصعد إلى الطائرة".

"ولكننا نحمل الأسلحة، ولن يدعوننا نشرب شيئاً".

"ثق بي، لقد فعلت هذا من قبل".

يبدو بالفعل أن هناك جانباً خفياً في السيدة المثالية لم ألحظه من قبل.

أظهرنا هوّيتينا الفيدراليتين وتصاريح حمل السلاح لدى النقطة الأمنية، ووصلنا إلى البوابة وكان لا يزال لدينا بضع دقائق.

كانت مضيفة الدرجة الأولى في أواخر السبعينيات من عمرها أو نحو ذلك، ويبدو أنها قد وضعت طقم أسنانها لتوها وأتت لتحيينا على متن الطائرة.

فسألتها "هل هذا قطار محلي أم القطار السريع؟"

يبدو أن سؤالي هذا كان مشوشاً بالنسبة لها، وتذكرت أن الأقدمية أحياناً تعني الشيخوخة.

على أي حال لم أكن في مزاج يسمح بالمزاح حول الخطوط الجوية، فاكتفينا بأن أعطيناها تراخيص حمل السلاح، فنظرت نحوي وهي متشككة؛ كيف سمحوا لي بحمل سلاح؟!! وخلتُ أنني رأيت كيت تنظر إليها مؤكدة المعلومة، وقد يكون هذا من نسج خيالي فحسب.

عمدت المضيفة إلى فحص القائمة لديها لمزيد من التأكد من هويتينا، ثم دخلت القمرة ومعها تراخيص حمل السلاح - وفقاً للإجراءات المتبعة - لإخطار الطيار أن اثنين تابعين لهيئة تطبيق للقانون سيكونان من بين الركاب؛ امرأة لطيفة وشخص غريب الأطوار يسافران معاً في الدرجة الأولى!

أخيراً، وجدنا مقعدينا إلى الجانب الأيمن من الدرجة الأولى التي كانت نصف ممتلئة، ومعظم الركاب فيها كانوا أناساً يشبهون أهل لوس أنجلوس في عودتهم إلى وطنهم؛ إلى حيث ينتمون.

في الحقيقة، لم نمكث كثيراً فوق الأرض قبل أن نقلع، على اعتبار أن ذلك كان مطار كنيدي الدولي، فلم نتأخر سوى خمس عشرة دقيقة وقال الطيار إننا سنعوضها في الرحلة. كان هذا أفضل بالنسبة لي من أن نعوضها فوق أرض لوس أنجلوس بأن نعبر المخرج ذا الستمئة ميل في ساعة، بينما مظلات الطوارئ مشرّعة.

أقلعنا إلى زرقة السماء، ونحن مسلحان، ومتحفزان، ويحدونا أمل.

قلت لكيت "لقد نسيت أن أشتري ملابساً داخلية نظيفة".

"كنت على وشك أن أذكّرك بهذا".

لاحظت أن الآنسة مايفيلد كانت في مزاج غير محدد الملامح في هذه اللحظة.

ثم جاءت مضيفة أخرى تحمل الصحف، فطلبت منها صحيفة لونغ أيلاند نيوزداي، وعندما تصفحتها وجدت خبراً حول قتلى متحف المهد الملاحي، فقرأت المقال باهتمام. ولاحظت أن الخبر يخلو من عنوان فرعي، مما يعني أن مقص السلطات قد تدخل وأعمل نفسه في القصة على نحو ما. في الحقيقة، لم يرد ذكر اسم أسد خليل في الخبر على الإطلاق، فيما ذُكر أن الدافع وراء جرائم القتل كان السرقة. صحيح. نموذج مثالي لسرقة متحف تحت تهديد السلاح. وتساءلت ما إذا

كان أي قارئ سيصدق رواية سرقة المتحف الجنائية تلك، أو بالأخص ما إذا كان خليل ذاته سيقبل هذه الرواية إذا ما رآها وصدّق أن تلك هي وجهة نظرنا عن الحادث، وأن لا أدلة لدينا. أظن أن الأمر يستحق المحاولة.

دفعت بالصحيفة إلى كيت كي تقرأ الخبر، ففعلت ثم قالت "لقد ترك خليل رسالة واضحة في ذلك المتحف، مما يعني أنه ربما قد انتهى من مهمته وفي طريقه عائداً إلى وطنه، أو أنه متكبر ويحتقر السلطات وكأنه يقول "لن تفطنوا إلى اللعبة إلا بعد فوات الأوان. فلتمسكوا بي إن استطعتم". ثم فكرت للحظة واستطردت قائلة "بيد أنني أتمنى لو أنه يبقى، وأن يكون متوجهاً الآن إلى حيث نحن ذاهبان".

"لو كان الأمر كذلك، فمن الأرجح أنه هناك الآن بالفعل. أتمنى فقط لو أنه ينتظر حتى يحل الظلام لينفذ خطته التالية".

أومأت كيت موافقة.

كنت بحاجة إلى شراب أو اثنين، فطلبت من كيت أن تتودد إلى الجدة مضيفة الطائرة كي تحضر لنا شرابين، فقالت لي كيت "لن تفعل فنحن مسلحان".

"كنت أظنكِ قلتِ إن-".

قالت كيت "كنت أكذب عليك. أنا محامية يا جون، فعندما أقول لك ثق بي إنما يعني هذا أنني أكذب عليك. كيف يمكن أن تكون بهذا الغباء؟" وضحكت.

أذهلني ما قالته، أما هي فأردفت قائلة "بوسعك تناول الجعة الخالية من الكحول".

"أشعر بغضب بالغ".

أمسكت كيت بيدي حتى هدأت، ثم طلبت شراب فيرجين ماري.

لم تكن وجبة الطعام في الدرجة الأولى سيئة، والفيلم الذي عرضوه كان رائعاً؛ كان من بطولة جون ترافولتا وهو يلعب دور محقق جنائي مسلح. ولقد رأيت أن الفيلم كان جيداً حقاً بالرغم من النقد السيىء الذي قرأته عن الفيلم ذات مرة في صحيفة لونغ أيلاند، وكان كاتبه هو جون أندرسون الناقد السينمائي كما يطلقون عليه، والذي لطالما وجدت آراءه ووجهات نظره متناقضة تماماً مع آرائي ووجهات نظري.

كانت يدانا تتعانقان طوال فترة مشاهدتنا للفيلم؛ تماماً كما يفعل الشباب الصغار في دور السينما. عندما انتهى الفيلم، أرجعت ظهر مقعدي إلى الوراء وغفوت في نوم عميق. وكما هو معتاد بالنسبة لي، حلمت حلماً معبَّرًا عن شيء ما لم أستطع تذكره عندما استيقظت. ما أعنيه هو أن الأمر برمته قد اندفع إلى حلمي؛ ما ينوي خليل فعله، خطوته التالية، وما يتعين علينا فعله حتى نتمكن من القبض عليه. ولكن للأسف، ما إن استيقظت حتى نسيت معظم ما كان في ذلك الحلم، بما في ذلك الاستنتاجات الرائعة التي توصلت إليها. يشبه الأمر أن ينتابك حلم جنسي رائع وتستيقظ لتجد أن رغباتك لم تشبع بعد.

لكن ليس هناك علاقة بين موضوع الأحلام هذا وبين ما لدينا الآن. على أي حال، هبطت الطائرة في لوس أنجلوس في تمام السابعة والنصف مساءً، وهكذا أصبحنا في كاليفورنيا. وسواء كانت تلك خطوة صحيحة أو لا، سرعان ما سنكتشف!

الكتاب الخامس

الفصل السابع والأربعون

هبطنا بالطائرة أولاً، ثم تركناها ووجدنا رجل مكتب التحقيقات الفيدرالية في لوس أنجلوس الذي أقلّنا إلى ساحة طائرات الهليكوبتر التابعة للشرطة حيث كانت في انتظارنا طائرة هليكوبتر فيدرالية لتطير بنا إلى فينتشورا؛ أياً كان موقعها بحق الجحيم.

كانت كل الأشياء على الأرض تشبه مثيلاتها في كوينز ما عدا الجبال وأشجار النخيل. حلّقت بنا الطائرة لبضعة أميال فوق أحد المحيطات على ما أعتقد، ثم على طول الشريط الساحلي، وكانت هناك بعض التلال العالية بالقرب منا من جهة اليمين. كانت الشمس تقبع فوق المحيط، ولكن بدلاً من أن تشرق مثلما تفعل فوق المحيط الذي أعرفه، كانت تغرب فوق هذا المحيط. ألا يبدو هذا المكان غريباً على نحو ما؟

في غضون خمس وعشرين دقيقة كنا نهبط فوق ساحة طائرات الهليكوبتر في مستشفى المنطقة، والتي تقع إلى الجانب الشرقي من فينتشورا. وهناك كانت تقف في انتظارنا سيارة زرقاء من طراز كراون فيكتوريا، يقودها رجل يُدعى تشانك، وكان يرتدي بنطالاً أسود ومعطفاً رياضياً، وينتعل حذاء ركض لامعاً. من المفترض أن تشانك هذا كان عميلاً فيدرالياً على الرغم من أنه بدا لي كعامل في مرآب، ولكنه كاليفورني الطراز. وكانوا كلهم يفكرون بالطريقة نفسها، إذ إنهم جميعاً من خريجي مدرسة مانتشوريان كانديدات في كوانتيكو.

بينما كان يأخذنا إلى المكتب الفيدرالي الفرعي في فينتشورا، وجّه تشانك إلينا العديد من الأسئلة، وشعرت أنهم بالفعل لا يواجهون الكثير من عمليات الإرهاب الدولي والقتل الجماعي في فينتشورا. وذكرني هذا بما أخبرتني به كيت ونحن على متن الطائرة من أن هذا المكتب كان قد أغلق من قبل ثم أعادوا فتحه لسبب ما.

كان المكتب يقع في بناية تضم الكثير من المكاتب المحاطة بأشجار النخيل والساحات المخصصة لركن السيارات. وبينما كنا نسير وسط تلك الساحات، كنت أنظر من حولي وأشم رائحة الأزهار في الهواء، وكانت درجتا الحرارة والرطوبة مثاليتين. أما الشمس في غروبها، فكانت لا تزال متوهجة في كبد السماء.

سألت كيت "ماذا يفعل مكتب التحقيقات الفيدرالية هنا؟ يزرع أشجار الأفوكاتو؟"

"حسِّن سلوكك يا جون".

"بالتأكيد".

ثم رحت أتخيل العملاء الفيدراليين هنا في بذلات البروكس براذرز الزرقاء، وهم ينتعلون الصنادل من دون جوارب.

دخلنا البناية، ثم استقللنا المصعد إلى أن وصلنا إلى باب كُتب عليه مكتب التحقيقات الفيدرالية، وكذلك كانت هناك الشارة المستديرة خاصتهم وقد كُتب عليها وزارة العدل، ثم ميزان العدل في اتزانه المثالي، والشعار *الإخلاص والشجاعة والتعاون*؛ كلها أشياء لا يمكن المجادلة بشأنها، لكنني قلت لكيت "ربما يجدر بهم إضافة العبارة *صحيح سياسياً*".

إلا أن كيت كانت قد دخلت بالفعل في طور سياسة تجاهلي، فلم تجبني، وضغطت على جرس الباب.

انفتح الباب، وقابلتنا سيدة لطيفة اسمها سندي لوبيز، وقالت "ما من جديد. لا يزال عملاء فينتشورا الثلاثة في منزل ويجينز، وقد التحق بهم ثلاثة عملاء آخرين من مكتب لوس أنجلوس، وهناك العشرات من عملاء فينتشورا ولوس أنجلوس منتشرون في الحي، ولقد أخطرنا الشرطة المحلية، ويمكن الاتصال بهم جميعاً عبر اللاسلكي أو الهاتف. بيد أننا لا نزال نحاول العثور على إلوود ويجينز. ولقد عرفنا من خلال بعض الأوراق في منزله أنه يعمل لدى شركة خدمات شحن المحيط الهادئ، فقمنا بزيارتهم وأخطرونا أنه ليس لديه أي رحلات مدرجة حتى يوم الجمعة. ولكنهم ذكروا أنه يتصل أحياناً يوم الجمعة ليبلغ عن مرضه. وتركنا اثنين من عملائنا في الشركة وفي مطار فينتشورا المحلي في حال ظهر ويجينز في أي منهما. كما زرعنا عملاءنا في المواقع التي عرفنا أنه يتردد عليها، ولكن مما عرفناه عن هذا الرجل، يبدو أنه كالروح الحرة ويصعب حقاً توقع تحركاته".

"كم يعجبني هذا الرجل".

بدا لي أن العميلة لوبيز قد ابتسمت على نحو ما، ثم تابعت "كما أن صديقته مفقودة. ولما كان من المعروف عنهما أنهما من محبي المخيمات، فمن الوارد أنهما يخيمان الآن في مكان ما". نظرت السيدة لوبيز إلى مايفيلد ثم إليّ، وقالت "أوه، كم أحب الغابات؛ الخيم وكل تلك الأشياء".

"نعم، معكِ حق".

"وهل لديكم الرقم الخلوي لويجينز أو صديقته؟"

"نعم، لدينا رقماهما، لكن لا أحد منهما يرد على الاتصال".

فكرت لبرهة، وقررت أن التخييم أفضل من الموت، ولكن ليس أفضل بكثير. ثم قلت للسيدة لوبيز "يبدو أنكم قمتم بعمل جيد".

قالت لوبيز "من دون شك". وهي تعطي لكيت قصاصة من الورق وتقول "لقد اتصل جاك كوينج من نيويورك، ويريدك أن تتصلي به. سيكون في هذا الرقم حتى منتصف الليل ثم في المنزل".

فقلت لكيت "سنتصل به من منزل ويجينز عندما يكون لدينا ما نخبره به".

"بل سنتصل الآن".

"كيف ستشعرين عندما تعرفين أننا كنا هنا نتصل بجاك بينما يظهر خليل في منزل ويجينز؟"

أطرقت كيت على مضض وقالت لسندي لوبيز "حسناً، نريد الذهاب إلى منزل ويجينز".

"لكننا نحاول قدر المستطاع ألاّ نظهر أننا نقوم بأيّ إجراءات هناك".

فأجبتها "سنجلس هادئين فوق الأريكة فحسب".

ترددت العميلة لوبيز ثم قالت "في حال ذهبتما، سنقدر لكما انتظاركما هناك على الأقل حتى ساعات الصباح الأولى". ثم أشارت في وضوح "فنحن نحاول أن ننصب فخاً هناك، لا أن نقيم حفلاً منزلياً مفتوحاً".

أردت أن أذكرها أنه لولاي لكانوا حتى الآن لا يزالون غافلين عن الأمر برمته، لكنني قاومت أن أصرّح بهذا على نحو واضح. ولكن، أترى كيف يمكن أن تتفلت القضية من بين يديك بسرعة بالغة؟!

أما كيت - الدبلوماسية دائماً - فأجابتها بقولها "أنتِ المسؤولة هنا، ولم نأتِ كي نفسد عليك عملك".

هكذا تركنا العميلة لوبيز وهي تتساءل عن سبب وجودنا في المكان بالأساس. الأمر كله يتعلق بالأنا يا سيدتي!

فقلت لها "لقد بدأت أنا والآنسة كيت هذه القضية من مأساة مطار كنيدي، ومن ثم فإننا نرغب في متابعتها حتى النهاية. وسنظل بعيدين عن طريق رجالك عندما نصل إلى منزل ويجينز".

لا أعتقد أنها صدقتني، ولكنها قالت "أنصحكما بارتداء سترات واقية للرصاص؛ لدي البعض منها هنا ويمكنني إعارتكما اثنتين منها".

شعرت برغبة عارمة تدفعني لكي أري السيدة لوبيز آثار الرصاصات التي اخترقتني بالفعل ولم تقتلني، غير أنني قلت لها "أشكرك، ولكن-".

قاطعتني كيت "شكراً لكِ، سنستعير السترتين بالفعل". ثم قالت للعميلة لوبيز "لا تسألي رجلاً قط ما إذا كان يريد ارتداء سترة واقية من الرصاص أو حتى قفازين. فقط اجعليه يفعل ذلك".

ابتسمت لها العميلة لوبيز ابتسامة العارف.

حسناً، لا أنكر أنني شعرت بالتميز في تلك اللحظة وأنا محاط بامرأتين تتقنان فن الرعاية، وتعرفان ما هو الأفضل لجسد جوني الصغير. وعندما خطر خليل ببالي، تمنيت بالفعل لو أن هناك درعاً بمقاسي.

هكذا دخلنا غرفة التسليح المغلقة والموجودة خلف باب حديدي، حيث كان يوجد داخل تلك الغرفة كافة أنواع الأسلحة: مسدسات، وبنادق، وقنابل يدوية، وأصفاد، وما إلى ذلك.

قالت السيدة لوبيز يمكنكما إذا رغبتما ارتداء السترتين في غرفتي الرجال والسيدات". فشكرتها كيت بينما كانت تغادر المكان.

نزعت ربطة عنقي، وقميصي وقلت لكيت "لن أختلس النظر إليكِ".

كانت هي قد خلعت سترتها الأرجوانية وبلوزتها، ولم يسعني إلا أن أنظر.

وجدنا المقاسين المناسبين لنا، وقلت "يبدو هذا كمشهد في إكس فايلز بالفعل، حيث-".

"هلاّ توقفت عن ذكر إكس فايلز اللعين هذا؟"

"لكن ألا يزعجك أن هذين الاثنين لا يقيمان علاقة حميمة أبداً؟"

"إنها لا تحبه. وربما يحترمان بعضهما البعض ولا يريدان فقدان تلك الثقة الخاصة التي يملكانها تجاه بعضهما البعض، أو تعقيدها".

"أترين هذا حقاً؟"

"من وجهة نظري الشخصية أرى أنهما تأخرا كثيراً".

تركنا غرفة الأسلحة وشكرنا العميلة لوبيز، ثم قادنا تشانك الذي سبق وأقلنا من ساحة المستشفى إلى المرآب مرة أخرى حيث السيارة المتوقفة، وشرعنا نشق طريقنا إلى منزل السيد ويجينز.

وبينما السيارة تلتهم الطريق غرباً صوب الساحل الأيسر كان رأسي يضجّ بالأفكار، لقد قطعت مسافة طويلة كي أكون هنا الآن، ولكن السيد أسد خليل قطع مسافة أطول بكثير. لقد بدأت رحلته في مكان ما يُدعى ...، ومنذ زمن بعيد. ففي زمان ومكان ما في الماضي تشارك هو وتشب ويجينز الأجواء نفسها. والآن يسعى خليل إلى ردّ الزيارة، ولا يعرف السيد ويجينز أن لديه زائراً لم يحسب له حساب. أو عساه قد قابله بالفعل قبل الآن وانتهى خليل من عمله. لو أن الأمر كذلك، فلن يظهر أحد في منزل ويجينز أبداً. ولكن لو افترضنا أنهما لم يتقابلا بعد، فسيارة من يا ترى ستصل إلى مدخل المنزل أولاً؟

كان ضوء الشمس يوشك على الاختفاء، وأضيئت مصابيح الشارع.

بينما كنا نقترب، شرع تشانك يتصل لاسلكياً بالوحدات الرابضة حول منزل ويجينز كي لا يثيرهم اقترابنا. كما استخدم تشانك هاتفه الخلوي للاتصال بعملائهم داخل المنزل للسبب ذاته، وقلت له "أخبرهم أن يعدوا بعض القهوة".

لكن تشانك لم يرسل هذه الرسالة، وأدركت من الطريقة التي انتهت بها المكالمة أن العملاء داخل المنزل ليسوا مرحبين بالصحبة غير المتوقعة. فليذهبوا إلى الجحيم لو أرادوا، فالقضية لا تزال قضيتي أنا!

سارت بنا السيارة عبر شوارع هذا الحي الطويلة والمستقيمة، وقال تشانك إننا كنا بالقرب من المحيط، غير أنني لم ألمح ذلك المحيط ولم أشم رائحته. أما المنازل هناك فكانت جميعها مشيدة فوق قطع صغيرة من الأراضي، وكلها كالعلب أحادية الطابق، وذات أسقف من القرميد الأحمر، وقد أُلحق بكل منها مرآب وعلى الأقل شجرة نخيل واحدة. لم يبدُ لي أن الإقامة في هذا الحي مكلفة، بينما في كاليفورنيا لا يمكنك التخمين أبداً. في الحقيقة، لم أكن مهتماً بمعرفة ذلك.

قلت لتشانك "هل شيّدت هذه المباني هنا منذ زمن بعيد، أم أنها من مخلفات انهيار طيني من الجبال؟"

ضحك تشانك وأجاب "بل لقد انزلقت مع ذلك الزلزال الأخير الذي سبق الحرائق الهائلة".

أعجبني تشانك!

لحسن الحظ لم ألمح أيًّا من وحدات المراقبة، والأفضل من هذا أنني لم أبصر أي أطفال في الجوار.

قال تشانك "هذا هو المنزل إلى اليمين. الثاني من حيث يتقاطع الشارع".

"أتعني ذلك المنزل الجصيّ الأبيض، ذا القرميد الأحمر وذا النخلة الوحيدة؟"

"نعم، ولكن كلهم-"

"إنه الثاني من الطرف الآخر".

شعرت بكيت - التي كانت تجلس في المقعد الخلفي - تضرب ظهر مقعدي، وأظن أن تلك كانت إشارة ذات معنى ما.

قال تشانك "سأتوقف بالسيارة حتى تنزلا ثم أنطلق. والباب الأمامي مفتوح".

لاحظت عندما دخلت السيارة أن أضواءها الداخلية مفصولة، مثلما كان الحال على الساحل الشرقي، وكان هذا مطمئناً. ففي هذا إشارة إلى أن هؤلاء القوم يعرفون ما يفعلونه.

توقفت السيارة، وعلى الفور تركناها ومضينا في خطوات سريعة - ولكن من دون ركض - صوب الممشى الخرساني المتكسّر. وإلى اليمين من الباب كانت هناك نافذة ضخمة وقد أُسدلت ستائرها الفينيسية الطراز. في الحي القديم الذي كنت أسكن فيه، كان الجميع سيلتفتون لرؤية تلك الأشياء الغريبة التي تحدث حول هذا المنزل، بينما في هذا الحي يبدو وكأنه مشهد من أفلام الدرجة الثانية بالخمسينيات، حيث الجميع قد لقوا حتفهم إثر إشعاع ذريّ. أو لعل الفيدراليين قد أخلوا المنطقة من ساكنيها.

فتحت الباب ودلفنا إلى الداخل. لم تكن هناك ردهة أو بهو فوجدنا نفسينا في مزيج من غرفة معيشة على شكل حرف L وغرفة الطعام معاً، ولم يكن يضيء

المكان سوى تلك الإضاءة الخافتة التي انبعثت من مصباح مكتب وحيد. وفي منتصف الغرفة كان يقف رجل وامرأة وقد ارتديا قميصين من اللون الأزرق وسترتين من نفس اللون على الطراز الفيدرالي، وقد علّقا بهما شاراتيهما، ورسما على وجهيهما ابتسامتين عريضتين، ومدا يديهما للتحية. بيد أن ذلك لم يكن ترحيباً حقيقياً.

قال الرجل "أنا روجر فليمينج، وهذه هي كيم ري".

وكانت السيدة ري من أصول شرقية، أو ما يُعرف الآن باسم الآسيوية الشرقية، ولقد خمنت من اسمها أنها كورية الأصل. أما روجر فكان أبيض اللحية، وذكّرني بالمايونيز.

قلت لهما "أظنكما تعرفان اسمينا بالفعل. أنا من أُدعى كيت".

ولكن لم يبتسم العميل فليمينج، ولم تبتسم العميلة ري. يبدو أن البعض يعمدون إلى الجدية المفرطة عندما يكونون في انتظار إطلاق للنيران من المتوقع أن يُفضي إلى الموت. عادة ما يميل رجال الشرطة إلى التعامل مع مثل هذه المواقف بنوع من المزاح؛ ربما لإخفاء ما يشعرون به من توتر. أما الفيدراليون فيأخذون كل الأشياء بجدية بالغة، بما في ذلك قضاء يوم على الشاطئ؛ وأنا على يقين من ذلك.

قالت العميلة ري متسائلة "كم من الوقت تحتاجان إلى البقاء هنا؟"

فأجبتها "أياً كان. سنقضي هنا كل الوقت الذي نحتاج إليه".

فقالت كيت "نحن لا ننوي أن نتدخل في الاعتقال الفعلي للمشتبه به في حال ظهر هنا، إلا إذا كانت هناك حاجة إلى مساعدتنا. نحن فقط للمساعدة في التعرف عليه، ولكي نحصل على بيان باعتقاله. كما أننا سنعيده إلى نيويورك أو واشنطن حيث سنوجه له عدة اتهامات فيدرالية".

لم يكن هذا ما كنت أفكر فيه بالتحديد، ولكن ما قالته كيت كان جيداً بحيث أقنع فليمينج وري أن أحدنا على الأقل لا يزال محتفظاً بعقله.

تابعت كيت الإدلاء ببيان المهمة خاصتها، فقالت "في حال ظهر السيد ويجينز أولاً سنقابله، ثم سنطلب منه أن يسلمنا المكان قبل أن يصحبه أحد الموجودين هنا إلى موقع آخر. وفي كل الأحوال سنبقى في هذا المنزل في انتظار المشتبه به، حيث لدينا اعتقاد قوي بأنه سيأتي إلى هنا".

أجابتها السيدة ري "لقد سبق وأن قررنا أن العدد الأقصى للعملاء المفترض تواجدهم في المنزل هو ستة عملاء لدواع أمنية. فلو ظهر المشتبه به هنا، سنطلب منكما أن تتخذا موقعاً لكما في إحدى الغرف الخلفية، والتي سنريكما إياها".

فقلت "اسمعي سيدة ري، وأنت كذلك سيد فليمينج قد نظل هنا جميعاً لفترة طويلة، فنتشارك دورة المياه وغرف النوم فلماذا لا ننهي هذا الحديث السخيف الآن ونحاول التعايش مع بعضنا البعض؟ اتفقنا؟"

لم ينبس أي منهما ببنت شفه.

أما كيت فقد عمدت إلى تغيير لهجتها – وهو ما يُحسب لها - وقالت "نحن نعمل على هذه القضية منذ وضع أسد خليل قدميه على أرض نيويورك. ولقد شاهدنا أكثر من ثلاثمئة شخص ميت على متن الطائرة التي وصل بها، ناهيك عن قتل أحد رجال فريقنا، والسكرتيرة، وضابطة المناوبة".

هكذا مضت كيت تشرح لهما موقفنا من القضية؛ ربما بدا لي هذا موقفاً غاية في اللطف منها، ولكن لا شك أنهما فهما الرسالة، ومن ثم أطرقا صامتين ما إن انتهت كيت من حديثها.

فيما كان هذا يحدث، كنت أنظر في أرجاء غرفة المعيشة، حيث كانت محتوياتها مبعثرة، وتفتقر إلى أي سمة مميزة. وللحظة عزوت بعثرة محتويات الغرفة تلك إلى عمل الفيدراليين، ولكنني عدت وفكرت أنه ربما كان هذا انعكاساً للموقف الذي ينتهجه ويجينز في حياته.

ثم عرضت علينا العميلة ري أن تقوم بتقديمنا إلى بقية زملائها، ومن ثم تبعناها إلى المطبخ، بينما اتخذ السيد فليمينج موقعه لدى النافذة الأمامية، وهو يراقب من خلال الستائر الفينيسية. يا لها من تقنية عالية! ولكن كنت مطمئناً لأنه ما من شك أن أحد القائمين على المراقبة في الخارج سيحذرنا فور اقتراب أي شخص من المنزل.

كانت إنارة المطبخ خافتة، وتنبعث من مصباح فلوريسنت ناعم أسفل الخزانة، ولكن لم يكن من الصعب تمييز أن المطبخ يعود إلى العام 1955 تقريباً. وهناك أيضاً كان يوجد رجل وامرأة، وقد ارتديا الزي العسكري المكوّن، من بنطال أسود وقميص أزرق غامق، وسترة من النايلون، فيما كانت قبعتا البيسبول خاصتهما تقبعان فوق المائدة. كان الرجل يجلس إلى منضدة المطبخ الصغيرة وقد عمد إلى قراءة كومة من التقارير الخاصة بالقضية، مستخدماً كشافاً ضوئياً. أما المرأة فكانت تجلس عند الباب الخلفي وهي تراقب المكان في الخارج من نافذة الباب الصغيرة.

على الفور قدمتنا السيدة ري إلى الرجل، وكان اسمه قريباً من اسمي - جوان – على الرغم من أن لقب عائلته كان اسماً إسبانياً يملأ الفم، بيد أنني لم أستطع التقاطه. أما المرأة فكانت سوداء البشرة، واسمها إدي، ولقد لوّحت إلينا بيديها، ثم تابعت مراقبتها للفناء الخلفي.

بعد ذلك عدنا إلى الغرفة الأولى، وعبر باب مؤدٍّ إلى الردهة رأيت ثلاثة أبواب أخرى كان أصغرها هو باب دورة المياه، فيما كانت غرفة النوم هي أكبر الغرف، وكان يوجد فيها رجل يرتدي حُلّة كاملة ويجلس قرب جهاز حاسوب بينما يراقب جهاز اللاسلكي والهاتفين الخلويين خاصته وهو يعبث بحاسوب السيد ويجينز. كان ضوء الشاشة هو الضوء الوحيد الذي ينبعث في الغرفة، حيث كل الستائر كانت مسدلة.

مرة أخرى، قامت السيدة ري بمهمة تقديمنا إلى بعضنا البعض. وقال الرجل، الذي اتضح أن اسمه توم ستوكويل، وانتماءاته العرقية ضعيفة "أنا لا أعمل لدى مكتب لوس أنجلوس فأنا عميل مستخدم فقط لهذا الجزء من القضية".

أظن أن شيئاً ما في ما قاله الرجل قد هدأ من الغضب والتوتر اللذين كنت أشعر بهما، وقررت أن أكون لطيفاً مع توم هذا، وقلت له "أنا والآنسة مايفيلد هنا للمساعدة فحسب، ولا نريد أن نتدخل في عملكم".

كيف هذا بحق السماء؟!

فأجاب الرجل "وكم من الوقت ستبقيان؟"

"سنبقى حتى ينتهي هذا الأمر".

ثم عمدت كيت إلى إطلاع توم على الأمر بقولها "إن المتهم - كما هو من المفترض أنكم تعلمون - قد يكون مرتدياً سترة واقية، ويوجد بحوزته سلاحان على الأقل؛ مسدسان من عيار أربعين، ويبدو أنه قد أخذهما وكذلك السترة من العميلين اللذين كانا بصحبته على متن تلك الطائرة". غير أن توم لم يبدُ منصتاً باهتمام إلى ذلك التقرير الشفوي من كيت.

أنهت كيت حديثها قائلة "إن هذا الرجل خطير للغاية، ولا نتوقع أن نضع أيدينا عليه بدون معركة. إلا أننا نريده حياً بالطبع".

أجابها توم "لدينا مجموعة متنوعة من الأسلحة والأدوات غير القاتلة؛ فلدينا أسلحة جو-جن، والشبكات القاذفة، ولدينا بالطبع الغازات، و-".

فقاطعته أنا قائلاً "معذرة، ما هي أسلحة جو-جن؟"

"إنه سلاح يُحمل باليد ويقذف مادة لزجة تتصلب على الفور ومن ثم تشل حركة الشخص الذي سقطت عليه".

"أظنّ أن استخدامه مقتصر على كاليفورنيا، أليس كذلك؟"

"كلا سيد كوري، فهو منتشر في جميع أنحاء البلد". ثم أردف "كما أن لدينا شبكة حين تُطلق تحيط بالشخص".

"أحقاً؟ وهل لديكم أسلحة حقيقية أيضاً؟"

تجاهلني توم تماماً، وطفق يستأنف تقريره الموجز ذلك.

لكنني قاطعته متسائلاً "وهل أخليتم المنطقة؟"

"لقد تناقشنا وتفاوضنا كثيراً في هذا الشأن، إلا أن واشنطن ترى أن محاولة إخلاء المنطقة قد يسفر عن مشكلة".

"مشكلة لمن؟"

"في المقام الأول، هناك مشكلة واضحة من أن يُرى الفيدراليون وهم يقومون بهذه الإخطارات. من ناحية أخرى، هناك بعض الأشخاص ليسوا في منازلهم، وقد يأتون في وقت لاحق، ومن ثم قد يستغرق هذا الأمر الليلة بطولها. ناهيك عن أن السكان قد لا يقتنعون بفكرة ترك منازلهم لوقت غير محدد". ثم أضاف "إلا أننا أخلينا بالفعل المنازل على جانبي هذا المنزل وخلفه، وحلّ الفيدراليون محل السكان فيها".

المعنى هنا هو أن القبض على أسد خليل كان أهم من القلق بشأن دافعي الضرائب الذين قد يعلقون في تبادل لإطلاق النيران. وللأمانة لا يسعني أن أدعي أنني كنت أختلف معهم في هذا.

ثم أضافت السيدة ري "لدى المراقبين بالخارج تعليمات بألا يحاولوا اعتقال أي مشتبه به في عرض الشارع، إلا إذا أحس بالخطر وحاول الهرب. ومن ثم فإنه من المرجّح أن الاعتقال سيتم إما داخل المنزل أو بالقرب منه، ومن المرجّح أيضاً أن المشتبه به سيكون بمفرده، وغالباً ما سيكون مسلحاً بمسدسين فحسب. أي أننا لا نعتقد أنه ستكون هناك فرصة لإطلاق نيران واسع المدى، وقد لا تكون هناك نيران على الإطلاق إذا ما أحسنّا التصرف". ثم نظرت إلى كيت ثم إليّ وقالت "وسيتم إغلاق المنطقة على المارة حال تأكدنا من اقتراب المشتبه به".

من ناحيتي، كنت أرى أن الجيران لن يلاحظوا حتى أن هناك إطلاقاً للنيران على عتبة بابهم في حال رفعوا أصوات أجهزة التلفاز أو التسجيل لديهم. فقلت لها "أوافقك الرأي". بيد أنني كنت أتخيل صورة لطفل فوق دراجته يمر في أسوأ لحظة ممكنة. هذه الأشياء تحدث!

قالت كيت "أفترض أن رجال المراقبة الخارجية لديهم معدات للرؤية الليلية".

"لديهم بالطبع".

هكذا تحدثنا معهما لبرهة حيث عمدت كيت إلى إخبار توم وكيم أنها كانت في كاليفورنيا ذات مرة، ووافق الجميع على أنه يوجد لدى كل منهم دوره في هذه العملية الجماعية، ربما باستثنائي، وشعرت أنني كالعجوز بين هذه الزمرة!

ثم ذكر توم شيئاً عن منزل ويجينز السابق في بيربانك، وعن كونه مراقباً أيضاً من الخارج والداخل من قِبل الفيدراليين، وأخبرنا أنه جرى تنبيه قوات الشرطة المحلية هنا وفي بيربانك، إلا أنه لم تُطلب منهم أي مساعدة مباشرة.

شعرت في لحظة بعينها أنني تعبت من سماع كل التفاصيل والإجراءات التي تمت تغطيتها وتناولها منذ يوم الأحد، فسألت "وأين زميلكم السادس؟"

"في المرآب، والمكان هناك في حالة مزرية حتى إن ويجينز نفسه لا يستطيع إدخال سيارته إلى هناك. لدى الباب خاصية الفتح الأوتوماتيكي، ومن ثم يمكن لويجينز أن يدخل على قدميه إلى المطبخ عن طريق الباب الموصل. من الأرجح أن هذا هو ما سيفعله، حيث إن هذا هو الطريق الأقرب إلى المكان الذي سيترك فيه السيارة على الممر".

هنا رحت أتثاءب وقد بدأ إرهاق السفر يتمكن مني حسبما أعتقد، خاصة وأنني لم أنعم بقسط كافٍ من النوم في الأيام القليلة الماضية. ترى كم هي الساعة في نيويورك؟ أتراها تسبق الساعة هنا بساعة أم تتأخر عنها بساعة؟

ثم أكّد لنا توم أن كافة الجهود مبذولة للعثور على إلوود ويجينز قبل أن يتوجه إلى منزله، وقال "وحسب تصورنا، فإن خليلاً قد يحاول النيل منه بينما هو في طريقه إلى المنزل مستقلاً سيارته. وهي سيارة جيب حمراء اللون، غراند شيروكي، وهي ليست هنا الآن، ومن ثم فإننا منتبهون تماماً في حال ظهرت".

فسألته "وما طراز سيارة صديقته؟"

أجابني توم "إنها فورد ويندستار بيضاء اللون، وهي لا تزال لدى بيت الفتاة في أوكسنارد، والمنزل نفسه تحت المراقبة كذلك".

أوكسنارد؟ ماذا يمكنني قوله على كل حال؟ فهؤلاء الرفاق يعملون معاً على خير وجه كما يزعمون، بيد أنني لا أزال أرى أنهم مجموعة من الحمقى.

فقلت "لا شك لديّ أنكم تعلمون بشأن زيارات خليل لرفاق ويجينز الآخرين في ذلك السرب. في هذا ما يخبرني أنه ربما لدى خليل معلومات عن تشب ويجينز أكثر مما لدينا، وأنه بدأ البحث عنه قبلنا بكثير". ثم أضفت "بل وهناك احتمال قوي بأن يكون السيد ويجينز والسيد خليل قد تقابلا بالفعل".

لم يعلق أي منهم على قولي هذا لبضع ثوان قبل أن يقول توم "هذا لا يغير شيئاً مما نقوم به هنا؛ علينا أن ننتظر ونرى إن كان أحدهما سيظهر". ثم أضاف "هناك إنذار واسع النطاق بشأن خليل وويجينز في كافة أرجاء المنطقة، ومن ثم قد تأتينا مكالمة سعيدة من رجال الشرطة يخبروننا فيها أنهم قد عثروا على أحدهما أو كليهما؛ ويجينز على قيد الحياة، وخليل في الأصفاد".

في الحقيقة، لم أشأ أن أشهد المزيد من الافتراضات القدرية، خاصة وأنني لم أستطع تخيل خليل مصفداً.

أما توم فعاود الجلوس أمام حاسوب ويجينز، وقال "أنا أحاول العثور على أي دليل في هذا الحاسوب عن المكان الذي يحتمل أن يتواجد فيه ويجينز الآن. لقد تحققت من بريده الإلكتروني لأرى ما إذا كانت هناك مراسلات بينه وبين أي ولاية أو منتزه عام، أو مكان محجوز للتخييم، أو شيء من هذا القبيل. فنحن نظن أنه يخيم في مكان ما". ثم أردف وهو يوجِّه حديثه لي "وعادة ما يذهب المرء إلى الغابات للتخييم مصطحباً خيمته وأشياء من هذا القبيل".

استنتجت أن السيدة لوبيز وتوم قد تحدثا في الأمر من قبل.

فسألت توم "هل تفقدت ملابس ويجينز الداخلية؟"

فرفع عينيه عن شاشة الحاسوب ونظر إلي متسائلاً "المعذرة؟"

"قد أحتاج إلى استعارة شيء منها إن كان يرتدي مقاساً متوسط الحجم".

فكّر توم في الأمر لبرهة ثم أجاب "لقد أحضرنا ما يلزم من الملابس للتغيير سيد كوري. ربما يمكن لأحدهم – أعني أحد الرجال – أن يعيرك بعضاً من ملابسه الداخلية".

"حسناً، سأطلب هذا منه مباشرة في حال ظهر".

"فكرة سديدة".

هنا يُحسب لكيت أنها لم تحاول أن تتنكر لي أو تدّعي أنها لا تعرفني، فقالت لكيم ري "نحن نرغب في رؤية المرآب وبقية المنزل".

قادتنا السيدة ري إلى غرفة الاستراحة، وفتحت باب غرفة أخرى في مواجهة الساحة الخلفية. يبدو أن هذه الغرفة كانت في ما سبق غرفة نوم قبل أن تصبح مركزاً للاسترخاء والراحة والتسلية بما فيها من جهاز تلفاز، وأجهزة سمعية، ومكبرات صوت تكفي لإحداث زلزال آخر. كما لاحظت وجود ست حقائب سفر فوق أرضية الغرفة، وقالت السيدة ري "يمكنكما استخدام هذه الغرفة في ما بعد؛ إذ يمكن تحويل هذه الأريكة إلى فراش". ثم أردفت "سنتناوب جميعاً على النوم إذا اضطررنا للبقاء هنا طوال الليل".

كنت أعتقد في ما مضى أن أسوأ كوابيسي هو عشاء الشكر مع عائلتي، ولكن اتضح أن البقاء عالقاً في بيت صغير مع حفنة من الفيدراليين هو أسوأ الكوابيس على الإطلاق.

ثم شرعت السيدة ري ترينا دورة المياه الصغيرة وتساءلت إن كانت قد عملت في مجال الترويج العقاري من قبل. ثم لاحظت أن المنزل يخلو من أي تذكارات عسكرية مما أوحى لي بأن ألوود ويجينز لم يرغب بما قد يذكره بأيامه في الخدمة العسكرية، أو ربما فقد كل تلك الأشياء، وهو الأمر الذي يتناسب مع الفكرة التي كونتها عن الرجل. أو ربما نحن في المنزل الخطأ. في الحقيقة، إن كان ذلك صحيحاً، فلن تكون هذه هي المرة الأولى التي يخطئ فيها الفيدراليون العنوان، بل وفكرت في أن أذكر ذلك الاحتمال للسيدة ري، ولكنني فكرت بأن هذا سيتسبب في بعض الحساسية بالنسبة لهم.

على أي حال، عدنا أدراجنا إلى المطبخ، ومنه فتحت السيد ري الباب المفضي إلى المرآب بحالته المزرية. وعلى مقعد خشبي موضوع خلف مجموعة من الصناديق الكرتونية المخزنة والمكدسة كان يجلس شاب أشقر بدا واضحاً أنه من العملاء الجدد الصغار في السن، وكان يقرأ إحدى الصحف تحت ضوء مصباح فلوريسنت صغير فوق رأسه، ولقد نهض عن مقعده لدى دخولنا، وأشارت إليه السيدة ري بالجلوس، وما إن فعل حتى صار مختفياً عن الأنظار ما إن فُتح باب المرآب على نحو مفاجئ، وقالت "هذا هو سكوت المتطوع لنوبة المرآب". ثم ابتسمت.

أما سكوت، والذي بدا وكأنه قد ترك لوح التزلج لتوّه، فابتسم مظهراً أسناناً لامعة ولوّح لنا، فشعرت في رغبة بأن أقول له "نعم، كفتى متأنق عالق في الفخ، أليس كذلك؟" لكنني بالطبع لم أقل هذا. بالرغم من أن سكوت كان في مثل حجمي، لكنني لا أظن أنه يرتدي نوع الملابس الداخلية الذي أفضله.

أغلقت السيدة ري الباب ووقفنا في المطبخ مع كل من إيدي وجوان، وقالت السيدة ري "لقد احتفظنا ببعض الطعام المعلب والمجمد هنا، بحيث لا يحتاج أي منا إلى الذهاب أو المجيء في حال اضطررنا إلى البقاء هنا لفترة". ثم أضافت "لدينا طعام يكفي لستة أفراد طوال ستة أيام".

هاجمتني صورة رأيت فيها عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالية وهم يتحولون إلى آكلي لحوم البشر فور انتهاء ما لديهم من طعام، لكنني آثرت الاحتفاظ بالصورة لنفسي، فقد كان موقفي حرجاً على كل حال.

قال جوان "والآن وقد أصبح لدينا شخصان آخران يجب إطعامهما، أقترح أن نطلب البيتزا، فأنا أتلهف إلى تناول البيتزا".

شعرت أن جوان شخصية لا بأس بها، ولكنه لسوء الحظ كان أكثر ضخامة مني، ولا أظنه يفضل نوع الملابس الداخلية الذي أستخدمه.

أما إدي فقال "أنا أقوم بطهي المعكرونة والجبن في هذا الفرن الصغير".

ضحكنا جميعاً، إلا أن الأمر برمته كان لا يروق لي بالرغم من أنه أفضل كثيراً مما كان عليه الحال منذ أربع وعشرين ساعة مضت؛ فعلى الأقل اقتربنا من أسد خليل، أليس كذلك؟ أي خطأ يمكن أن يحدث الآن؟ لا داعي للسؤال.

ولكن على الأقل، لو أن ويجينز لا يزال على قيد الحياة، فإن لديه فرصة كي يظل على قيد الحياة.

هنا قالت كيت إنها ستتصل بجاك كوينج ودعتني إلى الانضمام إليها في الغرفة الخلفية، بيد أنني رفضت الدعوة، وذهبت هي إلى حيث أرادت فيما انتظرت أنا في المطبخ وأنا أثرثر مع إدي وجوان.

وعندما عادت كيت بعد خمس عشرة دقيقة أخبرتني "جاك يبلغك تحياته وتهانيه على ما توصلت إليه، ويتمنى لك حظاً سعيداً".

"كم هذا لطيف! وهل سألته عن الحال في فرانكفورت؟"

"كلا، لم نتحدث بأمر فرانكفورت".

"وأين تيد ناش؟"

"ومن يهتم بذلك؟"

"أنا أهتم".

نظرت كيت إلى زملائنا في المطبخ وقالت في صوت منخفض "لا داعي لأن تشتت تركيزك على أشياء تافهة".

"كنت فقط أريد لكمه على أنفه فحسب، ليس الأمر بذي أهمية".

تجاهلت كيت ما قلت، ثم تابعت "يريدك جاك أن تتصل به في حال تطورت الأمور بالطبع. كما أننا مخولون بالقبض على خليل حياً أو ميتاً، واصطحابه إلى نيويورك بدلاً من واشنطن، مما يعد تغيراً محورياً في الخطة الرئيسية".

"أنا أرى أن جاك قد بدأ بالفعل يعدّ فراخه قبل الإمساك بها وطهيها".

تجاهلت كيت قولي هذا مرة أخرى، وقالت "إنه يعمل مع قوات متنوعة من قوات الشرطة لوضع صورة واضحة عن تحرّكات أسد خليل، وجرائم القتل التي يرتكبها، ومن يقوم بمساعدته أو قام بمساعدته بالفعل".

"جيد. سيشغله هذا عني لفترة".

"هذا تماماً ما أخبرته به".

راودني شعور أن الآنسة مايفيلد تسخر مني، لكنني لما أشأ أن يكون هذا مصدراً لضحك وتسلية زملائنا أكثر من هذا، فأنهيت الحوار.

قدّم لنا إدي القهوة، فيما جلست وكيت وكيم إلى منضدة المطبخ بصحبة إدي وجوان وهما يراقبان الباب الخلفي. كانوا جميعاً شديدي الاهتمام بكل الأشياء التي حدثت منذ يوم السبت، فراحوا يوجهون لنا الأسئلة عن تلك الأشياء التي لم تذكرها الأخبار أو ما لديهم من تقارير. كان الفضول يحدوهم لمعرفة الأجواء السائدة في 26 فيدرال بلازا، وماذا يقول الرؤساء في واشنطن، وما إلى ذلك من هذه الأشياء. وهكذا وجدت أن قوات تنفيذ القانون هي ذاتها في كل مكان، وبالرغم من العداء المستتر تحت قناع التهذيب الذي استقبلونا به، إلا أن الأمور استقامت في ما بيننا وتحسنت كثيراً. ربما كان السبب هو التواجد في مكان واحد! وفكرت أن أقود الجميع في جوقة أسميتها *طريق فينتشورا السريع*، أو ربما *كاليفورنيا... ها أنا قادم*، ولكنني لم أشأ أن أضفي المبالغة على تلك اللحظة على الساحل الغربي.

يبدو أن الجميع كان يعرف أنني رجل سابق من رجال شرطة مديرية نيويورك، ولهذا كانوا حذرين مني؛ لو أن الحذر هي الكلمة الصحيحة هنا، أو لعلهم قد اكتشفوا الأمر فحسب. كان ذلك الوقت من المرات التي بدت فيها الأشياء هادئة وطبيعية، ولكن الجميع يعرفون أن رنين الهاتف قد يوقف الاستعراض ويجفف الدماء في عروقنا. لقد كنت هنا في هذا المنزل، وهكذا كان الجميع. أظنني مضطر إلى الاعتماد على هذا الفريق طالما أنه لا مجال للتفكير في طلابي اللطفاء في جامعة جون جاي. كنت أفكر في أسد خليل، بل وكنت أكاد أتذوق طعم هذا القاتل المتوحش. في الحقيقة، كنت أفكر في العقيد هامبريشت وخليل يقطّعه إرباً حتى الموت بفأسه، وكذلك تلاميذ بروكسل.

مضت ساعة، وتبادل الفيدراليون الخمسة مواقع المراقبة، وتطوعت وكيت لمساعدتهم، ولكن يبدو أنهم كانوا يفضلون أن نبقى في المطبخ.

كان سكوت يجلس عند المنضدة، وكان يريد أن يسمع عن نيويورك. حاولت إقناعه أن الناس هناك يتنزّهون في النهر الشرقي، وضحك الجميع. وكنت أرغب بحق في أن أخبرهم مزحة المدّعي العام تلك، ولكنني خشيت أن يسيئوا فهمها.

على أي حال، كنت أحاول أن أبدو معتدلاً بشأن ما أنجزته في هذه القضية، فلم أذكر الكثير عن أنني من اكتشف هدف أسد خليل، ولم أبرز تألقي الرائع في التعرف على الطيارين الذين ينوي قتلهم.

في ما يتعلق بهذا الموضوع، كان الاكتئاب يسود الجميع لدى معرفتهم أن العديد من الرجال الجيدين ممن خدموا بلادهم قد لقوا حتفهم، بل قُتلوا على يد عميل أجنبي. ليس من المفترض أن يحدث هذا على الإطلاق.

كانت الساعة تقترب من التاسعة مساءً عندما رن جرس الهاتف في مكان ما، وتوقفنا جميعاً عن الكلام.

ثم دخل توم المطبخ في غضون ثوانٍ وقال "هناك شاحنة زرقاء تقترب في الجوار، ويقودها رجل. ويقول رجل المراقبة الليلية إنه يطابق مواصفات المشتبه به، فليتخذ الجميع مواقعهم".

بالفعل كان الجميع ينهضون من أماكنهم ويتحركون، وتوجّه توم لي ولكيت بالحديث قائلاً "فلتذهبا إلى غرفة التلفاز". ثم ترك المطبخ فوراً بينما توجهت كيم ري إلى المرآب حيث كانت مناوبة المرآب لروجر فليمينج الذي كان يجلس خلف الصناديق المكدسة وقد أشهر سلاحه. فأخرجت كيم سلاحها واتجهت صوب باب المرآب ووقفت جانباً بجوار فاتح الباب الكهربائي.

أما جوان فكان يقف إلى جانب باب المطبخ الخلفي، وهو يحمل سلاحه مستعدًّا.

ذهبت وكيت إلى غرفة المعيشة حيث كان كل من توم وإدي يقفان إلى جانبي باب الغرفة ويحملان سلاحيهما، فيما كان سكوت يقف أمام الباب ويحدق من الثقب.

رآنا توم، ومرة أخرى أصر على عودتنا إلى غرفة التلفاز، ولكنه سرعان ما أدرك أننا لم نقطع مسافة ثلاثمئة ميل لمشاهدة التلفاز بينما المعركة تدور، فقال "هيا، اختبئا هنا".

تحركت كيت إلى جوار توم الذي كان يقف إلى يسار الباب وقد استلت سلاحها، فيما تحركت إلى جوار إدي الذي كان يستند إلى مساحة صغيرة بين الباب وجدار غرفة المعيشة الأيمن. وهكذا حين يُفتح الباب يتّجه صوبنا ونصبح نحن خلفه. كان عدد الأسلحة المُعدة والمشهرة كافياً، لذا لم أخرج سلاحي. وعندما نظرت إلى كيت وجدتها تنظر إليّ ثم ابتسمت وغمزت لي بعينها، وشعرت بقلبي يخفق بين جناحي، ولكن – للأسف – ليس من أجل كيت مايفيلد.

كان توم يضع هاتفه المحمول على أذنه ويستمع إلى محدثه، ثم أخبرنا "إن الشاحنة تبطئ من سرعتها على بعد بضعة منازل من هنا".

أما سكوت – الذي ينظر من ثقب الباب – فقال "أنا أراه بالفعل؛ يخرج من شاحنته أمام المنزل".

كان يمكنك سماع أصوات أنفاس الأشخاص في الغرفة، وعلى الرغم من كل الاحتياطات، والأدوات عالية التقنية، والسترات الواقية من الرصاص، كان الأمر

لا يزال كتلك اللحظة التي تعرف فيها أنك على وشك مواجهة قاتل مسلح وجهاً لوجه.

ثم قال سكوت في هدوئه الشديد "هناك رجل ينزل من الشاحنة من جهة الشارع. لا يمكنني رؤيته، إنه يتجه إلى مؤخر السيارة، يفتح الباب، ويحمل صندوقاً. وهو يتجه نحونا الآن، إنه مطابق للمواصفات؛ طويل، ويحمل السمات الشرق أوسطية، يرتدي بنطالاً من الجينز وقميصاً غامقاً عالي الياقة، ويحمل صندوقاً صغيراً في إحدى يديه وينظر إلى أعلى وأسفل المبنى".

كان توم يقول شيئاً عبر هاتفه الخلوي ثم وضعه في جيبه، وقال لنا في صوت خفيض "كل منكم يعرف ما عليه فعله".

في الحقيقة، إن تدريب توزيع الأدوار قد فاتني.

قال توم "تذكروا، قد يكون هذا مجرد موظف توصيل بريء، فلا داعي للعنف الجسدي؛ فقط اجعلوه ينحني وصفِّدوه في هدوء".

تساءلت عمّا حدث لرصاصات المواد اللزجة، وشعرت بوجهي يتعرق بعض الشيء.

ثم رن جرس الباب، وانتظر سكوت نحو خمس ثوان قبل أن يضع يده على مقبض الباب ويفتحه.

وقبل أن يسد الباب طريق الرؤية من جهتي، لمحت سكوت يبتسم ويقول "ألديك شيء من أجلي؟"

أجابه صوت رجل يحمل لكنة مميزة "هل أنت السيد ويجينز؟"

"كلا، أنا أرعى منزله. أترغب في أن أوقع لك باستلام هذا؟"

"متى يعود السيد ويجينز إلى المنزل؟"

"يوم الخميس، وربما الجمعة. يمكنني التوقيع بدلاً منه، لا بأس بهذا".

"حسناً، وقّع هنا من فضلك".

ثم سمعت سكوت يقول "هذا القلم لا يكتب، هلاّ دخلت من فضلك؟"

تراجع سكوت عن الباب ولم يسعني إلا أن أفكر أنه في حال كان سكوت يعتني بالمنزل بالفعل، فلا شك أنه سرعان ما سيُقتل ويُترك ليتعفن في الغرفة الخلفية بينما أسد خليل ينتظر عودة السيد ويجينز إلى المنزل.

خطا الرجل الأسمر الطويل بضعة أقدام إلى داخل غرفة المعيشة عابراً الباب الذي أغلقه إدي على الفور. وحتى بدون إطلاعي على الأمر كنت أعرف تماماً ما سيحدث الآن؛ فحتى قبل أن ينبس أحدهم ببنت شفه كان سكوت يمسك قميص الرجل ويجره إلى الحشد المنتظر.

في غضون أربع ثوان كان زائرنا ملقى على وجهه وأنا فوق ساقيه، بينما قدم إدي فوق عنقه، وكل من توم وسكوت يصفدانه.

فتحت كيت الباب، وأشارت بإبهامها إلى أعلى إلى الشخص الذي كان يراقب من خلال المنظار، ثم ركضت عبر الممشى إلى الشاحنة، وتبعتها.

عمدنا إلى فحص الشاحنة ولم يكن يوجد فيها أشخاص آخرون. لم يكن هناك سوى بضعة صناديق مبعثرة في الأرضية، ثم وجدت كيت هاتفاً خلوياً فوق المقعد الأمامي فالتقطته.

ثم بدأت السيارات تظهر من حيث لا نعرف وراحت كلها تصرخ وتتوقف في الشارع أمام المنزل والعملاء يقفزون خارجها، تماماً كما يحدث في الأفلام، على الرغم من أنني لم أجد ضرورة لكل هذه الضوضاء، فأعلنت كيت "لا بأس، إنه مصفد".

كان باب المرآب قد انفتح، ولاحظت أن روجر وكيم كانا فوق العشب الآن، وكان المكان لا يزال يخلو من الجيران. وراودتني فكرة مزعجة وهي أنه لو كان يجري هنا تصوير فيلم ما، كان سيصعب التحكم في الحشد، إذ سيتسارع الناس وسيعرضون المشاركة.

على أي حال، عاد الجميع إلى سياراتهم وشرعوا ينسحبون إلى أماكنهم لمواصلة مراقبة المنزل حتى لا يثيروا خوف أي من المتواطئين ممن قد يصلون إلى المكان، ناهيك عن إزعاج السيد ويجينز في حال عاد إلى منزله، أو الجيران الذين قد – أقول قد – يلحظون أي شيء.

هرعت وكيت إلى داخل المنزل حيث المعتقل الآن ملقى على ظهره فيما إدي وسكوت يفتشانه بدقة، وتوم يقف قرب رأس الرجل.

نظرت إلى الرجل، ولم أندهش كثيراً حين رأيت أنه لم يكن أسد خليل!

الفصل الثامن والأربعون

نظرت وكيت إلى بعضنا البعض، ثم إلى الجميع من حولنا، ولم يكن أي منا يشعر بالسعادة بحق.

قال إدي "لا يحمل أي سلاح".

أما الرجل فكان يبكي، ودموعه تفيض على وجهه، فلو أن أحدهم كان لا يزال يرتاب في أن هذا هو أسد خليل، فتلك الدموع محت ذلك الارتياب تماماً.

كان روجر وكيم في غرفة المعيشة، وقالت كيم إنها ستذيع إلى وحدات المراقبة الخارجية لاسلكياً لتخبرهم أن رجل التوصيل هذا ليس المشتبه به، ومن ثم عليهم البقاء يقظين.

أما سكوت الذي كان يحمل محفظة الرجل ويفرغ محتوياتها، فقد شرع يسأل الرجل "ما اسمك؟"

حاول الرجل السيطرة على نفسه وبدأ يقول شيئاً وهو ينشنج بما بدا كمزيج من التلعثم والحشرجة، بيد أن سكوت، وقد تحول إلى رخصة قيادة الرجل التي تحمل صورته، وقال مرة أخرى "أخبرني باسمك".

"اسمي عظيم رحمن".

"وأين تسكن؟"

فذكر الرجل عنواناً في لوس أنجلوس.

"وتاريخ ميلادك؟"

هكذا مضى الأمر وقد ذكر الرجل كافة بياناته على نحو صحيح؛ الأمر الذي جعله يظن أنه سينصرف بسلام؛ لكن هيهات!

ثم شرع توم يسأل الرجل أسئلة لم تكن إجاباتها في رخصة قيادته؛ أسئلة مثل "ماذا تفعل هنا؟"

"سيدي، من فضلك، أنا هنا لتسليم هذا الطرد فحسب".

بالطبع كان روجر يفحص الطرد الصغير من دون أن يفتحه بالطبع، فربما كانت قنبلة صغيرة أو شيئاً من هذا القبيل.

"وما الذي يحويه هذا الطرد؟"

"لست أدري يا سيدي".

قال روجر موجهاً حديثه للجميع "ليس هناك ذكر للمرسِل فوق هذا الطرد. سأعيده إلى الشاحنة ثم أقوم بالإبلاغ عن شاحنة مفخخة". ومن ثم شعر الجميع بقدر أكبر من الارتياح.

دخل جوان غرفة المعيشة، ومن المحتمل أن عظيم رحمن كان يتساءل عمّا يفعله كل هؤلاء الفيدراليون في ستراتهم الواقية داخل منزل السيد ويجينز، أو لعله كان يعرف السبب بالفعل.

نظرت إلى وجه توم وطالعني القلق الذي يساوره؛ فمهاجمة مواطن – سواء كان مواطناً بالمولد أو مكتسب المواطنة – أمر لا يليق بالمهنة، ولا سيما بصورة مكتب التحقيقات الفيدرالية. حتى إنّ ممارسة بعض القسوة على الغرباء قد تضعك في مشكلة حقيقية هذه الأيام، ألسنا جميعاً مواطني هذا العالم؟

كانت تلك الفكرة تدور في رأسي عندما سمعت توم يسأل السيد رحمن ''هل تحمل الجنسية؟''

''نعم يا سيدي، لقد أقسمت اليمين''.

''خيراً فعلت''.

تلا ذلك بضعة أسئلة وجهها توم إلى رحمن حول الجيرة في غرب هوليوود. ولم يجد رحمن صعوبة في الإجابة عن هذه الأسئلة. إلا أن توم استطرد في أسئلة سياسية على طراز تلك الواردة في مقالات Civics 101، ومرة أخرى كانت إجابات رحمن مرضية على نحو ما، حتى إنه كان يعرف من هو حاكم كاليفورنيا مما أثار الشكوك في احتمال أن يكون جاسوساً. ولكن عندما وجدنا أنه لا يعرف من هو عضو الكونغرس أدركت أنه مواطن فحسب.

مرة أخرى نظرت إلى كيت فهزّت رأسها. كنت قد بدأت أشعر بإحباط بالغ في تلك اللحظة، وأحسب أن هذا كان إحساس الجميع، لماذا لا تسير الأشياء كما هو مخطط لها؟ إلى جانب من يقف القدر؟

عمد إدي إلى طلب رقم الهاتف الذي أعطاه إيّاه السيد رحمن، ثم أكد أن جهاز تسجيل المكالمات يؤكد أنه منزل رحمن، وكان الصوت المسجل يبدو كصوت الرجل الملقى فوق الأرض بالرغم من حالته الانفعالية.

إلا أن إدي قال إن رقم الهاتف الخاص بشاحنة التوصيل السريع مسجل على أنه رقم خارج الخدمة، فذكرت أنا أنني أظن أن طلاء الشاحنة طلاء حديث، فراح الجميع يحدقون في عظيم رحمن إثر المعلومتين.

أما الرجل فأدرك أنه دخل دائرة الاتهام مرة أخرى، فقال موضحاً ''لقد التحقت بهذا العمل لتوي، الأمر برمته حديث العهد بالنسبة لي؛ ربما لا يتعدى أربعة أسابيع''.

فقال إدي ''أتعني أنك كتبت ذاك الرقم فوق الشاحنة أملاً في أن هيئة الاتصالات ستؤمّنه لك؟ أنبدو لك حقاً بهذا الغباء؟''

في الحقيقة، لم أكن متأكداً من الصورة التي نبدو بها بالنسبة للسيد رحمن من وجهة نظره وهو ملقى على الأرض. فالوضع هو الذي يفرض الصورة، وعندما تكون مصفداً على الأرض ومحاطاً بأشخاص مسلحين من حولك، فلا شك أن نظرتك إلى هؤلاء الذين يحملون الأسلحة تختلف. لكن بدا أن السيد رحمن متمسك

بقصته، والتي بدا معظمها معقولاً على نحو ما، باستثناء الهراء المتعلق برقم العمل ذلك.

كما أنه وفقاً لظواهر الأمور هنا، يبدو أن لدينا رجلاً بريئاً مهاجراً إلى أميركا سعياً وراء الحلم الأميركي، وأننا قد ألقيناه على الأرض محدثين تلك الكدمة الحمراء في جبهته لا لسبب واضح سوى لأنه يتحدر من أصل شرق أوسطي. يا للعار!

مرة أخرى كان السيد رحمن يحاول التماسك وهو يقول ‘‘من فضلكم، هل لي أن أتصل بمحاميّ؟’’

أوه، تلك هي الكلمة السحرية، فمن البديهي أنه إذا اختار المشتبه به ألا يتكلم في الخمس أو العشر دقائق الأولى، أي عندما يكون تحت تأثير الصدمة، فمن الأرجح أنه لن يتكلم على الإطلاق. لقد أخفق الرفاق في انتزاع الحقائق في الوقت المناسب.

فقلت ‘‘الجميع هنا – ما عداي – من زمرة المحامين، فلتتحدث إليهم’’.

‘‘لكنني أرغب في الحديث إلى المحامي الخاص بي’’.

فتجاهلت قوله هذا وسألته ‘‘من أين أنت؟’’

‘‘من هوليوود الغربية’’.

فابتسمت وقلت له ناصحاً ‘‘لا تعبث معي يا عظيم، من أين أنت؟’’

فابتلع ريقه وقال ‘‘من...’’.

التزم الجميع الصمت لدى قوله هذا، فنظرنا إلى بعضنا البعض، ولاحظ عظيم أنه قد دخل لتوه دائرة اهتمام أخرى.

ثم سألته ‘‘من أين أتيت بالطرد الذي جئت لتسليمه؟’’

وهنا اختار أن يمارس حقه في أن يظل صامتاً.

كان جوان قد خرج إلى حيث الشاحنة، وعندما عاد قال معلناً ‘‘إن تلك الطرود بأسرها تافهة ولا معنى لها. كلها مغلّفة بنفس الورق البني، ونفس الشريط اللاصق، ومكتوب عليها حتى بنفس خط اليد’’. ثم نظر إلى عظيم رحمن وقال ‘‘أي نوع من الهراء تسعى إليه؟’’

‘‘معذرة يا سيدي؟’’

مرة أخرى شرع الجميع في بثّ الخوف في نفس السيد رحمن المسكين بأشياء مثل أن يمضي بقية حياته في السجن، أو الترحيل؛ حتى إن جوان اقترح فكرة الضرب المبرح، وهو الأمر المرفوض بالطبع.

هنا بدأ السيد رحمن يأتي بإجابات متضاربة، وهو الأمر الذي كان يكفي لاعتقاله على نحو رسمي، كنت بدأت أرى أن توم يميل إلى هذا الاتجاه. إلا أن الاعتقال يعني قراءة الحقوق على المعتقل، ومحامين، وما إلى ذلك، أي الوقت عندها يحين للإجراءات القانونية، وفي الحقيقة كان يجدر فعل هذا منذ بضع دقائق مضت.

إلا أن جون كوري لا يعبأ كثيراً بالتعليمات الفيدرالية أو المهنية، ومن ثم كان يعطي لنفسه الحق في بعض التجاوزات. وآخر ما في هذا الأمر هو أنه في حال كان هذا الرجل متصلاً بأسد خليل، فمن الأفضل أن نعرف هذا الآن.

هكذا، وبعد سماع القدر الكافي من ترهات السيد رحمن، عمدت إلى مساعدته على النهوض من وضع الانبطاح، وأجلسته منفرج الساقين لأتأكد من أنني أستقطب كامل انتباهه، وعندما أشاح بوجهه عني، قلت له ‘‘انظر إلي، انظر إلي’’.

فنظر إليّ والتقت أعيننا، فسألته ‘‘من أرسلك إلى هنا؟’’

لم يجب.

‘‘إذا أخبرتنا من أرسلك إلى هنا، وأين هو الآن، سندعك تذهب. وإن لم تفعل على الفور، سأصب عليك البنزين وأشعل فيك النار الآن’’. بالطبع لم يكن هذا تهديداً جدياً، وإنما تعبير بلاغي لا يجب أن يؤخذ بمعناه الحرفي، ثم كررت سؤالي ‘‘من أرسلك إلى هنا؟’’

مرة أخرى التزم السيد رحمن الصمت.

فأعدت صياغة سؤالي بحيث وضعته في شكل اقتراح اقترحته على السيد رحمن، فقلت ‘‘أعتقد أنه يجدر بك أن تخبرني الآن من أرسلك، وأين هو؟’’. ويجدر بالذكر أنني كنت قد أخرجت سلاحي في هذه اللحظة، ولسبب ما وضع السيد رحمن فوهة المسدس في فمه، لقد كان مرتعباً بحق.

في هذه اللحظة كان الفيدراليون في أنحاء الغرفة، بمن فيهم كيت، قد خطوا إلى الخلف مبتعدين وقد أشاحوا بوجوههم إلى الناحية الأخرى. أما أنا فقلت للسيد رحمن ‘‘سأفجر رأسك الآن إن لم تجب عن أسئلتي’’.

زاد اتساع عيني السيد رحمن فيما بدأ يدرك الاختلاف بيني وبين الآخرين؛ ربما لم يكن متيقناً من أنه يفهم طبيعة هذا الاختلاف، وحتى أساعده على سرعة الفهم ركلته بركبتي على نحو لا يخلو من القسوة.

أطلق الرجل صيحة ألم.

ما إن تبدأ بهذا الأسلوب، حتى يتوجّب عليك أن تكون مقتنعاً في ما تفعله، وأن تكون متأكداً من أن هذا الشخص الذي تنتهك حقوقه لديه بالفعل إجابات عن الأسئلة التي تطرحها عليه، وأنه سيعطيك إياها لا محالة. وإلا فرقبتك على المحك سواء كنت فيدرالياً متعاقداً أو لم تكن.

إلا أن ركلتي تلك لم تسفر عن أي نجاح، فعمدت إلى ركلة أخرى لحثه على مشاركتي بما لديه من معلومات. كان بعض الزملاء قد تركوا الغرفة بحيث لم يبقَ سوى إدي، وتوم، وكيت ليشهدوا أن السيد رحمن كان شاهداً متطوعاً، وأنه لم يُجبر على التعاون، وما إلى ذلك.

قلت للسيد رحمن ‘‘اسمع أيها الأحمق، يمكنك أن تمضي بقية حياتك في السجن، أو أن تُعدم في غرفة الغاز بصفتك متواطئاً مع قاتل. أتعي ما أقوله؟’’

على الرغم من أن فوهة سلاحي لم تكن في فمه، إلا أنه لم يفتح فمه بكلمة.

ولأنني أكره كثيراً ترك العلامات، شددت منديلي أسفل عنق السيد رحمن وسددت فتحتي أنفه، ولم يبدُ لي أنه يستطيع التنفس من أذنيه فبدأ يتخبط بشدة وهو يحاول التخلص من وزني الجاثم فوق صدره.

سمعت صوت توم وهو يبتلع ريقه.

مكثت في وضعي هذا حتى تحول لون السيد رحمن إلى بعض الزرقة، ثم رفعت إصبعي عن أنفه، وما إن سحب الرجل نفساً عميقاً حتى ناولته ركلة أخرى بين ساقيه. وتمنيت بالفعل لو أن جابي كان هنا ليخبرني أي الأشياء تعمل مع هذا النوع من الرجال، لكنه لم يكن هنا، ولم يكن هناك الكثير من الوقت لأضيعه مع هذا الرجل، فعمدت إلى سدّ أنفه مرة أخرى.

ومن دون الدخول في التفاصيل، ما حدث هو أن السيد عظيم رحمن أدرك منافع التعاون معنا، وأبدى استعداده لهذا، فما كان مني إلا أن أزحت منديلي عن فمه ووضعته في وضع الجلوس، ثم سألته مرة أخرى "من أرسلك إلى هنا؟"

تشنج الرجل مرة أخرى، وكان بوسعي أن أرى كم أصبح مشوشاً تجاه كل ما يحدث، فذكرته "بوسعنا مساعدتك. يمكننا إنقاذ حياتك. تكلم الآن وإلا وضعتك في الشاحنة اللعينة مرة أخرى لتذهب إلى صديقك وتوضح له الأمر. أهذا ما تريد أن تفعله، سأتركك لتذهب".

لكن بالطبع لم يبدُ عليه أنه يرغب في الذهاب، فسألته ثانية "من أرسلك، اسمع، لقد سئمت من تكرار السؤال اللعين ذاته، أجبني على الفور".

تشنج الرجل مرة أخرى، ثم التقط أنفاسه، وبلع ريقه وأجاب في صوت كان بالكاد مسموعاً "أنا لا أعرف اسمه... إنه... أعرفه فقط باسم السيد بيرلمان، ولكن...".

"بيرلمان؟ اسم يهودي؟"

"نعم، ولكنه لم يكن يهودياً، إنه يتحدث نفس لغتي".

كانت كيت تحمل صورة لأسد خليل في يدها، فوضعتها أمام وجه السيد رحمن الذي حدّق في الصورة لفترة طويلة ثم أومأ.

حمداً لله، لن يتم سجني.

فسألته "وهل هذا هو شكله الحالي؟"

هزّ الرجل رأسه نافياً وقال "إنه يضع نظارة، ولديه شارب، وشعره رمادي اللون".

"أين هو؟"

"لا أعرف، لا أعرف".

"حسناً يا عظيم، لا بأس. أخبرني متى كانت آخر مرة رأيته فيها؟ وأين؟"

“لقد قابلته في المطار”.

“أي مطار؟”

“مطار سانتا مونيكا”.

“وهل أتى إلى هناك بطائرة؟”

“لا علم لي بهذا”.

“وفي أي ساعة قابلته؟”

“كان الوقت مبكراً، عند الساعة السادسة صباحاً”.

الآن، وقد انقضى الجزء العنيف في الموضوع، وأصبح الشاهد متعاوناً، عاد الفيدراليون الستة إلى الغرفة، ووقفوا خلف السيد رحمن حتى لا يزيدوا من توتره. أما أنا، وقد ضمنت تعاونه وثقته، فكان يحق لي أن أكون الشخص الذي يوجه معظم الأسئلة، فسألت السيد رحمن

“إلى أين اصطحبت هذا الرجل؟”

“لقد اصطحبته. لقد أراد أن يقوم بالقيادة بنفسه، ومن ثم قاد السيارة”.

“إلى أين؟”

“لقد قاد السيارة على طول الطريق الساحلي”.

“لِمَ؟”

“لا أعرف”.

“وإلى متى استمر في القيادة؟ إلى أين ذهبتما؟”

“لم نذهب إلى أي مكان، فقط ظل يقود السيارة قرابة الساعة أو يزيد، ثم عدنا إلى هنا حيث وجدنا سوقاً تجارياً مفتوحاً”.

“سوقاً تجارياً؟!! أي سوق تعني؟”

قال السيد رحمن إنه لا يعرف اسم السوق التجاري حيث إنه غريباً عن المنطقة. ولكن كيم – وهي من مكتب فينتشورا – كانت تعرف المكان الذي يصفه رحمن، وعلى الفور تركت الغرفة لتتصل بالقوات. بيد أنني كنت على يقين من أن أسد خليل ما كان ليظلّ هناك حتى منتصف اليوم.

فرجعت إلى موضوع المطار مرة أخرى وسألت رحمن “وهل قابلته بشاحنتك تلك؟”

“نعم”.

“أكان ذلك في الصالة الرئيسية؟”

“كلا، في الجانب الآخر. في مقهى”.

بعد عدة أسئلة أخرى تبين أن السيد رحمن قد قابل السيد خليل في الجانب الملاحي العام لمطار سانتا مونيكا، مما قادني إلى الاعتقاد بأن خليلاً قد وصل إلى هناك في طائرة خاصة. وهكذا بدأت الأشياء تتسق في منطق معقول.

لقتل الوقت حتى يحل الظلام، عمد خليل وعظيم إلى قضاء وقت لطيف في القيادة والاستمتاع بالمنظر على الساحل قبل أن يعودا إلى فيتشورا حيث أعرب السيد خليل عن رغبته في بعض التسوق وربما في بعض الطعام، وقد يشتري بعض التذكارات.

سألت رحمن ‘‘وماذا كان يرتدي؟’’

‘‘حُلّة وربطة عنق’’.

‘‘ما لونها؟’’

‘‘رمادية. حلة رمادية غامقة اللون’’.

‘‘وماذا كان يحمل؟ أي أمتعة؟’’

‘‘حقيبة واحدة يا سيدي وقد تخلص منها أثناء القيادة. لقد أرشدته إلى أحد الوديان’’.

استدرت نحوه وسألته ‘‘ماذا تعني بأحد الوديان؟’’

لما شرح لي توم الأمر بدا سخيفاً بالنسبة لي.

فلنعد إلى عظيم رحمن على كل حال. سألته ‘‘أتستطيع الوصول إلى هذا الوادي مرة أخرى؟’’

‘‘لست أدري، ربما في ضوء النهار، سأحاول’’.

‘‘ستفعل بلا شك، وهل أعطيته أي شيء؟ أعني هل كنت تحتفظ له بطرد من أي نوع؟’’

‘‘نعم يا سيدي، كنت أحمل له طردين، لكنني لا أعرف محتوياتهما’’.

وهنا بدا أن الجميع قد شرعوا يحذون حذوي في ما يُعرف بتقنية الـ ‘‘Crateology’’؛ أي التعرف على طريقة التعامل مع شيء ما. وهنا توجهت إلى السيد رحمن قائلاً ‘‘صف لي الطردين؛ وزنهما، وحجمهما، وما إلى ذلك’’.

أدلى السيد رحمن بوصف عام لصندوق في حجم فرن الميكروويف، فيما عدا أنه كان خفيف الوزن، مما أوحى لنا جميعاً أنه كان يضم ملابس كي يغيّر خليل ملابسه، وربما بعض الوثائق. أما الطرد الآخر فكان أكثر أهمية وأكثر خطورة؛ كان طويلاً، ورفيعاً، وثقيل الوزن، وبالقطع لم يكن يحتوي على ربطة عنق.

نظرنا جميعاً إلى بعضنا البعض، ويبدو أن عظيم رحمن أيضاً قد فطن إلى محتويات ذلك الطرد.

ومرة أخرى حوّلت انتباهي إلى شاهدنا اللامع وسألته ‘‘وهل تخلص من الطردين كذلك أم لا يزال يحتفظ بهما؟’’

"لا يزال يحتفظ بهما".

شرعت أفكر لبرهة وانتهيت إلى أن أسد خليل يغيّر الآن من هيئته، وأنه قد حصل على أوراق هوية جديدة، وبندقية قناص مفككة داخل ما يشبه حقيبة عادية، غير ملفتة للأنظار؛ كحقيبة ظهر مثلاً.

فسألت السيد رحمن "وهل أرسلك هذا الرجل إلى هنا لترى ما إذا كان السيد ويجينز موجوداً بالمنزل؟"

"نعم".

"وهل تعرف أن هذا الرجل هو أسد خليل الذي قتل جميع من كانوا على متن الرحلة التي هبطت في نيويورك؟"

عندما عمد السيد رحمن إلى ادعاء أنه لم يفطن إلى هذه العلاقة، رحت أشرح له الأمر "في حال كنت تساعد هذا الرجل بالفعل، فسيتم إعدامك إما بالرصاص، أو الشنق، أو بواسطة الكرسي الكهربائي، أو بأي حقنة قاتلة، أو ربما تموت مختنقاً في غرفة الغاز. أو ربما يُقطع رأسك أتفهم هذا؟"

شعرت أن الرجل على وشك أن يغيب عن الوعي، بيد أنني تابعت قائلاً "ولكن لو ساعدتنا في القبض على أسد خليل، ستحصل على مكافأة قدرها مليون دولار". ليس هناك هذا الاحتمال بالطبع "لعلك رأيت هذا في التلفاز. ألم تفعل؟"

أومأ الرجل بحماس، وقد تخلى عن فكرة أنه لم يكن يعرف من كان مسافره ذاك.

"حسناً إذاً يا سيد رحمن، فلتكف عن المراوغة، ولنتعاون معنا على نحو كامل".

"إن هذا هو ما أفعله بالفعل يا سيدي؟"

"جيد جداً، من استخدمك لمقابلة هذا الرجل في المطار؟"

بلع الرجل ريقه مرة أخرى وأجاب "لا أعرف، أنا حقيقة لا أعرف". ثم لجأ إلى تفسير ملتوٍ بشأن الرجل الغامض الذي تحرش به ذات يوم منذ أسبوعين أو نحوهما في محطة الغاز في هوليوود حيث كان السيد رحمن يعمل بالفعل. وطلب منه ذلك الرجل المساعدة للحصول على المواطنة، وقدّم له عشرة آلاف دولار أميركي؛ عشرة بالمئة آنذاك وتسعون بالمئة في ما بعد، وهكذا مضى الأمر.

نمط التوظيف التقليدي الذي يتّبعه عملاء الاستخبارات مع بعض الحمقى الفقراء الذين يحتاجون إلى المال. إلا أن تلك كانت نقطة ميتة، حيث إن السيد رحمن لن يرى هذا الرجل مرة أخرى ليحصل على التسعين بالمئة المتبقية. فقلت لرحمن "إن هؤلاء الناس سيقتلونك قبل أن يدفعوا لك أموالك، فأنت الآن تعرف الكثير. هل تفهمني؟"

كان يفهمني بالفعل.

"لقد اختاروك من الجالية... لأنك تشبه أسد خليل. ولقد أرسلوك إلى هنا كي ترى ما إذا كنا قد أعددنا له فخاً، وليس فقط لترى ما إذا كان السيد ويجينز في منزله. أتفهم هذا؟"

وأطرق الرجل.

"انظر إلى حالك الآن. أتراك متيقن من أن هؤلاء الناس أصدقاء لك بالفعل؟"

هزّ الرجل رأسه وقد بدا المسكين في حالة مزرية بحق حتى إنني بدأت أشعر بالسوء تجاه انحنائه بهذا الشكل، وأنه بالفعل على وشك الاختناق، فعمدت إلى إجلاسه في وضع أفضل.

فقلت "حسناً، إليك السؤال الهام هنا، واعلم أن حياتك قائمة على إجابتك. متى، وأين، وكيف يُفترض بك أن تقابل أسد خليل؟"

تنهد الرجل بعمق ثم قال "من المفترض أن أتصل به".

"حسناً، فلنفعل ما هو الرقم؟"

بالفعل تفوه عظيم رحمن برقم الهاتف، وقال توم "إنه رقم هاتف خلوي".

وافقه السيد رحمن وقال "نعم، لقد أعطيت هذا الرجل هاتفاً خلوياً، فالتعليمات لديّ كانت أن أشتري هاتفين خلويين، والهاتف الآخر موجود في الشاحنة".

في الحقيقة، كان الهاتف الآخر مع كيت الآن، وكان مزوداً بخاصية معرفة هوية المتصل، وافترضت أن هاتف أسد خليل يحمل نفس الخاصية، فسألت رحمن "ما اسم الشركة التي ابتعت منها هذين الهاتفين؟"

فكر الرجل لبرهة ثم قال "نيكستيل".

"أمتأكد أنت من هذا؟"

"نعم، فقد كانت التعليمات أن أشتريهما من نيكستيل".

نظرت نحو توم الذي هزّ رأسه في إشارة تعني أنه لا يمكن تتبع اتصال من نيكستيل. في الحقيقة، إنه من الصعب تتبع المكالمات الخلوية على أي حال، بالرغم من أنه في 26 فيدرال بلازا وفي الشرطة لدينا تلك الأجهزة التي يُطلق عليها اسم تريجر فيش وسوامب بوكس، والتي يمكنها – على الأقل – أن تخبرك بالموقع العام لمكالمات AT&T أو بيل أتلانتيك. ولكن يبدو أن أصدقاء السيد رحمن قد تجاهلوا مغريات كبريات الشركات، ولجأوا إلى الانتفاع بالخاصيات غير المعلنة للشركات الصغيرة، وهو ما يُعرف في حرفتنا باسم استغفال الفيدراليين. إن هؤلاء القوم ليسوا بغباء بعض مواطنيهم، وربما نكون قد ربحنا هذه الجولة إلى حدٍّ ما، ولكن ليس هذا كل شيء، فلا يزال هناك المزيد.

كان الوقت قد حان كي يستريح السيد رحمن بعض الشيء؛ فحلّ توم أصفاده وراح رحمن يفرك رسغيه فيما أوقفناه على قدميه. بدا الرجل وكأنه يجد صعوبة في الوقوف على نحو مستقيم، وشرع يشكو من آلام في مناطق غير محددة، فأجلسناه على مقعد مريح فيما دخلت كيم إلى المطبخ لتحضر له بعض القهوة. كان المزيد من الإحساس بالتفاؤل يحدو الجميع الآن بالرغم من أن فكرة أن يقوم عظيم رحمن بخداع أسد خليل بأن يحثه على الاعتقاد بأن كل شيء على ما يرام في منزل ويجينز كانت فكرة ضعيفة جداً. ولكن، لا يمكنك أبداً التوقع بما قد يحدث

بالفعل. حتى رجل ذكي مثل أسد خليل يمكن خداعه متى سيطرت عليه أهدافه، لا سيما لو كانت قتل شخص ما.

عادت تيم بقدح من القهوة السوداء راح السيد رحمن يرتشفها. لا بأس باستراحة قصيرة لشرب القهوة، ثم توجهت إلى الشاهد لدينا وقلت له "انظر إليّ يا سيد عظيم. هل هناك كلمة سرية متفق على استخدامها وقت الخطر؟"

فنظر إليّ محدقاً وكأنني قد اكتشفت لتوي سر الكون، وقال "نعم، فالأمر كذلك بالفعل؛ فلو أنني كما أنا الآن فيجب أن أضع كلمة فينتشورا في حديثي له". ثم شرع يعطيني مثالاً لطيفاً على ذلك بأن يستخدم الكلمة في جملة ما، مثلما كنا نفعل أيام المدرسة، فقال "سيد بيرلمان، لقد قمت بتسليم الطرد الخاص بك إلى فينتشورا".

"حسناً، فلنتأكد إذاً من ألا تتفوه بكلمة فينتشورا، وإلا اضطررت لقتلك".

فأومأ الرجل برأسه بقوة دلالة على عمق فهمه للأمر.

ثم ذهب إدي إلى المطبخ ليحضر هاتف المطبخ من خطافه فوق الجدار، وأغلق الجميع هواتفهم الخلوية، وفي حال كان هناك جرو في المنزل لكنا قد أخرجناه كذلك.

عندما نظرت إلى ساعتي وجدت أن السيد رحمن قد مكث لدينا نحو عشرين دقيقة، وهو وقت ليس طويلاً بحيث يثير توتر أو ريبة أسد خليل. فقلت للسيد عظيم "هل هناك توقيت محدد متفق عليه للاتصال؟"

"نعم يا سيدي. كان من المفترض أن أقوم بتوصيل الطرد في التاسعة مساءً ثم أقود السيارة لمدة عشر دقائق ثم أجري المكالمة من شاحنتي".

"حسناً، فلتخبره أنك قد ضللت الطريق لبضع دقائق. والآن، خذ نفساً عميقاً، واسترخ تماماً، وفكّر في أشياء لطيفة".

بالفعل ذهب السيد رحمن في نوبة من التأمل الهادئ بعدما أخذ ذلك النفس العميق.

هنا سألته "هل تشاهد حلقات إكس فايلز؟"

ظننت أنني سمعت كيت تزمجر.

إلا أن السيد رحمن ابتسم وقال "نعم، لقد شاهدتها".

"جيد، تعرف إذاً أن سكالي ومولدر يعملان لدى مكتب التحقيقات الفيدرالية تماماً كما نفعل نحن. أتحب سكالي ومولدر؟"

"نعم".

"إنهما الجانب الطيب، أليس كذلك؟ نحن أيضاً الجانب الطيب".

في الحقيقة، كان الرجل من الأدب بحيث تغاضى عن ذكر موضوع ركلي إياه بين ساقيه. وما يهمني هو أن يستبقي ذكرى ذلك الألم في ذاكرته، ثم أردفت

"وسنتأكد من نقلك بأمان إلى أي مكان ترغب في العيش فيه، يمكنني نقلك إلى كاليفورنيا إن أردت". ثم أكدت له الفكرة، وسألته "هل أنت متزوج؟"

"نعم".

"وهل لديك أولاد؟"

"لديّ خمسة أولاد".

أسعدتني فكرة أنه قد أنجب أولاده بالفعل قبل لقائه هذا بي، وقلت "أظنك سمعت عن برنامج حماية الشاهد، أليس كذلك؟"

"نعم، سمعت".

"وتعرف أنك ستحصل على بعض المال، ألا تعرف هذا؟"

"أعرف".

"حسناً، هل من المفترض أن تقابل هذا الرجل بعد مكالمتك الهاتفية تلك؟"

"نعم".

"ممتاز، أين؟"

"في المكان الذي سيحدده هو".

"حسناً، فلنتأكد إذاً من أن مكالمتك الهاتفية تلك ستفضي إلى ذلك اللقاء. اتفقنا؟"

لم تأتني إجابة مرضية، فسألت السيد رحمن "لو كان كل ما كان يحتاجه منك هو أن تأتي إلى هنا وترى ما إذا كان السيد ويجينز في المنزل، أو الشرطة، فلماذا قد يحتاج إلى مقابلتك مرة أخرى؟"

ولمّا لم يكن لدى السيد رحمن أي فكرة، تبرعت بأن أعطيه إياها، فقلت "لأنه يريد قتلك يا عظيم، فأنت تعرف أكثر مما يجب، أتفهمني؟" بلع السيد رحمن ريقه بصعوبة ثم أطرق في دلالة على فهمه.

لكن كان لا يزال لديّ بعض الأخبار الجيدة لأجله، فقلت "سيتم القبض على هذا الرجل، ولن يتسبب لك بالمزيد من المتاعب. فإذا فعلت هذا من أجلنا، سنصطحبك لتناول الغداء في البيت الأبيض، وستقابل الرئيس شخصياً، ثم نعطيك المال. اتفقنا؟"

"اتفقنا".

ثم أخذت توم جانباً وقلت له "هل يتحدث أحد منكم هنا العربية؟"

فهز رأسه نافياً وقال "لم يحدث أبداً أن احتجنا إلى متحدّث باللغة العربية في فينتشورا". ثم أضاف، "جوان يتحدث الإسبانية".

"وكم تشبه الإسبانية العربية!" ثم عدت أدراجي إلى السيد رحمن وقلت "حسناً، فلتطلب الرقم، ولتتحاوروا باللغة الإنكليزية، وإن كنت مضطراً لاستخدام اللغة

العربية، فإن صديقنا جوان هنا يعرف بعضاً منها، فلا تحاول العبث معنا. هيا اطلب الرقم".

أخذ السيد رحمن نفساً عميقاً، ثم تنحنح مرة أخرى وقال "أحتاج إلى لفافة تبغ".

أوه، اللعنة! وسمعت بعض الزمجرات من الحاضرين، بيد أنني قلت متسائلاً "هل من مدخن هنا؟"

فقال السيد رحمن "لقد أخذتم سجائري".

فقلت له "لا يمكنك تدخين سجائرك الخاصة يا صديقي".

"ولماذا لا يمكنني أن-".

"لأنها قد تكون مسمومة كنت أظنك شاهدت إكس فايلز بالفعل".

"مسمومة؟ كلا، ليست كذلك".

"بل هي كذلك بالفعل. فلتنسَ أمر السجائر".

"ولكنني بحاجة بالفعل إلى لفافة تبغ، أرجوك".

كنت أعرف ذلك الشعور، فقلت لتوم "أشعل واحدة من سجائره".

بالفعل أخرج توم واحدة منها – ولم تكن من ماركة الجمل – وفي حالة من حالات الشجاعة النادرة وضع واحدة في فمه وأشعلها بقداحة عظيم، ثم قال له "لو أنها مسمومة أو أصابتني بضرر فسيقوم صديقي بـ-".

فساعدته بأن أكملت جملته قائلاً "سنمزقك إرباً بالسكاكين ونرمي قطع لحمك للكلاب".

نظر عظيم إليّ وقال "أرجوك، أنا لا أريد سوى لفافة تبغ".

أشعل توم اللفافة، وسحب منها نفساً، وسعل بشدة، بيد أنه لم يمت، فناول اللفافة إلى عظيم الذي راح ينفثها من دون أن يسقط قتيلاً.

فقلت "والآن يا صديقي، حان وقت إجراء تلك المكالمة، ولتحاول أن تجريها بالإنكليزية".

"لست متيقناً من أنه بوسعي فعل هذا". ثم نفض رماد السجائر في قدح القهوة التي احتساها منذ قليل، ثم أردف "ولكنني سأحاول".

"بل حاول بجد، وتأكد من فهمك الدقيق للمكان الذي سيقابلك فيه".

راح رحمن يستمع إلى رنات الهاتف عند الجانب الآخر، وكنا نسمعها كذلك، ثم قال عظيم رحمن متحدثاً "نعم، معك تاننباوم".

تاننباوم؟

ثم استمع إلى محدثه وقال "أعتذر، لقد ضللت الطريق".

ثم استمع مرة أخرى إلى شيء ما تغير على إثره تعبير وجهه، ثم نظر نحونا قبل أن يقول شيئاً للمتحدث عند الجانب الآخر، بيد أننا لم نفهمه حيث كان باللغة العربية.

استأنف بعدها السيد رحمن المكالمة باللغة العربية وهو يشير إلينا في تعبيرات تنم عن قلة الحيلة، فيما ظل جوان هادئاً وهو يدّعي أنه يستمع، ويطرق من حين لآخر، حتى أنه مال إليّ وهمس في أذني قائلاً "ماذا يقول هذا الأحمق؟"

نظرت إلى السيد رحمن حتى تلاقت أعيننا ثم تفوهت له بكلمة فينتشورا وأنا أشير بحركة قطع الرقبة على عنقي في إشارة مفهومة سواء بالعربية، أو الإنكليزية، أو في أي لغة كانت.

استمر السيد رحمن في محادثته الهاتفية وكان من الواضح – على الرغم من جهل الجميع باللغة العربية هنا – أن السيد خليل كان يضع السيد رحمن في مأزق، حيث بدأ ذلك الأخير يتعرق. وأخيراً أخفى السماعة في صدره وقال ببساطة "يقول إنه يريد التحدث إلى أصدقائي الجدد". فساد الصمت.

بدا السيد رحمن مرتعباً وهو يقول لنا "أنا آسف، لقد حاولت، ولكن هذا الرجل في منتهى الذكاء؛ لقد طلب مني أن أطلق بوق شاحنتي. إنه يعرف كل شيء. أنا لم أخبره بشيء، أرجوكم، أنا لا أريد أن أتحدث إليه".

ثم، أخذت سماعة الهاتف، ووجدت نفسي أتحدث مباشرة إلى أسد خليل، فقلت بلطف "مرحبا أهذا السيد خليل؟"

فجاءني صوت عميق يقول "نعم، ومن أنت؟" ولما لم تكن فكرة إعطاء اسمك لإرهابي فكرة جيدة، فقد اكتفيت بأن قلت له "أنا صديق للسيد ويجينز".

"أحقاً؟ وأين هو السيد ويجينز؟"

"لقد خرج ولكنه في الجوار. وأين أنت يا سيدي؟"

فضحك ضحكة ساخرة وقال "أنا أيضاً في الخارج وفي الجوار".

فرفعت درجة الصوت، وأبقيت السماعة بعيدة عن وجهي، فقد كان حولي سبعة رؤوس تحاول الاستماع، حيث الجميع مهتمون بما لدى أسد خليل ليقوله، ولكننا كنا نستمع كذلك إلى الأصوات في الخلفية والتي قد تدل على مكانه، فقلت "لماذا لا تأتي إلى منزل السيد ويجينز وتنتظره هنا إذاً؟"

"بل ربما سأنتظره في مكان آخر".

كان ذلك الرجل هادئاً جداً، وناعماً، ولم أشأ أن أفقده، ومن ثم قاومت رغبتي في أن أدعوه بالقاتل السافل، وشعرت بدقات قلبي تتسارع، فعمدت إلى أخذ نفس عميق.

قال خليل "ألو؟ أما زلت هناك؟"

"نعم يا سيدي، هل هناك ما تريد أن تخبرني به؟"

"ربما، لكنني لا أعرف من أنت".

"أنا تحريّ لدى مكتب التحقيقات الفيدرالية".

ساد الصمت لبرهة ثم قطعه قائلاً "وهل لديك اسم؟"

"جون، بماذا تريد أن تدعوني؟"

"ماذا تريد أن تعرف يا جون؟"

"أظنني أعرف كل ما يجدر بي معرفته، وإلا ما كنت هنا الآن، أليس كذلك؟"

ضحك خليل، وكم كرهت ضحكته، ثم قال "دعني إذاً أخبرك بأشياء ربما لا تعرفها".

"حسناً".

"إن اسمي – كما تعرف – هو أسد، من عائلة خليل. كان لديّ ذات يوم أب وأم وأخوان وأختان". ثم مضى يخبرني بأسمائهم وبعض التفاصيل الأخرى عن عائلته، وانتهى بأن قال "وجميعهم الآن في عداد الموتى".

ثم تابع حديثه، وبدا جليا أن الذكرى لم تزل نابضة بالحياة في عقله، وأنهى القصة بأن قال "لقد قتل الأميركيون عائلتي كلها".

نظرت إلى كيت وأومأنا لبعضنا البعض، فقد كنا قد توصلنا بالفعل إلى هذا الاستنتاج من قبل، رغم أنه لم يعد يعني الكثير الآن.

قلت لأسد خليل "أنا متعاطف معك، ولكنني-".

"أنا لا أحتاج إلى تعاطفك، لقد عشت حياتي بأسرها كي أنتقم لأسرتي وبلدي".

أدركت أن الحوار سيكون صعباً حيث إننا نتشارك القليل، لكنني أردت أن يظلّ أسد خليل على الخط، ومن ثم أستخدم تقنيات التفاوض التي سبق وأن تدربت عليها، فقلت "حسناً، بوسعي بالطبع تفهم هذا، وربما حان الوقت كي نذيع قصتك على العالم".

"ليس بعد، فقصتي لم تنتهِ".

"فهمتك. حسناً، عندما تنتهي قصتك، أنا على يقين من أنك سترغب بإخبارنا التفاصيل، ولسوف نعطيك الفرصة لذلك".

"أنا لا أحتاج إلى أي فرص منكم، فأنا أصنع الفرص التي أريدها".

أخذت نفساً عميقاً، يبدو أن المعايير الثابتة للحوار لن تجدي نفعاً مع هذا الرجل، ولكنني عمدت إلى المحاولة مرة أخرى "اسمع سيد خليل، أود كثيراً لو قابلتك وحادثتك على نحو شخصي وحدنا".

"أرحب كثيراً بفكرة مقابلتك وحدك؛ ربما فعلنا ذلك في يوم من الأيام".

"وماذا عن اليوم؟"

"لا اليوم غير مناسب، ربما أزورك في بيتك ذات يوم، تماماً مثلما قمت بزيارة الجنرال وايكليف والسيد غراي".

"تأكد إذاً من أن تتصل قبل أن تأتي".

فضحك خليل. حسناً، هذا الأحمق يلعب معي، ولكن لا بأس، فهذا جزء من العمل على أي حال، بل وكنت أعرف أن هذا الحديث لن يسفر عن شيء، ولكن فليتحدث كما يشاء طالما أنه يرغب في هذا.

فقلت له "وكيف تظن أنك ستغادر البلاد يا سيد خليل؟"

"لست أدري، ماذا تقترح؟"

الأحمق. "ماذا عن الطيران إلى بلدك مقابل بعض أبناء بلدك الذين نرغب في استبقائهم هنا؟"

"ومن ترغبون بسجنه هنا أكثر مني؟"

تلك كانت ملاحظة جيدة أيها الأحمق.

"ولكن إذا أمسكنا بك قبل مغادرتك البلاد، فلن نقدم لك هذا العرض الكريم".

"أنت تهين ذكائي. تصبح على خير".

"انتظر، أنت تعرف يا سيد خليل أنني في هذا العمل منذ أكثر من عشرين عاماً، وأنت-".

أكثر من هم على وجه الأرض حمقاً "... أكثر الرجال ذكاءً ممن تعاملت معهم".

"ربما يبدو الكثيرون أذكياء بالنسبة لك".

كنت على وشك فقدان خيط الحديث، فأخذت نفساً عميقاً آخر وقلت "كحادثة مقتل ذلك الرجل في فرانكفورت فنظنه أنت".

"كان هذا من الذكاء بلا شك، ولكن ليس غاية في الذكاء. وأهنئك على إخفاء الأمر عن الإعلام، أو ربما لم تكن أنت نفسك تعلم بالأمر".

"حسناً، ربما شيء من هذا وشيء من ذلك. على كل حال، وللعلم فقط سيد خليل، هل قمت بالتخلص من أي أشخاص آخرين لم نعلم بعد بشأنهم؟"

"في الحقيقة، لقد قتلت موظفاً في نزل صغير بالقرب من واشنطن، وعاملاً بمحطة وقود بجنوب كاليفورنيا".

"ولماذا فعلت ذلك؟"

"لقد رأوا وجهي".

"فهمتك. حسناً، هذا جيد. ولكن تلك المرأة التي قادت طائرتك في جاكسونفيل قد رأت وجهك كذلك".

تبع هذا صمت طويل قطعه خليل بأن أجاب "لديك إذاً بعض التفاصيل".

"بالطبع لديّ جمال جبّار، ويوسف حداد على متن تلك الطائرة. لماذا لا تخبرني عن أسفارك وهؤلاء الذين قابلتهم في طريقك؟"

لم تكن لديه مشكلة في ذلك، فشرع يعطيني موجزاً عن أسفاره بالسيارة والطائرة، والأشخاص الذين قابلهم وقتلهم، وأين مكث من وقت إلى آخر، وأشياء أخرى رآها وفعلها، وما إلى ذلك. كنت أفكر أنه ربما استطعنا توريط الرجل، أو تحديد أي هويات مزيفة قد استخدمها، لكنه أدرك ذلك وقال "لديّ بالفعل مجموعة كاملة من الهويات الجديد، وأؤكد لك أنني لن أواجه أي مشكلة في الخروج من هنا".

"ومتى تنوي الذهاب؟"

"متى رغبت في ذلك، وأسفي الوحيد بالطبع هو إخفاقي في مقابلة السيد ويجينز. أما بالنسبة للعقيد كالوم، فأظنه بالفعل سيعاني ويتعذب حتى الموت".

يا الله، كم ضايقني هذا، فقررت أن ألعب معه لعبة أخرى "ربما يمكنك أن تتوجه لي بالشكر على إنقاذ السيد ويحينز".

"أحقاً؟ ومن أنت إذاً؟"

"لقد أخبرتك أنا جون".

فصمت لبرهة قصيرة ثم قال مرة أخرى "طابت ليلتك".

"انتظر فحديثك يروق لي. هل أخبرتك أنني كنت أحد أول الفيدراليين الذين اعتلوا متن تلك الطائرة؟"

"هل الأمر كذلك بالفعل؟"

"وتعرف ما الذي يدور بخاطري الآن؟ أتساءل ما إذا كنا قد رأينا بعضنا البعض بالفعل. أتظن هذا محتملاً؟"

"نعم، أظن هذا".

"أعني أنك كنت ترتدي الزي الأزرق الذي يرتديه حمالو الأمتعة في ترانس - كونتيننتل، أليس كذلك؟"

"هذا صحيح".

"حسناً، كنت أنا الرجل في الحُلّة ذات اللون البني الفاتح، وكانت بصحبتي تلك الشقراء الفاتنة". وغمزت لكيت "أتذكرنا؟"

لم يجب خليل على الفور، ثم قال "نعم، كنت أقف على السلم الحلزوني". ثم ضحك وأردف "ولقد أمرتني أنت أن أغادر الطائرة. شكراً لك على هذا".

"حسناً، ملعون أنا إذاً. أكان هذا أنت؟! يا له من عالم صغير".

التقط السيد خليل الكرة وقال "في الحقيقة، لقد رأيت صورتك في الصحف، أنت والمرأة التي تتحدث عنها. نعم، وكان اسمك مذكوراً في مذكرة السيد ويبر التي وجدتها في نادي الفاتحين. السيد جون كوري والآنسة كيت مايفيلد بالطبع".

"ها، إنه ذكاء خاص".

مستفز.

"في الحقيقة، أظن أنني قد حلمت بك يا سيد كوري. نعم. كان حلماً، أو ربما كان شيئاً أشبه بالإحساس أو شيئاً من قبيل الحضور".

"أتمزح؟ وهل كنا نمرح معاً؟"

"كنت تحاول القبض عليّ، لكنني كنت أسرع وأكثر ذكاءً منك".

"لقد حلمت بعكس هذا الحلم تماماً. يا صاح، أنا أرغب بالفعل في لقائك وأن ابتاع لك شراباً إن أردت، فأنت تبدو لي شخصاً مرحاً بحق".

"لكنني لا أتناول الشراب".

"نعم، ربما لا تشرب الشراب لكنك مغرم بشرب الدماء".

ضحك وقال "نعم، في الحقيقة لقد لعقت دماء الجنرال وايكليف".

"إنك سافل، ومختل عقلياً أتعرف هذا؟"

أخذ يفكر في هذا للحظة ثم قال "أظن أننا سنلتقي بالفعل قبل رحيلي. سيكون هذا لطيفاً بحق. كيف يمكنني الوصول إليك؟"

أعطيته رقمي في وحدة مكافحة الإرهاب، وقلت "اتصل في أي وقت شئت، واترك لي رسالة في حال لم تجدني هناك وسأعاود الاتصال بك".

"وماذا عن رقم هاتف بيتك؟"

"لن تحتاجه فأنا في العمل معظم الوقت".

"فضلاً أخبر السيد رحمن أن شخصاً ما سوف يتصل به، وكذلك السيد ويجينز".

"فلتنس هذا الأمر يا صديقي. بالمناسبة عندما ألقاك سأحشر أعضاءك في فمك، وأقطع رأسك، وسأقطع عنقك إرباً".

"سنرى من سيمسك بمن سيد كوري، وأبلغ تحياتي للآنسة مايفيلد. أتمنى لها يوماً سعيداً".

إلا أن المحادثة كانت قد انتهت ووقفت أنا في مكاني لبرهة محاولاً تهدئة أعصابي، بينما كان الهدوء يسود الغرفة تماماً.

أخيراً قال توم "لقد قمنا بعمل جيد".

قلت "نعم". وشرعت أمضي خارج الغرفة إلى غرفة التلفاز حيث كنت قد لمحت هناك مشرباً، فصببت لنفسي بعض الشراب، وأخذت نفساً عميقاً ثم شربته

كله.

هنا دخلت كيت الغرفة، وسألتني في نعومة ورفق "هل أنت بخير؟"

"سرعان ما سأكون بخير. أترغبين في بعض الشراب؟"

"نعم، ولكن من دون شكر".

فصببت كأساً آخر ورحت أحدّق في الفراغ.

قالت كيت "أظن أنه يجدر بنا الذهاب الآن".

"الذهاب إلى أين؟"

"سنجد نزلاً نستطيع البقاء فيه في فينتشورا، ثم سنذهب إلى مكتب لوس أنجلوس غداً؛ لا أزال أعرف بعض الأشخاص هناك وأود لو أنك تقابلهم".

لم أجبها.

فأردفت "ثم سآخذك في جولة حول لوس أنجلوس إن أردت، ثم نعود إلى نيويورك".

"إنه هنا، في مكان ما قريب جداً من هنا".

"أعرف هذا، لذا سنبقى في المنطقة لبضعة أيام ونرى كيف سيمضي الأمر".

"أريد تفقد كافة وكالات تأجير السيارات، وأريد قلب المجتمع الذي ينتمي إليه رأساً على عقب، وكل موانئ المغادرة، وكذلك وضع الحدود المكسيكية تحت المراقبة الشديدة".

"جون، نحن نعرف كل هذا، ونقوم بكل هذه الأشياء في هذه اللحظة تماماً مثلما يحدث في نيويورك".

فجلست ورحت أرتشف كأسي الثاني وأنا أتمتم "اللعنة!"

"اسمع يا جون، على الأقل أنقذنا حياة ويجينز".

فوقفت وقلت "سأذهب إلى السيد رحمن لأعتصره بعض الشيء".

"إنه لا يعرف أكثر مما قاله بالفعل، وأنت تعرف ذلك".

فجلست مرة أخرى، وأنهيت شرابي، ثم قلت "نعم، حسناً، أظن أنني قد استنفذت كل ما لديّ من أفكار". ثم نظرت إليها وقلت "ماذا تعتقدين؟"

"أعتقد أنه حان الوقت كي نترك هؤلاء القوم ليقوموا بعملهم، هيا بنا، فلنذهب من هنا".

وقفت "أتظنين أنهم سيتركوننا نلعب بمدفع الرغاوي؟"

ضحكت كيت تلك الضحكة التي بدت كتنهيدة ارتياح أكثر من كونها ضحكة، وذلك عندما تشعر أن ذلك الشخص الذي تعرفه كان في حالة غريبة وبدأ يعود إلى طبيعته.

فقلت "حسناً، فلنفجر هذا المكان".

عدنا أدراجنا إلى غرفة المعيشة لنلقي على الجميع تحية المساء قبل الرحيل. كان السيد رحمن قد اختفى في مكان ما، وكان الوجوم بادياً على الجميع، فتوجه إلينا توم قائلاً "لقد اتصلت بتشانك ليقلكما إلى أحد النزل هنا".

في هذه اللحظة، رن هاتف توم الخلوي، والتزم الجميع الصمت. فرفع الهاتف إلى أذنه، وراح يستمع إلى محدثه، ثم قال "حسناً، حسناً، كلا، لا توقفه سنتولى نحن الأمر من هنا". ثم أنهى المكالمة وقال لنا "إن إلوود ويجينز في طريق عودته إلى منزله". ثم أضاف "ومعه امرأة في السيارة".

ثم قال موجهاً حديثه للجميع "سنظل هنا في غرفة المعيشة ونترك السيد ويجينز وصديقته يدخلان المنزل. وعندما يرانا...".

"نهتف جميعاً: *مفاجأة لك!*" قلت أنا مقترحاً.

بالفعل ابتسم توم إلا أنه قال "فكرة سيئة، على كل حال سأقوم أنا بتهدئته ثم أشرح له الموقف".

كم أكره عندما يصابون بالإغماء، أو يندفعون خارج الباب، وغالباً ما يظنونك من محصلي الفواتير.

على أي حال، لم أكن بحاجة إلى البقاء حتى هذه اللحظة المثيرة، بيد أنني قررت أن أبقى لمقابلة تشب ويجينز فقط إرضاءً لفضولي، ولأرى كيف يبدو. فأنا مقتنع أن الخالق إنما يعتني بأكثر خلقه قلة حيلة ولامبالاة.

ثم مضت بضع دقائق تناهى إلينا بعدها صوت سيارة تقترب من الممشى، ثم انفتح باب المرآب وأغلق مرة أخرى قبل أن يُضاء مصباح المطبخ، وسمعنا الأصوات التي يصدرها السيد ويجينز فيما يتحرك في المطبخ ويفتح الثلاجة. أخيراً قال لصديقته "ها، من أين أتى كل هذا الطعام؟" ثم أردف "وقبعات من تلك؟ إنها قبعات من مكتب التحقيقات الفيدرالية يا سو".

فقالت سو "أظن أن أحدهم كان هنا يا تشب".

قال تشب "نعم". ولعله كان يتساءل ما إذا كان قد دخل إلى المنزل الصحيح.

في الوقت ذاته كنا ننتظر بفارغ صبر أن يأتي السيد ويجينز إلى غرفة المعيشة.

وسمعناه يقول "انتظري هنا، سأتفقد الأمر".

أخيراً سار تشب ويجينز إلى غرفة المعيشة، ووقف كالصنم في طريقه.

وقال توم "من فضلك، لا داعي للانزعاج". ثم رفع شارته وهو يقول "نحن من مكتب التحقيقات الفيدرالية".

نظر تشب ويجينز إلى الرجال الأربعة والنساء الأربع الواقفين في غرفة معيشته، وشرع يقول "ماذا؟"

كان تشب ويجينز يرتدي بنطالاً من الجينز، وقميصاً قطنياً، وينتعل حذاء صيد عالياً، وبدا مسمًّرا من الشمس وفي كامل لياقته البدنية، بل وأصغر سناً من عمره الحقيقي. الجميع في كاليفورنيا يبدون مسمّرين، وفي لياقة جيدة، وصغار السن، ما عدا الأشخاص على شاكلتي، الذين يمضون وقتهم على أي حال.

قال توم ''سيد ويجينز، نحن نرغب في التحدث إليك لبضع دقائق''.

''ماذا يحدث هنا؟''

هنا ظهرت صديقته لدى الباب، وقالت ''تشب، ماذا هناك؟''

فأوضح لها تشب السر وراء وجود تلك القبعات الفيدرالية.

بعد دقيقة أو نحو ذلك كان تشب قد جلس، ومكثت صديقته في غرفة التلفاز مع إدي. كان تشب ويجينز مسترخياً ولكن يحدوه الفضول. بالمناسبة، كانت تلك الصديقة جذابة بحق، لكنني لم ألقِ بالاً.

ثم بدأ توم حديثه قائلاً ''سيد ويجينز، إن وجودنا هنا يتعلق بمهمة القصف التي اشتركت أنت بها في العام 1986''.

''أوه، اللعنة''.

''لقد سمحنا لأنفسنا بدخول بيتك بناء على ما لدينا من معلومات تقول إن إرهابياً من البلد الذي شاركت بعملية قصفه-''.

''أوه، اللعنة''.

''موجود في المنطقة، ويسعى إلى إلحاق الضرر بك''.

''أوه، اللعنة''.

''نحن نسيطر على الموقف، ولكننا نخشى أننا سنطلب منك أن تتوقف عن العمل لفترة وأن تأخذ إجازة''.

''ها؟''

''ولم يتم اعتقال هذا الرجل بعد''.

''اللعنة''.

عمد توم إلى شرح الموقف إلى تشب، ثم قال ''وأخشى أن لدينا أخبراً سيئة؛ لقد قتل الرجل بعض زملائك في ذلك السرب''.

''ماذا؟''

قال توم ''لقد قتلهم هذا الرجل المدعو أسد خليل''. وهو يعطي صورة خليل لتشب الذي كان متحمساً لرؤية صورة الرجل وحفظها عن ظهر قلب.

أخذ تشب يحدق في الصورة، ثم وضعها وقال ''من قُتل منهم؟''

أجابه توم ''الجنرال وايكليف وزوجته''.

“أوه، يا الله. تيري مات؟ وجيل؟”

“نعم يا سيدي، تقبل إعتذاري. وهناك أيضاً بول غراي، ووِيليام ساذرويت، وجيم ماكوي”.

“أو يا الله. أو اللعنة، كلا”.

“كما تعرف فالعقيد هامبريشت كان قد قُتل في إنكلترا في يناير الماضي”.

بالكاد استطاع تشب السيطرة على نفسه، وطغى عليه إدراك أنه كان قاب قوسين أو أدنى من جامع الأرواح هذا “اللعنة”. ثم وقف ونظر من حوله كأنه يحاول العثور على ذلك الإرهابي، ثم قال “وأين هو هذا الرجل؟”

أجابه توم في لهجة تأكيدية “نحن نحاول اعتقاله. يمكننا البقاء هنا معك الليلة رغم أنني لا أعتقد أنه سيظهر هنا، أو يمكننا أن ننتظر حتى تجمع أشياءك ونأخذك إلى-“.

“سأذهب من هنا بالطبع”.

“لا بأس”.

وقف تشب ويجينز لبرهة وقد استغرق في تفكير عميق، وربما كانت تلك أعمق لحظة تفكير مرّ بها في حياته، وقال “أتعرفون لطالما كنت أعرف، أعني لقد أخبرت بيل ذات يوم بعد تسريحنا، أخبرته أن هؤلاء السفلة لن يتركوا الأمر يمضي بسلام. أو، اللعنة، وهل قُتل بيل؟”

“نعم يا سيدي”.

“وبوب؟ بوب كالوم؟”

“إنه تحت الحماية المشددة”.

فشرعت أتكلم موجهاً حديثي إلى تشب “لماذا لا تذهب لزيارته؟”

“نعم، فكرة جيدة. أظنه في أكاديمية القوات الجوية، أليس كذلك؟”

فأجبته “نعم يا سيدي، ويمكننا حمايتكما هناك”. وبذلك تكون التكلفة أقل.

حسناً، لمّا لم يكن هناك داعٍ للبقاء، ألقيت وكيت التحية على الجميع، فيما ذهب تشب لجمع أشيائه. بالرغم من أنه قد بدا لي كرجل يمكن أن أستعير بعضاً من ملابسه الداخلية، إلا أنه كان لديه في رأسه الآن أمور أهم بكثير.

ثم خرجت وكيت ووقفنا في الهواء العليل في انتظار تشانك. فقالت كيت “كم هو سعيد الحظ تشب ويجينز هذا”.

“من دون شك، هل رأيتِ صديقته؟”

“لا أدري لماذا أحاول حتى التحدث معك؟”

“أعتذر”. ثم فكرت للحظة وقلت “لماذا كان يحمل بندقية قنص؟”

“من تعني؟ خليل؟”

“نعم خليل لماذا يحتاج إلى حمل بندقية قنص؟”

“نحن لا نعرف أنه يحمل بندقية قنص”.

“فلنفترض أنه يحمل بندقية، لماذا يحتاجها؟ لم يكن ذلك لقتل تشب ويجينز داخل منزله”.

“هذا صحيح، ولكن ربما أراد قتله في مكان آخر داخل الغابات مثلاً”.

“كلا، إن لدى هذا الرجل مآرب شخصية، وأنا أعرف أنه يهتم بالحديث إلى ضحاياه قبل قتلهم فلماذا يحمل بندقية قنص؟ ليقتل شخصاً لا يستطيع الاقتراب منه، شخصاً لا يرغب في التحدث إليه”.

“أظن أنك على حق في هذا”.

هنا وصلت السيارة فصعدنا إليها، حيث جلست على المقعد الأمامي وكيت على المقعد الخلفي، وبالطبع جلس تشانك خلف عجلة القيادة، ثم قال “لا بد أن ذلك الوقت كان وقتاً مضنياً. أتريدان فندقاً جيداً؟”

“بالطبع، مع مرايا على السقف”.

شعرت بخبطة كيت على رأسي من الخلف.

ثم اتجهنا نحو المحيط فيما كان تشانك يقول إن هناك بضعة فنادق تطل جميعها على المحيط.

فسألته “هل هناك مكان ما في هذه المنطقة يعمل ليلاً حيث يمكنني ابتياع بعض الملابس الداخلية؟”

“ماذا؟”

“تعرف، مثلما هو الحال في كاليفورنيا. هناك دائماً متاجر ليليّة، وكنت أتساءل لو-“.

فصاحت كيت “جون، أيمكنك أنن تصمت؟ ويا تشانك أيمكنك تجاهله؟”

وبينما كنا نمضي بالسيارة، كان تشانك وكيت يتحدثان عن جدول أعمال اليوم التالي.

كنت أفكر في السيد أسد خليل ومحادثتي معه، وكنت أحاول أن أُدخل نفسي داخل عقله المشوش، وأن أخمِّن خطوته التالية.

الشيء الوحيد الذي كنت على يقين منه هو أن أسد خليل لم يكن عائداً إلى بلده، وأننا بالقطع سنسمع عنه مرة أخرى، عمّا قريب.

الفصل التاسع والأربعون

أجرى تشانك مكالمة من هاتفه الخلوي حيث حجز لنا غرفتين في مكان ما يُدعى *فينتشورا إن* ويطل على الساحل، وقد استخدم لذلك الغرض بطاقتي الإئتمانية، ثم حصل على تخفيض الهيئات الحكومية، ثم أكد لي أننا سنستعيد مبلغ الإقامة ذاك.

ثم ناول تشانك حقيبة ورقية إلى كيت وقال لقد توقفت واشتريت لكِ فرشاة أسنان ومعجوناً لتنظيف الأسنان، وفي حال كنتِ بحاجة إلى أي أشياء أخرى يمكننا التوقف لشرائها".

"بل يكفي هذا".

فسألته "وماذا أحضرت لي؟"

فأخرج حقيبة ورقية أخرى من تحت مقعده وناولني إياها وهو يقول "أحضرت لك بعض الأظافر لقرضها".

فضحكت كثيراً.

عندما فتحت حقيبتي وجدت فيها معجون أسنان، وفرشاة، وآلة حلاقة، وكريماً للحلاقة في عبوة تفي بغرض السفر.

"شكراً لك".

"لا داعي للشكر، لقد دفعت الحكومة ثمن هذه الأشياء".

"كم أشعر بالإحراج من شدة هذا الكرم".

"أليس كذلك؟"

وضعت تلك الأشياء في جيبي، وفي غضون عشر دقائق كنا قد وصلنا إلى بناية عالية كُتب على مظلتها الأمامية *فينتشورا إن بيتش ريزورت*. دفع تشانك أبواب الاستقبال الأمامية وقال "سيكون مكتبنا عاملاً طوال الليل، فلكما أن تتصلا بنا في حال كنتما بحاجة إلى ذلك".

فقلت لتشانك "لو طرأ أي جديد، تأكد من أن تتصل بنا، وإلا فسأغضب".

"أنت صاحب العرض بأسره يا جون! لقد أثرت إعجاب توم كثيراً بالطريقة التي استطعت فيها تحويل رجل التوصيل ذاك إلى شاهد متطوع".

"البعض من علم النفس يجدي نفعاً يا صاح".

"أصدقك القول، الأفراد هنا آكلو اللوتس، ومن الجيد رؤية أحد آكلي اللحوم من أمثالك من حين إلى آخر".

"هل أعتبر ما قلته مجاملة؟"

"إلى حدٍّ ما. حسناً، في أي ساعة في الصباح تريدني أن أقلكما من هنا؟"

فأجابته كيت "عند السابعة والنصف".

لوّح تشانك مودعاً، ثم انطلق.

فقلت لها "هل فقدتِ صوابك؟ إنها الرابعة والنصف صباحاً بتوقيت نيويورك".

"بل العاشرة والنصف صباحاً بتوقيت نيويورك".

"هل أنتِ أكيدة من ذلك؟"

تجاهلتني كيت، وشرعت تتجه صوب بهو الفندق، وأنا في إثرها.

كان المكان جميلاً وقد تناهى إليّ صوت موسيقى البيانو عبر باب الردهة.

ثم حيّانا موظف الاستقبال بدفء، وأخبرنا عن غرفه الفاخرة المطلة على المحيط في الطابق العشرين؛ فكل غالٍ يهون لحراس الحضارة الغربية!

ولكنني سألته "أي محيط تعني؟"

"الهادئ يا سيدي".

"أليس لديك غرفة تطل على الأطلسي؟"

فابتسم الرجل.

عمدت وكيت إلى ملء استمارات التسجيل، ثم أخذ الرجل صورة من بطاقة أميركان إكسبرس خاصتي، وشعرت أنها تئن ألماً وهي تخرج من ماكينة الدفع. ثم أخرجت كيت صورة من حقيبتها وكذلك أوراق اعتمادها، وتوجهت إلى موظف الفندق قائلة "هل سبق وأن رأيت هذا الرجل؟"

اختفت أمارات السعادة عن وجه الرجل لدى رؤية أوراق اعتمادها وقد كان يظن أننا سنمضي الليلة في سلام فحسب. ثم حدّق في صورة أسد خليل وأجابها "كلا يا سيدتي".

"احتفظ بالصورة واتصل بنا في حال رأيته". ثم أضافت "إنه مطلوب لارتكابه جرائم قتل".

أومأ موظف الاستقبال ووضع الصورة خلف منضدة الاستقبال لتصبح في مجال رؤيته.

ثم أردفت كيت قائلة له "ولتتأكد من أن يراها الموظف الذي سيحلّ محلك في فترة العمل التالية".

بعد أن حصلنا على بطاقات المفاتيح خاصتنا، اقترحت أن نتناول شراباً في ردهة الفندق.

لكن كيت قالت "أنا منهكة تماماً، سأخلد للنوم".

"ولكنها العاشرة فحسب!"

"إنها الواحدة من بعد منتصف الليل بتوقيت نيويورك، وأنا متعبة بحق".

هنا صدمتني الفكرة التعيسة بأنني سأتناول الشراب بمفردي وسأنام بمفردي.

ثم قصدنا المصاعد، وصعدنا إلى غرفتينا في صمت.

عندما وصلنا إلى الطابق العاشر، سألتني كيت "هل تشعر بالغضب؟"

"نعم".

كان المصعد قد وصل إلى الطابق الأعلى فخرجنا، وقالت كيت "حسناً، وأنا لا أرضى أن أتركك غاضباً، فلتأتِ إلى غرفتي لتناول الشراب".

هكذا ذهبنا إلى غرفتها، وكانت متسعة وتخلو من الأمتعة التي عادة ما تنتظر إفراغها، فعمدنا سريعاً إلى إعداد كوبين من الشراب من مشرب الغرفة الصغير، وأخذناهما إلى الشرفة.

قالت كيت "فلننس أمر القضية الليلة".

"حسناً، لا بأس". واتخذنا مقعدين والمائدة المستديرة تفصل بيننا، وشرعنا نتأمل ضوء القمر الساقط على مياه المحيط.

ذكرني هذا بإقامتي في فترة النقاهة في منزل عمي المطل على المياه شرقي لونغ أيلاند. كما تذكرت تلك الليلة التي جلست فيها أنا وإيما نحتسي الشراب بعد أن سبحنا عاريين في الخليج.

وجدت نفسي أدخل في مزاج سيئ من جراء تلك الذكريات المتعاقبة، فشرعت أحاول الإفلات منها.

سألتني كيت "بماذا تفكر؟"

"في الحياة".

"ليست هذه فكرة جيدة. هل خطر لك من قبل أن تكون في هذا العمل؟ تعمل بمفردك، وتمضي ساعات شاقة فقط لأنك لا تريد أن تسمح لنفسك بالتفكير في حياتك؟"

"رجاءً".

“استمع إليّ. يعنيني أمرك بحق، وأشعر كما لو أنك تبحث عن شيء ما”.

“نعم، ملابس داخلية نظيفة”.

“يمكنك غسل ملابسك اللعينة”.

“لم تخطر على بالي الفكرة”.

“اسمع يا جون، لقد بلغت الواحدة والثلاثين من عمري، ولم أقترب أبداً من فكرة الزواج”.

“ولا أرى سبباً لذلك”.

“ولكن – لمعلوماتك – لم يكن هذا بسبب قلة عروض الزواج”.

“فهمتك”.

“هل تعتقد أنك قد تقدم على تجربة الزواج مرة أخرى؟”

“كيف تعتقدين سيكون السقوط من الشرفة من هذا الارتفاع؟”

ظننتها ستغضب لعدم احترامي سؤالها كما يجب، إلا أنني وجدتها تضحك! يبدو أن هناك أوقاتاً لا يُمكن أن يُعد فيها الرجل مخطئاً مهما فعل، تماماً كما أن هناك أوقاتاً لا يُمكن أن يعد فيها محقاً مهما فعل؛ فالأمر في الحالتين يتوقف على مزاج المرأة.

ثم قالت كيت “على أي حال، لقد قمت بعمل رائع اليوم. لقد أثرت إعجابي حقاً، حتى إنني قد تعلمت منك بضعة أشياء”.

“هذا جيد، ولكن عندما تركلين رجلاً ما في ذلك المكان، وفي ذلك الموضع، تأكدي من أنه بإمكانك انتزاع ما تريدينه منه، فكوني حذرة”.

وكم كانت كيت امرأة ذكية، فقالت “لا أظنك رجلاً سادياً أو تتسم بالعنف، بل تفعل فقط ما يتعين عليك فعله. وأظن أنك لا تحب أن تفعل هذا، وهذا أمر هام”.

أترى ما أعني؟ أصبح من المستحيل أن أكون مخطئاً في عيني كيت.

كانت كيت قد وضعت زجاجتين صغيرتين أخريين من الشراب في جيب سترتها، ففتحتهما وأفرغت محتوياتهما في كوبينا. ثم قالت بعد دقيقة أو نحوها “أنا أعرف بأمر حادثة بالم أيلاند”.

“أي حادثة تعنين؟”

“أعني ذلك الرجل الذي نزعت أحشاءه”.

أخذت نفساً عميقاً، بيد أنني لم أعلّق.

صمتت كيت لبضع ثوان، ثم قالت “لكل منا جانب سيئ في شخصيته، ولا بأس بهذا”.

“ولكن الواقع هو أنني قد استمتعت بذلك”.

"كلا، لم تفعل".

"كلا، لم أفعل. ولكن كانت هناك ظروف أخرى خففت من حدّة الموقف".

"أعرف هذا. لقد قتل هذا الرجل شخصاً كان عزيزاً عليك".

"فلنترك هذا الموضوع وشأنه".

"بالتأكيد، لكنني أردت فقط أن تعرف أنني أتفهم ما حدث ولماذا حدث".

"هذا جيد، سأحاول ألا أفعل هذا مرة أخرى".

أترى ما أعني؟ لقد انتزعت أحشاء ذلك الرجل، ولا بأس! في الحقيقة، لا بأس بذلك بالفعل لأن الرجل كان يستحق ما حدث له.

على أي حال، تركنا الموضوع ليهدأ قليلاً فيما كنا نتناول الشراب، ونحدق في منظر المحيط الفاتن وأمواجه تزحف نحو الشاطئ واحدة تلو الأخرى. يا له من منظر رائع! وكان النسيم العليل يداعب وجهينا فنشم فيه رائحة مياه البحر.

سألت كيت "أتحبين المكان هنا؟"

"كاليفورنيا لطيفة، وأناسها يتسمون بالود".

عادة، يخلط الناس بين أن يكون الآخرون لطفاء، وأن يكونوا غير فضوليين، ولكن لماذا أفسد عليها ذكرياتها؟

"هل كان لديك صديق حميم هنا من قبل؟"

"نوعاً ما". ثم سألتني "هل ترغب في معرفة تاريخ علاقاتي الحميمة؟"

"كم من الوقت سيستغرق سرد هذا التاريخ؟"

"أقل من ساعة".

فابتسمت لإجابتها، ثم سألتني هي "هل كان طلاقك صعباً؟"

"على الإطلاق، بل إن الصعوبة كانت تكمن في الزواج".

"ولماذا تزوجتها في المقام الأول؟"

"لأنها طلبت مني أن أتزوجها".

"ألم يكن بوسعك أن ترفض طلبها؟"

"حسناً، كنت أحسب نفسي مغرماً بها، كانت تعمل مساعداً للمدعي العام للمنطقة، وكنا في صف الملائكة الأبرياء. ثم حصلت هي على ذلك العمل الهام كمحامية جنائية، وتغيرت!"

"كلا، هي لم تتغير، بل تغيرت طبيعة عملها. هل يمكنك – أنت - أن تصبح محامي دفاع جنائياً؟ بل هل يمكنك أن تصبح مجرماً؟"

"أنا أفهم مقصدك، ولكن".

"لقد حصدت من المال لدى الدفاع عن المجرمين أكثر بكثير مما حظيت أنت به لدى القبض عليهم".

"ليس للمال دخل في-".

"لم أقل إن ما فعلته هي لكسب العيش كان شيئاً خاطئاً، بل أقول إن... ما اسمها؟"

"روبين".

"لم تكن روبين محقة حتى في أن تصبح مساعداً للمدعي العام".

"وجهة نظر جيدة. هل أستطيع القفز الآن؟ أم لا يزال لديك المزيد لتخبريني به؟"

"بل لديّ، فلتنتظر. ثم حدث أن قابلت بيث بينروز، وهي تسير على نفس دربك في ما يتعلق بالحق والعدالة، وصرتما جبهة ضد زوجتك السابقة. فها أنت تشعر بالارتياح مع شرطية، إذ ربما يقلل هذا من إحساسك بالذنب. فلا شك أن وجودك في بناية الشرطة وأنت زوج لمحامية دفاع جنائية لم يكن بالأمر المريح".

"أعتقد أن هذا يكفي".

"بل لا يكفي، ثم ظهرت أنا؛ غنيمة مثالية، أليس كذلك؟ فيدرالية، ومحامية، ورئيستك".

"فلنكتفِ بهذا. ودعيني أذكرك بأنكِ من... انسي الأمر".

"أنت غاضب، أليس كذلك؟"

"نعم، غاضب جداً". ثم وقفت وقلت "عليّ أن أذهب".

كذلك وقفت كيت، وقالت "لا بأس، فلتذهب، ولكن عليك مواجهة بعض الحقائق يا جون، لا يمكنك الاختفاء وراء شخصية ذلك الرجل القاسي الذي تبدو عليه الحكمة وحسن التصرف طوال الوقت. فذات يوم - ربما عمّا قريب - ستتقاعد، وعندها سيتعين عليك عيش الواقع يا جون كوري؛ من دون سلاح، ومن دون شارة".

"تعنين من دون حماية".

"من دون أشخاص منوط بك اعتقالهم، ولا أشخاص يحتاجون إليك لحمايتهم أو حماية المجتمع؛ أي لن يكون هناك سواك. ستكون بمفردك، وها أنت لا تعرف حتى من تكون".

"ولا أنتِ يا كيت، كل هذا الهراء النفسي الكاليفورني وأنت هنا منذ السابعة والنصف مساءً فحسب. طابت ليلتك".

ثم تركت الشرفة، وتركت غرفتها، وسرعان ما أصبحت في الرواق. وكانت غرفتي هي الغرفة التالية، فدخلتها. ثم خلعت حذائي، ورميت بسترتي فوق

الفراش، وتخلصت من قراب سلاحي، وقميصي، وربطة عنقي، والسترة الواقية من الرصاص، ثم صببت لنفسي كوباً من الشراب من مشرب غرفتي.

كنت منهكاً بحق، وأشعر وكأنني قطعة من النفايات. كنت أعرف ما أرادت كيت أن تفعله، وعلى كل حال لم يكن مقصدها سيئاً، ولكنني لم أكن في حالة تسمح لي بمواجهة الوحش في المرآة. ولو أنني أعطيت الآنسة مايفيلد بضع دقائق أخرى لكنا شرعنا في رسم صورة للحياة الرائعة التي سنحياها لو أننا واجهنا الأمر معاً.

كل النساء يرين أن الحياة المثالية إنما تكمن في زوج مثالي. وهذا خطأ جسيم! ففي البدء، ليس هناك ما يطلق عليه اسم زوج مثالي، وحتى ليس هناك الكثير ممن قد يطلق عليهم اسم زوج جيد. والأمر الثاني هو أنها كانت محقة في ما قالته عني، ولن أصبح إنساناً أفضل بالعيش مع كيت مايفيلد.

قررت أن أغسل ملابسي الداخلية ثم أخلد للفراش، وألا أرى كيت مايفيلد مرة أخرى أبداً فور أن تنتهي هذه القضية.

هنا سمعت طرقاً على باب غرفتي، فنظرت من ثقب الباب، ثم فتحته.

دخلت كيت الغرفة، ووقفنا هناك، ننظر إلى بعضنا البعض.

أعرف أنني أحياناً أكون فظاً في هذه المواقف. وفي الحقيقة، لم أكن أنوي التحرك قيد أنملة، ولا حتى من أجل قبلة، بل ولم أعد أرغب في أي لحظات حميمة معها.

بيد أنها كانت ترتدي ذلك الثوب الأبيض الرقيق الذي يرتديه نزلاء الفنادق، ثم فتحته وتركته يسقط فوق الأرض مظهراً جسدها العاري الرائع.

وبالطبع شعرت بفظاظتي تذوي...

قالت كيت "أعتذر لإزعاجك، لكن صنبور الاستحمام لا يعمل في غرفتي، فهل لي أن أستخدم حمام غرفتك؟"

"على الرحب والسعة".

من ثم دخلت الحمام وفتحت الصنبور.

حسناً، ماذا بوسعي أن أفعل في مثل هذا الموقف المؤثر؟ بالطبع خلعت بنطالي، ثم ملابسي الداخلية، ثم جوربي، وأخيراً لحقت بها تحت المياه. وفقط من أجل العمل، وتحسَّبا في حال طرأت مكالمة من مكتب التحقيقات الفيدرالية في منتصف الليل، تركت كيت غرفتي عند الساعة الواحدة من بعد منتصف الليل.

لم أنم جيَّدا في تلك الليلة، فاستيقظت عند الساعة الخامسة والربع، بينما كانت ساعتي تشير إلى الثامنة والنصف. ومرة أخرى دخلت الحمام فوجدت ملابسي الداخلية معلقة على شمّاعة الملابس فوق الحوض، وكانت نظيفة ولم تجف تماماً بعد، وقد طُبعت قبلة بأحمر الشفاه فوق منطقة استراتيجية!

عمدت إلى حلاقة ذقني، واستحممت مرة أخرى، ثم نظفت أسناني، وأخيراً خرجت إلى الشرفة عارياً لأستنشق الهواء وألقي نظرة على المحيط المظلم. كان

القمر في موضعه والنجمات تتلألأ من حوله، وشعرت أنه ليس هناك أجمل من هذا المنظر فأطلت وقفتي تلك لأستمتع بذلك الجمال.

هنا سمعت البابِ الزجاجي للشرفة عند الجانب الآخر من الحاجز الخراساني ينفتح، فصحت قائلاً "صباح الخير".

وأتتني إجابتها قائلة "أسعدت صباحاً".

كان ذلك الحاجز يفصل بين الشرفتين، ولم يكن بوسعي النظر من خلاله، فسألتها "هل أنتِ عارية؟"

"نعم، وأنت؟"

"بالطبع، فكم هو رائع هذا الشعور!"

"قابلني إذاً لتناول الفطور بعد نصف ساعة".

"اتفقنا، وبالمناسبة أشكرك على تنظيف ملابسي الداخلية".

"لا تعتَدْ على هذا".

كنا نتحدث بصوت يكاد يكون مرتفعاً حتى شعرت أن النزلاء الآخرين يسمعوننا بالفعل. وأظن أن الفكرة ذاتها قد خطرت لها، فقالت "هلاّ ذكرتني باسمك؟"

"جون".

"نعم، صحيح ودعني أخبرك أنك رائع، يا جون".

"أشكرك، وبالمناسبة أنتِ كذلك".

هكذا كنا عميلين فيدراليين ناضجين يقفان عاريين على شرفتين بأحد الفنادق، ويفصل بينهما حاجز، تماماً كما يفعل العشّاق.

ثم صاحت كيت "هل أنت متزوج يا جون؟"

"كلا، وماذا عنكِ؟"

"كلا".

إذاً؟ ماذا عساها تكون جملتي التالية؟ وبذهني كانت تدور جملتان في آن واحد: إما أنني قد وقعت في فخ محترف، أو أنني أحببت اللعبة. وعندما أدركت أن هذه اللحظة في ذلك المكان والزمان ستكون لحظة خالدة في الذاكرة، أخذت نفساً عميقاً وسألتها "هل تقبلين الزواج مني؟"

ساد المكان صمت طويل.

أخيراً، ارتفع في المكان صوت نسائي، بيد أنه لم يكن صوت كيت، وكان يقول "هيا، أجيبيه!"

فصاحت كيت "حسناً، سأتزوجك".

من مكان ما تعالت صيحات شخصين. شعرت أنني مخدّر، وكنت مرتبكاً بحق، ولقد طغى هذان الشعوران على إحساسي بالفزع، ماذا فعلت؟

هنا سمعتها تغلق باب شرفتها، ومن ثم كان الأوان قد فات لسحب عرضي ذلك.

دخلت غرفتي، وارتديت سترتي المضادة للرصاص وبقية ملابسي، ثم نزلت إلى الردهة ومنها إلى قاعة الطعام، حيث طلبت لنفسي قهوة ساخنة، والتقطت نسخة من جريدة نيويورك تايمز، حيث الأخبار الساخنة.

كانت الأخبار لا تزال منشغلة في تغطية مأساة الرحلة 175، إلا أن الخبر بدا لي وكأنه إعادة لذكر الأحداث مع إضافة القليل على لسان المسؤولين الفيدراليين، أو المحليين، أو المسؤولين من الولاية.

ثم كانت فقرة صغيرة عن مقتل السيد ليبويتز في فرانكفورت، تبعه نعي المتوفى. وذكر الخبر أن الرجل كان يعيش في مانهاتن، ولديه زوجه وولدان. مرة أخرى صدمتني عشوائية تلك الحياة؛ ذلك الرجل كان في رحلة عمل في فرانكفورت، وقد لقي حتفه فقط لأن بعض الأشخاص أرادوا جذب الانتباه إلى كذبة تقول بأن هناك رجلاً ما كان في أميركا في مهمة سرية ولقد عاد إلى أوروبا. اللعنة! هذا كل ما في الأمر، بغضّ النظر عن الضحية، وزوجته، وولديه، وأي شيء آخر. إنهم سفلة من دون شك!

مرة أخرى جرى ذكر حادثة القتل الثنائية لكل من ماكوي وسادزرويت في متحف المهد الملاحي، حيث جاء على لسان محقق جنائي من ناسو "نحن لا نستطيع استثناء احتمال بأنّ الدافع وراء جريمتي القتل قد لا يكون السرقة". وبالرغم من الحذر البالغ في نص الخبر، إلا أنني لاحظت العناء الذي يتكبده الصغير آلان باركر في التصريح بهذه الأخبار، ولم يزل أمامه الكثير من هذا اليوم، وغداً، وطوال عطلة نهاية الأسبوع.

على ذكر الحذر البالغ في كتابة النصوص، تحولت إلى مقال جانيت ماسلين الناقدة السينمائية، وربما يأتي يوم أهتم فيه بحل الكلمات المتقاطعة في جريدة التايمز، وقد أهتم في أيام أخرى بفهم ما تقوله السيدة ماسلين، فالقيام بالأمرين معاً سيصيبني قطعاً بالصداع وألم في الرأس.

كانت السيدة ماسلين تتحدث عن فيلم يحطم أرقام شباك التذاكر؛ مغامرة عن إرهابي من الشرق الأوسط وما إلى ذلك من هذه الأشياء، وأظنها لم تكن تجده جيداً، بيد أنه يصعب على القارئ بالفعل فهم طريقتها في الكتابة أو حجتها. وبالطبع ترى السيدة ماسلين الفيلم وضيعاً ولا يرقى إلى مستواها، ومن ثم يجب على شخص آخر من جريدة التايمز أن يذهب لمشاهدة الفيلم ليخبر كل من شاهدوه وأحبوه عن أسباب فشله. وقد نويت أن أذهب بالفعل لمشاهدة ذلك الفيلم في وقت لاحق.

أخيراً، وصلت كيت ووقفت لتحيتها ثم جلسنا ننظر إلى قوائم الطعام، وفكرت أنها ربما نسيت موقف الشرفة السخيف ذلك، إلا أنها وضعت قائمة الطعام التي كانت تحملها وسألتني "متى؟"

"ماذا عن يونيو؟"

"حسناً، لا بأس".

ثم أتتنا النادلة، وطلبنا الفطائر المحلاة.

كنت بالفعل أود كثيراً قراءة التايمز، ولكنّ شيئاً ما بداخلي كان يعرف أن عهد قراءة الجريدة مع تناول الفطور قد انقضى.

ثم تحدثنا على نحو مختصر عن خططنا لليوم، والقضية، والأشخاص الذين قابلناهم في منزل تشب ويجينز، وهؤلاء الذين ستقدمني إليهم كيت في لوس أنجلوس في وقت لاحق.

ثم أتتنا الفطائر المحلاة، وبعد أن أكلناها قالت كيت "ستحب والدي كثيراً".

"ليس لدي شك في هذا".

"إنه في مثل عمرك، ربما أكبر قليلاً".

"حسناً، هذا جيد". وتذكرت مقولة سمعتها في أحد الأفلام، فقلت "لقد ربّى ابنة جديرة بأن يفخر بها".

"لقد فعل بالفعل، مع أختي".

وضحكت لدعابتها.

ثم قالت "وستحب أمي كذلك".

"هل تشبهينها؟"

"كلا، فهي لطيفة".

فضحكت ثانية.

قالت "هل لديك مشكلة لو تزوجنا في مينيسوتا؟ فلديّ عائلة كبيرة هناك".

"عظيم، مينيسوتا، أهي مدينة أم ولاية؟"

"افترض أنني نهضت الآن وتركت المكان؟ كيف ستشعر؟ هل ستشعر بالارتياح مثلاً؟"

"كلا بالطبع، بل سيكون شعوري سيئاً للغاية".

"لماذا إذاً تقاوم إحساسك؟"

"هل سنمضي في ذلك التحليل النفسي ثانية؟"

"كلا، ولكنني أردت فقط أن أساعدك كي ترى الأشياء على حقيقتها. أنا مجنونة بحبك يا جون، وأريد أن أتزوجك، وأن أنجب أطفالاً منك. ماذا تريدني أن أقول أكثر من هذا؟"

"قولي أحب نيويورك في شهر يونيو".

"أنا أكره نيويورك لكنني سأعيش في أي مكان لأجلك أنت".

"نيوجيرسي مثلاً؟"

"لا داعي للمبالغة".

ولمّا كان ذلك وقت الإفصاح الكامل، قلت لها "اسمعي يا كيت، يجب أن تعرفي أنني أكره الزواج، وألقي نكات قذرة".

"أتعني أن-؟"

ورأيت أنني لا أصيب أي أهداف باتباع منهج التفكير هذا، فقلت "كما أنني أتبنى موقفاً سيئاً تجاه السلطة، وأعاني دائماً من مشكلات في عملي. كما أنني مفلس تماماً، ولا أجيد إدارة المال".

"ولهذا السبب تحتاج إلى محام جيد ومحاسب جيد، أي تحتاجني أنا".

"ألا يمكن أن أستخدم خدماتك فحسب؟"

"كلا، عليك أن تتزوجني. فأنا أقدم خدمات شاملة فقط، كما أنه بوسعي إنقاذك من العجز الجنسي".

لا جدوى إذاً من النقاش مع محترفة.

هكذا انتهى الفاصل الهزلي اللطيف، فنظرنا إلى بعضنا البعض عبر المائدة، وأخيراً قلت لكيت "كيف تعرفين أنني الشخص المناسب لكِ؟"

"كيف يمكنني أن أشرح هذا؟ حسناً، أشعر بنبضات قلبي تتسارع ما إن أشعر بك في الغرفة، وأحب مرآك، وصوتك، ورائحتك، ولمساتك. كما أنك رفيق رائع".

"أشكركِ كثيراً، وأنتِ كذلك. حسناً، لن أذكر شيئاً عن أعمالنا، وضرورة نقلك، وعن العيش في نيويورك، وراتب التقاعد البسيط خاصتي، وفرق العشر سنوات بيننا".

"بل أربعة عشر عاماً".

"صحيح، لن أجادل في هذا. وإذا أفسدت الأمر سأعيش تعيساً بقية عمري".

"هذا صحيح، فزواجك مني هو أفضل ما يمكنك فعله في حياتك. ثق بي، فأنا أعرف ما أقوله. لا تضحك، انظر إليّ يا جون، انظر إلى عينيّ".

فعلت، وشعرت بخوفي يختفي على نحو مفاجئ، ويحل محله ذلك الشعور بالسلام، والهدوء النفسي يغزوني، تماماً مثلما شعرت حينما كنت أنزف حتى الموت في شارع 102 الغربي. يبدو أنه ما إن تتوقف عن القتال – قتال الموت أو الزواج – وتستسلم، حتى تبصر ذلك الشعاع البرّاق، وتسمع غناء جوقة الملائكة يحملك إلى أعلى.

كلا، في الحقيقة كان ذلك الصوت يقول: انتهى وقت القتال، وانتهت معاناتك. إليك حياة جديدة على وشك البدء، فآمل أن تكون أفضل قليلاً من حياتك السابقة.

أخذت يد كيت بين يديّ، وتلاقت أعيننا، فهمست لها أحبك وكنت أحبها بالفعل.

الفصل الخمسون

اصطحبنا تشانك عند الساعة السابعة والنصف صباحاً من أمام فندق فينتشورا إن، وأخبرنا أنه "ما من جديد".

بيد أن هذا لم يكن صحيحاً تماماً، فلقد أقدمت على خطبة، وأصبحت قيد الزواج.

بينما كانت السيارة تقطع طريقها نحو مكتب فينتشورا الفيدرالي، سألنا تشانك "هل كان الفندق جيداً؟"

أجابته كيت "بل كان رائعاً".

ثم سأل تشانك مرة أخرى "وهل قمتم بتسجيل المغادرة؟"

مرة أخرى أجابته كيت "فعلنا، وسنقضي الأيام القليلة التالية في لوس أنجلوس، ما لم يكن لديك أخبار مختلفة".

"حسناً، سمعت أن الرؤساء في واشنطن يطلبونكما لحضور مؤتمر صحفي كبير عصر الغد، ولذا يجدر بكما التواجد في واشنطن العاصمة صباح الغد على أبعد تقدير".

فسألته "أي نوع من أنواع المؤتمرات الصحفية؟"

"أكبرها، ذلك الذي يقولون فيه كل الأشياء. سيعلنون عن كافة تفاصيل حادثة الرحلة 175، وعن أسد خليل، والقصف الجوي عام 1986، وعن قتل خليل للطيارين الذين قاموا بالغارة، ثم عمّا حدث بالأمس مع ويجينز. أي إعلان كامل. ثم سيطلبون تعاون الجماهير، وما إلى ذلك".

فتساءلت في صوت مرتفع "ولماذا يحتاجوننا في هذا المؤتمر؟"

"أعتقد أنهم بحاجة إلى بطلين؛ رجل وفتاة، الأفضل والأذكى على الإطلاق". ثم أضاف "بل وأحدكما يتميز بوجه جميل يلائم الكاميرات". ثم شرع يضحك.

راودني إحساس أن هذا اليوم قد بدأ بداية سيئة، على الرغم من أن درجة الحرارة اثنان وسبعين، والشمس مشرقة مرة أخرى.

سأل تشانك "هل تحتاجان إلى التوقف لشراء أي أغراض؟ ملابس داخلية مثلاً؟"

"كلا، تابع القيادة".

مضت بضع دقائق ثم أنزلنا تشانك في مرآب مكتب فينتشورا الفيدرالي، ثم قال معلناً "انتهت الرحلة".

ثم شرعنا نتجه صوب البناية، وكنا نرتدي ستراتنا الواقية. وبينما كنّا نسير قلت لكيت "كم يزعجني هذا الأمر! أنا لست بحاجة إلى أن أوضع في نافذة عرض متجر العلاقات العامة".

"اسمه مؤتمر صحفي".

"نعم، ولكن لديّ عمل لأقوم به".

"ربما يمكننا استغلال فرصة المؤتمر الصحفي لإعلان خطبتنا".

يبدو أن الجميع هنا قد أصبحوا يمتازون بخفة الدم. ربما كان هذا تأثيري عليهم، بيد أن مزاجي هذا الصباح لم يكن يحتمل المزاح.

هكذا دخلنا إلى البناية، ثم إلى المصعد، وبعد ذلك قرعنا الباب. ومرة أخرى أدخلتنا سيندي لوبيز قائلة "إن جاك كوينج ينتظر مكالمة منكما".

كم تمنيت ألا أسمع هذه العبارة مرة ثانية أبداً، وقلت لكيت "فلتتصلي به".

إلا أن سيندي قالت مؤكدة "لكنه يرغب في الحديث معك أنت. هناك غرفة مكتب خالية هناك".

أعدنا – أنا وكيت – سترتينا الواقيتين، ثم دخلنا إلى المكتب حيث طلبت رقم جاك كوينج. كانت الساعة الثامنة صباحاً فحسب بتوقيت لوس أنجلوس، وكنت متأكداً أنها الحادية عشرة صباحاً في نيويورك.

أوصلتني سكرتيرة جاك به، فوجدته يقول "صباح الخير".

لم تخفْ عليّ نبرة اللطف في صوته، ولقد كان هذا مرعباً، فأجبته "صباح الخير". ثم ضغطت على مكبر الصوت في جهاز الهاتف حتى تستطيع كيت الاستماع لما يقوله والتحدث إليه، وقلت لجاك "إن كيت معي هنا".

"مرحباً كيت".

"أهلاً جاك".

"أولاً، أودّ أن أهنئكما على ما قمتما به من عمل رائع؛ تحفة من تحف التحريّ السري. وممّا سمعته يا جون، لقد أقمت تقنية استجواب فعالة مع السيد عظيم رحمن".

"لقد ركلته أسفل معدته، وحاولت خنقه... تقنية قديمة جداً!"

ساد صمت وجيز أعقبه جاك بقوله "حسناً، لقد تحدثت إلى الرجل بنفسي، وبدا سعيداً إزاء فرصة أن يكون شاهداً لدى الحكومة".

تثاءبت.

تابع جاك "وتحدثت كذلك إلى تشب ويجينز، وحصلت منه على معلومات مباشرة حول مهمة القصف التي شارك فيها. يا لها من مهمة! إلا أن ويجينز أشار إلى أن واحدة من القنابل التي ألقاها قد أخطأت هدفها، ولن أندهش في حال تبين أن تلك هي القنبلة التي سقطت فوق منزل خليل. الأمر يدعو إلى السخرية، أليس كذلك؟"

"أعتقد هذا".

"اسمع يا جاك، أنا لا أهتم على الإطلاق بما حدث في ذلك المكان في العام 1986، ولا أهتم على الإطلاق لأنّ عائلة خليل قد قُتلت عن طريق الخطأ أو على نحو متعمد. فكل ما يعنيني هو أن لديّ مجرماً يتعين عليّ الإمساك به، وهذا المجرم موجود هنا الآن، وليس في واشنطن".

"نحن لا نعرف يقيناً أين يوجد المشتبه به الآن يا جون، قد يكون في بلده الآن، أو ربما قد عاد إلى الساحل الشرقي، أو حتى واشنطن. من يدري؟ ولكن ما أعرفه يقيناً هو أن مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية، ومدير قسم مكافحة الإرهاب، ناهيك عن المدير التنفيذي لشؤون الأمة، جميعهم يريدونك في واشنطن غداً. أي أنه ليس بوسعك مجرد التفكير في عدم الظهور".

"حسناً يا سيدي".

"جيد، واعلم أنك تضع رقبتي على المحك إن لم تظهر".

"حسناً، فهمت".

ثم ترك جاك ذلك الموضوع، وشرع يتحدث إلى كيت "كيف حالك يا كيت؟"

فخاطبته كيت عبر مكبر الصوت قائلة "أنا بخير، وكيف حال جورج؟"

"جورج بخير. إنه لا يزال في نادي الفاتحين، لكنه سيعود إلى فيدرال بلازا غداً". ثم أضاف "جون، إن الكابتن ستين يرسل إليك تحياته وتهنئته للعمل الجيد الذي قمت به".

"أي عمل جيد يا جاك، والمجرم لا يزال طليقاً؟"

"لكن لا تنسَ أنك نجحت بالفعل في إنقاذ بعض الأرواح، والكابتن ستين فخور بك، بل جميعنا نشعر بالفخر!"

استمرت الثرثرة والهراء على هذا النحو لفترة، فمن الأهمية بمكان أن تقيم تلك العلاقات شبه الشخصية في أعمال تطبيق القانون. فالجميع يعتنون ببعضهم البعض على نحو شخصي. أظن هذا هو ما يطلق عليه اسم *إدارة جيدة*، بل ويتسق مع أميركا الجديدة رقيقة الإحساس. وتساءلت ما إذا كان الأمر كذلك في وكالة الاستخبارات المركزية، مما ذكرني بأمر آخر، فسألت جاك "وأين تيد ناش؟"

"لست أدري، لقد تركته في فرانكفورت، وكان في طريقه إلى باريس".

خطر لي – ليس للمرة الأولى – أن مكتب التحقيقات الفيدرالية، الذي يُعنى بمثيري الشغب المحليين، لم ينجح في التفوق على وكالة الاستخبارات المركزية

التي يعتمد عليها المرء كثيراَ. ما أعنيه هو أن رجلاً مثل ناش أو زملائه بوسعه الآن قضاء عطلة في موسكو من دون أن يتعرّض لخطر أكبر من الطعام السيئ. إلا أن منظمة كهذه تحتاج إلى تبني غرض واحد، والافتقار إلى هذا الغرض في هذه الأيام قد دفع بهم إلى التسبب بالأذى. فالأيدي العاطلة يلهو بها الشيطان كما كانت تخبرني جدتي البروتستانتية.

على أي حال، كان جاك وكيت قد شرعا يتبادلان المجاملات والكلام اللطيف، فيما وجّه إليها جاك أسئلة هامة حول كيف تمضي الأشياء بيني وبينها، وما إلى ذلك.

ثم نظرت كيت إليّ نظرة متسائلة عمّا إذا كان بوسعها أن تطلعه على الأخبار الجديدة السعيدة. وماذا بوسعي أن أفعل؟ بالطبع أومأت إليها موافقاً.

على الفور قالت كيت لجاك "لديّ أنا وجون أخبار سارة لك، لقد خطبني جون".

خِلت أنني سمعت الهاتف يسقط فوق الأرض عند الطرف الآخر، وساد صمت أظنه استمر لثانيتين أكثر مما يجب. فالأنباء الجيدة بالنسبة لجاك هي أن تقاضيني كيت بدعوى التحرش، لا أن توافق على الزواج مني. بيد أن جاك كان شخصاً بارعاً في إخفاء مشاعره، فقال "حسناً، إنها أخبار سارة بحق. تهنئتي، وتهنئتي لك أيضاً يا جون. إنه شيء مفاجئ".

كنت أعرف أنه يتعين عليّ قول شيء ما في هذا الموقف، فتبنيت أقصى ما لديّ من صوت رجولي، وقلت "لقد آن أوان الاستقرار. انقضت أيام عزوبيتي. نعم يا سيدي، عثرت أخيراً على فتاتي، على المرأة التي كنت أبحث عنها. لم أكن أبداً أسعد حالاً من الآن".

وما إلى ذلك...

ثم انتهى ذلك الحديث التقليدي في مثل هذه المناسبات، وراح جاك يطلعنا على القضية بالغة الأهمية التي نعمل عليها، فقال "لدينا هنا أناس يتحققون من الملاحة الفيدرالية بشأن الرحلات الجوية الخاصة، حيث نركّز على رحلات الطائرات النفاثة. في الحقيقة، لقد وقفنا على خطة الرحلة والطيارين اللذين حلّقا بخليل عبر البلاد، ثم قابلناهما، وعرفنا أنهما حلّقا به من إيسليب في لونغ أيلاند في موعد نظنه يعقب مباشرة مقتل ماكوي وسادزرويت في المتحف. ثم توقفوا في كولورادو سبرينغز، حيث نزل خليل من الطائرة، بيد أننا نعلم أنه لم يقتل العقيد كالوم".

تابع جاك حديثه عن رحلة خليل إلى سانتا مونيكا، فقال إن الطيارين اندهشا لدى معرفة هوية ذلك المسافر الذي طارا به. ولقد كان هذا أمراً مثيراً ولكن ليس بذي أهمية سوى أنه أوضح كيف أن خليلاً داهية، ووراءه من يموّله بسخاء، ناهيك عن أنه يجيد التنكر. فقلت لجاك "وهل تحاول الآن معرفة ما إذا كان خليل قد استأجر رحلة طيران خاصة أخرى؟"

"نعم، ولكن هناك المئات من رحلات الطيران الخاصة المجدولة لكل يوم. نحن نولي اهتمامنا للرحلات غير التابعة للشركات الرسمية ورحلات الشركات الأجنبية، والرحلات التي يتم سداد أثمانها بطرائق يشوبها غموض، أو عملاء غير

مألوفين، والعملاء الذين يبدو عليهم أنهم أجانب. إنه أمر طويل مرير، ولكن لا مفر من خوضه".

"هذا صحيح. وبرأيك، كيف سيغادر هذا السافل البلاد؟"

"سؤال جيد. نحن نحظى بأمن كندي مكثف ومتعاون، ولكن لا يمكنني قول الشيء ذاته بشأن جيراننا المكسيكيين".

"لست أتوقع هذا مع وجود خمسين ألف مسافر غير شرعي يعبرون الحدود كل شهر، ناهيك عن أطنان المكسيكيين الذين يتاجرون بالمخدرات عبر الحدود. هل أخطرت إدارة مكافحة المخدرات، والجمارك، والهجرة؟"

"بالطبع، ولقد أفردوا للقضية المزيد من الموظفين، وكذلك فعلنا نحن. سيكون هذا شهراً شاقاً بالنسبة لتجار المخدرات والمتسللين غير الشرعيين. ولقد أخطرنا خفر السواحل، فالأمر لا يحتاج سوى إلى مركب صغير للانتقال من جنوب كاليفورنيا إلى شواطئ المكسيك. لقد قمنا بكل ما يمكننا القيام به بالتعاون مع العديد من الوكالات المحلية والفيدرالية – بالإضافة إلى حلفائنا المكسيكيين – لاعتراض طريق المشتبه به في حال فكّر في الهرب عبر الحدود الأميركية المكسيكية".

"هل يتم تصويرك على التلفاز الآن؟"

"كلا، لم تسأل؟"

"لأنك تبدو وكأنك تقف أمام الكاميرات".

"هذه هي طريقتي في الحديث، ويجب أن تكون طريقتك عصر غد. اختصر قدر ما تستطيع".

في الحقيقة، لقد ابتسمت لهذا...

هكذا مكثنا لبرهة نناقش موضوع انطلاقنا في إثر الرجل، وأخيراً قال جاك "جون، نحن نعتني بالأمر كما يجب، ولم يعد لك شأن به".

"أختلف معك، اسمع يا جاك، أنا أرغب في العودة إلى هنا غداً فور انتهاء المؤتمر الصحفي".

"إنه طلب معقول، ولكن دعنا نرى أولاً ماذا ستفعل في مؤتمر الغد".

"ليست ثمة علاقة بين الأمرين يا جاك".

"بلى، هناك علاقة الآن".

"حسناً، فهمتك".

"جيد. أخبرني عن حديثك الهاتفي مع أسد خليل".

"من الواضح أنه ليس هناك الكثير من الأشياء المشتركة بيننا. ولكن، ألم يطلعك أحدهم على ما حدث؟"

"بلى، ولكنني أريد معرفة إحساسك أنت عن حالة خليل النفسية والعقلية، وأيهما الاحتمال الأرجح؛ هل سيظل أم سيعود إلى دياره؟ وما إلى ذلك من أمور".

"حسناً، كان لديّ إحساس بأنني أتحدث إلى رجل يعرف تماماً كيف يسيطر على نفسه وعلى انفعالاته. والأسوأ هو أنه كان يتحدث من منطلق أنه لا يزال سيد الموقف بالرغم من حقيقة أننا أفسدنا له خطته. أعني أننا أحبطنا له خطته".

التزم جاك الصمت لبرهة، ثم قال "أكمل حديثك".

"حسناً، لو أن في الأمر رهاناً، فسأراهن على أن خليلاً كان يخطط للبقاء".

"لماذا؟"

"لا أعرف، مجرد حدس. بالمناسبة - وعلى ذكر الرهان - أنا أريد العشرة دولارات الخاصة بناش، والعشرين دولاراً الخاصة بصديقه إدوارد".

"لكنك قلت إن خليلاً كان في منطقة نيويورك".

"ولقد كان بالفعل، ثم غادرها، وعاد إلى لونغ أيلاند. الفكرة هنا هو أنه لم يعد إلى بلاده". قلت هذا ونظرت إلى كيت سعياً وراء مساندتها. كان هذا أمر بالغ الأهمية.

فقالت كيت "جون على حق، لقد كسب الرهان".

فأجاب جاك "لا بأس. سأقبل رأي كيت النزيه". ثم ضحك قبل أن يردف في جدية "لديك إذا يا جون إحساس الآن أن أسد خليل لا يزال حيث أنت؟"

"نعم".

"ولكن هل هذا مجرد إحساس، أم لديك ما تستند إليه؟"

"لو أنك تعني أنني أخفي عنك أمراً، فهذا غير صحيح. حتى أنا أعرف متى يجب عليّ الإفصاح عن كل ما لديّ. ولكن، كيف يمكن أن أقول هذا؟ حسناً، لقد ذكر خليل شيئاً عن أنه كان يشعر بوجودي قبل أن... هذا سخف! حماقات صحراء! ولكن، الآن لديّ شعور بوجود الرجل، أتفهم ما أعني؟"

ساد صمت طويل، وأظن أن جاك كوينج كان يبحث عن رقم هاتف مركز العلاج النفسي الخاص بهيئات تطبيق القانون. وأخيراً تعطف وقال "حسناً، على الأقل تعلمت ألا أراهن بالأموال ضدك".

فكرت أنه سيقترح عليّ أن أخلد للنوم لبعض الوقت، إلا أنه عمد إلى مخاطبة كيت بدلاً من ذلك، وقال "هل ستذهبان إلى مكتب لوس أنجلوس؟"

أجابته كيت "نعم، أظن أنها ستكون فكرة جيدة أن نلقي عليهم التحية، وأن نقيم علاقة عمل معهم، ونرى ما إذا كان هناك ما يمكننا فعله لمساعدتهم لدى عودتنا".

"لديكِ أصدقاء هناك إذاً. حسناً، أتفهم الأمر الآن".

"هذا صحيح".

ربما طرأت هنالك بعض النصوص الثانوية بشأن تاريخ كيت في العلاقات الحميمة بساعاتها الطويلة، إلا أنني لم أشعر بغيرة حقيقية، ولا أظن أنني سأعبأ بالأمر بعد ذلك أبداً. لقد التقطت الطعم وانقضى الأمر؛ لقد رفعت هي السمكة الكبيرة، وها هي الآن تنتفض فوق سطح القارب سعياً وراء الهواء، وأظن هذا تشبيهاً أقرب ما يكون إلى الحقيقة. فكيت لم تعد بحاجة إلى استخدام رفاقها السابقين – مثل تيدي – للإيقاع بجون ودفعه إلى طرح سؤال الشرفة الشهير السالف الذكر.

استمر كل من جاك وكيت في ثرثرتهما حول أناس يعرفانهما في لوس أنجلوس، ثم قال جاك "حسناً، فلتحجزا مكانين لكما على أي رحلة إلى دوليز، ولكن قبل منتصف الليل".

أكدت له كيت أننا سنكون هناك قبل منتصف الليل على أبعد تقدير.

كان جاك على وشك الانسحاب من الحوار، بيد أن تلك كانت اللحظة المناسبة لدخول كولومبو، فقلت "أوه، لا يزال هناك أمر ما".

"ما هو؟"

"السلاح".

"أي سلاح؟"

"السلاح الذي عثرنا عليه في علبة الطرد الطويلة".

"أوه، نعم. لقد سألت بالفعل السيد رحمن عن هذا الطرد، وكذلك سأله الجميع في لوس أنجلوس وواشنطن".

"ثم؟"

"إن رحمن وأسرته يخضعون الآن للحبس الوقائي".

"جيد، فهذا مكانهم الطبيعي على كل حال. ثم؟"

"حسناً، لقد طلب العملاء في لوس أنجلوس من رحمن أن يصف لهم ذلك الطرد. ولقد صنعوا صندوقاً وفقاً للمواصفات التي قالها رحمن، بحيث يكون مماثلاً لذلك الذي أعطاه لخليل؛ ربما بوصة واحدة أقل أو أكثر".

"ثم؟"

"ثم عمدوا إلى وضع أثقال معدنية في ذلك الصندوق حتى شعر رحمن أنه بلغ نفس الوزن، وفقاً لذاكرة العضلات بالطبع. هل لديك علم بـ".

"نعم لديّ، ثم؟"

"حسناً، كانت تلك تجربة مثيرة بحق، بيد أنها لا تثبت شيئاً. فأسلحة ذخائر النايلون والبلاستيك خفيفة الوزن، والأمر يختلف مع الأسلحة الأقدم ذات الوزن الثقيل. وبنادق القنص تتميز بطولها، بينما أسلحة الانقضاض أقصر طولاً. أي أنه ما من طريقة قطعية للتأكد من نوع السلاح الذي كان في ذلك الطرد".

"بوسعي أن أفهم هذا. ولكن هل كان ذلك السلاح طويلاً وثقيلاً؟"

“لو أن ذلك الطرد كان يضم سلاحاً بالفعل، فإن هذا يعني أنه سلاح طويل وثقيل”.

“كأن يكون بندقية قنص مزودة بمنظار”.

“هذا صحيح”.

“أي أنه وفقاً لأسوأ الافتراضات، فإن هذا السلاح عبارة عن بندقية قنص دقيقة مزودة بمنظار. ترى ماذا سيفعل خليل بسلاح كهذا؟”

“لديّ إحساس بأن ذلك كان سلاحاً احتياطياً في حال كان ويجينز خارج المنزل. أي أن خليلاً كان مستعداً لقنص ويجينز في مخيمه ذلك في الغابات لو اضطر”.

“أتظن ذلك حقاً؟”

“إنها مجرد نظرية ألديك نظرية مخالفة؟”

“ليس في الوقت الراهن، بيد أنني أتصور ويجينز وصديقته في معسكرهما في الغابات، وأتساءل لماذا لم يعمد خليل إلى الذهاب إليهما، ومشاركتهما قدح القهوة حول النيران، ثم يخبرهما ببساطة أنه هناك كي يقتل تشب، ويخبره عن السبب قبل أن يصوب المسدس من عيار أربعين إلى رأسه. أتفهم ما أعني؟”

ترك جاك بضع ثوان تمضي، ثم قال “ولكن ويجينز - كما اتضح في ما بعد– كان يعسكر مع نحو دزينة من الأصدقاء، ومن ثم ربما حدث أن خليلاً-“.

“لا يُشكل هذا فارقاً يا جاك. كان خليل ليفعل أي شيء حتى ينظر إلى تشب ويجينز في عينيه قبل أن يقضي عليه”.

“ربما، حسناً. النظرية الأخرى التي ربما تبدو مقبولة على نحو أفضل هي أنه في حال افترضنا أن ذلك الطرد كان يحوي سلاحاً، فإن الغرض منه هو مساعدة خليل على الهرب؛ على سبيل المثال لقنص أحد رجال دورية الحدود المكسيكية، أو إذا ما تعرض للمطاردة من قِبل أحد قوارب خفر السواحل، أو شيء من هذا القبيل. فخليل بحاجة إلى سلاح بعيد المدى لأي موقف قد يطرأ أثناء هروبه من الولايات المتحدة”. ثم أضاف جاك “إنه يحتاج إلى حليف على كل حال – مثل رحمن – فلماذا لا يطلب من رحمن توصيل السلاح مع تلك الأشياء التي يقوم بتوصيلها؟ وليس هناك أسهل من شراء السلاح”.

“لكن ليس هناك أصعب من إخفائه”.

“يمكن فكّها إذاً. أعني أننا لا نستثني احتمال أن يكون لدى أسد خليل بندقية قنص وأنه ينوي قتل شخص ما؛ شخص ما يصعب عليه النيل منه عن قرب. إلا أن هذا لا يتسق ومفردات مهمته المستحيلة التي أعرب لك عنها. لقد قلت هذا بنفسك؛ الأمر شخصي ولا بد أن يتم عن قرب”.

“هذا صحيح. في الحقيقة، إنني كنت أفكر أنه ربما كان هذا الطرد يحوي قطعة أثاث تجميعي من تلك التي تُستخدم خارج المنازل. هل سبق أن رأيت كيف يهرع الناس إلى شراء تلك الأشياء التافهة من المتاجر؟ تجد قطعة أثاث مكونة من عشرة

أجزاء مجموعة كلها في صندوق لا يزيد عن حجم صندوق القميص القطني، بينما هو يحتوي في الواقع على ستة مقاعد ومظلة، وطاولتين من صنع تايوان. فما عليك إلا أن تضع الشق (أ) في الشق (ب). على أي حال، أراك غداً في واشنطن".

"اتفقنا. سنقوم نحن بترتيبات السفر من هنا، وسأرسل لكما تفاصيل الرحلة إلى فاكس مكتب لوس أنجلوس. سيبدأ المؤتمر الصحفي في تمام الخامسة مساءً في بناية جي إدغار، وأعرف يا جون أنك قد استمتعت بزيارتك الأخيرة إلى هناك. ومرة أخرى يا جون تقبل تهنئتي لكما للعمل الرائع الذي قمتما به، ولخطبتكما. هل حددتما موعداً للزواج أم ليس بعد؟"

فأجابت جون "لقد اتفقنا على يونيو القادم".

"جيد، كلما قصرت فترة الخطوبة، كلما كان ذلك أفضل. أتمنى أن تتذكرا أن تدعواني".

فقالت كيت مؤكدة "أنت مدعو لا مراء يا جاك".

هنا ضغطت زر إنهاء المكالمة.

جلست وكيت لدقيقة بصمت، ثم قالت لي "يساوني قلق بشأن موضوع السلاح ذلك".

"وحريّ بكِ القلق".

"أعني أنا لست من النوع الذي يتوتر سريعاً، ولكن هل يمكن أن يكون قد أعدّ ذلك السلاح لنا؟"

"محتمل، هل تفكرين في استعارة السترتين الأنيقتين مرة أخرى؟"

"أي سترتين؟"

"السترتان الواقيتان".

ضحكت كيت وقالت "لديك طريقة مميزة في تسمية الأشياء، وفي الحديث".

على أي حال، عدنا إلى المنطقة العامة بمكتب فينتشورا، وعقدنا اجتماعاً غير رسمي مع ستة أفراد هناك ونحن نقف؛ من بينهم جوان، وإدي، وكيم. ثم احتسينا القهوة وأخبرنا إدي "سوف نستعيد السيد رحمن من لوس أنجلوس في غضون نصف ساعة، ثم سنأخذه لنبحث عن ذلك الوادي الذي اصطحب إليه خليل ليتخلص من تلك الحقيبة".

أومأت له موافقاً على الرغم من أن شيئاً ما في هذا الأمر كان يزعجني. فكرت أنه ربما كان خليل يحاول قتل الوقت في الصباح الباكر حتى تفتح المتاجر أبوابها، أو لأي سبب كان، ولكن ألم يكن بوسعه كذلك أن يطلب من رحمن أن يقلّه إلى نُزُل رخيص؟ فلماذا يقطع مسافة ساعة بالسيارة إلى شمال الطريق الساحلي السريع ويرمي بالحقيبة؟

على أي حال، لم يحدث أن طلبت من سندي السترة الواقية، ولم تفعل كيت ذلك. أعني أن المخطط لذاك اليوم كان أن نذهب إلى لوس أنجلوس، على الرغم من أن الذهاب إلى لوس أنجلوس في حدّ ذاته يكفي ليكون سبباً لارتداء تلك السترة... مزحة نيويوركية!

إلا أن سندي ناولتنا حقيبتي سفر لطيفتين ومزدانتين بشارة مكتب التحقيقات الفيدرالية كتذكار لزيارتنا تلك، أو لعلها كانت طريقة مهذبة لقول "لا نود رؤيتكما هنا مرة أخرى". وربما كان هذا من نسج خيالي.

ثم عمدت وكيت إلى وضع حقيبتي أدوات العناية الشخصية في حقيبتي السفر تينّك، وهكذا أصبحنا متأهبين للذهاب إلى مكتب لوس أنجلوس. واكتشفنا أنه ليس هناك هوليكوبتر في انتظارنا؛ الأمر الذي أحياناً ما يؤخذ كإشارة على أنك بدأت تفقد أهميتك في المكان.

لكن كانت هناك سيارة في انتظارنا، ومن دون سائق. ناولتنا سندي المفاتيح، وأكدت كيت أنها تعرف الطريق. كم هم لطفاء أهل كاليفورنيا.

هكذا تصافحنا جميعاً مودعين بعضنا ونحن نعد بأن نظل على اتصال، بل ودعونا للعودة في أي وقت، فأجبت "سنعود بالقطع بعد غد". نزلت عليهم العبارة كالصاعقة.

تركنا المكان، وعثرنا على سيارة الحكومة الزرقاء من طراز فورد كراون فيكتوريا قابعة في المرآب، وعلى الفور اتخذت كيت مكانها خلف عجلة القيادة، وقد بدت شديدة الحماس بشأن القيادة في كاليفورنيا مرة أخرى، وأخبرتني أننا سنتخذ الطريق الساحلي الجميل حتى سانتا مونيكا، عبر سانتا سانتا، ثم طريق سانتا سانتات، ثم المزيد من السناتيت. في الحقيقة، لم أكن أعبأ بالأمر على الإطلاق. ولكن ما يسعدها يسعدني، أليس كذلك؟

الفصل الحادي والخمسون

قدنا السيارة عبر الطريق الساحلي السريع عبر سانتا أكسفورد، ثم جنوباً نحو مدينة الملائكة. كانت المياه إلى اليمين، والجبال إلى اليسار، والسماء زرقاء، والمياه زرقاء، والسيارة زرقاء، وعينا كيت كانتا زرقاوين. إنه لأمر مثالي!

قالت كيت إن الطريق سيستغرق نحو الساعة للوصول إلى المكتب الميداني التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالية في ويلشاير بوليفارد، بالقرب من جامعة UCLA في هوليوود الغربية، وكذلك بالقرب من بيفرلي هيلز.

ثم سألتها "ولماذا لا يقع المكتب في وسط المدينة؟ أليس لديهم وسط مدينة؟"

"بلى، لكن يبدو أن مكتب التحقيقات الفيدرالية يفضل مناطق دون غيرها".

"مثل المناطق الباهظة، البيضاء، التي لا وسط لها".

"أحياناً يبدو الأمر كذلك، ولهذا السبب لا أحب مانهاتن السفلى، فهي مزدحمة بشكل لا يصدق".

"بل هي حية ومثيرة إلى أقصى درجة. سأخذك إلى فرانسيز تافيرن؛ لعلك تعرف أن واشنطن قد ودّع ضباطه هناك. لقد خرج من الخدمة بعجز رباعي".

"ثم ذهب للعيش في فيرجينيا حيث لم يحتمل الازدحام".

هكذا شرعنا نتحدث عن نيويورك لفترة بينما كيت تقود السيارة، ثم سألتني "هل تشعر بالسعادة؟"

"بل أكثر من هذا بكثير".

"جيد جداً، أظن أنك أقل فزعاً من ذي قبل".

"لقد استسلمت للضوء كما يقولون. والآن أخبريني عن مكتب لوس أنجلوس الفيدرالي، ماذا كنت تعملين هناك؟"

"كانت تلك مهمة شيقة. كان مكتب لوس أنجلوس ثالث أكبر المكاتب الفيدرالية في البلاد، إذ يعمل به نحو ستمئة عميل فيدرالي. تذكر أن لوس أنجلوس هي عاصمة سرقة البنوك، وكنا نتعامل مع نحو ثلاثة آلاف قضية سرقة بنوك في العام الواحد، و-".

"ثلاثة آلاف؟"

"نعم، معظمها يقوم بها مدمنو المخدرات، مجرد عمليات خطف للنقود السائلة، فهناك المئات من الفروع الصغيرة المتفرقة في أنحاء لوس أنجلوس، ناهيك عن كل تلك الطرقات السريعة التي تجعل من فرار اللصوص عملية سهلة. أما في نيويورك فقد يتعين على اللص البقاء مستكيناً داخل سيارة الأجرة لنصف ساعة حتى تتغير إشارة المرور. على أي حال كان ذلك مصدراً للقلق والإزعاج أكثر من

أي شيء آخر. في الحقيقة، إن القليل من الناس يلحق بهم الأذى. أذكر أنني كنت مرة في فرع البنك الذي أتعامل معه عندما تعرض للسرقة".

"وكم كانت حصتك؟"

ضحكت كيت وقالت "لم أحصل على شيء، فيما حصل الجاني على عقوبة بالسجن من عشرة إلى عشرين عاماً".

"أيعني هذا أنكِ نجحتِ في القبض عليه؟"

"نعم فعلت".

"أخبريني بما حدث".

"لم يكن بالحدث الجلل، كان الرجل يقف أمامي في طابور العملاء حين ناول موظفة البنك تلك الورقة، ولما رأيتها تتوتر أدركت ما كان يحدث. ثم عمدت تملأ الحقيبة بالنقود، وعندما استدار الرجل لينصرف وجد نفسه في مواجهة فوهة مسدسي. كانت تلك جريمة سطو غبية؛ غنيمة صغيرة وضربة فيدرالية كبيرة. وفي ما بين الفيدراليين ورجال الشرطة، قمنا بالفعل بحل أكثر من خمسة وسبعين بالمئة من سرقات البنوك".

مضينا لبعض الوقت نتحدث عن العامين اللذين قضتهما كيت في لوس أنجلوس، ثم قالت "كما أن هذا هو المكتب الميداني الوحيد في البلاد الذي يضم ممثلين إعلاميين يعملان لدوام كامل. كنا قد قمنا بحل قضايا بالغة الأهمية كانت بالفعل تحتاج إلى تغطية إعلامية. الكثير منها كان يتعلق بالمشاهير المتعالين. ولقد قابلت بعض نجوم السينما، ولقد اضطررت ذات مرة إلى العيش في منزل أحد النجوم والسفر معه لبضعة أسابيع حيث كان أحدهم يهدد حياته، وقد بدا تهديداً شديد اللهجة. ثم كانت النقابات الآسيوية للجريمة المنظمة، بيد أنني لم أشترك في إطلاق للنيران سوى مع مجموعة من المهربين الكوريين، ولم يكن الأمر سهلاً على الإطلاق. ولكن، لدينا في المكتب رجال من أصل كوري-أمريكي ولقد ساعدونا على اختراق تلك النقابات. هل يصيبك حديثي هذا بالملل؟"

"على الإطلاق، بل أجد حديثك هذا مشوقاً أكثر من إكس فايلز. ومن كان بطل حلقاتك تلك؟"

"هل تشعر بالغيرة؟"

"على الإطلاق". في الحقيقة كنت أشعر بالفعل ببعض الغيرة.

قالت كيت ضاحكة "كان رجلاً كبيراً في السن؛ في الخمسينات من عمره".

لكن لماذا لم يكن هذا مسلياً بالنسبة لي؟ على أي حال، بدا لي أن كيت لم تكن بالسذاجة التي كنت أظنها، بل وتتمتع بخبرة في الجانب المظلم من الحياة الأميركية، وعلى الرغم من أنها لم ترَ ما رأيته أنا في سنوات عملي العشرين في نيويورك إلا أنها رأت أكثر مما رأت النساء العاديات في مثل عمرها. على أي حال، كان لديّ شعور بأن لكل منا تاريخاً حافلاً يمكن للآخر التعلم منه. ولقد كنت

سعيداً لأنها لم تسألني عن تاريخ علاقاتي الحميمة، حيث سيستلزم هذا أن نصل إلى ريو دي جينيرو حتى أنتهي. أنا أمزح بالطبع.

بشكل عام، كانت تلك رحلة لطيفة بالسيارة، وكانت بحق تعرف طريقها، ولم يمضِ وقت طويل حتى وجدنا نفسينا لدى جادة ويلشاير. اندفعت كيت إلى المرآب الضخم للمبنى المكتبي المؤلف من واحد وعشرين طابقاً، وتحيط به الزهور وأشجار النخيل من كافة أرجائه. في الحقيقة، كلما رأيت أشجار النخيل تلك تحيط بأحد الأبنية، ينتابني شعور بأن لا شيء جاد ولا عمل هام يحدث في الجوار.

ثم سألت كيت "هل سبق أن تعاملتي مع أي قضية من قضايا الإرهاب الشرق أوسطي؟"

"ليس على نحوٍ شخصي، فمثل هذه القضايا لا تحدث كثيراً هنا. أعتقد أن لديهم خبيراً متخصصاً في القضايا الشرق أوسطية". ثم أردفت "ولديهم اليوم اثنان آخران".

"نعم، ربما تعنين نفسكِ بهذا الحديث، فأنا لا أعرف شيئاً على الإطلاق عن الإرهاب الشرق أوسطي".

أوقفت كيت السيارة في مساحة خالية في المرآب، وأوقفت محركات السيارة عن العمل وهي تقول "ولكنهم يعتقدون أن لديك الخبرة الكافية، فأنت تعمل في وحدة مكافحة الإرهاب، قسم الشرق الأوسط".

"صحيح، لقد نسيت هذا الأمر".

تركنا السيارة، وسرنا إلى داخل البناية، وأخذنا المصعد إلى الطابق السادس عشر.

كان مكتب التحقيقات الفيدرالية يشغل الطابق بأكمله، بالإضافة إلى بعض الطوابق الأخرى التي يتشاركها مع أجهزة أخرى تابعة لوزارة العدل. وحتى لا أطيل عليك، كان الأمر بمثابة عودة الابنة الضالة؛ فساد المكان العناق والقبلات، ولاحظت السعادة التي بدت على الجميع - نساء ورجال – لدى رؤية كيت في المكان مرة أخرى. كانت تلك علامة طيبة – وفقاً لوجهة نظر زوجتي السابقة – حين شرحت لي فلسفة هذا الأمر ذات مرة؛ ليتني استمعت إليها بحرص أكبر آنذاك.

على أي حال، قمنا بجولة في المكاتب حيث صافحت العديد من الأيدي، وأطلقت الابتسامات بوفرة حتى شعرت بوجهي يؤلمني. وخالجني شعور أنني قيد الاستعراض من قِبل خطيبتي. ها أنا ذا أقولها بالرغم من أن كيت – في واقع الأمر – لم تعلن الخبر.

في مكان ما في تلك المتاهة من الممرات، والمقصورات، وفتحات الحجيرات، والمكاتب كان يقبع عاشق أو اثنان، وربما ثلاثة من عشاق كيت، وحاولت العثور عليهم بيد أنني لم أستطع التقاط أي إشارات. وبالرغم من موهبتي في التعرف على الأشخاص ممن تحدوهم رغبة فيّ، ولكنني أجد صعوبة في التعرف على هؤلاء الذين قضوا أوقاتاً حميمة مع بعضهم البعض. فحتى هذه اللحظة لم أستطع أبداً أن

أتأكد إن كانت زوجتي السابقة قد طارحت رئيسها في العمل الغرام. فهما يسافران معاً في رحلات عمل كثيرة. ولكن، لم يعد للأمر أهمية الآن، ولم يكن كذلك آنذاك.

بالطبع وفقاً لمفردات حظي السعيد كان السيد ستيرجيس – الرجل الذي حادثته على الهاتف في ذلك اليوم، وهو النائب المسؤول عن شيء ما في المكان – متواجداً وأرسل في طلبي، ومن ثم دخلنا مكتبه.

دار السيد ستيرجيس حول مكتبه ومد يده لمصافحتنا، وتناولتها فيما كنا نتبادل التحيات. كان دوج هو اسمه الأول، ولقد طلب منا أن ندعوه كذلك. وبماذا كنت سأدعوه غير ذلك؟ كلود مثلاً؟

على أي حال، كان دوج رجلاً وسيماً في مثل عمري، أسمر البشرة بفعل الشمس، قوي البنية، وأنيقاً في هندامه. ثم نظر إلى كيت وتصافحا وهو يقول "كم تسرني رؤيتك مرة أخرى يا كيت".

فأجابته "وكم تسرني العودة إلى هنا".

ها نحن ذا. هذا هو العاشق الولهان إذاً. وأظن أنه أمكنني تخمين ذلك من الطريقة التي نظرا فيها إلى بعضهما البعض لتلك البرهة الضئيلة.

على أي حال، هناك العديد من مشاهد الجحيم فوق الأرض، إلا أن أشدها قسوة هو الذهاب إلى مكان ما حيث شريك حياتك يعرف الجميع فيما أنت لا تعرف أي شخص على الإطلاق؛ حفلات المكتب، واجتماعات أصدقاء المدرسة، وما إلى ذلك من الأشياء. ولا يسعك بالطبع إلا أن تحاول اكتشاف من منهم قد أقام علاقة حميمة مع شريكة حياتك، حتى وإن كان ذلك بهدف معرفة ما إذا كانت تتمتع بذوق راقٍ، وأنها لم تكن تتدنى للمستويات الدنيا أو لمستوى الأغبياء والحمقى.

على أي حال، دعانا ستيرجيس للجلوس، وفعلنا رغم أنني كنت أود كثيراً لو تركت المكان. وقال لي "إنك تبدو تماماً كالصورة التي رسمتها لهم بينما كنا نتحدث عبر الهاتف".

"وأنت كذلك".

ثم انصرفنا عن هذا الشأن، وتابعنا الحديث عن العمل فيما شرع ستيرجيس يجول في الغرفة قليلاً، ولاحظت ما لدى الرجل من قشرة في الرأس، ويدين صغيرتين، وتذكرت أن الرجال ذوي الأيدي الصغيرة إنما يعانون صغراً في أعضاء أخرى في أجسادهم، وهذه حقيقة.

في الوقت الذي حاول فيه الرجل أن يبدو لطيفاً، لم أحاول أنا على الإطلاق، حتى لاحظ هو أخيراً حالتي المزاجية فتوقف في مكانه، وعلى الفور وقفت وكيت.

قال ستيرجيس "أشكركما مرة أخرى على ما قمتما به من عمل ينم عن خبرة في هذا المجال. ليس بوسعي بالطبع أن أؤكد أننا سنقبض على هذا الرجل، ولكننا على الأقل ننطلق في إثره على المسار الصحيح، ومن ثم فلا مجال لأن يتسبب لنا في المزيد من المتاعب".

"لا أستطيع المراهنة على هذا".

"حسناَ سيد كوري، في رأيي أن الرجل المطارد قد يكون رجلاَ يائساَ، إلا أن أسد خليل ليس مجرماً عادياً، بل هو مجرم محترف، وكل ما يريده الآن هو الهروب من دون أن يلفت إليه المزيد من الانتباه".

"إنه مجرم لا مراء؛ سواء كان مجرماً عادياً أو غير ذلك، والمجرمون يقترفون أعمالاً إجرامية".

فأذعن الرجل وقال "وجهة نظر جديرة بالاحترام وسنأخذها بعين الاعتبار".

كنت على وشك أن أخبر هذا الأحمق أن يذهب إلى الجحيم، إلا أنه كان يعرف بالفعل ما كنت أفكر فيه، فقال لكيت "أخبريني في حال رغبتِ في العودة إلى العمل هنا مرة أخرى، وسأبذل قصارى جهدي لإتمام هذا الأمر".

"إن هذا لطف بالغ منك يا دوج".

اللعنة.

ثم ناولته كيت بطاقة وقالت "ستجد هنا رقم هاتفي الخلوي. أرجو أن تأمر أحدهم الاتصال بي في حال طرأ أي أمر جديد بشأن خليل. سنمضي أنا وجون بعض الوقت في التجول في المدينة، حيث لم يسبق له أن قام بزيارة لوس أنجلوس، فيما سنستقل طائرة منتصف الليل للعودة إلى واشنطن".

"سأتصل بك ما إن يطرأ شيء جديد. بل ويمكنني – إذا ما رغبتِ – الاتصال بكِ في وقت لاحق على أي حال لإطلاعك بالأخبار أولاً بأول".

"بالطبع، وكم أقدّر لك ذلك".

اللعنة.

ثم تصافحا، وودعا بعضهما البعض.

أما أنا فنسيت أن أصافح الرجل قبل خروجي من مكتبه، فأمسكت بي كيت في الردهة، وقالت وكأنها تعلمني خبراً جديداً "لقد عاملت الرجل بوقاحة".

"كلا، لم أفعل".

"بل فعلت، والمدهش أنك كنت لطيفاً ومهذباً مع الجميع، ثم أصبحت فظاً مع أحد المديرين".

"لم أكن فظاً، ولا يعنيني كثيراً المديرون". ثم أردفت "لقد أغضبني كثيراً في تلك المحادثة الهاتفية التي أجريناها".

هنا تجاهلت كيت الموضوع، ربما لأنها كانت تعرف يقيناً إلى أين سينتهي هذا النقاش. قد أكون بالطبع مخطئاً تماماً بشأن الارتباط العاطفي الذي افترضته بين السيد وكيت مايفيلد، ولكن ماذا لو كنت محقاً ثم أغدقت الابتسامات واللطف على ستيرجيس بينما يستعيد هو ذكرى آخر مرة أقام فيها علاقة مع كيت مايفيلد؟ يا الله، كنت سأبدو أحمق بحق، ومن ثم فمن الأفضل أن أكون حذراً وفظاً عن أكون لطيفاً وأحمق.

على أي حال، شرعت وكيت نسير أسفل الرواق وخطر لي أن الوقوع في الحب له مساوئه العديدة.

توقفت كيت قرب غرفة الاتصالات لتحصل على تفاصيل رحلة طيراننا المقبلة، ثم قالت لي "الرحلة 204 على متن الطائرة يونايتد، والتي تقلع من مطار لوس أنجلوس في الحادية عشرة وتسع وخمسين دقيقة مساءً، لتصل إلى واشنطن دوليز في السابعة وثماني وأربعين دقيقة صباحاً. ولدينا هنا مقعدان في درجة رجال الأعمال، ولقد تم تأكيد الحجز. وسينتظرنا أحدهم في مطار دوليز".

"ثم ماذا؟"

"لم يذكر سوى ذلك".

"ربما يتوافر لديّ بعض الوقت إذاً للتقدم بشكوى إلى عضو الكونغرس عن دائرتي".

"وممّ ستشكو؟"

"سأشكو من تعطيلي عن العمل للقيام بتفاهات، مثل ذلك المؤتمر الصحفي الغبي".

"لا أظن أنه بوسع عضو الكونغرس البت في مثل هذا الأمر. أما في ما يتعلق بالمؤتمر الصحفي الغبي، فلقد أرسلوا لنا بالفعل رسالة بالفاكس تضم بعض المواضيع التي يمكننا التحدث عنها".

نظرت إلى رسالة الفاكس المكونة من صفحتين، وبالطبع كانت موقعة. ومن ثم فإن ما يطلقون عليه اسم *اقتراحات* ليس كذلك بالفعل، والأكثر أن الرجل الذي سيجيب عن أسئلة الإعلاميين يجب أن يبدو تلقائياً.

على أي حال، بدا لي أن كيت قد استنفدت ما لديها من أصدقاء قدامى، فتوجهنا نحو المصعد وهبطنا به صامتين.

وفي مرآب البناية في طريقنا نحو السيارة، قالت لي كيت "لم تكن تلك زيارة سيئة، أليس كذلك؟"

"على الإطلاق، في الحقيقة يجدر بنا العودة وتكرارها مرة أخرى".

"هل نعاني من أي مشكلات اليوم يا جون؟"

"ليس بالنسبة لي".

ثم دخلنا السيارة، وشرعنا نتجه صوب جادة ويلشاير، وسألتني "هل هناك مكان بعينه أو شيء ما تود أن تراه على وجه التحديد؟"

"نعم، نيويورك".

"ماذا عن استديوهات تصوير الأفلام القديمة؟"

"ماذا عن شقتك القديمة؟ أود أن أرى المكان الذي كنت تعيشين فيه".

"فكرة جيدة، والحق أنني كنت مستأجرة لأحد المنازل القريبة من هنا".

هكذا مضينا بالسيارة عبر غرب هوليوود وبدا لي ذلك مكاناً جيداً، ما عدا أن كل الأشياء كانت مصنوعة من الخراسان وملونة بألوان فاتحة؛ ذكرني المشهد ببيض شم النسيم.

قادت كيت السيارة إلى ضاحية لطيفة، ثم مرت بنا بجوار منزلها ذاك، وكان أشبه بكوخ إسباني صغير، وقلت لها "كم هو لطيف".

من هناك تابعنا إلى بيفرلي هيلز، حيث أخذت أحجام المنازل تزداد، ثم أبحرنا بجوار روديو درايف حيث أفخم المتاجر التي يتردد عليها النجوم والمشاهير، وهفت إليها رائحة عطر من طراز أرماني كانت تنبعث من متجر يحمل نفس الاسم؛ عطر من ذلك النوع الذي يحفظ جثث الأموات من التعفن.

أوقفت كيت السيارة على طريق روديو درايف، واصطحبتني إلى مطعم مفتوح لطيف لتناول الغداء.

كما يقولون، عكفنا على تناول طعام الغداء في تؤدة، من دون مواعيد، أو جدول أعمال، وكأنه ليس في هذا العالم ما يدعو إلى القلق.

أو ربما كان هناك القليل من ذاك.

في الحقيقة لم أمانع في قتل الوقت، لأنني كنت أقتله بجوار أسد خليل، ومن حيث سمعت منه آخر مرة. ومكثت أنتظر أن يرن هاتف كيت آملاً في أخبار تحول دون سفري إلى واشنطن. ما من شك أنني كنت أحمل بداخلي كرهاً لواشنطن، ولديّ أسبابي التي أعدها أسباباً جيدة. وبالطبع كنت أجد مشاعري العدائية تجاه كاليفورنيا أمراً غير مبرّر على الإطلاق، خاصة وأنها تجاه مكان لم أقم بزيارته من قبل قطّ.

أخيراً قلت لكيت "أظن أنه بوسعي تخمين السبب وراء عشقك لهذا المكان".

"أنا أجده مكاناً مغرياً حقاً".

"هذا صحيح، ولكن هل تهبط الثلوج هنا في أي وقت من العام؟"

"فقط على الجبال، فهنا يمكنك الانتقال من الشواطئ إلى الجبال، ثم إلى الصحراء في غضون بضع ساعات".

"وماذا سترتدين في يوم كهذا؟"

ضحكت كيت بقوة.

أما أنا فوجدت شراب كاليفورنيا الأبيض – الكاردوني – جيداً حتى أننا أتينا على قنينة كاملة منه؛ الأمر الذي يحول دون أن نقوم بقيادة السيارة لفترة. ثم دفعت ثمن ما أكلناه واحتسيناه، ولاحظت أن أسعارهم كانت لا بأس بها، وشرعنا نسير في أرجاء وسط مدينة بيفرلي هيلز الهادئ واللطيف. إلا أنني لاحظت أن النوع الوحيد

من المشاة كان عبارة عن حشود من السائحين اليابانيين الذين كانوا يلتقطون الصور الفوتوغرافية ومقاطع الفيديو للمكان.

تابعنا السير والنظر إلى واجهات المتاجر، وهنا أشرت إلى كيت قائلاً إن سترتها ذات لون الصلصة وسروالها الأسود قد تجعدا بعض الشيء، وعرضت عليها أن أشتري لها رداءً آخر، فقالت "فكرة جيدة، إلا أن مثل هذا الثوب في روديو درايف سيكلفك ألفي دولار على أقل تقدير".

فتنحنحت وأجبتها قائلاً "سأشتري لك مكواة إذاً".

مرة أخرى ضحكت كيت.

بالفعل عندما نظرت إلى بعض القمصان المعروضة في الواجهات لاحظت أن الأسعار تشبه أرقام رموز المدن والمناطق. ولكن بما أنني ذلك الرجل الرياضي، اشتريت حقيبة من الشوكولاته المصنوعة محلياً، والتهمناها سوياً بينما كنّا نسير في جولتنا تلك. وكما أشرت آنفاً لم يكن هناك الكثير من المشاة، ومن ثم لم أندهش كثيراً حينما تنبهت إلى أن السائحين اليابانيين إنما يقومون بتصويرنا أنا وكيت، فقلت لها "إنهم يظنونك نجمة سينمائية".

"كم أنت لطيف، بل *أنت* النجم هنا، أنت نجمي *أنا*".

في العادة، في مثل هذا الموقف كنت سأنثر محتويات حقيبة الشوكولاته على الرصيف، لكنني كنت عاشقاً، أتهادى بين السحاب وأغنيات الحب تهيم في رأسي، وكل أمارات العشق تلك.

فقلت "لقد رأيت ما يكفيني في لوس أنجلوس؛ فلنأخذ غرفة في أي مكان".

"لكننا لسنا في لوس أنجلوس، بل في بيفرلي هيلز، وهناك الكثير من الأشياء أود لو أريك إياها".

"هناك بالفعل الكثير الذي أود رؤيته، إلا أن ملابسك تخفيه برمته".

ألم يكن هذا رومانسياً بحق؟

بدت كيت وكأنها فريسة أحاول اصطيادها بالرغم من أننا كنا في تلك اللحظة خطيبين. فعدنا إلى السيارة، وذهبنا في جولة قصيرة إلى مكان يطلق عليه اسم مارينا ديلراي بجوار المطار.

بالفعل عثرت على نُزُل صغير حيث استأجرنا غرفة وحملنا إليها حقيبتينا الفيدراليتين.

كانت نافذة الغرفة تطل على مرسى حيث العديد من القوارب راسية في المرفأ، ومرة أخرى تذكرت فترة إقامتي في لونغ أيلاند الشرقية حيث أكثر ما تعلمته هو ألا أدع فؤادي يتعلق بشخص ما، أو مكان ما، أو أي شيء كان. ولكن نادراً ما يتسق ما نتعلمه مع ما نفعله.

ثم لاحظت أن كيت كانت تقف وتحدق بي، فابتسمت وقلت لها ‟أشكرك على هذا اليوم الرائع”.

فردت لي الابتسامة ثم فكرت للحظة قبل أن تقول ‟لو كان الأمر لي ما كنت لأقدّمك إلى دوج، لكنه أصر على مقابلتك”.

أومأت لها قائلاً ‟لا داعي للقلق، أنا أتفهم الأمر”.

هكذا انتهينا من هذا الموضوع وأنا أمثل دور المتفهم للأمر، بيد أن الحق هو أنني نويت ركل دوج أسفل معدته ما إن تتاح لي الفرصة لفعل ذلك. أما كيت، فأعطتني قبلة كبيرة!

وسرعان ما أصبحنا في الفراش، وبالطبع رن جرس هاتفها الخلوي وكان لا بد من الإجابة، مما يعني أنني يجب أن أتوقف عن فعل ما كنت أفعله، فابتعدت فوق الفراش وأنا ألعن من اخترع الهاتف المحمول.

اعتدلت كيت، والتقطت أنفاسها، ثم أجابت المتصل على هاتفها ‟مايفيلد”. ورأيتها تستمع إلى محدثها وهي تضع يدها فوق سماعة الهاتف حتى تلتقط المزيد من أنفاسها، ثم تابعت قائلة ‟حسناً، نعم، نعم، لقد فعلنا، كلا، نحن فقط نستريح قليلاً في مارينا ديلراي بجوار المياه. حسناً، لا بأس، سأترك السيارة في مرآب قسم شرطة لوس أنجلوس. حسناً، شكراً لاتصالك. نعم. وأنت كذلك. مع السلامة”.

ثم أنهت كيت المكالمة، وبلعت ريقها قبل أن تقول ‟كم أكره هذا عندما يحدث”.

ولم أجبها.

فأردفت ‟حسناً، كان هذا دوج. ليس بالأمر شيء يُذكر سوى أنه سيدع أحدهم يتصل بنا قبل صعودنا الطائرة بنصف ساعة في حال طرأ أي شيء من شأنه أن يغير خططنا. كما أنهم اتصلوا به من واشنطن، وأخبروه أنه طالما لم يتم القبض على خليل هنا، يتعين علينا السفر الليلة. ولكن في حال نجحنا في القبض عليه هنا، سنبقى ونقيم المؤتمر الصحفي هنا”.

ثم نظرت إليّ وتابعت قائلة ‟نحن بطلا هذه اللحظة، ويتعين علينا أن نتواجد حيث تجتمع آلات التصوير. ربّما لاحظت أن هوليوود وواشنطن تعملان بنفس الطريقة”.

ثم نظرت نحوي مرة أخرى وتابعت حديثها ‟بالطبع الأمر لا يخلو من بعض الزيف، وأنا لا أحب هذا. ولكن في حالة كحالتنا هذه لا مفر من الانتباه إلى أجهزة الإعلام. وأصدقك القول، بوسع مكتب التحقيقات الفيدرالية أن يستغل الصحافة على نحو جيد”.

ثم ابتسمت لي وقالت ‟حسناً، أين كنا؟”

مرة أخرى رن جرس الهاتف مقاطعاً إيانا ثانية، بيد أنه لم يكن هاتف كيت هذه المرة. فعندما التقطت هي هاتفها الخلوي أدركنا أن الصوت لا ينبعث منه، بل من هاتف آخر موجود بالغرفة. كانت تلك مكالمة الإيقاظ التي طلبتها لتنبيهنا عند الساعة العاشرة والربع، فوضعت السماعة وقلت لكيت ‟إنها مكالمة الإيقاظ”.

تركنا الفراش، ثم اغتسلنا وارتدينا ملابسنا. وعندما غادرنا النزُل ودخلنا السيارة كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة مساءً، أي أنها كانت قرابة الثانية من بعد منتصف الليل بتوقيت نيويورك؛ والحق أن ساعة جسدي أنا كانت مشوشة تماماً.

انطلقت كيت تقود السيارة على الطريق صوب لوس أنجلوس على بُعد بضعة أميال، وكنت أستطيع أن أرى الطائرات النفاثة تقلع وتتجه غرباً فوق المحيط.

قالت كيت "أترغب في أن أتصل بمكتب لوس أنجلوس؟"

"لا داعي لذلك".

"حسناً، ولكنك تعرف أنني أخشى أنه ربما يتم اعتقال خليل بينما نحن لا نزال على متن الطائرة، وأنا أرغب بحق أن أكون ضمن الأحداث. وأظنك ترغب في ذلك أيضاً، أليس كذلك؟ جون، هل غفوت؟"

"بل أفكر".

"كفاكَ تفكيراً، تحدث إليّ بدلاً من التفكير".

بالفعل تحدثنا فيما كانت هي تدخل منطقة المطار متجهة إلى مرفق قسم لوس أنجلوس حيث كان ينتظرنا في الاستقبال عريف لطيف ومعه وسيلة مواصلات لتقلنا إلى الصالة المحلية في المطار. وشعرت أنني لن أستطيع أبداً الشعور بالارتياح تجاه كل هذا اللطف والكياسة.

على أي حال، أخذ الرجل يعاملنا كنجمين، بل وأراد أن يتحدث عن أسد خليل. وكالمعتاد، انتهجت كيت معه منهج السيدة اللطيفة، فيما وضعت أنا قناع رجال مديرية شرطة نيويورك واكتفيت بابتسامة بأحد جانبي فمي.

ثم تركنا تلك السيارة بعد أن تمنى لنا الرجل أمسية سعيدة ورحلة آمنة.

دخلنا الصالة المحلية، وسألنا لدى مكتب يونايتد إيرلاينز عن بطاقتي سفرنا، وكانتا هناك بالفعل. والأكثر أن استمارات حمل السلاح خاصتنا كانت معبأة بالفعل في انتظار توقيعينا. وأخبرنا موظف الخطوط "سنبدأ الصعود إلى الطائرة في غضون عشرين دقيقة، ولكن – إن أردتما – يمكنكما الانتظار في نادي البساط الأحمر". وناولنا بطاقتين لدخول النادي.

شعرت في هذه اللحظة أنني في انتظار حدوث شيء مريع، تماماً كما يفعل أهل نيويورك، ولكن هل هناك أسوأ من أن يبتسم الجميع في وجهك، وأن يتمنوا لك أشياءً طيبة طوال الوقت؟

على أي حال، ذهبنا بالفعل إلى نادي البساط الأحمر، حيث استقبلتنا مضيفة ذات شعر أسود كثيف فأخذت البطاقتين ووجّهتنا إلى حيث الأرائك بجوار منضدة يُقدم فوقها الشراب. بالطبع كنت قد شعرت قبيل هذه اللحظة ومنذ دخولنا المكان أنني قد لقيت حتفي وذهبت إلى نعيم كاليفورنيا.

لكنني لم أشعر برغبة في الشراب على الرغم من الرحلة القاسية التي ستأخذنا عبر القارة، ومن ثم ذهبت إلى المشرب وطلبت بعض الكوكا، بينما طلبت كيت

قنينة مياه من عاملة المشرب، فيما جلست أنا بجوار المأكولات الخفيفة هناك.

سألتني كيت "ألن نجلس على الأرائك؟"

"كلا، أفضل المشرب".

بالفعل جلست فوق أحد المقاعد المرتفعة تلك فيما كنت أحتسي شراب الكوكا وأتناول بعض الجبن والفستق، بينما أطالع إحدى الصحف.

كانت كيت تنظر إليّ في مرآة المشرب، وتلاقت أعيننا هناك. وأدركت كيف أنني أرى كل النساء جميلات في مرايا المشارب، ولكن الحق أن كيت كانت جميلة بحق. وابتسمت لها.

ردت لي كيت الابتسامة وقالت "أنا لا أرغب في خاتم للزواج، فهو مضيعة للمال".

"هلاّ أوضحتِ لي ما تعنين؟"

"أنا أعني ما قلته تماماً، فلتكف عن لعب دور الذكي هنا".

"ألم تطلبي مني أن أظل كما أنا، وألاّ أغير في نفسي شيئاً؟"

"لم أعنِ أن تظل *تماماً* كما أنت".

"حسناً، فهمتك". ها نحن قد بدأنا!

رن هاتف كيت فأخرجته من محفظتها، وأجابت المتصل بقولها "مايفيلد". ثم استمعت إليه لبرهة قبل أن تردف قائلة "حسناً، شكراً لك. أراك عمّا قريب".

ثم أعادت هاتفها إلى المحفظة، وقالت "إنه الضابط المناوب، لا شيء جديد؛ والآن ليس هناك ما ينقذنا من السفر ومن هذا المؤتمر الصحفي".

"أظن أنه يجدر بنا أن نحاول إنقاذ نفسينا من هذه الرحلة".

"لو فوّتنا هذه الرحلة سينتهي أمرنا لا محالة، سواء كنا بطلين أم لا".

"أعرف هذا". وجلست هناك أشحذ زناد فكري، ثم قلت لكيت "أظن أن الحل يكمن في السلاح".

"الحل لماذا؟"

"انتظري، هناك شيء ما يخطر على بالي".

"وما هو؟"

نظرت إلى الصحيفة بيدي فوق المشرب، وشعرت بفكرة ما تزحف إلى عقلي. لم يكن الأمر يتعلق بشيء ما في الجريدة، فقد كنت أطالع الصفحة الرياضية. الجريدة،

لماذا؟ لقد تسربت الفكرة من ذهني بعدما شعرت باقترابها. ***هيا يا كوري، اقبض عليها***. ومرة أخرى شعرت بها تقترب، ثم عادت تختفي من جديد. ***هيا يا كوري، اقبض عليها***. كان الأمر يشبه محاولة إثارة عقل يرفض إلا أن يظل هادئاً.

"أثمة خطب؟"

"أنا أفكر فحسب".

"حان وقت الصعود إلى الطائرة".

"أنا أفكر، ساعديني".

"كيف لي أن أساعدك؟ أنا حتى لا أعرف بماذا تفكر".

"أفكّر في ما ينوي هذا السافل عمله".

هنا سألنا الساقي "هل أحضر لكما بعض الشراب الطازج يا رفاق؟"

"ها قد ذهب تفكيري أدراج الرياح تماماً".

"جون!"

"معذرة". قلت معتذراً للساقي الذي كان قد شرع يتراجع بالفعل.

"جون، لقد بدأ المسافرون يصعدون إلى الطائرة بالفعل".

"فلتذهبي أنتِ يا كيت، أما أنا فسأبقى هنا".

"هل جننت؟"

"كلا، ولكنّ أسد خليل هو المجنون هنا. أنا بخير يا كيت، اذهبي والحقي بطائرتك".

"لن أرحل من دونك".

"بل ستفعلين. إنك عميلة فيدرالية مثبتة ولكِ راتب لدى التقاعد يجب أن تحرصي عليه، أما أنا فأعمل معهم وفقاً لعقد مؤقت بينما لديّ راتب مديرية شرطة نيويورك خاصتي. ولا بأس إن جازفت، أما أنتِ فلا. لا تكسري قلب أبيكِ".

"كلا، لن أرحل من دونك، وهذا قرار نهائي".

"ها أنتِ تضعينني تحت ضغط هائل الآن".

"ولمَ تفعل هذا؟"

"ساعديني في هذا يا كيت، لماذا قد يحتاج خليل إلى بندقية بمنظار؟"

“كي يقتل شخصاً ما من مسافة بعيدة”.

“هذا صحيح، ومن تراه يكون ذلك الشخص؟”

“أنت”.

“كلا، فكري بطريقة الصحفيين”.

“حسناً، شخصية هامة يحيط بها الحراس”.

“صحيح، ويذكرني هذا بما قاله جابي”.

“وماذا قال جابي؟”

“قال الكثير، قال إن خليلاً يطمح إلى ضربة كبرى. قال حرفياً يمضي بمفرده، والدماء على نصله”.

“وماذا يعني هذا؟”

“كان يتحدث عن الثأر والنزاع الدموي”.

“ولكننا نعرف هذا، ولقد انتقم خليل بالفعل لمقتل أفراد عائلته”.

“أتظنين أنه فعل ذلك حقاً؟”

“نعم، في ما عدا ويجينز وكالوم الذي يحتضر بالفعل. وبما أن ويجينز لم يصبح في متناول يده، فلعله يتخذك بديلاً”.

“ربما يفكر بالفعل في اقتناصي، إلا أن هذا لا يعني أنه يتخذني بديلاً لما يريده بالفعل، مثلما كان الحال مع المسافرين على متن رحلة الترانس - كونتيننتل 175، أو هؤلاء الذين كانوا في نادي الفاتحين. هناك شخص آخر لم يزل في القائمة الأصلية، هناك شيء نغفله دون شك”.

“اعمد إلى تداعي المفردات إذاً”.

“حسناً، جريدة، جابي، بندقية، خليل، مهمة القصف الجوي، خليل، الانتقام”.

“عد بتفكيرك إلى أول مرة فكرت فيها في هذا الأمر يا جون. عد إلى نيويورك، هذا ما أفعله أنا. أعود إلى حيث كنت أول مرة عندما”.

“تماماً! كنت أقرأ تلك القصاصات حول مهمة القصف الجوي حينما خطرت لي تلك الفكرة. ثم، ثم خطر لي ذلك الحلم الغريب الذي راودني عندما كنا نستقل الطائرة إلى هنا. كان يتعلق بأحد الأفلام، أظنه أحد أفلام الغرب القديمة”.

وهنا انبعث صوت عبر جهاز النداء الداخلي “النداء الأخير لرحلة يونايتد إيرلاينز رقم 204 المتجهة إلى لندن، النداء الخير”.

“حسناً، ها هي الفكرة تأتيني. إنها زوجة... ما الذي ذُكر عن لسانها في ذاك المقال؟”

ثم نظرنا إلى بعضنا البعض وبدت كل الأشياء جلية واضحة. كان الأمر واضحاً كالزجاج الشفاف بينما كنا نمعن النظر فيه طوال الأيام السابقة. ثم سألت كيت "أين يعيش؟ إنه يعيش هنا، أليس كذلك؟"

"بيل إير".

على الفور تركت مقعدي. وحتى أنني لم أعبأ بالتقاط حقيبتي، وأسرعت إلى مخرج النادي بينما كانت كيت تخطو إلى جواري، وسألتها "أين تقع بيل إير؟"

"على مسافة خمسة عشر أو عشرين ميلاً إلى الشمال من هنا؛ بالقرب من بيفرلي هيلز".

كنا قد عدنا مرة أخرى إلى الصالة، ومنها إلى سيارة الأجرة الواقفة خارجها. وقلت لكيت "أخرجي هاتفك الخلوي، واتصلي بالمكتب".

ترددت كيت، ولم أتمكن من لومها على هذا، فقلت "الحذر أفضل من الندم، أليس كذلك؟ فقط أخبريهم بمزيج من القلق والتعجل".

عندما شرعت تتصل بهم كنا قد تركنا الصالة، وأدركت أنها لم تتصل بمكتب التحقيقات عندما سمعتها تقول "دوج؟ أعتذر للاتصال في هذه الساعة المتأخرة، ولكن، نعم، نحن بخير".

ولما لم أرد أن ندخل إلى التاكسي بحيث يدور هذا الحديث على مسمع من السائق، فضلت أن نقف على بعد مسافة مناسبة منه.

قالت كيت "نعم، لقد فاتتنا الرحلة، ولكن استمع إليّ من فضلك".

"أعطيني هذا الهاتف اللعين".

أعطتني إياه كيت، فقلت "معك كوري، استمع إلى ما سأقوله. أسمعت عن كلمة *فتوى* من قبل؟ إنها بمثابة ترخيص يقدمه رجل الدين لشخص ما. أفهمت؟ والآن اسمع. لديّ اعتقاد قوي مبني على شيء ما خطر بذهني، وهو نتاج العمل لخمسة أيام كاملة مع هذا الهراء، شيء يقول أن أسد خليل ينوي قتل رونالد ريغان".

الفصل الثاني والخمسون

انطلقنا بسيارة الأجرة إلى منطقة شرطة لوس أنجلوس في المطار حيث كانت السيارة التي أتينا بها لم تزل هناك؛ يبدو أن أحداً لم يأتِ لأخذها بعد.

الأمور تسير على ما يرام حتى الآن.

دخلنا السيارة، ثم توجهنا شمالاً صوب منزل الشيطان الأعظم.

لست أعني تحديداً أنني أراه الشيطان الأعظم، وبحدّ علمي السياسي وميولي السياسية أعتبر نفسي فوضوياً وأرى الحكومة بأسرها فاسدة، وكذلك السياسيين جميعاً.

بالإضافة إلى ذلك، كان رونالد ريغان رجلاً هرماً ويعاني من مرض شديد، فمن ذلك الذي قد يرغب في قتله؟ حسناً، أسد خليل ربما؛ لقد فقد الرجل عائلته في قصف أمر به ريغان على أي حال.

كانت كيت تجلس خلف عجلة القيادة، وتقود السيارة على طريق سانت (لا أعرف ماذا) السريع، ثم قالت "أحقاً تظن أن خليلاً قد؟ أعني، إن ريغان".

"قد لا يتذكر رونالد ريغان الحادثة بالأساس، ولكنني أؤكد لكِ أنها لا تغيب عن رأس أسد خليل".

"هذا صحيح، وأفهم ما تعنيه، ولكن ماذا لو كنا مخطئين في هذا الأمر؟"

"وماذا لو كنا على صواب؟"

لم تجبني كيت، فقلت "اسمعي، الأمر يبدو منطقياً، وحتى إن كنا مخطئين فلا شك أن ذاك كان استنتاجاً ذكياً على أي حال".

"كيف سيكون ذكياً إن ثبت خطأه؟"

"تابعي القيادة يا كيت فحسب، أعني أنه حتى لو كنا مخطئين، فليس هناك ما نخسره".

"بلى، سنكون قد خسرنا وظيفتينا".

"يمكننا عندئذ فتح نزُل صغير يقدم الفراش والفطور".

"اللعنة، كيف سمحت لنفسي بالتورط معك في هذا الشأن؟"

"انتبهي للطريق".

كنا نمضي فوق الطريق في سرعة مناسبة، ولا شك أن ذلك اللطيف الذي اتصلت به قد أعلن حالة الطوارئ، ولعلهم ينتشرون الآن حول منزل ريغان؛ أي أننا لسنا وحدنا سلاح الفرسان السابع الذي يهرع إلى هناك للإنقاذ، فسألت كيت "كم عميلاً سرياً تظنين أن لديه هناك؟"

"ليس الكثير".

"ولم؟"

"حسناً، مما لم أزل أذكره من تعاملي المحدود مع مكتب الجهاز الأمني السري في لوس أنجلوس، فإن الخطر تجاه عائلة ريغان ينخفض عاماً تلو الآخر، ناهيك عن اعتبارات كالميزانية والعمالة". ثم أردفت "والحق أنه منذ بضع سنوات حاول أحد المختلين اقتحام المنطقة الخاصة ومنها إلى المنزل، وكانت العائلة بالداخل آنذاك".

"مدهش".

"إلا أن هذا لا يعني أنهم من دون حماية. فلديهم من الأموال قدر ما تتخيل، ولديهم حراسة خاصة لسد الثغرات في الجهاز الأمني. هذا بالإضافة إلى أن الشرطة المحلية تراقب المنزل عن كثب. كما أن هناك مكتب لوس أنجلوس الفيدرالي المتاح دائماً متى استدعت الحاجة، كما هو الحال الآن".

"وها نحن ذا على الطريق إليهم".

"صحيح، فكم يلزم المرء من الحماية أكثر من هذا؟"

"يتوقف هذا على من يسعى إلى قتله".

فذكرتني قائلة "كان يجب علينا اللحاق بتلك الطائرة. ألم تكن مكالمتنا الهاتفية تلك كافية؟"

"سأغطيك، لا داعي للقلق".

"لا أريد المزيد من الخدمات من جهتك يا جون". ثم أضافت "كل هذا بسبب غرورك في العمل".

"أنا أحاول أن أفعل الصواب فحسب، وهذا هو الصواب".

"كلا، ليس هذا صواباً، فالصواب هو أن نتبع الأوامر التي تصدر إلينا".

"فكري في ما سيكون لدينا للإدلاء به في مؤتمر صحفي بحق إذا ما أمسكنا أسد خليل الليلة".

"لا فائدة منك. اسمع يا جون، أنت تدرك تماماً أنه في حال كان خليل – أو أي متواطئ معه – يحوم حول منزل ريغان، فإنه سيختفي إلى الأبد ما إن يرى نشاطاً غير معتاد يدور هناك، ولن نعرف أبداً ما إذا كنت محقاً في تخمينك هذا أو لا. أي أننا خاسران في كل الأحوال".

"أعرف هذا، ولكن هناك احتمال بأن يكون أسد خليل منتظراً لليلة أخرى، وأنه – أو المتواطئ معه – لا يرصد منزل ريغان الليلة. ومن ثم أفترض أن الجهاز الأمني سيحاول فعل ما فعله مكتب التحقيقات الفيدرالية في منزل ويجينز ومنزل كالوم".

"إن الجهاز الأمني مختص بالحماية يا جون، وليس بنصب الأفخاخ، خاصة حين تكون الفريسة رئيساً سابقاً".

"حسناً، يبدو جلياً أنه يتعين عليهم نقل آل ريغان إلى مكان آمن، ثم يقوم الفيدراليون بنصب الفخ من دون الفريسة. أليس كذلك؟"

"أتساءل، كيف استطاعت الحكومة الفيدرالية العمل كل هذه السنوات من دونك؟!"

بالطبع لم تخف عليّ سخريتها بحيث لم أشعر أننا خطيبان في هذه اللحظة، أليس كذلك؟ ثم سألتها "أتعرفين موقع منزل ريغان؟"

"كلا، ولكنني سأتّبع الاتجاهات ما إن نترك الطريق المجاني".

"لماذا يطلقون عليه اسم الطريق المجاني؟"

"لأنه مجاني، لا أعرف. لماذا يطلقون على الطرقات اسم الطرقات السريعة في نيويورك؟"

"لا أعرف، أتعرفين طبيعة المنطقة التي يقع فيها المنزل؟ ريفية مثلاً؟ أم ضاحية؟"

"إن بيل إير أشبه بالضاحية حيث العقارات تمتد لهكتار أو اثنين ومزودة بأعمدة. ولقد مرّ أصدقاء لي بمنزل ريغان بسيارتهم ذات مرة، تماماً كما تفعل الجولات السياحية الحمقاء، فالمنزل يقع على بعد بضعة هكتارات خلف الجدران والأسوار بحيث لا يمكن رؤيته من الطريق".

"وهل لديهم حارس عقار جيد؟"

"سرعان ما سنكتشف هذا".

ثم تركنا الطريق، وعمدت كيت إلى الهاتف تتحدث إلى المكتب الفيدرالي حيث راحت تستمع وتكرر مجموعة من الاتجاهات المعقدة التي أخذت أكتبها على ظهر فاتورة فندق مارينا ديلراي. ثم أعطت كيت وصفاً لسيارتنا ورقم لوحتها لضابط المناوبة.

كانت البيئة لدى بيل إير تتسم بالمرتفعات، والطرقات الشديدة الالتواء، ولم يكن هناك الكثير من النباتات لإخفاء جيش من القناصين. ولم تمض خمس عشرة دقيقة حتى كنا على طريق سانت كلود الذي يحف بالأعمدة والمنازل الضخمة، حيث بالكاد يمكن رؤية معظمها من خلف الأسوار، والجدران، والأسيجة.

توقعت أن أرى سيارات وأناساً أمام منزل ريغان، إلا أن الهدوء والظلام كانا يلفان المكان. ربما كان الرفاق يعرفون ما يفعلونه بحق.

فجأة قفز رجلان من بين إحدى الجمات وأوقفانا، وفي اللحظة التالية كان هناك اثنان يصحباننا في مقعد السيارة الخلفي ويرشداننا لمتابعة القيادة لنعبر البوابة المثبتة في الجدار الحجري.

ثم انفتحت البوابة الحديدية على نحو تلقائي وقادت كيت السيارة عبرها ثم وجّهنا الرجلان إلى مرآب للسيارات إلى جهة اليسار بجوار غرفة أمن البوابة. كان ذلك الأمر مثيراً بحق في حال كنت مهتماً بالتاريخ وما إلى ذلك. بل وكان يمكن أن يسود المرح لو لم يكن الجميع على ذلك القدر من الجدية.

نزلنا من السيارة، ورحت أتلفت في المكان من حولي. لا يمكنك سوى رؤية منزل ريغان؛ بدا من بعيد كهيكل على طراز منازل المزارع، حيث الضوء ينبعث من بضعة مصابيح، ولم يبد أن هناك الكثير من الناس، بيد أنني كنت على ثقة الآن من أن المكان يعج بمكافحي القناصة، وأن رجال الجهاز الأمني متنكرون في هيئة أشجار، أو صخور، أو أي هيئة تصلح للاختفاء فيها.

كانت تلك ليلة مقمرة، في ما كان يسمى بقمر الصياد قبل عصر الأشعة تحت الحمراء والمجالات الضوئية للنجوم التي جعلت كل الليالي مناسبة للصيد والقنص. على أي حال، أغلب الظن أن الرئيس السابق لا يتجول في هذه الساعة المتأخرة من الليل، ومن ثم افترضت أن لدى خليل سلاحاً بمجال نهاري وأنه ينوي الانتظار حتى يقوم آل ريغان بجولتهم الصباحية.

ثم هبّ نسيم معتدل حمل عبق الزهور عبر عشب الغابات، وأخذت الطيور الليلية تزقزق فوق الأشجار، أو ربما كانت تلك الأشجار هي عملاء الجهاز الأمني يضعون العطور الزهرية ويرسلون الشيفرات إلى بعضهم البعض.

بأدب جم طلب منا أحدهم أن نقف بالقرب من سيارتنا، ولقد كنا هناك بالفعل، حين ظهر دوغلاس بينديك من غرفة أمن البوابة وشرع يسير صوبنا.

ما إن أتانا حتى دخل في صلب الموضوع مباشرة، فقال موجهاً حديثه لي "أخبرني ثانية عن سبب وجودنا هنا".

لم تعجبني نبرة صوته، فقلت "بل أخبرني أنت لماذا لم تكن هنا بالأمس. هل يتعين عليّ أن أفكر في كافة الاحتمالات نيابة عنك؟"

"نحن نتخطى حدود الحديث يا سيدي".

"وأنا لا أعبأ".

"فلتكتفِ بهذا القدر من التمرد".

"بل ما زلت في مرحلة المران".

أخيراً، تدخلت كيت قائلة "على مهلك، فلنكتفِ بهذا القدر". ثم أردفت موجهة حديثها إلى بينديك "دوغ، لماذا لا تأتي معي ونتحدث في ما هو أهم؟"

هكذا انطلقت كيت وصديقها بعيداً عن مدى السمع فيما وقفت أنا هناك أثور غضباً بلا سبب واضح. كان الأمر برمته يتعلق بغرور الرجل وصورته أمام فتاته. أعرف أن المرء يبدو بدائياً جداً، بل ويمكنني أن أعلو عليه، تجدر بي المحاولة في وقت آخر.

على أي حال، أتتني في هذه اللحظة تلك السيدة التي تعمل لدى الجهاز الأمني، بيد أنها كانت ترتدي ملابس عادية، وقدمت لي نفسها على أنها ليزا، وقالت إنها تتمتع بمنصب إشرافي هنا. وكانت ليزا هذه في الأربعين من عمرها؛ جذابة وودودة.

تحدثنا قليلاً، وبدت على قدر هائل من الجدية بشأن كيفية توصلي إلى هذا الاستنتاج من أن هناك تهديداً بالقتل يحيق بالرئيس السابق.

فأخبرتها كيف أنني كنت أحتسي الشراب في المشرب عندما قفزت الفكرة إلى رأسي. بالطبع لم يرق لها هذا التفسير، فأخذت أشرح لها الأمر وكيف أنني كنت أشرب الكوكا وذهني منشغل تماماً بقضية أسد خليل، وما إلى ذلك. والحق أنني في موقفي هذا لم أكن فقط محل الاستجواب، بل كانت ليزا تحول دون تجولي في المكان، فسألتها "كم من هذه الأشجار هي في الحقيقة رجال أمنيين؟"

ويبدو أنها ظنتني أقصد المزاح بسؤالي هذا، فأجابتني قائلة "جميعها".

ثم سألتها عن الجيران حول عائلة ريغان، وأخبرتني أن الجيرة تعج بنجوم السينما والعديد من المشاهير، وأنه من اللطيف العمل مع عائلة ريغان. شعرت أننا في لوس أنجلوس بالفعل، على الرغم من أن المشهد قد بدا لي وكأنه موقع مُعدّ لمشهد سينمائي سيتم تصويره في الغابة.

هكذا أخذنا أنا وليزا نثرثر فيما كانت كيت تتحدث إلى خليلها السابق وتحاول تهدئة الأمر معه، كنت على يقين من أنها تخبره أنني لست بالحماقة التي أبدو عليها. أما أنا فكنت متعباً بحق؛ نفسياً وجسدياً، والمشهد بأكمله كان مزيفاً بالنسبة لي.

في حديثي مع ليزا أفصحت لي قائلة "لقد كان رقم منزل ريغان هو 666، ولكن بعد أن اشتروه تغير الرقم إلى 668".

"أتعنين أن للأمر أسباباً أمنية؟"

"كلا، ولكن الرقم 666 هو علامة الشيطان وفقاً لسفر الرؤيا".

"آه".

"نعم، ومن ثم أعتقد أن نانسي قد عمدت إلى تغييره".

"هكذا إذاً، ربما يجدر بي أن أتفقد رقم بطاقة أميركان إكسبرس الائتمانية خاصتي؛ أظن أن لديّ 666 هناك". فضحكت ليزا.

خطر لي أنه بوسع تلك المرأة أن تسدي لنا بعض المساعدة، فقررت أن أكون دمثاً ولطيفاً معها، بالفعل مضت الأشياء بيننا على نحو جيد. وبينما كنت أمارس لطفي وجدت كيت تعود بمفردها، فقدمتها إلى صديقتي الجديدة، ليزا.

إلا أن كيت لم تهتم بمعرفتها، بل وأمسكت بمعصمي وجذبتني مبتعدة قليلاً، ثم قالت "يجب علينا السفر في الصباح الباكر، فلم تزل لدينا فرصة اللحاق بذلك المؤتمر الصحفي".

“أعرف هذا، فنيويورك تسبقنا بثلاث ساعات”.

“اصمت يا جون واستمع إليّ، كما أن المدير يود أن يتحدث إليك؛ قد تواجه بعض المشكلات”.

“ماذا حلّ بالبطل؟”

تجاهلت كيت سؤالي وقالت “لقد حجزوا لنا غرفتين في فندق المطار وتذكرتي سفر في رحلة مبكرة إلى واشنطن العاصمة. هيا بنا، فلنذهب”.

“هل يتعين عليّ أن أركل دوغ أسفل معدته قبل الرحيل؟”

“ليس هذا سلوكاً مهنياً قويماً يا جون. هيا بنا”.

“حسناً”.

ثم عدت إلى ليزا، وأخبرتها أنه يجب علينا الرحيل، فقالت إنها ستأمر بفتح البوابة لخروجنا، ثم اتجهنا ناحية سيارتنا وصحبتنا ليزا. في الحقيقة، لم أكن راغباً في الرحيل، فقلت لليزا “يساورني بعض الشعور بالذنب لأنني أخرجت الجميع من فراشهم، وربما كان من الأفضل أن أبقى هنا مع الرفاق حتى الفجر. ولا مشكلة في هذا على الإطلاق بل وسيسعدني فعل هذا”.

لكنها أجابتني “انسَ الأمر ولا تفكر فيه”.

هنا قالت كيت “فلتدخل إلى السيارة يا جون”.

أما ليزا، وكانت قد أصبحت صديقتي، ففكرت أنها مدينة لي بتفسير إزاء إجاباتها الروتينية المملة تلك، فقالت “سيد كوري، لقد قمنا بوضع خطة جاري تفعيلها منذ العام 1988، ولا أرى أنك جزء من هذه الخطة”.

“لكننا لسنا في العام 1988، كما أن هذه ليست بمهمة وقائية، فنحن نحاول القبض على قاتل مدرب”.

“نحن نعرف كل هذا، ولهذا السبب نحن جميعاً هنا الآن، ليس هناك ما تقلق بشأنه”.

هنا قالت كيت “هيا يا جون، فلنذهب من هنا”.

إلا أنني تجاهلت كيت وقلت لليزا “ربما يمكننا الدخول إلى المنزل، ومن ثم لن نصبح في طريق عملكم”.

“انسَ الأمر”.

“فقط لنتناول شراب سريع مع رون ونانسي”.

ضحكت ليزا، وكررت كيت قولها “هيا يا جون”.

فأردفت سيدة جهاز الأمن “إنهما ليسا بالمنزل على أي حال”.

“معذرة، ماذا تعنين؟”

فكررت ليزا ‘‘إنهما ليسا بالمنزل’’.

‘‘وأين هما؟’’

‘‘لا يمكنني إخبارك’’.

‘‘لا بأس، تعنين أنكم قد أخرجتم العائلة من هنا بالفعل، وأنهما يخضعان لحماية أمنية في موقع سري، في فورت نوكس أم في مكان آخر؟’’

تلفتت ليزا حولها ثم قالت ‘‘ليس هذا بسر على أي حال، بل ونُشر في الصحف، إلا أن صديقك ذلك الذي كنت تصيح في وجهه منذ قليل لا يريدك أن تعرف’’.

‘‘أن أعرف ماذا؟’’

‘‘حسناً، لقد تركت عائلة ريغان المكان منذ الأمس لقضاء بضعة أيام في مزرعة رانشو ديل سيلو’’.

‘‘أين؟’’

‘‘رانشو ديل سيلو. مزرعة في السماء’’.

‘‘أتعني أنهما قد لقيا حتفهما؟’’

ضحكت ليزا وقالت ‘‘كلا، إنها مزرعة رونالد القديمة، وتقع إلى الشمال من هنا في مرتفعات سانت إينيز، حيث البيت الأبيض الغربي السابق’’.

‘‘تعنين إذاً أنهما في تلك المزرعة، أليس كذلك؟’’

‘‘بلى، وهذه الرحلة إلى المزرعة القديمة، كما يقولون، قد تكون جولته الأخيرة. أنت تعرف أن الرجل يعاني من مرض شديد’’.

‘‘أعرف هذا’’.

‘‘لقد فكرت نانسي أنه ربما كانت تلك الرحلة هي الأفضل بالنسبة له؛ فهو يحب المكان هناك كثيراً’’.

‘‘هذا صحيح، أذكر الآن الأمر برمته. وتقولين إن هذا الخبر قد نُشر في الصحف؟’’

‘‘نعم، كان هناك بيان صحفي بهذا، بيد أنه لم تتم تغطيته من قِبل كافة الصحف أو وسائل الإعلام، بل بعضها فحسب. إلا أن هناك ما يشبه المؤتمر الصحفي تمت الدعوة إليه ليُقام هناك يوم الجمعة المقبل؛ آخر أيام ريغان هناك. وبالطبع ستكون هناك الصور والأحاديث وما إلى ذلك من الأشياء. يبدو أن الرجل في غروبه الأخير، أمر محزن’’. ثم أضافت ‘‘لا تذكر شيئاً عن هذا المؤتمر الصحفي الآن، فليس من المفترض أن نعرف بشأنه’’.

‘‘فهمتك، وهل أرسلتم رجالكم إلى هناك؟’’

‘‘بالطبع فعلنا’’. ثم أردفت وكأنها تتحدث إلى نفسها ‘‘إن الرجل يعاني من الزهايمر، من ذا الذي قد يفكر في قتله؟’’

“حسناَ، ربما كان ريغان يعاني من الزهايمر، ولكنّ الساعين وراءه يتمتعون بذاكرة حديدية”.

“نعم، ولكن الأمر تحت السيطرة على أي حال”.

“وكم تبلغ مساحة تلك المزرعة؟”

“كبيرة جداً، تغطي نحو سبعمئة هكتار”.

“كم عدد رجال الجهاز الأمني الذين كانوا يحرسون المكان عندما كان ريغان رئيساً؟”

“نحو مئة رجل”.

“والآن؟”

“لست أدري. كان هناك ستة رجال اليوم، ولا نزال نحاول إرسال اثني عشر رجلاً آخرين. فالمكتب الأمني هنا بلوس أنجلوس ليس كبيراً، حاله حال كل مكاتبنا هنا. ونحن نحصل على القوة البشرية من الشرطة المحلية ومن واشنطن متى كانت هناك حاجة لذلك”.

كانت كيت قد فقدت حماسها نحو سرعة الذهاب، فوجدتها تتوجه إلى ليزا متسائلة “ولماذا لا تتعاونون مع مكتب التحقيقات الفيدرالية؟”

أجابتها ليزا “بل هناك فيدراليون في طريقهم إلى هنا من فينتشورا، إلا أنهم سيمكثون بالقرب من سانت باربرا، وهي أقرب مدينة إلى الموقع. في الحقيقة، إننا لا نستطيع تحمل رجال لا يتبعون الجهاز الأمني في المزرعة حيث لا يعرفون طريقة عملنا، قد يتسبب هذا في إحداث الأذى للبعض”.

فقالت كيت موضحة “ولكن في حال لم يكن لديكم العدد الكافي من الرجال، سيصبح هناك احتمال بأن يتأذى الرجل الذي تحاولون حمايته”.

لم تعلّق ليزا.

فسألتها “لماذا لا تخرجونه من هناك وتستبقونه في مكان آمن؟”

تلفتت ليزا حولها مرة أخرى قبل أن تقول “اسمع، إن هذا لا يُعد إنذاراً بخطر حقيقي، ولكن إجابة عن سؤالك، هناك طريق متعرج وحيد يمر عبر هذه المرتفعات، وهو بمثابة كمين رائع. والمهبط الرئاسي المضاء الخاص بالمروحيات هناك لم يعد موجوداً. ولكن حتى وإن كان لا يزال هناك، فالضباب يلف الجبال بالكامل الليلة، كما هو الحال في معظم ليالي هذه الفترة من العام”.

“يا الله، فكرة من كانت هذه؟”

“تعني الذهاب إلى رانشو ديل سيلو؟ لا أعرف، ربما بدت كفكرة جيدة آنذاك”. ثم أضافت “حاول أن تفهم أن هذا الرجل – بغض النظر عن عمله السابق- هو رجل مريض توارى عن الأعين منذ عشر سنوات، ولم يفعل أو يقل شيئاً يجعل منه هدفاً للاغتيال. في الحقيقة، إننا نتلقى تهديدات بالقتل إزاء حيوانات البيت

الأبيض الأليفة أكثر مما يرد لدينا بشأن رؤساء سابقين. أنا أدرك بالطبع أنه ربما كان الموقف هنا مختلفاً، ونحن نتعامل على هذا الأساس. ولكن في الوقت ذاته لدينا ثلاثة من رؤساء الدول يزورون لوس أنجلوس، اثنان منهما تمقتهما نصف شعوب العالم، ونحن نفتقر بالفعل إلى الحراسة اللازمة. وبالطبع لا نريد أن يفقد أحد الرؤساء حياته هنا من قِبل دولة صديقة، حتى وإن كنا نكرهه. لست أعني أن أبدو قاسية أو بلا قلب، ولكن فلنواجه الأمر؛ لم يعد رونالد ريغان بهذه الأهمية".

"أظنه كذلك بالنسبة لنانسي والأولاد. اسمعي يا ليزا، يوجد هنا شق نفسي في اغتيال رئيس سابق؛ فالأمر جارح للروح المعنوية، أتفهمين ما أعنيه؟ ناهيك عن أن هذا عملك وواجبك في آخر الأمر، ومن ثم حاولي أن تدفعي رؤساءك إلى التعامل مع الموقف بجدية أكثر".

"نحن نتعامل مع الموقف بالجدية اللازمة، ونفعل كل ما بوسعنا في هذه اللحظة".

"كما أن هذا يتيح لنا فرصة القبض على الإرهابي رقم واحد في أميركا".

"نحن نفهم هذا أيضاً، ولكنني أردت فقط أن أخبرك أن نظريتك هذه ليس لها هنا الوقع الذي ترجوه".

"حسناً إذاً، ولكن لا يقل أحدكم بعد ذلك أنني لم أحذركم جميعاً".

"ونحن نقدر لك تحذيرك".

فتحت باب السيارة وسمعت ليزا تسأل "هل ستذهبان إلى هناك؟"

فأجبتها "لا، لن نذهب إلى المرتفعات في الظلام. كما أنه يتعين علينا أن نكون في واشنطن غداً. شكراً لكِ على أي حال".

"أياً ما كان الأمر، أنا معك على أي حال".

"أراكِ في تحقيق مجلس الشيوخ".

دخلت السيارة، وكانت كيت خلف عجلة القيادة بالفعل، ثم شرعت تخرج بالسيارة من منطقة المرآب تلك إلى حيث ممشى السيارات. ثم انفتحت الأبواب تلقائياً، فانطلقنا إلى طريق سانت كلود حين سألتني كيت "إلى أين؟"

"إلى مزرعة السماء بالطبع".

"لمَ سألتك هذا السؤال؟!"

الفصل الثالث والخمسون

انطلقنا صوب مزرعة رانشو ديل سيلو، ولكن كان علينا أن نخرج أولاً من منطقة بيل إير، ثم استلزم منا العثور على مخرج إلى الطريق السريع بعض الوقت.

سألتني كيت "أنا أعرف الإجابة مسبقاً، ولكن أخبرني، لماذا سنذهب إلى مزرعة ريغان تلك؟"

"كي نكون في المكان الصحيح".

"جرِّب إجابة أخرى".

"لدينا ست ساعات لقتلها قبل موعد الرحلة، فلا ضير من محاولة قتل أسد خليل فيما نحن نحاول قتل الوقت".

تنفست كيت بعمق؛ أظنها كانت تستنشق عبير الأزهار.

ثم سألتني "وأنت تعتقد أن خليلاً يعرف بوجود ريغان هناك وأنه ينوي قتله هناك، أليس كذلك؟"

"بل أعتقد أن خليلاً كان ينوي قتل ريغان في بيل إير حين تلقى معلومات جديدة من شخص ما لدى وصوله إلى كاليفورنيا، ومن ثم طلب من عزيز رحمن أن يقله إلى الشمال من سانت مونيكا للتأكد من طبيعة المنطقة حول مزرعة ريغان، وكي يتخلص من حقيبة سفره التي أظنها تحتوي على المسدسين الفيدراليين وهويته المزيفة. الأمر يبدو منطقياً على هذا النحو، وإذا كنت مخطئاً في هذا، فمن الأفضل أن أبحث لنفسي عن عمل آخر".

فكرت كيت للحظة ثم قالت "حسناً، سأساندك في هذا، سواء كان للأفضل أو للأسوأ، أليس هذا هو معنى الارتباط؟!"

"تماماً".

"والارتباط أمر متبادل".

"حسناً، سأتلقى عنكِ إحدى الرصاصات".

نظرت إليّ كيت، وتلاقت أعيننا في ظلام السيارة فلاحظت كم أبدو جاداً، ومن ثم لم يتفوه أحدنا بما كان واضحاً في تلك اللحظة، والذي كنا على وشك اكتشافه، فاكتفت بأن قالت "وأنا كذلك".

أخيراً، عثرنا على مدخل الطريق السريع وعبرنا خلاله، ثم منه إلى الشمال على طريق سانت دياغو السريع. وسألتها "أتعرفين مكان تلك المزرعة؟"

"تقع في مكان في مرتفعات سانت إينيز بالقرب من سانت باربرا".

"وأين هي سانت باربرا تلك؟"

"إلى الشمال من فينتشورا وإلى الجنوب من جوليتا".

"فهمت، وكم من الوقت سنستغرق للوصول إليها؟"

"ربما ساعتين إلى سانت باربارا، بحسب كثافة الضباب. لست أدري كيف يمكن الوصول إلى المزرعة من هناك، ولكننا سنكتشف".

"أتفضلين لو قدت أنا السيارة؟"

"كلا".

"بوسعي أن أفعل هذا".

"وبوسعي أنا أيضاً، بيد أنني أعرف الطرقات. فلتنل قسطاً من النوم".

"لكنني أستمتع بوقتي كثيراً. بالمناسبة، في حال كنتِ ترغبين، يمكننا الوقوف لدى مكتب فينتشورا للحصول على سترتين واقيتين من الرصاص".

"لست أتوقع إطلاقاً للرصاص، في الحقيقة، ما إن نصل إلى المزرعة حتى سيطلبون منا بكل أدب أن نغادر المكان تماماً كما حدث في بيل إير. فالجهاز الأمني حريص جداً على حماية موظفيه". ثم أضافت "خاصة عندما يتعلق الأمر بتدخل مكتب التحقيقات الفيدرالية".

"يمكنني مناقشة الأمر معهم".

فقالت "بل لن نحظى بدقيقة من هذا. ولكن في حال كنت تريد أن تكون قريباً من أي حدث محتمل، فنحن على الطريق الصحيح".

"هذا هو بالفعل كل ما أريده. اتصلي بمكتب فينتشورا في ما بعد، واستعلمي عن مكان القوات الفيدرالية في سانت باربارا".

"حسناً".

"كم أجد هذا الطريق جميلاً، بلدة رائعة بحق! تذكرني بأفلام رعاة البقر؛ جيني أوتري، وروي روجرز، وتوم ميكس".

"لم أسمع عن أي منهم من قبل".

ثم تابعنا القيادة لبرهة ولاحظت أنها الواحدة والربع بعد منتصف الليل. يا له من يوم طويل!

وصلنا بعد ذلك إلى مفترق طرق، حيث إلى الشرق تقع بيربانك وإلى الغرب الطريق 101؛ طريق فينتشورا السريع، وهو الطريق الذي اختارته كيت للمضي فيه، وقالت "لن نتخذ الطريق الساحلي هذه المرة؛ أتوقع أن يغمره الضباب. كما أن هذا الطريق أسرع".

"سمعاً وطاعة، فأنتِ صاحبة المكان".

ثم انطلقنا غرباً عبر وادي سانت فيرناندو كما قالت كيت. وتساءلت كيف يحفظ الناس هنا أسماء كل هذه السانتات!! وكنت متعباً بحق، ورحت أتثاءب مرة أخرى.

"قلت لك أن تنال قسطاً من النوم".

"كلا، أود أن أبقى بصحبتك، وأن أسمع صوتك".

"حسناً إذاً، استمع إلى هذا: لماذا أسأت التعامل مع دوغ إلى هذا الحد؟"

"من دوغ؟ أوه، ذاك الرجل! أتعنين حينما كنا في لوس أنجلوس أم في بيل إير؟"

"في المرتين".

"حسناً، حينما كنا في بيل إير غضبت عليه لأنه كان يعرف أن آل ريغان ليسوا في المنزل ولم يخبرنا عن مكانهم".

"جون، أنت لم تكن تعرف أن آل ريغان ليسوا في المنزل عندما تصادمت مع دوغ".

"دعينا لا نرهق نفسينا بشأن ترتيب الأحداث".

مكثت كيت صامتة لبرهة، ثم قالت "أنا لم أقم معه علاقة حميمة يا جون؛ كنا فقط نخرج معاً من وقت لآخر". ثم أضافت، "إنه متزوج، وسعيد في زواجه، وله ابنان في الجامعة".

لم أجد في ما قالته ما يستدعي الرد أو التعليق. ولكن يبدو أن كيت قد قررت إثارة الأمر قليلاً، فقالت "لا بأس ببعض الغيرة يا جون، ولكنك حقاً...".

"على مهلك، وماذا تسمين رقصك ذاك في نيويورك؟"

"هذا أمر مختلف تماماً".

"أحقاً؟! أخبريني إذاً كيف هذا".

"أنت لا تزال متورطاً مع بيث، بينما لوس أنجلوس مجرد تاريخ بالنسبة لي".

"فهمتك، فلنغلق هذا الموضوع إذاً".

"اتفقنا". قالت كيت وهي تضع يدها فوق يدي وتعتصرها.

هكذا كانت خطبتي في أول 24 ساعة، تُرى كيف سيستمر الأمر إلى شهر يونيو؟!

على أي حال، تابعت وكيت الحديث اللطيف لنحو نصف الساعة، ولاحظت أننا كنا قد وصلنا الجبال أو التلال أو أياً ما كان اسمها، وكانت تبدو خطرة بحق، بيد أن كيت بدت واثقة خلف عجلة القيادة.

ثم سألتني "هل لديك خطة ما لتنفيذها لدى وصولنا إلى سانت باربارا؟"

"كلا، سنتصرف كما يتراءى لنا".

"وكيف ذلك؟"

"لا أعرف، فهناك دائماً شيء جديد يطرأ، ولكن سيتعين علينا بالأساس أن نذهب إلى المزرعة".

"انسَ الأمر، كما كانت صديقتك ليزا لتقول لك".

"من ليزا؟ أوه. تعنين تلك المرأة في الجهاز الأمني".

"هناك الكثير من الحسناوات في كاليفورنيا".

"بل هناك حسناء واحدة في كاليفورنيا، أنتِ".

وهكذا دواليك.

ثم ارتفع رنين هاتف كيت الخلوي وبالطبع كان هذا دوغلاس بينديك يتفقد مكاننا بعد أن اكتشف أننا لم ندخل فندق المطار المحدد لنا، فقلت لها "لا تجيبيه".

"بل يجب أن أجيبه". وفعلت، وكان تخميني في محله.

استمعت كيت إليه للحظات، ثم قالت "حسناً، نحن على الطريق 101 متوجهين صوب الشمال". ثم استمعت مرة أخرى قبل أن تجيب "هذا صحيح، لقد اكتشفنا أن آل ريغان". ثم بات جلياً أنه قاطعها وشرع يقول شيئاً كانت تستمع إليه.

فقلت لها "أعطيني هذا الهاتف".

إلا أنها هزّت رأسها رافضة وتابعت الاستماع إليه.

أغضبني هذا كثيراً لأنني كنت على يقين من أنه يؤنبها، وهو أمر لا يصح فعله مع خطيبة جون كوري إلا إذا كنت سئمت الحياة وتود الانتحار. ولكنني لم أشأ أن أختطف الهاتف منها، ومن ثم مكثت صامتاً وأنا أغلي غضباً. وتساءلت، لماذا لا يتحدث إليّ هذا الرجل؟!

رأيت كيت تحاول أكثر من مرة أن تقول شيئاً، إلا أن دوغي اللعين دأب على مقاطعتها. وأخيراً انفعلت كيت إزاء سلاطته وقالت "اسمع يا دوغ، أنا لا أقدر لك على الإطلاق إخفاءك المعلومات عني، وأن تأمر رجال الجهاز الأمني كي يفعلوا المثل. ولمعلوماتك، لقد أرسلنا إلى هنا من قِبل القادة والرؤساء في وحدة مكافحة الإرهاب بنيويورك، والذين طالبوا المكتب في لوس أنجلوس أن يقدموا لنا المساعدات والمساندات اللازمة. ووحدة مكافحة الإرهاب بنيويورك هي المنوطة بالعمل على هذه القضية، ونحن ممثلاها هنا في لوس أنجلوس. وها أنا متاحة دائماً على الهاتف الخلوي وجهاز النداء الآلي، وسأظل كذلك. وكل ما تحتاج إلى معرفته الآن هو أنني والسيد كوري سنكون على متن الطائرة هذا الصباح ما لم تأتنا أوامر أخرى من الرؤساء في نيويورك أو واشنطن. وأخيراً، ليس من شأنك أين أنام، أو بصحبة من". ثم أنهت الحديث.

أردت أن أهنئها بكلمة "برافو". ولكن الصمت كان أفضل في هذا الموقف.

تابعنا طريقنا بصمت، إلا أن رنين هاتفها الخلوي انطلق مرة أخرى بعد بضع دقائق، فأجابت. كنت أعرف أنه لا يمكن أن يكون المتصل دوغلاس، حيث من المستحيل أن تكون لديه الشجاعة ليعيد المحاولة. لكنني خمنت أنه سيتصل بواشنطن ويشكو لهم هناك فيتصلون بنا بدورهم ليوقفوا مهمتنا إلى مزرعة ريغان. وكم سأستاء لو أن الأمر كذلك. لذا، اندهشت في سرور وارتياح عندما ناولتني

كيت الهاتف وهي تقول "إنها بولا دونيللي من مركز قيادة الحدث. لديها رجل يتحدث على الخط المباشر الخاص بك يريد أن يتحدث إليك، وإليك فقط". ثم أضافت وكأنها معلومة لا داعي لها. يُدعى "أسد خليل".

وضعت الهاتف على أذني وقلت لبولا "هذا أنا، كوري، هل يبدو لكِ هذا الرجل صادقاً؟"

أجابت بولا "أنا لا أعرف كيف يبدو القاتل المحترف في حديثه، ولكن هذا الرجل يقول إنه قد تحدث إليك في فينتشورا وأنك أعطيته رقمك المباشر".

"إنه هو إذاً، هل بوسعك أن تصليني به؟"

"بوسعي هذا، لكنه لا يرغب في ذلك. إنه يريد رقمك المباشر، ومن ثم سأعطيه رقم كيت في حال كان هذا مناسباً. ولا أظن بالطبع أنه سيعطيني رقمه".

"لا بأس، أعطيه هذا الرقم. شكراً لكِ يا بولا".

أنهيت الحديث مع بولا والتزمت الصمت، وكذلك فعلت كيت، ومكثنا ننتظر وقد بدا لنا الزمن وكأنه يمتد بلا نهاية. وأخيراً تعالى رنين الهاتف، فأجبت قائلاً "كوري".

قال أسد خليل "مساء الخير سيد كوري، أم أقول صباح الخير؟"

"قل ما يحلو لك".

"هل أيقظتك من نومك؟"

"لا بأس، كان يجب عليّ النهوض كي أجيب على الهاتف على أي حال".

تبع هذا صمت لبرهة كان خليل يحاول خلالها فهم السر وراء روح الدعابة لديّ. لم أكن على علم بسبب اتصاله، ولكن من الطبيعي أنه عندما يتصل بك شخص ما وليس لديه ما يقدمه لك، فإن هذا يعني أن لديه ما يطلبه منك. فقلت له "إلامَ انتهيت إذاً منذ تحدثنا آخر مرة؟"

"كنت على وشك السفر، وأنت؟"

"وأنا كذلك". ثم أضفت "مفارقة مضحكة؛ كنت أتحدث عنك لتوي".

"أنا متأكد أن لديك القليل من الأشخاص لتتحدّث عنهم ما عداي".

أيها الأحمق!

"بل لديّ حياة بأسرها لأتحدث عنها، ماذا عنك أنت؟"

لم يبدُ أنه قد فهم ما عنيته، فقال "بالطبع أنا على قيد الحياة، وأفضل من أي وقت مضى".

"صحيح، ماذا تريد مني إذاً؟"

"أين أنت سيد كوري؟"

"أنا في نيويورك".

"أحقاً؟ أظن أنني أتحدث إليك عبر هاتف خلوي".

"هذا صحيح، وهذا هاتفي الخلوي في نيويورك، وأنا معه. ماذا عنك أنت، أين أنت؟"

"أنا في بلدي".

"أتمزح؟ إن صوتك بالغ الوضوح وكأنك تتحدث من أسفل البناية".

"قد أكون كذلك بالفعل، ربما أكون في نيويورك الآن".

"ربما، يمكنك النظر خارج النافذة لتعرف أين أنت، هل ترى الجمال أم سيارات الأجرة الصفراء؟"

"سيد كوري، أنا لا أحب نبرة السخرية في صوتك تلك. كما أن موقع كل منا لا يجدي نفعاً طالما أننا – أنا وأنت – نكذب في هذا الشأن".

"تماماً، ما الغرض إذاً من هذه المكالمة؟ ماذا تريد؟"

"أتعتقد أنني أتصل فقط لطلب المساعدة؟ وددت فقط لو سمعت صوتك".

"كم هذا لطيف منك. هل كنت تحلم بي مرة أخرى؟"

ثم نظرت إلى كيت التي كانت تبقي عينيها مركزتين على الطريق المظلم حيث بدأ الضباب ينتشر فوق الطريق، وأصبح مخيفاً بعض الشيء. إلا أنها نظرت إليّ وغمزت بعينها.

أخيراً أجابني خليل "نعم، في الحقيقة كنت أحلم بك بالفعل".

"وهل كان حلماً جيداً؟"

"حلمت أننا تقابلنا في مكان مظلم، ثم بزغت أنا إلى حيث الضوء، بمفردي، وقد غطتني دماؤك".

"أحقاً؟ وماذا يعني ذلك من وجهة نظرك؟"

"أنت تعرف ماذا يعني".

"ألا تحلم بالنساء أبداً؟ عندها تصحو وأنت في قمة النشوة".

هنا لكزتني كيت في أضلاعي.

بيد أن خليلاً لم يجبني عن سؤالي هذا، بل غيّر الموضوع بأن قال "في الحقيقة هناك بضعة أشياء يمكنك فعلها من أجلي".

"كنت أعرف".

"أولها أن تخبر السيد ويجينز أنني سأنال منه حتى لو استغرق الأمر خمسة عشر عاماً أخرى".

"على مهلك يا أسد، ألا ترى أن الوقت قد حان لبعض التسامح هنا والمضي في-".

"اخرس".

يا الله!

"أما المطلب الثاني سيد كوري فهو الرسالة ذاتها بالنسبة لك وللآنسة مايفيلد".

نظرت نحو كيت ولم يبدُ لي أنها تستطيع سماع صوت خليل أو الجزء الخاص بها من الحديث، فقلت للمتصل المعتوه "أنت تعرف يا أسد أنه لا يمكنك حل جميع مشكلاتك باستخدام العنف".

"بل يمكنني بالطبع".

على أي حال، انتقل خليل إلى الغرض الحقيقي من مكالمته تلك وسألني "بماذا أخبرتني في آخر مرة تحدثنا فيها؟"

"أظنني نعتك بالسافل، إلا أنني أرغب في سحب هذه الإهانة لأنها بمثابة لطخة عرقية، وأنا موظف فيدرالي ومواطن أميركي".

وتابعت قائلاً "حسناً، إنها الاستخبارات الأميركية مرة أخرى، لديهم رجال حذقون بحق، ويعرفون أشياء لا تخطر لك ببال. لديّ صديقي هذا في الاستخبارات الأميركية، ويُدعى تيد، ولقد أخبرني أن أباك، اسمه كريم، أليس كذلك؟ على أي حال، أنت تعرف بالطبع ما حدث في باريس، ولكن لا أظنك تعرف أنه لم يلقَ حتفه على أيدي الإسرائيليين، فالحق يا أسد أنه، حسناً، لماذا ننبش في الماضي؟ كلها أشياء عفنة، وأنا أعرف كيف أنك تحمل الأحقاد، فلماذا تزعج نفسك بالأمر ثانية؟ انسَ الأمر فحسب".

ساد صمت طويل، ثم قال خليل "تابع حديثك".

"أمتأكد من أنك ترغب في هذا؟ أعني أن هذا ما يفعله الناس عادة. يقولون لك: تابع حديثك، أخبرني ولن أغضب منك. وما إن تخبرهم بالأخبار السيئة حتى يكرهونك. وأنا لا أريدك أن تكرهني".

"أنا لا أكرهك".

"ولكنك ترغب في قتلي".

"نعم، ولكنني لا أكرهك، فأنت لم تؤذني".

"بل فعلت بالطبع، لقد أفسدت عليك خطتك لقتل ويجينز. ألا يعطيني هذا بعض النقاط؟! حتى أنت يا بروتس؟"

"معذرة؟"

"لا عليك، إنه شكسبير. أعني أنه لا بأس إن كنت تكرهني، ولكن ماذا يدفعني إلى ذكر هذا الأمر؟ أعني ماذا يفيدني لو أخبرتك بشأن والدك؟"

فكَر خليل بالأمر قليلاً ثم قال "لو أخبرتني بما تعرفه، أعدك أنني لن أتعرض للآنسة مايفيلد بأي أذى".

"وويجينز كذلك".

"لا أستطيع أن أعطيك هذا الوعد، فالرجل مقضي عليه لا محالة".

"حسناً، نصف الصفقة أفضل من لا شيء. أين توقفت في الحكاية؟ أوه، نعم، في باريس. اسمع يا خليل، أنا لا أريد أن أعمد إلى التخمين، أو بذر بذور الشك وعدم الثقة، ولكن عليك أن تسأل نفسك سؤالاً عادة ما يسأله رجال التحقيق الجنائي لأنفسهم لدى التحقيق في قضية قتل، من المستفيد من هذه الجريمة؟ من المستفيد من مقتل والدك؟"

"الإسرائيليون بلا شك".

"هيا يا أسد، أنت أكثر ذكاءً من هذا. كم هو عدد الرجال الذين ينتمون إلى جيش بلدك والذين ذهبوا ضحايا الإسرائيليين في شوارع باريس؟ إن الإسرائيليين يحتاجون إلى أسباب لاقتراف مثل هذه الأشياء، فماذا فعل لهم والدك ليقتلوه؟ أخبرني إن كنت تعرف".

سمعته يبلع ريقه قبل أن يقول "لقد كان معادياً للصهيونية".

"أحقاً؟ ومن في بلدك بأسرها ليس كذلك؟ هيا يا صديقي، إليك الحقيقة المؤسفة. إن أصدقائي في الاستخبارات المركزية على يقين من أن الإسرائيليين لم يقتلوا أباك، وأن ذاك الاغتيال – وفقاً لبعض اللاجئين من بلدك – كان بتعليمات صادرة من القائد نفسه. تقبل اعتذاري يا أسد".

إلا أنه لم يقل شيئاً على الإطلاق.

فتابعت حديثي "تلك هي حقيقة الأشياء. هل كان هناك اختلاف سياسي بين أبيك والقائد؟ أو هل وشى أحدهم بأبيك فأوقع به في أمر ما؟ أم كان ذلك لأجل...؟ من يعرف؟ أخبرني أنت".

ومرة أخرى أتاني ذلك الصمت.

"أما زلت معي يا أسد؟"

فقال أسد خليل "إنك كاذب حقير، وكم سيسعدني أن أقتلع لسانك قبل أن أقطع عنقك".

"أترى؟ كنت أعرف أنك ستغضب. هلاّ أسديت لي صنيعاً؟ ألو، أسد؟ ألو؟"

ضغطت زر إنهاء المكالمة، ووضعت الهاتف على المقعد بيني وبين كيت، ثم تنهدت بعمق وساد الصمت لبرهة. أطلعت بعدها كيت على فحوى حديث خليل، وحتى أخبرتها بما قاله عن قتلها، وانتهيت بأن قلت "هذا الرجل لا يحبنا".

"لماذا صيغة الجمع تلك؟ إنه لا يحبك أنت؛ فهو يبغي قطع لسانك وعنقك".

"وماذا في هذا؟ لدي أصدقاء يتمنون لو فعلوا هذا بي".

ضحكنا في محاولة للتخفيف من حدة الموقف، ثم قالت كيت "على أي حال، أظنك تعاملت معه على نحو جيد. أعني، لماذا لجأت إلى كل هذه الجدية والحرفية؟"

"تقول القاعدة إنه متى كان لدى المشتبه به شيء تريده أنت، عامله باحترام وأهمية. وعندما يتصل لغرض يرغبه هو، يمكنك أن تلهو به كيفما تشاء".

"لا أتذكر أنني قرأت هذا في دليل المحقق".

"نعم، فأنا أعيد كتابة هذا الدليل".

"لاحظت ذلك بالفعل". ثم فكرت للحظة قبل أن تقول "لو أنه نجح في العودة إلى بلده، فلا شك أنه سيبدأ في البحث عن إجابات".

أجبتها "لو أنه توجه بأسئلة كهذه في بلده، فهو مقتول دون شك، فهو إما سيتابع استنكاره وعدم تصديقه، أو أنه سيفعل هناك ما فعله هنا. إنه رجل خطير ومندفع؛ آلة قتل، وحياته مكرسة للانتقام".

"وها أنت قد زودته بالمزيد من الدوافع للانتقام".

"أتمنى هذا".

تابعنا السير، ولاحظت أنه لم يكن هناك سوانا على الطريق؛ فالأحمق فقط هو من يخرج من داره في ليلة كهذه، وفي ساعة كهذه.

قالت كيت "وهل لا تزال تعتقد أن خليلاً في كاليفورنيا؟"

"بل أنا متأكد من هذا. إنه في سانتا (لا أعرف ماذا) بيت التلال، بالقرب من مزرعة ريغان".

فنظرت إلى الخارج، إلى حيث الضباب الأسود يحيط بالتلال وقالت "أتمنى ألا يكون هناك".

"بل أتمنى أن يكون".

الفصل الرابع والخمسون

أخذنا الطريق 101 إلى داخل فينتشورا حيث النقطة التي يترك فيها الطريق السريع التلال ثم يصبح طريقاً ساحلياً. كان الضباب كثيفاً بحق، وكنا بالكاد نرى لمسافة عشرين قدماً إلى الأمام.

ثم لمحت أضواء منتجع فينتشورا إن بيتش إلى اليسار منا، فقلت لكيت "هنا كانت خطبتي".

"وسنعود إلى هنا لقضاء شهر العسل بعد زواجنا".

"كنت أفكر في السفر إلى مدينة أتلنتا".

"فكّر مرة أخرى إذاً". ثم أردفت بعد بضع ثوانٍ يبدو أنها قد أعادت التفكير فيها "أو أياً كان ما يسعدك".

"سأكون سعيداً عندما أراكِ سعيدة".

على أي حال، كنا نسير بسرعة أربعين ميلاً في الساعة فحسب، وحتى هذا المعدل بدا سريعاً جداً بالنسبة لظروف الطريق تلك، ثم رأيت علامة *سانت باربرا – 30 ميلاً*.

أدارت كيت المذياع حيث تمكّنا من سماع إعادة لأخبار أذيعت من قبل، وكان المذيع يقدم آخر أنباء القصة الكبرى، فقال "ويؤكد مكتب التحقيقات الفيدرالية الآن أن الإرهابي المسؤول عن موت جميع الركاب على متن الرحلة 175 بمطار كنيدي في نيويورك، بالإضافة إلى أربعة أشخاص بالمطار، لا يزال طليقاً، ومن المحتمل أنه قد قتل ثمانية أشخاص آخرين في فراره من السلطات القانونية؛ الفيدرالية والمحلية".

تابع الرجل ليقرأ كمًّا هائلاً من التصريحات والبيانات الطويلة والملتوية، حتى انتهى أخيراً بقوله "ويؤكد متحدث رسمي باسم مكتب التحقيقات الفيدرالية أن هناك علاقة تربط بين العديد من هؤلاء الضحايا الذين استهدفهم أسد خليل، وسيتم عقد مؤتمر صحفي كبير في واشنطن عصر الغد لإعلان المزيد حول هذا الحدث المأساوي، وسنكون هناك لتغطية التطورات".

هنا غيّرت المحطة إلى شيء نستسيغ الاستماع إليه.

قالت كيت "ألم يذكر الرجل شيئاً عن ويجينز، أم قد فاتني هذا الجزء؟"

"بل لم يذكر شيئاً عنه، أظن أن الحكومة قد أرجأت الأمر لتعلن عنه غداً في ذلك المؤتمر الصحفي".

"تعني اليوم، من الواضح أننا لن نلحق بطائرة الصباح المغادرة لوس أنجلوس".

فألقيت نظرة على الساعة المثبتة في لوح السيارة الأمامي، ووجدتها 2:50 من بعد منتصف الليل، وتثاءبت بينما أخرجت كيت هاتفها الخلوي، وشرعت تطلب رقماً ما وهي تقول "سأتصل بمكتب فينتشورا".

سرعان ما كانت سندي لوبيز معها على الخط، وسألتها "هل أتتكم أي أخبار من المزرعة؟" ثم استمعت إلى محدثتها قليلاً قبل أن تقول "هذا جيد". إلا أن الأمر السيئ هو أن دوغلاس قد اتصل بالمكتب بالفعل، ولاحظت أن كيت تستمع لبرهة ثم تجيب "أنا لا أعبأ بما قاله دوغ، وكل ما نطلبه هو أن نقابل عملاء مكتب فينتشورا المتواجدين في سانت باربرا. اتصلي بالمزرعة وأخبري الجهاز الأمني أننا في طريقنا إلى المزرعة لمقابلة رئيسهم". ثم استمعت مرة أخرى، وأخيراً قالت "لقد تحدث جون إلى أسد خليل بالفعل. نعم، هذا هو ما قلته. لقد نشأت بينهما علاقة على نحو ما، وهو أمر غاية في الأهمية إذا ما تطور الموقف. نعم، هذا صحيح. حسناً، سأنتظرك".

ثم غطت سماعة الهاتف بيدها وقالت لي "إن سندي تتصل برئيس فرقة الجهاز الأمني في المزرعة".

"خطوة جيدة يا مايفيلد".

"شكراً لك".

ثم قلت مقترحاً "لا تسمحي لهم بإجراء أي اتصال هاتفي مشترك معنا، فنحن لن نقبل أي اتصال من الجهاز الأمني. لا شيء سوى المقابلة في سانت باربرا، سواء مع المسؤول الفيدرالي أو مع مسؤول الجهاز الأمني، على أن تتبع هذه المقابلة زيارة المزرعة".

"أظنك لن تتنازل عن هذا أبداً حتى ولو كان فيه مقتلك، أليس كذلك؟"

"بل أظن أنني أستحق هذا، إن خليلاً لم يقتل الكثير من هؤلاء الذين يخدمون هذه البلد فحسب، بل هدد حياتي وحياتك؛ ليس حياة جاك أو حياة ستيرجيز، بل حياتي وحياتك. ودعيني أذكرك؛ لم تكن فكرتي أن أضع اسمي وصورتي في الصحف، بل أحدهم مدين لي بذلك، وعليهم الآن أن يدفعوا الثمن".

أطرقت كيت، ولكنها لم تجب، ثم أتتها سندي لوبيز على الخط، وراحت كيت تستمع إليها، ثم قالت "انسي الأمر، نحن لن نناقش هذا في مكالمات هاتفية غير مؤمنة. فقط أخبريني أين سنقابلهم في سانت باربرا".

ثم استمعت مرة أخرى، وقالت "حسناً، أشكرك. نعم، سنفعل". وأنهت الحديث معها وقالت لي "سندي ترسل إليك تحياتها وتسأل متى ستعود إلى نيويورك؟"

الجميع يتمتعون بروح الدعابة على ما يبدو.

"وماذا قالت سوى ذلك؟"

"حسناً، يقيم المسؤول الفيدرالي في نُزل يدعى سي سكايب إلى الشمال من سانت باربرا، بالقرب من طريق المرتفعات المؤدي إلى المزرعة. وهناك ثلاثة أشخاص من مكتب فينتشورا هناك: كيم، وسكوت، وإدي، ومعهم رجل الجهاز

الأمني الذي يعمل كحلقة اتصال. سنقصد هذا النزل ونخبرهم بشأن حديثك الهاتفي مع أسد خليل. ربما لن نستطيع الذهاب إلى المزرعة، ولكن يمكننا الانتظار في النُزل حتى الفجر في حال طرأت أي تطورات، أو صارت هناك حاجة إليك لتتحدث إلى خليل عبر الهاتف إذا ما صفدوه".

"فهمتك". ثم أردفت "لكنك تدركين أننا سنذهب إلى المزرعة".

"تحدث في الأمر مع رجل الجهاز الأمني عندما تقابله في النُزل".

ثم تابعنا سيرنا نحو الشمال، ولم نستطع زيادة السرعة. مضت فترة لاحظنا بعدها بعض أمارات الحضارة، ولافتة مكتوب عليها **مرحباً في سانت باربرا**.

كان الطريق الساحلي يمر بالحافة الجنوبية للمدينة، ثم ينحرف شمالاً مبتعداً عن الساحل، فتابعنا سيرنا أعلى الطريق 101 لنحو عشرين ميلاً أخرى، عاد بعدها الطريق إلى الساحل، فقلت "هل أغفلنا النُزل؟"

"لا أعتقد، جرّب الاتصال بهم على أي حال".

فكرت للحظة ثم قلت "أعتقد أنه يجدر بنا توفير الوقت والذهاب إلى المزرعة مباشرة".

"أعتقد أنك لم تفهم جيداً التعليمات الموجهة إلينا يا جون".

"أخبريني، كيف لنا أن نعرف الطريق المؤدي إلى المزرعة؟"

"ليست لديّ أدنى فكرة".

رحنا نتقدم ببطء في قلب ذلك الضباب، وكنت أشعر بالمحيط إلى يسارنا وإن لم أره. أما إلى اليمين، فكنت أرى الأرض المرتفعة بيد أنني لم أرَ المرتفعات التي قالت كيت إنها أحياناً ما تصبح شديدة القرب من البحر. وعلى أي حال، كانت الطرقات التي تتداخل مع الطريق 101 قليلة في هذا المكان؛ بل الحق أنه مضى وقت طويل منذ آخر مرة رأيت فيها أيًّا من هذه الطرقات.

أخيراً، أبصرت إلى اليسار مساحة أرضية مفتوحة بين الطريق والمحيط، بزغت بعدها عبر الضباب لافتة تقول **نُزل سي سكايب**.

هكذا اندفعت كيت إلى مرآب الفندق وهي تقول "الغرفتان 116 و117".

"فلنذهب إلى منطقة الاستقبال أولاً".

"ولِمَ؟"

"سأحجز لنا غرفتين أخريين، وأحاول جلب بعض المأكولات الخفيفة والقهوة".

تحركت كيت بالسيارة نحو المكتب الأمامي ذي المظلة، وترجلتُ أنا من السيارة ما إن توقفت. وبالداخل، رآني موظف الاستقبال من خلال باب زجاجي وأشار لي بالدخول؛ أظنني أبدو شخصاً محترماً في حلّتي تلك، حتى وإن بدت مجعدة أو تفوح منها الرائحة.

خطوت نحو الموظف، وأظهرت له أوراقي الفيدرالية، وقلت "أعتقد أن لدينا زملاء هنا؛ في الغرفتين 116 و117".

"نعم يا سيدي، أتود أن أتصل بهم لأجلك؟"

"كلا، أود ترك رسالة لهم فحسب".

فناولني الرجل مفكرة وقلم رصاص، فكتبت التالي "كيم، وسكوت، وإدي، معذرة لم أستطع التوقف لمقابلتكم، أراكم في الصباح، جون كوري".

ثم أعدت المفكرة إلى الموظف وقلت له "اتصل بهم عند الثامنة صباحاً وأعطِهم الرسالة، اتفقنا؟" ثم نقدته عشرة دولارات، وسألته وكأنني أسأل بشكل عرضيّ "كيف لي أن أجد الطريق إلى مزرعة ريغان؟"

"أوه، ليس الأمر صعباً. اتجه شمالاً حتى تجد على يسارك منتزه ريفوجيو وإلى اليمين بداية الطريق الجبلي؛ طريق ريفوجيو. ولكن كن حذراً لأنك لن تجد علامة أو لافتة". ثم أضاف "ولكن الأفضل ألاّ تذهب إلى هناك الليلة".

"ولِمَ لا؟"

"لأنك لن تستطيع الرؤية على الإطلاق. فبالقرب من القمة تجد الطرقات شديدة التعرج ومن السهل جداً الانحراف حتى تجد نفسك أخيراً مستلقياً في أحد الوديان، أو ربما ما هو أسوأ من ذلك".

"لا مشكلة، فالسيارة ملك للحكومة على أي حال".

ضحك الرجل، ثم نظر إليّ وقال "يعني هذا أن العجوز في منزله، أليس كذلك؟"

"فقط لبضعة أيام". ثم سألته "هل سأجد صعوبة في العثور على المزرعة؟"

"كلا، إنها في نهاية الطريق على أي حال؛ اتجه يساراً عندما يتفرّع الطريق. هناك مزرعة أخرى إلى اليمين، وسترى بعض البوابات الحديدية إذا ما اتجهت صوب اليسار". ثم نصحني مرة أخرى "تصعب القيادة في هذا الطريق حتى في وضح النهار، ومعظم مرتاديه لديهم شاحنات ضخمة". ثم نظر إليّ ليتأكد أنني وعيت مقصده، وكنت متأكداً أن هدفه هو بذل أقصى جهد في نصحي حتى يتسنى له أن يقول للشرطة في ما بعد "لقد حذرته".

ثم قال "سيبزغ ضوء النهار في غضون ثلاث ساعات، وبعض هذا الضباب سينقشع في ساعة أو نحوها بعد شروق الشمس".

"شكراً لك، لكن لدي ستة أرطال من هلام الفول السوداني عليّ تسليمها قبل موعد الفطور. أراك في ما بعد".

هكذا تركت منطقة الاستقبال، وعدت أدراجي إلى السيارة، ففتحت باب كيت وقلت لها "تمددي قليلاً، واتركي السيارة تمور".

بالفعل خرجت كيت من السيارة، وتمددت في وقفتها وهي تقول "إحساس رائع. هل حجزت لنا الغرفتين؟"

"ما من غرف شاغرة". ثم جلست خلف عجلة القيادة، وأنزلت زجاج النافذة وقلت لها "أنا ذاهب إلى المزرعة، ستأتين معي أو ستمكثين هنا؟"

فتحت كيت فمها لتقول شيئاً ما، ثم أفلتت منها تنهيدة غاضبة والتفت حول السيارة إلى حيث المقعد بجواري، وقالت "هل تجيد القيادة؟"

"بالتأكيد". ثم قدت السيارة عائداً إلى الطريق الساحلي ثم استدرت شمالاً، وقلت "ستة أعشار الميل حتى ريفوجيو بارك إلى اليسار وطريق ريفوجيو إلى اليمين. أبقي عينيكِ مفتوحتين".

لم تجبني كيت، وأظنها كانت غاضبة.

بالفعل رأينا لافتة المنتزه، وفي الثانية الأخيرة لمحت الطريق الجانبي، وانحرفت بعجلة القيادة صوب اليمين. وفي غضون بضع دقائق كنا نتجه إلى أعلى التل في طريق ضيق، ولم تمضِ بضع دقائق حتى ازداد الضباب سوءاً حتى إننا لم نكن نرى أي علامات حتى لو كانت موجودة بالفعل.

كنا صامتين معظم الوقت نتحسس طريقنا الذي كان – على الأقل – مستقيماً في هذه المنطقة، وبدا كالوادي بين جدارين من الأعشاب والنباتات.

أخيراً تحدثت كيت قائلة "سيرجعوننا دون شك".

"ربما، ولكن يجب عليّ فعل ذلك".

"أعرف هذا".

"نعم، لأجل البشرية".

ضحكت كيت وقالت "أنت أحمق بلا شك. كلا، أنت دون كيشوت تحارب طواحين الهواء. أتمنى ألا يكون غرضك هو التباهي أمامي".

"بل على العكس، أتمنى لو كنت بمفردي الآن".

"بالطبع".

تابعنا الصعود، وأصبح الطريق أضيق وأكثر حدة، وبدأ سطحه يصبح أكثر خشونة.

"كيف يصل رون ونانسي إلى هنا؟ بالمروحية؟"

"بالتأكيد، فالطريق خطر للغاية".

"لا بأس بالطريق نفسه، لكنها المنحدرات على الجانبين هي ما يشكل الخطر الحقيقي".

في الحقيقة، كنت متعباً وأجد صعوبة في البقاء مستيقظاً بالرغم من أن القلق قد بدأ يساورني بشأن الطريق، فقلت لكيت "لديّ سيارة غراند شيروكي، كم أتمنى لو أنها معي الآن".

"حتى وإن كنت تقود ناقلة، ألا ترى المنحدرات على الجانبين؟"

"كلا، فالضباب كثيف، أتعتقدين أنه يجدر بنا الانحراف يميناً؟"

"بل لا يمكنك الانحراف على الإطلاق. فالطريق بالكاد يتسع للسيارة".

"حسناً، لكنني متأكد من أنه سيتسع بعد ذلك".

"كلا، لن يفعل". ثم أضافت "أطفئ الأنوار العالية؛ السفلى ستكون أفضل الآن".

فعلت كما قالت كيت، ووجدت أن الأضواء السفلى لا تعكس الكثير من الضباب، وتابعنا السير. وعلى الرغم من أنني قد بدأت أتشتت بفعل الضباب، إلا أن الطريق كان لا يزال مستقيماً.

وفجأة صاحت كيت "جون، قف!"

ضغطت على مكابح السيارة بقوة فراحت تترنح حتى توقفت، وسألتها "ماذا بكِ؟"

تنهدت بعمق وقالت "كنت على وشك السقوط في منحدر".

"حقاً؟ لكنني لا أراه".

فتحت كيت بابها وخرجت، وراحت تسير أمام السيارة؛ أظنها كانت تحاول إيجاد الطريق. كنت بالكاد أراها، وكانت تبدو كالطيف في هذا الضباب وفي ضوء السيارة. ثم اختفت في قلب الضباب لبرهة قبل أن تعود إلى السيارة وتقول "استمر في الاتجاه يساراً، ثم احترس حيث إن الطريق ينحرف إلى جهة اليمين".

"شكراً لكِ". وتابعت القيادة حتى لمحت أين تنتهي الحافة اليمنى ويبدأ الانحراف الشديد، فقلت لكيت "لديكِ بصر حاد".

والحق أن الضباب كان أقل كثافة الآن بينما نتسلق الطريق الجبلي، وبالطبع كان هذا أفضل كثيراً حيث إن الطريق كان أسوأ كثيراً عن ذي قبل، فأنرت المصابيح العليا مرة أخرى. أصبحت انحرافات الطريق أكثر حدة وخطورة، بيد أنه كان بوسعي الرؤية حتى عشرة أقدام، وخففت سرعتي في الوقت ذاته حتى تتسنى لي فرصة الاستجابة للتعرجات، وشعرت بالغضب؛ لا يجدر بفتى المدينة أن يكون هنا بأي حال.

سألت كيت "هل هناك حيوانات برية في هذه المنطقة؟"

"تعني بالإضافة إليك؟"

"نعم، بالإضافة إليّ".

"ربما الدببة، لا أعرف، فلم يحدث من قبل أن ابتعدت شمالاً إلى هذا الحدّ". ثم أضافت "ولكنني أعتقد أن هناك الكثير من الأسود الجبلية هنا".

"يا الله، كم أمقت هذا المكان. لماذا قد يرغب قائد العالم الحر أن يمكث هنا؟" ثم أجبت عن سؤالي قائلاً "نعم، هذا المكان أفضل من واشنطن على أي حال".

"أبقِ عينيك على الطريق من فضلك".

"أي طريق؟"

"هذا الطريق، فلتظل فوقه".

"أنا أفعل ما بوسعي".

بعد نحو خمس عشرة دقيقة أخرى، قالت كيت "أتعرف، لا أظنهم سيرجعوننا، ليس بوسعهم فعل هذا. كلا، لن يفعلوا".

"تماماً".

ثم تعالى رنين الهاتف الخلوي، فأجابت كيت قائلة "مايفيلد". ثم استمعت إلى المتحدث عند الطرف الآخر، وقالت "إنه لا يستطيع الحديث على الهاتف الآن يا توم؛ فكلتا يديه على عجلة القيادة وأنفه ملتصق بالزجاج الأمامي". ثم استمعت مرة أخرى وقالت "هذا صحيح، نحن على الطريق إلى المزرعة. حسناً، لا بأس، سنكون حذرين. نراك في الصباح. شكراً لك".

ثم أنهت المكالمة وقالت "توم يقول إنك مختل عقلياً".

"لقد اتفقنا على هذا من قبل، هل من جديد؟"

"حسناً، يبدو أن علاقتك الوطيدة بالسيد خليل قد فتحت لنا الأبواب. يقول توم إن الجهاز الأمني سيتيح لنا الدخول إلى المزرعة". ثم أضافت "إنهم يفترضون أنك ستبدأ رحلة الذهاب إلى هناك لدى الفجر، ولكن توم سيتصل بهم ويخبرهم أننا في الطريق الآن".

"أترين؟ قدِّمي لهم أمراً واقعاً قد حدث بالفعل وستجدينهم يسمحون لكِ به وكأنكِ لم تقومي به، فيما لو طلبتِ منهم إذناً لفعل أمر ما سيجدون بالقطع سبباً للرفض".

"هل تذكر هذا في دليلك الجديد؟"

"ليس بعد، لكنني سأذكره هناك".

مضت عشر دقائق أخرى ثم سألتني كيت "ماذا كنت ستفعل لو وصلنا إلى هناك وأعادونا؟ ما هي خطتك الاحتياطية؟"

"كنت سأترك السيارة، وأتسلل إلى المزرعة سيراً على الأقدام".

"خمنت هذا، ومن ثم يطلقون علينا الرصاص ما إن يرونا".

"لا أحد بوسعه أن يرى شيئاً في هذا الليل الذي يكتنفه الضباب؛ حتى مع كشافات الضوء. أنا أجيد الملاحة الأرضية. عليكِ فقط الصعود إلى أعلى التل؛ الطحالب تنمو على الجانب الشمالي من الأشجار، والمياه تجري أسفل التل، وسرعان ما سنصبح في المزرعة، فنتسلق السياج ثم إلى الحظيرة أو أي مكان كهذا. لا مشكلة على الإطلاق".

"وما هدفك؟ ما الذي ستجنيه من ذلك؟"

"أريد فقط أن أكون هناك، هناك هو مكان الحدث، وهناك أود أن أكون. لا يبدو الأمر معقداً يا كيت".

"صحيح، مثلما حدث في مطار كنيدي".

"تماماً".

"سيأتي يوم ستكون فيه في المكان الخطأ وفي الزمن الخطأ".

"يوم ما ربما، ولكن ليس اليوم".

لم تجبني كيت، واكتفت بالنظر من النافذة بجوارها إلى مرتفع بالأرض كان يعلو فوق السيارة، ثم قالت "أرى الآن ما كانت ليزا تعنيه عندما قالت إن هذا الطريق بمثابة فخ، لا يمكن أن ينجو أحد على هذا الطريق".

"حتى بدون أفخاخ يا عزيزتي، المار من هنا مقتول لا محالة".

فركت كيت وجهها بيديها، ثم تثاءبت وقالت "هل هكذا ستكون الحياة معك دائماً؟"

"كلا، بل ستكون هناك بعض اللحظات الصعبة".

سمعتها تضحك – أو ربما تبكي – أو شيء كهذا، وفكّرت أنه ربما من الأفضل لو أخذت منها سلاحها.

ثم استقام الطريق واستوى المنحدر، وساورني إحساس أننا على مقربة من نهاية رحلتنا.

وبعد بضع دقائق لاحظت أن الأرض أمامنا قد استوت وخفّت كثافة النباتات فيها، ثم رأيت طريقاً يتجه إلى اليمين، بيد أنني تذكرت أن موظف النُزل قد نصحني بالاتجاه يساراً. وقبل أن أصل إلى مفترق الطرق، ظهر رجل من قلب الضباب رافعاً يده. فتوقفت ووضعت يدي فوق سلاحي، وكذلك فعلت كيت.

سار الرجل نحونا، ورأيت أنه يرتدي الزي الرسمي الداكن مثبتاً به شارته، ويعتمر قبعة تشبه قبعة البيسبول كُتب عليها (الجهاز الأمني). فأنزلت زجاج نافذتي فيما أتى هو تجاه النافذة وقال "ترجل من فضلك، وأبقِ يديك مرفوعتين حيث أراهما".

عادة ما تكون هذه جملتي، وأنا أعرف الإجراءات. ترجلت وكيت من السيارة، وسمعت الرجل يقول "أظنني أعرفكما، لكنني بحاجة إلى رؤية بعض البطاقات. وببطء من فضلكما".

أظهرت له بطاقة هويتي وراح يفحصها تحت ضوء الكشاف في يده، ثم نظر ناحية كيت قبل أن يسلط الضوء على لوحة السيارة. وعندما اطمأن إلى أننا نتسق ومواصفات الرجل والمرأة في سيارة الفورد الزرقاء، وأن اسميهما مطابقان لاسمي العميلين الفيدراليين على هذا الطريق اللعين في هذا الموقع على هذا

الجانب من مرتفعات الهمالايا، قال أخيراً "مساء الخير، أنا فريد بوتر، من الجهاز الأمني".

أجابته كيت في جزء من الثانية قبل أن أفكر أنا في رد ساخر كعادتي، فقالت "مساء الخير، أفترض أنكم تتوقعون مجيئنا".

"حسناً، كنا نتوقع أن تكونا أسفل الوادي في هذا الوقت تكافحان مع السيارة والطريق، لكنكما نجحتما في الوصول".

مرة أخرى سارعت كيت برد وقائي آخر كي تبقي فمي مغلقاً، فقالت "لم يكن الأمر بهذا السوء، لكنني لن أرغب في ارتياد الطريق ذاته في العودة الليلة".

"بالطبع لن ترغبي في هذا، ولستِ مضطرة. لديّ تعليمات بأن أقلكما إلى المزرعة".

فقلت أنا "أتعني أن هناك المزيد من هذا الطريق؟"

"ليس كثيراً، أتفضل لو قمت أنا بالقيادة؟"

"كلا، فهذه السيارة تخص مكتب التحقيقات الفيدرالية فحسب".

"سأجلس على المقعد الأمامي إذاً".

عدنا جميعاً إلى السيارة؛ جلست كيت على المقعد الخلفي وفريد على المقعد إلى جواري.

قال فريد "اتجه يساراً".

هكذا استوعب الرجل سخافتي، واتجهت بالسيارة يساراً. وما إن فعلت ذلك حتى رأيت رجلين آخرين يحملان سلاحين ويقفان بجوار الطريق.

نعم، كانوا يغطوننا بحق.

قال فريد "احتفظ بزاوية ثلاثين. الطريق مستقيم، وسنحتاج فقط إلى بضع مئات من الياردات أعلى جادة بنسلفانيا لنصل بعدها إلى بوابة المزرعة".

"جادة بنسلفانيا؟ ها قد فقدت طريقي بحق".

لم يضحك فريد، بل قال "هذا الجزء من طريق ريفوجيو يُطلق عليه اسم جادة بنسلفانيا؛ أعيدت تسميته في العام واحد وثمانين".

"شيء لطيف، وكيف حال رون ونانسي إذاً؟"

شعرت أن فريد رجل لا يحب المزاح.

في غضون دقيقة أو اثنتين كنا قد اقتربنا من مجموعة من الأعمدة الحجرية تضم بينها بوابة حديدية لا تتسع لأكثر من شخص واحد. وعلى جانبي الأعمدة كان هناك سياج منخفض من الأسلاك، بينما وقف رجلان يرتديان زي الجهاز الأمني ذاته خلف الأعمدة، وكانا يحملان الأسلحة كذلك.

قال فريد موجهاً حديثه لي "قف هنا".

توقفت، وترك فريد السيارة وأغلق بابها، ثم توجّه صوب الأعمدة وتحدث إلى الرجلين فعمد أحدهما إلى فتح البوابة الصغيرة. أشار إليّ فريد، فقدت السيارة إلى حيث الأعمدة ثم توقفت؛ ربما فقط لأن الرجال الثلاثة كانوا يقفون في طريقي.

تقدم أحدهم نحو السيارة وجلس على المقعد بجواري، ثم قال "تقدم".

هكذا تقدمت أعلى طريق جادة بنسلفانيا ولم ينبس الرجل ببنت شفه، ولم يزعجني هذا. أعني أنني كنت أفكر أن مكتب التحقيقات الفيدرالية يمسك حقاً بزمام الأمور، إلا أن هذه المجموعة الأمنية جعلت من الفيدراليين مركزاً فكاهياً.

من ناحية أخرى، كان هذا أحد أسوأ الأعمال على وجه الأرض وأكثرها ضغطاً بالنسبة لي، وما كنت لأرغب في فعله.

كانت الأشجار تحف بالطريق على الجانبين، والضباب كأكوام الثلج، وقال الراكب بجواري "خفف سرعتك، سنتجه يساراً".

خففت سرعتي كما قال ورأيت سياجاً مزدوجاً ثم عمودين خشبيين عبرهما يحملان لافتة خشبية كُتب عليها *رانشو ديل سيلو*، فقال الرجل "استدر هنا".

فاستدرت وعبرت المدخل، ورأيت أمامي ذلك الحقل الضخم المترامي – كمرج ألبي - يغطيه الضباب، وتحيط به المنحدرات الحادة، فبدا المرج كقاع المقلاة. كان الضباب يمتد كطبقة فوق الأرض، وكان يمكنني أن أرى من فوقه. أعني، ألم تكن تلك لحظة تشبه مشاهد إكس فايلز؟

ثم رأيت أمامي بيتاً أبيض من الطين يضيء فيه مصباح واحد فحسب. كنت على يقين من أنه كان منزل ريغان، وكنت بالفعل متشوقاً لرؤية العائلة؛ فلا شك أنهم مستيقظون وفي انتظاري كي يشكروني على الجهد الذي بذلته لحمايتهم. إلا أن الراكب بجواري وجّهني للاتجاه يساراً نحو طريق متقاطع.

ثم قال "خفف سرعتك".

وبينما كنا نسير ببطء، لمحت بعض الطرقات المختصرة هنا وهناك تحدد الحقول. وبعد لحظة قال الرجل "توقف هنا".

توقفت.

فأردف "أوقف تشغيل محرك السيارة من فضلك واتبعني".

أوقفت تشغيل محرك السيارة وأطفأت الأضواء وتركنا السيارة جميعاً، ثم تبعنا الرجل – أنا وكيت – ورحنا نصعد طريقاً عبر بعض الأشجار.

كان الطقس شديد البرودة هناك، ناهيك عن الرطوبة، وكنت أشعر بألم في جروح الرصاصات الثلاث في جسدي، حتى إنني كنت عاجزاً عن التفكير على نحو قويم. كنت متعباً، ويغزوني شعور بالجوع، والعطش، والبرد، وكنت أحتاج إلى دخول الحمام. وما عدا ذلك، كنت بخير.

تذكرت أن آخر مرة لمحت فيها الساعة على لوح عدادات السيارة الأمامي كانت تشير إلى الخامسة والربع صباحاً، أي أنها كانت الثامنة والربع بتوقيت نيويورك وواشنطن حيث كان يجب أن أكون الآن.

على أي حال، كنا قد اقتربنا من ذلك المبنى الفقير من الخشب الزهيد، حيث غطته عبارة *مبنى حكومي* من كافة جهاته. في الحقيقة، لقد رأيت من مثل هذه المباني عدداً يكفي لمعرفة معنى أن المناقصة تذهب لأقل مقدمي العطاءات.

دخلنا المبنى، وكان رثاً ومتعفًّنا بحق، حيث أشار لنا الرجل إلى غرفة كبيرة للاستجمام تحتوي على أثاث قديم، وثلاجة، ومائدة مطبخ، وجهاز تلفاز، وما إلى ذلك، ثم قال "تفضلا بالجلوس". ثم اختفى عبر أحد الأبواب.

مكثت واقفاً، ورحت أتلفت حولي بحثاً عن حمام للرجال.

وقالت كيت "ها نحن قد وصلنا".

"نعم، وصلنا، ولكن أين نحن بحق السماء؟"

"أعتقد أنه مرفق قديم تابع للجهاز الأمني".

"إنهم رجال متجهمون".

"إنهم لا يتجولون كثيراً، فلا تزعجهم".

"لم أكن أفكر في فعل هذا. أتتذكرين ذاك الموقف الذي -".

"إذا ذكرت إكس فايلز ثانية، أقسم أنني سأشهر سلاحي".

"لقد أصبحتِ سيئة الطباع إلى حدٍّ ما يا كيت".

"سيئة الطباع؟! أنا أكاد أسقط من فرط حاجتي إلى النوم، ولقد مررت لتوي برحلة بالسيارة عبر الجحيم، ولكن سئمت ما تفعله من -".

هنا دخل أحد الرجال الغرفة، وكان يرتدي بنطالاً من الجينز، وقميصاً رمادياً، وسترة زرقاء، وينتعل حذاءً أسود لامعاً. كان في منتصف الخمسينيات من عمره، متورد الوجه، وأبيض الشعر. وكان مبتسماً وهو يقول "مرحباً بكما في رانشو ديل سيلو. أنا جين بارليت؛ رئيس القوة الوقائية هنا".

تصافحنا جميعاً ثم قال الرجل "حسناً إذاً، ماذا أتى بكما في ليلة كهذه؟"

بدا الرجل آدمياً أكثر من حفنة المتجهمين أولئك، فقلت له "نحن نقتفي أثر أسد خليل منذ يوم السبت، ونظنّ أنه موجود هنا الآن".

شعرت بغريزة الكلب البوليسي تنشط بداخله، فأطرق وقال "حسناً، لقد أطلعوني بشأن هذا الرجل واحتمال أنه يحمل سلاحاً، وربما أوافقك الرأي أيضا". ثم قال "يمكنكما تناول بعض القهوة إن أردتما".

أخبرناه أننا كنا بحاجة بالطبع إلى استخدام الغرفة. أما أنا فاستخدمت حمام الرجال، فأغرقت وجهي وحلقي بالماء البارد، وعدّلت ربطة عنقي.

عندما عدت إلى الغرفة الكبيرة أعددت القهوة لنفسي وانضمت إليّ كيت إلى مائدة المطبخ، ولاحظت أنها أضافت بعضاً من أحمر الشفاه وحاولت إخفاء الهالات السوداء حول عينيها.

جلسنا نحن الثلاثة حول مائدة المطبخ تلك، وحدثني جين قائلاً "حسب معلوماتي، هناك قناة تواصل بينكم وبين المدعو خليل".

"حسناً، نحن لسنا صديقين، لكنني أقمت حواراً معه".

وحتى أحتل مكانتي هنا، شرعت أعطي الرجل ملخصاً لطيفاً عن حديثي مع أسد خليل، وكان يستمع بانتباه شديد. وعندما انتهيت، سألت جين "ولكن، أين الجميع هنا؟"

لم يجبني جين على الفور، لكنه قال بعد برهة "إنهم في مواقع استراتيجية".

"بمعنى آخر، يمكن القول إنك تعاني من نقص في القوة البشرية هنا".

"إن المزرعة مؤمنة، وكذلك الطريق".

"محتمل".

فسألته كيت "هل لديك أجهزة تعقب متحركة؟ أجهزة تنصت؟"

لم يجبها عن ذلك، بل راح يتلفت في الغرفة من حوله، ثم قال لنا "لقد اعتاد الرئيس أن يأتي إلى هنا أيام الآحاد كي يشاهد كرة القدم مع الأفراد في غير نوبات عملهم".

لم أعلّق على هذا.

طفق جين يستغرق في ذكرياته لبرهة، ثم قال "ولقد أُطلق عليه الرصاص ذات مرة، وتألم كثيراً عندئذ".

"أعرف تماماً هذا الإحساس".

"هل أُصبت بالرصاص من قبل؟"

"ثلاث مرات، ولكن كلها في يوم واحد، فلم يكن الأمر بهذا السوء".

فابتسم جين.

مرة أخرى كررت كيت سؤالها في إصرار "هل لديكم أجهزة إلكترونية هنا؟"

فوقف جين وقال "اتبعاني".

فوقفنا وتبعناه إلى داخل غرفة في نهاية المبنى. كانت غرفة باتساع المبنى، وثلاثة من جدرانها بمثابة نوافذ تطل على المنحدر؛ واستطعت أن أرى منزل المزرعة من إحدى هذه النوافذ. وخلف المنزل كانت هناك بحيرة لطيفة لم أرَها حين اقتربنا، بالإضافة إلى حظيرة كبيرة ودار للضيافة.

وقال جين "كانت هذه الغرفة المركز العصبي للمكان حيث كنا نراقب منها كافة الأجهزة الأمنية، ونتعقب الرئيس عندما يذهب في جولاته، ومن هنا كنا نتصل بالعالم أجمع".

نظرت حولي في أرجاء الغرفة البائسة ولاحظت الكثير من الأسلاك المتدلية هنا وهناك، والخريطة التي لا تزال معلقة على الجدار، بالإضافة إلى قوائم من الأكواد والشيفرات، وإشارات النداء اللاسلكية، والعديد من أوراق الملاحظات الباهتة. وذكرني هذا بغرف مجالس الحروب التي رأيتها في لندن؛ أي المكان الذي أدار منه تشرشل الحرب، حيث الزمن متوقف، والمكان متعفن يُدار بجيش من الأشباح تسمع أصواتهم إذا ما أنصت بانتباه.

قال جين "لم يعد لدينا أي أجهزة أمنية إلكترونية، والحق أن هذه المزرعة بأسرها مملوكة الآن من قِبل مجموعة يُطلق عليها اسم مؤسسة أميركا الشابة، وقد اشتروا المزرعة من آل ريغان ويحيلونها الآن إلى ما يشبه المتحف ومركز للمؤتمرات".

لم أعلّق والتزمت كيت الصمت، فيما تابع جين بارليت حديثه "حتى عندما كان هذا هو *البيت الأبيض الغربي*، كانت الناحية الأمنية أشبه بكابوس. إلا أن الرجل العجوز كان يحب المكان هنا، وكلما أراد المجيء كنا نأتي معه وتبدأ المعاناة".

فقلت له "لديك إذاً نحو مئة رجل هنا".

"هذا صحيح، بالإضافة إلى الإلكترونيات والمروحيات وأحدث الأشياء. ولكن دعني أخبرك، إن مُحسات الصوت والحركة تلتقط حتى حركة الأرانب والسناجب التي تقترب من المكان". ثم ضحك وقال "نحن نعاني كل ليلة من الإنذارات الخاطئة، والتي يجب أن نستجيب لها على أي حال". ثم بدا وكأن نوبة أخرى من نوبات الحنين انتابته قبل أن يردف قائلاً "أذكر تلك الليلة. كانت ليلة ضبابية مثل ليلتنا هذه، ثم أتى الصباح وأحرقت الشمس الضباب، فرأينا خيمة صغيرة مثبتة في المرج على بعد مئة ياردة من منزل المزرعة. وعندما ذهبنا للتحقق من الأمر، وجدنا ذاك الشاب نائماً بداخلها. كان أحد المغرمين بالسفر سيراً على الأقدام. فأيقظناه وأخطرناه أن هذه ملكية خاصة، وأرشدناه إلى طريق السفر، ولم نخبره أبداً عن طبيعة هذه الملكية".

أنهى جين قصته هذه ثم ابتسم، وابتسمت أنا كذلك بالرغم من أن لهذه القصة أبعاداً هامة.

قال جين "السؤال هنا، هل لنا أن نضمن الناحية الأمنية بنسبة مئة بالمئة؟ كلا بالطبع؛ ليس في الماضي ولا اليوم. ولكننا على الأقل نستطيع أن نحدد حركة السيد والسيدة ريغان".

قالت كيت "بكلمات أخرى تعني أنهما يظلان داخل منزل المزرعة حتى تستطيعوا إخراجهما".

"هذا صحيح، فجدران *برايمستون* – منزل المزرعة – من الأحجار السميكة، وكافة الستائر مغلقة، وهناك ثلاثة من العملاء داخل المنزل، واثنان خارجه. وسنحاول غداً إيجاد طريقة لإخراجهما من المنزل. ربما يستلزم الأمر شاحنة مصفحة، بالإضافة إلى مقتفٍ ومتتبع. لاحظا أنه لا يمكننا استخدام المروحيات". قال جين وهو يشير إلى الحافات التضاريسية البارزة المحيطة بالمكان، ثم أردف "فأي قناص محترف يمكنه اصطياد المروحية بمنتهى السهولة".

فقلت لجين "يبدو أن ما تحتاجونه هنا يا رفاق هو رعاية إلهية".

ضحك جين وأجابني قائلاً "نعم، نحتاج إلى بعض الرعاية الإلهية، وعندما يأتي الصباح تصلنا الإمدادات؛ مروحيات مع فرق قنصٍ مضاد، مجهزة بمحسات حرارة الأجسام وأجهزة التعقب الأخرى. لو أن خليلاً في المنطقة بالفعل، فلدينا فرصة جيدة لإيجاده".

أجابته كيت "أتمنى هذا، فلهذا الرجل عدد كبير من الضحايا".

"لكن أرجو أن تتفهما أن مهمتنا الأساسية واهتمامنا الأول هو حماية السيد والسيدة ريغان، ونقلهما إلى موقع آمن".

فأجبته "نحن نفهم هذا، ولكن تأكد أن معظم المواقع ستكون آمنة إذا ما استطعنا اعتقال أو قتل أسد خليل".

"مسألة أولويات، على أي حال، ليس هناك ما نفعله حتى شروق الشمس وانقشاع هذا الضباب. ألا ترغبان في القليل من النوم؟"

فقلت "كلا، أرغب في بنطال جينز وقبعة من قبعات رعاة الأبقار، وجواد أمتطيه لأذهب في جولة علّني أعثر على نيران هذا السافل".

"هل أنت جاد؟"

“في الحقيقة، لست جاداً في هذا، لكنني كنت أفكر في القيام بجولة في المكان. أعني، ألن تذهب لتفقد مواقع الحراس أو شيء من هذا القبيل؟”

“يمكنني فعل هذا باللاسلكي”.

“لا شيء يغني عن الرؤية الحقيقية، فالكتائب تقدّر رؤية رئيسها”.

“بالتأكيد، لم لا؟ أتود الذهاب في جولة؟”

“من دون شك”.

وبالطبع قالت كيت “سأذهب معكما”.

ولما لم تكن لديّ رغبة في لعب دور حاميها، قلت “إن لم يمانع جين، فليس لديّ مانع”.

فقال جين “لا بأس بالتأكيد، هل ترتديان سترتين وقائيتين؟”

أجبته “إن سترتي في المغسلة، ألديك سترات إضافية؟”

“كلا، ولا يمكنك استعارة سترتي”.

“حسناً، من يحتاج إلى سترات واقية للرصاص على أي حال؟”

تركنا مبنى الجهاز الأمني وخرجنا إلى حيث كانت تقف سيارة جيب رانجلر، ولاحظت أنها تحمل لوحات مرخصة حديثاً من كاليفورنيا كُتب عليها ***مكتبة رونالد ريغان***، وصورة للرجل العجوز. فكرت أنني أحتاج إلى واحدة مثلها كتذكار.

جلس جين على المقعد خلف عجلة القيادة، وجلست كيت بجواره فيما اتخذت أنا المقعد الخلفي. شغّل جين المحرك، ثم أنار المصابيح الصفراء الخاصة بالإنارة في الضباب، وانطلقنا.

قال جين “أنا أعرف هذه المزرعة عن ظهر قلب. هناك على الأقل مئة ميل من ممرات الخيول، وقد اعتاد الرئيس على سلوكها كلها. لا يزال لدينا بعض العلامات على الحجارة لتحديد المواقع الاستراتيجية، وقد حُفِر عليها أرقام حتى لا يعبث بها أحد أو يغيرها. وكان رئيس الجهاز الأمني يذهب في جولات الخيول تلك بصحبة الرئيس، فيخطر المركز لاسلكياً بكل علامة حتى نتتبع المسار والموقع”. ثم أضاف “لم يكن رونالد يرتدي السترات الواقية، وكان هذا بمثابة كابوس بالنسبة لنا. كنت أحبس أنفاسي عصر كل يوم حتى يعود”.

بدا لي جين وكأنه يكن لريغان مشاعر حقيقية، فقلت حتى أبدو كضيف لطيف “كنت في إبريل عام واحد وثمانين رئيساً لوحدة مديرية شرطة نيويورك لحماية الرئيس؛ كان ذلك وقت خطابه الذي ألقاه في سلاح الكتيبة 69 بمانهاتن”.

"أذكر جيداً ذلك اليوم؛ فقد كنت هناك".

"تخيل هذا؟! عالم صغير!"

كنا قد اندفعنا بالسيارة إلى الأجمات وقد غطى الضباب مسارات الجياد وقد غطتها النباتات. إلا أن الرؤية لم تكن سيئة بوجود هذا الضوء الأصفر، وكنت أسمع الطيور الليلية تزقزق فوق الأشجار.

قال لي جين "هناك بندقية من طراز أم-14 في هذه العلبة، هلاّ أخرجتها؟"

"فكرة عظيمة".

فرأيت علبة البندقية وانحنيت فوق مقعد السائق حتى أستطيع فتحها وإخراج البندقية أم-14 ذات المدى.

هنا سألني جين "أتجيد استخدام البنادق ذات المجال الضوئي؟"

"على مهلك، أعرفها كما أعرف اسمي الثاني". في الحقيقة، كنت قد أخفقت في العثور على زر التشغيل، وأرشدني إليه جين.

في غضون دقيقة أو نحوها كنت أنظر خلال هذا المجال الليلي الأنيق المثبت بالبندقية، حيث كل الأشياء تحولت إلى اللون الأخضر. ولاحظت بعض الفجوات في طبقة الضباب فوق الأرض، وأدهشتني تلك الألعاب التكنولوجية الحديثة لقدرتها على إضاءة وتكبير كافة الأشياء على هذا النحو. ثم عمدت إلى تعديل البؤرة ومن ثم استطعت مسح ثلاثمئة وستين درجة وأنا منحنٍ فوق المقعد الخلفي لتلك السيارة. بدت لي كل الأشياء مخيفة، وبصفة خاصة ذلك الضباب الأخضر والتشكيلات الصخرية الخضراء كمخلوقات من المريخ. وخطر لي أنه لو استطعت أن أرى التضاريس المحيطة، فلا شك أن أسد خليل يستطيع رؤية هذه السيارة الجيب وهي تتحرك في المكان بأضوائها المنارة.

بعد فترة من التجول قلت للسيد بارليت "أنا لا أرى أيًّا من رجالك هنا يا جين".

فلم يجبني.

قالت كيت "لا شك أن المكان هنا يبدو رائعاً في ضوء الشمس".

أجابها جين "إنها منطقة رائعة، نحن نرتفع ألفين وخمسمئة قدم فوق سطح البحر، وهناك مناطق في هذه المزرعة يمكنك النظر منها إلى المحيط الهادئ من جانب، وإلى وادي سانت إينيز من الجانب الآخر".

على أي حال، تابعنا جولتنا تلك، وفي الحقيقة، لم أكن أعرف تحديداً ماذا كنت أفعل هناك. فلو أن أسد خليل هناك بالفعل، ويحمل الآن بندقية كتلك التي أحملها في يدي، فبوسعه بسهولة أن يرسل رصاصة إلى منتصف جبهتي على بُعد مائتي ياردة. ولو أن بندقيته مزودة بكاتم صوت – وهذا أمر لا مراء فيه – عندها سأسقط في هدوء خارج السيارة بينما جين وكيت يتابعان ثرثرتهما. وخطر لي أنه ما من جدوى في هذه الجولة، وأننا لم نجنِ سوى رحلة عودة طويلة إلى المزرعة.

على نحو مفاجئ وجدت الأجمات والنباتات تختفي لتظهر مساحة صخرية مفتوحة، ورأيت أننا نقترب من منحدر. كنت على وشك أن أنبه جين - الذي يحفظ المكان عن ظهر قلب - إلى ذاك المنحدر، إلا أنه توقف وقال "نحن نتجه الآن صوب الغرب، ولو أن الجو صحو لاستطعنا أن نرى المحيط من هنا".

بالفعل نظرت، بيد أن كل ما استطعت رؤيته كان الضباب، ولا شيء سوى الضباب. والحق يُقال، لم أكن أصدق أنني أتيت كل هذه المسافة من الساحل.

استدار جين يساراً وقاد السيارة بالقرب من حافة المنحدر، على الأقل الجياد أكثر ذكاءً من السير بالقرب من المنحدرات، بعكس سيارات الجيب رانجلر.

مضت الدقائق بطيئة حتى توقفت السيارة وظهر رجل من قلب الضباب يرتدي زياً أسود ويغطي وجهه بغطاء أسود، ويحمل بندقية ذات مدى.

قال جين "هذا هو هرقل واحد، أي أنه القناص المضاد رقم واحد".

تبادل جين وهرقل واحد التحيات، ثم قدم لنا الرجل وكان اسمه الحقيقي بيرت، ثم قال له "إن السيد كوري يحاول استخدام البندقية ذات المدى".

قال هرقل "جيد جداً، لقد كنت في انتظار هذا".

ففكرت أنه ربما يجدر بي توضيح الأمر، فقلت "في الواقع أنا لا أطمح إلى هذا. كنت فقط أحاول رؤية الأرض".

رماني بيرت – الذي كان يبدو مثل دارث فايدر[11] في زيه الأسود – بنظرة فاحصة وكأنه يتحقق مني، بيد أنه لم يقل شيئاً.

شعرت أنني بحلّتي وربطة عنقي لا أتماشى وطبيعة هذه المنطقة الرائعة وسط هؤلاء الرجال الحقيقيين؛ رجال يلقبون برموز تحل محل أسمائهم.

ذهبنا بعد ثوان تبادل فيها جين وبيرت حديثاً قصيراً.

فقلت معلّقًا "ولكن يبدو أن المسافات متسعة بعض الشيء بين كل نقطة أمنية وأخرى يا جين".

مرة أخرى لم يجبني جين، ثم طقطق جهازه اللاسلكي ورفعه إلى أذنه وراح يستمع إلى محدثه، إلا أنني لم أستطع سماع شيء مما يُقال. وأخيراً قال جين "حسناً، سأصطحبهما إلى هناك".

ترى، سيصطحب من إلى أين؟

توجّه إلينا جين قائلاً "هناك من يرغب في مقابلتكما".

"من؟"

"لست أدري".

"ولا حتى اسماً شفرياً؟"

"كلا، لكنني وجدت لك اسماً: المجنون!"

فضحكت كيت.

فقلت "لكنني لا أرغب في مقابلة أي شخص ليس لديه اسم شفري".

"لست أرى أن لديك خيارات في هذا الشأن يا جون؛ إنه استدعاء عالي المستوى".

"ممن؟"

"لا أعرف".

هكذا اندفعنا إلى داخل الضباب لمقابلة شخص ما في مكان مجهول.

بعد عشر دقائق أخرى بالسيارة أو نحوها عبر تلك الهضبة العالية في مهب الرياح، تغطيها الصخور والنباتات البرية، كانت الأرض مستوية ومفتوحة، وبدا أننا في أعلى نقاط المنطقة.

من خلال دوامات الضباب تلك لمحت أمامنا شيئاً أبيض اللون، فرفعت بندقيتي وصوبتها تجاه ذاك الشيء الأبيض فاكتسى بهالة خضراء عبر تلك العدسة الغريبة. رأيت أنه مبنى خراساني في حجم منزل ضخم، مستقر لدى قاعدة حاجز أرضي صخري آدمي الصنع. وخلف المبنى، في أعلى الحاجز، كان ينتصب مبنى غريب الشكل على هيئة قمع مقلوب.

عندما أصبحنا على مسافة بضع مئات من الياردات من تلك التراكيب التي بدت في هذا الضباب كالمجرات على حافة العالم، استدارت كيت نحوي وقالت "حسناً، هذه لحظة من لحظات إكس فايلز".

ضحك جين وقال "تلك محطة *فورتاك* اللاسلكية".

فقلت "حسناً، هذا يوضح الموقف".

أردف جين موضحاً "إنه برج ملاحي للطائرات، أتفهمان ما أعنيه؟"

"أي طائرات تعني؟ من أي كوكب؟"

"كافة الكواكب، فهو يرسل إشارات أومني؛ إنها إشارات لاسلكية بزاوية 360 درجة تصدر لملاحة الطائرات المدنية والعسكرية. وسيأتي يوم يحل فيه نظام التتبع الدولي محل هذا النظام، أما في الوقت الراهن فهو لا يزال قيد العمل". ثم أضاف "كما أن الغواصات الروسية النووية بالقرب من الساحل لا تزال تستخدمه، مجاناً".

تابعت السيارة تقدمها نحو محطة فورتاك، فافترضت أن ذلك المبنى هو المقصد، فقلت "يبدو هذا كمستودع للنفايات".

فأجاب جين "تلك الأشياء تعمل بشكل آلي بدون الحاجة إلى بشر يعملون عليها، وهي تخضع لمراقبة برج الملاحة الجوية في لوس أنجلوس. إلا أن هناك من يأتي إلى هنا على نحو روتيني للقيام بأعمال الصيانة. والمبنى مزود بمصدر للطاقة خاص به".

“نعم، وإلا سيستلزم الأمر مد كابل طويل جداً إلى منزل المزرعة”.

ضحك جين نصف ضحكة، ثم قال “نحن الآن فوق أرض فيدرالية”.

“أشعر بتحسن الآن، وهل سنقابل ذلك الشخص هنا؟”

“نعم”.

“ومن هو؟”

“لست أدري”. ثم تابع جولته وقال “هنا بالتحديد – حيث نسير الآن – كان مهبط المروحيات الرئاسي الثالث، وكان ممهداً ومضاءً. من الغباء أنهم أزالوه”.

أخيراً، ركن جين سيارة الجيب على مسافة عشرين ياردة من الفورتاك، ثم قال “حسناً، أراكما في وقت لاحق”.

“معذرة؟ أتريدنا أن نترك السيارة؟”

“إن لم يكن لديكما مانع”.

فقلت “ولكن ما من أحد هنا يا جين”.

“أنتما في المكان الصحيح، وهناك من ينتظركما”.

أدركت أنني لن أصل إلى أي شيء بحديثي مع هذا الرجل، فقلت لكيت “حسناً، فنلعب لعبتهما”. وقفزت خارج السيارة، وكذلك فعلت كيت، ثم توجهت إلى جين متسائلة “وهل سترحل؟”

“نعم”.

بدا أن جين قد فقد حماسته نحو الحديث، لكنني سألته على أي حال “هل لي أن أستعير البندقية؟”

“كلا”.

فقلت “حسناً، شكراً لك على هذه الجولة يا جين. وفي حال قابلتك في نيويورك، سأصطحبك إلى المنتزه المركزي ليلاً”.

“أراكما في ما بعد”.

“حسناً”.

على الفور شغّل جين محرك السيارة، وانطلق إلى داخل الضباب.

هكذا وقفت وكيت فوق الأرض المفتوحة يلفنا الضباب، وبلا شعاع ضوء واحد يمكن رؤيته في أي مكان، باستثناء ضوء واحد ينبعث من مبنى معزول يبدو وكأنه من الفضاء الخارجي. وكنت بدأت أتوقع انبعاث شعاع الموت من ذلك البرج الغريب ليحولني على الفور إلى بروتوبلازم أو شيء من هذا القبيل.

إلا أن فضولي كان يتزايد على نحو مزعج، فاتجهت صوب برج فورتاك، وكيت بجواري.

كانت عينا كيت معلقتين بالبرج فيما نتقدم صوبه، ثم قالت ”أرى بالفعل بعض الهوائيات، لكنني لا أرى أي شاحنات. ربما كان هذا فورتاك خاطئ“. فضحكت.

فكرت أن كيت تتمتع بقدر من الهدوء لا يتسق والموقف؛ أعني أن هناك قاتلاً مجنوناً طليقاً بمكان ما هنا، بينما نحن مسلحان بمسدسينا فحسب، ومن دون سترتين واقيتين، وليس لدينا وسيلة للانتقال، وعلى وشك أن نقابل شخصاً أشك حتى في أنه ينتمي إلى هذا الكوكب!

وعندما وصلنا إلى المبنى، نظرت إلى الداخل عبر نافذة صغيرة أظهرت غرفة الإلكترونيات الضخمة بأضوائها المترددة، وبعض الأجهزة التقنية الأخرى البالغة التعقيد. فطرقت فوق النافذة، وقلت ”مرحبا! لقد أتينا في سلام! خذوني إلى زعيمكم!“

”جون، توقف عن هذه الحماقة، فالأمر ليس مضحكاً على الإطلاق“.

أولم تكن تلقي النكات منذ دقيقة مضت؟!! لكنها كانت محقة؛ فالأمر ليس مضحكاً.

شرعنا نسير على طول القاعدة التي تعلوها الأوساخ والصخور بارتفاع أربعين قدماً، وعلى قمتها كان القمع الأبيض المقلوب يرتفع في الهواء لنحو ثمانين قدماً أخرى.

ثم وصلنا إلى الجانب الأبعد من التل، واستدرنا لدى زاوية ما، فأبصرت رجلاً يرتدي زياً أسود يجلس فوق صخرة ضخمة لدى قاعدة الحاجز، ولاحظت أنه ينظر من خلال ما بدا لي كمنظار للرؤية الليلية.

كانت كيت قد رأته كذلك، وعلى الفور وضعنا يدينا فوق سلاحينا.

ويبدو أن الرجل قد سمعنا أو شعر بوجودنا، فأنزل المنظار واستدار صوبنا، ورأيت ذاك الشيء الطويل الذي وضعه فوق ركبتيه، وبالطبع لم يكن قضيباً للصيد.

هكذا رحنا جميعاً نحدّق في بعضنا البعض لبضع ثوان طويلة، ثم قال الرجل ”لقد انتهت رحلتكما“.

وفي صوت كان بالكاد مسموعاً سمعت كيت تقول ”تيد!“

الفصل الخامس والخمسون

كلا، سأتحول إلى بومة تافهة مع قرن في رأسها. إنه تيد ناش بحق. ولكن، لماذا لم يدهشني هذا كثيراً؟

لم يعبأ ناش حتى بمجرد النهوض لتحيتنا، ومن ثم مشينا نحن إليه ووقفنا بالقرب من الصخرة المريخية الحمراء التي كان يجلس فوقها معلقاً قدميه فوق حافتها.

لوّح لنا ناش بنصف إشارة وكأنه يدعونا إلى الجلوس إلى مكتبه، ثم قال "كم يسرني أنكما نجحتما في الوصول إلى هنا".

أوه، اللعنة عليك يا تيد، كم أنت بارد! إلا أنني رفضت أن ألعب لعبته السخيفة، والتزمت الصمت.

قالت كيت "كان يمكنك إخبارنا أنك الشخص الذي سنقابله. لا يبدو لي سلوكك هذا لطيفاً يا تيد".

يبدو أن قول كيت هذا قد أحرجه، وبدا منزعجاً.

ثم أخبرته "كان من الممكن أن نطلق عليك الرصاص على سبيل الخطأ".

كان جلياً أن الرجل قد أعدّ سيناريو خاصاً لتلك اللحظة وتدرب عليه كثيراً، غير أن كيت لم تكن تقرأ السطور الصحيحة.

على أي حال، كان وجه تيد العجوز ملطخاً بالفحم، ويرتدي عصابة سوداء فوق رأسه، وبنطالاً أسود، وقميصاً أسود، وسترة مدرعة ثقيلة، وينتعل حذاء جري أسود، فقلت له "أليس الوقت مبكراً على ذكرى التنكر؟"

لم يجبني تيد، ولكنه حوّل البندقية التي يحملها فوق ركبتيه، وكانت من طراز أم-14، بمجال ضوئي، كتلك التي رفض جين إعارتي إياها.

فقلت له "حسناً، تحدث إليّ يا تيدي. ما الخطب؟"

لكنه لم يجبني كذلك؛ من المحتمل أنني أغضبته لأنني ناديته تيدي. ثم مدّ ذراعه خلفه والتقط قنينة معزولة حرارياً وهو يقول "أترغبان ببعض القهوة؟"

لما لم يكن لديّ صبر تجاه بروده هذا، قلت له "تيد، أنا أعرف أهمية أن تكون هادئاً ومتأنقاً بالنسبة لك، ولكنني لست سوى شرطي من نيويورك ومزاجي الآن لا يسمح بهذا الهراء. قل ما عندك، ثم اطلب لنا شاحنة لعينة لتأخذنا من هنا".

فقال تيد "حسناً، أولاً دعني أهنئكما على اكتشاف الأمر".

أجبته "تعرف إذاً الأمر برمته، أليس كذلك؟"

"نعم، وبالمناسبة، هكذا أكون قد ربحت عشرة دولارات منك".

"سأضمها إلى النفقات التي يتم استردادها".

نظر تيد إلى كيت ثم إليّ، وقال "لقد تسببتما لنا في الكثير من المتاعب".

"ومن أنتم؟"

لم يجب تيد عن سؤالي، لكنه رفع نظارة الرؤية الليلية خاصته، وراح يمسح بعينيه صف الأشجار البعيد وهو يقول "أنا على يقين من أن أسد خليل في مكان ما هناك، أتوافقني الرأي؟"

"نعم، هلاّ وقفت ولوّحت له؟"

"ولقد تحدثتَ إليه".

"نعم فعلت، وأعطيته عنوان منزلك".

ضحك تيد، وفاجأني بأن قال "أعرف أنك لن تصدق هذا يا جون، لكنني أحبك".

"وأنا أحبك كذلك يا تيد، أحبك بالفعل. لكنني لا أحب أن أعمل معك على نفس القضية".

هنا تدخلت كيت وقالت "لو افترضنا أنك كنت تعرف ما يحدث، لماذا لم تقل شيئاً؟ هناك أناس قُتلوا يا تيد".

أنزل تيد النظارة عن وجهه ونظر إلى كيت، وقال "حسناً، إليكِ قصتي. هناك رجل يُدعى بوريس، وهو عميل سابق في الاستخبارات الروسية، يعمل الآن لدى استخبارات بلد أسد. ولحسن الحظ أن هذا الرجل يحب المال، ويعمل كذلك لحسابنا". ثم صمت تيد لبرهة وكأنه يفكر للحظة في ما سيقوله، ثم تابع "في الحقيقة، إن الرجل يميل إلينا أكثر من ميله لاستخبارات بلد أسد خليل. على أي حال، اتصل بنا بوريس منذ بضع سنوات وأخبرنا عن ذاك الشاب الصغير، أسد خليل، الذي قُتلت عائلته بأسرها في قصف العام 1986".

فقاطعته "واو واو، كنت تعرف أسد خليل إذاً منذ سنوات؟"

"نعم، بل وتابعنا تقدمه عن كثب، وكان جلياً منذ البداية أنه عميل استثنائي. فهو شجاع، وذكي، ومخلص، ولديه حافز، وتعرفان بالطبع ما حافزه".

لم نعلّق.

"هل أتابع؟ ربما لا ترغبان في سماع هذه القصة".

فأكدت له "أوه، بلى، نرغب بالطبع. ولكن ماذا ستطلب في المقابل؟"

"لا شيء، فقط أن تبقيا الأمر سراً".

"لا أصدقك، جرّب شيئاً آخر".

"حسناً، إذا ما نجحنا في اعتقال أسد خليل، سيكون من مسؤولية مكتب التحقيقات الفيدرالية، ونحن لا نرغب في هذا. نحن نريد الرجل لأنفسنا، وأريد مساعدتكما بأي طريقة تريانها، بما في ذلك النسيان التام أثناء الشهادة الرسمية، ومن ثم يتم تحويل خليل إلينا".

فأجبته "ربما تندهش مما سأقوله لك، لكن الواقع هو أن تأثيري على المكتب الفيدرالي وعلى الحكومة تأثير محدود".

"بل أنت من سيندهش هنا يا كوري، فمكتب التحقيقات الفيدرالية والحكومة يتبعان القانون بدقة، ولعلك رأيت هذا بنفسك في التحقيقات مع المشتبه بهم في حادثة مركز التجارة العالمي. فهما يميلان إلى قضايا القتل، والمؤامرة، وانتهاكات الأسلحة النارية، أما الإرهاب، فلا. ليس هناك قانون لمكافحة الإرهاب في أميركا، ومن ثم فإنه في أي محاكمة تحتاج الحكومة إلى شاهد موثوق به".

"تيد، لدى الحكومة بالفعل العشرات من الشهود ضد أسد خليل، وحوالى الطن من الأدلة الجنائية".

"هذا صحيح، ولكنني أظن أنه بوسعنا الوصول إلى اتفاق لمصلحة الأمن القومي بحيث يُطلق سراح أسد خليل ويعود إلى بلاده وفقاً لترتيبات دبلوماسية. وما لا أرغبه من أي منكما هو التدخل في الأمر واعتلاء صهوة جواد المبادئ والأخلاقيات".

فقلت له مؤكداً "إن جواد أخلاقياتي في مستوى سطح الأرض، ولكن ألا ترى يا تيد أن أسد خليل قد قتل العديد من الأبرياء؟"

"ماذا بعد؟ ماذا سنفعل حيال هذا؟ نضعه في السجن مدى الحياة؟ وما الفائدة التي ستعود على الموتى من هذا؟ ألن يكون من الأفضل لو استخدمنا أسد خليل في شيء أكثر أهمية؟ شيء يحدث تأثيراً حقيقياً في الإرهاب الدولي؟"

كنت أعرف تماماً إلى أين يفضي هذا الحديث، بيد أنني لم أكن أرغب في الوصول هناك.

ولكن تيد كان مصراً على أن أتفهم وكيت الأمر، فسألنا "ألا ترغبان في معرفة السبب وراء أننا نريد إطلاق سراح أسد خليل ونتركه ليعود إلى بلاده؟"

وضعت ذقني على يدي وقلت له "دعني أفكر، ليقتل قائده لأنه... قتل أباه؟"

"أصبت، ألا تبدو تلك خطة رائعة؟"

"يا صاح، أنا مجرد شرطي فحسب، ولكن ربما فاتني شيء ما هنا، كأسد خليل مثلاً. أعتقد أنك تحتاج إلى القبض عليه أولاً كي تتمكن من تنفيذ خطتك".

"هذا صحيح، ولقد أخبرنا بوريس كيف سيخرج خليل من البلاد، ونحن على يقين من أننا سنضع أيدينا عليه أثناء ذلك. لست أعني بذلك الاستخبارات المركزية، فليس لدينا سلطة القبض على أحد. ولكنني أعني أن مكتب التحقيقات الفيدرالية أو الشرطة المحلية – بناء على معلومات من الاستخبارات المركزية – قد يقومان بالقبض عليه، ثم ندخل نحن إلى الصورة ونصل إلى اتفاق".

كانت كيت تحدّق بتيد، وكنت أعرف ماذا ستقول، وقالته بالفعل "هل جننت يا تيد؟ هل فقدت صوابك؟ هذا الرجل قتل أكثر من ثلاثمئة شخص، وإذا ما أطلقت سراحه سيقتل المزيد من الأبرياء، وليس بالضرورة هؤلاء الذين ترغب في

قتلهم”. ثم أضافت ‘‘هذا الرجل خطير بحق، إنه شر متجسد، أنا لا أتصور كيف أنك تريده حراً طليقاً! حقاً لا أستطيع تصديق ذلك”.

التزم تيد الصمت لفترة طويلة وكأنه يتصارع مع قضية أخلاقية، إلا أن مصارعة رجل من الاستخبارات المركزية مع قضية أخلاقية يشبه كثيراً مصارعة المحترفين، فمعظمها مزيف!

على أي حال، كان هناك شعاع ضوء هزيل ينسل من الأفق الشرقي، وكانت الطيور تشدو بكل ما في قلوبها الصغيرة من حماسة وكأنها مسرورة بانبلاج ذلك الليل. وودت لو انضممت إليها.

وأخيراً قال تيد ‘‘أرجو أن تصدقاني إذا ما قلت لكما إننا لم نكن نعلم بأمر الرحلة 175، ولم يكن بوريس يعلم بها، أو لعلّه لم يستطع أن يسرّب لنا المعلومات”.

فقلت مقترحاً ‘‘فلتفصله إذاً”.

‘‘بل نتوقع أن يكون قد قُتل بالفعل. كنا قد رتبنا لإخراجه من هناك، إلا أن ثمة خطباً قد حدث”.

فقلت له ‘‘ذكرني بألا أدعك أبداً تعد لي منطادي”.

تجاهل تيد تعليقي، وعاد إلى منظاره مرة أخرى، ثم قال ‘‘أتمنى ألا يقتلوه. أعني خليلاً. لو أنه استطاع الخروج من هذه المنطقة، عندها سيتوجه إلى موعده حيث يعتقد أنه سيلتقي ببعض المتواطئين كي يخرجوه من البلاد، إلا أن ذلك لن يحدث”.

وبالرغم من أنني لم أكن أتوقع من تيد إجابة عن سؤالي، إلا أنني سألته ‘‘وما هو موقع هذا الموعد؟”

‘‘لست أدري، فالمعلومات بشأن هذه القضية مجزأة ولا أحد يعرف كافة الأشياء”.

فسألته ثانية ‘‘ولو أنك لا تحاول اصطياد أسد خليل، فماذا تفعل بهذه البندقية؟”

أنزل تيد منظاره وقال ‘‘ليس بوسعك أبداً أن تعرف ما الذي ستحتاج إليه أو متى ستحتاجه”. ثم توجّه إليّ أنا وكيت وسألنا ‘‘هل ترتديان سترتين واقيتين؟”

بالرغم من أنه أمر طبيعي جداً أن يصدر هذا السؤال من زميل، إلا أنني كنت مرتاباً في تيد بعض الشيء في هذه اللحظة.

لم أجبه، والمثير في الأمر أن كيت لم تجبه كذلك. أعني أنني لم أعتقد بالفعل أن تيد العجوز قد يحاول قتلنا، ولكن من الواضح أن الرجل كان يقع تحت ضغوط من نوع ما، على الرغم من أنه كان يحاول إخفاءها. ولكن في حال فكرت في ما يحاول هو وهيئته أن يفعلاه، ستدرك أن الكثير يتوقف على ما سيحدث في الساعات القليلة المقبلة. فبالنسبة لهم كان هذا الأمر بمثابة خطة خطيرة وبعيدة المدى للقضاء على قائد أسد خليل من دون ترك الكثير من البصمات التي تشير إلى الاستخبارات المركزية. ولقد بدأت تلك الخطة تتكشف بساعات قليلة قبل أن تمس رحلة الترانس - كونتيننتل 175 أرض المطار. من ناحية أخرى، يمكن

النظر إلى هذه الخطة باعتبارها غير قانونية وفقاً للقانون الأميركي. ومن ثم كان تيد واقعاً تحت تلك الضغوط، ولكن هل يعني هذا أنه قد يصوب إلينا تلك البندقية ويخرج أحشاءنا إذا ما أضفنا إلى متاعبه؟ ما من طريقة لتعرف بها ما قد يفعله شخص ما وهو يحمل سلاحاً، خاصة عندما تكون خططه أهم من حياتك.

كان ضوء النهار يزداد إشراقاً بمرور الدقائق، إلا أن الضباب كان لا يزال جاثماً ومحيطاً بنا، ولم يكن هذا بالأمر السيئ حيث إن الضباب يضلل تلك البنادق على نحو ما.

سألت تيد "وكيف كان الأمر في فرانكفورت وباريس؟"

"كان جيداً، أنجزنا القليل من الأعمال". ثم أضاف "لو أنك ذهبت إلى فرانكفورت وفقاً للأوامر التي صدرت إليك، لما كنت في هذا الموقف الآن".

لم أكن أعرف تحديداً عن أي موقف يتحدث، لكنني أتعرف على التهديد المقنع ما إن يصلني. ومع عقلية مثل تيد، لم أشأ أن أذكر أي مواضيع قد تزيد الأمر سوءاً، لكن لم يكن هناك مناص من سؤاله "لماذا تركتم أسد خليل يقتل هؤلاء الطيارين المقاتلين والأناس الآخرين؟"

نظر إليّ تيد وأدركت أنه قد أعد إجابته عن هذا السؤال من قبل، غير أنه لم يكن سعيداً بها، فقال "كانت الخطة ببساطة هي أن يتم القبض على خليل في مطار كنيدي وإحضاره إلى فيدرال بلازا، حيث نريه أدلة داحضة من بينها شرائط مسجلة من قِبل لاجئين آخرين تؤكد...، وتذكر من قتل أباه، ثم نعيده بعدها إلى بلاده".

فقالت كيت "نحن نفهم هذا الجزء يا تيد، ولكن ما لا نفهمه هو لماذا تركتموه ينفذ بقية خطته بعد أن نجح في الفرار من المطار؟"

"لأننا لم نكن نعرف تحديداً ماهية مهمته".

فقلت "معذرة، ولكن هذا هراء. كنت تعرفون أنه سيكون هنا في مزرعة ريغان، وتعرفون ماذا لديه ليقوم به قبل أن يصل إلى هنا".

"حسناً، فلتصدقا ما شئتما. كنا جميعاً نصدق أنه هنا لقتل رونالد ريغان، ولم نكن نعرف أن لديه أسماء الطيارين الذين قاموا بمهمة القصف تلك، فهذه معلومات غاية في السرية. وعلى أي حال، نحن لم نهتم بمعرفة طبيعة مهمته حيث كان من المفترض أن نعتقله في مطار كنيدي. ولو كنا نجحنا في هذا، لما حدث أي من هذه الأحداث التي تلت".

"تيد، ألم تخبرك أمك أن من يلعب بالنار يحترق بها؟"

لم يكن تيد يرغب في أن ندفعه إلى أي ثغرات في روايته تلك، ولو أنني تركته لحاله لكان أحدث الثغرات بنفسه على أي حال.

قال تيد "حسناً، ما حدث هو أن خطتنا لم تمضِ كما هو مفترض، إلا أنها لم تخفق تماماً بعد. من الضروري أن نعتقل خليلاً وأن نخبره بما نعرفه ثم نطلق سراحه ليعود إلى بلده. وبالمناسبة، من قتل كريم خليل في بلده كان أحد أصدقاء

العائلة؛ رجل يدعى حبيب نادر؛ وهو ضابط بالجيش هناك وأحد زملاء القائد. ولقد قتل نادر صديقه كريم بناء على أمر مباشر من القائد".

بالطبع لم يكن تيد غبياً، فأردف "بالطبع هناك احتمال أن يترك أسد خليل البلاد ويعود إلى بلده قبل أن نحظى بفرصة الحديث إليه، ومن ثم كنت أتساءل إن كان بوسع أحدكما أن ينقل إليه المعلومات التي تعرفانها الآن حول خيانة القائد لعائلة خليل".

فأجبته "دعني أفكر، لقد تحدثت معه عن أحقاده ضد أميركا، وعن رغبته في قتلي، وماذا أيضاً؟"

"لقد فهمت من زملائك في منزل ويجينز أنك ذكرت شيئاً مختصراً عن هذا الأمر في نهاية حديثك الهاتفي مع خليل هناك".

"هذا صحيح، كان هذا بعد أن نعته...".

"لا عجب أنه يريد رأسك". وضحك تيد قبل أن يسألني "وهل استفضت في هذا الأمر عندما تحدثتما مرة أخرى؟"

"يبدو أنك تعرف الكثير مما يحدث داخل مكتب التحقيقات الفيدرالية".

"جميعنا نلعب في الفريق ذاته يا جون".

"لا أتمنى ذلك".

"أوه، لا تدّعي فضائل ليست فيك؛ فالقداسة لا تليق بك".

تركت ذلك التعليق يمضي في سلام، وقلت لكيت "حسناً، مستعدة؟"

ثم توجّهت إلى تيد قائلاً "علينا أن نذهب يا تيد، أراك في تحقيق مجلس الشيوخ".

"لحظة يا جون، هلاّ أجبت عن سؤالي؟ هل تحدثت مع أسد خليل بشأن خيانة القائد لأسرته؟"

"ماذا تعتقد؟"

"أخمن أنك أخبرته؛ جزئياً لأنك أبديت اهتماماً بهذه الزاوية في اجتماعاتنا في نيويورك وواشنطن، وجزئياً لأنك تتمتع بذكاء خارق وتعرف كيف تثير غضب الآخرين". قال هذا وابتسم.

ابتسمت أنا كذلك، وشعرت أن تيد رجل لا بأس به، وإن كان مخادعاً إلى حدٍّ ما، ثم قلت "نعم، لقد عمدت إلى استفزازه في هذا الشأن قدر ما استطعت. كان يجدر بك سماع حوارنا ذاك حين أخبرته أن أمه عاهرة، وأن أباه مغفل، ناهيك عن.... لقد أثرت غضبه بحق، حتى قال إنه سيقطع لساني أولاً قبل أن يشق عنقي. عجباً، لست أنا من قتل أباه، فلماذا كل هذا الغضب مني؟"

بدا لي تيد وكأنه يستمتع بحديثي الهزلي ذلك، كما أسعده كثيراً أنني قد قمت بهذه المهمة بالنيابة عنه.

ثم سألني "وهل شعرت أنه صدق ما أخبرته به؟"

"وكيف لي أن أعرف بحق الجحيم؟ يريد الرجل أن يقتلني! لكنه لم يذكر شيئاً عن قائده".

نظر تيد إليّ وقال "أعتقد أن خليلاً سيقتل قائده. وإذا ما عرف الحقيقة بشأن حبيب نادر، سيقتله كذلك، وربما يقتل آخرين غيرهما في بلده. وعندها تتحقق خطتنا التي تجدها كريهة ومقززة".

أما كيت، بما لديها من بوصلة أخلاقية أفضل مما أتمتع به، فقالت "ما من مبرر لدفع الناس إلى قتل بعضهم البعض. لا حاجة بنا إلى التصرف كوحوش لمحاربة وحوش أخرى، هذا خطأ بيّن".

أما تيد فكان حكيماً بحيث إنه لم يحاول الدخول في تبرير خطته الأثيرة لقتل القائد، وقال لكيت "صدقيني، لقد عانينا كثيراً من هذه القضية، بل ووضعنا الأمر أمام لجنة أخلاقية".

كدت أضحك لهذا، لكنني سألته بدلاً من ذلك "وهل كنتَ أحد أعضاء هذه اللجنة؟ وبالمناسبة، ما هي الأخلاقيات التي دفعتك للانضمام إلى وحدة مكافحة الإرهاب فقط لتحقيق خطتك تلك؟ وكيف انتهى بي الأمر بالعمل معك بحق الجحيم؟"

"كان هذا بناء على طلبي، فأنا بحق معجب بمواهبك ومثابرتك؛ كدت تحول دون فرار خليل من المطار. وكما قلت لك من قبل، مكانك متاح لدينا إذا ما رغبت في العمل معنا. وكذلك أنتِ يا كيت".

فأجبته "سنناقش الأمر مع مستشارينا الروحانيين. حسناً، علينا الذهاب. كانت تلك مقابلة رائعة يا تيد".

"بقي شيء أو اثنان".

"حسناً، هات ما عندك".

"أردت أن أخبرك أنني استمتعت كثيراً بتلك المزحة؛ تلك التي قلتها في الاجتماع بشأن المدعي العام. رواها لي إدوارد. هناك الكثير من الحقائق في النكات. على أي حال، سيعقد مكتب التحقيقات الفيدرالية مؤتمراً صحفياً ضخماً، مثلما يفعلون عصر اليوم في واشنطن. أما نحن فلا نحب المؤتمرات الصحفية".

"ولا أنا".

"أما الاستخبارات المركزية فستصنع من الأرنب عميلاً مزدوجاً". ثم ابتسم وقال "كان هذا مضحكاً، وبصيرة نافذة في هذه القضية".

"أسمعك، ولكن لا تنسَ ما يفعله الشرطي يا تيد؛ إنه يعرف كيف يجعل الدب يعترف بأنه أرنب، أليس كذلك؟"

"بالتأكيد، ولكن هذا لا يجعل الدب أرنباً بحق".

"المهم هنا هو أن *يقول* الدب إنه أرنب. وطالما أننا نتحدث في هذا الشأن، دعني أذكرك أن العملاء المزدوجين يعملون لصالح أنفسهم. هل هذا ما نفعله هنا؟"

"إلى حدٍّ كبير، وأنا أود أن أذكركما أن هذا اللقاء لم يحدث، اتفقنا؟" ثم نظر إلى كيت وقال "من الأهمية بمكان أن يعود أسد خليل إلى بلده".

أجابته كيت "كلا، ليس هذا بالأمر الهام، بل أن يُحاكم على جرائمه في الولايات المتحدة هو الأمر الهام".

فنظر إليّ تيد وقال "أعتقد أنك تتفهم الأمر".

"هل لي أن أتجادل مع شخص يحمل بندقية كهذه؟"

فقال تيد "أنا لا أحاول تهديد أي منكما، لا داعي للمبالغة".

"معذرة، لكنه *الإكس فايلز*، التلفاز يفسد عقلي. في البداية كنت متأثراً *بالمهمة المستحيلة*. حسناً، نراك في ما بعد".

"أنا لن أعود إلى منزل المزرعة الآن، فخليل لا يزال بالخارج وأنتما متربصان له".

"تيد، لو أن الاختيار هو بين البقاء هنا معك أو مراوغة رصاص القنّاص، فأيهما تظن أننا سنختار؟"

"لا تقل إنني لم أحذرك".

لم أجبه على هذا، واستدرت ومشينا مبتعدين.

ثم سمعنا تيد ينادي "أوه، تهنئتي لخطبتكما، لا تنسيا دعوتي إلى الزفاف".

كنت لا أزال أوليه ظهري حين لوحت له. أمر مضحك بحق؛ لا مانع لديّ بأن أدعوه إلى الزفاف. صحيح أن الرجل كالإبرة في خاصرتي، ولكنه في آخر الأمر يسعى إلى خير هذه الأمة. ربما ما يقوله ويفعله يبدو مخيفاً، لكنني أتفهمه، وهذا أيضاً مخيف.

تابعنا سيرنا أسفل ذلك المنحدر مبتعدين عن محطة فورتاك، ولم أكن متأكداً من أنني لن أتلقى رصاصة من الخلف من بندقية تيد، أو رصاصة من الأمام من سلاح أسد خليل تنطلق من بين صف الأشجار أسفل المنحدر.

بيد أننا تابعنا السير على أي حال، وكنت أشعر بتوتر كيت، فقلت لها "لا بأس، فقط صفّري وستهدئين".

"ولكنّ فمي جاف".

"مممم".

"وأشعر بغثيان".

أوه "مثل غثيان الصباح الذي تشعر به-".

"جون، كفاك مزاحاً. الأمر برمته، مقزز. أتفهم حقاً ما فعله تيد؟"

"أنهم يلعبون لعبة خطرة وقاسية يا كيت كُنْ من يصدر الأحكام فلا يحكم عليك أحد".

"ولكن هناك أبرياء فقدوا حياتهم".

"لا أريد أن أتحدث عن هذا، اتفقنا؟"

هزّت كيت رأسها.

ثم صادفنا طريقاً معداً لركوب الخيل فيه مساحة من الصخور الحمراء والأجمات الكثيفة. كنت أحلم بالمرور بدورية راكبة أو نقطة أمنية، ولكنك لا تجد أبداً رجل أمن حينما تحتاج إليه.

كانت السماء أكثر إشراقاً بكثير الآن، والنسيم العليل يهب من جهة البحر ويدفع الضباب. إلا أن هذا ليس بالأمر الجيد.

كنا نسير في الاتجاه الذي ظننا أنه يفضي إلى منزل المزرعة ومبنى الجهاز الأمني، إلا أن الممرات بدت وكأنها تلتوي وتدور كثيراً، ولم أعد أعرف يقيناً أين نحن.

قالت كيت "أعتقد أننا ضللنا الطريق. قدماي تؤلمانني وأكاد أموت تعباً وعطشاً".

"فلنجلس قليلاً".

هكذا جلسنا فوق صخرة مستوية كي نستريح قليلاً. ولاحظت أن النباتات هناك غريبة الشكل؛ ربما تبدو أشبه بنبات المريمية، أو النباتات الصحراوية، وكل تلك النباتات التي تظهر في أفلام رعاة البقر. كانت النباتات كثيفة ولكنها قصيرة؛ أعني أنها ليست طويلة بما يكفي للاختباء بينما نسير بينها. خطر لي أنه ربما كان من الأفضل لو بقينا حيث كنا، فقلت لكيت "بافتراض أن خليلاً في مكان ما هناك، ومن المحتمل أن يكون على مسافة أقل من مائتين ياردة من منزل المزرعة، ربما لا يجدر بنا إذاً أن نقترب من المنزل ولا من مبنى الجهاز الأمني".

"فكرة سديدة، فلننتظر هنا حتى يأتينا خليل ويقتلنا في هدوء دون أن يتسبب مقتلنا في إزعاج الآخرين".

"أنا فقط أحاول أن أفكر كما يفكر هو".

"حسناً، فكر في هذا؛ ربما لن يقتلنا على أي حال. ربما سيشد وثاق ساقينا ثم يسير فوقنا، وبعدها يقطع لسانك قبل أن يشق عنقك".

"أرى أنكِ قد أطلقت العنان لخيالك في هذا الأمر، أشكرك لمشاركتي في الأمر".

"أعتذر". ثم تثاءبت وقالت "على أي حال ما زال لدينا سلاحانا ولن أتركه يأخذك على قيد الحياة". ثم ضحكت ضحكة تنم عن إرهاقها النفسي والجسدي، فقلت لها "ارتاحي قليلاً".

وبعد عشر دقائق تناهى إليّ ذاك الصوت المألوف وسرعان ما تعرفت عليه.

فوقفت فوق الصخرة التي كنت أجلس عليها، ثم قفزت إلى صخرة مجاورة بارتفاع أربعة أقدام، ثم واجهت مصدر الصوت، وقلت "ها قد صل سلاح الفرسان، سلاح الفرسان الجوي. واو، انظري إلى هذا".

"ماذا هناك؟" تساءلت كيت وهي تقف، غير أنني ضغطت على كتفيها إلى الأسفل وأنا أقول "اجلسي، وسأقول لكِ ماذا يحدث".

"بوسعي أن أرى بنفسي". ثم وقفت فوق الصخرة حيث كانت تجلس، وتعلقت بذراعي كي ترفع نفسها بجواري فوق تلك الصخرة الأعلى. وشرعنا ننظر معاً صوب المروحيات. كانت هناك ست مروحيات من طراز هيويز تحلق على بعد بضع مئات من الياردات، وخمنت أنها تحلّق فوق منزل المزرعة، مما يعني أننا كنا بالقرب من هناك، وها قد عرفنا الاتجاه الذي يجب أن نسلكه.

ثم لاحظت مروحية ضخمة بمحركين، من طراز تشينوك، تحوم في الأفق، وتتدلى منها سيارة شيروكي – لينكولن ضخمة، سوداء اللون.

وهنا قالت كيت "لا بد أن تلك سيارة مدرعة".

"نعم، سيارة ستايجكوتش، ست مروحيات تحلّق بأفراد من الجهاز الأمني لتغطية برايمستون حتى يدخل رون ونانسي إلى السيارة المدرعة. بالإضافة إلى سيارات التعقب فوق الأرض، بينما دونر، وبليتزين، ورودولف في الطريق".

أطلقت كيت تنهيدة ارتياح، أو لعلها كانت زفرة غضب.

مكثنا نشاهد المشهد لبضع دقائق بينما تنتهي عملية النقل، وعلى الرغم من أنه لم يكن بوسعنا رؤية ما يحدث فوق الأرض، إلا أنه بات جلياً أن رونالد ونانسي في طريقهما الآن إلى خارج جادة بنسلفانيا في سيارة مدرعة، برفقة الشاحنات والمروحيات. وهكذا انتهت المهمة بنجاح.

ومن ثم، لو أن أسد خليل في مكان ما هنا، أي أنه يشاهد ما يحدث بالطبع، ولو أنه لم يزل واضعاً ذاك الشارب المستعار فوق فمه، فلعلّه يبرم نهايتي ذلك الشارب الآن ويقول "اللعنة، ها هي خطة أخرى قد فشلت".

إذاً، الأعمال بخواتيمها، أليس كذلك؟

ليس بالضرورة، فربما بعد إخفاقه في المهمة الكبرى، قد يعكف أسد خليل الآن على المهمة الصغرى.

لكن قبل أن أفعل أي شيء حيال هذه الفكرة؛ كأن أنزل عن الصخرة وأختفي في الأجمة وأنتظر وصول مساعدة؛ كان أسد خليل قد بدّل الأهداف بالفعل.

الفصل السادس والخمسون

ما حدث بعد ذلك كان أشبه بالحركة بإيقاع بطيء وسط دقات القلب.

كنت قد قلت لكيت أن تقفز عن الصخرة، وكذلك فعلت أنا، إلا أنها تأخرت بنحو نصف ثانية.

لم يحدث أن سمعت طقطقة بندقية مزودة بكاتم للصوت لكنني عرفت أن الرصاصة قد انطلقت من صف الأشجار القريب لأنني سمعت بالفعل صوت أزيزها فوق رأسي، متجهة صوب البقعة حيث كنت أقف فوق الصخرة منذ نصف ثانية مضت.

بدت كيت وكأنها تسقط فوق الصخرة وتطلق صيحة ألم ناعمة وكأن كاحلها قد التوى. وفي لحظة واحدة أدركت أنني أخطأت في حساب تسلسل الأحداث؛ لقد صرخت كيت أولاً ثم سقطت، ومرة أخرى – كأنه إيقاع بطيء – رأيتها تسقط إلى جانب الصخرة بجوار الطريق.

انحنيت فوقها، وأحطتها بذراعيّ واستدرنا بعيداً عن الطريق إلى أسفل منحدر ضحل ومنه إلى أجمة رقيقة، فيما ارتطمت رصاصة أخرى بصخرة إلى جوار رأسينا تماماً، حتى إنني شعرت بشظايا الصخر والفولاذ تخدش عنقي.

فاستدرنا ثانية، ولم تزل كيت بين ذراعي حتى توقفنا لدى أكثر بقعة تحفها النباتات، ثم ضممتها بقوة وأنا أقول "لا تتحركي".

كنا نرقد جنباً إلى جنب وظهري باتجاه مصدر إطلاق الرصاص، ورفعت رأسي في محاولة لرؤية ما يستطيع خليل رؤيته من صف الأشجار، وكان يبعد مسافة أقل من مئة ياردة.

كان يفصل بيننا وبين خط النيران بعض الأغصان والحجارة المنخفضة، إلا أن مدى وضوح رؤيته لنا يتوقف على موقعه وسط تلك الأشجار؛ ربما لا تزال لديه فرصة إطلاق رصاصة واضحة.

كنت أدرك أن سترتي على الرغم من لونها الداكن لا تختفي وسط ألوان الأشياء المحيطة، ولا سترة كيت الحمراء اللامعة بالطبع. ولكن مع توقف إطلاق النيران كنت متأكداً أن خليلاً قد فقد أثرنا في الوقت الحالي، أو أنه كان يتحين اللحظة المناسبة للإطلاق مرة أخرى.

استدرت ونظرت إلى عيني كيت، وكانت تضمهما في ألم وقد بدأت تذوي بين ذراعي، فقلت لها "لا تتحركي. كيت، تحدثي إليّ".

كانت تتنفس بصعوبة، ولم أكن أعرف أين أصابتها الرصاصة أو مدى خطورة الإصابة. لكن سرعان ما شعرت بدمائها الدافئة تتسرب عبر قميصي إلى جلدي البارد. اللعنة. "كيت، تحدثي إليّ، كيت".

"أوه، أنا، أنا مصابة".

"لا بأس، اهدئي. لا تتحركي، دعيني أرى".

ثم حركت ذراعي اليمنى بيننا ورحت أبحث أسفل سترتها عن مدخل الرصاصة ولم أجده بالرغم من الدماء الغزيرة التي تغطي جسدها. *أوه، يا الله.*

أزحت رأسي إلى الخلف، ونظرت إلى وجهها؛ لم تكن هناك دماء تسيل من فمها أو أنفها، وكانت تلك علامة جيدة، وعيناها كانتا لا تزالا صافيتين.

"أوه، جون، اللعنة، كم يؤلم هذا!"

أخيراً عثرت على الجرح؛ كان ثقب في أسفل قفصها الصدري إلى جهة اليسار. وعلى الفور مررت بيدي فوق ظهرها حتى عثرت على مخرج الرصاصة، وكان فوق ردفها مباشرة. وبدا أنه جرح عميق في لحمها فحسب. وبالرغم من أنه لم يكن هناك تدفق في دمها، إلا أنني كنت قلق بشأن النزيف الداخلي. فقلت لها ما يُفترض أن يقال للجرحى "كيت، أنتِ بخير. ستكونين بخير".

"أمتأكد أنت؟"

"نعم".

تنفست كيت بعمق، وراحت تحرك يدها نحو الجرح تحاول اكتشاف الجرحين. أخرجت منديلي من جيبي، وأعطيته لها وأنا أقول "ضعي هذا فوق الجرح".

ثم استلقينا بلا حركة مرة أخرى، جنباً إلى جنب، وانتظرنا.

تلك الرصاصة كانت تقصدني أنا بالطبع، لكنه القدر، وعلم حركة القذائف، ومسارات القذائف المنحنية، والتوقيت، هي ما يصنع الفارق بين جرح يمكنك التباهي به في ما بعد، وجرح يتعين على الحانوتي ملأه بالمعجون قبل دفنك.

قلت أحدث كيت مرة أخرى "أنتِ بخير، إنه مجرد خدش صغير".

اقتربت كيت بفمها من أذني حتى شعرت بأنفاسها فوق جلدي، وهمست "جون".

"نعم؟"

"أنت أحمق!"

"ها؟"

"لكنني أحبك على أي حال. والآن، هيا نبتعد عن هنا".

"كلا، ابقي في مكانك. إنه لا يرانا، ولا يستطيع إطلاق النيران على شيء لا يراه".

يبدو أنني تعجلت في قولي هذا، فسرعان ما وجدت الحجارة والأوساخ تتفجر من حولنا، والأغصان تسقط فوق رؤوسنا. كنت أعرف أن خليلاً يعرف مكاننا بشكل عام، وأنه كان يطلق بقية الرصاصات الأربع عشرة في مخزن سلاحه نحو موقعنا المحتمل. يا الله، للحظة ظننت أن سيل الرصاصات هذا لن يتوقف.

الأمر أسوأ بكثير حين يعمدون إلى استخدام كاتم الصوت، فكل ما تستطيع سماعه هو صوت الرصاصات ترتطم ولا تسمع طقطقة البندقية.

أظنها كانت رصاصته الأخيرة عندما شعرت بذاك الألم الحاد في فخذي، وعلى الفور تحركت يدي على نحو تلقائي إلى حيث أصابتني الرصاصة. كنت قد تلقيت من قبل رصاصة اخترقت حوضي، ومن ثم استطعت معرفة أن هذه الرصاصة قد أحدثت جرحاً عميقاً بحيث اخترقت عظم الحوض، "اللعنة!"

"جون، هل أنت بخير؟"

"نعم".

"يجب علينا أن نذهب من هنا".

"حسناً، سأعد حتى ثلاثة ثم سنركض منحنيين عبر هذه الأجمات، ولكن لثلاث ثوانٍ فقط يتعين علينا بعدها أن نستوي فوق الأرض ونبدأ بالتدحرج، اتفقنا؟"

"اتفقنا".

"واحد، اثنان".

"انتظر! لماذا لا نعود إلى الصخرة التي كنا نقف فوقها؟"

أدرت رأسي ونظرت إلى تلك الصخرة؛ كانت تعلو لمسافة أقل من أربعة أقدام، ولم تكن متسعة بما يكفي. أما الصخور التي تحيط بها حيث كنا نجلس فلم تكن سوى حجارة ضخمة. ولكن، إن استطعنا الوصول إلى خلف تلك الصخرة سنكون بمأمن من الرصاص المباشر بين الأشجار. فقلت لها "حسناً، لكن المكان ضيق بعض الشيء خلف تلك الصخرة".

"دعنا نذهب قبل أن يعاود إطلاق الرصاص. واحد، اثنان، ثلاثة".

وهكذا عدونا منحنيين نحو الصخرة؛ وكان ذلك نحو خليل أيضاً.

ففي نصف المسافة تقريباً سمعت ثانية أزيز الرصاصة المألوف فوق رأسي، إلا أن خليلاً كان مجبراً على التصويب فوق الصخرة التي كنا نقصدها، بينما موقعه منخفض بين الأشجار بحيث لا يستطيع ضبط الزاوية المناسبة لاصطيادنا.

اصطدمت وكيت بالصخرة، وأسرعنا بالدوران حولها، ثم جلسنا جنباً إلى جنب ملتصقين، نضم سيقاننا إلى صدرينا. وكانت كيت تدفع بالمنديل المضرج بالدماء لسد الجرح بجانبها الأيسر.

مكثنا هناك لبرهة كي نلتقط أنفاسنا ولم أعد أسمع أنين الرصاصات فوق رأسي وخشيت أن تكون لدى هذا السافل الشجاعة لترك غطاء الأشجار ذلك، ومن ثم

يكون في طريقه إلينا الآن. فسحبت سلاحي، وتنفست بعمق، ثم أدرت رأسي خلف الصخرة ورحت أفحص المساحة المفتوحة بسرعة قبل أن أعود إلى وضعي الأول تحديداً في اللحظة المناسبة كي أتفادى انفجار رأسي إثر طلقة سديدة احتكت بجانب الصخرة.

"هذا الرجل يتقن إطلاق الرصاص".

"اللعنة، ماذا تفعل يا جون؟ لا تتحرك فحسب".

"من أين تعلمتِ كل هذه الفظاظة؟"

"لم أكن بمثل هذه الفظاظة في حياتي أبداً حتى قابلتك".

"أحقاً تقولين؟"

"اصمت".

"حسناً".

هكذا مكثنا هناك ننزف دماً ولكن ليس بما يكفي لجذب أسماك القرش، أو أياً كانت الوحوش في المنطقة. أما أسد خليل فكان هادئاً على نحو مريب، فيما بدأت أنا أفقد أعصابي حيال ما ينويه. ما أعنيه هو أن هذا الأحمق قد يكون على مسافة عشرين قدماً فحسب، يتسلل بين الأجمات.

فقلت "سأطلق بضع رصاصات في الهواء لجذب الانتباه ولإبقاء خليل بعيداً".

"لا، لو أنك اجتذبت بعض رجال الجهاز الأمني إلى هنا، سيحصدهم خليل جميعاً. وأنا لا أريد أن يحدث هذا بسببي. نحن في أمان هنا، فقط اجلس ولا تتحرك".

بيد أنني لم أكن متيقناً من أننا بمأمن خلف تلك الصخرة، إلا أن بقية ما قالته كيت كان منطقياً. إذاً، عليك أن تمكث ساكناً يا جون كوري، بغض النظر عن كونك رجل حركة في المقام الأول.

بعد دقيقة قلت لكيت "ربما يمكنني جذب انتباه تيد، ومن ثم يتبارى وخليل في إطلاق الرصاص".

"اجلس واصمت يا جون، حاول أن تنصت لأي أصوات قد تصدر من بين النباتات".

"فكرة جيدة".

خلعت سترتها الحمراء التي كانت تقارب في لونها لون الدماء التي ضرجتها، ثم ربطت كميها حول خصرها كي تضغط على الجرحين. ثم دست يدها في جيبها وقالت "سأتصل بنُزل سي سكايب وأخبرهم بموقفنا هنا ومن ثم يخطرون رجال الجهاز الأمني في المكان و-".

طفقت كيت تبحث عن هاتفها الخلوي في بقية جيوبها، ثم قالت "لقد أسقطت هاتفي الخلوي".

أوووه.

شرعنا نبحث فوق الأرض من حولنا، وانسحبت كيت إلى اليسار أكثر مما يجب، وعلى الفور انفجرت الأرض على بعد بوصات قليلة من يدها. فارتدت على الفور كأنها لامست فرناً مشتعلاً، ونظرت إليّ بعينين متسعتين من فرط الفزع، وقالت "يا الله، كدت أشعر بالرصاصة تخترق مفصل إصبعي، لكن، لم تصبني بالفعل، وإنما شعرت بحرارتها أو شيء ما".

"هذا الرجل يعرف كيف يطلق الرصاص. والآن، أين الهاتف الخلوي؟"

مرة أخرى راحت تبحث في سترتها وبنطالها، ثم أعلنت أخيراً "لا بد أنه سقط من جيبي بينما كنا ندور فوق الأرض. اللعنة".

أخذنا نحدّق من بين النباتات التي تغطي المنحدر أمامنا، إلا أنه كان من المستحيل معرفة مكان الهاتف، والأكيد أن أيًّا منا لن يستطيع الذهاب للبحث عنه. ومن ثم بقينا هناك نرهف السمع لأي خطوات قد تقترب منا. كنت آمل ألا يحاول هذا السافل أن يأتي إلينا حيث كنت أعرف أنه قد يأتينا من جوار الصخرة أو من فوقها. عندئذ سنسمع وقع خطواته. ولكن إذا ما عمد إلى الالتفاف حولنا في دائرة واسعة، فلن نسمعه، ولديه بالطبع بندقيته ذات المدى. وهكذا شعرت على نحو مفاجئ أننا لسنا بمأمن على هذا الجانب من الصخرة بينما أعرف أنه بوسع خليل أن يلتف حول الأجمات التي أتينا منها لتونا.

هنا سمعت كيت تقول "أنا آسفة بشأن الهاتف".

"لا عليكِ، لم يكن هذا خطأك؛ كان عليّ أن أحمل هاتفاً خلوياً أنا أيضاً".

"ليست بفكرة سيئة، سأشتري لك واحداً".

في هذه اللحظة حلّقت فوقنا مروحية على بُعد ربع ميل فحسب، إلا أن قائدها لم يرنا، أو لم يشعر بنا – ولا بخليل – بغض النظر عن جهاز التتبع الذي يستخدمه. وكذلك لم يحاول خليل إسقاطها، على الرغم من أن تلك كانت رمية سهلة بالنسبة له، مما حدا بي إلى الاعتقاد بأن أسد خليل قد رحل، أو أن السيد خليل كان يحتفظ برصاصاته لي *أنا*. ولقد أزعجتني هذه الفكرة كثيراً.

على أي حال، كفاني من هذا الهراء. فخلعت سترتي، وقبل أن توقفني كيت، وقفت مسرعاً وألقيت بالسترة إلى جانبي كمصارع الثيران الذي يلهو بقرون الثور. ولكن بعكس مصارع الثيران، تركت سترتي مسرعاً وانحنيت خلف الصخرة، في اللحظة التي سمعت فيها الأزيز القصير الذي اخترق السترة ودفع ببعض الأغصان تجاهنا.

وقبل أن تصرخ فيّ كيت، قلت ‹‹أعتقد أنه لا يزال بين الأشجار››.

‹‹وكيف عرفت ذلك؟››

‹‹لقد أتت الرصاصة من هذا الاتجاه. أستطيع معرفة هذا من الأزيز والتأثير. كما أن هناك تأخيراً لنصف ثانية، وكأنه لا يزال على بُعد مئة ياردة››.

‹‹كلها تخميناتك، أليس كذلك؟››

‹‹نوعاً ما››.

هكذا عدنا مرة أخرى إلى لعبة الأعصاب. وفي اللحظة التي ظننت فيها أن خليلاً على وشك الفوز، بدا أن الإحباط قد بدأ ينال من السيد *القاتل المحترف*، وشرع يطلق الرصاص من جديد، وكأنه يتسلى بضرب قمة الصخرة فتتطاير شظايا الحجارة في الهواء قبل أن تسقط فوقنا.

استهلك خليل كامل مخزن رصاص البندقية، ثم عبأها من جديد وشرع يصوب على جانبي الصخرة حتى إن ضربات الرصاصات كانت على بُعد بوصات قليلة من سيقاننا المثنية. وكنت أشاهد بدهشة الحفرات التي تحدثها الطلقات في الأرض الصخرية.

قلت لكيت ‹‹هذا الرجل معتوه››.

لم تجب كيت وقد سمّرتها الشظايا، والأتربة تتطاير من حولنا.

ثم حوّل خليل مرماه بحيث اقترب أكثر إلى جانبي الصخرة، وكان جيداً بحق في التصويب؛ وكانت الرصاصات تنطلق على مسافة بوصات قليلة من أكتافنا، وكان حجم الصخرة يقل أكثر فأكثر، فقلت لكيت ‹‹أين تعلم هذا الرجل أن يطلق الرصاص بهذا الشكل؟››

فأجابتني ‹‹لو معي بندقية لكنت أريته كيف يكون التصويب››. ثم أضافت ‹‹ولو كنت ارتديت سترة واقية لما نزفت الآن››.

‹‹فلتتذكري هذا إذاً المرة القادمة››. ثم التقطت يدها وضغطت عليها وأنا أسألها ‹‹كيف حالك الآن؟››

‹‹لا بأس، أتألم بشدة››.

‹‹حافظي على ثباتك، سرعان ما سيسأم من اللعب ببندقيته››.

ثم سألتني ‹‹وأنت، كيف حالك؟››

‹‹ربحت رصاصة أخرى كي أتباهى بها أمام الفتيات››.

‹‹حقاً؟ ماذا عن واحدة إضافية؟››

فضغطت على يديها مرة أخرى وقلت على نحو أحمق "جرحه وجرحها".

"لم يكن هذا لطيفاً، ذاك الجرح ينبض ويسبّب لي الألم".

فحللت رباط سترتها ووضعت يدي حول ظهرها وتحسست مخرج الرصاصة بلطف، فأطلقت كيت صرخة ألم.

قلت "لقد بدأ الجرح يتخثر. حاولي ألا تتحركي حتى يثبت التخثر، وواصلي سد مدخل الجرح بالمنديل".

"أعرف هذا، أعرف، يا الله، كم يؤلم".

"نعم، أعلم كم يؤلم". ثم أعدت ربط كمي السترة حول خصرها.

كان خليل قد فكّر في أمر آخر وشرع يطلق النيران على الصخور الأصغر حجماً من حولنا محدثاً قذائف مرتدة، تماماً كلاعب البلياردو عندما يحاول إحداث ضربة من خلف الكرة الثامنة. كانت معظم هذه الصخور صخوراً رملية فتحطمت. إلا أنه من وقت لآخر كان خليل يصيب بقذيفته حتى إن إحداها أصابت الصخرة فوق رأسي مباشرة.

قلت لكيت "ضعي رأسك ووجهك بين ركبتيك". ثم أردفت "هذا السافل عنيد بحق، أليس كذلك؟"

دفعت كيت برأسها بين ركبتيها وقالت "إنه يكرهك بحق يا جون؛ لقد ألهمته بمستويات جديدة من الإبداع".

"هذا تأثيري على الآخرين دائماً".

فجأة شعرت بألم حاد في فخذي الأيمن، وأدركت أنه أصابني بإحدى القذائف الصخرية.

"اللعنة!"

"ما الأمر؟"

تحسست الدائرة الحارة حيث أصابتني القذيفة، ووجدت قطعاً في بنطالي وتمزّقا في لحم ساقي. وعندما تحسست الأرض بجوار فخذي، عثرت على الرصاصة المشوهة وكانت لا تزال دافئة، ورفعتها أمام عيني "7.6 مل، وغلاف من الصلب. رصاصة عسكرية؛ لعلها من بندقية قنّاص طراز أم - 14 معدّل بإضافة منظارين نهاري وليلي، بالإضافة إلى كاتم للصوت ومعتم للضوء. تماماً كتلك التي يحملها جين".

"ومن يبالي الآن يا جون بهذا الهراء؟"

"فقط أتسلى بالحديث". ثم أضفت "وتشبه أيضاً البندقية التي يحملها تيد".

مكثنا نتحدث في هذا الهراء لفترة وكأننا نطرد من أذهاننا بعض الأفكار السخيفة، ثم قلت "لا شك أن هناك فائضاً جيداً من بنادق أم - 14 العسكرية، ولم أعنِ أي إشارة بعينها حين قلت إن تيد لديه واحدة بمحض الصدفة".

أخيراً، قالت كيت "كان بوسعه أن يقتلنا لدى محطة الفورتاك".

واستكمالاً للحظة الشك، أوضحت قائلاً "ما كان ليقتلنا في المكان الذي تركنا فيه جين".

لم تجب كيت.

في الحقيقة، لم أكن أفكر أن تيد كان يحاول قتلنا؛ فما كان تيد ليفعل هذا. لقد أراد أن يأتي إلى زفافنا، أليس كذلك؟ ولكن ليس بوسعك أن تعرف الحقيقة أبداً. ووضعت الرصاصة في جيبي.

مكثنا في مكاننا لنحو خمس دقائق واكتشفت أن أياً كان من يسعى وراءنا فقد رحل، إلا أنه لم تكن لديّ النية لمحاولة التأكد.

كنت أسمع صوت المروحيات تحلّق في المجال، وتمنيت لو لمحنا أحدهم. وبالرغم من الألم الذي كنت أشعر به يشتعل في حوضي، إلا أنني بدأت أفقد الوعي. كنت منهكاً تماماً وأشعر بالجفاف، وحين تعالى صوت رنين هاتف ظننت نفسي أهذي "ما هذا بحق الجحيم؟"

حدّقت أنا وكيت أسفل المنحدر حيث تعالى رنين الهاتف. ورغم أنني لم أكن أراه من مكاني هذا، إلا أنه كان بوسعي تحديد مكانه، وكنت متأكداً أنه يبعد عنا نحو عشرين قدماً إلى الأمام مباشرة. كان هذا يعني أنه ربما أستطيع الوصول إليه مستظلاً بالصخرة عن عين خليل، ربما.

وقبل أن أقرر ما إذا كنت أرغب في هذه المخاطرة أو لا، توقف رنين الهاتف. فقلت لكيت "لو استطعنا الوصول إلى هذا الهاتف، لتمكنّا عندئذ من طلب المساعدة".

فأجابتني "لو ذهبنا لإحضار هذا الهاتف لن نحتاج إلى مساعدة لأننا سنكون قد انتهينا".

"معكِ حق".

ثم مكثنا نحدّق حيث تعالى رنين الهاتف الذي شرع يدق مرة أخرى.

راودتني حقيقة أن القناص لا يستطيع النظر من خلال عدسة التليسكوب من دون أن يرهق عينه وذراعه بحيث يتعين عليه أن يأخذ فترات استراحة قصيرة. ولعل خليلاً الآن في واحدة من تلك الفترات، أو ربما كان خليل هو المتصل، وفي هذه الحالة لن يستطيع التصويب، أليس كذلك؟

قبل أن أعطي نفسي وقتاً أطول للتفكير في الأمر، اندفعت منحنياً وقطعت العشرين قدماً في ثانيتين وأدركت مكان الهاتف على الفور، فالتقطته واستدرت مسرعاً نحو الصخرة، مستبقياً إياها بيني وبين خط النار. وقبل أن أصل إلى الصخرة قذفت بالهاتف إلى كيت، فالتقطته.

أخيراً، وصلت إلى الصخرة واتخذت وضع الجلوس وأنا أتساءل عن سر بقائي على قيد الحياة حتى الآن. وجلست ألتقط أنفاسي.

كانت كيت تضع الهاتف على أذنها وتستمع إلى محدثها، وأخيراً قالت له "فلتذهب إلى الجحيم". ثم استمعت مرة أخرى وقالت "لا تقل لامرأة أبداً كيف تتحدث، اذهب إلى الجحيم".

وشعرت أن هذا لا يمكن أن يكون جاك كوينج.

ثم ألصقت الهاتف بصدرها وقالت لي "هل هذه شجاعة أم غباء شديد؟ كيف فعلت هذا دون استشارتي؟ أتفضل الموت على الزواج مني؟ هل الأمر كذلك فعلاً؟"

"معذرة سيدتي، ولكن، من على الهاتف؟"

ناولتني كيت الهاتف وهي تقول "إنه خليل، يريد أن يودعك قبل أن يذهب".

نظرنا إلى بعضنا البعض في ارتباك أظن أن مصدره كان ارتيابنا في تيد ناش، ابن بلدنا. وشعرت أنه يجب عليّ ترك هذا العمل.

وقلت لكيت "يجب أن نغير رقم هاتفك". ثم وضعت الهاتف على أذني وقلت "كوري".

أتاني صوت أسد خليل وهو يقول "أنت رجل محظوظ بحق".

"إن الله يعتني بي".

"بلا شك، فأنا عادة لا أخطئ التصويب".

"لدينا جميعاً أيامنا السيئة يا أسد، عد إلى ديارك واعمد إلى المزيد من التدريب".

"كم تعجبني شجاعتك وخفة ظلك في مواجة الموت".

"شكراً جزيلاً. ولكن أخبرني، لماذا لا تخرج من بين تلك الأشجار مخفضاً سلاحك ورافعاً يديك؟ وسأتأكد من أن السلطات هنا ستتعامل معك بنزاهة".

فضحك وقال "ومن قال إنني بين الأشجار؟ أنا في طريقي إلى بلادي. أردت فقط أن أودعك وأن أذكرك بأنني سأعود".

"كم أتطلع إلى مباراة أخرى معك".

"اذهب إلى الجحيم".

"الرجل المتدين لا ينطق مثل هذه الأشياء البذيئة".

"اذهب إلى الجحيم مرة أخرى".

"بل لتذهب أنت إلى الجحيم يا أسد".

"سأقتلك أنت والعاهرة التي بصحبتك حتى لو أفنيت في هذا عمري".

وهكذا تأكدت من أنني أثرت غضبه بحق، وبقي أن أوجّه هذا الغضب نحو أهداف بناءة، فشرعت أذكره "لا تنسَ أن تسوي الأمر أولاً مع العم القائد.

وبالمناسبة، هناك شخص آخر يُدعى حبيب نادر؛ إنه قاتل أبيك في باريس بناء على أوامر قائدك. أتعرف هذا الرجل؟"

لم يجب خليل، في الحقيقة، لم أكن أتوقع إجابة منه، ثم صمت الهاتف تماماً وأعدته إلى كيت وأنا أقول "كم سيحبان بعضهما البعض هو وتيد".

بقينا هناك – أنا وكيت – على غير يقين من أن خليلاً سيغادر المكان؛ خاصة بعد ذلك الحديث الأخير. ربما أكون بحاجة إلى دورات دراسية تدريبية في فن الحديث.

عمدت كيت إلى الاتصال بالفندق وسرعان ما كانت كيم ري تحدثها. فأوضحت لها الموقف ووضعنا الحالي خلف الصخرة، وأجابتها كيم بأنها سترسل لنا رجال الجهاز الأمني لمساعدتنا. ثم أضافت كيت "أخبريهم أن يتحركوا بحذر، فنحن لسنا متأكدين من أن خليلاً قد انصرف بالفعل".

ثم أنهت حديث الهاتف، وسألتني "أتعتقد حقاً أنه قد ذهب؟"

"أعتقد هذا، فالأسد يعرف متى يهاجم ومتى يفر".

"هذا صحيح".

وحتى أخفف من حدة اللحظة، سألتها "ما الفارق بين إرهابي وامرأة قبل حيضها؟"

"أخبرني".

"أنه يمكن التفاوض مع الإرهابي".

"لا أجد هذا مضحكاً".

"حسناً، ما هو تعريف... المعتدل؟"

"ما هو؟"

"رجل بلا ذخيرة".

"هذا مضحك".

كانت الشمس تشيع الدفء في المكان وانقشع على إثرها الضباب. فتشابكت أيدينا ومكثنا في انتظار مروحية لتأخذنا من خلف الصخرة، أو شاحنة، أو حتى عربة دورية.

قالت كيت كأنها تحدث نفسها "إن هذه مجرد بداية لما هو آتٍ".

كانت محقة؛ فأسد خليل، أو من سيخلفه، سيعود بأحقاد جديدة، ثم سنُرسِل نحن الصواريخ إلى أحدهم للانتقام، وهلم جرًّا.

قلت لكيت "أترغبين في ترك هذا العمل؟"

"كلا، أترغب أنت؟"

"فقط لو فعلتِ أنتِ".

‘‘بل أحب هذا العمل’’.

‘‘وأنا أحب ما تحبين’’.

‘‘أنا أحب كاليفورنيا’’.

‘‘وأنا أحب نيويورك’’.

‘‘وماذا عن مينيسوتا؟’’

‘‘مدينة هذه أم ولاية؟’’

أخيراً عثرت علينا إحدى المروحيات، وبعد التأكد من أننا لسنا إرهابيين، هبطت المروحية، وسرعان ما أصبحنا على متنها.

الفصل السابع والخمسون

أقلتنا المروحية إلى مهبط المروحيات في مستشفى مقاطعة سانت باربرا، ونزلنا في غرفتين متصلتين لا تطلان على منظر جميل.

ثم أتى لزيارتنا العديد من الأصدقاء من مكتب فينتشورا الفيدرالي: سندي، وتشانك، وكيم، وتوم، وسكوت، وإدي، وروجر، وجوان. وأخبرنا الجميع كيف أننا نبدو بصحة جيدة. أما أنا فأصبحت أظن أن نصابي في الحياة هو رصاصة في العام؛ أظنني سأبدو رائعاً في الخمسين من عمري.

وكما يمكنك أن تتخيل، لم يتوقف هاتفي عن الرنين: جاك كوينج، والكابتن ستين، وشريكي السابق دوم فانيلي، وروبين، والعائلة، والأصدقاء، والزملاء القدامى والحاليون، وما إلى ذلك. وبالطبع بدا الجميع منزعجين وقلقين بشأن حالتي، بحيث يسألون عن صحتي أولاً وينتظرون بنفاد صبر حتى أطمئنهم عن ذلك حتى يبدأوا الحديث عمّا يشغلهم بحق؛ ألا وهو ما حدث هناك.

إلا أن المرضى عادة ما يفلتون بالكثير من الأعذار، حسبما أتذكر من زيارتي السابقة. ومن ثم أعددت خمس جمل أساسية للرد بها حسب المتصل. لقد أخذت جرعة كبيرة من المسكنات ولا أستطيع التركيز. حان وقت حمامي الإسفنجي. خط الهاتف هذا غير مؤمّن. ميزان الحرارة في مؤخرتي. نصحني المختصون بصحتي النفسية ألا أفكر كثيراً في الحادث.

من الواضح أنك يجب أن تستخدم العبارة المناسبة مع الأشخاص المختلفين؛ مثل أن أقول لجاك كوينج أن ميزان الحرارة في مؤخرتي، حسناً، تبدو هذه فكرة جيدة.

اتصلت بي بيث بينروز في اليوم التالي، ولم أجد أيًّا من تلك العبارات مناسب للرد عليها، وكان لا بد أن نتحدث. تمنت لي بيث أن أتعافى بسرعة، وأعرف أنها كانت صادقة في أمنيتها تلك. وتمنيت لها حظاً سعيداً، وكنت صادقاً.

كما أتى لزيارة كيت البعض من مكتب لوس أنجلوس، وقلة منهم اهتموا بالنظر إليّ، بمن فيهم دوغلاس بينديك، والذي تسببت زيارته في سد أوردتي. أنا أمزح بالطبع.

كما زارنا جين بارليت من الجهاز الأمني، حيث دعانا إلى زيارة مزرعة ريغان مرة أخرى للقيام بجولة ما إن نسترد عافيتنا، فقال "سأريكما المكان الذي أصبتما فيه فتأخذا قطعاً من الصخور، أو تلتقطا بعض الصور". فأكدت له أنني غير مهتم بتخليد هذا الحدث، فيما قبلت كيت دعوته.

على أي حال، علمت من العديد من الأشخاص من أماكن مختلفة أن أسد خليل قد اختفى، وبالطبع لم تدهشني الأنباء. فهناك احتمالان في ما يتعلق باختفاء السيد خليل: إما أنه استطاع الفرار والعودة إلى بلده، أو أن الاستخبارات المركزية نجحت في القبض عليه وحاولت استمالة الأسد بإقناعه أن قتل البعض من أبناء بلده قد يكون أحلى مذاقاً من قتل الأميركيين.

في هذا الشأن، كنت لم أعرف بعد ما إذا كان تيد ومن يعمل معهم قد تركوا أسد خليل بالفعل يمضي في مهمته لقتل الطيارين حتى يشبعوا رغبته في الانتقام، ومن ثم يصبح سعيداً وأكثر تقبلاً لفكرة قتل قائده وأصدقائه. كما كنت أتساءل بالفعل كيف حصلت استخبارات بلد خليل على أسماء هؤلاء الطيارين. أعني بدا الأمر بالفعل كنظرية إكس فايلز الخاصة بالمؤامرات؛ يصعب تصديقها، ومن ثم لم أضيع الكثير من الوقت في التفكير، ولم أحاول أن أضحي بالنوم لهذا الغرض. ولكن، ما زالت الفكرة تزعجني.

بالنسبة لتيد، تساءلت بحق لماذا لم يأتِ لزيارتنا، إلا أنني استنتجت أنه منشغل بحفنة من الأكاذيب يتغنى ويتشدق بها في أروقة لانغلي.

في اليوم الثالث لنا بالمستشفى، جاء لزيارتنا أربعة رجال من واشنطن، وأخبرونا أنهم يمثلون مكتب التحقيقات الفيدرالية هناك، على الرغم من أحدهم بدا لي أشبه برجال الاستخبارات المركزية. كنا – أنا وكيت – قد تعافينا بالقدر الذي يسمح لنا بمقابلتهم في غرفة خاصة، حيث أخذوا أقوالنا وتصريحاتنا بحكم عملهم؛ فهؤلاء القوم يحبون أخذ التصريحات، ونادراً ما يعطونها.

بالرغم من ذلك، أخبرونا أن أسد خليل لا يزال في قبضة مكتب التحقيقات الفيدرالية، وقد يكون ذلك حقيقياً من الناحية التقنية. وذكرت لهم أن السيد خليل قد أقسم على قتلي وكيت حتى لو أفنى في ذلك عمره. فنصحونا ألا نبالغ في قلقنا، وألا نتحدث إلى غرباء، وأن نكون في منزلينا قبل انقضاء النهار، وأشياء من هذا القبيل. ثم حددنا موعداً مبدئياً للاجتماع في واشنطن ما إن نتعافى تماماً. ولسعادتي لم يذكر أحد المؤتمر الصحفي.

في ما يتعلق بهذا الأمر، ذكرنا الرجال أننا قد وقّعنا على أكثر من قسم وتعهد مختلف، تحدد جميعها ما ندلي به من تصريحات عامة، ناهيك عن القسم بحفظ كافة المعلومات التي تتعلق بالأمن القومي. أي أنه من غير مسموح لنا التحدث إلى الصحافة وإلا ستكون العواقب وخيمة بحيث تبدو جروح الرصاصات تلك بثوراً بسيطة بالمقارنة.

لم يكن هذا تهديداً بالمعنى الدقيق للكلمة؛ فالحكومة لا تهدد مواطنيها، إلا أن الأمر لا يخلو تماماً من صيغة التهديد. ومن ثم عمدت إلى تذكير أصدقائنا هؤلاء أنني وكيت كنا بطلي هذه القضية، ولكن لم يبدُ لي أن أيًّا منهم يعرف شيئاً عن الأمر. عندئذ أعلنت للرجال الأربعة المحترمين أنه حان موعد حقنتي الشرجية، فانصرفوا.

على ذكر الصحافة، نشرت كافة وسائل الإعلام الإخبارية محاولة اغتيال رونالد ريغان، مع التقليل من حقيقة الموقف بالطبع، وأتي البيان الصحفي من واشنطن كالتالي "لم تتعرض حياة الرئيس السابق للخطر أبداً". من ناحية أخرى لم يرد ذكر أسد خليل – فقد بقي المتورط الوحيد في الأمر مجهولاً – ولم يحاول أحد الربط بين محاولة الاغتيال تلك وبين مقتل الطيارين. بالطبع هذا الأمر سيتغير، ولكن كما يقول آلان باركر "الثلث اليوم، والثلث غداً، والبقية عندما يبدأ المراسلون في اعتصارنا".

في اليوم الرابع لإقامتنا في مستشفى مقاطعة سانتا باربرا، أتانا السيد إدوارد هاريس – زميل تيد ناش في الاستخبارات المركزية – واستقبلناه بغرفة الزائرين الخاصة. ومرة أخرى ذكّرنا الرجل بألا نتحدث إلى الصحافة، واقترح أن ندّعي إصابتنا بالصدمة النفسية، أو أننا فقدنا الكثير من الدماء، وكل هذه الأشياء التي تجعل ذاكرتنا مشوشة ولا يجدر الاعتماد عليها.

كنت قد ناقشت الأمر مع كيت من قبل، ومن ثم أكدنا للسيد هاريس أننا لا نتذكر حتى ما تناولناه في وجبة الغداء، وقلت له "أنا حتى لا أعرف سبب وجودي في المستشفى؛ فآخر ما أتذكره هو وجودي في سيارة أجرة متوجهاً إلى مطار كنيدي لاستلام أحد اللاجئين".

إلا أن إدوارد بدا متشككاً بعض الشيء، وقال "لا داعي للمبالغة".

"لكنني أذكر أنني ربحت رهان العشرين دولاراً منك والعشرة دولارات من تيد".

رمقني الرجل بنظرة شبه ساخرة شعرت أنها لا تتسق والموقف. وأظن أنها تتعلق بذكر تيد.

يجدر بالذكر هنا أن الغالبية العظمى ممن قاموا بزيارتنا كانوا يتصرفون وكأن لديهم معلومات ليست لدينا، ويمكننا الحصول عليها إذا ما سألنا. ولذا سألت إدوارد "وأين تيد الآن؟"

مضت ثوانٍ قبل أن يجيبني إدوارد "لقد لقي تيد ناش حتفه".

ربما لم أندهش تماماً، بيد أنني صُدمت على الرغم من ذلك.

"كيف حدث هذا؟" سألته كيت وقد بلغ منها الاندهاش مبلغه.

"لقد عثروا على جثته بعد العثور عليكما بمزرعة ريغان. كان قد تلقى رصاصة في جبهته مباشرة ومات فوراً. بالطبع استخرجنا الرصاصة وثبت أنها انطلقت من البندقية نفسها التي أطلق منها أسد خليل الرصاص عليكما".

لم نجد أنا وكيت ما نقوله.

كنت أشعر بالأسى، ولكن لو كان تيد ناش في هذه الغرفة كنت سأقول له هذا بوضوح: عندما تلعب بالنار تحترق، وعندما تلعب مع الأسد يأكلك.

تقدمنا لإدوارد بتعازينا، وكنت أتساءل عن سبب اختفاء خبر مقتل تيد من الأخبار.

ومثلما فعل تيد من قبل، عرض علينا إدوارد الالتحاق بالاستخبارات المركزية. في الحقيقة، لم أتخيل أن كل هذه السعادة أمر محتمل حدوثه، ولكن عندما تتعامل مع مرواغ ذكي لا بد أن تكون أكثر ذكاءً، فأجبت إدوارد قائلاً "فلنتحدث في هذا الأمر في ما بعد. كان تيد ليحب هذا كثيراً".

مرة أخرى استشعرت السخرية من إدوارد، ولكنه قال "نحن ندفع أكثر، يمكنك اختيار أي محطة أجنبية ولك أن تضمن العمل بها لخمس سنوات متتالية؛ باريس،

لندن، روما، أياً كان اختيارك".

كان عرضه هذا بمثابة رشوة؛ أفضل كثيراً من التهديد بالطبع. الفكرة هنا هو أننا كنا نعلم الكثير، وهم يعرفون أننا نعلم الكثير.

قلت لإدوارد "لطالما رغبت في العيش في ليتوانيا. سنفكر أنا وكيت في الأمر".

لم يكن إدوارد معتاداً على المراوغة من أحد، فأصابه البرود ورحل.

ذكرتني كيت "لا يجب عليك أن تتحاذق مع هؤلاء القوم".

"لكنني لا أحصل على هذه الفرصة كثيراً".

مكثت كيت صامتة للحظة ثم قالت "مسكين تيد".

تساءلت إن كان تيد قد لقي حتفه بالفعل، بل ولم أستطع الاسترسال في حزني بأي حماس، فقلت لكيت "فلندعُه إلى الزفاف على أي حال، من يدري!"

بحلول اليوم الخامس بالمستشفى شعرت أنه لو بقيت في المكان لأكثر من هذا فلن أتعافى أبداً، لا جسدياً ولا نفسياً، فقررت الخروج. ولقد أسعد هذا القرار ممثلي التأمين الصحي الحكومي المسؤولين عني. في الحقيقة، كان بوسعي الرحيل منذ اليوم الثاني، فلم تكن جروح فخذي خطيرة، بيد أن الفيدراليين رغبوا في بقائي، وكذلك كيت حيث كانت جروحها تحتاج إلى وقت أطول كي تتماثل للشفاء.

قلت لكيت "سأكون في منتجع فينتشورا إن بيتش، أراكِ هناك".

كان أحدهم قد أرسل ملابسي للتنظيف فأعادوا لي سترتي بعد التنظيف والكي وقد أصلحوا مكان الرصاصتين. كانت آثار الدماء لا تزال باهتة فوق السترة والقميص الأزرق وربطة العنق، على الرغم من أن سروالي الداخلي القصير وجوربيّ كانت نظيفة. وأقلتني شاحنة المستشفى إلى فينتشورا.

في تسجيل دخولي للفندق كنت أشعر كأنني متشرّد، فأنا من دون أمتعة، ومن دون ملابس نظيفة، بل ومشوش بفعل المسكنات. إلا أن بطاقة الأميركان إكسبرس الائتمانية خاصتي سرعان ما وضعت الأشياء في نصابها. وهكذا حصلت على ملابس كاليفورنية، وسبحت في المحيط، وشاهدت إعادة لإكس فايلز، وكنت أتحدث إلى كيت عبر الهاتف مرتين كل يوم.

لم تمضِ بضعة أيام حتى لحقت بي كيت وقضينا فترة النقاهة معاً في فينتشورا إن، حيث اهتممت باكتساب السمرة على الشاطئ وتعلمت أكل الأفوكاتو.

على أي حال، كانت كيت ترتدي ملابس سباحة قصيرة، وسرعان ما أدركت أن الندبات لا يتغير لونها. وبينما يرى الرجال في الندبات شارات فخر واعتزاز، إلا أن الأمر يختلف عند النساء. لكنني دأبت على تقبيل الجروح كل ليلة حتى أصبحت كيت أقل خجلاً بشأنها، بل وبدأت تستعرض الجرحين أمام بعض الصبية على الشاطئ ممن كانوا يرون في الرصاصة أمراً رائعاً بحق.

ما بين هؤلاء الصبية وقصص الحروب، حاولت كيت أن تعلمني الطفو.

هكذا كنت أنا وكيت نتعرف على بعضنا البعض على نحو أفضل في تجربة شهر العسل تلك التي امتدت أسبوعين. وفي موافقة متبادلة صامتة أدركنا أننا خلقنا لبعضنا البعض. فمثلاً، أكدت لي كيت أنها تحب مشاهدة مباريات كرة القدم على شاشة التلفاز، وأنها تحب النوم والنافذة مفتوحة في الشتاء، وأنها تفضل المطاعم الإيطالية على المطاعم المبهرجة، وأنها تكره الملابس باهظة الثمن والمجوهرات، وأنها لن تغير تصفيفة شعرها قط. ولقد صدقت كل حرف من هذا بالطبع، ووعدتها أنني لن أتغير. فليس في الأمر صعوبة.

لكن كل الأوقات الجميلة لها نهاية، وبحلول منتصف مايو كنا قد عدنا إلى نيويورك وإلى أعمالنا في 26 فيدرال بلازا. وكما جرت العادة كان هناك ذلك الاحتفال البسيط الذي أقاموه لنا، والخطابات الغبية التي ألقوها، والأنخاب التي اقترحوها لإخلاصنا في عملنا ولشفائنا، وبالطبع لخطبتنا، والأمنيات بحياة طويلة وسعيدة. فالجميع يحبون قصص الحب، وكانت تلك أطول ليلة في حياتي.

ولإضفاء بعض المرح على الليلة أخذني جاك جانباً وقال "لقد استخدمت الثلاثين دولاراً خاصتك، وكذلك رهان كل من تيد وإدوارد في سداد فاتورة الأطعمة والمشروبات لهذه الحفلة. كنت أعلم أنك لن تمانع".

صحيح، ولم يكن تيد ليمانع أيضاً.

وبأخذ كافة الأشياء بعين الاعتبار، أفضل العودة إلى القسم الجنائي، بيد أن هذا لن يحدث بالطبع. ولقد أكّد لي كل من الكابتن ستين وجاك كوينج أن لي مستقبلاً لامعاً كرئيس لوحدة مكافحة الإرهاب، على الرغم من كومة الشكاوى الرسمية المكدسة ضدي من قِبل العديد من الأفراد والمنظمات.

ولدى العودة إلى العمل أعلنت كيت أنها تعيد التفكير في بضعة أشياء، ليس بشأن الزواج، ولكن بشأن خاتم الخطوبة، ثم دفعتني إلى العمل على ما يُطلق عليه اسم قائمة الدعوات. من ناحية أخرى، وجدتُ مينيسوتا على الخريطة، ولاحظت أنها ولاية كاملة، وأرسلت نسخات بالفاكس إلى أصدقائي في مديرية شرطة نيويورك كي أثبت لهم ذلك.

بعد بضعة أيام من عودتنا قمنا بتلك الرحلة الإجبارية إلى بناية جي إدغار هووفر، وقضينا ثلاثة أيام مع هؤلاء اللطفاء في إدارة مكافحة الإرهاب حيث استمعوا إلى قصتنا كاملة، ثم أعادوها علينا، ولكن بطريقة مختلفة بعض الشيء. ثم اتفقنا على الشكل النهائي للقصة، ثم وقعنا على الشهادات، والبيانات، وكافة النسخ وكل تلك الأشياء بما يرضي الجميع. في الحقيقة، لقد قاومنا قليلاً، ولكنهم قطعوا على أنفسهم وعداً قوياً قد يضع الأمور في نصابها ذات يوم.

في اليوم الرابع من رحلتنا إلى واشنطن، أخذونا إلى مقر الاستخبارات المركزية في لانغلي، بولاية فيرجينيا، حيث قابلنا إدوارد هاريس وآخرين. لم تكن تلك زيارة طويلة، وكنا في صحبة أربعة رجال من مكتب التحقيقات الفيدرالية الذين كانوا يتحدثون نيابة عنا معظم الوقت. أتمنى فقط لو أن هؤلاء القوم يتعلمون كيف يحسنون التصرف.

أما الشيء الوحيد المثير في زيارة لانغلي تلك فكان اجتماعنا برجل استثنائي بحق. كان عميلاً سابقاً لدى الاستخبارات الروسية، ويُدعى بوريس؛ وهو ذاته بوريس الذي حدّثنا عنه تيد في مقابلتنا لدى محطة فورتاك.

بدا لي أنه ليس هناك غرض من هذا الاجتماع سوى حقيقة أن بوريس أراد مقابلتنا. ولكن في الساعة التي تحدثنا فيها، ساورني شعور أن هذا الرجل قد رأى وفعل في حياته أكثر مما رأى وفعل كل من كانوا في الغرفة مجتمعين. كان بوريس رجلاً ضخم البنية، ويدخن لفافات المارلبورو على نحو متواصل، وكان لطيفاً مع خطيبتي على نحو مبالغ فيه.

كان حديثه عن عمله لدى الاستخبارات الروسية قصيراً، ثم روى لنا بضع حكايات عن عمله الثاني مع جماعة أسد خليل، وذكر أنه قد أعطى خليلاً بضع نصائح عن رحلته إلى أميركا. من ناحية أخرى، كان الفضول يحدو بوريس نحو معرفة كيف أننا توصلنا إلى أسد خليل، وما إلى ذلك.

وبالرغم من أنني لم أكن معتاداً على الإدلاء بالمعلومات لضباط استخبارات الدول الأخرى، إلا أننا مدينون لهذا الرجل بواحدة، ولو أنني أو كيت أجبناه عن أسئلته، فسيجيبنا عن أسئلتنا. في الحقيقة، إن الحديث مع هذا الرجل كان ليستغرق أياماً، ولكن كان هناك آخرون في الغرفة، وقد طفق كل منهم يشير لنا بألا نجيب عن هذا السؤال أو ذاك، أو حتى يعمد إلى تغيير الموضوع محل النقاش. ترى، ماذا حدث لحرية التعبير؟

على أي حال، تشاركنا جميعاً القليل من الشراب، وعمدنا إلى تدخين لفافات التبغ من الدرجة الثانية. ثم أعلن أحد رجال الاستخبارات المركزية أنه آن أوان الرحيل، فوقفنا جميعاً متأهبين، وقلت لبوريس "أود كثيراً لو قابلتك مرة ثانية".

هزّ الرجل كتفيه وأشار إلى أصدقائه من الاستخبارات المركزية. فتصافحنا، وقال لنا بوريس أنا وكيت "ذاك الرجل ماكينة قتل بحق، ومن لم يقتله اليوم سيقتله غداً".

فأجبته "إنه مجرد رجل، آدمي".

"أحياناً أشك في الأمر. على أي حال، أهنئكما لنجاتكما، وأنصحكما بألا تضيعا دقيقة من حياتيكما".

كنت متأكداً أن هذا لا يتعدى كونه تعبيراً روسياً، ولا صلة له بموضوع أسد خليل. أليس كذلك؟

ثم عدت وكيت إلى نيويورك ولم يحدث أن ذكر أحدنا بوريس مرة أخرى. في الحقيقة، إنني أحب أن أحتسي قنينة شراب كاملة مع هذا الرجل ذات يوم. ربما أصدر له مذكرة إحضار، أم لعلها فكرة سيئة؟!

مرّ أسبوعان لم تصلني فيهما كلمة واحدة من أسد خليل، ولم ترد أنباء سعيدة من بلد أسد خليل تفيد بموت قائده على نحو مفاجئ. من ناحيتها، لم تغير كيت رقم هاتفها أبداً فيما احتفظت أنا بنفس الرقم الداخلي خاصتي في 26 فيدرال بلازا؛ كنا ننتظر بالفعل مكالمة من السيد خليل.

الأفضل من هذا أن ستين وكوينج – كجزء من الاتفاق مع القوم في واشنطن – أصدرا لنا تعليمات بتشكيل فريق خاص يتكون مني، وكيت، وجابي، وجورج فوستر، وبضع شخصيات أخرى، تكون مهمته الوحيدة هي العثور على أسد خليل والقبض عليه. كما طلبت من مديرية شرطة نيويورك نقل شريكي القديم – دوم فانيلي – للعمل لدى وحدة مكافحة الإرهاب. وعلى الرغم من أنه يقاوم هذا النقل إلا أنني أصبحت شخصية هامة الآن وسرعان ما سأحصل على دوم بين براثني. أعني أنه المسؤول عن وجودي في وحدة مكافحة الإرهاب، والفعل يرتد على صاحبه. سيكون العمل معه كالأيام الخوالي. وأفضل ما في الأمر أنه لن يكون في هذا الفريق أعضاء من الاستخبارات المركزية، مما يحسّن من احتمالات نجاحنا كثيراً.

أظن أن هذا الفريق الخاص هو الشيء الوحيد الذي أبقاني في هذا العمل. أعني أنني كنت آخذ تهديد هذا الرجل بجدية، والأمر ببساطة هو أن تقتل أو تُقتل. ولم يكن أحد من أفراد هذا الفريق ينوي أسر أسد خليل حياً، وحتى أسد خليل نفسه لن يسمح بذلك، ومن ثم فإن الموقف مناسب للجميع.

كما اتصلت بروبين – زوجتي السابقة – وأخبرتها عن زواجي الوشيك. فتمنت لي زواجاً موفقاً، ونصحتني قائلة "أعتقد أنه يمكنك الآن تغيير الرسالة الغبية على جهاز تسجيل المكالمات في البيت".

"فكرة جيدة".

كما قالت "لو نجحت في القبض على المدعو أسد خليل ذات يوم، ضع القضية في طريقي".

في الحقيقة، كنت ألعب معها هذه اللعبة الصغيرة مع المجرمين الذين هاجموني في شارع 102 الغربي، فقلت لها "حسناً، لكنني أريد عشرة بالمئة من الأتعاب".

"لك هذا. وأنا سأصعّد القضية حتى يتم سجنه مدى الحياة".

"اتفقنا إذاً".

ما إن انتهيت من هذا الجزء حتى فكرت في الاتصال بصديقاتي السابقات لأخبرهن أنني حصلت على رفيقة بدوام كامل، وأنها ستصبح زوجتي عمّا قريب. ولما لم أرغب فعلاً في إجراء هذه المكالمات، اكتفيت بأن أرسلت لهن رسائل عبر البريد الإلكتروني، والبطاقات، ورسائل الفاكس. وتلقيت بالفعل بضعة ردود معظمها في صيغة التعازي على العروس المقبلة. ولم أشأ أن أتشارك الكثير من هذه الأشياء مع كيت.

اقترب اليوم الكبير، وكنت هادئاً. لقد سبق لي الزواج من قبل، وواجهت الموت عدة مرات بالفعل. لست أعني أن هناك أوجه شبه فعلية بين الزواج والإصابة بالرصاص، ولكن، ربما كان هناك بعض منها.

كيت كذلك كانت تتعامل مع الأمر برمته بهدوء جميل بالرغم من أنها لم تعبر أبداً ذاك الميل الأخير، ولم تسر أبداً حتى نهاية الممشى في دار العبادة. بدت بالفعل مسيطرة على الموقف، وكانت تعرف بالفعل ما يجب عمله، ومتى، ومن المفترض

أن يقوم بالعمل، وما إلى ذلك. وأعتقد أن هذه أشياء لا يتعلمها المرء، بل هي جزء من صميم مكوناته.

بطرح المزاح جانباً، كنت بحق سعيداً، ومسروراً، وغارقاً في الحب أكثر من أي وقت مضى. كانت كيت مايفيلد امرأة رائعة، وكنت موقناً أننا سنحيا حياة سعيدة لبقيّة حياتنا. وأظن أن أكثر ما أحببته فيها هو أنها قَبِلَتني كما أنا؛ بالطبع ليس هذا بالأمر الصعب مع شخصية شبه مثالية كشخصيتي. ناهيك عن أن التجربة التي تشاركناها كانت عميقة وحاسمة أكثر من أي تجربة قد يتشاركها أي شخصين، ولقد نجحنا في اجتيازها. كانت مايفيلد شجاعة، ومخلصة، وذكية، وحسنة التصرف، ولم تكن ساخرة أو زاهدة في الحياة مثلما كنت. بل كانت وطنية، وهو الأمر الذي لا أستطيع نسبه لنفسي. ربما كنت كذلك ذات يوم، ولكن أشياء كثيرة حدثت لي في حياتي وللبلد. لكنني أقوم بعملي على أي حال.

أما أكثر ما ندمت عليه وسط كل هذه الفوضى – بغض النظر عن الندم الواضح بشأن فقدان الحياة – هو أنني أعتقد أننا لم نتعلم شيئاً مما حدث. فهذا البلد – مثلي تماماً – يتمتع بحسن الحظ، ولطالما استطاعت تفادي الطلقات المميتة. لكنني تعلمت من الشوارع، ومن الحب أيضاً، أن الحظ ينفد. وإن لم يكن قد فات الأوان، فإنك تواجه الحقائق والوقائع، وتنتهي إلى خطة للبقاء ليس للحظ فيها وجود.

بالمناسبة، أمطرت السماء يوم زفافنا، واكتشفت أن هذا يعني حسن الطالع، ولقد قطع غالبية أصدقائي وأفراد عائلتي الرحلة إلى تلك البلدة الصغيرة في مينيسوتا، وقد أحسن معظمهم التصرف مقارنة بما فعلوه في حفل زفافي الأول. بالطبع لم يخلُ الأمر من بضعة حوادث صدرت عن رفاقي من مديرية شرطة نيويورك غير المتزوجين، حيث أفسدوا الأمر مع الجميلات الشقراوات بأعينهن الزرقاء – بما في ذلك ما فعله دوم فانيلي مع وصيفة الشرف، ولن أستفيض في هذا – بيد أن الأمر برمته لم يكن متوقعاً.

تضمنت مراسم زفافنا خاتمين؛ الأول لإصبع كيت، والثاني لأنفي، وأعتقد أن هذا كان كافياً للانتهاء من نكات حفل الزفاف. في الحقيقة، لقد أخبروني أنه يجدر بي الاكتفاء بهذا الحد من المزاح.

أما الحضور من الغرب المتوسط فقد أتوا في فئتين؛ بعضهم جاف والبعض الآخر مبتل. وحيث إنهم لم يحسنوا التصرف كذلك، فلم تكن هناك مشكلة حقيقية. كان والد كيت رجلاً لا بأس به، وأمها وأختها تتمتعان بالجاذبية، ولم يتوانَ أبي وأمي عن إخبارهما العديد من القصص عني التي كانا يظنان أنها مضحكة؛ أفضل من كونها شاذة وغير طبيعية. لكنني لم أشعر بمشكلة حقيقية في هذا الشأن.

على أي حال، قضيت وكيت أسبوعاً في مدينة أتلنتا، ثم أسبوعاً آخر على ساحل كاليفورنيا. كنا قد رتبنا لمقابلة جين بارليت في رانشو ديل سيلو، وكانت الجولة إلى المرتفعات ألطف بكثير من سابقتها. وكذلك كانت المزرعة؛ كانت تبدو أجمل كثيراً في ضوء الشمس، ومن دون قناصين.

عدنا بالطبع إلى تلك الصخرة، وشعرت أنها تبدو أصغر كثيراً مما أذكر. والتقط لنا جين الصور، بما في ذلك الرصاصة التي أصابت كيت وجرحتها بالتصوير

البطيء، وأصر جين على أن نجمع بعض الصخور. ثم أشار إلى صف من الأشجار وقال "لقد وجدنا اثنين وخمسين من أغلفة الرصاصات على الأرض هناك. لم أسمع من قبل أن قناصاً أطلق هذا العدد من الرصاص على شخصين، ذلك الرجل أراد حقاً ما لم يستطع الحصول عليه".

أعتقد أن جين كان يحاول قول إن اللعبة لم تنتهِ بعد.

لما كان صف الأشجار ذلك يصيبني بالتوتر، شرعنا نتحرك من المكان. وأخذنا جين إلى حيث وجدوا تيد ناش منكباً على وجهه، على بُعد أقل من مئة متر من محطة فورتاك، برصاصة واحدة اخترقت جبهته. لم تكن لديّ فكرة عن الوجهة التي يقصدها تيد، أو ماذا كان يفعل هنا في المقام الأول، ولن نعرف أبداً.

وحيث إن ذلك كان شهر العسل خاصتنا، اقترحت أننا قد رأينا ما يكفي، ومن ثم عدنا إلى منزل المزرعة، فشربنا الكوكا، وأكلنا القليل من هلام الفول السوداني، وتابعنا رحلتنا نحو الشمال.

كنا قد تركنا هاتف كيت الخلوي في نيويورك حيث لم نكن نرغب في تلقي مكالمات سواء من الأصدقاء أو من القتلة طوال فترة شهر العسل. ولكن، فقط على سبيل الاحتياط، كنا نحمل معنا سلاحينا.

فأنت لا تدري أبداً ما قد يحدث.

---

[1] صورة بالليزر لها خواص ثلاثية الأبعاد. تستخدم لمنع تزييف النقود والبطاقات. (المترجم)

[2] منظمة شبابية برعاية وزارة الزراعة الأميركية، تقدم الإرشادات في مجالي الزراعة والاقتصاد. (المترجم)

[3] فرقة دينية تأسست في الولايات المتحدة الأميركية في أواخر القرن التاسع عشر، يمارس أفرادها التبشير بالإنجيل، والوعظ باقتراب الألفية الجديدة، ومعارضة الحرب بشدة وسلطة التنظيمات الحكومية. (المترجم)

[4] Hazardous Material Truck

[5] مستحضر غذائي تكميلي يحتوي على ألياف، ويتم انتاجه منذ عام 1934. (المترجم)

[6] متعلق بأعمال جورج أورويل، بصفة خاصة رواياته الهجائية. (المترجم)

[7] "Green Green Grass of Home" أغنية لتوم جونز (1966)، حققت نجاحاً وشعبية، وغناها ألفيس بريسلي عام 1975، وجوني كاش في 1968، وكيني روجرز في 1977، وآخرون. (المترجم)

[8] Trivial Pursuit لعبة طاولة حيث يتقدم اللاعب وفقاً لقدرته على الإجابة عن أسئلة للمعرفة العامة أو الثقافة العامة. يعود اختراع اللعبة إلى سكوت آبوت، عام 1979. كان آبوت محرراً رياضياً بجريدة مونتريال جازيت. (المترجم)

[9] منطقة قاحلة جنوب كاليفورنيا، في الجنوب الشرقي من سيريا نيفادا. والمنطقة جزء من بحر داخلي قديم، بيد أن الصحراء تكونت بفعل بركان ثار، وحمل نهر كولورادو مخلفاته إلى هناك. (المترجم)

[10] مذهب ديني من مدرسة المهايان البوذية الموجودة في الصين واليابان، يؤكد على أن التأمل والرضا النفسي هما الطريق إلى المعرفة. (المترجم)

[11] الشخصية الشريرة في فيلم حرب النجوم